المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء التاسع

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الرابع والاربعون بعد المئة

الاعراب والعربية واللحن

ولا بد لنا وقد تحدثنا عن لغات العرب وعن العربيـــة الفصحى من التحدث عن (الإعراب) لما له من صلة بها . فأقول الإعراب في تعريف علماء اللغة : الإبانة والافصاح عن الشيء . يقال للعربي : أعرب لي أي بـين لي كلامك . وأعرب الكلام وأعرب به بيّنه . روي عن النبي أنه قال : « الثيب تعرب عن نفسها » ، أي تفصح . وفي رواية أخرى : الثيب يعرب عنها لسانها ، والبكر تستأمر في نفسها . وإنما سُمّي الإعراب إعراباً لتبيينه وايضاحه . ومن هنا يقـال للرجل الــذي أفصح بالكلام : أعرب . ويقال أعرب الأعجمي إعراباً ، أي أفصح وأبان . وعرّبه : علّمه العربية . « وفي حديث الحسن أنه قال له البتّي : ما تقول في رجل رُعِفَ في الصلاة ؟ فقال الحسن : إن هذا يُعرّب الناس ، وهو يقول رُعِفَ ، أي يعلمهم العربية ، إنما هو رَعَفَ » . وتعرب واستعرب أفصح ، قال الشاعر :

ماذا لقينا من المُستعربين ومن قياسِ نحوِهِمُ هذا الذي ابتدعوا [1]

وعرف الإعراب ، بأنه أن لا تلحن في الكلام . يقال أعرب كلامه اذا لم

---

[1] اللسان (١/٥٨٨ وما بعدها) ، (عرب) ، تاج العروس (١/٣٧٠ وما بعدها) ، (عرب) .

يلحن في الإعراب[1] . فربطوا هنا بين الإعراب واللحن . وذكـــروا أيضاً « أن الإعراب الذي هو النحو ، انما هو الإبانة عن المعاني والألفـــاظ »[2] ، « وانما سمي الإعراب إعراباً ، لتبيينـه وإيضاحه »[3] ، « وعرب منطقـــه أي هذبه من اللحـــن »[4] . وروي عن (أبـي هريرة) قولـــه : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » ، والمراد بالغريب أن تكون اللفظة حسنة مستغربة في التأويل،لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس . وقد عدّوا من ذلك في القرآن كله سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً[5] .

ورد في تاريـــخ (الطبري) ان رجلاً من العباديين مرّ بجمع من المسلمين أصابوا جراباً من (كافور) فحسبوه ملحاً ، فأخذوا يلقون منه في طعامهـــم ، فقال لهم : « يا معشر المعربين ، لا تفسدوا طعامكم ، فإن ملـــح هذه الأرض لا خير فيه »[6] ، فاستعمل المعربين في معنى العرب ، ولعـــل العباديين ، وهم نصارى الحيرة كانوا يطلقون على العرب الخلص معربين ، لوضوح لسانهم بالنسبة لغيرهم ممّن كان لا يعرب على طريقة العرب الخلص من أهل البوادي .

وقد ذهب (ابن فارس) الى وجود (الإعراب) عند العرب العاربـــة ، إذ يقول : « وزعم قومٌ أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا نصباً ولا همزاً »[7] . وقد رد على من أنكر وجود الإعراب عند العرب قبل الاسلام[8] ، وأورد حديثاً في ذلك ، إذ قال : « وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : اعربوا القرآن »[9] . وقد ورد ان (عمر بن الخطاب) ، وجه كتابـــاً الى (أبـي موسى) الأشعري ، عامله على البصرة فيه : « أما بعد ، فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربيـــة ،

---

١ تاج العروس (٣٧٢/١) ، (عرب) .
٢ تاج العروس (٣٧١/١) ، (عرب) ، اللسان (٥٨٩/١) ، (صادر) ، (عرب) .
٣ اللسان (٥٨٨/١) ، (عرب) .
٤ المصدر نفسه (٥٨٩/١) ، (عرب) .
٥ الرافعي (٥٧/٢) .
٦ الطبري (٤٩٧/٣) .
٧ الصاحبي (٣٥) .
٨ الصاحبي (٣٧ وما بعدها) .
٩ الصاحبي (٦٦) ، (اعربوا القرآن ، فاني عربي) ، الزينة (١١٧ وما بعدها) .

وأعربوا القرآن ، فإنه عربي ، وتمعددوا فإنكم معديون »[1] ، ووجه اليه كتاباً آخر فيه « أما بعد ، فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة ، وتفقهوا في العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2]. غير ان من العلماء من فسّر الإعراب في القرآن بأن المراد به معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن[3] .

وعرف الإعراب ، بأنه : « الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد. وذكر بعض أصحابنا أن الاعراب يختص بالإخبار . وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً ، لأنّا نقول : أزيدٌ عندك ؟ وأزيداً ضربت ؟ فقد عمل الإعرابُ وليس هو من باب الخبر »[4] ، فبالإعراب تميز المعاني ويوَقف على أغراض المتكلمين[5] . وأنواع الإعراب رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم ، فالإعراب عبارة عن الحركات[6] . وقد جعل الإعراب من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب[7] . والإعراب في الواقع ، هو التعرب ، أي التكلم بالعربية وفق طريقة العرب الخلص في مراعاة أواخر الكلم ، ومراعاة التصرف الإعرابي .

والإعراب في نظري ، أن يتكلم الانسان بطريقة العرب في كلامهم ، وذلك بأن يبين وفقاً لقواعد لسانهم ، وقد عرفنا ورود لفظة (عرب) و (عربية) في النصوص الآشورية واليونانية والسريانية ، فالإعراب إذن من هذا الأصل ، أي من العربية ، ثم اطلق على النطق وفقاً لأساليب العرب في كلامهم ووفقاً لقواعد لسانهم .

---

١ كنز العمال (٢٢٨/٥) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمر (١٣٥) ، (القسم العربي) .
٢ حضرت عمر (١٣٩ وما بعدها) ، (القسم العربي) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٣/٢) .
٤ ابن فارس ، الصاحبي (٦٦ ، ٧٧) .
٥ الصاحبي (١٩٠ وما بعدها)
٦ السيوطي ، الاشباه والنظائر (٧٢/١ وما بعدها) .
٧ المزهر (٣٢٧/١) .

وللوقوف على معنى : (العربية) ، يجب الرجوع الى ما ورد عنها في الأخبار. فقد ورد أن الرسول « دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجل ، فقال: ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله ، رجل علاّمة ، قال : وما العلاّمة ؟ قالوا : أعلم الناس بأنساب العرب ، وأعلم الناس بعربية ، وأعلم الناس بشعر ، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر »[1] . وهو خبر يرجع سنده الى (أبي هريرة) .

ووردت اللفظة في روايات أخرى يرجع الرواة زمانها الى أيام الخليفة (عمر بن الخطاب) . فقد روي عن (عثمان المهري) ، انه قال : « أتانا كتاب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء ، ويذكر فيها : تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة »[2] . « وقد روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : إن الله بريء من المشركين ورسولِه ، بجر رسوله ، فتوهم عطفه على المشركين . فقال : أوَ بريء الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية »[3] . وروي أن الخليفة المذكور ، كتب الى (أبي موسى الأشعري) ، يوصيه ، فكان مما قاله له : « خذ الناس بالعربية ، فإنه يزيد في العقل ويثبت المروءة »[4] . ونسبت الى (عمر) رسائل أخرى ، ذكر انه وجهها الى عامله المذكور فيها : « أما بعد : فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ، واعربوا القرآن فإنه عربي وتمعددوا فإنكم معديون »[5] ، و « أما بعد : فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[6] ، أو انه قال : « تفقهوا في الدين ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وتعلموا العربية »[7] . وفسّر (الحسن) العربية ، بأنها التنقيط ، أي

---

١ ابن قيم الجوزية ، اعلام الموقعين (١/٨٧) .
٢ صبح الأعشى (١/١٦٨) .
٣ صبح الأعشى (١/١٦٩) .
٤ اللسان (١/١٥٥) ، (مرأ) ، تاج العروس (١/١١٧) ، (مرأ) ، خورشيد أحمد فارق (١٤١) ، (النص العربي) .
٥ كنز العمال (٥/٢٢٨) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) ، (النص العربي) .
٦ القفطي ، انباه (١/١٦) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .
٧ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .

ان ينقط المصحف بالنحو[1] . وذكر ان النبي قال : « عليكم بتعلم العربية ، فإنها تدل على المروءة وتزيد في المودة[2] . وروي أن عمر كتب : « أما بعد : فإني آمركم بما أمركم به القرآن ، وأنهاكم عما نهاكم عنه محمد ، وآمركم باتباع الفقـه والسنة والتفهم في العربية »[3] ، و « مُر من قبلك بتعلم العربية ، فإنها تدل على صواب الكلام ، ومرهم برواية الشعر ، فإنه يدل على معالم الأخلاق »[4] .

وورد أن (عبدالله بن مسعود) كان يتعاطى العربية والشعر ، وقد كان يسأل في ذلك (زر بن حُبيش) ، وكان من أعرب الناس[5] . « قال عاصم : كان من أعرب الناس . وكان ابن مسعود يسأله عن العربيـــة »[6] . وورد : « كان بعض اليهود قد علم كتاب بالعربية،وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول»[7].

وورد أن أهل الحيرة كانوا يتعلمون (العربية) في الكتاتيب ، وان لهم ديواناً يكتب بالعربية ، كما كان للفرس ديوان يدون الرسائل الى العرب بالعربية ، وأن أهل الأنبار كانوا يكتبون بالعربية ويتعلمونها .

وبعد ، فما هي تلك العربية التي كان (العلامة ؟) المزعوم يعلمها في المسجد وكان من أعلم الناس بها ؟ وما هي تلك العربية التي كان الخليفة يوصي حكّامه وأصحابه بأخذ الناس بها ؟ أو العربية التي علمها اليهود بيثرب ؟ عربيـــة بمعنى الإبانة والافصاح وتحريك الفم تحريكاً كفيلاً بإخراج الحروف من مخارجها إخراجاً واضحاً ؟ أم عربيـــة أخرى ؟ أم عربية الكتابة . أي تقليم الخط ، أم بالمعنى الذي دفع (أبا الأسود) على وضع العلامات لضبط الحركات ولصيانة الألسنـة من الوقوع في اللحن . ولو سألتني رأيـي ، لقلت لك حالاً : انها العربية الثانية. العربية الكفيلة بضبط الألسنة وتعليمها كيفية النطق الصحيح وفقاً لقواعد العربية ، أي الإعراب وتفسير معاني الألفاظ ، أي اللغة ، وأوضح دليل على ما أقوله ، ما جاء في الرواية المتقدمة من أن (عمر بن الخطاب) لـما سمع خطأ الأعرابي

---

١ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .
٢ الفائق (٣/١٥٣) .
٣ خورشيد أحمد فارق (١٤٠) ، (النص العربي) .
٤ كنز العمال (٥/٢٤١) ، خورشيد أحمد فارق (١٤٠) .
٥ ابن سعد (٦/٧١) .
٦ الاصابة (١/٥٦٠) ، (رقم ٢٩٧١) .
٧ فتوح البلدان ، للبلاذري (٤٥٩) ، المعارف لابن قتيبة (١٩٢) .

الفاحش في قراءة الآية أمر « أن لا يقرأ القرآن إلاّ من يحسن العربية » ، ومن وصيته بأخذ الناس بالعربية،ومن قوله أيضاً : « تعلموا الفرائض والسنن واللّحن كما تعلمون القرآن » ، و « تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلموا لغة العرب في القرآن » ، أو : « تعلموا اللحن والفرائض فإنه من دينكم »[1] . فلم يكن خطأ (الاعرابي) هو خطأ في كيفية اخراج الحروف من مخارجها ، ولا في كيفية الافصاح وإبانة الكلم ، وإنما في جره رسوله ، وتوهمه عطفها على المشركين ، مما أخرج الآية الى عكس ما أراده الله منها . أي غلطه في اللغة ، ولهذا فزع الخليفة فحث الناس على تعلم العربية ، لتكون دليلاً لمن يتعلمها وهادياً له في صون لسانه من الوقوع في الخطأ ، وفي هذا الحث دلالة على وجود علم سابق عند العرب بكيفية حفظ الألسنة من الوقوع في الخطأ ومجانبة القواعد العامة. ويعود هذا العلم الى ما قبل الإسلام .

أضف الى ذلك ما ذكرته سابقاً من قول عمر : « أما بعد : فتفقهوا في الدين ، وتعلّموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2] . فإذا صح هذا الخبر دل على وجود الإعراب في زمن عمر ، وعلى ان المراد من الإعراب الذي كلّف (أبا الأسود) أن يعلّم أهل البصرة به ، هو النحو ، أي قواعد صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ في الكلام .

ولو تساهلنا فأخذنا (العربية) الواردة في قول (عمر) وغيره بالمعنى اللغوي الظاهر من اللفظة ، وهو الإفصاح والإبانة وإخراج الكلم حسب أصول النطق عند العرب ، فإن هذا المحمل يحملنا على الذهاب الى وجود علم سابق ، كان الناس يراعونه ويسيرون بمقتضى اعتباراته وقواعده في كيفية النطق بالكلم ، ويسمونه : العربية .

ويتبين مما ذكره أهل الأخبار من أن (أبا الأسود) « كان أول من وضع العربية »[3] ، أن مرادهم من العربية المذكورة هذه العلامات التي تدل على الرفع

---

١ اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، صبح الاعشى (١/١٤٨) .
٢ القفطي ، انباه (١/١٦) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .
٣ المعارف (٤٣٤) ، الصاحبي (٣٧) .

والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون، تلك العلامات التي استعملها في المصحف ، وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعدُ وسمّوا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود[1] . وبهذا المعنى نستطيع فهم ما ورد في الحديث والأخبار من وجوب الإعراب في القرآن . أي إظهار حركات الكلم عند القراءة . فالعربية ، تعني النحو. « ولما وضع أبو الأسود النحوَ وأطلق عليه لفظ العربية ... »[2] ، كان يقصد منه صيانة اللسان من الخطأ ، والنطق بصحة . فقد ورد ان الرسول قال : اعربوا القرآن ، أو اعربوا القرآن فإنه عربي ، وأن (عمر بن الخطاب) « قال : تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه[3] » ، وروي انه قال : « تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض »[4] .

وبهذا المعنى وردت (العربية) في حديثهم عن الشاعر (عدي بن زيد) العبادي ، فقد ذكروا انه تعلم (العربية) في كتاب بالحيرة حتى غدا من أكتب الناس بها ، فلما حذق ومهر فنه بالعربية ، أرسل الى كتّاب الفارسية ، فتعلم مع أولاد المرازبة[5] . وذكروا انه « قرأ كتب العرب والفرس »[6] ، إذ لا يعقل أن يكون مرادهم تعلم حروف الهجاء وحدها ، أو الخط ، أو مجرد معاني الألفاظ .

وقد تحدثت عن التنقيط عند أهل الكتاب في أثناء حديثي عن نشأة الخط العربي . ويظهر أن كتاب المصاحف ، لم يكونوا على اتفاق في موضوع العواشر ، أي تعشير القرآن ، والتنقيط والخواتم ، والفواتح ، والألفاظ المفسرة في المصحف ، بدليل ما ورد عنهم من اختلاف رأي في هذا الموضوع ، فمنهم من كان يأمر بتجريد القرآن من كل ذلك ومنهم من جوّز ، ومنهم من كره نقط القرآن بالنحو[7] .

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٢٦) .
٣ الزينة (١١٧ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢١٩) .
٥ الاغاني (٢/٩٦ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية (١/٤٤١) .
٦ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .
٧ السجستاني ، المصاحف (١٣٨ وما بعدها) .

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى جملة « يريد أن يعربه فيعجمه » الواردة في شعر ينسب لرؤبة ويقال للحطيئة ، هو :

الشعر صعب وطويـل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه

وقوله :

والشعر لا يسطيعه مـن يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

فذهب بعضهم الى أن مراد الشاعر أنه يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبيّنه فيجعله مشكلاً لا بيان له ، وقيل أزال عجمته بالنقط [1] .

والذي أراه أن قول العلماء : « العجم النقط بالسواد مثل التاء عليها نقطتان، يقال : أعجمت الحرف والتعجيم مثله » ، وقولهم : « معجم الخط هو الذي أعجمه كاتبه بالنقط ، تقول : أعجمت الكتاب أعجمه إعجاماً »[2] ، هو تعريف يجب أن يكون قد وضع بعد وضع الإعجام ، أي التنقيط ، فإذا كان الإعجام من وضع (أبي الأسود) الدؤلي ، فيجب أن يكون ظهوره منذ أيامه فما بعد، أما إذا كان قبله فيجب أن يكون من مصطلحات الجاهليين .

ويذكر علماء اللغة أن « أعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه » فأزال الكاتب عجمة الكتاب بالنقط[3] . ومعنى هذا أن النقط قد أزال الغشاوة عن الحروف المعجمة ، أي المتشابهة في الشكل ، بوضع النقط فوقها ، فصارت حروفاً معربة واضحة . ولولا الإعجام لما استبان الكلام ، ولوقع سوء الفهم واللبس في كثير من الألفاظ التي ترد فيها الحروف المعجمة ، ففي الإعجام لبس ووقوع في خطأ، وفي اللحن مثل ذلك أيضاً ، ولهذا أرى وجود صلة كبيرة بين اللحن ، الذي هو الخطأ في الكلام ، بسبب الجهل بالاعراب . وقد رأيت قول العلماء : «أعجم الكتاب خلاف أعربه » ، أي وضحه وصححه بالنقط . فبين الاثنين ترابط في الأصل ، فالاعجام خلاف الاعراب ، واللحن خلاف الإعراب كذلك .

---

١ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٢ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .

وقد صار النقط ، أو وضع الحركات على الحروف لإرشاد القارىء الى القراءة الفصيحة الصحيحة ، ضرورة لازمة ، بدونها قد يخطىء الانسان فهم المعنى ، وقد يقع في أخطاء جسيمة لو أخليت الكتابة من النقط والإعجام . وقد ضرب العلماء الأمثال على أخطاء وقع بها الناس بسبب طريقة الكتابة القديمة التي لم تكن تنقط الحروف ولا تعجمها ، فكان القارىء يقع في أخطاء .

والإعراب بعد ، لا يختص بالعربية وحدها ، بل نجد آثاره في لغات سامية أخرى ، وانما ظهر وعرف في عربيتنا ، لأن اللغات الأخرى قد ماتت في الغالب، فلم يبق أحد من الناطقين بها ، لتبين كلامه ، ولأن نصوصها غير مشكلة، وهي خالية من الحروف التي تدل على الشكل والحركات ، لـذلك لا نستطيع التحدث عن وجود الإعراب بها . ولكن بعض النصوص البابلية تشير الى وجود الإعراب بها . واللاتينية مع انها من اللغات الآرية فهي لغة معربة،يراعي الكاتبون والمتكلمون بها خصائص الإعراب ، واليونانية القديمة هي معربة كذلك . ويخيل لي ان معظم لغات الأدب في العالم القديم كانت تراعي الإعراب ، لترتفع بذلك عن ألسنة العامة ، ولتكون اللسان الرفيع الذي يخاطب الانسان به أربابه ، ثم خفت حدة الإعراب فيما بعد ، مجاراة لتطور العقل الانساني . ونجد معظم الشعوب في الوقت الحاضر ، تبسط لغتها وتختزل قواعدها وجمل كلامها ليتناسب الكلام مع عقلية السرعة التي أخذت تسيطر على الانسان الحاضر .

وما قلته عن اللغات الأخرى من صعوبة التكلم عن إعرابها، بسبب عدم وجود نصوص مشكلة عندنا تشير الى طرق الإعراب بهـا ، ينطبق كذلك على اللغات العربية الجنوبية ، وعلى اللغات الأخرى ، مثل الصفوية ، والثمودية واللحيانية ، لعدم وجود الحركات بها أو العلامات الدالة على الإعراب . وخلو هذه اللغات من العلامات التي تقوّم الإعراب ، لا يمكن أن يتخذ دليلاً على عدم وجوده في تلك اللغات ، لأن العماد في الإعـراب ، هو بالنطق في اللسان ، وهو ما لا يمكـن استخراجه من الكتابة العربية الجنوبية ، فاللسان هو الذي يشكل ويحـرك الألفاظ وفق مقتضيات قواعد الألسنة . أما النبطية ، وهي من اللهجات العربية الشمالية ، ففيها ظواهر بارزة تشير الى انها كانت لغة معربة ، وهي في نظري أقرب اللغات العربية الجاهلية الى عربية القرآن الكريم ، فالأسماء في النبطية ، معروفة في عربيتنا قليلة في العربيات الأخرى،وهي قريبة من هذه العربية في أمور أخرى نحوية وصرفية.

اللحن :

من معاني اللحن : اللغة . « روي أن القرآن نزل بلحن قريش،أي بلغتهم . وفي حديث عمر رضي الله عنه : تعلموا الفرائض والسنة واللحن ، بالتحريك ، أي اللغة »[1] ، ومنه قول (عمر) : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تَعلَّمون القرآن »[2]. ومن معانيه الخطأ في الكلام . « قال أبو عبيد في قول عمر رضي الله تعالى عنه : تعلَّموا اللحن ، أي الخطأ في الكلام لتحترزوا منه » ، وورد : « وأما قول عمر رضي الله عنه : تعلَّموا اللحن والفرائض،فهو بتسكين الحاء ، وهو الخطأ في الكلام ... قال أبو عدنان : سألت الكلابيين عن قول عمر : تعلَّموا اللحن في القرآن كما تعلمونه ، فقالوا : كُتب هذا عن قوم ليس لهم لغو كلغونا ، قلت : ما اللغو ؟ فقال : الفاسد من الكلام . وقال الكلابيون: اللحن : اللغة . فالمعنى في قول عمر : تعلموا اللحن فيه ، يقول : تعلموا كيف لغة العرب فيه الذين نزل القرآن بلغتهم »[3] ، « وجاء في رواية تعلموا اللحنَ في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلَّموا لغة العرب بإعرابها »[4] ، ووردت اللفظة بمعان أخرى . وقد أجمل العلماء ما جاء فيها من معان بستة معان : الخطأ في الإعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى[5] .

وقد ذكر أن الرسول لما أرسل (سعد بن معاذ) ، وهو يومئذ سيد الأوس و (سعد بن عبادة) ، وهو يومئذ سيد الخزرج الى (كعب بن أسد)،وكان قد نقض عهده الذي عهده للرسول وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ، قال لهما : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » ، فلما أتياهم وجداهم على أخبث ما بلغهما

---

1 اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) ، الفائق (٢/٩٩) ، (٢/٤٥٧) .

2 الأمالي ، للقالي (١/٥) ، السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٠) .

3 اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

4 اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

5 اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

عنهم ، نالوا من رسول الله ، » وقالوا : من رسول الله ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » ، فلما عادا الى رسول الله قالا : « عضل والقارة . أي كغدر عضل والقارة » ، فاللحن هنا بمعنى الإيماءة والاشارة والرمز[1] ، فاللحن هنا أن تريد الشيء فتورى عنه[2] .

والذي أريده من اللحن ، الخطأ في الكلام ، والزيغ عن الإعراب ، وهو معنى لا نستطيع فهمه من النصوص الجاهلية ، لخلو تلك النصوص من الحركات، ومن الاشارة الى قواعد لغاتها . ولذلك فلا مناص لنا لفهمه إلا بالرجوع الى الموارد الإسلامية . وهي تذكر أن اللحن بهذا المعنى ، لم يظهر إلا في الاسلام ، ظهر بسبب دخول الأعاجم في دين الله ، واختلاطهم بالعرب ، وأخذهم لغتهم واتصال العرب بهم ، فسدت الألسنة ، وظهر اللحن بين الموالي وبين العرب . وقد عيب ظهوره في العربي ، حتى عير من ظهر اللحن على لسانه ، فلما فشا وكثر ، صار شيئاً مألوفاً حتى غلب على ألسنة الناس. وهم يذكرون ان العربي القح الأصيل ، لم يكن يخطىء في كلامه ، لأنه يتكلم عن طبع وسجية ، ومن كان هذا شأنه ، لا يقع اللحن في كلامه ، أو لأنهم كانوا يتأملون مواقع الكلام ويعطونه في كل موقع حقه وحصته من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة[3] .

يقول العلماء : وكان أول لحن ظهر بين العرب على عهد النبي ، فقد رووا أن الرسول سمع رجلاً يقرأ فلحن ، فقال : ارشدوا أخاكم[4] ، أو ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل[5] ، ثم فشا وانتشر في مواضع الإختلاط خاصة ، حيث اختلط العجم بالعرب ، كالعراق وبلاد الشأم ومصر ، حتى دخل أعمال الحكومة ، فأخطأ الكتاب في النحو ، وأفحشوا في الإعراب ، فكتب كاتب من كتاب (أبي موسى) الأشعري كتاباً فيه ، (من أبو موسى ...) أو ما شابه ذلك من خطأ في القول ، فكتب (عمر) الى عامله : « سلام عليك . أما بعد ،

---

١ الروض الأنف (٢/ ١٩٠) ، ابن هشام ، سيرة (٢/ ١٩٠) ، (حاشية على الروض).
٢ الأمالي ، للقالي (١/ ٦) .
٣ الرافعي (١/ ٢٤٠) ، « وبهذا الاعتبار نقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة » ، الرافعي (١/ ٢٤٢) .
٤ كنز العمال (١/ ١٥١) .
٥ ابن جني ، الخصائص (٢/ ٨) ، (دار الكتب) .

فاضرب كاتبك سوطاً واحداً ، وأخر عطاءه سنة »[1] : أو : « إذا أتاك كتابي هذا ، فاجلده سوطاً واعزله عن عملك »[2] ، أو « قنع كاتبك سوطاً »[3] ، أو: « ان كاتبك الذي كتب إليّ لحن ، فاضربه سوطاً »[4] ، وذكر (الجاحظ) ، أن (الحصين بن أبي الحرّ) كتب الى (عُمر) كتاباً « فلحن في حرف منه، فكتب اليه عمر : أن قنع كاتبك سوطاً » .

وسبب ذلك انهم كانوا يرون ان اللحن عيب مشين . قال « عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأي . وكان يقال : اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه »[5] .

ولا يمكن تفسير قول القائل ان « اللحن بمعنى الخطأ محدث ، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلّموا بطباعهم السليمة »[6]،الا أن يكون مراده أن الجاهليين كانوا يتكلمون بطباعهم السليمة بلغاتهم ، كل يتكلم بلغته ، ووفق سجيته ولسانه الذي أخذه من بيته ، فهو ينطق وفق ما سمع وحفظ ، فلا يلحن في الكلام بلسانه الذي أخذه من أهله ، وهو رأي أقول انه على الجملة مقبول معقول . أما اذ أريد به ، أن العرب كانوا جميعاً يتكلمون بلسان واحد ، فلا يخطىء أحدهم فيه ولا يلحن ، فإن ذلك يتعارض مع قولهم بوجود اللغات ، وبأن تلك اللغات كانت تتباين في أمور كثيرة في جملتها قواعد في النحو والإعراب ، كما في (ذي) الطائية ، وفي اعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجرّاً وذلك في لغة (بلحرث) و (خثعم) و(كنانة) ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجلان ، ومررت بالرجلان[7] ، وكما في (كم) الخبرية ، حيث ينصب (بنو تميم) تمييز (كم) ، ولغة غيرهم وجوب جره وجواز إفراده وجمعه ، وكما في إعراب (الذين) من أسماء الموصول إعراب جمع المذكر السالم في لغة

---

١ مراتب النحويين (٦) ، الرافعي (١/٢٤٣) .
٢ كنز العمال (٥/٢٢٤) ، حضرت عمر (١٣٧) ، (القسم العربي) .
٣ أدب الكتاب ، للصولي (١٢٩) ، حضرة عمر (١٣٨) .
٤ حضرت عمر (١٣٨) .
٥ البيان والتبيين (٢/٢١٦) .
٦ ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة (٥/٢٣٩) .
٧ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٤٤ وما بعدها) .

(هذيل) ، أو (عقيل) وفي قول بعضهم هذه التخيل وقول بعض آخر هذا التخيل الى غير ذلك من مواطن خلاف وتباين بحث فيها العلماء[1] ، لا مجال للبحث فيها في هذا المكان ، ووجود هذا الاختلاف ، هو دليل في حد ذاته على خروج القبائل على قواعد اللغة ، والخروج على القواعد هو اللحن .

لقد أقر علماء العربية بوجود خلاف بين القبائل المتكلمة بلهجات عربية شمالية، وقد أشرت الى مواضع ذكروها في هذا الباب ، وكشف علماء النحو عن خلاف في قواعد النحو ، في مثل اختلاف القبائل في التذكير والتأنيث ، كما في مثل الطريق والسوق والسبيل والتمر ، فهي ألفاظ مؤنثة عند أهل الحجاز ، وهي مذكرة عند قبائل أخرى ، وكشفوا عن أمور أخرى ، إن تكلم المتكلم أو كتب بها عدّ صدور ذلك لحناً منه ، فهل يعدّ العربي المتكلم بلهجة من هذه اللهجات المخالفة مخالفاً لقواعد العربية ، أي لحّاناً ، كما نعدّ الأعجمي الذي يقع في الخطأ نفسه ، أم نعدّه فصيحاً ، عربي اللسان والسليقة ؟ أما الأعجمي الذي يقع في الخطأ ذاته فنعده لحّاناً لحنة !

لقد ذكروا ان الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يوجّه اليهم الخطاب، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة ، حتى قال له علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات »[2] ، فهل يعقل بعد ، أن يقال إن العربي كان لا يلحن ولا يخطيء في كلامه ولا يزيغ عن العربية المبينة ، والعرب هم على ما هم عليه من اختلاف اللهجات ، الذي يدفع حتماً على وقوع اللحن ، لو تكلموا بالعربية القرآنية ، أي هذه العربية التي يسميها علماء اللغة لغة قريش ، والتي هي اللسان العربي المبين على تسمية القرآن لها .

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٢٠ وما بعدها) .

٢ المزهر (١/٣٢٥) .

ثم كيف تفسر حديث : « ارشدوا أخاكم » ، أو « ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل » مع قولهم إن العربي لا يخطىء في كلامه ولا يلحن ، لأنه يتكلم عن طبع وسليقة ، ولم يكن هذا الذي لحن أمام الرسول ، أعجمياً ، وانما كان عربياً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف وقع اللحن إذن ؟ ثم كيف تفسر خبر سماع الإمام (علي) أعرابياً ، وهو يلحن في القرآن ويقرأ : « لا يأكله إلا الخاطئين»[1]، أو خبر ذلك الأعرابي الذي قرأ « إن الله بريء من المشركين ورسوليه» بالجر، لأن رجلاً من أهل المدينة أقرأه إياها على هذا النحو ، فبلغ ذلك (عمر) ، فأمر ألاّ يقرىء القرآن إلا عالم باللغة،وأمر أبا الأسود أن يضع النحو[2]، والأعراب هم لبّ العرب ، وصفوتهم في الكلام ، فكيف وقع هذا الأعرابي في اللحن يا ترى ؟ ثم كيف نفسر قول من زعم أن في القرآن آيات فيها لحن ، مثل : إن هذان لساحران[3] ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[4] ، وان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون »[5] ، ومواضع أخرى تحتاج الى تأويل ليستقيم إعرابها[6] ، أو الى اصلاح املائها لتنجو من اللحن[7] .

ثم كيف اختلف قراء القرآن في نصب (الطير) في الآية : « يا جبال أوبي معه والطير » أو رفعها[8] ، واختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »[9] ، واختلافهم في بناء الفعل للمجهول أو للمعلوم في الآية : « الم . غلبت الروم »[10] ، وغير ذلك من مواضع اختلاف ، اختلف فيها القرّاء ، مع كونهم من العرب الأقحاح .

ثم كيف نفسر اضطراب العلماء وذهابهم مذاهب في قراءة الآية : « قالوا :

---

١ نزهة الألباء (٨) ، (محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٢ المصدر نفسه .
٣ طه ، الآية ٦٣ .
٤ النساء ، الآية ١٦٢ .
٥ المائدة ، الآية ٦٩ .
٦ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧١) .
٨ سبأ ، ٣٤ ، الآية ١٠ ، تفسير الطبري (٢٢/٤٦ وما بعدها) .
٩ التوبة ، الآية ١٢٨ ، تفسير الطبري (١١/٥٥) ، تفسير الآلوسي (١١/٤٧) .
١٠ سورة الروم ، الرقم ٣٠ ، الآية ١ وما بعدها .

إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ويذهبا بطريقتكم المثلى »[1] ، وتأويلهم القراءة جملة تأويلات ، لأن القاعدة النحوية تقول : « ان هذين » بينا القراءة : « إن هذان » ، فعللوها جملة تعليلات ، منها أن هذه القراءة نزلت بلغة (بني الحارث بن كعب) ومن جاورهم يجعلون الاثنين ، أي المثنى في رفعها ونصبها وخفضها بالألف ، كما في قول بعض (بني الحارث بن كعب):

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقيل إن هذه القراءة ، هي قراءة بلحارث بن كعب ، وخثعم، وزبيد ومن وليهم من اليمن[2] . ونسبها (الزجاج) الى كنانة ، وابن جنى الى بعض بني ربيعة[3] .

ثم ما ورد في خبر آخر عن سعيد بن جبير ، من قوله : « في القرآن أربعة أحرف لحن : الصابئون[4] ، والمقيمين[5] ، وفأصدّق وأكن من الصالحين[6] ، وإن هذان لساحران »[7] الى غير ذلك من أخبار . ثم ما ورد من قول (عثمان) : « إن في القرآن لحناً ، وستقيمه العرب بألسنتها » ، وأمثال ذلك[8] ، وما ذكر من أن (أبا بكر) ، كان يستحب أن يُسقط القارىء الكلمة من قراءته على أن يلحن فيها[9] ، أفلا يدل هذا الخبر ، على أن اللحن كان معروفاً ومتفشياً في عهد (أبي بكر) ، وما روي في رواية تقول : « لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضي الله عنه ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها ، أو قال ستعربها بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف

---

١ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ .
٢ تفسير الطبري (١٣٦/١٦ وما بعدها) .
٣ تفسير النيسابوري (١١٨/٦) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٣/٢) .
٤ المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٧٢ .
٥ النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٦١ .
٦ المنافقون ، الرقم ٦٣ ، الآية ١٠ .
٧ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٣/٢) .
٨ المصاحف (٣٣) ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٢/٢ وما بعدها) .
٩ الرافعي (٢٤٠/١) .

والملي من هذيل لم يوجد فيه هذه »[1] ، ثم ما ورد من وقوع اللحن من عرب أقحاح ، ومنهم من ولي الحكم وادارة أمور المسلمين[2] ، ومنهم ابنة (أبي الأسود الدؤلي) التي لحنت أمامه ، فعمل باب التعجب على ما يزعمه الرواة[3] .

وتوحي الأحاديث الواردة في الحث على إعراب القرآن ، والكتب التي ألفها العلماء في إعرابه ، أن من العرب : من أهل مدر وأهل وبر ، من كان يقرأ القرآن بغير إعراب ، إما لأن لغته لم تكن معربة ، وإما لأن إعرابها كان لا يتجانس مع إعراب القرآن ، وسببه أن الجاهليين لم يكونوا يتقيدون جميعاً بقواعد الإعراب ، فنهم من كان يتحلل منه ، ومنهم من يعمل به وفق قواعد لغته ولهجته ، ودليل ذلك قراءة الصحابة القرآن بألسنتهم ، مما سبب في ظهور مشكلة القراءات ، وهذا ما أخاف الصحابة ، وجعلها تخشى من احتمال ظهور قرائين مختلفة ، مما حمل (عثمان) على توحيد لغة القرآن ، وتدوين كتاب الله حسب التوصيات التي أعطاها الى اللجنة التي كلفها بتدوينه .

أضف الى ذلك ما نجده في الكتب من إجازة اصلاح اللحن والخطأ في الحديث. من مثل ما نسب الى الأوزاعي من قوله : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقوله : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » ، ومثل ما نسب الى (يحيى بن معين) من قوله : « لا بأس أن يقوم الرجل حديثه على العربية » والى (ابن أبي رباح) حين سئل عن الرجل يحدث بالحديث فيلحن، هل يحدث به كما سمع منه أم يعرب ، فقال لسائله : لا ، بل اعربه . وما ورد في أقوال العلماء في جواز أو عدم جواز اصلاح اللحن في الحديث ، واختلافهم فيه[4] ، هو دليل على أن من العرب من كان يقع في اللحن أيضاً ، وان اللحن لم يقع من الأعاجم وحدهم .

---

١ مفتاح السعادة (٢/٢٧٧) .

٢ « وزعم المدائني أن خالد بن عبدالله قال : ان كنتم رجبيون فانا رمضانيون . ولو لا أن تلك العجائب قد صحت عن الوليد ما جوزت هذا على خالد » ، البيان والتبيين (٢/٢١٦) .

٣ « كان الذي حداه على ذلك أن ابنته قالت له : يا أبت ما أشد الحر ، وكان في شدة القيظ . فقال ما نحن فيه ! فقالت : انما أردت أنه شديد . فقال : قولي : ما أشد ، فعمل باب التعجب » ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .

٤ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

ثم ان من غير المعقول ألاّ يقع اللحن من أهل اليمن ومن بقية عرب العربية الجنوبية ، الـذين كانوا يتكلمون بألسنة عربية جنوبية ، رأينا أنها تختلف عن عربيتنا في مفردات الألفاظ وفي قواعد النحو والصرف .

إن كل من صدر منهم اللحن ، ممن أشرت اليهم وممن لم أشر ، كانوا من العرب ، منهم من كان من أهل المدر ، ومنهم من كان من أهل الوبر ، بهم بدأ اللحن ، أما لحن العجم ، فقد بدأ بعد اللحن الذي ظهر في أيام الرسول ، وفي أيام (عمر) بدأ بالطبع بالفتوح ، فلحن العرب اذن أقدم عهداً من لحن العجم ، يؤيد ذلك ما يرويه العلماء من وقوع الشعراء الجاهليين في أخطاء نحوية، هي لحن وخروج على القواعد في نظرهم . والشعـراء الجاهليون عرب ، ومن لسانهم استمد علماء النحو نحوهم وصرفهم . فقد زعموا ان (النابغة) أخطأ في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، ولحن لحناً شنيعاً ، وكان عليـه أن يقول : « في أنيابها السم ناقعاً »[1] ، أخطأ ولحن على زعمهم،مع ان كلامه حجة عندهم، واستشهدوا به في قواعد النحو والصرف .

وأخذ (حفص بن ابي بردة) ، وهو من أهل الكوفة ومن أصحاب (حمّاد) الراوية على (المرقش) ، انه كان يلحن ، زعم انه لحن في شعره ، وقد أشير الى زعمه هذا في شعر هجاء هجوه به ، هو :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل وأنف كثيل العود عما تتبع
تتبعت لحنـاً في كـلام مرقش وخلقك مبنيٌّ على اللحن أجمع
فعيناك إقواءٌ وأنفك مُكفَـأٌ ووجهك إيطاءٌ فأنت المرقع[2]

وزعم علماء الشعر ، أن (امرأ القيس) حامل لواء الشعر ، ومن جاء بعده من الشعراء ، مثل (النابغة) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (الأعشى)، أقووا في شعرهم ، والإقواء : هو اختلاف إعراب القوافي ، وهـو أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور . ويكثر وروده في

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٨) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٠١) ، المرزباني ، معجم (٢٨٠) ، السمط (٣/٣٩) ، يوهان فك (٦٤) ، (فعينك اقواء) ، البيان والتبيين (٢/٢١٥) ، الشعر للشاعر « البردخت » ، وهو « علي بن خالد الضبي العكلي » ، العقد الفريد (٢/٤٨١) .

اجتماع الرفع مع الجر ، واما الإقواء بالنصب فقليـــل . وهو في نظرهم عيب[1] .
وزعموا أن بعضاً من شعراء الجاهلية أكفأوا في شعرهم . والإكفاء ، المخالفة بين حركات الروي رفعاً ونصباً وجراً ، أو المخالفة بين هجائها ، أي القوافي ، فلا يلزم حرفاً واحداً تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت ، ومثله أن يجعل بعضهـــا ميماً وبعضها طاء ، وقال بعضهم : الإكفاء في الشعر هو التعاقب بين الراء واللام والنون . وهو أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين، والإقواء، والإصراف ، والإكفاء ، والسناد[2] .

وقد روى أهل الأخبار قصة زعموا انها وقعت للنابغة ، وكان لا يعرف شيئاً عن إقوائه بشعره ، فلما وقعت له عرف به فعافه ، ذكروا ان الناس خافوا تنبيه الشاعر إلى إقوائه ، وبقي هو عليه ، حتى دخل يثرب ، فأرادوا إظهار عيبه له فأمروا قينة لهم ان تغنيه شعره ، فغنته :

أمن آل ميّة رائح أو مغتدي   عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا   وبذاك حدثنا الغراب الأسود[3]

ففطن اليه ولم يعد الى إقواء . « قال أبو عمرو بن العلاء: فحلان من الشعراء كانا يقويان ، النابغة وبشر بن أبي خازم ، فأما النابغة فدخل يثرب فغنى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء ، وأما بشر ، فقال له أخوه سوادة : انك تقوي ، قال: وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنّ طول الدهر يُسلي   ويُنسى مثل ما نسيت جذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنـــا فبغوا علينا   فسقناهم الى البلد الشآمِ

فلم يعد للإقواء »[4] .

---

١ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوى) .
٢ تاج العروس (١٠٨/١) ، (كفا) .
٣ الشعر والشعراء (١٠٦/١) ، (دار الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٠/١) ، (دار الثقافة) ، الخزانة (٢٦٢/٢) .

ورويت قصة إقواء (بشر بن أبي خازم) بشكل آخر ، فقد زعم ان أخاه (سوادة) قال له : إنك تقوي ، قال : وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنَّ طولَ الدهر يُسلي ويُنسي مثل ما نسيت جُذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم الى البلد الشآمِ

فلم يعد للاقواء »[1] ، أو أن أخاه (سمير) ، قال له : « أكفأت وأسأت . فقال : وما ذاك ؟ »[2] .

وقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن المصاحف لما كتبت « عرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيّروها ، فإن العرب ستغيرها — أو قال ستعربها — بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هُذيل لم توجد هذه الحروف »[3] ، وقد كان كل من اختارهم الخليفة لكتابه القرآن من خالص العرب ، ولم يكن من بينهم من هو من المولدين أو الموالي ، وقد كانوا من الفصحاء الألباء ، فكيف وقع منهم اللحن إذن ؟

بل زعموا أن (عمر) ضرب أولاده لما لحنوا ، وأن (معاوية) كلم (عبيد الله ابن زياد) ، فوجده كيساً عاقلاً على انه يلحن فكتب الى والده بذلك[4]، وزعموا ان (الحجاج) كان يلحن ، زعموا انه لحن في القرآن ، فقرأ : « إنا من المجرمون منتقمون »[5] ، وزعموا انه لحن في آيات أخرى[6] ، والحجاج من ثقيف، ولم يكن أعجمياً ، حتى يظهر اللحن منه ، مع انهم جعلوه أحياناً من أفصح العرب ، وممن لم يلحن في حياته في جدّ ولا هزل . قال (الأصمعي) : « أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن

١ الشعر والشعراء (١/١٩٠) ، الموشح ٥٩ ، الخزانة (٢/٢٦٢ وما بعدها) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (٤٩) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٤ الفائق (٢/٩٩) ، البيان والتبيين (٢/٢١٠) ، الخزانة (٣/١٤) ، (بولاق) .
٥ البيان والتبيين (٢/٢١٨) ، (عبد السلام هارون) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٦) ، نزهة الالباء (١٦ وما بعدها) .

يوسف ، وابن القرية . والحجاج أفصحهم »[1] . وزعموا ان (الوليد بن عبد الملك) ، وأخاه (محمد بن عبد الملك) كانا لحّانين[2] . ذكر ان (الوليد) خطب الناس يوم عيد ، فقرأ في خطبته « يا ليتُها كانت القاضية » بضم التاء . فقال عمر بن عبد العزيز : عليكَ وأراحنا منك[3] . ورووا قصصاً عن لحنه . وذكر أن (عبد الملك) قال : « أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه الى البادية» يقصد انه كان يلحن بسبب عدم ارساله الى الأعراب ليأخذ عنهم اللسان الفصيح. وقد كان أخوه محمد لحاناً كذلك ، وذكر انه لم يكن في ولد عبد الملك أفصح من هشام ومسلمة[4] . قال (الجاحظ) : « وكان الوليد بن عبد الملك لحنة ، فدخل عليه أعرابي يوماً ، فقال : أنصفني من ختني يا أمير المؤمنين . فقال : ومن ختنك ؟ قال : رجل من الحي لا أعرف اسمه . فقال عمر بن عبد العزيز : ان أمير المؤمنين يقول لك : من ختنك ؟ فقال : هوذا بالباب . فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذي كنتُ أخبرتك عنه . قال : لا جرم : فإني لا أصلي بالناس حتى أتعلمه »[5] . وذكر (الجاحظ) أمثلة على اللحن[6] . وروى أن كتب (الوليد) كانت تخرج ملحونة . فسأل (اسحاق بن قبيصة) أحد موالي (الوليد) ما بال كتبكم تأتينا ملحونة وأنتم أهل الخلافة ؟ فأخبره المولى بقولي ، فإذا كتابٌ قد ورد عليَّ : أما بعدُ فقد أخبرني فلان بما قلتَ ، وما أحسبك تشك أن قريشاً أفصح من الأشعرين ، والسلام »[7] .

وقد ورد في شعر (مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري) قوله :

وحديثُ ألذّهُ هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا ناً وخيرُ الحديث ما كان لحنا

وقد ذكر أنه لم يرد اللحن في الإعراب الذي هو ضد الصواب ، وإنما أراد

---

١ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٨) .
٢ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .
٣ الرافعي (١/٢٤٦) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢٠٤ وما بعدها ، ٢١٦) .
٥ المحاسن والاضداد (٦) .
٦ المصدر نفسه .
٧ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .

الكنايـة عن الشيء والتعريض بذكره ، والعدول عن الافصاح عنـه . قيل : تكلمت (هند بنت أسماء بن خارجة) ، أخت الشاعر المذكور فلحنت ، وهي عند الحجاج ، فقال لهـا : أتلحنين وأنت شريفة في بيت قيس ؟! فقالت : أما سمعت قول أخي مالك لامرأته الأنصارية ؟ قال : وما هو ؟ قالت : قال :

منطق صائب وتلحن أحيـا نآ وخير الحديث ما كان لحنًا

فقال لها الحجاج : إنما عنى أخوك اللحن في القول ، إذا كنّى المحدث عما يريد ، ولم يَعْنِ اللحن في العربية ، فأصلحي لسانك . غير أن منهم من رأى أن المراد بهذا اللحن ، اللحن المخالف لصواب الاعراب[1] .

وقد ذكر (السهيلي) ، أن الجاحظ قد أخطأ حين قال في كتابـه (البيان والتبييـن) ، ان الشاعر لم يقصد اللحن الذي هو الخطـأ في الكلام وانما أراد استملاح اللحن من بعض نسائه ، وخطأه في هذا التأويل[2] ، قال : فلما حدث الجاحظ بحديث (الحجاج) ، « قال : لو كان بلغني هذا قبل أن أألف كتاب البيان ، ما قلت في ذلك ما قلت ! فقال له : أفلا تغيره ؟ فقال : كيف وقد سارت به البغال الشهب ، وانجد في البلاد وغار » . و « قال السيرافي : مـا عرفت حقيقة معنى النحو إلا من معنى اللحن الذي هو ضده ، فان اللحن عدول عن طريق الصواب ، والنحو قصد الى الصواب »[3] .

وذكروا أن بعض شعراء الدولة الأموية كان يلحن ، وممن وقع منـه اللحن (الفرزدق) . رووا أن (عبدالله بن يزيد الحضرمي) البصري ، كان ينتقـده ويتعقب لحنه ، فهجاه الفرزدق ، بقوله :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى المواليا

فقال له الحضرمي : لحنت . ينبغي أن تقول مولى موالٍ[4] .

---

١ أمالي المرتضى (١/١٥) ، الامالي ، للقالي (١/٥) .

٢ البيان والتبيين (١/١٤٧) .

٣ الروض الانف (٢/١٩٠) .

٤ الرافعي (١/٢٥٦) .

« وقالوا : تربع ابن جؤية في اللحن ، حين قرأ : هؤلاء بناتي هنّ أطهرَ لكم » ، وجعلوه حالاً ، يعني : أطهر . وليس هو كما قالوا ... »[1] ، و « تكلم معاوية بن صعصعة بن معاوية يوماً ، فقال له صالح بن عبد الرحمن : لحنتَ . فقال له معاوية : أنا ألحن يا أبا الوليد ، والله لنزل بها جبريلُ من الجنة »[2] .

وقد فشا اللحن وانتشر حتى بين العلماء ، وبين علماء النحو واللغة أيضاً، حتى غلط بعضهم بعضاً ، ونسب بعضهم اللحن الى البعض الآخر ، قال (ابن فارس) : « وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرأونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن ، فقد تجوزوا حتى إن المحدّث يحدث فيلحن،والفقيه يؤلف فيلحن ، فإذا نُبّها قالا : ما ندري ما الإعراب ! وانما نحن محدثون وفقهاء »[3] . ولما كثر اللحن في الحديث ، جوزوا إعرابه . قال (الأوزاعي) : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقال أيضاً : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » . وقال (النضر بن شميل) : « كان هشيم لحاناً ، فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة، يعني بالإعراب »[4] .

وبعد ، فقد رأيت من روايات أهل الأخبار أنفسهم ، أن اللحن لم يكن قاصراً على العجم ، بل كان قد عرف بين العرب كذلك ، وعلى هذا يجب ألا تلقي مسؤولية ظهوره على الأعاجم ، بل على العرب أولاً ، لأنهم هم الذين بدأوا باللحن ، بدأوا به قبلهم بأمد طويل ، لحنوا في الجاهلية ، أي قبل دخول العجم في الاسلام . فنحن نظلم الأعاجم اذن ، إن ألقينا على عاتقهم مسؤولية إشاعة اللحن بين العرب . ولكن هل يعقل وقوع اللحن من عرب كالجاهليين ، ومن شعراء فحول ، استمد علماء اللغة قواعد النحو والصرف من شعرهم مثل (النابغة) الشاعر المعظم ، أو من غيره ؟ لقد سبق أن ذكر علماء اللغة أن العربي ، لا يزال في كلامه وحاشا له أن يلحن أو يخطىء في لسانه ، لأنه إذا تكلم تكلم عن سليقة وطبع،وقد حماه الله من الوقوع في زلل الكلام ! إذن فكيف

---

١ مجالس ثعلب (٤٣) .
٢ مجالس ثعلب (٤٧) .
٣ الصاحبي (٦٦) .
٤ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

نفسر ما ذكروه من وقوع النابغة في اللحن ، ومن وجود الإقواء في شعره وفي شعر غيره ، ومن ظهور اللحن في أيام الرسول ؟ هل نرجع ذلك الى خطأ الرواة في رواية شعر النابغة وأمثاله ، أو نرجع ذلك الى التزوير ، فنقول إن ذلك الشعر مفتعل ، وإنه ليس من شعر النابغة ، وإنما هو شعر منحول وضع عليه ، ومن ثم وقع الخطأ . ولكن الذي نعرفه أن من كان ينحل العرب الشعر وينسبه للجاهليين، كان من أتقن الناس لشعر الجاهلية ومن أعرف الناس بالعربية ، ومن البارعين الحاذقين بقواعدها ، وأناس على هذا الطراز من الفهم والعلم ، هل يعقل وقوع مثل هذا الغلط منهم ؟ أو هل نرجع ذلك الى الخطأ في التدوين والاستنساخ ، ولكن كيف غفل العلماء من النص على ذلك ؟

وجوابي أن القول بأن اللحن بمعنى الخطأ في الكلام ، يستوجب وجود لغة فصيحة ذات قواعد نحوية وصرفية مقدّرة ومقننة وثابتة تعدّ اللغة الفصيحة العالية في نظر أصحابها ، من يخالف قواعدها يعدّ لحاناً لا يحسن القول ولا الكلام . وهو قول لا يعارضه أحد بالنسبة الى وجوده في الاسلام ، بعد أن فرض الاسلام دين الله على المؤمنين به كتاباً سماوياً ولساناً عربياً مبيناً ، تثبتت قواعد نحوه وصرفه في الاسلام . فمن سار عليها عدّ فصيحاً ، ومن خالفها عد لحاناً عامياً . أما بالنسبة لأهل الجاهلية ، فالقول بوجود اللحن عندهم ، يقتضي التسليم بوجود لغة فصيحة عليا لديهم ، لها قواعد مقررة ، من تكلم وفقها عد فصيحاً، حسب درجة إعرابه وملكته في اللغة ، ومن خالفها عد عامياً جلفاً . وقد أكد علماء اللغة ، وجود هذه العربية الفصيحة ، التي هي عندهم عربية قريش ، عند ظهور الاسلام ، وقالوا : إن بها كان نزول عربية القرآن ، وبها نظم الشعر الجاهلي ، وبها نثر الكلام الجاهلي المنثور . أما اللحن ، فقد أنكروا وجوده ، ولم يسلموا بوقوعه ، وحجتهم ما ذكرته من أن العربي فصيح بطبعه ، اذا تكلم تكلم عن سجية فيه وسليقة ، لم يلحن ولم يخطىء في كلامه في الجاهلية ، الى أن كان الاسلام ، فاختلط العرب بالأعاجم ، ودخل الغرباء بين العرب ، ففسد الطبع وظهر الخطأ في اللسان ، وفشا اللحن .

وقد يعقل تصور وجود هذه العربية الفصحى ، اذا افترضنا — مع المفترضين الأخباريين — ان تلك العربية ، هي عربية أهل مكة ومن عاش حولهم ، وانها كانت عربية قريش ، وأن المتكلمين بها كانوا بشراً عصموا عن الخطأ في اللسان

وجبلوا على التكلم بها على الفطرة ، ولكننا لا نستطيع القول انها كانت عربية كل عرب جزيرة العرب ، إذ رأينا العرب الجنوبيين ، وقد كانوا يتكلمون بلغات أخرى ، ووجدنا عرب أعالي الحجاز ، ولهم ألسنة تباين عربية القرآن ، ورأينا للقبائل لهجات ، تختلف بدرجات عن هذه العربية . فكيف يتصور اذن اتفاق العرب كلهم على التكلم بلسان قريش ، وبغير خطأ أو زلل في اللسان .

وفي نفي علماء اللغة وجود اللحن عند الجاهليين تعارض مع رواياتهم القائلة بوجود الإقواء والإكفاء في شعر بعض الشعراء الجاهليين ، وبلحن (النابغة) في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، وبلحن الأعرابي في حضرة الرسول ، وبتباين لغات العرب ، تبايناً تحدثت عنه في فصل (لغات العرب) وقد وقع في كثير من صميم خصائص اللغات ، ومن بينها أمور تخص قواعد الإعراب ، وفيه تعارض أيضاً مع القرارات الشهيرة والشاذة للقرآن ، وبينها أمور تخص قواعد النحو والصرف والإعراب ، وفيه تعارض مع ما ذكروه من أن « أطراف الجزيرة لم تكن خالصة العروبة في القديم ، بل كان أهلها مغلوبين على أمرهم ؛ فلم يكن لهم من معنى اللغة إلا تعاور المنطق والاستبداد بالكلمات يتلقفونها ممن حولهم ، لأن ملكات الوضع العربي فيهم غير صحيحة ، وشروطه غير تامة،وليس كل عربي الجنس عربي اللسان ، وإلا فما بال الحميريين ومن قبلهم من الأمم السالفة ؟»[1].

وكيف يعقل نفي اللحن عن العرب مع وجود اللغات ، ووجود التعارض والإختلاف البين بين قواعد هذه اللهجات ، هل يعقل أن يتكلم العربي الجنوبي، باللغة العربية الفصيحة من غير خطأ ولا لحن ، ولسانه غير لساننا ، وعربيته غير عربيتنا ، وقواعده على خلاف قواعدنا ، وإعرابه على خلاف إعرابنا ، كما أثبت ذلك بالبرهان القاطع من الكتابات الجاهلية ، وبأقوال علماء العربية أنفسهم ، وفي مقدمتهم (أبو عمرو بن العلاء) ، القائل : « ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا » . ثم اننا إذا أخذنا القراءات المتنوعة التي قرىء بها القرآن ، والشواهد الشعرية الكثيرة التي أوردها علماء العربية والنحو على الشواذ ، وما يذكره العلماء من خلاف في النحو ، فإننا لا يمكن تفسير خروجها على القواعد إلا بأنها أثر من أثر بقايا اللهجات . وخروجها على القواعد ، هو لحن . ومن خرج على

---

١ الرافعي (١/٢٥٨) .

القواعد عدّ لحاناً ، مهما كان عصره أو جنسه ، جاهلياً كان أم مسلماً ، عربياً كان أم أعجمياً ، لأن اللحن لا يختص بعصر أو جنس .

ان ما دعوه باللحن ، وما أخذوا الأعاجم عليه ، منَ عدم تمكنهم من النطق ببعض الحروف ، أو من وقوعهم في أخطاء نحوية ، نراه قد وقع للعرب الفصحاء في الجاهلية وفي الإسلام ، فما كان ينطقه بعض العرب من اشمام الضاد صوت الزاي ، أو من النطق بالجيم (كافاً) على اللهجة المصرية ، يعدّ لحناً ، إن صَدر من أعجمي ، اما ان صدر من عربي ، فلا يقال لذلك لحناً ، بل يقال انه لغة من لغات العرب . واذا تصورنا ان عربية الجاهليين ، كانت عربية عالية واحدة ، على نحو ما يراه أهل الأخبار وعلماء اللغة ، وجب اعتبار هذه اللغات لغات عامية ، المتكلم بها خارج على قواعد اللغة ، فهو ممن يلحن ويخطىء سواء كان عربياً ، أم أعجمياً ، جاهلياً أم اسلامياً ، فنحن نتكلم هنا عن اسلوب كلام ، لا عن رسّ وأصل .

اننا حين نقول ان اللحن لم يكن معروفاً بين أهل الجاهلية ، نكون قد حصّناهم بالعصمة : بعصمة اللسان ، ونكون قد جعلناهم بذلك شعباً مختاراً ، فضل بعصمة لسانه على ألسنة سائر البشر،ولكن العلم لا يعرف عصمة ولا حصانة في لسان ، وهو يرى ان اللحن لا بد وأن يقع عند أي شعب ، أو قوم ، أو قبيلة ، حتى ان كانت القبيلة في سرة البادية ، وفي معزل ناء ، لأن الطبيعة توجد من اختلاف قابليات أفراد القبيلة ومن اختلاف مستوى عقلياتهم وثقافاتهم وتباعد سكنهم بعضهم عن بعض ، خروجاً على اللسان ، فيظهر اللحن الشاذ ، ويبرز النشاز في اللغة ، مهما كان موطن هذه القبائل ، في جزيرة العرب أو في أي موضع آخر من العالم ، فاللحن ، أي التبلبل في الألسنة من الأمور الطبيعية ، التي توجدها طبيعة البشر وطبيعة الاقليم ، وأمور أخرى بحث فيها علماء اللغة والاجتماع ، ولا يمكن أن يكون العرب بمنجاة منها !

لقد تحير (السيوطي) وغيره في تفسير خبر ورد عن (سعيد بن جبير) من انه « كان يقرأ : والمقيمين الصلاة ، ويقول : هو لحن من الكاتب » . فقال: « وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أولاً انهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللدّ ! ثم كيف يظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أنزل ، وحفظوه ، وضبطوه ، وأتقنوه»

ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ! ... الخ »[1] ، وفي بعض هذه القراءات خطأ حصل من الكتابة ، قال « هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى : إن هـذان لساحران[2] ، وعن قوله تعالى : والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[3] . وعن قوله تعـالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون[4] ، فقالت : يا ابن أخي، هذا عمل الكتّاب اخطئوا في الكتاب »[5] ، أي من الرسم ، وهو في الأكثر ، فهذا الخطأ في الرسم القديم للكتابة ، هو الذي جعل العلماء يسمونه لحناً ، وهو ليس بلحن في الأصل، وانما جاء اللحن من قراءة القراء بألحانهم ، أي على حسب لغاتهم،وإلا فلا يعقل تطاولهم على القرآن بقراءتهم له قراءة مخالفة للإعراب ولما نزل به الوحي. وهكذا كان الأمر بالنسبة للمواضع الأخرى مثل : « اثنتا عشرة عيناً »[6] ، فقد قرىء بسكون الشين وهي لغة تميم » ، وكسرها وهي لغة الحجاز ، وفتحها وهي لغة[7]، ومثـل (الصراط) ، فقد قرأت بالسين وبالصاد ، والقراءتان لهجتا قبائل ، ومثل (حتّى) ، فقد قرئت (عتّى) ، قرأها (ابن مسعود) على لسانه ، إذ كان من هذيل .

وقد ذكر (المعري) أمثلة على قراءات في القرآن قرأها علماء مشهورون مثل (حمزة بن حبيب)،هي منكرة في نظر غيره من العلماء ، « ينكرها عليه أصحاب العربية، كخفض الأرحام في قوله تعالى : واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، وكسر الياء في قوله تعالى : وما أنتم بمصرخي ، وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى : استكباراً في الأرض ومكر السيء » ،وجاء بأمثلة أخرى من قراءات غيره للقرآن[8].

والخلاف الذي نلاحظه في أمور النحو بين علماء أهل البصرة وعلماء أهل الكوفة، في مثل عمل الأسماء والأدوات : أدوات الجرّ ، أو الخفض ، وأدوات النصب، وأدوات الجزم ، وأمثال ذلك ، هو في حدّ ذاته دليل على وجود إعراب متعدد

---

١ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٢ طه ، ٦٣ ،
٣ النساء ، الآية ١٦٢ ،
٤ المائدة ، الآية ٦٩ .
٥ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
٦ البقرة ، الآية ٦٠ .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٧) .
٨ رسالة الغفران (٣٦٧ وما بعدها) .

للعرب ، وقف العلماء على شيء يسير منه ، فوقعوا من ثم في بلبلة من أمره ، بسبب عدم اهتمامهم بأمر تلك اللغات ، واقتصارهم في جمعهم قواعد النحو على لهجات الأعراب الذين اتصلوا بهم ، فظهر لهم وكأنه نشاز ، ولو فطنوا يومئذ الى أنه من إعراب لغات ، لكان حكمهم حكماً آخر ولا شك . ومن هؤلاء الأعراب الذين أخذ عنهم البصريون : قيس ، وتميم ، وأسد ، « فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الإعراب ، والتصريف . ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[1] ، والقبائل المذكورة باستثناء الطائيين ، هم من مجموعة (مضر) ، وليس فيها قبيلة من (ربيعة) ، لذلك نستطيع القول ان العربية قد بنيت على لهجات مضر ، وحيث أن علماء اللغة أهملوا لغات القبائل الأخرى وبينها قبائل من مضر كذلك ، فلم يأخذوا منها إلا عرضاً ، تولد من عملهم هذا بناء العربية على تلك اللهجات وبموجب اجتهاد واستقصاء أولئك العلماء، فظهر من أجل ذلك الغريب والنشاز ، والاختلاف في الإعراب ، الذي أشار الى قسم منه العلماء ، وهو الذي احتاجوا اليه للاستشهاد به في الشواهد والمناظرات ، وأكثره من لغات مضر ، وأهملوا الباقي ، ولو هم سجلوا كل ما عرفوه من نشاز لتجمع من ذلك تراث كبير كثير من تراث اللغات الجاهلية من اختلاف في لغة وقواعد اعراب وصرف .

لقد تمسكت القبائل بقواعد ألسنتها حتى في الاسلام ، فكان أفرادها ينطقون بلهجتهم ، من ذلك ما ذكره (الزجاجي) من اختلاف (عيسى بن عمر) الثقفي ، و (أبو عمرو بن العلاء) في رفع أو نصب : « ليس الطيب إلا المسك » ، ومن احتكامها الى (أبي المهدي) ، فلما ذهبا اليه وجداه لا يرفع ، فلما حاولا اقناعه بالرفع ، أبى عليهما ذلك وقال : « لا ، ليس هذا من لحني ولا من لحن قومي » ، فلما ذهبا الى (المنتجع) التميمي ، وجداه لا ينصب وأبى إلا الرفع ، وذكر (الزجاجي) : « ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع »[2] . وقع ذلك في الاسلام وبعد تثبيت القواعد ، وكان هذا حال قبائل الحجاز ، وحال تميم في الجاهلية ولا شك،

---

١ السيوطي ، الاقتراح (١٩) .
٢ مجالس العلماء (١ وما بعدها) .

فهل يعد هذا الاختلاف دلالة على عدم وجود اللحن عند أهل الجاهلية ، أم يعدّ دليلاً على وجوده عندهم ؟

لقد أدى اقتصار العلماء في أخذهم العربية عن القبائل التي ذكروها وفي تمسكهم برأيهم في أن تلك القبائل ، هي صاحبة اللغة الفصيحة ، الى نبذ اللهجات العربية الأخرى ، لاعتبارهم اياها لهجات مستقبحة ، ولغات حشوية ، فخسرت العربية بذلك خسارة كبرى ، وظهر بسبب ذلك التنابذ في مذاهب علماء العربية ، بسبب اعتمادهم على لغات معينة محدودة ، وليس على كل اللغات العربية القريبة من لغة القرآن ، ليتمكنوا بذلك من استقرائها كلها واستنباط القواعد الكلية منها :

ومن جملة الأمور التي يجب أن نشير اليها ونتنبه اليها ، هو أن علماء العربية حين كانوا يشيرون الى لهجة من اللهجات ، مثل لهجة أهل الحجاز ، أو لهجة هذيل ، أو تميم ، وأمثالها ، كانوا يشيرون اليها بالتعميم ، مثل : جاء هذا على لغة أهل العالية : أو على لغة أهل الحجاز ، أو على لغة تميم ، مع ان حكمهم هذا لم يؤخذ من دراسة لغة القبيلة المشار اليها ، وانما أخذ من لسان أعرابي أو أكثر ، بينما الحكم على منطق إنسان واحد أو اثنين أو ثلاثة ، لا يمكن أن يتخذ حجة للحكم على منطق قبيلة بأكملها ، أضف الى ذلك أن القبائل الكبيرة ، كانت موزعة منتشرة ، والحجاز ، وحده ذو قبائل كثيرة ، متعارضة اللغات ، فكيف يقال : جاء هذا على لغة أهل الحجاز ، وكانت أسد وتميم متجزئة منتشرة في مناطق واسعة ، وهـذا مما جعل لهجاتها تتأثر بالاقليمية وبالجوار ، فلم يكن لها لسان واحد ، غير أن علماء العربية لم يفطنوا الى هـذه الأمور ، فوقعوا من ثم في أخطاء ، فأخذوا من بعض تميم ، ونسبوا ما أخذوه على كل تميم مثلاً .

ثم إنهم لم يستخلصوا النحو من القرآن رأساً ، وقد كان عليهم الاعتماد عليه أو لأنهم انما اتخذوا النحو لصيانة اللسان من الخطأ في القرآن وفي لغة التنزيل ، وإنما مالوا عنه الى الشعر ، والى كلام أعراب من قبائل معينة وثقوا بصحة كلامهم وزاد ابتعادهم عن الاسلوب العلمي ، بأخذهم بالعصبية العلمية ، فظهرت الآراء المتعصبة للمدن وللعلماء ، فهذا رجل محب للبصرة ، مفرط في حبهـا ، لا يقدم على علمائها عالم ، وهذا كوفي متعصب لنحو الكوفة ولعلم الكوفة ، لا يقدم على أهل الكوفة أحداً. ثم زاد هذا التعصب التعصب للعلماء ، فهذا تلميذ عالم يتعصب له ، ويأخذ برأيه كأنه رأى نزل من السماء ، وهذا عالم كبير يعيب علـم عالم

منافس له ، ويتهجم هو وتلامذته عليه ، وهذا نحوي يعيب نحو الآخرين ، وقد دفعت هذه العصبية ، بعض العلماء الى الابتعـاد عن العلم ، باللجوء الى الوضع والافتعال والاتهام ، لإفحام الخصوم ، حتى جاء بعضهم بشواهد نحوية وصرفية مفتعلة ، وبشهود من الأعراب ، تكلموا باطلاً لتأييد عالم على عالم ، وفي المسألة الزنبورية التي وقعت بين سيبويه والكسائي ، وفي مجالس الجدل التي تجادل فيها العلماء في محضر الخلفاء في قضايا النحو واللغة والشعر أمثلة عديدة على ما أقول[1] .

وعندي أن ما نسب الى بعض الشعراء الجاهليين من وقوعهم في أغلاط نحوية أو لغوية أو شعرية ، لم يكن خطأ بالنسبة لهم ، وإنما بان الخطأ عند علماء العربية ، حين قاسوا الشعر بمقياس واحد ، هو العربية التي جمعوا قواعدهـا ودونوها في الاسلام ، والعروض الذي ضبطه (الخليل) ومن جاء بعده ، ولو كانوا قـد درسوا لهجات القبائل ، وعلموا أن الشعراء ، كلهم أو بعضهم كان ينظم شعره بلسانه ، وان الشعر الجاهلي ، جاء بألسنة متعددة ، لعلموا إذن سر وقوع هذا الاختلاف في الشعر ، ولأراحوا أنفسهم من دراسة كثير من هذا الغريب والشاذ الذي أدخلوه كتب النحو واللغة ، بعد صقل الشعر وتهذيبه . وقد فطن الى ذلك (المعري) ، فاعتذر عما نسب الى (امرىء القيس) من خروج عن القواعد بسوء الرواية وبالتصحيف[2] ، وبأنهم في الجاهلية كانوا لا يعدون ذلك خروجاً على قاعدة ، وانما كان ذلك شيئاً مألوفاً عندهم،فلما جاء « المعلمون في الاسلام » « غيروه على حسب ما يريدون »[3] ، وجعله يقول عن (الاقوياء) : « لا نكرة عندنا في الإقواء »[4] واعتذر عـما نسب الى غيره من الشعراء من عيوب أحصاها علماء الاسلام عليهم ، بأن قال إن هذه لم تكن من العيوب في أيامهم ، وإنـما هي صارت عيوباً في الإسلام .

لقد اعتمد علماء العربية على الشعر الجاهلي وعلى لغات العرب التي وثقوا منها في جمع قواعد العربية وتثبيتها ، كما استشهدوا بالقرآن ، الذي نزل بلسان عربـي مبين ، والذي ثبت العربية . أما (الحديث) ، فقد اختلفوا في جواز الاستشهاد

---

١ راجع مجالس العلماء
٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
٣ رسالة (٣١٧ وما بعدها) .
٤ رسالة (٣٢٠) .

به ، وذلك لأن الحديث لم ينقل كما سمع من النبي وانما روي بالمعنى ، ولهذا فإن أئمة النحو المتقدمين من المصرين : البصرة والكوفة لم يحتجوا بشيء منه ، وقد جوز بعض العلماء الاستشهاد به على تقدير التسليم بأن النقل كان بالمعنى ، انما كان في الصدر الأول ، وقبل تدوينه في الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ ، ولهذا يجوز الاحتجاج به ، لأن السلائق العربية لم تكن قد فسدت بعد. وموضوع الخلاف ، هو ان النقل لم يكن بالحرف ، وانمـا بالمعنى ، ولو كان بالأول لما وقع الخلاف في وجوب الاستشهاد به ، ولجرى ذلك مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية بموجبه. قال « سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »[1] . وقد وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ، ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، فدخل من ثم هذا اللحن في الحديث ، ولهذا امتنع علماء المصرين من الاستشهاد بالحديث في النحو . وقد جوز بعض المتأخرين الاستشهاد بالأحاديث والأمثال النبوية الفصيحة ، ولم يجوزوا الاستشهاد في غير ذلك[2] للسبب المذكور .

هذا وقد ألّف العلماء كتباً عديدة في إعراب القرآن وفي معانيه وغريبه ، وصل بعض منها الينا . وقد أشار (ابن النديم) الى أسماء عدد من تلك المؤلفات[3] . وهي مرجع هام بالنسبة لعلماء العربية ، لورود آراء لغوية ونحوية قيّمة فيها ، تفيد في شرح النحو العربي .

---

١ الخزانة (١/٥ وما بعدها) .
٢ الخزانة (١/٦ وما بعدها) .
٣ الفهرست (٦٠) .

الفصل الخامس والاربعون بعد المئة

النحو

والنحو في اللغة الطريق والجهة والقصد،ومنه نحو العربية . وهو اعراب الكلام العربي . أخذ من قولهم : انتحاه إذا قصله . وهو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره ليلحق به من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها ، وإن لم يكن منهم أو ان شذ بعضهم عنها ردّ به اليها . وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل مع العلم . وقيل لقول علي بن أبي طالب بعدما علم الأسود الاسم والفعل وأبواباً من العربية : « انح هــذا النحو »[1] . أو لأن أبا الأسود لما وضع ما وضع في النحو وعرضه على (علي) ، قال (علي) له : « ما أحسن هذا النحو الذي نحوتَ ! ولذلك سمي النحو نحواً »[2] . ولكننا نجد (الجاحظ) يشير الى وجود اللفظة في أيام (عمر) ، إذ يقول : « وقال عُمر رضي الله عنه: تعلموا النحو كما تعلّمون السنن والفرائض »[3] ، ويشبه هذا الخبر خبراً آخر نسب

---

١ اللسان (٣١٠/١٥) ، (نحا) ، تاج العروس (٣٦٠/١٠) ، (نحا) ، الفهرست (ص ٦٥) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) ، (ابن الانباري نزهة) (٣ وما بعدها) ، المثل السائر (٧) ، الجمحي ، طبقات (ص ٥) ، ابن خلكان (٢٤٠/١)، ارشاد (٢٨٠/١) .

٢ ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) ، (تحقيــق محمد أبو الفضــــل ابراهيم) ، (القاهرة ١٩٦٧ م) .

٣ البيان والتبيين (٢١٩/٢) .

اليه أيضاً ، فقد ذكروا أنه قال : « تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه»[1]، وانه قال : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تعلمون القرآن »[2] . ويظهر أن الكتّاب قد صحفوا في خبر (عمر) ، فخلطوا بين (اللحن) و (النحو) ، وعلى كل فإن بين اللفظتين صلة . وإذا صح خبر (الجاحظ) ، واعتبرنا لفظة (النحو) لفظة صحيحة غير محرفة ، دلت على وجود هذه التسمية علماً لهذا العلم في أيامه ، وقبل أيامه ، أي في أيام الجاهليين .

والجمهور من أهل الرواية ان النحو علم ظهر في الاسلام . ظهر بظهور الحاجة الماسة اليه لضبط اللسان وصيانته من الخطأ ، ولتعليم الأعاجم نمط الكلام بالعربية. ورجع أكثرهم مصدره وأساسه الى الإمام (علي بن أبي طالب) ، ويقولون ان أبا الأسود الدؤلي (٦٩ هـ) أخذ هذا العلم عنه . وان الإمام ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . فاستأذن التلميذ أستاذه أن يصنع نحو ما صنع ، فأذن له به،فسمي ذلك نحواً[3] . وذكر بعضهم ان الإمام دفع الى أبي الأسود رقعة مكتوباً فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما انبىء به ، والحرف ما أفاد معنى . واعلم ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ،ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر . ثم وضع أبو الأسود بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام ، الى أن وصل الى باب إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضها على عليّ أمره بضم لكن اليها ، وكلما وضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه »[4] . وذكر بعض آخر ان أول من أسس العربية وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ،أبو الأسود الدؤلي ، وضع العربية « حين اضطرب كلام العرب فغلُبت السليقة ، فكان سراة الناس يلحنون ، فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب ،

---

١ الزينة (١١٧ وما بعدها) .

٢ الامالي ، للقالي (١/٥) ، الاتقان (٢/٢٦٠) .

٣ الفهرست (٦٦) ، الروض الانف (١/٩٦) ، ابن خلكان (١/٦٦٢) ، الحلبي ، الزبيدي ، طبقات (١٣ وما بعدها) ، الفائق (١/٦١١) ، طبقات ، ابن سلام (٥)، ياقوت ارشاد (٤/٢٨٠) ، المثل السائر (٧) .

٤ ضحى الاسلام (٢/٢٨٥) ، (القاهرة ١٩٦١) ، ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) .

والجزم »[1] . وقال (ابن قتيبة) : « وهو أول من وضع العربية »[2] . وذكر (ابن حجر) ، انه أول من وضع العربية ونقط المصاحف[3] . وروى (ابن النديم) ان أربعة أوراق ، وجدت فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي، وكانت بخط (يحيى بن يعمر) ، وتحت هذا خط علان النحوي ، وتحته هذا خط النضر بن شميل[4] . ففي هذه الأوراق دلالة على ان هذه الأوراق من كلام (أبي الأسود) ، وانه كان صاحب علم النحو .

وروى (ابن النديم) رواية أخرى ، ذكر فيها أن (الطبري) قال : « إنما سمي النحو نحواً لأن أبا الأسود الدؤلي قال لعلي عليه السلام ، وقد ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . قال أبو الأسود : واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع ، فسمي ذلك نحواً . وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود الى ما رسمه من النحو . فقال أبو عبيدة أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو الأسود ، وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن عليّ كرم الله وجهه الى أحد ، حتّى بعث اليه زياد أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله ، فاستعفاه من ذلك حتّى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ إن الله بريء من المشركين ورسوله بالكسر ، فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل الى هذا فرجع الى زياد ، فقال : افعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول ، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر . قال أبو العباس المبرد أحسبه منهم ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وان ضممت في فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فهذا نقط أبي الأسود . قال أبو سعيد رضي الله عنه ويقال : إن السبب في ذلك أيضاً أنه مرّ بأبي الأسود سعد ، وكان رجلاً فارسياً من أهل زندخان ، كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فدنوا من قدامة بن مظعون وادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وانهم بذلك من مواليه . فر سعد هذا بأبي الأسود وهو يقود فرسه . فقال : مالك يا سعد لمَ لا تركب ؟ قال : إن فرسي ضالع أراد

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .
٢ المعارف (ص ٣٣٤) .
٣ الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٤ الفهرست (ص ٦٧ وما بعدها) .

طالعاً . قال فضحك به بعض من حضره . فقال أبو الأسود هؤلاء الموالي قد رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة ، فلو عملنا لهم الكلام . فوضع باب الفاعل والمفعول »[1] .

« وقيل لأبي الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ – يعنون النحو – فقال : لقنت حدوده من عليّ بن أبي طالب – عليه السلام – وكان أبو الأسود من القراء ، قرأ على أمير المؤمنين عليه السلام »[2] .

وتذكر رواية أخرى ، ان (أبا الأسود) دخل على (علي) فوجده مطرقاً مفكراً ، فسأله عن سبب ما به ، فذكر له أمر اللحن وما فشا من الخطأ في ألسنة الناس ، وانه يريد أن يصنع كتاباً في أصول العربية ، فانصرف عنه ، وهو مغموم ، ثم عاد اليه بعد أمد ، فألقى الإمام عليه رقعة كتب فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى » ، ثم أمره أن ينحو نحوه ، وان يزيد عليه ، فجمع (أبو الأسود) أشياء وعرضها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكر منها : إن ، وأن ، وليت ، ولعل ، وكأن ، ولم يذكر لكن ، فأشار الإمام عليه بإدخالها عليها[3] .

وذكر (ابن الأنباري) (٥٧٧ هـ) ، « ان من وضع علم العربية، وأسس قواعده ، وحدد حدوده ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأخذ عنه أبو الأسود » . « وسبب وضع علي رضي الله عنه لهذا العلم، ما روى أبو الأسود ، قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : اني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء – يعني الأعاجم – فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إليّ الرقعة ، وفيها

---

١ الفهرست (٦٥ وما بعدها) ، القفطي ، انباه الرواة (١/٦) ، (ذكر أول من وضع النحو) ، أخبار النحويين ، للسيرافي (١٦ وما بعدها) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (٤٣٢٩) .

٢ القفطي ، انباه الرواة (١/١٥) .

٣ القفطي (١/٤) ، (ذكر أول من وضع النحو) ، معجم الادباء (١٤/٤٩) ، ابن الانباري ، نزهة الالباء (٥) .

مكتوب : الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما جاء لمعنى . وقال لي : أنح هذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك ، واعلم يا أبا الأسود ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم .

قال أبو الأسود: فكان ما وقع إلي : إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضتها على علي رضي الله عنه ، قال لي : وأين لكنّ ؟ فقال ما حسبتها منها، فقال : هي منها فألحقها ، ثم قال : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت ، فلذلك سمي النحو نحواً[1] .

وتذكر رواية أن (أبا الأسود) ، وضع بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام ؛ الى أن وصل الى باب إن وأخواتها[2] .

وهناك رواية تنسب الى الأصمعي تذكر أنه قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : جاء أعرابي الى علي عليه السلام ، فقال ، السلام عليك يا أمير المؤمنين. كيف تقرأ هذه الحروف ؟ لا يأكله إلا الخاطون ، كلنا والله يخطو ، قال : فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : يا أعرابي : لا يأكله إلا الخاطئون . قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان الله ليظلم عباده ، ثم التفت أمير المؤمنين الى أبي الأسود الدؤلي ، فقال : إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم ، ورسم له الرفع والنصب والخفض »[3] .

و « روي من حديث علي رضي الله عنه مع الأعرابي الذي أقرأه المقرىء : إن الله بريء من المشركين ورسولِه : حتى قال الأعرابي : برئت من رسول

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) .

٢ ابن الانباري ، نزهة (٥) ، (حاشية رقم ٢) .

٣ الزينة في الكلمات الاسلامية والعربية ، لابي حاتم أحمد بن حمدان الرازي (٧٢) ، (تحقيق حسين بن فيض الله الحرازي) ، (دار الكتاب العربي) ، (١٩٥٧) ، عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٢) ، ابن الانباري، نزهة (٨) .

الله ، فأنكر ذلك علي عليه السلام ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه ما لا يجهل موضعه »[1] .

ونجد رواية أخرى تذكر أن (أبا الأسود) ، كان أول من وضع العربية ، وأول من أملى في الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، والنصب ، والرفع ، والجر ، والجزم . وكان قد أخذ العلم من (عليّ بن أبي طالب) . وحدث ان ابنته لحنت في فعل التعجب ، فقالت لأبيها وكان اليوم حاراً شديد الحرّ : « ما أشدُّ الحر » ، وكانت تقصد « ما أشدَّ الحر » ، أي على باب التعجب . فلما علم (أبو الأسود) بخطأها ، نبهها الى موضع الخطأ . ثم ذهب الى (زياد) والي البصرة ، وطلب منه السماح بوضع علم النحو ، فلم يسمح له . ولما أخطأ رجل أمام (زياد) ، كبر عليه ذلك فوضع (أبو الأسود) قواعد النحو . فأخذ عنه (الليثي) هذا العلم ووسعه ، ثم وسعه (عيسى بن عمر) في كتابيه الجامع والمكمل[2] .

ورويت قصة وضع النحو بشكل آخر ، « روي أيضاً ان زياد بن أبيه بعث الى أبي الأسود ، وقال له : يا أبا الأسود ، إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب ، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعرب به كتاب الله تعالى ! فأبى أبو الأسود ، وكَرِه إجابة زياد الى ما سأل ، فوجه زياد رجلاً وقال له : اقعد على طريق أبي الأسود ، فإذا مر بك ، فاقرأ شيئاً من القرآن ، وتعمّد اللحن فيه . فقعد الرجل على طريق أبي الأسود ، فلما مر به رفع صوته فقرأ : ان الله بريء من المشركين ورسولِه » بالجر ، فاستعظم أبو الأسود ذلك ، وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ! ورجع من حاله الى زياد ، وقال : يا هذا ، قد أجبتك الى ما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابعث إلي ثلاثين رجلاً ، فأحضرهم زياد ، فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس ، فقال :

---

١ الخصائص (٩/٢) .

٢ القفطي ، انباه الرواة على أنباه النحاة (١٦/١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) ، الزبيدي ، طبقات النحويين واللغات (١٣) ، (القاهرة ١٩٥٤) ، طبقات ، لابن سلام (٥) ، العسكري ، المصون (١١٨) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, Leiden, 1965, p. 12. f.

خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد ، فإذا فتحتُ شفتيّ فانقط واحدة فوق الحرف ، واذا ضممتها فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، واذا كسرتُها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعتُ شيئاً من هذه الحركات غُنّة فانقط نقطتين »[1] .

« وقيل : إنه دخل الى منزله ، فقالت له بعض بناته : ما أحسنُ السماء ! قال : أي بنية نجومها ، فقالت : إني لم أرد أي شيء منها أحسن ؟ وإنما تعجبت من حسنها ؛ فقال : إذاً فقولي ما أحسنَ السماء ! فحينئذ وضع كتاباً »[2]. و « قيل : وأتى أبو الأسود عبد الله بن عباس ، فقال : إني أرى ألسنة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقوّمون به ألسنتهم . قال : لعلك تريد النحو ؛ أما إنه حق ، واستعن بسورة يوسف »[3] . و « قال أبو حرب بن أبي الأسود : أول باب رسم أبي من النحو باب التعجب . وقيل : أول باب رسم باب الفاعل والمفعول ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم»[4].

« ومن الرواة من يقول : إن أبا الأسود هو أول من استنبط النحو ، واستخرجه من العدم الى الوجود ، وأنه رأى بخطه ما استخرجه ، ولم يعزه الى أحد قبله »[5] . وكان « أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها »[6] . وروي عن (أبي سلمة موسى بن اسماعيل) « عن أبيه ، قال : كان أبو الأسود أول من وضع النحو بالبصرة »[7] .

وتذكر رواية ان (أبا الأسود) الدؤلي ، انما وضع النحو بأمر من الخليفة (عمر) ، روت ان أعرابياً قدم المدينة في خلافته ، فقال : « من يُقرئني شيئاً مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة ، فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسولِه » بالجر ، فقال الأعرابي : أوَ قد بريء الله من رسوله ! إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ! فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الأعرابي ، فدعاه فقال : يا أعرابي : أتبرأ من رسول الله !

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٩) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٢ القفطي ، انباه الرواة (١/١٦) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ كذلك .
٥ القفطي ، انباه الرواة (١/٧) .
٦ المصدر نفسه (١/١٤) .
٧ ابن الانباري ، نزهة (١٠) .

فقال : يا أمير المؤمنين ، اني قدمت المدينة ، ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ، فأقرأني هذا سورة براءة ، فقال : إن الله بريء من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برىء الله تعالى من رسوله ! إن يكن برىء من رسوله ، فأنا أبرأ منه . فقال له عمر رضي الله عنه : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسولُه » ، فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ ممن برىء الله ورسوله منه . فأمر عمر رضي الله ألا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو »[1] .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) كتب الى (أبي موسى) الأشعري ، كتاباً فيه : « أما بعد : فتفقهوا في الدين وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرّية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب»[2].

ويفهم من هذا الكتاب ، أن (أبا الأسود) ، كان على علم بالنحو وبالإعراب قبل أيام (علي) ، ولهذا طلب الخليفة من عامله أن يكلف (أبا الأسود) بتعليم أهل البصرة الإعراب .

ويظهر من الرواية التي ذكرتها عن التقاء (أبي الأسود) بعبدالله بن عباس، وقوله له : « إني أرى ألسنــة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقوّمون به ألسنتهم » ومن رد (عبدالله بن عباس) عليـه بقوله له : « لعلك تريد النحو »[3] ، أن (ابن عباس) ، كان على علم بالنحو ، ودليل ذلك نصه على اسمه ، مما يدل على أنه كان معروفاً . وذلك إن جاز لنا التصديق بصحــة هذه الرواية ، التي أرى أنها من المصنوعات .

وكان (أبو الأسود) مثل غيره من العرب الفصحاء يكره اللحن واللحانين . روي عنه أنه ذكر اللحن ، فقال : « إني لأجد للحن غمزاً كغمز اللحم »[4] .

ولأبي الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة ، وهو كما نعلم من مشاهير علماء اللغة ، رأي طريف في منشأ هذا العلم خلاصته : ان أبا الأسود كان

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٨) ، الكشاف ، للزمخشري (٢/١٩١) .
٢ القفطي ، انباه الرواة على انباه النحاة (١/١٦) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمركي سركاري خطوط (دهلي ١٩٥٩) ، (ص ١٣٩ ومـا بعدها) ، (القسم العربي) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 14.
٣ القفطي (١/١٦) .
٤ عيون الاخبار (٢/١٥٨) .

أول من وضع العربية ، لكن هذا العلم قد كان قديماً ، وأتت عليه الأيام ،وقلّ في أيدي الناس ، ثم جدده هذا الإمام[1] . فأبو الأسود الدؤلي هو مجدد هذا العلم وباعثه ، وليس موجده ومخترعه .

فنحن اذن أمام رأي[*] جديد ، رأي يرجع علم العربية الى ما قبل الاسلام وكفى لكنه لم يفصل ولم يشرح ولم يتعرض لموضوع متى كان ظهور هذا العلم في القديم وكيف وجد وهل كان للألسنة الأعجمية كاليونانية أو السريانيـة أثر في ظهوره ونشوئه ؟ ثم انه لم يتعرض للأسباب التي جعلت الأيام تأتي عليه حتى قـلّ في أيدي الناس ، الى أن ظهر أبو الأسود فأعاده الى الوجود ، ولم يذكر كيف عثر أبو الأسود على هذا العلم ومن لقنه به حتى بعثه وجدده ؟

تعرض (ابن فارس) لبحث منشأ علم النحو في أثناء كلامه على الخط العربي فقال : «وزعم قوم ان العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً »[2] . وهو يرى ان رأيهـم باطل ، وان بين العرب من كان يقرأ كما كان بينهم من كان أمياً ،وجاء بأمثلة في تفنيد دعواهم ، ثم خلص الى هذه النتيجة : « فإنا لم تزعم ان العرب كلها — مدراً ووبراً — قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة »[3] . ثم قال : « والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض،والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقتك أظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئـة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية،

---

١ الصاحبي (ص ٣٧ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (ص ٣٥) .
٣ (ص ٣٦) .

وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول: إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان . وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب[1] .

وقال (ابن فارس) : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم العربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء ، والهمز ، والمد ، والقصر ، فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل : الخبء ، والدفء ، والملء »[2] .

وقد استخدم (ابن فارس) لفظة (العربية) في معنى : الإعراب . وذكر لفظة (النحو) قبل كلمة : (الإعراب) ، حيث قال كما ذكرت ذلك قبل قليل : « وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ». وذكر غيره أيضاً ان (أبا الأسود) « أول من وضع العربيــة » ، و « أول من نقط المصحف ووضع العربية »[3] . وقد استنتج المرحوم (أحمد أمين) من ذلك الاستعمال انهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف،وان هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد وسمّوا كلامهم (نحواً) سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود وقالوا : انه واضع النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً »[4] . ففرق (أحمد أمين) بين (العربية) و (النحو) ، وجعل العربية سابقة على علم النحو ، وجعل النحو وليداً ولد من العربية . وهو رأي لا يتفق مع رأي (ابن فارس) ، الذي نص على النحو بذكر اسمه ، كما نص على الإعراب من بعده .

هذا هو المشهور المعروف المتداول بين أكثر الناس عن منشأ علم النحو . وقد تعرض (ابن النديم) لهـذا الموضوع فقال : « قال محمد بن اسحاق : زعم أكثر العلماء ان النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وان أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام » ، ثم روى روايات أخرى ،

---

1 الصاحبي (ص ٣٧ وما بعدها) .
2 الصاحبي (٣٩) .
3 ضحى الاسلام (٢/ ٢٨٧) ، الاصابة (٢/ ٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
4 ضحى الاسلام (٢/ ٢٨٧) .

تذكر ان غيره قام برسم النحو ، إذ قال : « وقال آخرون رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ، ويقال الليثي . قرأت بخط أبي عبدالله بن مقلة عن ثعلب ، انه قال : روى ابن ابي لهيعة عن أبي النضر ، قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأخبارها وأحد القراء »[1].

وقد رد (ابن الأنباري) على من ذهب الى أن علم النحو من صنع رجل آخر غير (أبي الأسود) ، إذ قال : فأما زعم من زعم ان أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ونصر بن عاصم فليس بصحيح ، لأن عبد الرحمن بن هرمز ، أخذ النحو عن أبي الأسود ، وكذلك أيضاً نصر بن عاصم أخذه عن أبي الأسود ، ويقال عن ميمون الأقرن »[2] . وكان قد ذكر ما ورد في الأخبار من قيام (أبي الأسود به) ، ثم رجحها على غيرها بقوله : « والصحيح ان أول من وضع النحو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لأن الروايات كلها تُسنِد الى أبي الأسود ، وأبو الأسود يسند الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فإنه روي عن أبي الأسود انه سئل فقيل له : من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لَفَقْتُ حدوده من علي بن أبي طالب رضي الله عنه »[3] .

ويلاحظ ان الذين رجعوا سبب وضع النحو الى الخطأ في قراءة الآية : « إن الله بريء من المشركين ورسوله »[4] ، قد اختلفوا فيما بينهم في العهد الذي لحن فيه قارىء الآية في قراءتها ، فمنهم من جعله في عهد (عمر)[5] ، ومنهم من صيره في عهد (علي)[6] ، ومنهم من رجعه الى أيام (زياد بن أبيه) ، فأنت أمام رواية واحدة ، لكنك تراها وقد نسبت الى ثلاثة عهود ، ومثل هذا الاختلاف أمر غير غريب بالنسبة الى مراجعي الموارد الاسلامية ، إذ نجد فيها أمثلة كثيرة من أمثاله ، ويظهر ان الرواة تلاعبوا في الخبر ، فنسبه كل واحد منهم الى عهد لغاية أرادها ، من هذا التحريف والتغيير .

---

١ الفهرست (ص ٦٥) .
٢ نزهة الالباء (١٠) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٣ المصدر نفسه (١١) .
٤ التوبة ، الآية ٣ .
٥ نزهة (٨) .
٦ الخصائص (٢/٩) .

وقد رجح (أحمد أمين) نسبة النحو الى أبي الأسود ، اذ يقول : « ويظهر لي ان نسبة النحو الى أبي الأسود لها أساس صحيح ، وذلك ان الرواة يكادون يتفقون على ان أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط،وانه ابتكر شكل المصحف ... وواضح ان هذه خطوة أولية في سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ، ويمكن أن تأتي من أبي الأسود ، وواضح كذلك ان هذا يلفت النظر الى النحو .... وعلى هذا فمن قال ان أبا الأسود وضع النحو ، فقد كان يقصد شيئاً من هذا ، وهو انه وضع الأساس يضبط المصحف حتى لا تكون فتحة موضع كسرة ، ولا ضمة موضع فتحة ، فجاء بعدُ من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق ، فاخترع تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، والاسم الى ظاهر ، ومضمر ، وغير ظاهر ولا مضمر ، وباب التعجب وباب إن »[1] .

وقال : « فالذي يظهر انهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف ، وان هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد وسموا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود ، وقالوا : انه واضع النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً ... فالظاهر ان عمله كان في أول الأمر ساذجاً بسيطاً ، وهو وضع علامات الرفع والنصب وما اليهما ولم يزد على ذلك ، فلما سمى العلماء بعدُ بعض ضروب الرفع فاعلاً ، وبعض ضروب النصب مفعولاً ، قالوا : ان أبا الأسود وضع باب الفاعل والمفعول ، وان كان أبو الأسود نفسه لم يعرف فاعلاً ولا مفعولاً ، بل ربما لم يعرف أيضاً رفعاً ولا نصباً ، فإنهم يروون انه قال لكاتبه : اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه ، وإن ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت . وهو تعبير ساذج يتفق وزمن أبي الأسود »[2] .

ولإبراهيم مصطفى ، رأي قريب من رأي (أحمد أمين) . فهو يرى ان المصطلحات والقواعد التي ذكر ان (أبا الأسود) وضعها بأمر (علي) لا يمكن

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٦ وما بعدها) .
٢ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧ وما بعدها) .

أن تتفق وزمنه ، لأن المصطلحات النحوية انما ظهرت في وقت متأخر . ويذكر ان الآراء النحوية ، لم تظهر أيضاً في عهده ، بدليل اننا لا نجد في كتاب سيبويه ولا في كتب النحو الأخرى رأياً له . ويستنتج من ذلك ان عمل أبي الأسود ، كان وضع الإعراب وضبط المصحف[1] .

وقد درس المستشرقون موضوع نشأة علم النحو وأصله ، فمنهم من قال انه نقل من اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون برأي علماء العربية،من انه عربي الأصل والنجار ، وقد نبت كما تنبت الشجرة في أرضها . وتوسط آخرون ، فقالوا : انه كان من إبداع العرب ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق ، تعلموا أيضاً شيئاً من النحو ، وهو النحو الذي كتبه (ارسطوطاليس) ، وبرهان هذا ان تقسيم الكلمة مختلف ، قال (سيبويه) : « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » ، وهذا تقسيم أصلي، أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام الى اسم وكلمة ورباط ، أي الاسم هو الاسم ، والكلمة هي الفعل ، كما يقال له في اللغات الأوروبية Verb ، والرباط هو الحرف، كما يقال له في اللغة الأوروبية Conjunction أي ارتباط ، وهذه الكلمات اسم وفعل ورباط ، ترجمت من اليوناني الى السرياني ، ومن السرياني الى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت[2] .

ثم ان (القياس) هو من أهم الأسس والأصول في المنطق اليوناني ، وحيث انه كان من أهم أدوات علماء النحو في تفريع علم النحو ، حتى صار من مميزات مدرسة البصرة ، والبصرة غير بعيدة عن (جنديسابور) وعن مدارس نصرانية ، كان فيها علماء يدرسون علوم اليونان ، ومنها المنطق والنحو ، فلا يستبعد تأثر (أبي الأسود) الدؤلي ومن جاء بعده بهذه الدراسات ، ودليل ذلك ، هو ظهور هذا العلم في البصرة دون سائر المدن الأخرى ، ومنها مدن الحجاز مهد الاسلام .

ويرى (فون كريمر) ، ان ما يقال من أن ظهور اللحن ، كان السبب في

---

١ مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر (ص ٧١) ، (دسمبر ١٩٤٨ م) .
٢ ضحى الاسلام (٢/٢٩٢ وما بعدها) .

وضع النحو ، دعوى لا يعول عليها ، ولا أساس لها ، وانما هو وليد الحاجة التي أحس بها الأعاجم من آراميين وفرس ، لتعلم العربية ، وللتكلم بها على وجه صحيح[1] .

وقد ألّف بعض المستشرقين بحوثاً في موضوع النحو العربي ومدارسه ، منهم المستشرق (فلوكل)[2] ، و (هول)[3] ، و (رايت)[4] ، وغيرهم ، وقد تطرقوا فيها الى قواعد العربية وآراء علمائها فيها .

وقد ذهب بعض المحدثين مذهب المستشرقين القائلين بتأثر النحو العربي بالنحو اليوناني ، وذلك لأمور ، منها : ان تقسيم الكلم المألوف المتبع في النحو ، هو تقسيم يوناني ، واعتبار القياس أصلاً من أصول النحو ، ووجود مدارس سريانية كانت تدرس علوم النحو في مدارسها عند ظهور الاسلام ، ووجود يونان وأديرة في العراق ، فهذه الأسباب وأشباهها تحمل الانسان على القول ان النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني وبمنطق (ارسطو) خاصة ، لا سيما وان النحو قد ظهر في العراق ، وهو ملتقى الحضارات . وقد تأثر خاصة في عهد (الخليل بن أحمد) الذي كانت له صلات وثيقة مع العلماء السريان ، مثل حنين بن اسحاق وأضرابه ، حتى ذهب بعض الباحثين الى وقوف (الخليل) على اللغة اليونانية .

وقد ذهب (مصطفى نظيف) الى أن (يعقوب) الرهاوي ، كان من معاصري (أبي الأسود) الدؤلي ، وكان من تلامذة (سويرس سيبخت) ، ومن البارعين في الفلسفة والنحو والتأريخ ، ومن المؤلفين في النحو السرياني ، ومن الذين أدخلوا التنقيط والحركات . وكان في البصرة ، والبصرة ملتقى الثقافة ، وحولها أديرة ومدارس ، وهي غير بعيدة عن (جنديسابور) ، فلا يستبعد اذن تأثر (أبي الأسود) بهذه التيارات اليونانية التي كانت هناك[5] .

---

١ فون كريمر ، الحضارة الاسلامية ، (٩٠) ، (تعريب مصطفى بدر) .

٢ Flügel G., Die Grammatischen Schulen der Araber, 1862.

٣ M. S. Howell, Grammer of the Classical Arabic Language, 7 Vols., Allahabad, 1880-1911.

٤ W. Wright, Arabic Grammer, Cambridge, 1896-8.

٥ مجلة المجمع اللغوي ، المجلد السابع (ص ٢٤٨) ، عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٥) .

وأنا على رأي (ابن فارس) القائل ان الإعراب كان قديماً عند العرب ، قدم معرفتهم بالحروف ، وان علم العربية كان قديماً ، ثم جدده (أبو الأسود الدؤلي) على نحو ما حكيته من قوله في ذلك قبل قليل[1]. وعندي ان علم (العربية) كان معروفاً في العراق ، وانه كان يدرس في مدارس الحيرة وعين التمر والأنبار وربما في مواضع أخرى ، كانت غالبية سكانها من العرب النصارى، كان يدرسه لهم رجال الدين ، الذين كانوا يتقنون الإرمية ، وكانوا قد أخذوا علومهم في النحو من اليونان ، بتأثير النصرانية ودراسة الأناجيل والكتب الدينية المؤلفة باليونانية . ولما كان أهل المواضع المذكورة من العرب ، فلا يستبعد ظهور جماعة من رجال الدين النصارى العرب ، اتخذت من مبادىء النحو التي وضعت للسريانية والمنقولة عن اليونانية ، قواعد لضبط العربية بموجبها ، كما ضبطوا الكتابة بها بالأبجدية التي صارت الأبجدية التي انتشرت بين أهل مكة ويثرب وأماكن أخرى. وبين هذه الأبجدية وبين العربية ، من حيث هي قواعد صلة متينة . فلا يستبعد قيام رجال الدين بتعليم العربية والخط للعرب ، لأنهم كانوا يقومون بالتبشير ، وكان من مصلحتهم نشر الكتابة بين من يبشرون بينهم ، وتعليمهم أصول اللغة، ليكون في وسع من يعتنق النصرانية تثقيف المشركين ، وكانت هذه طريقتهم في التبشير في المواضع الأخرى من العالم .

وأنا لا أستبعد احتمال وقوف (علي بن أبي طالب) ، أو (أبو الأسود) الدؤلي على تقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف . وقفا عليه باتصالهم بالحيرة أو بعلماء من أهل العراق كانوا على علم النحو وعلوم اللغة في ذلك العهد ، وقد كان ذلك في الأسس والمبادىء ، فلما جاء الاسلام ، وأخذ المسلمون علم العربية عن المتقدمين ، زادوا فيه وفرّعوا واستقصوا وقاسوا ، وأخذوا من كلام العرب ومن الشعر ، حتى تضخم النحو فبرز على الصورة التي نجدها في (كتاب) سيبويه وفي الكتب التي وضعت بعده .

ومما يؤسف له كثيراً ان المؤرخين اليونان واللاتين والسريان لم يذكروا أي شيء عن علوم العربية عند العرب ، وفي ضمنهم المؤرخون الذين أرخوا تأريخ الكنيسة والنصرانية ، بسبب انهم لم يكونوا يحفلون كثيراً بأمور العرب، وأكثر ما ذكروه

---

١ الصاحبي (٣٨ وما بعدها) .

عنهم انما تناول الغزوات التي كانت تقوم بها القبائل على حدود الانبراطوريتين ، فأضاعوا علينا بذلك فوائد كبيرة ، كان يمكن الاستفادة منها في تدوين تأريخ ظهور الكتابة وعلوم العربية عند العرب . أما الموارد الاسلامية ، فقد رأينا رأيها في أول ظهور النحو ، وقد رأيناه حاصل روايات مضطربة ، يكتنفها غموض ، ثم هي عاجزة في النهاية عن بيان كيفية توصل الإمام (علي) أو (أبو الأسود) الى استنباط هذا التقسيم الثلاثي للكلم ، ثم البحث في (العطف) و (النعت) والتعجب والاستفهام ، وباب إن وأخواتها ، والفاعل والمفعول ، ونحو ذلك من قواعد ، لا يمكن لإنسان استنباطها بمفرده من غير علم سابق له بقواعد اللغات ، مهما أوتي ذلك الانسان من ذكاء خارق وقوة إبداع !

وأنا لا أستطيع أن أتصور ان انساناً يستطيع أن يجلس بمفرده ثم يجيل النظر في محيط اللغة التي يتكلم بها قومه ، وهو غير مسلح بعلم سابق باللغات ولا بمعرفة مسبقة بقواعدها . ثم تنثال عليه المعرفة ويستخرج منها بنفسه القواعد المذكورة ، ثم يضع لأبوابها تلك الأسماء التي لا يمكن لأحد وضعها إلا اذا كان ذا علم بقواعد اللغات عند الأمم الأخرى ، لأنها مصطلحات علمية منطقية ، لا يمكن أن تخرج من فم رجل لا علم له بمصطلحات علوم اللغة والمنطق، ولأنها ليست من الألفاظ الاصطلاحية البسيطة التي يمكن أن يستخرجها الانسان من اللغة بكل سهولة وبساطة حتى نقول انها حاصل ذكاء وعقل متقد . وكيف يعقل أن يتوصل رجل الى استنباط ان الكلمة إما اسم ، أو فعل ، أو حرف ، ثم يقوم بحصرها هذا الحصر الذي لم يتغير ولم يتبدل حتى اليوم ، بمجرد إجالة نظر وإعمال فكر ، من دون أن يكون له علم بهذا التقسيم الذي تعود جذوره الى ما قبل الميلاد . ثم كيف يتوصل الى إدراك القواعد المعقدة الأخرى التي لم يبتدعها انسان واحد ، وانما هي من وضع أجيال وأجيال ، اذا لم يكن له علم بفلسفة الفعل وعمل الفاعل وما يقع منه الفعل على المفعول ، وكذلك الأبواب المذكورة التي لا يمكن أن يتوصل اليها عقل انسان واحد أبداً .

لقد كان للبابليين ولغيرهم من أهل العراق علم باللغات ، وكان لهم أساس في النحو وفي دراسة اللغة ، كما كان اليونان ولغيرهم علم بالمنطق والنحو واللغات ، وصل الى العراقيين قبل النصرانية وبعدها ، بطرق لا مجال للتحدث عنها في هذا المكان . وبقي هذا العلم العراقي اليوناني الى الاسلام ، ومنه جاء في نظري علم

النحو وعلوم العربية ، وبسببه صار العراق القطر الاسلامي الأول الذي نبت فيه علم العربية والنحو ، لا بسبب لحن وقع من أعاجم ، أو من أعراب جهلاء ، ولا بسبب تلك القصص التي ساقوها في أسباب اختراع النحو ، وانما بسبب وجود علم سابق في العربية عند أهل الحيرة والأنبار والقرى العربيــة الأخرى ، وبسبب ظهور الحاجة اليه ، لتعليم العرب وغيرهم أصول لغتهم وكيفية صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ ، فكان ما كان من وقوف (علي) أو (أبو الأسود) ، وهما من أصحاب الذكاء الخارق والتعطش الى البحث والاستقصاء ، فأخذا به ، وتوسع من جاء بعدهما في تفريعه وفي تثبيته في كتب ، كملت وتمت بالتدريج ، فهي من حاصل ذلك التراث العربي الجاهلي .

ولسابقة العراق هذه في الجاهلية بزّ سائر الأقطار الاسلامية في علوم العربية ، حتى (يثرب) و (مكة) ، وهما موطنا الاسلام ومهبطه ، لم ينافساه فيها . قال (السيوطي) : « فأما مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا نعلم بها إماماً في العربية . قال الأصمعي : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة . وكان بها ابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه الى العرب ، فسقط وذهب علمه ، وخفيت روايته »[1] . « وممن كان بالمدينة أيضاً عليّ الملقب بالجمل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً[2]. وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي يقال له : ابن قسطنطين ، شدا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً » . وفي انفــراد العراق ، وتفوقه على غيره من الأمصار في هذه العلوم ، دلالة على وجود البذور القديمة لها في هذه الأرض قبل الاسلام ، فلما دخل العراق في الاسلام أينعت واتسعت ، فكــان ما كان من ظهورها فيه .

وقد تأثر النحاة والمناطقة في الاسلام بمنطق (أرسطو) . هذا الإمام (الشافعي) يشير الى تأثر القوم بمنطقه، إذ قال: « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم الى لسان أرسطوطاليس »[3] . وقد توفي الشافعي سنة (٢٠٤)

---

١ المزهر (٤١٣/٢ وما بعدها) .
٢ المزهر (٤١٤/٢) .
٣ السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام (١٥) ، (علي سامي النشار)، (مطبعة السعادة) .

للهجرة[1] ، فلا بد اذن من أن يكون ميل الناس الى هذا المنطق قد كان هـذا العهد . ولعله قصد بـ (لسان أرسطوطاليس) العلوم اللسانية التي كان قد برع بها اليونان . فتكلموا عن أقسام الكلمة وعن بناء التركيب القياسي وعن الموضوع والمحمول وأنواع الإعراب بحسب لغتهم وعن النعت والضمائر والأفعال وما الى ذلك من قواعد .

و (أبو الأسود) الدؤلي ، هو (ظالم بن عمرو بن سفيان) ، أو (عمرو ابن ظالم بن سفيان) أو (عويمر بن ظليم) ، من أشياع (علي بن أبي طالب) ومن أصحابه . استعمله (عمر) و (عثمان) على البصرة ، ثم استعمله (علي) عليها بعد (ابن عباس) . وقد ذكر (أبو عبيدة) ، انه كان كاتباً لابن عباس على البصرة ، وكان (ابن عباس) يكرم (أبا الأسود) لما كان عاملاً بالبصرة لعليّ ويقضي حوائجه . وقد اشترك مع (علي) في وقعة صفين . ويذكر انـه توفي في وباء سنة (تسع وستين) ، وقيل مات بعـد ذلك ، توفي بالبصرة . قال عنه (الجاحظ) : « أبو الأسود الديلي ، معدود في طبقات الناس ، وهو فيها كلها مقدم ، ومأثور عنه الفضل في جميعها . كان معدوداً في التابعين والفقهاء والمحدثين والشعراء والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين ، والحاضري الجواب ، والشيعة ، والبخلاء ، والصلع الأشراف »[2] . وله أجوبة مسكتة مـع معاوية ، ومع أشخاص آخرين أرادوا التحرش به[3] ، تدل على بديهة وذكاء .

ولأبي الأسود الدؤلي شعر ، وقد طبع شعره في ديوان ، وقد استشهد بـه في شواهد اللغة والنحو ، ونجد نتفاً منه في الكتب التي تعرضت لسيرته[4] ، وليس

---

١ الفهرست (٣٠٩) .

٢ وقد اختلف في اسمه ، فقيل أيضا « عمرو بن عمران » ، و « عثمـان بن عمرو » ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، رقم ٤٣٢٩ ، أدب الكاتب ، لابن قتيبة (٦١١) ، الخزانـة (١/١٣٦) ، (بولاق) ، الاغاني (١١/١٠٥ وما بعدها) ، انباه الرواة (١/١٢ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٢٤٠) ، السمط (٦٦) ، تهذيب ابـن عساكـر (٧/١٠٤) ، الشعر والشعراء (١/٦١٥) .

٣ أمالي المرتضى (١/٢٩٣ وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٤٢ وما بعدها ، ٩٣٤) ، الخزانة (١/١٣٦ وما بعدها) ، كتاب خلق الانسان ، لابي محمد ثابت بن ثابت (٢٤١) ، (الكويـت ١٩٦٥) ، (عبد الستار أحمد فـراج) ، خلـق الانسان ، للاصمعي (٢١٢) ، المخصص (٢/١٨) .

شعره على مستوى رفيع من الوجهة الفنية ، ولا يتعرض للأحداث التأريخيـــة التي وقعت في أيامه[1] .

وقد أخذ عن أبي الأسود جماعة من التلامذة ، صاروا من مؤسسي علم النحو عند العرب ، ومن ميوبيه ومصنفيه . منهم ابنه (عطاء) . وكان قد بعج العربية وبرز بها[2] . ومنهم (يحيى بن يعمر) وهو من عدوان بن قيس ، وكان عدده في (بني ليث بن كنانة) ، ولقي ابن عباس وابن عمر ، وروى عنه قتادة . ومنهم (عنبسة بن معدان) ، المعروف بـ (عنبسة الفيل) ، ويقال ان (نصر ابن عاصم) أخذ عن أبي الأسود[3] ، وأخذ عن (نصر) (أبو عمرو بن العلاء) البصري ، وأخذ عن (أبي عمرو) (الخليل بن أحمد) ، وأخذ عن الخليل (سيبويه) ، وأخذ عن سيبويه (الأخفش)[4] . وممن أخذ عن أبي الأسود : (ميمون الأقرن) ، و (عبد الرحمن بن هرمز)[5] .

وفي رواية : ان الذي برع بعد أبي الأسود ميمون الأقرن ، وبعـــد ميمون عنبسة الفيل ، وبعده عبدالله بن أبي اسحاق ، فقاس وأكثر ، ثم بـــرع بعده أبو عمرو بن العلاء ، ولحقه الخليل بن أحمد ، إلا أن نظر أبي عمرو أقدم من نظر الخليل .

ثم أتى الخليل في النحو بما لم يأت بمثله أحد قبله في تصحيح القياس، واللطافة والتصريف .

وكان يونس في عصر الخليل ، وبقي بعده مدة طويلة ، ويقـــال ان سيبويه مات قبل يونس .

وكان عيسى بن عمر في عهد أبي عمرو وعهد الخليل ، وكان بارعاً أيضاً[6] .

وكان (عنبسة) الفيل ، من أبرع أصحاب (أبي الأسود) الذين كانوا

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٧٢/١) .
٢ القفطي ، انباه الرواة (٢١/١) .
٣ الفهرست (٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) .
٤ القفطي (٦/١) .
٥ ابن الانباري ، نزهة (١١) ، طبقات ، لابن سلام (٥) .
٦ العسكري ، المصون (١١٩) .

يتعلمون منه العربية[1] . وذكر ان الناس اختلفوا إليه بعد (أبي الأسود) ، وكان من بينهم (ميمون الأقرن) الذي كان من أبرع أصحابه . وقد ذكرت رواية تنسب الى (أبي عبيدة) اسم (ميمون الأقرن) قبل عنبسة[2] .

وأما (نصر بن عاصم) الليثي (٨٩ هـ) (٩٠ هـ) ، فإنه كان فقيهاً عالماً بالعربية ، فصيحاً قرأ القرآن على (أبي الأسود) ، وقرأ (أبو الأسود) على (عليّ) ، فكان (أبو الأسود) أستاذه في القراءة[3] .

و (ابن أبي اسحاق) الحضرمي ، هو (أبو بحر عبدالله بن أبي اسحاق) (١١٧ هـ) ، وكان قيّماً بالعربية والقراءة ، شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من (أبي عمرو بن العلاء) ، وكان (أبو عمرو ابن العلاء) أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها . ويقال انه أول من علل النحو . وكان قد قرأ على (يحيى بن يعمر) ، وعلى (نصر بن عاصم) ، وزعم انه كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل[4] .

وأما (يحيى بن يعمر) العدواني ، (١٢٩ هـ) ، فكان عالماً بالعربية والحديث ، لقي (عبدالله بن عمر) ، و (عبدالله بن عباس) وغيرهما من الصحابة . وكان يستعمل الغريب في كلامه[5] . وقد لحق بخراسان ، وكتب ليزيد ابن المهلب ، ألحقه بها (الحجاج)[6] .

وكان (عيسى بن عمر) الثقفي (١٤٩ هـ) ، ثقة عالماً بالعربية والنحو والقراءة ، وصنف كتابين في النحو ، يسمى أحدهما : الجامع ، والآخر الإكمال ، وقد ذكرهما (الخليل بن أحمد) بقوله :

---

١ ابن الانباري ، نزهة (١٢ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢/٣٨١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢/٢٣٣) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (١٣ ، ٤٠٦) .
٣ ابن الانباري ، نزهة (١٤) ، انباه الرواة (٣/٣٤٣) ، بغية الوعاة (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٤ ابن الانباري ، نزهة (١٨ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢/١٠٤ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢/٤٠) ، المزهر (٢/٣٩٨ ، ٤٢٣) ، طبقات ، لابن سلام (٦) .
٥ بغية الوعاة (٢/٣٤٥) ، المزهر (٢/٣٩٨ وما بعدها) ، ابن الانباري ، نزهة (١٦ وما بعدها) .
٦ طبقات ، لابن سلام (٦) .

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عُمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر[1]

وبلغ النحو درجة كبيرة من التقدم ، حين انتقلت الزعامة فيه الى (الخليل ابن أحمد) الفراهيدي ، الذي « كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس »[2] . « فهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه وسبب علله ، وفتق معانيه ، وأوضح الحِجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده . ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم منه رسماً ... واكتفى في ذلك بما أوحى الى سيبويه من علمه، ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره ، ولطائف حكمته ، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده ، وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله ، وامتنع على من تأخر بعده »[3] : وقد كان علم الخليل ، في جملة المنابع التي غرف منها (سيبويه) في كتابه : الكتاب . وقد ذكر (سيبويه) اسمه في (٤١٠) مواضع من كتابه ، وأشار الى آرائه دون أن يذكر اسمه في (١٧٤) مكاناً آخر ، وهو وان لم يشر الى اسمه ، لكن العلماء ذكروا انه قصده[4] .

وأورد (سيبويه) له في كتابه آراء استاذه في إعراب آيات من القرآن الكريم ، وتأويلها ، كما جاء له بشواهد من الشعر في شرح قواعد نحوية ، منها أشعار نص على أسماء قائليها ، مثل أمية بن أبي الصلت ، وطرفة والنابغة والأعشى ، وغيرهم . ومنها أشعار لشعراء مخضرمين واسلاميين ، ومنها أشعار لم يذكر أسماء أصحابها[5] .

ونعت بأنه « نحوي عروضي » ، استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد ، ولم يسبقه الى علمه سابق من العلماء كلهم . وقيل انه دعا بمكة أن يرزق

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٢١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢٣٧/١ وما بعدها) .
٢ الفهرست (٧٠) .
٣ « كلما قال سيبويه سألته ، أو قال : قال من غير أن يذكر قائله ، فهو الخليل » ، ابن الانباري ، نزهة (٥٥) ، السيوطي ، بغية (٢٤٤) .
٤ Wofgang Reuschel, Al-Halil ibn Ahmad der Lehrer Sibawaih's, Als Grammatiker, Berlin, 1959, S. 9.
وسأرمز اليه بـ : Reuschel.
٥ Reuschel, S. 55, 59.

علماً لم يسبق اليه أحد ، ولا يؤخذ إلا عنه ، فرجع من حجه ، ففتح عليه بالعروض »[1]. وذكر انه كان « الغايه في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله » ، « وكان أول من حصر أشعار العرب » . دخل عليه ولده وهو يقطع العروض ، فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جنّ ، فدخل الناس عليه فرأوه يقطع العروض ، فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني   أو كنتَ تعلم ما تقولُ عذلتكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني   وعلمتُ أنك جاهل فعذلتكا[2]

ويظهر من دراسة (كتاب) (سيبويه) ان أثر (الخليل) عليه كان كبيراً، لا يدانيه أثر أي عالم آخر عليه ، وان علم الخليل بالنحو ، كان غزيراً جداً ، يؤيده استشهاد (سيبويه) بآرائه أكثر من استشهاده برأي أي عالم آخر من علماء هذا العلم ، مثل (أبو عمرو بن العلاء) (١٥٤ هـ) ، و (عيسى بن عمر الثقفي) ، (١٤٩ هـ) ، و (يونس بن حبيب) ، (١٨٢ هـ) . ويظهر ان (الخليل) لم يدون علمه بالنحو في رسائل أو كتب ، وانما كان يعلم من يقصده مشافهة[3] ، فكان تلامذته يسمعونه ويحملون العلم عنه ، وذلك على طريقة أكثر العلماء في ذلك العهد .

وللخليل بعد ، آراء خاصة في النحو ، ونجد (الخوارزمي) يتكلم في الفصل الثاني من فصول النحو ، بقوله : « في وجوه الإعراب وما يتبعها على ما يحكى عن الخليل بن أحمد »[4] ، مما يشير الى وجود آراء خاصة له به ، أشير اليها في كتب النحو ، وربما وضعها بعضهم في مؤلفات خاصة بآرائه في النحو . ومن آرائه استعماله مصطلح الرفع في الاسم المضموم المنون ، ومصطلح الخفض في الاسم المجرور المنون ، والنصب في الاسم المفتوح المنون، على حين يسمي بقية الحركات

---

١ القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٢) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (٤٥ وما بعدها) ، انباه الرواة (١/٣٤١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١/٥٥٧ وما بعدها) ، المزهر (٢/٤٠١ وما بعدها) ، مراتب النحويين (٢٧ وما بعدها) .
٣ Reuschel, S. 63. f, John Sib, Sibawaihs Buch über die Grammatik, Berlin, 1884 — 1900, Bd., I, 2, I, 2.
٤ مفاتيح العلوم (٣٠) .

العارية من التنوين في الأحوال والصيغ المختلفة بأسماء الحركات العامة ، أي : الضم ، والكسر ، والفتح ، كما انه يسمي بالجر حركة الكسر التي تربط بين آخر الصيغة الفعلية وبين همزة الوصل . ولا يوجد عنده ما يدل على تأثير النظرية القائلة بأن اختلاف حركات الكلمات المتصرفة متوقف على العامل النحوي ، إلا في التفرقة التي جعلها بين التوقيف ، أي عدم الحركة في أواخر الحروف وما شاكلها ، والجزم ، أي سكون الفعل المجزوم[1] :

وكان سند علماء العربية ومنبعهم الذي أخذوا منه علمهم في وضع قواعد العربية كتاب الله والشعر وكلام العرب . ويكون كلام العرب ، المنبع الأول الذي استمدا منه علمهم في اللغة وفي وضع القواعد ، وهو ما أخذ عن القبائل والأفراد ، وتجد للهجات أهل الحجاز وتميم أهمية كبرى في كتب الشواهد والقواعد[2] . ونظراً لاعتماد العلماء على هذا المورد أكثر من غيره ، وقعوا في مشاكل ، جعلتهم يتحايلون في حلها ، ويرجعون الى التأويل والتفسير ، من ذلك ما وقعوا فيه من عدم تمكنهم من التوفيق بين القواعد التي وضعوها ، وبين ما جاء في القرآن أو الشعر من أمور لا تنسجم مع هذه القواعد . وكل هذه الموارد المذكورة ، هي موارد أخذ منها بالسماع ، وهناك قواعد وضعها العلماء قياساً على كلام العرب ، استنبطوها بطريق (القياس) . و (القياس) من أهم الميزات التي ميزت البصرة على الكوفة في وضع قواعد اللغة .

والقياس ركن من ركنين مهمين ، قام عليهما علم النحو . أما الركن الأول ، فهو السماع . وللدور الخطير الذي قام به القياس في تكوين أصول وقواعد النحو ، قال المستشرقون وغيرهم بتأثر النحو العربي بمنطق (ارسطو) . وممن أخذ وعمل به في النحو (عبدالله بن أبي اسحاق) الحضرمي ، قيل عنه « وكان شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو بن العلاء »[3] . وفرع النحو وقاسه[4] ، وكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل[5] .

---

١ مفاتيح العلوم (٣٠) ، يوهان فك ، العربية (١١) .
٢ Reuschel, S. 63.
٣ نزهة (١٨) ، مراتب النحويين (١٨) ، بغية (٢/٤٠) .
٤ المزهر (٢/٣٩٨) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٦ وما بعدها) .

وكان (الخليل بن أحمد) رأس العاملين بالقيـــاس في فتاوى النحو . كان قياساً بارعاً فيه . قيل عنه « انه سيد قومه ، وكاشف قناع القياس في علمه»[1]. وقد تأثر (سيبويه) بقياس الخليل ، فاستعمله في تثبيت العربيـة . فتجد في كتابـه جملاً مثل : « والقياس كذا » أو « والقياس يأباه » و « سألت الخليـل عن قول العرب ما أميلحه ، فقال : لم يكن ينبغي أن يكون في القياس لأن الفعـل لا يحقر ، وانما تحقر الأسماء »[2].

وقد انقسم علماء اللغة والنحو الى فئتين بالنسبة لاستعمال القياس في اللغة والنحو. ولكن الأغلبية معه ، وقد وقع فعلاً ، وأثر في وضع القواعد أثراً خطيراً . فبه أوجد النحاة كليات القواعد . « قال ابن الأنباري : اعلم ان انكار القيـاس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو ، ولا يعلم أحد من العلماء أنكره . وينسب الى الكسائي انه قال :

انما النحو قياس يتبـع وبه في كل أمرٍ ينتفع[3]

ولعلماء اللغة ، كلام طويل في مدى جواز استعمال القياس ، وفي حالة ورود السماع ، لأن اللغة في نظر بعض منهم سماع ، فإذا كانت سماعاً ، وجب الأخذ بالسماع ، فإذا ورد السماع بطل القياس[4] . وقـد تحدث العلماء عنه . قال (ابن فارس): « أجمع أهل اللغة — إلا من شذ عنهم — ان للغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض » . غير انه قال : « وليس لنـا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها ، ونكتة الباب ان اللغة لا تؤخـــذ قياساً نقيسه الآن نحن »[5] .

ولابن جني رأي في القياس . قال : « واعلم انه اذا أداك القياس الى شيء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت

---

١ الخصائص (١/٣٦٦ وما بعدها) .
٢ ضحى الاسلام (٢/٢٩٢) .
٣ ضحى الاسلام (٢/٢٨١) .
٤ البغدادي ، خزانة (٣/٥٥٩) ، احمد تيمور باشا ، السماع والقياس (١١) .
٥ الصاحبي (٦٧) ، المزهر (١/٣٤٥ وما بعدها) .

عليه الى ما هم عليه ، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته ، فأنت فيه مخير ، تستعمل أيهما شئت ، فإن صح عندك ان العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتة وأعددت ما كان قياسك أداك اليه لشاعر مولد ، أو لساجع، أو لضرورة ، لأنه على قياس كلامهم »[1] .

والاجماع ان النحو لم يجمع ولم يرتب ترتيباً علمياً إلا في الاسلام ، وإلا في أيام العباسيين ، حيث أظهر علماء العربية نشاطاً عظيماً في تتبع القواعد واستنباطها من المظان التي أشرت اليها . وقد استقر وثبت ، بعد أخذ وردّ بين علمائه في المسائل الفرعية التي أثارت الاختلاف فيما بينهم ، فكانت ردود وتخطئة بعض منهم لبعض ، ثم استقر في كتب تمثل اليوم ثروة قيّمة تقدر في هذه اللغة الواسعة الثرية بألفاظها وبقواعدها .

ولا بد في نظري لمن يريد فهم النحو العربي فهماً صحيحاً واضحاً ، من دراسة نحو اللغات الجاهلية من عربية جنوبية ومن ثمودية ولحيانية وصفوية ونبطية ، لأنها وإن فارقت العربية القرآنية في أمور ، إلا انها عربية في النهاية ، ودراستها تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تأريخ تطور عربيتنا والعربيات البعيدة عن الاسلام ، وهي كما نعلم من أقدم اللهجات العربية التي أفادتنا في تقديم كتابات مدونة في تلك الأيام ، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . وقد تحدثت عن نحو اللهجات العربية الجاهلية وعن أمور من صرفها في الجزء السابع من كتابي الأول المعروف بتأريخ العرب قبل الاسلام ، المطبوع ببغداد .

هذا وقد عثر حديثاً على آثار في إمارة (أبي ظبي) وفي مواضع أخرى من سواحل الخليج ، قد تقدم لنا علماً جديداً عن لهجات عربية قديمة لا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ، وبذلك يتسع علمنا عن لهجات العرب قبل الاسلام ، وقد نستطيع بواسطتها الوقوف على كيفية تطور اللغة العربية القرآنية وعلى حصر المواضع التي كان سكانها يتكلمون بها ، أو بلهجات قريبة منها .

بل أرى ضرورة دراسة اللغات السامية للاستفادة من هذه الدراسة المقارنة في فهم خصائص اللغة العربية ولحل بعض مشاكلها في النحو والصرف والألفاظ . وقد بذل المستشرقون — والحق يقال — جهوداً يشكرون عليها في دراسة هذه اللغات دراسة مقارنة . ولدينا اليوم مؤلفات كثيرة في هذه الدراسة ، تعرضت

---

١ الخصائص (١/١٢٦) .

للحروف بنوعيها، الحروف الصامتة « The Consonant Sounds » ، والحروف المتحركة « The Vowels » ، والضمائر، وللأسماء الموصولة وأدوات الوصل، وللأسماء، وللجموع وللأفعال ، ولحروف الجر ، وغير ذلك من الموضوعات التي تجدها في الكتب التي بحث عنها[1] .

ومن أهم الموضوعات التي يجب توجيه العناية اليها ، موضوع : علم الأصوات (Phonology) بالنسبة الى اللغات السامية ، مثل دراسة مخارج الحروف، والحركات، والإمالة، والتفخيم، والإشمام في العربية على وجه خاص ، ثم دراسة صرف هذه اللغات « Morphology » ، مثل جذور الألفاظ التي يغلب عليها الطابع الثلاثي « Triconsonantal » المكون من الحروف الصامتة ، بينما تقل فيها الجذور المكونة من حرفين صامتين أو من أربعة حروف صامتة . ومثل دراسة كيفية تكون الأسماء ، وأبنيتها ، ودراسة الجنس في هذه اللغات ، والعلامات التي تميز الجنس : المؤنث عن المذكر ، ثم العدد : المفرد ، والمثنى ، والجمع . جموع التذكير وجموع التأنيث ، وجموع التكسير ، ثم الظرف ، وحروف الجر ، والعطف ، ودراسة الأفعال بأنواعها ، وحالات الجمل ، وغير ذلك من أمور تخص علم اللغات[2] .

---

١ E. Renan, Histoire Générale des Langues Semitigues, Paris, 1855, William Wright, Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Amsterdam, 1966, Zimmern Verleichende Grammer D. Semitischen Sprache, Berlin, 1898, De Lacy O'leary, Comparative Grammar the Smitic Languages, London, 1923.

٢ وللوقوف على أسماء المؤلفات الموضوعة في مثل هذه الدراسات أرجع الرجـوع الى المصادر الاتية :

H Zimmern, Vergleichende Grammatic der Semitischen Sprachen, Berlin, 1898, Barth J., Sprachwissenschaftliche Untersuchungen zum Semitischen, Leipzing, 1907-11, G. Bergsträsser, Einfuhrung in die Semitischen Sprachen, München, 1928, C. Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, 2 Bande, Semitische Sprachwissenschaft 2 Auflage, Leipzig, 1916, P. Dhorme, Langues et Ecritures Sémitiques, Paris, 1930, Fleisch, Introduction à l'étude des Langues Sémitiques, Paris, 1947, L. H. Gray, Introduction to Semitic Comparative Linguistics, New York, 1934, B. Spuler, Handbuch der Orientalistik, III, Semitistik, Leiden, 1953-54, J. H. Kramers, De Semietische Talen, Leiden, 1949, Levi Della Vida, Linguistica Semitica, Roma, 1961, Nöldeke, Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft, Strsbourg, 1904, Neue Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft, Strasbourg, 1910, G. Rolandi, Le Lingue Semitiche, Torino, 1954, Sabatino Moscti, An Introduction to the Comparative Grammer of the Semitic Languages, Phonology and Morphology, Wiesbaden, 1964.

وقد عالج بعض العلماء موضوعات خاصة من موضوعات النحو والصرف، مثل موضوع الفعل في اللغات السامية[1] . وموضوع الصلة بين العربيات الجنوبية وبين اللغة الحبشية[2] . والصلة بين العربية وبين اللغات السامية الأخرى ، أو بين لغة سامية ولغة سامية أخرى من حيث قواعد النحو والصرف[3] .

---

١ G Bertin, Suggestions on The Voice — Formation of the Semitic Verb, In Journal of the Royal Asiatic, vol. XV, 4. Frithiof Rundgren, Erneurung des Verbalaspekts' im Semitischen Funktionell-Diachronische Studien sur Semitischen Verblehre, Upsala, 1963, G. R. Castellino, The Akkadian Personal Pronouns and Verbal System in the light of Semitic and Hamitic, 1962, Barth J., Die Nominalbidung in den Semitischen Sprache, Leipzig, 1894, Hurwitz, Root Determinatives in Semitic Speech, New York, 1913.

٢ A. Murtonen, Early Semitic, A Diachronical Inquiry into the Relationship of Ethiopic to the other So-Called South-East Semitic Languages, Leiden, 1967.

٣ De Lagarde, Ubersicht Uber die im Aramaischen, Arabischen und Hebraischen Ubliche Bildung der Nomina, Gottingen, 1889 Barth, Die Nominalbildung in den Semitischen Sprachen, Leipzig, 1889.

الفصل السادس والاربعون بعد المئة

الشعر

الشعر والحكم والكهانة والخطابة وأضرابها ، هي أهم المظاهر التي تحدد لنا معالم العقلية الجاهلية ، وتعطينا فكرة عامة عن العقل الجاهلي .

أما الشعر الجاهلي ، فلم يصل الينا من الجاهلية مدوناً قط ، وانما وصل الينا مدوناً في الاسلام . وأقصد اننا لم نعثر حتى الآن على أي شيء منه مكتوباً بقلم جاهلي ، أو محفوراً على نص جاهلي . وكل ما نحفظه ونعرفه من ذلك الشعر ، هو مما وصل الينا بتقول الاسلاميين .

وللعلماء ، من اسلاميين قدامى ومحدثين ، ومن مستشرقين ، آراء في هـذا الشعر . منهم من يبالغ في اليقين ، فيرى ان كل ما وصل الينا منه صحيح ، ومنهم من يبالـغ في الشك ، فيرى ان أكثر ما وصل هو شعر منتحـل فاسد موضوع ، وضع لأغراض عديدة يذكرونها : دينية وسياسية وجنسية وغير ذلك ، ومنهم من يتوسط فيرى أن فيه الصحيح وفيه الفاسد المدسوس ، وان من الخير البحث فيه من نواحٍ متعددة ودرسه دراسة علمية حديثة ونقده نقداً علمياً لتمييز صحيحه من فاسده ، ولكل فريق حجج وأدلة مدونة ، وكتب أفردوها ، فيها رأيهم وحججهم ، اليها استحسن رجوع من يريد الوقوف على تلك الآراء .

ومن الكتب المؤلفة في الأدب الجاهلي ، واشتهرت خاصة بين أدباء العربيـة بنقد الشعر الجاهلي وبتوجيه الشك الى صحة أكثره ، فأثارت لذلك ضجة كبيرة

كتاب ألفه الدكتور طه حسين في العربية بعنوان : « في الأدب العربي » . وقد ردّ عليه أدباء عديدون في مصر وغيرها من البلاد العربية الأخرى . وقد أوضح الدكتور في كتابه العوامل التي حملته على تكوين رأيه المذكور في الأدب الجاهلي .

وليس مرجع هذا الاختلاف هو في حقيقة وجود شعر جاهلي أصلاً ، أو في عدم وجوده . فوجود شعر للجاهليين ، حقيقة لا يشك فيها أبداً ، لأن الجاهليين هم مثل سائر الناس ، لهم حسّ ولهم شعور ، وما دام الحس موجوداً ، فلا بد أن يظهر على شكل شعر أو نثر . وإنما الاختلاف هو في هذا الشعر المروي لنا ، والمدون في بطون الكتب . هل هو جاهلي حقاً ، أو هو منحول فاسد محمول على الجاهليين ؟ أو وسط بين بين ، وفي كمية الصحيح منه ، بالنسبة الى مقدار الفاسد منه ؟ هذا موضع الاختلاف بين العلماء .

وقد وصف القديس (نيلوس) المتوفى حوالى السنة ٤٣٠ للميلاد غارة بدوية على دير سيناء ، وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث عن تغني الأعراب بأشعارهم وهم يستقون الماء[1] . كما أشار المؤرخ (سوزيموس) الى تغني العرب بأشعارهم وذلك في المعارك التي وقعت بينهم وبين الروم في حوالى سنة (٤٤٠ م) ، وهي أغان تشبه الأشعار التي كان يتغنى بها الأعراب في حروبهم وغزواتهم ، مثل يوم ذي قار[2] ، والمعارك التي وقعت في فتوح العراق والشام . ولا زال الأعراب يترنمون بالشعر عند غزوهم بعضهم بعضاً،لأن الشعر عندهم سلاح مهم من أسلحة القتال .

ثم إن شعر المخضرمين ، هو في حد ذاته دليل على وجود شعر سابق جاهلي، فشعر مثل هذا لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير شعر سابق ومن غير شعراء ماضين مهدوا الجادة لمن جاء بعدهم ووضعوا لهم البحور المعروفة ، وقد وجدها المخضرمون ، فنظموا عليها .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى (سورة الشعراء)[3] ، وهي تدل على كثرة الشعراء ، وعلى تأثر الناس بهم ، وعلى تأثير شعرهم في النفوس وتلاعبه بأفئدة

---

١ غرونباوم (١٣٣) .
٢ غروبناوم (١٣٤) ، Die Araber, II, S. 330.
٣ رقم السورة (٢٦) .

الجاهليين . وتجاسر بعض الكفار على الرسول ، فوصفوه بأنه شاعر . ووصفه بهذه الصفة دليل على ما كان للشعر من أثر في نفوس القوم . وقد ورد في الحديث : ان الرسول قال : « إن من البيان لسحراً ، وان من الشعر لحكماً » ، أو ان من الشعر لحكمة[1] . وفي الأخبار انه كان يرفع أناساً ويُذل آخرين ، وان من الناس من كان يشتري ألسنة الشعراء . وورد في الحديث ، ان الرسول ذكر الشعر فقال : « إن من الشعر لحكمة ، فإذا ألبَس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإنه عربي »[2] . ووردت عنه أحاديث أخرى في حق الشعر[3] .

وورد في خبر آخر ان (العلاء بن الحضرمي) ، لما وفد على رسول الله ، قال له الرسول : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده : وهو الذي أخرج من الحبلى نسمة تسعى بين شراسيف وحشى ، فقال رسول الله كف فإن السورة كافية ، ثم قال : أتقول شيئاً من الشعر ؟ فأنشده:

وحيّ ذوي الأضغان تسب قلوبهم   تحيتك الأدنى فقد يدبغ النعل
فإن دحسوا بالكره فاعفُ تكرماً   وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذيك منه استماعه   وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً[4] .

وورد أن الرسول كان يسأل الصحابة أن يسمعوه شعراً ، سأل مرة (الشريد ابن سويد) الثقفي أن ينشده شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشده مائة بيت ، فقال الرسول : كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم ، أو ان كاد ليسلم[5] . وكان الرسول يقول : أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء

---

١ بلوغ الارب (١٣٤/٣) .
٢ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، العمدة (ص ٢٧) ، (اذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر) ، مجالس ثعلب (٣١٧) .
٣ العمدة (ص ٢٧) .
٤ بلوغ الارب (١٣٣/٣ وما بعدها) ، (ان من الشعر حكما ، وان من البيان سحرا) وفي هذه الابيات روايات متباينة ، عيون الاخبار (١٨/٢) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، كنز العمال (١٧٨/٢) .
٥ ارشاد الساري (١٠٠/٩ وما بعدها) ، الاصابة (١٤٦/٢) ، (رقم ٣٨٩٢) ، المزهر (٣٠٩/٢) ، (مائة قافية) ، ابن سعد ، (٣٧٦/٥) . صحيح مسلم (٤٨/٧) ، (كتاب الشعر) .

ما خلا الله باطل ، أو ان أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل[1] .

وورد أنه استشهد ببيت شعر لطرفة بن العبد ، هو :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود[2]

وورد أنه جلس في مجلس من الخزرج ، فاستنشدهم شعر : (قيس بن الخطيم) ، فأنشدوه بعض شعره[3] . وللرواة أخبار عديدة تشير الى سماع الرسول الشعر والى وقوفه عليه وعلمه به ، وأنه كان يكلف الصحابة بأن ينشدوه من شعر الشعراء ، وذكر أنه نهى من رواية رثاء (أمية بن أبي الصلت) قتلى قريش في معركة بدر ، لما فيها من رثاء لمشركين ومن تحريض على الإسلام[4] . وورد أن الشاعر (العباس بن مرداس) ، شهد مع النبي حنيناً على فرسه (العُبيد) ، فأعطاه النبي أربع قلايص ، فقال :

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وكانت نهاباً تلافيتها بكري على المهر في الأجرع

فقال الرسول : اقطعوا عنا لسانه[5] . ولسانه هو شعره .

وروي عن (عمر) قوله : « نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ، مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأبية ، وعز الأنفة ، وسلطان القدرة[6] » .

وقديماً قال ابن عباس : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في

---

١ ارشاد الساري (٩/١٠١ وما بعدها) ، صحيح مسلم (٧/٤٩) ، (كتاب الشعر)
٢ معجم الشعراء (٢٠٢) .
٣ الاغاني (٣/٧) .
٤ الاغاني (٤/١٢٢ وما بعدها) ، الفائق (٣/٥٢) ، الاغاني (٨/٢٤٣) ، ابن سعد (٥/٣٧٦) ، المزهر (٢/٣٠٩) .
٥ الشعر والشعراء (٢/٦٣٤) ، الاشتقاق (١٨٨) .
٦ بلوغ الارب (٣/٨٢) .

الشعر ، فإنه ديوان العرب »[1] . وقيل إنه — أي ابن عباس — ما فسر آية من كتاب الله ، إلا نزع فيها بيتاً من الشعر . وروي أن غيره كان يحفظ شيئاً وافراً من الشعر ، الشعر المروي عن أناس عاشوا قبل الاسلام وأناس أدركوا الاسلام، وأنهم كانوا يتداولونه ويتطارحونه ويحفظونه لصلته بكل فرد منهم . ففيه أخبار القبائل وأيام العرب وما قيل فيهم من مدح أو ذم ، والحق أننا بفضل هذا الشعر حصلنا على كثير من هذا القصص المنسوب الى أهل الجاهلية ، وبفضله عرفنا أخبار الشعراء والقبائل والأيام والحروب ، فهو كما قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب مورد مهم رئيسي يرد منه المؤرخ في تدوينه تأريخ العرب قبل الإسلام .

ونحن لا نكاد نقرأ قصة من قصص (أيام العرب) ، إلا ونجد فيها شعراً، ينسب الى بطل من الأبطال الذين ساهموا فيها ، أو من شاعر يذكر قومه أو خصوم قومه أو خصومه بالأيام التي انتصروا فيها على خصومهم . وقد ساعد هذا الشعر على تثبيت تلك الأيام في ذاكرة رواتها ، حتى وصلت الى أيام التدوين فدونت ، على نحو ما نقرأها في هذا اليوم .

ثم ان كتب الأدب بأنواعها مملوءة بأخبار المساجلات والمطارحات التي وقعت بين الشعراء قبيل الاسلام وفي أيام الرسول والخلفاء. وقد رويت فيها أشعار وقصائد لشعراء جاهليين ، ولشعراء مخضرمين . وقد تحدث معظم المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام عن ذكرياتهم في الجاهلية ، ورووا ما نظموه فيها من أشعار وما وعوه من المناسبات التي نظموا فيها . ثم ان هذه الكتب مملوءة أيضاً بأخبار مجالس سمر تناولت الحوادث والأيام والشعر والشعراء ، وفيها نقد ومفاضلات لما ذكر في تلك المجالس من شعر . وقد روي : ان الرسول كان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ويصغي اليهم ، ويستمع الى ما يروونه وما يتذاكرونه من الشعر[2]، وروي : ان الحطيئة ، وهو شاعر معروف ، كان يتذاكر الشعراء ويحفظ أشعارهم[3].

وقيل للحسن البصري : « أكان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

---

١ المزهر (٢/٤٧٠) ، الاخبار الطوال (٣٣٢) ، طبقات الشعراء ، للجمحي (ص ١٠) بلوغ الارب (٣/٨٢) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٦) ، العمدة (٣٠) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١ وما بعدها) .

٢ الاغاني (١٥/٥٥) .

٣ الاغاني (١٥/٩٤) .

يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . والقريض الشعر »[1] . وروي أن أصحاب رسول الله ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، وأن رسول الله كان يجالسهم في المسجد ، وهم يتناشدون الشعر وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم[2] . وعن (أبي سلمة) : « لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الأشعار، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون »[3] .

وقد ذُكر أن من الأعاجم من تعلم الشعر العربي ورواه وعشقه ، فزعم (ابن الكلبي) مثلاً أن (خُرّخسرة) ، وهو ابن (المروزان) ، كان قد تعرب ، أعجبته العربية فتعلمها وروى الشعر ، وكان والياً على اليمن في عهد (كسرى) ، ثم بلغ (كسرى) تعربه ، وروايته الشعر ، وتأدبه بأدب العرب، فعزله ، وولى باذان[4] .

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب ، كان يهز عواطفهم هزاً ، ويفعل فيهم فعل السحر ، فلا عجب اذا ما قرن (رؤبة) الشعر بالسحر ، وجعله مثله في التأثير لتلك العلة :

لقد خشيتُ أن تكون ساحرا راوية مَرّاً ومَرّاً شاعرا[5]

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر[6] .

وقد بقي أثر الشعر هذا في نفوس الناس حتى بعد زوال الجاهلية ودخول الناس في الاسلام . فكان مدح الشاعر لقوم ، من المآثر والمفاخر ، وكان ذمه

---

١ اللسان (٢١٩/٧) ، الفائق (٣٣٩/٢) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ص ٩٥ وما بعدها) .
٣ الفائق (٢٥٧/١) .
٤ الطبري (٢١٥/٢) ، (دار المعارف) .
٥ العمدة (٢٧/١) .
٦ البيان والتبيين (٨٣/٤) .

مما يشين ويسيء الى المهجو . فلما هجا (جرير) (بني نمير) بقوله :

فغض الطرف انك من نميرٍ   فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

أخذ بنو نمير ينتسبون الى (عامر بن صعصعة) ، ويتجاوزون أباهم نميراً الى أبيه ، هرباً من ذكر (نمير) وفراراً مما وسم به من الفضيحة والوصمة . مع انهم كانوا قبل ذلك اذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومدّ صوته وقال : من بني نمير ، وكانوا جمرة من جمرات العرب . وكان أحدهم اذا رأى نميرياً وأراد نبزه والإساءة اليه قال له : غمض وإلا جاءك ما تكره ، وهو انشاد هذا البيت[1] . وصار الرجل من بني نمير اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر[2] !

قال الجاحظ : « وفي نمير شرف كثير. وهل أهلك عنزة ، وجرماً ، وعكلاً ، وسلولَ ، وباهلة ، وغنياً ، إلا الهجاء ؟!

وهذه قبائل فيها فضلٌ كثيرٌ وبعض النقص ، فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء . وهل فضح الحبطات ، مع شرف حسكة بن عتاب ، وعبّاد بن الحصين وولده ، إلا قول الشاعر :

رأيت الحُمر من شر المطايا   كما الحبطات شر بني تميم[3]

وقد هُجيت فزارة بأكل أير الحمار ، وبكثرة شعر القفا . وكان (حلف) الفزارى قد أطعم جُردان الحمار ، فقتل اللذي أطعمه . وقال : طاح مرقه ، فذهبت مثلاً . ففزارة تعير بذلك الى اليوم . قال الشاعر :

إنّ بني فزارة بن ذبيان   قد سبقوا الناس بأكل الجُردان

وقال آخر :

أصيحانية عُلّت بزُبد   أحب اليك أم أير الحمار[4] ؟

---

١ الخزانة (٣٥/١ وما بعدها) ، (بولاق) ، البيان والتبيين (٣٥/٤) .
٢ البيان والتبيين (٣٥/٤ ، ٣٨) .
٣ البيان والتبيين (٣٦/٤ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (١٧٣/١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣٨/٤ وما بعدها) ، الخزانة (٣٩٥/١) ، سمط اللآلىء (٨٦٠) .

وبين الشعر والسحر صلة ، حتى ذهب بعض الباحثين في الشعر الى أن الشعر هو فن من الفنون التي كان يمارسها السحرة في التأثير في مشاعر الناس ، إذ كانوا يتخذونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس ، لما يستعملونه فيه من كلام مؤثر ساحر يترك أثراً خطيراً في نفس سامعه. ولهذا عدّوا السحرة في جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء ، كما ذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء كانوا (أهل المعرفة) والفهم ، لما كان لهم من ذكاء وصفاء ذهن في فهم تجارب الحياة ، وفي نظم خلاصة تلك التجارب على شكل علم أو حكم تفيد في التهذيب وفي التوجيه وفي وعظ الناس،ولهذا كان لهم رأي في السياسة في السلم وفي الحرب.

وفي كتب الأدب والأخبار أمثلة كثيرة عن أثر الشعر في القبائل وفي الأشخاص من مدح وذمّ ، يرينا كيف كان العرب يتأثرون به ، وكيف كان يلعب دوراً خطيراً في حياتهم ، والعرب قوم عاطفيون ، تلعب العاطفة دوراً خطيراً في حياتهم، وما الشعر إلا نتيجة لهذا الطبع المتوارث في العربي . وقد كان أثر الشعر في المغازي وفي الحروب أثر السيف في الخصوم ، يحرض المقاتلين على الاستبسال في القتال . ولما وقعت الوقائع بين المسلمين والفرس ، لعب الشعر والنثر دوراً خطيراً فيها ، ففي يوم (أرماث) مثلاً ، أرسل سعد الى قادة الكلام ، من رجال النثر والشعر ، يدعوهم الى استخدام سلاحهم في هذه المعارك ، فكان ممن حضر عنده : (طليحة) ، و (قيس بن هبيرة) الأسدي ، و (حذيفة) ، و (غالب) ، و (عمرو بن معديكرب) ، و (ابن الهذيل) الأسدي ، و (عاصم بن عمرو) ، و (ربيع بن البلاد) السعدي ، و (ربعي بن عامر) وهم من الخطباء ، و (الشماخ) ، و (الحطيئة) ، (أوس بن مغراء) ، و (عبدة بن الطيب) وأمثالهم ، وهم من الشعراء ، فلما تجمعوا ، قال لهم (سعد) : « قوموا في الناس بما يحقّ عليكم ويحق عليهم ، عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال»[1]. فالشعر سلاح ماض عند العرب ، مثل الأسلحة الأخرى وربما كان أمضى منها أثراً في نفوسهم لما كان يفعله فيهم ، وكذلك النثر من أثر في النفوس يحملهم

---

١ الطبري (٣/٥٣٣) .

على الإقدام وعدم التهيب من الموت .

ونحن لا نعرف حرباً أو غزواً وقع للعرب ، ثم لم يقترن خبره بشعر أو بأبيات منه ، فقد كان المحاربون ، يحاربون خصومهم بألسنتهم وبسيوفهم وبسهامهم ورماحهم في الوقت نفسه ، وقد رأينا أنه قد كان للشعر الفضل الأكبر في كثير من الأحايين في حفظ أخبار الحروب وبقاء ذكرها الى هذا اليوم . ونستطيع القول بأن قسطاً كبيراً من الشعر الجاهلي ، هو من شعر القتال . ولذلك نستطيع جعله صنفاً قائماً بذاته نسميه شعر القتال والحروب .

ومن هذا الأثر الذي كان يعرفه الشعراء حق المعرفة ، كانوا يستعلون ويترفعون به عن غيرهم ، كتب (هوذة بن عليّ) الحنفي ، الى النبي يجيبه على رسالته التي أرسلها اليه : « ما أحسن ما تدعو اليه واجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك »[1] ، فهو شاعر قومه وخطيبهم ، وله مكانة في العرب ، فهو يرى ان يميز عن غيره بميزات تمنح له، وكان الشعراء يمنّون على قومهم بأنهم ألسنتهم المخرسة الناطقة المهاجمة المدافعة ، فهم من الطبقة المثقفة الممتازة التي حظيت بالتقدير ونالت الاحترام ، بسبب قدرة اللسان ، وأثر الشعر في الناس .

ولا زال الشاعر ينال مكانة محترمة عند أهل الحضر وعند أهل الوبر ، فهو لسان القبيلة حتى اليوم ، يدافع عنها ، ويهجو أعداءها ، ويردّ على شعرائها ، ويشيد بفعال قومه . وللهجاء عندهم مكانة ، إلا انها أخذت تتزلزل عن مكانها، بفعل التحضر الذي أخذ يغزو البوادي ، وتغير العقلية ، وعدم الاهتمام بالقيل والقال ، مما أثر على مكانة الشعر والشاعر أيضاً ، فلم يعد الناس يخشون لسان الشاعر ، كما كانوا يخشونه أيام الجاهلية ، يوم كانوا يسترضون الأعشى والحطيئة، خوفاً من لسانيهما السليطين .

ويطلق على الشعر الذي قيل قبل الاسلام : الشعر الجاهلي، لأنه قيل في الجاهلية التي شرحنا معناها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وأصحابه كلهم ممن عاشوا وماتوا قبل الاسلام . أما الذين أدركوا الاسلام وأسلموا ، فهم الشعراء المخضرمون

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .

لأنهم أدركوا عهدين ، فعاشوا ردحاً من عمرهم في الجاهلية، وقضوا البقية الباقية من حياتهم في الاسلام .

واذا قلنا الشعر الجاهلي ، أو شعر الجاهليين ، فلا نريد أو يريد أحـد منا الغض من شأنـه ، أو الحط من قدره ، فإننا عـلى العكس ، نجد علماء الشعر والأدب ، يرفعون من قدره ، ويرون انه الأوج الذي بلغـه العرب في الشعر ، ولا سيما الشعر المختار منه مثل المعلقات ، فقد بلغ القمة في نظرهم ، وقد بلـغ من تقدير بعضهم للشعر الجاهلي ، انهم كانوا « أحياناً يذهبون بعيداً في تدقيقهم الى حد التهوين من قيمة شاعر لا يمكن إنكار تفوقـه ، لمجرد أن ولادته كانت بعد ظهور الاسلام »[1] .

وروي أن عمر قـال : « الشعر علم قوم لم يكن لهم علمٌ أعلم منه » وأنه كتب الى (أبي موسى الأشعري) : « مُر مَنْ قِبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب »[2] . ولقد قال الجاحظ : « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد في ذلك عـلى الشعر الموزون ، والكلام المقفى،وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يُفيد فضيلة البيان ، على الشاعر الراغب ، والمادح ، وفضيلة المأثرة ، عـلى السيد المرغوب اليه ، والممدوح به »[3] . وقال العسكري : « لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتهـا ومستنبط آدابها ومستودع علومها »[4] ، والشعر هو ديوان تسجيل من لا تسجيـل له ، لجأت اليه الشعوب القديمة حين لم تعرف الكتابة ، ليقوم مقـام الكتابة في تخليد المآثر والأحداث وما يستجد لها من أمور عظام ، بما فيه من أثر عـلى القلب ، ومن نغم يساعد على الحفظ ، فقام الشعر عند العرب مقام الكتابة ، قبل أن تتفشى الكتابة بينهم[5] .

والواقع ان هذا الشعر الجاهلي قد أفاد المؤرخ الباحث في تأريخ الجاهلية فائدة

---

١ بروكلمن (٣٦/١) .
٢ العمدة (٢٨) .
٣ الحيوان (٧٢/١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (٣) .
٤ كتاب الصناعتين (١٠٤) .
٥ كارلو نالينو (٩٥ وما بعدها) .

لا تقدر بثمن ، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التأريخية على فائدته من الوجهة الأدبية ، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر[1] .

ولكن كثيراً من هذا التراث الذي أريد تخليد عمل العرب به قد ضاع ، قبل الإسلام ، بسبب عدم تدوينه وتخليده في كتاب واعتماد الناس في روايته على الحافظة وحدها ، والحافظة لا تحفظ المحفوظ لأمد طويل ، فضاع منه ما ضاع، ووصل بعض منه بصورة يرتاب منها ، وآفة كل ذلك هو المرض الذي يصيب الذاكرة : مرض النسيان . « قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري ؛ فالكتاب أحب إليّ من الحفظ . لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »[2] .

والشعراء الجاهليون كثيرون ، ونجد في كتب اللغة والمعاجم ، أسماء شعراء ، لم يرد لهم خبر في موارد أخرى ، ذكروا لمناسبة الاستشهاد بشعرهم ، ونجد في كتب السير والرجال أسماء رجال لهم شعر ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر . قال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام،أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ؛ واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[3] .

وأنت اذا قرأت بعض الكتب مثل كتاب : (الاشتقاق) ، و (المحبر) ، وكتب المجالس والأمالي والشواهد ، تجد أمامك أسماء عدد كثير من الشعراء الجاهليين ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر الجاهلي ، ولم يحفل بهم علماء الشعر مع انهم كانوا في أيامهم من الشعراء المعروفين ، وقد نص على انهم كانوا من الشعراء .

---

١ Charles James Lyall, Ancient Arabian Poetry, London, 1930, p. Introduction.

٢ الحيوان (٤١/١) ، (نعت الكتاب) .

٣ الشعر والشعراء (٨/١) .

ولا أجد في كلام قدماء العلماء القائل ان الذي وصل الينا من أمر الشعر الجاهلي والشعراء الجاهليين ، هو قليل جداً من كثير جداً ، وأن الذي فات عن علم العلماء من أمر الشعراء الجاهليين أكثر بكثير مما بقي ، أية مبالغة أو تهويل ، لأننا نجد في الموارد التي تتحدث عن الصحابة أو عن الأخبار ، أسماء رجال كانوا شعراء، لا نجد لها وجوداً في كتب الشعر ، ثم ان علماء الشعر أنفسهم يعترفون في كتبهم ودفاترهم ، انهم لم يدونوا من أسماء الشعراء إلا من اشتهر أمره وعرف بغزارة شعره ، أما من كان دون هؤلاء ، فإنهم لم يتحرشوا بهم ، إذ لو تعرضوا بهم لاحتاجوا الى تدوين كتب ضخمة في الشعر والشعراء . أضف الى ذلك موت ذكر كثير من الشعراء ، بسبب عدم وجودِ التدوين قبل أيام التدوين وعجز الذاكرة عن المحافظة على أسماء الشعراء وعلى شعرهم الى أمد طويل . ثم ان الشعر سليقة عند العرب ، وبديهة ، وقلما نقرأ اسم رجل من أهل الجاهلية ، إلا وقد نسب له أهل الأخبار البيت أو البيتين ، أو أكثر من ذلك من الشعر .

ونحن لا نذكر هنا من الشعراء إلا من نبه منهم،وترك أثراً في الأدب العربي الى يومنا هذا .

وقد جرت العادة بأن يدرس الشعر الجاهلي على أسلوب الجادة القديمة ، بالاعتماد على الروايات المدوّنة عنه في الموارد الإسلامية القديمة ، وهي روايات لاقت رواجاً كبيراً بين المعنيين في الشعر الجاهلي ، حتى صارت في درجة القضايا البديهية المسلم بصحتها ، مع أنها في الواقع أخبار آحاد ، وردت في كتب اسلامية قديمة نقلها عنها المؤلفون المتأخرون عن المؤلفين القدماء . مع أن الصحيح هو في وجوب درس الشعر الجاهلي ، على ضوء شعر المخضرمين والشعراء الاسلاميين الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى ضوء الدراسات المعروفة عن الشعر عند الساميين ، مثل شعر السريان الذي يأخذ أيضاً بالوزن والقافية وله مصطلحات قديمة في الشعر تعود الى ما قبل الاسلام ، ثم الشعر العبراني والشعر البابلي وشعر بقية الساميين .

وفي دراسة شعر القبائل الحاضرة المنزوية في جزيرة العرب ، فائدة كبيرة في تشخيص الشعر الجاهلي ، لأنها — ولا سيما القبائل القابعة في العربية الجنوبية — لا زالت تنظم الشعر متأثرة بالقوالب القديمة وببحور جاهلية لم يحفل بها (الخليل) أو أنه لم يقف عليها ، ففات أمرها على العلماء ، وعدت من الشعر العامي المبتذل .

الذي لا يليق بالعالم المتزن أن يحفل به . وقد تفيدنا دراسة شعر القبائل العربية ، الناطقة بلهجات بعيدة عن عربيتنا بعض البعد ، فائدة كبيرة في الحكم على طبيعة ونوع الشعر عند العرب الجنوبيين قبل الاسلام ، فألسنة هذه القبائل هي من وحي الألسنة العربية الجنوبية الجاهلية ، ونظم الشعر بها بأسلوب خاص وبحور متميزة ، هو دليل قاطع على وجود الشعر عند العرب الجنوبيين ، وهو شعر لا نعرف اليوم من أمره أي شيء ، لعدم وصول نماذج مدوّنة منه الينا حتى الآن، ولعدم اهتمام العلماء القدامى به ، لاختلافه عن عربية القرآن الكريم ، وفي الشعر اليماني القديم الذي نجد نماذج منه في المؤلفات اليمانية ، مثل مؤلفات (الهمداني) ، فائدة في تشخيص الشعر اليماني الجاهلي ، وإن كان هذا الشعر قد صيغ وفقاً للشعر العربي القرآني ، بفعل دخول أهل العربية الجنوبية في الاسلام ، وأخذهم بلغة القرآن الكريم .

ولا استبعد احتمال ترك علماء الشعر واللغة كثيراً من الشعر الجاهلي ، لأنه شعر لم ينظم وفق عربية القرآن الكريم أو وفق البحور (الكلاسيكية) المعروفة التي اعتبرت الصور الرفيعة لبحور الشعر العربي الصحيح ، نبذوه لأنه كان في أعينهم من الشعر العامي المبتذل الذي لا يليق بالعالم المدقق توجيه عنايته اليه ، على نحو ما فعلوه بالنسبة الى اللهجات العربية الأخرى التي كانت تختلف عن العربية المألوفة التي أخذوها من أفواه القبائل التي اعتبروا لسانها هو اللسان العربي الفصيح ، وأما ما سواها فألسنة رديئة لا يؤخذ بها ولا يحتج بما ورد فيها من نثر أو نظم .

خبر شعراء الجاهلية :

وقد حصلنا على أسماء شعراء الجاهلية من الموارد الاسلامية ، فقد ذكرتُ ان النصوص الجاهلية لم تتعرض لأمر الشعر الجاهلي ولا للشعراء الجاهليين . ونجد أسماء هؤلاء الشعراء في مختلف الموارد ، في كتب الأدب وفي ضمنها دواوين الشعر ، وفي كتب النثر الباحثة عن الشعر ، وفي كتب التفسير والحديث واللغة والمعاجم ، بل وفي الشعر الجاهلي كذلك ، إذ ذكر بعض اسماء الشعراء . ونجد في شعر بعض الشعراء الذين ظهروا في العصر الأموي أسماء شعراء جاهليين ، فنجد في شعر للفرزدق أسماء شعراء جاهليين ، إذ يقول :

وهبَ القصائد لي النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجرول
والفحل علقمةُ الــذي كانت له ... حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنــه ... ومهلهل الشعراء ذاك الأول
والأعشيــان كلاهمــا ومرقش ... وأخو قضاعة قوله يتمثــل
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى ... وأبو دُواد قولــه يتنخــل
وابنا أبي سلمى زهير وابنه ... وابن الفريعة حين جدّ المقول
والجعفــري وكان بشر قبلــه ... لي من قصائده الكتاب المجمل
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً ... كالسم خالط جانبيه الحنظل
والحارثي أخو الحِـماس ورثته ... صدعاً كما صدع الصفاة المعول[1]

ونجد في شعر (جرير) الذي نقض على الفرزدق قصيدته المذكورة ، وفي شعر (سراقة) البارقي ، ذكراً لأسماء بعض الشعراء الجاهليين إذ يقول :

ولقد أصبت من القريض طريقةً ... أعيت مصادرها قرين مُهلهل
بعد امرىء القيس المُنوّه باسمه ... أيام يَهْذي بالدخول فحومل
وأبو دُواد كان شاعر أمةٍ ... أفلَتْ نجومهم ولمّــا يأفل
وأبو ذؤيب قد أذل صعابــه ... لا ينصبنّك رابض لم يذلل
وأرادهــا حسان يوم تعرضت ... بردى يصفق بالرحيق السلسل
ثم ابنه من بعــده فتمنعت ... وإخالُ أنّ قرينه لم يخذل
وبنو أبي سُلمى يقصر سعيهم ... عنّا كما قصرت ذراعاً جَرول
وأبو بصير ثم لم يُبصر بها ... إذ حلّ من وادي القريض بمحفل
واذكر لبيداً في الفحول وحاتماً ... يلومك الشعراء إن لم تفعل
ومُعقّرا فاذكر وإن ألوى به ... ريب المنون وطائر بالأخيل
وأميّــة البحر الــذي في شعره ... حكم كوحي في الزبور مُفصل
واليذمري عــلى تقادم عهــده ... ممن قضيتُ له قضاء الفيصل

---
1 ديوان الفرزدق (٧٢٠) ، النقائض (١/١٨٩ وما بعدها) .

واقذف أبا الطمحان وسط خوانهم   وابن الطرامة شاعر لم يُجهل
لا والذي حجت قريش بيته   لو شئت إذ حدثتكم لم آتل
ما نال بحري منهم من شاعرٍ   ممن سمعت به ولا مستعجل[1]

وجمع رواة الشعر شعر الشعراء الجاهليين وأخبارهم من موارد متعددة ، من الشعراء أنفسهم ، مثل الحطيئة الذي أدرك الاسلام ، ومثل حسان وبقية الشعراء المخضرمين ، فقد أمدّوا الخلفاء وعشاق الشعر بأخبار من تقدم عليهم من الشعراء ، وبما حفظوه من شعرهم ، وبما استحسنوه من أشعارهم ، كما موّنوهم بأخبارهم التي بقيت عالقة في أذهانهم عن الجاهلية ، وعن أيامهم في الإسلام . كما جمعوا أخبارهم من أبنـاء الشعراء الجاهليين ومن ذوي رحمهم وآلهم ، ونجد في كتب الأخبار والأدب أخباراً كثيرة من شعراء جاهليين[2] ، نقلها الرواة من أبناء أولئك الشعراء ، أو من ذوي قرابتهم ، فقد جاء قسط كبير من شعر الشاعـر (تميم ابن مقبل) عن ابنته أم شريك ، وجاء جزء من شعر (حـاتم) وأخباره عن ابنه (علي)[2] .

وأخذ الرواة شعر الشعراء الجاهليين من قبائلهم كذلك ، فقد كان في القبيلة من يحفظ شعر شعرائها أو شعر البارزين منهم . وقد رأينا كيف استعزت تغلب بقصيدة (عمرو بن كلثوم) فكانت ترددها دوماً حتى عيبت على ذلك[3] ، وكان في القبائل الأخرى من حفظ شعر شعرائها ، ونجد كتب الأدب والأخبـار تنص على أسمائهم ، فتذكر اسم الشخص ، وتنص على اسم قبيلته ، وقد تذكر جملاً مثل « سمع أشياخاً من طيء »[4] ، أو « حدثني الطائيون »[5] ، وأمثـال ذلك ، من جمل تنص عـلى اسم المورد الذي استقى منه الرواية خبره أو شعر الشاعـر من القبيلة .

ونجد في كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سـلام الجمحي (٢٣١هـ) ، وفي

١ ديوان سراقة (٦٤ وما بعدها) .
٢ ديوان حاتم (٣١) .
٣ الاغاني (١١/٥٤) .
٤ المعمرون (٧٢) .
٥ ديوان حاتم (٣٠) .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، أسماء شعراء جاهليين ، وقد أخذا علمها بهم ممن تقدم عليهم فألف قبلهم في موضوع الشعر والشعراء ، ودوّن (اليعقوبي) في تأريخه جريدة بأسماء شعراء العرب ، وقد جعل أولهم (امرىء القيس) ، وذكر (النابغة) الذبياني بعده ، وانتهى بالمخضرمين[١] ، ولكنه لم ينص على اسم المورد الذي أخذ تلك الأسماء منه .

ولا نجد بين أسماء الشعراء الجاهليين اسم شاعر واحد نظم شعره وعاش في العربية الجنوبية أو نظم بلهجة متأثرة باللهجات العربية الجنوبية،فأكثر من ذكروهم من الشعراء انما هم من الشعراء الذين قضوا أكثر حياتهم خارج العربية الجنوبية، وقد كان في هذه العربية شعراء ولا بد ، فليس من المعقول خلوها من الشعر والشعراء ، ولكن علماء العربية لم يعتنوا إلا بشعراء القبائل التي احتكوا بها والتي أخذوا العربية عنها ، والتي اعتبروا لسانها من أفصح ألسنة العرب ، فضاع بسبب ذلك شعر القبائل التي كانت بعيدة عنهم أو التي كان لسانها بعيداً بعض البعد عن العربية التي ارتضوها والتي نزل بها القرآن الكريم .

ولا نجد في الشعر الجاهلي الواصل الينا شعراً نظم في أغراض دينية وثنية ، أي في عبادات القوم قبل الاسلام ، اللهم إلا ما نسب الى بعض الشعراء الأحناف من شعر فيه تحنف ، وإلا ما نسب الى بعض آخر من شعر فيه اشارات عابرة الى عقائد يهودية أو نصرانية . أما شعر وثني خالص، من شعر فيه ترنيم بالأصنام والأوثان ، وتحميد لها وتقديس ، أو وصف لطقوس دينية وثنية ، فهو شعر لم يصل الينا منه شيء ، وسبب عدم وصوله الينا هو الاسلام ، الذي اجتث كل ما يمت الى الوثنية بصلة قريبة ، وقضى عليه ، فامتنع المسلمون من رواية هذا النوع من الشعر .

الشاعر :

والشاعر متعاطي الشعر ومحترفه ومن يقوله ، أو يكثر القول منه . ذكر علماء اللغة أنه إنما سمي شاعراً ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم ، أو لفطنته[٢].

١ اليعقوبي (١/ ٢٣٠ وما بعدها) ، (شعراء العرب) .
٢ تاج العروس (٣/ ٣٠١) ، (شعر) ، العمدة (١/ ١١٦) .

ومن هنا قال البعض ان الشعراء في الجاهلية كانوا أهل المعرفة ، يعنون أنهم كانوا من أثقف أهل زمانهم ، وأنهم كانوا على مستوى عالٍ في الفكر والرأي وفي فهم الأمور[1] .

وجعلوا للشعراء مزايا ، ومنحهم العلماء امتيازات خاصة ، وقالوا عنهم : « الشعراء أمراء الكلام ، يقصرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويؤشرون ويشيرون ، ويختلسون ويعيرون ويستعيرون . فاما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب ، فليس لهم ذلك »[2] .

وفي كتب أهل الأخبار أخبار تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي ، وعلى تقدير الناس لمدارك الشعراء . جاء أن « الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها ، فحذره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله . قال الطفيل : فما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ، ثم قلت في نفسي : واثكل أمي ! والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وان كان قبيحاً تركته »[3] ، وجاء في خبر آخر ، « ان الطفيل لما قدم مكة ، ذكر له ناس من قريش أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يختبر حاله فأتاه فأنشده شعره ، فتلا النبي الإخلاص والمعوذتين فأسلم »[4] . وفي هذا الخبر ان صح دلالة على تقدير الناس لفطنة الشاعر ولسمو مداركه . وقد رأينا ما كتبه (هوذة بن علي) الحنفي ، للرسول من أنه شاعر قومه وسيدهم ، ونجد في خبر (جلاس بن سويد) الصامت الأنصاري ، أن قومه أتوا عليه « فقالوا: إنك امرؤ شاعر ... »[5] ، وفي هذه الأخبار وغيرها دلالة على أن الشعراء كانوا يرون أنفسهم فوق الناس في الفطنة والفهم ، وأن الناس كانوا يرون هذا الرأي فيهم ، لما يجدونه فيهم من فطنة وذكاء .

---

١ فجر الاسلام (٥٥ وما بعدها) .

٢ المزهر (٤٧١/٢) .

٣ ابن هشام ، سيرة (٢٣٥/١) ، فجر الاسلام (٥٦) .

٤ الاصابة (٢١٧/٢) ، (رقم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢٢٣/٢) ، (حاشية على الاصابة) .

٥ الاصابة (٢٤٣/١) ، (رقم ١١٧٦) .

ولا يعني هذا ان الشعراء كانوا كلهم من أرقى الناس عقلاً ، ومن أفهم الناس إدراكاً ، ومن أعلمهم بالأمور وأبصرهم بالمعرفة ، فبينهم ولا شك تفاوت في الإدراك ، وفي مجتمعهم من هو أرقى منهم عقلاً وأكثر منهم إدراكاً ، وهم مع ذلك لا يقولون الشعر أو لا يمارسونه ، مثل الحكام والكهنة ،وأصحاب الآراء. وانما الشعر ، ملكة ، لا تكون إلا عند صاحب حس مرهف ، ولا تظهر إلا في انسان ذكي فطن لبيب ، يذل الألفاظ والأبيات ، لتنصاع لإرادته ، فيخرجها أبياتاً وقصائد تعبر عن مشاعره ومداركه . فالشاعر من هنا من أذكى الناس ، ومن أهل الإدراك والمعرفة .

والشعراء ككل البارزين من طبقات مختلفة تباينت في السويات ، منهم من نبت من عائلة شريفة ، ومنهم من نبت من عائلة أعرابية ، ومنهم من نبغ من بيت فقير . وقد سمى أهل الأخبار شعراء بأسمائهم كانوا من أشراف قومهم ، وسمّوا شعراء كانوا من أوساط أقوامهم ، أو من النابتة . فالنبوغ لا يختص بجماعة دون جماعة ، ولا بطبقة دون طبقة .

وشعر الشاعر هو دليل عقليته ومقدار مداركه ، ولهذا تباين واختلف ، فنجد في شعر شعراء البادية الروح الأعرابية والخشونة تتجسم في المعاني وفي الألفاظ ، ونجد في شعر الحضر أثر النفس الحضرية ، ونرى في شعر الجوابين القاصدين للملوك ، والذاهبين الى الحضر والأعاجم ، أثر اختلاطهم بهم في شعرهم ، كما هو في شعر الأعشى .

والشعراء الجاهليون ، هم من قبائل متعددة ذات لهجات وحروف في الكلام مختلفة ، ولكننا نرى أن لغة شعرهم وطريقة نظمهم واحدة ، لا فرق فيها بين قحطاني وعدناني ، ولا بين شاعر من عرب العراق أو بلاد الشأم وشاعر من أهل اليمن أو الحجاز أو نجد . ومعنى هذا ان الشعراء كانوا اذا نظموا شعراً، نظموه ببحور معروفة مقررة ، وبلغة عالية ، سمت فوق لهجات القبائل، على نحو ما نفعل في الزمن الحاضر من استعمال لغة عربية فصيحة هي لغة القرآن الكريم في النظم والنثر والاذاعة وما شابه ذلك من وسائل الإيضاح والإعلان ، ومن استعمال لهجات محلية في الحياة اليومية الاعتيادية في مثل البيت والسوق والتفاهم بين الناس .

ولكن هذا لا يعني أن الشعراء لم يكونوا ينظمون الشعر بألسنتهم القبلية ،

ووفق قواعد منطقهم ، فقد ثبت من أقوال علماء الشعر ، ومن أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا ينظمون بلهجاتهم ، وكان نظمهم مفهوماً عند غيرهم ، وقد تحتاج الاذن الى تأمل وتفكير ، لإدراك كلمات ومعاني ذلك الشعر . قال (ابن هشام) في شرح الشواهد : « كانت العربُ ينشد بعضهم شعرَ بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[1] . فالشاعر التميمي ، ينظم بلهجته ، والشاعر الأسدي ينظم بلهجة بني أسد قومه الذين ولد بينهم ، والشاعر الثقفي ينظم بلهجة ثقيف ، ولكنه إذا أنشده في غير قومه ، فهم وعرف معناه ، وان احتيج الى ترقيع أو تعديل في بعض الأحيان .

ودليل ما أقول : هو ما نجده في شعر الشواهد من اضطراب في القواعد ، وخروج على أصول النحو والصرف ، وورود ألفاظ في الشعر الجاهلي دعاها علماء اللغة غريبة أو وحشية ، أو ألفاظ خاصة ذكروا أنها وردت في شعر الشاعر ، لأنها من ألفاظ قبيلته، التي انفردت بها دون سائر القبائل ، ولو كان نظم الشعر بغير لغة القبائل ، لما شاهدنا فيه هذه الخصائص اللسانية التي وجدها علماء اللغة في شعر بعض الشعراء ، ولجاء الشعر كله بلا خصائص قبلية وبلا ألفاظ غريبة ، أما وقد صقل العلماء الشعر وحسنوا في بعض ألفاظه ، ونقحوا منه ما نقحوه ، فإن ذلك دليل في حد ذاته على أن الشعراء كانوا ينظمون الشعر بألسنتهم ، وهي غير متباينة تبايناً كبيراً ، فلما ضبطه العلماء ، ودونوه ، هذبوا ما شذّ منه وفق القواعد التي تثبتت في الاسلام . ففي الأخبار أن رواة الشعر ، كانوا يجرون تغييراً في نصوص الشعر ، لتحسين الشعر وتصليحه ، فقد رووا أن (الأصمعي) رفع لفظة (زنديه) من هذا البيت المنسوب الى (امرىء القيس) :

رب رام من بني ثعلٍ مخرج زنديه من ستره

فجعله كفيه[2] ، ورووا اجراء اصلاحات أخرى ، أدخلها علماء اللغة على شعر امرىء القيس وغيره ، اقتضتها قواعد الاعراب أو البلاغة والبيان[3] .

١ المزهر (٢٦١/١) ، (النوع السادس عشر) .
٢ الموشح (٢٢) .
٣ الموشح (٢٢ ، ٢٨ ، ٨٥ ، ٩٥) ، مجالس ثعلب (٤٨١) .

ونجد في (رسالة الغفران) ملاحظة طريفة عن التغيير الذي كان يجريه (المعلمون) في نصوص الشعر ، فقد تصور ان (امرىء القيس) قد سئل عن كيفية وجود (الزحاف) في شعره ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهن صالحِ

وأما المعلمون في الاسلام ، فغيّروه على حسب ما يريدون »[1] .

وورد ان رواة الشعر كانوا ينقحون حتى في شعر الشعراء الاسلاميين ،وحجتهم في ذلك ان « الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء »[2] . وقد يقوم بذلك رواة الشاعر نفسه . ورد ان رواة الفرزدق كانوا « يعدلون ما انحرف من شعره » ، وأن رواة جرير ، فعلوا مثل فعلهم في إصلاح شعر صاحبهم[3] .

والتصحيح المذكور،وان كان جزئياً ، تناول ألفاظاً في الأكثر، لكنه في الواقع تحريف وتزييف ، وتغيير للنصوص وتبديل لها ، حرمنا من الوقوف على قواعد اللهجات العربية عند الجاهليين ، بسبب ان المعدلين المصححين ، لم يشيروا في كثير من الأحايين الى المواضع التي غيّروها وأجروا التصحيح فيها ، ولو فعلوا ذلك ، لكان الأمر علينا سهلاً هيناً ، إذ يكون في وسعنا إرجاع الأمور الى نصابها والوقوف على النصوص،وإن كان عملهم هذا هو عمل مخالف للذمة وللحق، حتى في هذه الحالة ، لأن من قواعد الأمانة وجوب المحافظة على الأصل .

وعندي أن اللغة التي نظم بها الشعر الجاهلي هي لغة الأعراب ، وهي أصل اللغة العربية ، ولغة أهل البوادي والقرى التي غذتها البادية بالسكان . ولهذا قال (الجاحظ) : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً »[4] ، دلالة على ما للبادية والبداوة من صلة به . ولهذا أيضاً جعل العلماء مقياس الشعر أن يكون عربياً بألفاظ نجدية ، أي أعرابية خالصة ، وهذه العربية كانت تمتد فتشمل لغة أعراب بادية الشأم ، بما في ذلك قرى الفرات العربية ، التي جاء سكانها العرب

---

١ رسالة الغفران (٣١٨) .
٢ الموشح (١٢٥) .
٣ الاغاني (٢٥٨/٤) .
٤ البيان والتبيين (٩٤/١) .

من البادية . ولهذا أيضاً حفلوا بالشعر الصلب الصلد ، المنظوم بألفاظ بدوية صميمة تمثل الغلظة والشدة والمتانة ، ولم يميلوا الى شعر شعراء أهل القرى ، لأنه شعر سهل سلس ، خال من صلابة البوادي ومن غلظة الشعر الأعرابي .

وشعراء الجاهلية بعد ، إما شعراء ظهروا بين أهل الوبر ، فهم شعراء أعراب يمثل شعرهم نَفَس البادية : وطبيعة البداوة وعقليتها ، وإما شعر أهل مدر ، وهم الحضر ، المستقرون ، وسكان القرى . ولشعر شعرائهم طابع خاص يمثل الطبيعة الحضرية حسب درجاتها ومراتبها واختلاط أهلها بالأعاجم ، أو انعزالهم في مستوطنات حضرية ظهرت في البادية . فمن سافر من شعرائهم واختلط بالأعاجم ، وشاهد بلاد الشأم والعراق ، تأثر بما شاهده ، فبان ذلك الأثر في شعره ، كما يظهر ذلك في شعر الأعشى ، وعدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت .

وطبيعي أن يكون بين الشعراء تنافس وتحاسد وتقدم وتأخير وتفضيل . وفي كتب الأدب أمثلة على منافرات ومناظرات جرت بين شعراء ، لبيان رأيهم في شعر شعراء آخرين . وطبيعي أيضاً أن يكون بين شعراء الجاهلية كالذي وقع في كل زمان ومكان ، شعراء فحول ، وشعراء دونهم في المنزلة والدرجة وفي القدرة في الشعر .

وذكر أن شعراء الجاهلية كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض ، ويتعارضون في قول الشعر ، ويمالطون . والمالطة : أن يقول رجل نصف بيت ليتمه الآخر ، ويقال لذلك التمليط ، وأن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيماً وهذا قسيماً ، لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[1] ، وهو نوع من التفاخر والتنافر والتعجيز وإظهار النفس بالتغلب على المنافس .

وللشعراء بعد منازل في قول الشعر ، فمنهم الشاعر الفحل ، الذي لا يبارى ، ذكر أنهم كانوا لا يسمون الشاعر فحلاً ، إلا إذا كانت له حكمة . ومنهم الشاعر الخنذيذ . والخنذيذ : الفحل ، والشاعر المجيد المفلق ، وتطلق اللفظة أيضاً على الخطيب البليغ المفوه المصقع وعلى العالم بأيام العرب وأشعارهم[2] . وقيل :

---

١ العمدة (٢٠٢/١) ، (٩١/٢) ، « مالط فلان فلانا اذا قال هذا نصف بيت وأتمه الاخر بيتا . يقال ملط له تمليطا » ، اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .

٢ تاج العروس (٥٦١/٨) ، (الخنذيذ) ، المزهر (٤٨٩/٢) .

الشاعر الخنذيذ ، هو الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غـيّره . والمفلق ، هو الذي لا رواية له ، إلاّ أنه مجود كالخنذيذ في شعره ، وقيـل : هو الذي يأتي في شعره بالفلق ، وهو العجب . ثم يليه الشاعر فقط ، وعرّفوا الشاعر ، أنه الذي لم ينعتــه علماء الشعر بنعت من هذه النعوت ومن كان فوق الرديء بدرجة . وأما الشعرور ، فهو لا شيء ، والشويعر ، هو من كان دون الشاعر في الشعر[1] . ويذكرون أن الشعراء أربعة . ذكروا في شعر ، ينسبه بعضهم الى الحطيئة ، هو :

الشعراء فاعلمــن أربعـه فشاعر لا يرتجى لمنفعــه
وشاعر ينشد وسط المعمعـه وشاعر آخر لا يجرى معه
وشاعر يقال خمر في دعــه

وقالوا : رابع الشعراء ، إزدراء وتحقيراً :

يا رابع الشعراء كيف هجـوتني وزعمت أني مفحم لا أنطـق[2]

وقسم بعض العلماء الشعراء : ثلاث طبقات : شاعر ، وشويعر ، وشعرور[3] .

ورووا : أن امرأ القيس بن حجر أطلق لفظة (الشويعر) على (محمد بن حمران بن أبي حمران) ، وهو ممن سُمي محمداً في الجاهلية ، وهو شاعر قديم، فقال فيه :

أبلغـا عنّي الشويعر أنّي عمد عــين نكبتهن حزيما

فسمي بهذا البيت الشويعر[4] .

قال (الجاحظ) : « والشعراء عندهم أربع طبقات . فأولهم : الفحل الخنذيذ . والخنذيذ هو التام . قال الأصمعي : قال رؤبة : الفحولة هم الرواة . ودون الفحل

---

١ العمدة (١/١١٤ وما بعدها) .
٢ العمدة (١/١١٤ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/٩) ، المزهر (٢/٤٩٠ ومـا بعدها) .
٣ البيان والتبيين (٢/١٠) ، الخزانة (١/١٣٠) .
٤ البيان والتبيين (٢/١٠) الآمدي ، المؤتلف (١٤١) ، السيوطي ، شرح شواهـد (١/٢٦) .

الخنذيذ الشاعر المُفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعرور . ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتني   وزعمتَ أني مفحم لا أنطق

فجعله سكيتاً مخلفاً ومسبوقاً مؤخراً .

وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعــراء ثلاث : شاعر ، وشويعر ، وشعرور . قال : والشويعر مثل محمد بن حُمـران بن أبي حمران ، سمّاه بذلك امرؤ القيس بن حجر »[1] .

ويظهر من القول المنسوب الى (رؤبة) ، ان الشعراء الرواة ، كانوا في نظره أرفع منزلة من بقية الشعراء ، ولعل ذلك بسبب طول حفظهم للشعر ، مما أكسبهم علماً وخبرة ومراناً به ، فصارت صياغتهم له أعلى من صياغــة الشعراء الذين لم يكونوا يحفظون شعر غيرهم من الشعراء ، ولم يكن لهم علم بأساليب غيرهم من الشعراء . فبسبب الحفظ ، طوّعوا الشعر والكلم وركبوا ظهره بكل سهولة، حتى صار طوع أيديهم .

والتقسيم المذكور هو تقسيم اسلامي ، كما ان تقسيمهم الشعراء الى سبع طبقات هو تقسيم اسلامــي كذلك . فقد قسموهم الى أصحــاب المعلقات ، وأصحاب المجمهرات ، وأصحاب المنتقيات ، وأصحاب المذهبات ، وأصحــاب المراثي ، وأصحاب المشوبات ، وأصحاب الملحمات[2] .

عدد الشعراء:

وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين عدد أسماء الشعراء الجاهليين الذين ذكروا في كتب الأدب ، فبلغ عدد ما أحصوه (١٢٥) شاعراً[3] . وهناك أسماء جاهليين استشهد الرواة ببيت أو بأبيات من شعرهم في كتب الأدب واللغة ، لو أحصوا

---

١ البيان والتبيين (٢/٩ وما بعدها) .
٢ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/ ٧٩ وما بعدها) .
٣ زيدان ، (١/ ٧٧) تأريخ آداب اللغة العربية (١/ ٧٥) .

واعتبرناهم من ضمن الشعراء ، لاضطررنا إلى تغيير هذا الرقم ، بإضافة هؤلاء عليهم . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع القول بأن هذا الرقم هو رقم نهائي ومضبوط لشعراء الجاهليـــة ، فالمنطق يحملنا على تصور وجود عدد آخر من الشعراء فات خبرهم عن رواة الشعر ، لأسباب عديدة ، منها قدم أولئك الشعراء ، بحيث لم تتمكن ذاكرة حفظة الشعر من استيعابهم ، ثم بُعد بعضهم عن الأرضين الـتي حصر علماء الشعر فيها نشاط بحثهم عن الشعر الجاهلي وعن شعرائه ، ثم كـون قسم منهم من الشعراء المحليـين ، أو الشعراء المقلين الذين لم ينتشر شعرهم بين الناس .

وقد فطن الى ذلك القدماء ، فقال (أبو عمـرو بن العلاء) : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافـراً لجاءكم عـلم وشعر كثير »[1] ، وذكر غيره ان العلماء على حرصهم على العناية بجمع شعر الشعراء ، لم يتمكنوا مع ذلك من جمع أشعار قبيلة واحدة ، فكيف بشعر كـل القبائل[2] ! والواقع ان في العرب قابلية على قول الشعر ، وبين الصحابة عدد كبير نظموا شعـراً روي في الكتب ، ومع ذلك ، فلم يعدّهم العلماء في جملة الشعراء ، وكذلك الحال بالنسبة الى أهل الجاهلية ، فقد كان بينهم عدد كبير ينظم الشعر .

انشاد الشعر :

وللشعراء طريقة خاصة في انشاد الشعر . يذكرون ان الشاعر منهـم كان اذا أراد إلقاء شعر ، تهيأ لذلك واستعد له ، وأظهر للناس انه يريد إلقاء شعر . ومن أصولهم في الإلقاء أن ينشد الشاعر شعره وهو قائم[3] . وأن يلبس الوشي والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر[4] .

وذكر أن من عـادة الشعراء في الهجاء ، أن أحدهم كان إذا أراد الهجـاء

---

١ المزهر (٢/٤٧٤) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٨ وما بعدها) .
٣ العمدة (١/٢٦) .
٤ البيان والتبيين (٦٠) ، (انتقـاء الدكتور جميـل جبر) ، (بـيروت ، المطبعـة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (٣/١١٥) ، (هارون) .

« دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة »[1] . وقد ذكر (المرتضى) ، في خبر وفود العامريين على النعمان بن المنذر ، وكان فيهم (لبيد ابن ربيعة) ، وهو يومئذ غلام له ذؤابة ، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم ، فأرادوا تقديم (لبيد) ليرجز بالربيع بن زياد رجزاً مؤلماً ممضاً ، وكان هو الـذي صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم ، فحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحدة على فعل شعراء الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم أنشد رجزه الذي أثر في النعمان ، حتى صار سبباً في ابعـاد (الربيع ابن زياد) عنه[2] .

واذا أراد شاعر انشاد شعر ،وقف وأنشد شعره ، بأسلوبه الخاص في الإنشاد[3]. وقد يترنمون في انشادهم ليكون الإلقاء أوقع أثراً في نفوس السامعين . وقد يلقي راوية الشاعر شعر شاعره إذا كان أقدر منه على الإنشاد . وذكر أن (النشيد) هو الشعر المتناشد بين القوم ينشد بعضهم بعضاً ، ومنه نشد الشعر وأنشده ، إذا رفعه . وأنشد بهم ، هجاهم . « وفي الخبر أن السليطين قالوا لغسان : هـذا جرير ينشد بنا ، أي يهجونا »[4] . ولا يخلو الانشاد من الترنم على اللحن الـذي يتسمح به الطبع ، ومن مدّ الصوت ، ليكون للشعر وقع على نفوس سامعيـه ، وتأثير جميل على المنصتين له .

وذكر ان الشعراء كانوا لا ينشدون إلا قياماً ، وقـد يعلو أحدهم موضعاً مشرفاً ، أو يركب ناقته ، ليدل على نفسه ، ويعلم انه المتكلم دون غيره، وكذلك كان يفعل الخطيب[5] . وقد استدل بعض المستشرقين من هـذا الوصف على أن الشعراء انما أخذوا تقليدهم هذا من السحرة : الشعراء الأوائل ومن الكهنة ، لأن السحرة والكهنة كانوا ينظمون الشعر وينشدونه على هيأة خاصة،يلبسون فيها أردية خاصة ويقفون في وضع خاص حين إنشاد الشعر .

---

١ أمالي المرتضى (١٩١/١) .
٢ أمالي المرتضى (١٩١/١) ، الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٢٣/٣) .
٣ العمدة (٢٦/١) .
٤ اللسان (٤٢٢/٣ وما بعدها) ، (نشد) .
٥ العمدة (٢٦/١) .

وذكر ان الملوك كانوا يجلسون خلف الستور حين يستمعون الى شاعر . فروي ان (عمرو بن هند) كان يسمع الشعراء من وراء سبعة ستور[1] . وان الشاعر (الحارث بن حلزة) اليشكري لما طلب قومه منه انشاد قصيدته أمام (عمرو بن هند) ، قال لهم : « والله إني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء ، اذا انصرفت عنه ، وذلك لبرص كان به » . فلما سمع قصيدته أمر برفع الستور ستراً ستراً ، حتى صار مع الملك في مجلسه ، وأمر أن لا ينضح أثره بالماء .. » « وأمره أن لا ينشد قصيدته إلا متوضئاً »[2] .

ولكن العادة أن الشاعر يقف أمام الملك ، الذي قد يكون جالساً على سرير ، فينشده شعره بعد أن يكون قد استأذنه بذلك . وقد يكون في المجلس جملة شعراء ، أذن لهم بالدخول عليه جملة واحدة ، لينشدوا الملك شعرهم وما جاءوا به من شعر في مدحه . ويكون المجلس عامراً بأهل الحظوة من المقربين الى الملك ومن الشعراء الملازمين له . وكانت مجالس ملوك الحيرة ، عامرة بهذه المناسبات ، أكثر بكثير من مجالس الغساسنة ، لغلبة النزعة الأعرابية على ملوك الحيرة وقلة تأثرهم بالحضارة ، وتغلب الحياة الحضرية على الغساسنة وتأثرهم بالحياة اليومية لأهل الشام ، وبنزعة الروم في الحكم وفي آداب السلوك ، حتى أنهم كانوا يتلذذون في الاستماع الى غنائهم ، ولهم قيان في قصورهم وبيوتهم يغنين لهم بغناء الروم .

وكان من عادة الأعراب الطواف حول قبة الملك مع رفع الصوت بالرجز ، ليسمع الملك صوت الراجز ، فإذا عرفه أو أعجبه رجزه ، اذن له بالدخول . وكان الملوك يضربون قبة على أبوابهم ، يقعد فيها الناس حتى يؤذن لهم[3] وقد يكون هذا الرجز مقدمة لدخول الشاعر على الملك حتى يلقي عليه ما يكون نظمه في مدحه وفي مدح آله من شعر .

وكان من عادة الملوك وسادات القوم والأشراف انهم اذا سمعوا الشاعر ، واستحسنوا شعره ، طربوا حتى يظهر الطرب عليهم وأظهروا استجادتهم لشعره ، وربما شربوا اذا كانوا في مجلس الشرب ، وأدنوا الشاعر اليهم ، وأسقوه من

---

١ شرح المعلقات ، للزوزني (١٥٤) ، (صادر) .
٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٣٧٩ وما بعدها) ، (معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي) .
٣ الخزانة (١٥٨/٤) ، (بولاق) ، (الشاهد الثامن والثمانون بعد السبعمائة) .

شرابهم حتى يطرب : وقد يطلبون من الشاعر إعادة إنشاد الأبيات المستجادة . وكان الشاعر يستأذن صاحب المجلس أولاً ليسمح له بانشاده شعره . ولما استأذن (النابغة) الجعدي رسول الله ، أن ينشده شعره ، قال له الرسول : أجدت لا يفضض الله فاك ، أي لا يكسر أسنانك ، والفم هنا الأسنان[1] . ولا زال الناس يرددون هذه العبارة وعبارة : أعده أحسنت وأجدت ، أو أعد أعد ، يقولونها بحماس وبصوت مرتفع ارتفاعاً يتناسب مع حس الاستحسان اذا قال الشاعر قولاً يستجيده العارفون بالشعر .

سوق عكاظ :

ومن مرويات أهل الأخبار ، ان الشعراء الجاهليين كانوا يفدون الى عكاظ ، « فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرقون »[2]. وذكر ان (النابغة) الذبياني ، كان ممن يأتيها ، فتضرب له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكان ممن تحاكم اليه ، الأعشى ، أبو بصير ، فأنشده ، ثم أنشده (حسان بن ثابت) ، ثم الشعراء ، ثم جاءت (الخنساء) فأنشدته ، فقال لها (النابغة) : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت انك أشعر الجن والإنس . فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك . فقبض النابغة على يده ، ثم قال : يا ابن أخي ، انك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك ، فقالت له الخنساء : والله ولا ذا خصيين »[3] .

---

١ تاج العروس (٦٩/٥) ، (فض) .
٢ تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) ، معجم البلدان (٢٠٣/٦) ، البلدان (٧٠٤/٣) ، اللسان (٤٤٧/٧) ، (عكظ) .
٣ الشعر والشعراء (٢٦١/١) ، الاغاني (١٩٤/٨) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٦/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٥٥/٥) .

وروي أن (حسان) كان قد أنشده شعره :

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن بالضحى　وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق　فأكرم بنا خالاً واكرم بنا ابنما

فقال له (النابغة) : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك،وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[1] .

وهو خبر مصنوع ، شك فيه العلماء ، « قال أبو علي : هذا خبر مجهول لا أصل له »[2] . وقد روي عن الآمدي قوله : « أجمعت العرب على فضل النابغة الذبياني ، وسألته أن يضرب قبة بعكاظ ، فيقضي بين الناس في أشعارهم لبصره بمعاني الشعر ، فضرب القبة وأتته وفود الشعراء من كل أوب » . ثم ذكر القصة ، وروي أن الذي فَنَّد حساناً وعاب عليه بيته ، هو الخنساء[3] . والقصة مطعون فيها . « حكى ابن جنى عن أبي علي الفارسي ، أنه طعن في صحة هذه الحكاية »[4] . فالقصة موضوعة،وما هذا القصص المروي عن (عكاظ)، إلا من روايات أهل الأخبار ، وضعوه مع قصصهم الموضوع عن اختيار قريش للغة ، وتخيرها أحسن الألفاظ ، وتحكيمها في الشعر .

وذكر أن (عمرو بن كلثوم) كان ممن حضر سوق عكاظ ، وقد أنشد فيها قصيدته الشهيرة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا　ولا تُبقي خمور الأندرينا

وهي معلقته الشهيرة ، وهي قصيدة طويلة ، ذهب الكثير منها ، قيل إنها كانت تزيد على ألف بيت . وقد ذكر أن الرسول سمع الشاعر ينشد قصيدته هذه بسوق عكاظ[5] .

---

١ العسكري ، المصون (٣ وما بعدها) ، خزانة الادب (٣/٤٣٠ وما بعدها) ، ديوان حسان (٣٧١ وما بعدها) ، الاغاني (٧/١٨٠) .
٢ خزانة الادب (٣/٤٣١) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٦ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٧) .
٥ الاغاني (١١/٥٤) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٢) .

ولم نسمع ان أحداً من الشعراء حكم في الشعر في سوق عكاظ قبل (النابغة) ولا بعده . وسوق عكاظ سوق لم تقم إلا قبيل الاسلام ، ولعل هذا التحكيم من القصص الذي أوجده أهل الأخبار ، وقد يكون (النابغة) قد نظر حقاً في شعر (حسان) ، ولكن ذلك لا يمكن أن يعد حكومة دائمة لسوق عكاظ ، اختصاصها النظر والتحكيم في شعر الشعراء الجاهليين ، واذا كان (النابغة) حاكم سوق عكاظ حقاً ، فلمَ لم نسمع بأحكام أخرى له في حق شعر شعراء آخرين ، ما دام كان يحضرها في كل عام ، وتضرب له قبة من أدم ، يجعلهـا مقراً له ولحكومته ، ولمن يحضر اليه من الشعراء رجاء النظر في شعره .

وذكر ان القبائل كانت تفد الى (عكاظ) وتبحث عن مختلف الأشياء وتتداول أشياء قبيحة أو محمودة ، وان الرسول حضرها ، للدعوة الى الاسلام[1] .

ولم نسمع بأن الشعراء كانوا يتوافدون الى مكة موسم الحج ، لإنشاد شعرهم، على نحو ما ذكر عن سوق عكاظ ، مع أن موسم الحج من المواسم المعهودة بالنسبة الى قريش والى من كان يعيش حولها من قبائل ، وشرف إلقـاء الشعر في موسم الحج أسمى ولا شك من شرف إلقائه بسوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى ، فلو كان الشعراء كما زعم أهل الأخبار يقيمون وزناً كبيراً لحكم قريش في أشعارهم ، فلِمَ لا نجد في أخبارهم خبراً يشير الى تجمع الشعراء في مكة للتبـاري في انشاد الشعر وفي الحصول على شرف التقدير والتقييم من قريش ، ليتباهى الفائز بالتقدير على سائر أقرانه الشعراء ؟ ثم لِمَ لم نسمع بأسماء القصائد التي نالت منهم شرف التقدير والتعظيم ، خلا المعلقات السبع ، التي شك في صحة تعليقها حتى المحافظين من أمثال المرحوم (الرافعي) !

يثرب :

واذا كانت سوق عكاظ موضع تحكيم على النحو الذي رأيناه ، واذا كانت مكة ، قد نظرت في شعر شاعر ، أو شاعرين ، فقد كانت يثرب موضع تقدير

---

[1] التاريخ الكبير (١/٣٢٣) ، البداية والنهايـــة (٣/١٤١) ، معجـــم البلـــدان (٣/٧٠٤) ، الاغاني (١١/٦) ، المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة (٣/١٥١٤ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٢) .

وتقييم للشعر كذلك . فقد ذكر أهل الأخبار ان « النابغة قدم المدينة ، فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ثم أنشأ يقول :

عرفت منازلاً بعريتنات   فأعلى الجزع للحي المبين

حتى اذا انتهى من شعره ، قال ألا رجل ينشد ؟ فتقدم (قيس بن الخطيم) فجلس بين يديه وأنشده قصيدته التي مطلعها : « أتعرف رسماً كاطراد المذهب » حتى فرغ منها ، ثم استمع الى شعر حسان . وذكر انه قال لكل واحد منها : « أنت أشعر الناس »[1] .

وروي ان (النبي) وضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي[2] ، وذلك لما كان للشعر من أثر في نفوس الناس آنذاك .

وقد تخصص أناس بإنشاد الشعر ، كانوا رواة شعر ، ينشدون شعر غيرهم أو شعرهم بأسلوب مؤثر ، ذكر ان منشداً أنشد يوماً رسول الله :

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم   حتى تلاقي ما يمني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن   بكل ذلك يأتيك الجديدان[3]

تطواف الشعراء :

وكان الشعراء يتنقلون من مكان الى مكان ، فكان (الأسود بن يعفر) ، « يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد »[4] ، وجاب (الأعشى) معظم أنحاء جزيرة العرب والعراق وبلاد الشأم ، وكان النابغة يتنقل ، فيزور ملوك الحيرة والغساسنة ، ويسافر الى مكة وسوق عكاظ ، وكان (عمرو بن كلثوم) من المتنقلة كذلك ، وقد علمت أمر (امرىء القيس) وتنقله بين القبائل ، وأمر

---

١ الاغاني (١٠/٣) ، (دار الثقافة) .
٢ الاصابة (٣٢٥/١) ، (رقم ١٧٠٤) .
٣ الفائق (٥٢/٣) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

(الصعاليك) ، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى مكان للحصول على رزقهم ، وأمر (حسان) وقصده ملوك الغساسنة ووصوله الى الحيرة ، بل اننا لا نكـاد ندرس حياة شاعر جاهلي ، حتى نراه جواباً ، متنقلاً من مكان الى مكان، حتى صار التنقل من سـيماء الشاعر عند الجاهليين ، وكان هدفهم في الدرجة الأولى ملوك الحيرة ثم ملوك الغساسنة ، أما ملوك اليمن ، فقلما نجد في أخبـار الشعراء وصولهم اليهم وانشادهم شعرهم أمامهم ، وذلك بسبب أن لسانهم كان لا يشاكل لسان الشعراء ، وأما ما نسب اليهم من شعر ، وما قيل من مدح بعض الشعراء لهم ، فهو من القصص الذي لا يرجع الى أصل ، إلا ما ذكر من شعر في مدح بعض أذواء اليمن،فإن هؤلاء لم يكونوا ملوكاً ، وإنما كانوا سادة مواضع وقبائل تقع شمال اليمن في الغالب ، وقد كانت على صلة بالعرب الشماليين ، وبلغة (ال) في ذلك الحين ، ومع ذلك فإن صلتهم بهم لم تكن على نمط صلة الشعراء بسادة العرب الشماليين .

كان الشاعر يتنقل بين القبائل ، فينزل على ساداتها ويحل في ضيافتهم ، يقصد ملوك الحيرة خاصة ، لما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب ، ولينال عطاياهم، أو ليتوسط في حل ما بين الملوك وما بين قبيلة الشاعر، أو قبائل أخرى من أمور معقدة ومشكلات مستعصية ، كما كان يزور الريف والقرى للميرة ولنيـل هبات ساداتها من تمور أو دقيق أو أي شيء آخر يكون عند الحضر . فيمدح ويذم ، وينشد شعره في أسواق القرى وفي نواديها ومجتمعاتها ، فكان سوق (يثرب) ، وهو المحل الذي يتجمع فيه الناس للبيع والشراء الموضع الذي يقصده الشاعر لإنشاد شعره به ، ثم حل مسجد الرسول محله في الاسلام .

وقد ورد في الشعر الجاهلي ذكر بعض المواضع التي نزل بها الشاعر ، أو التي ارتحل اليها ليزورها ، وقد طمست أسماء بعض منها ، وبقيت أسماء بعض آخر . وقد أمدتنا هذه الأسماء بمـادة طيبة ، أفادتنا في الحصول على معارف تأريخيـة وجغرافية عنها . ففي شعر (الأعشى) ، وهو من الشعراء المتنقلة الذين أكثروا من الأسفار ، وتنقلوا من مكان الى مكان ، نجد أسماء أماكن عديدة وردت في شعره ، مثل (عانة) ، و (بابل) ، و (الحيرة) ، ومواضع في اليمامـة وفي اليمن . وتطرق في شعره هذا الى أحوال من مر بهم ، وذكر أسماءهم وأسماء قبائلهم ، فصار شعره لذلك مورداً هامـاً بالنسبة لنـا ، أفادنا في الوقوف على

نواح مهمة من التأريخ الجاهلي .

رحل (الأعشى) الى الغساسنة ملوك عرب الشأم ، والى المناذرة ملوك عرب العراق ، والى (قيس بن معديكرب) ، والى (ذي فائش) في اليمن ، والى (بني الحارث بن كعب) في نجران ، فمدحهم ونال عطاءهم ،وأقام عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي[1] ، مما يدل — إن صح هذا الخبر — على تأثر سادة نجران بالثقافة الرومية ، التي ربما أخذوها عن طريق ارتباطهم بالروم بروابط النصرانية ، وعلى وجود جالية من الروم في نجران أو رجال دين من الروم ، عينتهم الكنيسة لتعليم الناس أمور الدين ، فقد كان الروم يرسلون رجال دينهم الى هذه المواضع والى غيرها للتبشير ، ولأغراض سياسية في الوقت نفسه :

ونجد في شعر (الصعاليك) أسماء المواضع التي غزوها ، والطرق التي سلكوها في طريقهم الى الغارات ، أو في طرق عودتهم منها الى ديارهم ، ونظراً الى كثرة تنقلهم وخبرتهم بالمواضع ، وبأبعادها وبأصحابها ، لما في هذه الخبرة من العلاقة بنجاح سوقهم وتجارتهم ، أفادتنا إشارتهم الى المواضع والقبائل فائدة كبيرة إذ حصلنا بواسطتها على معارف عن أحوال أهل الجاهلية ، ساعدتنا في سد بعض الثلم الكثيرة من ثلم بنيان التأريخ الجاهلي .

طباع الشعراء :

والشعراء في الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من تتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل ، ومنهم من يحسن الوصف ، فإذا صار الى المديح والهجاء ، أو الى الحكم والموعظة ، خانه الطبع ، وتأخر عن غيره من الفحول[2] . ومن هنا لم يبرز فحول الجاهلية ، ومن عدّ في الطبقة العليا من طبقات الشعراء في كل درب من دروب الشعر وطرقه وفنونه . بل ظهروا وبرزوا في أمور ، وتأخروا أو لم يبرزوا في أمور أخرى ، فذكروا مثلاً ان (النابغة) الجعدي ، كان أوصف الناس لفرس[3] . وورد عن (ابن الأعرابي) قوله :

---

١ الاغاني (٦/٣٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٧) ، (الثقافة) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

« لم يصف أحد قط الخيل إلا احتـاج الى أبي دواد ، ولا وصف الحُمر إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد النعامة إلا احتاج الى علقمـة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج الى النابغة الذبياني[1] .

وقد قال من قدّم (امرأ القيس) على غيره من الشعراء ، انـه « سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيهـا الشعراء ، منه استيقاف صحبه والبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبّه النساء بالظباء والبيض والخيل والعقبان والعصي ، وقيّد الأوابد ؛ وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[2] . فهذه هي المزايا التي ميزت شعره عن شعر غيره من الجاهليين .

وقال علماء الشعر الذين قدّموا النابغة على غيره ، انه كان أحسنهم ديباجـة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف[3] . وأما الذين قدّموا (زهيراً) على غيره ، فقالوا : « كان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح »[4] .

وقلما نجد الشاعر الجاهلي يعنى بوصف الطبيعة أو مظاهرها بشعر خاص ، كأن يصف المطر وحده ، أو الشمس والكواكب والأجرام السماويـة ، أو الجبال أو السهول أو الحيوانات أو النبـات ، وصفاً خاصاً لا يهرب منه الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا الوصف ، ثم إنه قلما يتعمق في الوصف ، فيصف الأجزاء والفروع وكل ما في الموصوف من مميزات ، وهو إذا وصف الطبيعة ، أو تعرض لوصف مشهد بارز منها أثر عليه ، فإنه لا يفرد ذلك الوصف في كلمة خاصة به لا يشاركه فيها مشارك بحيث يكون شعره وصفياً خاصاً بالطبيعة ، وإنمـا يقحم الوصف في القصيدة جرياً على العرف الشعري الذي سار عليه الشعراء ، وليس عن عمد وتقصد لوصف ما يراد وصفه بالذات . ثم هو لا يصف من الشيء الموصوف ككل ، وإنما يصف منه ما يلفت نظره ، وما يؤثر على حسه وبصره . فهـو إذا وقف

---

١ الاغاني (١٥/٩٣) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٨) .

أمام شجرة لا ينظر اليها ككل ، إنما يستوقف نظره شيء خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ؛ وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا) ، إنما يكون كالنحلة يطير من زهرة الى زهرة فيرتشف من كل رشفة .

هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص ، وما ترى فيه من جمال .

فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية — نظماً أو نثراً — من ضعف المنطق ، وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت الى القصيدة — وخاصة في الشعر الجاهلي — فحذفت منها جملة أبيات أو قدمت متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارىء أو السامع ذلك — وإن كان أديباً — ما لم يكن قد قرأها من قبل[1] .

« وهذا النوع من النظر هو الذي قصّر نفَس الشاعر العربي ، فلم يستطع أن يأتي بالقصائد القصصية الوافية،ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسا.

أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جمالاً خاصاً، فذلك ان هذا النظر لما انحصر في شيء جزئي خاص جعلهم ينفذون الى باطنه ، فيأتون بالمعاني البديعة الدقيقة التي تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشيء الواحد ، فيأتون فيه بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة ، من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلأ أدبهم بالحِكَم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة . وأتقنوا هذا النوع الى حد بعيد ، غنيَ به عقلهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتي بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة ، فلكل جملة معان كثيرة تركزت في حبّة ، أو بخار منتشر تجمع في قطرة . ولما جاء الاسلام تقدم هذا النوع من الأدب ، واقتبسوا كثيراً من حكم الفرس والهند والروم »[2] .

وأكثر الوصف الوارد في الشعر الجاهلي ، وصف لم يرد لأن الشاعر قصده وأراده ، وإنما هو وصف ورد عرضاً في القصيدة على النسق الذي زعموا أن (امرأ القيس) وضعه وحاكاه فيه غيره ممن عاصره أو جاء بعده من الشعراء .

---

١ فجر الاسلام (٤٢ وما بعدها) ، (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) .
٢ فجر الاسلام (٤٣ وما بعدها) .

فالشاعر يبدأ بتذكر الديار وبالبكاء على الأحبة وعلى من فارقهم ، فيدفعه ذلك الى الوصف ، بأبيات يجعلها مقدمة لغرض آخر ، فهي إذن مقدمة ، وليست غاية ، ثم هو إذا افتخر وأراد الاشادة بنفسه وبما قام به من عمل بطولي،لم يصف نفسه وصفاً شاملاً عاماً ، وإنما يصف من نفسه بعض ما يعجبه وما يريد التبجح به ، من مغامرات عجيبة قام بها ، ومن صبر وتحمل للجوع وللمشقات وللأهوال ومن عدم تهيب من اقتحام الصحارى الموحشة المخوفة ، وحده ، لأنه لا يرهب أحداً ، ولا يخشى وحشاً ، فإذا جابهه وحش ، وصفه وصفاً ، لا يتعدى النواحي الخاصة التي يراها تظهر شخصيته وتبرز شجاعته ثم يبالغ ويبالغ في وصف المخاطر والمهالك التي لم يبال بها ، للوصول الى هدفه[1] . وهو اذا اصطاد صيداً ، بالغ في الجهد الذي صرفه في صيده ، ونوه بجودة حصانه ، وبالطريقة التي صاد بها فريسته .

وهو اذا ما أراد مدح انسان ، قدم لمدحه مقدمة تزيد على شعر المدح في الغالب ، يذكر فيها الأهوال والمخاطر وحرّ الشوق ، والتلهف الشديد وما شاكل ذلك من أمور ، لتكون شرح حال له يبين مبلغ حبه له واخلاصه لمن سيمدحه، ذي الجود والكرم والسخاء ، الذي يجود بماله وبما عنده ، ولا يحسب لنفسه ولأهله حساباً ، يجود خاصة في السنة الجماد ، وفي مواسم القحط والبرد الشديد حيث تموت الماشية والأنعام ، ومع ذلك فإن الممدوح ، لا يعبأ بكل ذلك ، ويسخر من الخوف من العواقب السيئة التي ستحيق به إن بذر ماله . وقد يبالغ الشاعر نفسه في مدح نفسه ، ويشيد بسخائه وجوده ، ويتخذ من ذلك قصص شجار يقع بينه وبين زوجه في الغالب ، يشاركها ولدها فيه ، بسبب تبذير الرجل لما عنده من مال ، وعدم اهتمامه بما سيحيق بأهله من جوع وفقر .

وهو اذا تغزل ، فوصف محبوبته ، فإنما يصف منها ما يلفت نظره ، من أجزاء في الجسد ، أو لون أو ما شاكل ذلك مما يلفت نظره ، وقد يقارن بينها وبين بعض الحيوانات التي تعجبه مثل المها والظباء ، والخيل والعقبان ، وقد زعم

---

١ غرونباوم (١٦٠ وما بعدها) ،

G. E. Von Grunebaum, Die Wirklichkeitweite der Fruh-arabisch Dichtung, Wien, 1937, S. 148. f.

أهل الأخبار ان (امرأ القيس) كان قد سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها انه شبّه النساء بالأمور المذكورة، فصار تشبيهه هذا لهن سنّة لمن جاء بعده من قالة الشعر[1]. وقد يصف الليل وشدة طوله وسهره فيه ومبلغ ما ألمّ به من أرق لفراق محبوبته ، أو من شدة تذكره لها ، وقد يذكر حزنه على فراقها وكيف انه كان يقضي لياليه ساهراً يناجي نجوم السماء ، ويعدها، ينتظر ذهاب كابوس ليله عنه حتى يتراءى له نور الصباح ، وفيه الأمل والرجاء. ووصفه كله ، ليس وصفاً كلياً عاماً محيطاً ، وانما وصف جزئي ، جاء تعبيراً عن خاطر الشاعر ومحاكاة للطريقة التقليدية التي توارثها الشعراء بعضهم عن بعض.

وقد برز بعض الشعراء في وصف بعض الحيوانات ، كما أشرت الى ذلك في مواضع سابقة ، فقد اشتهر (أبو دؤاد) بوصف الخيل ، حتى صُيّر بطل الشعراء في هذا الميدان ، واشتهر النابغة الجعدي بوصف الفرس ، واشتهر أوس ابن حجر بوصف الحمر ، وعرف علقمة بن عبدة بوصف النعامة[2] . وقد وصف غيرهم من الشعراء هذه الحيوانات وغيرها ، كما نجد ذلك في الأشعار المنسوبة اليهم .

ومن أبرز المواضيع التي تطرق اليها الشعراء في وصفهم لمظاهر الطبيعة: المطر، والنخيل،والسحب ، ومشاهد من فصول الشتاء ، والغدران ومواضع المياه والسيول والنحل والعسل البري ، وبعض الصخور الغريبة ، والطيور ، أما البحر والسفن ، فيردان على لسان الشعراء الساكنين على السواحل ، حيث يرون البحر وسفنه[3] . ولكننا لا نجد وصفاً خاصاً بهما ، يظهر فيه تأثر الشاعر وإحساسه بالبحر ، أو بالسفن ، من حيث هي سفينة ، وإنما ذكر وهماً عرضاً على سبيل الفخر،ولأمور عرضية أخرى . فالوصف الجاهلي لعناصر الطبيعة خالياً من المشاعر الخاصة ، ومن التصورات المعبرة عن إلهام الشاعر الذاتي[4] .

وذكر أن من الشعراء من كان يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ولا يهمّ في الهجاء ، ومنهم من كان ينعي على نفسه ويتعهر ،

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، الاغاني (١٥/٩٣) .
٣ غرونباوم (١٦٢) .
٤ غرونباوم (٦١) .

ومنهم امرؤ القيس والأعشى[1] ، وأن منهم من كان يأتي بالحكم في شعره ، مثل: زهير والأفوه الأودي ، وعلقمة بن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ، وعـدي بن رعلاء الغساني وغيرهم . والحكمة عندهم ، هي خلاصة تجارب الشاعر في هذه الحياة ، وما حصل عليه من رأي استوحاه من الواقع أو من أفواه الناس وتجاربهم. وهي بديهة من البديهيات صيغت شعراً . قد يبدع في صياغتها الشاعر فتسير بين الناس مثلاً ، كقول (عدي بن رعلاء) الغساني :

ليس من مات فاستراح بميْتٍ ... إنما الميْتُ ميّتُ الأحيـاء[2]

ويظهر من بيت ينسب الى (زهير) ، هو :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً ... أو مُعاداً من لفظنا مكرورا

إن شعراء الجاهلية كانوا قد وصلوا الى حالة جعلتهـم يقلدون من سبقهم في الشعر ويحاكون طرقهم في النظم ، فهم يعيدون ويكررون ما قاله الشعراء قبلهم . وهو كلام يؤيده قول علماء الشعر في القصيدة ، من انها كانت تسير على هدى الشعراء السابقين في نظمها من بدء بذكر الديار والبكاء على الأحبة والأطلال الى غير ذلك من وصف ، حتى صارت هذه الجادة ، جادة يسير عليها كل شاعر، مما أثّر على البراعة والابتكار وجعل الشعر قوالب معروفة معينة ، يختار الشاعر قالباً منها ليعبر به عما يريد أن يقوله نظماً . ومن هنا ثار (أبو نواس) وأضرابه من الشعراء الاسلاميين على (التقليد) في النظم ، لتبدل العقلية وتغير الزمن ، وإن كنت أجد في هذه الثورة مبالغة وإفراطاً في الاتهام . فالقصيدة الجاهلية وإن غلب عليها التقليد والمحاكاة ، مما ضيق عليها المعاني ، إلا انها لم تكن كلها على نمط واحد على نحو ما يقوله علماء الشعر والأدب ، كان الشعراء يراعون الوزن والقافية والرويّ ، وهي أمور ميزت الشعر العربي عن غيره ، ولكنهـم كانوا يتحللون فيما عدا ذلك ، فيأتون بالمعاني التي تدركها عقولهم ، وهي معـان استمدت من المحيط ، وهو محيط واحد ، ألهم الشعراء شعرهم ، فمن ثم تقارب الإلهام وقربت المعاني ، ولو تعددت طبيعته ، لما غلب على شعر أولئك الشعراء ما نأخذه عليهم

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٤) .
٢ الاصمعيات (١٧١) .

وقد كان تغير وتنوع معاني الشعر في الاسلام ، نتيجة حتمية لتغير المحيط .

المغلبون :

ومن الشعراء من كان لا يستطيع الوقوف أمام خصمه ، فيغلب ، فذكر ان (النابغة) الجعدي ، كان مختلف الشعر مغلّباً . وكانت العرب اذا قالت مغلّباً فهو مغلوب ، واذا قالت غَلَّبَ ، فهو غالب ، وقد غلبت عليه (ليلى الأخيلية) و (أوس بن مغراء) القريعي[1] . وذكروا ان (تميم بن أبي مقبل) وهو شاعر (خنذيذ) مُغَلَّب عليه النجاشي ، ولم يكن اليه في الشعر ، وقد قهره في الهجاء، ثم هاجى النجاشي عبد الرحمان بن حسان فغلبه عبد الرحمان ، وكان « ابن مقبل جافياً في الدين . وكان في الاسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها ، فقيل له تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم ، فقال :

وما لي لا أبكي الديار وأهلها   وقد زارها زوار عك وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب   فوقــع في اعطاننا ثم طيرا[2]

ومن المغلبين : الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم ، وغلبه المخبــل السعدي ، وغلبه الحطيئة ، وقد أجاب الإثنين ولم يجب الحطيئة[3] .

والهجــاء فن ، لا يستطيع كل شاعر أن يبرز فيه ، لما يجب أن يكون في الشاعر من ذكاء وسرعة خاطر وقابلية على إسكات الخصوم . ولهذا كان يخشى جانب الهجاء فلا يتعرض له إلاّ من وهب قابلية على الهجاء . وإلا غلب عــلى أمره ، وصار من المغلبين[4] ، وهو من أهم أبواب الشعر عند الجاهليين ، لما له من أثر في حياتهم ، حيث يغض من منزلة المهجو .

وذكر أن الشعراء كانوا ينازعون بعضهم بعضاً على التقدم في الشعر ، فذكر أن (امرأ القيس) نازع (الحارث بن التوأم) اليشكري ، فقال : إن كنت

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٦ وما بعدها) ، العمدة (١٠٤/١) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
٣ العمدة (١٠٧/١) .
٤ العمدة (١١١/١ وما بعدها) .

شاعراً ، فأجز أنصاف ما أقول فأخذا يتسابقان في ذلك[1] . وذكر أن (عبيد بن الأبرص) الأسدي ، لقي (امرأ القيس) يوماً ، فقال له عبيد : كيف معرفتك بالأوابد ؟ فقال له : إلق ما شئت ، وأخذا يتسابقان . وكان آخر ما أجاب به (امرؤ القيس) هذا البيت :

تلك الموازين والرحمان أنزلها   ربّ البرية بين الناس مقياسا[2]

وهو بيت مفضوح ، يحدثك عن أصله وفصله ، وعن هذه القصة ، وقد فات وضاع القصة أن هذا الشعر لا يمكن أن يقع من شاعر جاهلي ، لا سيما إذا كان على شاكلة امرىء القيس .

والأبيات الجيدة من الشعر ، في نظر نقدة الشعر هي الأبيات التي إذا سمعت صدر البيت فيها ، عرفت قافيته[3] .

بدء الشاعر :

يبدأ الشاعر بالشعر بعد إحساسه بوجود ميول له الى الشعر ، تدفعه دفعاً على الاقبال عليه ، فيبدأ بحفظ الشعر المقال ، وبنظمه ، ويكون هذا النظم نظماً تجريبياً غير متقن في بادىء أمره ، ويقال لهذه المرحلة (الغرزمة) . و (الغرزمة) أن يقول الشاعر الشعر قبل أن يستحكم طبعه وتقوى قريحته[4] . فإذا قوي به وتمكن منه صار من الشعراء المجيدين .

وقد كان الشاعر الجاهلي مثل الشاعر الاسلامي ، يبدأ لكي يكون شاعراً بحفظ شعر غيره ، ولا سيما شعر المشهورين من الشعراء المتقدمين عليه ، حتى يرويه رواية ، وقد يتصل بشاعر يعجبه من شعراء قبيلته أو من غيرهم ، فيلازمه ويأخذ عنه شعره ، حتى يصير راوية له ، ومتى شعر هذا الراوية الحافظ لشعر غيره ، ان عوده قد استوى ، وأن له قابلية في النظم ، أظهر شعره للناس ، وربما بعد

---

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (١٦ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١٧ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/١١٦) .
٤ الخزانة (١/٢٢٠) .

أن يكون قد وجد التشجيع ممن اتصل بهم من الشعراء ومن المتذوقة للشعر ، العارفين به ، ولما كانت الشاعرية موهبة يصقلها المران ومرور الزمن ، فإن كثيراً من الشعراء نظموا الشعر وهم صغار ، ولا سيما أولئك الذين نشأوا في بيت برز به شاعر ، أو في بيوت عرفت بنبوغ جماعة من أفرادها بنظم الشعر، فهناك بيوت معرقة توارثت الشعر أباً عن جد . وقد سبق أن ذكرت قول (رؤبة) : « الفحولة هم الرواة »[1] ، أي ان فحول الشعراء هم الذين كانوا في بادىء أمرهم رواة شعر .

فحفظ الشعر وروايته هو مران كان لا بد منه لتهيئة شاعر فحل . وقد وجدت هذه النظرة عند الفرس كذلك ، قال صاحب (جهار مقالة) : « ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عنفوان الشباب وريق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين ويديم القراءة في دواوين الأئمة ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضايق القول ودقائق الكلام حتى يرتسم في طبعه صور الشعر وطرائقه ، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه ، فيرتقي قوله ويعلو طبعه . فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر ، وانقاد له الكلام عمد الى علم الشعر وقرأ العروض ... وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسرقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها ليكون جديراً بالأستاذية »[2] . وهذا الرأي الفارسي الاسلامي ، يمثل ولا شك رأي قدماء الفرس كذلك .

ولم يكن الشاعر الجاهلي يعرف بالطبع هذه العلوم والقيود التي عرفت وشاعت في الإسلام ، بل لم يكن الشاعر العربي الإسلامي ليحفل بالعروض وبعلوم البيان والبديع ، لأن الشعر طبع وموهبة ، وإذا لم تكن الموهبة موجودة في إنسان، فلن يكون هذا الشخص شاعراً موهوباً مرموقاً مهما حفظ من الشعر ، وبلغ من علم العروض ومن علوم الصناعة الأخرى التي لها مساس بالشعر . فقد برز شعراء جاهليون قالوا شعراً وهم بعد أحداث ، واشتهروا به بين قومهم وهم بعد شباب. وطرفة الشاعر المشهور ، كان لا زال شاباً حين قتل ، ومع ذلك ، نجد ترتيبه بعد امرىء القيس في ترتيب المعلقات ، وفي ترتيبه هذا دلالة على تقدير قصيدته، واشتهار أمره بالشعر . وقد نظم (الخليل بن أحمد) شعراً ، وهو صاحب

---

١ البيان والتبيين (٩/٢ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (٤٨) .

العروض ، ونظم غيره من فحول هذا العلم ، ومن فحول اللغة شعراً ، لم يعد من عيون الشعر العربي ، ونظم الفقهاء شعراً عرف بين نقاد الشعر ، وأهل البصر به بـ (شعر الفقهاء) ازدراء به . بل نجد الشعراء الإسلاميين يهزأون من قواعد العروض .

ألقاب الشعراء :

ويذكر أهل الأخبار ويؤكدون ان أهل الجاهلية لقبوا شعراءهم بألقاب ،مثل: المهلهل ، والمرقش ، وذا القروح ، والمثقب ، والمنخل ، والمتنخل ، والأفوه، والنابغة . قيل عن المهلهل ، انه انما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره ، أي رقته وخفته، وقيل لاختلافه ، وقيل : بل سمي بذلك لقوله :

لما توقل في الكراع شريدهم هلهلت أثأر جابراً أو صنبلا

وقيل لأنه كان أول من هلهل الشعر وأرقه وألان ألفاظه[1] .

وذكر ان (المرقش) الأكبر ، انما عرف بذلك ، بقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

أو لأنه كان قد عني بتنميق شعره ورقشه[2] .

وروي ان لقب (المثقب) العبدي ، انما جاءه من قوله :

رددن تحية وكنن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون[3]

وعرف المتلمس بهذا الاسم بقوله :

فهذا أوان العرض حيّا ذبابه زنابيره والأزرق المتلمس[4]

---

١ العمدة (٨٦) ، (ويروى لماتوغر) و « لما توعر في الكلاب هجينهم » ، و (توعر) ، المزهر (٤٣٤/٢) ، الاغاني (٥٧/٥) .

٢ الشعر والشعراء (١٣٨/١) ، تاج العروس (٣١٤/٤) ، (رقش) ، البيان والتبيين (٣٧٥/١) ، المفضليات (٤١٠/١ ، ٤٨٥) .

٣ الشعر والشعراء (٣١١/١) .

٤ الشعر والشعراء (١١٤/١) ، البيان والتبيين (٣٧٥/١) .

وعرف الممزق بهذا اللقب لقوله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل   وإلا فأدركني ولما أمزق[1]

وعرف (النابغة) بالنابغة بقوله :

وحلت في بني القين بن جسر   وقد نبغت لنا منهم شؤون[2]

وذكر أن (منبه بن سعد) ، إنما عرف بـ (أعصر) ، بقوله :

أعمير إن أباك غيّر لونه   مرّ الليالي واختلاف الأعصر

وان معاوية بن تميم ، إنما عرف بـ (الشقر) بقوله :

قد أحمل الرمح الأصم كعوبه   به من دماء القوم كالشقرات[3]

وأن (خالد بن عمرو بن مرة) ، إنما قيل له (الشريد) ، بقوله :

وأنا الشريد لمن يعرفني   حامي الحقيقة ما له مثل

وأن (صريم بن معشر) التغلبي ، إنما عرف بـ (أفنون) بقوله :

منّيتنا الودّ يا مضنون مضنونا   أزماننا إن للشبان أفنونا[4]

وأن معاوية بن مالك ، سُمي معود الحكام لقوله :

أعوّد مثلها الحكّام بعدي   إذا ما الأمر في الأشياع نابا[5]

وذكر (الجاحظ) ، أن (عمرو بن رياح) السلمي أبو خنساء ابنة عمرو ، غلب عليه الشريد ، لقوله :

تولي إخوتي وبقيت فرداً   وحيداً في ديارهم شريدا[6]

---

١ الشعر والشعراء (١/٣١٤) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩٨) ، المزهر (٢/٤٣٢ ، ٤٣٦) .
٣ المزهر (٢/٤٣٤) .
٤ المزهر (٢/٤٣٥) .
٥ المزهر (٢/٤٣٦) .
٦ البيان والتبيين (١/٣٧٥) .

وعرف (خداش بن بشر) ، (خداش بن لبيد بن بيبة) ، (خداش بن بشر بن خالد بن بيبة) من بني مجاشع بالبعيث ، لقوله :

تبعث مني ما تبعثّ بعدما　　أمرت حبالي كل مرتها شزارا [1]

وذكروا ان (الفند) ، واسمه (شهل بن شيبان) ، انما سمي الفند ، لأنه قال يوم (قضة) : أما ترضون أن أكون لكم فِنــداً . وأن طفيلاً الغنوى ، انما عرف بالمحبر ، لتحسينه الشعر [2] ، وأن علقمة بن عبدة ، انما لقب بالفحل، لأنه تزوج امرأة امرىء القيس ، بعد أن حكمت له بتفوقه على زوجها في الشعر أو لأنه كان في قومه علقمة آخر عرف بـ (علقمة) الخصي ، وان (الأعشى) انما عرف بصنّاجة العرب ، لكثرة ما تغنت العرب بشعره [3]،وأن عنترة انما لقب بالفلحاء لفلحة كانت به [4] .

وأما الأغربة من الشعراء ، فهم عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمي ، وأبو عمير ابن الحباب السلمي ، وسليك بن السلكة ، وتأبط شرّاً ، والشنفرى ، وكلهم من الشعراء الجاهليين [5] .

الى آخر ما ذكروه من تعليلات عن أسباب تلقيب الشعراء الجاهليين بألقابهم التي عرفوا بها ، تجد بقيتها مدونة في كتب الأدب واللغة والأخبار [6] .

ولعلماء الشعر بعد ، آراء في أحسن وأجود ما قيل من شعر في فن واحد من فنون الشعر ، فقيل أرثى بيت قيل في الجاهلية ، قول أوس بن حجر :

أيتها النفس اجملي جزعا　　إن الذي تحذرين قد وقعا

---

١ وقيل : سمي البعيث لقوله :
تبعث مني ما تبعث بعدما　　استمر فؤادي واستمر عزيمي
البيان والتبيين (١/٢٠٤ ، ٣٧٤) ، المؤتلف (٥٦) .

٢ المزهر (٢/٤٣٠) .

٣ المزهر (٢/٤٣١) .

٤ المزهر (٢/٤٣٢) .

٥ المزهر (٢/٤٣١) .

٦ المزهر (٢/٤٣٦ وما بعدها) .

وهذا على رأي الأصمعي[1] ، وقدم غيره قول عبدة :

فما كان قيسٌ هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّمـــا[2]

ومنهم من قدم شعر الخنساء[3] .

وقيل إن قول امرىء القيس في الماء ، هو أحسن ما قيل فيه[4] . وان وصف (أوس بن حجر) للسحاب ، هو أحسن ما قيل فيه[5] ، وان أهجى بيت قالته العرب ، قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونـكم وجاراتكم غرثى يبـتن خمائصا[6]

وأن أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه إذا ما جئتـــه متهلـــلاً كأنك معطيه الذي أنت سائله

وبيت النابغة :

بأنك شمس والملوك كـــواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[7]

ولكنك لو أطلت النظر في كتب الأدب ، تراها تختلف في هذا الاختيار وفي اسم الشاعر ، وسبب ذلك اختلاف أمزجة العلماء ، واختلاف وجهات نظرهم في نقد الشعر[8] .

وللعلماء كلام في أوصف الشعراء للدرع ، أو للفرس ، أو للنجوم والكواكب ، أو للدنيا الى غير ذلك من أشياء[9]

---

١ ديوان أوس (١٣) ، المصون (١٦) .
٢ المصون (١٦) .
٣ المصون (١٧) .
٤ المصون (١٨) ، ديوان امرىء القيس (١١١) .
٥ المصون (١٩) .
٦ ديوان الاعشى (١٩) .
٧ « كأنك » ، (لانك) ، ديوان النابغة (١٣) ، المصون (٢١ وما بعدها) .
٨ راجع المصون (٢٢ وما بعدها) ، ترى العلماء يختلفون في أمدح بيت ورد في شعر الجاهليين .
٩ المصون (ص ٢٤ فما بعدها) .

وقد عرفت القصائد التي يكون الشاعر فيها منصفاً في شعره ، بالمنصفات ، والمنصفة هي القصيدة التي يكون الشاعر فيها قد أنصف من تحدث عنه ، فإذا كان في فخر واستعلاء على قوم ، فخر بقومه ، وذكر في الوقت نفسه فضائل خصوم قومه ، وشجاعتهم واستبسالهم في معاركهم مع قومه . ومن المنصفات قصيدة (العباس بن مرداس) السينية التي قالها في يوم (تثليث) ، حيث غزت (سُليم) مراداً ، فجمع لهم (عمرو بن معديكرب) ، فالتقوا بتثليث ، فصبر الفريقان ، ولم تظفر طائفة منهما بالأخرى ، فصنع العباس بن مرداس قصيدته المذكورة[1] .

وزعم علماء الشعر ، ان الشعراء الجاهليين كانوا في سرقة الشعر مثل الشعراء الاسلاميين ، فقد كان منهم من يسطو على شعر غيره ، فيدخله في شعره ، وينحله نفسه ، أو يضمن شعره من معانيه ، ولهم في ذلك بحوث . وذكروا ان من الشعراء الاسلاميين من سطا على شعر الشعراء الجاهليين ، أو أخذ منه[2] .

الشهرة بالشعر

يقول الرواة والعلماء بالشعر : من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ، ومن أراد النسيب والغزل من شعر العرب الصلب ، فعليه بأشعار عُذرة والأنصار ، ومن أراد طرف الشعر وما يحتاج الى مثله عند محاورة الناس وكلامهم فذلك في شعر الفرسان .

وأشعر الفرسان : دريد بن الصمة ، وعنترة ، وخفاف بن ندبة ، والزبرقان ابن بدر ، وعروة بن الورد ، ونهيكة بن إساف ، وقيس بن زهير ، وصخر ابن عمرو ، والسليك بن سلكة ، وأنس بن مدركة ، ومالك بن نويرة ، ويزيد ابن الصعق ، ويعدّ من الفرسان الأشراف ، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة[3] .

---

١ العمدة (٢١٧/٢) .
٢ المصون (٦٦ وما بعدها) .
٣ المصون (١٧٣ وما بعدها) .

التكسب بالشعر

يذكر أهل الأخبار أن العرب كانت لا تتكسب بالشعر ، أنفة وتعززاً ، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع مكافأة عن يد لا تستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . بقوا على ذلك دهراً ، حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وقد كان أشرف بني ذبيان ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، وله مال يكفيه ، فسقطت منزلته ، وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيها من عطايا الملوك . وذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر ما فيه قبح من مجاعلة الحاجب ومجاملته والتودد اليه تقرباً وتزلفاً ليوصله الى النعمان ، ومن دس الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك[1] . هذا ، وإنما امتدح ملكاً ، فكيف بشاعر يمدح من هم دون الملوك والأشراف من السوقة وسواد الناس ، طمعاً في صلة وعطاء[2] !

وتكسب زهير بن أبي سُلمى يسيراً مع (هرم بن سنان) ، ونال (أمية ابن أبي الصلت) عطايا (عبدالله بن جدعان) لمدحه اياه ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابه ، لعلمه بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له ، بل استخف به واستهجنه لكنه حذا حذو ملوك العرب[3] .

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه ، حتى مقت وذل أهله ، واستصغر شأنه ، وعرف بتكسبه بشعره[4] .

وقد عيب « من تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة ، في قصائد السماطين »[5] . وانما المقبول ما جاء عما لا يزري بقدر ولا مروءة ، مثل الفلتة النادرة ، والمهمة العظيمة ، وعن باب التودد والتلطف

---

١ بلوغ الارب (٣/٩٠ وما بعدها) ، العمدة (١/٨٠) .
٢ العمدة (١/٤٠ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٩١) ، العمدة (١/٨١) .
٤ العمدة (١/٨١) .
٥ البيان والتبيين (٢/١٣ وما بعدها) .

والتذكر ، فأما من وجود الكفاف والبلغة فلا وجه لسؤاله بالشعر[1] .

ومن هنا زعم أهل الأخبار ان أشراف أهل الجاهلية ، كانوا يأنفون من قول الشعر ، وكانوا ينهون أولادهم من قوله ، فلما خالف (امرؤ القيس) ، وهو شريف وابن ملك ، أمر والده من وجوب ترك الشعر ، واستمر على قوله ، طرده بسببه من بيته ، وأخرجه من داره ، فصار من الضليلين ، وهو زعم عارضه (ابن رشيق) ورد عليه بقوله : « وقد غفل أكثر الناس عن السبب ، وذلك انه كان خليعاً ، متهتكاً ، شبب بنساء أبيه ، وبدأ بهذا الشر العظيم ، واشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة ، فكان اليه من أبيه ما كان ، ليس من جهة الشعر ، لكن من جهة الغي والبطالة ، فهذه العلة ، وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صفحاً »[2] . فلم يكن طرد امرىء القيس من بيت أبيه اذن بسبب قوله الشعر ، وإصراره عليه ، وانما بسبب أعماله من خلاعة وتهتك واستهتار ، وهي أعمال تنافي أخلاق الأشراف .

وقد قيل في الشعر إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل . وإنـه أسنى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السري . وقيل ان الشريف كان يتحاشى قول الشعر ، ويمنع أولاده من قولـه . لأن قول الشعر مثلبة للرجل الشريف . وقـد فسر هذا الزعم بعض العلماء بقوله : « إن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مدح به ، مثل ما يضع من قـدر الشريف إذا اتخذه مكسباً ، كالذي يؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان بن المنذر ، وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بني ذبيان ، هذا ، وانما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم »[3] . مدحه ولم يكن في حاجة اليـه ، وكان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك . وبـين الشعراء الجاهليين من كان من السادة الأشراف ، ولم يجد مع ذلك غضاضة في قوله الشعر ،

---

١ بلوغ الارب (٩١/٣ وما بعدها) .

٢ العمدة (٤٣/١) .

٣ في قول « ابن رشيق » « وصاحب البؤس والنعيم » هفـوة ، لان صاحب البؤس والنعيم ، هو « المنذر بن ماء السماء » ، وصاحب النابغة هو « النعمان بن المنذر » ، العمدة (٤١/١) ، البيان والتبيين (٢٤١/١) .

ومن غض من قدره ، هو من استجدى بشعره ، واتخذ شعره سبباً من أسباب التكسب .

وما يقوله أهل الأخبار عن التكسب بالشعر يمثل وجهة نظرهم حسب ، وهو رأي لا أساس له ، بسبب أن علمهم بالشعر لا يستند الى دليل جاهلي مكتوب، وإنما هو من رواية ولدت في الإسلام لاكتها الألسن ، وتناولتها الكتب ، حتى صارت في حكم الإجماع ، يردده الخلف عن السلف الى هذا اليوم . والشعراء في نظرنا قبل النابغة وبعده بشر ، فيهم المترفع وفيهم المستجدي الذليل ، الذي لا يبالي أن تمتهن كرامته في سبيل الحصول على مال . وإذا كان في هذا اليوم شعراء يمدحون ويذمون لغاية الكسب والحصول على مغنم ، فلم نجعل شعراء ما قبل أيام النابغة الذبياني ملائكة ، لا يمدحون إلا الشريف المستحق للمدح ، ولا يذمون إلا الحقير الذي يستحق الذم ، وما شعراء تلك الأيام ، إلا كشعراء أيام النابغة ، وما بعده ، فيهم الشاعر المترفع ، وفيهم الشاعر المترذل ، وفيهم من لا يبالي بشعره ، يمدح اليوم هذا ، ثم لا يبالي من ذمه بعد حين . وفي حقهم جميعاً جاء في القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »[1] ، ونحن نظلم (النابغة) ان جعلناه أول المتكسبين بالشعر ، ونخرج عن المنطق ان ذهبنا هذا المذهب .

وذكر ان ممن رفعه الشعر من القدماء : (الحارث بن حلزة) اليشكري ، وكان أبرص ، فلما أنشد الملك (عمرو بن هند) قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء ربَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء

وبينه وبينه سبعة حجب ، فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب ، ثم أدناه وقربه . وأمثاله ممن رفع من قدرهم الشعر كثير[2] .

ورووا ان المحلق كان ممن رفعه الشعر بعد الخمول،وذلك ان الأعشى قدم مكة

---

١ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .

٢ العمدة (١/٤٣ وما بعدها) .

وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، وقيل بل أم ، وكان المحلق فقيراً خامل الذكر ، ذا بنات ، فأشارت عليه ، أن يكون أسبق الناس اليه في دعوته الى الضيافة ، ليمدحهم ، ففعل ، فلما أكل الأعشى وشرب ، وأخذت منه الكأس ، عرف منه انه فقير الحال ، وانه ذا عيال ، فلما ذهب الأعشى الى عكاظ أنشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق   وما بي من سقم وما بي معشق

ثم مدح المحلق ، فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون الى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جرياً يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى[1].

هذا ما يرويه أهل الأخبار عن أثر الشعر في الناس . وروي أن الأعشى أنشد قصيدته المذكورة (كسرى) ، فقال : « إن كان سهر من غير سقمٍ ولا عشق فهو لص »[2] .

« قال أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يُقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » « ولقد وضع قولُ الشعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة البيان »[3] .

ويذكر الرواة أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر احتفلت به ، وفرحت بنبوغه ، وأتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر ، وتباشروا به لأنه حماية لهم ، ولسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم وأحسابهم وشرفهم بين الناس . وكانوا لا يهنأون إلا بغلام يولد أو فرس تُنتج

---

١ العمدة (١/٤٩) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٤١) ، العمدة (١/٨٢ وما بعدها) .

أو شاعر ينبغ فيهم[1] . فالشاعر هو صحيفة القبيلة و (محطة إذاعتها) ، وصوته يحط ويرفع ويخلد لا سيما إذا كان مؤثراً ، فيرويه الناس جيلاً بعد جيل .

وكان أثره في الناس أثر السيف في الحروب ، بل استخدمه المحاربون أول سلاح في المعارك . فيبدأ الفارس بالرجز ، ثم يعمد الى السيف أو الرمح أو آلات القتال الأخرى . ولأثره هذا ، ورد في الحديث عن الرسول قوله : « والذي نفسي بيده ، لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر »[2] مخاطباً بذلك شعراء المسلمين ، الذين حاربوا الوثنيين بهذا السلاح الفتاك ، سلاح الشعر . وقد كان الوثنيون قد أشهروه أيضاً وحاربوا به المسلمين .

وطالما قام الشعراء بدور السفارة والوساطة في النزاع الذي كان يقع بين الملوك وبين القبائل ، أو بين القبائل والقبائل ، فلما أسر (الحارث بن أبي شمر) الغساني (شأس بن عبدة) في تسعين رجلاً من (بني تميم) ، وبلغ ذلك أخاه (علقمة بن عبدة) ، قصد (الحارث) ، فمدحه بقصيدته :

طحا بك قلبٌ بالحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب

فلما بلغ طلبه بالعفو عن أخيه وعن بقية المأسورين ، قال الحارث : نعم وأذنبة ، وأطلق له شأساً أخاه ، وجماعة أسرى بني تميم ، ومن سأل فيه أو عرفه من غيرهم[3] .

ولم يقلّ أثر الشاعر في السلم وفي الحرب عن أثر الفارس ، الشاعر يدافع عن قومه بلسانه ، يهاجم خصومهم ويهجو سادتهم ، ويحث المحاربين على الاستماتة في القتال ، ويبعث فيهم الشهامة والنخوة للإقدام على الموت حتى النصر ، والفارس يدافع عن قومه بسيفه ، وكلاهما ذاب عنهم محارب في النتيجة . بل قد يقدم الشاعر على الفارس ، لما يتركه الشعر من أثر دائم في نفوس العرب، يبقى محفوظاً في الذاكرة وفي اللسان ، يرويه الخلف عن السلف ، بينما يذهب أثر السيف ،

---

١ بلوغ الارب (٨٤/٣) ، العمدة ، (٤٩/١ ، ٦٥) ، المزهر (٢٣٦/٣) ، العقد الفريد (٩٣/٣) .
٢ الاغاني (٢٦/١٥) .
٣ العمدة (٥٧/١) ، (أسرة الحارث بن أبي شمر الغساني مع سبعين رجلا من بني تميم) ، الشعر والشعراء (١٤٧/١ وما بعدها) .

بذهاب فعله في المعركة ، فلا يترك ما يتركه شعر المديح أو الهجاء من أثر في النفوس ، يهيجها حين يذكر ، وكان من أثره ان القبائل كانت اذا تحاربت جاءت بشعرائها ، لتستعين بهم في القتال . فلما كان يوم (أحد) ، قال (صفوان ابن أمية) لأبي عزة عمرو بن عبدالله الجمحي : « يا أبا عزة انك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه . قال : فاعنا بنفسك فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة » شعراً الى السير مع قريش لمحاربة المسلمين[1] .

وكان للرسول شاعره (حسان بن ثابت) يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وكان للمشركين من أهل مكة شاعرهم (عبدالله بن الزبعرى) يرد عليه ويهاجم المسلمين في السلم وفي المعارك ، وقد دوّنت كتب السير والأخبار والتواريخ أشعارهم وما قاله أحدهم في الآخر ، وقد فات منه شيء كثير ، نص رواة الشعر على أنهم تركوه لما كان فيه من سوء أدب وخروج على المروءة. وكان الى جانب الشاعرين شعراء آخرون ، منهم من ناصر المسلمين لأنه كان منهم ، ومنهم من ناصر المشركين لأنه كان منهم . بل كان المحاربون إذا حاربوا ، فلا بد وأن يبدأوا حربهم بتنشيطها وبتصعيد نارها برجز أو بقريض .

ومن خوفهم من لسان الشاعر ، ما روي من فزع (أبو سفيان) ، لما سمع من عزم (الأعشى) على الذهاب الى يثرب ومن اعداده شعراً في مدح الرسول، ومن رغبته في الدخول في الإسلام . فجمع قومه عندئذ ، وتكلم فيما سيتركه شعر هذا الشاعر من أثر في الاسلام وفي قريش خاصة إن هو أسلم ، ولهذا نصحهم أن يتعاونوا معه في شراء لسانه وفي منعه من الدخول في الإسلام بإعطائه مائة ناقة فوافقوا على رأيه وجمعوا له ما طلبه ، وتمكن أبو سفيان من التأثير عليه ، فعاد الى بلده (منفوحة) ومات بها دون أن يسلم[2] .

قال (الجاحظ) : « ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السبّ عليهم ، وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، انهم

---

١ الروض الانف (٢/١٢٦ وما بعدها) ، (غزوة أحد) .
٢ الشعر والشعراء (١٣٦ وما بعدها) ، زيدان ، آداب (١/١١٩) .

اذا أسّروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدوا لسانه بنسعة ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقّاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب[1] . و (عبد يغوث ابن وقاص) شاعر قحطاني ، كان شاعراً من شعراء الجاهلية ، فارساً سيد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي قادهم يوم الكـلاب الثاني فأسرته بنو تيم وقتلته . وهو من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والاسلام ، منهـم (اللجلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مسهر) فارس شاعر ، ومنهم من أدرك الاسلام : (جعفر بن علبة بن ربيعة بن الحارث ابن عبد يغوث) ، وكان شاعراً صعلوكاً[2] .

ولما مدح (الحطيئة) (بغيض بن عامر بن لاي بن شماس بن لاي بن أنف الناقة) ، واسمه (جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) ، وهجا (الزبرقان) ، واسمه (الحصين بن بدر بن امرىء القيس بن خلف بن عوف بن كعب) ، صاروا يفخرون ويتباهون بأن يقـال لهم (أنف الناقة) ، وكانوا يعيرون به ويغضبون منه ، ويفرقون من هذا الاسم ، حتى ان الرجل منهم كان يسأل ممن هو فيقول من (بني قريـع) فيتجاوز جعفراً أنف الناقة ، ويلغي ذكره فراراً من هذا اللقب ، الى أن قال (الحطيئة) هذا الشعر فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة ، إذ قال :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يُسوّي بأنف الناقة الذنبا[3]

وقد تعزز الأعشى على قومه ، وبين مكان فضله عليهم ، إذ كـان لسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم ، الهاجي لأعدائهم بشعر هو كالمقراض يقرض أعداء قومه قرضاً .

وادفع عن أعراضكم وأعـيركم لساناً كمقراض الخفاجي ملحبا[4]

---

١ البيان والتبيين (٤/٤٥) .
٢ الخزانة (٣١٧/١) ، (بولاق) .
٣ قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بانف الناقة الذنبا
البيان والتبيين (٤/٣٨) ، (هارون) ، الاشتقاق (١٥٦) ، زهر الاداب (١/١٩)، الخزانة (٥٦٧/١) ، العمدة (١/٥٠) .
٤ ديوان الاعشى (١١٧) ، القصيدة ١٤ ، البيت ٣١ .

وذكر أن (بني تغلب) كانوا يعظمون معلقة (عمرو بن كلثوم) ويروونها صغاراً وكباراً ، حتى هجاهم شاعر من شعراء خصومهم ومنافسيهم : بكر بن وائل ، إذ قال :

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مُذْ كان أولهم   يا للرجال لشعرٍ غير مسئومِ[1]

ولسلاطة ألسنة بعض الشعراء ، ولعدم تورع بعضهم من شتم الناس ومن هتك الأعراض ، ومن التكلم عنهم بالباطل ، تجنب الناس قدر امكانهم الإحتكاك بهم ، وملاحاتهم والتحرش في أمورهم ، خوفاً من كلمة فاحشة قد تصدر منهم ، تجرح الشخص الشريف فتدميه ، و « جُرْح اللسان كجرح اليد » ، كما عبر عن ذلك (امرؤ القيس) أحسن تعبير[2] . ولأمر ما قال طرفة :

رأيت القوافي تتلجن موالجاً   تَضَايَقُ عنها أن تَوَلَّجها الإبر

وفي هذا المعنى دوّن (الجاحظ) هذه الأبيات :

وللشعراء ألسنةٌ حدادٌ   على العوراتِ موفية دليله
ومن عقل الكريم اذا اتقاهم   وداراهم مدارةٌ جميله
اذا وضعوا مكاويهم عليه   وإن كذبوا فليس لهن حيله[3]

و « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عالماً بالشعر ، قليل التعرض لأهله : استعداه رهط تميم بن أبي مقبل على النجاشي لما هجاهم ، فأسلم النظر في أمرهم الى حسان بن ثابت ، فراراً من التعرض لأحدهما ، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشي كالمقلد من جهة الصناعة ، ولم يكن حسان — على علمه بالشعر — أبصر من عمر رضي الله عنه بوجه الحكم ، وان اعتل فيه بما اعتل »[4].

---

١ الاغاني (٥٤/١١) ، الاشتقاق (٢٠٤) ، وقد روى هذا الشعر بأوجه مختلفة ، البيان والتبيين (٤١/٤) .
٢ العمدة (٧٨/١) .
٣ العمدة (٧٨/١) .
٤ العمدة (٥٢/١ ، ٧٦) ، (باب تعرض الشعراء) .

« وكذلك صنع في هجاء الحطيئة الزبرقان بن بدر : سأل حسان ، ثم قضى على الحطيئة بالسجن »[1] ، وقد كان عمر قد كره أن يتعرض للشعراء ، فاستشهد حساناً ، فلما بيّن حسان رأيه في الشعر ، انفذ حكمه ، فتخلص (عمر) بعرضه سليماً[2] .

و (تميم بن مقبل بن عوف بن حنيف) العجلاني ، من الشعراء الذين أدركوا الاسلام فأسلم ، وكان يهاجي (النجاشي) ، فهجاه (النجاشي) يوماً ، فاستعدى (تميم) (عمر) عليه . فلما قرأ (النجاشي) على (عمر) ما قاله في (تميم) أمر بضربه وحبسه . وكان يبكي أهل الجاهلية[3] .

« وسئل أبو عبيدة : أي الرجلين أشعر : أبو نُواس ، أم ابن أبـي عيينة؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقيل له : سبحـان الله كأن هذا مـا تبين لك ! فقـال : أنا ممن لم يتبين له هذا ؟! »[4] وذلك خوفاً ولا شك من لسان الشاعر الحي . « ولسير الشعر على الأفواه هذا المسير تجنب الأشرافُ ممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحاً فتعود جداً »[5]

وكانوا يهابون الشاعر الهجّاء البذيء اللسان المتمكن من شعر الهجـاء ، أكثر من غيره من بقية الشعراء ، لما كان يتركه هجاؤه من أثر فيهم ، حتى الشعراء البارزون كانوا يتقون شر الشاعر الهجاء ويبتعدون عنهم . فلما هجـا (عبدالله بن الزبعرى) ، بني قصيّ ، خاف قومه من هجاء (الزبير بن عبد المطلب) ، فرفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) ، فلما وصل اليهم أطلقه (حمزة بن عبـد المطلب) وكساه ، وكان (الزبير) غائباً بالطائف ، فلما وصل مكة وبلغه الخبر هجا قوم (ابن الزبعرى) هجاء مراً[6] ، بقوله :

فلولا نحن لم يلبس رجال ثيابَ أعزة حتى يموتوا

---

١ العمدة (١/٧٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٥) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٤٠) .
٣ الاصابة (١/١٨٩) ، (رقم ٨٦٢) ، البيان (١/٢٣٩) ، الخزانة (١/١١٣) .
٤ العمدة (١/٧٦) .
٥ العمدة (١/٧٧) .
٦ العمدة (١/٦٥ وما بعدها) .

ثيابهم سِمالٌ أو طمارٌ بها دسم كما دسم الحَميت
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت

وكان عبدالله بن الزبعرى قد قال حين أطلقه حمزة :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فودّ جناة الشرّ أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لا نشيمها
فإن قصياً أهل عزّ ونجدة وأهل فعالٍ لا يرام قديمها
هُمُ منعوا يومي عُكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها[1]

ونظراً لأثر شعر الهجاء في الناس ، من أفراد وقبائل ، صاروا يصطنعون الشعراء ويحسنون جهدهم اليهم خشية ألسنتهم ، يفعلون ذلك بشعرائهم وبشعراء القبائل الأخرى ممن يخشون سلاطة ألسنتهم . يفعلون ذلك حتّى اذا كان الشاعر قد أساء اليهم ، على أمل التكفير عن ذنبه ، بمدحهم بشعر ينفي أثر ما قاله فيهم من هجاء . حتّى انهم كانوا يعفون عن شاعر قد يقع أسيراً في أيديهم ، اذا أعطاهم العهود والمواثيق ألا يعود الى هجوهم ، وألا يقول شعراً في ذمهم . وقد يغدقون عليه بالهدايا والألطاف تأليفاً للسانه ، وأملاً في مدحه لهم ، والقاعدة عندهم ان أثر الهجاء يمحوه المدح .

وبين الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي فروق واضحة في الأسلوب وفي الاتجاه وفي الجزالة واختيار الكلمات ، اقتضتها طبيعة اختلاف الزمان وتغير الحال واتصال العرب بغيرهم ، وخلود أكثرهم الى الحضارة ، الى غير ذلك من أسباب .

ومما امتاز فيه الشعر الجاهلي عن الشعر الاسلامي ، هو أن شعراءه كانوا من العرب ، إلا بضعة شعراء ، كانوا من أصل خليط ، مثل الأغربة ، الذين كانت أمهاتهم من أصل افريقي . ولا أعلم اسم شاعر جاهلي ، يرجع أصله الى فارس أو الروم ، إلا ما ذكره (ابن الكلبي) من أمر (خرخسرة) . أما في الاسلام فقد زاحم الفرس بصورة خاصة العرب على تراثهم التليد ، وهو الشعر ، برّز منهم فيه فحول ، طوروا الشعر ولوّنوه ، وأضافوا اليه معاني جديدة ، اقتضتها

---

1 بلوغ الارب (٣/٨٤ وما بعدها) .

طبيعة الامتزاج بين العقليتين والتطور الاجتماعي الجديد الذي ظهر في المجتمع الجديد، مجتمع العرب والموالي .

ولعلماء الشعر آراء في الشعر الجاهلي وفي شعراء الجاهليـة ، وفي شعرهم وفي الاستشهاد بالشعر الجاهلي . ولهم آراء في ذلك دوّنوها في كتبهم . من ذلك أن العرب كانت لا تروي شعر شاعر ، أو لا تعجب به إذا كانت ألفاظـه ليست نجدية . ذكروا أن « العرب لا تروي شعر أبي دواد وعدي بن زيـد . وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية »[1] . وذكروا عن شعر (عدي بن زيد العبادي) ،أن « العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية . وكان نصرانياً من عباد الحيرة قد قرأ الكتب »[2] . وقالوا عنه أيضاً « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخـل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة »[3] .

وجزالة الألفاظ وشدة وقعها على الأسماع وغرابتها ، هي من أهم المعايير التي اتخذها علماء الشعر في تقدير قيم الشعر الجاهلي،والقصيدة الجيدة الحسنة هي القصيدة الجزلة الفخمة الألفاظ التي لا تتسم بالسهولة والليونة ، والتي لا تفهم إلا بالرجوع الى الشروح والتعليقات والايماءات والإشارات . ومن هنا فوّقـوا شعر الأعراب على شعر الحضر ، لوجود لين في شعر أهل المدر ، ولسهولته ، ومن هنا قالوا: إن في شعر قريش ليناً وسهولة ، وفي شعر أهل الحيرة وأهل القرى مثل ذلك .

وقد تعرض (ابن رشيق) لموضوع الشعر الجاهلي القـديم والشعر الإسلامي المحدث ، فقال : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رَجُلين ابتدأا هـذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن »[4] .

الخمر والشعر :

وقد كان الشعراء يقبلون على شرب الخمر ، إقبال أكثر الجاهليين على شربها

---

١ الشعر والشعراء (١٢١) .
٢ الشعر والشعراء (١١٥) ، الاغاني (١٥/٩٣) .
٣ الشعر والشعراء (١١١) .
٤ العمدة (١/٥٧) .

لتنسيهم همومهم وفقرهم ، حتى أن منهم من كان يبيع ما عنده ليشتري الخمر . وقد كان الشعراء يشربون ليستوحوا الوحي من الشرب ، حتى ان الأعشى لما قدم ليسلم ، فقيل له ان الاسلام يحرم الخمر ، توقف ، ولم يسلم ، إذ شق عليه هذا التحريم ، ولم يتمكن بعضهم من تركها ، فحدّوا على شربها . وقد هرب (ربيعة بن أمية بن خلف) الجحمي ، من بلاد الاسلام ولحق بالروم ، لأن عمر جلده الحدّ في الخمر ، وكان من آنف العرب وأسخاهم ، فحلف أن لا يقيم بأرض حد فيها ولا يدين من حده ، فحمله الأنف الى أن أتى الروم فمات بها نصرانياً[1] . ويروى انه قال :

لحقت بأرض الروم غير مفكر بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة فما حرم الله السلاف من الخمر
اذا أمرت تيم بن مرة فيكم فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإن يك اسلامي هو الحق والهدى فإني قد خلّيته لأبي بكر

ويذكر (المعري) انه قد جرى له مع (أبي بكر) خطب ، فلحق بالروم[2].

شيطان الشاعر :

ولا بد لي هنا من أن أشير الى ما كان يعتقده الجاهليون من أن الشعراء كانوا يستلهمون وحيهم بالشعر من (شيطان) ، كنّوا عنه بـ (شيطان الشاعر) . فقالوا : « لكل شاعر شيطان » . وهم يعبرون بذلك عن الحس الذي يصيب كل انسان حساس شاعر عندما يهز مشاعره وإحساسه شيء ما يؤثر عليه فيستولي على عقله وشعوره ويستهويه ، ولا يتركه يستقر ويهجع حتى يعبر عن شعوره هذا الذي سيطر عليه وملكه ، بشعر يأتيه وكأنه وحي ينزل عليه تنزيلاً ، وعندئذ فقط يستقر ويهجع ، بعد أن يكون قد نسب هذا الشعور المرهف الذي ألمّ به الى وحي (شياطين الشعر) .

---

١ الاشتقاق (٨٠ وما بعدها) ، الاغاني (١١٢/١٣) .
٢ رسالة الغفران (٤٤٠ وما بعدها) .

وكان الكهناء ، يقولون في الجاهلية : إن الشياطين كانت تأتيهم[1] ، فهم مثل الشعراء يعتقدون بأن وحياً يوحى اليهم بما يقولونه للناس ، يتجلى لهم على صورة (رئي) ، الرئي يقول سجعاً ، والشيطان ينظم شعراً .

وقد بلغ من اعتقاد بعضهم بوجود (شياطين الشاعر) أن رووا قصصاً تذكر كيف أن (شياطين الشعر) كانوا يعلمون الشعراء قول الشعر حين ينحبس الشعر عنهم وحين تقف قريحتهم حتى ليصعب على الشاعر أن ينظم بيتاً واحداً ، حتى إذا حار في أمره ، استجار بشيطانه وتوسل اليه لإنقاذه من محنته ، فيرق شيطانه عليه ، ويلقي عليــه الشعر إلقاء فيأتي على لسان الشاعر وكأنه سيل متدفــق . ولاعتقاد الشعراء هذا بوجود قرين لهم من الشياطين،أو من الجن ، سموا شياطينهم بأسماء ، فكان اسم شيطان الأعشى (مسحلاً) ، وقيل هو تابعه وجنّيــه الذي كان يوحي اليه بالشعر . كما أشار هو اليه في شعره :

دعوت خليلي مسحلاً ، ودعوا له   جهنام ، جدعــاً للهجين المذمّم[2]

وللأعشى أشعــار أخرى ذكر فيها فضل شيطانه عليه في قول الشعر . من ذلك قوله :

وما كنت ذا قولٍ ولكن حسبتني   إذا مسحل يبري لي القول أنطـق
خليــلان فيما بيننـــا من مـودةٍ   شريكان جنّيٌ وإنس موفــق[3]

وجنّيه هو الذي حباه بموهبة الشعر ، وبفيض الخواطر ، ينظمه كلاماً محبوكاً، فهو يشكره ويفديه بنفسه :

حباني أخي الجــنيّ نفسي فداؤه   بأفيح جيّــاش العشيّات مرجم[4]

واسم هاجس الأعشى وشيطانه (مسحل بن أوثاثة) ، وكان هو الذي يلقي الشعر على لسان الأعشى . وقد رآه (الأعشى) ودخل خباءه وهو من شَعَر ،

---

١ مجالس ثعلب (٢٠) .
٢ اللسان (١١/٣٣١) ، ثمار القلوب (٧٠) ، (جهنام جدعا) الحيوان (٦/٢٢٦) .
٣ ثمار القلوب (٧٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٠) ، الحيوان (٦/٢٢٦) .

وكان الأعشى في أول أرض اليمن يريد الذهاب الى (قيس بن معدي كرب) بحضرموت . فضل طريقه ، فأبصر هذا الخباء ، فذهب اليه ، وسأله الشيخ أن ينشده شعراً ، فكان اذا تلا عليه مطلع القصيدة أوقفه ، واستدعى جارية من جواريه لتتلو عليه بقية القصيدة ، حتى سقط في يدي الأعشى وتحير ، واغتشته رعدة ، فلما رأى الشيخ ما حل بـه ، قال : « ليفرج روعك أبا بصير ، انا هاجسك مسحل بن أوثاثة الذي ألقى عـلى لسانك الشعر » . ثم ودعه وأرشده الطريق[1] .

وكان للأعشى شيطان ، اسمه (جهنّام) ، وهو تابعة ، أي شيطانة أنثى . وكان لقب (عمرو بن قطن) من (بني سعد بن قيس بن ثعلبـة) ، وكان يهاجي الأعشى ، وقال فيه الأعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام جدعاً للهجين المذلل[2]

وقيل إن (جهنام) كان شيطـان الأعشى الأول ، ثم اتخذ الأعشى مسحلاً بعده[3] .

وزعم ان (امرىء القيس) كانت له قصائد ومطارحات مع (عمرو الجني). وان اسم شيطان (امرىء القيس) هو (لافظ بن لاحظ) . وان اسم شيطان (عبيد بن الأبرص) هو (هبيد) ، وهو اسم شيطان (بشر بن أبي خازم ؟) (بشر بن أبي خازم) كذلك . وان اسم شيطـان (النابغة) الذبياني ، هو (هاذر بن ماهر) . وان اسم شيطان (المخبل) السعدي ، هو (عمرو)[4] .

وقد بقي هذا الاعتقاد في شياطين الشعراء الى الإسلام ، فكان الشيطـان الذي يلقي الشعر الى (جرير) ، هو (ابليس الأباليس) ، وكان اسم شيطان الفرزدق (عمرو) ، واسم شيطـان بشار بن برد (شنقناق) . وكان جني (حسان) وصاحبه الذي يوحي اليه الشعر من (بني شيصبان) ، « وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر ، وتلقنها إياه ، وتعينها عليه ، وتدعي أن

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٥) ، (جهنام) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥٠) .
٤ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥١) ، الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (٨) .

لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود »[1] ، وورد أن (الفرزدق) كان يرى أن للشعر شيطانين ، يدعى أحدهما (الهوبر) والآخر (الهوجل) ، فمن انفرد به (الهوبر) جـاد شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به (الهوجل) فسد شعره[2] .

وقد زعم (أبو النجم) أن شيطانه الذي يوحي اليه الشعر شيطـان ذكر ، أما شياطين بقية الشعراء فأناث :

إني وكلّ شاعـر من البشر | شيطانه أنثى وشيطـاني ذكر
فـما يراني شاعر إلا استتر | فِعلَ نجوم الليل عاينَّ القمر[3]

وقال آخر :

إنّي وإن كنتُ صغيرَ السنّ | وكان في العـين نبوّ عنّي
فإن شيطاني أميرُ الجـنّ | يذهبُ بي في الشعر كلّ فنّ[4]

وروي ان السعلاة لقيت (حسان بن ثابت) في بعض طرقات المدينة ، وهو غلام قبل أن يقول الشعر ، فبركت على صدره ، وقالت أنت الذي يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال : نعم . قالت : فأنشدني ثلاثة أبيات على روي واحد وإلا قتلتك ، فقال :

اذا ما ترعرع فينا الغـلام | فما أن يقـال له من هوه
اذا لم يسد قبل شد الازار | فذلك فينا الـذي لاهوه
ولي صاحب من بني الشيصبان | فحيناً أقول وحينـاً هوه[5]

فخلت سبيله . فهذه الأبيات هي على زعم أهل الأخبار أول شعر حسان . قالها بوحي من شيطانه : (الشيصبان) .

---

١ ثمار القلوب (٦٩ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥١) .
٣ الحيوان (٦/٢٢٩) ، ثمار القلوب (٧١) ، ديوان المعاني (١/١١٣) ، الراغب ، محاضرات (١/٢٨٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٢) . الخصائص (١/٢٢٥) .
٥ الخزانة (١/٤١٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

وليس هذا الشيطان الذي تصوره الجاهليون ، يلهم الشعراء وحيهم ويلقي اليهم الشعر إلقاء بقذفه في قلوبهم ، ليخرج على ألسنتهم ، هو من وحي الجاهليين ومن تخيلاتهم وتخرصاتهم وحدهم ، بل هو شيء معروف عند غيرهم أيضاً . فقد تصور اليونان أن للشعر آلهة تقذف الشعر في نفوس الشعراء ، فينطلق على ألسنتهم[1]. والرئي الذي يوحي الى (الكاهن) علمه بالكهانة ، هو ضرب من هذه الشياطين التي تخيلوها للشعراء ، فبفضل (الرئي) يقول الكاهن سجعه لمن يطلب منه أن يتكهن عن أمر سأله عنه ، وهو يجيب السائل بما يلقيه رئيه عليه . يلقيه سجعاً، أما شيطان الشاعر ، فيلقيه على شاعره شعراً ، ومن هنا وقع الفرق بين قول الشاعر وبين قول الكاهن .

وكانوا يسمون الشعراء (كلاب الحي) ، وهم الذين ينبحون دونهم، ويحمون أعراضهم . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

وقد هرّت كلاب الحيّ منّا وشذبنا قتادة من يلينا[2]

وأما (كلاب الجن) ، فشعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم[3] .

---

١ B. Snell, Die Entdeckung des Geistes, Hamburg, 1946, S. 117. ff.
٢ الحيوان (١/٣٥٠) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥٢) .

الفصل السابع والاربعون بعد المئة

حد الشعر

عرّف علماء العربية الشعر بقولهم : « الشعر : منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشعر » . وعرّف (الأزهري) الشعر بقوله : « الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار ، وقائله شاعر ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم »[1] . وعرّفه (ابن خلدون) بقوله : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العربية المخصوصة به » . فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً استقلال كل بيت منها بغرضه[2] .

وعرف بأنه الكلام المقفى الموزون قصداً ، والتقييد بالقصد مخرج ما وقع موزوناً إتفاقاً ، فلا يسمى شعراً[3] . وقد قصد بهذا التعريف الإسلامي ، إخراج من قال الشعر إتفاقاً لا عن قصد واحتراف . بل عفواً وسجيّة . ولما جاء في القرآن الكريم ، من رمي المشركين للرسول بأنه شاعر بقول الشعر ، فنزل الوحي

---

١ اللسان (٤/٤١٠) ، (صادر) ، (شعر) ، الصاحبي ، (٢٧٣) .
٢ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٥٩) .
٣ ارشاد الساري (٩/٨٨) .

ينفي ذلك عنه . وحدذ العلماء صفة الشاعر بأنه الذي يحترف الشعر ويقوله قصداً، حتى لا تنطبق هذه الصفة على من يقول سطراً بوزن اتفاقاً من غير قصد[1] .

وقد عرفه بعضهم بقوله : « الشعر كلام موزون مقفى ، دال على معنى ، ويكون أكثر من بيت »[2] . وهو تعريف وضعه علماء الشعر في الإسلام ، وهو لا ينطبق بالطبع على وصف الشعر عند الأعاجم من الآريين والساميين ، لأن للشعر عند هذه الأمم مفاهيم أخرى ، تختلف باختلاف وجهة نظرها الى الشعر . فقد يكون الشعر سجعاً عند الأمم الأخرى ، وتعدّ الأمثال عند بعض الشعوب في جملة أبواب الشعر[3] ، كما أنه لا يمكن أن ينطبق على الشعر الجاهلي القديم ، إذ ليس في استطاعة أحد حق التحدث عن الشعر الجاهلي المتقدم على شعر أقدم من وصل اسمه إلينا من الشعراء الجاهليين ، لعدم وجود نصوص مدوّنة أو مروية عن ذلك الشعر ،وما دمنا لا نملك نصوصاً منه ، فلا حق لنا اذن في التحدث عنه.

وعندي ان الشعر الجاهلي المروي والمدون في المؤلفات الاسلامية ببحوره المعروفة إنما يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل تطور هذا الشعر ، أي مرحلة الكلام الموزون المقفى الدال على معنى ، ولكننا لا نستطيع كما قلت سابقاً الزعم بأن الشعر الجاهلي الأقدم كان على نفس هذه البحور ، أي انه كان متمسكاً بالوزن والقافية إذ من الجائز أن يكون قد كان على شاكلة الشعر القديم الذي نظمه الشعراء الساميون ، من عدم تقيد بالقافية وبوزن الأبيات ، كما نجد ذلك في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى وانما كانوا يراعون فيه النغم ، بحيث يتغنى به ، أو التأثير في العواطف ، بمراعاة نسق الكلام المبني على البلاغة . ولهذا عدّ السجع نوعاً من أنواع الشعر ، لأن في السجع من الوصف والعاطفة والحس ومعالجة الموضوع ، ما يجعله شعراً ، وفي بعضه نغم يجعله صالحاً لأن يتغنى به ، وبين الغناء والشعر صلة ونسب . وقد جعل بعض العلماء الشعر وليداً من أولاد الغناء ، لأن الشعوب القديمة كالبابليين ، والمصريين ، واليونان ، والعبرانيين ، كانت تقرن شعرها بالموسيقى ، وعرف هذا الشعر بالإنشاد ، وقد كان الإنشاد في المعابد ، نوعاً من

---

١ الصاحبي (٢٧٣) .

٢ المزهر (٢/٤٦٩) ، (النوع التاسع والاربعون : معرفة الشعر والشعراء) .

٣ The Bible Dictionary, II, p. 305.

التراتيل الموجهة الى الآلهة ، كما كان يستخدم في الحروب . ولهذا رأى العلماء ان الموسيقى ، أولدت الإنشاد ، والإنشاد هو والد الشعر .

والشعر معروف عند كل شعوب العالم ، معروف موجود حتى عند الشعوب البدائية ، لأنه نوع من أنواع التعبير عن الحس . والإنسان مهما كانت ثقافته ومنزلته لا بد له من التعبير عن إحساساته بمختلف الصور ، وبشتى الوسائل ، من كلام أو تدوين أو نقش أو صراخ أو غناء أو رمز ، الى غير ذلك من الأنواع ، وفي جملتها الشعر . فهو لا يخص إذن شعباً معيناً ، ولا جنساً خاصاً، إنما هو تعبير إنساني ، يؤديه كل إنسان ، متى كانت عنده المواهب ووجد عنده الحس المرهف الذي يدفعه الى تأليف الشعر دفعاً ، يؤديه على نحو ما يتأثر به إحساسه وذوقه ، في أسلوب يختلف عن الكلام المعتاد المألوف ، ولكنه ليس على نمط واحد عند جميع البشر ، فقد يكون الشعر شعراً عند أمة ، وهو ليس شعراً عند أمم أخرى ، والمصطلح العربي الذي ذكرته للشعر ، يختلف عن المصطلح المفهوم للشعر عند اليونان مثلاً أو عند الرومان أو عند البابليين ، كما أن أبوابه وأنواعه قد تختلف بين أمة وأخرى .

فقد كان العبرانيون يحبون الشعر ، حب العرب له ، ويقولون له : (هـ ـ ش) ، أي الشعر وكانوا ينظمون أشعاراً رتلوها في مختلف المناسبات،في الأفراح وفي الأتراح في المدح وفي الهجاء ، وفي الغزل وفي الوصف ، وفي تمجيد الرب، وكانوا يستعينون بالشعر في القتال ، ينشدونه في قتالهم ويجعلونه عوناً لهم في شحذ الهمم وفي تقوية العزائم للنصر ، كما نرى ذلك في أسفار التوراة [1] . ونجد ثلث التوراة شعراً ، لا سيما في أسفار أيوب والمزامير والأمثال والجامعة ونشيد الانشاد . وفي مواضع من (التكوين) وكتب الأنبياء . ولكن شعرهم ليس وزناً وقافية ، على نمط الشعر العربي،بل هو شعر من طراز آخر . هو شعر بالنسبة للعبرانيين ، وهو ليس بشعر بالنسبة لمصطلحنا المحدد للشعر .

وقد بدأ الشعر بداية متحررة ، فلم يكن الإنسان في بادىء أمره بالشعر يتقيد بالوزن والقافية ، وإنما كان يميز بينه وبين النثر بالنغم الذي يجعله فيه ، وبالنبرات

---

١ الخروج ، الاصحاح ١٥ ، والقضاة ، الاصحاح الخامس وفي المزامير .

التي يخرجها مخارج الغناء ، ولهذا نجد المقطوعات الشعرية القديمة التي وصلت الينا مدوّنة في كتابات مختلف الشعوب لا تشبه الشعر المعروف ، إذ فيه تحرر ، وفيه اعتماد على الترنم والإنشاد وعلى فن الإلقاء ، أما الاعتبارات الفنية المعروفة ، فهي من عمل الشعراء المتأخرين الذين أحلّوا الوزن محل الإلقاء ، ووضعوا قواعد فنّية في نظم الشعر . فلم تكن الأبيات الشعرية في الشعر القديم متساوية ، ولم تكن هناك قوافي بالضرورة ، حتى أنك لا تستطيع تمييز القطعة الشعرية عن غيرها ، إلا بالإنشاد[1]

والشعر من أقدم الأحاسيس التي عبر بها الانسان عن نفسه ، فهو يعبر عن عواطفه وعن أحاسيسه ، من سرور أو حزن ، أو ألم ، وعن اهتمامه بالأمور وعن تصوراته ، وعن كل ما يدور في رأسه من أمور تسترعي حسه ، فيشعر عندئذ بالترفيه عنه بإخراجها كلاماً فيه نغم « Rhythm » ، أي إيقاع ووزن ، وفيه توازن ونظام بين أجزائه ، على غرار ما يفعله الراقص في رقصه ، من اقران رقصه بحركات موزونة . وهو من العواطف المولودة في الانسان . ولهذا تعدّ العواطف التي يعبر بها الانسان عن نفسه شعراً ، وإن خرجت بغير بحور ، وبدون وزن ولا قافية . ففي كلام (سارة) : « وقالت سارة قد أنشأ الله لي فرحاً فكل من سمع يفرح لي ، وقالت من كان يقول لإبراهيم إن سارة سترُضع ابناً . فقد ولدت ابناً في شيخوخته »[2] ، وفي الآيات : « ثم أخذت مريم النبية أخت هارون الدفّ في يدها وخرجت النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص . فجاوبتهن مريم : سبّحوا الرب ، لأنه قد تعظم بالمجد . الفرس وراكبه طرحهما في البحر »[3] ، وفي مباركة يعقوب أبنائه عند شعوره بدنو أجله ، وفي كلام موسى حين قهر (فرعون) ، معان شعرية ، وتعد من أقدم أنواع الشعر السامي التصويري .

وذلك لأن الشعر السامي القديم ، لم يكن يتقيد بالقافية (Rhyme) ، ولا بالتفعيلات (Feets) أو بالمقاطع القصيرة «Short Syllables» ، وإن حاول ولا سيما

١ Hastings, Dictionary of the Bible, Vol., IV, p. 7.

٢ التكوين ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٦ وما بعدها .

٣ الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٢٠ وما بعدها .

فيما بعد ، أن يضع في كل شطر أو بيت عدداً من الكلمات أو المقاطع ، يعادل ما يضعه في الشطر أو البيت الثاني منها ، ليتولد من ذلك الوزن[1] .

ويقسم الغربيون الشعر عادة الى « Epic » ، وهو شعر الملاحم ، حيث يمتاز بطول قصائده وفخامة أسلوبه،وبقصصه الذي يدور حول أبطال الملحمة والأحداث التي تعرض لها هذا النوع من الشعر . وشعر يقال له « Dramatic » ، وهو شعر مسرحي ، أي تمثيلي . وشعر يقال له « Lyric » ، وهو شعر غنائي . وشعر يقال له « Didactic » ، وهو شعر تعليمي ، أريد به التعليم ووعظ الانسان . ونجد النوع الأول منه عند اليونان والرومان والهنود والفرس والألمان وهم من الشعوب الهندوأوروبية ، أي الشعوب الآرية .

ولا نجد من شعر الملاحم ، ومن شعر (الدراما) في التوراة ، ولكننا نجد ما يشبه (الدراما) « Semi Dramatic » في سفر أيوب . ويكثر الشعر (الغنائي) المعدّ للترتيل والترنم Lyric فيه . ففي كلمات موسى على البحر الأحمر ، التي تمثل غناء النصر « Triumphal Odes » ، وفي غناء (دبوره) « Deborah » ، وفي المزامير ، أشعار غنائية معدة للترتيل[2] .

وقد أشير إلى إنشاد الشعر جماعة في التوراة ، فلما وصل العبرانيون الى (البئر) التي قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيهم ماءً ، «حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي يا بئر تجاوبوا لها . بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها أشراف الشعب بمخصرة عصيهم »[3] . وقد لازم الترنم الشعر منذ أوائل أيامه ، ففي الترنم به تقوية له . وما النغم سوى (ايقاع) يجعله نوعاً من أنواع الغناء (نوطته) التفعيلات التي تكون بحوره في الأدب العربي . ولهذا نجد الشعر قد رافق الغناء بل هو نوع منه منذ نشأته .

ونجد القديس (نيلوس) « Nilus » (المتوفى حوالى سنة ٤٣٠ م) ، يصف غارة بدوية على دير سيناء وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث في أثناء حديثه عنها عن إنشاد الأعراب أناشيد بترانيم عندما كانوا يأخذون الماء ، وهي ترانيم لم يشر

---

١ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, London, 1958, p. 616.

٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.

٣ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٦ وما بعدها .

القديس الى نوعهـــا ، ولكني لا استبعد أن تكون من الرجز ، الذي يقـال في المناسبات ، في استنباط الماء ، وفي حفر الآبار ، أو رفع الأثقال ، أو في بناء، وأمثال ذلك مما لا يزال مألوفاً ، ويشاهد حتى بين أهل القرى . وان كان بعضها ترانيم غير فنية ولا مصقولة ، ولكنها ذات ايقاع على كل حال[1] .

ومن هذا القبيل الأشعار التي أنشدها العرب في انتصارهم على الرومان سنــة ٣٧٢ م ، والتي أشار اليها المؤرخ (سوزومن) في كتابه (تأريخ الكنيسة) ، فقد ذكر أن العرب كانوا ينشدون الشعر في قتالهم هذا مع الرومـــان[2] . والواقع أننا لا نكاد نقرأ خبر معركة إلا ونجد الشعر فيها في مقدمة الأسلحة التي تستخدم فيها ، وقد يسبق السيف في الضرب ، حيث يخرج الفارس وهـو يرتجز رجزاً يشيد فيه بنفسه ، وبقومه ، مهوناً من أمر من سينازله ثم يقابله من يتبارى معه برجز آخر ، يشيد فيه بنفسه ، رداً على خصمه .

والشعر العبراني القديم نوعان : النوع المعدّ للترتيل ، والنوع التعليمي . ومن النوع الأول المزامـــير ، ومن النوع الثاني الأقسام الشعريـــة من كتب الأنبياء . والمزامير « Psalms » ، هي من أفصح الأشعـار الدينيـة في التوراة ، وهي تعبر عن الحس الديني عند الانسان ، وعن شعور البشر تجاه خالقهـــم ، وهي تمجيد وحمد له ، واعتراف بضعف الانسان تجاه خالقه ، فهو يرتل فيها حمد الله والثناء عليه . أما الأمثال والجامعة ، وبعض أقسام كتب الأنبياء ، فهي وإن كانت دينية في الأصل ، إلا انها وضعت لغايات تعليمية ، لإرشاد الناس وتقديم النصح لهم .

ولا توجد القوافي والبحور في هذا الشعر ، ومع ان بعض الأشعار العبرانية قد نظمت أحياناً على الحروف الأبجدية ، لكن أشطرها لم تتضمن عدداً مماثـــلاً من المقاطع ، ليتولد منها الوزن ، أي النغم . وانمـــا نظمت على مقابلة الأفكار في الشطر الأول والثاني ، أو في الشطرين الأولين والثالث . وقد يشرح فكر الشاعر على نوع مقابلة فكرين ، إما لوجه المشابهـة بينهما ، وإما لوجه المخالفـة بينهما . ومن أمثلة أوجه المشابهة :

---

١ غرونباوم (١٣٣ وما بعدها) .

٢ غرونباوم (١٣٤) .

فمن هو الانسان حتى تذكره
أو ابن آدم حتى تفتقده[1]

وما جاء في المزمور التاسع عشر من قوله :

السموات تحدث بمجد الله
والفلك يخبر بعمل يديه
يوم الى يوم يذيع كلاما
وليل الى ليل يبدي علما[2]

ومن أوجه المخالفة بينهما :

لأن عاملي الشر يقطعون
والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض[3]

وما جاء في الأمثال :

الجواب اللين يصرف الغضب
والكلام الموجع يهيج السخط
لسان الحكماء يحسن المعرفة
وفم الجهال ينبع حماقة[4]

وقد ذهب بعض العلماء الى وجود (التفاعيل) « Feet » و(الوزن) « Metre » في الشعر العبراني، وذهب بعض آخر الى عدم وجود التفاعيل فيه ، وذهب بعض الى وجود القافية « Rhyme » والوزن « Rhythm » في الشعر العبراني . وهو شعر يختلف عن شعرنا المألوف ، وهو وإن أمكن تقسيمه الى أشطر وأبيات ، إلا أن له خصائص يختلف بها عن الشعر العربي . فنرى مثلاً أن الأبيات في

---

١ المزامير ، المزمور الثامن ، الآية ٤ .
٢ الآية ١ وما بعدها .
٣ المزمور ٣٧ ، الآية ٩ .
٤ الامثال ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١ وما بعدها .

القصيدة العبرانية غير متساوية ، فقد يطول فيها بيت ، وقد يقصر فيها بيت آخر . وقد ترتب الأبيات على ترتيب حروف الهجاء ، كما في الأمثال وفي المزامير[1] .

ومن أهم أبواب الشعر العبراني، باب يقال له : « Parallelism » في الانكليزية ، أي التطابق . وهو أنواع . وقد بحث فيه العلماء[2] .

وقد يكون الشعر على صورة أفكار متسلسلة متتابعة ، فتتقدم الفكرة تدريجياً، وتوضح الأبيات التالية السابقة مثل :

ناموس الرب كامل يرد النفس
شهادات الرب صادقة تصير الجاهل حكيماً
وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب
أمر الرب طاهر ينير العينين
خوف الرب نقي ثابت الى الأبد
أحكام الرب حق عادلة كلها
أشهى من الذهب والابريز الكثير
وأحلى من العسل وقطر الشهاد[3]

ومن أنواع الشعر في التوراة ، ما نقول له (ترادف المتطابقات) « Synonymous Parallelism » ، وذلك أن تكون فكرة الشطرين مترادفة ، وكذلك المصطلحات الواردة فيها ، فترتبط فكرة الشطر الأول بالشطر الثاني من البيت ، مثل : « وقال لآمك لامرأته عادة وصلّة : اسمعا قولي يا امرأتي لآمك واصغيا لكلامي . اني قتلت رجلاً لجُرحي وفتًى لشدخي »[4] ، فالشطر الأول هو : « وقال لآمك ... الخ » ، والشطر الثاني المتمم هو : « اني قتلت رجلاً لجرحي » ، ومثل : « انقذ من السيف نفسي . من يد الكلب وحيدتي، خلصني من فم الأسد ومن قرون بقر الوحش استجب لي »[5] . ومثل :

---

١ The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305. ff.

٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p 616.

٣ المزمور ١٩ ، الآية ٧ — ١٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٦٢١/١) .

٤ التكوين ، الاصحاح الرابع ، الآية ٢٣ .

٥ المزامير ، المزمور ٢٢ ، الآية ٢٠ وما بعدها .

كيف ألعن من لم يلعنه الله
وكيف اشتم من لم يشتمه الرب[1]

وما نقول له بـ (تناقض المتطابقات) ، أو (تضاد المتطابقات) « Antithetic Parallelism » . وذلك أن يكون الشطر الثاني مثل الشطر الأول في احتوائه على الحقيقة ، أي الفكرة ، ولكنه جاء بها بصورة أخرى ، أي متضادة Contrast . فالشكل متطابق تماماً ، وأحد جزئي الشطر مترادف ، أما الجزءان الآخران ، فمتعارضان . وأكثر ما يقع ذلك في المثل :

الابن الحكيم يسرّ أباه
والابن الجاهل حزن أمه[2]

ونوع آخر يقال له (الايقاع المتصاعد) ، أو (الوزن الصاعد) ، « Ascending Rhythm » « Stair-like » ، وهو شعر يرد في الشطر الثاني منه جزء مما ورد في الشطر الأول ، أو مختصر الشطر الأول ، ليضاف عليه شيء جديد . مثل :

حتى يعبر شعبك يا يهوه
حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته[3]

ونوع يقال له (المتطابقات المركبة) « Synthetic Parallelism » أو « Constructive » وذلك بأن يكون ما يرد في الشطر الثاني مخالفاً ، أو على الأكثر لما ورد في الشطر الأول . على ان المتطابقات في الشرطين تكون موجودة . مثل :

لا تجاوب الجاهل حسب حماقته
لئلا تعدله انت
جاوب الجاهل حسب حماقته
لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه[4]

---

١ العدد ، الاصحاح ٢٣ ، الآية ٨ ،
٢ الامثال ، الاصحاح العاشر ، الآية ١ ·
٣ الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١٦ ·
٤ الامثال ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٤ ·

ومثل : ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد .

من هو هذا ملك المجد . رب الجنود هو ملك المجد . سلاه[1] :

ومن النوع المعروف بـ « Progressive Parallelism » ، ما ورد في (أيوب) من قوله : « هناك يكف المنافقون عن الشغب وهناك يستريح المتعبون . الأسرى يطمئنون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر . الصغير كما الكبير ، والعبد حرّ من سيده »[2] . وقد جاء الشطر الثاني بمعان ايضاحية جديدة ، لها صلة بما ورد في الشطر الأول من معنى[3] .

ومن النوع الذي يقال له: « Climatic Parallelism » ، ما ورد في (المزامير) : « صوت الرب يولد الأيل ، ويكشف الوعور وفي هيكله الكل قائل المجد . الرب بالطوفان جلس ويجلس الرب ملكاً الى الأبد . الربّ يعطي عزاً لشعبه ، الرب يبارك شعبه بالسلام »[4] ، وقوله : صوت الرب بالقوة . صوت الرب بالجلال . صوت الرب مكسر الأرز ويكسر الربّ أرز لبنان ، ويمرحها مثل عجل . لبنان وسِريون مثل غرير البقر الوحشي »[5] . حيث تعاد الألفاظ فيه حسب سلم ارتفاع المعاني .

ويتكون الـ « Parallelism » في العادة من بيتين ، أو شطرين ، فهو من نوع (دوبيت) ، « Distich » ، غير أنه يتكون أحياناً من ثلاثة أبيات « Tristichs » ، ومن أربعة أبيات « Tetrastichs » ، ومن خمسة أبيات « Pentastichs » .

ولا يرد الشعر العبراني على صورة مقطوعات أو قصائد بالضرورة ، ومع ذلك فقد ورد في بعض المزامير على شكل قصيدة مكوّنة من ثلاثة أقسام متساوية يربط بين أجزائها رابط ، هو بيت مكرر « Recurring Verse » . ونرى أن أحد المزامير قد تألف من ثلاث مقطوعات ، كل قطعة منها بثلاثة أبيات ، وفي

---

١ المزامير ، المزمور ٢٤ ، الآية ٩ وما بعدها .
٢ أيوب ، الاصحاح الثالث ، الآية ١٧ وما بعدها .
٣ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.
٤ المزامير ، المزمور ٢٩ ، الآية ٩ وما بعدها .
٥ المزامير ، المزمور ٢٩ ، الآية ٥ وما بعدها .

نهاية كل مجموعة علامة (سلاه) « Selah »[1] . وقد تنتهي المجموعتان بعبـــارة تتكرر على نحو موصول في قصيدة أو أغنية « Refrain » .

ونجد في المزامير شعراً ورد منظوماً على ترتيب الأبجدية ، فقد ورد مكوناً من اثنتين وعشرين قطعة ، أي بعدد حروف الهجاء ، تكونت كـــل قطعة منها من ثمانيـــة أبيات « Verses » ، وتبدأ كـــل قطعـة بالحرف العددي . ونجـــد ان الـ « Lamentations » ، قد رتب على الحروف[2] ، وهي مقاطع شعرية حزينـــة ومراثي « Eligies » تمثل شعر المراثي الأصيل « Threnody » في العبرانية . ويتوقف وزنها على بناء كل بيت . ولكن البيت فيها لا يشبه بيت الشعر في اللغة اللاتينية من نوع الأبيات المكونة من ستة تفاعيل « Hexameter » ، أو من الخماسي التفاعيل « Pentameter » ، وانما يتكون من خمسة ألفاظ أو ستة أو سبعة،مكونة ما يعادل أحد عشر مقطعاً « Syllables » . يتكون كل بيت منها من شطرين غير متساويين أحدهما من ستة ، والآخر من خمسة ، أو من أربعة والآخـر من ثلاثة ، يفصل بينهما الاحساس والقواعد النحوية[3] .

ونجد Sirach من أسفـار (الأبوكريفا) « Apocrypha » ، وقد نظم على هيأة (دوبيت) Stichoi من حيث الوزن وعدد المقاطع . وهو من الشعر التعليمي: « Diadactic »[4] .

وقد قسّم بعض العلماء الشعر العبراني الوارد في التوراة الى أقسام : شعر يتمثل بما ورد منه في أسفار (أيوب) « Job » وفي نشيد (سليمان) ، ونوع يتمثل بما جاء في (المزامير) وهو شعر غنائي ، أي يتغنى به ، وقد ينشد على إيقاع (المزمار) ، وهو يقال له « Lyric » في الإنكليزيـــة ، وشعر ثالث يتمثل في (الأمثال) وفي أسفار الحكمة « Ecclesiaticus » التي هي في التهذيب وفي تعليم الإنسان « Didactic » ، وفي الحـــكم الموجزة المفيدة (Sententious) . والنوع الأول هو شعر فني ، وأما النوع الثاني فمختصر موجز ، نظم لينشد ، ولكـــل قسم طرق وبحور[5] .

---

١ المزامير ، المزمور الرابع والعشرون ، المزمور السادس والثلاثون .
٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.
٣ Hastings, p. 527
٤ Hastings, Vol., 4, p. 7.
٥ The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305.

ولأجل إحلال الإيقاع أو النغم في الشعر، فقد يضطر أحياناً إلى مزج كلمتين قصيرتين ، ليتلفظ بهما ككلمة واحدة . كما يفعل ذلك لأسباب أخرى منها مراعاة (القافية) التي يقال لها (ميقف) (مقف) « Maqqeph » في العبرانية . أما إذا كان العكس ، وذلك بأن تكون الكلمة ثقيلة وطويلة ، فقد تقرأ وكأنها ذات مقطعين ، أو جزءين .

وإذا كان الشعر مؤلفاً من أبيات عديدة ، تكون وحدة واحدة ، فيطلق عليها (مقطوعة شعرية) « Strophe » . ولكن المراد بها في الغالب القطعة الكبيرة من الشعر ، أي (القصيدة) . وأما الشعر القصير ، المؤلف من بيتين ، أي من (دوبيت) وهو يقال له « Couplet » أو « Distich » في الانكليزية ، فإنه يكون الطابع الغالب على الشعر في هذه اللغة . يتكون من « Parallelism » ، أي (موازنات) أو (متطابقات) . وقد نظمت الأشطر والأبيات ، بحيث تتناسب فيما بينها في الألفاظ والجمل والمعاني . فيرد في الشطر الثاني جزء مما ورد في الشطر الأول بنصه أو باختيار لفظة منه ، لتذكير القارىء بالشطر المتقدم، فيتخرط مراد ذلك الشطر[1]

ونجد في التوراة قطعاً عدّها العلماء مقطعات شعرية ، بينما هي خالية من النغم، أي الوزن ، ونجد قطعاً ذات نغمة موسيقية ، أي ذات وزن ، فهي من الشعر الصحيح ، المقرون بنغم . والنوع الأول هو نثر « Prose » خالص ، لكنه يمتاز عن النثر المألوف باستعماله المجاز والاستعارة والكناية والتعابير الفنية والألفاظ المؤثرة في التعبير عن الرأي . فهو يعبر عن شعور عميق كامن في النفس بأسلوب أدبي رفيع لذلك عدّ من الشعر ، مع انه نثر في الواقع .

ويتكون البيت من شطرين . ومن مقاطع « Stanza » ومن « Strophe » ، أي مقطوعة . ويتكون الشطر والبيت من مقاطع ، أي من ألفاظ نظمت بعضها الى بعض بحيث اذا ما قرئت بصوت مرتفع ، فإنها تقرأ بنغمه ، وبموسيقى مؤثرة. ويقتضي ذلك تنظيم الألفاظ والمقاطع بشكل منسق ذي نغم ، لتتولد منه موسيقية الشعر . فللشعر ارتباط وثيق بالموسيقى والغناء . ونجد موسيقى الأشطر والأبيات متناسبة ومن ايقاع واحد ، أي من (بحر) واحد ، وتحافظ القطعة الشعرية ،

---

١ Hastings, p. 737, «Poetry».

على هذه الموسيقى ، حتى لا يقع تنافر فيها ، فتبدو متنافرة نابية على السمع ، فلا تعد شعراً من صميم الشعر .

ويدخل (الترنيم) في باب الشعر الذي يقرأ مع الموسيقى ، وتعد (الأمثال) في جملة أنواع الشعر . ونظراً لعدم وجود نصوص شعرية في العبرانية ، وفي اللغات السامية ، مدونة بصورة واضحة تبين مقاطعها كيفية التغني أو النطق بها، ونظراً لجهلنا أصول الايقاع عند القدماء وطرق الغناء التي تغنى بها ، ليس من السهل علينا في الوقت الحاضر ابداء رأي واضح عن الشعر عند قدماء الساميين ، وفي جملتهم العرب بالطبع .

فنحن لا نعرف اليوم عن الشعر العربي القديم ، الذي سبق الإسلام بعصور كثيرة ، أي شيء . وليس في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، نص فيه شعر أو فيه تلميح عنه . وكل ما يقال عنه ، هو حدس وتخمين وظن وقياس قيس على ما نعرفه عن الشعر عند بقية الساميين ، وما نعرفه عن ذلك الشعر هو بحد ذاته شيء قليل . وما لم يعثر على نصوص شعرية جاهلية ، فإن من غير الممكن التحدث عنه بشيء ذي بال .

والشعر هو شعور وتعبير عن أحاسيس وخواطر قائله ، واذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن يتناسب مستواه من الرقي أو السذاجة مع مستوى الشاعر العقلي . ومعنى هذا انه بدأ ساذجاً بسيطاً ، ثم نما وتطور بنمو وبتطور عقل قائله. وعلى هذا فشعر كل أمة بدأ كما يبدأ كل مولود ساذجاً بسيطاً ، ثم نما وتطور، وهو لا يزال يتطور ما دام العقل الانساني خاضعاً لسنة التطور ، وما دام الانسان حياً. ولد من هذا الكلام الاعتيادي المرسل المنثور ، بأن ميز عنه بعض التمييز ، ثم زادت هذه الميزات أو العلامات الفارقة ، حتى صار صنواً للنثر ، بحيث صار الكلام : نثراً ونظماً .

وقد أشير الى (الشعراء) في العهد الجديد ، أي في الانجيل . ورد في (أعمال الرسل) « لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . كما قال بعض شعرائكم أيضاً »[1] . مما يدل على أهمية الشعراء في ذلك العهد .

---

[1] اعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٢٨ .

والشعر أوقع أثراً على النفس من النثر ، لما فيه من سحر النغم ومن جاذبية في الموسيقى ، ومن توازن وتطابق في بنائه ، ومن انسجام في تكوين أجزائه ، بحيث إذا أسقط جزء من شطر بيت أو وضع جزء غريب في موضع الساقط ، وهو ليس في وزنه اختل التوازن فيه أي النغم : ولهذا اقترن الشعر بالغناء ، لوجود النغم فيه ، والنغم من أسس الغناء . فكان الشاعر يترنم بشعره ويتغنى به، ويقرأه بنغمة خاصة ليؤثر بذلك على سامعيه ، وقد يقرن ترنيمه هذا بتحريك رأسه أو يديه أو جسمه من شدة انفعاله وتأثره بشعوره ، ليؤثر بذلك في السامعين فيشبه موقفه هذا موقف السحرة في الأيام القديمة . ونظراً لتغني اليونان والرومان عند تلاوتهم أشعارهم ، قالوا : غنى شعراً ، بمعنى نظم شعراً [1] ، أو قال شعراً أو صنع شعراً . ونحن نقول في عربيتنا « أنشد شعراً » ، نريد : قال شعراً ، وقرأ شعراً ، وأنشد الشعر ، قرأه ، وأنشد بهم ، أي هجاهم . « وفي الخبر أن السليطيين قالوا لغسان هذا جرير ينشد بنا ، أي يهجونا . وتناشدوا أنشد بعضهم بعضاً » [2] . و « النشيد رفع الصوت . قال أبو منصور : وإنما قيل للطالب ناشد لرفع صوته بالطلب ، وكذلك المعرّف يرفع صوته بالتعريف يسمى منشداً . ومن هذا انشاد الشعر ، إنما هو رفع الصوت » [3] . وفي هذا التفسير دلالة على أن الشعراء كانوا يرفعون صوتهم عند قولهم الشعر ويترنمون به،والترنيم والترتيل والإنشاد من ألوان الغناء. ولا استبعد كون قدماء الشعراء الجاهليين كانوا يترنمون في أشعارهم ، أي أنهم كانوا ينشدونها انشاداً ، بطريقة غنائية ، قد تصاحب بآلة موسيقية ، وربما كانوا يتغنون بالشعر أمام الأصنام ، تمجيداً لها وتقرباً اليها ، ومن هنا جاء مصطلح : « أنشد شعراً » ولا استبعد أن يكون هذا شأن العرب الجنوبيين في معابدهم ، نظراً لما كان لهم من معابد ضخمة وطقوس دينية وتقرب الى الأصنام .

ولا يستبعد احتمال ترنيم بعض الشعراء الجاهليين شعرهم على نغم آلة من آلات الطرب ، على نحو ما يفعله اليوم بعض الشعراء الذين ينشدون أشعارهم بالعامية على (الرباب) (الربابة) ، ينشدونه عند أبواب البيوت في الأعياد وفي المناسبات ،

---

١ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (٦٤/١) .
٢ تاج العروس (٥١٤/٢) ، (نشد) .
٣ تاج العروس (٥١٤/٢) ، (نشد) .

يستجدون به أصحاب البيت والناس الذين قد يجتمعون حولهم لسماع الغناء . وقد يكون هؤلاء من ترسبات أولئك الشعراء الجاهليين .

وقد بدأ الشعر بداية أي شعر آخر ، بدأ بداية بسيطة ، بدأ جملاً مقفاة ، الكلام فيه يوالي بعضه بعضاً على روي واحد ، أي سجعاً [1] . أو كلاماً يشبهه ، فيه نغم وايقاع وتعبير عن إحساس . ثم تفنن فيه ، وزيدت أنغامه ، أي بحوره وأغلبها من الأنغام البسيطة السهلة ، المتناسبة مع الحياة الأولية ، ثم تقدم بتقدم الحياة ، واتخذ صوراً متعددة تتناسب مع حياة الأمم وظروفها وعقلياتها ، وماتت أوزان ، وتولدت أوزان ، وظهرت فيه أساليب عند أمة ، لم تعرف عند أمم أخرى ، لاختلاف الحياة والأذواق والأجواء التي يولد فيها الانسان .

والشعر الجاهلي الواصل الينا ، إما أبيات ، نسبت الى شعراء ، وقد لا تنسب ، وإما جملة أبيات يقال لها (قطعة) « Fragment » ، وإما (قصيدة) « Ode » وهي ما زاد عدد أبياتها على حدود القطعة التي رسمها لها علماء الشعر .

وقد لعب (السجع) دوراً هاماً في حياة الجاهليين ، تكلم به الكهان بصورة خاصة ، ولهذا اشتهر وعرف باسمهم فقيل : « سجع الكهان » . ونطق به الخطباء ، وقد تعمقوا فيه فاستعملوا أقصى ما ملكته بلاغتهم من أساليب التأثير على النفوس ، لسحر عقول المستمعين لهم . فصار نوع من أنواع الكلام المقفى ، ظاهره القافية والروي ، وباطنه سحر معاني الشعر . فهو في الواقع شعر مقفى ينقصه الوزن ليكون شعراً تاماً . و (الروي) ، حرف القافية ، الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، ويلزم في كل بيت منها في موضع واحد [2] . فلما أضيف اليه النغم ، أي الوزن صار شعراً ، له أوزان وبحور ، على نغمها ينظم الشاعر شعره .

والسجع، وان ظهر في عربيتنا كلام مقفى خال من الوزن ، إلا أنه في الواقع كلام موزون ، روعي فيه ، أن يكون الشطر الثاني من الجملة مواز أي مساو للشطر الأول منها ، بحيث يكون بوزنه وبقافيته . ومن هنا عد شعراً عند الأمم الأخرى لأنك إذا قرأت السجع الأصيل المعتنى به ، أو السجع الذي استرسلت به السليقة ، والخارج من قلب إنسان ذي حس مرهف ، تجد فيه الميزان الصحيح

---

١ تاج العروس (٥/٣٧٥) ، (سجع) .
٢ تاج العروس (١٠/١٥٩) ، (روى) .

والمقابلة التامة والمطابقة الصحيحة بين الأجزاء ، كل كلمة فيه تقابل كلمة مثلها، وكل عيار فيه يقابله عيار في وزنه وثقله . وفي معانيه معان شعرية وسحر بيان ، ثم إنك إذا قرأته بصوت مرتفع،وبحركات صوتية ذات ترنم ، بنغم فيه حركات، وسكنات ، صار شعراً . ومن هنا رمت قريش الرسول بقول الشعر ، وبأنه شاعر لما سمعت القرآن . فرد عليهم بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »[1] . و « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون »[2] .

وما كانت قريش لترمي الرسول بقول الشعر ، وتزعم ان القرآن شعر أو أن فيه شعراً ، لو انها كانت تعتبر الشعر الكلام الموزون المقفى حسب ولا غير ولا تدخل التخيل فيه ، أي المعنى الشعري . ومن هنا قال المفسرون : « لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالبين المحسوس . أما من حيث اللفظ فظاهر ، لأن الشعر كلام موزون مقفى ، وألفاظ القرآن ليست كذلك ، إلا ما هو في غاية الندرة بطريق الاتفاق من غير تعمد . وأما من جهة التخيل ، فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق والبراهين والدلائل المفيدة للتصديق اذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاند . وانتفاء الكهانة عنه أمر يفتقر الى أدنى تأمل يوقف على ان كلام الكهان أسجاع لا معاني تحتها وأوضاع تنبو الطباع عنها »[3] . وهذا المذهب الذي ذهبت قريش فيه في تفسير الشعر،هو الذي حمل علماء التفسير على الاحتراس كثيراً في تفسير معنى الشعر وفي تحديده ، وتحديد مفهوم الشاعر . فقالوا : «والشعر وهو الكلام المقفى الموزون قصداً . والتقييد بالقصد يخرج ما وقع موزوناً اتفاقاً، فلا يسمى شعراً ، وما يجوز من الرجز ، وهو نوع من الشعر عند الأكثر »[4] .

على أن علماء العربية لم يغفلوا أو لم يشاءوا أن يخفوا حقيقة واقعة ، هي أن

---

١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٣) ، ابن كثير ، تفسير (٥٧٨/٣ وما بعدها) .
٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) .
٣ تفسير النيسابوري ، (٣٧/٢٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، (بولاق) ، (وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال) ، تفسير ابن كثير (٥٧٨/٣) ، (في تفسير سورة يس) .
٤ ارشاد الساري (٨٨/٩) .

في القرآن آيات ، إذا تأملت فيهـا وجدتها وكأنها شعر منظوم ، أو من قبيل الشعر المنثور . مثل سورة الانفطار :

إذا السماء انفطرت
وإذا الكواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت
وإذا القبور بعثرت
علمت نفسٌ ما قدمت وأخرت[1]

والجواب على ذلك،ان ما نجده في القرآن من آيات تبدو وكأنها شعر موزون ، هو من قبيل ما يقع في كلام الناس عفواً ومن غير تعمد من كلام ، لو تأملت فيه وجدته كلاماً موزوناً ، ولكن لم يقصد به أن يكون شعراً ، والشعر لا يعدّ شعراً إلا إذا كان قد صدر عن تفكر وعمل خاطر ، وإعمال رأي ، ومن رجل اتخذ الشعر صنعة له .

وليس لدى أي أحد علم بكيفية تطور الشعر العربي من حالته البدائية الى بلوغه درجـة البحور . ولا يستطيع أحد اثبات أن هذه البحور التي ثبتها (الخليل) والأخفش ، وحدداها ، هي كل بحور الشعر الجاهلي ، فربما وجدت بحور أخرى لم يصل خبرها الى علم هذين العالمين أو غيرهما ، ولا سيما في الشعر القبلي الذي لم يشتهر أمره ، ولم يعرف إلا بين السواد ، ومنه الشعر العامي ، أي الشعبي ، أو المحلي ، المنظوم باللهجات الخاصة ، إذ لا يعقل عدم وجـود شعر شعبي في ذلك العهد ، نظمه سواد الناس ، على غرار الشعر العامي الذي يقـال له الشعر النبطي في جزيرة العرب ، فالشعر هو شعور ، ولا يقتصر الشعور على طبقة من الناس دون أخرى .

ونحن لا نملك في الوقت الحاضر تعريفاً علمياً للشعر ، نستطيع أن نقول بجزم وبتأكيد انه من تحديد الجاهليـين له . والتعريف المألوف له ، هو كما ذكـرت تعريف اسلامي محض . وقد رأينا كيف احترس علماء التفسير في تعريفه، فقيّدوه بكونه « الكلام المقفى الموزون قصداً » لإخراج ما وقع موزوناً من الكلام اتفاقاً

---

١ سورة الانفطار ، ٨٢ ، الآية ١ ــ ٥ .

من الشعر ، وهو ما وقع في القرآن وفي كلام الرسول ، مما يدل على ان العرب في أيام الرسول كانوا أوسع إدراكاً لمفهوم الشعر من الاسلاميين ، وانهم كانوا يدخلون فيه ما أخرجه من جاء بعدهم في الاسلام منه ، بسبب فرية قريش على القرآن والرسول . وبسبب هذه الفرية ، وقع جدل فيما بين الاسلاميين في موضوع الرجز ، هل هو شعر ، أو هو باب خاص من أبواب الكلام لا يدخل في باب الشعر ، لثبوت ورود الرجز على لسان الرسول !

وقد أدرك العلماء ان هنالك فروقاً بين العرب وبين العجم في نظرتهم الى الشعر. قال (الجاحظ) في معرض كلامه على ميزات اللسان العربي وتفوقه على ألسنة الأعاجم : « والأمثال التي ضربت فيها أجود وأسير . والدليل ان البديهة مقصور عليها ، وان الارتجال والاقتضاب خاص فيها ، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعراً ، وكيف صار النسيب في أشعارهم وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم وفي ألحانهم انما يقال على ألسنة نسائهم ، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير ،وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تمطّط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون »[1] . فهذا رأي (الجاحظ) في الشعر العربي وفي الشعر عند الأعاجم .

وللشعر أوزان ، هي بحوره . ضبطها (الخليل بن أحمد) الفراهيدي في الاسلام ثم من جاء بعده . استنبطت من الشعر المألوف الذي كان سائداً في أيامه، وضبطت بأوزان هي (التفعيلات) . بيد أننا لا نستطيع أن نقول إن الأوزان التي ضبطها الاسلاميون ، تمثل جميع بحور الشعر الجاهلي ، وأن علماء الشعر كانوا قد استعرضوا كل ذلك الشعر ، وحصروه حصراً ، ودرسوه درساً ، فوجدوه لا يخرج خارج هذا الحصر ، فلم يفتهم منه ولا بحر واحد . فقول مثل هذا لا يمكن أن يقال ، وهل هنالك من دليل يؤيده ويسنده ؟ وأنا لا استبعد احتمال عدم وقوف علماء الشعر على بحور أخرى ، لم يصل علمها اليهم بسبب موتها قبل الإسلام ، أو لقلة من كان ينظم بها ، ألا لأنها كانت من الأشعار التي لم يصل علمها الى علماء الشعر ، لكونها من أشعار العرب الجنوبيين الذين كانوا يتكلمون

---

١ البيان والتبيين (٣٣) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

باللهجات العربية الجنوبية، أو لكونها أشعار مناطق بعيدة لم يألف علماء اللغة والشعر الذهاب اليها ، أو لأنها من الشعر (العامي) ، البعيد عن العربيــة المصطفاة ، ولأسباب أخرى .

ونجد في خبر : (لهيب بن مالك) اللهبي ، المعروف بـ (لهب) ، سجعاً ورجزاً ، نستطيع أن نقول انه - إن صح - يمثل مرحلة من مراحل الشعر عند الجاهليين ، تفيدنا دراستها فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الشعر الجاهلي . فقد ذكر انه سمع الكاهن (خطر بن مالك) ، وكان من أعلم كهان (بني لهب) ، يقول :

عودوا الى السحر ائتوني بسحــر
أخبركم الخــبر ألخير أم ضرر
أم لأمن أو حذر

وذكر انه سمع الكاهن يقول :

أصابه أصابــه خامره عقابــه
عاجله عذابــه أحرقه شهابــه
زايله جوابــه يا ويله ما حاله
بلبلــه بلبالــه عاوده خبالــه
فقطعت حبالــه وغيرت أحواله

ثم أمسك طويلاً ، وهو يقول :

يا معشر بني قحطان أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان والبلد المؤمن والسدان
قد منع السمع عتاة الجان بثاقب بكف ذي سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان يبعث بالتنزيل والقرآن
وبالهدى وفاصل الفرقان تبطل به عبادة الأوثان

ثم قال خطر :

أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير نبي الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس[1]

---

١ الاصابة (٣/٣١٢) ، (رقــم ٧٥٦٤) ، الاستيعاب (٣/٣١٢ وما بعدهــا) ، (حاشية على الاصابة) .

وهو كلام مصنوع ، لكنه يفيدنا مع ذلك في الوقوف على نماذج من الشعر، روعي في صنعه محاكاة طريقة الكهان في نظم الكلام . فهو يفيدنا من هنا في الوقوف على أسلوب من أساليب نظم الكهان في أيام الجاهلية ، كما انه يفيدنا في دراسة موضوع صلة الكهانة والسحر بالشعر .

والشعر بعد ، تعبير عن الخواطر والأحاسيس وخوالج النفوس ، فلا يمكن أن تنحصر أغراضه في غرض واحد ، لأن التعبير عن الحياة العامة للإنسان يحتاج الى ألوان كثيرة من ألوان التعبير الشعري ، والشعر الجاهلي على كونه ضيقاً ، لضيق أفق الحياة الجاهلية وبساطتها ، فقد تنوعت فنونه ، تنوعاً انبثق من صميم حياة الجاهليين ، وأدى بذلك المعاني التي كانت تتطلبها حياتهم أداءً يتناسب مع درجة عقليتهم ومستواهم المعاشي وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . وقد استعرض الإسلاميون تلك الأغراض التي قيل الشعر فيها فحصرها (أبو تمام) وهو نفسه من مشاهير الشعراء في الاسلام في عشرة أبواب: هي الحماسة ، والمراثي ، والأدب، والتشبيب (النسيب) ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومعرفة النساء . وجعلها غيره : الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح، والهجاء، والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والخمريات ، والأهذيات ، والمراثي، والبشارة، والتهاني ، والوعيد ، والتحذير ، والتحريض ، والملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب[1] . وحصرها (ابن رشيق) في النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء، والإقتضاء ، والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد ، والانذار ، والهجاء ، والاعتذار[2]. وورد في (ديوان المعاني) ان « أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح ، والهجاء، والوصف ، والتشبيه ، والمراثي ، حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو الإعتذار، فأحسن فيه »[3] .

وقد تعرض (أبو العباس ثعلب) ، لهذه الأغراض فجعلها : الأمر والنهي، والإخبار ، والاستفهام . وهذه الأغراض الأساسية للشعر تتفرع الى المديح ، والهجاء ، والرثاء ، والإعتذار ، والغزل ، والتشبيه ، والوصف[4] . وجعل

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٧١) .
٢ العمدة (٢/١١٣ وما بعدها) ، (باب في أغراض الشعر وصنوفه) .
٣ ديوان المعاني (١/٩١) .
٤ جوستاف فون جروتباوم ، حضارة الاسلام (٣٣٣) .

(أبو هلال العسكري) أغراض الشعر : المديح ، والهجاء ، والفخر ، والغزل، وجعلها : المديح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل، والوصف ، في موضع آخر[1] .

ونلاحظ ان بعض هذه الأبواب مثل الفخر والمدح والهجاء ، عامرة ، وبعض منها فقيرة ، حتى لا نكاد نجد فيها مما يخص الشعر القصصي Epique غير نزر يسير ، وفي هذا القليل ما هو مشكوك في صحته . وأما الشعر الديني الخاص بالأصنام والأوثان ، فلا نجد منه في الشعر الواصل الينا لا قطعة ولا قصيدة. ولا يعقل بالطبع ألا يكون للجاهليين شعر في هذا الباب ، إذ كانوا يتوسلون ويلوذون بها ويتقربون اليها بالنذور ، فلا يعقل ألا يكون لهم شعر في آلهتهم . ولا يعقل أيضاً قول من قال إن الجاهلي رجل مادي ، لم يحفل بالدين ولا بالمعاني الروحية ولا بالآلهة ، وهو من أبعد الناس عن الدين والتدين ، لذا لم يحفل بها في شعره. فلو كان الجاهلي على هذا النحو المذكور من الابتعاد عن الدين والتدين ، لما تقرب اليها بالنذور وبالقرابين وهو فقير محتاج ، وبالحج ، وهي عبادات لا يمكن أن ينكر وجودها عند الجاهليين أحد ، لورود ذكرها في النصوص الجاهلية ، وفي القرآن الكريم . والذي أراه ان سبب عدم وصول شيء من الشعر الديني الوثني الجاهلي الينا ، لا يعود الى تقصير الجاهليين في هذا الباب ، بل الى انصراف الرواة عنه ، وامتناعهم من تدوينه بسبب الاسلام،لأنه من صميم ديانة أهل الجاهلية التي اجتثها الاسلام ، إلا أن يكون ذلك الشعر من النوع الذي يتفق مع مبادىء الاسلام ، أو لا يتعارض معها ، فلم يجدوا غضاضة من روايته ، ولذلك رووه.

وقد ذكر علماء الشعر « أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم من ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه »[2] . وذكر أن (امرأ القيس) « أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن،ووصف

---

١ ديوان المعاني (١/٣١ ، ٩١) ، حضارة الاسلام (٣٣٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٠) .

ما فيها ، ثم قال : دع ذا – رغبة عن المنسبة – فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف » . وكان أول من بكى الديار[1] .

والشاعر المجيد عندهم « من سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيملّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد »[2] . « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزلٍ عامر ، أو يبكي عند مُشَيَّد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر ، والرسم العافي ، أو يرحل على حمارٍ أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجواري ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة »[3] .

وقد جعل علماء الشعر (النسيب) باباً من أبواب الشعر ، ودعاه بعضهم (التشبيب) ، وجعل بعضهم (الغزل) باباً من أبواب الشعر ، بأن أدخل (النسيب) فيه[4] . وطالما نجد الناس يخلطون بين الغزل والنسيب والتشبيب . والغزل في رأي بعض علماء اللغة اللهو مع النساء ، وقيل محادثة النساء ، وقيل : الغزل والنسيب هو مدح الأعضاء الظاهرة من المحبوب أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك ، وذكر بعضهم ان الغزل والنسيب والتشبب كلها بمعنى واحد ، وقيل : إن النسيب والتشبيب ، والغزل ثلاثتها متقاربة ، ولهذا يعسر الفرق بينها حتى يظن انها واحد[5] . وذكر ان النسيب التغزل ، وان قول الرجل نسب الشاعر بالمرأة ، بمعنى شبب بها في الشعر وتغزل وذلك في أول القصيدة ، ثم يخرج الى المديح ، والنسب هو الغزل في الشعر ، والنسيب في الشعر ، هو التشبيب فيه[6] ، والتشبيب : ذكر أيام الشباب واللهو والغزل ، ويكون في ابتداء القصائد ، وسمي ابتداؤها

---

١ الشعر والشعراء (١/٦٨) ، (دار الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢١) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٢) .
٤ العمدة (١/١٢٠ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٨/٤٣) ، (غزل) .
٦ تاج العروس (١/٤٨٣) ، (نسب) .

مطلقاً وإن لم يكن فيه ذكر الشباب. وقيل تشبيب الشعر ترقيق أوله بذكر النساء[1].

ولو دققنا النظر في معاني هذه المصطلحات ، نجد أن هناك فرقاً بين الغزل وبين النسيب ، والتشبيب في الأصل ، غير أن الناس خلطوا بين معانيها ، فلم يفرقوا بينها . فالنسيب مصطلح استعمل في الشعر للتعبير عن ذكر الديار والأحبة في ابتداء القصيدة ، فكأنه أخذ من النسب ، حيث يقص الشاعر نسب أحبته ومكانهم ، ومرابع الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك مما فصلوه وسموه التشبيب[2] ، فهو ليس بغزل إذن ، فقول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لا يعدّ غزلاً بالمعنى المفهوم من الغزل ، وإنما هو تذكر وتوجع على الأحبة والأصدقاء ، لمفارقته الديار ، وتركه الأحباب . أما الغزل ، فهو شيء آخر ، يمثل عاطفة الحب نحو المرأة ، وما يتعلق بها ، وهو ما يقال له : Love Poem في الانكليزية . وأما التشبيب ، فهو تذكر أيام الصبا والشباب ، والغزل فيه لما فيه من المغازلة والمنادمة[3] ، ونظراً لما بين هذه الأمور من تداخل ، تداخلت المعاني في الإسلام ، وأخذت تعني معاني متقاربة ، أو شيئاً واحداً .

وشعر الهجاء « Lampoon » ، هو من أهم أبواب الشعر المهمة عند الجاهليين. ويتناول هجاء الأشخاص وهجاء القبائل . ونظراً لما كان يتركه الهجاء من أثر في النفوس ، كان قوم الشاعر يروونه ويحفظونه للحط من شأن المهجو . ولهذا الأثر الخطير الذي كان يتركه الهجاء في المهجو من كسر في الاسم وتحطيم في المنزلة ، فسّر (كولدزيهر) لفظة (قافية) بمعنى (تحطيم القفى) ، أي (تحطيم الجمجمة). وذهب الى ان القافية ، كانت بهذا المعنى في الأصل ، ثم فسرها العلماء بعد ذلك تفسيرهم المألوف ، وهو تفسير مخالف للأصل[4] .

قال أهل الأخبار : « وليس في العرب قبيلة إلا وقد نيل منها ، وهجيت ،

---

١ تاج العروس (١/٣٠٨) ، (شبب) .
٢ تاج العروس (١/١٦) ، (نسب) .
٣ تاج العروس (١/٤٨٣) ، (نسب) .
٤ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 9.

وعيرت ، فحطّ الشعر بعضاً منهم بموافقة الحقيقة ، ومضى صفحاً عن الآخرين لما لم يوافق الحقيقة ، ولا صادف موضع الرمية .

فمن الذين لم يُحك فيهم هجاء إلا قليلاً على كثرة ما قيل فيهم: تميم بن مرة، وبكر بن وائل ، وأسد بن خزيمة ، ونظراؤهم من قبائل اليمن .

ومن الذين شُقوا بالهجاء ، ومزقوا كل ممزق – على تقدمهم في الشجاعة والفضل – أحياء من قيس : (نحو غنى وباهلة) ، (ونحو محارب بن خصفة ابن قيس عيلان ، وجسر بن محارب) ، (ومن ولد طابخة بن الياس بن مضر: تيم وعُكل ابنا عبد مناة بن أد) ، (وعدي بن عبد مناة) ، كانوا قطيناً لحاجب بن زرارة، وأراد أن يستملكهم ملك رق بسجل من قبل المنذر، والحبطات». ولم تمدح قبيلة قط في الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم[1] .

وقد تعرض (الجاحظ) لهجاء الشعراء للأشراف ، فقال : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال ، حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده . فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره ، وجد من يغلظ فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجِي حصن بن حذيفة ، وهُجي زرارة بن عدس ، وهجي عبدالله بن جدعان ، وهجي حاجب بن زرارة»[2]. فالحسد في نظر (الجاحظ) من جملة عوامل الهجاء . فالنباهة والشرف والظهور في المجتمع من العوامل التي تكون سبباً دافعاً إلى الهجاء ، بسبب داء الحسد ، ولهذا أمن الخامل من هجاء الهجائين ، وسلم من أن يضرب به المثل في قلة ونذالة وبخل ، إذ ليس فيه ما يحمل الشاعر على النيل منه وعلى ما يغيظه ، ولا يحسده حاسد ، حتى يدفع الشاعر على التحرش به وهجائه . وقد هجيت قبائل بأقذع أنواع الهجاء مع ما لها من شرف وفضل ومكانة وخير عميم ، بسبب حسد الحساد ، وغيظ القبائل الضعيفة ، أو التي لا خير فيها منها ، فتحرش شعراؤها بها ، ودفع الحسد الهجائين إلى هجائها ، على كونهم من غمار الناس ومن الخاملين في الحسب والنسب[3] .

---

١ العمدة (٢/١٨٢ وما بعدها) .
٢ الحيوان (٢/٩٣) .
٣ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) .

وقد هجيت الملوك ، فتناولتهم ألسنة الهجائين ، ولا سيما أولئك الملوك الذين رزقوا طبعاً حاداً ، وعصبــاً حساساً متوتراً ، مثل عمرو بن هند ، والنعمان بن المنذر الذي نال أكبر نصيب من الهجاء . ومما قيل فيه :

ملكٌ يلاعب أمه وقطينَهُ   رخو المفاصل أيره كالمرود

وقد نسب قوله الى (النابغة) الذبياني ، ويمكن أن يكون قد صنعه غــيره ودسه عليه حسداً له ، للإيقاع به عند الملك . ونسب اليه قوله :

قبــح الله ثم ثنى بلعــن   وارث الصائغ الجبانَ الجهــولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر   الأقــاصي ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو   ثم لا يرزأ العــدوَّ فتيــلا[1]

وقيل ان قائل تلك الأبيات هو : (عبد قيس بن خفاف) التميمي ، قاله على لسانه للايقاع بينه وبين النعمان[2] .

وللهجاء عند الجاهليين وقع شديد . ولقــد بكى قوم من الأشراف من شدة هول الهجاء عليهم[3] . ولما أمعنت قريش في هجاء الرسول والمسلمين ، وجندت الشعراء للنيل من الاسلام ، أعد الرسول (حسان بن ثابت) ، و (كعب بن مالك) ، و (عبدالله بن رواحة) للرد عليهم ، وقد قال الرسول لحسان : « اهجهم — أو هاجهم — وجبريل معك »[4] ، وقال : « إن قوله فيهم أشد عليهم من وقع النبل »[5] . « وكان حسان وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ويذكران مثالبهم . وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر وعبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، فكان قوله يومئذ أهون القول عليهم . وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم . فلما أسلموا وفقهوا ، كان أشد القول عليهم ،

---

١ الشعر والشعراء (١/٩٩) ، (لعن الله ثم ثنى بلعن) ، الحيوان (٤/٣٧٩) ، الاغاني (٩/١٥٨) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩٩) ، الحيوان (٤/٣٧٩) .
٣ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٥ الاستيعاب (١/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .

قول عبدالله بن رواحة »[1] . وورد ان الرسول قال لحسان : « هيج الغطاريف على بني عبد مناف ، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام ، في غبش الظلام »[2]. وفي هذا المعنى ورد في شعر (عبد قيس بن خفاف) البرجمي :

فأصبحتُ أعددت للنائبا ت عِرضاً بريئاً وعضباً صقيلا
ووقع لسان كحد السنان ورمحاً طويل القناة عسولا[3]

وفي هذا المعنى ورد أيضاً قول طرفة :

بحسام سيفك أو لسانك والكلمُ الأصيل كأرغب الكلِم[4]

وقول امرىء القيس الكندي :

ولو عن نَثاً غيره جاءني وجُرْحُ اللسان كجرح اليد[5]

وقول طرفة :

رأيت القوافي يتّلجن موالجاً تضايقُ عنها أن تَوَلّجها الإبَر[6]

وعكس (الهجاء) هو شعر الفخر والمدح ، وله أهمية عند العرب لا تقل عن أهمية الهجاء ، لما له من مكانة في المجتمع . وقد لعب دوراً خطيراً في السياسة كذلك ، ولا زال يلعب دوره هذا فيها الى هذا اليوم . ولا يعني هذا المدح أن الشاعر كان صادق اللهجة في مدحه ، مخلصاً في مدحه لمن مدحه ، انما المدح هو في مقابل إحسان أو طلب إحسان في الغالب ، فإذا قطع المحسن إحسانه عن الشاعر أو اذا حرض انسان الشاعر على من مدحه وأعطاه ليهجوه ، هجاه ، وقد يهجوه بأقذع هجاء ، ومن هنا كان الأشراف وأصحاب التستّر ، يبتعدون عن الشعراء، لا يريدون مدحهم ولا حمدهم ، لأنهم لا يعلمون متى سينقلب الشاعر عليهم ،

---

١ الاستيعاب (١/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٧٣) .
٣ المفضليات (٣٨٦) .
٤ الحيوان (١/١٥٦) ، ديوان طرفة (٦١) .
٥ الحيوان (١/١٥٦) .
٦ الحيوان (١/١٥٨) .

فيهجوهم بأشد هجاء ، أو ينهش أعراضهم ، لتقصيرهم في اعطائه المال . ومن هنا نعتوا بالتلون وبالكذب : « والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم ترَ انهم في كل وادٍ يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »[1] .

وسبب هذا التلون عامل اقتصادي ، فقد كان الشاعر مثل غيره من الناس يتعيش بشعره ، يبذله لمن يعطيه ، ويحجبه عمن لا يعطيه ، وإذا مدح أمل الإثابة ، ليعيش عليها ، وإن حرم منها ، أو وجد أن شاعراً آخر نال من ممدوحه أكثر مما أعطاه غضب ، وقلب مدحه ذماً ، فيشتمه وينتقص من شأنه وان كان قد أغرق بالأمس في مدحه له. وقد يثيره حساد الممدوح ، بأن يعطوه أكثر مما أعطاه ممدوحه ، فيغريه المال ، ولا يجد عندئذ رادعاً أخلاقياً يمنعه من التهجم عليه ومن هجائه بأقبح هجاء ، فالموضوع موضوع مال ، ولو كان للشعراء ثراء وغنى أو سوق رائجة تباع فيها دواوينهم ، لما ركب الشاعر ولا شك هذا المركب ، ولما تزلف وتقرّب ، ولكان حاله حال الشعراء الغربيين . يعتمدون على الرأي والفكرة والإبداع والفن ، فيشتري الناس شعرهم للاستمتاع به ، فما يهمهم لذلك مدح هذا أو ذاك .

ويرى (بروكلمن) أن « كثيراً ما كان الشاعر يتجه بفنه أيضاً الى مدح بطل أو أمير من قبيلته ، ولكنه لم يكن يفكر قديماً في الجائزة الرنانة ، التي نزلت بمكانة شعراء المديح المحترفين في بعض الأحيان — منذ عهد النبي — الى درك المتسولين بالغناء »[2] . وهو يجاري بذلك أهل الأخبار القائلين بأن الشعراء المتقدمين لم يكونوا يمدحون طمعاً في مغنم ومال ، وإنما كانوا يمدحون عن رأي، وان أول من تسول بشعره الأعشى ، فحط بعمله هذا من قدر الشعراء ، ثم أفرط الحطيئة في ذلك ، حتى أهان نفسه ، فصيروا المتقدمين من الشعراء ملائكة، ورموا الأعشى بخطيئة التسول ، بأن جعلوه رأس المتسولين ، وما الأعشى إلاّ بشر ، وما المتقدمين عليه إلا بشر مثله ، فإن تسول الأعشى ، فمن يثبت أنه كان أول من تسول ، وإن خطيئة التسول لم تكن معروفة بين المتقدمين عليه .

والرثاء Elegy من سنن الجاهليين القديمة ، يقال رثيت الميت رثياً ورثاء

---

١ سورة الشعراء ، رقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٢ بروكلمن (٥٧/١) .

ورثاية ، ومرثاة ، ومرثية ، بمعنى بكيته وعددت محاسنه ، أو نظمت فيه شعراً، والمراد به المدح[1] . وهو من أبواب الشعر المهمة كذلك ، لما كان لرثاء الميت من أهمية كبيرة عند أهل الجاهلية . وقد كانوا يوصون أهلهم بأن يقيموا (النياحة) عليهم ، ليقال فيها ما يقال من الشعر في حقهم[2] . ونجد في الشعر الجاهلي قصائد وأشعاراً في الرثاء . وقد نبغت النساء الراثيات في هذا الباب، واستنبطن فيه أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب، وصدق الحس ، ورقة العاطفة[3] . وقد جمع الأب (لويس شيخو) مراثي الشاعرات الجاهليات ، في كتاب ، جمع فيه مراثي احدى وستين شاعرة عدا شعر الخنساء . والخنساء ، هي من أشهر شاعرات الرثاء، اشتهرت برثاء أخويها: صخر ومعاوية[4] .

وشعر الرثاء وإن كان من واجب النساء النائحات في الغالب ، وقد بلغ الغاية في شعر (الخنساء)،إلا أنه كان من واجب الشعراء كذلك . فلكثير من الشعراء رثاء لآبائهم ولاخوانهم ولأقاربهم ولأصدقائهم ولذوي الفضل عليهم ، وقد ترك (أوس بن حجر) جملة مراثي رائعة،وترك غيره قصائد في رثاء الملوك وسادات القبائل والآباء والاخوة ، ويلاحظ أن رثاء الشعراء إنما كان في رثاء الأموات الرجال في الغالب ، وذلك نابع عن طبيعة المجتمع ، التي تمجد الرجل، ولا ترى ذكر النساء الحرائر إلا في المدح والفخر .

أما شعر التوجع والتألم « Elegies » و « Threnody » الذي نجده في كتاب (المراثي) « Lamentations Book » ، المنظوم في الكارثة التي أنزلها (بختنصر) في اليهود عام (٥٨٦) قبل الميلاد ، فلا نجد مثله في الشعر الجاهلي ؛ إنما نجد أبياتاً في النكبات التي كانت تحلّ بالقبائل بسبب الغارات والغزوات ، وأروعه ما جاء في رثاء قتلى بدر . وهو ذو طابع شخصي في أكثر الأحيان ، إذ يدور حول انفعال الشاعر وتأثره لمصرع شخص كان يحبّه أو يقدره . ويدخل ما وضع

---

١ تاج العروس (١٠/١٤٤) ، (رثى) .
٢ Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 9.
٣ لويس شيخو ، رياض الادب في مراثي شواعر العرب (ص ١) ، (بيروت ١٨٩٧ م) .
٤ كارلو نالينو (٨١) .

من شعر حول تخرب سدّ مأرب ، وأمثال ذلك في هذا الباب بالطبع .

وقد رثى بعض الشعراء أنفسهم حين شعروا بدنو أجلهم ، ونجـد في كتب الشعر والأدب شعراً من هذا النوع ، فكأن الشاعر أراد أن يفتتح به رثاء الراثيات والنائحات ، ليكون لهن مقدمة ينسجن عليها شعرهن في رثائه .

وتعدّ (المراثي) من عيون الشعر والتراث الخالد عند الشعوب القديمة ، ولا زال الناس يقيمون للرثاء وزناً كبيراً ، لأنه تخليد وتقدير لشأن الميت. ونجد في الأدب القديم مكانة كبيرة له فيه . وفي التوراة وصف لرثاء الناس لموتاهم . وهو سجع أو رجز يناسب ظروف الميت وحاله ومكانته ، يرنم بأنغام حزينة مؤثرة ، ومنه جاء شعر المراثي . ويلاحظ ان شعر الرثاء في العربية لا يختلف من حيث الوزن عن بقية الشعر ، فهو يقال في كل البحور ، والفرق بينه وبين غيره هو في المعنى ، وفي غلبة التوجع والألم فيه على المعاني الأخرى .

ولم يصل الينا شعر جاهلي طويل ، مؤلف من مئات أو آلاف من الأبيات ، مثل الشعر القصصي الذي نجده عند الشعوب (الآريـة) في سرد حكايات الآلهة والأبطال والحروب ونحو ذلك ، ومثل الشعر الغنائي « Lyrique » ، ومثل الشعر التمثيلي « Dramatique » ، الذي يستند على التمثيل والحوار والغناء ، وشعـر الجاهليين شعر قصير في الغالب ، لا تتجاوز القصيدة فيه ، وهي أطول قطعة من الشعر مائة بيت .

أما القصة الشعرية القصيرة ، فنجدها في قصيدة الأعشى التي وصف فيها وفاء السموأل . ونجد في شعر (عدي بن زيد) قصصاً قصيرة عن أحداث تأريخية ، أوردها في شعره على سبيل العظة والاعتبار ، كما نجد في شعر (أمية بن أبي الصلت) قصصاً ، أخذ بعضه من قصص أهل الكتاب ، وأخذ بعض آخر منه من أساطير العرب القديمة . وكل هؤلاء هم ممن نستطيع أن نقول عنهم إنهم من الحضر ، أو من المتأثرين بعقلية أهـل القرى والحضارة . ويمكن عدّ قصة الأعشى عن السموأل من هذا النوع المسمى « Ballad » في الانكليزية . ويرى (بروكلمن) أن « محاولة الأعشى إنشاء شعر القصة La Ballade واختراع أسلوب الملحمة ، في إشادته بوفاء السموأل ، فقد بقيت عملاً فذاً لم ينسج أحد على منواله »[1] .

---

١ بروكلمن (٦٢/١) .

ونجد في شعر للنابغة قصة (زرقاء اليمامة) ، وقصة الحية ، إذ يقول :

تذكر أنّى يجعل الله فرصةً فيصبحَ مال ويقتلَ واتره
فلما وقاها الله ضربةَ فأسه وللبر عين لا تغمضُ ناظره
فقالت: معاذ الله أعطيك إنني رأيتك غدّاراً يمينكُ فاجره
أبى لي قبرٌ لا يزال مُقابلي وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره

والقصة : ان بلدة امتنعت على أهلها بسبب حيّة غلبت عليها ، فخرج أخوان يريدانها ، فوثبت على أحدهما فقتلته ، فتمكن لها أخوه في السلاح ، فقالت : هل لك أن تؤمنني فأعطيك كل يوم ديناراً ؟

فأجابها الى ذلك حتى أثرى ، ثم ذكر أخاه ، فقال : كيف يهنؤني العيش بعد أخي ؟ فأخذ فأساً وصار الى جُحرها ، فتمكن لها ، فلما خرجت ضربها على رأسها ، فأثر فيه ولم يمعن ، ثم طلب الدينار حين فاته قتلها ! فقالت : إنه ما دام هذا القبر بفنائي وهذه الضربة برأسي فلست آمنك على نفسي ! وكانت العرب تضرب أمثالاً على ألسنة الهوام[1] .

وللحيّة قصص عند الشعوب القديمة ، وقد صوروها بصور مختلفة، وأشير اليها في التوراة . وقد جعلت رمزاً للحيل والإغراء والشر والغدر[2] ، والأرجح ان واضع القصة التي نظمها شعراً على لسان النابغة ، انما أخذها من أهل الكتاب .

ونجد لـ (عمرو بن آلة بن الخنساء) شعراً حكى فيه قصة (سابور) ، و (الحضر) ، منه :

ألم ينبئك والأنباء تنمي بما لاقت سراة بني العبيد
ومصرع ضيزن وبني أبيه وأحلاس الكتائب من شريد
أتاهم بالفيول مجللات وبالأبطال سابور الجنود
فهدم من أواسي الحضر صخراً كأن ثقاله زبر الحديد[3]

---

١ الشعر والشعراء (٩٦/١) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٤٠٠/١) .
٣ الروض الانف (٥٩/١) .

وقد لعبت قصة فتح (سابور) (شابور) للحضر ، دوراً خطيراً في قصص الجاهليين . فقد وردت في شعر (أبي دواد) ، الذي يقول :

وأرى الموت قد تدلى من الحضر على رب أهله الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهر مكنون[1]

ونجد (عدي بن زيد) العبادي ، يذكر قصة الحضر في شعره كذلك. ذكرها في القصيدة التي تنسب اليه ومطلعها :

أرواح مودع أم بكور فانظر لأي ذاك تصير

ثم يذكر القصة ، ويصف قصر الحضر ، ثم يذكر قصصاً آخر أورده على سبيل العظة والاعتبار ، قالها وهو في سجنه ، للتأثير على النعمان لحمله على العفو عنه[2] .

وذكر (عدي بن زيد) الحضر في شعر آخر ينسب اليه ، منه :

والحضر صابت عليه داهية من فوقه أيد مناكبها
ربية لم توق والدها لحينها إذ أضاع راقبها
إذ غبقته صهباء صافية والخمر وهل يهيم شاربها
فكان حظ العروس إذ جشر الصبح دماء تجري سبائبها
وخرب الحضر واستبيح وقد أحرق في خدرها مشاجبها[3]

وقد ورد في هذه القصيدة :

ما بعد صنعاء كان يعمرها ولاة ملك جزل مواهبها
رفعها من بنى لدى قزع المزن وتندى مسكاً محاربها
محفوفة بالجبال دون عرى الكائد ما ترتقي غواربها
يأنس فيها صوت النهام إذا جاوبها بالعشي قاصبها
ساقت اليه الأسباب جند بني الأحرار فرسانها مواكبها

---

١ الروض الانف (٥٦/١) .
٢ الروض الانف (٥٨/١) .
٣ ابن هشام ، سيرة (٥٩/١) ، (حاشية على الروض) .

وفوزت بالبغــال توسق بالحتف وتسعى بها توالبهــا
حتى رآها الأقوال من طرف المنقل مخضرة كتائبهــا
يومــاً ينــادون آل بربر واليكسوم لا يفلحن هاربهــا
وكان يومــاً باقي الحديث وزالت أمة ثابت مرتبهــا
وبــدل الفيح بالزرافــة والأيام جون جمّ عجائبهــا
بعــد بني تبــع نخاورة قد اطمأنت بها مرازبهــا[1]

والأعشى ، ممن أدخل قصة الحضر في شعره أيضــاً ، تطرق في شعره الى محاصرة المدينة ، وكيفية عشق (نضيرة بنت الضيزن) لسابور لما أبصرته، فقال :

أقفر الحضر من نضيرة فالمرباع منها فجانب الثرثار[2]

ثم تطرق الى اقامة (شاهبور) (شابور) (سابور) حولين في الحضر ، ثم الى ما لاقته (نضيرة) من جزاء ، بسبب خيانتها لوالدها ، وذلك بقوله :

ألم ترَ للحضر إذ أهلــه بنعمي وهل خالد من نعم
أقام بــه شاهبور الجنو د حولين تضرب فيه القدم
فلما دعــا ربه دعــوة أناب اليــه فلم ينتقم[3]

ونجد قصة (الغار) مسجلة في شعر . ومجمل القصة ان رجلاً من (بني ضبة) كان له في الجاهلية سبعة بنون ، فخرجوا بأكلب لهم يقتنصون ، فأووا الى غار فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً ، فلــما استراث أبوهم أخبارهم اقتفى آثارهم حتى أتى الى الغار فانقطع الأثر ، فأيقن بالشر ، فرجع وأنشأ يقول :

أسبعة أطواد وسبعة أبحر أسبعة آساد أسبعة أنجم
رزئتهم في ساعةٍ جرّعتهم كؤوس المنايا تحت صخر مرضم

وتأتي أبيات بعدهم في وصف حزنه ، ثم لم يلبث أن مات كمداً[4] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٥٣ وما بعدها) .
٢ الروض الانف (١/٥٦) .
٣ . سيرة ابن هشام (١/٥٩) .
٤ الامالي ، للقالي (١/٦١) .

ويجب ألا ننسى شعر المعارك والحروب ، وهو شعر نستطيع أن نسميه شعر (الحماسة) . فالعادة عند العرب أنهم ينشدون الشعر عند الغزو وفي أثنائه ، وفي المعارك والحروب . فالمقاتل حين يندفع بين المحاربين ليقاتل خصمه ، ينشد شعراً يفتخر فيه بنفسه وبعشيرته وبقبيلته ، ويكون في الغالب من الرجز ، لأنه شعر سهل مطاوع ، يصلح لمثل هذه المواقف ، ونجد في أخبار الأيام وفي الفتوح الإسلامية شعراً وافراً من شعر المعارك من الرجز ومن بحور الشعر الأخرى .

ومن أبواب الشعر عندهم : شعر الوصايا والحكم . فنجد بين الشعر المنسوب الى الجاهليين شعراً فيه وصايا يوصي الشاعر بها ولده وأقاربه أو عشيرته بخلاصة ما حصل عليه ذلك الشاعر في حياته من تجارب . كما نجد بينه حكماً عرف بها بعض الشعراء مثل زهير بن أبي سُلمى ، والأفوه الأودي وآخرون .

وقد تغنى الجاهليون بشعرهم ، فكانوا ينشدونه بنغم خاص، قد يصحب بآلة موسيقية ، وقد يشربون ويغنون ، أو يسمعون مغنياً يغنيهم بشعر . فلما انتهى (خالد بن الوليد) الى (سوى) وأهله من بهراء ، وجد ناساً منهم يشربون خمراً لهم في جفنة قد اجتمعوا عليها ، ومغنيهم يقول :

ألا علّلاني قبل جيش أبي بكر لعلّ منايانا قريب وما ندري[1]

ونجد في الأخبار ان ملوك الحيرة والغساسنة والأثرياء كانوا يستمعون الى الغناء وهو شعر ينشد على نغم ، توقعه قينة على آلة من آلات الموسيقى ، مثل الصنج والبربط ، والدف ، والمزهر ، وآلات أخرى أخذت من الروم والفرس ، وقد سبق أن تحدثت عن وجود قينتين بمكة كانتا لعبدالله بن جدعان ، تغنيان له ، واتخذ غيره من الموسرين والشعراء قياناً ، يغنين لهم الأغاني ، وأكثرهن من الموالي من روم وفرس .

والغناء كلام يجب أن يماشى مع النغم ، ولهذا ينظم نظماً يتناسب مع الإيقاع. ونجد عند اليونانيين شعراً ينظم للغناء خاصة ، يقال له (الشعر الغنائي) « Lyric » ،

---

١ الطبري (٤١٧/٣) ، فتوح البلدان (١١٨) ، (ذكر شخوص خالد بن الوليد الى الشام وما فتح في طريقه) .

وهو يختلف عن الشعر المألوف الذي لا يمكن أن يتغنى به دائماً لثقله ، وعـدم اتساقه مع الإيقاع . ونجد في التوراة شعراً نظم خصيصاً للإنشاد والتغني به ، وهو يختلف في نظمه عن الشعر المألوف .

ولم يشر أهل الأخبار الى وجود شعر من هذا النوع عنـد الجاهليين ، وإن ذكروا ان الجاهليين كانوا يتغنون بالشعر ، وكانت قيانهم يتغنين بشعر الشعراء . ومعنى هذا انهم كانوا يغنون ببحور الشعر المألوفة ، لا بشعر غنائي خاص . ونجد في خبر (أحد) ان (هنداً) قامت في النسوة اللواتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضونهم ، فقالت (هند) فيما تقول:

إن تقبلوا نُعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نُفارق فراق غير وامق

وتقول :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتـار[1]

فهذا شعر ، ينسجم التغني به مع الإيقاع على الدفوف ، ووزنه يناسب ذلك النغم ، لكنه ليس من شعر الغناء الخالص ، الذي يتناسب مع الألحان المبنية على ارتفاع وانخفـاض الصوت ، وعلى التغيير في النبرات ، وعـلى الجرّ والمطّ ، والقصر والجزم ، وما شاكل ذلك من حركات يقتضيها إيقاع اشتراك جملة آلات دفعة مع الشعر الـذي يتغنى به في وقت واحد ، وربما اشترك في الغناء جملة مغنّين .

ويذكر أهل الأخبار أن الغناء قديم في الفرس والروم ، ولم يكن للعرب إلا (الحداء) و (النشيد) وكانوا يسمونه (الركبانية) ، « وأول من نقـل الغناء العجمي الى العربي من أهل مكة سعيد بن مسجح ، ومن أهل المدينة سائب خاثر ، وأول من صنع الهزج طويس »[2] ، وهو كلام قصد به أن الغناء العربي

---

١ الطبري (٢/٥١٢) .
٢ نهاية الارب (٤/٢٣٩) .

قبل الإسلام لم يكن كثير التنويع ، وإنما كان مقصوراً على طرق معينة ، ثم تطور في الإسلام بدخول الأعاجم فيه ، وباحتكاك العرب بهم . فالشعر الجاهلي إنما كان يتغنى به بتلك الطرق المحدودة . ونحن لا نستطيع البت في هذا الموضوع، لأنه من أخبار أهل الأخبار ، ولكن لا يعقل في نظري أن يقتصر غناء الحضر على هذه الأنغام البدوية ، وبينهم مغنون أعاجم وقيان استوردن من فارس والروم، وكنّ يحسنّ الغناء ، ويتغنّين بالشعر ، فكان لعبدالله بن جدعان قينتان أعجميتان، تغنيان له ولضيوفه ، وكان لغيره قيان ، وقد ورد أن بعضهن كن يغنين بهجاء الرسول. ثم إن ملوك الحيرة كانوا على اتصال بغناء الفرس وغناء بني إرم والنبط، فلا يعقل الا يتأثروا بدروب غناء الأعاجم ، فيدخلوها في غنائهم ، وينوعوا في التغني بالشعر ، والا يبرز بينهم من يضع أشعاراً تنسجم مع ألحان الغناء .

وكان من غناء العرب (النصب) ، وقد عرف به الأعراب ، وهو غناء يشبه الحداء ، إلا أنه أرق منه . وهو العقيرة . يقال : رفع عقيرته إذا غنى النصب[1] . فهو غناء يتغنى به بشعر على طريقة معلومة ، اشتهرت بها العرب ، أهل البوادي .

وقد لعب الجمل دوراً خطيراً في الشعر الجاهلي ، وكيف لا يستأثر بمكانة مهمة في الشعر الجاهلي ، وهو مرافق الأعرابي ، والحيوان الوحيد الذي رضي بمصاحبته ومرافقته في الصحاري الموحشة المتعبة ، ولهذا نال حقه من المدح والثناء عليه ، كما ألهب مشاعر الأعرابي فجعله يصفه في شعره ، وصفاً كاد يحيط بجميع أجزاء جسمه[2] ، وحظيت الخيل بمكان مرموق أيضاً في مملكة الحيوان المذكورة في الشعر ، فالفارس لا يكون فارساً إلا بفرسه ، وكان يقدم فرسه على نفسه وأهله في الطعام ، لأهمية الفرس في حياته ، فلا عجب اذا ما أبدع الشاعر الجاهلي في وصف الفرس ، وأشاد بذكر الخيل في شعره . وحظيت الحيوانات الوحشية مثل المها والظباء ، والحمار الوحشي ، والأسود ، على مكانة في الشعر الجاهلي كذلك، لما لها من صلة بحياة العربي .

يقول (بروكلمن) : « والقصيدة ، المؤلفة على نظام دقيق ، ينبغي استهلالها

---

١ اللسان (١/٧٦١ وما بعدها) ، (نصب) .
٢ بروكلمن (١/٥٦) .

بالنسيب ، والحنين الى الحبيبة النائية ، ذلك الحنين الذي يعتري الشاعر عند رؤية أطلالها الدائرة وهو راكب في القفار . ثم يتحول الشاعر في تخلص نموذجي من موطن لوعته وذكرياته الى وصف مسيره في المفاوز دون انقطاع ، وهو وصف قد يخرج أحياناً الى مجرد تعداد لأسماء ما يجتازه من أماكن . ثم يخلص من ذلك الى وصف راحلته ، فإذا هو عمد في هذا الوصف الى تشبيه راحلته ببعض حيوان الوحش استطرد أحياناً الى وصف هذا الحيوان وصفاً شاملاً . ثم لا يتجه الشاعر الى التعبير عن حقيقة قصده إلا في آخر القصيدة .

هذا المنهج لا بد أن يكون قد رسخ منذ زمن طويل . وقد ذكر امرؤ القيس سلفاً له في الشكوى والبكاء على الأطلال ، يدعى : ابن خذام ، وإن لم يستطع أدباء العصر العباسي تعيين هذا الشاعر . وتبع المتأخرون هذا المنهج ولم يكادوا يجسرون على تغييره »[1] .

وقد أكثر الشعراء من استعمال بعض الجمل في افتتاح شعرهم ، مثل (بانت سعاد) . ذكر أن (بندر الأصبهاني) كان يحفظ تسعمائة قصيدة أول كل منها (بانت سعاد)[2] .

والشعر الجاهلي ، شعر صلد متين، يميل الى الرصانة والى استعمال اللفظ الرصين، الذي يغلب عليه طابع البداوة ، وشعر هذا طابعه ، لا يمكن أن يتحرر ، وأن يعبر عن المعاني بحرية ، إذ يكون الشاعر مقيداً بقيود الخضوع للعرف وللشكليات التي اصطلح عليها الشعراء والناس ، ولهذا لم يتمكن الشعراء من التطرق الى مختلف المعاني والتصورات الإنسانية ، وصار الطابع الغالب عليه هو الطابع اللغوي، فخشونة الشعر ، وجزالته وغرابته ، من مميزات هذا الشعر ومن محبباته الى النفوس، وكلما كان الشعر غريباً وبألفاظ غريبة ، نال التقدير والاستحسان ، لقد عمل (الأصمعي) قطعة كبيرة من أشعــار العرب ، لكنها لم تنل الاستحسان ولم يرض عنها العلماء « لقلة غربتها واختصار روايتهـا »[3] . والشعر الذي ينال التقدير ، هو الشعر الخشن ، الذي روي بألفاظ نجدية ، ولذلك لم يحفل العلماء بشعر عدي بن زيد ،

---

١ بروكلمن (١/٦٠) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٢٩) .
٣ الفهرست (٨٩) .

لأن فيه ليونة[1] ، والعلماء يبحثون عن الشعر الخشن ، الذي على العالم أن يفكر فيه ويعمل رأيه فيه طويلاً ، ويفكر ويغوص فيه حتى يجد معناه .

واشتهر بعض الشعر بشهرة عرف ونعت بها ، مثل قصيدة : (سويد بن أبي كاهل) ، واسمه (عطيف بن حارثة) اليشكري ويقال الوائلي ، ويقال الغطفاني ، التي عرفت بـ (اليتيمة) ، وهي قصيدة عينية . قيل عرفت بذلك لما اشتملت عليه من الأمثال . وهو من الشعراء المخضرمين[2] . وعرفت القصيدة التي نظمها (خداش بن زهير) ، في هشام والوليد ابنا (المغيرة) المخزوميان، وفي (عبدالله بن جدعان) بالمنصفة[3] . وذلك لإنصافه خصومه في شعره . ومن المنصفات قول (المفضل) النُكري :

كأن هزيزنا يوم التقينا   هزيز أباءة فيها حريق
وكم من سيد منّا ومنهم   بذي الطرفاء منطقه شهيق[4]

لقد مر الشعر بمراحل ، سنة كل شيء في هذه الدنيا . بدأ بدائياً لبداءة أصحابه ، ثم تطور بتطور الناس ، تطور من حيث معانيه وأفكاره ، وتطور من حيث قوالبه وأشكاله ، أي بحوره . واقتضى هذا التطور ومرور الزمن وتغير الانسان ، ظهور أوزان جديدة ، أوجدها الشعراء هروباً من التقليد ، وخروجاً على التقاليد ، وابتداعاً من الشاعرية ، لتقدم لعشاق الشعر لوناً جديداً من ألوان النظم ، يمتاز على المعروف المألوف المتوارث ، بنفس جديد ، وبموسيقية حديثة تناسب الزمان والمكان ، كما هو شأن الشعر عند كل أمة ، فتعددت ألوانه وبحوره، حتى اذا كان الاسلام ضبطت ألوانه في بحور جمعها (علم العروض) المعروف .

أما أسماء أولئك المجددين في الشعر الجاهلي ، فقضية لا يمكن البت بها ، ولا اصدار حكم فيها . فنحن لا نعرف من أمر الشعر الجاهلي إلا هذا الذي يرويه أهل الأخبار عنه ، وهو لا يستند — كما قلنا — الى سند جاهلي مدون، ولا الى كتاب من كتب أهل الجاهلية ولا الى ديوان من دواوينهم ، بل روي رواية وحكي

---

١ الشعر والشعراء (١/١٥٠) ، (دار الثقافة) .
٢ الاغاني (١١/١٦٥) ، الاصابة (٢/١١٧) ، (رقم ٣٧٢١) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .
٤ الاصمعيات (٢٣٣) .

حكاية ، وأقام الاسلاميون على هذا المروي قواعد نظرياتهم في الشعر الجاهلي . ولم يرد في هذا المروي أي شيء عن كيفية ظهور بحور الشعر الجاهلي ، ولا عمن جدد وأوجد هذه البحور . وليس لنا أي أمل في إمكان الحصول في المستقبل على علم جديد عن تطور ذلك الشعر وعن ابتكار رجاله الجاهليين فيه ، ما دام سند علمنا هذا المورد القائم على الرواية القديمة . أما اذا عثر على نصوص مدفونة عربية جاهلية أو أعجمية فيها بحوث عن الكلام المنظوم عند العرب ، فذلك شيء آخر بالطبع . ومثل هذه النصوص هي التي يكون في وسعها وحدها تقديم صورة علمية واضحة عن الشعر الجاهلي .

ومن رأى بعض أهل الأدب ، « أن مُقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربعَ ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ... لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحرَّ الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر في قدره الجزيل .

فالشاعرُ المجيد من سلك هذه الأساليبَ ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل ، فيمل السامعين ، ولم يقطع بالنفوس ظمأ الى المزيد »[1] .

وزعموا ان هذا كان نهج شعراء الجاهلية في نظم شعرهم ، ونهج شعراء صدر الاسلام ، حتى اختلط العرب بالعجم ، وانتقل العرب من حياة الى حياة ، وظهر الشعراء الأعاجم الذين لم يتمكنوا من غسل أدمغتهم من المعاني الأعجمية ، ومن التفكير الأعجمي ، فنظموا الشعر بالعربية ، ولكن بمعان أعجمية جديدة ، وجاءوا

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

ومن تأثر بالحضارة العربية الجديدة التي ظهرت في البلاد المفتوحة بآراء مستجدة ، وظهر التجديد في الشعر العربي ، وابتعد بذلك عن أسلوب الشعر الجاهلي .

ويتوقف طول الشعر وقصره على (نفس الشاعر) ، أي على الظروف النفسية التي تحيط بالشاعر حين ينظم شعره ، وبالمؤثرات التي أثرت عليه . وقد سئل (أبو عمرو بن العلاء) ، « هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها. قيل : هل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . ويستحب عندهم الإطالة عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والإصلاح بين القبائل كما فعل زهير والحارث بن حلزة ومن شابهما ، وإلا فالقطع أطير في بعض المواضع والطوال للمواقف المشهورة »[1] .

وقد ذهب (غرونباوم) الى امكانية تقسيم الشعر الجاهلي الى مدارس أدبية متميزة ، جعلها ستة مدارس أو اتجاهات أو مذاهب بتعبير أصح . تضم الشعراء الذين ولدوا ما بين سنة ٤٤٠ و ٥٣٠م على وجه التقريب . « وليس معنى هذا أنه ليس هنالك شعراء تتجافى طبيعتهم نفسها عن مثل هذا التقسيم وتشذّ عنه . فإن الشاعرين الصعلوكين الشهيرين تأبط شراً والشنفرى ، هما المثلان البارزان على مثل هذه المواهب الفردية . ولعل من أمتع الأمور ، ما يتجلى في آثار تلك الفئة من الشعراء ، الذين عاشوا في بلاط الحيرة ، من مظاهر الحضارة الساسانية . فأبو دؤاد الايادي (حوالى ٤٨٠ — ٥٥٠ م) ، والشاعر النصراني عديّ بن زيد (حوالى ٥٤٥ — ٥٨٥ م) ، يتجلى في شعرهما خليط من العقلية البدوية والتفكير الحضري . وطرفة (حوالى ٥٣٥ — ٥٣٨ م) وكذلك الأعشى ، ينقلان الى العراق سياقاً فنياً آخر لمدرسة أخرى ينتمي أعلامها الى قبيلة قيس بن ثعلبة ، من بني بكر بن وائل ، هذا وليس من شك في أن الأعشى هو أكبر مالك لأزمة اللغة بين شعراء الجاهلية ، وان المشاهد البهجة في قصائده تنمّ عن تأثير الشعراء الساسانيين . ثم إن امرأ القيس بن حجر الأمير الكندي (حوالى ٥٠٠ — ٥٤٠م) أشهر شعراء العرب الجاهليين وأبعدهم أثراً،قد كان نظير طرفة ، صاحب احدى القصائد النموذجية المعروفة بالمعلقات . ومعاصره عبيد بن الأبرص يمثل قمة مدرسة أخرى من هذه المدارس .

---

١ العمدة (١٢٤/١) ، بلوغ الارب (٨٣/٣) .

وقبل أن يتجرم القرن السادس ، كانت وحدة اللغة واتساق الاسلوب ، قد قطعا مرحلة واسعة نحو التبلور . وقد تداخلت هذه المدارس عن طريق تجمع المفردات وتوارد الصور الشعرية ، لكن هذا التطور لم يتسع فيشمل جماعات الشعراء التي عاشت الى جانب التيار الرئيسي الذي جرى فيه الشعر العربي . وأهم مدارس هذا العصر المتأخر هي مدرسة الشعراء الهذليين التي برزت آثارها ما بين سنة ٥٥٠ – ٧٠٠ م . وكان من الموضوعات التي اختصت بها هذه الجماعة وصف النحل والعسل . ومثل هذه الأوصاف قد استتبعت ضرباً من الخصوبة في مشاهد الطبيعة لا سيا حيث ألحت بالشاعر الرغبة في جمع العسل البري .

ويشتمل ديوان الهذليين على قصائد كثيرة لأفراد مـا نظموا الشعر إلا لماماً . ولا بد ههنا من التأكيد أنه كان الى جانب الشعراء (المحترفين) ، عدد عظيم من الشعراء (الهواة) والذين عمدوا ، بين الفينة والفينة ، الى التعبير بالشعر عن عواطفهم ورغباتهم . وهذا يعلل لنا ما نجده دائماً من أبيات هي من حيث التأريخ وليدة عصر واحد ، لكنها ليست كذلك من حيث درجة الاتقان . فشعر غير المحترفين يغلب أن يكون دون شعر المحترفين بنحو من جيل على أقل تقدير . ولما لم تكن هذه الظواهر قد أخذت حتى الآن بالاعتبار الكافي ، فقد ساعد ذلك على استمرار الاعتقاد بجمود الشعر القديم في سياقه الموحد . وقد بقي في مؤخرة الركب – لكن ثقافياً لا فنياً – الرجز الذي هو أقرب الى الأدب الشعبي . على أن الفاصل ما بين الرجز والقريض – وهو الشعر بالمعنى المعروف – قد ظل حاداً الى عهد متأخر جداً »[1] .

وبعد،فهناك مسائل تتصل بتطور الشعر الجاهلي أرى ان من المستحيل حلها في الوقت الحاضر ، لعدم وجود أدلة علمية مقبولة يمكن أن يركن اليها لحل ما عندنا من عقد مستعصية ، مثل نشأة وتطور الشعر العربي ، وكيف نشأت القصيدة ، وعدد الأوزان والبحور العروضية التي سار عليها الجاهليون في وزن الشعر، والتزام القافية أو عدم التقيد بها في الشعر ، ومتى نشأت القصيدة ، ثم هل كانت لغة الشعر لغة واحدة ، خاصة كما نراها في الشعر الجاهلي المدون ، أم لم تكن، وانما كان الشعراء ينظمون بلهجاتهم من الوجهة اللفظية والنحوية والصرفية ، ولكن علماء

---

١ غرونباوم (١٤٠ وما بعدها) .

الشعر في الاسلام ، هذّبوا تلك الأشعار حتّى جعلوها بلهجة واحدة ، هي اللهجة التي وصلت الينا ، واذا كان هذا هو ما جرى ، فما هي نسبة التحوير التي أوقعها العلماء على ذلك الشعر ؟

القديم والحديث :

مشكلة القديم والحديث ، وتصادم الحديث مع القديم ، وتفضيل الناس القديم على الحديث ، من المشاكل التي شغلت الانسان منذ ظهوره على سطح الأرض حتّى اليوم . فالحديث ينافس القديم ، ليحل محله ، والقديم يصر على حقه في البقاء وفي جدارته في الخلود . والجيل الجديد يريد أخذ القيادة من الجيل القديم ، والجيل القديم لا يريد إعطاءها لأحد إلا اذا كان من جيله ، لأنه أقدر في نظره على إدراك الأمور ،وأكثر تجارباً وخبرة وحكمة من الأحداث جماع الجيل الجديد، مع ان كل قديم هو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله ، وكل جديد سيصير قديماً بالنسبة الى من يأتي بعده ، ولسبب آخر ، هو ان القديم،هو الحاكم المتنفذ ، فلا يهون عليه التنازل عن حقه لمستجد .

وقد شغلت هذه المشكلة أذهان الجاهليين ولا شك ، كما شغلت أذهان الاسلاميين: فشعراء العصر الأموي ، كانوا يرون في شعرهم إبداعاً لم يكن عند من سبقهم من المخضرمين والجاهليين ، غير ان الناس في أيامهم ، لم يكونوا يعطون شعرهم من التقدير ما أعطوه للشعر القديم ، كانوا يرونه (مولداً) بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين[1] .

وكان الشعر القديم ، هو الشعر الممتاز المقدم عند علماء الشعر واللغة ، فكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : « لقد أحسن هذا المولد حتّى هممت أن آمر صبياننا بروايته » لكنه لم يستشهد به ، ولم يجعل الجيد الممتاز من الشعر المولد في منزلة الشعر القديم ، لسبب واحد هو قدم الشعر الجاهلي . « قال الأصمعي : جلست اليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي ، وسئل عن المولدين ، فقال : ما كان من حَسَن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم،

---

١ العمدة (١/٩٠) .

ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، وقطعة نطع . هـذا مذهب أبي عمرو وأصحابه : الأصمعي ، وابن الأعرابي ، أعني أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم مَنْ قبلهم ، وليس ذلك الشيء إلا لحاجتهم الى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ، ثم صارت لجاجة »[1].

وقد رجّع (الجـاحظ) سبب هذا الركض وراء الشعر الجاهلي الى لحاجة علماء اللغة في البحث عن كل شعر يستفاد منه في الشواهد ، إذ يقـول : « ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلاّ كل شعر فيه الشاهد والمثل »[2] . ويقول : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي، فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، (الألفاظ والمعاني العربية) ، فسألت الأخفش ، فلم يعرف إلا إعرابه ، فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينفذ إلا فيما اتصل بالأخبار ؛ ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب وغيره »[3] .

لقد كان القدم ، هو المقياس الأول في تقدير الشعر في ذلك الحين . فالشعر القديم محبوب مطلوب ، مقـدم على الحديث ، مهـما كان في الشعر الحديث من إبداع في المعنى وفي القالب . قال عبدالله التميمي : « كنا عند ابن الأعرابي ، فأنشده رجل شعراً لأبي نواس أحسن فيه فسكت . فقال له الرجـل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ قال : فقال : بلى ، ولكن القديم أحب الي »[4] .

وقد بلغ من تعظيم بعضهم للقديم،انهم كانوا يرون المعاني على مقادير أصحابها من الشعراء ، فالمعنى الذي يكون لامرىء القيس يكون كامرىء القيس في اعتباره وإجلاله وتحاميه أن يتلقى بالرد والمواجهة ، ولذا فشا الغلط بينهم في تفسير الشعر وأخذ منه التصحيف كل مأخذ[5] .

فالقدم وحاجة العلماء الى الشعر القديم للاستشهاد به ، والبحث عن الغريب ، كانت كلها من العوامل التي أعطت للشعر القديم منزلة لم ينلها شعر المعاصرين ،

---

١ العمدة (١/ ٩٠ وما بعدها) ، الخزانة (١/ ٣ وما بعدها) .
٢ البيان (٤/ ٢٤) .
٣ الرافعي (١/ ٤٢١) .
٤ الموشح ، للمرزباني (٣٨٤) .
٥ الرافعي (١/ ٤٢٠) .

فأغاظ ذلك الشعراء المحدثين ، وجعلهم يحنقون على علماء اللغة ، ويسخرون منهم ومن عروضهم ونحوهم ، ولم يخفف من غلواء هؤلاء العلماء إلا تغير الزمن، وبروز الأدباء الذين نظروا الى الأدب نظرة أخرى ، نظرة تقدر (الجيد) من الشعر من غير نظر الى زمانه أو قائله .

ولابن قتيبة رأي في الشعر يخالف رأي (أبي عمرو بن العلاء) وأصحابه ، رأيه في قيمة الشعر رأي الجاحظ الذي ذكرته ، وقد عرضه بقوله : « رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا انه قيل في زمانه ، أو انه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلمَ والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله » .

وقال : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيلَ من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين. وأعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه »[1] .

قال خلف الأحمر : قال لي شيخ من أهل الكوفة : أما عجبتَ من الشاعر قال :

أنبتَ قيصوماً وجُثجاثا

فاحتُمِلَ له ، وقلت أنا :

أنبتَ إجاصاً وتفاحا

فلم يُحتمل لي ؟ »[2] .

ومن شدة عجب الناس بالشعر الجاهلي انهم جعلوه انموذجاً لشعرهم ودليلاً لهم

---

١ الشعر والشعراء (١/١٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ٠
٢ الشعر والشعراء (١/٢٢) ٠

وهادياً في أصول نظم الشعر ، من محافظة على مظهر القصيدة وعلى (عمود الشعر). وجعلوا الشكل الخارجي ، الذي رسم للقصيدة من ذكر الدبار والدمن والآثار الى آخر ما قالوه عن ترتيب المراحل التي يجب أن تمر بها القصيدة ، ثم عمود الشعر مقياسين ، قاسوا بموجبها الشعر الجيد من الشعر الرديء ، وميزوا بينهما بهذين المقياسين . « فالشاعر المجيد مَن سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيملّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد »[1] .

وكان (الجاحظ) وهو من شيوخ الأدباء ، يرى مذهب الأديب في تقدير الشعر وتثمينه ، يرى أن الشعر بمواضع الحسن منه ، وبالمعاني الجليلة التي فيه ، وعلى الألفاظ العذبة التي تشتمله ، وفي ذلك يقول: « وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين ؛ ومن لم يروِ أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة — فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الأحاديث والقصائد والفقر والنتف من كل شيء ، ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب عباس بن الأحنف ، فما هو إلاّ أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سُنيات وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ فيَ طلب الشعر أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة والأصمعي ويحي بن نُجيم وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أرَ غاية النحويين إلاّ كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل ، ورأيت عامتهم — فقد طالت مشاهداتي لهم — لا يقفون على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك

---

١ الشعر والشعراء (١/٢١) .

الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي ان صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر ؛ ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر، وربما خُيل إليّ أن أبنـاء أولئك الشعراء لا يستطيعون أن يقولوا شعراً جيداً ، لمكان إغراقهم في أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيّاباً ثم للعلماء خاصة، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعتُ من أبي عبيدة ، ومن هو أبعدُ في وهمك من أبي عبيدة »[1] .

وكانت نظرة المبالغة هذه في تقدير الشعر القديم من جملة العوامل التي حملت جهابذة العلماء الخبراء بأساليب الشعر الجاهلي المتقنين له على وضع الشعر على ألسنة الجاهليين وعلى اذاعته ونشره بين الناس . فقد وجدوا ان سوقه رائجـة ، وان ما يقدمونه منه لطلابه يقدر تقديراً عظيماً ، وان ما ينظمونه هم وينشرونه باسمهم لا ينال مثل ذلك التقدير . وقد يحفل به . وان بعض خلفاء بني أمية كان لهم عشق خاص بشعر الجاهلية ، وانهم كانوا يبحثون عنه ، واذا سمعوا بوجود راوية عرف بحفظه ذلك الشعـر ، أرسلوا اليه ، ليتحفهم بمـا عنده ، ثم يجزلون له العطاء ، على حين كانوا لا يعطون على الشعر الـذي ينظمونه أو ينظمه الشعراء الأحياء إلا قليلاً ، وإلا اذا كان مدحـاً لهم وتزلفـاً اليهم . فدفعهـم حرصهم المادي هذا على صنع الشعر وإسناده الى الشعراء الجاهليين . وهم لو نسبوه اليهم لصار فخراً لهم ، يثمنه لهم من يجيء بعدهم ، ولكنهم ما كانوا ليحصلوا عليه شيئاً مغرياً ، ففضلوا المادة على الشهرة التي تأتي اليهم بعد الموت .

وقد اتخذ بعض علماء الشعر ورجال الأدب موقفاً وسطاً بـين المحدثين ، من الشعراء الذين قيل لشعرهم : المولد، وبين الشعراء المتقدمين ، فقال (ابن رشيق) : « ليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ، ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حُوشياً خشناً ، ولا أعرابياً جافـاً ، ولكن حال بين حالين .

---

[1] البيان والتبيين (٢٣/٤ وما بعدها) ، الرافعي (٤٢٣/١ وما بعدها) .

ولم يتقــدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد من السخف والركاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولاً عنهم ، إذ هو طبع من طباعهم ، فالمولد المحدث — على هذا — إذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع أنه أرق حوكاً ، وأحسن ديباجة [1] .

---

١ العمدة (١/٩٣) .

الفصل الثامن والاربعون بعد المئة

القريض والرجز والقصيد

ويقال للشعر : القريض وهو الاسم كالقصيد ، والقرض : قول الشعر خاصة، والتقريض صناعته . وقد فرّق (الأغلب العجلي) بين الرجز والقريض بقوله :

أرجزاً تريد أم قريضا ؟ كليهما أجِدُ مستريضا [1]

وقد ورد أن أصحاب رسول الله كانوا يتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . وورد أن (المنذر) ملك الحيرة حين أراد قتل (عبيد بن الأبرص) قال له : أنشدني من قولك ، فقال عبيد : حال الجريض دون القريض، فذهب قوله مثلاً [2] . و « قال النحاس : القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذي ليس برجز » [3] .

ويلاحظ ان العرب وإن قالوا : « نظمتُ الشعر ونظمته » ، وقصدوا

---

١ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها ،
ارجزا تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا
الأغاني (٩٧/١٤) ، تاج العروس (٧٥/٥) ، (قرض) .

٢ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها) ، (قرض) .

٣ العمدة (١٨٤/١) .

بـ (النظم) الشعر ، وعرّفوا الشعر بأنه « منظوم الكلام »[1] ، غير انهم كانوا يقولون أيضاً : « قال شعراً » ، و « وهو يقول الشعر » ، وفي القرآن : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون »[2] ، و « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل وادٍ يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »[3] . ويقولون : قول شاعر .

والشعر في تعريف علمائه : « منظوم القول،غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية » ، وهو « الكلام المقفى الموزون قصداً »[4] ، ومن صيروا الكلام نوعين : كلام منظوم ، وكلام منثور . والفرق بينهما هو في وجود الوزن والقافية في الشعر ، وفي عدم وجودهما في الكلام المنثور . وتوجد هذه النظرة عند (أفلاطون) ، و (فيثاغورس) ، وهي تختلف بعض الاختلاف عن رأي (ارسطو) في الشعر[5].

« وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً ، وأنه إنما قُصّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحي وغيره . وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ثم أتى العجّاج فافتنّ فيه فالأغلب العجلي والعجاج في الرجز كامرىء القيس ومهلهل في القصيد »[6] .

والقصيد من الشعر ما تمّ شطر أبياته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . قال (ابن جني) : « سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً . وذلك ان ما تمّ من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشدّ تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسمّوا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين،

---

١ اللسان (٥٧٨/٠) ٠

٢ الحاقة ، الآية ٤١ ٠

٣ الشعراء ، الآية ٢٢٤ وما بعدها ٠

٤ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، الصاحبي (٢٧٣) ، ارساد الساري (٨٨/٩) ٠

٥ Poetics, C. I, (1447A), Borinski, Die Antike in Poetik und Kunstheorie, I, 43.

٦ بلوغ الأرب (٨٣/٣) ، العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ٠

والجمع قصائد »[1] . وذكر علماء الشعر : « سمي الشعر التام قصيداً ، لأن قائله جعله من باله قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روّى فيه خاطره واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضاباً ، فهو فعل من القصد». « وقالوا شعر قصيد اذا نقح وجوّد وهذب »[2] .

جاء في قول شاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز   تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجّاز

يقال : أقصد الشاعر وأرمل وأهزج وأرجز ، من القصيد والرمل والهزج والرجز[3] .

والرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء ، وهو الذي يترنمون به في عملهم وسَوقهم ويَحْدون به . هذا هو تعريفه عند بعض العلماء . وعرّفه بعضهم : أنه بحر من بحور الشعر معروف ونوع من أنواعه يكون كل مصراع منه مفرداً ، وتسمى قصائده أراجيز ، واحدتها أرجوزة ، وهي كهيئة السجع إلا أنه في وزن الشعر ، ويسمى قائله راجزاً كما يسمى قائل بحور الشعر شاعراً وعرفه آخرون أنه شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد،وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس[4]. وذكر أن كل شعر تركب تركيب الرجز سُمي رجزاً[5] . والرجز في الوقع سجع موزون . ونجد شبهاً في التوراة ، حيث ورد على ألسنة الحكماء العبرانيين في سفر الأمثال[6] وعلى لسان بلعام الحكيم[7] ، الذي جعله بعض العلماء لقمان الحكيم المذكور في القرآن .

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٧) .
٢ المصدر نفسه (٢/٤٦٨) .
٣ تاج العروس (٢/٤٦٦) .
٤ اللسان (٥/٣٥٠ وما بعدها) ، (رجز) ، البيان والتبيين (٢/١٨٤) ، (١٣١٣)، العمدة (١/١٢١ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (١٨٦) .
٥ اللسان (٥/٣٥١) .
٦ الامثال ، الاصحاح ٢١ ، الآية ٢٧ وما بعدها .
٧ العدد ، الاصحاح ٢٢ ، الآية ٥ وما بعدها .

وذكر بعض العلماء ان الرجز انما سمي رجزاً لأنه تتوالى فيه في أوله حركة وسكون ثم حركة وسكون الى أن تنتهي أجزاؤه ، يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها ، وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن[1] ، وقيل سمي بذلك لتقارب أجزائه واضطرابها وقلة حروفه ، وقيل لأنه صدور بلا أعجاز. وقيل الرجز ضرب من الشعر معروف وزنه مستفعلن ست مرات ، فابتداء أجزائه سببان ثم وتد ، ولذلك جاز أن يقع فيه المشطور وهو الذي ذهب شطره والمنهوك ، وهو الذي قد ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزءان[2] . وذهب بعض العلماء الى ان الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور ، والمنهوك ، والمقطع[3] .

وهو تام ومختصر . والمختصر ، أنواع : المجزوء والمشطور والمنهوك . وذُكر ان الذي جرى على لسان الرسول من الرجز ضربان : المنهوك والمشطور[4] .

والأرجوزة القصيدة من الرجز ، وهي كهيأة السجع إلا انه في وزن الشعر ، والجمع أراجيز . ويسمى قائله راجزاً ورجّازاً ، ورجازة ، ومرتجز[5] . وقد فرّق علماء الشعر بين الشاعر والراجز ، فأطلقوا لفظة (الشاعر) على من ينظم الشعر ، أي (القصيد) ، وأطلقوا كلمة (الراجز) على من يرتجز الرجز . فنجدهم يقولون : الأغلب الراجز ، والعجاج الراجز ، وأبو الزحف الراجز ودكين الراجز وغيرهم[6] .

وقد اختلف العلماء في طبيعة الرجز ، فمنهم من جعله شعراً صحيحاً ، وضرباً من الشعر ، معروف وزنه ، ومنهم من جعله صنفاً من أصناف الكلام قائماً بنفسه ليس بشعر ، ولا بسجع ، وإنما مجازه مجاز الشعر . ونسب الى (الخليل) قوله : الرجز شعر صحيح في رواية ، وقوله : إنه ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث في رواية أخرى[7] . ومردّ اختلافهم فيه هو ما ورد على لسان الرسول من الرجز المنهوك والمشطور ، وما ورد في القرآن الكريم من قوله : « وما علمناه

---

١ اللسان (٥/٣٥١) ، (رجز) .
٢ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) .
٣ العمدة (١/١٨٢) .
٤ اللسان (٥/٣٥١) .
٥ تاج العروس (٤/٣٧) ، (رجز) .
٦ الشعر والشعراء (٢/٤٩٣ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥٧٨) .
٧ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) ، اللسان (٥/٣٥٠) ، (رجز) .

الشعر وما ينبغي له »[1] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقــول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[2] . وما ورد في كتب الحديث والأخبار من أن الرسول لم يكن ينشد الشعر ولا يقوله وينظمه ، لأنه لم يكن شاعراً وما كان له أن يقوله ، وأنه إذا استشهد بالشعر ، لم يقمه على وزنه، وإنما كان ينشد الصدر أو العجز ، ثم يجيء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر، لأن نصف البيت لا يقال له شعر ولا بيت ، ولو جاز أن يقــال لنصف البيت شعراً لقيل لجزء منه شعر . وقد جرى على لسان النبي : أنا النبي لا كـذب ، أنا ابن عبد المطلب . فلو كان شعراً لم يجر على لسانه[3] . وجاء على لسانه .

هل أنتِ إلا اصبعٌ دميت وفي سبيـل الله مــا لقيت[4]

فالرجز اذن ليس بشعر .

وقد ردّ من يقول إن الرجز شعر على قول من يقول إنه ليس بشعر ، بقوله: « معنى قول الله عزّ وجلّ : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، أي لم نعلمــه الشعر فيقوله ويتدرب فيه حتى ينشىء منه كتباً ، وليس في انشاده صلى الله عليه وسلم البيت والبيتين لغيره ما يبطل هذا لأن المعنى فيه أنا لم نجعلــه شاعراً »[5] ، مطبوعاً على نظم الشعر وقوله ، ولهذا فلا صلة لموضوع أصل الرجز ، هل هو نوع من الشعر ، أو ليس بنوع منه مع ما جاء من نفي الشعر عن الرسول .

وورد في الحديث ، ان الرسول كان يرتجز برجز (عبدالله بن رواحة الأنصاري) الشاعر النقيب ، وهو ينقل التراب يوم الخندق ويقول :

---

١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٣) ، تفسير الألوسي (٤٣/٢٣) .

٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) ، تفســير الألوســي (٥٢/٢٩) .

٣ تاج العروس (٣٦/٤) ، (رجز) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) ، اللسان (٣٥٠/٥)، (رجز) .

٤ العمدة (١٨٥/١) .

٥ تاج العروس (٣٦/٤ وما بعدها) ، (رجز) ، اللسان (٣٥٠/٥ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٥٢/١٥ وما بعدها) .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنـا ولا صلينا
فأنزلـن سكينـة علينـا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـة أبينا [1]

ورويت الأبيات بصورة أخرى . فقد روي انه « لما خرج عامر بن الأكوع الى خيبر جعل يرجز بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسوق به الركاب ، وهو يقول :

تا الله لولا الله ما اهتدينا وما تصدقنـا ولا صلينا
الكافرون قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـة أبينـا
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينـا
وأنزلن سكينة علينا [2]

وموضوع أصل الرجز اذن ، موضوع ظهر في الاسلام ، لما ورد في الأخبار من ارتجاز الرسول بعض الرجز ، ولما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث من نفي قول الشعر ونظمه عنه . فرأى فريق من العلماء إخراج الرجز من الشعر ، لما بينته من أسباب . ورأى فريق آخر ، ان الرجز جزء من الشعر ، وان ارتجاز الرسول الرجز ، لا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم ، لأن الرسول لم يتدرب عليه ولم يتعلمه ولم ينشأ منه أراجيز ، وانما ارتجز منه قليلاً من غير قصد ولا عمد ، ولا علاقة لذلك بالانكباب على تعلم الشعر والتخصص به . والدليل على ان الرجز نوع من أنواع الشعر ، هو ما يرويه أهل الأخبار أنفسهم من أن قريشاً اجتمعوا الى (الوليد بن المغيرة) وكان ذا سن فيهم ، ليتدبروا أمـر الناس اذا حضر الموسم ، ولإيجاد جواب موحد لهم في أمر القرآن وفيما يجب قولهم فيه . فلما قالوا له : نقول انه قول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهـان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعـر كله رجزه وهزجه وقريضه

---

١ ارشاد الساري (٥/١٥٧) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٨٦ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٨٧) .

ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر »[1] . فالرجز – إن صح هذا الخبر – هو مثل الهزج والقريض والمقبوض والمبسوط صنف من أصناف الشعر ، ولون من ألوانه، ومن هذه الأصناف المذكورة تكون الشعر في نظر الجاهليين .

فالرجز إذن صنف من أصناف الشعر ، وبحر من بحوره ، له وزن وإيقاع ، هكذا كانت نظرة أهل الجاهلية اليه . وهو في الواقع شعر . و « الرجّاز شعراء عند العرب وفي متعارف اللسان »[2] .

« وليس يمتنع الرجز على المقصّد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصد يستطيع أن يرجز وان صعب عليه بعض الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصّد ، واسم الشاعر وإن عمّ المقصد والراجز فهو بالمقصد أعلق ، وعليه أوقع ، فقيل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه ليس بشاعر ، كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك »[3] .

ولسهولة الرجز على اللسان لم ينظر اليه نظرة إكبار مثل نظرتهم الى الشعر . هذا (أبو العلاء) المعري ، يجعل جنة الشعراء جنّة سامقة ، لها بيوت عالية ، أما جنة الرجز ، فجنة أبياتها ليس لها سموق أبيات الجنة ، جعل فيها : أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحميد الأرقط ، وعُذافر بن أوس ، وأبو نخيلة ، ثم يقول : « تبارك العزيز الوهابُ ! لقد صدق الحديث المروي : إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها . وإن الرجز لمن سفساف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم »[4] .

ويعد الرجز من أقدم أنواع الشعر ، ومن أبسطه وأيسره على الإنسان . ثم هو خفيف على النفس ، فيه طرب وتأثير ، وهو مطاوع يؤدي أغراضاً مختلفة ، ويصلح لأن يعبر عن أحاسيس متنوعة ، حتى يكاد أن يكون مطيّة الشعراء ، يركبها كل من له طبع وذوق وحس مرهف ، ومن هنا صار شعر من كان لا يقول الشعر أو لا يحضره إلا في الملمات والأزمات .

---

١ الروض الأنف (١٧٣/١) ، اللسان (٣٥٠/٥) .
٢ العمدة (١٨٥/١) .
٣ العمدة (١٨٦/١) .
٤ رسالة الغفران (٣٧٣ وما بعدها) .

وهو في نظري أقدم من (القصيد) ، لأنه أبسط منه وأسهل على النظم ، فهو يمثل المرحلة الأولى من مراحل الشعر المألوف. وقد تكون سهولته في النظم، هي التي جعلت كبار الشعراء يأنفون من النظم به ، فهو باب يمكن أن يلجه الشعراء الصغار ، وربما يتغلبون به على كبار أهل القصيد ، ولعل سهولته هذه قصرت في عمره ، إذ جعلت الذاكرة تنساه بسرعة ، لسهولته هذه ، كما يسرع نسيان السجع والكلام الاعتيادي من الذاكرة . فضاع بسبب ذلك الرجز الجاهلي ، ولم تبق منه غير بقية قليلة .

واستعمل الرجز في أحوال البديهة والارتجال ، وقد ارتجز في القتال ، وفي الحداء والمفاخرة ، وما جرى هذا المجرى ، واستعمل في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط واثارة همم ، لما فيه من ملاءمة للذلك . فلما بنى المسلمون مسجد الرسول بالمدينة ، وكان الرسول يحمل (اللبن) معهم ، كان الصحابة يرتجزون الرجز لإثارة الهمم وللتخفيف من وطأة العمل . قال « أبو عبيدة : انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، اذا حارب أو شاتم أو فاخر،حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد . فكان في الرجّاز كامرىء القيس في الشعراء ... وقال غيره : أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم ، وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك »[1] .

ويعد (الأغلب بن جشم بن عمر بن عبيدة بن حارثة العجلي) أول من نحا بالرجز منحى القصيد ، فأسبغه وأطاله . وهو من المخضرمين . وقد قتل بنهاوند سنة (٢١ هـ). وهو الذي جاء الى (المغيرة بن شعبة) ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيدا   لقد طلبت هينا موجودا

وكان الخليفة (عمر) — على ما يذكره أهل الأخبار — كتب الى المغيرة وهو

---

١ العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الأغاني (١٦٤/١٨) .

على الكوفة أن استنشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك الى (عمر) فكتب اليه أن أنقص من عطاء الأغلب خمسمائة فزدها في عطاء لبيد[1] .

وروي أن (العجـــاج) ، وهو (عبدالله بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن عمرو) أبو الشعثاء التميمي ، والد الشاعر (رؤبة) ، هو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد ، وجعل له أوائل[2] . وهو من شعراء الإسلام، وكان يفد على ملوك بني أمية من أمثال الوليد بن عبد الملك[3]،وسليمان بن عبد الملك[4] :

وهو قليل الورود في شعر الشعراء الجاهليين ، فقلما استعمل (نوابـغ الشعراء في زمان الجاهلية) « الرجز » كأنه ليس أهلاً لمنزلتهم. ففي ديوان امرىء القيس لا نعثر إلا على أربع مقطعات صغيرة منه . أعني اثنتين من المشطور واثنتين من غير المشطور . وأكثر من امرىء القيس ارتجازاً لبيد بن ربيعة من الذين أدركوا الاسلام تنسب اليه خمس عشرة مقطّعة في الرجز المشطور ، تدور عــلى المفاخرة والحكمـة والمعاتبة والمديـح والرثاء ، وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتـاً .

أما دواوين النابغـة الذبيانـي ، وزهـــير بن أبـي سُلمى، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة الفحل ، فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة ، فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغير أشار ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة حين قال : قال أبو عبيدة انما كان الشاعر يقول من الرجـــز البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو شاتم أو فاخر حتّى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليهـا ووصف ما فيها

---

١ المؤتلـــف والمختلف (٢٢) ، طبقات الشعراء (١٤٨ وما بعدهـــا) ، الأغانـــي (١٦٤/١٨ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (٢٢٥/١) ، الشعر والشعراء (٥١١/٢) ، الاصابة (٧١/١) ، (رقم ٢٢٥) ، الخزانة (٢٣٣/١) ، أسد الغابة (١٠٥/١) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤٩/١) .
٣ بروكلمن (٢٢٦/١) .
٤ الشعر والشعراء (٤٩٣/٢) .

وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان في الرجاز كامرىء القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم . وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك .

ولكن لا شكّ في وقوع سهوٍ في آخر كلام ابن رشيق ، لأنه من الواضح أن الجمحي إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد ، فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتأريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجمحي صواب تؤيده عدة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفتخراً :

وإن يكُن أمسى شبابي قد حسر　　وفترت مني البواني وفتر
إني أنا الأغلبُ أضحى قد نُشِرْ

يعني أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجلي عاش في الجاهلية مدة وأدرك الاسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب »[1] .

و (الهزج) نوع من أعاريض الشعر ، من الأغاني وفيه ترنم[2] . وهو باب معروف من أبواب الشعر عند الجاهليين ، كباب الرجز ، بدليل جعل (الوليد ابن المغيرة) اياه صنفاً من أصناف الشعر.وقد عرف من كان يقول الهزج بـ (الهزاج) و (أهزج) إذا هزج الهزج ، أي قال به . والهزاجون طبقة امتازت عن غيرها بقولها الهزج ، وكانوا يرددونه ترديد الغناء ، ولذلك عدّ من الأغاني ، وقالوا : الهزج صوت مطرب . قيل سمي بذلك تشبيهاً بهزج الصوت ، وقيل لطيبه لأن الهزج من الأغاني[3] . فهي إذن من الشعر الغنائي « Lyric » .

---

١ كارلو نالينو ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٨٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٢/٣٩٠ وما بعدها) ، (هزج) .
٣ تاج العروس (٢/١١٦) ، (هزج) .

وقد استعمل العرب الهزج في أناشيد التنشيط للقتال ، وفي المناسبات العامة ، مثل الأفراح ، والتجمعات ، حيث يترنم القوم جماعة بأنغام الهزج ، فالهزج شعر مقرون بغناء وترنيم .

و (الرمل) من الشعر كل شعر مهزول غير مؤتلف البناء . قال بعض العلماء عنه : « وأما الرمل فإن العرب وضعت فيه اللفظة نفسها ، عبارة عندهم عن الشعر الذي وضعه أهل الصناعة ، لم ينقلوه نقلاً علمياً ولا نقلاً تشبيهياً . وبالجملة فإن الرمل كل ما كان غير القصيد من الشعر وغير الرجز »[1] . وقد أخذ علماء العروض اللفظة والمعنى كما سمعوها من العرب ولم يحدثوا عليها أي تغيير . مما يدل على انه كان من الأبواب المميزة المعروفة عند الجاهليين . وذلك مثل الرجز والقصيد[2] ، والمقبوض والمبسوط ، على نحو ما ذكرت قبل قليل .

وأما (القصيد) من الشعر ، فما تم شطر أبياته أو شطر أبنيته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد ، وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً ، وذلك ان ما تم من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشد تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسمّوا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين[3] . وقيل « القصيد من الشعر المنقح المجوّد المهذب الذي قد أعمل فيه الشاعر فكرته ولم يقتضبه اقتضاباً كالقصيدة »[4] .

والقصيد ، جمع القصيدة ، وقيل : الجمع قصائد وقصيد . سُمي قصيداً لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار ، وقالوا : سمي الشعر التام قصيداً لأن قائله جعله من باله فقصد له قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روي فيه خاطره واجتهد في تجويده ولم يقتضبه اقتضاباً[5] . ويقال قصد الشاعر وأقصد ، اذا أطال وواصل عمل القصائد . والذي في العادة أن يُسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة ، فأما ما زاد

---

١ اللسان (٢٩٦/١١) ، تاج العروس (٣٥١/٧) ، (رمل) .
٢ اللسان (٢٩٦/١١) .
٣ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) ، تاج العروس (٤٦٧/٢) ، (قصد) .
٤ تاج العروس (٤٦٨/٢) .
٥ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) .

على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة[1] . » وقيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس .. ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد. ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً ، وأن يتجاوز بها العقد ، أو توقف دونه »[2] . فالقصيدة اذن كلمة طويلة بالنسبة الى القطعة ، فيها وحدة أطول هي وحدة القصيدة، التي تعرف بقافيتها[3] . ويعبر عنها بلفظة (كلمة) (الكلمة) مجازاً ، كما عبر عنها في المؤلفات القديمة[4] .

وينسب الى (الأخفش) قوله : « القصيد من الشعر هو الطويل ، والبسيط التام ، والكامل التام ، والمديد التام ، والوافر التام ، والرجز التام ، والخفيف التام ، وهو كل ما تغنى به الركبان،ولم نسمعهم يتغنون بالخفيف »[5] . و(القصد) مواصلة الشاعر عمل القصائد وإطالته كالإقصاد . قال الشاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز   تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجاز[6]

وكلمة (قصيدة) من الكلمات المستعملة في الشعر الجاهلي . جاء ان أحد شعراء (بكر بن وائل) سخر من تغلب لما كانت تتباهى به من ترديدها لقصيدة شاعرها (عمرو بن كلثوم) في مدح نفسه وقومه ، فقال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم   يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم[7]

وورد في شعر المسيب بن علس قوله :

فلأهدين مع الرياح قصيدة   مني مغلغلة الى القعقاع[8]

---

١ اللسان (٣/٣٥٥) ، تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٢ العمدة (١/١٨٩) .
٣ بروكلمن (١/٥٨) .
٤ الآمدي ، المؤتلف (١٠٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، ابن سعد (٣/١٧٦) .
٥ تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦٦) ، (قصد) .
٧ الاغاني (١١/٥٤) .
٨ المفضليات (٦٢) .

فاللفظة إذن من الألفاظ التي استعملها الجاهليون ، بمعناها المفهوم . وقد بحث في أصلها علماء اللغة ، وذهبوا في تفسيرها مذاهب[1] . وللمستشرقين كلام في أصلها وفي معناها . ذهب بعض منهم إلى أنهـا من القصد والغرض ، وانها قيلت في شعر الطلب أولاً ، ثم أطلقت على كل شعر آخر ، ولهذا اقترح بعضهم ترجمتها بـ (شعر الطلب) أو (شعر التسول) ، وعارض هذا التفسير بعض آخر ، لأن التسول في رأيهم لم يكن الغرض الأول من نظم الشعر ، وإنما كان غرضاً من أغراضه ، ثم إن أقدم الشعراء الذين قصّدوا القصائد لم يكونـوا من الشعراء المتسولين ، وإنما كانوا من المترفعين المتعالين ، ولهذا رفضوا تفسير القصيد بشعر التسول والطلب[1]،وقال (بروكلمن) : « إذا صح أن لفظ القصيد بعيد القدم، فمن الممكن أن يكون الغرض والقصد بحسب الأصل غرضاً من أغراض السحر ، وكثيراً ما صار غرضاً سياسياً في وقت متأخر ، ثم صار يستعمل بأوسع معـاني الكلمة في جميع أغراض الحياة الاجتماعية ، وان كان من الحق أنه استعمل أيضاً منذ عهد قديم في أغراض أنانية محضة »[2] .

وتعرف (القصيدة) بـ (القافية) كذلك . واستشهد العلماء على ذلك بقول الخنساء :

فنحـكم بالقوافي من هجانا   ونضرب حين تختلط الدماء

ويقول آخر :

نبئت قافيـة قيلت تناشدها   قوم سأترك في أعراضهم ندبا

وذكروا ان (القافية) في قول حسان بن ثابت :

فنحـكم بالقوافي من هجانا   ونضرب حين تختلط الدماء

قد تعني (القصيدة) ، وقد تعني البيت منهـا . « قال الأزهري : العرب

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٥٩) ،
Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 10.

٢ بروكلمن (١/٥٩) .

تسمي البيت من الشعر قافية ، وربما سمّوا القصيدة قافية ، ويقولون رويت لفلان كذا وكذا قافية[1] . والقافية هي (ميقف) في العبرانية .

وأطلقت على القصيدة لفظة (كلمة) ، وقد استعملها (ابن سلام) في مواضع من كتابه (طبقات الشعراء) . فتجده يقول : « ومن شعر حسان الرائع الجيد ما مدح به بني جفنة من غسان ملوك الشأم في كلمة » ، ثم ذكر القصيدة ، ثم يقول : « وقوله في الكلمة الأخرى الطويلة »[2] ، و « قال في يوم أحد كلمة قال فيها »[3] ، ويقول « وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال فيها »[4] ، و « السموأل بن عادياء يقول في كلمة له طويلة »[5] ، ووردت في مواضع عديدة أخرى بهذا المعنى وفي بقية كتب الشعر والأدب .

وتتألف القصيدة من أبيات . والبيت هو بيت الشعر[6] . ويتكون البيت من شطرين . و (الشطر) نصف الشيء . فشطر البيت نصفه[7] . والبيت في القصيدة الجاهلية وحدة معنوية مستقلة قائمة بذاتها ، إذا انتزعت بيتاً منها ، أو تركت بيتاً ، أو قدمت فيها بيتاً على بيت ، أو أخرت في أبياتها ، فإنك لا تكاد تفصم عرى القصيدة ولا تؤثر على ترابط معناها في الغالب ، لأن كل بيت منها وحدة قائمة بذاتها لا تتصل بما قبلها أو بما بعدها إلا بسبب الوزن والقافية .

وقد عرفت بعض الأبيات بالأوابد . والأوابد من الشعر : الأبيات السائرة كالأمثال[8] . وذكر أن الأوابد الشوارد من القوافي[9] ، ورد في كتب اللغة : « ومن المجاز أبد الشاعر يأبد أبوداً ، إذا أتى العويص في شعره . وهي الأوابد والغرائب وما لا يعرف معناه على بادىء الرأي »[10] .

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٢ (ص ٥٣ ، ٥٤) .
٣ طبقات (٥٨) .
٤ طبقات (٦٦) .
٥ طبقات (٧١) .
٦ تاج العروس (١/٥٣٠) ، (بيت) .
٧ تاج العروس (٣/٢٩٨) ، (شطر) .
٨ العمدة (٢/١٨٥) .
٩ اللسان (٣/٦٩) ، (ابد) .
١٠ تاج العروس (٢/٢٨٦ وما بعدها) ، (أبد) .

وتكون القصائد طويلة في الغالب ، أما (القطع) ، فهي أقصر من القصيدة . وقد كان (ابن الزبعرى) ، لا ينظم القصائد الطوال ، ويميل الى القطع ، وكان عذره « ان القصار أولج في المسامع ، وأجول في المحافل » . وللشعراء الطوال والقصار ، كل حسب المناسبة[1] . وقد اختتمت بعض القصائد الجاهلية بالحكم والأمثال وبالأقوال المأثورة . وللقصائد الطوال المحبوكة حبكاً حسناً ، والمنظومة نظماً جيداً ، سابقة وقدم على مثيلاتها من القصائد الوسط أو القصيرة ، ومن هنا اختار (حماد) الراوية (السبع الطوال) (السبع الطول) من الشعر الجاهلي ، وزعم في أصلها ما زعم . ونظم القصيدة الطويلة ، يحتاج الى نفس طويل ، والى تمكن من الشعر ، وإلا أصابها الوهن والعجز ، ومن هنا عدّ أصحاب المطوّلات الجيدة من أحسن الشعراء .

وقد ذهب (غرونباوم) الى أن القصيدة العاشرة من القصائد المنسوبة الى (عمرو بن قميئة) ، ربما تكون أقدم قصيدة تامة وصلت الينا من الشعر الجاهلي ، « على أنها لم تكن بعد تفي بجميع مقتضيات النقاد النظريين ، لأنها لا تشمل ، في الأبيات التسعة عشر التي تلي النسيب ، إلا على وصف سحابة ممطرة ، ومدح رجل يدعى امرأ القيس بن عمرة . ولو أن هذه القصيدة تأخرت عن العصر ، بوقت قصير ، لاعتبرت أثراً غثاً . وليس السبب في ذلك أن عدد أبيات القصيدة من بعد قد ازداد الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ، أو بلغ أو جاوز المائة ، وإنما هو في كثرة المشاهد التي حشدت حتى تحققت هذه المنظومات الرائعة . ومن شواهد ذلك قصيدتان للأعشى (حوالى ٥٦٥ – ٦٢٩ م) هما الأولى والسادسة من ديوانه ، وأولى قصائد أبي ذؤيب الهذلي (ت حوالى ٦٥٠ م) ، وفيها تصوير لسلطة القدر المحتوم في ثلاثة مشاهد مؤثرة تمثل مصرع حمار الوحش القوي وثور الوحش الهائج ، والفارس الشاكي السلاح المستجن بدرعه . وإذ كان الحافز لقول القصيدة هو وفاة ابن الشاعر ، فقد جمعت هذه القصيدة جمعاً موفقاً بين مزايا المرثية وخصائص القصيدة »[2] .

وقد بلغ الشعر الجاهلي ذروته عند ظهور الاسلام . كان الشعراء في هذا العهد ينظمون القصيد ببحوره التي ضبطت وثبتت في الاسلام ، في مقاصد أشرت اليها

---

١ العمدة (١٨٦/١ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (١٣٩) .

في موضع آخر من هذا الجزء من الكتاب ، كما كانوا قد طوّروا الرجز وتفننوا فيه . وقد أدى ظهور الاسلام الى إحداث تغير في نمط نظم القصائد ، لأن الاسلام حدث تأريخي جاء برأي في شؤون الحياة جديد ، فكان لا بد للشعراء من مجاراة هذا التيار الفكري ، لا سيما بعد خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في أرضين جديدة غنية ، وحكمهم لأقوام كانت لهم حضارة ، فكان لا بد من تأثر النفس بالوضع الجديد ، والشعر تعبير عن النفوس والأحاسيس .

والقافية من الشعر الذي يقفو البيت ، سميت قافية لأنها تقفوه ، أو لأن بعضها يتبع أثر بعض . وقيل : هي آخر كلمة في البيت ، أو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، وهو المسمى روياً . وعرّف (الخليل) القافية بقوله : « القافية من آخر حرف ساكن فيه ، أي في البيت ، الى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن »[1] . وأرى ان هذا التعريف قد أخذه (الخليل) من أهل الكتاب . فالقافية بهذا التعريف تقابل Maqqeph (مقف) (مقيف) عند العبرانيين[2] ، و (المقيفات) هي التي تحدد الشعر ، وتجعل من الكلام المؤلف من (مقيفات) شعراً ، ولا يستبعد استعمال الجاهليين لهذا المصطلح استعمال العبرانيين والسريان له ، فلما دوّن (الخليل) علم العروض أخذ هذا المصطلح منهم ، ودليل ذلك ورود لفظة (قافية) و (القوافي) في الشعر قبل أيام الخليل[3] ، ثم اختلاف العلماء وتباين آرائهم في معنى القافية[4] .

ويذكر أهل الأخبار أن (مهلهل بن ربيعة) ، وهو خال (امرىء القيس) الشاعر ، وجدّ (عمرو بن كلثوم) هو أول من قصد القصائد . وقد قال (الفرزدق) فيه :

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[5]

فهو أول شعراء القصائد ، وهو متقدم على (امرىء القيس) .

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٢ Hastings, p. 737.
٣ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٤ نزهة الجليس (١/١٢٠) .
٥ العمدة (٨٧) ، الشعر والشعراء (١٦٤) .

ويرى (فون غرونباوم) ان الشعراء حرصوا منذ حوالى السنة ٥٠٠ م على التصريع في المطلع ، ثم التزم قافية واحدة في جميع أبيات القصيدة ، من أولها الى آخرها ، بحيث يسوغ القول : إن القافية الواحدة أدل على وحدة القطعة الشعرية من المعاني الواردة فيها .

« ويتجلى في أقدم المحفوظ من الشعر العربي تنويع عظيم في الوزن ، وصقل بارع في التعبير اللغوي . وهذا يعني أنه كان قد نشأ ، قبل ذلك ، مذهب شعري ينص على التنويع والصقل المشار اليها . وأخذت الأقطار المختلفة تؤثر أوزاناً مختلفة ، ويكاد يكون من المرجح أن الفرس قد تركوا ، في شعر الأقدمين من شعراء العراق ، تأثيراً بالغاً في الطريقة الفنية . فهنالك وزنان على الأقل ، امتاز بهما هؤلاء الشعراء هما الرمل والمتقارب ، وربما زدنا اليها الخفيف . ويبدو أنها جميعاً اقتبست من أصول فارسية بهلوية ، وحورت بما يلائم الأوضاع العربية .

وربما كان للسريان فضل ما في وضع المصطلحات الفنية الأولى مثل كلمة (البيت) أي (الخيمة) لتدل على الوحدة الجزئية من القصيدة . لكن كان لنظرية الفن العروضي ، على العموم نشأة مستقلة ، فالخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ — ٧٩١ م) ، وضع قواعد العروض العربي بعد ذلك بزمن طويل ، وقد بقيت قواعده معتمد الأدباء عبر القرون . فقد أقر الخليل ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان المزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها . ثم إنه جرى على طريقة ، جرى عليها النحاة من بعد في الرمز الى صيغة اللفظة ، فأشار الى وحدة الإيقاع الشعري بصيغة مشتقة من فعل »[1] .

وقد تكلف الناس كثيراً ، وحمّلوا أنفسهم حملاً ثقيلاً ، باعتذارهم عن أمور متكلفة وردت في شعر زعم انه كان للقدماء من الشعراء ، فالتصريع مثلاً ، اذا كثر استعماله في القصيدة دل في نظر العلماء بالشعر على التكلف ، إن كان من المحدثين ، أما اذا كان من المتقدمين ، فلا يعد متكلفاً في نظرهم ، واعتذروا عنه بأنه جرى على عادة الناس ، لئلا يخرج عن المتعارف . ومن هذا القبيل التصريع المنسوب الى امرىء القيس :

---

١ غرونباوم (١٣٤ وما بعدها) .

تروح من الحي أم تبتكـــر   وماذا عليك بأن تنتظـــر
أمرخٌ خيامهـــم أم عشر   أم القلب في إثرهم منحدر
وشاقك بين الخليط الشطر   وفيمن أقام من الحي هر[1]

ونسبوا الى (امرىء القيس) (المسمط) من الشعر . والشعر المسمط الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ، وتجمعها قافية مخالفـــة لازمة للقصيدة حتّى تنقضي . وقيل : أبيات مشطورة تجمعها قافية واحدة ، وهو الذي يقال له عند المولدين (المخمس) . ومن أنواعه المسبع والمثمن ، وقيل المسمط من الشعر أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات . وقيل المسمط من الشعر ما قفى أرباع بيوته وسمط قافية مخالفة . يقال : قصيدة مسمطة وسمطيـــة . ومن الشعر المسمط المنسوب الى امرىء القيس قوله :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله   أقمت بعضب ذي سفاسق ميّله
فجعتُ به في ملتقى الخيل خيله   تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على أثوابه نضح جريال

ونسب له قوله :

توهمت من هنـــد معالم أطلال   عفاهنّ طول الدهر في الزمن الخالي
مرابع من هند خلت ومصايفُ   يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيّرها هوجُ الرياح العواصف   وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطّال[2]

وتعرض (المعري) للتسميط في رسالة الغفران ، حين التقى بامرىء القيس ، فسأله : « أخبرني عن التسميط المنسوب اليك ، أصحيح هـــو عنك ؟ وينشده الذي يرويه بعض الناس :

---

١ العمدة (١/١٧٤) .
٢ تاج العروس (٥/١٦١) ، (سمط) ، (كأن على سرباله ، نضح جريال) ، اللسان (٧/٣٢٢ وما بعدها) ، (سمط) .

يا صحبنا عرّجوا نقف بكم أسج
مهرية دُلُج في سيرها مُعج
طالت بها الرحل
فعرّجوا كلهم والهم يشغلهم
والعيس تحملهم ليست تعللهم
وعاجت الرمل
يا قوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
في القلب ثم ارتقى فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيجيب (المعري) على لسانه بقوله : « لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لقرى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام ، ولقد ظلمني وأساء إليّ ! أبعد كلمتي التي أولها:

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي

وقولي :

خليلي مرّا بي على أم جندب لأقضي حاجات الفؤاد المعذب

يقال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز »[1] .

ونسبوا اليه كثرة التصريع في غير أول القصيدة ، وكثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية[2] . ويعد الاقواء من عيوب الشعر، غير أننا لا نستطيع مجاراة علماء العروض في هذا الرأي ، إذ يجوز ألا يكون الاقواء عيباً عند أهل الجاهلية ، وإنما صار عيباً في الإسلام ، بعد تثبيت قواعد اللغة والبحور . ونجد هذا الرأي مثبتاً في رسالة الغفران .

---

١ رسالة الغفران (٣١٩ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٩٩) .

ولا يمكن أن نتصور ان القصائد الجاهلية الطويلة قد نظمت على نحو ما يرويها أهل الأخبار ، دون اجراء أي تغيير أو تحوير عليها . فقد كان الشاعر ينفعل فينظم قصيدته ويحفظها راويته ويذيعها بين الناس ، ثم يحدث أن تخطر له خواطر أو يسمع نقداً لبعض أبياتها ، أو توجيهاً يبديه له بعض أصدقائه أو يسمع تنبيهاً موجهاً اليه بوجود شيء في قصيدته غفل عنه ، فيجري بعض التغيير عليها من تعديل أو زيادة أو نقصان ، قد يحفظ ويروى ، وقد يهمل ويترك ، ولهذا فنحن لا نستطيع الإدعاء : ان نظم القصائد كان نظماً تاماً ، لم يشمله أي تعديل أو تبديل،وان الشاعر لم يكن ينشد قصيدته إلا بعد أن يكون قد اطمأن منها وضبطها ضبطاً تاماً .

« ومن الشعراء من يُحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم : زهير ، والنابغة ، والأعشى . وأما من يجمعها فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله كمثل ذلك ، ولبيد وقد أكثر »[1] .

وليس في مستطاع أحد اثبات ان البحور المدونة في علم العروض ، هي كل بحور الشعر الجاهلي وأوزانه ، لم يُهمل منها وزن ، ولم ينس منها بحر ، لأن على من يدعي هذه الدعوى ، إثبات ان الاسلاميين الذين جاءوا بعد الجاهليين قد أحاطوا علماً بكل الشعر الجاهلي ، وانهم أحصوه عدداً ، فلم يتركوا منه بيتاً ولا قطعة ولا قصيدة . وعلماء الشعر ينفون ذلك ويقولون : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام ، أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[2] .

ويرى (غرونباوم) أن الشعر الجاهلي قد تطور : « وتتجلى فيه معالم التطور بصورة واضحة : فمن ذوبان اللهجات المتعددة في لغة واحدة ، تجمّع فيها تراث المدارس المختلفة واللهجات المتباينة بصورة متزايدة حتى تحقق حوالى سنة ٦٠٠ ، الى زيادة القيود في نظام العروض الفني ، فإن ظفر بعض الفئات باستنباط تعابير

---

١ البيان والتبيين (٨٤/٤) .
٢ الشعر والشعراء (٧ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

جديدة لم تلبث أن شاعت تدريجيــاً في أوساط أخرى ، وأخيراً الى اتجاه سياق الشعر نحو الإتساع وعدد أبيات القصيدة الى الازدياد . إن تحليل هذا النمو السريع نسبياً ، على ضوء ما نعرفه عن المخلفات القديمة ليحملنا على الاعتقاد بأن وضع تأريخ معين يحدد بدء الشعر العربي الفني أمر متعذر ، ولكن الغالب على الظن أن أوائل هذا الشعر لا تتخطى أقدم المدوّنات التي بلغتنا بزمن طويل . وهــذا الحكم إنما ينطبق على الطبقة الشعرية الثالثة والأخيرة لا غير . ولئن تعاصرت هذه الطبقات الشعرية الثلاث معاً في الفترة الجاهلية المذكورة ، فمن البدهي أنها لم تبرز الى الوجود في وقت واحد »[1] .

التمليط :

وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسياً وهذا قسياً لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[2] ، وفي الحكاية أن امرأ القيس قال للتوأم اليشكري : إن كنت شاعــراً كما تقول فملّط أنصاف ما أقول فأجزها ، قال نعم . فقال امرؤ القيس :

أحار ترى بريقــاً هبّ وهنا

فقال التوأم اليشكري :

كنــار مجوسٍ تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس :

أرقت لــه ونامَ أبو شريــح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هــدأ استطارا

فقال امرؤ القيس :

كأن هزيمــه بوراء غيــثٍ

---

١ غرونباوم (١٣٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .

فقال التوأم :

عشارٌ وإلــهٌ لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس :

فلما أن عــلا كتفي أضــاخ

فقال التوأم :

وهت أعجازُ ريقهِ فحــارا

فقال امرؤ القيس :

فــلم يترك بذات السر ظبياً

وقال التوأم :

ولم يــترك بجهلتهــا حمــارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن في ذلك الحرْسِ من يماتنه ، آلى ألا ينازع الشعر أحداً آخر الدهر .

وذكر ان شعر التوأم في هذا التمليط ، أقوى من شعر امرىء القيس ، لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء ، وهو في فسحة مما أراد ، والتوأم محكوم عليه بأول البيت ، مضطر في القافية التي عليها مدارها جميعاً ، ومن ههنا عرف له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف . ونازع أيضاً علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة علقمة عليه ما كان[1] .

والمماتنة المعارضة في جدل أو خصومة ، والمباهاة في الجري أو في الشعر ، بأن يماتن شاعران أو أكثر ليتبين أيهم أشعر[2] .

وقد يمتحن الشعراء بعضهم بعضاً قول الشعر ، كأن يقول أحدهم بيتاً أو نصف بيت ، ثم يقول لصاحبه : أجز ، ليقدم مثله ، قيل : قال زهير بن أبي سلمى بيتاً ثم أكدى ، ومرّ به النابغة الذبياني ، فقال له : يا أبا أمامة ، أجز ، قال : ماذا ؟ قال :

---

١ العمدة (٢٠٢/١ وما بعدها) ، (٩١/٢) .

٢ تاج العروس (٢٤٠/٩) ، (متن) .

تزال الأرض إما مت خِفاً وتحيا ما خييت بها ثقيلا
نزلتَ بمستقر العز منها . . . .

فماذا قال ؟ فأكدى النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير ، وهو غلام ، فقال له أبوه : أجز يا بُني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ومن الثاني قوله : نزلت بمستقر العز منها ، فقال كعب :

فتمنع جانبيها أن يزولا[1]

ومن الإجازة قول حسان بن ثابت :

متاريك أرباب الأمور اذا اعترت أخذنا الفروع واجتنبنا أصولها

وأجبل ، فقالت ابنته : يا أبت ، ألا أجيز عنك ، فقال : أو عندك ذاك؟ قالت : بلى ، قال : فافعلي ، فقالت :

مقاويل للمعروف خرس عن الخنا كِرامٌ يعاطون العشيرة سُولها

فحمى حسان عند ذاك ، فقال :

وقافية مثل السنان ردفتها تناولتُ من جوّ السماء نزولها

فقالت ابنته :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها[2]

---

١ أمالي المرتضى (١/٩٧ وما بعدها) .
٢ العمدة (٢/٨٩) .

الفصل التاسع والاربعون بعد المئة

العروض

والعروض ميزان الشعر، سُمي به لأنه به يظهر المتزن من المتكسر عند المعارضة بها . وذكر الأخباريون جملة تفسيرات لسبب تسميتهم العروض عروضاً ، منها أنه علم الشعر ، ألهم الخليل به بمكة ، ومكة من العروض ، فقيل لهذا العلم عروضاً[1] ، ومنها أنه انما سمي عروضاً لأن الشعر يعرض عليه ، ومنها أنه انما عرف بعروض الشعر ، بقولهم : فواصل أنصاف الشعر ، وهو آخر النصف الأول من البيت . فالنصف الأول عروض ، لأن الثاني يبنى على الأول، والنصف الأخير الشطر . أو لأن العروض طرائق الشعر وعموده مثل الطويل ، فيقال هو عروض واحد. واختلاف قوافيه يسمى ضروباً[2] . أو لأنه إن عرف نصف البيت، وهو العروض سهل تقطيع البيت حينئذ ، ولذلك قيل له العروض[3] . وذهب البعض الى أنه إنما عرف بذلك من العرض ، لأن الشعر يعرض على هذه الأوزان فما وافق كان صحيحاً وما خالف كان سقيماً . وقيل من العروض ، أي الطريق التي في الجبل ، والمراد الطريق التي سلكتها العرب ، وقيل لما شبهوا البيت من الشعر ببيت الشعر ، شبهوا العروض الذي يقيم وزنه بالعروض ، وهي الخشبة المعترضة

---

١ تاج العروس (٤١/٥) ، (عرض) .
٢ اللسان (١٨٤/٧) ، (عرض) .
٣ الخوارزمي ، مفتاح العلوم (٥١) .

في سقف البيت ، كما شبهوا الأسباب بالأسباب والأوتاد بالأوتاد ، والفواصل بالفواصل[1] . وعلم العروض ، هو علم الشعر والقافية ، ويرادفه علم الوزن : وزن الشعر ، ويدل اختلافهم الشديد في تعريفه على عدم وجود رأي واضح عند العلماء عن منشأه وعن كيفية ظهوره[2] .

وعندي ان في اختلاف العلماء هذا الاختلاف الشديد في سبب تسمية العروض عروضاً ، دلالة على ان اللفظة من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الاسلام،وانها لم تكن من وضع (الخليل) ، وانما كانت لفظة قديمة جاهلية قصد بها النظر في الشعر والتبصر بدروبه وأبوابه وطرقه ، فلو كانت الكلمة اسلامية ومن وضع (الخليل) لما وقع بينهم هذا الاختلاف ، وما كان (الخليل) ليهمل السبب الذي حمله على اختيار هذه التسمية ، ولسأله العلماء حتماً عن السبب الذي جعله يسمي هذا العلم عروضاً ، فقد عوّدنا العلماء ، انهم اذا وقفوا أمام أمر قديم جاهلي ، وهم لا يعرفون من خبره شيئاً ، جاءوا بآراء متباينة وبتعليلات مختلفة ، لبيان العلل والأسباب . ولو كان العروض من العلوم أو المسميات التي وضعت في الاسلام ، لما اختلفوا في تعريفه هذا الاختلاف ، وفي اختلافهم هذا الاختلاف في تعريفه ، دلالة على قدمه قياساً على ما عرفناه عنهم ، من اختلافهم في تفسير المصطلحات والمسميات القديمة .

وقد قال قوم في الإسلام لا حاجة الى العروض ، لأن من نظم بالعروض شق ذلك عليه وأتى به متكلفاً ، ومن نظم بالطبع السليم والسليقة جاء شعره طبيعياً سليماً[3] . ولا بد وأن تكون هذه المعارضة قد ظهرت بعد ظهور علم العروض وتدوينه وتثبيت قواعده ، ومحاولة العروضيين فرض سلطان قواعدهم على الشعر والشعراء ، ولما كان الشعراء ينظمون الشعر بسليقتهم وفق عرفهم الذي ألفوه وتعودوا عليه ، وعن طبع وموهبة فيهم ، لم يحفلوا بالعروض ، وصار العروض علماً يحفظه من لا يقرض الشعر الرفيع العالي المنبعث عن شاعرية وعاطفة وهيجان خاطر ، وصار شعر العروضي شعراً متكلفاً في الغالب ، لا يداني شعر الشعراء

---

١ نزهة الجليس (١/١١٥) .

٢ Ency., Vol., I, p. 463.

٣ نزهة الجليس (١/١١٦) .

الذين يقولون الشعر ، وهم أحرار طلقاء ، لعدم وجود الموهبة الشعرية فيهم ، والبصر بالعروض يجعل من حافظه شاعراً .

والمعروف بين الناس أن العروض وضع في الإسلام ، وضعه (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم) الفراهيدي الأزدي اليحمدي (١٠٠ – ١٧٠ ، ١٧٥)[1] . استخرج الأوزان ، ودوّن البحور ، « وكان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس . وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب »[2] . وقد عرف بـ (صاحب العروض)[3] . وقيل عنه : كان « الغاية في تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليله »[4] ، « وهو أول من استخرج علم العروض ، وضبط اللغة ... وكان أول من حصر أشعار العرب ... روي عنه أنه كان يقطع العروض فدخل عليه ولده في تلك الحالة فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جُنّ . فدخل الناس عليه وهو يقطع العروض فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني	أو كنت تعلم ما أقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني	وعلمت أنك جاهل فعذلتكا »[5]

و (الخليل) نفسه من الشعراء ، وقد أورد العلماء له شعراً[6] . وقد أورد (ابن قتيبة) له أبياتاً ، عقب عليها بقوله : « وهذا الشعر بيّن التكلف رديء الصنعة . وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً[7] .

وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع نشأة النحو والعروض في الاسلام ، فقال : « فإنا لم نزعم ان العرب كلها – مدراً ووبراً – قد عرفوا

---

١ الفهرست (٦٩ وما بعدها) ، (المقالة الثانية) ، القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٢)
٢ الفهرست (٧٠) .
٣ السيوطي ، بغية (٢٤٣) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٨١) ، ابن الانباري ، نزهة (٥٥) .
٤ نزهة الألباء ، لابن الانباري (٢٩) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٥ نزهة الالباء (٢٩ وما بعدها) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٦ المحاسن والاضداد (٥٠) ، الشعر والشعراء (١/١٦) ، (٢/٦٣٠) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٦) .

الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة ، وأبو حيّة كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان في أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كاتبون » . « أفيكون جهل أبي حيّة بالكتابة حجة على هؤلاء الأئمة ؟

والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة الّتي أولها:

شاقتك أظعان ليـ ـلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام ، وقلّا في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب . وأما العروض فمن الدليل على انه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على ان المشركين لما سمعوا القرآن قالوا — أو من قال منهم — انه شعر . فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم، لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك . أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ وقد زعم ناسٌ ان علوماً كانت في القرون الأوائل والزمن المتقادم ، وانها درست وجددت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة الى لغة . وليس ما قالوا ببعيد »[1] .

« ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات

---

١ الصاحبي (ص ٣٦ وما بعدها) .

الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل (الخبء) و (الدفء) و (الملء) فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره العلماء ترك أتباع المصحف من كره »[1] .

فابن فارس إذن من الذين رأوا أن العرب الجاهليين كانوا على علم بالعربية وبعروض الشعر ، قبل (أبي الأسود الدؤلي) و (الخليل بن أحمد الفراهيدي). وأن فضل الرجلين على العلم ، إنما هو في جمع علم الأوائل وتثبيته وتدوينه،وهو فضل لا ينتقصه عليها منتقص . وهو استنتاج يتفق مع قواعد المنطق تمام الاتفاق . لأن من غير المعقول أن يضع إنسان قواعد لغة أو قواعد شعر ، من غير أن يكون له علم سابق بأنواع الكلام وباختلاف الاقراء وبالأسس اللغوية والنحوية التي لا بد من تعلمها حتى يتمكن المرء من بناء قواعد أساسية عليها ومن حصر دائرة العلم والإحاطة بأغصان شجرة ذلك العلم ، ويكاد يكون من المستحيل وضع قواعد العربية ، أو علم العروض على النحو الذي يعرضه علينا علماء اللغة والشعر ، من رجل لا علم مسبق له بقواعد اللغة وبأمور الشعر .

وفي خبر أن رسول الله دخل المسجد فرأى رجلاً يحدث الناس بأنساب العرب وأيامها وبالأشعار ، والعربية ، فقال رسول الله : « ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه ، وانما العلم ثلاثة : آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاها فهو فضل »[2] . والأمور المذكورة هي مما كان يتحدث به أهل العلم والثقافة من الجاهليين . والشعر في طليعة تلك الموضوعات ، ولا يراد به انشاده فقط ، بل كانوا ينشدونه ويذكرون المناسبات المتعلقة به ومزاياه وعيوبه ، ولا أعتقد ان المراد بالعربية مجرد تفسير المفردات ، بل كل ما يخصها من أمور . وفي جملة ذلك أخطاء القول ، وقواعد العرب في القول .

ويذكر أهل الأخبار ان الذي حمل (الخليل) على وضع العروض ، هو انه مر بسوق الصفارين أو بحارة القصارين ، فسمع الدق بأصوات مختلفة ، فأعجبه ، وقال : والله لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً، فصنع هذا العروض على حدود

---

١ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (٣٨ وما بعدها) .

٢ الكليني (١٢) .

الشعر وجعل بحورها ستة عشر بحراً[1] . وهي قصة باردة من قصص أهل الأخبار، فقد كانوا يضعون مثل هذا القصص حين يُسألون عن أمور ، لا يكون لهم علم بها ، وهل يعقل أخذ الخليل بحوره من دق مطارق الصفارين المزعجة ، التي تخرش الأذن ، وتبعد الانسان عن التفكير ، وتطير من الدماغ ما قد يكون فيه من علم . فالقصة من مخترعات أهل الأخبار وضعوها في ايجاد سبب لوضع هذا العلم ، فربطوا بين دق مطارق الصفارين وبين تقطيع الشعر .

ولا يعقل في نظري أن يكون الخليل قد وضع العروض من غير علم مسبق بأصول نظم الشعر عند أهل الجاهلية . اذ لا يمكن للحس المرهف وحده أن يبتكر العلم ابتكاراً من غير علم مسبق وقواعد سابقة وأصول مقررة معروفة . ولا يعقل أن يكون الخليل قد وضع الأسماء والمصطلحات والتعاريف بنفسه من غير رجوع الى علم سبق للشعراء الجاهليين أن وضعوه ، ومن رجوع الى قواعد ومصطلحات سبق ان كانت مقررة ، ففي أخبار أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كان لهم علم بالشعر ، كالذي ذكرته من مثل « حال الجريض دون القريض » ، وما روي على لسان (الوليد بن المغيرة) من قوله في اتهام قريش للرسول من أنه شاعر : « لقد عرفت الشعر ورجزه وهزجه وقريضه فما هو به »[2] . وما روي عن إسلام (أبي ذر الغفاري) : ومن قول أخيه (أنيس) له : « لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله » فلما سأله (أبو ذر) « فما يقول الناس ؟ قال : يقولون ساحر كاهن شاعر . وكان أنيس أحد الشعراء ، فقال : والله لقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد ، أي على طريق الشعر وبحوره »[3]. وقد ورد أن أهل (يثرب) كانوا يعرفون (الاقواء) و (الإكفاء) في الشعر، وكانوا يعدّونهما من عيوب الشعر[4] . وقد علمنا أن مصطلح (الرجز) و(الهزج) و (الرمل) و (القصيد) وأمثال ذلك هي من مصطلحات أهل الجاهلية . ثم إن أكثر مصطلحات العروض هي مصطلحات كانت معروفة في الجاهلية ، وقد أخذت

---

١ نزهة الجليس (١٢٤/١) .
٢ اللسان (٣٥٠/٥) .
٣ الطبقات (٢٢٠/٤) « صادر » ، تاج العروس (٣٧١/١) « الكويت » ، الفائق (٥١٨/١) ، تاج العروس (١٠٣/١) ، (قرأ) ، الاصابة (٨٨/١) ، (رقم ٢٨٩) .
٤ الموشح (٥٩) .

من حياتهم ، فهي ليست بمصطلحات مبتكرة ، حتى نقول إن الخليل أوجدها من عنده ، وان علم العروض علم مستحدث نتيجة لذلك ، أوجده الخليل بملاحظاته وذكائه من دون علم سابق بأصول الشعر .

وورد أيضاً ، ان (عتبة بن ربيعة) لما مدح القرآن ، لما تلاه رسول الله ، قالت له قريش : هو شعر ، قال : لا لأني عرضته على أقراء الشعر ، فليس هو بشعر . أقراء الشعر : طرائقه وأنواعه[1] . وسئل (الحطيئة) عن (زهير بن أبي سلمى) ، فقال : « ما رأيت مثله في تكفيه على أكناف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء »[2] . وكلام مثل هذا لا يمكن أن يصدر إلا من رجال لهم علم بالشعر وبدرويه وبحوره وأنواعه .

والذي أراه،ان شعراء الجاهلية كان لهم علم سابق بالشعر وضعوه قبل الاسلام، ولهم قواعد ورثوها من أسلافهم القدماء في كيفية نظم الشعر ببحور . كانوا يعرفون البحور ، وربما كانوا قد وضعوا لها أسماء ، على نحو ما يفعله شعراء الشعر العامي في هذا اليوم ، وأكثرهم ممن لا يحسن الكتابة والقراءة ، غير انهم يعرفون طرق الشعر العامي ودروبه ، سمّوها بأسماء ، وعرّفوها ، ووضعوا لها أوزاناً وزنوا بها شعرهم ، وحكموا بموجبها حكمهم على الشعر، فتراهم ينتقدون شاعراً فيرفعون شعره ، أو يذمونه ، يزنون حكمهم بميزان علمهم المتوارث والمتعارف عليه عن الشعر . وقد وضع بعض المحدثين كتباً في هذا الشعر ، وفي ضبط دروبه وتسجيل قواعده . والذي فعله (الخليل) لا يخرج عن هذا العمل، حصر وسجل ما كان معروفاً بين الشعراء عن بحور الشعر وأبوابه وقواعده ، ثم جمعه في كتاب فعدّ بعمله هذا مؤسس علم العروض . وانما هو في الواقع جامع شتات هذا العلم ومسجل قواعد الشعر وبحوره . فهو بذلك أول من فعل هذا الفعل على ما أعلم . وهو عمل يشكر بالطبع عليه .

والذي أعانه وساعده على هذا الحصر والجمع ، هو وجوده في العراق، وكان أهل العراق يتدارسون النحو والشعر واللغة قبل الاسلام . كانوا قد نقلوا الى

---

١ اللسان (١٥/١٧٥) ، (قرا) ، (اقرأ الشعر أنواعه وطرقه وبحوره) ، تاج العروس (١/١٠٣) ، (قرأ) ، الفائق (١/٥١٨) ، ابن سعد ، طبقات (٤/١ ص ١١٦ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٨١) .

السريانية – لغة الثقافة والعلم – علم اليونان باللغة والنحو والشعر ، فساعدهم هذا النقل على تهذيب ما ورثوه من رجالهم من علم بهـذه المعارف ، وقاسوه بأقيسة ونظموه تنظيماً علمياً ، وظلوا يتداولونه ، فلما دخل منهم من دخل في الاسلام، أو احتك بالمسلمين ، وكان عند العرب كلام في اللغة وفي الشعر ، ولا سيا عند عرب العراق النصارى ، فلا يستبعد عرض هؤلاء ما كان عندهم من علـم باللغة والشعر الى من كان له ميل لمثل هذه الدراسات ، كأبي الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد ، فصار هذا العرض سبباً لظهور الأسس في النحو وفي العروض . وقد أدرك ذلك العلماء ، فقال (الصفدي) : « إن الشعر اليوناني له وزن مخصوص ولليونان عروض لبحور الشعر . والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل ، قلت ولا يبعد أن يكون وصل الى الخليـل بن أحمد شيء من ذلك أعانـه على ابراز العروض الى الوجود »[1] . فهو من ثم « أول من استخرج علم العروض وحصر أشعار العرب فيها »[2] ، ولكنه لم يكن مخترع هذا العلم وموجده من العدم . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان (عروض) Prosody (أرسطو) هو الذي علّم (الخليل) طريقة وضع (العروض) واستنباط تفاعيل الشعر وبحوره[3] .

ولابن خلّكان رأي طريف في المنبع الذي استمد منه (الخليل) علم العروض، تراه يتحدث عنه فيقول : « وله معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فإنهما متقاربان في المأخـذ »[4] . وكان الخليل صاحب عـلم بالموسيقى ، ومن بين كتبه (كتاب النغم) ، فرجل ذو علم بالموسيقى،وبتقاطيعها وأوزانها ، يكون له ميل الى الشعر وأوزانه،خاصة وأن بين الشعر والغناء والموسيقى روابط قديمة . فقـد « كانت العرب تغني النصب ، وتمدّ أصواتها بالنشيد ، وتزن الشعر بالغناء . فقال حسان :

تغنّ بالشعر إمّا أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار»[5]

---

١ نزهة الجليس (١١٦/١) .
٢ نزهة الجليس (١٢٤/١) .
٣ Freytag. Darstellung d. Arabi, Verskunst, S., 18, William Lindsay Alexander, A Cyclopaedia of Biblical Literature, Vol., I, p. 188.
٤ ابن خلكان (٢١٦/١ وما بعدها) .
٥ المرزباني ، الموشح (٣٩) .

وروي أن الخليفة (عمر) قال يوماً للنابغة الجعدي : « أسمعني بعض ما عفا الله لكَ عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له ، قال له : وإنك قائلهـــا ؟ قال : نعم . قال : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطّاب »[1] . فإذا كان العرب قـــد وزنوا الشعر بالغناء،فلا يستبعد أن يكون الخليل قد ألهم من فعل العرب هذا قبله.

وقد ذكرت في الجزء الخامس من هذا الكتاب[2] ، أنه قد كان للشعر علاقـة كبيرة بالغناء ، فالغناء هو التغني بالشعر ، ولذلك قالوا : تغنى بالشعر ، وفلان يتغنى بفلانة إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحداء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً[3] . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . قال (الجاحظ) : « العرب تقطع الألحان الموزونة ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون[4] . وقال (ابن رشيق) : « وزعم صاحب الموسيقى أن ألـذ الملاذ كلها اللحن ، ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان والأشعار معايير الأوتار لا محالة ، مع أن صنعة صاحب الألحان واضعة من قدره ، مستخدمة له ، نازلة به مسقطة لمروءته . ورتبة الشاعر لا مهانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابة العلم ، وتكسوه جلالة الحكمة »[5] .

ولا يستبعد تغني الشعراء الجاهليين بشعرهم ، واستعمالهم آلات الموسيقى مثل الرباب لترافق غناهم بشعرهم ، كما يفعل شعراء البادية في هذه الأيام . وقد ذكر ان الشاعر (عروة بن أذينة) ، وهو من شعراء العصر الأموي « كان شاعـراً لبقاً في شعره ، غزلاً . وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حداثته وينحلها المغنّين »[6] . وكان من شعراء المدينة[7] .

---

١ العقد الفريد (٩٠/٤) .
٢ (ص ١٠٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٣٥/١٥) ، (غنى) ، تاج العروس (٢٧٢/١٠) .
٤ رسائل الجاحظ (١٥٨/٢) .
٥ العمدة (٢٦/١) .
٦ العقد الفريد (٩٦/٤) .
٧ الاغاني (١٠٥/٢١ وما بعدها) ، الشعـــر والشعراء (٤٨٣/٢ وما بعدهـــا) ، المرتضى ، أمالي (٤٠٨/١ وما بعدها) ، السمط (٢٣٦) ، درة الغواص (١٣٥) ، المعارف (٤٩٢) .

ومن آيات علم الجاهليين بصناعة الشعر وبفنونه وحذقهم بأساليبه ، استعمالهم بحور الشعر حسب المواقف والمناسبات واتخاذهم الايقاع والنغم وجرس الألفاظ أساساً في النظم ليكون الشعر مطابقاً للمناسبة التي سينظم لها . فللغناء بحور ، وللقتال بحور تثير القلوب وتلهبها، وللسفر وزن، وللمناسبات المؤلمة مثل الرثاء والتوجع وزن يناسبها، وكل ذلك ناتج عن طبع وتطبع وعلم بالمناسبة ، وقد أشير الى هذا الاستعمال في الأخبار . وهذه المناسبات هي التي خلقت تلك البحور .

ومن آيات علم الجاهليين بالشعر ، ما نقرأه في الأخبار عن علم أهل الجاهلية بطرائق الشعر وأبوابه وبعيوبه وضعفه ، ومن أخذهم على الشعراء في أيام الجاهلية وقوعهم في الأخطاء ، أو مخالفتهم لأصوله ونغمه وخروجه على ما هو متعارف عليه . وأمثال ذلك مما يدل على ان الشاعر وإن كان ينظم الشعر عن طبع وسليقة، وعن موهبة كامنة فيه ، لكنه كان يراعي في نظمه قواعد موروثة معلومة، وأصولاً محفوظة ، على نحو ما نراه اليوم عند الشعراء الشعبيين ، الذين ينظمون الشعر العامي (الشعر النبطي) ، المقال باللهجات العامية ، وفق قواعد مقررة عندهم معروفة ، وأبواب مسماة عندهم موسومة ، يحفظونها حفظاً ، لأنها هي غير مدونة، ثم إن أكثرهم ممن لا يقرأ ولا يكتب .

ومما يؤيد هذا الرأي ما جاء في (لسان العرب) : « قال أبو الحسن الأخفش : النصبُ في القوافي ، أن تسلم القافية من الفساد ، وتكون تامة البناء ، فإذا جاء ذلك في الشعر المجزوء ، لم يُسم نصباً ، وإن كانت قافيته قد تمت ، قال : سمعنا ذلك من العرب ، قال : وليس هذا مما سمى الخليلُ ، وإنما تؤخذ الأسماء عن العرب »[1] . فالأسماء والأصول أخذت من العرب ، ومعنى هذا أنه قد كان للعرب علم سابق بأصول الشعر وبقواعده ، وقد تمكن (الخليل) بذكائه وبتتبعه للعلوم من جمع تلك القواعد ، في العروض ومن أخذ ما كان عند الشعراء والعارفين بفنونه من مصطلحات وعلم ، فكوّن من كل ذلك : العروض .

هذا وان المعلوم أن (أرسطو) كان قد ألف كتاباً في الشعر وفي العروض Prosody وقد تطرق فيه الى الوزن Metre أي وزن الأبيات والقصيدة ، كما تكلم عن (التفعيلات) ، وعن أنواع النظم ، وقد درس كتابه علماء ذلك الوقت ،

---

[1] اللسان (١/٧٦١) ، (نصب) .

ووقف عليه السريان قبل الإسلام ، ونقل الى العربية في الإسلام ، قال (ابن النديم) : « الكلام على أبوطيقا : ومعناه الشعر، نقله أبو بشر متى من السرياني الى العربي ، ونقله يحيى بن عدي »[1] . وتوجد ترجمة كتاب (الشعر) ، في العربية مطبوعة في هذا اليوم ، وثبت أيضاً ان البابليين وغيرهم من أهل العراق، كانوا قد وضعوا قواعد في نظم الأشعار وفي تأليف أبياتها ، وفي أصول نظمها ، فلا استبعد وصولها الى المتأخرين من العراقيين الذين عاشوا الى أيام الإسلام ، فوقف عليها (الخليل) ، واستنبط منها فكرته في وضع العروض .

والذي أراه أن للبت في منشأ علم العروض ، لا بد من البحث عن المصطلحات العربية الجاهلية التي كانت شائعة عند العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، عن تكوين الشعر وأصول نظمه ، ثم تتبع مصطلحات الشعر عند الساميين ، مثل الكلدانيين والعبرانيين ومقارنة مسمياتها بالمسميات العربية المنسوبة الى (الخليل) ، لمعرفة صلتها بعضها ببعض . ومن دراسة البحور ، وتفاعيلها ، وأصول نظمها، فقد ثبت أن لتلك الشعوب قواعد في نظم الشعر ، راعاها الشعراء في نظمهم شعرهم[2] .

ولفظة (بحر) و (البحور) المستعملة في العروض ، هي من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . ورد في كتب اللغة ان الشاعر اذا اتسع في القول، قالوا استبحر[3]. ولما جاء (الحارث بن معاذ بن عفراء) على (حسان بن ثابت) ليستحثه في هجاء (النجاشي) الذي هجا الأنصار ، ألقى عليه (حسان) ثمانية أبيات ، ثم توقف ومكث طويلاً على الباب يقول : والله ما أبحرت[4] . وذكر ان (أبا بكر) كان يقدم النابغة على غيره من الشعراء ، فلما سئل عن ذلك قال : « هو أحسنهم شعراً، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[5] . ومن هذا المعنى أخذ مصطلح (بحر) و (بحور الشعر) و (بحور العروض) .

وكان الجاهليون أصحاب علم اذن بطرق الشعر وببحوره وبمقاصده وانحائه ،

---

١ الفهرست (ص ٣٦٣ وما بعدها) .
٢ Otto Weber, Die Literatur der Babylonier und Assyrer, Leipzig, 1907, S. 35.
٣ اللسان (٤/٤٤) .
٤ خزانة الادب (٤/٥٥ وما بعدها) ، ديوان حسان (١٣١ وما بعدها) .
٥ العمدة (ص ٩٥ ، ١٣٦ وما بعدها) .

وكانوا يطلقون على أنواعه وعلى ما ذكرت (أقراء الشعر)[1] . وكانوا ينقحونه ويحككون به حتّى يرضون عنه . ويقال للشعر الذي لم يحكم ولم يجود (شعر خشيب) و (شعر مخشوب) ، عكس الشعر المنقح المجوّد . ورد على لسان (جندل بن المثنى) قوله :

قد علم الراسخ في الشعر الأرب
والشعراء أنـــي لا أختشب
حسرى رذاياهم ولكن اقتضب[2]

والاقراء في الشعر طرائقه وأنواعه ، واحدها قرو وقرى[3] .

والإكفاء أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والاصراف ، والإكفاء ، والسناد . وقد عرفه العرب الفصحاء ، بأنه الفساد في آخر البيت والاختلاف . وكانوا يقولون لمن يخالف بين حركات الروي : (أكفأ) أو (أكفأ الشاعر) . وقد كان (النابغة) يكفيء في شعره . وقــد نبّه الى ذلك ، فتجنب بعضه وهذّبه[4] .

والإقواء عيب آخر من عيوب الشعر . وللنابغة في هذا خبر. فلما دخل (يثرب) وأنشد داليته المشهورة ، عيب عليه فيها ، فــلم يفهم موطن العيب فيه ، وهو (الإقواء) ، فلما غنته المغنية بالقصيدة مطلت واو الوصل ، فأحس بالإقواء واعتذر منه وغيره فيما يقال الى قوله :

وبذاك تنعاب الغرابِ الأسودِ

ثم قال : « دخلت يثرب وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعــر العرب »[5] . وكان (بشر بن أبي خازم) يقوي في شعره كذلك[6] . وذكر ان

---

١ تاج العروس (١/٣٧١) « الكويت » .
٢ تاج العروس (٢/٣٥٤) .
٣ تاج العروس (١٠/٢٩٣) ، (قرو) .
٤ تاج العروس (١/٣٩٦) « الكويت » ، العمدة (١/١٦٤ وما بعدها) ، المــوشح (٦٠) .
٥ اللسان (١٥/٢٠٩ وما بعدها) ، الشعر والشعــــراء (١/٣٩ ، ١٩٠) ، (دار الثقافة) ، الموشح (٥٩ وما بعدها) .
٦ الموشح (٦٠) .

أخاه قال له : انك تقوي[1] .

وبينا نرى أهل الأخبار يرمون (النابغة) بالوقوع في الإكفاء وفي الإقواء ، وبعدم إدراكه للإقواء مع تلميح الناس له ، حتى دبر أهل يثرب حيلة ، أظهرت إقواءه له ، فعلمه ، وخرج ، وهو يقول : « دخلت وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر العرب » ، يذكرون ان (أبا ذكوان) ، وهو من العلماء بالشعر يقول : « ما رأيت أعلم بالشعر منه . ثم قال : لو أراد كاتب بليغ ان ينثر من هذه المعاني ما نظمه النابغة ما جاء بـه إلا في أضعاف كلامه . وكان يفضل هذا الشعر على جميع أشعار الناس »[2] .

والإقواء أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور. وقيل نقصان الحرف من الفاصلة يعني من عروض البيت . وأقـوى في الشعر ، خالف بين قوافيه . وقيل هو رفع بيت وجر آخر . وذكر ان الاقواء كثير في كلام العرب ، لكن ذلك في اجتماع الرفع مع الجر وأما الإقواء وان كان عيبـاً لاختلاف الصوت به ، فإنه قـد كثر في كلامهم »[3] ، وكان « أبو عمرو بن العلاء يذكر أن الاقواء : هـو اختلاف الإعراب في القوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة ، وأخرى مخفوضة . كقول النابغة :

قالت بنو عامرٍ : خالوا بني أسدٍ   يا بؤس للجهـل ضراراً لأقوامِ

وقال فيها :

تبدو كواكبُه والشمس طالعـة   لا النور نور ولا الإظلام إظلامُ »[4]

« وبعض الناس يسمي هذا الإكفاء : ويزعم أن الإقواء نقصانُ حرفٍ من فاصلة البيت، كقول حَجْل بن نضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم وركب بها المفاوز ، واسمها النوار :

---

١ الشعر والشعراء (١٤٦) .

٢ انباه الرواة (٣/١٠) ، ديوان المعاني (١/١٧) ، المصون (١٥٦) ، بغية الوعاة (٣٧٥) .

٣ تاج العروس (١٠/٣٠٧) ، (قوو) .

٤ الشعر والشعراء (١/٣٩) ، (دار الثقافة) .

حنّت نوار ولاتَ هنّا حنت ... وبدا الذي كانت نوار أجنّتِ
لما رأت مــاء السّلا مشروباً ... والفرثَ يُعصرُ في الإناء أرنتِ

سمي اقواء لأنه نقص من عروضه قوة » . « وكان يستوى البيت بأن تقول: متشرباً »[1] .

وقد تعرض (المعري) لموضوع الاقواء وأمثاله في رسالة الغفران ، إذ يسأل (امرأ القيس) عنه ، ثم يجيب على لسانه . يقول للشاعر : « كيف يُنشد :

جالت لتصرعني فقلت لها:قري ... إني امرؤ صرعي عليك حرامِ

أتقول : حرامُ فتقوي ؟ أم تقول : حرامِ فتخرجه مخرج حذامِ وقطام ؟ وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الاقواء عليك . فيقــول امرؤ القيس : لا نكرة عندنا في الاقواء »[2] . فهو يرى ان الاقواء لم يكن منكراً عند أهل الجاهلية : وإنما عيب عليه في الإسلام .

ومن مصطلحات علماء الشعر : (الإيطاء) ، قال العلماء : أطأ كرر القافية لفظاً ومعنى مع الاتحاد في التعريف والتنكير ، فإن اتفق اللفظ واختلف المعنى فليس بإيطاء ، وكذا لو اختلفا تعريفاً وتنكيراً . وقال بعضهم الإيطاء رد كلمة قــد قفيت بها مرة نحو قافية على رجل وأخرى على رجل فهـذا عيب عند العرب ، لا يختلفون فيه ، وقد يقولونه مع ذلك . ووجه استقباح العرب الإيطاء، انه دال عندهم على قلة مادة الشاعر ونزارة ما عنده حتى اضطر الى إعادة القافية الواحدة في القصيدة بلفظها ومعناها فيجري هذا عندهم مجرى العي والحصر ، وأصله أن يطأ الانسان في طريقه على أثر وطيء قبله فيعيد الوطء عـلى ذلك الموضع ، وكذلك إعادة القافية من هذا . وقال (أبو عمرو بن العلاء) : «الإيطاء ليس بعيب عنـد العرب ، وهو إعادة القافية مرتين » ، أما اذا كثر الإيطاء في قصيدة مرات فهو عيب عندهم[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/٣٩ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣٢٠) .
٣ اللسان (١/٢٠٠) ، (وطيء) ، تاج العروس (١/١٣٥) ، (وطيء) ، الشعـر والشعراء (١/٤١) .

والمضمن من الشعر ما لا يتم معناه إلا في البيت الذي بعده . وقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من عدّه عيباً ، ومنهم من لم يعدّه عيباً ، ويراه مذهباً أجازه العرب لسببين : السماع ، والآخر القياس . أما السماع فلكثرة ما يرد عنهم من التضمين، وأما القياس فلأن العرب قد وضعت الشعر وضعاً دلت به على جواز التضمين عندهم . وحجة من قال بتقبيح التضمين : ان كل بيت من القصيدة شعر قائم بنفسه ، فمن هنا قبح التضمين شيئاً . وقد أوردوا للنابغة ولغيره من الشعراء أمثلة من التضمين[1] . وهو بهذا المعنى معروف عند غير العرب من الساميين والآريين ، إذ ان الأبيات عندهم ترتبط معانيها بعضها ببعض ، فلا يفهم معنى بيت إلا بالبيت الذي يليه . ولهذا تكون أبيات القطعة أو القصيدة مرتبطة بعضها ببعض ، ولا سيا في أشعار الملاحم والغناء .

والإصراف في الشعر ، إذا أقوي فيه وخولف بين القافيتين[2] . وأما السناد ، فاختلاف الأرداف . وقال (الأخفش) أما ما سمعت من العرب في السناد ، فإنهم يجعلونه كل فساد في آخر الشعر ولا يحدّون في ذلك شيئاً وهو عندهم عيب » . وقد أشير اليه في قول الشاعر :

فيه سناد واقواء وتحريد[3] .

وتحريد الشيء تعويجه .

وقيل : السناد : هو أن يختلف إردافُ القوافي ، كقولك علينا في قافية وفينا في أخرى[4] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الأوتاد ، والأسباب ، والخرم والزحاف،فقال: « وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقِصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل ، والبسيط ، والمديد ، والوافر ، والكامل ، وأشباه ذلك ، وكما ذكر

---

١ اللسان (١٣/٢٥٨ وما بعدها) ، (ضمن) ، تاج العروس (٩/٢٦٥) ، (ضمن)، العمدة (٢/٨٤) ، (باب التضمين والاجازة) .
٢ اللسان (٩/١٩٣) .
٣ اللسان (٣/٢٢٣) .
٤ الشعر والشعراء (١/٤٠) .

الأوتادَ ، والأسباب ، والخرم ، والزحاف . وقد ذكرت العرب في أشعارها السِناد ، والإقواء ، والإكفاء ، ولم أسمع بالإيطاء . وقالوا في القصيد ، والرجز ، والسجع ، والخطب ، وذكروا حروف الروي والقوافي ، وقالوا هذا بيتٌ وهذا مصراع »[1] .

وقد أباح علماء الشعر للشاعر ما لم يبيحوه للناثر من (ضرورة) دعوها : (ضرورة الشعر) . وقد جاءوا بأمثلة على ذلك ، اعتذروا عن بعضها ، وأوجدوا لها مخارج في الإعراب ، وعدّوا بعضاً منها من (العيب في الإعراب)[2] ، وورد: « الشعراء أمراء الكلام ، يقصّرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدّمون ويؤخرون ، ويومئون ويشيرون ، ويختلسون ويُعيرون ويستعيرون . فإما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب فليس لهم ذلك »[3] .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع (العروض) ، فقال : « وعلى الرغم من انه لا تزال تعوزنا بحوث شاملة لفن العروض عند قدامى الشعراء ، يمكن أن نقرر اليوم بحق ان هذا الفن كان يعتمد عندهم على قواعد ثابتة . نعم نجد في بعض قصائد الشعراء الأقدمين أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعه الخليل بن أحمد ، وما وضعه سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط في كتابه العروض ، كما في قصائد المرقش الأكبر ، وعبيد ، وعمرو بن قميئة ، وامرىء القيس ، وسلمى ابن ربيعة . ويبدو ان هذه الظواهر آثار قليلة لمرحلة من النمو لم تقف على كنهها بعد .

وبذل الشعراء المتأخرون محاولات للتخلص من قوانين العروض العربي ولكنهم قلما خرجوا عليه[4] .

وقد تعرض (الهمداني) لموضوع الشعر العربي وقواعد العروض ، وخروج الشعر على سلطة هذا العلم ، فقال : « أنشدني سعيد بن أبجر الهمداني ، وكان شاعراً بدوياً مطبوعاً :

---

١ البيان والتبيين (١٣٩/١) .
٢ الشعر والشعراء (٤٢/١ وما بعدها) .
٣ المزهر (٤٧١/٢) .
٤ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٥٤/١) .

يا سمع يا بصري لو جاءكم خبري لكان في عذر ناع عـلى كُور
وفي بني عامر ناع عـلى خاطرٍ وفي قرى صـافر حزن وتثبـير

وكان للجاهلية الجهلاء مذهب في الشعر من الأزحاف وغيره ما يستنكره الناس اليوم كقول علقمة :

ومنّا الذي نودي بسبعة آلاف غـلاماً صغيراً مـا يشد إزارا

وكقوله :

كأن بـه سيد حلاحـل تُصر مـن دونـه الطروق

وقول بعض حمير في أيام جديس ، النصف الأول من روي والنصف الآخر من روي ، قصيدته :

للهِ عينا من رأى حسان قتيـلاً في سالف الأحقاب

ومن ذلك شعر مـالك بن الحصيب اللعوي ، وهو قديم في حلف ربيعة ، وأوله :

أنا مالك وأنا الذي جددت حلفا لكنـدة قبلنا قـد كان سلفا

الشعر ، وفي وزنه زيادة حرفين »[1] .

وقد يحسن العلماء في المستقبل بدراستهم لما ورد في مؤلفات الهمداني وغيره من شعر قديم ينسب الى قدماء شعراء اليمن والى الشعراء اليمانيين والعرب الجنوبيـين عامة الذين نظموا بأسلوبهم الخاص ، لما في هذه الدراسة من فائدة كبيرة في إعادة بناء نظريات العلماء الحالية عن الشعر الجاهلي .

وفي الدواوين وكتب الأدب أمثلة على أمور خرج فيها الشعر على قواعد العروض أو النحو . من ذلك قول امرىء القيس :

كأن أباناً في أفانين وَدْقِهِ كبير أناس في بجاد مزمّل

---

١ الاكليل (٢/٤٩ وما بعدها) .

فقد ضم اللام في نهاية البيت ، وهي مكسورة في المعلقة جميعها[1] . ورووا أموراً أخرى وقعت في شعره أيضاً[2] ، وفي قصيدة (عبيد بن الأبرص) :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيـــاتُ فالذنوبُ

فهي من مخلع البسيط ، قلما يخلو بيت منهـــا من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة[3] . وفي قصيدة المرقش الأكبر :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ لو كان رسمٌ ناطقاً كلّمْ

فهي من السريع ، وقد خرجت شطور أبياتها على هذا الوزن ، كالشطر الثاني من هذا البيت :

ما ذنبنا في أن غـزا ملكٌ من آل جفنة حازمٌ مرغم

فإنه من الكامل[4] . ورووا اضطراباً وقع في شعر (عدي بن زيد العبادي) ، على النحو المذكور ، خرج فيه من السريـــع الى وزن المديد[5] ، وفي شعر غيره كذلك مثل نونية (سُلمِيّ بن ربيعة) :

إن شـــواءً ونشوة وخبب البازل الأمون

فهي خارجة عن عروض الخليل[6] .

ورووا وقوع مثل ذلك في قصيدة عدي بن زيد العبادي :

تعرف أمس من لميس الطلَلْ من الكتاب الدارس الأحولْ

---

١ دكتور شوقي ضيف : العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ راجع قصيدته :

عيناك دمعهما سجال كأن شأنيهما أوشال

ديوانه ١٨٩ ، العصر الجاهلي (١٨٤) .

٣ العصر الجاهلي (١٨٤) .

٤ المصدر نفسه .

٥ كذلـك .

٦ كذلك (ص ١٨٥) .

فهي من وزن السريع ، وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

أنعم صباحاً علقمَ بن عدي أثويتَ اليومَ أم ترحلْ

فإنه من وزن المديد[1] .

وتستحق هذه الأمور وأمثالها أن تكون موضع دراسة خاصة ، لما لها من أهمية في تكوين رأي علمي دقيق عن تطور العروض في الجاهلية . ولا يعقل في نظري أن يكون الشاعر الجاهلي قد كان بغفلة عن تلك الأمور التي عدّهـا الإسلاميون من مواطن الاضطراب والخروج عن القواعد . وإذا قسنا هذا الخروج في الوزن على مقاييس وزن الشعر عند الساميين ، نرى أنه لم يكن خروجاً ، لعدم تقيـد ذلك الشعر بالوزن في كل القطعة أو القصيدة ، وإنما كانوا يتقيدون بوزن البيت، فالقطعة أو القصيدة عندهم منسجمة ذات نغم ووزن وإن تكونت من بحر أو من جملة بحور ، وربما كان هذا شأن القصيدة عند الجاهليين كذلك . ثم انه في هذه الاضطرابات دلالة على أن في العروض الجاهلي ما فات أمره عن علم (الخليل)، وأن العروض الاسلامي لا يمثل كل عروض الشعر الجاهلي .

وللخليل كتاب في العروض ، اسمه (كتاب العروض) لا أعرف من أمره شيئاً . وهو أول كتاب ألف في هذا الباب ، وحمل هذا الاسم ، على ما أعلم ، وله كتاب اسمه (كتاب النغم) ، وكتاب آخر اسمه (كتاب الإيقاع)، وكتاب اسمه : (كتاب الشواهد) ، وكتاب اسمه (كتاب النقط والشكل) ، وكتاب باسم (كتاب فائت العين)[2] .

ولأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٢١٥ هـ) ، (٢٢١ هـ) ، وهـو أحد أصحاب (سيبويه) ، كتاب في العروض ، اسمه : (كتاب العروض)[3] .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ الفهرست (٧١) .

٣ الفهرست (٨٤) .

وعرف (الخليل) بسعة علمه باللغة ، واليه ينسب وضع أول معجم في اللغة العربية ، هو كتاب (العين) . وقد نظمت حروفه على ما يخرج من الحلق واللهوات[1] . وهو ترتيب يرى بعض المستشرقين احتمال أخذ (الخليل) له من ترتيب الأبجدية السنسكريتية وذلك عن طريق (خراسان) التي لها صلة وثيقة بثقافة الهند[2] . وقد نسب بعض العلماء كتاب العين الى غيره ، نسبه الى (الليث بن نصر بن سيار) الخراساني ، ومنهم من زعم أن (الخليل) عمل قطعة من كتاب العين من أوله الى حرف الغين وكمله (الليث) ولهذا لا يشبه أوله آخره[3] .

وقد كان للهنود حب شديد للشعر ، وقد نظمت كتبهم الدينية شعراً ، وقد أدرك (البيروني) الواسع الاطلاع بأحوال الهند هذا الحب الشديد له ، فقال : « أكثر الهنود يهترون لمنظومهم ويحرصون على قراءته ، وإن لم يعرفوا معناه ، ويفرقعون أصابعهم فرحاً به ، واستجادة له ، ولا يرغبون في المنثور وإن سهلت معرفته » . وقد كانوا يزنون شعرهم بميزان ، فـ « عملوا من التفعيلات قوالب لأبنية الشعر ، وأرقاماً للمتحرك منها والساكن ، يعبرون بها عن الموزون، فكذلك سمى الهند لما تركب من الخفيف والثقيل » أسماء يشيرون بها الى الوزن المفروض[4]. فإذا كانت للهنود تفعيلات وزنوا بها شعرهم ، وهي أقدم عهداً من تفعيلات (الخليل) ، أفلا يجوز أن يكون (الخليل) قد اقتبس تفعيلاته من تلك التفعيلات ، وبين الهند و (الابلة) التي حلت البصرة محلها في الاسلام اتصال جد قديم ، وقد كان بين سكانها عدد كبير جاءوا قبل الاسلام من الهند .

وحيث أن العلماء ينصون على أن (الخليل) ، هو موجد البحور المعروفة في العروض ، وهو وازنها ، وحيث أن أساس المعايير التي قيست بها الأبيات ، للوقوف على البحور هي (فعل) فيجب أن تكون هذه التسمية من ابتكاراته إذن . ولم أجد أحداً وضح كيف اهتدى الخليل الى إيجاد هذا المعيار ، ولمَ

---

١ الفهرست (٧٠ وما بعدها) .

٢ John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 8.

٣ القفطي ، انباه الرواة (٣٤٣/١) ، المزهر (٧٦/١) .

٤ البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة (٦٦) .

سمّاه بهذه التسمية ، إن من المستحسن في نظري الاهتمام بهذا الموضوع ، ودراسة موازين الشعر عند الهنود ، لمعرفة أسماء معايير الشعر عندهم ، للوقوف عليها ، فقد تكون لهذه التفعيلات صلة بتفعيلات شعر الهنود . ويلاحظ أن (ابن جني)، كنّى بالتفعيل عن تقطيع البيت الشعري ، لأنه إنما نزنه بأجزاء مادتها كلها (فعل)[1] .

1 تاج العروس (٨/٦٥) ، (فعل) .

الفصل الخمسون بعد المئة

البصرة والكوفة

لا بد لنا من التعرض لأثر البصرة والكوفة في عمل القواعد وفي رواية الشعر الجاهلي ، إن أردنا فهم هذا الشعر وكيف جمع ودوّن ، وكيف نحل المنحول منه ، فقد كان للمدينتين الأثر الأكبر في جمع هذا الشعر وفي تدوينه ونحله .

ولا بد من التحدث أولاً عن أثر العصبية القبلية في هاتين المدينتين. فقد بنيتا على أساس هذه العصبية . فلما بنيت الكوفة ، جعلت قسمين : قسم لليمن ، وقسم لنزار ، وكانت الأغلبية لليمن . ووزعت المحلات والسكك حسب القبائل[1] ، وكذلك كان الأمر بالبصرة حين شرع ببنائها ، فقد روعي في بنائها ، توزيع أحيائها على حسب النسب والقبائل[2] ، فكانت عصبية الحي للعشيرة أولاً ، وللقبيلة ثانياً ، ثم للمدينة ثالثاً . وهكذا غرست بذور العصبية في أرض المدينتين ، منذ شرع بوضع أساس التأسيس .

وتجسمت العصبية القبلية في العصبية للمدينة ، فتعصب عرب الكوفة ومواليها للكوفة، وتعصب عرب البصرة ومواليها للبصرة ، « يفخر كل منهما بطبيعة الأرض وموقعها الجغرافي ، ويفخر كل بما كان على يده من فتوح البلدان ، ويفخر كل بمن نزل عندهم من صحابة رسول الله ، ويعير كل الآخر بما نبت عنده من

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٢٧٤) ، (تمصير الكوفة) ، (طبعة رضوان محمد رضوان) .

٢ البلاذري (٣٤١) ، (تمصير البصرة) .

دعاة للضلالة ، وأخيراً كانوا يتفاخرون بالعلم . وظهرت هذه المفاخرات العلمية والمناظرات وتعصب كل مدينة لعلمائها ، ظهوراً بيناً في كثير من فروع العلم ، فالبصريون والكوفيون في المذاهب الدينية وعلم الكلام ، والبصريون والكوفيون في الأدب ؛ يقول أعشى همدان :

اكسع البصريّ إن لاقيته إنما يكسع من قلّ وذلّ
واجعل الكوفي في الخيل ولا تجعل البصريّ إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابغة فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا وكفرتم نعمة الله الأجل [1]

والكوفة بظاهر الحيرة . المدينة التي كان يقصدها الشعراء والتجار ، وفيهم تجار مكة وأشرافها ، مثل عبدالله بن جدعان ، وأبو سفيان . ومنها انتقل الخط الى مكة،على حد قول أهل الأخبار،ومنها انتقلت النسطورية الى العرب النساطرة ، وقد اشتهرت برجال برزوا فيها في العلوم الدينية النصرانية وبالعلوم اللسانية في لغة بني إرم ، وبكنائسها وبأديرتها التي كانت تعلم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة ، وتهيء الطلاب للتبحر في علوم الدين وفي العلوم الدنيوية المعروفة في ذلك الوقت، ولما أنشئت الكوفة انتقلت اليها بأبنيتها وأناسها،فقد هدمت منازلها ونقلت حجارتها الى الكوفة ، لتبنى بيوتها بها ، وانتقل أهلها الى الكوفة ، لأنها أخذت مكانها في الحكم ، وصارت مقر الولاة ، فشايع أهلها أهل الكوفة في السكن وفي الالتفاف حول قصر الوالي ، وانتقل ما كان قد تبقى من بقية علم من الحيرة الى الكوفة كذلك ، وتجسم في هذا الذي نسميه بعلم أهل ، أو بمدرسة الكوفة .

وقد كان في أهل الحيرة قوم من النبط ، أي من بني إرم أهل العراق ، وقوم من الفرس ، فتأثر لسان أهلها العرب بلسان النبط وبلسان العجم، كما تأثروا بحياة الحضارة والاستقرار ، فلان لسانهم وسهل منطقهم [2] ، وثقل نطقهم بالعربية،

---

١ فجر الاسلام (١٨١) ، البلدان ، لابن الفقيه (١٦٣ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

فلم يعد ينطق لسانهم نطق الأعراب من حيث الوضوح والإفصاح[1] . والذي عند علماء العربية ان في لسان الأعراب جفاء وشدة وغلظة ، دخلت عليه من خشونة البادية ومن طباعها ، فإذا خالط أهل البادية البلديين والأعاجم ، لان جفاؤهم وسهل لسانهم ، فيبتعد بذلك عن اللسان العربي القح ، ولهذا طلب علماء اللغة جفاة الأعراب وأهل الطبائع المتوقحة ، وأخذوا عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة ، وبقيت في سرة البادية أو قاضت حواليها ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف[2] .

أما البصرة ، فأخذت مكانة (الأبلة) المدينة الشهيرة المعروفة باسم (أبولم) Ubulum في الكتابات الأكادية ، وبـ Apologus (أبولوكس) في النصوص الكلاسيكية[3] ، وهي أقرب الى جزيرة العرب من الكوفة ، ولها اتصال ببلاد الخليج وبالهند ، فكانت سفن الهند وسيلان تأوي اليها ، وسكن قوم من الهند بها ، كما سكن بها قوم من الفرس ، خالطوا العرب ، ولعلّي لا أخطىء اذا قلت ان شأن الموالي بالبصرة كان أقوى منه بالكوفة ، لاتصال البصرة بالهند وببلاد فارس ، وبعد الكوفة عنها ، وقد أثّر هذا الاتصال في لسان عرب البصرة ، مما أدى الى ظهور اللحن في الكلام ، وظهور أثر للغات أهل الهند في لسان أهل (الأبلة) ثم البصرة ، بسبب نزوح جاليات كبيرة من الهند الى (الأبلة) ، وذلك قبل الاسلام .

وأما (بغداد) التي ظهرت بعد المدينتين بأمد ، فقد أسسها (أبو جعفر المنصور) العباسي ، فإنها كانت مدينة مُلك ، ولم تكن مدينة علم ، وما فيها من العلم ، فمجلوب للخلفاء وأتباعهم ، « قال أبو حاتم : أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يُوثق به في كلام العرب ، ولا من تُرتضى روايته ، فإن ادعى أحد منهم شيئاً رأيته مخلطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة »[4] . وللأصمعي كلام يستهزىء به على علم أهل بغداد . قال « خرجت الى بغداد وما فيها أحد

---

١ الشعر والشعراء (١/١٥٠) ، (وكان « عدى بن زيد » يسكن بالحيرة ، ويدخل الارياف ، فثقل لسانه) .

٢ الرافعي (١/٣٤٣) .

٣ كتابي هذا ، الجزء الثاني (ص ٢٠) .

٤ المزهر (٢/٤١٤) .

يحسن شيئاً من العلم ، لقد جاءني قوم يسألوني عن الجعطرى ، فأخبرتهم أنـه المكتل . قالوا : وما المكتل ؟ قلت : هو المعضل ! قالوا : ومـا المعضل ؟ وكان بقربي بقال ضخم ، فقلت : هو مثل ذلك البقال ! فرووا عني »[1] .

ونجد (المعري) يتهم رواة بغداد بعدم الفهم في الشعر ، ترى رأيه هـذا فيهم في رسالة الغفران ، حيث يسأل (امرأ القيس) : « يا أبا هنـد ، ان رواة البغداديين ينشدون في قفا نبك ، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها ، أعني قولك :

وكأن ذرى رأس المجيمر غدوة
وكأن مكاكي الجواء
وكأن السباع فيه غرقى

فيقول : أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . وإذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وانمـا ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم ، وهيهات هيهات »[2] .

وأما المدن الأخرى ، فلم تبلغ في العلم شأو البصرة والكوفة ثم بغداد . فـلم يعترف أحد من علماء العربية بوجود امام في العربية بدمشق أو يثرب أو مكـة . وقد زعم (الأصمعي) ، انه أقام بالمدينة زماناً ما رأى بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها (عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب) المعروف بابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر . وكان بها (علي) الملقب بالجمل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً .

« وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي ، يقال له : ابن قسطنطين ، شدا شيئاً من النحو ، ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً »[3] .

وقد دفعت العصبية الى المدن ، أهل المدينتين على التحاسد والتفاخر والتنافر ، فادعى أهل كل مدينة انهم أرسخ علماً من أهل المدينة الثانية ، وانهم أكثر إحاطة

---

١ الرافعي (٤٠٤/١) .
٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
٣ المزهر (٤١٣/٢ وما بعدها) .

به من خصومهم ، ومن ثم صار أهل الكوفة يتمرأون بخصومهم ، فينتقصونهم ويلصقون بعلمهم وبعلمائهم التهم ، ويغمزون فيهم ، وصار أهل البصرة يكيدون لأهل الكوفة وينتقصونهم ، وكانوا « يرون ان أصحابهم لو ركبوا في نصاب رجل واحد ما بلغوا أن يعدلوا أضعف رجل في البصرة ، وقد رموهم في باب الكذب بقمص الحناجر ، والأخذ عن كل بر في الرواية وفاجر ، وجعلوهم من علماء الأسواق ، وتلامذة الأوراق »[1] . ووجدت هذه المنافسة أرضاً صالحة في قصور الخلفاء والوزراء والأكابر ببغداد ، حتى تحولت الى مؤامرات ومهاترات ، ابتعدت عن أدب العلم والعلماء ، حتى نزلت أحياناً الى درك مهاترات العامة : والى التزوير ، والاستعانة بالشهود الزور لتأييد عالم على عالم ، كالذي وقع في المسألة الزنبورية في الخلاف الذي كان بين سيبويه والكسائي .

وقد وقعت العصبية بين المدينتين حتى في قراءة القرآن ، ففضل أهل كل مدينة قارىء مدينتهم ، واعتبروا قراءة صاحبهم أحسن القراءات ، فأهل الكوفة يتعصبون لقراءة (عبدالله بن مسعود) ويرون أن مصحفه أصح المصاحف،وأهل البصرة يتعصبون لأبي موسى الأشعري ، ويأخذون بقراءته ويلحنه ، « وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب »[2] . والكوفيون يكتبون والضحى بالياء ، وأهل البصرة يكتبونها بالألف[3] .

وكانت أولية العربية بالبصرة ، « لأن أبا الأسود الدؤلي قد نزل بها وأخذ عنه جماعة هناك ، فكان كل أصحابه الذين شققوا العربية بعده بصريين ، ثم انتقل النحو الى الكوفة » . ثم استفاض نحو الكوفيين ، فنبغ فيه من سكنة الكوفة أبو جعفر الرؤاسي ، ومعاذ الهرّاء ، واضع التصريف ، والكسائي ، والفراء[4]. وذكر أنه لم يعلم أن أحداً من علماء البصريين أخذ شيئاً من النحو واللغة عن أحد من أهل الكوفة ، بينما أخذ الكوفيون عن أهل البصرة ، وما من أساتذتهم أحد إلا وقد تلمذ لبصري[5] . وقد قدم (ابن سلام) أهل البصرة على غيرهم في

---

١ الرافعي (١/٤٢٩) .
٢ الرافعي (٢/١٧) .
٣ المقتنع (٣٥) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٣٥) .
٤ الرافعي (١/٤٣٠ وما بعدها) .
٥ الرافعي (١/٤٣٢ وما بعدها) .

العربية ، قال : « وكان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية »[1] . و (ابن سلام) نفسه من علماء البصرة ، ومن المتعصبين لها على أهل الكوفة .

وروي أن (أبا الخطاب) المعروف بالأخفش ، وهو من علماء البصرة « كان أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها[2] ، فلأهل البصرة قدمة على أهل الكوفة في هذا المضمار .

ومن أهم ميزات أهل البصرة ، هو استعمالهم القياس في النحو ، فقد سبقوا به أهل الكوفة . أما أهل الكوفة ، فقد أخذوا بالقياس في الفقه . فالقياس من أهم وسائل استنباط الأحكام الشرعية في فقه (أبي حنيفة) ، وهو من علماء الكوفة . كان علماء البصرة يطبقون القياس على النحو واللغة ، فما يسمعونه يقيسونه على ما جمعوه من قواعد استنبطوها من القرآن ومن الشعر ومن لغة العرب ، ثم يحكمون حكمهم عليه . أما أهل الكوفة ، فقد تحرروا منه ، وكانوا على ما قيل عنهم ، يأخذون بالشاذ والغريب ، ولو خالف القياس. ومن هنا اتهموا بالضعف، وبعدم التروي في البحث والاستقصاء ، وبالأخذ بالخبر من غير نقد ولا تمحيص. وهو اتهام ، قد يكون للعاطفة يد فيه . وقد صار هذا القياس سبباً في إخضاع اللغة الى حكم قواعد ثابتة اتفق عليها ، استنبطت من الاستقراء ، ومن تطبيق حكم القياس عليها ، إلا انه صار في الوقت نفسه سبباً في إهمال اللهجات المخالفة التي سمّاها العلماء لغات شاذة أو غريبة ، وتركها لعدم استحقاقها في نظرهم شرف التسجيل والتثبيت ، ولم يقدّروا آنذاك أهميتها بالنسبة لمن يريد تتبع تأريخ لغات العرب وتطورها منذ الجاهلية الى الاسلام .

وكان لأهل البصرة ميزة قربهم من أعراب نجد والبوادي ، فكانوا يأخذون منهم القواعد واللغة ، أما أهل الكوفة ، فقد اعتمدوا على أشباه الأعراب من المقيمين في أطراف البادية ، وهم ممن رفض أهل البصرة الأخذ عنهم ، لأنهم

---

١ طبقات (٥) .

٢ المزهر (٢/٤٠٠) .

ممن خالط أهل الريف ، وأقاموا على أطراف الحواضر[1] . كما أن قياس أهل البصرة في النحو ، بني على قواعد بنوها هم وأقاموها ، وفق دراساتهم ، وأخذهم عن الأعراب من نثر وشعر ، ولهذا سخروا من علم أهل الكوفة ومن علمائهم في النحو ، وتتجلى سخريتهم في أشعار نظموها في أهل الكوفة وفي شيخهم(الكسائي). ترى استهزاء أهل البصرة بعلم وبقياس وبعلماء أهل الكوفة في مثل هذا الشعر :

كنا نقيس النحو فيما مضى | على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه | على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما | به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأشياعه | يرقون في النحو الى أسفل[2]

وتراه في شعر آخر ، هو :

وقل لمن يطلب علماً ألا | ناد بأعلى شرف ناد
يا ضيعة النحو ، به مُغرب | عنقاء أودت ذات إصعاد
أفسده قوم وأزروا به | من بين أغتام وأوغاد
ذوي مراء وذوي لكنة | لئام آباء وأجداد
لهم قياس أحدثوه همُ | قياسُ سوء غير منقاد
فهم من النحو ، وإن عمروا | أعمارَ عاد ، في أبي جاد[1]

والكسائي ، الذي طعن البصريون في علمه ، وقدموا صاحبهم (سيبويه) عليه، ناظر خصمه بحضرة (الرشيد) أو في مجلس البرامكة على رواية ، وغلبه بمؤامرة يقال إنها حكيت، للإيقاع به . وذلك في المسألة التي عرفت بـ (المسألة الزنبورية) في كتب العلماء[3] . وكان (الكسائي) قد أخذ النحو عن (أبي جعفر) الرؤاسي، وهو أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو ، وقيل إن كل ما في كتاب سيبويه : « وقال الكوفي كذا ... » إنما عنى به الرؤاسي هذا ، وكتابه يقال

---

١ نزهة الالباء (١٠٨) ، بغية ، للسيوطي (٣٣٦) ، ارشاد (٧/٢٩٠) ، يوهان فك (٦٢) .

٢ السيرافي ، أخبار النحويين (٢٣) ، يوهان فك (٦٢) .

٣ مجالس العلماء (٨ وما بعدها) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر (٣/١٥) .

له الفيصل ، وكان له عم يقال له معاذ بن مسلم الهرّاء ، وهو نحوي مشهور ، وهو أول من وضع التصريف . وقد طعن رواة البصرة في علم (الرؤاسي) . قال (أبو حاتم) : « كان بالكوفة نحوي يقال له : أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء ، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ، ويزعمون أن كثيراً من علومهم وقراءتهم مأخوذ عنه »[1] .

وسبقت الكوفةُ البصرةَ في رواية الشعر ، وقد خاطب (علي بن أبي طالب) أهل الكوفة بقوله : « إذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار »[2] ، فالأمثال والشعر من أهم الموضوعات التي كان يتدارسها أهل الكوفة في أيام نشأتها الأولى ، فهم على سنن الجاهليين في ضرب الأمثال ورواية الشعر . روي أن المفضل كان يروي للأسود بن يعفر ثلاثين ومائة قصيدة ، وكان أهل الكوفة يروون له أكثر من غيرهم ، ويتجوزون فيه أكثر من غيرهم[3] ، وقد انفردوا برواية شعر امرىء القيس ، خلا نتف أخذت من أبي عمرو بن العلاء وبعض الرواة الأعراب[4] . وروي أن « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بيّن في دواوينهم »[5] . وقد زعم أهل الكوفة ، أن علمهم بالشعر القديم ، إنما ورد اليهم من (الطنوج) ، وهي الكراريس التي أمر (النعمان بن المنذر) بتدوين أشعار العرب عليها ، وما مدح به هو وأهل بيته ، ثم أمر بدفنها في القصر الأبيض ، فلما كان (المختار ابن أبي عبيد) ، احتفرها ، « فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثمّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[6] .

وكان حماد الراوية رأس أهل الكوفة في راوية الشعر وتدوينه ، فقد بلغ الغاية في العلم بشعر الجاهليين . يقابله فيه (خلف الأحمر) عند أهل البصرة ، وكان خلف أول من أحدث السماع في البصرة ، « وذلك انه جاء الى حماد الراوية فسمع

---

١ المزهر (٢/٤٠٠) .
٢ الرافعي (١/٣٨٢) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
٤ الرافعي (١/٤٣٢) .
٥ المزهر (٢/٤٠٧) .
٦ الخصائص ، لابن جني (١/٣٩٢) .

منه الشعر ، ثم تابعه البصريون فأخذوا عن حماد بعد ذلك ، لانفراده بروايات من الشعر ، فإنه هو الذي أخذ عنه كل شعر امرىء القيس ، إلا شيئاً أخذوه عن أبي عمرو بن العلاء »[1] . وذكر ان (الخثعمي) ، و (أبا البلاد) كانا من رواة أهل الكوفة في الشعر قبل (حماد) ، وكانا في خلافة عبد الملك بن مروان[2] .

ونسب الى بعض العلماء اضافتهم البيت أو الأبيات على ألسنة الشعراء ، لتوجيه الحجة وتزيين الخبر ، والاستشهاد على قاعدة نحوية أو صرفية . وذكر ان بعضاً منهم قد اعترف بذلك ، وأقر الوضع[3] . وفي هذه الاعترافات المنسوبة اليهم ، ما هو باطل مصنوع ، صنعه عليهم حسادهم ومنافسوهم في الصنعة ، ورموه بين الناس على انه إقرار من أولئك العلماء بالوضع ، ولا يعقل صدور مثل هذه الاعترافات منهم ، لشهرتهم ولمكانتهم بين الناس ، ولخوفهم من السمعة السيئة ، واشتهارهم بالكذب والانتحال . وليس معنى هذا انهم لم يضعوا ولم يصنعوا شيئاً على الشعر الجاهلي ، انما أشك في صحة ما قيل على ألسنتهم من اعترافهم بالدس والوضع .

وذكر أن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة[4] . وقد كان من اللازم أن يتعصب أهل الكوفة لامرىء القيس ، فقد روى أكثر شعره حماد ورواة آخرون من أهل الكوفة . وقد كان (يونس بن حبيب) ، وهو من البصريين ومن المتعصبين لمدينته يقول : « يا عجباً للناس ، كيف يكتبون عن حماد وهو يصحف ويكذب ويلحن ويكسر »[5] .

وقد اتهم الكوفيون بأنهم كانوا أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها ، « لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها » . « وأول من سن لهم هذه الطريقة شيخهم الكسائي ، قال ابن درستويه : كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك » . و « قال الأندلسي في شرح المفصل : والكوفيون لو سمعوا

---

١ الرافعي (٤٣٢/١) .
٢ المصدر نفسه .
٣ الرافعي (٣٨٣/١ وما بعدها) .
٤ طبقات ، ابن سلام (١٦) .
٥ رسائل الجاحظ (٢٢٦/١) ، (كتاب البغال) .

بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه ، بخلاف البصريين »[1] .

واتهموا انهم كانوا يصنعون الشاهد من الشعر فيما لا يصيبون له شاهداً اذا كانت العرب على خلافهم ، ولذلك تجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر[2] ، وربما أخذوا من العرب المتحضرة ، « ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يغتمزون على الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة عن حرَشَة الضبّاب وأكلة اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكوامخ[3] . ومن الأعراب الذين أخذ (الفرّاء) ، عالم الكوفة بعد الكسائي عنهم اللغة ، (أبي الجراح) ، و (أبي مروان) ، وأهل البصرة يمتنعون من الأخذ عن أمثال هؤلاء الأعراب ، ولا يرون في قولهم حجة . «قال أبو حاتم : اذا فسرتُ حروف القرآن المختلف فيها ، وحكيت عن العرب شيئاً ، فإنما أحكيه عن الثقات منهم ، مثل أبي زيد ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ، ولا التفت الى رواية الكسائي ، والأحمر والأموي ، والفراء ، ونحوهم »[4] .

واتهموا بأنهم كانوا يكثرون من الشعر ، يقولونه على ألسنة الشعراء ، قال (ابن سلام) في أثناء حديثه عن (الأسود بن يعفر) الشاعر الجاهلي : « وذكر بعض أصحابنا انه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه . وقد علمت ان أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي ، ويتجوزون في ذلك أكثر من تجوزنا »[5] . وكان الأسود ، يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد . وله في ذلك أشعار . له قصيدة جيدة ، طويلة رائعة تعد من أول الشعر ، وهي :

نام الخليّ فما أحس رقادي   والهمّ محتضر لديّ وسادي[6]

---

١ الرافعي (١/٣٧٠) .
٢ الرافعي (١/٣٧٠ وما بعدها) .
٣ الرافعي (١/٣٧١) .
٤ المزهر (٢/٤١٠) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

ونسمع قصصاً عن تغليط علماء البصرة والكوفة بعضهم البعض ، فنجد خلفاً الأحمر ، وهو شيخ البصرة في الشعر ، يذكر أنه أخذ على (المفضل) الضبي في يوم واحد تصحيف ثلاثة أبيات[1] . ونجد (الأصمعي) ، وهو من علماء البصرة كذلك ، يحمل على علم (الضبي) في الشعر ، ويرميه بعدم الفهم[2] . وتجد قصصاً روي عن علماء مشاهير مثل (ثعلب) وغيره ، يحمل فيه أولئك العلماء بعضهم على بعض ، وينتقص بعضهم على البعض الآخر[3] .

ونحن إذا أردنا الوقوف موقفاً علمياً ، فلا نستطيع إلا أن نقول: إننا لا نستطيع تبرئة أهل الكوفة من الصنعة والوضع ، كما لا نستطيع تبرئة أهل البصرة منها ، لأن في كل مدينة من المدينتين منافسات بين العلماء ، وتزاحم على الرئاسة، وحسد، يدفع الإنسان على الوضع والصنعة والأخذ بالخبر مهما كان شأنه لإفحام الخصوم ، والتغلب عليهم . فإذا كان (حمّاد) عالم الكوفة في الشعر من الوضاعين ، وكان يصحف ويكذب ويلحن ويكسر[4] ، فقد كان (خلف الأحمر) ، وهو عالم البصرة ، مثله في الصنعة والوضع والكذب . وكان (شَوكَر) وهو من أهل البصرة ، ومن رجال المائة الثانية ، ممن يضع الأخبار والأشعار ، وفيه يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر   وأخرى مؤلفة لابن دأب[5]

وقد نقح علماء الشعر من المدرستين والمدارس الأخرى ما أخذوه من الشعر الجاهلي ، وأجروا على ما لا يتفق منه والقواعد التي ثبتوها للنحو والعروض تهذيباً وتشذيباً ، وعابوا منه أموراً مثل الإقواء والزحاف ، واختلال الوزن ، وما شاكل ذلك . وقد تحدث عن ذلك (المعري) في رسالة الغفران ، وهو شاعر ومن نقدة

---

١ المصون (١٩١ وما بعدها) .
٢ المصون (١٩٢ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢٠٢/١ وما بعدها) .
٤ رسائل الجاحظ (٢٢٦/١) ، (كتاب البغال) .
٥ لسان الميزان (١٥٨/٣) ، (٤٠٩/٤) ، رسائل الجاحظ (٢٢٥/١) ، (كتاب البغال) .

الشعر ، في أحاديثه التي وضعها على ألسنة الشعراء في الجنة أو في النـــار ، وفي أسئلته التي وجهها اليهم ، أو وجهها غيره اليهم . كما في استفساره من (امرىء القيس) عن رواة أهل بغداد في انشادهم أبياتاً من قصيدته : « قفا نبك بزيادة الواو في أولها ، فوضع الجواب على لسانه ، بقوله : « أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . واذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وانما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم، وهيهات هيهات ! »[1] . ثم يقول : « لو شرحتُ لكَ ما قال النحويون في ذلك لعجبت »[2] .

ونرى (المعري) يوجه أسئلة الى (امرىء القيس) ، فيقول له : «أخبرني عن كلمتك (الصادية) ، و (الضادية) ، و (النونية) التي أولها :

لمن طلــل أبصرتــه فشجاني كخطَّ زبور في عسيب يمان ؟

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمعُ ، كقولك :

فإن أمسِ مكروباً فيا ربَّ غارةٍ شهدتُ على أقبَّ رِخوِ اللّبانِ

وكذلك قولك في الكلمة الصادية :

على نقنق هيــقٍ له ولعرسه بمنقطع الوعْساء بيضٌ رصيص

وقولك :

فأسقي به أختي ضعيفةَ إذ نأت وإذ بَعُدَ المزدارُ غير القريضِ

في أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون عما يقع فيه ؟ كما أنه لا ريب أن زهيراً كان يعرف مكان الزحاف في قوله :

---

١ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعده) .

٢ رسالة الغفران (٣١٤) .

يطلب شأوَ امرأين قدّما حسباً   نالا الملوك ، وبذّا هذه السُّوقا

فإن الغرائز تحسُ بهذه المواضع »[1] .

ثم يجيب (المعري) على لسان (امرىء القيس) بقوله : « أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ، ولا أدري ما شجن عنه « فأما أنا وطبقتي فكنا نمرّ في البيت حتى نأتي إلى آخره ، فإذا فنى وقارب ، تبين أمره للسامع»[2].

ثم نراه يسأل (امرىء القيس) عن قوله :

ألا ربَّ يومٍ لك منهن صالحٍ   ولا سيما يوم بسدارة جلجل

أتنشده : لك منهن صالحٍ ؟ أم تنشده على الرواية الأخرى . فيجيب على لسانه بقوله : « أما أنا فما قلتُ في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهن صالحٍ

وأما المعلمون في الإسلام ، فغيروه على حسب ما يريدون »[3] .

وقد سأله (المعري) عن الشعر المسمط المنسوب اليه ، فأنكر على لسانه أن يكون قد سمع به قط ، قائلاً « وانه لقرى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمني وأساء الي »[4] . ولما سأله عن (الإقواء) في شعره ، قائلاً له : « وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء عليك » ، أجاب على لسانه : « لا نكرة عندنا في الإقواء »[5].

وقد كان من أصعب الأشياء على بعض رجال المدرستين ألا يجيبوا على أسئلة توجه اليهم إجابة تفيد بوجود علم لهم عنها ، ولهذا كانوا يعمدون الى الصنعة والافتعال . نجد ذلك عند أهل الأخبار ، وعلى رأسهم (ابن الكلبي) ، كما نجد ذلك عند رواة الشعر مثل حماد الراوية ، وخلف الأحمر ، كما نجده عند علماء

---

١ رسالة الغفران (٣١٥ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣١٧) .
٣ رسالة الغفران (٣١٧ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٣١٩) .
٥ رسالة الغفران (٣٢٠) .

اللغة . وقد أشرت في صفحات هذا الكتاب الى أمثلة عديدة من هذا القبيـــل ، اضطـــر فيها المجيب علـى افتعـال جواب وصنعه ، ليظهـر نفسه بمظهر العارف بكل شيء .

ويجب الانتباه الى ان علماء البصرة أو الكوفة أو غيرهم ، مهما سموا في العلم وارتفعوا ، فإنهم بشر ، لم يرزقوا العصمة ، وهم في التأثر والانفعال مثــل أي كائن حي ، فقـد يتأثر عالم من عالم متقــدم عليه ، فيحاول الغمز في علمه أو الطعن به . قال علي بن العباس : « رآني البحتريُّ ومعي دفتر ، فقال : ما هذا ؟ فقلتُ شعر الشنفرى . قال : والى أين تمضي ؟ قلت أقرأه على أبـي العبـــاس أحمد بن يحيى . قال : رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام ، فلم أر له علماً بالشعر مرضياً ، ولا نقداً له ، ورأيته ينشد أبياتاً صالحة ويعيدها ، إلا انها لا تستوجب الترديد والإعجاب فيها »[1] . وروى (أحمـد بن يحيى ثعلب) ، خبر مناظرات وقعت بين (أبـي عمرو الشيباني) ، والأصمعي ، ترينا مبلغ التنافس الذي كان بين العالمين ، واستهتار الأصمعي بخصمه ، استهتاراً تجاوز الحد[2] .

وقد حاول (السيوطي) ايجاد عذر لغمز العلماء بعضهم في بعض ، بأن قال : « فإن قلت : فإنا نجد علماء هذا الشأن من البلدين ، والمتحلّين بـه من المصرين كثيراً ما يهجن بعضهم بعضاً ، فلا يترك له في ذلك سماءً ولا أرضاً ؟ قيـل : هذا أدل دليل على كرم هذا الأمر ونزاهة هذا العلم ، ألا ترى انه إذا سبق الى أحدهم ظنة ، أو توجهت نحوه شبهة سُبَّ بها ، وبرىء الى الله منه لمكانها ، ولعل أكثر ما يُرمى بسقطة في رواية ، أو غمزة في حكاية ، محمي جانب الصدق فيها ، بريء عند الله من تبعتها ؛ لكن أخذت عنه إما لاعتناق شبهــة عرضت له ، أو لمن أخذ عنه ، وإما لأن ثالبـــه ومتعيبه مقصر عن مغزاه ، مغموض الطرف دون مداه ، وقد عرض الشبهة للفريقين ، ويعترض على كلا الطريقين» ، ثم أخذ يعتذر عن ذلك ، بأنه وقع في سبيل العلم والحق ، ثم قـــال : « وإذا كانت هذه المناقضات والمنافسات موجودة بين السلف القديم ... جاز مثــل ذلك أيضاً في علم العرب »[3] .

---

١ المصون (٤) .
٢ المصون (١٩٣ وما بعد) .
٣ المزهر (٤١٦/٢ وما بعدها) .

ومن هنا يجب الاحتراس كثيراً حين قراءتنا الطعون التي ترد على ألسنة العلماء يطعن فيها بعضهم ببعض ، فأكثر هذا المروي عنهم ، صادر عن طبيعة بشرية ، تظهر بين الزعماء نتيجة التنافس الذي يقع بينهم على الزعامة والصدارة ، ولو في زعامة العلم . ولا تقتصر هذه الطعون والمغامز على طعن علماء البصرة بعلماء أهـل الكوفة ، أو العكس ، بل نجدها بين علماء المدينة الواحدة أيضاً ، لأن الموضوع موضوع زعامة ورئاسة ، والتحاسد بين المتحاسدين لا ينحصر بقوم دون قـوم ، وقد يقع بين الاخوة الاشقاء .

الفصل الحادي والخمسون بعد المئة

العصبية والشعر

رأيت أن أهل الكوفة كانوا يفضلون بعض الشعراء الجاهليين على غيرهم ، وأن أهل البصرة كانوا يرجحون غيرهم عليهم ، فلا يرون التقدمة لمن اختارهم أهل الكوفة ، ورأيت أن أهل الحجاز يقدمون شعراء آخرين على الشعراء الذين قدمهم أهل الكوفة أو أهل البصرة .

وموضوع من هو أشعر شعراء أهل الجاهلية ، موضوع تضاربت فيه الآراء كثيراً ، وكثرت فيه الأقوال ، لما له من تماس بروح العصبية ، والعصبية اذا دخلت قضية أفسدتها . ثم انه قائم على أحكام الأذواق ، وأذواق الناس في الشعر وفي الذوق والتذوق متفاوتة متباينة ، ثم هو لا يستند الى أسس مقررة تعود الى أيام الجاهلية ، كنقد علمي ودراسة عامة شاملة قام بها الجاهليون في أيامهم ، وانما مرجعه أقوال قيل انها صدرت من خبراء الشعر وعلماؤه ، لا أدري مقدار ما فيها من صدق أو كذب . وكل ما أستطيع ان أقوله : انها آراء دونت في الاسلام ، وهي مرسلة ، محمولة على المبالغة في الاستحسان لقصيدة أو لقطعة أو لبيت ، بل ولنصف بيت أحياناً ، وهي تمثل استذواقاً شخصياً ، لحالة من الحالات ، لا لغالب شعر الشاعر وعامة ما روى عنه ، ولما فيه من فن وإبداع ، ثم انك تجدها أحياناً متناقضة متضاربة ، تجد رواية تقول إن الشاعر الفلاني ، أو عالم الشعر فلان قال : أشعر الناس فلاناً ، ثم تجد رواية ثانية تذكر انه قدم شاعراً آخر محله فجعله أشعر الشعراء ، ثم لا تلبث أن تجد رواية ثالثة ، تذكر

أنه اختار شاعراً غيرهما ، فجعله أشعر شعراء الجاهلية ، وأشعر الناس ، فتحتار في أمر هذا التناقض ، كيف وقع ، وكيف حدث والحاكم رجل واحد ؟ هل وقع هذا حقاً ، أو أنه كان من وضع المتعصبين للشعراء ، أرادوا تقديم شاعر لهم على سائر الشعراء ، فاحتاجوا الى حجة وسند واثبات ، لإثبات دعواهم ، وتأكيدها ، فاختلقوا قولاً نسبوه الى عالم معروف وصنع قوم غيرهم مثل ما صنعوا ، فاختلقوا قولاً نسبوه الى هذا العالم أيضاً ، فمن ثم تعددت الأقوال وتصادمت ، فليس للعلماء اذن يد في هذا التناقض أو أي ذنب ، وإنما الذنب هو ذنب المختلقين الذين دسوا دسهم على العلماء .

وقد لا يكون للإختلاق يد في ظهور هذا التناقض ، وإنما سببه ، أن شخصاً يُسأل عن شاعر ، فيخطر بباله خاطر عن شعره ، جعله يستعذبه أو يستعذب جزءاً منه ، يراه أنه أحسن ما قيل من نحوه ، فيرجحه على الجميع ، ويحكم من هذه الناحية على أنه أشعر الناس ، ثم يمضي وقت ، ينسى فيه ما قال ، فيسأله أشخاص : من أشعر الناس : فيتخطر خاطراً ، أو يحمله المجلس الذي كان يدور فيه الحديث إذ ذاك على خاطر ، يحمله على الحكم بتفوق شاعر آخر ، وهكذا ومن هنا كان سبب هذا التناقض والاختلاف في الرأي .

وقد كان من السهل وقوع مثل هذا التناقض ، لأن العلم كان بالمشافهة ، ولم يكن عن تدوين وقراءة كتب ، وكان بالذاكرة والتذكر ، وكان حكمهم بنصف البيت وبالبيت وبالقطعة وبالقصيدة ، أو بجملة قصائد ، لا بمراجعة شعر كل شاعر ، وبمقابلته بشعر الشعراء الآخرين ، واستنباط ما في مجموع شعر كل شاعر من مزايا ، للمقابلة بينها . ثم للحكم للمتفوق الأجود . فذلك أمر لم يكن من الممكن حدوثه : لعدم وجود التدوين عندهم ، ثم إنه لم يكن معروفاً عندهم . فلما وقع التدوين ، وأخذ علماء الشعر في التنقير في كل جهة بحثاً عن الشعر وما قيل فيه ، ظهر ذلك التناقض وبان ، ودوّن كل ما أمكن تدوينه ، بعد أن ضاع من الشعر ومن الآراء التي قيلت عنه ما ضاع ، وكانت الخلاصة هذا الواصل الينا .

وقد أشار أهل الأخبار الى ما كان للعصبية من أثرها في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض : عصبية قبلية ، وعصبية محلية ، وعصبية منافسة وتراكض على الزعامة . فالقبائل تقدم شعراءها على شعراء غيرها وتجعل في أيديهم ألوية الشعر ، وقيادة الشعراء في معارك القصيد ، وأهل العصبية الى عدنان ، يقدمون شعر (ربيعة) وأولهم

(المهلهل) على غيره،ويرون أنه مفتق الشعر ومهلهله ، وأول من قصد القصائد[1] ، وأهل اليمن يرون تقدمة الشعر لليمن ، يزعمون أنه بدأ في الجاهلية بامرىء القيس، وفي الإسلام بحسان بن ثابت ، وفي المولدين بالحسن بن هانىء ، وأصحابه : مسلم بن الوليد ، وأبي الشيص ، ودعبل ، وكلهم من اليمن ، وفي الطبقة التي تليهم بالطائيين : حبيب ، والبحتري ، ويختمون الشعر بأبي الطيب ، وهو خاتمة الشعراء لا محالة ، ويرجعون نسبه الى اليمن[2] .

قال (ابن رشيق) في (العمدة) : « والشعراء أكثر من أن يحاط بهم عدداً ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ، وسار شعرهم ، وكثر ذكرهم ، حتى غلبوا على سائر من كان في أزمانهم،ولكل أحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقل ما يجتمع على واحد ، إلا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في امرىء القيس أنه أشعر الشعراء ... »[3] .

وكان علماء البصرة يقدمون امرأ القيس ، أما أهل الكوفة فكانوا يقدمون الأعشى ، وأما أهل الحجاز والبادية ، فقدموا زهيراً والنابغة . وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً . وهذا ما أتت به الرواية عن (يونس بن حبيب) النحوي[4] .

ولكنك إذا تتبعت وأحصيت ما قيل على ألسنة أهل البصرة أو الكوفة أو الحجاز من أقوال ، ترى تناقضاً بين هذه الرواية وبين ما حصلت عليه من دراسة تلك الأقوال . تناقضاً ينبئك أن هذا المروي ، هو وجهات نظر وآراء أشخاص ، ولا يمثل إجماع أهل الكوفة ، أو اجماع أهل البصرة ولا اجماع أهل الحجاز ، أو اجماع أهل البادية ، ثم هو كله آراء وردت في الإسلام ، وان حاولت إرجاع أصلها الى الجاهلية .

ويذكر من يقدم (امرأ القيس) على غيره ، أن الرسول ذكره يوماً ، فقال: « ذلك رجل مذكور في الدنيا ، منسي في الآخرة ، يجيء يوم القيامة وبيده

---

١ العمدة (١/٨٦ وما بعدها) ، (باب تنقل الشعر في القبائل) .
٢ راجع رأي علماء الشعر في أصل نسب المتنبي ، العمدة (١/٨٩ وما بعدها) .
٣ العمدة (١/٩٤) ، المزهر (٢/٤٧٨) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٦) ، العمدة (١/٩٨) ، المزهر (٢/٤٨٢) .

لواء الشعراء يقودهم الى النار »[1] . أو أنه قال : « إنه أشعر الشعراء، وقائدهم الى النار . يعني شعراء الجاهلية والمشركين »[2] .

وروي أن (عمر بن الخطاب) كان يفضل (امرأ القيس) على غيره ، ذكر أنه قال للعباس بن عبد المطلب ، « وقد سأله عن الشعراء : امرؤ القيس سابقهم : خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معانٍ عور أصح بصر »[3] . « يريد أنه أول من فتق صناعة الشعر وفنن معانيها واحتذى الشعر على مثاله »[4]. وذكر أن (علي بن أبي طالب) كان يرى له التقدم على غيره ، وذلك بقوله: « رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة »[5] . فأنت ترى أن الرسول وعمر وعليّ ، قدّموا (امرأ القيس) على غيره ، وهم من أهل الحجاز . ولكننا نجد في الوقت نفسه رواية تذكر أن (ابن عباس) « قال : قال لي عمر : أنشدني لأشعر شعرائكم . قلت من هو يا أمير المؤمنين؟ قال : زهير ، قلت : ولِمَ كان ذلك ؟ قال : كان لا يعاضل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه »[6]. فهو يفضل في هذه الرواية زهيراً على غيره ، بما فيهم امرىء القيس ، إذ لم يشر اليه باستثناء .

ثم نجد رواية أخرى تذكر أن (عمر بن الخطاب قال : أي شعرائكم يقول:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

قالوا : النابغة . قال هو : أشعرهم »[7] . « وكان أبو بكر رضي الله عنه، يقدم النابغة ، ويقول : هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[8]. فأبو بكر وعمر في هذا الموقف سواء ، فضلا النابغة على سائر الشعراء .

---

١ بلوغ الارب (٩٣/٣) ، المزهر (٤٧٨/٢) .
٢ العمدة (٩٤/١) .
٣ العمدة (٩٤/١) ، الفائق (٣٤٣/١) .
٤ تاج العروس (٤٧٥/٣) ، (فقر) .
٥ العمدة (٤١/١ وما بعدها ، ٩٤) ، تاج العروس (٤١٢/٧) ، (ضلل) .
٦ طبقات ابن سلام (١٨) ، العمدة (٩٨/١) ، الفائق (١٦٥/٢) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) .
٧ ابن سلام ، طبقات (١٧) ، السيوطي ، شرح شواهد (٧٩/١ وما بعدها) .
٨ العمدة (٩٥/١) .

ولو استعرضنا رأي الشعراء في أشعر الشعراء ، وجدناه غير متفق ، فقد يفضل شاعر شاعراً ، وقد يخالفه فيه شاعر آخر ، وقد ينسب لشاعر رأي ، ثم ينسب له رأي مخالف . سئل (لبيد) : « من أشعر الناس ؟ قال : الملك الضليل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشاب القتيل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل — يعني نفسه »[1] . و « روى الجمحي أن سائلاً سأل الفرزدق : من أشعر الناس ؟ قال : ذو القروح ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وقاهم جـدهم ببني أبيهم   وبالأشقين ما كان العقابُ

وأما دعبل فقدمه بقوله في وصف عقاب :

ويلُمّها من هواء الجوّ طالبةً   ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

وهذا عنده أشعر بيت قالته العرب »[2] .

وقد سئل الفرزدق مرة : « من أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبي حازم ؛ قيل له : بماذا ؟ قال : بقوله :

ثوى في ملحدٍ لا بُدَّ منه   كفى بالموت نأياً واغترابا

ثم سئل جرير ، فقال : بشر بن أبي خازم ، قال : بماذا ؟ قال: بقوله:

رهين بلى ، وكل فتى سيبلى   فَشُقّي الجيب وانتحبي انتحابا

فاتفقا على بشر بن أبي خازم كما ترى »[3] . وقد رأيت أن الفرزدق كان قد سئل السؤال نفسه : من أشعر الناس ؟ فأجاب : ذو القروح ، أي امرىء القيس . بسبب بيت فوّقه به على غيره من الشعراء . بينما هو يقدم (بشر بن أبي خازم في هذه الرواية . وينسب أهل الأخبار لجرير رواية أخرى تزعم أنه سئل من أشعر الناس ، فقال : النابغة[4] . فخالفت هذه الرواية ما جاء في الرواية الأخرى .

---

١ العمدة (١/٩٥) ، المزهر (٢/٤٧٩) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) .
٢ العمدة (١/٩٥) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) ، المزهر (٢/٤٨١) .
٣ العمدة (١/٩٦) .
٤ العمدة (١/٩٧) .

« وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء في الجاهلية وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس،وأضربهم مثلاً طرفة . وأما شعراء الوقت ، فالفرزدق أفخرهم ، وجرير أهجاهم ، والأخطل أوصفهم »[1] . « وفضل النقاد العرب طرفة على سائر الشعراء بإجادته وصف الناقة في معلقته على نحو لم يسبق اليه ، ويميل بعضهم الى عده أشعر شعراء الجاهلية »[2] .

« وقيل لكثير أو لنصيب : من أشعر العرب ؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب »[3] . فهو رأي قدم الشعراء المذكورين على غيرهم في حالات معينة ، ولم يقدم (امرأ القيس) على غيره بصورة مطلقة . و « زعم ابن أبي الخطاب أن أبا عمرو كان يقول: أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس ، والنابغة ، وطرفة ، ومهلهل »[4] .

« وقالت طائفة من المتعقبين : الشعراء ثلاثة : جاهلي : واسلامي ، ومولد؛ فالجاهلي امرؤ القيس ، والاسلامي ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز . وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر »[5] .

وحجة من قدم أمرأ القيس على غيره « ان امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق الى أشياء فاستحسنها الشعراء ، واتبعوه فيها ، لأنه أول من لطّف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيد ، وقرّب مأخذ الكلام ، فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه »[6] ، « وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[7] .

---

١ العمدة (١/٩٦) ، المزهر (٢/٤٨١) ·
٢ بروكلمن (١/٩٢) ·
٣ العمدة (١/٩٥) ·
٤ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) ·
٥ العمدة (١/١٠٠) ·
٦ الشعر والشعراء (١/٤٧٨ وما بعدها) ، العمدة (١/٩٤) ، ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) ، الرواية ترجع الى « يونس » وقد دونها « ابن سلام » و « ابن قتيبة » المتوفى بعده (٢٧٦ هـ) ، مع شيء يسير من الاختلاف في النص ·
٧ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) ·

ووجد (زهير) له أنصاراً وأعواناً ، من المعجبين بـه في الاسلام بالطبع ، قدّموه على غيره من شعراء الجاهلية . وقد سبق أن أشرت الى رواية زعمت أن (عمر) فضله عـلى غيره من شعراء أهل الجاهلية [1] . وذكر أن (عكرمة بن جرير) سأل أباه جريراً : من أشعر النـاس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألني أم الإسلام ؟ قـال : ما أردت إلا الإسلام ؟ فإذا ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم » [2] . وزعم أن (ابن عباس) سأل (الحطيئة) عن أشعر الناس ، فقال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروفَ من دون عرضه   يفره ومن لا يتـق الشتم يشتم

وليس الذي يقول :

ولستَ بمستبق أخـاً لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب ؟

بدونه ، ولكن الضراعة أفسدته ، كما أفسدت جرولاً ، والله لـولا الجشع لكنت أشعر الماضين ، وأما الباقون فلا شك اني أشعرهم . قال ابن عبّـاس : كذلك أنت يا أبا مليكـة » [3] . وقائل البيت الأول زهير ، وقائل البيت الثاني هو النابغة .

ولكنّا نقرأ في رواية أخرى ما يخالف هذا الرأي ، تقرأ فيها أن سائلاً سأل الحطيئة عن أشعر الناس ، فقال أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعُدّ الإقتار عُدماً ، ولكن   فَقَدُ من قـد رزئته الإعدام

وهو رأي لم يقبل به أحد من النقاد [4] . وجعل بعده (عبيداً) [5] .

ورجح بعضهم (الأعشى) على غيره ، رجحه الشاعر (الأخطل) مثلاً ، فزعم أنه قال : « الأعشى أشعر الناس » [6] . وكان خلف الأحمر يقول : الأعشى

---

١ العمدة (١/٩٨) .
٢ العمدة (١/٩٦) .
٣ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) .
٤ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) .
٥ الشعر والشعراء (١/٢٤٢) ، (دار الثقافة ، بيروت) .
٦ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) .

أجمعهم . وقال أبو عمرو بن العلاء مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره، وكان أبو الخطاب الأخفش يقدمه جداً ، لا يقدمُ عليه أحداً »[1] . « وقال بعض متقدمي العلماء : الأعشى أشعر الأربعة »[2] ، والأربعة ، هم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، أو زهير ، والنابغة ، والأعشى ، وعنترة[3] . « حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا كلب . وزاد قوم : وجرير إذا غضب » ، « وقيل لكثير ، أو لنصيب ، من أشعر العرب؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب، وزهير اذا رغب ، والنابغة إذا رهب،والأعشى إذا شرب »[4] .

وحجة من قدم (الأعشى) ، أنه كان « أكثرهم عروضاً وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحاً وهجاء ونظراً وصفة كل ذلك عنده »[5] .

ووجد (النابغة) من فضله على غيره من شعراء الجاهلية ، وفيهم الخليفة (أبو بكر) الذي كان يقول عنه « هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[6] و (عمر)[7] والشاعر (جرير)[8] ، وحجة من قدم النابغة على غيره أنه : « كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، ومدحاً ، وهجاء،وفخراً ، وصفة »[9] ، « وأجزلهم بيتاً . كان شعره كلام ليس فيه تكلف »[10] .

وزعم أن (الكميت) كان يقول : (عمرو بن كلثوم أشعر النـاس) ،

---

١ العمدة (١/٩٥) .
٢ العمدة (١/٩٩) .
٣ العمدة (١/٩٥) .
٤ العمدة (١/٩٥) .
٥ ابن سلام ، طبقات (١/١٨) .
٦ العمدة (١/٩٥) .
٧ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٨ « وقال جرير : النابغة أشعر الناس » ، المزهر (٢/٤٨١) .
٩ العمدة (١/٩٩) .
١٠ ابن سلام ، طبقات (١٧) .

وأن الشاعر (ذو الرمة) فضل (لبيداً) على كل الشعراء[1] .

و « كان ابن أبي اسحاق ، وهو عالم ، ناقد ، ومتقدم مشهور ، يقول : « أشعر الجاهلية مُرَقّش » ، وسأل عبد الملك بن مروان الأخطل : من أشعر الناس ؟ فقال : العبد العَجْلاني ، يعني تميم بن أبيّ بن مقبل »[2] ، وهو من المخضرمين[3] ، « وقيل لنصيب مرة : من أشعر العرب ؟ فقال : أخو تميم ، يعني علقمة بن عبدة ، وقيل أوس بن حجر ، وليس لأحد من الشعراء بعد امرىء القيس ، ما لزهير والنابغة ، والأعشى في النفوس »[4] .

وذكر (ابن سلام) أن (أبا عمرو بن العلاء) كان يرى أن (خداش ابن زهير) « أشعر في قريحة الشعر من لبيد ، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد . وكان يهجو قريشاً »[5] . ولعل هذا الهجاء هو الذي جعل الناس يأبون تقديمه في الشعر .

وروي عن (الأصمعي) ، أن (أبا عمرو بن العلاء) كان يقول : « كان أوس بن حجر فحل العرب ، فلما أنشأ النابغة طأطأ منه) ، وذكر عنه أيضاً ، وقد سُئل عن النابغة وزهير ، أنه قال : « ما كان زهير يصلح أن يكون أخيذاً للنابغة ، يعني راوياً عنه » . وروي أن أهل البصرة أجمعوا على امرىء القيس وطرفة بن العبد ، وأجمع أهل الكوفة على بشر بن أبي خازم والأعشى الهمداني ، وأجمع أهل الحجاز على النابغة وزهير[6] .

وليونس النحوي رأي في أشعر الشعراء ، قيل إنه سئل « عن أشعر الناس فقال : لا أومىء الى رجل بعينه ، ولكني أقول : امرؤ القيس إذا غضب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا غضب »[7] . فربط الشاعرية بحالة من الحالات النفسية . وورد التفضيل على هذا النحو : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ،

---

١ المزهر (٢/٤٨١) .
٢ العمدة (١/٩٧) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣٦٦) .
٤ العمدة (١/٩٧ وما بعدها) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٣٢ وما بعدها) .
٦ السيوطي ، شرح شواهد (١/٨٠) .
٧ ياقوت ، ارشاد (٧/٣١٠) .

وزهير إذا رغب ، والنابغه إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . وكان زهير أجمع الناس للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ ،وأحسنهم تصرفاً في المدح والحكمة»[1].

ترى مما تقدم أن موضوع من كان أشعر شعراء الجاهلية موضوع حساس ، لما كان للعصبية وللذوق الشخصي دخل فيـــه ، ثم إنهم لم يكونوا يحكمون من دراسة الكلّ ، أي بدراسة كـــل ما ينسب الى الشاعر من شعر ، وانما كانوا ربما حكموا عـــلى الشاعر ببيت أو ببيتين ، وحكم مثل هذا لا يمكن أن يتخذ حكماً علمياً ، أضف الى ذلك أنهم لم يميزوا بين ما نسب الى الشاعر من شعر ، وبين ما صح له من شعر ، ولا يكون الحكم في مثل هذه الأمور حكماً علميـــاً، إلا بدراسة عميقة لشعر كل شعر ، بعد تمييز صحيحه من فاسده ، ثم مطابقتـــه ومقابلته بشعر الشعراء الآخرين . الى أمور أخرى من هذا القبيل ، يطرقها نقاد الشعر والأدب ، بمقاييس ثابتة ، أما مقاييس تلك الأيام فقد اختلفت، وخضعت للعواطف والأهـــواء ، و (السيوطي) على حق حين يقول في هذا الموضوع : « وهذا يدلك على اختلاف الأهواء وقلة الاتفاق »[2] .

وقد يعمـــد علماء الشعر الى بيت من شعر ، فيجعلونه أحسن بيت قيـــل في الجاهلية ، أو عند العرب ، فقد قالوا : ان الاتفاق قد وقع على أن أمدح بيت للجاهلية ، هو قول زهير :

تراه إذا مـــا جئته مُتهلـــلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله[3]

ولكنهم قـــالوا ان الشاعر (دعبل) قال : إن أمدح بيت قالته العرب في الجاهلية قول أبـي الطمحان القيني :

وإن بني أوس بن لأم أرومة علت فوق صعب لا ترام مراقبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه[4]

---

١ بلوغ الارب (٩٨/٣) .
٢ المزهر (٤٨٢/٢) .
٣ بلوغ الارب (٩٩/٣) .
٤ بلوغ الارب (١٢٨/٣) .

وروي عن الأصمعي قوله إن بيت (أبي ذؤيب) الهذلي :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تردّ الى قليل تقنع

هو أبرع بيت قالته العرب[1] .

وقد كان (بشار بن برد) حذراً حين سئل : أخبرنا عن أجود بيت قالته العرب ؟ فقال : إن تفضيل بيت واحد على الشعر كله لشديدٌ ، ولكن قد أحسن كل الإحسان لبيد في قوله :

وأكذب النفسَ إذا حدّثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل
وإذا رمت رحيلاً فارتحل وأعصى من يأمر توصيم الكسل[2]

وقد ذهب علماء الشعر الى أن أشعر أهل المدر ، أهل يثرب ، ثم عبد القيس ثم ثقيف ؛ وأن أشعر ثقيف (أمية بن أبي الصلت) . أما أشعر أهل يثرب، فهو حسان بن ثابت في نظر كثير من رواة الشعر . وورد في بعض الأخبار أنه أشعر أهل المدر[3] .

نقد الشعر :

وذكر أن الشعراء الجاهليين ، كانوا يراجعون شعر بعضهم بعضاً ، وينقدونه لما كان بينهم من تسابق على نيل الشهرة والاسم ، أو لما كانوا يجدونه في شعر الشاعر من هنة أو غفلة أو هفوة ، كالذي ذكروه من أمر الشاعر (المتلمس) ، ذكر أن (طرفة بن العبد) ، سمع قوله :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

وكان إذ ذاك صبياً ، فقال : استنوق الجمل فصار مثلاً[4] .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٤٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٣١) .
٣ الاغاني (٣/١٨٠) ، (٤/٣) ، العمدة (١/٨٩) ، (باب تنقل الشعر في القبائل) .
٤ الشعر والشعراء (١/١١٥)، ونسب هذا البيت خطأ الى المسيب بن علس ، الموشح (٧٦) ، الاغاني (٢٣/٥٥٩) .

أو أنهم كانوا ينقدونه عند التحكيم . ليقتنع الشعراء بصحة حكم الحكم، كالذي كان من أمر (النابغــة) في سوق عكاظ ، وكالذي روي من تنازع (امرؤ القيس) مع (علقمة) الفحل على الشعر ، وقول كل واحد منهما لصاحبــه : « أنا أشعر منك » ، ومن قبولهما بتحكيم (أم جندب) ، زوج (امرىء القيس) بينهما . وقبول (أم جندب) الحكم بينهما . فذكر أنها قالت لهما : « قولا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحـدة ، فأنشداها ، ثم حكمت بترجيح شعر علقمة على شعر زوجها ، وأظهرت لهما العوامل التي حملتها على هذا الترجيح ، فغضب امرؤ القيس عليها وطلقها ، فخلف عليها (علقمة)[1]. وهي قصة من هذا القصص الموضوع على (امرىء القيس) .

ويقتضي ذلك أن الشعراء كانوا يحفظون شعر غيرهم ، فقـد كان منهم من إذا قابل شاعراً ، وجادله في شعره ، أنشده شعره ، وبين له ما يراه فيه من عيوب . وقد رأيت كيف زعموا أن (النابغة) لما جاء (يثرب) ، أراد أهلها أن يظهروا له ما في شعره من (إقواء) ، وهو من عيوب الشعر ، فأمروا قينة فغنت به ، وأبانت له موطن الإقواء ، فأحس به ، ويقـال له إنه تركه من يومئذ .

أما استحسان العلماء لشعر شاعر ، أو تخبيثه أو تسخيفه ونقده ، فقـد خضع عندهم لعوامل عديدة،قامت في بادىء أمرها على الذوق والمزاج ، فهذا يستحسن شعراً لورود بيت فيه استحسنه واستعذبه على حين يرى آخر أنه لا يساوي شيئاً ، وليس فيه ما يدعو الى المدح والثناء عليه ، ثم على العروض ، فنرى العسكري يعترض على اختيار الأصمعي لميمية المرقش ، وقد سبق لابن قتيبة أن اعترض على اختيار الأصمعي القصيدة أيضاً ، وقال الآمدي انه ليس بحاجـة الى ذكر العيوب العروضية فيها لكثرتها[2]،ثم على النحو والبيان والبديع وغير ذلك من علوم الصناعة التي وضعت في الاسلام ، وقد كان عليهم ملاحظة أن هذه العلوم إنمـا وضعت أو ثبتت في الإسلام ، وان الذوق الجاهلي يختلف عن الـذوق الإسلامي ، وان

---

١ الشعر والشعراء (١/١٤٦ وما بعدها) ، (علقمة بن عبدة) ، الاغاني (٢١/٢٢٥ وما بعدها) ، الموازنة (١/٣٧) .

٢ الصناعتين (٤) ، غرونباوم (١١٢) .

(الخليل) لم يجمع كل بحور الشعر الجاهلي ، بل طرح بعض الأوزان المزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها[1] ، ولعله لم يتمكن من الوقوف على أوزان أخرى ، لأنها لم تكن مألوفة بين عرب العراق ، أو لأنها صيغت بلهجات قبائل لم يرتح من شعرها ، لأنه من الشعر القبلي الخاص .

وفضل العلماء الشعر الذي يكون فيه البيت تاماً مستغنياً بمعناه عن غيره ، وقالوا لذلك : البيت المقلد . لأنه قائم بذاته غني عن غيره ، يضرب به المثل[2] . ولهذا رأوا في القصيدة الجيدة ، أن تكون أبياتها مقلدة ، إذا قدمت بيتاً منها على بيت أو أبيات ، أو اذا أخرت بيتاً منها ، أو حذفت بيتاً منها أو أكثر ، فإنها لا تتأثر بهذا التغيير والتبديل . ولعل لهذا الرأي صلة بقولهم : « ومقلدات الشعر وقلائده البواقي على الدهر »[3] .

وقد أورد (الجاحظ) رأياً في القصيدة لخلف الأحمر ، فقال : « أما قول خلف الأحمر :

وبعض قريض القوم أولاد علة

فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكرهاً ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلاّت . وإذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرضياً موافقاً ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة .

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، وسُبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان »[4] .

وقد رأينا أمثلة كثيرة في استحسان شعر شاعر ، أو في المفاضلة بين شعر الشعراء ، والموازنة بينهم ، وقد بنيت على أبيات ، أعجبت الناقد المفاضل ،

---

١ غرونباوم (١٣٥) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٢٧ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، الجرجاني ، الوساطة (٣٣) .
٣ تاج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلد) .
٤ البيان والتبيين (٦٦ وما بعدها) .

ففضل شاعره الذي جعله أشعر الشعراء على غيره ، ثم رأيناه نفسه ، لكن في موقف آخر يفضل غيره عليه ، بسبب بيت أو أبيات أعجبه أو أعجبته . وقد تبدلت هذه النظرة في أيام العباسيين، فنجد لابن سلام مقاييس جديدة في النقد، وفي وضع الشعراء وتصنيفهم الى طبقات . ونجد لابن قتيبة رأياً في النقد يستند على آراء من تقدم عليه وعلى ملاحظاته الشخصية في النقد والموازنة بين الشعراء ، وقد يخالف غيره على رأيه. خذ ما قاله من نقد مرير في (الاصمعي) حيث يقول: « ومن هذا الضرب أيضاً قول المرقش :

هل بالديار أن تجيب صمَمْ لو أن حيـاً ناطقاً كلّمْ
يأبى الشباب الأقـورين ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

والعجب عندي من الأصمعي ، إذ أدخله في متخيره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسن الروي ، ولا متخير اللفظ ، ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

النشر مسكٌ والوجـوه دنا نير وأطراف الأكف عنم »[1]

ويذكر أهل الأخبار أن من الشعراء من كان يستحسن بيت شاعر ، فيسطو عليه . ونجد (ابن قتيبة) يذكر في كتابه (الشعر والشعراء) ما أخذه الشعراء بعضهم من بعض ، فذكر مثلاً أن (طرفة) ، و (النابغة) الجعدي، والشماخ ، و (أوس بن حجر) ، و (النجـاشي) ، وزهير ، والمسيب ، وزيد الخيل أخذوا من شعر (امرىء القيس) ، فنظموه في شعرهم[2] . وإذا صح ذلك ، كان معناه أن أولئك الشعراء كانوا قد حفظوا شعر (امرىء القيس) ، وأنهم كانوا يحفظون أشعار غيرهم من الشعراء المتقدمين عليهم أو المعاصرين لهم،وبذلك سطوا على ذلك الشعر أو على معناه .

غير أننا لو درسنا الأمثلة التي ذكرها (ابن قتيبة) وغيره على أنها من سرقات الشعر ، نرى أن أكثرها لا يمكن أن يعد سرقة ، لأن للسرقة الشعرية علامات

---

١ الشعر والشعراء (١/١٨ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٨ وما بعدها) .

ولا نكاد نلمس من هذه العلامات شيئاً في الشعر المتهم بأنه شعر مسروق . وإنما نجده من قبيل توارد الخاطر لا غير ، أسرع نقاد الشعر ، فجعلوه سطواً وسرقة .

ونحن لا نعلم من أمر نقد الشعر عند الجاهليين إلا ما جاء في الموارد الاسلامية وهو شيء قليل ، وهو شيء لا ندري أيضاً مكانه من الصحة ، وكل ما لدينا من تقسيم للشعراء الى طبقات ومن تفضيل شاعر على شاعر ، ومن تفضيل شعر على شعر هو مما عمل في الاسلام،صنع وفق قواعد نقد دوّنها العلماء . وقد ظهرت بواكير النقد العلمي للشعر الجاهلي عند علماء اللغة والنحو والعروض ، ثم تولاها علماء راعوا أصول البيان والبلاغة والبديع في نقد الشعر ، ولما كان هذا النقد لا يخص موضوعنا بالذات ، وقد كتب عنه المتخصصون ، فأنا أترك أمره اليهم، وقد وضعت فيه مؤلفات حديثة ، وضعها عرب ومستشرقون .

أشعر الناس حياً :

ويروي أهل الأخبار أن أشعر الناس حيّاً هذيل . وقيل : « أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السروات ، وهن ثلاث . وهي : الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ؛ فأولها هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة في السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة ، وهم : بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الأزد . وقيل : أفصح الناس : عليا تميم وسفلى قيس ، وقيل:سافلة العالية وعالية السافلة ، يعني : عجز هوازن. وأهل العالية : أهل المدينة ومن حولها ومن يليها ودنا منها ، ولغتهم ليست بتلك عند (أبي زيد)[1] .

ويلاحظ أن هنالك قبائل كثيرة لم يروِ علماء الشعر لها شعراً ، أو أنهم رووا شعراً قليلاً لها ، بينها قبائل كبيرة معروفة ، كان لها تقدم ونفوذ ، مثل : (الغساسنة) و (تنوخ) و (لخم) و (بهراء) ، و (كلب) ، ولا يعقل أن يكون الله قد حرم هذه القبائل من قول الشعر ، فلم ينبت في أرضها شاعر ، ولم يقم بينها من جارى القبائل الأخرى في قول الشعر ، وهم عرب مثل غيرهم،

---

١ العمدة (١/٨٨ وما بعدها) .

لهم حس وشعور ، فلا يعقل عدم ظهور شعراء بينهم ، ويظهر أن سبب اهمال رواة الشعر لشعر هذه القبائل هو اعتبارهم هذه القبائل دون القبائل الأخرى في اللغة والفصاحة ، لأنهم كانوا على اتصال بالحضر ، فلم يسائلوهم ، ولم يقيموا لشعرهم وزناً ، ولهذا لم يصل منه الينا شيء ، أو إلا القليل منه ، فظهرت تلك القبائل في جملة القبائل المقلة في الشعر .

وقد روي لبعض الشعراء شعر كثير ، فيه قصائد طويلة ، وصل لنا في دواوين ، أو في كتب الشعر والأدب ، فوقفنا بذلك على شعرهم . وهناك شعراء اشتهر أمرهم وعرف ذكرهم ، إلا أن معظم شعرهم قد ذهب معهم ، فلم يبق منه إلا القليل ، بحيث لا يتناسب هذا الباقي منه مع الشهرة التي أحاطت بهم . وقد عرف هؤلاء بالشعراء المقلين[1] .

ومن المقلين في الشعر : طرفة بن العبد،وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل، وعدي بن زيد ، وطرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء . وهي المعلقة :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

وله سواها يسير.ومن المقلين المحكمين سلامة بن جندل ، وحصين بن الحُمام المري ، والمتلمس ، والمسيب بن علس، ومنهم عنترة ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن معدي كرب ، والأسعر بن أبي حمران الجعفي ، وسويد بن أبي كاهل ، والأسود بن يعفر[2] .

الشعر والاسلام:

ورد في الحديث : لأن يمتلىء جوف الرجل قيحاً يَريه ، خير من أن يمتلىء شعراً » ، وورد أن رسول الله بينا كان بالعرج ، إذ عرض شاعر ينشد . فقال رسول الله : خذوا الشيطان ، أو امسكوا الشيطان لأن يمتلىء جوف الرجل قيحاً، خير له من أن يمتلىء شعراً »[3] . وفي القرآن : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له

---

١ المزهر (٤٨٥/٢) ، (المقلون من الشعراء) .
٢ العمدة (١٠٢/١ وما بعدها) .
٣ صحيح مسلم (٥٠/٧) ، (كتاب الشعر) ، زاد المسلم (٣٥٠/١ وما بعدها) ، كتاب خلق الانسان (٢٧٥ وما بعدها) ، (لابن أبي ثابت) .

إن هو إلا ذكر وقرآن مبين »[1] ، و « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون »[2] ، و « يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »[3] ، و « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون »[4] ، و « ما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون »[5] ، و « الشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللهَ كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »[6] .

وورد عن (عائشة) قولها ، وقد قيل لها : « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث اليه . غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل آخره أوله ، وأوله آخره . فقال له أبو بكر : إنه ليس هكذا ! فقال نبي الله : إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي »[7] . وورد في تفسير : « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » . « بل قال بعضهم هو أهاويل رؤيا رآها في النوم . وقال بعضهم : هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه ، وقال بعضهم : بل محمد شاعر . وهذا الذي جاءكم به شعر »[8] . وورد في معنى : « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ، أن قريشاً قالوا : « أنترك عبادة آلهتنا لشاعر مجنون ... يعنون بذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم »[9] . وقالوا في معنى « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ، « قال ذلك قائلون من الناس : تربصوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعر بني فلان وشاعر بني فلان » ، و « قال قائل منهم احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى

---

١ سورة يس ، الرقم ٣٦ ، الآية ٦٩ .
٢ الانبياء ، الرقم ٢١ ، الآية ٥ .
٣ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية (٣٦) .
٤ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٠ .
٥ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الآية ٤١ .
٦ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٧ تفسير الطبري (١٩/٢٣) ، (بولاق) ، صحيح مسلم (٤٨/٧ وما بعدها) .
٨ تفسير الطبري (٣/١٧) .
٩ تفسير الطبري (٣٣/٢٣) .

يهلك كما هلك من قبله الشعراء زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم »[1] . وفسر قوله تعالى : « ومـا هو بقول شاعر » ، بـ « ما هذا القرآن بقول شاعر ، لأن محمداً لا يحسن قيل الشعر فتقولوا هو شعر »[2] ، وقولـه : « والشعراء يتبعهم الغاوون » ، « الغاوون الرواة » ، وذكر أنهم في كل لغـو يخوضون ، وان الله استثنى منهم شعراء المؤمنين[3] .

وقد كره ناس الشعر لما ورد عنه في القرآن الكريم وفي الحديث ، وامتنع بعض الشعراء من قوله كالذي ذكروه من ترك لبيد الشعر بعد دخوله في الإسلام ، ومن قوله للخليفة (عمر) أو لعامله على الكوفة ، وقد سأله عما قالـه من الشعر في الإسلام : « ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران »[4] . وأهمل بعض الصحابة رواية الشعر ، لما فيها من تذكير بأمر الجاهليـة وبأيامها ، وأقبل آخرون عـلى القرآن يحفظونه بدلاً من الشعر الجاهلي ، ورأى آخرون أن في حفظه وفي انشاده إثارة لنعرة الجاهليـة بعد أن حرمها الله ، كراهية وقوع الفتنة ، وحدوث القتال كالذي كان يقع في الجاهلية ، لا سيما ما يتعلق منه بالمدح وبالهجاء وبالأيام ، ولهـذا قال (عمر) لحسان بن ثابت يوم مرّ به وهو ينشد الشعر بمسجد رسول الله : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير عليّ ذلك ، فقال عمر : صدقت »[5] .

فهذا الشعر المفرق المسبب للفتن أو الثالب للأعراض ، هو الشعر الـذي كره الناس روايته أو نظمه ، ولهذا كان (عمر) يحاسب الهجائين، فلما هجا (الحطيئة) (الزبرقان بن بدر) ، وشكاه (الزبرقان) عليه ، حكّم (عمر) (حسان بن ثابت) فيه ، فحكم عليه أنه « لم يهجه ، ولكن سلح عليه » ، فهو أشد إيلاماً من الهجاء ، فحبسه (عمر) ، وقال: « يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين »[6] ،

---

١ تفسير الطبري (٢٧/٢٩) .
٢ تفسير الطبري (٢٩/٤٢) .
٣ تفسير الطبري (١٩/٧٩ وما بعدها) ، الصاحبي (٢٧٣ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٩٥ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٥ العمدة (١/٢٨) .
٦ الشعر والشعراء (١/٢٤٤) ، (الخطيئة) ، (قال : ذرق عليـه) ، ابن سلام طبقات (٢٥) .

ولما هجا (النجاشي) (بني العجلان) ، فشكوه الى (عمر) ، حكم (عمر) (حسّان بن ثابت) ، و (الحطيئة) في أمر هذا الهجاء ، فلما حكما بأنه هجاهم ، قال له (عمر) : « إن عدت قطعت لسانك »[1] . وروي أن رجلاً مرّ بباب رجل ، وقد كان فتمثل :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

فاستعدى رب البيت عليه (عمر) ، فأمر به (عمر) فحد[2] .

وذكر أن النبي قال : « من قال في الاسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر »[3] . وأنه لما بلغه هجاء الأعشى (علقمة بن علاثة العامري)، نهى أصحابه أن يرووا هجاءه[4] . وروي أن المنع عن رواية الشعر ، كان خاصاً بالشعر الذي هجي به النبي[5] .

ولما هجا (ضابىء بن الحارث) وكان رجلاً بذياً كثير الشر ، وكان بالمدينة صاحب صيد وصاحب خيل ، قوماً من (بني نهشل) استعدوا عليه (عثمان) فحبسه[6] . فكان حبسه لهجائه لا لشعره .

ومع ذلك ، فقد تهاجى الشعراء في أيام الأمويين وتنازعوا فيما بينهم، وتطاول بعضهم على بعض ، وجرأت السياسة هذا الهجاء وأمدته بوقود يزيد في حدته حدة ، لعصبيات وسياسة ، وتجرأ البعض في هجاء الحكومة وفي هجاء المعارضين، وحرض (يزيد بن معاوية) الشاعر (الأخطل) على هجاء الأنصار ، وفي محيط مثل هذا المحيط ، انقسم الى أحزاب وفرق ، متخاصمة شديدة عنيفة في الخصومة ، لا بد وأن يجد الشعر فيه أرضاً طيبة ، ومنبتاً خصباً مساعداً. فكانت للشعراء حرية في النيل بعضهم من بعض ، واستفاد خلفاء بني أمية من ذلك ، بتحريض شعرائهم على عض خصومهم ، مما لا مجال للبحث عنه في هذا المكان .

---

١ الشعر والشعراء (٢٤٨/١) ، (النجاشي) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .
٣ العمدة (١٧٠/١) .
٤ الفائق (٦٦٤/١) .
٥ الفائق (٣٨٩/٢) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٤٠) .

وكان (عمر) قد نهى الشعراء عن ذكر النساء في أشعارهم ، لما في ذلك من الفضيحة ، وكان الشعراء يكنون عن النساء بالشجر وبالنخلة ، لئلا تشهر المرأة ، وخوفاً من أهلها وقرابتها[1] .

أما الشعر الآخر ، الذي لم يكن ينال الناس ، ولا يتذكر الأصنام والأوثان وأمور الجاهلية التي حرمها الإسلام ، فلم يتعرض له الإسلام بسوء ، بل كان الرسول نفسه يسمع الشعر ، ويطلب من الصحابة انشاده له ، وقد ورد أن الرسول سمع (عمرو بن كلثوم) ، وهو بعكاظ ينشد معلقته الشهيرة[2] ، وسمع شعر (أمية بن أبي الصلت) كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، واستمع الى شعر (قيس بن الخطيم) ، والى شعر شعراء آخرين ، وكان يستملحه ويستعذبه ، ولا سيما شعر الحكمة والإرشاد . « جاء النابغة الجعدي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه ، فأنشده :

وإنا لقوم ما نعوّد خيلنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا »

فلما أنشده قوله :

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له ... حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا
ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

قال رسول الله : « لا فض الله فاك »[3] .

ومن سيماء اهتمام الاسلام بأمر الشعر ، أن الشعر الجاهلي انما دون وثبت في أيامه . وأن الصحابة كانوا يحفظونه ويروونه ، وأن دواوينه ، إنما ظهرت في أيام الأمويين . فلم يحرم الاسلام الشعر ، ولم يظهر كرهه له ، وإنما كره الشعر الوثني الذي مجد الوثنية ، فطرح ولم يرو ، ولعل هذا هو السبب الذي جعلنا لا نقرأ في كتب الأدب والأخبار شعراً فيه إشادة بصنم ، أو بأمر من أمور

---

١ الخزانة (٢/١٩٣ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٩/١٧١ وما بعدها) ، (ساسي) ، (١١/٥٤) .
٣ رسائل الجاحظ (١/٣٦٣ وما بعدها) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .

الجاهلية المناهضة للإسلام . وقد روي عن النبي قوله : « إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمــة ، أو قال : حكماً »[1] ، وأنه أمر حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحه ، وكعب بن مالك بهجاء قريش . وأنه قال لحسان : اهجوا قريشاً ، فإنه أشد عليها من رشق النبل[2] .

وقد اعتذر العلماء عن سبب نفي الشعر عن الرسول ، بأن الشاعر ، لا يكاد يكون إلا مادحاً ضارعاً ، أو هاجياً ذا قذع ، وهذه أوصاف لا تصلح للنبي ، ثم إن فيه إيقاعاً، والايقاع ضرب من الملاهي ، ومن هنا لم يصلح الشعر للرسول[3] . وقد بحث (القرطبي) في موضوع نفي الشعر عــن الرسول ، فرجع ذلك الى أربع مسائل : الأولى أنه كان لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط ، وذلك رداً لقول من قال من الكفار انه شاعر ، وإن القرآن شعر . وقد كان ربمــا أنشد البيت المستقيم في النادر[4] .

الثانية : اصابته الوزن أحياناً لا يوجب انه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن ، كقوله يوم حنين وغيره :

هل أنتِ إلا إصبعٌ دميت وفي سبيــل الله مــا لقيتِ

وقوله :

أنا النبي لا كــذب أنا ابن عبد المطلب

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن ، وفي كــل كلام ، وليس ذلك شعر ولا في معناه ، كقوله تعالى : « لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون »،وقوله: « نصر من الله وفتح قريب » ، وقوله : « وجفان كالجواب وقدور راسات» الى غير ذلك من الآيات[5] .

---

١ الصاحبي (٢٧٤) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٨٥٢) .
٣ المزهر (٢/٤٦٩ وما بعدها) .
٤ تفسير القرطبي (١٥/٥١ وما بعدها) .
٥ تفسير القرطبي (١٥/٥٢ وما بعدها) .

الثالثة : إن ما روي من عدم قوله الشعر ، لا يعني عيب الشعر ، وإنما لنفي الظنة عنه من أنه كان يقول الشعر .

الرابعة : ان قوله تعالى : « وما ينبغي له » ، يعني نفي الشعر عنه ، لئلا يظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر[1]

فالرسول لم يكره الشعر لكونه شعراً ، ولم يعبه أو نهى عن قوله ، وإنما كان النهي خاصاً به . قال « الخليل بن أحمد : كان الشعر أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأتى له »[2] .

---

١ المصدر نفسه (١٥/٥٤ وما بعدها) .
٢ كذلك (١٥/٥٢) .

الفصل الثاني والخمسون بعد المئة

تدوين الشعر الجاهلي

ليس في الشعر الجاهلي بيت واحد يستطاع أن يثبت انه كان مدوناً في الجاهلية وان رواة الشعر وحفظته وجدوه مكتوباً بأبجدية جاهلية ، فنقلوه عنها . ولم يتجاسر على ما أعلم أحد من رواة الشعر أو حافظ من حفّاظه على الادعاء بأنه نقل ما عنده من شعر جاهلي من ديوان جاهلي ، أو من قراطيس جاهلية ، أو من مادة مكتوبة أخرى تعود أيامها الى الجاهلية . فكل ما وصل الينا من هذه البضاعة ، انما هو من عهد الكتابة والتدوين ، وعهد التدوين لم يبدأ إلا في الاسلام ، وأول تدوين للشعر ، انما كان في عهد الأمين .

وعدم وصول شعر جاهلي الينا مدون في أيام الجاهلية ، أو منقول عن مكتوبات جاهلية ، ثم عدم ادعاء أحد من قدماء الرواة انه قد نقل من دواوين أو قراطيس جاهلية ، يحملنا على القول بعدم تدوين الجاهليين لشعرهم وبعدم اهتمامهم بتسجيله. فلمَ وقع ذلك ؟ ولمَ أحجم الجاهليون عن تدوين شعرهم ، وهو تراثهم الخالد وسجلهم وديوانهم الذي به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله ، وآثار صحابته والتابعين ؟ وقال علماء الشعر : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب

مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك ، وذهب عنهم كثير »[1] . « قال أبو عمرو بن العــلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[2] .

ومعنى هذا ان الشعر الجاهلي لم يكن مدوناً ، وانما كان محفوظاً في الصدور ، وقد ورد رواية باللسان ، فكانوا يتلونه حفظاً لا عن صحيفة أو كتاب ، يؤيد ذلك ما ورد في الأخبار من ان (بني أمية) ، وقد كانوا شغوفين جداً بالشعر القديم ، ربما اختلف الرجلان منهم في بيت شعر ، فيرسلان راكباً الى (قتادة) يسأله ، عن خبر ، أو نسب ، أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس . ولقد قدم عليه رجل من عند بعض أولاد الخلفاء من بني مروان ، فقال لقتادة : من قتل عمراً وعامراً التغلبيين يوم قِضة ؟ فقال : قتلهما (جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) . قال فشخص بها ثم عاد اليه . فقال : أجـل قتلهما جحدر ، ولكـــن جميعاً ؟ فقال : اعتوراه فطعن هذا بالسنان ، وهذا بالزج فعادى بينهما[3] . وعلى ما في هذا الخبر من أثر الصنعة والتكلف ، فإن فيه دلالة عــلى شغف الأمويين بسماع أخبار الأيام الماضية ، وبعدم وجود مدونات في ذلك الوقت ، تضم الشعر والأخبار والنسب ، لذلك ، كانوا يرسلون الى خاصتهم ومن يرون فيه العلم بهذه الأمور للاستفسار منهم عما يريدون الوقوف عليه .

ويؤيد ذلك أيضاً ما ورد من أن الرسول كان اذا أراد سماع شعـر شاعر ، سأل من كان في حضرته من يحفظ من شعر فلان ؟ فينشده عليه من قد يكون حافظاً له ، ثم ما يروى من ان الصحابة كانوا يحفظون الشعر ، ومن انهم كانوا اذا أرادوا الوقوف على شعر شاعر لم يحفظوا شعره ، سألوا غيرهم ممن يحفظـــه عنه . ولم نسمع في الأخبار ، ان أحداً من الصحابة ، كان يملك ديوانـــاً ، أو كتاباً فيه شعر ، أو خبر ، أو نسب ، وانهم كانوا يرجعون الى المدونات ، في مثل هذه الحالات .

ولكن ما ذهبنا اليه من عدم وجود تدوين للشعر الجاهلي وللأخبار الجاهلية ،

---

١ المزهر (٤٧٣/٢ وما بعدها) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .
٢ المزهر (٤٧٤/٢) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .
٣ العسكري ، التصحيف والتحريف (٤) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٩٨) .

تنفيه روايات تزعم ان الجاهليين كانوا يدونون أشعارهم ، فقد روي ان (النعمان ابن المنذر) أمر « فنُسخت له أشعار العرب في الطنوج وهي الكراريس ، ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن عبيد الثقفي ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[1]. وروايات تذكر انه « قد كان عند آل النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان أو ما صار منه »[2]. وروايات تقول ان العرب كانت شديدة العناية بشعرها ، مبالغة في المحافظة على الجيد منه، فأمرت بكتابتها بماء الذهب على القباطي وبتعليقها على الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها . وقد عرفت تلك القصائد بالمذهبات وبالمعلقات وبالسموط[3]. وروايات تذكر ان الملك كان اذا استجديت قصيدة يقول: « علّقوا لنا هذه لتكون في خزانته »[4].

وتنفيه أيضاً روايات أخرى تفيد أن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يقرأون ويكتبون، كالذي جاء عن (عدي بن زيد) العبادي ، وعن (المرقش الأكبر) من أنه كان قد تعلم الكتابة من رجل من أهل الحيرة ، فصار يكتب أشعاره ، وكالذي يظهر من بيت لابن مقبل يفيد أن عرب أواسط جزيرة العرب كانوا يدوّنون أشعار الشعراء[5].. وقد ذكر أن (سعد بن مالك) والد (المرقش) ، أرسله وأخاه الى رجل من أهل الحيرة فعلمها الكتابة[6]. وروي أنه كان يكتب بالحميرية[7]، فلا يعقل إذن أن يدوّن أمثال هؤلاء الشعراء الكتاب القرّاء شعرهم، أو بعض شعرهم المستجاد على الأقل !

وتنفيه الرواية القائلة إن (لقيط بن يعمر) الإيادي ، كتب قصيدة وأرسلها

---

١ المزهر (١/٢٤٩) ، (النوع الخامس عشر · معرفة المفاريد) ، ابن جني ، الخصائص (١/٣٩٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، (الطنوج) .
٢ المزهر (٢/٤٧٤) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، الجمحي طبقات (١٠) .
٣ المزهر (٢/٤٨٠) ، (مشاهير الشعراء) .
٤ المزهر (٢/٤٨٠) ، (مشاهير الشعراء) ، العمدة ، لابن رشيق (١/٩٦) .
٥ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٣) ، مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الرابع ، الجزء الثاني) ، (١٩٥٦ م) ، (ص ٥٢٢) .
٦ الاغاني (٦/١٣٠) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٣٩) .

الى قومه (إياد) يحذرهم فيها من مجيء جيش كسرى اليهم ، للإيقاع بهم ، وذلك في قصيدته التي استهلها بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط   الى مَنْ بالجزيرة من إياد[1]

وتنفيه روايات أخرى تشير الى أن العرب في صدر الإسلام ، كانوا يدوّنون الشعر ويوزعونه بين الناس لينتشر بينهم ، فلما هجا (النجاشي) الأنصار، اجتمع سادتهم وتذاكروا أمره ، ثم ذهب قوم الى (حسان)، فنظم شعراً في هجائه ، كتبه غلمان الكتاب[2] ، وما كانت الغاية من تدوين الغلمان له ، إلا اذاعته ونشره بين الناس . وروي أن (عبدالله بن الزبعرى) ، و (ضرار بن الخطاب) الفهري ، قدما المدينة فتلاحيا مع (حسان) ، في أمر الشعر ، وقالا شعراً مما كانا قالاه في الأنصار ، وكان عمر قد نهى عن رواية شعر الهجاء حذر الفتنة ، فغضب (حسان) منهما ، وذهب الى (عمر) ، فأخبره بما وقع ، فأرسل وراءهما ، وطلب من حسان أن ينشدهما مما قاله لهما ، فأنشدهما ، فلما انتهى من إنشاده كتب ذلك ، وحفظ مع شعر الأنصار ، وكانوا يكتبونه حذر بلاه[3] . وروي أن (طلحة) ، أنشد قصيدة ، فما زال شانقاً ناقته حتى كتبت له[4] .

غير اننا اذا ما تتبعنا تأريخ ورود هذا الذي ذكرته عن وجود التدوين في الحيرة وارتفعنا به حتى نصل به الى أصله ، نجد انه جاء كله نقلاً ، وقد أخذه المتأخرون عن المتقدمين ، والمتقدمون عن طبقة أقدم ، حتى نصل الى مرجع واحد هو آخر سلسلة السند ، الذي ينتهي بـ (حماد الراوية) و (ابن الكلبي) . فحماد هو صاحب الزعم المتقدم ، القائل ان النعمان بن المنذر ، أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج[5] ، وابن الكلبي هو صاحب الخبر القائل ان العرب علقت القصائد السبع على الكعبة ، وان العرب اختارتها من بين القصائد الجاهلية الكثيرة فوضعتها على أركان الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها !

---

١ الشعر والشعراء (١/١٢٩) ، الاغاني (٢٠/٢٣) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٢٥) .
٣ الاغاني (٤/١٤٠ وما بعدها) .
٤ الزمخشري ، الفائق (١/٦٧٧) .
٥ المزهر (١/٢٤٩) ، (النوع الخامس عشر) .

وهناك رواية أخرى مشابهة لرواية حماد عن تعليق المعلقات ، يرجع سندها الى (ابن الكلبي) ، هذا نصها : « قال ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ وقيل سنة ٢٠٦ : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرىء القيس ، عُلّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه ، ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدّوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا ان عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »[1] . « وزاد بعضهم انهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم »[2] . ولابن الكلبي زعم آخر له علاقة بهذا الموضوع ، فقد ذكر انه كان يقول : « كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى ، وتأريخ نسبهم ، من كتبهم بالحيرة »[3] .

فنحن اذن أمام رجلين يرجع اليهما خبر وجود تدوين للشعر الجاهلي ، كان أحدهما من أمرس الناس بالشعر الجاهلي ، وكان ثانيهما من أشهر رجال الأخبار . ولا نعرف أحداً تقدم عليهما : زعم هذا الزعم ، أو ادعى هذه الدعوى ! ثم اننا لا نجد في مؤلف من المؤلفات الاسلامية التي وصلت الينا ما يفيد ان أحداً قد نقل شيئاً من مدون جاهلي ، أو قرأ فيه ، خلا ما ورد عن (ابن الكلبي) من انه كان يستخرج أنساب آل نصر وتأريخ من حكم منهم ومدد أعمارهم وما الى ذلك من بيع الحيرة[4] .

ولا يعقل بالطبع تصور انفراد حمّاد وحده بمعرفة أمر ديوان النعمان بن المنذر ، دون سائر الرواة وعشاق الشعر ، وبينهم من كان لا يقل حرصاً ولا تتبعاً له عن حمّاد . ولا يعقل أيضاً تصور بلوغ الحرص والأنانية بآل مروان درجة جعلتهم يضنون حتى بالتلويح أو باراءة ذلك الديوان الجاهلي بعضهم بعضاً . ولو كان عند آل مروان ذلك الديوان حقاً ، لافتخروا بوجوده لديهم ، ولعرضوه على الناس ، ولأخذوا منه الشعر القديم ، ولما استعانوا بالرواة من حمّاد وأمثاله ليرووا لهم الشعر الجاهلي وليجمعوا لهم ذلك الشعر ، وحمّاد نفسه شاهد على ذلك.

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٧/٣ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٦/٣) .
٣ تأريخ الطبري (٣٧/٢) .
٤ تأريخ الطبري (٣٧/٢) .

حيث كانوا يستدعونه من العراق ليسألوه أمـــر شعر ، خفي عليهم ، أو شعر لا يعرفون عنه شيئاً ، ثم كيف يسكت رواة أهـــل الكوفة عن هذا الديوان ، فلا يشيرون في أخبارهم وروايايتهم اليه ، ولا يلحقون به سندهم في روايتهم للشعر؟ قال (ابن النديم) : « قال أبو العباس ثعلب : جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وردّ الديوان الى حمّاد وجناد »[1] ، فلو كـــان لدى آل مروان ديوان جاهلي قديم ، فهل يعقل ترك الوليد ذلك الديوان وذهابه الى حمّاد وجنّاد يستعين بما عندهما من دواوين شعر ، أو من ديوان شعر ليجمع له ديواناً بأشعار القدماء ، فلما جمع له ديواناً من ديواني حماد وجنّاد أعادهما عليها ! ولو فرضنا أنـه كان قد استعان بهما ، لأنهما كانا قد جمعا شعر شعراء لم يكن عنده شعرهم ، فإن الرواة ما كانوا ليسكتوا هـذا السكوت المطبق عن ذلك،ولقالوا على الأقل إنه قد كان عنده ديوان شعر جاهلي، لكنه لم يكن تاماً ، يضم كل أشعار الجاهليين ، فاستعان بهما لسدّ هذا النقص. ولو كان ديوان حمّاد أو ديوان جناد من دواوين أهل الجاهلية ، لما سكت العلماء عن ذلك ، ولما سكت حماد نفسه ، أو جنّاد من التنويه به ، لما لهذا التنويه من أهمية بالنسبة لهما ، ولإثبات أنهما كانا صادقين في رواية الشعر ، وانهما استقيـــا الشعر من منابع أصيلة لا يرتقي اليها الشك .

ثم انه لو كان لحماد أو غيره من أهـــل الكوفة ديوان جاهـلي ، أو ان أهل الكوفة كانوا قد وقفوا على ديوان النعمان بن المنذر أو على كتب من كتب أهل الحيرة في الشعر أو في التواريخ والأخبار ، لما سكتوا عن ذلك أبداً،ولأسندوا روايتهم الى تلك المدونات ، رداً بذلك على أهل البصرة الذين اتهموهم بالافتعال وبنحل الشعر على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وبأخذهم من أفواه أعراب لا يطمئن اليهم ، على الأقل .

إن سكوت الرواة وعلماء الشعر عن أمر هذا الديوان ، واقتصار خبر وجوده على روايات حماد ، يحملنا هذا السكوت الغريب ، على الشك في هذا المروي عنه وعلى التريث ولو مؤقتاً في تصديقه ، حتى يقوم دليل جديد مقنع بوصول شيء من مكتوبات أهل الحيرة الى الاسلاميين يمكننا من إبداء رأي علمي واضح في هذا الموضوع .

---

[1] الفهرست (١٤٠) .

وقد سكتت كل الأخبار التي تحدثت عن (طنوج) النعمان بن المنذر ، عن الجهة التي دخل الديوان في ملكها . كما سكتت عن مصيره النهائي . فأين ذهب يا ترى ذلك الديوان ؟ ولِمَ لم ينقل منه أحد ؟ ولِمَ لم يشر الى وجوده شخص آخر غير حمّاد ؟

ولم أعثر حتى الآن على خبر يفيد علم أحد من المتقدمين على حماد بوجود ديوان شعر جاهلي مدوّن ، ولا بنقل أحد من الرواة وبضمنهم حماد نفسه من هذا الديوان أو من ديوان آخر يعود تأريخه إلى أيام الجاهلية . مع أن بين عشاق الكتب من كان يقتني الكتب والقراطيس القديمة ، ويتهالك ويستهتر في المحافظة عليها وفي العناية بها ، وبينهم من كان يملك ما شاء الله منها . وقد قص (ابن النديم) الورّاق المتهالك في البحث عن الكتب قصصاً عن القراطيس والكتب القديمة وعن استهتار الناس بجمع الخطوط العتيقة ، ولم يشر الى عثوره هو أو غيره على صفحة واحدة مكتوبة قبل الإسلام في الشعر أو في النثر . ولو كان قد سمع بهذه الأوراق ، لما تركها تمرّ سبيلها ، فلا يراها أو يسمع عنها ممن وقف عليها ورآها على الأقل[1] . نعم : ذكر أنه « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعا ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان . وكان الخط شبه خط النساء »[2] . وهو خبر تظهر عليه آثار الصنعة ، والوضع .

وقد يكون خبر الديوان ، وخبر (الطنوج) من مفتعلات (حماد) و (ابن الكلبي) ، لإظهار سبب تفوق أهل الكوفة على أهل البصرة بالعلم بالشعر ، كما يظهر ذلك جلياً من نص الخبر ، وهو « ومن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[3] ، ولإظهار سبب تفوق (ابن الكلبي) على غيره من أهل الأخبار في رواية أخبار ملوك الحيرة ، غير اني لا أستبعد مع ذلك وجود دفاتر وكتب في خزائن ملوك الحيرة وفي قصورها وكنائسها ، قد كان فيها شعر ونثر وأخبار

---

١ الفهرست (٦٧) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) .

٢ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٣ الخصائص (٣٩٢/١) .

ومراسلات وسجلات بالأموال وما شابه ذلك ، لوجود ديوان حكومي عندهم تولاه (عدي بن زيد) ، ووجود علماء ورجال دين عندهم ألفوا الكتب في أمور الدين وفي العلوم التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، لكنها تلفت وهلكت بسبب الأحداث التي وقعت في الحيرة أيام الفتح الاسلامي لها ، وارتحال الناس عنها وفي جملتها رجال الدين ، وتهدم كنائسها وبيوتها بسبب نقل حجارتها الى الكوفة لبناء بيوتها بها ، مما سبب تلف تلك المدونات المكتوبة على أدم وقراطيس سهلة التلف ، والتي لا يمكن لها مقاومة مثل هذه الأحداث . ولا يستغرب ذلك، فقد تلفت نسخ القرآن الأولى مثل نسخة (حفصة بنت عمر) ، ونسخة (عثمان) وهلكت رسائل الرسول وكتبه على أهميتها ، وذهبت الصحف القديمة التي دوّن بها الحديث أو سيرة الرسول ، وغير ذلك،في أيام الراشدين وبني أمية ، فهل يستغرب بعد ذلك ذهاب ما دوّن في أيام ملوك الحيرة وانطماس أثره !

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع تدوين الشعر أو عدم تدوينه عند الجاهليين، فقال : « ومن ثم يعد خطأ من مركليوث وطه حسين ان أنكرا استعمال الكتابة في شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام بالكلية ، ورتبا على ذلك ما ذهبا اليه من ان جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ، ومنحولة لأسمائهم .

ولكن بديهياً ان الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية . فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه ، يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس ، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده: وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

وعن الرواة كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه . ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف ، وإن لاحظنا ان ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحد على الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث »[1] .

وقد تعرض المستشرق (كرنكو) لموضوع الكتابة والتدوين عند العرب ، وقد ذهب الى أن نظم الشعر مرتبط بالكتابة ، بدليل أن بعض القوافي تظهر حقيقتها

---

١ بروكلمن (٦٥/١) .

للعيان أكثر منه للسمع ، بحيث أن الحروف وليست الأصوات ، هي التي تلعب دوراً هامــاً في الشعر[1] . غير أن رأيه هذا لم ينل تأييداً من غالبية المستشرقين . وذهب (كولدزيهر) ، الى احتمال تدوين العرب لشعر الهجاء ، لما لهذا النوع من الشعر من أهمية عندهم ، فإن في شعر الشاعرة (ليلى) الأخيلية :

أتاني من الأنبـاء أن عشيرة بشوران يزجون المطي المذللا
يروح ويغدو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لي،ساء ذلك معملا[2]

وفي شعر ابن مقبل :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخيّر بابات الكتاب هجائيا[3]

غير أن بعضهم يرى صعوبة تصور ذلك ، لعدم وجود أدلة مقنعة تثبت هذا الرأي[4] .

وقد توقف (بلاشير) أيضاً في قضية تدوين الرواة لشعر الشاعر الذي تخصصوا به ، أو برواية شعر أي شاعر كان . يرى احتمال تـدوين بعض الرواة الحضر لبعض عيـون الشعر ، غير أنه يعود ، فيرى أن ذلك مجرد احتمال ، وإن من الصعب اثباته بأدلة مقنعة ، ويذهب الى أن رواية الرواة ، كانت رواية شفويـة كذلك[5] .

ولا استبعد احتمال تدوين الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحسنون الكتابة والقراءة لأشعارهم ، كما لا استبعد احتمال تدوين رواة الشعر للشعر ، ولا سيما ما نبـه وشرف منه ، غير أننـا لا يمكن أن نقول إن الشاعر كان إذ ذاك يدوّن كل شعره ، أو أن الرواة ، كانوا يدونون كل ما حفظوه من الشعر ، لأن هـذا النوع من التدوين لم يكن مألوفاً عندهم ، كما كان يكلف ثمناً باهظاً ، لا قبـل للشاعر أو للراوية بتحمله ، ثم إن القرطاس كان نادراً عندهم ، والتدوين على

---

١ بلاشير ، تاريخ الادب العربي (٩٤ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (ص ٩٨) .
٣ العمدة (٢/١٥٩ وما بعدها) ، الحيوان (٧/١١٢) ، ديوان ابن مقبل (٤١٠) .
٤ بلاشير (٩٨ وما بعدها) .
٥ بلاشير (١٠١) .

الأدم ، غالياً ، ينــوء بثمنه الشاعر أو الراوية ، ويأخذ مكاناً ، ولا سيما اذا كان الشاعر من الأعراب ، وأنا لا استبعد احتمال وجود مثل هذه المدوّنات عند الحضر ، مثل أهل الحــيرة ، لانتشار الكتابة بينهم ولشيوع التدوين عندهم ، ولكن الأحداث وعوامل الطبيعة أتلفت تلك المدوّنات ، فلم تسقط لهــذا السبب في أيدي رواة الشعر والأخبار .

ولا تزال الرواية الشفوية مستعملة حتى اليوم ، مع وجود التدوين وكثرة الورق. فلأغلب شعراء العراق اليوم مثلاً رواة يدونون شعر الشاعــر ويحفظونه في الوقت نفسه حفظاً ، فإذا حضروا مجلساً ، وجاء ذكــر الشعر ، أو شعر شاعر يروون شعره تلوه حفظاً على السامعــين . وفي النجف رواة شعر ، دونوا شعر شعرائها المحدثين مثل الحبّوبي وغيره في دواوين ، وحفظوه في الوقت نفسه حفظــاً في قلوبهم ، ومنهم من حفظ شعره من غير تدوين له ، وقد يزيد ما يحفظونه على ما هو مدون ، بسبب ان الشاعر قد يحضر مناسبة تهزه فيقول فيها شيئاً، فيحفظه رواته والمعجبون به ، وقد يفوت تسجيله على رواته الذين يلازمون الشاعر ، فلا يقفون على خبره ، ويدفع الإعجاب بالشاعر المعجبين به على التقاط شعره وحفظه في أدمغتهم حتى كأنهم أشرطة تسجيل حساسة ، لا يفوتها من التسجيل أي شيء.

وبسبب عدم لجوء الجاهليين الى تدوين شعرهم في الغالب ، لأسباب عديدة ، منها ندرة الورق ، وغلائه ، واعتمادهم في حفظه على الذاكــرة ، هلك أكثره بموت حفاظه ، وأصيب قسم منه بتحريف وتغيير ، وزيد بعض منه ، ونقص منه بعض آخر ، وصنع شعر على المتقدمين لأغراض مختلفة ، ونسب الشعر الى جملة شعراء ، ورويت أبيات بروايات مختلفة ، وما كان ذلك ليحدث ، لو انهم كانوا قد عمدوا الى تدوينه وتثبيته . « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير . ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه ، قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وان لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة . وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير ان الذي نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك ، فلما قلّ كلامهما

حُمل عليها حمل كثير »[1] . وقد ذكر (ابن سلام) ان « عبيد بن الأبرص قديم عظيم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذَّنوب

ولا أدري ما بعد ذلك[2] ».

وذكر أنه قد سقط من شعر شعراء القبائل الشيء الكثير ، وفات على علماء الشعر منه ما شاء الله ، مما لم يحمله الينا العلماء والنقلة . وقيل عن الأصمعي : « كان ثلاثة اخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار ، فذهب رجزهم ، يقال لهم : منذر ونذير ومنتذر ، ويقال إن قصيدة (رؤبة) التي أولها :

وقاتم الأعماق خاوي المختَرق

لمنتذر »[3] .

وينسب الى (أبي عمرو بن العلاء) قوله : « لما راجعت العربُ في الإسلام رواية الشعر بعد أن اشتغلت عنه بالجهاد والغزو ، واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قومٌ قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ؟ فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولّدون ؛ وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الأشكال»[4] .

وقال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام ، أكثر من أن يحيط بهم مُحيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو انفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال .

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٠) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .
٣ الشعر والشعراء (٩) .
٤ المزهر (١/١٧٤ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .

ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[1] .

وورد عن (أبي عبيدة) قوله : « ان ابن دؤاد بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، فلما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ، ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علينا علمنا أنه يفتعله »[2] .

وقد ينسب قوم شعراً لشاعر ، بينما ينسبه قوم لشاعر آخر ، وقد يختلف في ذلك أهل البادية عن أهل الحاضرة ، فقد روي مثلاً ان أهل البادية من (بني سعد) يروون البيت :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقي مربض المستنفر الحامي

للزبرقان بن بدر ، بينما يرويه غيرهم للنابغة . وقد ذكر الرواة ، ان من المحتمل أن يكون (الزبرقان) استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه لا مجتلباً له ، وقد تفعل ذلك العرب ، لا يريدون به السرقة[3] . وقد حدث مثل ذلك في بيت شعر هو لأبي الصلت بن أبي ربيعة ، هو :

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

بينما ترويه بنو عامر للنابغة الجعدي[4] .

ونسب :

وبعد غدٍ ، يا لهف نفسي من غدٍ   إذا راح أصحابي ولست برائح

الى (هدبة بن خشرم) ، وعزاه آخرون الى (أبي الطمحان) من

---

١ الشعر والشعراء (٨) .
٢ المزهر (١/١٧٥) ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٧) .

المخضرمين ، ثرب الزبير بن عبد المطلب[1] .

وروي أن البيت :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

وهو بيت ينسب الى (أمية بن أبي الصلت) ، وكان معروفاً عند حفظة الشعر مثل (الحسن بن علي بن أبي طالب) أنه له ، إلا أن الرواة يذكرون أن (النابغة) الجعدي ، قال للحسن : « يا ابن رسول الله ، والله اني لأول الناس قالها ، وان السروق من سرق أمية شعره »[2] . وروي أيضاً أن البيت :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ   يبنون من دون سيله العرما

هو من قصيدة للنابغة الجعدي ، غير أن قسماً من علماء الشعر يرويها لأمية بن أبي الصلت ، وقسماً آخر ، كان متردداً ، فقد ذكر أن راوية سأل (خلف الأحمر) عن القصيدة ، فقال : للنابغة ، وقد يقال لأمية[3] . ويظهر من هذين المثلين ، أن الرواة كانوا يخلطون بين شعري الشاعرين .

ومن ذلك نسبة الشعر الذي فيه :

دانٍ مُسِفٌّ فويق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بعقوته   والمشتكي كمن يمشي بقرواح

الى عبيد بن الأبرص ، أو أوس بن حجر[4] .

ونسبة الشعر :

والشعر صعب وطويل سلمه   اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

الى رؤبة والى الحطيئة[5] .

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٧٤ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
٤ الحيوان (٦/١٣٢) .
٥ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .

ويقع من ذلك شيء كثير مذكور في كتب الشعر والأدب ، وهو يدل على ان الشعر لم يكن مدوناً في بادىء أمره ، وانما كان يروى حفظاً ، ولو كان قد أخذ من كتاب لما جاز عقلاً وقوع مثل هذا الخطأ والاشتباه .

ويحدث ان شاعرين يصنعان قصيدتين من بحر واحد وروي واحد ، فيختلط أمرهما على الرواة ، يدخلون أبياتاً من هذه في تلك ، فتختلط نسبة الأبيات[1] :

وقد وضع على لسان (عدي بن زيد) العبادي شعر كثير . وقد علل (ابن سلام) سبب ذلك بقوله : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف ، وخلط فيه المفضل فأكثر . وله أربع قصائد غرر وروائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن »[2] . وقد تكون للعصبية يد في هذا الوضع . فعدي من أهل الحيرة ، وقد تعصب أهل الكوفة للحيرة ، إذ انتقل أكثر أهل الحيرة الى الكوفة فأقاموا بها ، وتعصبوا لتأريخهم القديم ، فلعل هذه العصبية هي التي حملتهم على وضع الشعر على لسانه لرفع شأن نصارى الحيرة في الشعر .

ومع اشتهار الحيرة بالكتابة ، واشتهار (عدي) بها خاصة ، إذ كان من كتاب (كسرى) بالعربية ، فإننا لم نعثر على خبر يفيد ان الرواة أخذوا شعر (عدي) عن ورقة جاهلية ، أو ديوان جاهلي مدون . ولو كان لعدي ديوان مدون ، لما وقع في شعره ما قاله (ابن سلام) .

وقد يسأل سائل : كيف يعقل أن يضع شاعر مثل حمّاد الراوية شعراً فخماً جزلاً يستعز به ثم ينسبه الى الجاهليين ؟ ولو نسبه الى نفسه لكان اليوم فخراً له ولعدّ من أكابر الشعراء فأقول : كان طلب آل مروان للشعر الجاهلي شديداً . وهذا ما صير رواية الشعر من الحرف النافعة التي كانت تدر أرباحاً طيبة لأصحابها تزيد على الأرباح التي يحصل عليها الشاعر من شعره . وقد كسب حمّاد من حرفته هذه مالاً حسناً . غير أن الإلحاح في طلب هذا الشعر والإغراء الذي أبداه عشاق للرواة ، أفسد الرواة ، وحملهم على وضع الشعر وحمله على القدماء للحصول على الأجر ، ولنيل الحظوة ، ولإظهار العلم وسعة الحفظ . وقد زاد في هذا الوضع

---

١ الحيوان (٦/١٣٢) ، (حاشية رقم ٣) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

المنافسة الشديدة التي كانت بين الرواة ، فخلقت هذه الظروف وأمثالها شعراً جديداً منحولاً حسب على ملاك شعر الجاهليين .

ونجد في ثنايا كتب الأدب وفي كتب الشعر أشعاراً كثيرة منحولة وضعت قديماً على ألسنة الجاهليين، وضعت لأن الناس كانوا يومئذ في شوق عظيم وتعطش الى سماع أشعار من قبلهم،كانوا يقبلون عليها أكثر من إقبالهم على شعر معاصريهم من الشعراء ، ويجزلون له العطاء أكثر من إجزالهم لسماع شعر شاعر معاصر ، إلا ما قد يكون منه في المدح والذم . وكان ربح الراوية القدير المتبحر بالشعر الجاهلي المتجر به العارف بنظم الشعر لا يقل عن ربح الشاعر العظيم ان لم يزد عليه في أكثر الأحيان . والعادة أن مكافأة الشاعر المعاصر على شعره ، لا تكون إلا في أمور لها صلة بالمجتمع ، مثل المدح والهجاء والهزل والاستخفاف والتضحيك، أما في غير ذلك فتقديره الى العلماء وأصحاب الذوق ، وهم لا يثيبون على هذه الأمور إلا قليلاً ، ولهذا يكون تقدير الشاعر الذي لا يمدح ولا يهجو ولا يتقرب لأحد بالأمور المذكورة ، بعد موته في الغالب ، فلا ينال مثل هذا الشاعر من العيش ما يكفيه . ثم إن الراوية مطلوب في كل وقت ، مرغوب فيه ، وسوقه رائجة . فإذا غنت مغنية بيتاً قديماً ، أراد السامعون معرفة صاحبه ، وأكثر الناس خبرة بأصحاب الشعر القديم هم الرواة ، وهم قلة ، لما يجب أن يكون في الراوية من خصائص تجعله من نوادر الرجال . فالذكاء الخارق ، والعلم بالشعر وبأساليبه ، والتمكن من العربية بمفرداتها وبلهجاتها وبالقبائل وبأيام العرب وبأمثال ذلك ، هي من اللوازم التي لا تتهيأ لكل إنسان ، ولذلك لم يكن أمثال هؤلاء الرواة إلا أفراداً نص العلماء على أسمائهم نصاً . وقد نالوا في أيامهم شهرة لم تكن أقل منزلة من شهرة أفذاذ الشعراء ، وقد تدرب عليهم فحول الشعراء ، وتخرج من مدرستهم أعاظم شعراء العرب في الإسلام . فرواية الشعر إذن وحفظه وصنعه، لم تكن حرفة سهلة يسيرة ، ولا منزلة صغيرة بالنسبة الى منزلة الشاعر ، إنها لا تقل في السمو عن أرفع منزلة وصل اليها الشعراء في ذلك العهد . ولم يقل دخل الراوية من عطايا الملوك وهداياهم بأقل من دخل الشاعر ، إن لم يزد عليه في بعض الأحيان ، ولهذا فليس بغريب إذا ما رأينا الشاعر ينسب شعره للجاهليين، ويرويه على أنه من شعر شاعر جاهلي قديم ، ولا ينسبه لنفسه .

وآفة ما تقدم عدم التدوين والتقييد ، ولو كان الشعر مدوناً في صحف وكتب،

ومقيداً على حجر ، لما ضاع هذا الضياع ، ولما اعتوره هذا التغير ، الخطير ، فحوّر فيه وغيّر ، وقد أدرك أثر هذا المرض على الشعر ، شاعر اسلامي ، هو ذو الرمة ، فقال : « لعيسى بن عمر : اكتب شعري ، فالكتاب أحب إلي من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام»[1].

وقد كان للشعراء الذين ظهروا في أيام الأمويين رواة ، يروون شعرهم ، كما كانوا يهذبونه وينقحونه ويدخلون بعض التغيير عليه ، بعلم الشاعر وبموافقته ، لعلة فاتت عليه ، فقد كان لجرير رواته ، وكان للفرزدق رواته ، وكانوا يقوّمون ما انحرف من شعرهم وما قد يكون فيه من سناد وعيوب ، خفي أمرها على الشاعر ، فأدرك أمرها الرواة[2] .

رواة الشعر :

وقد ذكر علماء الشعر ان الشعراء في الجاهلية كانوا يتخذون لهم رواة يحفظونهم شعرهم حفظاً ويروونه رواية. ومعنى هذا ان أولئك الرواة كانوا يلازمون الشعراء، فإذا نظم الشاعر شعراً تلاه على راويته ليحفظه فلا ينساه ، واذا غيّر الشاعر في شعره أو عدّل فيه أشار على راويته بما غيّر وعدّل حتى يعدّل هو ويغيّر في الذي حفظه . فراوية الشاعر ، هو نسخة ثانية حافظة لشعر الشاعر ، أما النسخة الأولى ، فهو الشاعر نفسه . وقد يتهيأ للشاعر جملة رواة . ويقال لمن يحفظ الكثير من الشعر ، وللكثير الرواية هو « راوية للشعر »[3] .

وأولئك الرواة ، هم دواوين شعر ناطقة ، تحفظ المتون ، أي أصول الشعر ، كما تحفظ المناسبات ، أي الظروف التي قيل فيها ذلك الشعر . وهم أنفسهم ذوو حس مرهف ، وفهم عالٍ للشعر . إذ لا يقبل على رواية الشعر وحفظه إلا أصحاب الحس المرهف الموهوبون ، الذين لهم طبع شاعري ، وميل غريزي فيهم اليه . ولهذا تنتهي الرواية بالراوية في الأغلب الى قول الشعر ونظمه ، فيكون في

---

1 الحيوان (١/٤١) ، (عبد السلام محمد هارون) .
2 الاغاني (٤/٢٥٦ وما بعدها) .
3 تاج العروس (١٠/١٥٨) ، (روى) .

عداد فحول الشعراء . والرواية هي تمرين وإعداد لقول الشعر ، ولفهم دروبه ، تساعد الموهوب في إظهار مواهبه . « فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة لمن فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلان شاعر راوية ، يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد، وسهُل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب ، واذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل اليه وهو ماثل بين يديه ، لضعف آلته : كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة .

وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء ، فقال : هو الراوية ، يريد أنه إذا روى استفحل .

قال يونس بن حبيب: وإنما ذلك لأنه يجمع الى جيد شعره معرفة جيد غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة ... وقال الأصمعي : لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب »[1] .

والشعراء جميعاً ، هم في أول أمرهم بالشعر رواة شعر ، ولا يكون الشاعر منهم شاعراً حتى يحفظ الشعر ويرويه، لأن الحفظ يساعده على قول الشعر ونظمه ، ويكون تمريناً له ، ولا زال أمر الشعراء عندنا على هذا النحو ، فأكثر شعرائنا هذا اليوم هم رواة في الأصل ، حفظوا من الشعر ما ساعدهم على النظم، يضاف اليه موهبة الشاعر وسليقته فيه . وقد يقال إن الشاعر الراوية أمكن في الشعر وأقدر عليه من الشاعر ، الذي لا يروي من الشعر إلا يسيراً ، أو لا يحفظ منه شيئاً ، لأن الشاعر الراوية يتعلم من فنون الأقدمين ومن خبرتهم وتجاربهم في النظم مما يخفى على من ليس له علم سابق به .

الشعراء الرواة :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من شعراء الجاهلية ، بدأوا حياتهم في قول الشعر بروايته وحفظه ، ثم صاروا من أكابر الشعراء . منهم زهير بن أبي سلمى، فقد بدأ حياته في الشعر راوية لشعر (أوس بن حجر) ، وكان أوس راوية

---

١ العمدة (١٩٧/١ وما بعدها) ، (باب في آداب الشاعر) .

الطفيل الغنوي وتلميذه[1] . ومنهم (كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، فقد كان راوية لوالده ، ثم (الحطيئة) ، فقد بدأ الشعر برواية شعر (زهير) وآل زهير[2]. وكان (زهير) راوية (طفيل) الغنوي أيضاً ، وكان (امرؤ القيس) راوية (أبي دُواد) الإيادي[3] ، وكان الأعشى راوية لشعر (المسيب بن علس) ، والمسيب خال الأعشى[4] .

ولا نكاد نجد شاعراً لم يحفظ شعر غيره من الشعراء المتقدمين عليه ، أو من المعاصرين له . والشاعر العربي حتى اليوم ، لا يكون شاعراً فحلاً في الشعر ، إلا اذا حفظ من شعر غيره من الشعراء الفحول ، فحفظ الشعر يدربه ويقويه على نظم الشعر ، وكذلك كان أمر الشعراء الجاهليين . ويؤيد هذا الرأي ما نجده في الأخبار من حفظ الشعراء شعر غيرهم ومن مناقشتهم للشعراء في شعرهم ، مما يدل بالطبع على حفظهم له .

قال « رؤبة : الفحولة هم الرواة » ، « يريد الذين يروون شعر غيرهم ، فيكثر تصرفهم في الشعر ويقوون على القول »[5] ، فروايتهم للشعر أكسبتهم علماً بأبوابه وبفنونه ، ومكنتهم منه حتى صار يخرج على ألسنتهم سهلاً قوياً جيداً ، لما صار لهم من علم به ومران في حفظه .

ويكاد يكون لكل شاعر جاهلي راوية يصحبه ، « يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس . وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده . وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً »[6] . ومن رواة (الأعشى) ، الراوية (عبيد) ، وكان يصحب الأعشى ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل ، وكان يسأله عن شعره وعن معانيه وألفاظه ، وعنه أخذ الرواة مثل (سماك) أخبار الأعشى وشعره[7] . و (سماك) ، هو (سماك بن حرب) ، وهو من مشاهير الرواة .

---

١ الشعر والشعراء (١/٧٦) ، بروكلمن (١/٩٥) .
٢ الاغاني (٢/١٦٥) ، (دار الكتب) ، (٨/٩١) .
٣ العمدة (١/١٩٨) ، بروكلمن (١/٩٥) .
٤ الموشح (٥١) ، الشعر والشعراء (١/١٠٧) .
٥ البيان والتبيين (٢/٩) ، العمدة (١/١١٤) ، (باب في الشعراء والشعر) .
٦ بروكلمن (١/٦٤ وما بعدها) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٨١) .

وكان من رواة (الأعشى) (يحيى بن متّى)، وهـو من أهل الحيرة، وكان نصرانياً عبادياً معمراً[1]، وله راوية آخر اسمه (يونس بن متّى)[2]، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى كذلك، وقد يكون هذا الشخص، هو الأول أي (يحيى)، حرف النسّاخ اسمه، فصار (يونس)[3].

ولما كان بعض الرواة من الكتبة، فلا استبعد أن يكون من بينهم من دوّن شعر شاعره الى جانب حفظه لشعره، وذلك ليرجع اليه فيما إذا خانته حافظته، أو شك في شيء منه، أو لإجراء تنقيح في شعر شاعره، وتوجد روايات تشير الى وقوع مثل هذا التدوين، غير أننا لا نستطيع أن نسلم بتأكيدها أو أن نقوم بنفيها في الوقت الحاضر، فمثل هذه الأحكام تحتاج الى أدلة قوية مقنعة، ولا يمكن لنا التسليم بصحة تلك الروايات أو بردها في الوقت الحاضر[4].

وقد تخصص بعض الناس برواية شعر جملة شعراء، وتخصص آخرون برواية شعر قبيلة، أو شعر جملة قبائل.

ويظهر ان أسلوب الحفظ والتسجيل في الذاكرة، كان الأسلوب الشائع بين الجاهليين في ذلك الزمن في الإبقاء على النثر أو الشعر، وقد كان هذا الأسلوب متبعاً عند غير العرب في تلك الأيام، إذ كانوا يقيمون وزناً كبيراً للرواية، حتى انهم كانوا يفضلون الحفظ على القراءة عن كتاب أو صحيفة، ولا سيما بالنسبة للكتب المقدسة والكتب الدينية الأخرى وفي الأمور النابهة مثل الشعر. يرون ان في القراءة ثواباً وأجراً عظيماً، وتعظيماً لشأن المقروء. ولا أستبعد أن تكون هذه النظرة هي التي جعلت أصحاب الرسول يحفظون القرآن ويتلونه تلاوة من غير قراءة عن كتاب ولا نظر في صحيفة، يتلونه أمام الرسول وبين أنفسهم وبين الناس، ولا يقرأونه عن كتاب، مع ان منهم من كان يقرأ ويكتب وقد جمع القرآن. وكان تقدير العالم آنذاك بحفظه، لا بما يكتبه من صحف وبما يؤلفه من مؤلفات، ولهذا اشتهر كثير من العلماء بسعة علمهم، مع انهم لم يتركوا أثراً مكتوباً، لأن العلم بالحفظ لا بالتدوين، وقد ينتقص من شأن العالم اذا تلا علمه عن كتاب،

---

١ الاغاني (١١٢/٩).
٢ المعرب، للجواليقي (٤٦).
٣ الشعر والشعراء (٢١٦ حاشية ١)، مصادر الشعر الجاهلي (٢٤٠ وما بعدها).
٤ بلاشير (١٠١).

حتى ان كان ذلك الكتاب كتابه ، لأن القراءة عن كتاب لا تدل على وجود علم عند القارىء ، وشأنه اذن دون شأن الحافظ ، الحازن للعلم في دماغه المملي للعلم إملاءً ، وكانوا اذا انتقصوا عالماً قالوا : انه يتلو عن صحيفة ، أو يقرأ عن صحيفة أو كتاب ، ومن هنا قيل للذي يقرأ في صحيفة ويخطىء في قراءتها المصحفون ، قال (ابن سلام) : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ومثل ما يروي الصحفيون ما كانت اليه حاجة ، ولا كان فيه دليل على علم »[1]. وقد حمل « ابن سلام على رواة الشعر الذين تداولوه من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وانما العلم علم العلماء بالشعر وأهل الرواية الصحيحة ، أما أهل الصحف ، الذين يروون من صحيفة ، فلا يروى عنهم ، إذ لا يروى عن صحفي »[2]. وانتقصوا من علم (القاسم بن محمد بن بشار) الأنباري ، ومن روى عنه مثل (أحمد بن عبيد) الملقب (أبا عصيدة) ، لأن هؤلاء (رواةُ أصحاب أسفار) ، فهم لا يذكرون مع العلماء حفظة العلم[3]؛ والرواة أصحاب السفر ، والصحفيون ، انما كانوا يعتمدون على الصحف، ويحلون منها ، ولذلك فقد يقع اللحن أو الخطأ منهم سهواً ، أما الرواة الحفاظ، فلا يقع ذلك منهم إلا في النادر ، ثم انهم ينشدون الشعر من مخارجه وحروفه ، وهذا هو تفسير قول (ابن سلام) وأضرابه : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى من صحفي »[4] . وفي جملة ما آخذ به (ابن سلام) الصحفيين ، أي الذين يكتبون ويدونون ما يقال لهم ، دون نقد ، انهم لم يكونوا أصحاب رأي وعلم ، بل كانوا يقبلون كل ما يقال لهم ، كما هو واضح من قوله في (ابن اسحاق) : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن اسحاق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت اليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم »[5]؛

ولهؤلاء الرواة فضل كبير ولا شك على الشعر الجاهلي وعلينا أيضاً، فبحفظهم لذلك التراث القيم وبإذاعته وبنشره بين أبناء زمانهم ، أمكن وصوله الى من جاء بعدهم من عشاق الشعر والمتيمين به ، حتى وصل الى أيدي المدوّنين فدوّنوه .

---

١ المزهر (١٧٤/١) ·
٢ ابن سلام ، طبقات (٥ وما بعدها) ·
٣ المزهر (٤١٣/٢) ·
٤ طبقات (٥ وما بعدها) ·
٥ طبقات (١١) ·

وصل بأفواه متعددة ، ومن الصدور ، ولهذا تعددت الروايات واختلفت القراءات وهذا شيء لا بد أن يحدث ، وهو أمر غير مستغرب ، فحفظ الصدور لا يكون كحفظ السطور . ولو كان الشعر قد دوّن في ذلك العهد ، وسجل في صحف ودواوين لما اختلف الرواة الإسلاميون في تدوينه يوم شرعوا في جمع ذلك الشعر وتدوينه في دواوين . فنجد الرواة قد يختلفون في عدد أبيات القصيدة وفي ترتيبها وفي نص البيت ، فترى روايات متعددة تمس بيتاً واحداً ، لا تمس شكل الكلمة، بحيث نرجع ذلك الى خطأ النسّاخ ، وإنما تمس اللفظة نفسها ، أو جملة ألفاظ شطر البيت أو البيت نفسه ، وكتب الشعر والأدب مليئة بأمثال هذه الأمور التي هي من حاصل الاعتماد على الرواية الشفوية في حفظ الشعر .

ومتى أنشد شاعر شعره ، وأذاع روايته بين الناس ، حفظ وطار بين طلاب الشعر وعشاقه ، لا سيما إذا كان مما يتصل بالناس . هذا (عميرة بن جعيل) (عميرة بن جعل) ، يهجو قومه ، ثم يندم على ما قال ، فيقول :

ندمت على شتم العشيرة بعدما ... مضت واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع دفعاً لما مضى ... كما لا يردّ الدرّ في الضرع حالبه[1]

وفي هذا المعنى جاء شعر : (المسيب بن علس) :

فلأهدين مع الرياح قصيدة ... مني مغلغلة الى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة ... في القوم بين تمثل وسماع[2]

فالشعر تحمله الرياح وتنشره بين الناس ، فيحفظ ، ويرويه الرواة .

وكما كان لهم فضل على الشعر في تدوينه وتخليده ، فكذلك كان لهم يد في إفساده وفي غشه وتزييفه . فقد كان منهم من يخلط في الشعر ، ومنهم من كان يضيف عليه أو ينقص منه ، أو يصنع الشعر فينحله الشعراء ، ولما قيل للحطيئة، وهو من المخضرمين أوص قال : « ويل للشعر من الرواة السوء »[3] . وفي قول

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٤٤) ، المفضلية رقم (٦٣) .
٢ المفضليات (٦٢) ، العصر الجاهلي (١٤٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٣٩) . (دار الثقافة ، بيروت) .

هذا الشاعر الخبير بدروب الشعر وفنونه ، شهادة كافية على ما كان لرواة الشعر من أثر في رواية الشعر ، غير أن منهم من كان يحسن الشعر ويقومه ، ذكر عن (ابن مقبل) قوله : « إني لأرسل البيوت عوجاً ، فتأتي الرواة بها قد أقامتها »[1] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن رواة الشعر في أيامه ، وعن ألوان الشعر التي كان الرواة يبحثون عنها ، فقال : « وقد أدركتُ رواة المسجديِّين والمربديين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لا يعدّونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفقر والنتف من كل شيء . ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهوهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيّات ، وما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السنّ قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة ، والأصمعي ، ويحيى بن المنجم ، وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب . ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلى كل شعر فيه الشاهد والمثل »[2] .

التصحيف والتحريف :

أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب . وقد وقع فيه جماعةٌ من الأجلاء من أئمة اللغة

---

١ مجالس ثعلب (٤٨١) .
٢ البيان والتبيين (٣/٢٣ وما بعدها) .

وأئمة الحديث،حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : من يَعرى من الخطأ والتصحيف؟

قال ابن دريد : صحّف الخليل بن أحمد ، فقال : يوم بُغاث بالغين المعجمة، وانما هو بالمهملة . أورده (ابن الجوزي)[1] . وهو شيء لا يمكـــن وقوعه من الخليل ، صاحب العلم الغزير بأحوال العرب ، وقد يكون من فعل النساخ ، إن صح كلام (ابن الجوزي) ، فنسب التصحيف الى الخليل .

وسببه الخط ، إما لتشابه الحروف ، وإما بسبب عدم وجود الحركات ، فمن النوع الأول حديث ينسب الى الرسول هو : « تسمعون جرش طير الجنة » ، وكان (الأصمعي) قد سمعه في مجلس (شُعبة) ، فقال : (جرس) بالسين لا بالشين[2] . ومن هذا القبيل : ما وقع من تصحيف في شعر للحطيئة هو قوله:

وغررتني وزعمت انك لابن بالصيف تامر

أي كثير اللبن والتمر ، وقد قرأ :

وغررتني وزعمت انك لا تني بالضيف تامر

أي لا تتوانى عن ضيفك بتعجيل القرى اليه .

ومثل ذلك تصحيف الأصمعي في بيت لأوس :

يا عام لو صادفت أرماحنا لكان مثوى خدك الأخرما

فقرأه (الأحزما) ، وانما هو (الأخرما) بالراء ، وهو طرف أسفل الكتف[3] .

ومن ذلك ما وقع بين الأصمعي والمفضل عند (عيسى بن جعفر) ، فقد ناظر (المفضل) الأصمعي ، بأن أنشد بيت أوس بن حجر :

وذات هدمٍ عارٍ نواشرها تُصمِت بالماء توْلباً جدعا

فقال له الأصمعي : « هذا تصحيف ، لا يوصف التولب بالإجداع ، وانما

---

١ المزهر (٢/٣٥٣ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٣٥٤) .
٣ المزهر (٢/٣٥٥) .

هو جذعاً . الجذع : السيء الغذاء . قال : فجعل المفضل يشغب ، فقلت له : تكلم كلام النمل وأصب . لو نفخت في شبور يهودي ما نفعك شيئاً »[1] .

وقرىء يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدير أفرد جحشها

فقال أعرابي حضر المجلس للقارىء ضل ضلالك أيها القارىء ! انما هي ذات الدبر ، وهي ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد[2] .

وقد أوردت الكتب أمثلة كثيرة على التصحيف ، وقع فيه كثير من العلماء ، من ذلك ما وقع لأبي عمرو وللأصمعي ، ولأبي حاتم ولكبار علماء اللغة ، ويعود سببه الى التنقيط ، فالحروف مثل الجيم، والحاء ، والخاء ، تميز بينها النقط ، فإذا أخطأ الكاتب في وضع النقطة في محلها ، وقع التصحيف . وقد يقع ، ولا يقع خلل في القراءة ، وإنما يتبدل المعنى ، دون أن يشعر القارىء بوجود ارتباك في معنى المقروء ، وقد يقع في الأعلام من أسماء الرجال والنساء والأمكنة ، وقد وقع التصحيف في الكتب بسبب السهو في النسخ ، أو جهل النساخ ، ومن ذلك ما وقع في كتاب (العين) وفي كتب لغوية وأدبية ثمينة ، أمكن رد بعضه الى الصحيح ، ولم يمكن تصحيح بعض آخر ، لصعوبة تعيين المراد[3] .

وقد روى (العسكري) قصة طريفة على التصحيف والتحريف ، ذكر أنه « كان حيّان بن بشر قد وُلي قضاء بغداد ، وكان من جملة أصحاب الحديث فروى يوماً أن عرفجة قطع أنفه يوم الكِلاب ، فقال له مستمليه : أيها القاضي، انما هو يوم الكُلاب ، فأمر بحبسه ، فدخل اليه الناس ، فقالوا : ما دهاك ؟ قال : قطع أنف عرفجة في الجاهلية ، وابتليت به أنا في الإسلام »[4] .

---

١ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٤) ، العسكري ، التصحيف والتحريف (١٠٤) ، الفاضل والمفضول (٨٢) ، المصون (١٩٢) ، الحيوان (٢٥/٤) ، انباه الرواة (٣٠٢/٣) .

٢ الشعر والشعراء (٢٧/١) .

٣ المزهر (٣٥٣/٢ وما بعدها) ، النوع الثالث والاربعون معرفة التصحيف والتحريف) .

٤ المزهر (٣٥٣/٢) .

الخلط بين الأشعار :

وبسبب اعتماد الرواة على الذاكرة في حفظ الشعر وروايته ، وأنفة المتقدمين منهم من تدوينه ، ومن الرجوع الى الصحف ، وقع الخلط في شعر الشعراء ، فصاروا ينسبون شعراً لشاعر ، بينما هو من شعر شاعر آخر . ونجد في كتب الأدب أشعاراً تنسب الى شاعر ، ثم تنسب الى شاعر آخر ، أو الى شاعر ثالث في موضع آخر من الكتاب ، أو في كتب أخرى . وما كان ذلك ليقع ، لو كان القدماء قد أخذوا العلم بطريق الكتابة والتدوين . من ذلك مثلاً الشعر :

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فإنه ينسب لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، وينسبه بنو عامر للنابغة الجعدي[1] . ومن ذلك قصيدة :

تطاول ليلكِ بالأثمد   ونام الخليُّ ولم ترقد

فقد نسبت لامرىء القيس الكندي ، ونسبت لعمرو بن معدي كرب ، ونسبت لامرىء القيس بن عانس[2] .

وللسبب المتقدم وقع خلط في عدد أبيات الشعر ، فقد زاد بعض الرواة في قصيدة شاعر ، بينما نقص رواة آخرون عدد أبياتها ، وقد يدخلون في القصيدة ما ليس منها بسبب اختلاط الشعر على الراوية ، وما كان هذا ليقع لو ورد الشعر مدوناً منذ أيام الجاهلية .

ومن ذلك أيضاً ورود الشعر بروايات وبأوجه مختلفة ، فقد ورد الشعر المنسوب لأفنون التغلبي :

لو أنني كنت من عادٍ ومن ارم   غذى سخل ولقمانا وذا جدن

بروايات مختلفة ، كما قرئت بعض ألفاظه بأوجه مختلفة من أوجه الإعراب[3] ،

---

١ المزهر (١/١٨٣) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٣١) .
٣ مجالس العلماء (٤٢ وما بعدها) .

وما كان ليقع هذا الإختلاف لو كان الشعر قد ورد مدوّناً أولاً ومشكولاً ثانياً، فلما جاء رواية بالألسن وقع فيه هذا الاختلاف . ونجد العلماء يغلط بعضهم بعضاً في اعراب ألفاظ الشعر ، تتغير معانيه بقراءتها بأوجه متعددة من الأعراب ، كما غلط بعضهم بعضاً وهاجم بعضهم بعضاً هجوماً عنيفاً خرج على حدود الأدب واللياقة بسبب الاعجام ، كما في (تعتّر) و (تعتز) في بيت الحارث بن الحلزة :

عنتاً باطلاً وظلماً كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء[1]

ونجد علماء الشعر والأدب يروون شعر شاعر بصور متباينة في كتبهم ، فتجد (الجاحظ) مثلاً ، يروي أبيات شعر لشاعر ، ثم يرويها بشكل يختلف عما ذكره لذلك الشاعر في موضع آخر من كتابه ، وذلك إما سهواً ، وإما باختلاف رواية ، واما من وقوع الزلل في اللسان . وتجد وقوع مثل ذلك في كتب اللغة ، فقد ذكر (ابن منظور) بيتاً للأعشى هو :

فأصبح لم يمنعه كيد وحيلة بساباط حتى مات وهو محرزق

ثم ذكره بعد سطرين على هذه الصورة :

هنالك ما أغنته عزة ملكه بساباط،حتى مات وهو محرزق[2]

وقد يقع ذلك عن تعمد ، بسبب الاستشهاد في تأييد مسألة نحوية أو لغوية . فقد روي أن سائلاً سأل (أبا عمرو بن العلاء) عن جمع يد من الإنسان ، فقال : أيد ، وأنكر أن تكون الأيادي إلا في النعم ، وقال (الأخفش) : « أما إنها في علمه ، غير أنها لم تحضره ، ثم أنشد بيت (عدي بن زيد العبادي) :

أنكرت ما تبينت في أياديـ ـنا واشناقها الى الأعناق

بينما يروى :

ساءها ما بنا تبين في الأيدي واشناقها الى الأعناق[3]

---

١ مجالس العلماء (١٨) .
٢ اللسان (٣١١/٧) ، (سبط) .
٣ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٦٢) .

وقد كان العلماء يتحذلقون في مثل الأمور،ويبحثون جهدهم عن الشاذ والغريب في الشعر ، بل أخذ بعضهم يفتعل الغريب ، ويضع الشاذ ، فينسبه الى المتقدمين لإفحام الخصم ، ولإظهار مقدرته العلمية وبراعته في علوم اللغة أمام الخلفاء والحكام وهذا مما أساء بالطبـع الى العلم ، إذ أدى الى دخول المصنوع في الشعر ، والى الإساءة الى سمعة العلماء . وتجد في (مجالس العلماء) للزجاجي ، مجالس فيها من استهتار كبار العلماء بعضهم ببعض ، ومن وضع أحدهم على الآخـر ، ما يبعث على الشفقة على حال قسم منهم ، لما بلغوه في كلامهم وفي تصرفاتهم من الإسفاف بسبب محاولتهم التقدم عند الحكام ، بالمنزلة والجاه ونيل المال .

على كل حال ، فقد خفت فوضى الرواية ، بعد إقبال الناس على التدوين ، وتحبير الشعر وأمالي المجالس وأقوال العلماء وآرائهم على القراطيس ، خاصة بعد شيوع الاستنساخ وظهور جملة نسخ للكتاب الواحد ، فضبطت بهذه الطريقة الرواية بعض الضبط ، وصرنا أمام روايات متعددة للقطعة أو للقصيدة ، وقد سدد هذه الطريقة وزاد في تثبيتها إقبال العلماء على نشر المخطوطات نشراً حديثاً بواسطة الطباعة فوفرت هذه الطريقة نسخ المخطوطات القديمة للباحثين ، ويسرت لهم بذلك الوقوف عليها مما مكنهم من إبداء نظرهم على ما جاء فيها من روايات عن الشعر العربـي القديم .

الفصل الثالث والخمسون بعد المئة

أشهر رواة الشعر

اشتهر (مخرمة بن نوفل بن أهيب « وهيب » بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو من قريش برواية الشعر وبالعلم به . « وكان من مسلمة الفتح ، وله سن وعلم ، كان يؤخذ عنـه النسب[1] ، ولا سيما نسب قريش إذ كان من العالمين به . وكان عالماً بأنصاب الحرم . فبعثه (عمر) هو وسعيد بن يربوع ، وأزهر ابن عبد عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، فجددوها . وكانت أمه (رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف) شاعرة ، وكانت لدة عبد المطلب[2] .

وعرف (أبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبدالله بن عوف) بالعلم بالشعر . وهو من (بني عدي) . وكان من معمري قريش ومن مشيختهم ، وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب . وكان شديد العارضة ، وكان (عمر) يمنعه حتى كف من لسانه . وكان من مسلمة الفتح ، وكان مقدماً في قريش معظماً ، وكانت فيه وفي بنيه شدة وعرامة[3] .

وكان (أبو بكر) من الحافظين للشعر الراوين له ، روى (المطلب بن المطلب

---

1 كتاب نسب قريش (٢٦٢) ، (وهيب) ، زيدان ، تأريخ آداب اللغـة العربيـة (١/١٠١) .

2 الاصابة (٣/٣٧٠) ، (رقم ٧٨٤٢) .

3 الاصابة (٤/٣٥ وما بعدها) ، (رقم ٢٠٧) ، الاستيعاب (٤/٣١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، نسب قريش (٣٦٩ ، ٣٧٢) .

ابن أبي وداعة) عن جده قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر رضي الله تعالى عنه عند باب بني شيبة ، فمرّ رجلٌ وهو يقول :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

قال : فالتفتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى أبي بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيها الرجل المحوّل رحله ألا نزلت بآل عند مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقراف
الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يعود فقيرهم كالكافي
ويُكلّلون جفانهم بسديفهم حتى تغيب الشمس في الرجّاف
منهم عليّ والنبي محمد القائلان هلم للأضياف

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « هكذا سمعت الرواة ينشدونه »[1] .

وكان أبو بكر أحد العلماء بالنسب في قريش ، وكانوا إذا أرادوا الوقوف على نسب رجل جاءوا اليه يسألونه ، فهو عالم من علماء قريش فيه .

وكان (عمر بن الخطاب) ممن يحفظون الشعر ، ووصف بأنه كان عالماً به[2] وبأنه « كان أعلم الناس بالشعر » ، وكان يحكم على الشعر وينتقده ، ولا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر[3] ، وأنه كان بصيراً به ، حتى قيل عنه إنه كان « لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[4] ، ورووا له أمثلة كثيرة من حفظه للشعر ومن حسن نقده له ، ونفاذه في باطن معانيه ومحاسنه[5] .

---

١ الامالي ، للقالي (١/٢٤١ وما بعدها) .
٢ العمدة (١/٧٦) ، البيان والتبيين (١/٢٣٩) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٤١ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (١/٢٤١) .
٥ العقد الفريد (٦/١٢٠ وما بعدها) .

وذكر أنه كان يقدم (امرأ القيس) على بقية الشعراء[1] .

وكانت (عائشة) من رواة الشعر ، وكانت تحفظ منه ما شاء الله ، قيل انها قالت : « إني لأروي ألف بيت للبيد ، وانه أقل مما أروي لغيره[2] . وانها كانت تحفظ من شعر كعب بن مالك شعراً كثيراً ، منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك[3] ، وكانت تتمثل بالأشعار ، وربما دخل عليها رسول الله ، فوجدها تنشد الشعر[4] . قال (أبو الزناد) : « ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة . فقيل له : ما أرواك ، فقال : روايتي في رواية عائشة ، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً » ، وورد عن (عروة) قوله : « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ، ولا بطب ، ولا بشعر من عائشة »[5] . وروي انها كانت تحث على تعلم الشعر وروايته ، بقولها : « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم »[6] .

وكان (ابن عباس) من رواة الشعر وحفّاظه . سأله (عمـر) أن ينشده شعراً ، فطلب منه أن يذكر له اسم شاعر لينشد له شعره ، فقال زهير بن أبي سلمى ، فأنشده « الى ان برق الصبح »[7] ، وزعم انه كان يفسر كلمات كتاب الله بالشعر ، قال (أبو عبيد) « انه كان يُسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر »[8]. وزعم أهل الأخبار ان (نافع بن الأزرق) ، و (نجدة بن عويمر) ، سألا (ابن عباس) عن كلمات واردة في القرآن ، فجلس لهما بفناء الكعبة ، وأخذ (نافع) يسأله الكلمة تلو الكلمة وهو يشرحها لهم بشعر ، وقد دوّن نصها العلماء، أخرج بعضها (ابن الأنباري) في كتاب الوقف ، والطبراني في معجمه الكبير ، ويرجع سند (ابن الأنباري) الى (ميمون بن مهران) ، ويرجع سند (الطبراني) الى (الضحاك بن مزاحم) ، وقد أخذ (السيوطي) بالروايتين وسجلها في كتابه

---

١ الاغاني (١٩٩/٨) ، الفائق (٣٤٣/١) .
٢ العقد (١٢٥/٦) .
٣ المزهر (٣٠٩/٢) .
٤ الاغاني (١١٧/٣) .
٥ الاصابة (٣٤٩/٤) ، (رقم ٧٠٤) ، الاستيعاب (٣٤٨/٤ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ العقد (١٢٥/٦) .
٧ الاغاني (٢٩١/١٠) .
٨ السيوطي ، الاتقان (٥٥/٢) .

(الاتقان في علوم القرآن) ، بعد أن حذف منها نحو بضعة عشر سؤالاً[1] .
وقد وردت هذه الرواية بصور مختلفة[2] ، وذكر ان (أبا عبيدة معمر بن المثنى) ، أخذ أسئلة نافع وأدخلها في كتابه في غريب القرآن[3] .

وكان (معاوية) ممن يروي ويحفظ الشعر الجاهلي ، وقد رووا عن حفظه للشعر الجاهلي واستشهاده به في كلامه شيئاً كثيراً ، فزعموا أنه كان يمتحن الناس بأشعار الجاهليين ، فإذا وجد في أحدهم علماً بها زاد في عطائه وقدمه عنده وأجزل عليه[4] . ورووا أنه كتب الى (زياد) بشأن ابنه ، وقد وجده عالماً بكل ما سأله عنه إلا الشعر : « ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبرّ ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليربه فيقاتل[5] .
ويروى أنه سأل (عبدالله بن زياد) ، ما منعك من روايته ؟ قال : كرهت أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري ، فقال : أعزب ! والله لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفّين مراراً ، ما يمنعني من الإنهزام إلاّ أبيات ابن الإطنابة ، وتمثل بها ، ثم كتب الى أبيه أن روّه الشعر ، فروّاه فما كان يسقط عليه منه شيء[6] .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع الشعر الجاهلي فقال : « والعرب أوعى لما تسمع ، وأحفظ لما تأثر ، ولها الأشعار التي تقيد عليها مآثرها ، وتخلد لها محاسنها. وجرت من ذلك في إسلامها على مثل عادتها في جاهليتها ، فبنت بذلك لبني مروان شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتدبيراً لا يحصى »[7] . وقد كان لبني سفيان وآل مروان

---

١ الاتقان (٢/٥٥ ـ ٨٨) .
٢ الكامل ، للمبرد (٥٦٦ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الوسائل في مسامرة الاوائل (١١٢) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية(٢٤٣) .
٤ الاغاني (٣/١٠٠ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٣٣) ، (٣/٩) ، الفائق (١/٢٤٠) .
٥ العقد الفريد (٦/١٢٥) .
٦ المزهر (٢/٣١٠ وما بعدها) ، وتروى هذه القصة بروايات أخرى ، راجع المصون ، للعسكري (١٣٦) ، مجالس ثعلب (٨٢)الامالي ، للقالي (١/١٥٨) ، عيون الاخبار (١/١٢٦) ، ديوان المعاني (١/١١٤) ، المرزباني ، معجم (٩) ، (فراج) ، عيون الاخبار (٣/١٥٩) . مجالس ثعلب (٦٧) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٧ البيان والتبيين (٨٨) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م ، المطبعة الكاثوليكية) .

عناية فائقة بالشعر الجاهلي ، فقد كان (معاوية) كما ذكرت يحفظ كثيراً من ذلك الشعر ، وينقب عنه ، وكان يسأل من يجد فيه العلم عنه ، حتى زعم أنه ذكر قصيدتي (عمرو بن كلثوم) و (الحارث بن حلزة) اليشكري ، وقال كانتا : « من مفاخر العرب ، وكانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[1] . وزعم أن (بني أمية) « كانوا ربما اختلفوا وهم بالشأم في بيت من الشعر ، أو خبر ، أو يوم من أيام العرب ، فيبردون فيه بريداً الى العراق »[2] ، وأنهم كانوا يسألون الوافدين عليهم من سادات القبائل ومن الأعراب ومن العارفين بالشعر عن الشعراء، وقد يذكرون بيتاً أو شعراً حفظوه لا يدرون اسم قائله ، فكانوا يستفسرون عن قائله ، وعن المناسبة التي قال الشاعر شعره فيها ، ويحسنون جائزة من له علم بالشعر والأخبار[3] .

وكان (عبد الملك بن مروان) من العلماء بالشعر الجاهلي ، قيل انه كان يمتحن الناس به ، ومنهم (الحجاج بن أبي يوسف) الثقفي[4] . وقد ذكر انه استدعى اليه (عامر بن شراحيل) الشعبي ، ليحدثه عن الحلال والحرام ، وعن أشعار العرب وأخبارهم ، وكان (الشعبي) من ذلك الطراز البارع في الشعر وفي أخبار العرب وفي الحلال والحرام[5] ، وروي ان (عبد الملك) ، كان قد طرح أربعة من شعراء المعلقات ، وأثبت مكانهم أربعة[6] ، واذا صح هذا الخبر دل على وجود القصائد المسماة بالمعلقات في ذلك العهد .

وروي انه كان يقول : اذا أردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزرق من بني قيس ابن ثعلبة ، وبأصحاب النخيل من يثرب ، وأصحاب الشعف من هذيل[7]. ويظهر انه كان من المعجبين بشعر (الأعشى) ، روي انه قال لمؤدب ولده : « أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة »[8] . والأعشى هو من بني قيس بن ثعلبة،

---

١ الخزانة (١٦٢/٣) .
٢ العسكري ، التصحيف والتحريف (٤) .
٣ الاغاني (٩١/٣) .
٤ ياقوت ، ارشاد (٢٧/١) ، الامالي ، للقالي (١٥/١) .
٥ ارشاد (٩٦/١ وما بعدها) ، الخزانة (٢٥٠/٢) ، (هارون) .
٦ الخزانة (٦١/١) ، الخزانة (٢٨٨/١) ، (بولاق) .
٧ العقد (١٢٤/٦) .
٨ جمهرة اشعار العرب (٦٣) .

وقد كان يقيم وزناً كبيراً للشعر في تأديب الأولاد . فكانت وصيته لمؤدب ولده : « روهم الشعر ، روهم الشعر ، يمجدوا وينجدوا »[1] . وروي انه تمثل وهو بمرضه اللذي مات فيه بشعر (ابن قميئة) ، وذلك أمام (الشعبي) ، فأنشده (الشعبي) شعراً من شعر (لبيد)[2] .

ونجد في الأخبار أن عبد الملك ، كان إذا شك في شعر ، أو أراد الوقوف عليه وعلى ظروفه ، كتب الى العلماء به ، يسألهم عنه ، أو يستدعي ممن يعرف أن له علماً به ، فيسأله عنه ، أو يسأل آل الشعر أو أحد أفراد قبيلته عنه . وكان كثير الحفظ له ، حتى كاد لا يدانيه فيه كثير من حفاظ الشعر ، وكان يجمع اليه الشعراء في يوم ، حتى يستمتع بإنشاد شعرهم ، وشعر المتقدمين عليهم. وكان له ذوق في الشعر ونقد دقيق له ، ذكر أنه قال يوماً للشعراء وقد اجتمعوا عنده : « تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجبل مرة والجبل أوعر ، أفلتم كما قال أيمن بن خريم » ، ثم ذكر شعره في بني هاشم[3] . وقال للأخطل ، وقد كان قد قال له : « يا أمير المؤمنين ، قد امتدحتك فاستمع مني » « إن كنت إنما شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي في مدحتك، وإن كنت كما قالت أخت بني الشريد[4] لأخيها صخر فهات . فقال الأخطل : وما قالت يا أمير المؤمنين ؟ قال : هي التي تقول :

وما بلغت كفُ امرىء متناولٍ من المجد إلا حيث ما نلت أطول»[5]

ثم قرأ عليه الأبيات . ولما دخل (جرثومةُ) الشاعر على عبد الملك بن مروان، فأنشده والأخطل حاضر ، « قال عبد الملك للأخطل : هذا المدح ويلك يا ابن النصرانية »[6] .

وكان يجمع بين الشعراء ، ويستمع الى شعرهم ، يجمعهم حتى إن كانوا

---

١ العقد (١٣٥/٦) .
٢ الخزانة (٢٥١/٢) ، (هارون) .
٣ المصون في الادب ، لابي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري (ص ٦٢) ، (تحقيق عبدالسلام محمد هارون) ، (الكويت ١٩٦٠ م) .
٤ يعني الخنساء .
٥ المصون (٦٣) .
٦ المصون (٦٤) .

متعادين متنافسين ، فقد جمع بين جرير ، والفرزدق ، والأخطـل ، في مجلس واحد ، وذكر أنه سأل أعرابياً شاعراً عن أهجى بيت في الإسلام ، وعن أرق بيت في الإسلام ، فأشار الى أبيات لجرير،وفضل جريراً عليها ، فأيده عبد الملك في هذا الرأي[1] .

وقد وصف (عامر) الشعبي ، (عبد الملك بن مروان) وصفاً يدل على شدة إعجابه به ؛ إذ يقول في وصفه له : « فلما فرغ من الطعام وقعد في مجلسه واندفعنا في الحديث ، وذهبت لأتكلم ، فما ابتدأت بشيء من الحديث إلا استلبه مني فحدث الناس به ، وربما زاد فيه على ما عندي ، ولا أنشدته شعراً إلا فعل مثل ذلك . فغمني ذلك ، وانكسر بالي له ، فما زلنا على ذلك بقية نهارنا ، فلما كان آخر وقتنا التفت إلي وقال : يا شعبي ، قد والله تبينت الكراهية في وجهك لما فعلتُ ، وتدري أي شيء حملني على ذلك ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : لئلا تقول : لئن فازوا بالملك أولاً لقد فزنا نحن بالعلم ، فأردت أن أعرّفك أنّا فُزنا بالملك وشاركناك فيما أنت فيه »[2] ، ولهذا اجتمع اليه الشعراء وعلماء الأخبار ورواة الناس ، حتى حفلت بهم مجالسه ، وكان يذاكرهم ويحادثهم وينوه بهم ويدني مجالسهم[3] . وذكر ان عبد الملك أرسل الى الحجاج أن يرسل اليه (الشعبي) ، فأرسله اليه ، فلما دخل عليه كان (الأخطل) عنده ، فأخذ يسأله عن الشعر ، ويسأل الأخطل عنه ، حتى اذا انتهى ، قال له : يا شعبي ، انما أعلمناك هذا ، لأنه بلغني ان أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة ، فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق من أهل العراق »[4] . وكان الشعبي قد جعل الخنساء أشعر النساء أما عبد الملك ففضل ليلى الأخيلية عليها . فشق ذلك على الشعبي ، فقال له ذلك القول ، وردد عليه أبيات الأخيلية حتى حفظها . والرواية المتقدمة التي أخذتها من (الرافعي) هي هذه الرواية بشيء من التغيير .

وكان يتمثل بالشعر الجيد ، ويثني على الحسن منه ، ويحسن نقده . تمثل بشعر

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٥ وما بعدها) .
٢ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٠٩) .
٣ الرافعي (١/٤٠٧) .
٤ أمالي المرتضى (٢/١٦ وما بعدها) .

لهذيل بن مشجعة البولاني ، وقال : « هذا والله شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسدَ واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألة عند الحاجة »[1] . وله مجالس كان يسأل فيها الناس عن الشعر ، يمتحنهم ، وذكر أنه سأل رجلاً وهو بالكوفة عن شعر (ذي الاصبع العدواني) وعن أخباره ، وكان من عدوان ، فلما وجده جاهلاً حط من عطائه[2] ، وذكر أنه اجتمع بالربيع بن ضبيع الفزاري ، وسأله عن أخباره[3]،وأنه كان يبدي ملاحظات قيمة على أشعار الشعراء الجاهليين والمعاصرين له[4] . وروي أنه كان يبحث عن شعر الشعراء بما فيهم الشعراء المعاصرون له ، فلما قدم (الأجرد) (الأحرد) ، وهو من شعراء ثقيف في نفر من الشعراء ، قال له : إنه ما من شاعر إلاّ وقد سبق الينا من شعره قبل رؤيته فما قلت»[5] .

وكان (الوليد) و (سليمان) ابنا (عبد الملك) من المولعين بالشعر كذلك ، وذكر أن (الوليد) كان يقدم (النابغة) على غيره من الشعراء ، وكان (سليمان) يقدم (امرأ القيس) ، فذكر ذلك لعبد الملك ، فبعث الى أعرابي فصيح ، ليكون الحكم بينهما[6] . ورويت القصة بشكل آخر ، ورد فيها أن (الوليد بن عبد الملك) تشاجر مع أخيه (مسلمة) في شعر (امرىء القيس) و (النابغة) الذبياني في وصف طول الليل أيهما أجود ، فرضيا بالشعبي فأحضر ، فصار الحكم بينهما[7] .

وكان (هشام بن عبد الملك) من المولعين بالشعر كذلك ، ذكر أنه كتب الى عامله في أشخاص (حماد) الراوية اليه لبيت سمعه لم يعرف اسم قائله .

وكان (الوليد بن يزيد) من المتيمين بالشعر ، وهو نفسه شاعر مجيد ، وكان يستدعي (حماد) الراوية ليسأله عن الشعر ، وقد قتل في سنة ست وعشرين ومائة . وكان منهمكاً في اللهو وشرب الخمر وسماع الغناء ، ذكر انه استفتح

---

١ رسائل الجاحظ (١/٣٦٢ وما بعدها) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٤٩ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٥٣) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٧٨) .
٥ الشعر والشعراء (٢/٦٢٠) .
٦ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٧٢) .
٧ الخزانة (٢/٣٢٥ وما بعدها) .

القرآن ، فخرج له : « واستفتحوا وخاب كـل جبار عنيد »[1] ، فألقاه ونصبه غرضاً ورماه بالسهام ، وقال :

تهدّدني بجبـارٍ عنيـد فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يومَ حشرٍ فقل: يا رب مزّقني الوليد[2]

وكان اذا أراد الاستفسار عن شعر جاهلي خفي أمره عليه ، أرسل الى (حماد) يسأله عنه[3] ، كما كان يسأل غيره عنه كذلك .

وروي انه نشر يوماً المصحف ، وجعل يرميه بالسهام ، وهو يقول :

تذكرني الحساب ولستُ أدري أحقاً ما تقول من الحساب
فقـل لله يمنعني طعامـي وقـل لله يمنعني شرابي

وانه قال :

اسقياني وابن حرب واسترانـا بـإزار
فلقد أيقنت انـي غير مبعوث لنار
واتركا من طلب الجنّة يسعى في خسار
سأسوس الناس حتى يركبوا دين الحمار[4]

الى غير ذلك من أشعار وأخبار ، وروايات تتهجم عليه ، نسبت بعضها الى أهله وأقاربه ، بل زعم ان الرسول لعنه في حديثه[5] ، ومثل هذه الأحاديث من الحديث الموضوع .

---

١ ابراهيم ، الآية ١٥ .
٢ الخزانة (٢/٢٢٨) ، (هارون) ، الخزانة (١/٣٢٨) ، (بولاق) .
٣ الخزانة (٤/١٢٩) ، (بولاق) ، وورد بصورة أخرى تختلف بعض الاختلاف عن هذه الرواية ، أمالي المرتضى (١/١٣٠) .
٤ أمالي المرتضى (١/١٢٩) ، ورويت بصور أخرى ، الاغاني (٧/٤٦) ، رسالة الغفران (٤٤٤) .
٥ أمالي المرتضى (١/١٢٩) ، راجع رسالة الغفران حيث تجد بعض اشعاره (٤٤٤ وما بعدها) .

وفي شعر الوليد سلاسة وطبع ، وعدم مبالاة ، فالحياة في نظره ، سماع غناء، وخمر طيب ، أما الحكم والملك ، فلا يساويان شيئاً :

أنا الأمامُ الوليــد مفتخراً أجر بُردي ، وأسمع الغزلا
أسحب ذيلي الى منازلهـا ولا أبـالي من لام أو عذلا
ما العيش إلا سمـاع مُحسنة وقهوة تترك الفتى ثَمِـلا
لا أرتجي الحور في الخلود وهل يأمل حور الجنان من عقلا ؟
إذا حبتك الوصال غانيــة فجازها بــذلها كمن وصلا

ويقال إنه لما أحيط به ، دخل القصر وأغلق بابه وقال :

دعوا لي هنداً والرباب وفرتني ومسمعة ، حسبي بذلك مـالا
خذوا ملككم،لا ثبت الله ملككم فليس يساوي بعد ذاك عقالا
وخلّوا سبيلي قبل عيرٍ وما جرى ولا تحسدوني أن أموت هزالا[1]

وكان (ابن شهاب الزهري) من رواة الشعر ، وكان من المؤلفين ، وقد توفي سنة (١٢٤ هـ)[2] ، وكان راويــة للشعر ، يحفظ الكثير منه ، حتّى كان الأمويون إذا أشكل عليهم أمر من أمور الشعر ، أرسلوا اليه يسألونه عنه[3] .

وكان (عروة بن الزبير) من رواة الشعر ، ويعد من أشهر رواته عند أهل الحجاز ، روى عن عائشة ، وكان يقول : « روايتي في روايـة عائشة »[4] ، وقد روى عن اختها (أسماء) بنت أبي بكر ، روى عنها شعراً لزيد بن عمرو بن نفيل ، ولورقة بن نوفل[5] ، وكان يزور آل مروان ، رآه الحجاج « قاعداً مع عبد الملك بن مروان ، فقال عروة : أنا لا أم لي ! وأنا ابن عجائز الجنة ! ولكن إن شئت أخبرتك من لا أم له يا ابن المتمنية ! فقال عبد الملك : أقسمت عليك أنِ تفعل ، فكفّ عروة . والمتمنية ، هي الفُريعة بنت همام ، أم الحجاج

---

١ رسالة الغفران (٤٤٤ وما بعدها) ، الاغاني (٤٦/٧ ، ٧٣) .
٢ المعارف (٤٧٢) .
٣ الاغاني (٢٤٨/٤) .
٤ الاصابة (٣٤٩/٤) ، (رقم ٧٠٤) .
٥ الاغاني (١٢٤/٣ وما بعدها) .

وهي القائلة :

هل من سبيل الى خمرٍ فأشربها   أم من سبيل الى نصر بن حجاج[1]

وللمتمنية قصة ، لا تخلو أن تكون من وضع أعداء الحجاج .

وقد نسب أهل الأخبار الى بعض رواة الشعر حفظ الشيء الكثير من ذلك الشعر ، نسبوا الى بعضهم حفظ آلاف القصائد عدا القطع والأراجيز . ذكروا مثلاً ان (حماداً) الراوية كان يحفظ (٢٧) قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة[2] . وان (الأصمعي) ، كان يحفظ (١٦) ألف أرجوزة[3] ، وان (أبا ضمضم) ، كان يروي لمائة شاعر اسم كل منهم (عمرو)[4] ، وأن (أبا تمام) حفظ (١٤) ألف أرجوزة من أراجيز الجاهلية غير القصائد والمقاطيع[5] ، الى أمثال ذلك من أرقام لا تخلو من مبالغات أهل الأخبار .

وروي أن فتياناً جاءوا الى (أبي ضمضم) بعد العشاء ، فقال لهم : ما جاء بكم يا خبثاء ؟ قالوا : جئناك نتحدث ، قال : كذبتم ، ولكن قلتم كبر الشيخ فنتلعبه عسى أن نأخذ عليه سقطة ! فأنشدهم لمائة شاعر ، وقال مرة أخرى لثمانين ، كلهم اسمه عمرو[6] . وقال (الأصمعي) : « فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين . فهذا ما حفظه أبو ضمضم ، ولم يكن بأروى الناس ، وما أقرب أن يكون من لا يعرفه من المسمّين بهذا الإسم أكثر ما عرفه » .

ولما نشأ التدوين بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة في الإسلام ، كان الشعر في طليعة الموضوعات التي عني الناس بها في أيام الأمويين فما بعد . فجمعوا شعر الشعراء على انفراد ، وجمعوا شعر جماعة منهم ، أو شعر قبيلة أو قبائل،وجمعوا

---

١ الفائق (٣/٥٢ وما بعدها) .
٢ النجوم الزاهرة (١/٤٢٠) ، زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٧) .
٣ ابن خلكان (١/١٢١) ، طبقات الادباء (١٥١) ، زيدان (١/٧٧) .
٤ الشعر والشعراء (٤) . زيدان (١/٧٧) .
٥ ابن خلكان (١/١٢١) ، زيدان (١/٧٧) .
٦ الشعر والشعراء (٩) ، (الثقافة) .

شعر طبقة من الطبقات الاجتماعية ، كما عنوا بالاختيارات وغير ذلك[1] .

وقد أخذ بعض رواة الشعر الجاهلي من منابعه ، أي من القبائل ، « قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب : دخل أبو عمرو اسحاق بن مرار البادية ومعه دستيجان من حبر ،فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب »[2] . (وأبو عمرو) هذا ، هو أبو عمرو الشيباني .

وقد أشار (ابن النديم) والعلماء الذين عنوا بالشعر الى أسماء نفر من العلماء عنوا واشتغلوا بجمع الشعر ، وذكروا أسماء كتبهم واختياراتهم . وقد وصل الينا بعض ما اشتغلوا فيه وجمعوه ، فطبع ، ومنه ما لا زال مخطوطاً محفوظاً في خزائن الكتب . وهو معروف يعرف الناس المواضع التي يوجد فيها ، وقد يهيأ له من يقوم بطبعه وتيسيره بذلك للناس ، غير أننا لا نزال نجهل مصير عدد كبير من الدواوين والأشعار والاختيارات التي ذكر (ابن النديم) وغيره أسماءها مع أسماء جامعيها ، لا ندري إذا كانت اليوم في خزائن الكتب لا يعرف الناس من أمرها شيئاً ، لعدم إحاطة المسؤولين بأمر تلك الخزائن العلم بها ، أو أنها عند أسر لا تعرف من أمر المخطوطات شيئاً ، لجهلها بها وبالعلم ، أو أنها تلفت وولت لعوامل عديدة ، فلا أمل إذن من بعثها ونشرها .

وقد تحرش (الجاحظ) بنموذج من رواة الشعر بالبصرة ، فقال : « وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفقر والنتف من كل شيء. ولقد شهدتم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيات ، وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة ، والأصمعي ، ويحي بن المنجم ، وأبي مالك

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٦٧/١) .
٢ نزهة الالباء (ص ٦١ وما بعدها) .

عمرو بن كركرة ، مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده . وكان خلف يجمع ذلك كله »[1] .

ولم يقتصر عمل الراوية على رواية الشعر وإنشاده للناس ، بل كان يقوم أيضاً بشرح غامض ألفاظه وبإجلاء ما قد يكون في الشعر من معان خفية غامضة ، كما كان يقوم بشرح الظروف والمناسبات التي نظم الشعر فيها ، الى غير ذلك من أمور تتعلق بالشعر . ولهذا فإن راوية الشاعر ، هو ديوان حي للشاعر ، فيه كل ما يتعلق بشعر ذلك الشاعر .

ولم يقتصر جمع الشعر على عشاقه ورواته والعلماء به ، أو على الرواة الشعراء، بل ساهم فيه أناس تخصصوا بأمور أخرى، كان لاختصاصهم اتصال متين بالشعر ، مثل علماء النسب وعلماء الأيام والأخبار . فقد أمدنا هؤلاء بمادة لا بأس بها من الشعر الجاهلي ، في الجاهلية وفي الاسلام . كانوا إذا تحدثوا عن نسب قبيلة أو عن نسب رجل معروف ، ذكروا ما قيل في حقها أو في حقه من مدح أو هجاء ، وكانوا إذا تكلموا عن أيام الجاهلية ، اضطروا الى سرد ما قال فيها أبطالها وفرسانها من شعر . فقد كان من عادة الأبطال إنشاد شعر التبجح بالنفس وبمفاخرها وبمفاخر القبيلة حين نزولهم ساحة القتال ، وكان من عادة المنتصر تخليد نصره بأشعار ينشدها أبناء القبيلة ، لتكون تسجيلاً لمفاخره بين الناس .

وساهم علماء العربية : علماء اللغة والنحو والتفسير والحديث مساهمة تذكر في تخليد الشعر الجاهلي ، بما جمعوه من شواهد في اللغة وفي النحو وفي الصرف،وفي تفسير القرآن والحديث من أبيات وقطع بل قصائد أحياناً . فقدموا لنا بفعلهم هذا مادة ساعدتنا في زيادة معارفنا عن شعر ما قبل الاسلام ، وفي ضبط الشعر الوارد في المصادر الأخرى ، وتصحيح ما قد يكون قد وقع في الروايات المتضاربة من أوهام ، كما أمدتنا بمادة لا بأس بها ، بل جديدة ونادرة أحياناً عن أصحاب الشعر وعن المناسبات التي قيل فيها .

وقد تعرض (الجاحظ) لأمر هؤلاء في الشعر ، فقال : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب . ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أ، غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه

---

١ البيان والتبيين (١٠٠) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

الشاهد والمثل »[1] .

يقول (بروكلمن) : « ولم يبدأ جمع الشعر إلا في عصر الأمويين ، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين ، بيد ان معنى التحري في وثوق الرواية ، والتدقيق في النقل اللغوي على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا ، كان أمراً غريباً بعد على جمّاع ذلك العصر . ولما كان كثير من هؤلاء الجماع أنفسهم شعراء ، فقد ظنوا انه ليس من حقهم فقط ، بل ربما كان واجباً عليهم أيضاً في بعض الأحيان أن يصلحوا ما رووه للشعراء القدماء أو يزيدوا عليه . فلا عجب اذا لم يبالوا أيضاً بالوضع والاختراع لتوثيق رواياتهم . وقد أراد حماد الراوية أن يفسر تفوقه ، والتفوق المزعوم لأصحابه الكوفيين في الدراية بالشعر القديم ، فزعم انه وجد الشعر الذي كتب بأمر النعمان ودفن في قصره الأبيض بالحيرة ، ثم كشف في أيام المختار بن أبي عبيد .

لقد غيّر الرواة بعض أشعار الجاهلية عمداً ، ونسبوا الأشعار القديمة الى شعراء من الجاهلية الأولى ، كما يمكن أن يكون وضع أشعار قديمة، منحولة على مشاهير الأبطال في الزمن الأول لتمجيد بعض القبائل ، أكثر مما نستطيع إثباته .

على أنه بالرغم من كل العيوب التي لم يكن منها بد في المصادر القديمة ، يبدو أن القصد الى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دوراً ثانوياً . وقد روى علماء المسلمين أشعاراً للجاهليين تشتمل على أسماء أصنام وعبادتها ، وأن أسقطوا أيضاً أبياتاً أخرى لشبهات دينية ، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة ، لأن الشعور الديني لم يكن غالباً على نفوس العرب في الجاهلية »[2] .

ويعود الفضل في جمع الشعر الجاهلي وتدوينه وتخليده الى مدينتين اشتهرتا بالعلم، هما : الكوفة والبصرة ، فقد كان علماء هاتين المدينتين في طليعة من عني بجمع الشعر الجاهلي وتقصيه ، ولا نكاد نجد مدينة إسلامية ، بلغت مبلغها في هذه الناحية ، أو تمكنت من مزاحمتها في جمع شتات هذا الشعر وحصره في كتب مدونة صارت مرجعاً للعلماء ولعشاق هذا الشعر الى يومنا هذا . ونكاد لا نجد كتاباً في الشعر أو في الأدب ، إلا وهو عيال على علم علماء هاتين المدينتين .

---

١ البيان والتبيين (١٠١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٩ م) .

٢ بروكلمن (١/٦٥ وما بعدها) .

الغساسنة ، ليجد له مأوى عندهم ، كما فعل النابغة والمتلمس . ولما كان الغساسنة قد تأثروا بالحياة الحضرية ، أكثر من ملوك الحيرة، وقد تشربوا بالثقافة البيزنطية، فعاشوا في بيوت بدمشق بين الحضر ، وبنوا القصور الكبيرة في القرى التابعة لهم، وهي مواضع خصبة ، وقد أثثوها على الطريقة الرومية ، وكانوا يسمعون الغناء الرومي ، وكانت مصالحهم بالأعراب وبجزيرة العرب — كما قلت — غير ذات بال ، لم يحفلوا بالشعراء الوافدين عليهم احتفال ملوك الحيرة بهم ، ولم يغدقوا إغداق المناذرة عليهم ، فصار عدد الشعراء الوافدين عليهم قليلاً إذا قيس بعدد من كان يذهب منهم الى قصور الحيرة ، كما يظهر ذلك جلياً من كتب الأخبار والأدب التي تحدثت عن الشعراء الجاهليين ، ولعل هذا الصد عن الشعراء هو الذي حمل (النابغة) على ألا يمكث عند الغساسنة طويلاً ، فحمل حمله ، وعاد الى الحيرة معتذراً الى النعمان عما بدر منه من خطأ ، رامياً سبب ما وقع بينهما من قطيعة الى عمل الوشاة الحساد . ولعله كان أيضاً في جملة العوامل التي جعلت العراق يتقدم على الشأم في رواية الشعر الجاهلي وفي نشره ، فنحن لا نكاد نعرف رجلاً من أهل الشأم الصميميين ، قام بالشعر الجاهلي ، أو بأمر شعراء العرب في الشأم من أهل الجاهلية ، كما قام به أهل العراق . ولم تشتهر (دمشق) ولا غيرها من مدن بلاد الشأم بما قامت به مدن العراق من جمع الشعر الجاهلي على الرغم من تحمس الأمويين وكلفهم في جمعه وتدوينه .

وقد تعرض العلماء لأمر (المدينة) ، فقالوا : « فأما مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فلا نعلم بها إماماً في العربية . قال الأصمعي : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة .

وكان بها ابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر، وكلاماً ينسبه الى العرب، فسقط وذهب علمه وخفيت روايته ، وهو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، يكنى أبا الوليد ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر[1] . وذكر ان في جملة ما صحفه من الشعر ، قول (الحارث بن حلزة) اليشكري :

أيها الكاذب المبلغ عنا عبد عمرو وهل بذاك انتهاء

---

[1] المزهر (٤١٣/٢ وما بعدها) .

وانما هو : عند عمرو[1] .

وأقدم ما لدينا من مدونات الشعر الجاهلي ، الاختيارات التي جمعها (حماد) الراوية ، المعروفة بـ (المعلقات) ، والتي عرفت بالسموط . ولعلها الديوان الذي ذكر (ابن النديم) انه أرسله الى (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ، فاستعان به مع ديوان آخر بعثه اليه (جناد) ، ليجمع منها ومن غيرهما ديوان العرب وأشعارها[2] ، وقد يكون ديواناً آخر أوسع من هذا المجموع .

ويلي هذه الاختيارات ، اختيارات أخرى جمعها رجل من أهل الكوفة أيضاً، وراوية من رواة الشعر المعروفين هو (المفضل بن محمد بن يعلى) الضبي ، المتوفى سنة (١٦٤ هـ) (٧٨٠ م) ، أو (١٦٨) ، أو (١٧٠ هـ) ، على اختلاف الروايات . وقد اتخذه (المنصور) مؤدباً لابنه (المهدي) فعمل له الأشعار المختارة المسماة المفضليات ، وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي . قال : وأول النسخة التي لتأبط شراً :

يا عيد ما لك من شوق وابراق ومرّ طيف على الأهوال طراق[3]

[هذا وقد وقع في الجزء الأول من هذا الكتاب سهو، إذ سقطت لفظة(مائة) من « وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة » ، فصارت على هذا النحو : « وهي ثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص »[4] ، ولذلك أحببت أن ألفت نظر القراء لإصلاح هذه الهفوة] .

ويلي هذه الاختيارات اختيارات أخرى جمعها (الأصمعي) ، سأتحدث عنها أثناء حديثي عنه بعد قليل، ثم اختيارات أخرى عرفت بـ (جمهرة أشعار العرب)، قد جمعت في أواخر المائة الثالثة للهجرة . « وهي مجموعة سباعية تشتمل على سبعة أقسام ، أولها المعلقات السبع، وتحمل الأقسام الستة الباقية حلى من العناوين المختارة

---

١ المزهر (٢/٣٦٢) .
٢ الفهرست (١٤٠) .
٣ الفهرست (١٠٨) ، الاغاني (٥/١٢٥) ، بروكلمن (١/٧٣) .
٤ (٦٨) .

وهي : المجمهرات ، المنتقيات ، المذهبات ، المراثي ، المشوبات ، الملحمات »[1].

« ويسمى جامعها أبا زيد القرشي ، وقيل إن سند رواية أبي زيد هـذا ، وهو المفضل ، كان في المرتبة السادسة من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب ، واذاً فلا بد أن حياته كانت في أواخر القرن الثالث الهجري . على ان كلا الرجلين : أبي زيد والمفضل ، مجهول بالكلية فيما عدا ذلك . ويبدو لنا ان تسميتها موضوعة على اسمي كل من أبي زيد الأنصاري النحوي المشهور وشيخه المفضل . ولكن لما كان كتاب الجمهرة معروفاً لابن رشيق (٣٩٠ – ٤٥٦ هـ / ١٠٠٠–١٠٦٤م) ، فقد يكون تم تأليفه في ملتقى القرنين الثالث والرابع للهجرة »[2] .

وهناك مجموعات أخرى مثل ديوان الحماسة لأبي تمام (المتوفى ٢٣١ هـ) ، وديوان الحماسة للبحتري (٢٠٥ – ٢٨٤ هـ) ، وحماسة (الخالديين) ، أو كتاب الأشباه والنظائر ، للأخوين : أبي عثمان سعيد (المتوفى حوالى ٣٥٠ هـ) ، وأبي بكر محمد (المتوفى ٣٨٠ هـ) ، ومجموعات أخرى معروفة ، مثل كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الاصبهاني ، ذكرها (بروكلمن) و (جرجي زيدان) ، وغيرهما ممن بحث عن الشعر الجاهلي ، فلا حاجة بي اذن الى ذكرها في هذا المكان .

ولم يلزم رواة الشعر الأول وعلماء اللغة والنحو أنفسهم النص على اسم المنبع الذي غرفوا الشعر أو الخبر منه ، فصار من الصعب علينا ، بل من غير الممكن التعرف على السبيل الذي سلكه هذا الشعر الجاهلي من الجاهلية حتى وصل الى (حماد) الراوية ، أو (خلف) الأحمر ، أو غيرهما من رواة الشعر . ولو كانوا قد نصوا عليه ، لأمكن التثبت من صحة الشعر ، بنقد سلسلة السند ، أو المصدر المكتوب إن كان مكتوباً ، فيخفف بذلك من هذا الشك الذي يحوم حول صحة المصادر التي أخذ الرواة منها معينهم عن هذا التراث الخالد الجاهلي .

وقد اكتفى الرواة أحياناً بذكر اسم (أعرابي) ، نسبوا أخذ شعرهم أو خبرهم اليه ، اتصلوا به أثناء قدومه البصرة أو الكوفة ، أو في أثناء ذهابهم الى البادية لجمع العلم بأخبار العرب وبشعرها القديم منها ، ومعظمهم من قبائل مختارة

---

١ بروكلمن (١/٧٥) .

٢ بروكلمن (١/٧٥) .

نصوا على اسمها ، مثل تميم ، وأسد ، وهي القبائل التي ارتضى علماء اللغة الأخذ عنها ، وكان بعضهم ممن ترك البادية وعاش في الحاضرتين ، وأظهروا مقدرة وكفاءة في الرد على أسئلة العلماء ، استوجبت توثيقهم وتقديمهم ، حتى صار بعضهم من طبقة العلماء .

ولم يشر العلماء أحياناً الى اسم الأعرابي ، أو الأعراب الذين أخذوا عنهم ، بل اكتفوا بالاشارة الى أنهم سمعوا ما ذكروه من (أعرابي) ، أو من (أعرابي) فصيح ، أو من (فصحاء الأعراب) ، أو (فصحاء العرب) . ولا ندري حال هؤلاء الأعراب وحظهم من العلم والمعرفة بعلوم اللغة ، وبأمور القبيلة في الجاهلية ، وقد يصح الأخذ منهم في أمور لغوية تخص لهجة قبيلتهم ، أما في موضوع الشعر والأخبار ، فهناك مشاكل شائكة تجعل من الصعب قبول روايتهم، لمجرد أنهم أعراب ، وأنهم أعلم من الحضر بأمور قبيلتهم ، فبينهم من كان لا يبالي من التحقق بإجابته ، فيجيب حسب مزاجه وهواه .

وقد اشتهر وعرف بعض الأعراب ، حتى دخلت أسماؤهم في الكتب ، وقد دوّن (ابن النديم) أسماء جماعة منهم في باب دعاه : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء ، وشيء من أخبارهم وأنسابهم »[1] . وقد ذكر ان من بين هؤلاء من كان معلماً ، يعلم الصبيان بأجرة ، ويؤخذ منه العلم ، وكان شاعراً ، مثل (أبو البيداء) الرباحي ، وهو أعرابي نزل البصرة ، وعلم بها ، و (أبو مالك عمرو بن كركرة) ، وكان يعلم في البادية ويورق في الحضر مولى بني سعد ، راوية أبي البيداء ، وكان عالماً باللغة ، وله رأي طريف : « يزعم ان الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء »[2] ، و (أبو عرار) ، وهو أعرابي من (بني عجل) ، قريب من (أبي مالك) في غزارة علم اللغة ، وكان شاعراً ، وكان ممن يتصل به (جناد) و (اسحاق بن الجصاص)[3] . ولبعضهم مؤلفات،ذكر أسماءها (ابن النديم) . وقد أقام معظمهم بين الحضر ، في المدن المشهورة التي كانت تبحث عن أمثال هؤلاء ، مثل البصرة والكوفة ، ثم بغداد ، وكان أكثرهم ينظم الشعر ، ومنهم من كان كاتباً قارئاً ، طابت له

---

١ الفهرست (ص ٧١ وما بعدها) .
٢ الفهرست (ص ٧٢) .
٣ الفهرست (ص ٧٢) .

الاقامة بين الحضر ، ووجد له الرزق بينهم ، ففضل الراحة وطلب المال على الاقامة في أرض الشح والفقر .

بعض رواة الشعر :

هناك رجال غلبت عليهم رواية الشعر ، فاشتهروا بها ، مثل حماد الراوية وخلف الأحمر . غير ان هناك رجالاً ، اشتغلوا بالعربية والنحو ، لا يقل جهدهم في جمع الشعر الجاهلي عن جهد رواة الشعر ، منهم من جمعه لتفسير كلام الله، ومنهم من حفظه للاستشهاد به في ضبط اللغة وقواعد النحو ، حتى اننا لنجد في كتب اللغة والمعاجم وشواهد النحو ، أبيات شعر وقطع لشعراء جاهليين فات خبرها عن رواة الشعر ، ولهذا فنحن لا نستطيع فصل عمل هؤلاء عن عمل رواة الشعر ، وعدم الاشارة اليهم في أثناء حديثنا عن العلماء الذين كان لهم فضل جمع الشعر الجاهلي .

ومن أعرف رواة الشعر الجاهلي ، عامر بن شراحيل الشعبي ، المولود سنة (٩) للهجرة والمتوفى سنة (١٠٤) أو (١٠٥) للهجرة ، و (أبو عمرو بن العلاء) المتوفى ما بين السنة (١٥١) والسنة (١٥٩) للهجرة،وحماد الراوية ، والمفضل الضبي ، وخلف الأحمر ، وأبو عمرو الشيباني ، المتوفى سنة (٢٠٥) أو (٢٠٦) ، أو (٢١٣) للهجرة ، وأبو عبيدة ، ومحمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة (١٤٦) للهجرة ، وابنه (هشام بن محمد بن السائب) الكلبي ، وابن الأعرابي ، وابن السكّيت ، المتوفى سنة (٢٤٤) أو (٢٤٦) للهجرة ، والطوسي ، المتوفى في حوالى السنة (٢٥٠) للهجرة ، والسكّري،المتوفى سنة (٢٧٠) أو (٢٧٥) للهجرة والمبرد ، المتوفى سنة (٢٨٢) ، أو (٢٨٥) ، أو (٢٨٦) للهجرة[١] ، وغيرهم ممن تجد اسماءهم في (الفهرست) لابن النديم وفي الموارد الأخرى . ويعد (أبو عمرو ابن العلاء بن عمّار بن العريان) من (خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم) المتوفى سنة (١٥٤هـ)[٢] . من أعلم زمانه في الشعر واللغة ، وقد ذكر أن

---

١ Ch. J. Lyall, Ancient Arabian Poetry, pp. XXXIX.

٢ المعارف (٥٤٠) ، أخبار النحويين ، للسيرافي (٢٨ وما بعدها) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (١١٢/١٠) ، تهذيب الاسماء واللغات (٢٦٢/١) .

اسمه (زبّان بن العلاء بن عمار) المازني[1] . وكان عالماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها ، وكان مشهوراً في علم القراءة والحديث واللغة والعربية[2] . وقد أخذ الشعر عن أعراب أدركوا الجاهلية ، واثنى عليه (الجاحظ) ، وأطرى على علمه ، فقال : « كان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان. حدثني الأصمعي ، قال : جلستُ الى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي . قال : وقال مرة : لقد كثُر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته . يعني شعر جرير والفرزدق وأشباههما . وحدثني أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس » ، « وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء ، قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ[3] فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد الى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »[4] .

وقد فسر بعض المستشرقين إحراق (أبو عمرو بن العلاء) لكتبه ، على انه كان تحت تأثير أزمة دينية تدل « على ان أوساط التدين في العراق لا تنظر بعين الارتياح الى التنقيب عن بقايا الوثنية »[5] . وأشار بعض منهم الى ان الحرق تناول ما جمعه من الشعر الجاهلي ، وانه كان في أزمة زهدية لينصرف الى دراسة القرآن[6] . وهو تفسير غريب ، استنتجوه من لفظة (تقرأ) ، أي (تنسك) على ما يظهر ، وليس لهذه اللفظة صلة بالوثنية وبالشعر الجاهلي ، ولو كان الشعر الجاهلي ممقوتاً ، وجمعه وحفظه مذمومين ، لما حفظه الصحابة وترنموا واستشهدوا به ، ثم ان غيره من الزهاد مثل (أبو الأسود) الدؤلي ، كان يحفظ هذا الشعر ويستشهد به ، وقد رأينا ان الرسول ، كان يسمعه ويستشهد به ، ثم ان خبر

---

١ المزهر (٢/٣٠٤) ، البيان والتبيين (١/٣٢١) ، الفهرست (٤٨) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٢٧٠) .

٢ نزهة الالباء (٢٤) ، المقتبس ، للمرزباني (٢٥ وما بعدها) ، ابن خلكان (١/٣٨٦ وما بعدها) ، الذهبي ، العبر (١/٢٢٣) .

٣ تقرأ ، تنسك .

٤ البيان والتبيين (١/٣٢٠ وما بعدها) ، ابن خلكان (١/٣٧٦) .

٥ ريجيس بلاشير ، تأريخ الادب العربي (١١٠) .

٦ المصدر نفسه (الحاشية رقم ٤) .

إحراق الكتب ، لا يشير لا تصريحاً ولا تلميحاً الى علاقته بالشعر ، ولعله خبر موضوع ، وضعه (أبو عبيدة) ، لغرض ما ، كأنه كان يريد من وضعه المبالغة في علمه وفي زهده ، أو ان حريقاً غير متعمد أصاب بعض كتبه ، فضخمه ووسعه ، وجعله إحراقاً متعمداً ، إذ لا يعقل أن يقوم هو بإحراق كتبه كلها ، ثم إن قوله : « وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء ، قد ملأت له بيتاً الى قريب من السقف ، ثم انه تقرأ فأحرقها كلها » لا يخلو من مبالغة ، فليس من السهل على رجل كتابة هذا القدر من الكتب بالنسبة لذلك الوقت ، حيث كان الورق غالياً ، بحيث تملأ بيتاً الى قريب من السقف، ثم قيامه بإحراقها كلها بمثل هذه البساطة والسذاجة ، فهي في نظري قصة مصطنعة ، لا حقيقة فيها. ومما يؤيد سذاجة هذه القصة ، هو ان صاحبها عاد فقال انه رجع بعد الى علمه الأول ، فلم يكن أمامه عنده إلا ما حفظه بقلبه[1] ، مما يثبت انه أراد من وضعها المبالغة في علمه ، بزعمه انه كان قد حفظ ما شاء الله من العلم ، ومنه الشعر الجاهلي الذي كان يمجده ، ويرى انه وحده هو الشعر ، ولهذا لم يستشهد أو يحتج ببيت اسلامي ، مهما بلغ الشعر الاسلامي من الجودة والحسن ، لأنه شعر محدث ، والمحدث لا يقاس بالشعر الجاهلي الأصيل ، مهما بلغ من الاتقان .

وقد زعم أنه قال : « ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعني ما يروى للأعشى من قوله :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا »[2]

ولا ندري بالطبع إذا كان هذا الكلام المنسوب الى (أبي عمرو) هو من كلامه حقاً ، أو كان من الكلام المصنوع المنحول عليه . واذا كان صحيحاً ، فان فيه تلميحاً الى أن هناك من قد اتهمه بالوضع ، جرياً على العادة التي كانت اذ ذاك من اتهام العلماء بعضهم بعضاً بالوضع ، فروي هذا الخبر في تبرير ذمته من الوضع ، وإنه لم يضع في حياته إلا البيت المذكور .

و (عوانة بن الحكم بن عياض) الكلبي ، ويكنى (أبا الحكم) ، من هذه

---

١ البيان والتبيين (١/٣٢١) .
٢ المزهر (٢/٤١٥) ، الاغاني (٣/١٤٣) .

الرعيل الذي كان له فضل في جمع الشعر . كان من علماء الكوفة،راوية للأخبار عالماً بالشعر والنسب ، وكان فصيحاً ضريراً . وله كتب . منهـا كتاب التأريخ وكتاب سيرة معاوية وبني أمية ، وقد ذكر بعضهم أنه (لمنجاب بن الحارث)، غير أن (ابن النديم) ، نص على أنه لعوانة ، وليس لمنجاب . وذكر (ابن النديم) أنه قرأ بخط (أبي عبدالله بن مقلة) « قال أبو العبّاس ثعلب : جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وردّ الديوان الى حماد وجناد »[1] . مما يدل على أن (الوليد) كان قد استعـار منهما ديواناً كان عندهما في أشعار العرب . ولعل كل واحد منهما كان قد جمع ديواناً خاصاً به ، فاستعان (الوليد) بهما في اخراج ديوان واحد يضم مـا جاء في الديوانين من شعر . وكانت وفاة (عوانة) سنة (١٤٧ هـ) .

و (المفضل بن محمد بن يعلى الضبي) الكوفي ، المتوفى سنة (١٦٤ هـ)، (١٦٨ هـ) ، (١٧٠ هـ) ، هو من أصحاب العلم بالشعر ، وكان قد انضم الى جماعة (ابراهيم بن عبدالله بن الحسن) العلوي ، فظفر به المنصور ، وعفا عنه ، وألزمه ابنه (المهدي) ، وجعله مؤدباً له . وللمهدي عمل الأشعار المختارة المسماة (المفضليات) ، « وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه. والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي. قال : وأول النسخة لتأبط شراً :

يا عيد مالك من شوق وابراق ومرّ طيف على الأهوال طراق[2]

وذكر (ابن النديم) ان له من الكتب : (كتاب الاختيارات. وقد ذكرناه. كتاب الأمثال . كتاب العروض . كتاب معاني الشعر . كتاب الألفـاظ)[3] . وكتاب الاختيارات ، هو (المفضليات) ، ويظهر انه عرف بـ (المفضليات) نسبة الى الجامع ، فطغت هذه التسمية على الاسم الأصل[4] .

---

١ الفهرست (١٤٠) .

٢ الفهرست (ص ١٠٨) ، الاغاني (٥/١٢٥) ، ياقوت ، ارشاد (٧/١٧١) ، بغية الوعاة (٢/٢٩٧ وما بعدها) ، انباه الرواة (٣/٢٩٨ وما بعدها) ، ابن الانباري نزهة (٥٦) ، المعارف (٥٤٥) .

٣ الفهرست (١٠٨) .

٤ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٧٢ وما بعدها) .

وكان المفضل عالماً بالشعر ، وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيين . ولم يكن أعلمهم باللغة والنحو ، انما كان يختص بالشعر . وقد روى عنه (أبو زيد) شعراً كثيراً[1] .

وليست هذه القصائد التي يضمها كتاب المفضليات كلها من جمع المفضل وترتيبه على ما جاء في بعض الموارد ، وليس في هذه القصائد المطبوعة في المفضليات إلا سبعون قصيدة هي من اختيار المفضل . أما بقيتها ، فهي زيادات وإضافات وضعت على تلك القصائد[2] . وليس للمفضل منها على ما جاء في مورد آخر إلا ثمانون قصيدة هي التي أخرجها للمهدي . وأما ما تبقى منها ، فهي من اختيارات الأصمعي ، وهي أربعون قصيدة من مجموع عشرين ومئة[3] . فيكون ثلثاها على وفق هذه الرواية من اختيار المفضل . وأما الثلث الباقي ، فمن اختيار الأصمعي[4] . ولم يذكروا شيئاً عن القصائد الثماني الباقية ، وقد نص (ذيل الأماني) على أنها مائة وعشرون[5] .

ويدل هذا الإختلاف على ان رواة المفضليات لم يعتمدوا في روايتهم للكتاب على النسخة الأم ، وهي النسخة التي اختارها المفضل للمهدي . وإلا لما حدث اختلاف بين الروايات في ترتيب القصائد وفي عددها ، أو أن المفضل نفسه لم يدوّن اختياراته تلك في كتاب ، وإنما اختار ما اختاره دون تدوين ، فكان يمليه على المهدي مجلساً مجلساً ، حتى أكمل تلك الإختيارات ، وأنه ألقى اختياراته هذه على من كان يحضر مجلسه طلباً للشعر في مجالس أيضاً ، فمن هنا وقع هذا الاختلاف . وقد كان يكتفي بإلقاء المختار على طلابه دون شرح . أما الشرح المطبوع ، فليس من شرح الضبي وتفسيره ، وإنما هو من عمل رواة آخرين ورد ذكرهم في مقدمة الكتاب ، وليس للمفضل فيه إلا الاختيارات[6] .

---

١ المزهر (٢/٤٠٥ وما بعدها) .

٢ مقاتل الطالبيين (١١٩) ، « طبعة طهران » ، المفضليات (الترجمة الانكليزية) . Vol., II, p. XIV.

٣ ذيل الامالي (١٣٠) ، (دار الكتب المصرية) .

٤ المفضليات (الترجمة الانكليزية) . Vol., II, p. XIV.

٥ ذيل الامالي (١٣٠) .

٦ راجع النص العربي للمفضليات (طبعة لايل) ، (١) .

والشرح المطبوع هو من صنع أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري وجمعه ، وقد أخذه من موارد متعددة أشار اليها في الكتاب . وقد رواه عنه ابنه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، وعنه أبو بكر أحمد بن محمد الجراح الخزاز . وفي جملة من اعتمد عليه أبو محمد صاحب هذا الشرح من شيوخه ، عامر بن عمران أبو عكرمة الضبي ، وقد أملى عليه القصائد المختارة المنسوبة الى المفضل « إملاءً ، مجلساً مجلساً ، من أولها الى آخرها وذكر أنه أخذها عن أبي عبدالله محمد بن زياد الأعرابي ، وذكر أنه أخذها عن المفضل الضبي »[1] : كما كان في جملتهم أبو عمرو بندار الكرخي ، وأبو بكر العبدي ، وأبو عبدالله محمد بن رستم ، والطوسي ، وأبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح . من هؤلاء ومن أمثالهم جمع الأنباري هذا الشرح ، وفيهم من هو من الكوفة وفيهم من هو من أهل البصرة وهم من أتباع الأصمعي ، ولهذا نجد رواياته تتداخل فيه من أبيات شعر أو قصائد لم يخترها المفضل ، ومن شرح أو تفسير لكلم غريب .

فالمفضليات وإن نسبت الى المفضل ، غير انها في الواقع من جمع الأنباري المذكور ، وقد جمعها من أفواه جملة رجال ، كل واحد منهم له فيها عمل ويد . وفق الأنباري بين تلك القصائد والأشعار وبين هذه الروايات والمعارف الواردة عن الشعر ، وأخرج منها هذا الكتاب الثمين الكبير[2] .

وللمفضل أقوال حفظت في كتب أخرى غير هذا الكتاب ، فنجد أبا زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب يذكره في مواضع من كتابه ، ويذكر نتفاً من روايات مستندة اليه[3] ، كما نجد الأصبهاني يورد له أخباراً في الشعر في مواضع عديدة من كتابه الأغاني ، ونجد غيرهما من رجال الأدب يشيرون اليه . وفي الموارد التي أشاروا اليها ما يدل على علم واسع له في الشعر وعلى إدراك في النقد .

واذا كان ما ذكره (ابن النديم) عن المفضليات من قوله : « هي مائة

---

١ المفضليات (١) (طبعة لايل) ، (النص العربي) .

٢ جواد علي ، تدوين الشعر الجاهلي ، مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد السابع) (الجزء الثاني ص ٥٢٠ وما بعدها) ، (١٩٥٦) .

٣ جمهرة أشعار العرب (القاهرة ١٩٢٦ م) .

وثمانٍ وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم وتتأخر ، بحسب الرواية ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي ، قال : وأول النسخة لتأبط شراً :

يا عيد ما لك من شوق وإبراق ومر طيف على الأهوال طراق[1]

تكون هذه النسخة أصح الروايات اذن ، وكان (ابن الأعرابي) المتوفى سنة (٢٣١ هـ) قد سمع المفضل ، وكان يذكر انه ربيب المفضل ، كانت أمه تحته[2] ، فلا يستبعد أن تكون نسخته ، هي النسخة الصحيحة ، لاتصاله به .

وقد ذكر (أبو جعفر محمد بن الليث الأصفهاني قال : أملى علينا أبو عكرمة الضبي المفضليات من أولها الى آخرها ، وذكر ان المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة للمهدي ، وقرئت بعد على الأصمعي فصارت مائة وعشرين . قال ابو الحسن[3] : أخبرنا أبو العباس ثعلب ان أبا العالية الأنطاكي والسدري ، وعافية بن شبيب ، وهؤلاء كلهم بصريون من أصحاب الأصمعي ، أخبروه انهم قرأوا عليه المفضليات ثم استقرأوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره ، وضموه الى المفضليات وسألوه عما فيه مما أشكل عليهم من معاني الشعر وغريبه فكثرت جداً »[4]. وروي عن (أبي عكرمة) قوله : « مرّ أبو جعفر المنصور بالمهدي ، وهو ينشد المفضل قصيدة المسيب التي أولها أرحلت ... فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به حتى استوفى سماعها ، ثم صار الى مجلس له وأمر بإحضارهما ، فحدث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب واستحسانه اياها ، وقال له : لو عمدت الى أشعار الشعراء المقلين واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال ، لكان ذلك صواباً ! ففعل المفضل »[5] .

ويلاحظ ان الرواة مختلفون فيما بينهم في عدد قصائد وقطع المفضليات ، فمنهم من جعلها مائة وثمانٍ وعشرين قصيدة وقطعة ، كما هي رواية (ابن النديم) ،

---

١ الفهرست (١٠٨) .

٢ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .

٣ الاخفش .

٤ ذيل الامالي (١٣٠) .

٥ ذيل الامالي (١٣٠ وما بعدها) .

ومنهم من صبرها مائة وعشرين[1] .

وأما (جنّاد) (أبو محمد بن واصل) الكوفي مولى بني أسد ، فقد كان على حدّ وصف (ابن النديم) : « أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها » ، غير أنه « لم يكن له علم بالنحو » ، و « كان يلحن كثيراً »[2] . وهو يعدّ من الكوفيين ، وقد ذكروا أنه كثير الحفظ في قياس حمّاد الراوية ، وأن أهل الكوفة كانوا يلجأون اليه حين يشكون في شعر وحين يعزب عنهم اسم شاعر فيجدونه حافظاً وبما أرادوه عارفاً . غير أنهم مجمعون على أنه كان لحاناً ، « كثير اللحن جداً ، فوق لحن حمّاد » . وقد ذكروا أمثلة على لحنه ، وعلى عدم وقوفه على العروض ، فكان يخطىء فيه ويخلط في الأشعار[3] . وممن كان ينتقض علمه ويرى قلة بضاعته في العربية وفي الشعر أيضاً ، (يونس بن حبيب) (١٨٣ هـ) ، وهو كما رأينا من المتحاملين أيضاً على (حمّاد) ومن المتعصبين للبصرة على الكوفة ؛ ولهذا يكون لتحامله على (جناد) أثر من التعصب للبصريين .

وقد أخذ (الثوري) على أهل الكوفة روايتهم عن (حماد) ، و (جنّاد) واتكالهم عليهما ، وهما رجلان « كانا يرويان ولا يدريان ، كثرت روايتهما ، وقلّ علمهما » ، ومن ثم فسدت روايتهم عن الرجلين . غير أن علينا أن نكون حذرين في تقبل هذه المؤاخذة على الكوفيين في رواية الشعر ، فقد كان (الثوري) من جماعة (الأصمعي) حتى كان ينسب اليه . وكان الأصمعي يحمل على حمّاد ، وعلى أهل الكوفة ، لأنه كان بصرياً ، فلا يستبعد تحمل التلميذ لاستاذه ، وتأثره به ، فقال ما قال جناد وحماد بداعي العاطفة والتعصب للبصريين على الكوفيين .

وقد أشرت الى ورود رواية تنسب الى (ثعلب) ذكرت أن (الوليد بن يزيد ابن عبد الملك) « جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها ولغاتها ... ورد الديوان الى حماد وجناد »[4] ، مما يدل وجود ديوان للشعر عند (جناد) ، لعله كان من جمعه .

---

١ الفهرست (١٠٨) ، ذيل الامالي (١٣٠) .

٢ « من رواة الاخبار والأشعار ، لا علم له بالعربية ، وكان يصحف ويكسر الشعر ، ولا يميز بين الاعاريض المختلفة ، فيخلط بعضها ببعض » ، ياقوت ، ارشاد (٤٢٥/٢) .

٣ الارشاد (٤٢٥/٢) ، الفهرست (١٤١) .

٤ الفهرست (١٤٠) ، (أخبار عوانة) .

و (يونس بن حبيب) ، ويكنى (أبا عبد الرحمن) ، المتوفى سنة (١٨٢هـ) (١٨٣ هـ) من رواة الشعر كذلك ، وان غلب النحو عليه[1] . ذكر انه كان مولى لبني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وذكر انه من موالي ضبة . وقيل عنه : « كان أعلم الناس بتصاريف النحو » . وهو من أصحاب (أبي عمرو ابن العلاء) ، وكانت حلقته بالبصرة ، ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب وفصحاء الأعراب ووفود البادية[2] . وكان له مذاهب وأقيسة تفرد بها[3] .

وذكر ان (أبا عمرو) ، وهو (اسحاق بن مراد) ، المعروف بـ (الشيباني) مولى (بني شيبان) ، كان عالماً بشعر القبائل . « أخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها » . ولما جمع أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة . وقد توفي سنة (٢٠٦ هـ) ، وقيل سنة (٢١٣ هـ)[4] . وكان قد خرج الى البادية ليأخذ عن الأعراب ، فكان يدون ما يأخذ منهم[5] .

و (أبو عبيدة : معمر بن المثنى) التيمي ، هو من رواة الشعر وعلمائه ، كما كان من علماء اللغة وأخبار العرب وأنسابها ، وقد عرف بالطعن في أنساب الناس وبالبحث عن المثالب ، لذلك كرهه الناس ، فلما مات لم يحضر جنازته أحد، لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره . وقد توفي سنة ثمان وقيل تسع ، وقيل عشر وقيل إحدى عشرة ومائتين وقيل ثلاث عشرة ومائتين « وكان ديوان العرب في بيته »[6] . وله كتب في الأخبار والحوادث والبيوت والنسب والشعر. وفي جملة مؤلفاته شرح ديوان المتلمس[7] . ونجد له أخباراً عن أيام العرب ، مشتتة في بعض كتب الأدب[8] ، وآراء في الشعر مدونة في تلك الكتب أيضاً .

---

١ المعارف (٥٤١) ، بغية الوعاة (٣٦٥/٢) ، مراتب النحويين (٢١ وما بعدها) ، المزهر (٣٩٩/٢ ، ٤٢٣) ، ابن خلكان (٤١٦/٢ وما بعدها) .

٢ الفهرست (٦٩) .

٣ ابن الانباري ، نزهة (٤٩ وما بعدها) .

٤ الفهرست (١٠٧ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٢/١) .

٥ ابن الانباري ، نزهة (٩٣ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢٢١/١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٤٣٩/١ وما بعدها) ، المزهر (٤١١/٢ وما بعدها) ، شذرات الذهب (٢٣/٢ وما بعدها) .

٦ الفهرست (٨٥) ، المزهر (٤٠٢/٢ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٣) ، انباه الرواة (٢٧٦/٣ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢٩٤/٢ وما بعدها) .

٧ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٤/١) .

٨ بروكلمن (١٢٨/١) ، ابن الانباري ، نزهة (١٠٤ وما بعدها) .

و (الأصمعي) (عبد الملك بن قريب بن عبد الملك)،المتوفى سنة (٢١٣هـ) (٢١٦هـ) ، (٢١٧هـ) ، من العلماء الحفاظ للشعر ، وقد بالغ مترجموه في الثناء عليه ، فزعموا أنه كان يروي على روي كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة ، وذكر (ابن النديم) أنه عمل « قطعة كبيرة من أشعار العرب، ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار رواياتها »[1]. ولا تشتمل (الأصمعيات) إلا على (٧٢) قصيدة وقطعة ، ومجموع أبياتها (١١٦٣) بيتاً ، لكثرة ما فيها من المقطوعات . وعدد شعرائها واحد وستون شاعراً ، لم يسم ثلاثة منهم . وبقي خمسة مجهولين لا تعرف أسماؤهم في الموارد الأخرى . وأكثر الباقين من الجاهليين، وليس فيها إلا أربعة عشر شاعراً من المخضرمين والإسلاميين . وفيها قصيدة لكل من امرىء القيس وطرفة[2] . وقد نسب (ابن النديم) له كتاباً دعاه : «مصادر كتاب القصائد الست »[3] . وربما كان هو الكتاب الذي نشره (آلورد) برواية الأعلم الشمنتري بعنوان : دواوين الشعراء الستة[4] .

وذكر أن (الأصمعي) جمع أشعار (بني جعدة) ، وأشعار الأنصار[5] وأنه جمع (ديوان المتلمس)[6]،وديوان امرىء القيس ، وأنه روى شرح هذا الديوان لأبي عمرو الشيباني[7] . وجمع ديوان الفرزدق وجرير[8] .

وروي ان الأصمعي كان « أتقن القوم باللغة ، وأعلمهم بالشعر ، وأحضرهم

---

١ الفهرست (٨٨ وما بعدها) ، ابن الانباري ، نزهة (١١٢ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١١٢/٢ وما بعدها) ، المزهر (٤٠٤/٢ وما بعدها) .

٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٧٤/١ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٣) ، « وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على ٧١ شاعرا ، منهم نحو ٤٠ جاهليا » ، العصر الجاهلي ، لشوقي ضيف (١٧٨) .

٣ الفهرست (٨٨) .

٤ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٨٨/١) ،
W Ahlward, The Diwan of the six ancient Arabic Poets, London, 1870.

٥ الاغاني (١٧١/٥) ، (٨٢/١٩ وما بعدها) ، بروكلمن (٨٤/١) .

٦ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٩٤/١) .

٧ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٠٠/١) .

٨ المصدر نفسه (٢١٢/١ ، ٢١٣ ، ٢٢٢) .

حفظاً ، وكان قد تعلم نقد الشعر من خلف الأحمر »[1] . وروي انه كان يقول أحفظ عشرة آلاف أرجوزة . وان الرشيد يسميه شيطان الشعر ، وروي انه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة[2] .

و (ابن الأعرابي) ، (أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي) ، ممن سمع من (المفضل) الضبي ، وكان يذكر انه ربيب المفضل . كانت أمه تحته . ومات سنة (٢٣١ هـ) . فروايته للاختيارات ، يجب أن تعدّ من أصدق الروايات ، لاتصاله بالمفضل ، ولصلته به . وكان له مجلس ، يحضره طلاب العلم ، يسألونه فيه ويقرأ عليه ، فيجيب من غير كتاب . وكان ممن لازمه بضع عشرة سنة (أبو العباس) ثعلب . ويذكر (ثعلب) ان شيخه هذا « قد أملى على الناس ما يحمل على أجمال . لم ير أحد في الشعر أغزر منه »[3] . وقد أورد (ابن النديم) له جملة كتب ، روى بعضها عنه جماعة من مشاهير العلماء ، مثل (الطوسي) و (ثعلب)[4] . وذكر ان روايته للمفضليات تعدّ من أصح الروايات[5] . وقد سمع من المفضل الدواوين وصححها ، واعتبر رأساً في كلام العرب ، وكان من أكابر علماء اللغة المشار اليهم في معرفتها[6] .

وقد رمي بعض من جمع الشعر بالوضع وبانتحال الشعر وإدخاله في شعر القدماء، واتهموا بدس القصائد عليهم ، أو بزيادتها أو بتنقيص أبيات منها ، أو بإجراء تغيير عليها . وقد تمكن بعض علماء الشعر من الإشارة الى بعض الشعر المصنوع، أو المدخول ، ولم يتمكنوا من الإشارة الى البعض الآخر منه . ومن هؤلاء الذين عرفوا واشتهروا برواية الشعر وبعلمهم به ، وبصنعهم له ، ودسه بين الناس على أنه شعر قديم : حماد الراوية وخلف الأحمر .

فأما (حماد) الراوية فعلى رأس مشاهير رواة الشعر الجاهلي وحفاظه . وقد كان هو نفسه شاعراً مجيداً يضع الشعر على ألسنة المتقدمين ، لكنه اشتهر بالرواية

---

١ المزهر (٢/٤٠٣) .
٢ الرافعي (٣/١٥) .
٣ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .
٤ الفهرست (١٠٩) .
٥ ابن الانباري ، نزهة (٥٦) .
٦ ابن الانباري ، نزهة (١٥٠ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١/١٠٥ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٦) ، المزهر (٢/٤١١) ، مراتب النحويين (١٤٩ وما بعدها) ، ابن الاثير ، الكامل (٥/٢٧٥) .

أكثر من اشتهاره بكونه شاعراً . ولد سنة (٧٥) للهجرة (٦٩٤م) بالكوفة، وهو من (الديلم) في الأصل ، وعرف بـ (أبي القاسم) . وعرف والده بـ (سابور ابن المبارك بن عبيد) . سباه (ابن عروة بن زيد الخيل) ، ووهبه لابنته (ليلى) فخدمها خمسين سنة ، ثم ماتت فبيع بمائتي درهم ، فاشتراه (عامر بن مطر الشيباني) وأعتقه . وقيل إن اسم أبي (ليلى) (ميسرة) . وكان حمّاد ربما لحن في الشيء . وقيل إنه كان لصاً في شبابه ، يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فوجد في بعض سرقاته جزءاً من شعر الأنصار ، فقرأه واستعذبه وحفظه ، ثم اندفع في طلب الشعر وأيام الناس ولغات العرب[1] . وأخذ ينظم الشعر يشبه به مذهب شاعر من الشعراء ويدخله في شعره ، وكان هو بالشعر القديم بصيراً ، وحمل ذلك عنه في الآفاق ، فاختلط شعره بشعر الشعراء الجاهليين، وذاع بين الناس على أنه لهم ، حتّى صار من الصعب حتّى على نقاد ذلك الشعر والعالمين به ، تمييز الفاسد منه من الصحيح[2] .

وذكر ان (حماداً) ، هو (حماد بن هرمز) ، وكان (هرمز) من سبي (مكنف بن زيد الخيل) وكان ديلمياً ، يكنى (أبا ليلى)[3] . واذا أخذنا برواية (ابن النديم) من ان مولد (حماد) كان سنة (خمس وسبعين) ، ومن أن وفاته كانت سنة ست وخمسين ومائة[4] ، فيكون حينئذ قد عمر (٨١) سنة .

ويذكر (ابن النديم) ان (حماداً) كان في أيام (الوليد بن عبد الملك) ، وعاش الى سنة (١٥٦ هـ) ، وانه كان يقول : « كنت أنشد الوليد الشعر الجيد ، فيطلب مني السفساف فأنشده فيطرب ، فأعلم ان الأمر مدبر ، ثم أنشد المهدي السفساف ، فيطلب مني الجيد الفحل ، فأعلم ان أمرهم مقبل »[5] . وذكر عنه انه كان يجالس (المهدي) . وذكر ان « الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

١ الاغاني (٦/ ٨٧) ، الخزانة (٤/ ١٣١ وما بعدها) ، (بولاق) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/ ٢٤٥ وما بعدها) ، الفهرست ، لابن النديم (١٤٠) ، الاغاني (٥/ ١٦٣) ، ابن خلكان (١/ ٢٠٥) ، (في ترجمة حماد) ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، تدوين الشعر الجاهلي ، المجلد الرابع (حـ ٢، ٥٢٧/٢ وما بعدها) ، (١٩٥٦ م) .

٣ المعارف (٥٤١) ، ابن الانباري ، نزهة (٣٥ وما بعدها) ، الاغاني (٦/ ٧٠ وما بعدها) ، خزانة الادب (٤/ ١٢٩ وما بعدها) ، المزهر (٢/ ٤٠٦) .

٤ الفهرست (ص ١٤٠) .

٥ الفهرست (ص ١٤٠ وما بعدها) .

جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ورد الديوان الى حماد وجناد »[1]. ولم يشر (ابن النديم) الذي روى هذا الخبر نقلاً عن رواية تنسب الى (ثعلب) الى ديوان حماد المذكور في أثناء تحدثه عنه . فلعله قصد (الاختيارات) ، أي القصائد السبع، وقد يكون قصد ديواناً آخر . ولم نسمع أي خبر عن مصير الديوان الذي جمعه الوليد بن يزيد .

ويذكر (ابن النديم) أنه « لم يرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده »[2] . وهو خبر يظهر أن حماداً لم يؤلف كتباً ، وإنما كان يروي الشعر رواية ، ويمليه املاء على طلاب الشعر ، فيدوّنونه . أما أن تصنيف الكتب لم يكن معروفاً آنذاك ، وانما الناس صنفت الكتب بعده ، فيناقضه ما قاله (ابن النديم) نفسه ، من أن (زياد بن أبيه) ، ألف كتاباً في المثالب ، ودفعه الى ولده ، وقال ، استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم[3] ، ومن أن (عبيد ابن شرية) الجرهمي ، ألف كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[4] ، وقد طبع له كتاباً في (حيدر آباد) بالهند ، بعنوان : أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وهو يشتمل على أسئلة لمعاوية وأجوبة عبيد عليها ، وما قاله من أن (صحاراً) العبدي له كتاب اسمه كتاب الأمثال[5]، وما قاله من أن لعوانة بن الحكم بن عياض الكلبي ، المتوفى سنة (١٤٧ هـ) ، أي قبل (حماد) من الكتب : كتاب التأريخ ، كتاب سيرة معاوية وبني أمية[6] ، أضف الى ذلك ما ألفه (وهب بن منبه) المتوفى سنة (١١٤ هـ)[7]،و(أبو مخنف)، و (ابن شهاب) الزهري ، و (ابن سيرين) وغيرهم[8] .

وقد روى أهل الأخبار قصصاً عن مدى علم (حماد) بالشعر الجاهلي. وزعموا

---

١ الفهرست (ص ١٤٠) .

٢ الفهرست (ص ١٤٠) .

٣ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) ، المعارف (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٥٩) .

٤ الفهرست (ص ١٣٨) .

٥ الفهرست (ص ١٣٨) .

٦ الفهرست (١٤٠) .

٧ بروكلمن (١/٢٥١ وما بعدها) .

٨ راجع أخبارهم في بروكلمن (١/٢٥٣ وما بعدها) .

ان خلفاء بني أمية كانوا اذا أشكل عليهم مشكل في الشعر سألوه ، وانهم كانوا يكتبون الى عمالهم بإرساله اليهم لاستفتائه في أمر شعر جاهلي أشكل خبره عليهم وعلى من عندهم من أهل العلم بالشعر . من ذلك ما رووه عن (حماد) قوله : « كان انقطاعي الى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته . وكان أخوه هشام يجفوني لذلك ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة الى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من اخواني سراً ، فلما لم أسمع أحداً ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة ، فإذا شرطيان قد وقفا عليّ وقالا : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي ، وكان والياً على العراق ؛ فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف. ثم قلت لهما تدعاني حتى آتي أهلي وأودعهم ثم أسير معكما ! فقالا : ما الى ذلك من سبيل . فاستسلمت في أيديهما ، ثم صرت الى يوسف بن عمر ، وهو في الإيوان الأحمر ، فسلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام ورمى إلي بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله هشام أمير المؤمنين الى يوسف بن عمر . أما بعد ، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه ثنتي عشرة ليلة الى دمشق . فأخذت الدنانير ونظرت ، فإذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق في ثنتي عشرة ليلة ، فنزلت على باب هشام،واستأذنت فأذن لي فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ السلام ، واستدناني فدنوت منه حتى قبلت رجله ، فإذا جاريتان لم أر أحسن منها قط . فقال : كيف أنت وكيف حالك ؟ فقلت بخير يا أمير المؤمنين . فقال : أتدري فيما بعثت اليك ؟ فقلت : لا . قال : بعثت اليك بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله . قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

ودّعوا بالصبوح يوماً فجاءت   قينة في يمينها ابريق

فقلت يقوله عدي بن يزيد (؟) العبادي في قصيدة . قال : أنشدنيها ، فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصبـ   ـح يقولون لي أما تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبدالله   والقلب عنكم موثوق
لست أدري إذا كثر العذل فيها   أعدول يلومني أم صديق

قال حمّاد : فانتهيت فيها الى قوله :

ودّعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينهـا ابريق
قدمته عـلى عقار كعين الـ ديك صفى سلافها الرووق
مرة قبل مزجها ، فإذا مـا مزجت لذّ طعمها من يذوق

قال : فطرب هشام ، ثم قال : أحسنت يا حمّاد ، سلْ حاجتك ؟ قلت : احدى الجاريتين . قال : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما ، فأقام عنده مدة ، ثم وصله بمائة ألف درهم »[1].

وكل من تحدث عن حمّاد من مبغض ومحبّ ، مجمع على سعة حفظه للشعر وإحاطته به . وحفظه هذا الشعر هو الذي وسمه بسمة عرف بها طوال حياته وبعد وفاته ، حتى صار لا يعرف إلا بها ، هي : (الراوية) ، فقيل له حماد الراوية. ولو جرّد حماد من هـذا النعت ، لما صار في الإمكان التعرف عليه . قيل إن الخليفة (الوليد بن يزيد) قال لحماد الراوية : بمَ استحققت هذا اللقب ، فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث . فقال ، إن هذا العلم وأبيك كثير ! فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثيراً ، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قـال : سأمتحنك في هـذا ، وأمره بالانشاد . فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليـه ، فأنشده ألفين وتسع مئة قصيـدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم[2] .

وفي الأغاني خـبر آخر من هذا النوع يطري علم حماد ويثني عليه ، روي

---

١ ثمرات الاوراق ، لابن حجة الحموي (١/٨١) ، (حاشية على المستطرف) ، ابن الانباري ، نزهة (٣٥ وما بعدها) ، الاغاني (٦/٧٠ وما بعدها) .

٢ الاغاني (٦/٧١) ، ابن خلكان (٥/١٢٠ وما بعدها) ، الخزانة (٤/١٢٩ ومـا بعدها) ، (بولاق) ، ياقوت ، ارشاد (١٠/٢٥٩) .

عن الشاعر (مروان بن أبي حفصة) . زعم أنه رآه عند (الوليد بن يزيد). وكان قد دخل عليه في جماعة من الشعراء ، « وهو في فرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده ، كلما أنشد شاعر شعراً ، وقف الوليدَ بن يزيد على بيت من شعره ، وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : حماد الراوية . فلما وقفت بين يدي الوليد أنشده ، قلت : ما كلام هذا في مجلس أمير المؤمنين، وهو لُحنة لحّانة ؟ فأقبل الشيخ علي وقال : يا ابن أخي ، إني رجل أكلم العامة فأتكلم بكلامها ، فهل تروي من أشعار العرب شيئاً؟ فذهب عني الشعر كله إلا شعر ابن مقبل ، فقلت له : نعم ، شعر ابن مقبل، قال : أنشد ، فأنشدته قوله :

سل الدار من جنَبي حِبرٍ فواهبٍ إذا ما رأى هَضْبَ القليب المُضجع

ثم جزتُ ، فقال لي : قف ، فوقفت ، فقال لي : ماذا يقول ؟ فلم أدرِ ما يقول ! فقال لي حماد : يا ابن أخي ، أنا أعلم الناس بكلام العرب . يقال تراءى الموضعان إذا تقابلا »[1] .

وقد كان الخليفة (الوليد بن يزيد) يعطف على حماد كثيراً ، ويشمله برعايته، ويجالسه ، ويتباحث معه في الشعر . وقد كانت إحاطة حماد بالشعر هي السبب في تقديمه الى الخليفة ، إذ كان الوليد من العاشقين للشعر ومن الواقفين عليه المعروفين بسعة العلم به ، وكان هو نفسه شاعراً مجيداً[2] . وقد ذكر عنه انه كان يمتلك ديواناً فيه أشعار الفحول ، أو جملة دواوين جمعت أشعار العرب ، كما سبق أن أشرت الى ذلك .

ويروى عن حماد انه كان ذا ذاكرة عجيبة ، وحافظة قوية غريبة في سرعة الحفظ . روي ان (الطرمّاح بن حكيم) قصّ على ابنه هذه القصة ، قال :

---

١ الاغاني (٦/٧٢) ، الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٧ وما بعدها) .

٢ جمع شعر الوليد بن يزيد ورتبه المستشرق الايطالي ف . جبريالي ، ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٧ م ، بعنوان : ديوان الوليد بن يزيد ، وقدم له المرحوم خليل مردم بك .

أنشدت حماداً الراوية في مسجد الكوفة — وكان أذكى الناس وأحفظهم — قولي:

بان الخليط بسحرة فتبددوا

وهي ستون بيتاً : فسكت ساعة ولا أدري ما يريد ، ثم أقبل عليّ فقال : أهذه لك ؟ قلت : نعم ، قال : ليس الأمر كما تقول ، ثم ردها عليّ كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها فيها في وقته ، فقلت له : ويحك ! إن هذا الشعر قلته منذ أيام ، ما اطلع عليه أحد ، قال : قد والله قلت أنا هذا الشعر منذ عشرين سنة ، وإلا فعليّ وعليّ ، فقلت : لله عليّ حجة حافياً راجلاً إن جالستك بعد هذا أبداً . فأخذ قبضة من حصى المسجد وقال : لله عليّ بكل حصاة من هذا الحصى مئة حجة إن كنت أبالي ، فقلت ، أنت رجل ماجن، والكلام معك ضائع . ثم انصرفت »[1] .

وقد أخذ عن (حماد) أهل المصرين : الكوفة والبصرة ، ومنهم : خلف الأحمر ، وروى عنه الأصمعي شيئاً من شعره . ونسب الى (الأصمعي) قوله : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس ، فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء »[2] .

وللهيثم بن عدي خبر يشيد فيه بعلم حماد وبسعة حفظه له . وهناك أخبار أخرى في سعة حفظ حماد للشعر ، مدونة في كتب الأدب ، قد يخرجنا سردها من صلب هذا الموضوع[3] .

وقد عرف حماد كذلك بسعة علمه بالعربية ، فقالوا انه « كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » . وورد عن الهيثم بن عدي قوله فيه : « ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد »[4] ، والهيثم راويته وصاحبه. وروي ان عمرو بن العلاء كان يقدم حماداً على نفسه ، وكان حماد يقدم عمراً على نفسه[5] ، وعمرو بن العلاء نفسه من شيوخ علماء العربية في ذلك العهد .

---

١ الاغاني (٦/٩٤ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٤٠٦) ، ابن الانباري ، نزهة (٥٩) .
٣ الاغاني (٢/٢٠٩ وما بعدها) ، (٦/٧٢) ، (٧/٤٥ ، ٥٦ وما بعدها) .
٤ الاغاني (٦/٧٠ وما بعدها) ، ياقوت ، ارشاد (١٠/٢٦٥) .
٥ الاغاني (٦/٧٣) .

غير أن هنالك أخباراً تزعم أنه كان « قليل البضاعة من العربية » ، وأنه كان لحّاناً ، وأنه « حفظ القرآن الكريم من المصحف ، فصحف في نيف وثلاثين حرفاً »[1] ، وأنه قرأ « الغاديات ضبحاً » (بالغين المعجمة) ، فسعي به الى (عقبة بن مسلم بن قتيبة) الباهلي ، فامتحنه بالقراءة في المصحف، فصحف في عدة آيات[2] . ولا استبعد وقوع اللحن منه ، إذ كان من الموالي ، بعد أن وقع اللحن من عرب خلص ومن أنبل الأسر العربية ومن بعض كبار رجال الدولة في ذلك العهد . غير أن في هذا الوارد عن قلة بضاعته في العربية وفي كثرة لحنه وتصحيفه في القرآن الكريم، مبالغات وزيادات ، وضعها عليه حساده ومنافسوه ولا شك ؛ إذ لا يعقل وقوع مثل هذه الأغلاط الشنيعة من رجل وصل الى الخلفاء برواية الشعر وبتفسيره وتفسير غريبه، وعرف بين العلماء بسعة علمه بلغات العرب ، حتى كانوا يلجأون اليه في حل مشكلها وغريبها . ولو كان على مثل ما ذكر من اللحن في الكلام والتصحيف فيه ومن قلة بضاعته في العربية ، لما وصل الى الوليد بن يزيد والى هشام والى خلفاء آخرين ، وقد كانوا لا يختارون في الشعر واللغة إلا الفطاحل القديرين . قال المدائني : « وكانت ملوك بني أمية تقدمه ، وتؤثره ، وتستزيده ، فيفد عليهم ، ويسأله عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » .

ولم يكن (حماد) عند أهل البصرة ثقة ولا مأموناً ، وكانوا يضعفونه . ذكروا انه كان يصنع الشعر ويقتني المصنوع منه وينسبه الى غير أهله . ورووا ان أعرابياً جاء بمجلس (حماد) فأنشده قصيدة لم تعرف ، ولم يدر لمن هي ، فقال حماد : اكتبوها ، فلما كتبوها ، وقام الأعرابي ، قال : لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالاً ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة[3] . وروي انه قدم البصرة على (بلال بن أبي بردة) ، فقال ما أطرفتني شيئاً ، فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى . فقال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به وأنا أروي للحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس[4] .

---

١ ابن خلكان (٢٠٧/١) .
٢ ابن خلكان (١٢٩/٥) ، (حاشية رقم ١) ، (طبعة الدكتور أحمد فريد رفاعي) ، الموشح للمرزباني (١٩٥) ، (القاهرة ١٣٤٣) .
٣ المزهر (٤٠٦/٢) .
٤ طبقات ، لابن سلام (١٥) .

وقد اتهم (حماد) بالوضع ، قال (محمد بن سلام الجمحي) : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . وكان ينحل الشعر غيره ، ويزيد في الأشعار »[1] ، وقال : (يونس بن حبيب) : « إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد ، وكان يكذب ويلحن ويكسر الشعر ، ويصحف ويكذب »[2] . وروي عن الأصمعي قوله : « جالست حماداً الراوية ، فلم آخذ عنه ثلاثمائة حرف ، ولم أرض روايته وكان قارئاً »[3] . وروي عنه أيضاً قوله : « كان حماد أعلم الناس إذا نصح » ، يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار والأخبار ، فإنه كان متهماً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب . وهؤلاء كلهم من رؤساء البصرة في العلم ، وقد كان علماء هذه المدينة يطعنون كما سبق أن قلت في علمه وفي أمانته ، ولكنهم يعترفون مع ذلك بقابليته وبمواهبه في الشعر ، حتى زعموا أنه كان إذا صنع الشعر على لسان شاعر جاهلي ، صعب حتى على العلماء ، استخراجه من الصحيح .

وقد أدخله الشريف (المرتضى) في عداد الزنادقة الملحدين المتهمين في دينهم ، ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان ، وحماد عجرد ، وعبدالله بن المقفع ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، وبشار بن برد ، ومطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وصالح بن عبد القدوس الأزدي ، وعلي بن خليل الشيباني ، وقال عن (حماد) : « وأما حماد الراوية ، فكان منسلخاً من الدين ، زارياً على أهله ، مدمناً لشرب الخمور وارتكاب الفجور »[4] . ونقل عن (الجاحظ) انه كان يجتمع مع أمثاله « على الشرب وقول الشعر ، ويهجو بعضهم بعضاً ، وكل منهم متهم في دينه » . وقال عنه : « وكان حماد مشهوراً بالكذب في الرواية وعمل الشعر ، واضافته الى الشعراء المتقدمين ودسّه في أشعارهم ، حتى إن كثيراً من الرواة قالوا : قد أفسد حماد الشعر ، لأنه كان رجلاً يقدر على صنعته فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته ، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم »[5] .

---

١ طبقات الشعراء (١٤) .
٢ طبقات ابن سلام (١٥) ، المزهر (٢/٤٠٦) .
٣ المعارف (٥٤١) ، المزهر (٢/٤٠٧) .
٤ أمالي المرتضى (١/١٢٨ ، ١٣١ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (١/١٣١ وما بعدها) .

و « روي أن هارون الرشيد قال للمفضل بن محمد : كيف بدأ زهير بقوله:

دع ذا وعد القول في هرم

ولم يتقدم قبل ذلك شيء ينصرف عنه . فقال المفضل : قد جرت عادة الشعراء بأن يقدموا قبل المديح نسيباً ، ووصف إبل وركوب فلوات ، ونحو ذلك . فكأن زهيراً همّ بذلك ، ثم قال لنفسه : دع هذا الذي هممت به مما جرت به العادة، واصرف قولك الى مدح هرم . فهو أولى من صرف اليه القول ونظم ، وأحق من بدىء بذكره الكلام وختم . فاستحسن الرشيد قوله . وكان حماد الراوية حاضراً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ليس هذا أول الشعر ، ولكن قبله :

لمن الديار بقنة الحجرِ

وذكر الأبيات الثلاثة . فالتفت الرشيد الى المفضل وقال : ألم تقل إن (دع ذا ...) أول الشعر ، فقال : ما سمعت بهذه الزيادة إلا يومي ، ويوشك أن تكون مصنوعة . فقال الرشيد لحماد : أصدقني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا زدت هذه الأبيات . فقال الرشيد : من أراد الثقة والرواية الصحيحة فعليه بالمفضل ، ومن أراد الاستكثار والتوسع فعليه بحماد »[1] .

والقصة بهذا الشكل مصنوعة ، فالمعروف ان وفاة (حماد) كانت سنة (١٥٦هـ) وان ولاية (الرشيد) للخلافة كانت سنة (١٧٠ هـ) . فلا يعقل التقاء (حماد) بالرشيد أيام خلافته . ومخاطبته له بـ (يا أمير المؤمنين) . ثم إن من الصعب تصور اعتراف (حماد) بإضافة أشعار من عنده على شعر الجاهليين بمثل هذه الصورة والبساطة ، وهو في حضرة خليفة . والأغلب انها وضعت على حماد من خصومه ، للطعن به ، وللرفع من شأن (المفضل بن محمد) الضبي .

وقد وردت هذه القصة بشكل آخر ، وردت انها وقعت في أيام (المهدي) ، روي ان جماعة من العلماء « كانوا في دار أمير المؤمنين المهدي بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الراوية ، فدخل ، فمكث ملياً ،

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٥٤) .

ثم خرج الينا ، ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما ، فقال: يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم انه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته . فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا ان المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده: اني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

دع ذا وعدّ القول في هرم

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً ، إلا أني توهمته كان يفكر في قول يقوله ، أو يروى في أن يقول شعراً ، فعدل عنه الى مدح هرم وقال: (دع ذا)، أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : «دع ذا» ، أي دع ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول في هرم ، فأمسك عنه . ثم دعا بحماد ، فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لمن الديار بقنة الحجر	أقوين مذ حجج ومذ دهر ؟
قفر بمندفع النحائت من	ضفوى أولات الضال والسدر
دع ذا وعدّ القول في هرم	خير الكهول وسيد الحضر

قال : فأطرق المهدي ساعة،ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه . ثم استحلفه بإيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه ، فحلف له بما توثق منه . قال له : أصدقني عن حال هذه الأبيات ومن أضافها الى زهير ، فأقر له حينئذ أنه قائلها . فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه »[1] .

---

١ الاغاني (٨٩/٦ وما بعدها) ، الخزانة (١٢٨/٤ وما بعدها) ، (بولاق) .

فأنت ترى أن هذه القصة تكاد تكون القصة السابقة نفسها ، لولا ما أدخل عليها من ذكر اسم (المهدي) بدل الرشيد ومن تزويقات ، وهي أقرب الى الواقع من حيث الزمن من الأولى ، فقد أدرك (حماد) أيام خلافة المهدي . أما من حيث الصحة أو الكذب ، فربما كانت من وضع أعداء حماد عليه ، أو من وضع المتعصبين للمفضل الضبي المرجحين علمه على علم حماد .

وفي القصة الثانية موطن شك أيضاً ، فالمعروف أن خلافة المهدي كانت سنة (١٥٨ هـ) ، وانه اتخذ داره بعيساباذ بعد توليه الخلافة ، وقد كانت وفاة حماد سنة (١٥٦ هـ) ، أي قبل توليه امارة المؤمنين . فيظهر أنها من الموضوعات التي وضعت على حماد ، ربما وضعها أصحاب (المفضل) لتعظيم أمر صاحبهم، وللحط من شأن حماد . وقد كان (المفضل) يكره (حماداً) الراوية ، ويطعن في علمه ، بسبب تنافس الرجلين على الزعامة في العلم .

وأكثر هذه التهم التي وجهت الى علم حماد والى جهله بالعربية ، وبالعروض، إنما هي تهم وجهها اليه أهل البصرة ، عصبية لمدينتهم ولرجالهم ، وما اتهام (ابن سلام) و (يونس بن حبيب) لحماد ، بالتهم المذكورة ، سوى ترديد لهذه العصبية الضيقة ، وللخصومة على الزعامة التي كانت بين المدينتين . و(يونس ابن حبيب) الذي يحمل على حماد ، ويتهمه باللحن ، قد اتهم نفسه بتهمة اللحن، اتهمه خصومه أهل الكوفة بالطبع ، ونجد مثل هذه الاتهامات من تجهيل العلماء بعضهم بعضاً بقواعد العربية وبالوقوع في اللحن ، في صفحات الكتب الباحثة في المناظرات وفي التراجم،وفي كتب الأخبار والأدب ، حتى يكاد يكون من الصعب علينا العثور على عالم ، نقول إنه سلم من سهم من سهام النقد والتجريح .

ويظهر ان المنافسة على الزعامة في العلم بالشعر الجاهلي ، جعلت (المفضل الضبي) ينال من (حماد) ، ويظهر أثر هذه المنافسة فيما ينسب الى (الضبي) من أقوال ذكر انه قالها في (حماد) مثل قوله : « قد سُلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً » . فقيل له : « وكيف ذلك ؟ أيخطىء في رواية أم يلحن ؟ قال : « ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم

ناقد ، وأين ذلك ؟ »[1] .

و (ابن الأعرابي) ، الذي يروي انتقاص (المفضل) الضبي لحماد ، هو على ما يذكر ربيب المفضل ، كانت أمه تحته[2] ، فلا أستبعد تأثره بحنق الضبي على حماد ، بسبب المنافسة التي كانت بينه وبين حماد .

وقد اتهم حماد بالزندقة ، كما اتهم بها حماد عجرد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وعلي بن الخليل ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار ، وأبي نواس. وقد وصف (الجاحظ) الزنادقة بقوله : « ربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له ، ان الزنادقة ظرفاء ، وانهم عقلاء وأدباء ، وانهم عبّاد وأصحاب اجتهاد ، وان لهم البصائر في دينهم ، والبذل لمهجهم ، وان هناك علماً وتمييزاً ، وإنصافاً وتحصيلاً ، فيسري اليهم مسرى المهر الأرن ، ويحن اليهم حنين الواله العجول ، ويتصبب فيهم صبابة العاشق المتيم ، ويرى انه متى اتهم بهم ، فقد قضى لهم بذلك كله ، فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه ، ويرجح عنده أن يزعم انه زنديق » . وذكر انه « ما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح اللهجة ، ظريف التفصيل والجملة ، والله أعلم ببواطنهم وضمائرهم . قال أبو نواس ، وكان أيضاً زنديقاً يعدّ فيهم :

تيه مغن وظرف زنديق »[3]

وكان حماد صديقاً لحمادين آخرين هما حماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وكانوا « يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا يرمون بالزندقة »[4] . وقد هجا (حماد بن الزبرقان) (حماداً) الراوية ، فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف ربّه ويقيم وقت صلاته حمادُ
هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم يسنها الحدّاد

---

١ ياقوت ، ارشاد (٤/ ١٤٠) ، (تحقيق مركليوث) ، الاغاني (٦/ ٨٩) .
٢ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .
٣ ثمار القلوب (١٧٦ وما بعدها) ، ديوان ابي نواس (٨٩) .
٤ الاغاني (٦/ ٧٤ وما بعدها) ، الحيوان (٤/ ٤٤٧ وما بعدها) .

وأبيض من شرب المُدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد[1]

غير أن علينا باعتبارنا من المؤرخين أن نحترز احترازاً شديداً في تقبل كل ما يروى من الأخبار، ولا سيما في المسائل الشخصية، وفي القضايا التي تكتنفها الخصومات في مثل هذه الحالة . فقد كان لحماد خصوم كثيرون من أهل هذا الشأن ، وقد حسدوه على تقدمه وشهرته ، كما كان هو يحسد غيره ولا شك ان تقدم عليه . والانسان مهما تقدم وترفع ، فإنه لا يستطيع أن يجرد نفسه من العاطفة ، ولا سيما عاطفة الدفاع عن النفس وإثبات الشخصية والتنافس مع الآخرين. وقد كان المفضل الضبي – كما ذكرت – في جملة خصوم حماد ، وهو من رؤوس رواة الشعر في تلك الأيام ، وهو نفسه لم يكن من الناجين من هذه التهمة التي اتهم بها حماد .

غير أن هذا لا يعني أن حماداً كان صادقاً في كل ما قاله وفي كل ما رواه، فوضعه للشعر ، وصنعه له ، وحمله على القدماء من المسائل المتواترة التي لا سبيل الى نكرانها ، إنما أريد هنا أن أنبه على ضرورة التأني والتقصي في أثناء مجابهتنا لمثل هذه الأخبار ، لنخرج ما قد بولغ أو زيد فيه ، حتى يكون حكمنا حكماً محايداً ، أو قريباً من الواقع .

وكما استدعى خلفاء بني أمية حماداً للاستفادة منه في الشعر ، كذلك استدعاه خلفاء بني العباس الأوائل ، كالمنصور والمهدي ، ليروي لهم ما كان يحفظه من الشعر والأخبار ، وليتحدث اليهم فيما أشكل عليهم من غريب الشعر. وقد استدعاه الخليفة المنصور مرة ، فأحضر من البصرة . غير أن صلاته بهم لم تكن على ما يظهر على نحو صلاته بالأمويين ، حيث حسب عليهم . واستدعى الى المهدي، كما ذكرت ذلك . ونقرأ في رواية ان (حماداً) قال لإياس بن مطيع ، وقد ذكر صلاته بالعباسيين : « دعني فإن دولتي كانت في بني أمية ، وما لي عند هؤلاء خير »[2] ، مما يخبر انه كان مجفواً عند بني العباس ، وذكر انه قال لمروان بن أبي حفصة : « ذهب ويحك ما كنت تعهد »[3] . وقد يكون لتقدم (حماد)

---

١ الحيوان (٤/٤٤٥) .

٢ الاغاني (٦/٨١) ، (٨/٢٥٣) .

٣ « ذهب ويحك ما كنت تعهد ، ذاك زمان ، وهذا زمان » ، الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٨) ، الخزانة (٤/١٣٠) ، (بولاق) .

في العمر دخل في هذا البعد ، فقد كان قد جاوز السبعين من العمر في أيام المهدي، والعمر يؤثر بالطبع في مثل هذه الاتصالات ، التي تحتاج الى همة ونشاط ، وجواب حاضر وبديهة ، وردّ على منافسين وحساد .

وعاش حماد فشهد سقوط دولة (بني أمية) ، إذ توفي سنة (١٥٦ هـ) ، وذكر انه أبطل روايته فيما دسه على غيره من الشعر[1] .

ومن شعر (حماد) قوله :

اذا سرت في عجل فسر في صحابة — وكندة فاحذرها حذارك للخسفِ
وفي شيمـــة الأعمى زيار وغيلة — وقشب وإعمالٌ لجندلة القَذْفِ
وكلّهم شرٌ عـــلى ان رأسهم — حميدة والميلاء حاضنة الكِسْفِ
متى كنت في حيَّيْ بجيلة فاستمع — فإن لهم قصفاً يدل على حتف
اذا اعتزموا يوماً على خنقِ زائرٍ — تداعوا عليه بالنباح وبالعزف[2]

وقوله مخاطباً الشاعر أبـي عطاء السندي :

فمـــا صفراء تكنى أمّ عوفٍ — كـــأن رُجَيْلتيهـــا منجـــلان

وروي أن (أبا العطاء) أحسّ بدس حماد له ، فأجابه :

أردت زرارة وأزن زنـــا — بأنك ما أردت سوى لساني

أي أردت جرادة ، وأظن ظناً بأنك ما أردت إلا أن تستخرج رطانتي . وكان في لسانه لكنة شديدة ولثغة[3] .

ويعدّ (ابن كناسة) أبو يحيى محمد بن عبدالله بن عبد الأعـــلى الأسدي (٢٠٧ هـ) في جملـــة الرجال الذين اتصلوا بحماد ورووا عنه . ونجد في الأغاني جملة أخبار رويت عـــن حماد في الشعر والأخبار . وابن كناسة نفسه من علماء

---

١ ارشاد ، لياقوت (٤/١٣٧ وما بعدها) ، شرح المفضليات (٢/٨) ، (لايـــل) ، (مقدمة) ، الاغـــاني (٥/١٦٤ وما بعدهـــا) ، الفهرست (١٤٠) ، بروكلمـــن (١/٢٤٦) .
٢ الحيوان (٢/٢٦٦) .
٣ الحيوان (٥/٥٥٨) .

أيامه بالعربية وأيام الناس والشعر ، وقد سمع هشام بن عروة ، وسلمان الأعشى ، وروى عنه أحمد بن حنبل ومحمـد بن اسحاق الصاغاني[1]. كذلك كان أبو أيوب المديني في جملة من رأى حماداً وروى عنه[2] .

ومن أصحاب حماد : سالم بن أبي السمحاء[3] ، والشاعر عمار بن عمرو بن عبد الأكبر المعروف بـ (ذي كناز) ، وهو من الشعراء المجان المعاقرين للشراب المتهتكين القائلين للشعر الطريف المضحك المستخدمين للسخف فيه لأجل الإضحاك[4]، وابن عياش[5] ، والحسين بن يحيى[6] ، ومعاوية بن بكر الباهلي[7] .

ومن أشهر رواة الكوفة بعد حماد (خالد بن كلثوم) الكلبي ، وله صنعة في الأشعار المدونة على القبائل[8] . وكان لغوياً راوية لأشعار القبائل وأخبارها ، عارفاً بالأنساب والألقاب وأيام الناس . له كتاب أشعار القبائل يحتوي على عدة قبائل[9] .

وأما « خلف الأحمر » الذي توفي بعد (حماد) ، سنة (١٨٠ هـ) على رواية : فذكر العلماء انه « لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر : كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم ، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى »[10] . وقيل عنه « كان من أمرس الناس لبيت شعر ، وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم ...

---

١ الاغاني (١٣٥/١) .
٢ الاغاني (٢٦٦/٣) .
٣ الاغاني (٢٦٢/٥) .
٤ الاغاني (٥٦/٧ وما بعدها) .
٥ الاغاني (٦٧/٧) .
٦ الاغاني (٢٨٥/٨) .
٧ الاغاني (٧/١١) .
٨ الرافعي (٣٨٣/١) .
٩ القفطي ، انباه الرواة (٣٥٢/١) .
١٠ المستطرف (٦٠/١) ، (وكان من أمرس الناس لبيت شعر . وكان شاعرا ، يعمل الشعر على لسان العرب وينحله اياهم) ، الفهرست (٨٠) ، (أخبار خلف الاحمر)، انباه الرواة (٣٤٨/١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٥٥٤/١) ، المزهر (٤٠٣/٢).

وله من الكتب : كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر »[1] . واسمه (خلف بن حيان) ، وعرف بـ (أبي محرز) ، وكان مولى لأبي موسى الأشعري،وقيل مولى بني أمية ، وأصله من (خراسان)[2] . وقيل مولى (أبي بردة بن أبي موسى الأشعري) أعتقه وأعتق أبويه ، وكانا فرغانيين[3] . وقد ذكر (ابن قتيبة) ان في شعر العلماء تكلف ، وهو رديء الصنعة ، ليس فيه شيء جاء عن إسماح وسهولة ، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً[4] . وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار ، شاعراً كثير الشعر جيده ، ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه . وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين . ويكثر قول الشعر في وصف الحيّات ، وأراجيزه في ذلك كثيرة[5] .

وقد ذكر عنه أنه كان يتلاعب بالشعر الجاهلي ، فيزيد فيه وينقص . يروى أنه زاد البيت الأول والثالث من قصيدة (زهير بن أبي سلمى) (رقم ٤) في الديوان[6] . ونسب بعضهم اليه صنع المرثية التي رثى (تأبط شراً) بها أقاربه[7]. وقد نسب بعض العلماء اليه صنع لأمية الشنفرى[8]،المشهورة بلامية العرب التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم   فإني الى قوم سواكم لأميل

وروي عن (الأصمعي) قوله : سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيده التي فيها :

خيلٌ صيامٌ وخيل غيرُ صائمة   تحت العجاج،وأخرى تعلك اللجما[9]

---

١ الفهرست (٨٠) ، المعارف (٥٤٤) ، تهذيب اللغة ، للازهري (٤٠ وما بعدها) ، طبقات ، لابن سلام (٦) .
٢ الفهرست (٨٠) .
٣ المعارف (٥٤٤) ، المزهر (٢/٤٠٣) ، الشعر والشعراء (٢/٦٧٣) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٦) .
٥ الشعر والشعراء (٢/٦٧٣ وما بعدها) ، ياقوت ، ارشاد (١١/٦٦) ، نزهة الالباء (٣٧) ، الامالي ، للقالي (١/١٥٤) ، الزبيدي ، طبقات (١١٣) .
٦ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٦٥) .
٧ المصدر نفسه (١/١٠٤) ، (حاشية رقم ١) .
٨ الامالي ، للقالي (١/١٥٧) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٦) .
٩ الرافعي (١/٣٨١) .

وله قصائد أخرى نص على بعضها العلماء وبينوا أنها مصنوعة ، وقد وضع على شعراء عبد القيس شعراً كثيراً[1] ، وقال الجاحظ : إنه هو الذي أورد على الناس نسيب الأعراب ، وهذا النسب من أرق الشعر قاطبة وما أحراه أن يكون مصنوعاً[2] . ولما توفي خلف رثاه أبو نواس بشعر فيه :

أودى جميع العلم مذ أودى خلف من لا يعدُّ العلم إلا ما عرف
قليذمٌ من العيالم الخسف كنّا متى نشاء منه نغترف
رواية لا تجتني من الصحف[3]

وهو أحد رواة الغريب واللغة والشعر ونقاده والعلماء به وبقائليه وصناعته . وله صنعة فيه . وهو أحد الشعراء المحسنين ، ليس في رواة الشعر أحدٌ أشعر منه .

وكان يبلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبّه شعره بشعر القدماء ، حتّى يشبه بذلك على جلّة الرواة ، ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم ، من ذلك قصيدته التي نحلها ابن أخت تأبط شراً ، التي أولها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل[4]

جازت على جميع الرواة ، فما فُطِن بها إلا بعد دهر طويل بقوله :

خبرٌ ما نابنا مُصمئل جلّ حتى دقّ فيه الأجل

فقال بعضهم :

جلّ حتى دق فيه الأجل

من كلام المولدين . فحينئذ أقر بها خلف »[5] .

---

١ المزهر (٢/٤٠٣) .
٢ الرافعي (١/٣٨١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (٢/٦٧٣) ، الحيوان (٣/١٥٤) .
٤ وتنسب أيضا الى تأبط شرا ، ديوان الحماسة (٢/٣١٣) ، العقد الفريد (٦/١٥٧) ، الاغاني (٦/٨٧) ، (ان بالشعب الى جنب سلع) ، الامالي (١/١٥٦) ، أمالي المرتضى (٢/٢٨٠) ، الشعر والشعراء (٢/٦٧٤) .
٥ القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٨ وما بعدها) .

كان (خلف الأحمر) رأس البصرة في رواية الشعر وفي البصر به. كما كان (حماد) زعيم الكوفة في هذا العلم . وكان (خلف) نفسه ممن أخذ هذا العلم عن (حماد) ، فهو من أحد تلامذته ورواته وسامعيه . وكان المقدم عند أهل البصرة ، حتى كانوا لا يصدرون الرأي في شعر دونه ، واذا اختلف علماؤهم في شيء منه ، عرضوا خلافهم عليه للبت فيه[1] . وروي انه كان أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك انه جاء الى حماد الراوية ، فسمع منه[2] .

وقيل عنه إنه كان شاعراً مجيداً جيد الشعر كثيره ، لم يكن في نظرائه أحد يقول مثله الشعر[3] . ووضع على شعراء (عبد القيس) شعراً كثيراً موضوعاً وعلى غيرهم ، وأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة . وكان (خلف) أخذ النحو عن (عيسى بن عمر) ، وأخذ اللغة عن (أبي عمرو) . « ولم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان يضرب به المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ، ويبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه . وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد. فلما نسك خرج الى أهل الكوفة فعرّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي ذلك في دواوينهم الى اليوم »[4] . وروي عن خلف قوله : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب، وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني ، ويدخله في أشعارها ، وكان فيه حمق »[5] .

ويصعب في الواقع تصديق هذه الرواية المنسوبة الى خلف الأحمر ، فلم يكن حماد بإجماع المنافسين له على شيء من الفضلة والحمق ، حتى نصدق ما ورد في هذا الخبر الآحاد ، الذي هو خبر من أخبار رواة البصرة ، بل نرى من الأخبار

---

١ الرافعي (١/٣٨١) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (٥٨ وما بعدها) .
٣ المعارف (٥٤٤) .
٤ المزهر (٢/٤٠٣) .
٥ الاغاني (٦/٩٢) ، (٩/١٢٤) .

الواردة عنهم العكس ، نرى فيه الفطنة والخبث الى آخر أيامه . ثم انه كان أقدم وأشهر وأعرف وأحفظ من خلف الأحمر ، وهو في معرفة الشعر وتمييزه أمرس من صاحبه خلف ، فلا يعقل فوات ما نحله (خلف) القدماء على حماد . وقد كان الرواة أنفسهم يتعجبون من مقدرة حماد على التمييز بين الصحيح والفاسد من الشعر ، وعلى إحاطته بأساليب الجاهليين في نظم القريض ، وعلى إتقانه تلك الأساليب ، حتى صار من الصعب على عشاق الشعر التمييز بين ما كان يصنعه حماد على ألسنة الشعراء الجاهليين وبين ما كان من نظمهم حقاً . ولهذه الأسباب يصعب التصديق بهذا الخبر ، ورأيي انه من وضع أهل البصرة ، وضعوه على حماد ، كرهاً له وللكوفيين . ورواته هم من البصريين .

وما خبر توبة (خلف الأحمر) ، وخروجه الى أهل الكوفة ، ليعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس ، والتي أدخلها أهل الكوفة في دواوينهم ، وأبوا إصلاحها ، أو حذفها ، سوى قصة فيها الطعن والسخرية بعلم أهل الكوفة وبفهمهم للشعر ، وفيه مدح وتفخيم لعلم خلف بالشعر ، وإن كان لا يخلو من تجريح لخلف نفسه،وفيه مدح لعلم أهل البصرة. ولصدقهم في رواية الشعر والأخبار استهزاء اذن وتعريض بأهل الكوفة ، ليس فوقه استهزاء ، وضعه رجل فيه دعابة وتعصب وتحامل على الكوفيين .

وقد اختص (خلف) بالفروع التي اختص بها حماد بالكوفة ، وبذلك جعل البصرة تنافس الكوفة فيها . اختص بالشعر القديم ، وباللغة ، وبشيء آخر مهم جداً هو وضع الشعر وحمله على ألسنة القدماء ، فصار في هذا الباب بطل البصرة وممثلها ، كما كان حماد بطل الكوفة وزعيم الوضاعين . وقد امتاز خلف على الأصمعي العالم البصري ومعاصره بقدرته على نظم الشعر ، إذ كان هو نفسه شاعراً متمكناً في الشعر ، متقناً لفنونه ، كان من حذقه واقتداره في الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء فلا يفرق بينه وبين القديم . أما الأصمعي ، فلم يبلغ مبلغه فيه، وإن كان من علماء اللغة والأدب والنحو ومن حفظة الشعر ورواته .

وهناك روايات تنسب الصدق الى خلف ، ثم لا تكتفي بذلك حتى تجعله أعرف الناس وأعلمهم بالشعر.وروايات تذكر أنه كان أول من أحدث السماع بالبصرة ، وأنه تعلم ذلك من حماد[1] .

---

١ ياقوت ، ارشاد (٤/١٧٩) .

وكان (الأصمعي) ، وهو من علماء البصرة ، كما ذكرت ، غير راض عن (خلف) ، إذ كان يغمز فيه ، ويتهمه بالكذب . ويظهر أن ذلك بسبب المنافسة على الزعامة في العلم . روي عنه أنه قال في خلف : « رواة غير منقحين ، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُواد الإيادي قالها خلف الأحمر . وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، اليها يرجعون ، وبها يفتخرون »[1] . ويريد بهم أهل الكوفة . وذكر (الأصمعي) أيضاً أن خلفاً الأحمر « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عبثاً بهم ، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة »[2] .

وينسب الى الأصمعي قوله أنه حضر مأدبة « وأبو محرز خلف الأحمر ، وابن مناذر معنا ، فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ان يكن امرؤ القيس، والنابغة ، وزهير ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى شعرهم . قال : فأخذ صفحة مملوءة مرقاً ، فرمى به عليه فملأه ، فقام ابن مناذر مغضباً ، وأظنه هجاه بعد ذلك »[3] . وهذه القصة — إن صحت — تشير الى وجود غلظة في طبع خلف. وهناك أخبار أخرى تؤيد هذا الرأي[4] .

وقد أشار (ابن النديم) الى كتاب لخلف الأحمر ، أسماه : (كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر)[5] . وذكر ياقوت الحموي له كتابين : ديوان شعر حمله عنه أبو نواس ، وكتاب جبال العرب[6] .

ومما يؤسف له حقاً، هو أن حماداً الراوية ، أو غير حماد ممن رووا عنه ، أو أخذوا عن غيره ، لم يشيروا الى الموارد التي أخذ حماد منها هذا الفيض من الشعر ، كما أنهم لم يشيروا الى الموارد التي استقى بقية رواة الشعر منها ما رووه

---

١ الموشح (٢٠١ وما بعدها) .
٢ مراتب النحويين (٧٥) .
٣ الموشح (٢٩٦) ، الاغاني (١١/١٧) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٧٩) .
٤ « حدثني عمر بن شبة ، قال : أنشد أبو عبيدة خلفا الاحمر شعرا له ، فقال له خلف : يا أبا عبيدة ، اخبأ هذه كما تخبأ السنور خرءها » الموشح (٣٦٦ وما بعدها) .
٥ الفهرست (٧٤) .
٦ ياقوت ، ارشاد (٤/١٧٩) .

من الشعر الجاهلي . ولو ذكروه لأفادونا ولا شك بذلك كثيراً ، إذ يكون في مقدورنا التوصل الى معرفة الأشخاص الذين كان لهم فضل حمل هذه الثروة العظيمة من ذلك الشعر . ومما يؤسف له أيضاً هو أن معظم دواوين الشعراء الجاهليين لا يرتفع سندها الى رواة يتقدم عهدهم على عهد حماد . ولو ارتفعت لاستفدنا منها بالطبع كثيراً في معرفة أسماء رواة الشعر الجاهلي وحفّاظه وجامعيه وكتبته قبل أيام حماد ، ولعرفنا بذلك شيئاً عن الموارد التي أخذ منها هذا الراوية ذلك الكنز الثمين .

ولا بد من ذكر (السكري) في هذا المكان . وهو (أبو سعيد الحسن بن الحسين) السكري اللغوي ، المتوفى سنة (٢٧٥ هـ) . فله مؤلفات عديدة عن الشعر ، وشروح للدواوين . منها : شرح أشعار هذيل[١] ، وديوان أبي كبير الهذلي بشرح السكري[٢] ، وكتاب أخبار اللصوص ، جمع فيه أشعار لصوص البدو المشهورين[٣] ، وأشعار اليهود[٤] ، وشرح ديوان زهير[٥] ، وديوان امرىء القيس ، بروايته[٦] ، وشرح ديوان حسان ، وقد نقل منه (البغدادي)[٧] ، وديوان الحطيئة ، وهو روايته عن ابن حبيب[٨] ، وديوان أبي ذؤيب الهذلي[٩] ، وشرحه على ديوان عبدالله بن قيس الرقيات[١٠] ، وديوان الأخطل ، وهو روايته عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي[١١] ، وديوان الفرزدق[١٢] .

وقد أخذ السكري من الموارد التي ألفت قبله ؛ كما أخذ من علماء المصرين : البصرة والكوفة ، دون تعصب أو تحزّب ، وكان راوية البصريين[١٣] .

---

١ خزانة (٣١٧/٢) .
٢ بروكلمن (٨٤/١) .
٣ بروكلمن (٨٥/١) .
٤ بروكلمن (٨٤/١) .
٥ بروكلمن (٩٦/١) .
٦ بروكلمن (١٠٠/١) .
٧ خزانة (٣٣٣/٣) ، (٤٤/٤) .
٨ بروكلمن (١٦٨/١) .
٩ بروكلمن (١٦٩/١) .
١٠ بروكلمن (١٩٣/١) .
١١ بروكلمن (٢٠٨/١) .
١٢ بروكلمن (٢١٣/١) .
١٣ نزهة الالباء (١٤٤ وما بعدها) .

الفصل الرابع والخمسون بعد المئة

تنقيح الشعر والدواوين

والذي يطالع كتب الأدب والأخبار،ويقرأ ما ورد فيها عن الشعراء الجاهليين، يخرج منها بانطباع خلاصته ان أكثر شعراء الجاهلية ، لم يكونوا يهذبون شعرهم ، ولم يكونوا يثقفونه ، ولم يكونوا يجرون عليه تحويراً أو تغييراً أو تعديلاً ، بعد انشادهم له ، وان أغلبهم كان يقول شعره ارتجالاً من غير تحضير سابق ولا تهيئة، فهو من عفو الخاطر . جرت على ذلك سنة الشعراء في الجاهلية ، فكان شاعرهم يرتجل شعره حسب الظروف والمناسبات .

وتصدق دعوى أهل الأخبار هذه في شعر المناسبات وفي المفاجآت ، أي في الحالات التي لا يكون الشاعر فيها على علم مسبق بأنه سيقول فيها شيئاً من الشعر فتضطره المناسبة الى قول شيء منه ، أما في الحالات الأخرى ،فإن دعواهم هذه لا يمكن قبولها ، بسبب اننا نجدهم يذكرون ان الشاعر كان يهيء شعره قبل إلقائه ، وانه كان اذا نظم يحفظه رواته ، أو يدونه على صحيفة ، وقد ينقح فيه ويجود ، وان من الشعراء من كان يحرص على ألا يذيع شعره إلا بعد أمد، وإلا بعد أن يعرضه على خاصته ليروا رأيهم فيه ، فيغير فيه ويبدل ، فإذا سمع آراءهم وملاحظاتهم ووجدها وجيهة ، أخذ بها ، وصقل شعره بموجبها ، وعندئذ يذيعه ويعطيه راويته لينشره بين الناس .

جاء في (طبقات الشعراء) أن الرسول سأل (عبدالله بن رواحة) : « كيف تقول الشعر إذا قلت ؟ » فأجابه : « أنظر في ذلك ثم أقول » . فأمره أن

يقول شعراً تقتضيه الساعة ، وأخذ ينظر اليه : فانبعث عبدالله يقول شعراً ، ثم قال : « ولم أكن أعددت شيئاً »[1] . وجاء في كتاب « الشعر والشعراء » عن (الحارث بن حلزة) ، وهو القائل :

آذنتنـــا ببينها أسمـــاء ربّ ثاوٍ يملّ منه الثواء

ويقال إنه ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ارتجالاً » .ثم قال : « قال الأصمعي: قد أقوى الحارث بن حلزة في قصيدته التي ارتجلها ، قال :

فملكنا بذلك الناسّ إذ ما ملك المنذر بن ماء السماء

قال أبو محمد:ولن يضر ذلك في هذه القصيدة،لأنه ارتجلها فكانت كالخطبة[2]». فاعتذر عن الإقواء بالارتجال ، ومعنى هذا أنه لو كان قد هيأها وأعدها من قبل، كما هي العادة لما وقع في الاقواء .

وفي جواب (عبدالله بن رواحة) « لم أكن أعددت شيئاً » ، وفي اعتذار المعتذر عن إقواء (الحارث بن حلزة) ، دلالة بينة على أن الشعراء كانو يهيئون شعرهم وينقحونه قبل إنشاده ، وأنهم كانوا لا يقولون شيئاً منه إلا بعد أن يكون قد اختمر في رؤوسهم ورضوا عنه ، حتى يكون سديداً ، اللهم إلا في المناسبات وفي الظروف الحرجة التي تهز الشاعر فتحمله على نظم الشعر .

وورد أن (الحارث بن حلزة) اليشكري ، قال لقومه ، « وهو رئيس بكر ابن وائل : إني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجتـه وفلج على خصمه ، فروّاها ناساً منهم ، فلما قاموا بين يديه لم يرضهم ، فحين علم أنه لا يقوم بها أحد مقامه ، قال لهم : والله اني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء إذا انصرفت عنه ، وكان لبرص كان به ، غـير اني لا أرى أحداً يقوم بها مقامي ، وأنا محتمل ذلك لكم »[3] ، مما يدل عـلى أنه كان قد أعدّها ونظمها بعد تروٍ ودراسة ، ثم ألقاها على الملك ، مع أننـا

---

١ طبقات (٥٥) ، شرح شواهد ، للسيوطي (٢٩٣/١) ، العمدة (٢١٠/١) .
٢ الشعر والشعراء (١٢٧/١ وما بعدها) ، العمدة (١٩٠/١) .
٣ الخزانة (٥١٩/١) .

نرى الكتب ، تذكر أنه ارتجلها ارتجالاً ، بمعنى أنها كانت من وحي الموقف والساعة ، ولم تكن مهيأة من قبل : لأن الارتجال في الكلام ، التكلم من غير تدبر ولا تهيئة سابقة ، وقيل من غير روية ولا فكر[1] . ويظهر أنهم قصدوا بالارتجال إلقاء الكلام من غير نظر الى صحيفة ، وذلك أوقع في النفس عندهم من الإلقاء عن شيء مكتوب ، على الرغم من كون صاحبه قد أعده من قبل وقد حفظه ، كما يفعل شعراء هذا اليوم من إنشادهم شعرهم المنظوم سابقاً من غير نظر في صحيفة ، ليظهر الشاعر وكأنه يرتجله ارتجالاً .

ولا يعقل أن يكون الشعر كله من نتاج المصادفة والمفاجأة ، وانه كان يحفظ على نحو ما قيل وأنشد ، فلم يجر عليه قلم ، ولم ينله تهذيب ولا تشذيب،ولا سيما بالنسبة للقصائد . فقد كان الشاعر ينظم شعره مقدماً في الغالب ، ثم ينشده رواته وجماعته ، لئلا ينساه ، ثم يرى رأيهم فيه ، وقد يزيد هو عليه شيئاً ، وقد ينقص منه شيئاً ، ومن هنا نجد رواية أكثر القصائد لا تثبت على ترتيب واحد، وليست لها وحدة مستقلة ولا ترتيب متكامل ، إلا في أحوال نادرة ، ومن ثم اختلفت الرواية عن الشاعر ، فقد يكون أحد الرواة ، قد افترق عن الشاعر وابتعد عنه ، وهو يحفظ شعره على نحو ما سمعه منه ، على حين يكون الشاعر قد أضاف على شعراً شيئاً جديداً ، حفظه عنه غيره من الرواة ، فتسبب ذلك في ظهور الاختلاف في القصيدة الواحدة ، وتكون الرواية القديمة أقصر من الرواية الحديثة في العادة ، لعدم دخول الزيادة التي ترد متأخرة بالطبع على الشعر[2]. روي عن (ابن مقبل) قوله : « اني لأرسل البيوت عوجاً ، فتأتي الرواة بها قد أقامتها »[3] . فللرواة إن صح هذا الخبر ، يد في إصلاح الشعر،وفي تغييره ، وفي إقامة ما قد يكون فيه من اعوجاج .

ولا بد للشاعر من إعداد الشعر (القصيد) وتهيئته والنظر فيه قبل انشاده ، كما في شعر المدح والهجاء ، لما يجب أن يتفنن فيه الشاعر ، وهو على علم أن من سيقصده لمدحه ، قد قصده غيره للغاية نفسها ، وقد يصادف انشاده لشعره

---

١ تاج العروس (٣٣٧/٧) ، (رجل) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦١/١) .
٣ مجالس ثعلب (٤٨١) .

ـ وهو ما يقع في الغالب ـ بحضور عدد آخر من الشعـراء المحترفين للشعر ، المتفننين فيه ، فإذا هو لم يهيء شعره من قبل ولم يعرضه على أحد ولم يتفنن فيه ، ويأتي فيه بغرائب الفنون ، ضاع شعره بين بقية الأشعار . فهو مضطر اذن على إعداد شعره إعداداً حسناً قبل إنشاده أمام الممدوح ، وحكّه وتشذيبه لينال المكانة المرجوة بين بقية الشعر .

ونجد في شعر ينسب الى (امرىء القيس) ، يذكر فيـه ان المعاني كانت تنثال عليه ، فكان يعمل رأيه فيها ، فيؤخر ويقدم ، ويتخير ما يستجاد من غرر الأبيات :

أذود القوافي عني ذياداً ذياد غلام جـريء جرادا
فلـما كـثرن وعنينـني تخيرت منهـن ستا جيادا
فأعزل مرجانهـا جانبـاً وآخذ من درها المستجادا[1]

وقد نسب بعض الرواة هذه الأبيات الى غيره .

ولا بد في شعر الهجاء من إعداد ، ولا سيا في شعر الهجاء الذي يعدّ للردّ على شاعر هجّاء ، أو على شعر هجاء سابق ، إذ يجب في هذه الحالـة اعداده بعناية لتحطيم الهاجي وإسقاطه وإخماله ، ويستدعي ذلك عمل الروّية فيـه والتأمل طويلاً ، وإنشاد الشعر مراراً وتكراراً على الرواة والعارفين بالشعر لأخذ رأيهم فيه . وقد يزيدون عليه وقد ينقصون منه ، فإذا رضي الشاعر عنه ، وقنع به ، أنشده أمام الناس ، وقد يكون في المواسم ليسير بين القبائل ، وقد يرسل مكتوباً الى من يهمهم الأمر ليصل اليهم ذلك الهجاء . وقد يكون الشاعر (تميم بن مقبل) (تميم بن أبيّ بن مقبل) ، قد عنى هذا المعنى في البيت المنسوب قوله اليه :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخـير بابات الكتاب هجائيا[2]

وبابات الكتاب ، سطوره ، وهو بيت لا يخلو من غموض ، حتى ان علماء

---

١ ديوان امرىء القيس (٦٣) .
٢ ديوانه (ص ٤١٠) ، (الدكتور عزة حسن) ، « تخير آيات » ، العمدة (٢/١٦٧) ، الحيوان (٧/١١٢) .

اللغة اختلفوا في تفسيره ، اختلافاً كبيراً ، وقد يفهم منه أن الشاعر كان قد تخير هجاءه ودونه في وجوه الكتاب ، أي أن الهجاء كان مدوّناً بسطور ومكتوباً، وقد يكون قد أنذر به وتوعد ، بأن من سيهجوهم إذا لم يكفوا عن سفههم ، فإنه سيدوّن هجاءه ويثبته في سطور وينشره بين الناس ، فهو ينذرهم به ويتوعدهم وقد أدخله صاحب (العمدة) في « باب الوعيد والانذار » ، وقال : « كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعدون بالهجاء ، ويحذرون من سوء الاحدوثة ، ولا يمضون القول إلا لضرورة لا يحسن السكوت معها »[1]. وقد اتخذ (كولدتزيهر) هذا البيت دليلاً على وجود التدوين في شعر الهجاء عند العرب ، كما اتخذ من شعر (ليلى الأخيلية) :

أتاني من الأنبـاء أن عشيرة بشوران يزجون المطي المذللا
يروح ويغدو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لي،ساء ذلك معملا[2]

دليلاً آخر على تدوين الهجاء .

وتنقيح الشعر تهذيبه . وأنقح شعره اذا حككه ، أي أزال عيوبه . ولهذا قيل : خير الشعر الحولي المنقح[3] . فكان الشاعر اذا نظم شعراً أجال بصره به ، ليرى ما فيه من نشاز وعيوب ، فيحك منه ما يحتاج الى حك ، ويجيل بصره به الى أن يعجبه ويرضيه ، فيقوله للناس . وقد ينقحه بعد إلقائه ، إذ قد يسمع نقداً يراه من شاعر أو من العارفين بالشعر ، صائباً ، فينقح الموضع المنتقد . وقد ينتبه الشاعر وهو يقرأ شعره على الملأ ، الى أفكار لم تكن تخطر على باله ساعة نظم شعره ، فينظمها ويضيفها الى ما نظمه .

وكان من الشعراء من يكتب ويقرأ ويدون شعره . ومن هؤلاء (عدي بن زيد العبادي) ، الذي كان يتولى مكاتبة العرب عند (كسرى) ، والذي كان قد حذق الكتابة بالعربية والفارسية[4] . وهو من شعراء (الحيرة) ، والشاعر

---

١ العمدة (٢/١٦٧) .
٢ ريجيس بلاشير ، تأريخ الادب العربي (٩٨) .
٣ تاج العروس (٢/٢٤٢) ، (نقح) ، (٧/١٢٢) ، (حك) .
٤ الاغاني (٢/١٠١ وما بعدها) .

(سويد بن صامت الأوسي) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (كعب بن مالك الأنصاري) ، وهم من شعراء يثرب[1] ، ولهذا فلا يستبعد وقوع التدوين والتنقيح من هؤلاء الشعراء ومن أمثالهم الذين كانوا يقرأون ويكتبون ، يكتبون شعرهم ، ثم يجيلون النظر فيه ، فيغيرون منه ما شاءوا ويبدلون ما لا يعجبهم منه حتى يستوي ، فيذاع .

ولو ذهبنا هذا المذهب وقلنا بصحة المذكور في هذه الروايات ، حق علينا أن نقول إن الشعراء الجاهليين ان لم يكن أكثرهم فبعضهم على الأقل كانوا ينقحون شعرهم ويعدلون فيه ويحبرونه ، حتى يستقيم في نظرهم ويستوي . فإذا رضوا عنه ، أذاعوه عندئذ ، وأنشدوه حين تدعو الداعية إلى الإنشاد . وقد يطول هذا التنقيح ، وقد ينقص . قد يقع في أيام ، وقد يقع في شهر أو شهور أو حول أو أكثر . ومثل هذا التنقيح والتحكيك ، يستدعي وجود تدوين في الغالب ، بأن يدون الشاعر أو راويته الشعر ، ثم يجري التنقيح على المكتوب .

ذكر (ابن قتيبة) ، ان من الشعراء المتكلف والمطبوع . « فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة . وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحوليّ المنقح المحكك » ، وكان زهير يسمى كُبَرَ قصائده : (الحوليات)[2]

وقد أشار بعض الشعراء الى تنقيحه شعره والى تهذيبه له ، وتحكيكه فيه . منهم الشاعر المخضرم (سويد بن كراع) من (عطل)[3] ، وكان شاعراً محكماً[4] . فقال في أبيات يذكر تنقيحه شعره :

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعدما يكون سُحَيْراً أو بُعيد فأهجعا

---

١ ابن سعد ، الطبقات (٢/٣ ص ٧٩) ، المحبر (٢٧١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٥/٣) .
٢ الشعر والشعراء (٢٢/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، البيان والتبيين (١٣/٢ ، ٢٠٤) ، (لجنة) ، البيان والتبيين (٢٠٤/١) ، (هارون) .
٣ الاغاني (١٢١/١١) ، الشعر والشعراء (٥٣٠/٢) ، (الثقافة) .
٤ الاصابة (١١٧/٢) ، (رقم ٣٧٢٢) .

إذا خفت أن تُروى علي رددتها وراء التراقي خشيةً أن تَطلّعا
وجشّمني خوف ابن عفّان ردها فثقفتها حولاً جريداً ومَربَعا
وقد كان في نفسي عليها زيادة فلم أرَ إلاّ أن أطيع وأسمعا[1]

وكان هجا قومه ، فاستعدوا عليه عثمان ، فأوعده ، وأخذ عليه ألا يعود[2] . فأخذ يهذب شعره ويثقفه خشية الوقوع فيما لا يحمد عليه .

وذكر (ابن قتيبة) أن « المتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً ، فليس به خفاءٌ على ذوي العلم ، لتبيّنهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجــة اليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه »[3] .

وقال : « والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة ، وإذا لم يتلعثم ولم يتزحر »[4] .

والتكلف في نظم الشعر شيء ممجوج مـا في ذلك شك ، لما فيه من تصنــع وتنطع ، وخروج على عفو الخاطر ، وعلى الطبــع . أما تهذيب الشعر ومراجعته وتشذيبه ، والتأني فيه ، والنظر فيه ، لتعبيده وتشذيبه ، حتى يكون عذباً نقياً، نابعاً عن شاعرية وسليقة ، خالياً من الشطحات والنزوات ، يعجب السامع ، فأمر آخر ، على ألا يتجاوز الحد ، بحيث يخضع الشعور لاستبداد الصنعة ، فهو عندئذ معيب . وقد رأى (الأصمعي) ، وهو من نقدة الشعر وعلمائه ، في تثقيف الشعر وحكّه وتشذيبه عبودية للشعر ، انتقد (زهيراً) و (الحطيئة) عليها ، فقال: « زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما ، عبيد الشعر . وكذلك كل من جوّد في جميع شعره ، ووقف عند كــل بيت قاله ، وأعاد فيـه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة . وكان يقـال : لولا ان الشعر قد كان استعبدهم واستخرج مجهودهم ، حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة »

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٣) ، (الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٣٠) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣٢) ، (الثقافة) .
٤ المصدر نفسه (١/٣٤) .

ومن يلتمس قهر الكلام ، واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين ، الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً ، وانما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي .. ولذلك قالوا في شعره : مطرفٌ بآلاف ، وخمار بواف. وقد كان يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء »[1] . وقـد فسر (ابن قتيبة) الجملة الأخيرة المتعلقة بالنابغة الجعدي ، بقوله : « وكان العلماء يقولون في شعره خمار بواف ، ومطرفٌ بآلاف . يريدون ان في شعره تفاوتاً ، فبعضه حد مبرز ، وبعضه رديء ساقط »[2] .

وجاء في (العمدة) (لابن رشيق) : « وكان الأصمعي يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد انهما يتكلفان إصلاحه ، ويشغلان به حواسهما وخواطرهما»[3]، فوضع (النابغة) في موضع (الحطيئة) المذكور في (البيان والتبيين) وفي الموارد الأخرى .

قال (السيوطي) : « قال الجاحظ في البيان : كان الشاعر من العرب يمكث في القصيدة الحـول ، ويسمون تلك القصائد الحوليّات والمنقحات والمحكمات ، يصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً »[4] . فالقصيدة الحولية المنقحة المُحكمة، هي القصيدة التي يتأنى بها صاحبها ، فيهذب فيهـا ويشذب ، حتّى يحكمها ، لتصير متماسكة بينة متينـة ، ومن هنا قال (الحطيئة) : « خير الشعر الحوليّ المنقح » ، أو « خير الشعر الحولي المحكك »[5] . وكانوا يسمون تلك القصائـد أيضاً المقلدات[6] ؛ والحوليات ، والمنقحات ، والمحكمات. وقد أوجز (السيوطي) كلام (الجاحظ) ، الذي أدرك ما كان يفعله الشاعر بشعره من تغيير وتبديل ومن تنقيح وتجويد ، حتّى يرضى عنه . فقال أكثر مما نقله (السيوطي) عنه ، قـال إن من الشعراء « من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً وزمناً طويلاً ، يردّد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ، إتهاماً لعقله ، وتتبعاً على

---

١ البيان والتبيين (١٣/٢) « لجنة » ، الشعر والشعراء (٢٢/١ وما بعدهـا) ، (بيروت ، دار الثقافة) ، (٨١/١ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (٢١٠/١) .
٣ العمدة (١٣٣/١) .
٤ شرح شواهد (٢٦/١) ، باختلاف اللفظ ، البيان والتبيين (١٣/٢) .
٥ البيان والتبيين (٢٠٤/١) ، (١٣/٢) .
٦ البيان والتبيين (٢٦/٢) ، (٩/٢) ، (لجنة) .

نفسه ، فيجعل عقله زماناً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره »[1] . يفعلون ذلك ليخرج شعرهم بليغاً بيّناً ، خالصاً نقياً ، حتى ينالوا منه ما يريدون من التأثير في السامع ، ومن استهواء الناس اليهم « وكانوا إذا احتاجوا الى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمــور ميّثوا الكلام في صدورهم وقيّدوه على أنفسهم ، فإذا قوّمه الثقاف وأدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محكماً منقّحاً ومُصفّى من الأدناس مهذباً »[2] ، وقال : « وكانوا يُسمون تلك القصائد الحوليّات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً »[3] .

والحوليات ، هي القصائد التي يحول عليها الحول . والمقلدات ، البواقي من الشعر على الدهر وقلائده[4] . والمنقحات ، القصائد المنقحة المهذبة المحككة . يقال: خير الشعر الحولي المنقح ، وأنقح شعره اذا حككه ، وأحسن النظر فيه،وأصلحه وأزال عيوبه[5] . وقد كان الشاعر يحيل النظر في شعره ، ويفكر فيه ويصلح منه، قبل أن يعرضه على الناس ، حتى لا يعاب عليه ، فيغض من قدره ، وتهبــط منزلته بين الناس ، وتطمع فيه الشعراء . فهؤلاء الشعـراء ، هم أصحاب فن ، لا يهمهم الإخراج الكثير ، بل الشعر المحكك المنسق المنقــح ، ولذلك يمكثون أمداً يعيدون النظر فيه حتى يعجبهم نظمه ، فيذيعونه عندئذ بين الناس .

وقد عرف (طفيل الغنوي) في الجاهلية بالمحبر ، وذهب علماء الشعر الى انه انما عرف بذلك لحسن شعره[6] ، وكان مثل زهير والنابغة « في التنقيح وفي التثقيف والتحكيك »[7] . وقد عرف (ربيعة بن سفيان) الشاعر الفارس بالمحبر «لتحبيره شعره وتزيينه كأنه حبر »[8] . و (الحطيئة) ، و (النمر بن ثعلب) من هذه الطبقة التي تأنقت في شعرها وثقّفته[9] . وقد عرف (النمر بن تولب) بالكيس

---

١ البيان والتبيين (٢/٩) .
٢ البيان والتبيين (٢/١٤) ، (٢/٩) ، (هارون) .
٣ البيان والتبيين (٢/١٤) .
٤ تاج العروس (٢/٤٧٥) ، (قلد) .
٥ تاج العروس (٢/٢٤٢) ، (نقح) .
٦ العمدة (١/١٣٣) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٤) .
٧ العمدة (١/١٣٣) ، تاج العروس (٣/١١٩) ، (حبر) .
٨ تاج العروس (٣/١١٩) ، (حبر) .
٩ العمدة (١/١٣٣) .

لحسن شعره[1] . وورد في رواية أخرى انه انما قيل له المحبر لقوله :

سماوته أسمال برد محبر وسائره من أتحمى معصب[2]

وكان (طفيل بن عوف بن كعب) (طفيل بن كعب) الغنوي ، أحد نعات الخيل من الجاهليين ، فعرف بطفيل الخيل لكثرة وصفه اياها ، قيل انه كان من أوصف الناس للخيل[3] ، وقد أخذ عنه بعض الشعراء ، مثل النابغة وزهير . وقيل انه كان ثالث الشعراء الوصافين للخيل[4] . وقد نشر (كرنكو) ديواني طفيل والطرماح مع ترجمتها الى الانكليزية ، وذلك ضمن سلسلة منشورات (جب)[5] .

ذكر أن أبا بكر قال يوماً للأنصار : زادكم الله عنا يا معشر الأنصار خيراً، فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوي :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلّتِ
أبوا أن يملّونا ولو أن أمّنا تلاقي الذي يلقون منا لملّتِ

وروي أن معاوية قال : دعوا لي طفيلاً وسائر الشعراء لكم ، وأن عبد الملك ابن مروان ، قال : من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل .

ومن جيد الشعر المنسوب له ، قوله :

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٢٧) ، العمدة (١/١٣٣) .

٢ الخزانة (٣/٦٤٣) .

٣ « طفيل بن عوف بن خلف بن ضبيس بن مالك بن سعد بن عوف بن كعب بن جلان ابن غنى بن أعصر » ، الخزانة (٣/٦٤٣) ، الاغاني (١٦/٨٥ وما بعدها) ، (ساسي) ، الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٢٧٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٦٢) ، ديوان طفيل والطرماح ، (كرنكو) ، (لندن ١٩٢٧) ، بروكلمن تاريخ الادب العربي (١/١٢٠) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٤ وما بعدها) ، (الثقافة) ، السمط (٢١٠) ، المؤتلف (١٤٧) .

٤ بروكلمن (١/١١٩) .

٥ The Poems of T.B. 'A. al-Gh. and at-Tirimmah, ed and transl. by F. Krenkow, London, 1927 (E. J. W. Gibb Mem. XXV).

إني، وإن قلّ مالي لا يفارقني | مثل النعامة في أوصالها طول
أو قارح في الغرابيات ذو نسب | وفي الجراء مِسَحّ الشدّ إجفيل
إن النساء كأشجار نبتن معاً | منها المرار، وبعض النبت مأكول
إن النساء متى يُنهين عن خلق | فإنه واجب لا بدّ مفعول
لا ينصرفن لرشدٍ إن دعين له | وهن بعد ملائيم مخاذيل[1]

ومن شعره :

وللخيل أيامٌ فمن يصطبر لها | ويعرف لها أيامها الخير تعقب

وقد شرح ديوانه (يعقوب بن السكيت) ، وقد رجع اليه (البغدادي)[2] .

وقد قسم (ابن رشيق) الشعر الى مطبوع ومصنوع . و « المطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً ، وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم ، فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سمّوه صنعة من غير قصد ولا تمثل ، لكن بطباع القوم عفواً ؛ فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ، ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصَدَ أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وابرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلم بعضه ببعض حتى عدّوا من فضل صنعة الحطيئة حسنَ نسَقِه الكلام بعضه على بعض »[3] .

ولم يعب علماء الشعر الشعر المنمق المحكك ، إذا لم تؤثر فيه الكلفة، ولم يظهر عليه التعمل ، ولم يخرج عن حدود الطبع . ومن هنا قال بعض الحذّاق بالكلام: « قل من الشعر ما يخدمك ، ولا تقل منه ما تخدمه . وهذا هو معنى قول

---

١ الشعر والشعراء (٣٦٤/١ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٦٤٢/٣) .
٣ العمدة (١٢٩/١) ، (باب في المطبوع والمصنوع) .

الأصمعي »[1] ، وهو أيضاً معنى (ابن رشيق) وغـيره من علماء الشعر ، الذين يريدون شعراً طبيعياً صدر من القلب وعن عفو الخاطر،لا تعمّل فيـه ولا تزويق يخرجه من الطبع الى الصنعة ، فيكون ثقيل الظل لا تستسيغه الطباع .

ويرى (بروكلمن) أن « القصائد الطوال كالمعلقات ، لم يتم نظمها دفعـة واحدة . ومهما كانت القافية كثيراً ما تهدي الشاعر في نظم شعره ، فإنه يجدر بنا أن نتصور نشأة القصيدة في الزمن القديم على غرار ما وصفه (موزل) عند شعراء البادية المحدثين . وعلى ذلك فلا يستبعد بحال من الأحوال أن تكون القصيدة من نتاج حول كامل.ومن هنا وجدنا رواية أكثر القصائد لا تثبت على ترتيب واحد. فقد ينشد الشاعر شعراً لرواته وأحبائـه أول الأمر لئلا ينساه ، ثم يزيد عليه ، لا سيما إذا ذكره أحباؤه بشيء غفل عنه،وربما بدل بعض أبياته بعد ذلك بأخرى لم يسمعها ذووه الأولون ، فتختلف الرواية عن الشاعر . ولا يـأبى الشاعر نفسه أن يعترف بأن كل ذلك من بنات أفكاره . وقد يكون ذلك أيضاً هو السبب في أن كثيراً من الشعر القديم لم تبق منه إلا قطع متفرقة »[2] .

ولا يختلف الشاعر الجاهلي عن الشاعر الاسلامي في نظري في تهذيب شعـره وتنقيحه . فقد كان للفرزدق الشاعر المشهور الذي حفظ وروى شعر عـدد كبير من الشعراء المتقدمـين رواة ، كانوا يعدلون ما انحرف من شعره ، ويهذبون ما يحتاج منه الى تهذيب ، وكانوا يروونه . وكان لجرير ، الشاعر الآخر ، وهو خصم الفرزدق ومنافسه في قول الشعـر ، رواته ومعدلو شعره . كانوا يقوّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد[3] . واذا كان هذا شأن شعراء أيام الأمويين الذين ورثوا تقاليد الشعراء المخضرمين والجاهليين ، وساروا على هديهم في الشعر، لا نستبعد اذن لجوء الشاعر الجاهلي ورواته الى التحكيك والتعديل واجراء التهذيب على شعره ، لغفلة قد تكون وقعت له ، وقد فاتت عليه ، أو لمعنى فات عليه، أدركه رواته عند إنشاده له ، أو غمز به خصومه فاضطر الى اجراء تنقيح عليه لإخراجه بالشكل الذي رآه يصلح فيه .

---

١ العمدة (١٣٣/١ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (٦١/١) .
٣ الاغاني (٢٥٦/٤ وما بعدها) ، (دار الكتب) .

وقد حكك ونقح علماء الشعر ورواته ، ما سمعوه وأخذوه من شعر ، لأنهم وجدوا أنه في حاجة الى تحكيك،أو أنهم رأوا أن فيه خللاً ، وان عليهم واجب إصلاحه وتقويمه . أجروا مثل هذا التنقيح حتى في شعر الشعراء الإسلاميين. روي عن (الأصمعي) قوله : « قرأت على خلف شعر جرير ، فلما بلغت قوله :

فيالك يوماً خيره قبل شرّه   تغيب واشيه وأقصي عاذله

فقال : ويله ! وما ينفعه خير يؤول الى شر ؟ قلت له : هكذا قرأته على أبي عمرو . فقال لي : صدقت وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح ، مشرّد الألفاظ ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع . فقلت : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال : فيالك يوماً خيره دون شرّه .

فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء ، فقلت : لا أرويه بعد هذا إلاّ هكذا »[1] .

وقد اضطر علماء الشعر الى تنقيح ألفاظ في الشعر بسبب تصحيف أو تحريف وقع عليها بفعل النسّاخ ، ومثل هذا التنقيح مستساغ بالطبع ، بل واجب لأن فيه اعادة الشعر الى الصواب ، على أن ينص على الأصل الذي كان مكتوباً به ، والتصحيح الذي أدخل عليه ، وعلى السبب الذي حمل العالم على اجرائه عليه .

دواوين الشعر الجاهلي :

ودواوين الشعراء الجاهليين ، الموجودة عندنا هي كلها وبغير استثناء من جمع علماء الشعر الاسلاميين . فلا يوجد من بينها ديوان واحد ذكر انه كان من جمع أهل الجاهلية . وقد شرع بصنع هذه الدواوين في العصر الأموي . وبلغت العناية بها ذروتها في القرن الثالث للهجرة . وقد أبدى علماء العراق من موالي وعرب تفوقاً كبيراً على غيرهم من علماء الأمصار الاسلامية في هذا الباب .

وقد نسب الى (ابن عباس) قوله : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله،

---

١ ديوان جرير (٤٨٠) ، المرزباني ، الموشح (١٢٥) ، بروكلمن (١/٦٥) .

فاطلبوه في الشعر فإنه ديوان العرب »[1] . وإذا صح أن هذا الكلام الـذي رواه (عكرمة) عن (عبدالله بن عباس) هو من كلامه نكون قد حصلنا لأول مرة على لفظة (الديوان) ، بالمعنى المفهوم من اللفظة في عرف علماء الشعر والناس. وذكر أن لفظة (الديوان) قد وردت في حديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ »[2]. وإذا صح هـذا الحديث وثبت ، يكون ورود اللفظة فيه قبل ورودها في كلام (ابن عباس) ، ومعنى هذا أنها كانت معروفة عند أهل الجاهليـة . غير أن ورودها في هذا الحديث لا يعني ديوان شعر ، وإنما الجمع والاحصاء ، وبمعنى كتاب وسجل تدون فيه الأشياء .

وروي أيضاً أن الخليفة (عمر) سأل الصحابة عن هذه الآية : « أو يأخذهم على تخوّف ، فإن ربكم لرؤوف رحيم »[3] ، فخاضوا في معناها ، فخرج رجل ممن كان حاضراً فلقي أعرابياً ، فقال التخوف : التنقص ، وكان ذلك الأعرابي من هذيل ، فقال له : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قـال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير الهذليّ :

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً ... كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال: شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم[4] .

ويقال لمجموع الشعر المدون في دفتر أو كتـاب (ديوان شعر) . فيقـال (ديوان الشاعر) و (دواوين الشعراء) ، و (ديوان فلان) ، و (ديوان طيء) ، و (ديوان الأنصار) ، و (ديوان الشعـراء الجاهليين) ، الى غير

---

١ « واخرج أبو بكر الانباري في كتاب الوقف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : اذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فان الشعر ديـوان العرب » المزهر (٢/٣٠٢) ، (٢/٤٧٠) الاخبار الطوال (٣٣٢) ، (اذا قرأتـم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فان الشعر ديـوان العرب . وكان اذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا) ، العمدة (١/٣٠).

٢ تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) .

٣ النحل ، الآية ٤٦ .

٤ تفسير الطبري (١٤/٧٧) ، تفسير النيسابوري ، (١٤/٧٠ وما بعدها) ، وورد فيه أن اسم الشاعر : « زهير » .

ذلك . ويقصدون بذلك مجموعة أشعار جمعت في مجموع . وذكر بعض علماء اللغة ان الديوان « الدفتر ، ثم قيل لكل كتاب ، وقد يخص بشعر شاعر معين مجازاً حتى جاء حقيقة فيه . فمعانيه خمسة : الكتبة ومحلهم والدفتر وكل كتاب ومجموع الشعر » . والديوان في الأصل الكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية. وأول من وضعه عمر . ويرى علماء اللغة ان اللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وان كسرى كان قد رتب الدواوين لكتّابه ولمعاملاتهم ، فلما جاء الاسلام،وظهرت الحاجة الى تنظيم العمل . أمر الخليفة (عمر) باتخاذ الدواوين[1] .

واذا حملنا قول أهل الأخبار انه قد كان عند النعمان بن المنذر « ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته »[2] ، وقولهم ان النعمان ملك العرب كان قد أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، وهي الكراريس ، ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد ، قيل له : ان تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار[3] ، على محمل الأخبار التي ظهرت في أيام الأمويين ، التي صنعها وروّجها بين الرواة حماد الراوية وأضرابه فإننا نثبت بذلك وجود الدواوين بالمعنى المفهوم من الديوان في أيام (حماد) ، وقبل أيامه . ولدينا أخبار أخرى تفيد ان الدواوين قد عرفت قبل أيام حماد .

ويظهر من قول (ابن سلام) : « وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون واليه يصيرون . وقال ابن عوف عن ابن سيرين ، قال : قال عمر بن الخطّاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته،فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار،راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مُدوّن ، ولا كتاب مكتوب ... »[4] أن الدواوين لم تكن موجودة ، وأن الشعر لم يكن مكتوباً في صدر الإسلام ، ولهذا ضاع أكثر الشعر الجاهلي بسبب انهماك حفّاظه في الحروب

---

١ تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) ، غرائب اللغة (٢٢٩) .
٢ طبقات الشعراء (١٠) ، المزهر (٢/٤٧٤) .
٣ الخصائص (١/٣٩٣) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، (طنج) ، اللسان (٣/١٤٢)، (طنج) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٠) .

وهلاك بعضهم فيها ، ومنها حروب الردّة ، التي هلك فيها جمع من حفاظ الشعر من مسلمين ومن مشركين .

ويظهر مثل ذلك من رواية يرجع سندها الى (ابن سلام) تذكر أنه « كان الرجلان من بني مروان يختلفان في الشعر فيرسلان راكباً فينخ ببابه يعني قتادة بن دعامة ، فيسأله عنه ثم يشخص »[1] ، ويظهر من هذه الرواية إن صحت أن (قتادة) ، كان من الحافظين للشعر ، وقد عرف بأنه كان صاحب علم بأيام العرب وأنسابها وأحاديثها[2] ، وله أخبار في تفسير القرآن[3] ، ونعت بأنه كان من الحفاظ ، قال عنه (السيوطي) : « ولم يأتنا عن أحد من علم العرب أصح من شيء أتانا عن قتادة »[4] . وهو من التابعين ، روي عن أنس وابن المسيب ، والحسن البصري ، وروى عنه (سعيد بن أبي عروبة)[5] . وقد ضرب الجاحظ به المثل في الحفظ ، إذ قال : « كان يقال ، زهد الحسن ، وورع ابن سيرين ، وعقل مطرف ، وحفظ قتادة ، وكلهم من البصرة »[6] . ويظهر أنه كان يروي الإسرائيليات[7] . وجمع (سليمان بن عبد الملك) بين قتادة والزهري ، فغلب (قتادة) (الزهري) ، فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : إنه فقيه مليح . فقال القحذمي[8] : لا ، ولكنه تعصب للقرشية ، ولانقطاعه كان اليهم ، ولروايته فضائلهم[9] . وقد عرف بالنسب[10] ، وهو أحد رواة (رسالة عمر بن الخطاب) الى (أبي موسى) الأشعري في أصول القضاء[11] .

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٧ وما بعدها) ، المزهر (٢/٣٣٤) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٨) .
٣ المزهر (١/٢٩) .
٤ المزهر (٢/٣٣٤) .
٥ المصدر نفسه (حاشية ١) .
٦ البيان والتبيين (١/٢٤٢) ، ثمار القلوب (٩٠) .
٧ البيان والتبيين (١/١٠٤ ، ٢٥٨) ، عيون الاخبار (٢/١٧٩) .
٨ القحذمي : أبو عبد الرحمن بن هشام بن قحذم القحذمي ، من أهل البصرة توفي سنة (٢٢٢) ، لسان الميزان (٦/٢٢٧) .
٩ البيان والتبيين (١/٢٤٣) .
١٠ البيان والتبيين (١/٣٥٦) ، الحيوان (٣/٢١٠) .
١١ البيان والتبيين (٢/٤٨) .

وروى (الجاحظ) « ان رجلاً قتل أخوين في نقاب ، أحدهما بعالية الرمح ، والآخر بسافلته . وقدم في ذلك راكب من قبل بني مروان على قتادة يستثبت الخبر من قبله ، فأثبته »[1] . وهو يروى عن (ابن عباس)[2] ، وعن (أبي موسى)[3] ، ويظهر من الأخبار المنسوبة اليه انه من طراز القصاص ، اللذين يروون الأخبار من دون نقد[4] .

وورد ان الخطاط الشهير (خالد بن أبي الهيجا) ، وهو أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ، وكان من أحسن الخطاطين في زمانه ، كتب «المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك »[5] . واذا صح هذا الخبر، نكون قد وقفنا على جمع قديم للشعر ، هو في مقدمة المجموعات القديمة للشعر .

لكننا نجد في رواية تذكر ان حماداً الراوية سرق جزءاً من أشعار الأنصار ، فقرأه فاستحلاه وحفظه ، فمن ثم صار يطلب الأدب ويحفظ الشعر[6] . وهي رواية أشك في صحتها ، يظهر انها من موضوعات أعداء حماد ، ولو صحت لكانت دليلاً على وجود ديوان شعر ضم شعر الأنصار . كما نجد في خبر استدعاء (الوليد بن يزيد) له وإرساله اليه بمائتي دينار ، وأمره عامله (يوسف بن عمر) أن يحمله اليه على البريد ، وقوله في نفسه : « لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف : فنظرت في كتابي قريش وثقيف . فلما قدمت اليه سألني عن أشعار بلي »[7] ، دلالة على وجود ديوانين كانا عند (حماد) أحدهما ديوان شعر قريش ، والآخر ديوان شعر ثقيف . غير اننا لا نستطيع التأكد من صحة هذا الخبر ، وإن كنت لا أستبعده أيضاً ، لظهور التدوين قبل هذا العهد ، في أيام معاوية مثلاً .

واذا صح ما ذكره (ابن النديم) من قوله : « قال أبو العباس ثعلب جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ورد

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٧) .
٢ الحيوان (١/١٨٠) .
٣ الحيوان (١/٢٩٦) .
٤ الحيوان (٥/٥٣٦ ، ٥٣٧) ، (٤/٢٩٣ وما بعدها) .
٥ الفهرست (١٥) ، (خطوط المصاحف) .
٦ الاغاني (٥/١٦٣) .
٧ الاغاني (٦/٩٤) .

الديوان الى حماد وجناد»[1] ، فيكون معنى ذلك ، انه قد كان عند (حماد) و (جناد) ديوانان أو دواوين للشعر ، استعارهما منهما (الوليد) ، وجمع منهما ديوان العرب وأشعارهم ، ثم أعاد الديوانين الى صاحبيهما،ونكون بذلك قد وقفنا على وجود لفظة (ديوان) بالمعنى الاصطلاحي المعروف في أيام الأمويين، ووثقنا من وجود دواوين الشعر في تلك الأيام .

ولم أجد في الدواوين التي وصلت الينا أو في كتب الأدب إشارات الى اقتباس رواة الشعر وحفظته وجماعه والمعنيين به من هذا الديوان ولا وصفاً لمحتوياته ولما كان بين دفتيه من قصائد وأشعار . ولو وصل الينا شيء من هذا ، لأفادنا ولا شك كثيراً في التعرف على ذلك الديوان الملكي الذي يجب أن نعده أول ديوان شعر عربي وصل خبره الينا بكل تأكيد حتى الآن .

ويذكر أن بعض شعراء العصر الأموي كانوا يملكون دواوين شعر لشعراء جاهليين . ذكر مثلاً أن (الفرزدق) كان يمتلك نسخة من ديوان الشاعر (زهير ابن أبي سلمى)[2] .

وقد أطلق القدماء مصطلح (دفاتر أشعار العرب) على مدوّنات الشعر . والدفتر جماعة الصحف المضمومة[3] ، وقسم (البغدادي) هذه الدفاتر الى قسمين: دواوين ومجاميع . فالدواوين ، هي دواوين الشعراء ، والمجاميع مثل أشعار بني محارب للشيباني ، والمفضليات للمفضل الضبي ، وأشعار الهذليين للسكري، وأشعار لصوص العرب للسكري ، ومختار شعر الشعراء الست : امرىء القيس ، والنابغة، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة وشرحها للأعلم الشنتمري وغيرها[4] .

ويظهر أن أول اختيار مدوّن للشعر عند العرب،كان القصائد المعروفة بالمعلقات اختارها حماد الراوية ، ثم سار من جاء بعده مثل (المفضل) الضبي ، وأبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ثم من جاء بعدهما على منهجه في اختيار وانتقاء الشعر والقصائد وجمعها في مجموعات . وقد ذكر (الجمحي) أن (حماداً)

---

١ الفهرست (١٤٠) .
٢ بلاشير (١٠٦) .
٣ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) ، المصون (٤) .
٤ خزانة الادب (١/٩ وما بعدها) ، (بولاق) .

« كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ... وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار »[1] .

ولم أجد في الكتب المطبوعة التي تحدثت عن حماد ما يفيد اشتغال حماد بتدوين الشعر وإثباته في دواوين . وفي الفهرست عبارة تقطع بعدم ورود كتاب ولا ديوان كان من تأليف حماد أو جمعه ، إذ يقول : « ولم يُرَ لحماد كتاب ، وانما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده »[2] . ويفهم بالطبع من كلام (ابن النديم) هذا ان حماداً كان راوية حسب ، يروي للناس ما حفظه من شعر دون أن يعتني هو نفسه بإثباته لما يحفظه في حروف وكلمات . غير انه يجب الاحتراز كثيراً في الأخذ برواية ابن النديم هذه ، إذ لا يعقل إهمال حماد ترتيب ما كان يحفظه من شعر كثير ، وتدوينه وإملاءه . وقد أهمل ابن النديم أسماء كتب عديدة لمؤلفين معروفين ، كما ذكر أسماء علماء لم يشر الى مؤلفات لهم ، مع ان غيره أشار الى مؤلفاتهم ، وقد وصلت بعض منها الينا وطبعت ، فلا أستبعد أن يكون قول ابن النديم هذا من هذا القبيل .

ومما يقوي هذا الرأي ويؤيده ، ما ورد في مختارات (ابن الشجرى) عن أبي حاتم السجستاني من وجود كتاب لحماد الراوية ، إذ قال : « قال أبو حاتم : هذا آخرها ، وفي كتاب حماد الراوية زيادة » ، وقوله : « قال السجستاني : وفي كتاب حماد الراوية زيادة بعد هذا البيت أربعة أبيات ، كتبتها ليعرف المصنوع »[3] . وقد أورد ابن الشجرى قولَيْ السجستاني عند إيراده شعر الحطيئة . وكان السجستاني قد أشار الى كتاب حماد هذا ، لوجود أبيات فيه لم يجدها في رواية الأصمعي التي اعتمد عليها لشعر الحطيئة . وقد أورد تلك الزيادات ، ذاكراً انها مع ذكره لها من المصنوعات المردودات[4] .

وفي عبارة (ابن النديم) : « ولم يُرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس

---

١ طبقات ، لابن سلام (١٤) .
٢ الفهرست (ص ١٣٥) ، « أخبار حماد » .
٣ مختارات ابن الشجري ، القسم الثالث (ص ١٢ ، ١٦) ، « تحقيق محمود حسن زناتي » ، القاهرة ١٩٢٦ م .
٤ المورد المذكور .

وصنفت الكتب بعده »[1] ، هفوة . فقد ذكر (ابن النديم) نفسه حين كلامه عن (عوانة) ، أن الخليفة (الوليد بن يزيد) « جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ... وردّ الديوان الى حماد وجناد »[2] ، وفي هذه الإشارة دلالة على أنه كان لحماد ديوان ، ثم نجده يذكر أنه كان لعوانة بن الحكم كتاب التأريخ ، وكتاب سيرة معاوية وبني أمية ، وقد توفي (عوانة) سنة (١٤٧هـ) ، أي قبل (حماد) المتوفى سنة (١٥٦م)[3] ، ونجده يذكر لعبيد بن شرية الجرهمي كتاب الأمثال ، ويذكر لصحار العبدي كتاباً في الأمثال كذلك ، وقد عاشا قبل عوانة وحماد[4] .

ودواوين الشعر أنواع : فقد يكون الديوان مجموع شعر شاعر واحد . وقد يكون مجموع شعر شعراء قبيلة ، أو مجموع شعر قبائل ، أو شعر جماعة مثل الأنصار ، وقد يكون مجموع شعر شعراء ، جمعت أشعارهم على شكل طبقات، أو فن امتازوا به ، أو اختيارات أو أسباب أخرى تذكر في مقدمة الدواوين . ومن النوع الأول دواوين بعض الشعراء الجاهليين ، مثل ديوان امرىء القيس ، وديوان النابغة الذبياني ، وديوان عنترة ، وديوان المتلمس وغيرهم . وقد يجمع ديوان شاعر واحد عدة علماء ، فيرد الديوان بروايات مختلفة . وقد تختلف النسخ في ترتيب أبيات القصيدة ، وفي عدد القصائد ، وقد تزيد بعضها أشعاراً ، وقد تنقص بعض منهـا أشعاراً ، وقد تختلف نسخ الديوان الذي هو من جمع عالم واحد ، بسبب أن العلماء كانوا يملون علمهم املاءً على تـلامذتهم ، في مجالس املائهم ، فيقوم تلامذتهم بتدوين ما يملي عليهم . ويحدث أن العالم يسمع كتابة من بعض طلابه أو من كتابه ، فيصحح فيه،وقد يزيد عليه ما فات عن ذاكرته يوم إملائه في المرة الأولى ، فيأمر بتدوينه ، وقـد يحذف منه شيئاً ، لم يرض عنه ، فتتعـدد بذلك النسخ ، ويحدث ذلك في الكتب الأخرى ومن هنا تتعدد الروايات للديوان أو للكتاب ، مع أن جامعه أو مؤلفه رجل واحد .

وقد يأخذ الطالب هذا الديوان ، ثم يزيد عليه ما يسمعه من شيوخ آخرين ،

---

١ الفهرست (ص ١٣٥) ، (أخبار حماد) ، (١٤٠) ، (الاستقامة) .
٢ الفهرست (١٤٠) ، (أخبار عوانة) .
٣ الفهرست (١٤٠) .
٤ الفهرست (١٢٨) .

وقد يعلق عليه ويزيد على شرحه ، شروحاً سمعها من رجال آخرين . وبذلك تتولد نسخ جديدة ، تختلف عن النسخ الأم[1] .

وقد جمع العلماء دواوين الشعراء ، وقد وصل بعض منها ، وفقد البعض الآخر . وقد ذكر (العيني) انه كان قد حصل على ما ينيف على مائة ديوان شعر ، من بينها ديوان امرىء القيس ، وديوان النابغة الذبياني ، وديوان علقمة بن عبدة التميمي ، وديوان زهير بن أبي سلمى ، وديوان طرفة بن العبد ، وديوان عنترة ابن شداد العبسي ، وديوان الأعشى ميمون ، وديوان الحطيئة ، وديوان أبي دؤاد ، وديوان كعب بن زهير ، وديوان لبيد العامري ، وديوان الشنفرى ، وديوان الحارث بن حلزة ، وديوان أبي ذؤيب الهذلي ، وديوان أبي كبير الهذلي ، وديوان ساعدة بن جؤية الهذلي ، وديوان أبي خراش الهذلي ، وديوان أبي المثلم ، وديوان صخر الغي ، وديوان المتنخل ، وديوان أبي العيال ، وديوان السموأل ابن عادياء ، وديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، وديوان عمرو بن قميئة ، وديوان عمرو بن كلثوم ، وديوان أوس بن حجر ، وديوان النمر بن تولب ، وديوان أبي الطمحان القيني[2] ، وغير ذلك من دواوين لم أشر اليها . ومما يؤسف له انه لم يذكر أسماء رواة هذه الدواوين .

ومن النوع الثاني ، دواوين القبائل ، أو أشعار القبائل ، وقد ضمت شعر شعراء قبيلة أو شعر بعض من شعرائها ، ممن اشتهر وعرف ، وتحتوي بالإضافة الى الشعر كلاماً يتصل بالشعر وبالشاعر وبالمناسبة التي قيل الشعر فيها ، وبنسب الشاعر وقبيلته ، على نحو ما نجده في الدواوين الخاصة ، فتكون بذلك وثائق مهمة جامعة لأمور شتى من حياة الجاهليين . وقد سميت هذه المجموعات بأشعار القبائل ، مثل : « أشعار الأزد » ، وأشعار حمير ، وأشعار الرباب ، وأشعار بني عامر بن صعصعة ، وأشعار فهم ، وشعر بني يشكر ، وأشعار بني عوف ابن همام ، وشعر هذيل[3] . وأشعار تغلب للسكري ، وقد رجع اليه (البغدادي)[4].

---

١ راجع في هذا الباب مصادر الشعر الجاهلي ، الباب الخامس وما بعده . (ص ٤٧٩ فما بعدها) .
٢ (٥٩٦/٤) ، (حاشية على الخزانة) .
٣ مصادر الشعر الجاهلي (ص ٥٤٣ وما بعدها) .
٤ خزانة (٣٠٤/١) .

وقد هلك أكثر ما جمع من أشعار القبائل ، ولم يصل الينا مطبوعاً من هذه المجموعات إلا ديوان هذيل ، وأكثر شعراء هذا الديوان إسلاميون . وقد نال شعراء هذيل بذلك حظاً من العناية،كما نشرت لشعراء هذه القبيلة جملة دواوين[1] .

وقد أطلق (ابن النديم) جملة (أشعار العرب) على معنى ديوان أشعار العرب ، فذكر مثلاً ان (الأصمعي) ، عمل « قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غربتها واختصار روايتها »[2] ، وذكر ان (خالد ابن كلثوم) الكلابي ، كان من رواة الأشعار والقبائل ، وله صنعة في الأشعار والقبائل ، وله من الكتب كتاب الشعراء المذكورين وكتاب أشعار القبائل،ويحتوي على عدة قبائل[3] . وذكر ان (أبا عمرو الشيباني) (٢٠٦ هـ) ، كان عالماً بأشعار القبائل ، وقد أخذ العلماء عنه دواوين أشعار القبائل ، وكان قد جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة[4] . وذكر أيضاً انه قد كان في بيت (أبي عبيدة) (٢١٠ هـ) (٢١١ هـ) (٢٠٨ هـ) ، (ديوان العرب)[5] ، ويظهر انه قصد به ديواناً ضم أشعار القبائل . فهو مجموع أشعار شعراء .

ومن النوع الثالث ، أي الكتب التي جمعت أشعار طبقة معينة من طبقات الشعراء أو المجتمع ، ما ذكره (ابن النديم) من أن (أبا العباس ثعلب) ، صنع قطعة من أشعار الفحول وغيرهم ، منهم الأعشى والنابغتان وطفيل والطرماح[6]. ومن أن (أبا بكر محمد بن القاسم) الأنباري ، وهو ممن أخذ عن (ثعلب) ، كان قد عمل عدة دواوين من أشعار العرب الفحول ، منه شعر زهير ، والنابغة، والجعدي ، والأعشى[7] . وقد عمل (محمد بن حبيب) قطعة من أشعار العرب ، وكتاباً سمّاه : (كتاب أخبار الشعراء وطبقاتهم)[8] ، وألّف (ابن سلام) (٢٣١هـ)

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٢/١ وما بعدها) .
٢ الفهرست (٨٩) .
٣ الفهرست (١٠٤) .
٤ الفهرست (١٠٧) .
٥ الفهرست (٨٥) .
٦ الفهرست (١١٧) .
٧ الفهرست (١١٨) .
٨ الفهرست (١٦١) .

كتاباً في طبقات الشعراء ، عرف بـ (طبقات الشعراء) ، وهو مطبوع معروف. ولعمر بن شبة كتاب في الطبقات اسمه : (كتاب طبقات الشعراء)[1] .

هذا ونقرأ في كتاب (الفهرست) لابن النديم ، وفي مؤلفات أخرى أن من العلماء من ألف كتباً في القبائل ، مثل: « كتاب الأوس والخزرج » لأبي عبيدة[2]: وكتاب إياد ، وكتاب كنانة ، وكتاب بني نهشل ، وكتاب بني محارب ، وكتاب بني الحارث ، وكتاب بني مرة ، وأشعار حمير ، وكتاب بني القين ابن حسر ، وكتاب بني حنيفة وغيرها من كتب كان (الآمدي) قد رجع اليها وأخذ منها . وقد درست هذه الكتب ، ولم يتحدث (الآمدي) بشيء عما احتوته ، لذلك لا نستطيع أن نتحدث عن موضوعاتها ، بيد أن (الآمدي) يشير أحياناً ، الى مواضع اقتبس منها بعض الأشياء ، لها صلة بالشعر والشعراء ، مما يحملنا على القول بأن الكتب المذكورة كانت في الشعر : في شعر القبائل ، وفيمن نبغ بينها من شعراء ، كما يشير الى أمور أخذها من هذه الموارد التي لم يشر الى أسماء مؤلفيها ، تدل على أنها خاصة بأخبار القبائل وأنسابها ، ونظراً الى ورود أسماء قسم من هذه المؤلفات التي لم يذكر (الآمدي) أسماء مؤلفيها في (الفهرست) لابن النديم ، وفي موارد أخرى نقلت منها وأشارت الى أسماء مؤلفيها ، فإن في الإمكان التعرف بهذه الطريقة على أسماء مؤلفي تلك الكتب . وقد أشار (الآمدي) الى أسماء المؤلفين وأسماء مؤلفاتهم التي استقى أخباره منها في مواضع أخرى .

وعلى كثرة ما ألّف من دواوين ، فإننا لا نملك منها سوى قسم قليل من ذلك الكثير . ويرى (بلاشير) ان الدواوين القديمة المهمة لا تحتوي وسطياً أكثر من عشرين صفحة ، وان أطولها كدواوين النابغة وزهير وامرىء القيس لا تتجاوز أبداً الثلاثين صفحة في الأصل ، غير ان المتأخرين زادوا فيها قصائد ومقطعات عثروا عليها في موارد أخرى ، فتضخمت تلك الدواوين حتى صارت أضعاف ما كانت عليه في الأصل[3] .

وجمع بعض علماء الشعر أشعار طوائف من المجتمعات مثل شعر اللصوص ،

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٤٤) .
٢ الفهرست (٨٦) .
٣ ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (١٦٢) .

فللسكري ديوان دعاه : أشعار لصوص العرب . ومثل شعر الصعاليك ، وشعر الشعراء المغتالين ، وأخبار من نسب الى أمه من الشعراء ، وأخبـار المتيمين من الشعراء في الجاهلية وفي الاسلام ، الى غير ذلك من مؤلفات في أخبار الشعراء وفي شعرهم[1] .

ويظهر أن مؤلفي الدواوين لم يحفلوا في أيامهم بموضوع شرح المناسبات التي من أجلها نظم الشعر ، ولهذا جاءت خالية في الغالب من ذكر المناسبة ، وهي إذا ذكرتها فإنما تذكرها بإيجاز واختصار . أما الشروح التي قد ترد في الديوان، فإنها شروح لغوية ونحوية في الغالب ، لم تتمكن من تقديم صورة واضحة عن الشاعر وعن المناسبات التي من أجلها نظم الشعر . وقد انبرى علماء آخرون بشرح هـذه الدواوين ، إلا أن شروحهم لم تخرج أيضاً عن مألوف ذلك الـزمن من الاهتمام باللغة والنحو وجمع الشواهد والنادر والغريب ، فضاع التأريخ نتيجه لهذه الطريقة .

وقد ذكر (ابن النديم) أن شعر (امرىء القيس) قد عمله جملة علماء ، منهم أبو عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وخالد بن كلثوم ، ومحمد بن حبيب ، وأبو سعيد السكري الذي صنعه من جميع الروايات . وقد صنعه أبو العباس الأحول ولم يتمه وعمله ابن السكيت[2] . ويلاحظ أن جامعي هـذه الدواوين لم يشيروا الى المورد الذي استقوا منه شعرهم . صحيح ان منهم من ذكر السند، إلا انه لم يذكر كيف حصل المرجع الذي ينتهي السند عنده على هـذا الشعر . ولم يحفل الرجال الذين تنتهي الأسانيد بهم بذلك ، مع أن لذكر السند كاملاً أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ . إذ نتمكن بهذا التشخيص من الوقوف على معين هذا الشعر .

وقد دوّن (ابن النديم) جريدة بأسماء علماء الشعر الذين اشتغلوا بعمل دواوين الجاهليين . وقد استعمل لفظة (صنع) و (عمل) و (صنعة) في معنى (جمع) و (ألف) و (تأليف) . واستعمل جملة « صنعه من جميع الروايات » بعد اسم الجامع وقبل اسم الشاعر للإشارة الى ان جامع الديوان قد اعتمد على المجموعات

---

١ الخزانة (١/١٠) ،(بولاق) راجع الفهرست لابن النديم ، حيث تراه يذكر أسماء مؤلفات عديدة بهذا الموضوع .

٢ الفهرست (٢٢٩) .

الشعرية التي صنعت قبله ، وأوجد من مجموعها ديوانه . فقد تقدم رواية قصيدة على قصيدة ، وقد تؤخر أخرى قصيدة متقدمة ، فتقدم عليها قصيدة متأخرة ، وقد يقدم ديوان بعض أبيات قصيدة ، وقد يرتبها ديوان آخر ترتيباً آخر ، لاعتماده على مورد آخر ، روى القصيدة بصورة أخرى ، وقد يذكر ديوان شعراً وقطعاً وقصائد أو قصيدة لا تكون موجودة في الدواوين الأخرى أو في بعض منها، ولهذا يأتي جامع جديد ، تقع عنده تلك الدواوين، أو تكون عنده كتب شواهد ونوادر وأخبار ، فيها من شعر الشاعر ما لم يرد في ديوانه فيضمه اليه ، ويكون من المجموع ديواناً جديداً ، برواية جديدة ، تنسب اليه ، كما فعل (السكري) بالنسبة لشعر امرىء القيس .

ومن أعرف من اشتغل بجمع أشعار القبائل : أبو عمرو الشيباني ، وخالد بن كلثوم ، والطوسي ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، ومحمد بن حبيب[1] . ونظراً لحفظهم أشعار القبائل ، حفظوا بالطبع أشعار الشعراء الجاهليين، وحملهم ذلك على جمع أشعارهم في دواوين خاصة . وقد أضاف (ابن النديم) عليهم ، اسم (ابن السكيت) ، وثعلب[2] . وكان (الطوسي) عدواً لابن السكيت ، لأنهما أخذا عن (نصران) الخراساني ، واختلفا في كتبه بعد موته . وكانت كتب نصران لابن السكيت حفظاً وللطوسي سماعاً »[3] .

ولم يرتب صناع الدواوين الشعر على حسب الترتيب الزمني ، وإنما رتبوه على ترتيب القوافي ، أي وفقاً لترتيب أبجدية القوافي . وقد يسر هذا الترتيب للقارىء الرجوع الى الشعر الذي يريده ، لكنه حرمه من شيء ثمين جداً ، هو معرفة زمن نظم الشعر . وللزمن أثر كبير في الوقوف على تطور شعر الشاعر ، وعلى مدى تقدمه أو تأخره في نظم الشعر ، كما حرمه من الوقوف على العوامل التأريخية التي أثرت على الشاعر وعلى مجتمعه فدفعته على نظم شعره . ومع وجود بعض المراجع المساعدة من مثل كتب الأخبار والأدب والشواهد ، فإن هنالك أموراً تأريخية تخص الشعراء الجاهليين والشعر الجاهلي ، بقيت خافية علينا ، بسبب عدم

---

١ الفهرست (٢٢٩) ، (المقالة الرابعة) .
٢ الفهرست (٢٣٠) .
٣ الفهرست (١١٢ وما بعدها) .

اهتمام علماء الشعر آنذاك بموضوع ترتيب الشعر ترتيباً زمنياً ، ولعدم اهتمامهم بذكر أسباب نظم كل بيت أو قطعة أو شعر ، أو قصيدة ، مع بيان الزمن الذي نظم الشاعر فيه شعره .

وقد ظهر قوم دوّنوا الشعر في الصحف ، وقرأوه منها ، ونظراً لمكانة الحفظ عند العلماء ، ولقياسهم علم الإنسان بمقدار حفظه ، لا بما كان يشرحه أو يفسره من الصحف والكتب ، لذلك لم ينظر إلى مدوّني الصحف نظرة تجلة وتقدير ، لأنهم في نظرهم قراء صحف لا غير . قال (ابن قتيبة) : « يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر »[1] ، ذكر ذلك في معرض الاستخفاف بعلمهم ، لكونهم لا يميزون بين الشعر الصحيح من الفاسد ، والرديء من الجيد ، لأنهم يقرأون عن صحف ، وينطقون بحروف وكلم مكتوبة ، لا عن فهم ودراية مثل رواة الشعر ، الذين خزنوا علمهم في أدمغتهم ، فإذا سُئلوا عن شيء أجابوا عن روية وفكر ، لا عن صحيفة مكتوبة .

وقد ساعدت الكتب المؤلفة في أخبار القبائل مساعدة كبيرة في جمع الشعر الجاهلي ، ونجد في كتاب (الفهرست) لابن النديم أسماء مؤلفات كثيرة ، في القبائل ، وفي أمور أخرى لها صلة بالشعر ، ذكرها أثناء تحدثه عن الأشخاص الذين ذكرهم في كتابه . وقد هلكت أكثر المؤلفات المذكورة ، ولكننا نجد نقولاً منها في بعض الكتب التي كتب لها البقاء والتي قدر لها أن تطبع .

ولا أجد في نفسي حاجة الى ذكر الموارد الأخرى التي أفادتنا كثيراً في جمع الشعر الجاهلي وفي الوقوف عليه ، لأن لقارىء هذا الكتاب إلماماً بها ، قد يزيد على إلمامي بها . وعلى رأس هذه الموارد كتب الأدب ، مثل مؤلفات الجاحظ ، وكتاب الأغاني للأصبهاني ، وكتب الأمالي والمجالس وغيرها ، ففي هذه الموارد مادة قد لا نجدها في كتب الشعر ، وقد ذكرت أسماء مصادر قديمة نقلت منها لا نعرف اليوم من أمرها شيئاً .

ولا بد من الإشارة أيضاً الى كتب النحو والشواهد ، فقد جاءت بأشعار جاهلية استشهد بها على إثبات قاعدة نحوية ، أو شاهد رأي جاء به عالم لإثبات

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٨) .

رأيه في موضوع لغوي أو نحوي . وقد نص على اسم أو أسماء الشعراء في بعض الأحيان ، ولم ينص على الأسماء في أحيان أخرى . وقد يمكن معرفة بعض الأشعار التي لم ينص على اسم قائلهـا ، بالرجوع الى المـوارد الأخرى التي نسبتها الى قائليها ، غير ان الحظ لا يساعد في أحيان أخرى على معرفة اسم قائل الشاهد ، لعدم وجوده في موارد أخرى . وقد يكون شاهداً مفتعلاً ، فلا يمكن التوصل الى أصله بالطبع .

الفصل الخامس والخمسون بعد المئة

الشعر المصنوع

ليس البحث في معرفة المصنوع من الشعر ، وفي أسباب وضعه ، من البحوث الجديدة ، التي أوجدها المستشرقون ، أو من أخذ عنهم من الباحثين المحدثين ، بل هو بحث قديم ، أتقنه أهل الجاهلية ، وأخذه عنهم أهل الإسلام . وفي هذا المعنى قال الشاعر الشهير (الحطيئة) : « ويل للشعر من الرواة السوء »[1] . فرواة الشعر ، آفة بالنسبة للشعر وللشعراء ، قد يزيدون فيه ، وقد ينقصون ، وقد يصحفون ، وقد يفتعلون ويصنعون الشعر على ألسنة غيرهم ، ولو لم يكن هذا المرض معروفاً في أيام الحطيئة وقبلها لما ورد هذا القول عنه .

ومعنى انتحله وتنحله ادعاه لنفسه ، وهو لغيره . يقال : انتحل فلان شعر فلان أو قوله ادعاه انه قائله ، وتنحله ادعاه وهو لغيره . قال الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقيدني الشعر في بيته كما قيد الأسرات الحمارا

« ويقال نحل الشاعر قصيدة ، اذا نسبت اليه ، وهي من قبل غيره . ومنه حديث قتادة بن النعمان : كان بشير بن أبيرق يقول الشعر ويهجو به أصحاب

---

[1] الشعر والشعراء (١/١ ٢٣٩) ، (دار الثقافة ، بيروت) .

النبي صلى الله عليه وسلم ، وينحله بعض العرب »[1] . ولم يكن (بشير) أول من فعل ذلك بالطبع من العرب،فهناك غيره ممن سبقه وممن عاش في أيامه صنعوا صنيعه في نحل الشعر وإضافته الى الشعراء لمآرب مختلفة . ويظهر من الشعر المتقدم المنسوب الى الأعشى ، انه قد اتهم بانتحال الشعر ، بأخذ شعر غيره وادعائه لنفسه ، فنفى عنه تلك التهمة .

ويروى ان (النعمان بن المنذر) ، كان يرى به هذا الرأي ، فقد ذكروا انه قال له : « لعلك تستعين على شعرك هذا ؟ فقال له الأعشى : احبسني في بيت حتى أقول ، فحبسه في بيت ، فقال قصيدته التي أولها :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا   وشطّت على ذي هوى أن تزارا »

ثم ذكر فيها البيتين المتقدمين[2] . وورد ان الذي قال له ذلك ، هو (قيس ابن معديكرب) الكندي[3] .

وكان السطو على الشعر ، معروفاً في الجاهلية كما كان معروفاً في الإسلام . قال الفرزدق :

إذا ما قلتُ قافيةً شروداً   تنحّلها ابن حمراء العجان

وقال ابن هرمة :

ولم أتنحل الأشعارَ فيها   ولم تُعجزني المِدَحُ الجياد[4]

يقال تنحل الشاعر قصيدة ، إذا نسبها الى نفسه ، وهي من قبل غيره . قال يزيد بن الحكم :

ومسترق القصائد والمضاهي   سواء عند علاّم الرجال[5]

---

١ تاج العروس (١٢٩/٨) ، (نحل) ، اللسان (٦٥١/١١) ، (نحل) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠ وما بعدها) ، ديوانه (رقم ٤١) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٨٠) ، (حاشية رقم ٦) .
٤ تاج العروس (١٢٩/٨) ، (نحل) ، اللسان (٦٥١/١١) ، (نحل) .
٥ تاج العروس (٤٠٥/٨) ، (علم) .

ويقال ان (الأعشى) ، وضع في شعره ان (هرم بن قطبة) حكم لعامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة ، وتزيد بذلك على (هرم) ، وأشاعه بين الناس[1] . والتزيد تكلف الزيادة في الكلام وغيره . وورد ان من الشعراء الجاهليين من كان ينتحل شعر غيره ، أو يجتلب منه . قال الراجز :

يا أيها الزاعم أني أجتلب   وأنني غير عضاهي أنتجب
كذبت إنّ شر ما قيل الكذب ![2]

فهو ينكر انه يجتلب الشعر من غيره . واجتلب الشاعر ، اذا استوق الشعر من غيره واستمده . قال جرير :

ألم يعلم مسرحي القوافي   فلا عيا بهن ولا اجتلابا

أي لا أعيا بالقوافي ولا اجتلبهن ممن سواي ، بل أنا في غنى بما لدي منها[3] .

وقد نحل على الأعشى ، فنسب له الرواة ما ليس من شعره ، مثل قصيدته التي قالها في مدح (سلامة ذا فائش) ، فقد روى (ابن قتيبة) الأبيات الأربعة الأولى منها ، ثم قال : « وهذا الشعر منحول ، لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطي ولا   يشرب كأساً بكف من بخلا »[4]

وروي عن (الخليل) قوله : « إن النحارير من العرب ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ، إرادة اللّبس والتعنيت »[5] . وحمل الكلام على الغير شيء مألوف ، كما أن أخذ شخص كلام غيره وادعائه لنفسه شيء مألوف كذلك . وقد اشار جهابذة العلماء الى أن في الشعر مصنوعاً وفيه مفتعل موضوع . وهو كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته . وقد انبرى لـه العلماء فنقدوا الشعر

---

١ مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٦٥ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١/٣٦٦) .
٣ تاج العروس (١/١٨٤) ، (جلب) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٥) ، ديوان الأعشى (٢٣٢ وما بعدها) ، (القصيدة رقم ٣٥) .
٥ المزهر (١/١٧١) .

لاستخراج الصحيح منه من الفاسد ، وتمكنوا قدر إمكانهم من ضبط بعض الفاسد المنحول ومن الإشارة اليه[1] . قال (ابن سلام) : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم ، أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال »[2] .

وقد ذكروا أن قوماً تداولوا هذا الشعر المصنوع « من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي »[3] . فقياس الصحة في نظرهم ، هو الرواية والأخذ عن أهل البادية ، وقول علماء الشعر في الشعر ، أما الشعر المدوّن والمنقول من الصحف ، فلا قيمة له ، مع أن التدوين أصدق وأكثر صحة من النقل والرواية ، وإذا كانوا قد خافوا التزوير في التدوين ، فإن التزوير في الرواية لا يقل خطراً عن التزوير في التدوين . وقد عدّوا الصحفيين ، قوماً لا علم لهم بالشعر ، وإنما هم نقلة ، يقرأون ما هو مكتوب ، وليس في القراءة دليل على علم[4] ، وذلك لأنهم كانوا يصحفون في القراءة ، ويلحنون ، بينما الراوية الذي يعتمد على علمه وعلى حافظته وعلى ذوقه وطبعه ، لا يصحف ولا يقع في اللحن ، ولهذا قيل لهؤلاء الصحفيين المصحفين .

« قال خلاّد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيان أبي محرز — وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما انه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك ما لا تعرفه أنت . وقال قائل لخلف : اذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. فقال له: اذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ،

---

١ المزهر (١/١٧١) .
٢ طبقات (١٤) .
٣ المزهر (١/١٧١) .
٤ المزهر (١/١٧٤) .

فقال لك الصراف : انه رديء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ »[1] .

وقد افتخر رواة الشعر بأنفسهم ، وزعموا انهم أكثر فهماً في النقد من رواة الحديث ، قال (يحيى بن سعيد القطان) : « رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، وورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع »[2] . يعيبون رواة الحديث على روايتهم الحديث المصنوع ، مع ان وضعهم للشعر لا يقل عن وضع رواة الحديث للحديث على لسان الرسول ، ونقدهم له لا يرتفع كثيراً عن نقد رجال الحديث للحديث .

وقد تعرض (ابن سلام) لموضوع إفساد الشعر ونحله ، فقال : « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء : محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير، فنقل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها . ويقول : لا علم لي بالشعر ، إنما أوتى به ، فأحمله ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود . أفلا يرجع الى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألوف من السنين ؟ والله يقول : وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى . وقال في عادٍ : فهل ترى لهم من باقية . وقال : وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله »[3] .

فهو يتهم (ابن اسحاق) بالجهل بالشعر ، وهو جهل استغله صنّاع الشعر فجاءوا اليه بشعر غثاء فاسد ، وبشعر مصنوع ، فأدخله ، وبشعر مفتعل وضع على ألسنة الماضين فقبله . فكان جهله من عوامل إفساد الشعر .

وهذا الشعر بيِّن الفساد ، يمكن لكل ذوي عقل رفضه ، ولكن الذي أفسد الشعر وهجنه ، هم علماء الشعر وصناعه من أصحاب الحرفة ، الذين وضعوا على ألسنة الشعراء ، شعراً صعب حتّى على نقدة الشعر رده الى أصله ، لأنهم وضعوه وصاغوه على ألسنة الشعراء صياغة محبوكة من نمط الشعر الصحيح المحفوظ عن أهل الجاهلية ، ومن هنا هان عمل (ابن اسحاق) بالنسبة الى عمل (حماد) الراوية و (خلف الأحمر) وغيرهما من صاغة الشعر .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٣ وما بعدها) ، المزهر (١٧٢/١ وما بعدها) .
٢ المزهر (١٧٥/١) ، ذيل الأمالي (١٠٥) .
٣ طبقات (٣ وما بعدها) ، المزهر (١٧٣/١ وما بعدها) .

وقال (ابن سلام) : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار ، وليس يُشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وانما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال »[1] .

وروى (ابن سلام) خبراً طريفاً من أخبار النحل في الشعر ، فقال : « أخبرني أبو عبيدة ان داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة ، فنزل النحيت ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيدفي الأشعار، ويضعها لنا ، واذا كلام دون كلام متمم ، واذا هو يحتذى على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علينا علمنا انه يفتعله »[2] .

وتحاشياً من الوضع ، امتحنوا من كان يقدم عليهم ، للأخذ منه ، أو من كان يتصل بهم من الأعراب ، حتى يتأكدوا من أمانتهم ومن علمهم بما سيسألونهم عنه . إذ ثبت عند العلماء بالشعر ان بعض الأعراب كانوا يفتعلون الشعر ويضعون الأخبار ويجيبون عن غير علم . وقد أفرد (أبو العباس) المبرد لبعض منهم باباً خصصه بأكاذيب الأعراب . وبما كانوا يروونه من أساطير وخرافات[3] ، ومع ذلك فقد فات عليهم الكثير من هذه الأكاذيب ، ودخلت كتبهم، ويمكنك التعرض على البعض منه ، من دون حاجة الى بذل مشقة أو جهد .

وقد أورد علماء الشعر امثلة على المصنوع من الشعر من ذلك ما ذكره (أبو عبيدة) من أنه أنشد (بشار بن برد) ، البيت :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

---

١ طبقات (١٤) .
٢ طبقات (١٤) ، المزهر (١/١٧٥) .
٣ المزهر (٢/٥٠٤) ، (أكاذيب الأعراب) .

وهو بيت وضعه (أبو عمرو) الشيباني على لسان الأعشى ، فقال بعلمه بالشعر وبألفاظ العرب : « كأن هذا ليس من لفظ الأعشى »[1] ، وقد كان (بشار) الشاعر المعروف حاذقاً بأشعار العرب ملماً بأساليبهم ، فأدرك بسليقته وبعلمه بشعر الأعشى أن هذا البيت ليس من شعره ، وقد روى الرواة أن (أبا عمرو) هو الذي وضعه على لسان الأعشى ، وأنه اعترف بصنعه له .

وقد جاء (المعري) في (رسالة الغفران) بأمثلة كثيرة من أمثلة الشعر المنحول الذي صنع على ألسنة الشعراء الجاهليين . كما أشار الى التحوير والتغيير الذي أدخله «المعلمون في الإسلام» على الشعر «فغيّروه على حسب ما يريدون»[2].

وروي ان قريشاً كانوا أول من وضع الشعر من القبائل في الاسلام . نظروا الى أنفسهم ، فإذا حظهم في الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثروا منه في الاسلام. قال (ابن سلام) : « وقريش تزيد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان »[3] . ولم يكتف القرشيون بإضافة الشعر اليهم ، وباستكثاره ، بل عملوا الشعر على لسان شعراء المدينة للغض منهم ، وذلك لما كان بينهم وبين أهل يثرب من تحاسد يعود الى ما قبل الاسلام . وقد ذكر ان (قتادة بن موسى) الجمحي هجا (حسان بن ثابت) ونحلها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)[4] ، صنعوا الشعر الغث الضعيف وأضافوه الى شعراء الأنصار للغض من منزلتهم في الشعر .

وقد أشار (السيوطي) الى أشعار ، ذكر ان علماء الشعر يروون انها من صنع (خلف الأحمر) ، صنعها على ألسنة الشعراء الجاهليين . من ذلك اللامية المنسوبة الى (الشنفرى)[5] ، والقصيدة التي فيها :

خيلٌ صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

---

١ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٣٥ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (٣١٧ وما بعدها) .

٣ طبقات (٦٢) .

٤ الاصابة (٢١٧/٣) ، (٧٠٧٧) .

٥ طبقات النحويين ، للزبيدي (١٧٨ وما بعدها) ، المزهر (١٧٦/١) .

وقد نسبها للنابغة [1] . والقصيدة التي فيها :

قل لعمرو : يا ابن هند　لو رأيت القوم شنّا
لرأت عيناك منهم　كل ما كنت تمنّى [2]

كما روى أبياتاً ذكر أنها من صنع (حماد) . من ذلك قصيدة نسبها لهند ابنة النعمان ، من أبياتها :

ألا من مبلغ بكراً رسولاً　فقد جدّ النفير بعنقفير

وقد قال الأصمعي ، إنها مصنوعة ، لم يعرفها أبو بردة ، ولا أبو الزّعراء، ولا أبو فراس ، ولا أبو سُريرة ، ولا الأغطش ، وهي مع نقيضة لها أخذت عن حمّاد الراوية [3] .

وروي عن (الأصمعي) قوله : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حمّاد الراوية إلاّ نتفاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء » [4] .

ومرد نحل الشعر عند (ابن سلام) : إما الى عصبية قبلية ، وإما الى رواة شعر . أما عصبية القبائل ، فقد دوّنت رأيه في سببها . وأما عن رواة الشعر ، فأول المزيفين للشعر في نظره (حماد) الراوية ، الذي قال عنه : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار . أخبرني أبو عبيدة عن يونس. قال : قدم حمادٌ البصرة على بلال بن أبي بردة ، فقال ما أطرفتني شيئاً ! فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبو موسى . فقال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ، لا أعلم به ، وأنا أروي للحطيئة . ولكن دعها تذهب بين الناس . وأخبرنا ابن سلام ، قال : سمعتُ يونس يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد،وكان يكذب ويلحن ويكسر » [5] . وحماد وأضرابه في نظر (ابن سلام)

---

١ المزهر (١/١٧٧) .
٢ المزهر (١/١٧٩) .
٣ المزهر (١/١٨٠) .
٤ مراتب النحويين (٧٢) ، شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٧٤) .
٥ طبقات (١٤ وما بعدها) .

مزيفون ماهرون يزيفون الشعر ويصنعونه ، فهم أصحاب صنعة محترفون للتزييف .
أما (محمد بن اسحاق) ، فإنه في نظره نمط آخر ، نمط رجل جاهل بالشعر ، دفع اليه الناس المصنوع من الشعر وكل غثاء منه ، فحمله ، وأدخله في السيرة ، وحمل الناس عنه الأشعار ، وكان عذره أنه لا علم له بالشعر ، إنما يؤتى به اليه فيحمله ويدونه ، ولكنه لامه على هذا الاعتذار بقوله : « ولم يكن له ذلك عذراً ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط . وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : فقطع دابر القوم الذين ظلموا ... الخ »[1] ، وقد اتهمه غيره بأنه « كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة ، فيفعل فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتابه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعفونه »[2] . وألحق بهذا الصنف من رواة الشعر ومدونيه جماعة الصحفيين ، الذين لم يكونوا يميزون بين الشعر ، ويحملون كل ما يعطى لهم ، من شعر غث أو زائف ، وقد يصحفون في تدوينه ، لعدم وجود علم لهم به ، فهم أيضاً في جملة من أفسد الشعر .

و (ابن سلام) الجمحي ، من علماء البصرة ، وأكثر حملة الشعر البصريين يتحاملون عليه ، عصبية منهم لمدينتهم ، لأنه من أهل الكوفة ، وكان أهل الكوفة يغضون أيضاً من شأن رجال العلم البصريين ويتحاملون عليهم . وكل ينسب الى خصمه التزييف ونحل الشعر على ألسنة الشعراء المتقدمين ، وكل منهم يتهم الآخر بالتهمة التي يوجهها لخصمه من التزييف والجهل .

ولم يكن (ابن سلام) أول من نبه الى وجود النحل في الشعر ، ولم يكن هو أيضاً آخر من وضع رأياً في النقد ، فتوقف الناس بعده . فقد سبقه الأعشى وغيره الى هذا الرأي . ثم جاء بعده علماء كانت لهم آراء قيمة في هذا الشعر وفي

---

١ طبقات (١٤) ، الفهرست ، (١٤٢) .
٢ الفهرست (١٤٢) .

شعرائه ، نجدها مدونة في كتبهم ، وفي الكتب التي اعتمدت عليها ، وقد نبهت ملاحظات أولئك العلماء المستشرقين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر فما بعد ، فعمدوا الى دراستها وتحليلها ، واستنبطوا منها آراءهم التي أبدوها عن الشعر الجاهلي.

وقد نبه (أبو العلاء) المعري الى وجود الشعر المصنوع في (رسالة الغفران) وأشار اليه وشخّص قسماً منه ، وذكر اسم صانعيه في بعض الأحيـــان ، فذكر الشعر المنسوب الى (آدم) مثلاً :

نحن بنو الأرض وسكانها   منها خلقنا ، واليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه   والنحس تمحوه ليالي السعود

وقال على لسانه : « إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعض الحكماء ، ولكني لم أسمع به حتّى الساعة »[1] .

ويقول (أبو العلاء) مخاطباً (آدم) : « وكذلك يروون لك — صلى الله عليك — لما قتل (هابيلُ) (قابيلَ) :

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مغبر قبيــح
وأودى ربع أهليها فبانوا   وغودر في الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشد :

وزال بشاشة الوجه المليح[2]

ثم يضع الجواب على لسان آدم ، فيقوّله : « أعزز عليّ بكم معشر أبيني ! انكم في الضلالة مُتهوّكون ! آليت ما نطقت هذا النظم ، ولا نُطق في عصري وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك الى الأرض »[3] .

---

١ رسالة الغفران (٣٦٠) .
٢ رسالة الغفران (٣٦٢ وما بعدها) .
٣ رسالة الغفران (ص ٣٦٤).

وسأل (المعري) (آدم) عن لسانه ، ثم أجاب عنه بقوله : « انما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نُقل لساني الى السريانية، فلم أنطق بغيرها الى ان هلكت ، فلما ردني الله — سبحانه وتعالى — الى الجنة ، عادت على العربية ، فأي حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟ »[1] :

ثم تراه يتحدث عن الشعر المنسوب الى الجن ، والى أشعار أخرى ، فتراه يردّها وينتقدها ، ويشير الى وجود شعر مصنوع وضع على الإنس والجن . تراه يقول : « وكنت بمدينة السلام ، فشاهدتُ بعض الورّاقين يسأل عن قافية (عدي ابن زيد) التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصبـ ـح يعـاتبنه أمـا تستفيق
ودعا بالصبوح فجراً ، فجاءت قينـةٌ في يمينهـا إبريق

وزعم الورّاق أن (ابن حاجب النعمان) سأل عن هذه القصيدة وطلبت في نسخ من ديوان عدي ، فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل استراباذ يقرأ هذه القافية في ديوان العبادي ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم »[2] .
وقد تحدث (أبو العلاء) المعري في (رسالة الغفران) عن القصيدة التي أولها:

أليمّا على المطورة المتأبدة أقامت بها في المربع المتجردة
مضمّخة بالمسك مخضوبة الشوى بدُرّ وياقوت لهـا متقلدة
كأن ثناياها — وما ذقت طعمها — مُجاجة نحل في كُميت مبردة
ليقرر بها النعمان عيناً فإنهـا له نعمة ، في كل يوم مجددة

فقال إنها من الشعر المنحول ، نحلت على النابغة ونسبت اليه . وقال على لسانه: « فيقول أبا أمامة : ما أذكر أني سلكت هذا القريّ قط . فيقول مولاي الشيخ زين الله أيامه ببقائه : إن ذلك لعجبٌ ، فمن الذي تطوّع فنسبها إليك ؟ فيقول إنها لم تنسب إليّ على سبيل التطوع ، ولكن على معنى الغلط والتوهم ، ولعلّها

---

١ رسالة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .

لرجل من بني ثعلبة بن سعد[1] فيقول نابغة بني جعدة : صحبني شابٌ في الجاهلية ونحن نريد الحيرة ، فأنشدني هذه القصيدة لنفسه ، وذكر أنه من ثعلبة بن عكابة، وصادف قدومه شكاة من النعمان فلم يصل اليه . فيقول : نابغة بني ذُبيان : ما أجدر ذلك أن يكون ! »[2] . فردّ هذا الشعر ، وأنكر كونه من شعر النابغة ، وبين بأسلوب جميل رأيه فيمن نحله عليه .

وتحدث عن الكلمة الشينية المنسوبة للنابغة الجعدي ، التي يقول فيها :

ولقـــد أغدُو بشرب أنف   قبل أن يظهر في الأرض ربش
معنـــا زقٌ الى سُمّهـــة   تسق الآكال من رطب وهش

وبعد أن دوّنها قال : « فيقول نابغة بني جعـــدة : ما جعلت الشينَ قطّ روياً ، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط : ربش ، وسُمّهة ، وخششٍ »[3].

وتراه يتحدث عن قصيـدة نسبت للأعشى ، فيقول عـــلى لسان سائل يسأل (أعشى قيس) في الجنة عن قوله :

أمِنْ قتلة بالأنقـــاء   دارٌ غـــير محلوله
كأن لم تصحب الحي   بها بيضاء عطبوله
أناة ينـــزل القومي   منها منظـــر هوله

الى أن يكمل القصيدة ، ثم يقول : « فيقول أعشى قيس : ما هذه مما رصد عني ، وانك منذ اليوم لمولع بالمنحولات »[4] .

وفي (رسالة الغفران) مواضع أخرى كثيرة تعرض فيها (المعري) لنقـــد الشعر ، ولبيان الصحيح منه من الفاسد ، تجعل الكتاب من الكتب الجيدة القديمة التي نبهت الى وجود الصنعة والنحل في الشعر الجاهلي ، والتي مهدت الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين والمحدثين فتكلموا عن هذا الموضوع بلغة العصر الجديد.

---

١ رسالة الغفران (٢٠٧) .
٢ رسالة الغفران (٢٠٧ وما بعدها) .
٣ رسالة الغفران (٢٠٨ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٢١١ وما بعدها) .

وما ذكره (المعري) في رسالته يمثل رأيه ورأي من تقدم عليه من علماء الشعر في مواضع الانتحال في الشعر الجاهلي وفي نقد الشعر .

ونبه (الجاحظ) في كتبه الى وجود شعر منحول ، وقد نص عليه ، وأشار الى اسم من نسب له ، من ذلك قوله :

« وفي منحول شعر النابغة :

فألفيت الأمانة لم تخنّها كذلك كان نوح لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه ، وانما ذلك كقولهم كان داودُ لا يخون ، وكذلك كان موسى لا يخون »[1] .

والنحل في الشعر ليس بأمر غريب ، إذ وقع في غير الشعر كذلك ، وقع ذلك طلباً للغريب والنادر ، « ذكر بعض مشايخنا رحمهم الله انه رأى مصحفاً منسوباً الى أبـي خالف بعض حروفه حروف هذا المصحف ، لكنـا لا نأمن أن يكون ذلك من جهة بعض من يحب الافتخار بالغريب ، فإن هذه بلية قد أضرت بالدين وأخلت بمصالح المسلمين ، وطرقت الملحدين الى الطعن في أركان الاسلام ، وسهلت عليهم الشغب في أمره ، وقد نرى من المتقشفين نواب الملوك ، وعبيد أرباب الأموال ، وأبناء الدنيا اذا لم يجدوا للقرآن وعلوم الدين عندهم موقعاً فيتقربون اليهم بغرائب الكتب ، واذا أعوزهم الغريب الذي يستذرع به أخذوا بعض الكتب المعروفة يزيدون فيها وينقصون ، ويقدمون ويؤخرون ويعنونونه بعنوان بعيد ليتسببوا بذلك الى استخراج شيء منهم .

فعلى هذا النحو لا يؤمن أحدهم ان يعمد الى مصحف فيقدم منه سوراً ويؤخر أخرى ، ويحرّف ألفاظاً ، ثم يزعم انه مصحف علـيّ أو عبدالله أو مصحف أبـي ، وليس غرض البائس من ذلك إلا أن يحمله الى بعض الملوك فيقول : إنّ خزانة مثلك يجب ألا تخلو من نسخة من كل مصحف ليستخرج من حطامه شيئاً ، ولا يبالي بما كان من جناية على الدين وأهله »[2] .

---

١ الحيوان (٢/٢٤٦) .
٢ مقدمتان في علوم القرآن (٤٧ وما بعدها) ، (أرثر جفري) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (١٥) .

ولم يقع نحل الشعر عند العرب وحدهم ، وإنما وقع عند غيرهم كذلك . فقد وقع عند اليونان وعند الرومان وعند الفرس والعبرانيين ، وهو آفة لا تزال حيّة منهم من يضع على ألسنة المتقدمين ، ومنهم من يسرق قول غيره فينسبه نفسه ، وقد ضيقت وسائل النشر والإذاعة من سرقة آراء وأقوال الغير ، وتسجيلها باسم سارق نسبها لنفسه ، غير أن مشكلة تعيين أصول الشعر الجاهلي والنحل القديم ، لا تزال من المشاكل المستعصية ، لأن الوسائل الحديثة لا تتمكن من إحياء من في القبور واستنطاقهم عن المنحول والمسروق !

وقد وضع (ابن سلام) قاعدة في كيفية قبول الشعر والأخذ به ، فقال : « قد اختلف العلماء في بعض الشعر ، كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » ، وبقوله : « وليس لأحد ، إذا اجتمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شي منه ، أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي »[1] . وقد أبدى ملاحظات قيمة في نقد الشعر ، فأشار الى المزيف منه ، وأظهر تحفظاً في قبول بعض الأشعار ، لأنها منتحلة ، فلما تطرق الى شعر (طرفة) قال فيه : وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

اقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيّات فالذنوب

ولا أدري ما بعد ذلك »[2] . وذكر أن رواة الشعر وضعوا شعراً كثيراً على (طرفة) و (عبيد بن الأبرص) ، وكانا من أقدم الفحول ، وقد ضاع معظم شعرهما لذلك ، فوضعوا عليهما الأشعار[3] .

وأنكر أن يكون (النابغة) قد قال :

فألفيتُ الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

وذكر ان أهل العلم أجمعوا على انه لم يقل هذا الشعر[4] ، وله ملاحظات أخرى

---

١ طبقات (٦) .
٢ طبقات (١١٦) .
٣ طبقات (٢٣) .
٤ ابن سلام (٤٩ وما بعدها) .

من هذا القبيل ، تجدها في طبقاته ، فقد شك في أكثر شعر (عبيد بن الأبرص)، ولم يثبت لديه من شعره إلا ثلاث قصائد[1] .

وطريقة (ابن سلام) في قبول الشعر وفي صحته ، هو إجماع علماء الشعر واجتهادهم ، فإذا قرر علماء الشعر قبول شعر ووثقوا بـه وثبتوه ، صار مقبولاً في نظره ، لأنهم هم الذين يميزون بين الصحيح وبين الفاسد ، « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الزواة ، ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون » . فالعلماء هم صيارفة الشعر يستطيعون نقده ، واستخراج الزائف منه ورميه ، وهو لا يبالي بعد ذلك بما روى (ابن اسحاق) وأمثاله من شعر « لا خير فيه ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب : ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسب مستطرف »[2] .

أما ما روي من شعر على ألسنة ملوك حمير وأقيال اليمن وأذوائها ، فإن العارفين بالشعر الجاهلي وبأساليبه وبروايته ، يرون انه شعر لا يطمأن الى صحته ، وضع على ألسنة من نسب اليهم . وقد رواه أناس من أهل اليمن ، عرف معظمهم برواية القصص والأساطير ، وعرف بعضهم بروايتهم القصص الاسرائيلي . أما المعروفون بأنهم حملة الشعر الجاهلي وروايته من القدامى ، فلم يرووا شيئاً يذكر من ذلك الشعر . وأما رجال العلم بالنحو وبقواعد العربية ، فلم يستشهدوا به في شواهدهم ، مما يدل على ان لهم رأياً فيه . وقد ذكر أهل الأخبار ان ابن مفرغ يزيد بن ربيعة ، وكان يزعم انه من حمير ، وضع سيرة تُبَّع وأشعاره[3] .

وكان أول من لفت الأنظار ومهد الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين الراغبين في دراسة الشعر الجاهلي العالم الألماني (نولدكه) (Theodor Nöldeke) في كتابه ، (Beiträge zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber) الذي طبعه سنة (١٨٦٤م). وقد تطرق في مقدمته الى تأريخ ونقد الشعر الجاهلي ، وإلى ما ورد عن مبدأ هذا الشعر ، وعن ابتدائه بالرجز . وقد ذهب الى أن هذا الشعر الجاهلي الواصل الينا ، والمحفوظ في الكتب ، لا يمكن أن يرتقي الى أكثر من السنة (٥٠٠) للميلاد . ثم تطرق الى التطور الذي أحاق بالأفكار والآراء والمعاني الواردة في

---

١ ابن سلام (٧٦ وما بعدها ، ١١٦) .
٢ ابن سلام (٥ وما بعدها ، ٤٠) .
٣ الأغاني (١٧/٥٢) .

الشعر المقال في أيام الأمويين ، فأبعده من هذه الناحية عن الشعر الجاهلي ، فعزاه الى الحياة الجديدة التي دخل فيها العرب في هذا العهد ، والى التغير الروحي الذي ظهر بين العرب نتيجة خروجهم من البوادي ودخولهم أرضين خصبة ، ذات عمران وحضارة ، وهو تغير يفوق في نظره أثر الدين الجديد ، أي الإسلام في العرب . فبينما كان الشعر الجاهلي[1]، شعر بدوي ، ظهر وترعرع بين الأعراب وفي البوادي ، وكان أبطاله ورجاله ، يراجعون الإمارتين الصغيرتين : امارة المناذرة وامارة الغساسنة ، نرى هذا الشعر ينمو ويظهر في قصور الخلفاء والولاة والحكام ، وهي كثيرة ، فيها البذخ والمال والترف والنعيم ، وحياة هذه طرازها لا بد وأن تؤثر على مشاعر الشاعر ، فتجعل شعره يختلف في معانيه وفي شعوره عن معاني وشعور الشعر الجاهلي ، وان حاول الشعراء جهدهم المحافظة على القوالب الجاهلية للشعر ، والتمسك بجزالة ذلك الشعر[1] .

ثم تحدث في مقدمته هذه عن الصعوبات التي يواجهها المرء حين يريد فهم هذا الشعر ، ثم أشار الى عمل المستشرقين الذين سبقوه في نشر وترجمة ذلك الشعر الى لغاتهم ، ثم تحدث عن تضارب الروايات واختلافها في نصوصها وعن رواة الشعر الجاهلي ، وعن تداخل الشعر بعضه في بعض في بعض الأحيان ، بحيث يدخل شعر شاعر في شعر غيره ، أو ينسب شعر شاعر لغيره[2] ، ثم عن تغيير وتحوير الأشعار المقالة بلهجات القبائل لجعلها موافقة للعربية الفصحى ، وإن كانت هذه الفروق التي كانت بين اللهجات الشمالية لم تكن كبيرة عند ظهور الإسلام . وتحدث بعد ذلك عن الشعر الوثني وعن ورود أسماء الأصنام فيه ، وعن تجنب الرواة ايرادها ، أو تحويرها بعض التحوير . ثم تحدث عن تعمد الرواة نحل الشعر ، وحمله على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وعلى ألسنة الماضين ، وعلى ألسنة الجن والملائكة .

وتطرق أيضاً الى رأي علماء العربية في الشعر الجاهلي ، وفي المعلقات ، ورأي (النحاس) فيها ، ثم تحدث عن تصنيف علماء الشعر للشعراء الى طبقات، وعن

---

١ Beitrage, S. I. f.

٢ المصدر نفسه (ص VIII) .

الأسس التي وضعوها في هذا التصنيف[1] .

وبعد هذه المقدمة التي أخذت (٢٤) صفحة من الكتاب ، ترجم الصفحات الأولى من كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، الى باب (العيب في الإعراب) ، وانتهى منه بقول القائل :

قل لسُليمى اذا لاقيتها	هل تبلغنّ بلدة إلا بزاد
قل للصعاليك لا تستحسروا	من التماسٍ وسيرٍ في البلاد
فالغزو أحجى ما خيّلت	من اضطجاع على غير وساد
لو وصل الغيث أبناء امرىءٍ	كانت له قبة سحق بجاد
وبلدة مقفرٍ غيطانها	أصداؤها مغرب الشمس تناد
قطعتها صاحبي حوشية	في مرفقيها عن الزور تعاد[2]

ثم تطرق في كتابه الى شعر يهود جزيرة العرب ، ثم الى شعر مالك ومتمم ابنا نويرة ، فشعر الخنساء ، ودوّن بعض النماذج من الشعر .

وقد تهيأت للمستشرقين الذين جاءوا بعد (نولدكه) موارد جديدة لم تكن معروفة في أيامه ، بفضل جهود العلماء الذين بعثوها ، بإخراجها مطبوعة ، بعد ان كانت مخطوطة ، قابعة في زوايا النسيان ، بعيدة عن متناول اليد ، فزاد علمهم بالشعر الجاهلي ، وأحاطوا بما فات وخفي عن علم ذلك المستشرق الكبير العالم ، وكوّنوا لهم آراءهم عنه ، نشروها في مقدمات الدواوين ومجموعات الشعر التي أخرجوها ، أو في كتبهم التي وضعوها في الأدب الجاهلي ، وفي مقالاتهم التي نشروها في المجلات . وقد ترجمت بعض منها الى العربية ، ولخصت بعض

---

١ Beiträge, S. IX. وما بعدها

٢ الشعر والشعراء (٤٦/٦) ، Beiträge, 1-42.

منها ، في الكتب العربية التي تناولت الأدب الجاهلي[1] .

وللمستشرق (آلورد) « W. Ahlwardt » ملاحظات قيّمة عن الشعر الجاهلي من حيث الصحة والصنعة والإصالة[2] .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع الشعر المنحول ، فأشار الى أثر الرواية الشفوية في الوضع ، والى موضوع التدوين وعدم وجوده في الجاهلية ، وأثره في فقدانه على انتحال الشعر ، ثم قال : « ومن ثم يعد خطأ من مرجليوث وطه حسين أن أنكرا استعمال الكتابة في شمالي الجزيرة العربية قبل الاسلام بالكلية ، ورتبا على ذلك ما ذهبا اليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ، ومنحولة لأسمائهم .

ولكن بديهياً أن الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية . فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه ، يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس ، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده.

---

١ للوقوف على آراء بعض المستشرقين راجع الفصل الثالث من كتاب : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، تأليف الدكتور ناصرالدين الاسد (ص ٣٥٢ وما بعدها) ، وكتاب تاريخ الادب العربي : العصر الجاهلي ، تأليف الدكتور ريجيس بلاشير ، تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني (بيروت : دار الفكر) ،

Th. Nöldeke, Die Semitischen sprachen, S. 47.

Th. Nöldeke, Funf Mo'allaqat, Wien, 1899, 1900, D. S. Margoliouth, The Origine of Arabic Poetry, In Journal Royal Asiatic Society, 1925, pp. 417-449, Encyclopaedae of Religion and Ethics, Vol., 8, p. 874, G. Richter, Zur Entstehungs Geschichte der Altarabischen Quaside, In ZDMG., XCII, (1938), W. Muir, Ancient Arabic Poetry, In JRAS, (1875), Krenkow, The Use of the Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry, Cambridge, 1022, E. Bräunlich, Versuch einer Literargeschichtlichen betrachtungsweise Altarabischer Poesien, In Der Islam, XXIV, 1937, S. 201-269, G. Von Grunebaum, Die Wirklichkeite der Früharabischen Dichtung, Wien, 1937, G. Von Grunebaum, Zur Chronologie der Früharabischen Dichtung, In Orientalia, VIII, 1939, pp. 328-345, Ahlwardt, The Diwans of the Six Ancient's Arabic Poets, London, 1870, R. Geyer, Beiträge zur Kenntnis Altarabischer Dichter, in Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes, XVIII, 1904, S. 5, Delitzsch, Jüdisch-Arabische Poesien aus Vormuhammedanischer Zeit, Leipzig, 1874.

٢ W Ahlwardt, Bemerkungen über die Echtheit der Alten Arabische Gedichte, Greifswald, 1872.

وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

وعن الرواة كانت تنتشر الدرايــة بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه . ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف ، وإن لاحظنا أن ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحدّ عـلى الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث .

ولم يبدأ جمع الشعر العربي إلا في عصر الأمويين ، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين ، بيد أن معنى التحري في وثـوق الرواية ، والتدقيق في النقل اللغوي على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا ، كان أمراً غريباً بعد على جماع ذلك العصر . ولما كان كثير من هؤلاء الجمّاع أنفسهم شعراء ، فقد ظنوا أنه ليس من حقهم فقط ، بل ربما كان واجباً عليهم أيضاً في بعض الأحيان أن يصلحوا ما رووه للشعراء القدماء أو يزيدوا عليه . فلا عجب إذا لم يبالوا أيضاً بالوضع والإختراع لتوثيق رواياتهم . وقد أراد حماد الراوية أن يفسر تفوقه ، والتفوق المزعوم لأصحابه الكوفيين في الدراية بالشعر القديم ، فزعم أنه وجد الشعر الذي كتب بأمر النعمان ودفن في قصره الأبيض بالحيرة ، ثم كشف في أيام المختار بن أبي عبيد .

لقد غير الرواة بعض أشعار الجاهلية عمداً ، ونسبوا بعض الأشعار القديمة الى شعراء من الجاهلية الأولى ، كما يمكن أن يكون وضع أشعار قديمة ، منحولــة على مشاهير الأبطال في الزمن الأول لتمجيد بعض القبائل،أكثر مما نستطيع اثباته .

على أنه بالرغم من كل العيوب التي لم يكن منهــا بد في المصادر القديمة ، يبدو أن القصد الى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دوراً ثانوياً . وقد روى علماء المسلمين أشعاراً للجاهليين تشتمل على أسماء الأصنام وعبادتها ، وإن أسقطوا أيضاً أبياتاً أخرى لشبهات دينية ، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة ، لأن الشعور الديني لم يكن غالباً على نفوس العرب في الجاهلية »[1] .

وقد جاء المستشرق (كارلو نالينو) في محاضراته التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ — ١٩١١ م ، بشيء جديد في طريقة التحدث عن الأدب العربي

---

١ بروكلمن (١/٦٤ وما بعدها) .

من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، فقد عرضه عرضاً جميلاً واضحاً ، مستعملاً ملاحظات أئمة العربية عنه ، مع بيان ملاحظاته وآرائه فيه ، وقد أحدثت محاضراته هذه أثراً في كيفية دراسة الأدب العربي ، لا بمصر وحدها ، بل في الأقطار العربية التي كانت تتابع ما يحدث في مصر من تطور ثقافي[1] .

وهو وإن لم يأت في كتابه برأي جديد مثير ، إذ كانت أفكاره وسطاً في الواقع بين القديم وبين الجديد ، إلا ان طريقة عرضه لآرائه وأسلوبه في بحثه وفي تحدثه عن الشعراء ، كانت طريقة جديدة غريبة بالنسبة لدارسي الأدب العربي في ذلك الوقت ، ولدت شوقاً في نفوس الدارسين للأدب العربي في ذلك الوقت الى السير على الطريقة الغربية في نقد الأدب وفي تقبله وتحليله ، وأولدت الشك في الوقت نفسه في الروايات القديمة المروية عن الأدب العربي ، التي كان يتمسك بها القدماء تمسكهم بنصوص كتاب سماوي مقدس ، باعتبار انها روايات تتعلق بالماضي وبالتراث . ومن التجني على العربية والاسلام التعرض لها بأي سوء ، وفي جملة ذلك الشك في صحتها والنيل منها وإلحاق الأذى بها .

وتطرق المستشرق الانكليزي (مركليوث) في بحثه : (أصول الشعر العربي) « The Origins of Arabic Poetry » الى الشعر الجاهلي ، وقد ذهب الى ان أكثر هذا الشعر منحول ، صنع في الاسلام ووضع على ألسنة الجاهليين . وقد أورد فيه الأدلة والبراهين التي استدل بها على إثبات رأيه . وقد لخصت آراؤه هذه ونقلت الى العربية ، فلا أجد حاجة الى البحث عنها ، ما دام غيري قد سبقني الى هذا العمل[2] .

وقد رأى بعض المستشرقين ان علماء اللغة أدخلوا تغييراً على نصوص الشعر الجاهلي ، لما وجدوا ان قواعدها لا تتفق مع القواعد التي استنبطوها من القرآن والحديث ، أي من لغة قريش ، ولذلك عدّلوها ليكون إعرابها ملائماً لما وضعوه من قواعد النحو . وهو رأي يتناقض مع رأي المستشرقين القائلين بأن القرآن انما نزل بلغة عربية مبينة كانت فوق اللهجات وفوق اللغات ،ولم ينزل بلهجة قريش،

١ كارلو نالينو ، تأريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية ، (دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٧٠ م) .

٢ مصادر الشعر الجاهلي (٣٥٢ وما بعدها) ، ريجيس بلاشير ، تأريخ الادب العربي (١٧٧ وما بعدها) .

ورأيهم ان ما ورد من نزول القرآن بلسان قريش ، انما هو رأي ظهر في الاسلام، ظهر ببروز النزاع الذي كان بين الأنصار والمهاجرين ، أدى الى التعصب لقريش والى تقديمهم على كل العرب بحجة ان الرسول منهم ، وانه ولد بينهم ، فيجب أن تكون لغته لغتهم ، وان يكون نزول الوحـــي بلسانهم ، فهو رأي برز عن نوازع دينية وسياسية ، مجدت قريشاً ، لأن في تمجيدهم تمجيد على رأيهم لرسالة الاسلام[1] .

ونظرية وقوع التعديل والتغيير والاصلاح في أصول الشعر الجاهلي ، رأي قال به علماء العربية قبل المستشرقين ، إذ نجد في كتبهم إشارات الى تعديل أو تهذيب أو تغيير أحدثه (أبو عمرو) ، أو (الأصمعي) أو غيرهما على لفظة أو بيت ، لاعتقادهم بعدم انسجام أصل ما غيروه مع المعنى أو مع قواعد اللغة ، أو لمخالفته للعروض ، أو لوقوع تصحيف ، فصححوا ما صححوه ، بدافـــع عدم إمكان صدوره من شاعر جاهلي قديم . وفي رسالة الغفران ، لأبي العلاء المعري ، أمثلة كثيرة على ذلك ، وقد خطأ الاقدام على التعديل ، ودافـــع عن وقوع الزحاف والإقواء في الشعر الجاهلي ، معتبراً ذلك شيئاً لم يكن عيباً في الشعر عند الجاهليين، لأنه كان أمراً مألوفاً عندهم ، وقد ذكرت رأيه في مواضع من هذا الكتاب .

وتتبع المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) ، ما جاء في التراث العربي عن الأدب العربي ، فدوّنه في كتابه (تأريخ آداب العرب) تدويناً يدل على إحاطة جيدة بما جـــاء في كتب الأسلاف من أخبار عن الشعر وأصحابه وعن انتحاله والعوامل التي دعت الى الغش فيه ، وإدخال ما ليس منه فيه ، وقد خالف رأي من قال بتعليق (المعلقات) ، ومخالفته هذه تعدّ فتنة بالنسبة لرواد الشعر والمعجبين به بالنسبة لذلك اليوم[2] . ويعـــدّ كتابه من الكتب القيمة المدوّنة بالعربية بالنسبة لتلك الأيام ؛ فهو رصين حوى خلاصة ما ذكره السلف عن أدب العرب ، وإذا نظرنا الى عمره يوم ألفه والى أسلوب دراسته ، نجد أنه كان من نوادر المؤلفين في ذلك العهد .

وأحدث كتاب الدكتور (طه حسين) : « في الشعر الجاهلي » رجّة عنيفة

---

١ Nicholson, A Literary History of The Arabs, p. 134.

٢ تأريخ آداب العرب (١/٣٦٥ ـ ٣٩١) ، (٣/١٨٦ وما بعدها) .

في مصر وفي البلاد العربية الأخرى ، لما جاء فيه من آراء خالفت المألوف والمتعارف عليه عند علماء العربية آنذاك الذين كانوا يسيرون على الجادة القديمة في دراسة أدب العرب،ولما تضمنه من عبارات اعتبرت نابية فيها تهجم على المقدسات. فشكي الى الحكومة ، ورفع أمره الى القضاء ، فكان أن غير عنوانه بعض التغيير فصار : « في الأدب الجاهلي » ، وحذف منه فصل ، وأثبت مكانه فصل ، وأضيفت اليه فصول[1] . وقد لقي الكتاب نقداً شديداً في مصر وفي خارجها ، من جانب المحافظين الحروفيين ، إذ رأوا فيه هدماً للتراث العربي وللمألوف المتوارث ، بينما لقي قبولاً حسناً من جانب الشباب والجيل الجديد ، الذين تأثروا بالمؤثرات الثقافية الحديثة وأخذوا يجاهرون بنقد الأوضاع القائمة الجامدة، وسرعان ما دخل هذا النقد ميدان العراك الذي كان قد وقع آنذاك بين المحافظين وبين المصلحين الذين كانوا يدعون الى اصلاح المجتمع بصورة عامة وإيقاظ العقل من سباته ، والذين كانوا ينادون بإصلاح كل ما يخص هذه الحياة من مادة وروح .

ووجود شعر جاهلي منحول ، أو وجود شعر منحول ، صنع وصيغ على ألسنة الجاهليين بتعبير أصح ، قول لا يختلف فيه أحد ، لا يختلف فيه علماء العربية عن المستشرقين ، ولا القدماء عن المحدثين ، ولا المحافظون المتزمتون عن المدعين بالتقدمية والتجديد ، فكلهم مجمعون على وجوده، وكل منهم أثبت وجوده بطرقه وبأساليبه التي كانت متبعة في زمانه في طرق النقد ، فهم في هذه القضية متفقون تماماً ولا خلاف بينهم فيه ، اللهم إلا في شيء واحد ، هو : سعة حجم المصنوع بالنسبة الى حجم الصحيح من الشعر ، فمنهم من يزيد في نسبة حجم المصنوع حتى يغلبه على الصحيح ، بل يجعل الصحيح منه شيئاً ضئيلاً ، بالنسبة اليه ، ومنهم من يقلل هذه النسب الى درجات قد يصيرها بعضهم دون الشعر الصحيح بكثير .

وأول أسباب نحل الشعر : العصبيات التي عبر عنها (ابن سلام) بقوله : « قال ابن سلام : فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم،وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار،فقالوا على ألسن شعرائهم،

---

[1] (مقدمة الطبعة الثانية) ، (القاهرة ١٩٢٧ م) .

ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار »[1] . من ذلك ما فعلته (قريش) ، الذين كانوا – كما يذكر أهل الأخبار – أقل العرب شعراً وشعراء ، فلما نظروا فإذا حظهم من الشعر قليل في الجاهلية ، استكثروا منه في الاسلام[2] .

ومن هذا القبيل ما نسب الى قدماء أهل اليمن من شعر ، ومـا أضافوه من شعراء وشعر ، فجعلوا للتبابعة شعراً فيه تبجح بأعمالهم وبما قاموا بـه من فتوح هزت الدنيا في يومها امتدت من أقصى طرف من الأرض الى أقصى طرفها الآخر من (الصين) الى (روما) ، والى آخر المعمور الممتد على البحر المظلم ، وفيه إيمان بالله وبملائكته ، وتبشير بظهور الرسول ، وأسف شديد لأنهم ولدوا قبل زمانه ، فلم يسعدهم الحظ بإدراكه ، وهم لو أدركوه لكانوا أول المؤمنين به ، وأول المدافعين عنه ، وحيث حرموا من هذه النعمة ، نعمة ملاقاته لإعلان إيمانهم به أمامه ، فهم يدعون من يأتي بعدهم ممن سيدرك أيامه الى الذبّ عنه والدخول في دينه . فيقول (الرائش) منهم ، وهو (الحارث) ، في شعر له ، ذكر فيه من يملك منهم ومن غيرهم :

ويملك بعدهم رجـل عظيم نبي لا يرخص في الحـرام
يُسمّى أحمداً يا ليت أني أعمر بعـد مَخرجه بعام[3]

وإذا عرفت أن هذا (الرائش) ، كان قد حكم قبل (بلقيس) ، وبلقيس معاصرة (سليمان) على زعم أهل الأخبار ، وقد كان حكم (سليمان) في حـوالى السنة (٩٦٩) قبل الميلاد[4] ، أدركت كم سيكون إذن عمر هذا الشعر المنسوب الى (الحارث) الرائش ، الذي لقب بهذا اللقب ، لأنه كان أول من راش الناس، أي أول من غزا من أهل اليمن ، وأول من أصاب الغنائم والسبي ، وأدخلهـا اليمن ، فراش الناس[5] .

---

١ طبقات (١٤) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٦٢) ، الرافعي (١/٣٦٧) ، في الادب الجاهلي (١٢٢) .

٣ المعارف (٦٢٧) .

٤ Hastings, p. 868.

٥ المعارف (٦٢٦) .

وبالمعنى المتقدم نطق (التبع) : (تبع بن كليكرب) ، حيث قال :

شهدتُ على أحمد انه رسولٌ من الله باري النسم
فلو مُدّ عمري الى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

ولم يكتف أهل الأخبار بكل هذا ، بل زعموا انه كان كسا البيت وانه قال في ذلك :

وكسوت بيت الله غير كسائه حذر العقاب ليرحم الرحمن
ومقالة الحبرين واليوم الذي يتلى الكتاب وينصب الميزان[1]

وزعموا ان التبع (تبع بن حسان) ، أو (تبع الأوسط) كسا البيت الحرام وأطعم الناس بمكة ، وقوّلوه هذا البيت :

فكسونا البيتَ الذي حرم الله ـه ملاءً معضداً وبرودا[2]

فالتبابعة هم أول من كسا البيت ، وأول من آمـن بالله وبرسوله ، كانوا مسلمين قبل ظهور الاسلام ، وقبل ميلاد الرسول بعشرات المئات من السنين .

ونسبوا لذي جدن الحميري الملك شعراً ، ذكر فيه الموت ، حيث يقول :

لكل جنبٍ اجتبى مضطجع والموت لا ينفع منه الجزع
اليـوم تجّـزون بأعمالـكم كلُّ امرىء يحصد مما زرع
لو كان شيء مفلتاً حتفه أفلت منه في الجبال الصّدع

ونسبوا له أشعاراً أخرى[3] . وذو جدن من أذواء اليمـن ، والأذواء بعضهم ملوك وبعضهم أقيال ، والقيل دون الملك ، والمِقوّل : القيل أيضاً بلغة أهـل اليمن . وقد ذكر صاحب (خزانة الأدب) أسماء عدد من الأقيال[4] . فذو جدن هذا شاعر ، متفلسف يذكر الناس بالموت وبما بعد الموت ، حيث تجزى كل نفس

---

١ المعارف (٦٣١) .
٢ المعارف (٦٣٥) .
٣ الخزانة (٢٨٧/٢ وما بعدها) .
٤ الخزانة (٢٨٩ وما بعدها) .

بما كسبت ، ويحصد كل امرىء ما زرعه بيديه في دنيـاه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولن يفلت أحد من الموت ، وهيهات له ذلك .

ونجد في شعر التبابعة أشعاراً في الحكم وفي الحث على مكارم الأخلاق ، وفي حروبهم وفتوحاتهم التي تشبه فتوحات الإسكندر والفتوحات الإسلامية فيما بعد ، فتوحات سبقت الفتوحات الإسلامية بمئات من السنين ، حاول صانعوها المبالغـة فيها ، حتى صيروا الفتح الاسلامي وكأنه ذيل لتلك التتوج القحطانية التي زرعت (حمير) في الصين وفي تركستان ، صنعوا ذلك في الإسلام ، لما تبجح عليهم العدنانيون بالإسلام وببلوغه الصين والمحيط الأطلسي .

وذكر أن الشاعر (يزيد بن ربيعة بن مفرغ) الحميري[1] ، كان ممن أذاع أسطورة (تبع) ، وكان يتعصب الى اليمن[2] ، ولعله هو الذي وضع أكثر الشعر المنسوب الى (التبابعة) ، وكان (عبيد بن شرية) الجرهمي ، ممن صنع الشعر على ألسنة التبابعة وغيرهم ، وأضافه اليهم[3] . ونجد في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني وفي الإكليل ، وهو من كتبه أيضاً ، شعراً كثيراً يرويه على أنـه من شعر التبابعة ، ومن شعر عاد وثمود ، وسادات حمير ، وهـو مصنوع من دون شك ، صنعه المتعصبون لليمن من اليمانية ، وقد كانت العصبية قد أخذت مأخذها في الإسلام . والهمداني نفسه من المتعصبين لليمن قبله . وأدخله في كتبه دون أن يُسائل نفسه عن كيفية وصول ذلك الشعر من أفواه قائليه اليه ، مع بعـد الزمن وتقادم العهد ، وتكلم أهل اليمن في القديم بكلام لا يشابه كلام الشعراء .

ويدخل في هذه العصبية الشعر المنسوب الى الشعراء في هجاء قحطان أو عدنان أي في هجاء القحطانية أو العدنانية بتعبير أدق ، من ذلك القصيدة التي صنعوها على لسان (الأفوه الأودي) الشاعر الجاهلي ، الذي هو من (مذحج) ، ومذحج من اليمن ، التي أولها :

إن ترى رأسي فيه نزع   وشواي خلة فيها دوار[4]

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٧٦) ، الاغاني (١٧/٥١) ، الخزانة (٢/٢١٠ ، ٥١٤).

٢ الاغاني (١٧/٥٢) .

٣ Von Kremer, Die Südarabische Sage, S. VII, 78, Nicholson, A Literary History of the Arabs, p. 19.

٤ الشعر والشعراء (١/١٤٩) ، العيني (١/٤٢١) ، الاغاني (١١/٤١) ، معاهد التنصيص (٢/١٥٩) .

وهي قصيدة فيها هجاء لبني نزار ولبني هاجر ، صنعت ولا شك في الاسلام. وقد زعم ان النبي نهى عن روايتها . واذا كانت القصيدة مصنوعة ، أو ان أبيات الهجاء منها مصنوعة على الأقل ، كان حديث النهي عن روايتها مصنوعاً أيضاً ، لأن هذا الصنع انما وقع في الاسلام .

ومن فرسان العصبية اليمانية الشاعر (حسان بن ثابت) ، فقد كان من المتحاملين على قريش ، ومن المتعصبين ليثرب واليمن على قريش ومعدّ . مع ان الرسول نهى عن أمر الجاهلية ، فكان يجالس قريشاً وهو في اسلامه،وينشد الناس ما قالته الأوس والخزرج في قريش ليشفي بذلك غليله . وكان الخليفة (عمر) قد نهى أن ينشد الناس شيئاً من شعر الهجاء الذي كان بين الأنصار ومشركي قريش حذر تجديد الضغائن ، ومع ذلك فإن عصبية حسان لمدينته ولليمن كانت تدفعه على مخالفة ما أمر به[1] .

ومن هذا القبيل ما فعلته قريش بشعر حسان . فقد « حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش ، واستبت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به »[2] ، وقد وضعت قريش وأشياعها المتعصبون للعدنانية أشعاراً أخرى على ألسنة بقية شعراء يثرب ، أرادت من وضعها الحط من شأنهم ، وإلحاق السخف والركة بشعرهم وبهم ، وفعل غيرهم فعلهم في إضافة الشعر الى من كانوا يكرهونه ، للنيل منه ، فنسبوا اليهم شعراً سخيفاً مشيناً ، أو فيه تحامل وقدح على بعض الناس ، للإساءة اليهم بظهور هذا الشعر وانتشاره .

وقد ذكر (ابن سلام) أن (قدامة بن عمر بن قدامة) الجمحي ، نحل شعراً على (أبي سفيان بن الحارث) للنيل منه ، وأن قريشاً تزيد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والردّ على حسان[3] . وورد أن (قتادة بن موسى) الجمحي هجا (حسان بن ثابت) بأبيات ونحلها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)[4].

وكان الأنصار يقظون،واقفون لقريش بالمرصاد ، وكانت قريش يقظة كذلك، إذا سمعت شاعراً مدح الأنصار ولم يمدحها استاءت منه . فلما قدم (كعب بن

١ الاستيعاب (١/٣٣٧ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٦٢) .
٤ الاصابة (٣/٢١٧) ، (رقم ٧٠٧٧) .

زهير) يثرب معتذراً عن كفره ، معلناً إسلامه أمام الرسول ، مدح قريشاً وعرّض بعض التعريض بالأنصار لغلظتهم كانت عليه ، تجهمته الأنصار وغلظت عليه ، ولانت له قريش ، غير أنها لم ترض عن مدحه ، إذ وجدته قليلاً ، وأنكرت عليه ما قال ، إذ قالت له : « لم تمدحنا إذ هجوتهم ، ولم يقبلوا ذلك » منه[1] . ولما قدم (الحطيئة) المدينة أرصدت له قريش العطايا ، فعلت ذلك ليخلص لها في المدح ، وليصرف مدحه عن الأنصار[2] .

وندخل في هذه العصبية ، العصبية الى البيوتات ، فقد كان قوم (سعيد بن العاص بن أمية) يذكرون أن (سعيداً) كان اذا اعتم لم يعتم قرشي إعظاماً له، وينشدون :

أبو أحيحة من يعتم عِمته ... يُضرَبْ وإن كان ذا مال وذا عددِ

ويذكر (الزبيريون) ان هذا البيت باطل مصنوع[3] .

ولم تتورع العصبية والخصومات من الكذب عمداً على الناس ومن الطعن في الأنساب . فلما اعترض (مزرد) أخو الشمّاخ ، وكان عريضاً ، (كعب بن زهير) عزاه الى (مزينة) ، وكان (أبو سُلمى) وأهل بيته في (غطفان) ، فقال كعب بن زهير شعراً يثبت انه من مزينة ، « وقد كانت العرب تفعل ذلك ، لا يعزى الرجل الى قبيلة غير التي هو منها ، إلا قال : أنا من الذين عنيت . كان أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة لاحى النابغة فنفاه الى قضاعة » ، فقال شعراً يثبت انه منها[4] . وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، أدت الى وقوع النسابين في أخطاء بسبب هذه الأكاذيب .

وقد ساهم الخلفاء الأمويون في هذه العصبية ، ساهموا حتى في التزام العلماء والشعراء . « جمع سليمان بن عبد الملك بين قتادة والزهري ، فغلب قتادة الزهري، فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : انه فقيه مليح . فقال (القحذمي) : لا ، ولكنه

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٠ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٤) .
٣ المزهر (١/١٨١) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٢١ وما بعدها) .

تعصب للقرشية ، ولانقطاعه كان اليهم ، ولروايته فضائلهم »[1] .

وكان (معاوية) يتعصب لليمن على قيس، وذلك بسبب زواجه من (كلبية)، مع أنه من عدنان . حتى صار من فرط تعصبه لليمن لا يفرض إلا لهم، ولم يزل كذلك حتى كثرت اليمن وعزت قحطان ، وضعفت عدنان ، فبلغ معاوية أن رجلاً من اليمن قال : هممت أن لا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزاري بالشام ، ففرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس . وكان معاوية يغزي اليمن في البحر وتميماً في البر ، وفي ذلك يقول (النجاشي) شاعر اليمن :

ألا أيها الناس الذين تجمعوا ... بعكا أناس أنتم أم أباعر
أيترك قيساً آمنين بدارهم ... ونركب ظهر البحر والبحر زاخر
فوالله ما أدري وإني لسائل ... أهمدان تحمي ضيمها أم يحابر
أم الشرف الأعلى من أولاد حمير ... بنو مالك أن تستمر المرائر
ألوصى أبوهم بينهم أن تواصلوا ... وأوصى أبوكم بينكم أن تدابروا

فرجع القوم جميعاً عن وجههم ، فبلغ ذلك معاوية ، فسكن منهم . وقال : أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من الخيل وأقل مؤونة ، وأنا أعاقبكم في البر والبحر ففعل ذلك[2] .

وأوجدت هذه العصبية كثيراً من الشعر المصنوع ، روي على انه من شعر التبابعة ، صنع ولا شك في الاسلام ، حين بلغت العصبية العدنانية والقحطانية ذروتها في أيام الأمويين فما بعد . فلما نظر اليمانيون الى أنفسهم ، واذا بالحكم لغيرهم . وقد كانت لهم دولة قبل الاسلام ، ثم إذ بهم يحكمهم من كان دونهم في الجاهلية ، أخذتهم العزة ، ودفعتهم العصبية على الاحتماء بالماضي ، وإعادة ذكرياته ، وما كان لهم من مآثر ، ولأجل توكيد ذلك وتثبيته ، لجأوا الى الشعر، ولم يكن لهم شعر في الجاهلية بهذه العربية التي نعرفها ، لأنها لم تكن عربيتهم ، فصنعوا شعراً كثيراً بهذه العربية ، نسبوه الى التبابعة ، وارتفعوا به الى عهود جاوزت الحد المألوف الذي حدده علماء الشعر ، لتأريخ ظهور (القصيد) عند

---

١ البيان والتبيين (١/٢٤٣) .
٢ الخزانة (١/٤٦٦ وما بعدها) .

الجاهليين ، تجد الكثير منه مدوناً في الكتب التي تتعاطف مع اليمانية ، مثل كتب الهمداني ، ونشوان بن سعيد الحميري .

ولما كان هذا الشعر هو في ذكريات أيام اليمن الماضية وأحوالها القديمة ، وفي أخبار ملوك حمير وأعمالهم ، اتخذ أسلوب القص والفخر ، فكثرت أبيات القصائد أحياناً ، وارتبطت الأبيات في المعاني بعضها ببعض ، نظراً لاقتضاء طبيعة القص والأساطير ذلك ، وهو يفيدنا من ناحية الوقوف على الأساطير اليمانية القديمة التي أوجدتها مخيلتهم عن تأريخهم القديم ، وفي تطور أسلوب القص في الشعر .

ويظهر من عبارة (الآمدي) : « وهي أبيات تروى لامرىء القيس بن حجر الكندي ، وذلك باطل ، إنما هن لامرىء القيس الحميري ، وهي ثابتة في أشعار حمير »[1] ، أنه قد كان لحمير ديوان فيه أشعارهم ، أو أن قوماً منهم أو من غيرهم جمعوا شعر حمير ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن يكون هذا الجمع قد وقع في الإسلام ، وأن ما فيه من شعر جاهلي ، هو من الشعر المصنوع .

ومن العصبيات عصبية قريش على ثقيف . فقد كانت بين قريش وبين ثقيف خصومة ، بسبب طمع أهل مكـة في الطائف ، وشراء سادات قريش الملك في الطائف لاستغلاله ، مما جعل ثقيفاً يكرهون أهل مكة . ثم عامل آخر ، ظهر في الاسلام ، هو كره أهل العراق للحجاج ، مما جعلهم يذمونه ويذمون ثقيفاً معه . فزعموا أن قومه من بقايا ثمود ، وذلك في أيام الحجاج . « رووا أن الحجـاج قال على المنبر يوماً : تزعمون أنا من بقايا ثمود ، وقد قـال الله عز وجل : وثموداً فما أبقى »[2] . وذكر (الجاحظ) ، زعم الناس هذا في أصل ثقيف ، وذكر أن مثل ثمود كمثل (بني الناصور) ، فقـد هلكوا في الجاهلية ، كما هلك غيرهم من الأمم البائدة ، وذكر أن هناك من قال إن أصل (بني الناصور) من الروم[3] .

وقد وجدت العصبية مرتعاً خصباً بين الموالي والعبيد ، فساهموا فيها أيضاً . فلما رأى (جرير) (الحَيْقُطان) يوم عيد في قميص أبيض وهو أسود ، قال:

---

١ المؤتلف والمختلف (٩) ، (عبدالستار أحمد فراج) .
٢ البيان والتبيين (١/١٨٧ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/١٨٧) .

كأنه لما بدا للناس أير حمار لُفَّ في قرطاس

فلما سمع بذلك (الحيَقطان) وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال شعراً افتخر فيه بالنجاشي وبالسودان ، وبلقمان وبأبرهة وذم قريشاً ومضرَ ، وتحامل عليهما ، ففرحت اليمانية به ، وأخذت تحتج به على العدنانية ، واحتج بها العجم والحبش على العرب[1] .

ويلاحظ ان الحبش قد تعصبوا أيضاً على العرب في الاسلام،وتفاخروا بملوكهم وبأبرهة ، وقد كان لازدراء الأغنياء لهم ، وتسخير أصحاب المال لهم في أداء الأعمال الحقيرة ، ونظرتهم اليهم نظرة ازدراء وتحقير ، فلم يصاهروهم، ولم يروا انهم أكفاء لهم ، مثل العجم على الأقل ، أثر في إثارة هذه الضغينة في نفوسهم وفي وقوفهم موقف الضد من العرب . وقد تعرض (الجاحظ) لذلك ، فقال : « وقد قالت الزنج : من جهلكم انكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم، فلما جاء عدل الاسلام رأيتم ذلك فاسداً » . ثم روى على لسانهم ما قاله بعض الشعراء مثل النمر بن تولب ، ولبيد من مدح أبرهة ، ثم أعقب ذلك بذكر من برز وظهر من الزنوج[2] .

ومن أسباب النحل دوافع نشأت عن عاطفة دينية ، رأت أن في نحل الشعر على ألسنة الجاهليين ، عملاً ليس فيه ضرر ولا اساءة ، بل فيه منفعة من ناحية التوعية الدينية والحث على التدين والتزهد ، وعمل الخير والإيمان بدين الله،فروت الأشعار على ألسنة المتقدمين في التبشير بظهور الرسول ، قبل ميلاده بأمد ، وفي الحث على نبذ الوثنية والإيمان بإله واحد . نظم على لسان القحطانيين وعلى لسان العدنانيين ، الذين عاشوا قبل الإسلام،كما نظم على ألسنة الجن والهواتف والكهنة .

ومن هذا القبيل ما قيل من شعر في التوحيد وفي الذب عن الاسلام على لسان (أبي طالب) وغيره ، وفي مدح قريش ، وجعلها القبيلة المختارة التي اصطفاها الله من بين سائر العرب ففضلها على العالمين ، بأن جعلها الصفوة ، وجعل لسانها اللسان الذي نزل به القرآن ، فعل أصحاب الصنعة ذلك لنوازع مذهبية، ولعصبية

---

١ رسائل الجاحظ (١/١٨٢ وما بعدها) ، (فخر السودان على البيضان) .
٢ رسائل الجاحظ (١/١٩٧ وما بعدها) ، (فخر السودان على البيضان) .

قبلية سياسية ، ذات صلة بالعواطف الدينية ، فلم يكن يهن على أهل يثرب مثلاً التسليم بسيادة قريش عليهم ، فكان ما كان من وضع قريش الحجج التي تؤيد قريشاً في الجاهلية ، وتجعلهم أفضل العرب على الاطلاق،وما كان الأنصار ليقبلوا ذلك بالطبع،فأوجد صناعهم فخراً وسبقاً لهم على قريش ، بأن قالوا إنهم الأنصار وأنهم نصروا رسول الله منذ سمعوا بالإسلام ، فلما سمع (أبو قيس بن الاسلت) وهو من الأوس ، مقالة (أبي طالب) :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم   وقد قطعوا كل العرى والوسائل

حين أرادوا منه تسليمهم النبي، أرسل اليهم قصيدة ينهى فيها قريشاً عن الحرب، ويأمرهم بالكفّ عن رسول الله ، إذ يقول :

يا راكباً اما عرضت فبلغن   مغلغلة عني لؤي بن غالب

وهي قصيدة طويلة دوّنها (ابن هشام) في سيرته[1] ، اذا قرأتها خرجت منها ان صاحبها انما أراد من صنعها على لسان (ابن الأسلت) إظهار ان أهل يثرب كانوا أول من دافع عن الرسول والاسلام ، وانهم كانوا أول المؤمنين به ، إذ كفرت قريش بدين الله . مع انه مات مشركاً ، ولم يثبت انه دخل في الاسلام[2] .

والقصيدة بعد من صنع أناس من الأنصار ، لعلهم كانوا من صلبه ، وجدوا ان من السهل وضع الشعر على لسانه ، فقد كان شاعراً معروفاً ، وكان من سادة يثرب ومن الوافدين على مكة ، وله فيها أصحاب ودالة ، وفي صنع هذا الشعر فخر للأنصار عظيم ، فنسبوا له تلك القصيدة ، وجعلوها جواباً لاستغاثة (أبي طالب) في قصيدته التي قال ما قال فيها في حق قريش وفي تعنتها تجاه الرسول والاسلام .

ومن هذا القبيل ، تطويلهم القصيدة المنسوبة الى أبي طالب التي قيل انه قالها في النبي ، وهي :

---

١ سيرة (١/١٨٠) ، (حاشية على الروض) .
٢ الاصابة (٤/١٦٠) ، (رقم ٩٤٤) ، الاستيعاب (٤/١٥٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقد زيد فيها وطولت ، بحيث صار لا يعرف أين منتهاها[1] . وقد أورد ابن هشام أشعاراً نسبها الى (أبي طالب) منها قصيدته التي رد فيها على قريش حين عرضت عليه تسليم النبي لهم ، على أن يعطوه في مقابله (عمارة بن الوليد) ، وقد دوّنها (ابن هشام) ، وذكر انه ترك منها بيتين أقذع فيهما[2] . ومنها قصيدته :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وهي قصيدة طويلة ، قال عنها (ابن هشام) : « وبعض أهل العلم ينكر أكثرها »[3] .

ومن هذا القبيل ما وضع من شعر في الأحداث التي وقعت بين المسلمين والمشركين في أيام الرسول ، مثل معركة بدر ، وبقية المعارك . فقد وضع الناس شعراً كثيراً على لسان المسلمين والمشركين ، ونجد (ابن هشام) يقول في تعليقه على شعر لأبي أسامة معاوية بن زهير ، وكان مشركاً ، وقد مرّ بهبيرة بن أبي رهم ، وهو منهزم : « وهذه أصح أشعار بدر »[4] ، ونجد (ابن هشام)، يعلق ويصحح ويشكك في صحة بعض هذا الشعر الذي أخذه من (ابن اسحاق) ، وقد طُعن على (ابن اسحاق) ، لأنه أخذ مثل هذا الشعر فأدخله في السيرة ، مع أنه شعر مصنوع[5] .

ومن هذا القبيل ما روي من أن امرأة من حضرموت ثم من (تنعة) صنعت لرسول الله كسوة ، أرسلتها مع ابنها (كليب بن أسد بن كليب) الى رسول الى ، فأتاه بها وأسلم ، فدعا له ، فقال حين أتى النبي :

من وشَز برهوت تهوى بي عذافرة اليك يا خير من يحفى وينتعل
تجوب بي صفصفاً غبراً مناهله تزداد عفواً إذا ماكلّت الإبل

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٠) ، المزهر (١/١٧٩) .
٢ ابن هشام (١/١٧١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٣ ابن هشام (١/١٧٩) ، (حاشية على الروض) .
٤ ابن هشام (٢/١١٥) ، (حاشية على الروض الأنف) .
٥ الروض الأنف (٢/١٠٧ وما بعدها) .

شهرين أعملها نصاً على وجــل أرجو بذاك ثواب الله يا رجـل
أنت النبي الذي كنّا نُخــبره وبشرتنــا بك التوراة والرسل[1]

والذي نعرفه أن لسان أهل حضرموت لم يكن في هذا العهد على هــذا البيان والعربية ، وإنما كان عــلى عربية حضرموت ، ولا أدري إذا كان هذا الرجل يعرف شيئاً عن التوراة والرسل ، أو سمع باسم التوراة وبالرسل حتى يذكرهــا ويذكر رسل الله في هذا الشعر .

ومن هذا النوع ما روي من شعر الجن والهواتف : من مثــل الشعر المبشر بقرب ظهور نبي ، كما في قصة : (راشد بن عبد ربه) السلمي التي رواها عن سبب إسلامه ، وما سمعه من هاتف يصرخ من جوف الصنم ، بظهور نبي[2]، أو من شعر آخر ، قيل على ألسنة الجن ، في أغراض مختلفة وهو كثير ، من ذلك قولهم :

وقبر حربٍ بمكانٍ قفر وليس قربَ قبر حربٍ قبر

وقائله مجهول . فلما رأوا ان من الصعب إنشاده ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج ، قيل لهم انه من شعر الجن . فصدقوا بذلك[3] .

وذكر أهــل الأخبار اسم شاعر من الجن ، قالوا له : (مالك بن مالك) الجني . فقد زعموا ان (خريم بن فاتك) الأسدي ، خرج في بغاء إبل له ، فأصابها بالأبرق ، فقال : أعوذ بعظيم هذا الوادي ، فإذا هاتف يهتف :

ويحك عذ بالله ذي الجلال منزل الحلال والحــرام

فقال خريم :

يا أيها الداعي فما تخيل أرشد عندك أم تضليل

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٠) ، (وفد حضرموت) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣١٧) .
٣ البيان والتبيين (١/٦٥) .

فقال الهاتف :

هذا رسول الله ذو الخيرات جـاء بياسين وحاميات
محرمـات ومحلـلات يأمرنا بالصوم والصـلاة

فقال خريم : من أنت يرحمك الله ؟ فقـال : أنا مالك بن مالك ، بعثني رسول الله على جن أهل نجد[1] .

وروى أهل الأخبار شعراً لشاعر آخر من الجن اسمه ، (مالك بن مهلهل بن إياد) ويقال (دثار) ، زعموا انه أحد من أسلم من الجن ، رووا له قصة مع (رافع بن عمير) التميمي المعروف بـ (دعموص الرمل) ، لأنه كـان أعرف الناس لطريق وأسراهم بليل ، وأهجمهم على هول ، وقعت له برمـل عالج ، لما قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن أن أوذي أو أهاج . فهتف به هذا الجني الشاعر ، وأمره أن يذهب الى يثرب ، ليسلم أمام الرسول[2] .

ومن ذلك ما روي من حديث عن (قس بن ساعدة) ، وما رواه صاحب الحديث من صوت هاتف يقول :

يا أيها الراقد في الليل الأحم قد بعث الله نبياً في الحرم
من هاشم أهل الوفاء والكرم يجلو دجنات الليالي البهم

ثم قول صاحب الحديث للهاتف :

يا أيها الهاتف في دجى الظلم أهلاً وسهلاً بك من طيف ألم
بين هداك الله في لحن الكلم من الذي تدعو اليه تغتنم

ثم جواب الهاتف عن سؤاله بقوله :

الحمـد لله الـذي لم يخلق الخلق عبث
ولم يخلنـا سـدى من بعد عيسى واكترث
أرسل فينا أحمـدا خير نبي قد بعث
صلى عليه الله مـا حج له ركب وحث[3] .

---

١ الاصابة (٣/٣٣٣) ، (رقم ٧٦٨٤) ، (١/٤٢٣) ، (رقم ٢٢٤٦) .
٢ الاصابة (٣/٣٣٥) ، (رقم ٧٦٩٢) .
٣ الخزانة (١/٢٦٤) ، (بولاق) .

وللجن أشعار ، ولها مع الإنس حوار . وللأعراب خاصة في الجن قصص وحكايات ، وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب يتزيدون في هذا الباب[1] . والحديث عن الجن من الأحاديث التي يميل لسماعها الناس لما فيها من غريب وطريف واختراع ، مالوا الى سماعها في الجاهلية وفي الإسلام ، ونجد لأبي المطراد (المطراب) (عبيد بن أيوب) العنبري ، وهو شاعر إسلامي ، وكان لصاً قد جنى جناية فنذر السلطان دمه وخلعه قومه ، قصص وأشعار كثيرة عن الجن والوحوش . أخبر « في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعي ، ويأكل مع الظباء »[2] . ونجد في كتاب (الحيوان) وفي كتب الأخبار والأدب والسير ، طرف من أشعار الجن والغيلان والسعالى ، وطرف من أخبارهم وأحاديثهم مع الإنس .

ومن هذا القبيل ما نسب الى (جذع بن سنان) من شعر زعم انه جرى له من الجن ، وهو :

أتوا ناري فقلت منون أنتم فقالوا : الجن قلت عموا صباحا
نزلت بشعب وادي الجن لما رأيت الليل قد نشر الجناحا
أتيتهم وللأقدار حتم تلاقي المرء صبحاً أو رواحا

وجذع شاعر جاهلي قديم ، من غسان ، وهو الذي ضرب به المثل بقولهم : خذ من جذع ما أعطاك . والشعر المذكور من أكاذيب العرب[3] .

وللأعشى إشارة الى الجن ، بقوله :

وسخر من جن الملائك سبعة قياماً لديه يعملون بلا أجر[4]

وفي شعره مواضع أخرى تعرض فيها الى ذكر الجن .

وقد تحدث (المعري) عن (شعر الجن) ، تحدث عنهم في رسالة الغفران

---

١ الحيوان (٦/١٦٤) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٦٨) ، الخزانة (٣/٢١٣) ، الحيوان (٦/١٦٥) .
٣ وهي من قصيدة تجدها في الخزانة (٣/٦) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (٢/٦) ، (بولاق) .

فكلم أحدهم واسمه (الخيتعور) ، أحد (بني الشيصبان) ، فقال له : « أخبرني عن شعر الجن ، فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحة ، فيقول ذلك الشيخ : انما ذلك هذيان لا معتمد عليه ، وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ؟ وانما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل ما يعدوها القائلون ، وان لنا آلاف أوزان ما سمع بها الإنس »[1] . ثم يقول الجني له إن في الجن شعراء ، من لا يعدل (امرىء القيس) أضعفهم شعراً ، ثم يروي قصيدة للمتكلم معه ، وهو (أبو هدرش)[2] .

وروى حديثاً في رسالة الغفران عن قصص (تأبط شراً) مع الغيلان ، ثم أجاب على لسانه ، قال له : « أحق ما روي عنك من نكاح الغيلان ؟ » ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « لقد كنّا في الجاهلية نتقول ونتخرص ، فما جاءك عنّا مما ينكره المعقول، فإنه من الأكاذيب » . ثم روى الشعر المنسوب اليه، وهو:

أنا الذي نكح الغيلان في بلدٍ ما طلّ فيه سماكيٌّ ولا جادا[3]

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يعتقدون بالجن ، وقد تصوروهم – كما سبق أن تحدثت عن ذلك – مثلهم ، قبائل وعشائر ، لهم ملوك وسادات فما كانوا يروونه عنهم وعن اتصالهم بهم ، يمثل حقيقة في نظرهم ، وما كان يضعه الوضاعون من شعر على ألسنتهم ، يقبل ويصدق عندهم ، ويسمع اليه بتلهف ، ولا سيما القسم الغريب منه ، إذ كانوا يتلذذون بسماعه ، ويذكر معه في العادة قصص لشرح المناسبة التي قيل فيها الشعر ، على طريقتهم في رواية أخبار (الأيام) . فالقصص المتعلق بالجن ، باب من أبواب التسلية التي كان يتسلى بها أهل الجاهلية ، بل بقي من القصص المستملح المطلوب سماعه حتى اليوم .

ومن هذا القبيل ، ما ورد في أيام العرب من شعر ، ففي هذا الشعر ما شاء الله من المنحول . نحل تمجيداً لقبيلة أو لبطل من أبطالها ، أو للغض من شأن قبيلة معادية ، اشتركت معها في قتال ، وفي أخبار هذه الأيام تعصب وتحزب ، ولذلك يجب النظر اليها بحذر شديد .

---

١ رسالة الغفران (٢٩١) .
٢ رسالة الغفران (٢٩٥ وما بعدها) .
٣ رسالة الغفران (٣٥٩) .

وشعر الشواهد من الأبواب التي فتحت المجال لنحل الشعر . قال عنه (الرافعي) : « وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع ، لحاجة العلماء الى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو »[1] . وقد كانوا يستشهدون بأشعار الجاهليين والمخضرمين : ونظراً لوجود عنصر التفوق والتغلب على الخصوم واظهار العلم ، ولوجود العصبية اندفع البعض إلى افتعال الشواهد والإتيان بالغريب وبما هو غير معروف. وقد اتهم الكوفيون بأنهم كانوا أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها،لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها . ولهذا واشباهه اضطروا الى الوضع فيما لا يصيبون له شاهداً إذا كانت العرب على خلافهم ، وتجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر . ومن أجل هذا كان البصريون يغتمزون على الكوفيين . فيقولون: نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكواميخ[2] . على أن البصريين ، لم يكونوا ملائكة بالنسبة الى افتعال الشواهد ، فقد أدلوا فيه بدلوهم كذلك ، وإن قيل إنهم كانوا أقل فعلاً في ذلك من الكوفيين . ذكر أن (سيبويه) سأل (اللاحقي) هل تحفظ العرب شاهداً على إعمال (فَعِلٌ) (الصفة) ؟ قال (اللاحقي) ، فوضعت له هذا البيت :

حَذِرٌ أموراً لا تضيرُ ، وآمنٌ ما ليس منجيه من الأعداء[3]

ومن ذلك ما رواه (الزجاجي) في (مجالس العلماء) ، من نزاع وقع بين (الطبري) وبين (أبي عثمان) في السكين : مذكر أم مؤنث ، ومن استشهاد (أبو عثمان) بشعر رواه الفراء ، هو :

فعيّث في السنام غداة قُرٍّ بسكين موثقة النصاب

وجوابه : « لمن هذا ومن صاحبه ؟ وما أراه إلا أخرج من الكم ، وأين صاحب هذا عن أبي ذؤيب حيث يقول :

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٣٧٠) .
٢ الرافعي (١/٣٧١) .
٣ المزهر (١/١٨٠) ، الرافعي (١/٣٧١ وما بعدها) .

فذلك سكين على الحلق حاذق »[1] .

ومن ذلك ما ذكره (خلف الأحمر) على ألسنة القدماء في ورود لفظة (عشار) في كلام العرب ، إذ روى هذه الأبيات :

قل لعمرو يا ابن هند لو رأيت اليوم شنا
لرأت عيناك منهم كل ما كنت تمنى
إذ أتتنا فيلق شهبا من هنا وهنا
وأتت دوسر والملحاء سيراً مطمئنا
ومشى القوم الى القوم أحادى ومثنى
وثلاثاً ورباعاً وخماساً فأطعنا
وسداساً وسباعا وثماناً فاجتلدنا
وتساعاً وعشاراً فأصبنا وأصبنا
لا ترى إلا كمياً قاتلاً منهم ومنّا

« ودلائل الوضع في هذه الأبيات ظاهره. وكان خلف الأحمر متهماً بالوضع »[2].

ويدخل في باب نحل الشعر عامل آخر ، هو الاستشهاد بالشعر لتأييد الخلافات القائمة بين المذاهب في اثبات رأي ، أو في تفسير آية ، تفسيراً يؤيد رأي ذلك المذهب . فقد زعم أن المعتزلة ، قالت في تفسير الآية: « وسع كرسيه السموات والأرض » ، أي علمه ، وأنهم جاءوا على ذلك بشاهد لا يُعرف وهو قول الشاعر :

ولا يُكَرْسِئُ علم الله مخلوق[3]

وهو قول وإن روي عنهم وقيل ، لا أدري ، إذا كان قد صدر منهم ، أو أنه صنع عليهم ، وقد ورد في خبر أن (عبدالله بن عباس) ، كان يقول، الكرسي : العلم . وأنه فسر الآية بهذا المعنى . على كل فقد فسر المفسرون لفظة

---

١ مجالس العلماء (ص ١٢٩) ، (الكويت ١٩٦٢) ، (عبدالسلام محمد هارون) .
٢ الخزانة (٨٢/١) ، (بولاق) .
٣ الرافعي (٣٧٣/١) .

(الكرسي) تفاسير مختلفة ، وذلك تحاشياً من الوقوع في التشبيه ، من كونه تعالى يجلس على كرسي شبه كراسينا ، ولذلك مالوا الى التأويل . وذكر في رواية أخرى ، أن (ابن عباس) كان يرى أن الكرسي موضع القدمين ، « ومن روي عنه في الكرسي أنه العلم ، فقد أبطل »[1] .

ونظراً الى ما كان للمذهبية من أثر في الناس في ذلك العهد، فلا أستبعد احتمال الوضع على ألسنة المذاهب، لذا يجب الحذر من الإسراع في التصديق بصحة الشواهد المقالة على لسان مذهب ، ونقدها نقداً علمياً دقيقاً ، بالتفتيش عنها في كتب أهل ذلك المذهب ، فقد يجوز أن تكون قد وضعت عليهم وضعاً ، ومثل هذا الوضع شيء معروف .

ومن أبواب نحل الشعر ما قيل على لسان آدم فمن دونه من الأنبياء من شعر. فقد زعموا مثلاً ان (قابيل) حين قتل أخاه (هابيل) رثاه أبوه (آدم) ، فقال :

تغيرت البلاد ومَنْ عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح
تغيّرَ كلُّ ذي طعمٍ ولونٍ وقلّ بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم :

أبا هابيل قد قُتِلا جميعاً وصار الحيُّ كالميت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها على خوف فجاء بها يصيح[2]

ثم ما قيل على لسان الأمم البائدة ، والشعوب الهالكة مثل عاد وثمود وقوم تبع ، وطسم وجديس ، وزرقاء اليمامة ، من أشعار زعم انهم قالوها ، وهي من نظم القصاصين وأصحاب السمر والحكايات ، وعشاق الأساطير والخرافات ، لما وجدوا ميلاً عند الناس الى الاستماع لمثل هذه الأشعار . فكانوا « يأتون بمثل تلك الأشعار على وهنها وتداعيها ويعزونها الى القدماء ، ثم يزعمون انهم أخذوها من

---

١ تاج العروس (٢٣٢/٤) ، (كرس) .
٢ تأريخ الطبري (١٤٥/١) ، تفسير الطبري (١٢٢/١) ، (طبعة بولاق) .

الصحف ، ويروونها للأمم البائدة وغيرهم »[1] . من ذلك ما نسبوه من شعر الى (معاوية بن بكر) ، وكان في أيام (عاد) ، مقيماً بظاهر مكة خارجاً من الحرم ، زعموا انه قاله لما استثقل طول مكث وفد (عاد) وفيه (لقمان بن عاد) عليه ، وألهمه الى قينتيه لتغنيا به أمام الوفد ، وهو :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعـل الله يسقينـا غماما
فيسقي أرض عادٍ ، إنّ عاداً قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقـد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش تأتيهم جهـاراً ولا تخشى لعادي سهامـا
وأنتم ها هنـا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التمامـا
فقبح وفدكم من وفـد قومٍ ولا لُقُّوا التحيـة والسلاما

فأجابه (جلهمة بن الخيبري) :

أبا سعـدٍ فإنك من قبيلٍ ذوي كرمٍ وأمك من ثمود
فإنا لن نطيعك ما بقينـا ولسنا فاعلين لمـا تريـد
أتأمرنا لنترك آل رفـد وزمل وآل صد والعبـود
ونترك دين آبـاء كرامٍ ذوي رأيٍ ونتبع دين هود[2]

ومن ذلك ما نسبوه من شعر الى (مرثد بن سعد بن عفير) زعموا أنه قال حين سمع خبر هلاك عاد ، إذ قال :

عصت عاد رسولهمُ فأمسوا عِطاشاً مـا تبلهم السماء
وسيّر وفدهم شهراً ليُسقوا فأردفهم من العطش العماء
بكفـرهم بربهم جهـاراً على آثار عادِهِمُ العفـاء
ألا نزع الإلـه حلومَ عادٍ فـإن قلوبهم قفر هواء

١ الرافعي (٣٧٥/١ وما بعدها) ، الخزانة (٢٠٢/٤) ، (بولاق) .
٢ الطبري (٢٢٠/١ وما بعدها) ، (ذكر الاحداث التي كانت بين نوح وابراهيم) ، تفسير الطبري (١٥٤/٨) ، جمهرة أشعار العرب (٤١) .

من الخبرِ المُبَيّن أن يَعُوهُ — وما تغني النصيحة والشفاء
فنفسي وابنتايّ وأم ولدي — لنفسِ نبينا هودٍ فداء
أتانا والقلوب مصمدات — على ظلم ، وقد ذهب الضياء
لنا صنمٌ يقال له صمود — يقابله صداء والهباء
فأبصره الذين له أنابوا — وأدرك من يكذّبه الشقاء
فإني سوف ألحق آل هودٍ — واخوته إذا جنّ المساء[1]

فلما هلكت عاد ، فلم يبق منهم إلاّ (الخلجان) ، قال :

لم يبقَ إلا الخلجان نفسُهُ — يا لك من يومٍ دهاني أمسه
بثابت الوطء شديد وطسه — لو لم يجئني جئته أجسه[2]

ورووا شعراً لأحد شعراء ثمود اسمه (مهوس بن عنمة بن الدميل) هو قوله:

وكانت عصبة من آل عمرو — الى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً — فهمّ بأن تجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً — وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر — تولوا بعد رشدهم ذئابا[3]

ويروي أهل الأخبار انه قد كان لأهل الجاهلية شعر كثير قيل في عاد وثمود وأمورهم ، يأتون به دليلاً على شهرة أمرهم عند العرب في الجاهلية والاسلام[4] . من ذلك ما أوردوه على لسان (أفنون) التغلبي ، من قوله :

لو انني كنت من عادٍ ومن إرمٍ — غذيّ سخْلٍ ولقمانا وذا جدان[5]

ومن هذا القبيل ما نسب الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي ، والى (الحارث بن مضاض) ، من شعر . وهو عند أهل الأخبار أحد المعمرين

---

١ الطبري (١/٢٢٣ وما بعدها) .
٢ الطبري (١/٢٢٤) .
٣ تفسير الطبري (٨/١٥٩) ، (بولاق) .
٤ الطبري (١/٢٣٢) .
٥ الزجاجي ، مجالس العلماء (٤٢) .

القدماء ، زعموا انه قال شعراً لما أجلت (خزاعة) جرهماً عن الحرم ، هو :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وزعموا انه مدّ في عمره الى أن أدرك الاسلام[1] .

ونجد في شعر (النمر بن تولب) ذكر (لقمان)[2] . ونجد في أشعار شعراء آخرين إشارات الى هؤلاء وغيرهم ممن كان تذكرهم الأساطير وتروي أخبارهم الناس ، على نحو ما نسمعه من العجائز عن قصص الماضين ، وقد أشرت الى أسماء بعض منهم في ثنايا هذا الكتاب .

وقد سبق أن ذكرت ان هذا النوع من الأساطير ، لم يفت على بال بعض العلماء النقدة، وانهم أشاروا الى انه من صنع جماعة من صناع الأساطير والقصص ، فقد قال (ابن سلام) : « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل منه كل غثاء محمد بن اسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير والمغازي ، قبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، انما أوتي به فأحمله ، ولم يكن له ذلك عذراً ، فكتب في السيرة من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء ، فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر انما هو كلام مؤلف معقود بقوافي ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألوف من السنين ؟ والله تعالى يقول: فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، أي لا بقية لهم . وقال أيضاً : وانه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . وقال في عاد : فهل ترى لهم من باقية . وقال : وقروناً بين ذلك كثيراً »[3] .

ولكن أوسع وأظهر أبواب نحل الشعر ، هو ما وضعه رواة الشعر على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وهو ما دعاه (الرافعي) : بـ « الإتساع في الرواية » .

---

١ المرزباني ، معجم (١٠) ، ابن هشام ، سيرة (١/٨٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الأنف) ، الروض الأنف (١/٨٠ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٤/٤٤٦) ، (بولاق) .
٣ المزهر (١/١٧٣) ، (النوع الثامن : معرفة المصنوع) .

ونقصد به ما صنعه الرواة من وضعهم قطعاً وقصائد على ألسنة الشعراء الجاهليين لم يقولوها ، ومن اضافتهم أشعاراً على قصائد الجاهليين ، أو ادخال شعر شاعر في شعر غيره : هوى وتعنتاً[1] . فهذا الباب هو أخطر أبواب نحل الشعر وأوسعها وأهمها ، ويغطي معظم الشعر المنحول . صنعوه ، لرواج سوق الشعر الجاهلي في تلك الأيام ، وللطلب الكثير الذي كان إذ ذاك عليه . وللربح الذي كان يجنيه حامله من روايته ، مما حمل الرواة على وضع الشعر بصوغه على قوالب الشعر الجاهلي وعلى مضامينه وطرقه في التنقل في القصيدة ، وقد أجاد فيه أساتذة الصنعة من أمثال (حماد) الراوية و (خلف) الأحمر ، وليس في الرواة جميعاً من يدانيهما في الصنعة وإحكامها ، فهما طبقة في التأريخ كله[2] .

ومن أمثلة المصنوع أبياتاً مطلعها :

قل لعمرو : يا بن هند   لو رأيت القوم شنا

أنشدها خلف الأحمر ، وهي مصنوعة[3] .

ومن أمثلة التطويل في الشعر ، ما فعلوه بأبيات الطيرة للحارث بن حلزة ، وهي أربعة أبيات ، ولكنهم جعلوها قصيدة طويلة . والأبيات هي :

يا أيها المُزمع ثم انثني   لا يثنك الحادي ولا الشاحجُ
ولا قعيد أعضب قَرنُهُ   هاج له من مَربع هائج
بينا الفتى يَسْعى ويُسعى له   تاح له من أمره خالجُ
يترك ما رقح من عيشه   يعيش منه همج هائج[4]

ورُوي ان قول الأعشى :

كتميل النشوان يرفل في البقيرة وفي الإزارة

1 الرافعي (١/٣٧٩) .
2 الرافعي (١/٣٨٣) .
3 المزهر (١/١٧٨ وما بعدها) .
4 الرافعي (١/٣٨٤) .

هو من قصيدة مصنوعة [1] . وروى (أبو عبيدة) عن (أبي عمرو) ، انه قال : « والله ما كذبت فيما رويته حرفاً قط ، ولا زدت فيه شيئاً إلا بيتاً في شعر الأعشى ، فإني زدته ، فقلت :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيبَ والصلعا » [2]

وروي ان « حماداً كان يقول : ما من شاعر إلا وقد حققت في شعره أبياتاً فجازت عنه ، إلا الأعشى ، أعشى بكر ، فإني لم أزد في شعره قط غير بيت. قيل له : وما البيت ؟ فقال :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت » [3] .

فأنت أمام روايتين متناقضتين ، رواية تنسب وضع البيت الى (أبي عمرو بن العلاء) ، ورواية تنسب وضع ذلك البيت الى (حماد) . وسبب التناقض العصبية ولا شك .

ويجب أن نضيف على الشعر المصنوع على ألسنة الجاهليين : الشعر الذي وضع على ألسنة الصعاليك واللصوص ، فقد كان الناس يتسقطون أخبار هؤلاء ويتلذذون بسماع مغامراتهم وسطوهم ، شأن الناس في كل وقت ومكان من الميل الى التلذذ بسماع مثل هذه الأخبار ، وهذا ما حمل صناع الأخبار والأساطير على وضع الشعر على ألسنة الصعاليك واللصوص لتزيين أخبارهم وترصيعها بـه ، على طريقتهم في رواية أيام العرب وأخبارهم ، وفي شعر هذه الطبقة شعر كثير مصنوع .

وهناك شعر وضع للتسلية وللهو من ذلك شعر الفسق والمجون ، من ذلك مـا نسب الى (ابنة الخس) من قول ، هو :

سلوا نساء أشجع   أي الأيور أنفع
أالطويل النعنع   أم القصير المردَع
أم الذي لا يرفع   أم الأساك الأصمع

---

١ الزجاجي ، مجالس العلماء (١٣٠) .
٢ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٣٥) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣٨٣/١ وما بعدها) .

في كل شيء يطمع   حتى القريص يصنع[1]

وابنة الخس ، في زعم أهل الأخبـــار ، جاهلية قديمة من إياد ، أدركت القلمس ، أحد حكام العرب ، « ولها أسجاع كثـــيرة وشعر قليل . وكانت تحاجي الرجال » الى أن حاجها رجل ، فقال لها قولاً بذيئاً أخجلها ، فتركت المحاجاة[2] . وأورد الشريف (المرتضى) لها أجوبة عن أسئلة معضلـــة محيرة ، لتحزر جوابها ، وذكر أجوبتها ، رواية عن (ابن الأعرابي)[3] .

والشعر الذي نسبه (أبو محمد ثابت بن أبي ثابت) اليها ، هـو من الشعر المصنوع بالطبع ، وضع على لسان (ابنة الخس) ، وقد نص (تاج العروس) على أن قائله (جارية كانت جلعة)[4] ، وهو من وضع المجّان ، الـذين كانوا يتلذذون بسماع هذا النوع من المجون .

وكان (ابن أبي كريمة) ، يصنع الشعر وينحله بعض شعراء البادية ، كما صنع في قصيدة له في وصف الفأر ، نحلها (يزيد بن ناجية) السعدي ، « وكان لقي من الفأر جهداً ، فدعا عليهن بالسنانير » ، وكان يصطنع شعر الفكاهة ، ويحاكي فيه (الحكم بن عبدل) الأسدي[5] . وهناك كثير من اضرابه ، ممن وضع الشعر للتسلية وللتفكهة على ألسنة الأعراب والشعراء الجاهليين .

وقد وضع (خلف) الأحمر قصائد عدة على فحول الشعراء ، ذكروا منهـــا قصيدة الشنفرى المشهورة بلامية العرب . وروي عن الأصمعي قوله : سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي فيها :

خيل صيامٌ وخيل غير صائمـــةٍ   تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما[6]

---

١ كتاب خلق الانسان (٢٧٩) ، (لابن أبي ثابت) ، المخصص (٢/٣١) ، اللسان (٨/٢٧١) ، (قرصع) ، (لم يذكر اسم قائله) ، (٨/٣٥٨) ، (ولم يذكر اسم قائله كذلك) ، تاج العروس (٥/٤٦٠) ، (قرصع) ، (قاله أبو عمرو . وأنشد لجارية كانت جلعة) ، (٥/٥٢٧) ، (نعنع) .
٢ بلوغ الارب (١/٢٣٩) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٢٠) .
٤ تاج العروس (٥/٥٢٧) ، (نعنع) .
٥ البخلاء (٢٨٢ وما بعدها) ، « الحكم بن عبدل » من شعراء أيام الامويين .
٦ الرافعي (١/٣٨١) .

ومما يدخل في هذا الباب اننا نجد بيتاً أو أبياتاً تنسب في أحد الموارد لشاعر، بينما نرى ديوانه خالياً منه أو منها ، من ذلك ما رواه (المعري) ، من انه لما كان ببغداد ، شاهد بعض الورّاقين يسأل عن قافية (عدي بن زيد) التي أولها:

بكر العاذلات في غلس الصبـ ـح يعاتبنه أما تستفيق

وزعم الورّاق ان بعض طلاب شعر هذا الشاعر سأل عن هـذه القصيدة ، وطلبت في نسخ من ديوان (عدي) فلم توجد . ثم سمع بعد ذلك رجلاً من أهل (استراباذ) يقرأ هذه القافية في ديوان (العبادي) ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم[1] . وذكر أشياء أخرى من هذا القبيل ، تراها في كتاب أو في نسخة من نسخ ديوان الشاعر ، بينما لا تراها في نسخ الديوان الأخرى ، مما يدل على ان الدواوين لم تكن متفقة في النص ، وانها رويت بروايات مختلفـة ، وان في بعضها ما يزيد على البعض الآخر[2] .

ونحل الشعر ، وإن وقع وحدث ، غير ان أمره لم يفت على بال العلماء المهرة الحاذقين ، ودليل ذلك ، ما نجده في كتبهم من الإشارات الى المنحول والمصنوع من الشعر ، ومن نصهم عليه ، وإن فات عليهم بعضه،ومن نصهم على المنحول ومن ملاحظاتهم تلك أخذ المستشرقون والمحدثون من العرب آراءهم في الشعر الجاهلي، فما أورده (ماركليوث) مثلاً من نقد على الشعر الجاهلي ، أو ما أورده (الدكتور طه حسين) من رأي فيه ، ليس فيه شيء جديد ، وجديده الوحيد ، هو في التهويل بمقدار المغشوش من هذا الشعر ، أما من حيث المبـدأ ، أي من حيث وجود شعر منحول فاسد ، في الشعر الجاهلي ، فالقدماء والمحدثون والمستشرقون متفقون في ذلك ، وخلافهم الوحيد ، هو في مقدار نسبة الفاسد من الشعر بالنسبة الى الصحيح .

فما قيل عن نحل الشعر إذن هو قول قديم . روي عن الأصمعي أنـه قال : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس ، فهو من حماد الراوية إلا نتفـاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء »[3] . وروي عن (حماد) الراوية قوله:

---

١ رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٥١٣) .
٣ مراتب النحويين ، لابي الطيب اللغوي (ص ٧٢) .

« دخل علينا ذو الرمة الكوفة ، فلم نر أحسن ولا أفصح ولا أعلم بغريب منه . فغم ذلك كثيراً من أهل المدينه » ، فأرادوا الكيد له بامتحانه ، فصنعوا شعراً على ألسنة بعض الجاهليين ، وأنشدوه إياها ، فعلم ذلك (ذو الرمة) بعلمه وبمعرفته للشعر الجاهلي ، أنه شعر مصنوع ، فقال لهم : « ما أحسب أن هذا من كلام العرب »[1] .

وقد زيد في شعر (امرىء القيس) كثيراً ، وقد عدّه علماء الشعر من المقلّين،وجعل بعضهم الصحيح من شعره نيفاً وعشرين شعراً بين طويل وقطعة[2] . وفي جملة ما نسب اليه القصيدة المسمطة ، وهي :

توهمت من هند معالم أطلال ... عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرابعُ من هند خلت ومصايف ... يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف ... وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطالِ[3]

ونرى (ابن سلام) يقول : « ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد . والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن ، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير ان الذي نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك . فلما قل كلامهما حُمل عليهما حمل كثير ، ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة »[4] . ولما تحدث عن (عبيد بن الأبرص) قال : « وعبيد بن الأبرص ، قديم عظيم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب ... فالقطبيات فالذنوب

---

١ الاغاني (١١٧/١٦) .
٢ العمدة (١٠٥/١) .
٣ العمدة (١٧٦/١) .
٤ طبقات (١٠ وما بعدها) .

ولا أدري ما بعد ذلك »[1] . فهو مع علمه الواسع بالشعر ، واستشهاد العلماء بكلامه وبآرائه في الشعر ، لا يعرف لعبيد غير هذا الشعر ، مع العلم بأنه قد توفي سنة (٢٣١ هـ) ، وفي أيامه كان الناس يموتون في طلب الشعر الجاهلي . ونجد (ابن قتيبة) المتوفى بعده (٢٧٠ هـ) ، يذكر له شعراً مطلعه :

يا عين فابكي بني أسدٍ همُ أهل الندامة[2]

ثم قوله مخاطباً امرأ القيس :

يا ذا المخوّفنا بقتل أبيه إذلالاً وحيْنا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا[3]

ثم قوله :

هلا سألت جموع كندة يوم ولّوا هاربينا[4]

وقد ذكر (ابن سلام) أن الرواة قد وضعوا على (عدي بن زيد) شعراً كثيراً ، وعلل ذلك بقوله : « وعدي بن زيـد ، كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد. واضطرب فيه خلف ، وخلط فيه المفضل فأكثر . وله أربع قصائـد غرر روائع مبرزات،وله بعدهن شعر حسن »[5] . ولابن قتيبة هذا الرأي فيه ، حيث يقول : « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنـه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة . وله أربع قصائد غرر »[6] . وذكر نقلاً عن (أبي عبيدة) عن (أبي عمرو بن العلاء) أن « العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب »[7] .

---

١ طبقات (١١ ، ٣١) .
٢ الشعر والشعراء (١/٥٠) ، ديوان عبيد (١٢٥) .
٣ الشعر والشعراء (١/٥٢) ، ديوان عبيد (١٣٦) .
٤ الشعر والشعراء (١/٥٨) .
٥ طبقات (٣١) ، العمدة (١/١٠٤) .
٦ الشعر والشعراء (١/١٥٠) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٥٤) .

وقد تعرض القدماء لموضوع الشعر المقال على ألسنة الأمم القديمة وملوكها ، فرفض (ابن سلام) ذلك الشعر ، بقوله : « وإنما قصدت القصائد وطُول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط عاد وثمود وحمير وتبع »[1] . إذن فما أضيف الى هؤلاء والى أهل اليمن هو شعر منتحل.

ومن أصحاب البصر والنظر في الشعر : (خلف الأحمر) . « وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر في حلبة هذه الصناعة ، أعني النقد ، ولا يشقون له غباراً ، لنفاذه فيها ، وحذقه بها ، وإجادته لها »[2]. وعلمه بالشعر ، جعله من كبار الوضاعين له على ألسنة الجاهليين .

وبعد ، فإننا لا نستطيع بالطبع التصديق بصحة الشعر المنسوب الى آدم والجن والتبابعة وأهل العربية الجنوبية وغيرهم ممن لا يعقل قولهم الشعر العربي ، وإن نص على صحة ذلك الشعر ، ورواه العلماء . أما سبب رفضنا قبول الشعر المنسوب الى أهل العربية الجنوبية من ملوك وأقيال ورؤساء،فلأنهم كانوا يتكلمون ويكتبون كما هو ثابت لدينا من نصوصهم بلغة تختلف عن لغة الشعر المألوفة ، ولو تصورنا انهم كانوا ينظمون الشعر بلغة الشعر المعروفة ، ويكتبون ويتكلمون بلغة أخرى : فإننا نكون قد قلنا برأي مخالف للمعقول وللمنطق ، ونكون قد أوجدنا لهم لغة للشعر ولغة للنثر ، وهو افتراض لا يمكن لأحد إثباته ، ثم إن لغة التدوين تكون في العادة لغة الأدب عامة من شعر ومن نثر ، لذا فإذا قلنا بوجود شعر جاهلي للعرب الجنوبيين ، قلنا يجب أن يكون هذا الشعر بلغتهم ، لا بلغة هذا الشعر الجاهلي الذي نتحدث عنه .

وبعد ، فلعل قائلاً يقول : وما فائدة الشعر الجاهلي اذن ، اذا كان هذا شأنه فيه المنحول والفاسد ، وما يشك في أصله ؟ والجواب : ان العلماء ، وان اختلفوا فيه ، مجمعون ومتفقون على ان رواة هذا الشعر وحملته كانوا من أعلم الناس بالجاهلية : بأخبارها وبأيامها وبأنسابها ، وبأنهم كانوا من أمرس الناس بالشعر الجاهلي وبطرقه ودروبه ، فهم إن وضعوا ولفقوا ، أو كيفوا ، فإنهم لا يضعون عن جهل وعمى ، بل عن علم وفهم بالجاهليين وبمذاهبهم في نظم

---

١ طبقات (١١) .
٢ العمدة (١١٧/١) .

الشعر والتفسير ، ولا سيا ان العهد بينهم وبين الجاهلية لم يكن طويلاً ،وان الأخذ عمن شهد الجاهلية أو أخذ منهم وسمع كان ممكناً يسيراً ، ومن هنا كان ما رووه من شعر جاهلي مادة مهمة للمؤرخ مهما قيل في أمره .

ثم إننا حين نروي الشعر الجاهلي ، فلا نرويه أو ننشده ، أو نحفظه لأنه شعر مقدس ، لا يجوز أن يمسه أحد بسوء ، وانه تراث خالد ، إذا تعرض له إنسان أو تحرش به ، فإنما هو يتعرض لأثر تأريخي قديم من آثار هذه الأمة ، وإنما نرويه على أنه من مرويات العلماء ، وأنـه مهما قيل فيه وفي أصله ، فإنه يحاول أن يصوّر لنا أحوال زمن سبق الإسلام ، وهو زمن مهم جداً بالنسبة لنا ، لاتصاله بالاسلام ، ولقيام الاسلام عليه ، ولكونه فصولاً متقدمة مجهولة من كتاب ناقص ، ضاعت فصوله الأولى ، هو كتاب في تأريخ العرب منذ القدم الى هذا اليوم ، فإذا فقدنا الأصول ، فلا بأس بالتسلي بما نسبه المتأخرون على الأقل الى المتقدمين ، مهما كان بعد هذا المنسوب عن الصحة والحق ، ومهما كـانت نسبة الباطل فيه كبيرة ، وحتى إذا كانت النسبة مائة بالمائة ، وهي نسبة نبالغ فيهـا بالطبع ، لا أعتقد أن أحداً سيراها ، مهما بلغ به الشك والحذر بالنسبة الى أصالة الشعر الجاهلي ، ومن هنا فإن النزاع الدائر حول صحة الشعر الجاهـلي ، والذي سيبقى مثاراً قائماً ، حتى يظهر أثر جاهلي مكتوب ، وعندئذ فقد يحسم شيئاً من مواضع الخلاف المؤلفة لهذا النزاع ، يجب ألا يحملنا على الابتعاد عن هذا الشعر ، باعتبار أنه لا يمثل الجاهلية تمثيلاً صحيحاً ، وانه شعر مكذوب منحول ، وإنما يجب أن يدفعنا — على العكس — الى الاهتمام به ، باعتبار أنـه من أقدم الآثار التي وصلت الينا ، المدوّنة في الاسلام . وأنها إن كانت منحولة ، فان نحلها على ألسنة الجاهليين ، نحل قديم ، يعتبر تأريخياً من أقدم المنحولات الواصلة الينا في المدوّنات الاسلامية ، وأنها تمثل صنعة وصناعة صنّاع ، حاولوا تقليد الماضي ، على ما وصل خبره اليهم ، فصاغوه على تلك الصياغة ، فهو أثر أصيل لأقـدم مصنوعات ومحاكاة وتقليد لآثار قديمة لها صلة بتأريخ العرب القديم .

وأرى في الوقت نفسه ان من الضروري وجوب تقصي الأخبـار عن الشعر المصنوع ، وتتبع المراجع للوصول الى أقدم مرجع ورد فيه كل شعر مصنوع ، وتسجيل الأبيات والقطع والقصائد التي ترد لأول مرة في أقدم مورد من الموارد ، والنص على اسم المورد ، وعلى سنده إن كان مذكوراً ، لنتمكن بهذه الدراسة

من الوصول الى اسم صانع الشعر ، أو الزمن الذي ظهر فيه ذلك الشعر ان كان الاسم مجهولاً ، كما نقوم بتسجيل الموارد التي يرد فيها شعر الشعراء ، وما اختلفت فيه بعضها عن بعض من حيث الألفاظ ، أو ترتيب الأبيات ، أو عددها ، ثم أسماء من نسبت اليهم تلك الأشعار ، فقد ينسب الشعر الواحد الى جملة شعراء ، وتسجيل أسماء من روى ذلك ، واسم المصدر ،وبذلك نكون قد قمنا بدراسة علمية قيّمة عن الشعر المصنوع وعن الشعر الأصيل الذي لم يشك في أصالته عالم من علماء الشعر ، ثم نعرض النتائج للبحث بأساليب النقد الحديثة لاستخراج الزائف منه ، ولاستبعاد صدور بعضه من الشعراء الجاهليين،نفعل ذلك حتّى في حالة عدم ورود رواية لعالم قديم تشك في صحة شعر ، لأن سكوت العلماء عن الشك في شعر ، لا يكون حجة على صحة ذلك الشعر .

الفصل السادس والخمسون بعد المئة

أولية الشعر الجاهلي

لا نملك نصوصاً جاهلية مدونة عن مبدأ الشعر عند العرب،وعن كيفية ظهوره وتطوره الى بلوغه المرحلة التي وصلها عند ظهور الاسلام . ولم يعثر العلماء على شعر مدون بقلم جاهلي ، ليكون لنا نبراساً يعيننا في تكوين صورة عن ذلك الشعر وعن هيكله ومادته التي تكوّن منها . وكل ما نعرفه عن هذا الشعر مستمد من موارد اسلامية،أخذت علمها به من أفواه الرواة ، فلما جاء التدوين دوّن ما وعته الذاكرة مما أخذته عن المتقدمين بالرواية ، فتثبت واستقر ، بعد أن كان المروي عرضة للتغيير والتحريف كلما تنقل من لسان الى لسان ، ومن وقت الى وقت .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع قدم الشعر العربي وتأريخه ، فقال: « وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق اليه، امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له الى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام »[1] . وذهب (عمر بن شبّة) الى أن « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه ، وقد اختلف في ذلك العلماء ، وادعت القبائل كل قبيلة لشاعرها أنه الأول.. فادعت اليمانية لامرىء القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دُؤاد ... وزعم بعضهم أن

---

١ الحيوان (١/٧٤) .

الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء ، وانه أول من قصد القصيد ، قال : وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها »[1] . وذهب (الأصمعي) الى ان بين أول شاعر معروف ، قال كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر ، وهو (مهلهل) ، وبين الاسلام أربعمائة سنة . « وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير »[2] .

وقال (الأصمعي) في رواية تنسب اليه ، « ان أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة، رجل من بني كنانة ، والأضبط بن قريع . قال : وكان بين هؤلاء وبين الاسلام أربعمائة سنة ، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير »[3] . « وزعم أبو عمرو بن العلاء : ان الشعر فتح بامرىء القيس وختم بذي الرمة »[4] .

وذكر انه « لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات التي يقولها الرجل في حاجته ، وانما قصدت القصائد ، وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب ، أو هاشم ابن عبد مناف »[5] .

وذكر (المرزباني) ، أن (بكر بن وائل) ، تزعم أن (عمر الضائع) « أول من قال الشعر وقصد القصيد ، وكان امرؤ القيس بن حجر استصحبه لما شخص الى قيصر يستمده على بني أسد ، فمات في سفره ذلك فسمته بكر عمراً الضائع »[6] . فعمرو الضائع ، هو أول من قال الشعر وقصد القصيد على رأي بكر بن وائل على رواية (المرزباني) .

وقد أورد (ابن اسحاق) شعراً نسبه الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي ، زعم أنه قاله لما خرج بقومه من مكة الى اليمن ، أوله :

وقائلة والدمع سكب مبادر وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما يلجلجه بين الجناحين طائر

---

١ المزهر (٤٧٧/٢) ، ابن سلام ، طبقات (٣) ، المرزباني ، الموشح (٧٤) .
٢ المزهر (٤٧٧/٢) .
٣ المزهر (٤٧٧/٢) .
٤ البيان والتبيين (١١٥) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .
٥ المزهر (٤٧٧/٢) .
٦ معجم (٤) .

الى آخر القصيدة التي يتوجع فيها لمفارقته مع قومه مكة ، ونسب له أبياتاً أخرى هي :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطايا وأرخوا من أزمتها قبل الممات وقضوا ما تقضونا
كنّا أناساً كما كنتم فغيرنا دهر فأنتم كما كنّا تكونونا

وقد ذكر (ابن هشام) ان « هذا ما صح له منها » وان بعض أهل العلم بالشعر يقول إن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب[1] .

ودون (السهيلي) صاحب (الروض الأنف) شعراً أخذه من كتاب (أبي بحر سفيان بن العاصي) زعم أنه وجد في بئر باليمامة ، وهي بئر طسم وجديس ، في قرية يقال لها (معنق) بينها وبين الحجر ميل[2] ، وكان مكتوباً على ثلاثة أحجار ، كتبها قوم من بقايا عاد ، غزاهم تبع ، كتب على الحجر الأول :

يا أيها الملك الذي بالملك ساعده زمانه
ما أنت أول من علا وعلا شؤون الناس شانه
أقصر عليك مراقباً فالدهر مخذول أمانه
كم من أشم معصب بالتاج مرهوب مكانه
قد كان ساعده الزما ن وكان ذا خفض جنانه
تجري الجداول حوله للجند مترعة جفانه
وقد فاجأته منية لم ينجه منها اكتنانه
وتفرقت أجناده عنه وناح به قيانه
والدهر من يعلق به يطحنه مفترشاً جرانه
والناس شتى في الهوى كالمرء مختلف بنانه
والصدق أفضل شيمة والمرء يقتله لسانه
والصمت أسعد للفتى ولقد يشرفه بيانه

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٨٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .
٢ الروض الانف (١/٨٢ وما بعدها) .

وكتب على الحجر الثاني :

كل عيش تعله [1]	ليس للدهر خله
يوم بؤس ونعمى	واجتماع وقلـه
حبنا العيش والتكا	ثر جهل وضلـه
بينا المـرء ناعم	في قصور مظلـه
في ظـلال ونعمة	ساحباً ذيل حله
لا يرى الشمس ملغضا	رة إذ زال زله
لم يقلهـا وبدلت	عزة المـرء ذله
آفة العيش والنعـ	ـيم كرور الأهله
وصل يـوم بليلة	واعـتراض بعلـه
والمنايـا جـواثم	كالقصور المدلـه
بالذي تكـره النفـ	ـوس عليها مطله

ووجد في الحجر الثالث مكتوباً :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم	أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطيّ وأرخوا من أزمتها	قبل الممات وقضوا ما تقضونا
كنـا أناساً كـما كنتم فغيرنا	دهر فأنتم كما كنّا تكونونا [1]

وقد أضاف (الأزرقي) زيادات على هذه الأبيات الأخيرة .

والأبيات التي زعم أنها وجدت مدوّنة على الحجر الثالث ، هي نفس الأبيات التي نسبها (ابن اسحاق) الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي كما رأيت . ويظهر أن واضع هذه الأبيات قد استعان بالأبيات التي وجدت في سيرة (ابن هشام) ، أو أنه أخذها من سيرة (ابن اسحاق) . ويلاحظ أنهـا في الحث على الزهد والترغيب في الآخرة . ولو لم يكن هذا الشعر من النوع المصنوع، لكان من أقدم ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ولا شك .

و « العلماء من العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي،

---

١ الروض الانف (١/٨٢ وما بعدها) .

لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل الينا من الأشعار القديمة »[1] ، بمعنى أن أقدم ما وصل الى علمنا من ذلك الشعر بصورة لا يرتاب بصحتها ، لا يمكن أن يرتقي عهده أكثر من قرن أو قرن ونصف عن الهجرة على أكثر تقدير ، وأن أقدم اسم شاعر جاهلي وصل الى سمعنا لا يرتقي عهده عن هذا التقدير . أما إذا كان قصدهم أن نظم القصيد كان قد بدأ في هذا الوقت ، وأن الشعر بالمعنى الاصطلاحي المفهوم منه لم يظهر عند العرب ، إلا قبل قرن أو قرنين عن الإسلام ، فذلك خطل في الرأي ، وفساد في الحكم . فالشعر أقدم من هذا العهد بكثير ، وقد أشار المؤرخ (سوزيموس) « Zosimus » الى وجود الشعر عند العرب ، وهو من رجال القرن الخامس للميلاد ، الى تغني العرب بأشعارهم ، وترنيمهم في غزواتهم بها[2] ، وفي إشارته الى الشعر عند العرب دلالة على قدم وجوده عندهم ، واشتهاره شهرة بلغت مسامع الأعاجم ، فذكره في تأريخه . وفي سيرة القديس (نيلوس) « Nilus » المتوفى حوالى السنة (٤٣٠) بعد الميلاد ، أن أعراب طور سيناء كانوا يغنون أغاني وهم يستقون من البئر . وهي أشعار ترنم بإيقاع ، تشبه أناشيد العبرانيين عند استقائهم الماء من الآبار . « حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي أيتها البئر أجيبوا لها ، بئر حفرها رؤساء ، حفرها شرفاء الشعب بصولجان بعصيّهم »[3] ، والأشعار المروية في كتب التواريخ والأدب عن حفر آبار مكة وغيرها من هذا القبيل ، فقد روي أن (عبد المطلب) لما حفر بئر (زمزم) ، قالت (خالدة بنت هاشم) :

نحن وهبنا لعدي سجله   في تربة ذات عذاة سهله
تروي الحجيج زعلة فزعله

وأن (عبد شمس) قال :

حفرت خمّا وحفرت رما   حتى أرى المجد لنا قد تما

---

١ كارلو نالينو ، تأريخ الاداب العربية (ص ٦٨ وما بعدها) ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م ، دار المعارف بمصر) .

٢ Die Araber, II, S. 330.

٣ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٧ .

وان (سبيعة) بنت (عبد شمس) قالت في الطوى :

إن الطوى إذا شربتم ماءها صوب الغمام عذوبة وصفاء

وان (الحويرث بن أسد) ، قال في (شفية) :

ماء شفية كماء المزن وليس ماؤها بطرق أجن

وان (أميمة بنت عميلة بن السباق بن عبد الدار) قالت في حفر بئر (أم أحراد) :

نحن حفرنا البحر أم أحراد ليست كبذر النذر والجماد

فأجابتها (صفية بنت عبد المطلب) :

نحن حفرنا بـــذر تروي الحجيج الأكبر
من مقبـل ومدبر وأم أحـــراد بشـر
فيها الجراد والذر وقـــذر لا يذكـــر

ولما حفر بنو جمح (السنبلة) ، وهي بئر (خلف بن وهب) الجمحي ، قال قائلهم :

نحن حفرنا للحجيج سنبله صوب سحاب ذو الجلال أنزله

وحفر بنو سهم الغمر ، وهي بئر العاصي بن وائل ، قال ابن الربعي أو غيره:

نحن حفرنا الغمر للحجيج تثـــج ماء أيمــا ثجيـــج

وحفرت بنو عدي (الحفير) فقال شاعرهم :

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا بحـراً يجيش ماؤه غزيرا[1]

وورد ان (قصياً) لما احتفر (العجول) ، قال شاعرهم :

نروي على العجول ثم ننطلق إن قصياً قد وفى وقد صدق

---

[1] البلاذري ، فتوح البلدان (٦٠ وما بعدها) ، (ذكر حفائر مكة) ، الروض الانف (١/١٠١ وما بعدها) ، ويرد الشعر بروايات مختلفة بعض الاختلاف .

وان قصياً لما احتفر (سجلة) ، قال :

أنا قصيّ وحفرت سجلة تروي الحجيج زغلة فزغلة

وقيل بل حفرها (هاشم) ، ووهبها (أسد بن هاشم) لعدي بن نوفل ، فقالت : خلدة بنت هاشم :

نحن وهبنا لعدي سجلة تروي الحجيج زغلة فزغلة

ونجد في كتب السير شعراً قيل في حفر بئر زمزم[1] ، وفي آبار أخرى ، مما يدل على ان العرب كانوا قبل هذا العهد ، اذا حفروا بئراً ، قالوا شعراً فيها، وهو شعر يمكن أن نسميه شعر الآبار ، وهو يعود ولا شك الى عرف قديم ، قد يتقدم على الميلاد بكثير ، وهو يجب أن يكون من أقدم ما قيل من الشعر ، لما للبئر من أهمية في حياة العرب .

ولم يقتصر التغني بالشعر على حفر الآبار وحدها ، وإنما تغني به عند بنائهم بناء أو حفرهم خندقاً ، أو اقامتهم سوراً ، أو قيامهم بزرع أو حصاد ، وفي أعمال أخرى يناط القيام بها الى جماعة في الغالب ، وكذلك في الغارات وفي الحروب. ولما شرع المسلمون يبنون مسجد الرسول بالمدينة ، قال قائل منهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منّا العمل المضلل

فارتجز المسلمون وهم يبنون ، يقولون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم فارحم الأنصار والمهاجرة

وقال (ابن هشام) : هذا كلام وليس برجز[2] ، وسبب ذلك كون قائله هو الرسول .

وقيل إنه قال :

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

---

١ ابن هشام ، سيرة (٩٧/١) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٩٧/١).
٢ ابن هشام ، سيرة (١٢/٢) ، (حاشية على الروض) .

وجعل يقول :

هذا الجمال لا جمال خيبر   هذا أبرّ ، ربنا ، وأطهر[1]

ويروي أهل الأخبار أن (المهلهل) ، كان يتغنى في شعره حين قال :

طفلةٌ ما ابنةُ المحلل بيضا   ءُ لعوبٌ لذيذة في العناق[2]

ورووا أن من الشعراء الجاهليين من كان يتغنى بشعره ، وان حسّان بن ثابت أشار الى التغني بالشعر بقوله :

تَغَنَّ بالشعر إما كنتَ قائله   إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ[3]

وقد قصد بذلك ، ترنيم الشعر وإنشاده على نغم مؤثر ، وهو الغناء . وما زال الشعراء ، يترنمون بشعرهم ، وينشدونه بأسلوب خاص يميزه عن أسلوب إلقاء النثر .

ونجد في أخبار غزوة أحد ، أن هنداً بنت عتبة ، زوجة أبي سفيان،ونسوة من قريش كنّ يضربن على الدفوف ويتغنين بالشعر ، حيث يقولون :

نحن بناتُ طارقْ   إن تُقْبلوا نعانق
ونبسط النمارق   أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وتقول :

وَيهاً بني عبد الدار   وَيهاً حماة الأدبار
ضرباً بكلّ بتار[4]

ولا بد وأن تكون في الأهازيج وفي أشعار الحج ، أنغام يرنم على وقعها الشعر،

---

١ ابن سعد طبقات (٢٤٠/١) ، (صادر) .
٢ الاغاني (٥١/٥) .
٣ العمدة (٢٤١/٢) .
٤ الطبري (٥١٠/٢ ، ٥١٢) .

الذي هو شعر الغناء. فإننا نجد في النتف الباقية من الجمل التي كان يقولها الحجاج أثناء حجهم ، آثار شعر قد كان مقروناً بالغناء .

ونظراً لوجود تماس مباشر بين هذا الشعر وبين الحياة العامة،فإن في استطاعتنا القول ، انه قد يكون من أقدم أنواع الشعر عند العرب ، وهو شعر لم ينبع من ألسنة الشعراء المحترفين ، وانما خرج على كل لسان ، وساهم فيه كل شخص : رجل أو امرأة ، مثقف أو جاهل ، حكيم أو سوقي . وهو بعد نابع من صميم الحياة ، ومن باطن القلب ، للترفيه عن النفس ، ولتخفيف التعب ، ولا زال الناس يتغنون عند وقوع مثل هذه الأمور لهم ، وهو غناء لم يحظ ويا للأسف بالرعاية والعناية ، لذلك لا نجد له ذكراً في الكتب إلا بالمناسبات .

ويرى العلماء المشتغلون بموضوع الشعر من الغربيين ، ان بين الشعر والسحر صلة كبيرة ، بل رأى بعض منهم ان الغرض الذي قصد اليه من الشعر في الأصل هو السحر ، ودليل ذلك ان الغناء عند الشعوب البدائية ، ليس متسقاً مع نغم العمل وايقاع اليد العاملة ، فنجد الغناء عند البناء أو الجر أو الحفر ، أو الزرع لا يتسق مع نوع حركة العمل ، وانما كان يسلّي العمال ويسعفهم بقوى سحرية، وهو الغرض من جميع فن القول عند البدائيين،أي تشجيع العمل بطريق سحري[1].

وقد ذهب (بروكلمن) و (كولدتزيهر) الى ان هذا الأثر السحري لا يظهر في الشعر العربي القديم إلا في شعر الهجاء ، « فن قبل أن ينحدر الهجاء الى شعر السخرية والاستهزاء ، كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري . ومن ثم كان الشاعر ، اذا تهيأ لإطلاق مثل ذلك اللعن ، يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن . ومن هنا أيضاً تسميته بالشاعر ، أي العالم ، لا بمعنى انه كان عالماً بخصائص فن أو صناعة معينة ، بل بمعنى انه كان شاعراً بقوة شعره السحرية ، كما ان قصيدته كانت هي القالب المادي للملك الشعر »[2] .

وكانت غاية الأغاني القصيرة ، التي يرددها البدائي في المواقف الكبرى للحياة

---

١ بروكلمن (١/٤٥) ،
K. Th. Preuss, Die Geistige Kultur der Naturvölker, Leipzig — Berlin, 1914, S. 85.

٢ بروكلمن (١/٤٦) ، I. Goldziher, Abhand. Zur Arab. Philologie, I, I.

الانسانية ، أن تحدث آثاراً سحرية ، وكذلك كانت غاية الرثاء الأصلية أيضاً هي السحر ، « فقد كان الغرض من المرثية أن تطفيء غضب المقتول وتنهاه أن يرجع الى الحياة ، فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين ، ولكن هذا المعنى تلاشى تقريباً في الجزيرة العربية أمام الشعور الانساني بالحزن الممض . على ان إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة كما كان لائقاً بنسائها ، وخاصة بالأخوات ، ومن ثم بقي تعهد الرثاء الفني من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التأريخي »[1] .

وقد لعبت الأغاني دوراً كبيراً في الصيد والحرب ، فقد رافقتها منذ أوائل انشغال الإنسان بهما . ولم يكن الصيد متعة وتسلية ورياضة عند العرب حسب ، بل كان لسدّ حاجة وللتغلب على شغف العيش أيضاً ، ونجد في الشعر الجاهلي شعراً جعل الصيد ، نوعاً من الرياضة والتسلية ، واظهار الرجولة في التغلب على الوحش الكاسر ، والحيوان المتوحش ، وأكثر أصحابه من المترفين والمتمكنين ، من أصحاب الخيل السريعة،مثل الملوك وسادات القبائل ، والشعراء الذين يرافقونهم في رحلات صيدهم ، أو يقومون هم أنفسهم برياضة الصيد .

ويلعب الغزو دوراً خطيراً في حياة الجاهليين ، فقد كان الغزو في الواقع نوعاً من أنواع الكفاح في سبيل الحياة،عليه معاشهم ، وبواسطته يحافظون على حياتهم وأموالهم ، وقد أنتج ضرباً من ضروب الشجاعة والمغامرة ، يتجلى في الشعر الحماسي ، الذي يقال قبل القتال وفي أثناء احتدامه . ونكاد لا نقرأ خبر يوم من أيام العرب أو غزو ، أو قتال إلا ونجد للشعر فيه دوراً ومكاناً في هذه الأحداث. يستوي في ذلك شعر الجاهلية والشعر الذي قيل في الأحداث التي وقعت في صدر الإسلام .

ونجد للنسيب ، والغزل مكانة في الشعر الجاهلي ، وقد نجد فيه وصفاً للجمال الحسي لأعضاء الجسد . وقد آخذ العلماء امرأ القيس والأعشى على مجاهرتهما بالفحش وبالزنا في شعرهما . والمجاهرة بالاتصال الجنسي بصورة عارية مكشوفة من الأمور التي لا ترد بكثرة في الشعر الجاهلي[2] .

ولا بد وأن يكون الشعر قد مر في مراحل ، لعل أقدمها مرحلة السجع ،

---

١ بروكلمن (٤٧/١ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (٤٩/١ وما بعدها) .

أي النثر المقفى المجرد من الوزن ، الذي تخصص فيه الكهان عند ظهور الاسلام. وهو والد (الرجز) ، أبسط أبواب الشعر ، ومن الرجز نشأ بناء بحور العروض ، التي يظهر أثر الموسيقى على صياغتها على رأي بعض المستشرقين[1] ، وهو أثر يدل على ما كان للغناء من صلة بالشعر . ولعل هذه الصلة هي التي حملت العلماء على القول بأن بحور الشعر نشأت في الأصل من سير الإبل ، من ترنيم الشاعر شعره على ايقاع سير الإبل . غير ان البحث عن هذا الموضوع وعن موضوع كيفيـــة نشوء بحور العروض وصلتها بعضها ببعض لا تزال من الدراسات العويصة المشكلة الشائكة التي لا يمكن الاتفاق عليها ، لعدم وجود أسس ثابتة يرتكز عليها الجدل القائم بين الباحثين في كيفية تطور الشعر الجاهلي[2] . أما ان هـــذه البحور ، قد نشأت من سير الإبل[3] ، فكلام لا يقوم على علم ، وهو من باب حدس الحداس، فلدى الشعوب الأخرى شعر ، له ترانيم وبحور ، ومع ذلك ، فإنها لم تكن تركب الإبل ، ولا تعرف ايقاع أرجلها عند المشي .

وقد قام المستشرقون بدراسة البحور التي نظم الشعراء الجاهليون بها شعرهم ، فوجدوا أن البحر الطويل يأتي في المرتبة الأولى من البحور ، يليه الكامل، فالوافر، فالبسيط . أما المتقارب فيوجـــد عند امرىء القيس ، كما يوجد عنده المنسرح قليلاً . واستعمل (طرفة) الرمل في قصيدة يبلغ طولها (٧٤) بيتاً، ترتيبها الخامس في ديوانه[4] ، كما استعمل السريع في قصيدتين[5] ، واستعمل كل من امرىء القيس وطرفة المديد في قصيدة واحدة[6] ، وأما الخفيف ، فقد وجد في شعر المرقشين، وعبيد بن الأبرص ، وعامر بن الطفيل ، والأعشى ، ولا يوجد الهزج إلا في قطعتين منحولتين ، واحدة لطرفة ، وأخرى لامرىء القيس[7] .

وقد ذهب (غرونباوم) الى أننا نجد تفنناً في شعر شعراء العراق وفي شعر من احتك بالحيرة من شعراء أكثر مما نجده في شعر أي مكان آخر . وذكر أن شعر

١ بروكلمن (١/٥١ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٥١ وما بعدها) .
٣ G. Jacob, Studien in Arabische Dichtem, II, S. 106.
٤ بروكلمن (١/٥٣) .
٥ رقم ٢ و ٣ من الديوان .
٦ بروكلمن (١/٥٣) .
٧ بروكلمن (١/٥٣) .

(أبي دؤاد) الإيادي قد جاء على اثني عشر بحراً ، ثم يرى أن المدرسة العراقية قد أكثرت من بحر الرمل ، ولا يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدي في سبع قصائد ، والمثقب في قصيدة واحدة ، والأعشى في قصيدتين . واستعمله امرؤ القيس في قصيدة واحدة ، ورأى في ذلك دلالة على تأثر امرىء القيس بأبي دؤاد ، وتأييداً للرواية التي ترى أنه كان راوية لأبي دؤاد[1] .

ويجيء امرؤ القيس وعدي والأعشى بعد أبي دؤاد في تنويع البحور التي نظموا بها ، فقد نظم كل واحد منهم في عشرة أوزان . وتدل الدراسات التي قام بها (فرايتاك) على قلة ورود النظم في بحري الرمل والخفيف بالنسبة الى البحور الأخرى[2] . ويظن ان الشعر الوارد في كتاب : (البخلاء) للجاحظ ، وهو :

واعلمن علماً يقيناً انه ليس يرجى لك من ليس معك

المنسوب لعبيد بن الأبرص[3] ، هو من الموضوعات .

ويرى (غرونباوم) ان من خصائص المدرسة العراقية نزوعها الى بحر الخفيف ، وعند أبي دؤاد الايادي خمس عشرة قصيدة بهذا الوزن ، وعند عدي سبع ، وعند الأعشى خمس ، « ولم يستعمل هذا البحر عند سائر الشعراء المعاصرين إلا على نحو عارض »[4] . فورد عند عمرو بن قميئة ، وعند المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وعامر بن الطفيل ، والحارث بن حلزة اليشكري[5] .

ويظهر مما أورده المفسرون وأهل السير من قول (الوليد بن المغيرة) في الرسول وفي القرآن : « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر »[6] ، « فجعل الرجز والهزج من أوزان

---

١ غرونباوم (٢٦٥ وما بعدها) .

٢ E. Bräunlich, in Der Islam, XXIV, 1937, S. 248. f., Freitag, Darstallung der Arabischen Verskunst, S. 15, J. Jacob, Altarabisches Beduinenleben, S. 190. f., (1897).

٣ الجاحظ ، البخلاء (١٩٠) ، (طه الحاجري) ، غرونباوم (٨٦) .

٤ غرونباوم (٢٦٦) .

٥ غرونباوم (٢٧٩) ، بروكلمن (١/٥٣) .

٦ ابن هشام ، سيرة (١/١٧٣) ، (حاشية على الروض الانف) .

الشعر ، وقرن بها أسماء غير محددة ، ويبدو أن تحديد هذه المعاني كلها عند العرب كان مختلفاً عن اصطلاحات العروضيين ، وإلا فإن القبض في العروض من عيوب الزحاف ، وهو حذف الحرف الخامس الساكن »[1] . وورد في رواية عن (أبي ذر) : « لقد وضعت قوله على اقراء الشعر ، فلا يلتئم على لسان » ، وقد اختلفوا في المراد من الإقراء[2] ، وفي هذين الخبرين وأمثالها دلالة على أنه قد كان لأهل الجاهلية قواعد ثابتة بالنسبة للشعر ، وأن الشعر كان يعتمد عندهم عليها . وأن علماء العروض : (الخليل بن أحمد) و (الأخفش) لم يتمكنا من ضبط كل بحور الشعر التي كانت عند الجاهليين ، بدليل أننا نجد أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعاه، ويظهر أن هذا الخروج يمثل مرحلة من مراحل الشعر، لم نقف على كنهها بعد[3] . وقد وجد (العيني) أن في الأصمعية المرقة بـ (٧٢) تشعيثاً ، قال عنه (غرونباوم) : « ومثل هذا لا يعدّ خطأ ، بل هو مظهر من مظاهر التطور الفني في هذا الوزن ، مظهراً استنكر أو نسي مع الزمن ، حين وضع علم العروض ، بعد حوالى قرنين من وفاة أبي دؤاد »[4] . وقد ذهب (غرونباوم) الى أن (الخليل) ، أقر « ستة عشر وزناً » ، واطرح بعض الأوزان المزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها »[5]، والواقع أننا لا نستطيع الزعم، بأن الخليل قد أحاط علماً بكل أنواع العروض العربي الجاهلي .

ومن يفحص الشعر الجاهلي ، يجد ان في بعضه اضطراباً وخروجاً وشذوذاً على قواعد (العروض) ، وقد وجد هذا الشذوذ في شعر شعراء يعدون من الفحول ، مثل (امرىء القيس) ، في القصيدة التي مطلعها :

عيناك دمعها سِجالُ كأن شأنيها أوشالُ

ومثل عبيد بن الأبرص في قوله :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيات فالذنوب

---

١ اللسان (٩/٨٠) ، بروكلمن (١/٥٣) .
٢ النهاية ، لابن الاثير (٣/٢٣٨) ، بروكلمن (١/٥٣) .
٣ بروكلمن (١/٥٤) .
٤ غرونباوم (٢٦٨) .
٥ غرونباوم (١٣٥) .

فقلما يخلو بيت من هذه القصيدة من حذف في بعض التفاعيل ، أو زيادة ، كما في الشطر الأول من هذا المطلع .

ومثل ما نسب الى المرقش الأكبر ، وعدي بن زيد العبادي ، وغيرهم ، من خروج على الوزن في بعض الشطور ، وإخلال في الوزن ، حتى زعم بعض العلماء ، ان في نونية (سلمى بن ربيعة) خروجاً عن العروض : عروض الخليل[1] . وقد أشرت في مكان آخر الى وقوع الإقواء والإكفاء والزحاف في شعر بعض الشعراء ، مثل امرىء القيس ، والنابغة ، وبشر بن أبي خازم ، وهي أمور تلفت النظر ، لا ندري أكانت قد وقعت من الشعراء حقاً ، أم من الرواية والرواة ، أم انها لم تكن عيباً بالنسبة لعروض الجاهليين ، وانما عدت من العيوب بالنسبة الى العروض الذي ضبط في الاسلام ، أو انه وقع بسبب تعديل أو تبديل أدخله العلماء على الأصل ، ليلائم قواعد العربية ، فوقع من ثم ما قيل له عيباً . وانني لا أستبعد وقوع السهو في نظم الشعر من شاعر مهما كان فحلاً ، فقد روي ان بعض الفحول من شعراء العصر الأموي كالكميت والفرزدق والأخطل ، قد وقعوا في أخطاء ، وان رواتهم كانوا يجرون تنقيحاً وتغييراً على أشعارهم ، ليقوّموا بذلك ما انحرف في شعرهم وما فيه من السناد[2] ، ولكن وقوع ما نشير اليه يدل على ان ما نعدّ اليوم عيباً أو خروجاً على القواعد والعروض ، لم يكن ينظر اليه هذه النظرة عند الجاهليين وفي صدر الاسلام ، وإلا دل ذلك على جهل أولئك الشعراء بقواعد اللغة وعلم الشعر ، وحاشا وقوع ذلك منهم ، وشعرهم نفسه كان في جملة المواد الأساسية التي استعان بها علماء القواعد والعروض في بناء النحو والعروض .

وقد قصر علماء الشعر فحولة الشعر في الجاهلية على الشعراء المعروفين بالنظم بالبحور المشهورة ، فيما عدا الرجز ، أما قالة الرجز ، فهم طبقة خاصة ، عرفت عندهم بالرجّاز . ويظهر من القول المنسوب الى (الوليد بن المغيرة) : « لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه »[3] ، أن الشعر في نظر أهل مكة : رجز ، أو هزج ، أو قريض ، أو مقبوض ، أو مبسوط ، وأن من يقول الرجز ، فهو راجز ورجّاز ، ولم يكن الرجز كما

---

١ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف (١٨٤ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٤/٢٥٦) .
٣ ابن هشام (١/١٧٣) ، (حاشية على الروض) .

يقول علماء الشعر طويل النفس ، وإنما كان أبياتاً ، وقد بقي هذا حاله حتى أيام الأمويين ، فطول ولقي عناية خاصة عند كثير من الشعراء ، فأخذوا يذهبون به مذهب القصيد ، فقصدوه ، بأن جعلوه قصائد ، وعمدوا الى تخفيف ما تتركه بساطة العروض وسهولته في النفس من ملل،بأن لجأوا الى استعمال العبارات البعيدة المأخذ ، والألفاظ الغريبة ، والاختراعات اللطيفة ، حتى تمكنوا من إدخاله الى قصور الخلفاء الأمويين ، ومن نيل الجوائز والألطاف منهم[1] .

ويعود الفضل في رفع مستوى الرجز في الإسلام ، الى رجلين من (بني عجل)، هما : (الأغلب بن عمرو) العجلي ، (٢١هـ) ، و (أبو النجم الفضل بن قدامة) العجلي ، والى رجال من (تميم) ، على رأسهم : (العجاج) (٩٧هـ) وابنه (رؤبة) المتوفى سنة (١٤٥هـ) وقيل (١٤٧هـ) ، و (عقبة) ابن (رؤبة) هذا ، و (أبو المرقال الزفيان)، و (دكين بن رجاء) الفقيمي ، و (محمد ابن ذؤيب) الفقيمي العماني[2] .

ولا نملك شعراً يمكن أن يقال عنه انه أقدم ما وصل الينا من مراحل الشعر الجاهلي . حتى هذا الرجز ، الذي ينظر اليه المستشرقون على انه أول مرحلة من مراحل الشعر الجاهلي ، لبساطته ولسهولته ، ولكونه وسطاً بين السجع والشعر ، لا نملك نماذج منه ، يمكن أن نطمئن الى انها كانت من الشعر القديم ، الذي يصلح للاستشهاد به على انه من قديم الشعر ، إذ لم يحفل علماء الشعر بالرجز لاعتبارهم اياه دون الشعر ، فلم يدونوا منه شيئاً يذكر ، ولذلك نجد نسبته بالنسبة الى كمية الشعر الآخر (التقليدي) نسبة ضئيلة جداً ، وهذا ما جعل علمنا بالرجز الجاهلي قليلاً جداً .

ولسهولة الرجز ، واقابليته على الخروج على كل لسان ، أرى انه كان أكثر نظماً من الشعر المألوف ، ودليل ذلك اننا لو درسنا أخبار الأيام وأخبار الغزو والمعارك نجد للرجز فيها مكانة كبيرة ، فالمحارب الذي يقارع خصمه ويتجالد معه يرتجز رجزاً في الغالب لسهولته على اللسان ولمناسبته لمقارعة السيوف ، وللوقت القصير الذي يكون عنده ليقضي فيه المحارب على من يحاربه ، ثم ان في استطاعة

---

١ بروكلمن (٢٢٥/١) .
٢ بروكلمن (٢٢٨/١ وما بعدها) .

غير الشعراء الارتجاز ، وليس في استطاعتهم نظم الشعر ، لذلك كان الرجز أكثر كمية من الشعر ، ولكن كثرته هذه وسهولته ، قصرتا في عمره ، وربما صارتا من العوامل التي جعلت الناس لا تقدم على حفظه .

ولما كان الشعر تعبيراً عن عواطف جياشة وعن حس مرهف ، وعن نفس حساسة تريد التعبير عن نفسها بأي أسلوب كان ، فإن في استطاعتنا القول انه لازم البشرية منذ عرفت نفسها ، وأخذت تعبر عن احساسها بأية طريقة كانت : بطريقة بدائية أو بطريقة متطورة . فبدأ الشعر كما بدأ الانسان نفسه ، بداية بسيطة ساذجة بدائية ، ثم تطور بتطور مدارك الانسان ، وتعددت طرقه وبحوره ، بتطور العقل والمدارك ، وبارتفاع مستوى الحياة ، فكان لذة يلتذذ بها المسافر ، وهو يقطع الطرق الصعبة ، والصحارى الموحشة ، يعبر عنها بغناء ذي نغم ، وبألفاظ تناسب ذلك الغناء ، كما كان يعبر عنها في التشوق والتحبب الى الآلهة والقوى الطبيعية التي كان يرى انها تؤثر في حياته ، وفي مناسبات التقرب الى الملوك والحكام : لينال منهم لقمة عيش ، وشيئاً من مال ، كما عبر عنها في الأفراح وفي الأتراح. وفي الفخر والمدح والذم ، وهو الهجاء ، وفي الظروف التي تؤثر عليه ، فتجعله يفرح من رؤيتها ويرتاح ، مثل المناظر الطبيعية الجميلة ، والأصوات الجميلة وجمال الانسان .

والشعر الجاهلي الصحيح ، هو حاصل تطور طويل مستمر ، لا يمكن تحديد أوله ، إذ بدأ الشعر مذ بدأ الإنسان يشعر بالفرح وبالسرور وبالتعبير عن عواطفه. وقد فقد القديم منه بسبب عدم تدوينه في حينه ، وبسبب صعوبة بقائه في الذاكرة الى أمد طويل ، ولم يصل منه الينا إلا هذا القليل الذي قيل في عهد لا يرتقي كثيراً عن الإسلام ، وهذا القليل الباقي ، هو الصفحات القليلة الأخيرة من كتاب لا نستطيع أبداً تقدير حجمه ، هو كتاب الشعر الجاهلي ، الذي ختم بتغلب الإسلام على الشرك ، وبموت الجاهلية وظهور دين الله .

أما قول القائلين إنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد في عهد مهلهل ، أو هاشم ، أو عبد المطلب، فرأي لا يقوم على دليل ، وليس له سناد تأريخي ، وإنما هو مجرد رواية رواها رواة الشعر في الإسلام . إذ لا يعقل أن تكون قريحة الجاهليين الذين عاشوا قبل

الإسلام بقرنين أو بقرن ونصف قرن ، قريحة محبوسة محصورة ، حددت بحدود لم تتعدها ولم تتخطها ، فإذا هاجت وماجت بالأحاسيس وبالشعور المرهف ، صاغت حسها هذا ببيت أو ببيتين أو ثلاثة ، ثم توقفت عند هذا الحد لا تتجاوزه أبداً . واذا كان الشعر طبع في الإنسان كما يقولون ونقول ، وهو نوع من أنواع التعبير عن الخاطر ، وجب تصور أن صياغته في قوالب من أبيات شعر ، إنما تكون صياغة منسجمة مع طول وعرض الخاطر صغيراً ، ضئيلاً ، صيغ ببيت أو بأبيات ، وإذا كان طويلاً مبعوثاً عن حس ملتهب جياش ، صيغ بأبيات تزيد عن تلك يتناسب عددها مع حجم ذلك الخاطر . فمن هنا لا نستطيع أن نقول إن شعر قدماء الجاهليين كان أبياتاً لا تزيد على ثلاثة ، وإنهم لم يكونوا يملكون القدرة على نظم ما يزيد على ذلك ، إلى أن جاء (عدي بن ربيعة) التغلبي ، الملقب بالمهلهل ، فوسع الشعر وزاد الأبيات وقصد القصائد . فقول مثل هذا وإن قال به علماء هم أعلم منّا بفنون الشعر وبدروبه ، قول لا يمكن الأخذ به لما ذكرته . أفلم يكن للذين سبقوا المهلهل من العرب لسان مثل لسانه وحس مثل حسه ؟ إذا كان لهم مثل ما كان له ، فيفترض أن يكون تعبيرهم عن عواطفهم ، مثل تعبيره عنها سواء بسواء ، قد يكون قليلاً وقد يكون كثيراً من غير تغيير أو تحديد ولا تقنين ، لأن التحديد يتوقف على طول وقصر الحس الذي يستولي على الشاعر فيصوغه شعراً .

أما اذا قصدوا من قولهم المذكور معنىً ان المهلهل كان أول شاعر وصل شعره الينا أبياتاً زاد عددها على عدد ما وصل الينا من شعر أي شاعر تقدم عليه، وانه أول من رويت له كلمة بلغت ثلاثين بيتاً[1]، فذلك أمر آخر لا صلة له بدعواهم ان الشعر كان قبل المهلهل رجزاً وقطعاً ، فقصده مهلهل ، ثم امرؤ القيس من بعده . وظل الرجز على قصره بمقدار ما تمتح الدلاء ، أو يتنفس المنشد في الحداء حتى كان الأغلب العجلي، وهو على عهد النبي ، فطوّله شيئاً يسيراً وجعله كالقصيد[2].

وهذا معناه عندي ان شعر (المهلهل)، هو أول شعر طويل وصل الى علماء الأخبار من شعر قدماء الشعراء الجاهليين، وأما شعر من سبقه ، فقد فُقد وضاع معظمه،

---

١ الرافعي (٣/١٤) ، المزهر (٢/٤٧٧) .
٢ الرافعي (٣/١٥) .

وموجدوه ، أما (اليمن) ، فإنهم قد ساهموا فيه أيضاً ، حسب زعم أهل الأخبار والأنساب ، لكنهم لم يبلغوا فيه مبلغ ربيعة ومضر .

ويزعم أهل الأخبار ، ان من شعراء ربيعة : (المهلهل) ، والمرقشان ، وسعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيب بن علس . وان من شعراء (قيس) النابغتان ، وزهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه مزرد . وان من شعراء (تميم) (أوس بن حجر) شاعر مضر في الجاهلية ، ولم يتقدمه أحد منهم ، حتى نشأ (النابغة) ، و (زهير) فأخملاه ، وبقي شاعر (تميم) في الجاهلية غير مدافع[1] .

ولا يمثل هذا التنقل المزعوم ترتيباً زمنياً ، بمعنى ان الشعر بدأ بربيعة أولاً ، ثم انتقل منها الى قيس ، ثم انتقل بعدها الى تميم ، إذ يتعارض ذلك مع ما يرويه أهل الأخبار وعلماء الشعر من تعاصر أكثر الشعراء ، ومن نبوغ معظمهم في وقت واحد ، وانما هو قول من أقوال أهل الأخبار المألوفة ، أصله رأي رجل واحد ، حمل عنه بالنص بذكر اسمه أحياناً ، وبدون ذكره أحياناً أخرى ، فلما تواتر في الكتب ، صار في حكم الإجماع ، يقال دون نقد ولا مناقشة الى هذا اليوم .

وما ذكرته عن تنقل الشعر يمثل رأي الرواة العدنانيين ، أما اليمانية ، فترى « تقدمة الشعر لليمن : في الجاهلية بامرىء القيس ، وفي الإسلام بحسان بن ثابت» . « وقال آخرون : بل رجع الشعر الى ربيعة فختم بها كما بدىء بها »[2] . وهو رأي يتعلق بالنسبة الى النسب الأكبر للقبائل ، وترى في الرأيين أثر العصبية للعدنانية أو لليمانية ، فقد صعب على القحطانية المناهضة للعدنانية ، الاعتراف بالتفوق عليها حتى في الشعر ، فزعمت أن الشعر بدأ بها ، وأنه كان من مكارمها القديمة ، وكل مكرمة إنما بدأت بقحطان ، وما عدنان إلا مستعربة أخذت عربيتها من (يعرب بن قحطان) ، وهي دون القحطانية في كل شيء .

وحكم مثل هذا لا يمكن إصداره بالطبع إلا بسند علمي ، وليس في يد أحد حتى يومنا هذا سند جاهلي ، يؤيد رأي هذا أو ذاك ، وقد لا يأتي يوم يمكن

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٣) ، العمدة (٨٦/١) ، المزهر (٤٧٦/٢) .
٢ العمدة (٨٩/١) .

اعطاء رأي علمي فيه . أما ما ذكرته ، فهو نقل لآراء أهل الأخبار ، ورأينا في آرائهم في هذه الأمور معروف ، فنحن لا نأخذ آراءهم مأخذ الجدّ، ولا نثق بها ، وكلها في نظرنا حاصل عصبية ، وقد لعبت العاطفة القبلية دوراً خطيراً في ظهورها ، ونحن لا نستطيع تقديم ربيعة على مضر في الشعر ، ولا تقديم مضر على ربيعة فيه ، لعدم وجود دليل لدينا نتخذه سنداً ومستمسكاً في أيدينا لإثبات أي رأي من هذين الرأيين . أما أن يكون قد بدأ باليمن ، فالمسند ، يعارضه ويناقضه ، إلا إذا اعتبرنا اليمن ، القبائل الساكنة في الشمال ، أي خارج العربية الجنوبية ، والتي يرجع النسّابون نسبها عادة الى اليمن ، وهي قبائل كانت تتكلم بلهجات عربية شمالية ، فذلك أمر آخر ، وأمرها عندنا حينئذ مثل أمر ربيعة ومضر ، لا نستطيع تقديمها على ربيعة ولا على مضر ، ولا نستطيع تقديم ربيعة أو مضر ، للسبب المتقدم ، وهو عدم وجود أدلة لدينا تعيننا في الحكم بتقديم فريق على فريق ، واعطائه الأولوية في قول الشعر .

والشعر في نظرنا موهبة انسانية عامة ، لم تختص بقوم دون قوم ، ولا بأمة دون أمة ، وهي على هذه السجية بين العرب ، لم تختص بربيعة ، حتى تقول ان الشعر بدأ أول ما بدأ بها ، ولا بمضر حتى تقول انه ظهر أول ما ظهر عندها ولا باليمن ، حتى تقول انه بدأ بها وختم بها . وانما هو نتاج قرائح كل موهوب وذي حس شاعري من كل القبائل والعشائر . والشعر كما قلت مراراً شعور وتعبير عن عواطف تخالج النفس ، فكل انسان يكون عنده حس مرهف ، واستعداد طبيعي ، وذوق موسيقي ، يمكن أن يكون شاعراً من أي حي كان ، ولهذا كان الشعراء من قبائل مختلفة ، واذا تقدمت قبيلة على أخرى في كثرة عدد شعرائهم، فليس مردّ ذلك ان تلك القبيلة كانت ذات حس مرهف، واستعداد فطري لقول الشعر ، وان بقية القبائل كانت قبائل غبية بليدة الحس والعواطف، فلم ينبغ بينها مثل ذلك العدد من الشعراء ، فقد تكون هنالك أسباب أخرى نجهلها في هذا اليوم . جعلتنا نتصور انها كانت متخلفة في الشعر ، كأن تكون منازل تلك القبائل بعيدة منعزلة ، لم يتصل بها أحد من جمّاع الشعر ورواته . وهم بين كوفي وبصري ، فلم يصل شعرها اليهم ، فانقطع نتيجة لذلك عنّا ، أو ان تلك القبائل كانت قبائل صغيرة ، لم يكن لها شأن يذكر ، فانحصر شعرها في حدودها ولم يخرج عنها ، فخمل ذكره ، ولم ينتشر خبره بين القبائل الأخرى ، فلما ظهر

الاسلام ، كان قد خفي ومات .

ودليلنا اننا إذا دققنا في هذا الشعر الجاهلي الواصل الينا في الكتب،نجد انه شعر قبائل كبيرة ، لعبت في الغالب دوراً خطيراً في مجتمع ذلك اليوم ، مثل : كندة وبكر ، وأسد ، وتميم ، وتغلب ، ثم هو شعر شعراء كان لهم اتصال وثيق بالعراق في الدرجة الأولى ، أي بملوك الحيرة ، الذين كان نفوذهم يشمل أرضين واسعة ، مثل البحرين ونجد واليمامة في بعض الأحيان ، فكان لقبائل هذه الأرضين اتصال بحكام الحيرة ، ولها مواقف معهم : حسنة أحياناً وسيئة أحياناً أخرى ، وفي مثل هذه المواقف ، يكون للشعراء دور خطير فيها ، فهم بين مادح ، أو ذام قادح ، أو رسول قوم جاء الى الملوك في وفادة لفك أسير ، أو لإصلاح ذات بين ، أو جاء لنيل عطاء ، ونحن لا نكاد نجد شاعراً من الفحول أو من الشعراء المشهورين ، إلا وله صلة بملك أو أكثر من هؤلاء الملوك ، حتى لا يكاد يفلت منهم شاعر . أما ملوك الغساسنة ، فلهم بعد أولئك الملوك صلة بالشعراء ، بل هم دونهم اتصالاً بالشعراء ومرجع ذلك في نظري ان حكم الغساسنة لم يتجاوز بادية الشأم وحدود مملكة البيزنطيين ، فلم يكن لهم لذلك اتصال بقبائل البادية البعيدة عن منطقة نفوذهم ، ولا بقبائل الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، فتقلص مجال اتصالهم بالشعراء ، ولم يصل اليهم إلا الشعراء من أصحاب الحاجات، الذين كانوا يطوفون البلاد ، ويقصدون الموسرين الكرماء أينما كانوا لنيل صلاتهم ثمناً لمدحهم لهم ، وإلا الشعراء الذين غضب ملوك الحيرة عليهم ، أو لم ينالوا منهم تحقيق مطمع وحل مشكل ، أو فك أسير ، فجاءوا لذلك الى الغساسنة خصومهم نكاية بهم ، وإلا بالشعراء الذين أغار قومهم على أرض الغساسنة ، فوقع نفر منهم في أسرهم ، فأرسلهم أهلهم وسطاء ورسلاً عنهم ، للتوسل اليهم بفك أسراهم .

ونحن لو ثبتنا أسماء مواطن شعراء الجاهلية على صورة جزيرة العرب نرى أنها كانت في الحجاز ونجد واليمامة ، والبحرين والعراق . أما بلاد الشأم فقد كانت فقيرة جداً بهم ، بل لا نكاد نجد فيها شاعراً لامع الاسم ، ترك أثراً في الشعر . ويلفت هذا الجدب في الشعر النظر اليه حقاً ، فقد عاشت ببلاد الشأم قبائل كبيرة كان لها شأن كبير في تلك البلاد قبل الاسلام وفي الإسلام ، مثل غسان،وبهراء، وكلب ، وقضاعة ، وتنوخ ، وتغلب ، وقبائل أخرى لعبت دوراً خطيراً في الحروب مع عرب الحيرة ، وفي مساعدة الروم ، كما لعبت دوراً خطيراً في

الفتوحات الإسلامية، فقد ساعدت الروم أولاً ، ثم انضمت الى المسلمين في قتالهم مع البيزنطيين ، وقبائل هذا شأنها لا يعقل الا يكون لها شعر وألاّ ينبغ من بينها شعراء لكثرة عددها ولمنافستها لعرب العراق ، ولكون لسانها هذا اللسان العربي الشمالي . فهل كان عند تلك القبائل شعراء ، لم يصل اسمهم الى علماء الشعر ، فلم يذكروهم لجهلهم بهم في عداد شعراء الجاهلية ؟ فصرنا لذلك لا نعرف من أمرهم شيئاً ! أو أنها كانت مجدبة حقاً لأنها كانت بمنأى عن الشعر والشعراء ، لتحضرها وتأثرها بالنصرانية وبثقافة بني إرم ، فلم توائم تربتها الشعر ، لذلك أجدبت فيه ، ولم ينبت فيها شاعر لامع الاسم !

يقول علماء اللغة : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة ، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ؛ فإنه لم يؤخذ من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب[1] . فالقبائل المذكورة ، وإن كانت من القبائل العربية الكبيرة المرموقة ، إلا أن اقامتها ببلاد الشأم إقامة طويلة ومجاورتها أهل الشأم ، وتأثرها بلسانهم ، واعتناقها النصرانية، وأخذها ديانتها بالسريانية التي سماها أهل الأخبار خطأ العبرانية ، وتحضرها وقرارها والتهائها بالزرع والرعي ، صيرت كل هذه الأمور وأمثالها لسانها عربياً مشوباً برطانة ، ولهذا عرفت بـ « العرب المستعربة » وبـ « مستعربة الشأم » ، عند المسلمين، حتى صارت تلك الرطانة سبباً لإعراض علماء اللغة عن الاحتجاج بلغتها في شواهد القرآن والشعر على نحو ما رأيت .

وقد يكون لتلك القبائل شعر،غير ان علماء اللغة قاطعوه للسبب المذكور ، ولكني لا أستطيع الجزم بذلك ، لعدم ورود إشارة الى هذه الناحية في كتب أولئك

---

١ المزهر (٢١١/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٥٤/١) .

العلماء ولا في كتب أهل الأخبار . ثم اني لاحظت ان أخبار فتوح الشأم لا تذكر شيئاً من شعر القبائل المستعربة التي حاربت مع الروم المسلمين ، أو التي حاربت مع المسلمين الروم،وحيث اننا نعرف ان من عادة العرب الاستعانة بالشعر والرجز أثناء غزوها وقتالها ، لذلك تلفت هذه الملاحظة الأنظار ، وتحمل المرء على البحث في سبب وجود هذا الفقر في شعر القتال في فتوح الشأم ، بينما نجد شعراً غزيراً وافراً أنتجته قرائح المتقاتلين في حروب العراق نظمه المحاربون المسلمون ، ومحاربو القبائل العراقية الوثنية والمتنصرة التي حاربت مع الفرس ، أو التي حاربت مع المسلمين أو تلك التي انضمت الى المسلمين فيما بعد .

وسبب هذا الفقر في نظري ، ان قبائل بلاد الشأم ، كانت قد تأثرت بلغة وبثقافة أهل الشأم ، وبالنصرانية المتأثرة بالسريانية وبالرومية وقد غلبت عليها نزعة الاستقرار ، فاستقرت في حواضر حضرية كبيرة مثل دمشق وحمص وحلب ، وقنسرين[1] ، وغيرها ، وهي حواضر معظم سكانها من السوريين والروم ، لا من العرب ، وكانت نصرانية ، صلواتها بالسريانية ، وثقافتها سريانية يونانية فتأثرت بثقافة من عاشت بينهم ، وانصرفت الى الزراعة ورعي الماشية ، وشابت لهجتها رطانة إرمية ، ولم تحفل بالشعر احتفال بقية العرب به . لذلك لم يظهر من بينها شاعر فحل .

أما عرب العراق ، فقد كانوا عرباً وأعراباً ، عربهم في قرى عربية،حكامها من العرب ورجال دينها نصارى ، ولكنهم نصارى عرب أو مستعربة ، علموا العربية في كنائسهم ، ونشروا الخط العربي في خارج العراق ، وتفقهوا في علوم العربية ، وفي جملة هذه العربية الشعر . وأما أعرابهم ، فقد كان قوم منهم نصارى والباقون على الشرك وعلى سمة الأعراب منذ وجدوا من الميل الى الاستقلال وعدم الخضوع لحكم أحد ، ومن الاعتزاز بالنفس والتعبير عن الأحاسيس المرهفة بقول الشعر ، وأما حكامهم ، وهم ملوك الحيرة ، فكانوا على سنة كبار سادات القبائل من استقبال الشعراء والإستماع الى إنشادهم ، وتلبية طلباتهم ، وكان من صالحهم اصطناع الشعراء لامتداد ملكهم الى نجد واليمامة أحياناً والى البحرين وهي من أهم مواطن الشعر في الجاهلية ، والشعراء أبواق الدعاية في ذلك العهد ، وقد

---

١ فتوح البلدان (١٥٠) .

كان ملوك الحيرة شعراء ، ينظمون الشعر ،ولهم اطلاع ووقوف على شعر الشعراء، وكان من اتصل بهم من سادة الحيرة شعراء كذلك ، لهم شعر مدوّن في كتب الأدب ، وفيه ما قالوه في فتوح المسلمين للعراق ، فمن هنا ظهر الشعر في العراق، على حين خمل في بلاد الشأم .

ولم تكن القبائل سواء في الشعر وفي عدد شعرائها ، وهـذا شيء طبيعي ، لا يختلف فيه اثنان . وقد لاحظ ذلك علماء الشعر ، فأشاروا الى أسماء قبائل أنجبت في الشعر وأخصبت في الشعراء ، وكان (الجاحظ) الكاتب الذكي ممن لاحظ ذلك ، فقال : « وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إخوتهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء رجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وانهم أهل مدر ، وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد تعرف ان طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة .

وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقلّ ، فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب ، وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وانما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والاعراق مكانها .

وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف ، يجرون مجاري ملوك اليمن ، ومجاري سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر . ولهم في الاسلام شعراء مفلقون .

وبنو بدر كانوا مفحمين ، وكان ما أطلق الله به ألسنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم .

وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . ولم تمدح قبيلة في الجاهلية ، من قريش ، كما مُدحت مخزوم ، ولم يتهيأ من الشاهد والمثل لمادح في أحد من العرب ، ما تهيأ لبني بدر .

وقد كان في ولد زرارة لصلبه ، شعر كثير ، كشعر لقيط وحاجب وغيرهما

من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا لحصن ، ولا عيينة بن حصن ، ولا لحمل بن بدر شعر مذكور[1] .

وقال (يونس بن حبيب) الضبي ، « ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس ، وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو »[2] . وذكر (الجاحظ) أن (عبد القيس) بعد محاربة (إياد) تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة في العرب . ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي عدن الفصاحة[3] ؛ ولابن سلام رأي في هذا الموضوع إذ يقول : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان »[4] .

وجاء أن أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السروات ، وهن ثلاث ، وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ، فأولها هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة السراة الوسطى ، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة ، وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نضر بن الأزد[5] . وذكر أن قبيلة (هذيل) هي في طليعة القبائل عدداً في الشعراء ، فقد روى العلماء لأربعين شاعراً منهم في الجاهلية والإسلام ، وهو عدد قياسي بالنسبة الى عدد الشعراء الذين أنجبتهم القبائل الأخرى[6] ، وقيل عنها إنها أعرقت في الشعر[7] . وروي أن سائلاً سأل (حسان بن ثابت) : « من أشعر العرب ؟ فقال : أراحلاً أم حياً ؟ قيل : بل حياً ؛ قال : أشعر الناس حياً هذيل »[8] . وكان (الشافعي) يحفظ

---

١ الحيوان (٤/٣٨١ وما بعدها) .
٢ الرافعي (٣/٢٠) .
٣ الرافعي (٣/١٩) .
٤ ابن سلام (٢١٧) .
٥ الرافعي (٣/١٨) ، المزهر (٢/٤٨٣) .
٦ الرافعي (٣/١٩) .
٧ تاج العروس (٨/١٦٦) ، (هذل) .
٨ المزهر (٢/٤٨٣) .

عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها »[1] . وقد عدّت (هذيل) أشعر القبائل في رأي بعض العلماء[2] .

وذكر الأخباريون ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت له الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها[3] . وقالوا : إن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الاسلام[4] .

وروي عن (معاوية) انه كان يقول : فضل المُزَنيّون الشعراء في الجاهلية والاسلام . وكان يقول : أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى ، وأشعر أهل الاسلام ابنه كعب ، و (معن بن أوس) . و (معن) شاعر مجيد من مخضرمي الجاهلية والاسلام[5] .

فبعض العرب مخصبين في الشعر ، وبعضهم أقل خصباً ، وقد رجع (الجاحظ) سبب ذلك الى الموهبة والطبع ، فكما ان النبوغ يتفاوت بين انسان وانسان ، كذلك يتفاوت الشعر بين قبيلة وقبيلة ، ورجع (ابن سلام) ذلك الى عامل البداوة والحضارة ، فالأعراب متشاجرون مكثرون من الغارات يغزو بعضهم بعضاً ، والشعر يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، أما الحضر ، فإنهم لا يميلون الى الحروب والمعارك ، ولذلك يقلّ شعرهم على رأيه . ولهذا السبب قلّ شعر قريش ، لأنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا . فالحرب تهيج العواطف ، وتحمل الناس على التحمس لها والدفاع عن أنفسهم وتكديس كل القوى للتغلب على العدو ، والشعر من أهم وسائل تسعير نار الحرب .

وقد أشار أهل الأخبار الى بيوت ذكروا أنها اشتهرت بقول الشعر ، وبظهور المعرقين فيها . وضربوا أمثلة عليها ببيت (أبي سلمى) . فقد كان شاعراً واسمه ربيعة ، وابنه زهير بن أبي سلمى ، وله خؤولة في الشعر : خاله بشّامة بن الغدير ، وكان كعب وبجير ابنا زهير شاعرين ، وجماعة من أبنائهما .

---

١ المزهر (١/١٦٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٤٠) .
٣ الاغاني (١/٣٥) .
٤ طبقات الشعراء (١٠) .
٥ الاصابة (٣/٤٧٥) ، (رقم ٨٤٥٢) .

وضربوا المثل ببيت (حسان بن ثابت) ، فقد كان أبوه وجده وأبو جده شعراء ، وابنه عبد الرحمن شاعر ، وسعيد بن عبد الرحمن شاعر .

ومن البيوتات التي عرفت بالشعر : بيت (نهشل بن حرّيّ بن ضمرة بن جابر بن قطن) ، ستة ليس يتوالى في بني تميم مثلهم شعراً ، وكذلك بيت (النعمان بن بشير) ، وكانت أمه (عمرة بنت رواحة) شاعرة ، وخاله (عبدالله ابن رواحة) أحد شعراء الرسول[1] .

ومن بيوتات الشعر المعرقة في الجاهلية والإسلام ، (آل الحارثي) ، منهم (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص) الحارثي . وكان شاعراً من شعراء الجاهلية، فارساً سيّد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي كان قائدهم يوم (الكلاب) الثاني فأسرته (تيم) وقتلته . ومنهم (اللجّلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مُسهر) فارس شاعر ، وهو الذي طعن (عامر بن الطفيل) في عينه يوم (فيفَ الريح) . ومنهم ممن أدرك الإسلام (جعفر بن عُلْبة بن ربيعة بن الحارث بن عبد يغوث) وكان شاعراً صعلوكاً ، أخذ في دمٍ فحبس في المدينة ثم قتل صبراً[2] .

وقد تعرض (جرجي زيدان) لموضوع تنقل الشعر في الأقاليم ، فقال : « واذا أحصيت شعراء الجاهلية الذين بلغنا خبرهم بالنظر الى المواطن ، رأيت نحو خمسيهم من نجد ، والخمس الثالث من الحجاز ، والرابع من اليمن والباقي من العراق ، وفئة قليلة من البحرين واليمامة وتهامة »[3] ، وذلك على اعتبار ان القبائل: (كندة) ، و (أسد) ، و (مزينة) ، و (عبس) ، و (سلم) ، و (عامر) ، و (طيء) ، و (جشم) ، و (ضبيعة) ، و (سعد) ، و (ضبة) ، و (جعدة) ، و (باهلة) ، و (تميم) ، و (عكل) ، و (بكر) ، و (مرة) ، و (نبهان) ، من قبائل نجد ، وان (ذبيان) ، و (هذيل) ، و (الأوس) ، و (الأزد) من الحجاز ، وان (يشكر)، و (تغلب) ، و (العباد) ، و (تميم) ، و (بكر) ، و (إياد) ،

---

١ العمدة (٣٠٦/٢) .
٢ الخزانة (٢٠٢/٢ وما بعدها) .
٣ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٤/١) .

من العراق ، وان (بكراً) ، و (ضبعاً) ، من البحرين ، وان (بني ثعلبة) من اليمامة ، وان (فهماً) ، و (مزينة) من تهامة[1] . وهو تقسيم لا يمكن الأخذ به في هذا اليوم ، وفيه أخطاء ، وقد بني على روايات لأهل الأخبار ، تعارضها روايات أخرى لهم ، لم يقابلها أو يطابق بعضها ببعض ، فوقع لذلك في أوهام .

ونلاحظ أنه سار على رواية أهل الأخبار في تنقل الشعر في القبائل ، فجعل (ربيعة) أول من نبغ في الشعر ، ثم حوله إلى قيس فتميم . ثم ظهر الشعر بعد ذلك على رأيه في بطون مدركة من مضر ، وهي : هذيل ، وقريش ، وأسد ، وكنانة ، والدئل وغيرهم . وكلهم من أهل البادية ، أما أهل المدن ، فقلما نبغ بينهم شاعر فحل ، وأشعرهم (حسان بن ثابت)[2] .

ومن أهم قبائل ربيعة وبطونها : بكر ، وتغلب ، وعبد القيس ، والنمر بن قاسط ، ويشكر ، وعجل ، و (جشم) ، وحنيفة ، وقيس بن ثعلبة ،وضبيعة ، وشيبان ، وذهل ، وسدوس . ومن أشهر شعراء هذه المجموعة المرقشان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، خال طرفة ، والأعشى ، والمسيب بن علس وآخرون . وقد جعل (زيدان) عددهم (٢١) شاعراً[3] .

وقد نزل بنو قيس بن ثعلبة وبنو حنيفة اليمامة . ومن بطون قيس بن ثعلبة : سعد بن ضبيعة ، رهط الأعشى ، ومن ديارهم (منفوحة) . وكانوا بين الحياة الحضرية والحياة الأعرابية ، يرعون الإبل والغنم ، إلا أنهم أصحاب نخيل . أما حنيفة ، فكانت تزرع وترعى ، وقريتهم الكبرى (حجر) ، وكانوا يزرعون الحبوب ، ويمونون الأعراب ومكة بها . وكانت النصرانية قد وجدت سبيلها بينهم ، وقد افتخر (الأعشى) بقومه على (إياد) ، لأنهم أصحاب مال ، أما (إياد) ، فأصحاب زرع ينتظرون حصاد حبهم ، وذلك في هجائه لهم بقوله :

---

١ راجع (الصفحة ٨٠ فما بعدها الى انتهاء ٨٤) من الجزء الاول .
٢ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤ وما بعدها) .
٣ العمدة (١/٨٦ وما بعدها) ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤ وما بعدها) ، (تنقل الشعر في القبائل) .

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارها تكريت تنظر حبّها أن يُحصدا
جعل الإلٓهُ طعامنا في مالنا رزقاً تضمنه لنا أن ينفدا
مثلَ الهضاب جزارة لسوفنا فإذا تُراع فإنها لن تطردا
ضمنت لنا أعجازهن قدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجردا [1]

وقيس قبيلة كبيرة من بطونها : عبس ، وذبيان ، وغطفان ، وعدوان ، وهوازن ، وسليم ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة ، ونمير ، وجعدة ، وقشير ، وعقيل . وكانت هذه القبائل في نجد وأعالي الحجاز ، وقد نبغ فيها جماعة من فحول الشعراء ، منهم النابغتان ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير ابنه ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه (مزرد) ، وخداش بن زهير ، وعنترة العبسي وغيرهم . وعندهم ان أشعر قيس الملقبون من بني عامر والمنسوبون الى أمهاتهم من غطفان[2] . وقد جعل (زيدان) عدد شعراء قيس (٣٠) شاعراً . وقال : « اذا اعتبرت عدد شعراء الجاهلية بالنظر الى القبائل،كانت قيس أكثرها شعراء ، تليها اليمن فربيعة ، فمضر فقريش فقضاعة فإياد »[3] .

وأما (تميم) ، فقبائل كثيرة من مضر ، أشهرها : مازن ، ومالك ، وسعد ، ودارم ، وبهدلة ، ويربوع ، وكعب ، ومجاشع ، وزرارة . وكانت منازلها في القديم تهامة ، ثم نزحت الى مواضع أخرى من جزيرة العرب ، فسكن بعض منها في اليمامة ، وبعض في العربية الشرقية ، وقسم بنجد ، ونزح قوم منهم الى العراق ، وأقاموا في البادية . وقد لعبت تميم شأن القبائل الكبيرة دوراً خطيراً في أحداث الجاهلية القريبة من الاسلام . ومن شعرائها : أوس بن حجر[4] . وجعل (زيدان) عدد شعرائها (١٢) شاعراً[5] . ولكنك لو سجلت أسماء الشعراء الذين وردت أسماؤهم في كتب الأدب والتأريخ ، لوجدت ان عدد شعراء تميم

---

١ ديوان الاعشى ، القصيدة رقم ٣٤ ، العصر الجاهلي (٣٣٤) .
٢ الاغاني (٢/٩٢) ، زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٥) ، العمدة (١/٨٨) .
٣ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٥) .
٤ العمدة (١/٨٨) .
٥ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٥) .

يزيد على العدد المذكور بكثير . فتميم من القبائل المخصبة بالنثر وبالنظم. ولكلامها رأي ومقام عند علماء اللغة .

ومن مضر أيضاً : هذيل ، وأسد ، وكنانة ، وقريش ، والدئل . وهذيل من القبائل الساكنة في هضاب وجبال غير بعيدة عن مكة ، وقد عدّ لسانها من الألسنة العربية الجيدة ، واشتهرت بكثرة شعرها وبجودته ، وقد جمع في دواوين، وعني العلماء بجمعه وبشرحه ، وبقيت منه بقية طبعت[1] .

وأما القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى اليمن ، فهي : كندة ، وطيء ، والأشعر ، وجذام ، والأزد ، ولخم ، ومذحج ، وخزاعة ، وهمدان ، وغسان والأوس والخزرج[2] . ولبعض منها شعر وشعراء وردت أسماؤهم في ثنايا هذا الكتاب .

أما ميزات لغاتهم وخصائص نحوهم وصرفهم ، فلا نعرف عنها غير قليل . لعدم تطرق علماء اللغة الى هذه المميزات ، خلا ما ذكروه من أمور اختلفت فيها (طيء) عن غيرها في مثل (ذي) الطائية ، وغير ما ذكروه من تفردهم في تفسير معاني بعض الألفاظ ، مثل (التخوف) بمعنى التنقّص في لغة أزد شنوءة[3] .

ولدراسة شعر هذه القبائل ، دراسة لغوية مقارنة ، أهمية كبيرة بالنسبة للباحث في لغة العرب ، إذ يستطيع بها من الوقوف على مزاياها ومفارقاتها بالنسبة الى العربية المعهودة ، ومن الوقوف على الروابط اللغوية التي تجمع بين هذه اللغات التي يرجع أهل الأنساب والأخبار أصل المتكلمين بها الى اليمن .

وأما مجموعة قضاعة ، فجهينة ، وضجعم ، وتنوخ ، وكلب[4]. وهي مجموعة لم تنجب عدداً كبيراً من الشعراء ، ولم يحفل علماء اللغة بلغتها ، إذ لا نجد للهجتها ذكراً خطيراً في كتب اللغة ، فلم يشيروا اليها في جملة القبائل التي ركنوا الى الأخذ بلسانها للاستشهاد به في شواهد اللغة والنحو والصرف . ويظهر ان احتكاكها

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٨٢ وما بعدها ، ١٠٤) .
٢ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٦) .
٣ تفسير الطبري (١٤/٧٧) ، (بولاق) .
٤ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٦) .

بالنبط وبالآراميين وأمثالهم ، قد عرض لسانها الى الأخذ من ألسنتهم والى التأثر بهم ، حتى بان ذلك عليه ، وهذا ما حمل علماء اللغة على عدم الاستشهاد به في جملة الشواهد . وأنا لا أستبعد احتمال وجود خصائص به ، ميزته عن العربية القرآنية ، بدليل ان أعراب الصفا (الصفاة) ، وهم من أعراب بلاد الشأم ، كانوا يتكلمون ويكتبون بعربية مباينة لعربيتنا ، وقد تكلمت عن عربيتهم في الجزء السابع من كتابي القديم : تأريخ العرب قبل الاسلام ، وأرض الصفا هي من مواطن تلك المجموعة .

وذهب (جرجي زيدان) ، كما سبق أن قلت ، الى أن قيساً أكثر القبائل عدداً في شعرائها ، تليها اليمن ، فربيعة ، فمضر ، فقريش ، فإياد . وقدر عدد شعراء الجاهلية الذين وصلتنا أخبارهم بـ (١٢٥) شاعراً ، وزّعهم على هذا النحو : ثلاثين شاعراً في قيس ، وثلاثة وعشرين شاعراً في اليمن ، وواحداً وعشرين شاعراً في ربيعة ، وستة عشر شاعراً في مضر ، واثني عشر شاعراً في تميم ، وعشرة شعراء في قريش ، وأربعة شعراء في قضاعة ، وشاعرين في إياد ، وشاعر واحد من أصل غير عربي ، أي مولى[١] .

وقد سمى (أبو الفرج) لمضر سبعة وستين شاعراً ، ولليمن أربعين ، ولربيعة ثلاثة عشر : وسمّى شعراء آخرين ، منهم من يتصل بجديس ، ومنهم من يتصل بجرهم[٢] .

نرى مما تقدم أن الشعراء كانوا من مضر ، ومن ربيعة ، وهما من عدنان ، كما كانوا في القبائل القحطانية . ويذكر أهل الأخبار أن حظ القبائل المضرية من الشعر ، كان أحسن حالاً من حظ ربيعة وقحطان ، وأن حظ قبائل كل مجموعة من هذه المجاميع الثلاث كان متفاوتاً ، فبينها المكثر ، وبينها المقل . ولا نستطيع إرجاع سبب تفوق القبائل المضرية على قبائل ربيعة أو قحطان الى اللغة ، لأننا لا نملك حتى الآن صورة واضحة علمية عن أصل اللغة العربية التي نظم بها الشعر والتي نزل بها القرآن ، حتى نستطيع البت بموجبها في موضوع هذا التفوق . وإذا جارينا أهل الأنساب في تقسيمهم العرب الى عدنانيين وقحطانيين ، جاز لنا حينئذ

---

١ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

٢ طه حسين ، في الادب الجاهلي (٢٥٦) .

القول ، بأن شعر القبائل القحطانية قد قلّ عن شعر عدنان من مضر وربيعة ، بسبب استعراب هذه القبائل ، أي أخذها لغة العدنانيين لغة لها ، وتركها لغتها الأصلية لغة أهل اليمن ، بسبب اتصالها بالقبائل العدنانية ، فمن ثم قلّ شعرها بسبب هذا الاستعراب . ولكن ماذا يكون جوابنا عن تخلف ربيعة في الشعر عن مضر ، وربيعة أخت مضر ، في عرف النسابين ، ولغتها مثل لغة مضر ؟

والذي أراه ، ان البت في مثل هذه المشكلات ، هو أمر لا يمكن أن يكون علمياً في الوقت الحاضر ، فقد رأيت ان الأنساب حاصل تكتلات سياسية ، وتجمعات قبلية ، وانها لم تكن حاصل نسب بالمعنى المفهوم من لفظة (نسب) ، بمعنى الانحدار من صلب والديْن ، ورأيت ان العرب كانوا يتكلمون قبل الاسلام بلهجات متباينة ، حصرناها في مجموعات استنبطناها من الكتابات الجاهلية ، ولكننا لا نستطيع أن نقول انها تشمل كل لهجات العرب ، فقد عثر حديثاً على كتابات جديدة لم تدرس بعد دراسة علمية كافية حتى نقول رأينا فيها ، وقد يعثر في المستقبل على كتابات أخرى ، قد تزيد في عدد ما نعرفه من المجموعات اللغوية العربية الجاهلية . وفي ظروف كهذه يكون من الصعب علينا الموافقة على ما يذهب اليه أهل الأخبار وما يذهب اليه التابعون لهم من المحدثين من تنقل الشعر في القبائل ومن توزع الشعراء بين مضر وربيعة وقحطان . والرأي عندي ان من الواجب علينا في الوقت الحاضر لزوم اجراء مسح علمي دقيق للهجات العرب في جزيرة العرب ، بالبحث في كل مكان عن الكتابات الجاهلية وعن كتابات صدر الاسلام ، وبدراسة كل ما كتبه علماء اللغة عن اللغات العربية في الكتب المعروفة وفي الكتب التي قد تكون مؤلفة بلهجات أهل العربية الجنوبية أو غيرها في الاسلام ، وبدراسة اللهجات الباقية ، ولا سيما اللهجات المنعزلة المتميزة بمميزات خاصة ، واستنباط مزاياها وعلاقتها باللهجات القديمة ، ثم غربلة كل هذه الدراسات لاستخلاص المجاميع اللغوية منها ، وتحديد المواضع التي كانت تتكلم بهذه المجموعات ، وبذلك نستطيع تكوين رأي عن لغة الشعر ، وعن القبائل التي كانت تتكلم بها ، وصارت لهجتها لهجة الشعر عند ظهور الاسلام .

وأغلب شعراء الجاهلية من أهل الوبر ، أما شعراء أهل المدر فأقل منهم عدداً . ولم يظهر بين شعراء أهل المدر شاعر رفعه علماء الشعر وعشاق الشعر الجاهلي الى

مرتبة الشعراء الفحول من رجال الطبقة الأولى[1] من طبقات الشعراء الجاهليين. وهم يقدمون شعراء البادية على شعراء الأرياف ، ولا سيا شعراء الريف المتصل بالنبط والأعاجم . ولهذه النظرة التي تحمل طابع الغمز في صحة ألسنة عرب الأرياف ، تحفظ أكثر علماء العربية في موضوع جواز الاستشهاد بشعر شعراء الحيرة مثلاً ، لاتصال أهلها بالنبط ولاختلاطهم بالأعاجم .

---

١ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

الفصل السابع والخمسون بعد المئة

أوائل الشعراء

يقول علماء الشعر : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة »[1] . ثم تزايد عدد الأبيات وتنوعت طرق الشعراء في نظم الشعر ، بتقدم الزمان،وبازدياد الخبرة والمران ، وبتقدم الفكر ، فظهرت القصائد المقصدة الطويلة ، التي توّجت بالمعلقات . « قال الأصمعي : أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم ضمرة ، رجل من بني كنانة ، والأضبط بن قريع » . فهؤلاء هم أوائل الشعراء الجاهليين في نظر (الأصمعي) ، ممن نظم كلمة بلغ عدد أبياتها ثلاثين بيتاً فما بعدها . « وقال ابن خالويه في كتاب ليس : أول من قال الشعر ابن خدام »[2] .

وذكر بعض العلماء ان القصائد انما قصدت ، والشعر انما طول في عهد (عبد المطلب) أو (هاشم بن عبد مناف) ، وذلك يدل على إسقاط عاد وثمود وحمير وتبع[3] . ولم يذكروا اسم أول من قصد القصائد وطوّل الشعر ، ولكن رأى معظم علماء الشعر ان « المهلهل » هو أول من قصّد القصائد وأول من قال كلمة تبلغ

---

١ الشعر والشعراء (١/٤٨) ، (دار الثقافة) ، المزهر (٢/٤٧٤) ، (أولية الشعر) .

٢ المزهر (٢/٤٧٧) .

٣ المزهر (٢/٤٧٤) .

ثلاثين بيتاً من الشعر . وزعم بعضهم ان الأفوه الأودي ، أقدم من المهلهل ، وهو أول من قصد القصيد[1] . واذا ذهبنا مذهب من يقول إن القصائد انما ظهرت في أيام (عبد المطلب) أو (هاشم) ، فيكون ذلك قبل الهجرة بمائة سنة على الأكثر[2] .

وزعمت بكر بن وائل ان أول من قال الشعر وقصد القصيد ، هو (عمرو بن قيئة) ، وكان في عصر (مهلهل بن ربيعة) ، وعُمر حتى جاوز التسعين . وكان (امرؤ القيس) ، قد استصحبه لما شخص الى قيصر ، فمات في سفره ذلك[3] .

وذكر (ابن قتيبة) ان من قديم الشعر قول (دُويد بن نَهد القضاعي) :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلىً أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته يا رب نهب صالح حويته
ورب عبل خشن لويته

وذكر من بعده اسم : (أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان) ، ثم الحارث ابن كعب[4] .

ولم يكن المذكورون أول من قصد القصيد ، وتفنن في أبواب الشعر ، وإنما هم أقدم من وصل اسمه الى مسامع علماء الشعر ، فصاروا من ثم أقدم شعراء الجاهلية . وقد نسب الى (زهير بن أبي سلمى) قوله :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً أو معاداً من قولنا مكرورا

وإذا صح ان هذا البيت هو من شعره حقاً ، دلّ على اعتقاد الشاعر ومن كان في أيامه بقدم الشعر ، وبتقدمه وبتطوره ، وبتفنن الشعراء الذين عاشوا قبله ، في طرق الشعر وذهابهم فيه كل مذهب ، حتى صار من جاء بعدهم من الشعراء عالة عليهم فلا يقول إلا معاراً ، أو معاداً من الشعر مكروراً . والى هذا المعنى ذهب (عنترة) في قوله :

---

١ المزهر (٢/٤٧٧) .
٢ الرافعي (٣/١٤) .
٣ المرزباني ، معجم (٣ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (١/٤٨ وما بعدها) .

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدارَ بعد توهم

فقد سبق الشعراء (عنترة) في قول الشعر ، وفي الإبداع والتفنّن به ، حتى لم يتركوا له شيئاً جديداً ليقوله .

ونجد الشاعر (لبيداً) ، يشير في شعره الى الشعراء الذين تقدموا عليه، ويقول عنهم انهم سلكوا طريق مرقش ومهلهل ، حيث يقول :

والشاعرون الناطقون أراهم   سلكوا طريق مرقش ومهلهل[1]

ولقد تعرض (الفرزدق) في قصيد له الى من تقدم عليه من الشعراء ، فقال :

وهب القصائدَ لي النوابغُ إذ مضوا   وأبو يزيد وذو القروح وجَرولُ
والفحل علقمةُ الذي كانت له   حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنه   ومهلهل الشعراء ذاك الأول
والأعشيان كلاهما ومرقش   وأخو قضاعة قول يُتَمثَّل
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى   وأبو دُؤادٍ قوله يتنخل
وابنا أبي سُلْمى زهيرٌ وابنه   وابن الفريعة حين جد المقول
والجعفريُّ وكان بشر قبله   لي من قصائده الكتابُ المجمل
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً   كالسّمّ خالط جانبيه الحنظل
والحارثي أخو الحماس ورثته   صَدْعاً كما صدع الصّفاة المعول[2]

فهؤلاء هم من أقدم الشعراء العرب الذين وصل خبرهم الينا على وفق هذه الأخبار والروايات . وهم ونفر آخر من أمثالهم قد عاشوا في أيام لا نستطيع أن نبتعد بها عن الاسلام بأكثر من قرن أو قرن ونصف قرن. وقد عسر على الذاكرة حفظ شيء عن أخبارهم وأيامهم ، فلم تذكر عنهم غير أسمائهم وغير شيء يسير جداً عنهم ، وخلا أبيات ، لا ندري أهي من نظمهم حقاً ، أم هي من نظم

---

١ البيان والتبيين (١٨٣/٢) ·
٢ ديوان الفرزدق (٧٢٠) ، نقائض (٢٠٠) ·

من تحدث عنهم ! وعلى موجب روايات أهل الأخبار تكون تلك الأبيات أقدم ما عندنا من شعر عربي .

وقد ولع بعض المحدثين على وضع سنين لتثبيت سنين مواليد ووفيات الشعراء، واكتفى بعضهم بوضع سنين لوفياتهم ، وفعلهم هذا لا يستند الى أساس علمي ، لأننا لا نملك أدلة مقبولة صحيحة ، تخولنا حتى وضع مثل هذه الأرقام ، ثم إن في الكثير من هذا المروي عن حياة الشعراء ما هو غير صحيح ، ولهذا فليس من المعقول أبداً ، وضع سنين لتحديد مواليد ووفيات أولئك الشعراء ، والشيء الوحيد الذي نستطيع فعله هذا اليوم هو أن نشير الى زمان من عاصروهم من الملوك كملوك الحيرة والغساسنة ، فنحن على شيء من العلم بأوقات حكمهم ، وأن نربط بين أيامهم وبين الحوادث الجسام التي أدركوها أو ساهموا فيها .

ونحن لا نستطيع ترتيب الشعراء ترتيباً زمنياً يستند على سنوات الوفيات، فنقدم شاعراً على شاعر آخر استناداً الى سنة الوفاة ، لأننا لا نملك نصوصاً فيها سني الوفاة . ثم إن حياة أقدم شاعر جاهلي لا يمكن أن تتجاوز المائة والخمسين سنة عن الاسلام على أكثر تقدير ، وان أكثرهم قد كانوا متعاصرين ، وان بين حياة الشاعر القديم منهم ، وبين الشاعر المتأخر ، فترات غير طويلة ، تتطاول على العشرة سنين أو العشرين ، وهي أزمنة لا تعدّ شيئاً بالنسبة الى تأريخ هذا الشعر القصير الأجل .

ويجب ألا تخدعنا بعض العبارات التي نقرأها في كتب الأدب مثل قولهم : « وهو شاعر جاهلي قديم » ، أو « هو شاعر قديم » ، أو « هما قديمان »[1]، أو « وهو جاهلي قديم »[2] ، وأمثال ذلك من تعابير تشير الى قدم الشاعر أو الشعراء ، فنأخذها على الصحة ، ونقول بقدم الشاعر ، أو الشاعرين ، أو الشعراء، فإن أكثر من ذكر أهل الأخبار أنهم من الشعراء القدماء ، هم من الذين كانوا في أيام حكم الملك (عمرو بن هند) ، وقد كان حكم هذا الملك فيما بين السنة (٥٥٤) والسنة (٥٦٩) للميلاد . وإذا ما تذكرنا أن ميلاد الرسول كان في سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ، عرفنا إذن أي قدم هو هذا القدم الذي توهموه .

---

١ الشعر والشعراء (٣٠٢/١) .
٢ الشعر والشعراء (١٩٢/١ ، ٢٩٤) .

خذ ما قاله (ابن قتيبة) مثلاً عن (زهير بن جناب) سيد (كلب) وهو في نظره من الشعراء المعمرين ، تراه يقــول : « وهو جاهلي قديم . ولما قدمت الحبشة تريد هدم البيت خرج زهـير فلقي ملكهم ، فأكرمه ووجهه الى ناحيــة العراق يدعوهم الى الدخول في طاعته ... »[1] . ولو جاريناه وأخذنا بصحة الخبر المزعوم ، نكون قد جعلناه حيــاً في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، فقدوم الحبشة تريد هدم البيت ، كان في عام الفيل ، أي سنة (٥٧٠) أو(٥٧١) للميلاد ، أي العام الذي ولد فيه الرسول ، فهل يعد (زهير بن جناب) اذن (جاهلي قديم) ؟ وقد أدرك على حد قول (ابن قتيبة) ميلاد الرسول ؟ ثم خذ ما قاله عن (ابني خذاق) ، تراه يقول : « وهما قديمان ، كانا في زمن عمرو بن هند »[2] ، ثم خذ ما قاله عن (سلامة بن جندل) ، إذ قال عنه : « جاهلي قديم » ، وجعل أيامه في عهد (عمرو بن هند)[3] ، وقـد عرفنا أيام حكم (عمرو بن هند) .

ثم خذ ما قاله عن (عبيـد بن الأبرص) ، تراه يقول : « وكان عبيــد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين ، وشهد مقتل حجـر أبي امرىء القيس »[4] ، أو خذ ما ذكره عن (عمرو بن قميئة) ، حيث يقول : « وهو قديم جاهلي، كان مع حجر أبي امرىء القيس)[5] : بل خذ ما ذكـره عن (امرىء القيس ابن حارثة بن الحمام بن معاوية) المعروف بـ (ابن حمام) أو (ابن حزام) ، أو (ابن خذام) ، الذي يقول عنه الشعراء انه أول من بكى الديار عند العرب، وانه عاش قبل امرىء القيس[6] ، ترى أهل الأخبار يذكرون انـــه كان معاصراً للشاعر (المهلهل)[7] ، خال (امرىء القيس) الكندي . واذا علمنا ان حـكم ملوك كندة للحيرة ، كان ما بين السنة (٥٢٥) والسنة (٥٢٨) للميلاد ، وان وفاة (الحارث) والد (حجر) والد (امرىء القيس) الشاعر الكندي ، أي

---

١ الشعر والشعراء (٢٩٤/١) .
٢ الشعر والشعراء (٣٠٢/١) .
٣ الشعر والشعراء (١٩٢/١) .
٤ الشعر والشعراء (١٨٧/١) .
٥ الشعر والشعراء (٢٩٢/١) .
٦ الشعر والشعراء (٦٨/١ وما بعدها) .
٧ الخزانة (٢٣٥/٢) ، (بولاق) .

جد الشاعر ، قد كانت في سنة (٥٢٨) للميلاد ، وان قتل (حجر) قد وقع بعده ، استطعنا الحكم بأن أولئك الشعراء المذكورين قد عاشوا في النصف الأول من القرن السادس للميلاد ، وان حياة أقدم واحد منهم ، لا يمكن أن تتجاوز قرناً واحداً قبل الاسلام ، مهما بالغنا في التقدير .

وأما ما زعمه أهل الأخبار عن بعض أولئك الشعراء ، من انهم كانوا من المعمرين ، وان منهم من عمّر أكثر من ثلثمائة سنة ، وان المعمر في نظرهم لا يعدّ معمراً إلا اذا زاد عمره على المائة والعشرين عاماً ، فأترك أمر تصديقه الى القارىء ، إن شاء أخذ به ، متمنياً له أيضاً عمر المعمرين وزيادة ، وإن شاء رفضه ، أما أنا ، فلست من حزب الذين يعتقدون برأي أهل الأخبار في العمر وفي المعمرين ، ولا أريد أبداً أن أكون من أولئك المعمرين .

وقد قسم (محمد بن سلام) الجمحي المتوفى سنة (٢٣٢) الشعراء الى طبقات، ضمت كل طبقة جماعة من الشعراء،رأى أن بينها تشابهاً وتقارباً فجمعهم لذلك في طبقة واحدة ، أما (ابن قتيبة) فقد بدأ بأوائل الشعراء ، وهم : (دويد بن نهد) القضاعي ، ثم (أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان) ، ثم (الحارث ابن كعب)، وقد تحدث عنهم حديثاً قصيراً جداً ، ثم تكلم عن بقية الشعراء ، وعلى رأسهم (امرؤ القيس) فزهير بن أبي سلمى ، ولم يسر في كتابه على طريقة (ابن سلام) في عرضه الشعراء على طبقات ، كما لم يسر على الترتيب الأبجدي لأسماء الشعراء أو على شهرتهم أو كناهم ، كما سار غيره في مؤلفاتهم عن الشعراء .

وقد سار (جرجي زيدان) على مبدأ تقسيم الشعراء على وفق الأغراض التي نظموا شعرهم بها والتي غلبت طبائعهم عليها . فجعلهم : أصحاب المعلقات ، وعددهم (١٠) ، والشعراء الأمراء ، وجمعهم في (١٤) رجلاً ، والشعراء الفرسان ، ومجموعهم (٢٨)،والشعراء الحكماء ، وحاصلهم (٤) ، والشعراء العشاق وعددهم (٨) ، والشعراء الصعاليك وهم (٧) ، والمغنون ، وهم (١) ، والنساء الشواعر ، وعددهن (٤) ، والهجاءون ، وعددهم (٤) ، والوصافون للخيل ، وعددهم (٤) ، والموالي ، وعددهم (١) ، وسائر الشعراء ومجموعهم (٢٦) ، ومجموع الجميع (١٢١) شاعراً[1] .

---

١ تاريخ آداب اللغة العربية (١٠٢/١) .

وقسّم (كارلو نالينو) الشعراء الجاهليين الى أربعة أصناف : الصنف الأول ما نسجه أهل البادية أو من تقرب منهم سواء كانوا وثنيين أم يهود من شعر ، الثاني : أشعار الوثنيين الذين قصدوا ملوك الحيرة وبني غسان وجالسوهم ، الثالث: أشعار النصارى بالحيرة أو في مملكة بني غسان ، الرابع : أشعار أهل الحضر الوثنيين في مدن الحجاز[1] . وقد أدخل في الصنف الأول : تأبط شراً والشنفرى وأمثالهم، لأنهم رجال بادية عوائدهم أقرب للهمجية المحضة منها لأحوال أهل بلد ذات نظام اجتماعي ، فسمّوا (أولئك الرجال) الصعاليك[2] ، وأدخل في هذا الصنف أيضاً أصحاب المعلقات ، وحاتم الطائي ، وعروة بن الورد ، والأفوه الأودي، ودريد ابن الصمة[3] . وأدخل في الصنف الثاني (زهير بن جناب) الكلبي ، وطرفة بن العبد ، وهو من أصحاب المعلقات ، وأوس بن حجر ، وبقية من كان لهم اتصال بملوك الحيرة والغساسنة[4] ، وأدخل في الصنف الثالث : أبو دُؤاد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي ، وأدخل في الصنف الرابع قيس بن الخطيم ، وأمية بن أبي الصلت[5] .

واقدم من ذكرهم علماء الشعر من شعراء أهل الجاهلية : دويد بن نهد القضاعي ، وأعصر بن سعد بن قيس بن عيلان ، والحارث بن كعب[6] ، والعنبر ابن عمرو بن تميم ، والمستوغر بن ربيعة بن كعب بن نهد ، وزهير بن جناب الكلبي ، وجذيمة الأبرش ، ولجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، وابن حذام[7] ، والأفوه الأودي ، وذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، وضمرة ، رجل من كنانة ، والأضبط بن قريع . وقيل: « أول من قال الشعر ابن حذام »[8].

ولهؤلاء البيت والبيتان والأبيات ، ولم ترد لهم قصائد ، لأن أول من قصد القصائد ، ووضع القصيد هو المهلهل ، على ما يزعمه أهل الأخبار .

---

١ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (٧١) .
٢ المصدر نفسه (ص ٧٢) .
٣ كذلك (ص ٧٤ وما بعدها) .
٤ كذلك (ص ٨١) .
٥ كذلك (ص ٩٢ وما بعدها) .
٦ الشعر والشعراء (٤٨/١ وما بعدها) .
٧ المزهر (٤٧٥/٢ وما بعدها) .
٨ المزهر (٤٧٧/٢) .

وقد قدم (ابن قتيبة) (دويدَ بن نَهد) القضاعي على سائر الشعراء ، وقال : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة . فمن قديم الشعر قول دويد بن نَهيد القضاعي :

اليوم يبنى لدويد بيته   لو كان للدهر بَلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته   يا رب نَهب صالحٍ حويته
ورب عبل خشن لويته »[1]

وقال بعد ذلك : « وقال الآخر :

ألقى عليَّ الدهر رِجلاً ويدا   والدهر ما أصلح يوماً أفسدا
يصلحه اليوم ويفسده غدا »[2]

وهو رجز نسبه (ابن سلام) وغيره لدويد نفسه[3] .

وزعم أهل الأخبار انه لما حضرته الوفاة ، جمع آله ، وقال يوصيهم : « أوصيكم بالناس شراً ، لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تقيلوهم عثرة ، قصّروا الأعنة وطوّلوا الأسنة ، واطعنوا شزراً ، واضربوا هبراً .. » الى آخر وصيته ، ثم قال :

اليوم يبنى لدويد بيته   يا رب نَهبٍ صالح حويته
وربَّ قرنٍ بطل أرديته   وربَّ غيل حسنٍ لويته
ومعصمٍ مُخضب ثنيته   لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته[4]

---

[1] الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (٢٧) ، السجستاني ، المعمرون (١٩) ، ابن سلام ، طبقات (١١) ، (طبعة ليدن) ، المزهر (٤٧٥/٢) .

[2] الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (حاشية رقم ٣) ، وورد :
يفسد ما أصلحه اليوم غدا
أمالي المرتضى (٢٣٧/١) .

[3] الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (حاشية رقم ٣) .

[4] أمالي المرتضى (٢٣٧/١) ، وروى على هذه الصورة :
اليوم يبنى لدويد بيته   لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحدا كفيته   يا رب نهب صالح حويته
ورب غيل حسن لويته   ومعصم مخضب ثنيته
تاج العروس (٣٤٧/٢) ، (داد) ، المزهر (٤٧٥/٢) .

وهو كلام يشعرك أنه نص لوصية الشاعر، ضبط ضبطاً ، يشعرك أن ضابطه كان حاضراً إذ ذاك ، وأنه سجله سجل المسجل للصوت ، حتى وصل الينا أصيلاً كاملاً لا تغيير فيه ولا تحوير . أما رأيي فيه،فهو أنه من هذه النصوص الكثيرة التي وضعها أهل الأخبار على ألسنة المتقدمين عليهم ، والتي لا يمكن أن يركن اليها ، ولا أن يؤخذ بها ، ومن في استطاعته اثبات أنه نص أصيل ، وليس لديه دليل قطعي يثبت تلك الإصالة .

ومن قدماء الشعراء : (أعصر بن سعد بن قيس عيلان) ، وهو (منبه بن سعد) أبو باهلة وغني والطفاوة . وهو القائل :

قالت عميرة ما لرأسك بعد ما نفد الزمان أتى بلون منكر
أعمير إن أباك شيب رأسه كر الغداة واختلاف الأعصر[1]

وذكر (ابن قتيبة) بعد (أعصر) اسم (الحارث بن كعب) وقال عنه: « وكان قديماً » ، وروى له هذه الأبيات :

أكلت شبابي فأفنيته وأفنيت بعد شهور شهورا
ثلاثة أهلين صاحبتُهُم فبانوا وأصبحت شيخاً كبيراً
قليل الطعام عسير القيا م قد ترك القيد خَطوي قصيرا
أبيت أراعي نجوم السماء أقلب أمري بطونا ظهورا[2]

والحارث بن كعب ، هو (الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد ابن مالك بن أدد) المذحجي ، وهو من المعمرين ، وقد نسبوا له وصية زعموا أنه لما حضرته الوفاة ، جمع ولده ، فخطبهم يوصيهم ، وكان مما جاء فيها أنه على دين (شعيب) النبي ، « وما عليه أحد من العرب غيري ، وغير (أسد بن

---

1 المزهر (٢/٤٧٥) ، الشعر والشعراء (١/٤٨ وما بعدها) ، (الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات (٢٨) .
قالت عميرة ما لرأسك بعدما نفد الشباب أتى بلون منكر
أعمير ان اباك شيب رأسه مر الليالي واختلاف الاعصر
الشعر والشعراء (١/٤٩) .

2 الشعر والشعراء (١/٤٩) .

خزيمة) و (تميم بن مرة) » ، ثم أوصاهم بوصيته ، على الطريقة المألوفة التي نراها في الوصايا التي تنسب في العادة الى المعمرين ، ثم ختمها بإنشاده الأبيات المذكورة[1] .

(والمستوغر بن ربيعة بن كعب بن نهد) ، من قدماء المعمرين ، بقي بقاءً طويلاً حتى قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وازددتُ من عدد السنين مئينا
مائة أتت من بعدها مائتان لي   وازددت من عدد الشهور سنينا[2]

وذكر (ابن دريد) ان (المستوغر) عاش ثلثماية وعشرين سنة ، ولقّب (المستوغر) لقوله :

ينش الماء في الرَّبلاتِ منها   نشيش الرضف في اللبن الوغيرِ[3]

وذكر انه أدرك الاسلام ، أو كاد يدرك أوله . ونسبوا له قوله :

إذا ما المرءُ صمّ فلم يكلّم   وأودى سمعه إلا ندايا
ولاعب بالعشيّ بني بنيه   كفعل الهرّ يحترشُ العظايا
يلاعبهم وودّوا لو سقوه   من الذيفان مترعةً ملايا
فلا ذاق النعيمَ ولا شراباً   ولا يشفى من المرض الشفايا[4]

وزعم « ان المستوغر مرّ مرة بعكاظ يقود ابن ابنه خرفاً ، فقال له رجل:

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٣٢) .

٢ ولقد سئمت من الحياة وطولها   وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مئتان لي   وازددت من بعد الشهور سنينا
هل ما بقي الا كما قد فاتني   يوم يمر وليلة تحدونا
الشعر والشعراء (١/٣٠٠) .
المزهر (٢/٤٧٥) ، (وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ابن حر بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر) ، أمالي المرتضى ، (١/٢٣٤) ، المعمرون (٧) ، المرزباني ، معجم (٣١٣) .

٣ الاشتقاق (١/١٥٤) ، الشعر والشعراء (١/٣٠٠) .

٤ أمالي المرتضى (١/٢٣٥) ، ابن سلام ، طبقات (٣٠) .

يا عبدالله أحسن اليه،فطالما أحسنَ اليك ! قال : أو تدري من هو؟ قال : نعم هو أبوك أو جدك ، قال : هو والله ابن ابني ! قال الرجل : لم أرَ كاليوم في الكذب ولا مستوغر بن ربيعة !! قال : فأنا المستوغر بن ربيعة » . « قال أبو عمرو بن العلاء : عاش المستوغر ثلاثَ مائة سنة وعشرين سنة »[1] .

وقد ذكره (ابن حجر) في الصحابة ، وقال عنه : « المستوعز ،بعين مهملة ثم زاي ، ابن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي،أبو بيهس، واسمه عمرو ، والمستوعز لقب » . وكان من فرسان العرب في الجاهلية ، وقال (المرزباني) انه عاش في أيام معاوية ، ويقال مات في صدر الاسلام[2] . والأغلب ان وفاته كانت قبل الاسلام ، وانه لا يمكن لذلك عدّه في الصحابة .

والأفوه الأودي ، هو (صلاءة بن عمرو بن مالك) من (مذحج) ، ومذحج من اليمن ، فهو من اليمانيين ، وكان من سادات قومه وقائدهم في حروبهم ، وكانوا يصدرون عن رأيه ، والعرب تعده من حكمائها ، بما اشتمل عليه شعره من الحكمة[3] . وقد اشتهر بقصيدته :

فينا معاشر لم يبنوا لقومهم ... وان بنى قومُهم ما أفسدوا عادوا
لا يَرْشُدُون ولن يرعوا لمرشدهم ... فالجهل منهم معاً والغيّ ميعاد
أضحوا كقيل بن عمرو في عشيرته ... إذ أهلكت بالذي سدّى لها عاد
أو بعده كقدارٍ حين تابعه ... على الغواية أقوامٌ فقد بادوا
والبيت لا يُبْتنى إلاّ له عمدٌ ... ولا عماد إذا لم ترس أوتادُ
فإن تجمع أوتادٌ وأعمدة ... وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا
وإن تجمع أقوام ذوو حسب ... اصطاد أمرهم بالرشد مصطادُ
لا يصلح الناسُ فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جُهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

---

١ الشعر والشعراء (٣٠١/١) ، الاصابة (٤٦٨/٣) ، (رقم ٨٤٠٧) .
٢ الاصابة (٤٦٨/٣) ، (٨٤٠٧) .
٣ الشعر والشعراء (١٤٩/١) ، الاغاني (٤١/١١) ، العيني (٤٢١/١) ، تاج العروس (٤٠٥/٩) ، (فوه) ، معاهد التنصيص (١٥٩/٢) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٧/١) .

إذا تولى سراة القوم أمرهم ... نما على ذاك أمرُ القوم فازدادوا
امارة الغيّ أن يُلقى الجميع لذي الإبرام للأمر والأذنابُ أكتادُ
حان الرحيل الى قومٍ وان بعدوا ... فيهم صلاحٌ لمرتاد وارشادُ
فسوف أجعل بُعد الأرض دونكمُ ... وإن دنت رحمٌ منكم وميلاد
إن النجاء إذا ما كنت ذا نفر ... من أجّة الغيّ إبعادٌ فابعادُ
فالخير تزداد منه ما لقيت به ... والشرّ يكفيك منه قلما زادُ

وقد رويت بعض الأبيات بصور مختلفة . فلابن دريد ، قراءة ، ولأبي بكر ابن الأنباري قراءة . وقد نص (القالي) على القراتين[1] ومن أبياتها :

كيف الرشاد إذا ما كنت في نفرٍ ... لهم عن الرشد أغلال وأقياد
أعطوا غواتهم جهلاً مقادتهم ... فكلهم في حبال الغيّ منقاد[2]

وله قصيدة تعدّ من جيد شعره ، أولها :

إن ترى رأسي فيه نزعٌ ... وشواي خلّة فيها دُوار
انما نعمة قومٍ متعة ... وحياة المرء ثوب مستعار
ولياليه إلالٌ للقوى ... ومدى قد تجتليها وشفار
وصروف الدهر في اطباقه ... خلفةٌ فيها ارتفاع وانحدار
بينا الناس على عليائها ... إذ هوَوا في هُوّة منها فغاروا[3]
حتَمَ الدهرُ علينا أنه ... ظلفٌ ما نال منّا وجبار

وهو القائل :

والمرءُ ما يُصلح له ليلةٌ ... بالسعد تُفسِدُه ليالي النحوس
والخيرُ لا يأتي ابتغاءٌ به ... والشرّ لا يفنيه ضَرح الشموس[4]

---

١ الامالي (٢/٢٢٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (١/٥) ، الشعر والشعراء (١/١٤٩) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٠٦) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٠٥ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٤٩) .

وله ديوان مطبوع[1] .

وذكر ان النبي نهى عن إنشاد قصيدة الأفوه :

إن ترى رأسي فيه نزع   وشواي خلة فيها دوار

وذلك لورود ذم فيها لبني هاجر مثل قوله :

يا بني هاجر ، ساءت خطة   أن تروموا النصف منا ونجار
ان يجل مهري منكم جولة   فعليه الكر فيكم والغوار
نحن أود ، ولأود سنة   شرف ليس لنا عنها قصار
سنة أورثناها مذحج   قبل أن ينسب للناس نزار[2]

وهي قصيدة يمانية ، فيها تعصب ليمن ، وتهجم على (نزار) أبناء هاجر ، أي العدنانيين ، ولهذا ذكر الرواة ان النبي نهى عن روايتها ، وهي من موضوعات الصراع القحطاني النزاري المعروف ، أرادت النزارية طمسها ، فروت ان النبي نهى عن روايتها ، والنهي والقصيدة – في نظري – من المصنوعات التي ظهرت بعد وفاة النبي ، وأسلوب نظم القصيدة يتجسس على أصالتها ، يتحدث انه من النظم الاسلامي .

وأورد (المعري) له هذا البيت :

كشهاب القذف يرميكم به   فارس ، في كفه للحرب نار

وهو بيت من (رائيته) التي يعدونها من أجود الشعر العربي[3] .

وهي قصيدة يقول عنها (الجاحظ) : « وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة »[4] .. ونظراً لإشارة (الجاحظ) اليها ، فإن صنعها يجب

---

1 طبعه عبد العزيز الميمني في الطرائف الادبية ، (القاهرة ١٩٣٧ م) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١١٧) .
2 راجع ديوانه ، (القاهرة ١٩٣٧ م) .
3 رسالة الغفران (٢٩٧) ، (رقم الحاشية ٥) .
4 الحيوان (٦/٢٨٠) ، النوادر (١/١٦٩) ، معاهد التنصيص (٤/٩٥) .

أن يكون قبل أيامه،في الإسلام على أثر ظهور العصبية النزارية في أيام الأمويين ، فوضعها أحدهم على لسان الأفوه في التعريض بالنزاريين .

ونسب (الجاحظ) له قوله :

أضحت قُرينةُ قد تغير بشرها وتجهّمت بتحية القوم العدا
ألوت بإصبعها وقالت إنما يكفيك مما لا ترى ما قد ترى[1]

كما نسب له قوله :

تّبها لثعلبة بن قيس جفنة يأوي اليها في الشتاء الجوع
ومذانب لا تستعار وخيمة سوداء عيب نسيجها لا يُرفع
وكأنما فيها المذانب حلقة وذم الدلاء على دلوج تنزع[2]

وقد نسبت اليه أبيات ورد فيها ذكر (التبابعة والمثامنة وأولاد نوح : سام وحام ويافث) ، هي :

فلو دام الخلود إذن جدودي وأسلافي بنو قحطان داموا
ودام لهم تبابعهم ملوكاً ولم تمت المثامنة الكرام
وعاش الملك ذو الأذعار عمرو وعمرو حوله اللجبُ اللهام
وخلّد ذو المنار وما تردّى أبوه الرائش الملك الهمام
ملوك أدّت الدنيا اليها أتاوتها ودان لها الأنام
ولمّا يعصها سام وحام ويافث حيث ما حلت ولام[3]

ونسبت اليه أبيات في مدح (ملحج) ، وفي الاشادة بكرمها ، أولها :

تعظم النار إذ النار التي شبّها عنس خبت أو صعصعة[4]

والشعر المتقدم من الشعر المصنوع ولا شك،وضعه قوم من المتعصبين للقحطانية على النزاريين ، أي العدنانيين .

---

١ البيان والتبيين (١/١٩٧ وما بعدها) .
٢ البخلاء (٢٢٣ وما بعدها) .
٣ تاريخ ملوك العرب الاولية (٢٨ وما بعدها) .
٤ المصدر نفسه (ص ١٣٧) .

ومن الشعراء القدماء : (زهير بن جناب) الكلبي ،سيد بني كلب وقائدهم ، وكان شجاعاً مظفراً ميمون النقيبة في غزواته[1] . ذكر انه لما قدمت الحبشة تريد هدم البيت خرج (زهير) فلقي ملكهم ، فأكرمه ووجهه الى ناحية العراق يدعوهم الى الدخول في طاعته ، فلما صار في أرض (بكر بن وائل) لقيه رجل منهم فطعنه ، لكنه نجا وفر هارباً ، وعمر طويلاً . وقد مات منتحراً . شرب الخمر صرفاً حتى قتلته . وفي الشعر المنسوب اليه ما يشك بصحة نسبته اليه . وقد ذكر انه كان في أيام (داوود بن هبالة) ، الذي كان أول ملك للعرب في بلاد الشأم ، فغلبه ملك الروم على ملكه ، فصالحه داوود على أن يقره في منازله ويدعه فيكون تحت يده ، ففعل . فكان يغير بمن معه ، ثم تنصر وكره الدماء وبنى ديراً ، سمي (دير اللثق) ، وأنزله الرهبان . ثم ان ملك الروم طلب منه أن يغزو بمن معه من العرب ، ففعل وكان معه في جيشه زهير بن جناب . فقتل زهير بن جناب (هداج بن مالك) سيد عبد القيس ، فتواعد رجلان من قضاعة على قتل (داوود) ، وكان اذا سار ليلاً ، سار وأمامه شمعة ، فقتلاه[2] :

« قال أبو حاتم : عاش زهير بن جناب مائتي سنة وعشرين سنة ، وأوقع مائتي وقعة ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه ، ويقال : كانت فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من أهل زمانه ، كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم — والطب في ذلك الزمان شرف — وحازى قومه — والحزاة الكهان — وكان فارس قومه ، وله البيت فيهم ، والعدد منهم » .

ونسبوا له وصية ، ذكروا أنه أوصى بها بنيه حين حضرته الوفاة ، وذلك على طريقتهم عند تحدثهم عن المعمرين .

وقد أورد أهل الأخبار له شعراً ، في العمر وفي النساء وفي مخاطبة أولاده[3] . وقد نسبوا له هذا الشعر :

---

١ الاغاني (٢١/٩٣ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (٣٠) ، جمهرة ابن حزم (٤٢٦)، المؤتلف (١٣٠) ، المحبر (٢٥٠) ، المعمرون (٢٤) ، الشعر والشعراء (١/٢٩٤ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تأريخ الاداب العربية (٨٢) ، المزهر (٢/٤٧٥ وما بعدها) .

٢ أسماء المغتالين (١٢٧) .

٣ أمالي المرتضى (١/٢٣٨ وما بعدها) .

لقــد عُمّرتُ حتى لا أبالي أحتفي في صبـاحي أو مسائي
وحق لمن أتت مائتــان عاماً عليه أن يمــلّ من الثواء
شهدتُ الموقدين على خزازى وبالسلاّن جمعاً ذا زُهــاء
ونادمت الملوك مـن آل عمرو وبعدهم بني مــاء السماء[1]

ومن جيد شعره قوله :

ارفع ضعيفك لا يَحُر بك ضعفه يوماً فتدركه عواقبُ مـا جنى
يجزيك أو يُثني عليك ، وإن من أثنى عليك بما فعلتَ كمن جزى

وهو شعر نسبه (ابن قتيبة) اليه ، غير أن من العلماء من نسبه لورقــة بن نوفل ، ومنهم من نسبه لغريض اليهودي ، وقيل لابنه (سعية) ، ومنهم مـن نسبه لشعراء آخرين[2] .

أما المهلهل ، فهو امرؤ القيس بن ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير بن جشم، وانما سُمي مهلهلاً لبيت قاله لزهير بن جناب الكلبي :

لمّا توعر في الكراع هجينهم هلهلتُ أثأر جابراً أو صنبلا

وقيل ان اسمه كان عدياً،وقد ذكره (امرؤ القيس) في شعره[3] . ولقّب مهلهلاً لطيب شعره ورقّته ، أو لأنه أول من أرق المراثي ، أو لأنــه أول من قصّد القصائد ، وقال الغزل ، فقيل : هلهل الشعر أي أرقه[4] . وفيه يقول الفرزدق:

---

١ المعمرون (٢٦ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢٩٦) ، (حاشية رقم ٧) .

٣ رفعت رأسهــا الي وقالــت يا عديــا لقد وقتــك الاواقي
ضربـت صدرهـا الــي وقالت يا عدي لقــد وقتــك الاواقــي
« وقال الصاغاني في التكملة : وليس البيت لمهلهل وانما هو لأخيه عدي ، ويروى البيت : ضربت صدرها ، (السيوطي شرح شواهد المغنى ٦٥٦) ، (حاشية ٤) ، الخزانة (١/٣٠٠) ، (بولاق) ، الاغاني (٤/١٣٩) .
ضـربت صدرهـا الي وقالت يا امرأ القيس حـان وقت الفراق

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٥٦ وما بعدها) .

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[1]

وزعم انه كان به خنث[2] . وهو أخو (كليب وائل) الذي هاجت بمقتله حرب بكر وتغلب . وهو جدّ (عمرو بن كلثوم) ، أبو أمه (ليلى) ، وخال امرىء القيس الشاعر[3] .

وقد تطرق (المعري) في (رسالة الغفران) الى سبب اشتهار (المهلهل) بهذا النعت ، فجعل أحد الأشخاص يسأله : « أخبرني لم سميت مهلهلاً ؟ فقد قيل ، : إنك سميت بذلك ، لأنك أول من هلهل الشعر ، أي رققه »:

فيقول : إن الكذب لكثير . وإنما كان لي أخ يقال له امرؤ القيس ، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبي ، فتبعه أخي في زرافة من قومه ، فقال في ذلك :

لمّا توقل في الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكاً أو صنبلا
وكأنه باز علتـــهُ كبرة يهدي بشكته الرعيل الأولا »[4]

وقد أورد (المعري) له بيتاً ، هو أول بيت من قصيدة تنسب اليه، هو .

أليلتنا بـــذي حُسم انــيرى إذا أنت انقضيت فلا تحوري[5]
فـــإن يك بالذنائب طال ليل فقد أبكى من الليـــل القصير

وأورد له بيتاً آخر هو :

أرعَدوا ساعـــة الهياج وأبرقـ ـنا كما توعد الفحول الفحولا

وذكر أن (الأصمعي) كان ينكره ويقـــول : إنه مولد . وكان أبو زيد

---

1 ديوان الفرزدق (٧٢) ، الشعر والشعراء (٢٥٦) ، (٢١٥/١) ، (الثقافـــة) ، ديوان الفرزدق (١٥٩/٢) .
2 الشعر والشعراء (٢١٥/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (١٦٤/٢) ، (هارون) .
3 الشعر والشعراء (٢١٥/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (١٦٤/٢) ، (هارون) ، ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) ، الاغاني (١٤٠/٤) ، المرزباني ، معجـــم (٢٤٨) ، اللآلىء (١١١) ، الاغاني (٣٤/٥) ، (دار الكتب) ، الاصمعيات (١٧٤).
4 رسالة الغفران (٣٥٤) .
5 رسالة الغفران (٣٥٣) .

يستشهد به ويشبته[1] .

« وزعم الرواة ان الشعر كله انما كان رجزاً وقطعاً ، وانه انما قُصِّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الاسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحي وغيره »[2] ؛ وقيل انه كان أول شاعر بلغت قصائده ثلاثون بيتاً من الشعر ، فاحتذى من جاء بعده حذوه . وان أول قصيدة قالها كانت في قتل أخيه كليب[3] . وانه كان أول من كذب في شعره ، بقوله :

فلولا الريحُ أسمعَ من بُحُجْر صليلَ البيض تقرع بالذكور

ويذكرون ان هذا البيت هو من أول كذب العرب ، وكانت العرب قبل ذلك لا تكذب في أشعارها ، وكان بين الموضع الذي كانت فيه هذه الواقعة وهي بالجزيرة وبين حجر وهي قصبة اليمامة مسافة بعيدة ، فأخرجه هذا الشاعر بقوة متنه ونفاذ فطنته الى معنى آخر مستظرف في بابه[4] . وقد اتهمه البعض بأنه كان يتكثر ويدعي قوله بأكثر من فعله[5] .

وزعم انه أحد البغاة ، لقوله :

قل لبني حصنٍ يردّونه أو يصبروا للصيلم الخنفقيق
من شاء دلى النفسَ في هوة ضنكٍ ، ولكن من له بالمضيق[6]

أمرهم ان يردّوا كليباً وقد قتل ، وأعلمهم انه لا يرضى بشيء غير ذلك .

---

1 رسالة الغفران (٣٥٤) .
2 العمدة (١/١٨٩) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
3 زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٦٧) ،
ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور
الشعر والشعراء (١/٢١٦) ، (الثقافة) ، البيان والتبيين (١/١٢٤) ، الحيوان (٦/٤١٨) ، العمدة (٢/٥٠) ، الاغاني (٤/١٤٦) ، المرزباني ، معجم (٣٣١) ، نقد الشعر ، لقدامة (٨٤) ، الموشح (٧٤) .
4 زهر الاداب (١/٢٣٤) ، الشعر والشعراء (١/٢١٦) ، الاغاني (١٤/١٥٢) ، خزانة الادب (١/٣٠٢ وما بعدها) .
5 السيوطي ، شرح (٢/٦٥٧) .
6 الشعر والشعراء (١/٢١٦) ، (الثقافة) .

وهو أحد أصحاب المنتقيات السبع ، المدونة في كتاب : (جمهرة أشعار العرب) .

وقد ذكره (لبيد) في شعره ، فجعله و (مرقشاً) من الشعراء الذين مهدوا السبيل لمن جاء بعدهم في نظم الشعر ، فالشاعرون الناطقون الذين جاؤا بعدهما إنما سلكوا دروبهما في نظم الشعر :

والشاعرون الناطقــون أراهم سلكوا سبيل مرقش ومهلهل[1]

وكان مهلهل القائم بالحرب ورئيس تغلب ، فلما كان يوم قضة ، وهو آخر أيامهم ، وكان على تغلب ، أسر (الحارث بن عبّاد) مهلهلا وهو لا يعرفه، فقال له الحارث : تــدلني على عدي بن ربيعة المهلهل وأنت آمن ؟ فقال له (المهلهل) : ان دللتك على عدي فأنا آمن ولي دمي ؟ قال : الحارث : نعم، قال : فأنا عدي ! فجز ناصيته وخــلاّه ، وقال : لم أعرف . وفي ذلك يقول الحارث بن عباد :

لهفَ نفسي عــلى عــديّ ولم أعرف عدياً إذ أمكنتني اليدان

طُلّ من طُلّ في الحروب ولم يطلل قتيــل أبأته ابن أبان[2]

ثم خرج (مهلهل) فلحق باليمن ، فنزل في (جنب)[3] ، فخطب اليه رجل منهم ابنته ، فقال : إني طريد غريب فيكم ، ومتى أنكحتكم قال الناس اعتسروه، فأكرهوه حتى زوّجها ، وكان المهر أدماً ، فقال :

أنكحَهَا فَقْدُهــا الاراقمَ في جَنْبٍ ، وكان الحباء من أدم

لو بأبانين جــاء يخطبهــا رُمّل ما أنف خاطبٍ بدمِ

ثم انحدر ، فلقيه (عوف بن مالك بن ضبيعة) ، وهو أبو أسماء صاحبة

---

1 ديوان لبيد (٢٧٦) ، (٣٩) ، البيان والتبيين (١٨٣/٢) .

2 الشعر والشعراء (٢١٦/١ وما بعدها) .

3 حي من اليمن .

المرقش الأكبر ، فأسره فمات في أساره[1] . وللأخباريين قصص عن كيفية موته[2].

ونسبوا له قصيدة رثى بها أخاه كليباً ، بقوله :

أليلتنا بذي حُسُمٍ أنيري   اذا أنتِ انقضيتِ فلا تحوري

وفيها :

على أن ليس عدلاً من كليب   اذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلاً من كليب   اذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب   اذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب   اذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلاً من كليب   اذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلاً من كليب   اذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلاً من كليب   غداة تلاتل الأمر الكبير
على أن ليس عدلاً من كليب   اذا ما خامَ جار المستجير[3]

وأورد المرتضى (مرثية) لليلى الأخيلية رثت فيها : ثوبة بن الحمير ، لها أسلوب خاص في الرثاء ، حيث ترد جملة : (لنعم الفتى) و (نعم الفتى) في أوائل أربعة أبيات من القصيدة ، تلتها « لعمري لأنت المرء أبكي لفقده » أربع مرات مكونة الأنصاف الأولى من الأبيات ، ثم « أبى لك ذم الناس يا ثوب كلما » مرتين ، ثم : « فلا يبعدنك الله يا ثوب انما » ، ثم « ولا يبعدنك الله يا ثوب انها » مرة ، ثم : « ولا يبعدنك الله يا ثوب والتقت » . فخرجت من تكرار الى تكرار لاختلاف المعاني[4] .

وروى قصيدة أخرى لابنة عم للنعمان بن بشير رثت فيها زوجها ، أنصاف أبياتها الأولى : « وحدثني أصحابه ان مالكاً » ، أما القافية فهي على اللام[5] .

---

١ الشعر والشعراء (١/٢١٦ وما بعدها) ، الخزانة (٢/١٧٣) .
٢ أسماء المغتالين (٢٠٨) .
٣ أمالي المرتضى (١/١٢٣ وما بعدها) .
٤ أمالي المرتضى (١/١٢٤ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (١/١٢٦) .

ومن معاصري (مهلهل) الشاعر (امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل) ابن أخي (زهير بن جناب بن هبل) ، وزعم بعضهم أنه الذي عنى (امرؤ القيس) بقوله : نبكي الديار كما بكى ابن حذام . وكان مهلهل تبعه (يوم الكلاب) ففاته ابن حمام بعد أن تناوله (مهلهل) بالرمح . وكان (ابن حمام) أغار على (بني تغلب) مع زهير بن جناب فقتل جابراً وصنبلاً[1] . وفيها يقول مهلهل :

لمّا توعر في الكلاب هجينهم   هلهلتُ أثأر جابراً أو صنبلا

و (امرؤ القيس بن حارثة بن الحُمام بن معاوية) ، أو (امرؤ القيس بن حارثة بن خذام بن معاوية) على رواية أخرى ، أو (ابن خذام) ، أو (ابن حذام) ، هو شاعر سبق (امرأ القيس) الكندي في البكاء على الديار وتذكر الأطلال ، استنتجوا ذلك من شعر ينسب لامرىء القيس ، هو :

يا صاحبيّ قفا النواعجَ ساعة   نبكي الديارَ كما بكى ابنِ حمام

أو (ابن خذام) في رواية (أبي عبيدة) .

ومن بيت آخر هو :

عوجا على الطلل المحيل، لعلّنا   نبكي الديار كما بكى ابن خذام[2]

وابن (خذام) ، و (ابن حمام) ، و (ابن حزام) و (ابن حذام)، اسم الشاعر ، وهو اسم واحد،تحرف بالرواية وبالنسخ ، فصار على هذه الصور .

ومن شعراء ربيعة (سعد بن مالك) ، الذي يقول :

يا بؤس للحرب التي   وضعت أراهط فاستراحوا[3]

---

١ الخزانة (٢/٢٣٥) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٨ وما بعدها) ، المزهر (٢/٢٣٨) ،
عوجا على الطلل المحيل ، لاننا   نبكي الديار كما بكى ابن خذام
الآمدي ، المؤتلف (١٠٩) ، ديوان امرىء القيس (١١٤) ، المزهر (٢/٤٧٧) ، بروكلمن (١/٦٠) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٥٧) .

قال هذا البيت في قصيدة يعرض فيهـا بـ (الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) من حكام (ربيعة) وفرسانها المعدودين ، وكان اعتزل حرب (بني وائل) وتنحى بأهله وولده وولد اخوته وأقاربه ، وحل وتر قوسه ، ونزع سنان رمحه ، ولم يساهم في الحرب التي هاجت بين بكر وتغلب ابني وائل ، وهي حرب البسوس :

وسعد ، هو (سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبـة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر وائل) . وكان أحد سادات بكر بن وائل وفرسانها في الجاهلية . وكان شاعراً ، وله أشعار جياد في كتاب بني قيس بن ثعلبة[1] .

وفي رواية تنسب الى (دغفل) النسّابة انه كان جد (طرفة بن العبد)[2] . وطرفة ، هو : (عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة)[3] ، واذا أخذنا بهذا النسب نرى ان (سعد بن مالك) ، هو جد (العبد) والد (طرفة) . واذا أخذنا برواية من جعل نسب الشاعر (عمرو بن قميئة) على هذه الصورة : (عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة) ، فيجب عدّه ابناً من أبناء (سعد بن مالك) ، أمـا اذا اعتبرنا نسبه على هذه الصورة : « عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك) ، فنكون بذلك قد جعلناه حفيداً له ، ويكون (ذريحا) ابناً من أبناء هذا الشاعر[4] .

ويظهر من نسب المرقش الأكبر ، وهو (ربيعة بن سعد بن مالك) ، ويقال : « بل هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة »[5] ، أنه كان ابناً ، لسعد بن مالك ، الشاعر الذي نتحدث عنه ، وإذا ذهبنا مذهب من يقول ان المرقش الأصغر كان أخاً للمرقش الأكبر ، فيكون بذلك ابناً من أبناء (سعد ابن مالك) ، وأما إذا أخذنا برواية من يذكر أنه كان ابن أخي المرقش الأكبر ، وانه (عمرو بن حرملة) ، أو (ربيعة بن سفيان) فيكون ابن ابن (سعد بن

---

١ الخزانة (١/٢٢٣ وما بعدها) .
٢ ذيل الامالي (ص ٢٦) .
٣ شرح القصائد العشر (ص ٩) ، (اخراج محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٤ راجع نسبه في الخزانة (٢/٢٥٠) وفي المراجع الاخرى التي ذكرتها في أثناء حديثي عنـه .
٥ الشعر والشعراء (١/١٣٨) ، (دار الثقافة) .

مالك) ، أي حفيده ، ويكون المرقش الأكبر عمه إذن ، ويكون بيت (سعد ابن مالك) من البيوت التي عرفت بالشعر .

وروي أن الشاعر (خزز بن لوذان) السدوسي ، كان قبل امرىء القيس. وقد نسب بعض أهل الأخبار له قوله :

يا ليت زوجك قد غدا متقلداً سيفاً ورمحـاً

ونسب هذا الشعر لغيره من الشعراء[1] .

ونسب له قوله :

كذب العتيق وماء شن بارد إن كنت سائلتي غبوقاً فاذهبي
لا تذكري مهري وما أطعمته فيكون لونك مثل لون الأجرب

وكانت له فرس اسمها ابن النعامة ، ورد ذكرها في هذا الشعر[2] .

ويجب أن نضيف الى الشعراء المتقدمين شاعراً يظهر من روايات أهل الأخبار، انه لم يكن من فحول الشعراء ، ولا من أوساطهم وانما كان «شويعراً» ، ولذلك عرف بـ (الشويعر) . ويذكر أهل الأخبار انه كان أحد من سمي (محمداً) في الجاهلية ، وهم سبعة ، واسمه الكامل : (محمد بن حمران بن أبي حمران). وهو قديم[3] . كان (امرؤ القيس) أرسل اليه في فرس يبتاعها منه ، فأبى فقال فيه :

أبلغا عني الشويعر اني عمد عين قلدتهن حريما

وحريم ، هو جد الشويعر[4] . فقال الشويعر مخاطباً امرأ القيس :

أتتني أمور فكذبتها وقد نميت لي عاماً فعاما
بأن امرىء القيس أمسى كثيبا على آله ما يذوق الطعاما

---

١ ونسب لعبدالله بن الزبعري الخزانة (٢/٢٣١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٩/٨٣) ، (نعم) .
٣ المؤتلف (١٤١ وما بعدها) ، (٢٠٨) ، (فراج) .
٤ البيان (٢/١٠) ، الآمدي ، المؤتلف (١٤١) .

لعمر أبيك الذي لا يهان   لقد كان عرضك مني حراما
وقالوا : هجوت ، ولم أهجه   وهل يجدن هاج فيك مراما[1]

وذكر الشاعر (ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم) ، بعد مهلهل في تقصيد القصائد ، وهو (عمرو بن تميم) ، وهو من تميم ، قيل انه كان شاعراً قديماً، وهو الذي يقول :

يا كعب إن أباك منحمق   إن لم تكن بك مرة كعب

وهي أبيات قديمة يقول فيها :

جانيك من يجني عليك وقد   تعدي الصحاح مبارك الجرب[2]

والأضبط بن قريع ، هو (الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) ، فهو من (بني تميم) . وقد عدّ في المعمرين[3] . وقد أورد (الجاحظ) له شعراً منه :

لكلّ همّ من الهموم سَعَهْ   والمسْيُ والصبح لا فلاح معه
فصلْ حبالَ البعيد إن وصل الـ   حبل وأقص القريبَ إن قطعه
وخذ من الدهر ما أتاك به   من قرّ عيناً بعيشه نفعه
لا تحقرن الفقير علّكَ أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه
قد يجمع المالَ غيرُ آكله   ويأكل المالَ غير من جمعه[4]

وقد روي الشعر على هذا النحو :

يا قوم من عاذري من الخدعه   والمسي والصبح لا فلاح معه
فصل حبالَ البعيد إنْ وصل الحبـل ، واقص القريبَ إن قطعه

---

١ تاج العروس (٣/٣٠١) ، (شعر) .
٢ الاشتقاق (١٢٤) ، المزهر (٢/٤٧٧) .
٣ السجستاني ، (٨) ، البيان والتبيين (٣/٣٤١) ، الاغاني (١٦/١٥٤ وما بعدها) ، الامالي (١/١٠٧) ، الخزانة (٤/٥٨٩) ، المثل السائر (١/٢٦) ، مجالس ثعلب (٤٨٠) .
٤ البيان والتبيين (٣/٣٤١) .

واقنع من العيش ما أتاك به　　من قرّ عينــاً بعيشه نفعه
قد يجمعُ المالَ غير آكله　　ويأكل المالَ غير مَن جمعه
لا تُهين الفقير علّك أن　　تخشعَ يوماً والدهر قد رفعه[1]

وقد أورد هذا الشعر القالي في أماليه عن (ابن دريد) عن (ابن الأنباري) عن ثعلب . وقد قال ثعلب : انه قيل قبل الاسلام بدهر طويـل . ورواه أيضاً (ابن الأعرابي) ، والجاحظ ، وصاحب الحماسة البصرية ، والشريف في حماسته، وابن قتيبة في كتاب الشعراء وصاحب الأغاني وغيرهم ، بتقديم بعضها على بعض وطرح أبيات منها[2] .

وقال (السيوطي) : « عزاه ابن الأعرابي في نوادره للأضبط بنَ قريع من أبيات هي :

لكلّ ضيق من الأمور سعه　　والمسي والصبح لا بقاء معه
لا تُهين الفقــير علّك أن　　تركع يوماً والدهر قد رفعه
وصل حبال البعيد إنْ وصل الـ　　ـحبل واقص القريب ان قطعه
واقبل من الدهر ما أتاك بـه　　من قَرَّ عينـاً بعيشه نفعه
قد يجمع المــال غير آكله　　ويأكل المالَ غير من جمعه
ما بال من غيّهُ مُصيبك لا　　تملك شيئاً من أمره فدعــه
حتى إذا انجلت عمايتـه　　أقبل يلحي وغيّه فجعه
أذودُ عـــن نفسه ويخدعني　　يا قوم من عاذري من الخدعه

قيل إن هذه الأبيات قيلت قبل الإسلام بدهر طويل . وقال في الحماسة البصرية هي للأضبط بن قريع السعدي من شعراء الدولة الأموية »[3] ؛

وزعم ان هذا الشعر قيل قبل الاسلام بخمسمائة عام . « فقد نقل الشيخ خالد في التصريح ان هذا الشعر قيل قبل الاسلام بخمسمائة عام . وكان سبب هذا الشعر

١　الشعر والشعراء (٢٩٨/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٥٩/١٦) ، اللآلىء (٣٢٦) ، السمط (٣٢٦) ، بلوغ الارب (١١٨/٣) .
٢　الخزانة (٥٨٩/٤) .
٣　السيوطي ، شرح شواهد (٤٥٣) ، (شواهد عل) .

على ما في الأغاني عن أبي محلم : ان أم الأضبط كانت عجيبة (عجبة) بنت دارم بن مالك بن حنظلة ، وخالته : الطموح بنت دارم ، فحارب بنو الطموح قوماً من بني سعد،فجعل الأضبط يدس اليهم الخيل والسلاح ولا يصرح بنصرهم خوفاً من أن يتحزب قومه حزبين معه وعليه . وكان يشير عليهم بالرأي ، فإذا أبرمه نقضوه وخالفوا عليه ، وأروه مع ذلك انهم على رأيه فقال في ذلك هذه الأبيات . وهو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وقريع ، بضم القاف وفتح الراء ، هو أبو جعفر ، الملقب بأنف الناقة » ، « وهو جاهلي قديم »[1] .

وكان من فرسان العرب ، « وكان أغار على بني الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر وجدع وخصى ، ثم بنى أطماً ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء ، فهي اليوم قصبتها »[2] . وهو شاعر قديم ، يزعم بنو تميم انه أول من رأس فيهم[3] .

وروي أنه هو صاحب المثل : « بكل واد بنو سعد » . وهو شبيه بالمثل : « بكل واد أثر من ثعلبة » . الميداني (٨٤/١ ، ٩٤) ، وكان الأضبط قد تأثر من قومه بني سعد ، فتحول عنهم الى آخرين ، فلما رأى ظلمهم وعسفهم قال: « بكل واد بنو سعد »[4] ، أو أنه قال : « أينما أوجه ألق سعداً » .

والمعمر في نظر العرب ، هو من عاش فوق المائة . « ولا تعد العرب معمراً إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً »[5] . والعادة عندهم ، أنهم إذا وصلوا الى نهاية حياة المعمر ، ينصبون له مجلس توديع ، يجمعون فيه ولده وآله وأقاربه وسادات قبيلته أحياناً ، ليوصيهم بما حصل عليه من حكم الأيام وتجاربها ، ثم قد يختمونها بشعر . وهي متشابهة في المعاني ، لأنها في موضوع نصح وحكم ،

---

١ الخزانة (٥٩٠/٤) .

٢ الشعر والشعراء (٢٩٨/١) .

٣ تاج العروس (١٧٥/٥) ، (ضبط) .

٤ البيان والتبيين (٢٩٤/٣) ، الحيوان (٣٥٨/١) ، (١٠٤/٣) ، (٣٩٤/٤) ، البخلاء (١٨٩) ، الشعر والشعراء (٢٩٨/١) ، أمثال الضبي (٦) ، الاغاني (١٥٤/١٦) ، شرح شواهد ، للسيوطي (١٥٥/١) ، الخزانة (٥٨٨/٤) ، المحبر (١٨٢) .

٥ أمالي المرتضى (٢٣٦/١) .

أما أسلوبها فهو السجع ، الأسلوب المتبع عند الكهان والخطباء ، وهو وسط بين الكلام المرسل وبين الشعر .

و « أوس بن حجر بن معبد بن حزن بن خلف بن نمير بن أسيد بن عمرو » التميمي من شعراء تميم كذلك ، وقد جعله بعضهم من الطبقة الثالثة وقرنه بالحطيئة ونابغة بني جعدة . ذكر انه كان شاعر بني تميم في الجاهلية غير مدافع ، وكان فحل العرب فلما نشأ النابغة طأطأ رأسه . وله ديوان مشروح[1] . وورد عن (أبي عمرو بن العلاء) قوله : « كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه »[2]. وقال عنه أبو ذؤيب: «وكان أوس عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق، وهو من أوصفهم للحُمُر والسلاح ولا سيما للقوس ، وسبق الى دقيق المعاني والى أمثال كثيرة »[3] . وكان شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع[4] . وكان غزلاً مغرماً بالنساء[5] ، وكان قد بلغ الغاية في الصيد والقنص،يقضي الليل مع الوحش ليصطاد شيئاً منها ، وفي ذلك يقول :

قصيٌّ مبيت الليلِ للصيد مُطعم لأسهمه غارٍ وبارٍ وراصف[6]

ويظهر من الشعر المنسوب اليه ، أنه كان على اتصال بالحضر وبالنصارى ، وقد جاء في شعره بمعان وبتعابير وألفاظ لم يستعملها غيره من الشعراء الجاهليين . فقد ذكر (الهر) والديك والخنزير في شعره ، مثل قوله :

كأن هراً جنيباً عند غرفتها والتف ديكٌ برجليها وخنزير

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/١١٣ وما بعدها ، ٣٩٩) ، الموشح (٦٣) ، رسالة الغفران (٢٧٤) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٣١) ، الاغاني (١٠/٥ وما بعدها) ، الخزانة (٢/٢٣٥) الموشح (٦٣) ، (كان أوس شاعر مضر ، حتى أسقطه النابغة وزهير) ، الشعر والشعراء (١/١٣٤) .

٣ الشعر والشعراء (١/١٣١) .

٤ الشعر والشعراء (١/١٣٤) .

٥ الخزانة (٢/٢٣٤ وما بعدها) ، (بولاق) .

٦ ديوان أوس (ص ٧١) ، رسائل الجاحظ (١/٧٢ وما بعدها ، ٧٦) ، (مناقب الترك) .

وجمع ثلاثة ألفاظ أعجمية في بيت واحد ، فقال :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها   من الفصافص بالنمى سِفْسير

وله أشعار جيدة . « قال الأصمعي : ولم أسمع قط ابتداء مرثية بأحسن من ابتداء مرثيته :

أيتها النفس اجملي جزعاً   إن الذي تحذرين قد وقعا »[1]

وله شعر في مدح (أبي دليجة) ، وهو (فضالة بن كلدة) . وكان قد جبر كسراً ألم به لما صرعته ناقته ، فآواه وداواه حتى برأ ، فتذكر منته عليه[2]. ومن شعره في مدح (فضالة بن كلدة) :

أريب أديب أخو مأزق   نقاباً يخبر بالغائب[3]

ولأوس شعر في (حليمة بنت فضالة بن كلدة) التي مرضته وعاونته مع والدها حتى شفي وبرأ . وهو من باب الشكر والحمد[4] .

وورد البيت على هذه الصورة :

نجيح ، مليح ، أخو مأقط   نقاب يحدث بالغائب[5]

ولما توفي (فضالة) رثاه (أوس بن حجر) في قصيدة جعلها (أبو الفرج الأصبهاني) : « من فاضل مراثيه اياه ونادرها » . ومما جاء فيها :

الألمعي الذي يظن لك الظـ   ـن كأن قد رأى وقد سمعا[6]

---

١ الشعر والشعراء (١٣٥/١) ، رسالة الغفران (٣٣٩) .
٢ الخزانة (٢٣٦/٢) ، (بولاق) .
٣ ديوان أوس (١٢) ، رسائل الجاحظ (٣٠٢/١) ، (رسائل في نفي التشبيه) ، الحيوان (٦٠/٣) .
٤ الحيوان (٧١/٣) ، الاغاني (٧/١٠) ، البيان والتبيين (٣٢٠/٣) ، ديوان أوس (٢٧) .
٥ تهذيب الالفاظ (١٦٤) .
٦ ديوان أوس بن حجر (٥٣) ، البيان والتبيين (٦٨/٤) ، الحيوان (٥٩/٣) ، الاغاني (٨/١٠) ، رسائل الجاحظ (٣٠٢/١) ، (رسائل في نفي التشبيه) ، رسالة الغفران (٤٥٢) .

وهذا البيت من نفس القصيدة التي قال (الأصمعي) عنها : « لم أسمع قط ابتداء مرثية أحسن من ابتداء مرثيته :

أيتها النفس اجملي جزعاً إنّ الذي تحذرين قد وقعا »[1]

ومن شعر أوس بن حجر ، قوله :

فانقض كالدّرّي يتبعه نقعٌ يثور تخاله طنبا
يخفى وأحياناً يلوح كما رفع المشير بكفه لهبا

وقد علّق الجاحظ عليه بقوله : « وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر ، وشريح بن أوس »[2] . وشريح بن أوس هو ابن هذا الشاعر ، وقد ذكر الجاحظ له بيتاً يهجو فيه أبا المهوش الأسدي ، وهو من الشعراء المخضرمين[3] ، وهذا البيت هو :

وعيّرتنا تمر العراق وبره وزادُك أير الكلب شيطه الجمر[4]

وقد ذكر (المعري) قصيدة حائية ، ذكر أنها تروى لعبيد مرة ، ولأوس أخرى.وتختلف في رواية المعري في الترتيب عما جاء في الديوان . ومما جاء فيها :

قاتلها الله ، تلحاني وقد علمت اني لنفسي إفسادي وإصلاحي
أن أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمناً فلا محالة يوماً انني صاح
ولا محالة من قبر بمحنية أو في مليع كظهر الترس وضاح[5]

وجاء فيها ذكر (يهودي) ، إذ يقول :

قد نمتَ عني ،وبات البرقُ يسهرني كما استضاء يهوديٌّ بمصباح[6]

---

١ الشعر والشعراء (١٣٥/١) .
٢ الجاحظ ، الحيوان (٢٧٤/٦ ، ٢٧٩) .
٣ الجاحظ ، الحيوان (٢٧٩/٦) ، بروكلمن (١١٢/١) .
٤ الحيوان (٢٦٨/١) ، وورد (ونخله بدلا من وبره) ، (٣١٩/١) .
٥ رسالة الغفران (٢٧٤ وما بعدها) ، ديوان عبيد (٧٥) ، الامالي (١٧٧/١) .
٦ رسالة الغفران (٢٧٦) .

وقد خلط الرواة بين شعر (أوس) و (عبيــد بن الأبرص) ، ولكنهم نبهوا على ذلك وأشاروا اليه[1] .

وأوس بن حجر من معاصري الملك (عمرو بن هند) ، وهو تميمي ، قتل أبوه يوم (الحجار) المصادف لسنة (٥٥٤ م) ، وكان مولده بالبحرين ، وقد طاف بشعره نجداً والعراق ، فمدح ملوك الحيرة ونادمهم ، ونال شعره شهرة في الصيد والسلاح[2] ، وله وصف للصحارى والسهول المقفرة ، وللمنابع المياه المتدفقة من الكهوف التي يكثر حولها ريش النعام[3] ، ولمسالك البادية[4] ، والنجاد والروابي والجبال[5] ، وللرياض[6] ، كما اشتهر بوصفه للحمير : قال « ابن الأعرابي : لم يصف أحد قط الخيل ، إلا احتاج الى أبي دؤاد ؛ ولا وصف الحمر إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعامة إلا احتاج الى علقمة بن عبدة »[7] . ولأوس شعر وصف فيه ثوراً وحشياً بقوله :

فانصاع كالدُّرّي يتبعــه نقع يثور ، تخاله طنبا[8]

ومن أمثاله السائرة قوله :

فإنكما يا ابنيّ جناب وجدتما كمن دبّ يستخفي وفي الحلق جلجل

وقوله :

ولست بخابىء لغــدٍ طعاماً حذار غد لكلّ غــد طعام[9]

وقد أشار (أوس بن حجر) في شعره الى (المنخّل) اليشكري ، الــذي اتهم بالمتجردة ، فزعم أن النعمان قتله أو حبسه ، ثم غمض خبره ، فلم يعرف

١ رسالة الغفران (٢٧٤ وما بعدها) ، ابن سلام (٧٦ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/١١٢) .
٣ غرونباوم (١٧٩ وما بعدها) .
٤ غرونباوم (١٦٢ ، ١٨٣) .
٥ غرونباوم (١٦٣ ، ١٨٤) .
٦ غرونباوم (١٦٦ ، ١٨٦) .
٧ الاغاني (١٥/٩٦) ، غرونباوم (٢٧٧) .
٨ رسالة الغفران (٢٩٨) .
٩ بلوغ الارب (٣/١٠٤) .

أمره ، وضرب المثل به ، فقيل : « حتّى يؤوب المنخل » . يقــال إن أوساً قال :

فجئت ببيعي مولياً لا أزيده عليه بها ، حتّى يؤوب المنخل[1]

وإذا صح أن هذا الشعر ، هو من شعر (أوس) حقاً ، وأن (المنخل) هو (المنخل) اليشكري الشاعر لا غيره ، فيجب أن يكون أوس قـد عاش بعده ، وأن يكون من المتأخرين عنه .

واذا كان أوس بن حجر من شعراء مضر ، ومن الوصافـين ، فقد كان : (علقمة بن عبده) المشهور بالفحل من شعراء مضر كذلك ، وهو مثل (أوس) من تميم ، وقد اشتهر بوصف النعام . وكان ينادم (الحارث) الأصغر الغساني، والنعمان أبا قابوس اللخمي ، وكان له أخ اسمه (شأس) ، أسره (الحارث بن أبي شمر) الغساني المذكور مع سبعين رجلاً من تميم ، فأتاه علقمة ومدحه بقصيدة أولها :

طحابك قلب في الحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب
الى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتي لكلكلها والقُصْرِيَيَن وجيب

فلما بلغ هذا البيت :

وفي كل حي قد خبطتَ بنعمة فحق لشأسٍ من نداك ذَنوب

فقال الحارث : نعم وأذنبة . وفك أسره ومن أسر معه من (بني تميم) . ويقال ان شأساً هو ابن أخي علقمة[2] .

قيل انه إنما لقب بـ (الفحل) ، لأنه احتكم مع امرىء القيس ، الى امرأته (أم جندب) لتحكم بينهما في أيهما أشعر ، فقالت: قولا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد ، وقافية واحدة ، فلما قالا وانتهيا ، حكمت لعلقمة بأنه أشعر من زوجها (امرىء القيس) فغضب عليهــا وطلقها ، فخلف عليها علقمة ،

---

١ رسالة الغفران (٣٤٠) .

٢ الشعر والشعراء (١٤٧/١ وما بعدها) ، رسالة الغفران (٣٢٧) .

فسمي بذلك : (الفحل)[1] . وهي اسطورة . وقيل انه لقب بالفحل تمييزاً له عن (علقمة بن سهل) من رهطـه ، وكان يعرف بالخصي ، ففرقوا بينهما بهذا الاسم . و (علقمة) الخصي ممن أدرك الإسلام . وكان يكنى (أبا الوضاح)، وقد أسلم ، وكان شاعراً . وهو القائل :

يقول رجال من صديق وصاحب   أراك أبا الوضاح أصبحت ثاويا
فلا يعـدم البانون بيتاً يكنهم   ولا يعدم الميراث مني المواليـا
وخفت عيون الباكيات واقبلـوا   الى بالهم قد بنت عنه عماليـا
حراصاً على ما كنت أجمع قبلهم   هنيئاً لهم جمعي وما كنت آليا[2]

ومن شعره في النساء :

فإن تسألوني بالنساء فإنني   بصير بأدواء النساء طبيبُ
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله   فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المالِ حيث علمنه   وشرخ الشباب عندهن عجيب[3]

ومما ينسب اليه قوله :

وكل حصنٍ وإن دامت سلامته   على دعائمه لا بد مهدوم
ومن تعرض للغربان يزجرها   على سلامته لا بد مشؤوم
ومعظم الغُنم يوم الغُنم مطعمه   أنى توجه والمحروم محروم
وكل قوم وإن عزوا وإن كثُروا   عريفهم بأثافي الشر مرجوم[4]

وقد اشتهر (علقمة) بثلاث قصائد قال فيهن (ابن سلام) : « ولابن عبدة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر »[5] ، منها قصيدته الميمية التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم[6]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٤٥) ، ابن سلام ، طبقات (١١٦) ، الاغاني (٢١/١٧٢)، الخزانة (١/٥٦٥) .
٢ الخزانة (١/٥٦٥) .
٣ رسالة الغفران (٣٢٨) ، الشعر والشعراء (١/١٤٦) .
٤ بلوغ الارب (٣/١١٣) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٣١) .
٦ رسالة الغفران (١٤٢) .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

ويلمِّ أيام الشباب معيشة مع الكُثر يعطاه الفتى المتلف الندى

وقد نسبه بعضهم لابنه : خالد بن علقمة بن عبدة ، ونسبه غيرهم لشعراء آخرين[1] .

وقد ذكر (ابن حجر) في كتابه (الإصابة) اسم رجل دعاه (علي بن علقمة بن عبدة) التميمي ، قال عنه انه ولد (علقمة) الشاعر المشهور الذي يعرف بعلقمة الفحل . وكان من شعراء الجاهلية من أقران امرىء القيس، ولعلّ هذا ولد اسمه (عبد الرحمن) ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، فيلزم من ذلك أن يكون أبوه من أهل هذا القسم ، لأن عبد الرحمن لم يدرك النبي ، وعبد الرحمن هو القائل :

وشامت بي لا يخفي عداوته إذا حمامي ساقته المقادير
فلا يغرّنْك جرّ الثوب معتجراً إني امرؤ لي عند الجدّ تشمير[2]

وعدّ (العنبر بن عمرو بن تميم) من قدماء الشعراء . وجعل (ابن سلام) قوله :

قد رابني من دلوي اضطرابها والنأي في بهراء واغترابها
أن لا تجيءْ ملأى يجيء قرابها

من قديم الشعر الصحيح[3] .

وكان سعد ومالك ابنا زيد مناة بن تميم ، ممن قالوا الشعر[4] ، وكذلك (حجر ابن معاوية) آكل المرّار[5] . وقد أورد (الجاحظ) بيتين من الشعر لسعد بن ربيعة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ثم قال : « وهذا من قديم الشعر » ، وذكر

---

١ الخزانة (١/٥٦٣) .
٢ الاصابة (٣/١١١) ، (رقم ٦٤٦٠) ، الخزانة (١/٥٦٦) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١١) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١١) .
٥ البيان والتبيين (٣/٣٢٨) .

في موضع آخر انه « من قديم الشعر وصحيحه »[1] .

ومن شعراء تميم : (عبد القيس بن خفاف) (عبد قيس)، البرجمي التميمي وكان معاصراً لحاتم الطائي ، فأتاه ذات يوم في دماء حملها عن قومه وعجز عنها، فأعطاه حاتم مرباعاً له من غارة على بني تميم[2] .

ويقال انه قال شعراً على لسان النابغة في هجاء النعمان بن المنذر أبي قابوس ملك الحيرة ، ليكيد به الى النابغة ، حسداً له ، وقد فعل فعله في هذا الدس شاعر آخر هو (مرّة بن ربيعة) السعدي[3] .

وينسب له قوله :

فالله فاتقه وأوف بنذره	وإذا حلفت ممارياً فتحلل
واعلم بأن الضيفَ مكرم أهله	بمبيت ليلته وإن لم يسأل
والضيف اكرمه فإن مبيته	حقٌ ولا تك لعنة للنزل
وصل المواصلَ ما صفا لك وده	واحزز حبال الخائن المتبدل
واترك محل السوء لا تحلل به	وإذ نبا بك منزل فتحوّل
دار الهوان لمن رآها داره	أفراحلٌ عنها كمن لم يرحل؟
وإذا هممت بأمر شرّ فاتئد	وإذا هممت بأمر خير فاعجل
وإذا أتتك من العدوّ قوارص	فاقرص هناك ولا تقل لم أفعل[4]

ومن شعراء تميم : (عوف بن عطيّة بن الخرع) التميمي . وكان سيد قومه يوم (رحرحان) . ذكر (البغدادي) أنه كان له ديوان صغير موجود عنده[5] .

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٠٠ ، ٣٤١) .
٢ بروكلمن (١/١١٦) .
٣ الشعر والشعراء (١/٩٩ وما بعدها) ، (النابغة الذبياني) ، الاغاني (٧/١٤٥)، المفضلية رقم ١١٦ ورقم ١١٧ ، الحيوان (٤/٣٧٩) ، المرزباني ، معجم (٣٢٥) ، الحماسة (١/١١٣) ، نوادر أبي زيد (١١٣ وما بعدها ، ١٢٦) ، الاغاني (٩/١٥٨) ، (ساسي) .
٤ بلوغ الارب (٣/١٢٥) .
٥ الخزانة (٣/٨٣) ، المرزباني (٢٢٦) ، بروكلمن (١/١١٨) .

و (سلامة بن جندل) من شعراء تميم ، ويظهر من قصيدة رثا بها (النعمان أبي قابوس) انه عاش بعده . قال عنه (ابن قتيبة) : هو شاعر جاهلي قديم من فرسان تميم المعدودين . وأخوه (أحمر بن جندل) من الشعراء والفرسان . وكان (عمرو بن كلثوم) أغار على حي من بني سعد بن زيد مناة ، فأصاب منهم ، وكان فيمن أصاب (أحمر بن جندل)[1] . ويدل شعره في رثاء (النعمان) انه مات في عهد قريب من الاسلام . وله ديوان صغير مطبوع،أكثره في الحماسة والفخر ، مع شيء جميل من الوصف والتشبيه[2] .

ومن قوله في الشيب :

ولّى الشبابُ وهذا الشيب يطلبه   لو كان يدركه ركض اليعاقيب[3]

ومن شعره قوله :

ليس بأسفى ولا اقنى ولا سغل   يعطي دواء قفيّ السكن مربوب[4]

وكان أحد من يصف الخيل ، فيحسن ، وأجود شعره قصيدته التي أولها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيب   ولّى وذلك شأو غير مطلوب[5]

وقد زعم (آلورد) أنه أسلم ، « لأنه ذكر اسم الله : الرحمن . وهذا بعيد الاحتمال . كما ظنه لويس شيخو من أنه كان نصرانياً »[6] . وقد طبع (شيخو) ديوانه في بيروت سنة (١٩١٠) .

و (طريف بن تميم) العنبري ، من الشعراء الفرسان ، وكانت الفرسان لا تشهد عكاظ إلا مبرقعة مخافة الثؤرة ، وكان طريف لا يتبرقع كما يتبرقعون ،

---

١ الشعر والشعراء (١٩٢/١ وما بعدها) ، الاصمعيات رقم ٤٢ ، الخزانة (٨٦/٢) ، بروكلمن (١١٩/١) ، الامالي للقالي (١٠/١) .

٢ كارلو نالينو (٨٠) ، طبعة « كليمان هوار » في المجلة الاسيوية ، وطبعة « لويس شيخو » في « بيروت » سنة ١٩٢١ م .

٣ الامالي للقالي (١٨٥/١) .

٤ ذيل الامالي (٢٠٩) ، ابن سلام ، طبقات (١٣١) .

٥ الشعر والشعراء (١٩٢/١ وما بعدها) ، الخزانة (٨٦/٢) .

٦ بروكلمن (١١٩/١) .

وكان قد أغار في (بني العنبر) (عائذة) حلفاء لبني (أبي ربيعة بن ذهل)، فرماه (حصيصه بن شراحيل) الشيباني ، فقتله . وهو القائل :

أو كلما وردت عكاظَ قبيلةٌ   بعثوا إليّ عريفهم يتوسم[1]

مفتخراً بشجاعته على أعدائه وعلى الذين كانوا يتعقبون خطاه لقتله ، أخذاً بالثأر منه .

و (الأسود بن يعفر بن عبد القيس بن نهشل) النهشلي،من الشعراء المتقدمين في الجاهلية . وهو تميمي دارمي ، وقد عدّت قصيدته التي أولها :

نام الخليُّ وما أحس رقادي   والهم محتضر لديّ وسادي

من أجود الشعر ومن مختار أشعار العرب . وقد عدّه (ابن سلام) في الطبقة الثانية من طبقات الشعراء[2] . وقد عرف بـ (ذي الآثار) ، لما كان يتركه هجاؤه من أثر في المهجوين[3] . وقد وردت في قصيدته المذكورة شواهد نحوية وردت في كتب الشواهد،وتعدّ القصيدة من مختار أشعار العرب وحكمها المأثورة . وكان ينادم (النعمان بن المنذر) ، وابنه الجرّاح وأخوه حطائط شاعران[4] ، وكان يكنى بابنه ، فعرف بـ (أبي الجرّاح)[5] .

ومن شعره قوله :

ومن الحوادثِ لا أبالكَ انني   ضُربَتْ عليّ الأرضُ بالأسداد
لا أهتدي فيها لمدفع تلعةٍ   بين العذيب وبين أرض مرادِ

وفيها يقول :

ماذا أؤمل بعد آل محرق   تركوا منازلهم ، وبعد إياد

---

١ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢١٨ وما بعدها) ، تاج العروس (١٧٨/٦) ، (طرف) .
٢ الشعر والشعراء (١٧٦٨) ، الاغاني (١٢٩/١١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٥٥٣/٢) ، المعارف (٦٤٦ وما بعدها) .
٣ المفضليات (رقم ٥٥ ، و ١٢٥) ، الاغاني (١٤/١٣ وما بعدها) ، (دار الكتب) .
٤ الخزانة (١٩٥/١) ، (بولاق) .
٥ الشعر والشعراء (١٧٦/١) .

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد

أرض تخيرها لطيب مقيلها كعب بن مامة وابن أم دواد

جرت الرياح على محلّ ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

فإذا النعيم وكلّ ما يلهى به يوماً يصير الى بلى ونفاد[1]

وهو جيد العبارة ، ليس بالمكثر ، ينزع في شعره الى الحكمة . يكثر التنقل في العرب ، يجاورهم فيذم ويحمد[2] .

ومن شعر (حطائط) قوله :

أريني جواداً مات هزلاً لعلني أرى ما ترين أو بخيلاً مخلدا

ذريني أكن للمال رباً ولا يكن لي المال رباً تحمدي غبه غدا

ذريني يكن مالي لعرضي وقاية فقي المال عرضي قبل أن يتبددا[3]

والشاعر (عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ، وقيل : (عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك) ، ويكنى (أبا كعب) ، هو من (بني سعد بن مالك) ، رهط (طرفة بن العبد) وهو من (بني قيس ابن ثعلبة) . وكان في عصر (مهلهل بن ربيعة) . وقد نعت بأنه قديم جاهلي. وتزعم (بكر) ، انه أول من قال الشعر وقصّد القصيد ، وذكر انه كان أول من بكى على شبابه . وكان مع (حجر) أبي (امرىء القيس) ، فلما خرج (امرؤ القيس) الى بلاد الروم يستمد قيصر على بني أسد ، استصحبه ، فمات في سفره ذلك ، فسمته (بكر) (عمراً الضائع) . واياه عنى امرؤ القيس بقوله :

---

١ المحاسن والاضداد (٨٨) ، الشعر والشعراء (١٧٦/١ وما بعدها) ، طبقات ابن سلام (١٢٣) ، ويوجد اختلاف في رواية بعض الفاظ هذا الشعر .

٢ البخلاء (٦٦ ، ٣٣٩) ، الاغاني (١٣٤/١١) ، الآمدي ، المؤتلف (١٦ وما بعدها) .

٣ الخزانة (١٩٥/١ وما بعدها) .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك انما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا [1]

وهو ابن أخي المرقش الأكبر ، وخال المرقش الأصغر ، وجدّ طرفة لأمه. وذكر انه عمّر حتى جاوز التسعين ، وقال :

كأني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عني عذار لجام [2]

وذكر (الجاحظ) أنه هو القائل :

شرّكم حاضر وخيركم د رّ خروس من الأرانب بكر [3]

وذكر قبله أبياتاً هي :

ليس طُعمي طُعمَ الأنامل إذ قلّص درّ اللقاح في الصنبر
ورأيت الإماء كالجعثن البا لي عكوفاً على قُرارة قدر
ورأيت الدخان كالودع الأهـ جن ينباع من وراء الستر [4]

وذكر (ابن قتيبة) ، أن (عمرو بن قميئة) ، كان من خدم (حجر) والد (امرىء القيس) ، وأنه بكى لما سار معه الى بلاد الروم ، وقال له : « غررت بنا » [5]. ولا يعقل أن يكون (عمرو) من خدم (حجر) ، فهو وإن نشأ يتيماً في كفالة عمه (مرثد بن سعد) ، كما تذكر بعض الروايات [6] ،

---

١ المرزباني ، معجم الشعراء (٣ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٦٠) ، (عبد الستار أحمد فراج) ، الشعر والشعراء (٢٩٢/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٥٨/١٦ وما بعدها) ، طبقات الشعراء (٥٩) ، المؤتلف (٨٦٨) ، الجرجاني (١٢٩) ، البيان والتبيين (١٨/٢) ، المعمرون للسجستاني (٨٩) ، الخزانة (٢٤٩/٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٤١/٣) .
٢ المرزباني ، معجم (٣) ، الشعر والشعراء (٢٩٣/١) ، المرزباني ، معجم (ص ٢٠٠) ، (القدسي ١٣٥٤ هـ) ، بروكلمن (١١٧/١) ، أمالي المرتضى (٤٥/١) .
٣ البخلاء (٢١٤) ، (الحاجري) .
٤ الحيوان (٧٣/٥) ، (عبد السلام هارون) ،
بسر يطعم الارامل اذ قلص در اللقاح في الصنبر
رسائل الجاحظ (٣٥٧/٢) ، (كتاب البغال) .
٥ الشعر والشعراء (٦٠/١) ، (الثقافة) .
٦ الاغاني (١٥٨/١٦) ، البخلاء (٤١٢) ، (الحاجري) .

إلا أن أسرته لم تكن من طبقة وضيعة ، حتى يصير (عمرو) من خلم (حجر). بل روي أنه كان عاملاً لحجر[1] .

وورد انه في شعراء ربيعة الذين ابتدأ الشعر بهم قبل أن يتحول في قيس ، كالمرقشين وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة[2] . و (عمرو) هو القائل يبكي شبابه :

لا تغبط المرءَ أن يقال له أمسى فلان لعمره حكما
إن يُمْسِ في خفض عيشه فلقد أخنى على الوجه طول ما سلما
قد كنتُ في ميعةٍ أسرُّ بها أمنع ضيمي وأهبط العصما
يا لهفَ نفسي على الشباب ولم أفقد به إذ فقدته أمما[3]

وأورد الجاحظ من شعره قوله :

وأهون كفٍ لا تضيرك ضيرةً يدٌ بين أيدٍ في إناء طعام
يدٌ من قريبٍ أو غريب بقفرةٍ أتتك بها غبّراء ذاتُ قتام[4]

وقد استشهد ببيت من شعر نسب اليه ، هو :

ولما رأت ساتيدَما استعبرت للهِ در اليوم من لامها

والشعر هو :

قد سألتني بنت عمرو عن الأرض التي تنكر أعلامها
لما رأت ساتيد ما استعبرت لله در اليوم من لامها
تذكرت أرضاً بها أهلها أخوالهـا فيها وأعمامـها[5]

وأما قصة رحيله مع (امرىء القيس) الى قيصر ، ووفاته ، وهو في سفره

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١١٧) .
٢ طبقات الشعراء ، لابن سلام (٣٤) ، (دار المعارف) ، (١٩٥٢) ، البخلاء (٤١٢) ، (الحاجري) .
٣ المرزباني ، معجم (٤) ، (فراج) .
٤ البيان والتبيين (٣/٢٤١) .
٥ الخزانة (٢/٢٤٧ وما بعدها) .

معه ، فجزء من أسطورة سفر (امرىء القيس) الى الروم[1] .

وكان (عبيد بن الأبرص) شاعر (بني أسد) من المعاصرين لامرىء القيس، وله شعر يخاطبه فيه ، لما أظهره من تهديد ووعيد لبني أسد ، ويرد فيه عليه[2]. وقد انجبت (بنو أسد) جملة شعراء . وذكر أنه كان لدة لـ (عبد المطلب) جد النبي ، وأنه مـــات قبل (عبد المطلب) بعشرين سنة . قتله (المنذر) أبو (النعمان بن المنذر)[3] . وإذا أخذنا بهذه الرواية واعتبرناها صحيحة، ورجعنا الى تأريخ وفاة (عبد المطب) التي كانت بعد الفيل بثماني سنين[4] ، وإذا جارينا المستشرقين واعتبرنا أن عام الفيـــل ، يقابل السنة (٥٧٠) للميلاد ، تكون وفاة (عبد المطلب) في حوالى السنة (٥٧٨) للميلاد،فيكون قتل (عبيد بن الأبرص) في حوالى السنة (٥٥٨) للميلاد على هذا التقدير . ولكن الذي نعرفه من روايات أهل الأخبار أن (عبيد) هذا قد قتله (المنذر بن امرىء القيس) المعروف بالمنذر ابن ماء السماء ، الذي تولى الملك في حوالى السنة (٥٠٨) للميلاد وقتل سنة (٥٥٤) للميلاد[5] . فيجب أن يكون مقتل (عبيد) قبل السنة (٥٥٤) للميلاد لا بعدها ، على حسب تقدير الرواية السابقة .

وهو (عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم) من (بني ثعلبة بن دودان) من (بني أسد) . قال عنه (ابن قتيبة) : « وكان عبيد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين ، وشهد مقتل حجر أبي امرىء القيس . وهو القائل لامرىء القيس:

يا ذا المخوّفنا بقتل أبيـــه إذلالاً وحَيْنـا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا »[6]

ويجب أن يكون مقتل (حجر) بعد السنة (٥٢٨) للميلاد . وهي السنة التي توفي فيها (الحارث) والد (حجر) على غالب الروايات[7] . ولا نعـرف متى

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١١٧) .
٢ الخزانة (١/٣٢٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ الروض الانف (١/٥) .
٤ تأريخ الطبري (٢/٢٧٧) ، (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسبابه) .
٥ الجزء الثالث (ص ٢١٩) من هذا الكتاب .
٦ الشعر والشعراء (١/١٨٧) ، الخزانة (١/٣٢٢) .
٧ الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٢ وما بعدها) .

قتل (حجر) على وجه صحيح ، غير أننا نستطيع أن نقول إن حكمه لم يدم طويلاً على (بني أسد) الذين انتهزوا فرصة وفاة (الحارث) وعودة الحكم الى ملوك الحيرة ، أيام (المنذر بن ماء السماء) الذي أخذ يتعقب آل الحـارث ، ليقتلهم ، فثاروا على (حجر) وقتلوه .

وذكر ان (المنذر بن ماء السماء) هو الذي قتل عبيداً ، قتله يوم بؤسه . وكان يقتل فيه أول من يطلع عليه . فلما رآه المنذر ، قال له : هلاّ كان هذا لغيرك يا عبيد ! أنشدني ، فربما أعجبني شعرك ! فقال له عبيد : حال الجريض دون القريض . قال : أنشدني : أقفر من أهله ملحوب ، فأنشده عبيد :

أقفر من أهله عبيد   فاليوم لا يبدي ولا يعيد

فسأله أي قتلة يختار ؟ قال عبيد : أسقني من الراح حتى أثمل ، ثم افصدني الأكحل ، ففعل ذلك به ، ولطخ بدمه الغريين . والغريان طربالان كان يلطخهما بدماء القتلى يوم بؤسه . وكان بناهما على نديمين له ، وهما : خالد بن نضلة الفقعسي ، وعمرو بن مسعود[1] .

وذكر الرواة ان الملك قال لعبيد : أي قتلة تختار ؟ أنشأ يقول :

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه   خصالاً أرى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة   سحائب ما فيها لذي خيرة أنق
سحائب ريح لم توكل ببلدة   فتتركها إلا كما ليلة طلق[2]

وقد ذكر (ابن قتيبة) أن « قصيدته التي يقول فيها: أقفر من أهله ملحوب ، وهي إحدى السبع » ، هي من أجود شعره[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/١٨٨) ، وقد أخطأ « ابن قتيبة » اذ جعل قاتله « النعمان بن المنذر » ، وقد ذهب الى هذا المذهب أيضا في كتاب شمس العلوم (الجـز الاول ، القسم الثاني ص ٣٢٠) .

٢ الخزانة (١/٣٢٤) .

٣ الشعر والشعرا (١/١٨٨) .

ومن أمثاله السائرة قوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

الخير يبقى وإن طال الزمانُ به والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

وقوله :

الخير لا يأتي على عجلٍ والشرّ يسبق سيله مطره[1]

ويعد (عبيد) في جملة المعمرين ، فقد جعل (ابن قتيبة) عمره أكثر من ثلثمائة سنة[2] ، وجعل (السجستاني) عمره مائتي سنة وعشرين ، ويقال بل ثلثمائة سنة[3] . ولتأييد رأيهم في أنه عاش هذا العمر حقاً ، أوجدوا شعراً زعموا أنه قاله ، هو :

ولتأتينْ بعدي قرون جمة ترعى محارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف والنجم يجري انحسار سعودا
حتى يقال لمن تعرق دهره يا ذا الزمانة هل رأيت عبيدا
مائتي زمان كامل وبضعة عشرين عشت معمراً محمودا
أدركت أول ملك نصر ناشئاً وبناء شداد وكان أبيدا
وطلبت ذا القرنين حتى فاتني ركضاً وكدت بأن أرى داوودا
ما تبتغيْ من بعد هذا عيشة إلا الخلود ولن تنال خلودا
وليَفنين هذا وذاك كلاهما إلا الإله ووجهه المعبودا[4]

وهو شعر يجعل عمر (عبيد) أكثر من ألف عام ، لا مائتي سنة وعشرين

---

١ بلوغ الارب (١٠٧/٣) .
٢ الشعر والشعراء (١٨٨/١) ، الخزانة (٣٢٣/١) .
٣ الخزانة (٣٢٣/١) .
٤ الخزانة (٣٢٣/١) .

ويجعله فيمن ولد قبل الميلاد بزمان. وقد شاء صانعه أن يجعل شاعره من المؤمنين بالله الموحدين ، على نحو ما ترى في البيت الأخير من الشعر المزعوم :

ويجب أن نضيف الى الشعراء المذكورين الشاعر المعروف بـ (مرة بن الرواع الأسدي) ، أحد بني (حي بن مالك) . وهو شاعر قديم يقول أهل الأخبار انه كان في عصر (امرىء القيس) ، وان (امرىء القيس) كان يعلّم قيانه أشعار (ابن الرواع)[1] .

وهو القائل :

أشاقك من فكيهتك ادّلاجُ   وبُتَّ الحبل وانقطع الخلاجُ

من قصيدة طويلة . وقوله :

إن الخليط أجدوا البين وادّلجوا   وهمّ كذلك في آثارهم لحجُ[2]

و (المنقذ بنَ الطمّاح) الأسدي ، شاعر جاهلي من الفرسان المعدودين . وقد أغار على إبل المنذر بن ماء السماء[3] . وقد عرف بـ (الجميح) ، وينسب اليه قوله :

يأبى الذكاء ويأبى أن شيخكم   لن يعطي الآن من ضربٍ وتأديب[4]

و (عبد يغوث بن صلاءة ، وقيل ابن الحارث بن وقاص بن صلاءة بن المعقل) واسمه (ربيعة بن كعب) من شعراء الجاهلية فارس ، سيد قومه من (بني الحارث بن كعب) من اليمن . وكان قائدهم في يوم الكلاب الثاني الى بني تميم وفي ذلك اليوم أسر فقتل . وله قصيدة قالها وهو في أسره أولها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا   فما لكما في اللومِ خير ولا ليا

---

١ المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٨٢) .
٢ المرزباني ، معجم الشعراء (٢٩٤) ، (عبد الستار فراج) .
٣ معجم الشعراء (٣٢٩) ، الاصمعيات (٨٠) ، المفضليات (١٠٩) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٦٨) .
٤ المفضليات رقم ٤ من القصيدة ٤ ، بروكلمن (١/٧٨) .

ذكر ان الذي أسره غلام أهوج من (بني عمرو بن عبد شمس) ، فانطلق به اهله ، فقالت له أم الغلام : من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم ! فضحكت وقالت : قبحك الله من سيد قوم حين أسرك هذا الأهوج ، والى هذا أشار بقوله :

وتضحك مني شيخة عبشمية   كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا[1]

وذكر أنه خاطب الشيخة بقوله : أيتها الحرة ، هل لكِ الى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : أعطي ابنك مائة من الإبل وينطلق بي الى الأهتم ، فإني أخاف أن تنتزعني سعد والرباب منه ، فضمن لها مائة من الإبل ، وأرسل الى (بني الحارث) فوجهوا بها اليه فقبضها العبشمي ، وانطلق به الى الأهتم ، فقال عبد يغوث :

أأهتم يا خير البرية والداً   ورهطاً إذا ما الناس عدّوا المساعيا

فشت سعد والرباب الى الأهتم فيه ، فقالت الرباب : قتل فارسنا ، وهو النعمان بن جساس ، ولم يقتل لكم فارس ، فدفعه اليهم ، فأخذه (عصمة بن أبير) التيمي ، فانطلق به الى منزله ، فقال عبد يغوث : يا بني تيم ، اقتلوني قتلة كريمة . فقال عصمة : وما تلك القتلة ؟ قال : اسقوني الخمر ودعوني أنوح على نفسي ، فجاءه عصمة بالشراب ، فسقاه ، ثم قطع عرقه الأكحل ، وتركه ينزف ، ومضى وجعل معه رجلين ، فقالا لعبد يغوث : جمعت أهل اليمن ، ثم جئت لتصطلحنا ، كيف رأيت صنع الله بك فقال هذه القصيدة :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا   فما لكما في اللوم خير ولا ليا[2]

ومما جاء في هذه القصيدة قوله :

أقول وقد شدّوا لساني بنسعة   أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

وقد ذهب العلماء مذهبين في تفسيره ، منهم من قال : انه أراد افعلوا بي

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٦٧٦/٢) ، الخزانة (٣١٦/١) ، (بولاق) ، الاغاني (٧٣/١٥) ، زيدان تأريخ آداب اللغة العربية (١٣٦/١ وما بعدها) .

٢ الخزانة (٣١٤/١) .

خيراً لينطلق لساني بشكركم ، وانكم ما لم تفعلوا فلساني مشدود لا أقدر على مدحكم ، لأن اللسان لا يشد بنسعة ، ومنهم من قال : انهم شدّوه بنسعة حقيقة، بأنهم ربطوه بنسعة مخافة أن يهجوهم وكانوا سمعوه ينشد شعراً ، فقال : اطلقوا لي عن لساني أذمّ أصحابي وأنوح على نفسي ، فقالوا : انك شاعر ، ونحذر أن تهجونا ، فعاهدهم على أن لا يهجوهم ، فأطلقوا له عن لسانه . « قال الجاحظ : وبلغ خوفهم من الهجاء أن يبقى ذكرهم في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، انهم اذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدّوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث »[1] .

وكان (عبد يغوث) شاعراً من شعراء الجاهلية ، من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والإسلام ، منهم : اللجلاج الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه : مسهر ، فارس شاعر ، وهو الذي طعن (عامر بن الطفيل) في عينه يوم (فيف الريح) ، ومنهم من أدرك الإسلام : (جعفر بن علبة بن ربيعة بن الحارث بن عبد يغوث)،وكان شاعراً صعلوكاً ، أخذ في دم فحبس بالمدينة ، ثم قتل صبراً[2] .

« قال الجاحظ في البيان والتبيين : وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد ، وعبد يغوث ، فإن قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما ، فلم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية »[3] .

ومن الشعراء المعمرين (ذو الاصبع العدواني) ، واسمه (حرثان بن محرث ابن الحارث) أو (حرثان بن الحارث بن عمرو بن عبادة بن يشكر) اليشكري العدواني ، لقب بذي الإصبع لأن حيّة نهشته على اصبعه فشلّت ، فسمي بذلك. زعم انه عاش مائة وسبعين سنة ، واستقل هذا العدد (أبو حاتم) ، فجعله ثلاثمائة سنة ، وهو عمر لا بأس به ! وكان أحد حكّام العرب ، وله قصة مع بناته الأربع ، في موضوع الزواج، وصفات الزوج ، ورغبة المرأة في الازدواج، رووا ان (عبد الملك بن مروان) كان يحفظ شعره ، وانه سأل رجلاً من

---

١ البيان والتبيين (٤٥/٤) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (٣١٦/١) .
٢ الخزانة (٣١٧/١) ، (بولاق) ، الاشتقاق (٢٣٩/٢) .
٣ البيان والتبيين (٢٦٨/٢) ، الحيوان (١٥٧/٧) ، الخزانة (٣١٧/١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٦٧٦/٢) .

(عدوان) عن شعره وأخباره ، فلم يعرف من أمره شيئاً،فحط من عطائه ثلاثمائة، زادها في عطاء رجل آخر ، كان يعرف شعره[1] . ومن شعره المزعوم في وصف حاله :

أصبحت شيخاً أرى الشخصين أربعة والشخص شخصين لما مسّني الكبر
لا أسمع الصوت حتّى أستدير له ليلاً وإن هو ناغاني به القمر[2]

ومن شعر (ذي الاصبع) قوله :

جلبنا الخيل من بقران قبا تجوب الأرض فجاً بعد فج

وقوله يذكر عدة من ديارهم :

إن داري بعرهب فبصعر فعور فوخدة فالمرار
ولنا منزل برقبة لا يسمع فيه تهاذي الأخبار
منزل أحرز الحواضن فيه كل قرم متوج جبّار
ثم بالفرع قد نزلنا قبيلاً دار صدق قليلة الأقدار
ذات حرز وعزة ونجاة وامتناع من جحفل جرّار
ماؤنا الفيض لا يُعدّ بنا القيظ ولا النزع بالرشاء المغار[3]

ومن شعره قوله :

لي ابن عم على ما كان من خلق مخالف لي أقليه ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا فخالني دونه بل خلته دوني

---

١ « حرثان بن السموأل » « حرثان بن محارب » ، « حرثان بن الحارث بن محرث » ، ابن الشجري (١/٣٦٣) . العقد الفريد (٢/٣٢٨ ، ٣٦٣) ، الامالي للقالي (١/٢٥٤) ، الخزانة (٣/٢٢٢) ، الاغاني (٣/٩١ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١/٢٤٤ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٦٣) ، المعمرون (٩٠) ، الخزانة (٢/٤٠٦ وما بعدها) ، (بولاق) ، (حرثان بن السموأل) ، اللآلي (٢٨٩) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٤٣٠) ، الامالي (١/٩٣) .

٢ الخزانة (٢/٤٠٨) ، بولاق ، المؤتلف ، للامدي (١١٨) ، الشعر والشعراء (٢/٥٩٧ وما بعدها) .

٣ الصفة (١٢٣) .

إنكَ الا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني
إني لعمري ما بيتي بذي غلقٍ على الصديقِ ولا خيري بممنون
ولا لساني على الأدنى بمنبسطٍ بالفاحشات ، ولا فتكي بمأمون
عني اليكَ فما أمي براعية ترعى المخاض ولا رأيي بمغبون
لا يُخرج الكرهُ مني غير مأبيةٍ ولا ألينُ لمن لا يبتغي ليني

وله قوله :

عذير الحيّ من عدوا ن كانوا حية الأرض
علا بعضهم بعضاً فلم يُرعو على بعض
ومنهم كانت السادا ت والموفون بالقرض
ومنهم حكمٌ يقضي فلا ينقض ما يقضي
إذا ما ولدوا أشبوا بسر الحسب المحض[1]

ومن شعراء (بني يشكر) : (المنخل بن عُبيد بن عامر) ، « وهو قديم جاهلي ، وكان يشبب بهند أخت عمرو بن هند » . وذكر انه اتهم بـ(المتجردة) (امرأة النعمان بن المنذر) ، وهو الذي وشى الى (النعمان) بالنابغة ، لما وصف المتجردة ، وكان أيضاً يتهم بامرأة (عمرو بن هند) . وكان جميلاً ، وقد يكون جماله هذا هو الذي أولد هذا القصص المقال حوله من اتصاله بأخت (عمرو ابن هند) ، وبزوجته ، وبزوجة النعمان . ويذكر (ابن قتيبة) ان (عمرو بن هند) قتله ، وانه قال قبيل قتله :

طل وسط العباد قتلي بلا جر م ، وقومي ينتجون السخالا
لا رعيتم بطناً خصيبا ، ولا زر تُمْ عدواً ، ولا رزأتم قبالا[2]

وهذا الخبر ، يناقض الأخبار التي تذكر انه كان يتهم بالمتجردة ، وانه وشى بالنابغة عند النعمان ، وان (النعمان) خرج يتصيد ، فعمدت الى قيد فجعلت رجلها في احدى حلقتيه ، ورجل المنخل في الأخرى شغفاً به ، وجاء النعمان

١ الشعر والشعراء (٢/٥٩٧ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣١٨) ، المؤتلف (١٧٨) ، الاغاني (٩/١٦٦) .

فألقاهما على حالها ، فأمر بالمنخل فقتل ، فضربت به العرب المثل ، فقال أوس ابن حجر :

فجئت ربيعي مُوليـاً لا أزيده عليه بها حتّى يؤوب المنخل[1]

وقد أشار ذو الرمة الى المنخل بقوله :

تقارب حتّى يطمع التأي في الهوى وليست بأدنى من إياب المنخل[2]

وقد ورد اسمه على هذه الصورة في (تاج العروس) : « والمنخل بن خليل اليشكري ، كمعظم : شاعر . ومنه لا أفعله حتّى يؤوب المنخل . مثل للتأبيد ، يضرب في الغائب الذي لا يرجى إيابه ، كما يقال : حتّى يؤوب القارظ العنزي ، واسمه عامر بن رهم بن هميم . وقال الأصمعي : المنخل رجل أرسل في حاجة ، فلم يرجع ، فصار مثلاً في كل ما لا يرجى »[3] .

وقد اشتهر بقصيدته :

ولقد دخلتُ على الفتا ة الخدر في اليوم المطيرِ
الكاعـب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتهـا فتـدافعت مشي القطاة الى الغدير
وعطفتهـا فتعطفـت كتعطف الظبي الغـرير
فترت وقالت : يا منخل مـا بجسمك من فتورِ[4]

ومن المعمرين (معدي كرب) الحميري من آل (ذي رُعين) ، رووا له شعراً منه :

أراني كلما أفنيت يوماً أتاني بعده يومٌ جديدُ
يعود بياضه في كل فجرٍ ويأبى لي شبابي ما يعود[5]

---

١ أسماء المغتالين (المجموعة السابعة من نوادر المخطوطات) ، (ص ٢٣٩) .
٢ ديوانه (٥٠٩) ، الاغاني (١٥٣/١٨) ، أسماء المغتالين (٢٣٩) .
٣ تاج العروس (١٣١/٨) ، (نخل) .
٤ الشعر والشعراء (٣١٧/١ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (٢٥٣/١) .

و (بشر بن أبي خازم) شاعر جاهلي قديم ، من بني أسد ، شهد حرب أسد وطيء ، وشهد هو وابنه نوفل بن بشر الحلفَ بينهما . وكان في أول أمره يهجو (أوس بن حارثة بن لأم) الطائي ، فأسرته بنو نبهان من طيء، فركب (أوس) اليهم فاستوهبه منهم ، وكان قد نذر ليحرقنه إن قدر عليه ، فوهبوه له ، ثم شفعت له أم أوس ، ففك أسره ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، لأن الهجاء لا يمحى عند العرب إلا بمـدح ، يمحو أثره ، في قصة يروونها عن كيفية وقوعه في الأسر[1] .

وروي انه لما طعن ، طعنه غلام من (بني واثلة) بسهم فأثخنه ، وأخذ يجود بنفسه ، قال قصيدة يخاطب بها ابنته عميرة :

أسائلة عميرة عن أبيها   خلال الجيش تعترف الركابا

وهي قصيدة روى بعض أبياتها الشريف المرتضى في أماليه[2]. وكان بشر قد أغار في مقنب من قومه على (الأبناء) من بني صعصعة بن معاوية ، وكل (بني صعصعة) إلا (عامر بن صعصعة) يدعون الأبناء ، وهم واثلة ، ومازن ، وسلول ، فلما جالت الخيل مرّ (بشر) بغلام من (بني واثلة) فقال له (بشر) استأسر ، فقال له الوائلي : لتذهبن أو لأرشقنك بسهم من كنانتي ، فأبى بشر إلا أسره، فرماه بسهم ، فاعتنق بشر فرسه وأخذ الغلام فأوثقه ، فلما كان في الليـل أطلقه بشر من وثاقه وخلّى سبيله ، وقال : اعلم قومك انك قتلت بشراً ، وهو قوله :

وان الوائليَّ أصاب قلـبي   بسهم لم يكن نكساً لغابا[3]

ومن هذه القصيدة قوله :

تسائل عن أبيها كل ركبٍ   ولم تعـلم بأن السهم صابا
فرجي الخير وانتظري إيابي   إذا ما القارظُ العنزي آبـا

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٠ وما بعدها) ، المفضلية (٩٨) ، أسماء المغتالين (٢١٤) ، (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) ، رسالة الغفران (١٦٦) .
٢ أمالي المرتضى (١/٣٤١) ، الخزانة (٢/٢٦٢) ، مختارات ابن الشجري (٨١ وما بعدها) ، الاغاني (١١/١٠) ، المؤتلف (٦٠) .
٣ الخزانة (٢/٢٦٢) ، (بولاق) .

والقارظان من عنزة ، يقال إنهما خرجا في طلب القراظ يجتنيانه ، فلم يرجعا فضرب بهما المثل فقالوا : « لا آتيك أو يؤوب القارظان » ، يضرب في انقطاع الغيبة . وفي هذا المثل قال أبو ذؤيب :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما   وينشر في القتلى كليب ووائل[1]

وقد رُمي (بشر) بالإقواء في شعره[2] ، وقد نشر ديوانه[3] . ومن أمثالـه السائرة قوله :

ألم ترَ أنَّ طول العهد يُسلي   وينسى مثلما نسيت جـذام

وقوله :

يكن لك في قومي يد يشكرونها   وأيدي الندى في الصالحين قروض[4]

وذكر أنه أوصى ابنته بأن تذري الدمع عليه ، وأن تبكي عليه البكاء الذي يستحقه ، وكان من عادة أهل الجاهلية ، التأكيد بلزوم البكاء والنوح على الميت، ويؤكدون الوصية بفعله ، وفي هذا المعنى قول طرفة بن العبد :

فإن مت فانعيني بما أنا أهله   وشقي عليَّ الجيب يا أم معبد[5]

و (عمرو بن حممة بن رافع بن حارث) الدوسي ، أحد حكام العرب من الأزد ، شاعر قديم ، ذكروا أنه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة : وذكروا له شعراً، قالوا إنه قال فيه انه جاوز الثلاثمائة من العمر ، وانه قد كبر ، ولا بـد وأن يأتيه يوم يموت فيه[6] . وفي رواية أنه وفد على النبي ، وهي خطأ لأنـه مات في

---

١ بلوغ الارب (٣/١٠٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٩٠) .
٣ نشره الدكتور عزة حسن بدمشق ، سنة ١٩٦٠ م .
٤ بلوغ الارب (٣/١٠٤ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (١/٣٤٠ وما بعدها) .
٦ المرزباني ، معجم (١٧) ، (فراج) .

الجاهلية[1] . وله ولد اسمه (جندب) أسلم ، قتل يوم (أجنادين)[2] . وذكر أنه الذي كان يقال له : ذو الحكم ، وضربت به العرب المثل في قرع العصا ، لأنه بعد أن كبر صار يذهل فاتخذوا له من يوقظه فيقرع العصا ، فيرجع اليه فهمه . واليه أشار الحارث بن وعلة بقوله :

إن العصا قرعت لذي الحكم

ومن شعره الذي قاله في كبره :

أخبر أخبار القرون التي مضت ولا بد يوماً أن أطار لمصرعي[3]

وقد أنجبت (دوس) جملة شعراء ، منهم : (وهب بن عبدالله بن دوس ابن أبي خالد بن زهير) الشاعر في أول الاسلام ، و (جندب بن طريف) الشاعر الذي يقال له ابن الغامدية ، ومنهم : (أبو غُنَيش) الشاعر ، جاهلي من بني مبدول (مندول ؟)[4] .

وقد اختلف في (جران العود) النميري ، فذهب (كرنكو) الى انه من شعـراء العصر الأموي ، وانه من معاصري عبـد الملك بن مروان . وقد نص (البغدادي) على انه شاعر جاهلي من (بني ضنة بن نمير بن عامر بن صعصعة) . واسمه : (عامر بن الحرث بن كلفة) ، وقيل (كلدة) ، وانما سمي (جران العود) لقوله يخاطب امرأتيه :

عمدت لعود فالتحيت جرانه وللكيس أمضى في الأمور وأنجح
خذا حذراً يا ضرتيّ فإنني رأيت جران العود قد كان يصلح[5]

وجران العود أحد من وصف القوّادة في شعره[6] . وقـد روى (السكري) ديوان هذا الشاعر ، وقد تحدث في ديوانه عن (حمامة نوح) ، وورد فيه شعر

---

١ الاصابة (٥٢٦/٢) ، (رقم ٥٨٢١) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٢٩٦/٢) .
٢ الاصابة (٢٥٠/١ وما بعدها) ، (رقم ١٢٢٦) .
٣ الاصابة (٥٢٧/٢) ، (رقم ٥٨٢١) .
٤ الاشتقاق (٢٩٦/٢) .
٥ الخزانة (١٩٨/٤) ، الحيوان (٤٠/١) .
٦ الشعر والشعراء (٦٠٥/٢ وما بعدها) .

للرحال ، وكان خدن جران ، وتزوج كل واحد منهما امرأتين ، فلقيا منهما مكروهاً[1] . وقد طبع الديوان مع شرح عليه[2] .

ومن الشعر المنسوب اليه هذا الشعر :

حملن جران العود حتى وضعنه بعلياء في أرجائها الجن تعزف

وذكر (المعري) انه ينسب أيضاً (لسحيم)[3] .

ونجد في شعر ينسب اليه اشارة الى الكتابة والى الوشوم ، تكون بأيدي الروم، إذ يقول :

تُركْنَ برجلة الروحاء حتى تنكرت الديارُ على البصير
كوحي في الحجارة أو وشومٍ بأيدي الروم باقية النئور[4]

وذكر (الجاحظ) له قوله :

وكان فؤادي قد صحا ثم هاجه حمائم ورق بالمداثـن هتف
كأن الهديل الظالع الرجل وسطها من البغي شريب يغرد مترف[5]

وله شعر في وصف (الذئب)[6]،وفي أصوات الطيور والحمام وبقية الحيوانات[7] ، وفي الطيرة ، إذ يقول :

جرى يوم رحنا بالجمال نزفها عقابٌ وشحاج من البين يبرح
فأما العقاب فهي منها عقوبة وأما الغراب فالغريب المطوح[8]

وقد أورد (الجاحظ) له أشعاراً نثرها في كتابه (الحيوان)[9] .

---

١ الشعر والشعراء (٦٠٥/٢) .
٢ بروكلمن (١١٦/١) .
٣ رسالة الغفران (٢٧٧) .
٤ الحيوان (٤٠/١) .
٥ الحيوان (٢٠٩/٢) .
٦ الحيوان (٢١٣/٢) .
٧ الحيوان (٢٩٧/٢) ، (٢٤٠/٣) .
٨ الحيوان (٤٤١/٣) .
٩ الحيوان (٣٨٦/٧) .

وقد وصف نفسه وعشيقته بقوله :

فأصبحَ من حيث التقينا غديـة سِوار وخلخال ومرط ومُطرف
ومنقطعاتٌ من عقود تركنهـا كجمر الغضا في بعض ما تتخطرف[1]

ونجد شعره شعراً حضرياً ، فيه ذكر البقل ، كما في هذين البيتين :

فنلنا سقاطاً من حديث كأنـــه جنّى النحل أو أبكار كرم يقطف
حديثاً لو أن البقل يُولى بمثله زها البقل واخضرّ العضاه المصنف[2]

ومن شعراء الجاهلية : (الخادرة) الذبياني ، وهو (قطبة بن أوس بن محصن ابن جرول) من (بني ثعلبة بن سعد) الغطفاني ، وهـو شاعر جاهلي مجيـد مقل ، كان يهاجي (زبان بن سيار) الفزاري ، وقد بقيت أشعاره القليلة برواية (أبـي عبدالله) اليزيدي ، المتوفى سنة (٣١٠ هـ)[3] . وكانت له صاحبة اسمهـا (سمية) تغزل بها في شعره :

بكرت سميّة غـــدوة فتمتعِ وغدت غدوً مفارق لم يربع[4]

ومن شعراء الجاهلية : (سويد بن عامر) المصطلقي . ينسب له قوله :

لا تأمنن وإن أمسيت في حرمٍ إن المنايا بكفّيْ كل انسان
واسلك طريقاً تمشى غير مختشع حتى تبيَّنَ ما يمني لك الماني
فكل ذي صاحب يوماً يفارقه وكل زادٍ وإن أبقيته فان
والخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان[5]

ونسب البيت الأول والثاني والرابع الى أبـي قلادة الهذلي ، من قصيدة أولها:

---

١ البخلاء (٢٣٣) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٨١) .
٣ رسالة الغفران (٢٨٢) ، الاغاني (٣/٨٢ وما بعدها) ، بروكلمن (١/١١٠) ، البيان والتبيين (٣/٣٢٠) ، الحيوان (٣/٤٧٥) .
٤ رسالة الغفران (٢٨٢ ، ٤٠١) .
٥ أمالي المرتضى (١/٣٦٨) .

يا دارُ أعرفها وحشاً منازلها بين القوائم من رهط فأليان

مع اختلاف في روايتها وترتيبها[1] .

ومن شعراء خزاعة : (مطرود بن كعب) الخزاعي ، له شعر في رثاء عبد المطلب بن عبد مناف ، أوله :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد منافِ
هبلتك أمك لو نزلتَ عليهم ضمنوك من جوع ومن اقرافِ
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيــلاف
والمطعمون اذا الرياحُ تناوحت ورجال مكة مسنتون عجاف
والمفضلون اذا المحول ترادفت والقائلون هَلُمَّ للأضيـــاف
والخالطون غنيَّهم بفقيرهــم حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قريش بيضةً فتفلقت فالمُحُّ خالصة لعبد مناف[2]

ومن شعراء هذيل (أبو كبير) . وهو (عامر بن الحليس) ، وقيل (ابن جمرة) . وهو جاهلي ، تزوج أمَّ (تأبط شراً) ، ثم تركها في قصة يرويها أهل الأخبار[3] . قال (ابن قتيبـــة) : « وله أربع قصائد ، أولها كلها شيء واحد ، ولا نعرف أحداً من الشعراء فعل ذلك . احداهن :

أزهير هل عن شيبة من مَعْدل أم لا سبيـل الى الشباب الأول

والثانية :

أزهير هل عن شيبة من مقصر أم لا سبيل الى الشباب المـــدبر

والثالثة :

أزهير هل عن شيبة من مصرف أم لا خلـود لبـــاذل متكلفِ

---

١ أمالي المرتضى (١/٣٦٨ تعليق رقم ١) .
٢ أمالي المرتضى (٢/٢٦٨) ، المرزباني ، معجم (٣٧٥) ، ابن هشام (١٠/١١٧) (حاشية على الروض) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٣١) ، الخزانة (٣/٤٦٦) ، السمط (٣٨٧) ، رسالة الغفران (٣٣٤) ، ديوان الهذليين (٢/٩٢) .

والرابعة :

أزهير هل عن شيبة من معكمِ أم لا خلود لباذل متكرم[1]

وتنسب له قصيدة فيها :

ولقد سريتُ على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مُهبّل
ممن حملن به وهنّ عواقد حُبُكَ النطاق ، فعاش غير مثقل

ونسبها بعض العلماء الى (تأبط شراً) ، وتتناول قصة حب ، وقعت بين صاحب القصيدة وامرأة ، كان لها ابن ذكي ، هددها بقتلها إن بقيت تواصل الرجل ، فأشارت المرأة على الشاعر بقتله ، لأنها تحبه ، ولا تريد مفارقته ، وفضلت قتله على فراق الشاعر ، في قصة جميلة من قصص الحب[2] . فالقصيدة إذن من الشعر القصصي الذي يتعلق بالحب والغرام .

وقد نسبها بعضهم الى (أبي كبير) ، وجعل الغلام (تأبط شراً) في قصة طريفة من قصص الحب[3] .

وقد روي أنه أدرك الإسلام ، ثم أتى النبي ، « فقال له أحل لي الزنا . فقال : أتحب أن يؤتى اليك مثل ذلك ؟ قال : لا . قال : فارض لأخيك ما ترضى لنفسك . قال : فادع الله لي أن يذهب عني »[4] . والأصح أنه جاهلي لم يدرك الإسلام .

ولهذيل شعر جيد وشعراء مجيدين . وتعد من القبائل المخصبة في الشعر ، ومن شعرائها : (المتنخل) : (مالك بن عمرو بن عُثم بن سويد بن حنش بن خناعة) (مالك بن عويمر) من (لحيان)[5] . اشتهر بقصيدته التي يقول فيها :

---

١ الشعر والشعراء (٢/٥٦١) ، الحماسة شرح التبريزي (١/٤٢) ، الامالي (٢/٣٢) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٦٢ وما بعدها) ، (غير مثقل) ، الخزانة (٣/٤٦٦) .
٣ الخزانة (٣/٤٦٧ وما بعدها) ، شرح الحماسة ، للتبريزي (١/٤٢) .
٤ الخزانة (٣/٤٧٣) ، (فقال : أحل لي الربا) ، الاصابة (٤/١٦٥) ، (رقم ٩٦١) .
٥ الشعر والشعراء (٢/٥٥٢) ، الاغاني (٢٠/١٤٥) ، المؤتلف (١٧٨) ، الخزانة (٢/١٣٥) ، السمط (٧٢٤) ، ديوان الهذليين (٢/١٥) .

يا ليت شعري وهمٌّ المرء ينصبه   والمرء ليس له في العيش تحريز
هل أجزيَنَّكما يوماً بقرضكما   والقرض بالقرض مجزيٌّ ومجلوز

« قال الأصمعي : ما قيلت قصيدة على الزاي أجود من قصيـــدة الشمّاخ في صفة القوس ، ولو طالت قصيدة المتنخل كانت أجود »[1] . وهو من الجاهليين .

ومن شعره :

لا ينسىء الله منّا معشراً شهدوا   يوم الأميلح لا عاشوا ولا مرحوا
عقوا بسهم فلم يشعر له أحد   ثم استفاؤا وقالوا : حبذا الوضح

التعقية : الاعتذار . وأصل هذا أن يقتل الرجل رجلاً من قبيلته ، فيطلب القاتل بدمه ، فتجتمع جماعة من الرؤساء الى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم العفو وقبول الدية ، فإن كان أوليـاؤه ذوي قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون أن نأخذ سهماً فنرمي به نحو السماء ، فإن رجع إلينـــا مضرجاً بالدم ، فقد نُهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد ، فقـــد أمرنا بأخذها ، وحينئذ مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية ، وكان مسح اللحية علامة للصلح . قال الأشعر الجعفي:

عقوا بسهم ثم قالوا : سالموا   يا ليتني في القوم إذ مسحوا اللحى[2]

وأورد (المرتضى) له شعراً في رثاء أبيه أو أخيه أوله :

لعمرك ما إنْ أبو مالكٍ   بوانٍ ولا بضعيفٍ قـــواه

ومنه :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقرهُ   على نفسه ومشيـــع غناه[3]

ومن شعره في الضيف :

ولا والله نادى الحيّ ضيفي   هدوءاً بالمساءة والعـــلاط

---

١ الشعر والشعراء (٥٥٢/٢) .
٢ الخزانة (١٣٧/٢) .
٣ أمالي المرتضى (٣٠٦/١ وما بعدها) .

سأبدؤهم بمشمعة وأثني بجهدي من طعامٍ أو بساطِ[1]

ومن شعراء (هذيل) : (خويلد بن مطحل) الهذلي ، أحـد (بني سهم ابن معاويـة) ، وكان سيد هذيل في زمانه ، وابنه من بعده ، (معقل بن خويلد) . وكان شاعراً معدوداً في شعراء هذيل ، ووفـد الى أرض الحبشة ، فكلم ملكهم في من عنده من أسرى العرب ، فأطلقهم له . وهو القائل :

لَعمركَ لليأس غيرُ المريث خيرٌ من الطمع الكاذبِ
وللريـث تحفزه بالنجـا حِ خيرٌ من الأمل الخائبِ
يرى الحاضر الشاهدُ المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائبِ[2]

وورد في (الإصابة) اسم (معقل بن خويلد بن واثلـة بن عمرو بن عبد يا ليل) الهذلي ، وكان شاعراً ، وكان أبوه رفيق (عبد المطلب) الى أبرهة، وكان بين أبي سفيان وبين معقل بن خويلد ، خلاف في سلب رجل من قريش. فقال النبي : « يا معقل بن خويلد اتق معارضة قريش » . وذكره (المرزباني) في الشعراء المخضرمين[3] .

ومن بقية شعراء الجاهلية (ذو الخرق) الطهوي ، وهو (دينار بن هلال). ويقال إن اسمه (قرط) ، وإنما سمي بذي الخرق لقوله :

جاءت عِجافاً عليها الريش والخرق[4]

وهو من الشعراء الفرسان[5] .

و (سراج بن قرة) (سراج بن قوّة) العامري ، أحد بني الصموت بن عبدالله بن كلاب من الشعراء الجاهليـين . ذكر (المرزباني) في معجم الشعراء له شعراً قاله في يوم من أيام الجاهلية ، وقد نسب على هذه الصورة : (سراج

---

١ أمالي المرتضى (١/٤٩٣) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٥٦) ، ديوان الهذليين (٣/٦٨ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٣/٤٢٥) ، (رقم ٨١٣٧) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٦٢) .
٥ تاج العروس (٦/٣٢٩) ، (خرق) .

ابن قرة (قوّة) بن ربعي بن زرعة بن الكاهن بن عمرو بن عوف بن أبي ربيعة ابن الصموت بن عبدالله بن كلاب) . وقد زعم أن له وفادة على النبي ، ولا يوجد دليل يؤيده[1] .

و (السندري بن يزيد الكلابي) شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان (لبيد) الشاعر مع (عامر بن طفيل) ، فدعى لبيداً الى مهاجاته فأبى[2] .

ومن شعراء تغلب في الجاهلية (المهلهل) و (عمرو بن كلثوم) التغلبي ، و (أفنون) التغلبي ، واسمه (ظالم) ، وقيل : (صريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك) التغلبي . يقال انه مات بموضع يقال له (إلاهة) بطريق الشأم ، بلدغة حية ، وان كاهناً كان قد قال له : انك تموت بمكـــان يقال له إلاهة ، فمات به .

ومما ينسب له من الشعر هذا البيت :

منّيتنا الوُدّ يا مضنون مضنونا ... أزمانَنا إن للشبان أفنونـــا[3]

وله مقطوعة أولها :

أبلغ حُبيباً وخلّل في سراتهم ... ان الفؤاد انطوى منهم على حزن

قد كنت أسبق من جاروا على مهلٍ ... من ولد آدم ما لم يخلعوا رسني

فالوا عليّ ولم أملك فيالتهم ... حتى انتحيت على الأرساغ والثنن

لو أنني كنت من عادٍ ومن إرمٍ ... ربيت فيهم ولقمان ومن جدن[4]

ذكروا أنه انما عرف بأفنون لقوله من قطعة :

منيتنا الودّ يا مضنون مضنونا ... أيامنـــا إن للشبان أفنونا

---

١ الاصابة (٢/١٦) ، (رقم ٣١٠١) .

٢ تاج العروس (٣/٢٨١) ، (السندرة) ، ديوان لبيد (١٤) ، (مقدمة) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٤٦) ، وقيل اسمه « ظالـــم » المؤتلف (١٥١) ، السمط (٦٨٤) ، القاب الشعراء (٣١٧) ، الاشتقاق (٢/٢٠٣) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٤٤ وما بعدها) ، المفضلية رقـــم (٦٦) ، الامالي (٢/٥١) ، أمالي ابن الشجري (١/٣٧) ، البيان والتبيين (١/٢٣) ، الخزانة (٤/٤٥٥ وما بعدها) .

وأنه لما قال له الكاهن تموت بمكان يقال له إلاهة ، مكث ما شاء الله ثم سار الى الشأم في تجارة ، ثم رجع في ركب من (بني تغلب) فضلوا الطريق، ثم نزلوا (إلاهة) ، قارة بالسماوة ، فلما أتوها نزل أصحابه ، وقالوا : انزل. فقال: والله لا أنزل! فجعلت ناقته ترتعي عرفجاً فلدغتها أفعى في مشفرها، فاحتكت بساقه والحية بمشفرها فلدغته في ساقه ، فقال لأخ معه احفر لي قبراً فاني ميت، ثم رفع صوته بأبيات منها :

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي إذا هو لم يجعل لـه الله واقيا
كفى حزناً أن يرحل الحيّ غدوة وأصبح في أعلى إلاهة ثاويا[1]

ومات من ساعته ، فقبره هناك . وهو القائل :

لعمرك ما عمرو بن هند إذا دعا لتخـدم أمي امه بموفق[2]

ومن شعراء تغلب : (الأخنس بن شهاب) التغلبي ، فارس العصا[3] . وينسب له قوله :

يظلّ بها ربد النعام كأنها اماءٌ تزجّى بالعشيّ حواطب[4]

وقد قال (الأخنس) في أول القصيدة :

لابنة حطّان بن عوف منازل كما رقّش العنوان في الرق كاتبُ

وذكر (الأعلم الشفتمري) قبله :

فمن يك أمسى في بلادٍ مقامه يسائل أطلالاً بها ما تجاوب
فلابنة حطان بن عوفٍ منازل كما رقش العنوان في الرق كاتب

وفي جملة أبياتها :

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كماة ليس فيها أشائب

---

١ الخزانة (٤/٤٦٠) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٥٩ ، ٣٣١ وما بعدها) ، الحيوان (٣/١٣٥) ، شرح النقائض (٨٨٦) .
٣ الاشتقاق (٢/٢٠٣) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٠٢) ، المفضلية رقم (٤١) ، الموشح (٤٤) .

وعدّتها ما بين ثلاث وعشرين الى ثلاثين بيتاً ، حسب اختلاف الروايات[1] .

و (البرج بن الجلاء بن الطائي) من شعراء طيء ، وكان خليلاً للحصين ابن الحمام ونديمه على الشراب . ذكر أنه وقع على أخت له وهو سكران فافتضها فلما أفاق ندم واستكتم ذلك قومه ، ثم أنه وقع بينه وبين الحصين فعيّره بذلك في أبيات ، وجرت بينهما الحرب ، فأسره (الحصين) ثم منّ عليه لتقدم صداقته، فلحق ببلاد الروم ، وقيل بل شرب الخمر صرفاً حتى قتلته[2] .

ومن شعراء (طيء) في الجاهلية : (عمرو بن عمّار) الطائي ، وكان شاعراً خطيباً ، فبلغ النعمان حسن حديثه فحمله على منادمته ، وكان النعمان أحمر العينين والجلد والشعر ، شديـد العربدة ، قتالاً للندماء ، فنهاه (أبو قردودة) عن منادمته ، لكنه لم ينته ، فغضب عليه النعمان وقتله ، فرثاه (أبو قردودة) بقوله :

إني نهيت ابن عمّار وقلت له ... لا تأمنن أحمر العينين والشعره
إن الملوك متى تنزل بساحتهم ... تطر بنارك من نيرانهم شرره
يا جفنة كإزاء الحوض قد هدمت ... ومنطقاً مثل وشي اليمنة الحبره[3]

وأبو (قردودة) الطائي ، شاعر ، رأى (سعد القرقرة) أكل عند النعمان مسلوخاً بعظامه ، فقال :

بين النعام وبين الكلب منبته ... وفي الذئاب له ظفر وأخوال[4]

وله قصيدة أولها :

كُبيشة عِرسي تريد الطلاقا ... وتسألني بعد وهن فراقا[5]

و (دريد بن الصمة) من سادات (جشم) ، ويكنى (أبا قرة) ، وهو أحد الفرسان الشجعان المشهورين ، وذوي الرأي في الجاهلية . وشهد معركة (حنين)

---

١ الخزانة (٣/١٦٥) ، (بولاق) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٨٠ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٤/٢٤٣) ، (٥/٣٣٢) ، البيان والتبيين (١/٢٢٢ ، ٣٤٩) ، المرزباني معجم (٢٣٦) ،محاضرات الراغب الاصبهاني (١/٩٢) .
٤ الحيوان (١/١٤٧) .
٥ الحيوان (٥/٤٦٣) .

مع (هوازن) ، وهو شيخ كبير ، فقتل مع من قتل من المشركين[1]. وقيل انه قال في هذه المعركة :

يا ليتني فيها جذع أخبُّ فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع

ومن جيد شعره قوله :

أمرتهمُ أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم ، وانني غير مهتدي
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

وله أشعار أخرى ، ذكر (ابن قتيبة) بعضاً منها[2] .

وأمه (ريحانة) بنت (معدي كرب) ، أخت (عمرو بن معدي كرب)[3] .

وله قصيدة في رثاء (معاوية) أخي الخنساء ، مما جاء فيها :

فإن الرزء يوم وقفت أدعو فلم يسمع معاوية بن عمرو
رأيت مكانه فعطفت زوراً وأي مكان زور يا ابن بكر
على ارمٍ وأحجار وميرٍ وأغصان من السلمات سمر
وبنيان القبور أتى عليها طوال الدهر من سنة وشهر
ولو أسمعته لأتاك ركضاً سريع السعي أو لأتاك يجري
بشكة حازمٍ لا عيب فيه إذا لبس الكماةُ جلود نمر
فإما تمس في جدثٍ مقيماً بمسهكة من الأرواح قفر
فعز عليّ هلكك يا ابنَ عمرو ومالي عنك من عزم وصبر[4]

---

١ الاغاني (٢/٩ وما بعدها) ، الخزانة (٤/٤٤٢ وما بعدها) ، أسماء المغتالين (٢٢٣) ، المعمرون (٢٠) ، ابن هشام ، سيرة (٢/٤٢٩) ، المقريزي ، امتاع الاسماع (١/٤٠٢) ، عيون الاثر (٢/١٨٨) .

٢ الشعر والشعراء (٢/٦٣٥ وما بعدها) ، بروكلمن (١/١٦٤) ، كارلو نالينو (٨٠) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٣٨ وما بعدها) .

٤ الخزانة (٤/٤٤٤) .

وقد وصف بأنه شجاع شاعر فحل : «أول شعراء الفرسان ، أطول الفرسان الشعراء غزواً وأكثرهم ظفراً وأيمنهم نقيبة عند العرب وأشعرهم»[1] . غزا نحـو مائة غزوة وما أخفق في واحدة منهـا ، وأدرك الإسلام ولم يسلم ، وخرج مع قومه يوم حنين مظاهراً للمشركين ولا فضل فيه للحرب ، وانما أخرجوه تيمنـاً به وليقتبسوا من رأيه ، فقتل على شركه . وكان قد رأس قومه : (مالك بن عوف)،فلما سأله (دريد) عن خطته في الحرب ، سفه رأيه وأشار عليه بالرجوع فخالفه (مالك) ، فلما التقوا بالمسلمين حلت الهزيمة بهم . وقتل (دريد)[2] .

وكان (دريد) فارس (غطفـان) ، وقُتل أخوه (عبدالله) ، فقَتَل به (ذُوّاب بن أسماء بن زيد بن قارب) ، وقال :

قتلـت بعبدالله خـير لداته ذواب بن أسماء بن زيد بن قارب[3]

و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر بن صعصعة) من الشعراء الذيـن أدركوا الاسلام ، وقد وفد على الرسول ، وهو يريد الغدر به ، ثم رجع كافراً فمات وهو في طريقه الى دياره بالطاعون[4] . ورد في روايـة انه قال للرسول : « تجعل لي نصف ثمار المدينة ، وتجعلني وليّ الأمر من بعد وأسلم !؟ »[5] . وهو الذي نافر (علقمة بن علاثة) الى (هرم بن قطبة) الفزاريّ ، حين أهتر عمه عامر بن مالك ملاعب الأسنة .

وكان فارس قيس ، أعور عقيماً لا يولد له ، ولم يعقب ، مغروراً فخوراً بنفسه : ومن شعره قوله :

فإني وإن كنتُ ابن فارس عامرٍ وسيّدها المشهور في كل موكب

---

١ الخزانة (٤/٤٤٦) .
٢ الخزانة (٤/٤٤٦ وما بعدها) .
٣ الاشتقاق (٢/١٧٨) .
٤ الطبري (٣/١٤٤) ، (وفد بني عامر) ، ابن هشـام ، سيرة (١/٣٣٧ ومـا بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الخزانة (١/٤٧٣) ، المعمرون (٦٠) ، ابن كثير ، تاريخ (٥/٥٦) .
٥ الشعر والشعراء (١/٢٥٢) .

فما سوّدتني عامر عن وراثة أبى الله ان أسمــو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها ، وأتقي أذاها ، وأرمي من رماها بمنكب[1]

وله شعر يفخر به بقومه قيس عيلان ، يجعل الأرض قيس عيلان وحدهم ، لهــم السهول والحزوم ، وقد نال مجدهم آفاق السموات ، ولهــم الصحو منها والغيوم[2] .

وكان (عامر) شديداً قوياً ، يرى لنفسه الزعامــة بفضل قبيلته ، وبقوة شخصيته ، وتذكر بعض الأخبار انه لما وفد مع (بني عامر) ، كان غليظاً في كلامه ، حتى ان الرسول امتعض منه ، وكان يستهين أمر الرسول ، ويقول : « لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش ؟ » يقولها لما كانوا يلحون عليه في الدخول في الاسلام . ولما سأل الرسول أن يجعل له ميزة فيتفق معه على أن يكون هو سيد أهــل الوبر ، وان يكون الرسول سيد أهل المدر ، وأبى الرسول ذلك عليــه ، خرج من يثرب غاضباً مهدداً ، قائلاً للرسول : « لأملأنها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً : ولأربطن بكل نخلة فرساً » ، مما جعل الرسول يدعو الله أن يكفيه شره . وكان الرسول يقول : « والذي نفسي بيده لو أسلم فأسلمت بنو عامر لزاحموا قريشاً على منابرهم »[3] .

وبنو عامر بن صعصعة من القبائل القوية ، وهي من (هوازن) ، وقد كانت منازلها بنجد ، وقد ساهمت في حروب عبس وذبيان ، فساعدت عبس على ذبيان ، ولعب عامر بن صعصعة دوراً مهماً فيها .

وقد طبع ديوانه ، طبعه المستشرق (لايل) في سلسلة (جب) التذكارية سنة (١٩١٣) مع ديوان عبيد بن الأبرص[4] .

ومن شعراء (بني بارق): (معقر بن حمار) البارقي ، واسمه (سفيان بن أوس بن حمار) ، سمي معقراً بقوله :

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٥٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٥٢) .
٣ الاغاني (١٥/١٣١ وما بعدها) .
٤ بروكلمن (١/١١٧) .

له ناهض في الوكر قد مهدت له   كما مهدت للبعل حسناء عاقر

وقوم (معقر) ، وهم (بارق) من اليمن في الأصل ، ينتهي نسبهم بالأزد. وكانوا قد حالفوا (بني نمير بن عامر) لدم أصابوه منهم ، وشهدوا يوم (جبلة) . وهو يوم كانت فيه وقعة بين (بني ذبيان) و (بني عامر) ، فظهرت (بنو عامر) على (بني ذبيان) . وكان (معقر) من فرسان قومه ومن شعرائهم يوم (جبلة) وقد حدد ذلك اليوم بوقوعه قبل الإسلام بتسع وخمسين سنة ، وبتسع عشرة سنة قبل المولد النبوي[1] .

ومن شعره :

الشعرُ لبُّ المرء يعرضُه   والقول مثل مواقع النبل
منها المقصر عن رميته   ونوافذ يذهبن بالخصل[2]

ومن شعره المشهور :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى   كما قرّ عيناً بالإياب المسافر[3]

ومن شعراء الجاهلية ، شاعر لا نعرف من أمره شيئاً يذكر ، اسمه : (عمرو ابن عبد الجن)[4] ، (عمرو بن عبد الحق)[5] ، وينسب له قوله :

أما ودماء مائرات تخالها   على قنة العزى وبالنسر عندما
وما سبح الرهبان في كل بيعة   أبيل الأبيلين المسيح بن مريما

---

١ الخزانة (٢/٢٩٠ وما بعدها) ، (ومعقر بن أويس) البارقي ، كمحدث ، شاعر . هكذا نسبه « ابن الكلبي » . ويقال هو : معقر بن حمار البارقي حليف بني نمير . وبارق هو سعد بن عدي بن حارثة بن عمرو بن عامر ، تاج العروس (٣/٤١٨) ، (عقر) .

٢ الحيوان (٣/٦١ وما بعدها) .

٣ المؤتلف (٩٢) ، المرزباني ، معجم (٢٠٤) .

٤ المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية ، للعيني (١/٥٠٠) ، (حاشية على الخزانة) ، (بولاق) ، اللسان (١١/٦ وما بعدها) ، (أبل) .

٥ تاج العروس (٧/١٩٨) ، (أبل) ، شيخو ، النصرانية (١/٢ ص ١٨٦) .

لقد ذاق منا عامر يوم لعلع حساماً اذا ما هز بالكف صمّما[1]

ومن شعراء (قيس) المجيدين في الجاهلية : (خداش بن زهير بن ربيعة ابن عمرو بن عامر بن صعصعة) ، قال (أبو عمرو بن العلاء) : « خداش ابن زهير أشعر في عَظْم الشعر ، يعني تَنَفّس الشعر ، من لبيد ، انما كان لبيد صاحب صفات » . وجدّه (عمرو بن عامر) ، يقال له (فارس الضحياء)، والضحياء فرسه . وفيه يقول :

أبي فارس الضحياء عمرو بن عامر أبى اللؤمَ واختار الوفاءَ على الغدر

ومما يتمثل به من شعره قوله :

ولن أكون كمن ألقى رِحالته على الحمار وخلّى صهوة الفرس

وقوله :

فإن يكُ أوس حيّة مستميتة فلذرني وأوساً ، إن رقيته معي[2]

وذكر أنه كان من الصحابة ، وأنه شهد حنيناً مع المشركين ، ثم أسلم بعد ذلك . ويرى (المرزباني) أنه جاهلي لم يدرك الإسلام ، وأغلب أهل الأخبار على هذا الرأي . وينسب اليه قوله :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

و (سخينة) قريش . وكانت تعير بإكثارها من أكلها السخينة[3] .

ومن شعره :

فيا راكباً أمـا عرضت فبلّغنْ عقيلاً إذا لاقيتـه وأبا بكر
بأنكم من خير قوم لقومـكم على أن قولاً في المجالس كالهجر

---

١ العيني (٥٠٠/١) ، اللسان (٦/١١ وما بعدها) ، (أبل) .
٢ الشعر والشعراء (٥٤٠/٢) ، المؤتلف (١٠٧) ، السمط (٧٠١) ، الخزانة (٢٣٣/٣) ، (٣٣٨/٤) .
٣ الخزانة (٢٣٣/٣) ، الاصابة (٤٥٥/١) ، (٢٣٢٧) .

دعوا جانباً إنا سنترك جانبـــاً لـكم واسعاً بين اليمامـة والظهر[1]

و (الحصين بن الحمام) المريّ ، شاعر جاهلي ، وهو من (بني مرة) ، يعد من أوفياء العرب[2] . وهو أحد الشعراء المقلّين . « قال أبو عبيدة : واتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس، والحصين ابن الحمام المري »[3] . وقد أدخله بعضهم في الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الإسلام. وقد احتجوا بإسلامه بما نسب اليه من الشعر من قوله :

أعوذ بربي من المخزيات يوم ترى النفس أعمالهـــا
وخف الموازيـن بالكافرين وزلزلت الأرض زلزالهـا

والأصح أنه جاهلي لم يدرك الإسلام[4] .

وأما (المفضل بن معشر بن أسحم) ، فهو من (نُكرة) من (لكيز) ، فضلته قصيدته التي يقال لها (المنصفة) ، وأولها :

ألم تَرَ أن جيرتنا استقلوا فنيتنـــا ونيتهم فريـــق[5]

وقد ولع بعض العلماء في وضع تواريخ للشعراء المتقدمين ولغيرهم ، تحدد سني ميلادهم وسني وفاتهم ، وسني الحوادث التي وقعت في أيامهـــم والمذكورة في أشعارهم . وهو ولع لا يستند على أسس علمية . لأن أغلب الروايات الواردة عن هؤلاء الشعراء هي غير ثابتة ، وقد تتناقض أحياناً ، وقد يثبت بطلانها بعد نقدها نقداً علمياً ، ثم إن فيها ما هو موضوع مصنوع ظاهر الصنعة ، بيّن التكلف ، ولهذا فأنا أحاول جهد إمكاني تجنيب نفسي من توريطهـا في وضع أرقام تمثـل

---

١ الخزانة (٣٣٨/٤) ٠

٢ الخزانة (٩/١) ، (بولاق) ، الشعـــر والشعراء (١١٥/١) ، (٥٤٢/٢) ، الخزانة (٧/٢) ، (٣٥٢/٣) ، الاغاني (١١٨/١٢) ، المؤتلف (٩١) ، السمط (١١٧) ٠

٣ الشعر والشعراء (١١٥/١) ٠

٤ الاصابة (٢٣٥/١) ، (١٧٣٢) ٠

٥ ابن سلام ، طبقات (٧٠) ٠

مواليد الشعراء الجاهليـــين أو سني وفاتهم ، أو تواريـــخ الحوادث المذكورة في شعرهم ، لعدم امكانية التثبت من ذلك ، بل اني أرى لزوم الابتعاد جهد الإمكان من وضع التواريخ لسني حكم الملوك ولسني وفاتهم لصعوبة اثبات ذلك ، والاكتفاء جهد الإمكان بتقريب أيامهم الينا بصور تقريبية . ولهذا السبب لم أحفل في هذا الفصل بترتيب الشعراء ترتيباً زمنياً على وفق ما ذهب اليه المولعون بتدوين التواريخ بالسنين ، إذ أرى صعوبة الأخذ بهذا الرأي في التوريخ .

الفصل الثامن والخمسون بعد المئة

المعلقات السبع

ومن الشعر الجاهلي قصائد عرفت بين الناس باسم (المعلقات السبع) وبـ (المعلقات) وبـ (المذهبات) وبـ (السموط) ، لزعم الرواة أن العرب اختارتها من بين سائر الشعر الجاهلي ، فكتبتها بماء الذهب على القباطي ، ثم علقتها على الكعبة إعجاباً بها واشادة بذكرها ، وقد بقي بعضها الى يوم الفتح ، وذهب ببعضها حريق أصاب الكعبة قبل الاسلام[1] .

والمعلقات السبع هي سبع قصائد طويلة اختيرت من الشعر الجاهلي ، فعرفت لذلك بين الناس بـ (السبع) وبالسبع الطوال ، وبالسبع الطول ، وبالقصائد المختارة ، وبالسبعيات ، وعرفت أيضاً باختيارات حماد ، وبالسمط ، وبالسموط ، وبالمذهبات. ويظهر ان لفظة (السبع) ، هي من الألفاظ القديمة التي أطلقت على اختيارات (حماد) ، فقد ذكر (محمد بن أبي الخطاب في كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب : ان أبا عبيدة قال : أصحابُ السبع التي تسمى السمط : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو ، وطرفة . قال : وقال المفضل : من زعم أنّ في السبع التي تسمى السمط لأحد غير هؤلاء فقد

---

1 المزهر (٢/٤٨٠) ، الجزء الاول من تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٧) ، العمدة (٩٦) ، العقد الفريد (٦/١٦٩) .

أبطل »[1] . ولما تحدث (ابن قتيبة) عن معلقة (عمرو بن كلثوم) ، قال : « وهي من جيد شعر العرب القديم ، واحدى السبع »[2] . فالسبع ، تسمية أخذت من حقيقة ان القصائد المذكورة المختارة كانت سبع قصائد .

وأما تسمية المعلقات بـ (السبع الطوال) و (السبع الطوال) ، فلكون هذه القصائد السبعة ، هي من أطول ما ورد في الشعر الجاهلي من قصائد . ونجد هذه التسمية واردة على لسان (المفضل) حيث نسب اليه قوله : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال »[3] . وقد أطلقها (ابن كيسان) المتوفى سنة (٢٩٩ هـ) (٩١١)[4] ، (٣٢٠ هـ) (٩٣٢)[5] ، على شرحه لتلك القصائد حيث سمّاه بـ (شرح السبع الطوال الجاهلية)[6] ، وأطلق (أبو جعفر أحمد بن محمد) النحّاس (٣٣٨) هذا العنوان عليها ، إذ ذكرها بقوله : « ان حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من انها كانت معلقة على الكعبة »[7] ، وأطلقه على شرحه لها[8] .

وعرفت أيضاً بـ (القصائد السبع) وبـ (القصائد السبع الطوال) وبـ (القصائد)[8] . وبـ (القصائد التسع) ، وبـ (القصائد التسع المشهورة) ، وذلك بالنسبة لمن أضاف على القصائد المذكورة قصيدتين أخريين[9] ، وبـ (القصائد العشر) ، وذلك بالنسبة لمن أضاف ثلاث قصائد عليها[10] .

ويظهر أن مصطلح (السبع الطوال) ، هو أنسب المصطلحات تعبيراً عن هذه القصائد ، لأنها تمثل في الواقع أطول ما وصل الينا من الشعر الجاهلي . فإن عدد أبيات أقصر قصيدة من قصائدها هو (٦٤) بيتاً ، أما عدد أبيات أطول

---

١ المزهر (٢/٤٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٥٨) ، (عمرو بن كلثوم) .
٣ الجمهرة (٤٥) .
٤ بلاشير (١٥٥) .
٥ بروكلمن (١/٧٠) .
٦ ياقوت ، ارشاد (٤/١٤٠) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٧) .
٧ بلاشير (١٥٥) .
٨ الاغاني (٨/١١ ، ٤٢) ، بلاشير (١٥٥) ، شرح القصائد السبع الطوال) للانباري ، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) ، (القاهرة ١٩٦٢ م) ، (دار المعارف) .
٩ بروكلمن (١/٦٨) .
١٠ شرح القصائد العشر ، للتبريزي ، بروكلمن (١/٧١) .

قصيدة منها ، فهو (١٠٤) ، ومعدل أبيات المعلقات (٨٥) بيتاً[١] .

وعرفت هذه القصائد بـ (القصائد المختارة) لطبيعة كونها قصائد اختيرت من قصائد الشعر الجاهلي ، وانتخبت منه انتخاباً[٢] . ونجد مجموعة أخرى عرفت بـ « شعر الشعراء الست » ، وهم امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة . وقد أشار (البغدادي) الى كتاب دعاه : « مختار شعر الشعراء الست : امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة . وشرحها للأعلم الشنتمري »[٣] .

ولم نجد في الكتب التي وصلت الينا ، الاسم الصحيح الأول الذي أطلقه جامع هذه القصائد ومختارها عليها . وقد ورد في مقدمة شرح التبريزي (٥٠٢هـ) على (القصائد العشر) : « سألتني — أدام الله توفيقك — أن ألخص لك شرح القصائد السبع ، مع القصيدتين اللتين أضافها اليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوي — قصيدة النابغة الذبياني الدالية ، وقصيدة الأعشى اللامية — وقصيدة عبيد بن الأبرص تمام العشر »[٤] . فيظهر منها أن جملة (القصائد السبع) ، كانت غالبة على تلك القصائد ، من حقيقة كونها سبع قصائد في الأصل .

ولا نعلم اسم أول من أطلق مصطلح (المعلقات السبع) على هذه القصائد ، وفي أي وقت أطلقه عليها . ولا يستطيع أحد إثبات ان (حماداً) الراوية هو الذي أطلقه على منتقياته . وقد ذكر (بلاشير) ان (ابن قتيبة) لما تكلم عن قصيدة (عمرو بن كلثوم) التي تدخل في المعلقات قال عنها انها (احدى السبع المعلقات)[٥] . وقد رجعت الى النص فوجدته يقول : « وهي من جيد شعر العرب القديم ، واحدى السبع »[٦] ، ولما كنت لا أملك النسخة الافرنسية لكتاب (بلاشير) ، لذلك لا أدري اذا كانت تلك النسخة قد استخدمت جملة (احدى السبع المعلقات) ، كما وردت في الترجمة العربية ، أم ان الترجمة العربية هي التي استعملتها تصرفاً ،

---

١ Ch. J. Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XX.

٢ (شرح القصائد المختارة للتبريزي) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (١/١١) ، (مقدمة) .

٣ الخزانة (١/١٠) ، (بولاق) .

٤ شرح القصائد العشر (ص ٤٥) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٥ بلاشير (١٥٤) .

٦ الشعر والشعراء (١/١٥٩) .

وانها لم ترد في النص الأصل . واني أستبعد احتمال أخذ (بلاشير) من نسخة أخرى استعملت جملة (احدى السبع المعلقات) بدلاً من (احدى السبع) الواردة في النص الذي اعتمدت عليه ، المطبوع ببيروت سنة ١٩٦٤ م .

والعلماء مختلفون في القصائد التي تعدّ من المعلقات وفي عددها ، ولكنهم متفقون على خمس منها ، هي معلقات امرىء القيس ، وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم . أما بقيتها ، فنهم من يعد من بينها معلقة عنترة والحارث بن حلزة ، ومنهم من يدخل فيها قصيدتي النابغة والأعشى . وقد أضاف بعض العلماء القصيدتين اللتين اختارهما المفضل الضبي ، وهما قصيدتا النابغة والأعشى ، الى المعلقات السبع التي هي من اختيار حماد ، فجعلها تسع معلقات . ويرى (نولدكه) ان لولاء حماد لبكر بن وائل علاقة بإدخال حماد قصيدة الحارث بن حلزة اليشكري في جملة المعلقات ، وذلك ان حماداً كان مولى لبكر بن وائل ، وكانت هذه القبيلة في عداء مع تغلب ، ولما كانت قصيدة (عمرو بن كلثوم) التغلبي قد لقيت شهرة واسعة ، لم يسع حماد أن يعدل عن اختيارها ، فاختارها ، واختار معها قصيدة الحارث إرضاء لمن انتمى اليهم بالولاء ، مع قلة شهرتها بالنسبة الى القصائد الأخرى[1] .

ونجد في (الفهرست) اسم كتاب ذكر (ابن النديم) انه من مؤلفات (الأصمعي) ، دعاه (كتاب القصائد الست)[2] . ولهذه التسمية أهمية كبيرة ، لأنها تدل على ان (الأصمعي) ، كان قد اختار من القصائد المعروفة ست قصائد ، وضمها بين دفتي كتاب . ولم يشر (ابن النديم) الى أسماء القصائد الست المختارة ، ولكني لا أستبعد احتمال اسقاطه قصيدة واحدة من بين القصائد السبع التي اختارها (حماد) ، فصار العدد ست قصائد . كما أشار (البغدادي) الى كتاب دعاه : (مختار شعر الشعراء الست : امرىء القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة) ، والى شرحها للأعلم الشنتمري[3] .

وأشار (السيوطي) أثناء حديثه في مقدمته لكتابه : « شرح شواهد المغني »

---

١ Brockelmann, I, S. 18, Char. Lyall, Translations of Ancient Arabian Poetry, London, 1885.

٢ الفهرست (٨٨) ، (الاصمعي) .

٣ خزانة (١/١٠) ، (بولاق) .

الى « شرح المعلقات السبع ، وما ضم اليها للتبريزي ولأبي جعفر النحاس،وشرح السبع العاليات للكميت ، وشرح القصائد المختارة للتبريزي »[1] . وتلفت جملة : « وشرح السبع العاليات للكميت » النظر ، لأنها جاءت في أثناء تحدث (السيوطي) عن الكتب التي رجع اليها في جمع مادة كتابه ، وفي أثناء تحدثه على المعلقات السبع وما ضمّ اليها للتبريزي ولأبي جعفر النحاس ، مما يدل على أنه قصد بشرح السبع العاليات للكميت ، قصائد سبعاً مختارة لها صلة بهذه المعلقات السبع ، ولا سيما وقد ذكر بعد هذا الشرح اسم شرح القصائد المختارة للتبريزي ، التي هي المعلقات العشر ، وأنه لم يقصد بالقصائد السبع (الهاشميات) ، (هاشميات) الكميت وهي أيضاً سبع قصائد ، من شعر هذا الشاعر ، عرفت بالهاشميات . ولو كان قصدها بالذات لدعاها باسمها الذي عرفت به ، وهو (الهاشميات)[2] ، وإنما قصد كتاباً آخر ، اسمه : (شرح السبع العاليات) ، ولفظة (العاليات) نعت للقصائد السبع . ولم يتحدث السيوطي ويا للأسف عن هذا الشرح بأي شيء،فهل يكون الكميت المتوفى سنة (١٢٦ هـ) ، أي قبل (حمّاد) ، قد اختار سبع قصائد جاهلية وضمها في ديوان عرف بـ (السبع العاليات) وقف عليها (حماد) أو صارت اليه ، فأملاها فنسبت اليه،على عادة القدماء في ذلك الوقت ، من أخذهم الكتب والروايات القديمة ، ثم املاءها على تلامذتهم ، فتنسب اليهم ، فتكون المعلقات اذن من جمع الكميت ، رواية حماد !

ويفهم من خبر مذكور في (خزانة الأدب) أن الخليفة (عبد الملك بن مروان) أمر فطرح شعر أربعة من أصحاب المعلقات ، وأثبت مكانهم أربعة . ومعنى هذا الخبر هو وجود المعلقات قبل أيام عبد الملك . وفي الكتاب خبر آخر هو أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار ، فسماها المعلقات[3] ، وفي رواية أخرى : المعلقات الثواني[4] . ولم يعين المورد الشخص الذي أمر باختيار تلك الأشعار ، ولا الشخص الذي قام بالاختيار . ولعله قصد الوليد وحماداً ،

---

١ السيوطي ، شرح (١١) .

٢ القصائد الهاشميات ، للكميت (مطبعة الموسوعات بمصر ، ١٣٢١ هـ) ، بروكلمن (٢٤٣/١) ، وطبعت بليدن سنة ١٩٠٤ م ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٣١٦/١) .

٣ خزانة الادب ، للبغدادي (٦١/١) .

٤ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٧/٣) .

فإليها ينصرف الذهن ، لما للوليد من ولع بالشعر ، ولما لحمّاد من علم به .

ولم يشر (البغدادي) صاحب (خزانة الأدب) الى اسم المورد الذى استقى منه خبره عن طرح (عبد الملك) شعر أربعة من أصحاب المعلقات ، واثباته أربعة مكانهم . كما أنه لم يشر الى أسماء أصحاب المعلقات الذين طرحت معلقاتهم، ولا إلى أسماء الشعراء الأربعة الذين أثبتت قصائدهم مكان القصائد الأربع المطروحة .

وروي أن (معاوية)،تذكر قصيدة (عمرو بن كلثوم) ، وقصيدة (الحارث ابن حلزة) فقال « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[1] .

والمعروف اليوم ، ان حماداً الراوية ، هو الذي جمع القصائد السبع المذكورة، وأذاعها بين الناس . وهو من حفظة الشعر ورواته وممن اشتهروا وعرفوا برواية الشعر القديم . وكان من المتكسبين بالشعر. وقد اتهم بالوضع وبالدس على الجاهليين وبالكذب عليهم : وهو نفسه لم ينكر ذلك ، ولم يبرىء نفسه من الدس على الجاهليين والوضع عليهم . ولكنه كان بإجماع أنصاره وخصومه من أفرس الناس بالشعر ، ومن أعلمهم بالشعر الجاهلي وبطرقه ودروبه وأساليبه ، ولعل علمه هذا بالشعر ، ورغبته في التفوق والتصدر على أقرانه المتعيشين مثله على رواية الشعر ، كانا في رأس الأسباب التي حملته على الوضع والدس والافتعال .

ووضع (المفضل) الضبي قصيدتي النابغة والأعشى مكان قصيدتي عنترة والحارث بن حلزة اليشكري في الاختيارات الشهيرة للمعلقات . وضم (أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل) النحوي قصيدتي النابغة والأعشى على اختيارات (حماد) فصار العدد تسع معلقات ، أضاف عليها بعض العلماء قصيدة (عبيد بن الأبرص) فصارت عشراً ، وقد شرحها (التبريزي)[2] . وجعل بعضهم العدد ثمانية . ولكن المشهور المعروف بين علماء الشعر الجاهلي انها سبع قصائد : وهي في رأيهم أفضل ما قيل من الشعر في زمان الجاهلية [3] .

ولأهل الأخبار قصص وحكايات عن سبب تسمية المعلقات بالمعلقات . فذكر

---

١ الخزانة (٣/١٦٢) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٦٨) ، شرح التبريزي (٤٥) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٣ العقد الفريد (٣/٩٣) ، ابن خلدون (١/٥٠٩) .

(أحمد بن عبد ربه) مثلاً أن العرب كلفت بقصائد خاصة من الشعر الجاهلي وفضلتها على غيرها ، وعمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع ، ويقال لها المعلقات[1] . وورد : يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . وقال (ابن رشيق) : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان ، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته »[2] .

وذهب (السيوطي) هذا المذهب كذلك ، إذ قال : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلّقت على الكعبة ؛ فلذلك يقال : مذهبة فلان اذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزانته »[3] . وهو رأي أخذه من (ابن رشيق) ، من كتابه (العمدة) . وكتاب العمدة من الموارد التي استقى منها (السيوطي) ، يشير اليه أحياناً ، ولا يشير اليه أحياناً أخرى ، كما هو الحال في هذه الجمل ، التي هي عبارة (ابن رشيق) بحروفها كما جاء في العمدة . وقد توفي (ابن رشيق) سنة (٤٥٦ هـ) .

وزعم بعض آخر أن العرب كانوا في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه روي ، وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب . وقال « أبو عمرو بن العلاء : كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش[4]» .وذهب (ابن خلدون) الى أن العرب

---

١ العقد الفريد (٣/١١٦) ، (٦/١١٩) ، (لجنة) .
٢ العمدة (١/٩٦) ، الخزانة (١/٦١) .
٣ السيوطي ، المزهر (٢/٤٨٠) .
٤ خزانة الأدب (١/٦١) .

كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت كما فعل أصحاب المعلقات السبع ، وإنما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر[1] . وذكر أن « أول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس وبعده علقت الشعراء ، وعدد من علق شعره سبعة . ثانيهم طرفة بن العبد . ثالثهم زهير بن أبي سلمى ، رابعهم لبيد بن ربيعة ، خامسهم عنترة ، سادسهم الحارث بن حلزة ، سابعهم عمرو بن كلثوم . هذا هو المشهور »[2] . وروي عن (معاوية) قوله : « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة من مفاخر العرب كانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[3] .

وعن (ابن الكلبي) انه قال : « أول شعر علق في الجاهلية شعر امرىء القيس علق على ركنٍ من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه ، ثم أُحْدِرَ فعلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدّوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا ان عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »[4] .

ولا بد وأن يكون ظهور قصة التعليق قد حدث قبل أيام (ابن عبد ربه) المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) ، لورودها في (العقد الفريد)[5] . (وابن عبد ربه) من معاصري (أبي جعفر أحمد بن محمد) النحاس ، المتوفى بعده بعشر سنوات ، أي سنة (٣٣٨هـ) ، الذي ذكر القصة أيضاً ، لكنه أنكر تعليق المعلقات ، فعنده « أن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة »[6] . وذكر أنه قال في شرحه على المعلقات ما نصه : « واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي » ، وقال أبو جعفر : « وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » ، « وهو يستند في رأيه هذا ، إلى أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر ، جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هي

---

١ مقدمة ابن خلدون (٥١١) ، (٥٠٩/١) .
٢ الخزانة (٦١/١) .
٣ الخزانة (٥١٩/١) ، (بولاق) .
٤ الرافعي (١٨٧/٢) .
٥ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١٠٦/١) .
٦ ياقوت ، ارشاد (١٤٠/٤) .

المشهورات ! فسميت القصائد المشهورة »[1] .

وقد مشت اسطورة التعليق هذه بين الناس ، حتى صارت رأياً اعتقد به كثير من المحدثين ، الى درجة أن منهم من صار يغضب ويثور إذا قرأ رأياً يخالف هذا الرأي ، لاعتقاده أن في هذا الإنكار غضاً وتعريفاً بأخلد تراث من تراث العرب القديم ، وأن فيه انتقاصاً من قدر الأدب العربي التليد .

وقد تعرض المستشرقون منذ أيام (بوكوك) لموضوع المعلقات ، وقد رأى كثير منهم ان قصة التعليق قصة مصطنعة وان الموضوع مصنوع موضوع . ويرى (نولدكه) ان اختلاف رواة الشعر في ضبط أبيات تلك المعلقات ، دليل في حد ذاته على عدم صحة التعليق ، إذ لو كانت تلك القصائد معلقة ومشهورة وكانت مكتوبة لما وقع علماء الشعر في هذا الاختلاف . ثم يرى سبباً آخر يحمله على الشك في صحة ما يقال عن المعلقات . هو ان كل الذين كتبوا عن فتح مكة مثل الأزرقي وابن هشام والسهيلي وغيرهم وغيرهم ، أشاروا الى ان الرسول أمر بطمس الصور وكسر الأوثان والأصنام ، ولم يشيروا أبداً الى المعلقات ، ولو كانت المعلقات موجودة كلاً أو بعضاً لما غض أهل الأخبار أنظارهم عنها ، ولما سكتوا عن ذكرها ، لأهميتها عند العرب[2] .

ثم يرى (نولدكه) ان هذه القصائد لو كانت معلقة حقاً ، وكانت على الشهرة التي يذكرها أهل الأخبار لما أغفل أمرها في القرآن الكريم وفي كتب الحديث وفي كتب الأدب مثل كتاب الأغاني وأمثاله ، ولأشير اليها ، ولهذا يرى ان ما يروى عن المعلقات هو من القصص الذي نشأ عن التسمية وعن اختيارات حماد لها ، فلما أشاعها بين الناس ، أوجد الرواة لها قصة التعليق[3] .

وقد استدل (نولدكه) من عبارة : « وقال المفضل : القول عندنا ما قاله

---

[1] محمد هاشم عطية ، الادب العربي وتاريخه (١٢٤) .

[2] Theodor Nöldeke, Beiträge zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber, Hannover, 1864, S. XVIII. f.

راجع وصف دخول الرسول الكعبة ، وأمره بطمس الصور وكسر الاصنام والاوثان، ارشاد الساري (٦/٣٩٣ وما بعدها) .

[3] Nöldeke, Beiträge, S. XVII, XX.

بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٦٧) .

أبو عبيدة في ترتيب طبقاتهم : وهو ان أول طبقاتهم أصحاب السبع معلقات . وهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد . قال المفضل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب بالسموط، ومن زعم غير ذلك ، فقد خالف جمهور العلماء »[1] ، على ان الأدباء أوجدوا قصة تعليق المعلقات في الكعبة ، نظراً الى ما يقال من تفاخر الشعراء بعكاظ ، وتحكيم المحكمين فيما بينهم ، فرأى رواة الشعر أن يجعلوا المختار من الشعر ، وهو القصائد السبع الطوال سيد الشعر الجاهلي ، ولما كانت مكة ذات قدسية ، وجدوا انها أصلح مكان لأن يربط بينه وبين هذا المختار من عيون الشعر ، فأوجدوا حكاية التعليق[2] .

وبين المستشرقين فريق ذهبوا مذهب (نولدكه) في رفض قصة التعليق ، ورأوا أن القصة أسطورة لا أصل لها ولا فصل . وفريق أيد التعليق ، وهم أقلية ، وذهب مذهب المثبتين له من علماء الشعر الجاهلي . أما علماء العربية في أيامنا ، فهم أيضاً بين مؤيد وبين مخالف ، ولكل رأي .

وقد تعرض (الرافعي) لموضوع تعليق المعلقات ، فذهب الى أن قصة التعليق على الكعبة قصة مفتعلة ، وأن (ابن الكلبي) هو الذي ذكر خبر تعليقها على الكعبة،وأن مَنْ عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق في رواية الشعر وأخباره لم يذكروا من ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمي الى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما مختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو بمائه في الحرير أو في القباطي ؛ وأن العرب بقيت تسجد لها (١٥٠) سنة حتى ظهر الإسلام ، تسجد لها كما يسجدون لأصنامهم[3] . (وابن الكلبي) على رأيه « هو أول من افترى خبر كتابة القصائد السبع المعلقات وتعليقها على الكعبة »[4] .

وتعرض (الرافعي) أيضاً الى رأي من ينكر أن هذه القصائد صحيحة النسبة الى قائليها ، مرجحاً أنها منحولة وضعها مثل حمّاد الراوية ، أو خلف الأحمر ،

---

١ Beiträge, S. XX.
٢ Nöldeke, Beiträge, S. XXII.
٣ الرافعي (١٨٦/٢ ، ١٩٢) .
٤ الرافعي (٤١٦/١) ، (١٩٢/٢) .

فرأى أنه رأي قائل ، لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها في الصدر الأول ، غير أنه مما لا شك فيه أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارض الألسنة ، قل ذلك أو كثر ، أما أن تكون بجملتها مولدة فدون هذا البناء نقض التأريخ[1] .

ولم أجد بين الموارد التي وصلت الينا من موارد مطبوعة أو مخطوطة مورداً واحداً ذكر ان الرسول حينما فتح مكة ، وأمر بتحطيم ما كان بها من أصنام وأوثان ويطمس ما كان بها من صور ، وجد معلقة واحدة أو جزءاً من معلقة أو أي شعر آخر وجد مكتوباً ومعلقاً على أركان الكعبة أو على أستارها ، كما اني لم أجد في أخبار بناء الكعبة خبراً يشير الى انهم علقوا المعلقات على الكعبة حينما أشادوها وبنوها من جديد . ولو كانت تلك القصائد قد علقت، لما سكت الرواة عنها وأغفلوا أمرها اغفالاً تاماً . ثم إن أهل الأخبار الذين أشاروا الى الحريق الذي أصاب الكعبة ، والذي أدى الى اعادة بنائها ، لم يشيروا أبداً الى احتراق المعلقات كلها أو جزء منها في هذا الحريق ، ولو كانت موجودة ومعلقة على الكعبة كما زعموا ، لما سكتوا عن ذكر هذا الحدث الهام . ثم اني لم أسمع ان أحداً من حملة الشعر الجاهلي من الصحابة أو التابعين ، ولا غيرهم من رواة شعر الجاهلية وحفظته ، وكلهم كانوا يتلذذون بروايته وبسماعه،أشار الى وجود معلقات ومذهبات وقصائد سبع مختارة ، ولو كان لهم علم بها لما أخفوا ذلك عمن جاء بعدهم أبداً . وتعليق المعلقات قصة ، لا أستبعد أن تكون من صنع (حماد) جامعها، أو من عمل من جاء بعده ، في تعليل سبب ذلك الاختيار .

وأما ما زعم من أن معاوية قال : « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[2] ، فخبر لا يوثق به .

ومن (السمط) جاءت فكرة تعليق المعلقات . فالسمط : خيط النظم لأنه يعلق ، وقيل قلادة أطول من المخنقة ، والخيط ما دام فيه الخرز ، وجمعه (سموط)[3] . فالسمط يعلق ، وقد دعيت القصائد المذكورة بـ (السمط)،وقالوا

---

١ الرافعي (١٩٣/٢) .
٢ الخزانة (٥١٩/١) ، (بولاق) .
٣ اللسان (٣٢٢/٧) .

من ثم بتعليق تلك القصائد ، وتعليقها على الكعبة أو على استارها هو خبر مكان يناسب المقام الذي وضعوه لتلك المنظومات .

وتلفت جملة : « وقال المفضل : من زعم أن في السبع التي تسمى السمط لأحد غير هؤلاء ، فقد أبطل » النظر حقاً[1] . فقد استعمل لفظة (السمط) ، فقط ، وقصد بها المعلقات،وهذا الاستعمال يدل على نعت العلماء للقصائد المذكورة بأن كل قصيدة منها وكأنها خيط من اللؤلؤ منظوم يتلو بعضه بعضاً ، وأن تلك القصائد السبع قد اختيرت من بين قصائد الشعر الجاهلي ، وأن من يزيد على ذلك العدد قصيدة ، فقد أخطأ .

وقد روي أن العرب كانت تسمي القصائد الطويلة الجيدة المقلدات والمسمطات[2]. و « مقلدات الشعر وقلائده البواقي على الدهر »[3] . « وسمط الشيء تسميطاً علقه بالسموط ، وهي السيور » ، ومن هــذا المعنى أخذ اختراع تعليق المعلقات في رأي بعض الباحثين[4] .

ويذكر علماء اللغة والشعر أن (المسمط) من الشعر ، أبيات تجمعها قافيــة واحدة مخالفة لقوافي الأبيات. ويقال قصيدة مسمطة،شبهت أبياتها المقفاة بالسموط . وذكر بعضهم : الشعر المسمط الذي يكــون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة وتجمعها قافية مخالفة لازمة القصيدة حتى تنقضي . وهو الذي يقال له عند المولدين : المخمس ، والمسبع ، والمثمن . وذكر بعض علماء الشعر ان لامرىء القيس قصيدتان سمطيتان[5] .

وأرى ان الذي أوحى الى أهل الأخبار بفكرة المعلقات السبع هو ما جاء في القرآن الكريم : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم »[6] ، وما جاء في الحديث من قوله : « أوتيت السبع الطول »[7]. وقد ذكر علماء التفسير ان (السبع الطول) من سور القرآن : سبع سور ، وهي سورة البقرة وسورة آل عمــران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، واختلف في السابعة ، فمنهم من قال السابعة

---

١ العمدة (ص ٩٦) .
٢ البيان والتبيين (٩/٢) .
٣ تاج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلد) .
٤ تاج العروس (١٦١/٥) ، (سمط) .
٥ تاج العروس (١٦١/٥) ، (سمط) .
٦ الحجر الآية ٨٧ .
٧ اللسان (٤١٠/١١) .

الأنفال ، ومنهم من جعل السابعة يونس ، ومنهم من قال انها سورة (الفاتحة) وانها « السبع المثاني » ، لأنها تتألف من سبع آيات[1] . فمن السبع المثاني التي قصد بها السور السبع الطوال المذكورة ، والتي ذكر المفسرون انها خصت بهذه التسمية بسبب كونها أطول السور ولاحتوائها على أكثر الأحكام أخذ رواة الشعر في رأيي فكرتهم في المعلقات السبع ، التي نعتوها أيضاً بـ (الطوال) وبـ (السبع الطوال) وهو نعت جاء في الحديث وفي كتب التفسير للسبع المثاني ، أي للسور المذكورة، إذ عبّر عنها بـ (السبع الطوال) ، وورد في الحديث : « أوتيت السبع الطوال ».

ويلاحظ أن علماء الشعر مغرمون بعدد السبعة ، وأن نظام انتقائهم للأشعار قائم على سبع . فالمعلقات سبع ، ومنتقيات العرب والمذهبات التي للأوس والخزرج خاصة سبع كذلك ، وعيون المراثي سبع ، ومشوبات العرب وهي التي شابهن الكفر والإسلام سبع كذلك ، والملحمات سبع أيضاً . ومجموع هذه الاختيارات تسع وأربعون . وهي حاصل هذه المجموعات السبع التي تتألف كل مجموعة منها من سبعة أشعار[2] .

وهذا التقسيم السبعي لا بد أن يكون له أساس ، فليس من المعقول أن يكون اعتباطياً وعلى غير أساس . والمعروف أن التقسيم السبعي ، أو النظام السبعي ، تقسيم قديم يعود الى سنين طويلة قبل الميلاد ، فالسماوات والأرضون سبع ، والكواكب السيارة سبعة ، والأنغام الموسيقية سبعة ، وأيام الاسبوع سبعة. والعدد سبعة هو عدد مقدس عند بعض الشعوب القديمة .

وقد سبق لي أن تحدثت في مجلة المجمع العلمي العراقي عن المعلقات السبع ، وذكرت الأسباب التي حملت العلماء على تسميتها بالمعلقات .

---

١ تفسير الطبري (١٤/٣٥ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٥٥٧) ، تفسير الطبرسي (٣/٣٤٤) .

٢ الرافعي (٣/١٩٠ وما بعدها) .

الفصل التاسع والخمسون بعد المئة

أصحاب المعلقات

أصحاب السبع الطوال ، هم : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث ابن حلزة اليشكري . وهم الذين اختار (حماد) الراوية قصائدهم ، فألف منها اختياراته . وقد رتبتهم حسب الترتيب المألوف الذي يرد في دواوين المعلقات ، وإن كان هذا الترتيب يتعارض مع الترتيب الزمني . فلبيد مثلاً كان من الواجب علينا تأخيره ، بجعله آخر الشعراء المذكورين ، لأنه أدرك الاسلام ، فهو من المخضرمين ، وبعض منهم كان من اللازم تقديمه ، ليأخذ مكانه المناسب له من الناحية الزمنية ، بجعله في موضع من يؤخر لتأخره في الزمان .

وسأضيف على ما ذكرت الأعشى والنابغة وعبيد بن الأبرص ، مجاراة لمن زاد على ذلك العدد شاعراً أو شاعرين أو ثلاثة ، أو طرح منه شاعرين ، ووضع في محلهما شاعرين آخرين . كما جرى الحديث عن ذلك حين تكلمت عن المعلقات . وسأبدأ لذلك بالكلام على أولهم ، وهو بإجماع علماء الشعر : امرؤ القيس .

وامرؤ القيس ، هو على رأس شعراء الجاهلية في الذكر والشهرة ، وعلى رأس أصحاب (المعلقات السبع) . وقد أوصله أهل الأخبار الى (قيصر) ، وجعلوا له معه حكايات ثم قبروه بـ (أنقرة) الى جانب قبر ابنة بعض الملوك الروم[1] .

---

١ نزهة الجليس (١٤٧/٢ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح (٢١) ، الاغاني (٦٢/٨ وما بعدها) ، (بولاق) ، الخزانة (٥٣٢/٣) .

وختموا حياته بخاتمة مؤلمة مفجعة ، وقالوا إنه عرف بـ (ذي القروح) ، لأن ملك الروم كساه حلة مسمومة فقرحته[1] ، أو لقوله :

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة   لعل منايانا تحـولن أبؤسا[2]

ويرى (بروكلمن) ان قصة موت (امرىء القيس) ، بسبب الحلة المسمومة، أسطورة تشبه الأسطورة التي حصلت لهرقل البطل اليوناني الشهير[3] .

ودعوه بـ (الملك الضلّيل) ، و (الملك المضلل)[4] . وذكروا انه سعى وجدّ لإعادة ملك والده ، ولكنه باء بالفشل ، وكان آخر ما فعله في هذا الباب ، أن ذهب الى (القسطنطينية) لمقابلة (قيصر) لإقناعه بمساعدته في الحصول على حقه، وتقويته لينتقم من قتلة والده ، وليعيد الحكم الى كندة ، فكان مصيره ان جاءه الموت وهو في طريقه ، على نحو ما تقصه علينا قصص أهل الأخبار .

وما قصة موته من قروح أصيب بها من لبسه الحلة المسمومة ، إلا أسطورة . ويرى (بروكلمن) احتمال ظهورها من سوء فهم الأبيات ١٢-١٤ من القصيدة (٣٠) من ديوانه . ولعل هذه القصة هي التي أوجدت له اللقب الذي لقّب به ، وهو (ذو القروح) . وأنا لا أستبعد احتمال اصابته بدمامل أو بمرض جلدي آخر ، قرحت جلده ، ومات منها ، فعرف الملك بـ (ذي القروح) ، وأوجدت له قصة الحلة المسمومة على نحو ما أوجدته مخيلة أهل الأخبار .

ويذكر أهل الأخبار ان (امـرأ القيس) لما احتضر بأنقرة ، نظر الى قبر فسأل عنه ، فقالوا قبر امرأة غريبة ، فقال :

---

١ المستطرف (٢/٣٥) ، سرح العيون ، لابن نباتة (١٨١) ، (بولاق) ، العمـدة (١/٤١ وما بعدها ، ٩٧) ، شرح القصائد العشر (٧ ، ٤٦) ، المؤتلف والمختلف ، للامدي (٩ وما بعدها) ، قال الفرزدق :

وهب القصائد لي النوابغ اذ مضوا   وأبو يزيد وذو القـروح وجـرول

ديوان الفرزدق (٧٢٠ وما بعدها) ، النقائض (٢٠٠ وما بعدها) .

٢ شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، للشيخ أحمد بن الامين الشنقيطي (ص ٥) (طبعة دار الاندلس) .

٣ بروكلمن (١/٩٩) .

٤ تاج العروس (٧/٤١٢) ، (ضلل) ، الخزانة (١/١٦٠) ، (بولاق) .

أجارتنا إن الخطوب تنوب ‏ ‏ وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنّا غريبان ههنا ‏ ‏ وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا فالمودة بيننا ‏ ‏ وان تهجرينا فالغريب غريب

وورد في كتاب : مقاتل الفرسان – لأبي عبيدة ، ان صخر بن عمرو الشريد أخا الخنساء ، قال لما أدركه الموت :

أجارتنا إن الخطوب تنوب ‏ ‏ علينا وكل المخطئين مُصيب
أجارتنا لست الغداة بظاعن ‏ ‏ وإني مقيم ما أقام عسيب

ومات فدفن بقرب عسيب . فلعلها توارداً[1] .

وتذكر قصة ، أن (امرأ القيس) دخل مع القيصر الحمام، فإذا قيصر أقلف ، فقال :

إني حلفت يميناً غير كاذبة ‏ ‏ أنكَ أقلفُ إلا ما جنى القمرُ
إذا طعنت به مالت عمامته ‏ ‏ كما تجمع تحت الفلكة الوبر

وتذكر القصة ان ابنة القيصر نظرت اليه فعشقته ، فكان يأتيها وتأتيه، وطَبِنَ (الطمّاح بن قيس) الأسدي لهما ، وكان حجر قتل أباه ، فوشى به الى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرعاً ، فبعث اليه قيصر بحلة مسمومة ، فتناثر لحمه وتفطر جسده . وكان يحمله (جابر بن حني) التغلبي ، فذلك قوله :

فإما تريني في رحالة جابرٍ ‏ ‏ على حرج كالقر تخفق أكفاني
فيا ربَّ مكروب كررت وراءه ‏ ‏ وعانٍ فككت الغلَّ عنه ففداني
إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ‏ ‏ فليس على شيء سواه بخزّان[2]

ولم ينس (ابن الكلبي) من ذكر آخر كلمة قالها شاعرنا حين حضرته الوفاة، فقال إنه قال :

---

١ السيوطي ، شرح (٧١٥) ، نزهة الجليس (١٤٧/٢) .
٢ الشعر والشعراء (٥٢/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وطعنة مُسحنفرة وجفنة متعنجرة تبقى غداً بأنقرة

فكان هذا آخر شيء تكلم به ، ثم مات[1] .

ورويت كلماته الأخيرة على هذه الصورة :

ربّ خطبة مسحنفره وطعنة مثعنجره
وجعبة متحيره تدفنّ غداً بأنقره

كما روى شعره الذي قاله يخاطب قبراً لامرأة زعم انها من بنات ملوك الروم، على هذا النحو :

أجارتنا إنّ المزارَ قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنّا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب[2]

وهكذا نجد الرواة يختلفون فيما بينهم في رواية هذه الأشعار التي صنعت على لسان الشاعر ، لتكون مادة مقومة للقصة . وكان آخر ما صنعوه لإتمام القصة ، أن أوجدوا له قبراً بأنقرة ، اتخذوه الى جانب قبر منفرد منعزل ، هو قبر إحدى بنات ملك من ملوك الروم ، أوصاهم به (امرؤ القيس) نفسه لما رأى دنو أجله . فكانت الخاتمة مؤلمة ، وكان الاختيار موفقاً جداً ، فالقبر قبر امرأة ، وكان صاحبنا متيماً بحب النساء ، وكانت المرأة بنتاً لملك من ملوك الروم ، فهي من طبقته ، وتصلح أن تكون جارة له ، وهو ابن ملك ، وكان صديقاً حميماً لقيصر الروم ، يدخل معه الحمام ، ويراه عارياً تماماً ، أقلف . فابنة ملك من ملوك الروم ، تصلح لأن تكون له جارة وصاحبة لهذا القبر ، وهكذا قبروا الاثنين في قبرين متجاورين .

وقد زعموا أن امرأ القيس كان « مئناثاً لا ذكر له ، وغيوراً شديد الغيرة ، فإذا ولدت له بنت وأدها ، فلما رأى ذلك نساؤه غيبن أولادهن في أحياء العرب، وبلغه ذلك فتتبعهن حتى قتلهن »[3] .

---

١ الشعر والشعراء (٥٣/١) ، (الثقافة) ، نزهة الجليس (١٥٣/٢) .
٢ الشعر والشعراء (٦٣/١) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (٦٣/١) ، (الثقافة) .

وزعموا أنه كان مع جماله ووسامتــه وحسنه « مُفَرَّكاً لا تريده النساء إذا جرّبنه . وقال لامرأة تزوّجها : ما يكره النساء مني ؟ قالت : يكرهن منك أنك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الاراقة ، بطيء الافاقة . وسأل أخرى عن مثل ذلك فقالت : يكرهن منك أنك إذا عَرِقْتَ فُحتَ بريح كلــب ! فقال : أنت صدقتني ، إن أهلي أرضعوني بلبن كلبة . ولم تصبر عليه إلا امرأة من كندة يقال لها هند ، وكان أكثر ولده منها »[1] .

وتزعم قصة أن قيصر وجه معه جيشاً ، ليعاونه على استعادة ملكــه ، فوشى به رجل من (بني أسد) يقال له (الطماح) ، فهمّ بقتلــه ، وأرسل اليه في أثره بحلة مسمومة مع رجل ، أدخله الحمام وكساه إياها بعد خروجه ، فلما لبسها تنفط بدنه[2] . وزعم (الجاحظ) أنه « راسل بنت قيصر وأراد أن يختدعها عن نفسها ، وبلغ ذلك قيصر وأراد أن يقتله ، فتذمم من ذلك ، وأمر بقميص فغمس في السم ، وقال لامرىء القيس : إلبس هذا القميص فإني أحببت أن أوثرك به على نفسي لحسنه وبهائه فعمل السم في جسمه وكثرت فيه القروح فــات منها ، فسمي ذا القروح . وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك إنه هجاه ، فعندها يقول :

ظلمت له نفسي بأن جئت راغباً   إليه وقد سيّرت فيه القوافيا
فإن أكُ مظلوماً فقدماً ظلمتــه   وبالصاع يُجزى مثل ما قد جزانيا[3]

. قال علماء الشعر : كان (امرؤ القيس) ممن يتعهـر في شعره[4] ، وقد سبق الشعراء الى أشياء ابتدعها : واستحسنها العرب ، واتبعته عليهــا الشعراء ، من استيقافه صحبه في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ . وله تشبيهات مستجادة ، واجادة في صفة الفرس ، وفي الوصف[5] . « واجتمع عند (عبد الملك) أشراف من الناس والشعراء ، فسألهم عن أرق بيت قالته العــرب ، فاجتمعوا على بيت امرىء القيس :

---

١ الشعر والشعراء (١/٦٣) ، (الثقافة) .
٢ نزهة الجليس (٢/١٥٢) .
٣ المحاسن والاضداد (١٤٣) .
٤ الشعر والشعراء (١/٥٣) ، (الثقافة) .
٥ الشعر والشعراء (١/٥٤ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل »[1]

وقال (أبو عبيدة معمر بن المثنى) : « من فضله ، انه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن ، ووصف ما فيها ، ثم قال : دع ذا – رغبة عن المنسبة – فتبعوا أثره ، وهو أول من شبّه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف »[2] .

وقال أبو عبيدة : هو أول من قيد الأوابد ، يعني في قوله في وصف الفرس (قيد الأوابد) فتبعه الناس على ذلك .

وقال غيره : هو أول من شبّه الثغر في لونه بشوك السيّال فقال :

منابته مثل السدوس ولونه كشوك السيّال وهو عذبٌ يفيص

فاتبعه الناس . وأول من قال : « فعادى عداء » فاتبعه الناس . وأول من شبّه الحمار (بمقلاء الوليد) وهو عود القُلة و (بكرّ الأندري) ، والكر : الحبل . وشبّه الطلل (بوحي الزبور في العسيب) . والفرس بتيس الحُلب »[3].

وأورد له علماء الشعر أشياء ذكروا انه انفرد بها ، ولم يتمكن أحد من مجاراته بها[4] ، وعابوا عليه أشياء ، دافع عنها بعض العلماء ، وردّوا العائبين عليها . ومما عابوه عليه تصريحه بالزنا والدبيب الى حُرم النساء ، وفجوره بالمتزوجات ، والشعراء تتوقى ذلك في الشعر وإن فعلته[5] . وقد فضله (لبيد بن ربيعة) على جميع الشعراء ، إذ قال : « أشعر الناس ذو القروح ، يعني امرأ القيس » .

وقد ذكر علماء الشعر أبيات شعر لامرىء القيس ، قالوا ان غيره من الشعراء أخذوها أخذاً ، مع تغيير بسيط وأدخلوها في شعرهم ، أو أخذوا أكثر ألفاظها أو معانيها فأضافوها الى شعرهم . من ذلك قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون : لا تهلك أسى وتجمل

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٦) ، (الثقافة) ، ديوانه (١٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٨) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٧٢ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١/٧٣ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٥ الشعر والشعراء (١/٥٠) ، (الثقافة) .

أخذه طرفة فقال :

وقوفاً بهـا صحبي عليّ مطيّهم يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

ومثل قول امرىء القيس :

فلأياً بلأيٍ ما حملنا غلامَنا على ظهر محبوك السراة محنّب

أخذه زهير ، فقال :

فلأياً بلأيٍ ما حملنا غلامنا على ظهر محبوك ظماءٍ مفاصله

الى غير ذلك من أمثلة ذكرها (ابن قتيبة) وغيره في مؤلفاتهم عن الشعـر والشعراء[1] . إن صحت دلت على ان الشعراء الجاهليـين كانوا يحفظون شعر من تقدم عليهم ، وشعر المعاصرين لهم ، وانهم كانوا يتتبعونه ويستقصونه ليحفظوه، ولم يبالوا بعد ذلك اذا أخذوا شيئاً من شعر غيرهم . وهـذا يـدل أيضاً على ان الشعر الجاهلي كان محفوظاً في الصدور ، يحفظه الشعراء وغيرهم من عشاق الشعر، الى أن جاء الاسلام فدوّن بالقراطيس .

يقول علماء الشعر لم يتقدم امرؤ القيس الشعراء لأنه قال مـا لم يقولوا ، أو لأنه كان أول من ابتدأ بالشعر ووضع جادته ومهد سبيله ووضحه لمن جاء بعده من الشعراء ، لكنه سبق إلى أشياء طريقة فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ، لأنه كان أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبَيْض ، وشبه الخيـل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة ، وقرب مآخذ الكلام ، فقيّد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه[2]. وقد ثمن (الباقلاني) شعره بقولـه : « وأنتَ لا تشك في جودة شعر امرىء القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتُبع فيهـا من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والتميح الذي يوجـد في شعره والتصرف

---

١ الشعر والشعراء (٦٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٢ الشعر والشعراء (٥٣/١ وما بعدها) .

الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح . وقد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً » . ثم هو يؤاخذ الشاعر على عيوب ذكر أنها عوار في معلقته[1] .

ووضع أهل الأخبار (امرىء القيس) في رأس زمرة عشاق العرب والزناة . وذكروا له عشقه لـ (فاطمة بنت العبيد بن ثعلبة) العذرية ، وعشقه لـ (أم الحارث) الكلبية ، وعشقه لـ (عنيزة) ، وهي صاحبة يوم (دارة جلجل)[2]، ورووا له قصة طريفة حدثت له مع صاحبة يوم (دارة جلجل) ، تبين كيف مكر بابنة عمه (عنيزة) ، فأجبرها على أن تتجرد من لباسها ، لينظر اليها وهي تخرج من الغدير مقبلة ومدبرة ، حتى يمتع نظره برؤية جسدها العاري ، ثم كيف نحر ناقته ، وشوى لحمها ، وأخذ يطعم به البنات ، وكيف توسل الى ابنة عمه (عنيزة) لتحمله على غارب بعيرها بعد أن ذبح ناقته وشوى لحمها ليتخذ ذلك حجة له في مشاركة (عنيزة) بعيرها . ثم تروي القصة ، كيف أنه صار يجنح اليها فيدخل رأسه في خدرها فيقبلها . ثم تنتهي القصة بذكر الشعر الذي قاله في هذه المناسبة . حيث يقول :

ويوم عقرتُ للعذارى مطيّتي ... فيا عجباً من رحلها المتحمَّل
يظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحمٍ كهدّاب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت: لك الويلات إنك مُرْجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً : ... عقرت بعيري يا امرىء القيس فانزل
فقلت لها : سيري وأرخي زمامه ... ولا تبعدينا من جناك المعلّل[3]

وراوي هذه القصة هو (محمد بن سلام) ، سمعها كما يقول من (أبي شفقل) راوية (الفرزدق) الشاعر الشهير ، وقد ذكر هذا الراوي أنه لم يرَ رجلاً كان أروى لأحاديث امرىء القيس وأشعاره من الفرزدق ، وذلك لأن (امرىء القيس)

---

١ اعجاز القران (٧٤ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (٦٤/١) .
٣ الشعر والشعراء (٦٦/١) ، الثقافة .

كان قد أقام في (بني دارم) رهط الفرزدق حيناً ، حين رأى من أبيه جفوة، فمن ثمّ أخذ (الفرزدق) علمه بأخبار (امرىء القيس) وأحاديثه وأشعاره [1] .

ويكثر (امرؤ القيس) من ذكر أسماء المواضع التي نزل بها ، وقد أفادنا بذلك في معرفة تلك المواضع . وفي جملة ما ذكره موضع (الحص) ، وقد اشتهر بالخمر . وهو قرية من أسفل الفرات :

كأن التّجار اصعدوا بسبيئة من الحص حتّى أنزلوها على يسر [2]

وقوله :

لمن الديار عرفتها بسحـــام فعمايتين فهضب ذي أقدام
فصفا الأطيط فصاحتين فعاسم تمشي النعاج بها مع الآرام [3]

وقد ذكر عشرة مواضع من أرض البحرين بقوله :

غشيت ديار الحيّ بالبكرات فعارمـــة فبرقـــة العـــيرات
فغول فحليت فنفي فمنعج الى عاقل فالجب ذي الأمرات [4]

وله أشعار أخرى كثر فيها ورود أسماء المواضع [5] .

ويذكر ان قوماً من أهل اليمن أقبلوا يريدون النبي ، فضلّوا ، ووقعوا على غير ماء ، فمكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماء ، وأوشكوا على الهلاك.فأنشد أحدهم بيتين من شعر امرىء القيس ، هما :

لما رأت ان الشريعة همّها وان البياضَ من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارجٍ يفيء عليها الظل عرمضها طامي

فقال أحدهم : ضارج عندكم ، وأشار اليه فمشوا على الركب، فإذا ماء غدق،

---

١ الشعر والشعراء (١/٦٤) ، (الثقافة) .
٢ الصفة (١٢٩) .
٣ الصفة (١٥١ ، ٢٢٦) .
٤ الصفة (٢٢٥) .
٥ الصفة (٢٢٩ ومابعدها) .

واذا عليه العَرمض ، والظل يفيء عليه ، فشربوا وحملوا ولولا ذلك لهلكوا[1] .
ولما بلغوا النبي ، أخبروه خبرهم ، فقال : « ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار»[2].
وروي عن (عمر) قوله في (امرىء القيس) : « سابق الشعراء ، خسف لهم عين الشعر »[3] . ونجد لهذا الشاعر ذكراً في كتب الحديث[4] .

وذكر أن (امرأ القيس) أشار الى (ابن مندلة) (ملك العرب) بقوله:

فأقسمت لا أعطي مليكاً ظلامة   ولا سوقة حتّى يؤوب ابن مندلة

وروي أن هذا البيت ، هو لعمرو بن جوين[5] .

وتذكر قصة رواها (أبو الحسين) النسابة ، أن (حجراً) والد امرىء القيس نهى ابنه عن قول الشعر ، فلما لم ينته عنه ، أمر أحد غلمانه أن يقتله ويأتيه بعينيه ، فانطلق به الغلام ، فاستودعه جبلاً منيفاً ، وعلم أن أباه سيندم على قتله . وعمد الغلام الى جؤذر كان عنده فنحره وامتلخ عينيه ، فأتى بهما حجراً ، فانفجر حجر من الغضب والندم،حتّى همّ بقتل الغلام ، فأخبره الغلام، أنه لم يقتله ، وانه لا زال حياً ، وانه كان يعلم أن والده سيندم على قتله . فأمره عندئذ بالذهاب اليه ، والعودة به الى بيته ، فأتاه به . وكف امرؤ القيس من قول الشعر حتّى قتل أبوه[6] . وهي قصة نجد أمثالها في أساطير الأمم الأخرى . والى هذه القصة أشار (امرؤ القيس) بقوله :

فلا تتركني يا ربيعُ لهذه   وكنت أراني قبلها بك واثقاً

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٥) ، (الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٧ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٦٨) ، (الثقافة) .
٤ احمد بن حنبل ، مسند (٢/٢٢٨) ، طبقات الشافعية ، للسبكي (١/٢٥٦) ، (١٩٦٤ م) .
٥ تاج العروس (٨/١٣٢) ، (ندل) .
٦ شرح شواهد المغني ، للسيوطي (٢١) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٩٨)، « دعا مولى له يقال له ربيعة » ، الشعر والشعراء ، (١/٥١) ، (الثقافة) ، الخزانة (١/١٦٠ وما بعدها) .

وتذكر رواية أخرى ان أباه نهاه بعد عودته اليه من قول الشعر ، ثم انه قال:

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي

فبلغ ذلك أباه فطرده[1] .

والمشهور بين علماء الشعر ، ان امرأ القيس انما طرد ، لأنه كان يقول الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فزجره أبوه ومنعه عن قوله ، فلما لم ينته طرده. فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذّاذ العرب من طيء وكلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام ، فذبح لمن معه في كل يوم وخرج الى الصيد فتصيّد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قيانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه الى غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمّون من أرض اليمن ، فقال : ضيعني صغيراً وحمّلني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر ! ثم شرب سبعاً ، فلما صحا آلى أن لا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً، ولا يدّهن ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره . وهكذا صيروا (امرأ القيس) من الصعاليك ، وجعلوه في عدادهم ، فاتكاً كثير الغزل والولوع بالنساء ، يتنقل في أحياء العرب ويغير بهم ، فيصف الأوثان ، ويبكي على الدمن، ويذكر الرسوم والأطلال وغير ذلك[2] .

ويرجع سند أكثر الروايات المتقدمة والتي بعدها الى (ابن الكلبي) ، ولابن الكلبي كتاب يتصل بامرىء القيس اسمه : « كتاب تسمية ما في شعر امرىء القيس من أسماء الرجال والنساء »[3] ، وله روايات مدوّنة في الأغاني وفي كتب أدب أخرى عن هذا الشاعر وعن ملوك كندة ، ويظهر أنه قد اصطنع قصص امرىء القيس ، وأضاف على القصص شعراً ، ليكون له سنداً وتفسيراً ، وقد يكون أخذ القصص من أفواه الأعراب والرواة الذين حرفوا تأريخ امرىء القيس ووالده وحوروه وحوّلوه على طريقتهم المألوفة الى قصص وأساطير ، تميل نفوسهم الى الاستماع اليها . فنقلها عنهم كما سمعها . غير أن (ابن الكلبي) ، كان كما

---

١ الشعر والشعراء (٥٢/١) ، (الثقافة) .
٢ نزهة الجليس (١٤٧/٢ وما بعدها) .
٣ الفهرست (١٤٨) .

نعلم من الوضاعين ، وكان من العارفين بدروب الشعر ، وكان أيضاً مثل والده ممن يضع الشعر على ألسنة الناس .

وتذكر قصة (امرىء القيس) أنه انتقم من (بني أسد) قتلة والده،فقرت عيناه بأخذه الثأر منهم . وقد نظم ذلك في شعره[1] . وتذكر أنه خرج اليهم أول ما خرج مع بكر وتغلب ، وهم الذين كانوا معـه ، فأدرك بني أسد ظهراً ، فكثرت الجرحى والقتلى ، وحجز الليل بينهم ، وهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب ، أبوا أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك . قال : والله مـا فعلت ولا أصبتُ من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحـداً ؛ قالوا : بلى ، ولكنك رجل مشؤوم ، وانصرفوا عنه ، فمشى هارباً لوجهه ، حتى أمده (مرثد الخير بن ذي جدن) الحميري ، وتبعه شذاذ مـن العرب ، واستأجر رجالاً من القبـائل ، ثم خرج فظفر ببني أسد ، وألح المنذر في طلب امرىء القيس ووجه اليه الجيوش ، فتفرق من كان معه ونجا في عصبته . فكـان ينزل على بعض العرب ويرحل حـتى قدم على السموأل ، ثم على قيصر ، على نحو ما ذكرت[2] .

وتذكر رواية ان (امرأ القيس) لما مر ببكر بن وائل طالباً منهم النصرة ، سألهم عن شاعر محسن فيهم ، فأتوه بعمرو بن قميئة الضبعي ، وقد أسن، فأعجب به (امرؤ القيس) ، فأخذه معه ، حتى ذهب الى (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، طالباً منه النجدة ، فقال له : اني لست أقدر على المسير الى العراق في هذا الوقت ، ولكني أسير معك الى الملك قيصر ، فهو أقوى مني على ما سألت، وكانت للحارث وفادة على الملك ، فأوفده معه[3] . فالذي أخذ (امرأ القيس) الى الروم هو (الحارث) ، على هذه الرواية . والمعروف من الروايات الأخرى ان هذا الملك طالب (السموأل) بأسلحة (امرىء القيس) التي أودعها عنده، فلما أبى السموأل إلا اعطاءها الى (آل امرىء القيس) الشرعيين وورثته، حاصره، وقتل ابنه ، فضربت العرب بالسموأل المثل في الوفاء[4] .

---

١ تاريخ ملوك العرب الاولية (ص ١٢٦ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١٩٥/٣ وما بعدها) .
٣ الخزانة (٦١٣/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ نزهة الجليس (١٥١/٢) .

وكنية امرىء القيس (أبو يزيد) ، ويقال : (أبو وهب) ، ويقال : (أبو الحارث) ، ويقال (أبو كبشة) . وأما اسمه ، فاختلف فيه ، فقيل : (عدي) ، وقيل (مليكة) ، وقيل (حندج) . وكان يقال له : (الملك الضليل) ، و (الضليل) ، و (ذو القروح)[1] .

ويذكر أهل الأخبار ان (امرأ القيس) كان معِنّا عرّيضاً ينازع كل من قال انه شاعر ، فنازع (التوأم اليشكري)، (الحارث بن التوءم)[2] ، فقال له : « إن كنت شاعراً فملّط أنصاف ما أقول وأجزها » . ونازع (عبيد بن الأبرص)[3].

وإذا ما أخذنا بآراء بعض المستشرقين عن سنة وفاة الشاعر (امرىء القيس) من أنها كانت بين السنة (٥٣٠) والسنة (٥٤٠) بعد الميلاد[4] ، فيكون عصر أقدم شعر جاهلي وصل الينا لا يزيد عمره على القرن السادس للميلاد ، أو أواخر القرن الخامس للميلاد . وهذا التقدير معقول يتناسب مع الأخبار المروية عن هذا الشاعر . روي أن رؤبة بن العجاج قال : حدثني أبي عن أبيه قال : حدثتني عمّتي . قالت : سألت امرأ القيس ، ما معنى قولك : كرّك لأمين على نابل ؟ فقال : مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لُؤاماً وظُهاراً ، فما رأيت أسرع منه ولا أحسن ، فشبهت به[5] . ولو أخذنا بهذه الرواية وصدّقناها ، فلن نتمكن من الارتفاع بها من حيث الزمن الى أكثر من هذا التقدير .

وذكر أن (امرأ القيس) لمّا هرب من (المنذر بن ماء السماء) صار الى جبلي طيء : أجا وسلمى ، فتزوج أم جندب . وصادف أن جاءه (علقمة بن عبدة التميمي) ، فتذاكرا الشعر ، فقال امرؤ القيس:أنا أشعر منك ، وقال علقمة : بل أنا أشعر منك ! فتحاكما الى أم جندب ، فأخذ كل واحد منهما يقول شعراً وهي تسمع ، وتعلق عليه ، ففضلت أم جندب (علقمة) عليه ، فغضب (امرؤ القيس) وطلقها ، فخلف عليها علقمة ، فسمي علقمة الفحل[6].

---

١ السيوطي ، شرح (٢١ وما بعدها) .

٢ « قتادة بن التوأم اليشكري » ، اللسان (٢١٣/٦) ، (مجس) ، « لفي التوأم اليشكري ، واسمه الحارث بن قتادة » ، العمدة (٢٠٢/١) .

٣ اللسان (٢١٤/٦) ، (مجس) ، السيوطي ، شرح (٢٥) ، العمدة (١٧٦/١) ، (٨٧/٢) .

٤ تاريخ العرب قبل الاسلام (٢٦٥/٣) .

٥ التنبيهات على أغلاط الرواة (٤) .

٦ السيوطي ، شرح شواهد (٩٢ وما بعدها) .

وجاء في كتاب (الشعر والشعراء) : « وكان امرؤ القيس في زمان أنو شروان ملك العجم ، لأني وجدت الباعث في طلب سلاحه الحارث بن أبي شمر الغساني . وهو الحارث الأكبر . والحارث هو قاتل المنذر بن امرىء القيس الـذي نصّبه أنو شروان بالحيرة . ووجدت بين أول ولاية أنو شروان وبين مولـد النبي صلى الله عليه وسلم ، أربعين سنة ، كأنه ولد لثلاث سنين خلت من ولاية هرمز بن كسرى ، ومما يشهد لهذا ، ان عمرو بن المُسبّح الطائي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، الى المدينة في وفود العرب وهو ابن مائة وخمسين سنة وأسلم . وعمرو يومئذ أرمى العرب . وهو الذي ذكـره امرؤ القيس »[1] .

و (عمرو بن المُسبّح) (المسيح؟) الطائي ، هو الذي عناه (امرؤ القيس) بقوله :

رُبَّ رامٍ من بني ثعل مخرج كفيه من سُتَرِهْ

وكان كما يزعم أهل الأخبار أرمى العرب يومئذ ومن فرسانهـم المعروفين . ومن المعمرين . عمّر على ما يقولون مائة وخمسين سنة ، وجعلوه ممن أدرك أيام الرسول ، بل زعموا انه وفد عليه فأسلم . وجعل بعض أهـل الأخبار وفاته في خلافة (عثمان) . وتوقف (ابن قتيبة) في (المعارف) ، فقال : « لا يدرى أقبض قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، أو بعده »[2] ، « ولست أدري أقبض قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أم بعده »[3] .

وذكروا أنه هو القائل :

لقد عمرت حـتى شف عمري على عمرو بن علة وابن وهب[4]

ولا يعقل خبر بقاء (عمرو بن المسبح) الطائي الى أيام النبي ، ولا سيما خبر

---

١ الشعر والشعراء (٥٠ وما بعدها) ، (٦٦/١) ، (الثقافة) .

٢ الاصابة (١٧/٣) ، (رقم ٥٩٦٤) ، ابن دريد ، الاشتقـاق (٢٣٢) ، المعمرون (٨٦) ، الشعر والشعـراء (٦٧/١) ، (الثقافـة) ، الاستيعاب (٥١٣/٢) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ المعارف (٣١٤) .

٤ الاصابة (١٧/٣) ، (رقم ٥٩٦٤) .

من جعل موته في خلافة عثمان . ولعل شخصاً كان اسمه مثل هذا الإسم ، فاشتبه أمره على الرواة ، فظنوه صاحب امرىء القيس . ولو كان هو صاحبه لما سكت عشاق الشعر والباحثون عن شعر صاحبه عنه ، ولوجدنا له خبراً مع الرسول أو عمر عن حياة امرىء القيس .

وقد أشير الى (البريد) في شعر (امرىء القيس) ، إذ ذكر أنه نادم (قيصر) وأركبه البريد :

ونادمت قيصر في ملكه فأوجهني وركبت البريدا
إذا ما ازدحمنا على سكة سبقت الفرانق سبقاً بعيدا[1]

وكانت البرد منظومة الى كسرى ، من أقصى بلاد اليمن الى بابه ، أيام وهرز ، وأيام قتل مسروق عظيم الحبشة،وكذلك كانت برد كسرى الى الحيرة: الى النعمان وآبائه ، وكذلك كانت برده الى البحرين : الى المكعبر مرزبان الزارة، والى مشكاب ، والى المنذر بن ساوى ، وكذلك كانت برده الى عمان ، الى الجلندى بن المستكبر ، فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين بـ ده ، إلا ما كان من ناحية الشام ، فإن تلك الناحية من مملكة خثعم وغسان الى الروم ، إلا أيام غلبت فارس على الروم »[2] .

ويرجع الفضل في تخليد شعر (امرىء القيس) الى (حماد) الراوية ، والى (أبي عمرو بن العلاء)[3] . وكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : « فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة »[4] . والى (الفرزدق) الذي كان من أروى الناس لأحاديثه وأشعاره[5] ، والى (ابن الكلبي) الذي نجد عنه نقولاً في كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، تخص (امرأ القيس)[6] ، وفي كتاب الأغاني ، وهو من أهم الأخباريين الراوين لأخبار كندة .

---

١ ديوانه (٢٦٢) ، رسائل الجاحظ (١/٢٧٥ ، ٢٩٠ وما بعدها) ، (كتاب البغال) .
٢ رسائل الجاحظ (١/٢٩١ وما بعدها) ، (كتاب البغال) .
٣ المزهر (٢/٢٥٣) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٩٩) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٤٢) .
٥ الشعر والشعراء (١/٦٤) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١/٥٣ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٦٨) .

وذكر (الرياشي) ان كثيراً من الشعر الوارد في ديوان امرىء القيس ، هو منحول عليه ، وهو لجماعة من أصحابه ، مثل عمرو بن قميئة [1]. وقد نص بعضهم على انه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة [2] . وقد عُني علماء الشعر والأخبار بجمع أشعاره في ديوان ، فجمعه غير واحد منهم ، وشرحه كثيرون ، وطبع جملة طبعات ، وترجم الى مختلف اللغات [3] .

وقد اختلف رواة الشعر في ضبط عدد أبيات معلقة امرىء القيس، كما اختلفوا في تقديم وتأخير الأبيات ، « وفي رواية بعض الألفاظ ، بحيث لا تجتمع اثنتان منها على صورة واحدة » [4] . وذكر (البغدادي) : أن قصيدة امرىء القيس التي مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي

هي من عيون شعره ، وعدتها ستة وخمسون بيتاً ، وأكثرها وقعت شواهد في كتب المؤلفين ، وفي كتب النحو والمعاني [5] .

« وكان امرؤ القيس يروي شعر أبي دؤاد الإيادي ويتوكأ عليه . وهو فحل قديم كان أحد نعّات الخيل المجيدين » . « ثم هو كان يعرف أن امرأ القيس ابن حذام يبكي في شعره الطلول ، فأخذ ذلك عنه كما أخذ صفة الخيل عن أبي دؤاد ، وتراه يحاول أن يلحقه في إجادة نعتها والشهرة بذلك ، حتى لا يخلو أكثر شعره من هذا الوصف » [6] .

وقد كان يعاصره من الشعراء المعروفين : علقمة بن عبدة، وعبيد بن الأبرص، والشنفرى ، وسلامة بن جندل ، والمثقب العبدي ، والبراق بن روحان ، وتأبط شراً ، والتوءم اليشكري .

---

١ الموشح للمرزباني (٣٤) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٩٩) .
٢ العمدة (١/٦٧) ، الرافعي (٣/٢٠٣) .
٣ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٠٠ وما بعدها) ، ودائرة المعارف الاسلامية .
٤ الرافعي (٣/١٩٩) .
٥ الخزانة (١/٢٨) ، (بولاق) .
٦ الرافعي (٣/٢٠٤) .

وزعم أن (التوءم) اليشكري لقي (امرأ القيس) يوماً فقال له : إن كنت شاعراً كما تقول فلط لي أنصاف ما أقول فأجزها ، قال : نعم : فقال امرؤ القيس :

أحارِ ترى بريقاً هب وَهْناً

فقال التوءم : كنار مجوس تستعر استعارا

واستمرا على ذلك . ولما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن في أيامه من يطاوله ، آلى أن لا ينازع الشعر أحداً أبداً[1] .

ونجد للباقلاني صاحب كتاب (إعجاز القرآن) آراءً في بعض أشعار (امرىء القيس) ، حيث ينتقد بعض الأبيات ويبين ما فيها من عيوب[2] . كما نجد في كتب (النقد) آراءً في شعره ، وهي بين مستحسن ومستهجن لبعض الأبيات أو القصائد . « ومن الخصائص العروضية في شعره كثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية ، وكثرة التصريع في غير أول القصيدة »[3] .

وللقدماء ملاحظات عن شعر (امرىء القيس) ، وقد شك بعض منهم في كثير من شعره وذهبوا الى انه من الموضوعات ، وقد أشاروا اليه ، ثم جاء المستشرقون ، فركنوا الى ما قاله القدماء عنه ، وأبدوا رأيهم فيه . وتحدث المحدثون من العرب عنه ، وعلى رأسهم الدكتور طه حسين ، حيث أنكر شعره لحجج أوردها في كتابه في الأدب الجاهلي[4] .

وعاش في أيام (امرىء القيس) شاعر آخر عرف أيضاً بامرىء القيس ، هو (امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل بن أبي زهير بن جناب بن هبل)[5].

و (طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك)،من قيس بن ثعلبة . وهو ابن أخي (المرقش الأصغر) ، وكان من المقربين الى عمرو بن هند) ملك

---

١ الرافعي (٢٢٨/٣) .
٢ الباقلاني ، اعجاز القرآن .
٣ بروكلمن (٩٩/١) .
٤ راجع أيضا شوقي ضيف : العصر الجاهلي (ص ٢٤٨ وما بعدها) .
٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢٦/١) .

الحيرة ، ومن المنادمين لأخيه (أبو قابوس) . وهو ابن أخت (جرير بن عبد المسيح) المعروف بـ (المتلمس) . وقد قال الشعر وهو صغير السن، ومات أبوه وهو صغير ، وأكل أعمامه ماله ، وأبوا تقسيمه ، فهجاهم ، واشتهر بمعلقته التي عاتب بها ابن عمه (مالكاً) لأنه لم يُعِنْ أخاه (معبداً) في جمع شتات إبله . وقد قتل بالبحرين على ما يذكره أهل الأخبار في قصص متضارب، اختلف في سبكه الرواة [1] .

واسم (طرفة) عمرو ، وانما سمي طرفة لقوله :

لا تعجلا بالبكاء اليوم مطرفاً ولا أميريكما بالدار إذ وقفا

وقيل إن كنيته (أبو عمرو) [2] . وقد فضل بعض علماء الشعر شعره على شعر سائر الشعراء الجاهليين [3] .

وكان (طرفة) أحدث الشعراء سناً وأقلهم عمراً ، قتل وهو ابن عشرين سنة . فيقال له (ابن العشرين) . وقيل بضع وعشرين سنة . وأمه (وردة) من رهط أبيه ، وفيها يقول لأخواله وقد ظلموها حقها ، بأن يعطوها حقها :

ما تنظرون بمال وردة فيكم صَغُرَ البنون ورهط وردة غيّب [4]

ويقال إن أول شعر قاله (طرفة) انه خرج مع عمه في سفر ، فنصب فخاً، فلما أراد الرحيل قال :

يا لك من قبرة بمعمر خلا لكِ الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري قد رفع الفخ فماذا تحذري

لا بد يوماً أن تصادي فاصبري [5]

---

١ الخزانة (٤١٣/١) (بولاق) ، الاغاني (١٨٥/٢١) ، الموشح (٥٧) ، المرزباني، معجم (٢٠١) ، طبقات ابن سلام (١١٥) ، الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) ، الخزانة (٤١٩/٢) ، (هارون) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠٥/٢) ، المزهر (٤٤١/٢) .

٣ المصدر نفسه .

٤ الابيات في ديوانه (١١) ، الشعر والشعراء (١١٩/١) ، (الثقافة) .

٥ الشعر والشعراء (١٢٠/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (٤١٧/١) .

وروي ان أخته رثته بقولها :

عددنا له ستاً وعشرين حجة   فلما توفاها استوى سيّداً ضخما
فُجعنا به لما رجونا إيابه   على خير حال لا وليداً ولا قحما[1]

ورغم قلة ما نسب الى (طرفة) من الشعر ، فقد قدمه علماء الشعر على غيره من الشعراء بأن جعلوا ترتيبه الثاني بعد امرىء القيس ، ولهذا ثنوا بمعلقته . ذكر (ابن قتيبة) انه أجود الشعراء قصيدة[2] . وقد ذكر (ابن سلام) ان معظم شعر (طرفة) قد ضاع حتى لم يبق منه بأيدي المصححين لشعره إلا بقدر عشر قصائد ، مع انه كان من أقدم الفحول . وقد حمل عليه كثيراً من الشعر[3] .

وكان في حسب من قومه ، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم . وكانت أخته عند (عبد عمرو بن بشر بن مرثد) ، وكان (عبد عمرو) سيد أهل زمانه ، فشكت أخت طرفة شيئاً من أمر زوجها اليه ، فقال :

ولا عيب فيه غير أنّ له غنى   وإن له كشحاً ، إذا قام أهضما
وإن نساء الحي يعكفن حوله   يقلن ، عسيب من سرارة ملهما

فبلغ عمرو بن هند الشعر ، فأبلغه الى (عبد عمرو) وهو معه في صيد ، فقال (عبد عمرو) : أبيت اللعن ؛ الذي قال فيك أشدّ مما قال فيّ ، قال : وقد بلغ من أمره هذا ؟ قال نعم . فأرسل اليه ، وكتب له الى عامله بالبحرين فقتله . في قصة منمقة مدوّنة في أكثر كتب الأدب والأخبار . وقد تعرضت لها في مكان آخر من هذا الكتاب . ويقال ان الذي قتله (المُعلى بن حنش العبدي)، والذي تولى قتله بيده (معاوية بن مرّة الأيفلي) ، حيّ من طسم وجديس[4] . وقيل (الربيع بن حوثرة) عامله على البحرين[5] . وقيل إن قاتله : (عبد هند

---

١ الخزانة (٤١٦/١) .
٢ الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) ، الخزانة (٤١٩/٢) ، (هارون) .
٣ طبقات (٢٣) .
٤ الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) .
٥ الشعر والشعراء (١٢١/١) ، الخزانة (٤٢١/٢ وما بعدها) ، (هارون) ، الاغاني (١٢٥/٢١) ، نوادر المخطوطات (المجموعة السادسة) (ص ٢١٢ وما بعدها) .

ابن جرد بن جريّ بن جروة بن عمير) التغلبي ، عامل (عمرو بن هند) على البحرين . وان (عمرو بن هند) ، كان قد جعل (طرفة) و (المتلمس) في صحابة (قابوس) أخيه ، فكان (قابوس) يتصيد يوماً ، ويشرب يوماً ، فكان إذا خرج الى الصيد خرجا معه ، فنصبا وركضا يومهما ، فـإذا كان يوم لهوه وقفا على بابه يومهما كله ، فلما طال ذلك عليهما ، هجا طرفـة (عمرو بن هند) وأخاه ، فبلغ الهجاء الملك ، فقرر قتلهما[1] . وورد أن (عمرو بن هند)، كان قد رشح أخاه (قابوس بن المنذر) ليملك بعده ، وانه جعـل (طرفة) و (المتلمس) في صحابة (قـابوس) وأمرهما بلزومه ، فكان قابوس شاباً يعجبه اللهو ، وكان يركب للصيد ، فيركض يتصيد ، وهما معه يركضان حتى يرجعا عشية وقد تعبـا ، فيكون قابوس من الغداة في الشراب فيقفان بباب سرادقه الى العشي ، فضجرا منه فهجواه وهجوا عمراً معه ، فبلغ ذلك الهجاء (عمراً) ففعل بهما ما فعل[2] .

ويقال ان (طرفة) كان ينادم يوماً (عمرو بن هند) ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها في الجام الذي في يده ، فقال :

ألا يا بأبي الظبيّ   الذي يبرقُ شنفاه
ولولا الملك القاعدُ   قـد الثمني فاه

فحقد ذلك عليه ، وكان قال أيضاً :

وليتَ لنا مكان الملكِ عمرو   رغوثاً حولَ قبتنا تدورُ
لعمرك إن قابوسَ بن هند   ليخلط ملكه نوكٌ كثير

وقابوس هو أخو (عمرو بن هند) . وكان فيه لين . ويسمى قينة العرس . فحقد (عمرو بن هند) عليه واستدعاه ، وكتب له كتاباً ، وكتب بمثل ذلك (للمتلمس) ، وشكّ المتلمس في أمر الصحيفة ، ومزقها ، ومضى (طرفة) الى البحرين ، فأخذه (الربيـع بن حوثرة) فسقـاه الخمر حتى أثمله ، ثم فصد أكحله ، فقبره بالبحرين . وكان لطرفة أخ يقال له (معبد بن العبد) ، فطلب

---

١ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة) . (ص ٢١١ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٤١٢/١ وما بعدها) .

بديته ، فأخذها من الحواثر[1] .

ويرى (بروكلمن) أن (طرفة) لم ينادم أبا قابوس ، وإنما نادم (عمرو ابن مامة) أخ الملك من أبيه ، باليمامة . وكان قد التجأ الى (مراد) من عداوة أخيه . فعاقب الملك (طرفة) بأخذ إبله التي تركها في (تبالة) من ديار (لخم)، فهجاه طرفة[2] . وقد ذكر (المرتضى) رواية تذكر أن صاحب المتلمس وطرفة هو (النعمان بن المنذر) ، وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتي ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وأبو منذر ، هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح طرفة النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان[3] .

وذكر « ان عائشة سئلت : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا لبيت طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

فجعل يقول : ويأتيك بالأخبار من لم تزود . فقال أبو بكر : ليس هكذا. فقال : اني لست بشاعر ، ولا ينبغي لي »[4] .

وينسب الى طرفة قوله :

عفا من آل ليلى السهـ ـب ، فالأملاح فالغمرُ
فعرق فالرماح فالـ ـلوى من أهله قفر
وأبـلي الى الغـرّا ءِ فالماوان فالحجـر

---

1 الشعر والشعراء (١٢١/١) ، النقافة) ، (فليت) ، الخـزانة (٤١٢/١ وما بعدها) .

2 بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٢/١) .

3 أمالي المرتضى (١٨٥/١) .

4 السيوطي ، شرح شواهد (٨٠٤/٢ وما بعدها) .

فأمواه الدنا فالنجـ ـد فالصحراء فالنسر
فلاة ترتعيهـا العيـ ـن فالظلمان فالعفـر

وينسب للخرنق أيضاً[1] .

ويقدم علماء الشعر (طرفة) على غيره من الشعراء ، بإجادته وصف الناقة في معلقته على نحو لم يسبق اليه[2] . وقد جعله (لبيـد) بعد (امرىء القيس) في الشعر ، وقال عنه « أبو عبيدة : طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور ، يعني امرأ القيس وزهيراً والنابغة ، ولكنه يوضع مع أصحابه : الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وسويد بن أبي كاهل » .

وقد ذكر علماء الشعر أبياتاً جيدة لطرفة سبق بها غيره من الشعراء ، فأخذها عنه الشعراء وضمنوها أو ضمنوا معناها شعرهم . وممن اقتبس منه : (لبيد) و (الطرماح) و (عدي بن زيد) العبادي ، وعبدالله بن نَهيك بن أساف الأنصاري وغيرهم[3] .

وتعدّ (معلقة) (طرفة) أطول المعلقات أبياتاً ، فهي تتألف من (١٠٥) أبيات في شرح القصائد العشر للزوزني[4] ، وقد يزيد عليها بيتاً أو أكثر في بعض الروايات[5] . وتنتهي المعلقة بذكر الموت ، وبالنصح ، وبأن الأيام معارة فما استطعت من معروفها فتزود بها ، ثم ختمها بقوله :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكلّ قرين بالمقـارن يقتدي

وهي حكم ، لا تصدر في العادة إلا من شيخ شارف على الموت ومن حكيم عرك الأيام ، ومن رجل خبير مجرب . والقصيدة نفسها من نفس رجل ، يجب أن يكون قد خبر الحياة ، ومارس الشعر زمناً ، فهل تكون من نظم شاب هو ابن عشرين سنة ، أو بضع وعشرين ؟

---

١ الصفة (٢٢٥) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٢/١) .
٣ الشعر والشعراء (١٢١/١) ، (الثقافة) .
٤ (ص ١٣٣ وما بعدها) .
٥ نزهة الجليس (١٥٨/٢ وما بعدها) .

وفي معلقة (طرفة) أبيات تشير الى وقوفه على سفن الفرات ودجلة والبحر، إذ يقول فيها[1] :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سَفين بالنواصف من ددِ
عدولية أو من سفين ابن يامن يجورُ بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حَباب الماء حيزومها بها كما قسم التربَ المفائل باليد

ويقول فيها أيضاً[2] :

وأتلع نهّاضٌ إذا صعدت به كسُكّان بوصي بدجلة مصعد

وزهير بن أبي سلمى ، من هذا الرعيل الذي عدت إحدى قصائده من المعلقات . وكان على ما يقال راوية لأوس بن حجر زوج أمه ، وكان أوس راوية للطفيل الغنوي ، وهو والد (كعب بن زهير) الشاعر الشهير الذي كساه الرسول بردة له،بعد أن كان قد أمر بقتله لما بلغه من هجائه له. فلما سمع (كعب) بذلك جاء الى المدينة فأسلم ، وطلب العفو ، وقال قصيدته الشهيرة بحضرة الرسول فعفى عنه وأعطاه البردة . أما والده (زهير) ، فقد توفي قبل المبعث ، ولا صحة لما ذكره البعض من انه لقي الرسول[3] . وقد كان يكنى بـ (أبي بجير)[4] . وأتى (بجير) النبي وأسلم . وقد زعم انه رأى رؤيا في منامه ، ان سبباً تدلى من السماء الى الأرض وكان الناس يمسكونه ، فأوله بنبي آخر الزمان ، وان مدته لا تصل الى زمن بعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره . ثم توفي قبل المبعث بسنة[5] .

وهو (زهير بن أبي سلمى) ، واسم (أبي سُلمى) ربيعة بن رياح المزني ، من مزينة بن أد بن طابخة ، وكانت محلتهم في بلاد (غطفان) ، فظن الناس أنه من غطفان . وقد ذهب (ابن قتيبة) الى أنه من (غطفان) وردّ على

---

١ المعلقة ، البيت (٣ ـ ٥) .
٢ المعلقة ، البيت (٢٨) .
٣ الاغاني (٩/١٥٠) ، الاصابة (٣/٢٧٩) ، (رقم ٧٤١٣) ، الخزانة (١/٤٣٦ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٣١) .
٥ الخزانة (٢/٣٢٥ وما بعدها) .

من زعم أنه من مزينة[1] . وهو أحد الشعراء الثلاثة الفحول ، المتقدمين على سائر الشعراء بالاتفاق ، وإنما الخلاف في تقديم أحدهم على الآخر ، وهم امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبياني[2] . ويقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير[3] . وكان والد (زهير) شاعراً ، وأخته (سلمى) شاعرة ، وأخته (الخنساء) شاعرة ، وابناه كعب وبُجير شاعرين ، وابن ابنه (المضرب بن كعب) شاعراً[4] . وكان خال (زهير بن أبي سلمى): (أسعد بن الغدير) شاعراً ، وقد عرف بأمه ، وكان أخوه : (بشامة بن الغدير) شاعراً ، كثير الشعر[5] .

ويظهر من شعر ينسب اليه انه عاش أكثر من مائة سنة ، إذ نراه يتأفف من هذه الحياة ، ومن مشقاتها ، حتى سئم منها ، إذ يقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً ، لا أبالكِ يسأم

ويقول :

بدا لي إن الله حق فزادني الى الحق ، تقوى الله ما كان باديا
بدا لي اني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا

أو :

ألم ترني عُمرت تسعين حجة وعشراً تباعاً عشتها ، وثمانيا[6]

ويظهر ان بيت بدا لي ان الله حق فزادني ، وما بعده من الشعر المنحول عليه . ولم يرد في رواية أبي العلاء ، والأصمعي ، والمفضل الضبي ، والسكري[7].

---

١ الخزانة (٢/٣٣٢) ، (هارون) ، (والناس ينسبونه الى مزينة ، وانما نسبه في غطفان) ، الشعر والشعراء (١/٧٦) ، الاغاني (٩/١٤٦) .
٢ الخزانة (٢/٣٣٢ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/٧٦) .
٤ الخزانة (٢/٣٣٣) .
٥ من نسب الى أمه من الشعراء ، نوادر المخطوطات ، (المجموعة الاولى) ، (ص ٩١) .
٦ رسالة الغفران (١٨٢ وما بعدها) .
٧ رسالة الغفران (١٨٣ رقم ١) .

وفي شعر زهير ، زهد ووعظ وتهذيب ، حملت بعض الباحثين على اعتباره نصرانياً ، ويشك (بروكلمن) في ذلك ، إذ يرى ان أثر النصرانية وإن كان واسع الانتشار في جزيرة العرب في ذلك الوقت ، بيد انه لا توجد لدينا أدلة تحملنا على جعله نصرانياً[1] . وقد ذكر علماء الشعر ان (زهيراً) كان يتأله ويتعفف في شعره . ويدل شعره على ايمانه بالبعث وذلك قوله :

يؤخر فيودع في كتابٍ فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم[2]

ومن جيد شعره في تحديد اليمين قوله :

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ   يمين أو نِفار أو جلاء[3]

وقد ثمن شعره وقدره العلماء . قال (الثعالبي) فيه : « انه أجمع الشعراء للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ »[4] . وفي معلقته أبيات في نهاية الحسن والجودة ، وقد جرت مجرى الأمثال الرائعة[5] .

وورد أن (عمر بن الخطاب) كان لا يقدم عليه أحداً . وذكر أن (عمر) قال لابن عبّاس : أنشدني لأشعر شعرائكم . قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قيل بِمَ كان ذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل بما لا يكون في الرجال . قال : فأنشدته حتى برق الصبح . وورد أن عمر كان جالساً « مع قوم يتذاكرون أشعار العرب إذ أقبل ابن عبّاس ، فقال عمر : قد جاءكم أعلم الناس بالشعر ، فلما جلس قال : يا ابن عبّاس ، من أشعر العرب ؟ قال : زهير بن أبي سلمى . قال فهل تنشد من قوله شيئاً نستدل به على ما قلت ، قال : نعم ، امتدح قوماً من غطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٩٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٧٨) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٧٩) ، (الثقافة) .
٤ خاص الخاص (٧٥) ، الاعجاز والايجاز (٣٧) .
٥ كارلو نالينو (٧٧) .

لو كان يقعد فوق الشمس من أحد قــوم لأولهم يوماً إذا قعــدوا
مُحَسَّدُون عــلى ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم مالَهُ حسدوا [1]

وورد في رواية أخرى ، ان (عمر) قال لابن عباس : « أنشدني لشاعـر الشعراء ، الذي لم يعاظل بين القوافي ، ولم يتبع وحشي الكلام ، قال : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير » [2] .

وكان زهير أستاذ الحطيئة . وسئل عنه (الحطيئة) فقال : ما رأيت مثله في تكفّيه على أكتاف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء ، من اختلاف معانيها ، امتداحاً وذماً . قيل له : ثم مَنْ ؟ قال : مـا أدري ، إلا أن تراني مسلنطحاً واضعاً إحدى رجلي على الأخرى رافعاً عقيرتي أعوي في أثر القوافي .

« قال أبو عبيدة : يقول من فضّل زهيراً على جميع الشعراء : انه أمدح القوم وأشدهم أسرَ شعر . قال وسمعت أبا عمرو بن العــلاء يقول : الفرزدق يشبّه بزهير . وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين . قال : وكان زهير يسمي كُبُرَ قصائده الحوليات .

وكان جيد شعره في هرم بن سنان المريّ . وقال عمر رضي الله عنه لبعض ولد هرم : أنشدني بعض ما قال فيكم زهير ، فأنشده ، فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، فقال : يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل ! فقال عمر رضي الله عنه : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم » [3] . وقد عيب على (زهير) لأخذه عطايا (هرم بن سنان) ، إذ عد أهل الأخبار ذلك نوعاً من التكسب بالشعر، وهو مرذول عند العرب [4] .

وقد قدمه (الأخطل) كذلك ، وقال (ابن الأعرابي) : « كان لزهـير في الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعراً وهو شاعر وخاله شاعر وأختــه

---

1 السيوطي ، شرح شواهد (١/١٣١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/٧٦) .
2 الشعر والشعراء (١/٨١) ، (الثقافة) .
3 الشعر والشعراء (١/٨١ وما بعدها) ، (الثقافة) .
4 العمدة (١/٤٩) .

سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعران ، وأخته الخنساء شاعرة »[1] . « ومن قدّم زهيراً قال : كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالاً في شعره »[2] . وقيل ان أمدح بيت قالته العرب ، هو بيت زهير :

تراه إذا مـــا جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله[3]

ولزهير قصيدة أولها :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم مــا بدا ليا

يقال إنه قالها لما طلب (كسرى) النعمان بن المنذر ، ففرّ فأتى طيّاً ، فسألهم أن يدخلوه جبلهم ، فأبوا ، فلقيه بنو رواحة من عبس ، فقالوا له : أقم فينا ، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا . فقـــال : لا طاقة لكم بكسرى ، وأثنى عليهم خيراً . وورد أن (الأصمعي) أنكر كون هذه القصيدة لزهير . ونسبهـــا بعضهم (لصرمة بن أبي أنس الأنصاري) ، وهي لا تشبه كلام زهير[4] .

ولزهير شعر سبق به غيره ، فأخذه الشعراء منه وضمنوه شعرهم . وقد ذكر العلماء أمثلة على ذلك[5] . « ويروى أن لزهير سبع قصائد نظم كلاً منها في عام كامل ، ومن ثمّ سميت : الحوليات »[6] .

ومن أولاد زهير بن أبي سلمى ، كعب وبجير . وكان (بجير) قد أسلم قبل (كعب) . فبلغ ذلك كعباً ، فقال شعراً تعرض فيه بالرسول فهدر الرسول دمه ، فكتب (بجير) اليه شعراً يخوّفه فيه ويدعوه الى الاسلام ، فجاء وأسلم[7].

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١٣٣/١) .
٢ المصدر نفسه (١٣٢/١) .
٣ الشعر والشعراء (٧٧/١) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٢/١ وما بعدها) ، ديوان زهير (٢٨٣ وما بعدها) ، الخزانة (٥٨٨/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الشعر والشعراء (٨٣/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٦ الخصائص ، لابن جني (٣٣٠/١) ، بروكلمن (٩٥/١) .
٧ السيوطي ، شرح شواهد (٥٢٤/٢) ، العمدة (١٦٥/١) ، ابن هشام ، سيرة (٢٦/٣) ، الروض الانف (٣٠٥/٢) .

و (لكعب) ولد يقال له (المضرب بن كعب) . كان شاعراً[1] ، واسمه : (عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، لقّب بالمضرب ، لأنه شبب بامرأة من بني أسد ، فضرب ، فسمي المضرب . روى له الشريف (المرتضى) شعراً[2] .

وكانت لزهير بنت كانت شاعرة كذلك . ذكر ان بنت زهير دخلت على (عائشة) ، وعندها بنت (هرم بن سنان) ، فسألت بنت هرم : بنت زهير من أنت ؟ قالت : أنا بنت زهير . قالت : أو ما أعطى أبي أباك ما أغناكم ؟ قالت : إن أباك أعطى أبي ما فني ، وإن أبي أعطى أباكِ ما بقي ، وأنشدت بنت زهير :

وإنك إن أعطيتني فن الغنى حمدت الذي أعطيت من ثمن الشكر
وإن يفن ما تعطيه في اليوم أوغدٍ فإن الذي أعطيك يبقى على الدهر[3]

والشاعر (لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب) العامري ، ويكنى (أبا عقيل) ، هو من أشراف قومه في الجاهلية والإسلام ، وكان سخياً من أسرة معروفة . وكان في شبابه من فرسان زمانه ، وقد شارك قبيلته في غاراتها على أعدائها ، وذب عنها بسيفه وبقلمه . وهو من الشعراء المترفعين الذين ترفعوا عن مدح الناس لنيل جوائزهم وصلاتهم كما كان من الشعراء المتقدمين في الشعر[4].

وقد عرف والده بـ (ربيعة المقترين) ، أو (ربيع المقترين) ، لسخائه : وقد ذكره (لبيد) ابنه في شعره بقوله :

ولا من ربيع المقترين رزئتــه بذي علق فاقني حياءك واصبري

وتحدث عن كرمه ، فقال :

وأبي الـذي كان الأرا مل في الشتاء له قطينا[5]

---

١ الخزانة (٢/٣٣٣) ، المؤتلف (٢٨١) .
٢ أمالي المرتضى (١/٤٥٨) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٥٤ وما بعدها) .
٤ الخزانة (٢/٢٤٦) ، (هارون) ، (١/٣٣٧) ، (بولاق) .
٥ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري (١٧) ، (شرح الدكتور احسان عباس) ، (الكويت ١٩٦٢) .

وقد قتل والده وهو صغير السن ، فتكفل أعمامه بتربيته . ويرى (بروكلمن) احتمال مجيء (لبيد) الى هذه الدنيا في حوالى سنة (٥٦٠ م) . أما وفاته، فكانت سنة أربعين ، وقيل احدى وأربعين ، لما دخل معاوية الكوفة إذْ صالح (الحسن ابن علي) ونزل (النخيلة) ، وقيل إنه مات بالكوفة أيام (الوليد بن عقبة) في خلافة عثمان ، وقد رجح (ابن عبد البر) هـذه الرواية ، وورد أنه توفي سنة نيف وستين[1] .

وقد عُرفت أم (ربيعة بن مالك) ، أي والد (لبيـد) بـ (أم البنين) ، وهي بنت (عمرو بن عامر بن صعصعة) ، وكانت تحت (مالك بن جعفر بن كلاب) ، فولدت له منه (عامر بن مالك) مُلاعب الأسنة ، و (طفيل بن مالك) فارس قُرزل ، وهو أبو (عامر بن الطفيل) ، و (ربيعة بن مالك) أبا لبيد ، وهو ربيع المقترين ، و (معاوية بن مالك) معوّد الحكّام (معوّد الحكماء) ، وإنما سمي (معوّد الحكّام) (معوّد الحكماء) بقوله :

أعوّد مثلهـا الحكّام بعدي إذا ما ألحق في الأشياعِ نابا[2]

وقيل انه لما مات دفن في صحراء (بني جعفر بن كلاب) رهطـه ، وانه لما قدم الكوفة وأقام بها ، رجع بنوه الى البادية أعراباً[3] . وروي في خبر انـه مات بالكوفة أيام (الوليد بن عقبة) في خلافة (عثمان) ، فبعث (الوليد) الى منزله عشرين جزوراً فنحرت عنه . وقد رجح (ابن عبد البر) ، هـذه الرواية . وورد في رواية أخرى انه توفي في عهد (زياد) وفي خلافة معاوية[4] .

وقد ذكر من ترجم حياته انه كان فارساً شجاعاً سخياً،وقد جعله (ابن قتيبة)

---

١ الاستيعاب (٣/٣٠٧) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/١٥٢ وما بعدها) .

٢ أمالي المرتضي (١/١٩٣) ،

أعود مثلها الحكماء بعدي اذا ما الحق في الحـدثان نابا

اللسان (١٤/٣٩٩) ، (سما) ، وورد « معوذ الحكماء » ، بالذال المعجمة ، تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .

٣ المعارف (٣٣٢) .

٤ الاستيعاب (٣/٣٠٩) ، (هامش على الاصابة) ، الاصابة (٣/٣٠٨) ، (رقم ٧٥٤٣) .

في جملة المائة فارس الذين وجههم (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، وهو (الأعرج) الى (المنذر بن ماء السماء) لقتله ، فلما صاروا الى معسكر (المنذر) ، أظهروا انهم أتوه داخلين في طاعته ، فلما تمكنوا منه قتلوه ، فقتل أكثرهم ، ونجا لبيد ، حتى أتى ملك غسان فأخبره الخبر . فحمل الغسانيون على عسكر (المنذر) فهزموهم ، وهو يوم (حليمة) . وقد ذكر (ابن قتيبة) في كتابه (الشعر والشعراء) ان (الحارث) كان قد أمّر (الوليد) على المائة فارس[1]، وذكر في كتابه (المعارف) ، انه كان غلاماً إذ ذاك[2] . وقد وقعت معركة (يوم حليمة) سنة (٥٥٤ م) ، فيجب أن يكون مولد (لبيد) قبل هذا العهد . ولو أخذنا برأي أهل الأخبار القائل انه عاش فوق المائة ، وانه كان يوم توفي ابن مائة وثلاثين سنة ، أو مائة وأربعين ، أو مائة وسبع وخمسين أو مائة وستين[3] ، جاز لنا تصور اشتراك (لبيد) في ذلك اليوم ، غلاماً أو شاباً . ولم يذكر (ابن قتيبة) كيف جاء (لبيد) الى (الحارث) ، وهو في هذا العمر ، ولمَ اشترك مع من اشترك في اغتيال المنذر . ولكننا نجد (الميداني) ، يسمي لبيداً الذي اشترك في اغتيال (المنذر) (لبيد بن عمرو)[4] ، أي شخصاً آخر ، وهي رواية أدعى الى القبول من رواية (ابن قتيبة) .

وتقول قصة يرويها أهل الأخبار عن سبب نظم لبيد لأرجوزته الشهيرة ، التي أولها :

يا رب هيجا هيَ خير من دعه   إذْ لا تزال هامتي مقزعة

أن (لبيداً) كان غلاماً آنذاك ، وكان قد ذهب مع وفد (بني عامر) أبناء (أم البنين) ، وعليه (أبو البراء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، وقد وضعوه على رحالهم يحفظ أمتعتهم ، ويغدو بإبلهم فيرعاها . وكان (النعمان) قد ضرب قبّة على (أبي براء) وأجرى عليه وعلى من كان معه النُّزل ، وكان

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٤) ، (الثقافة) ، الخزانة (١/٣٣٧) ، (بولاق) .
٢ « فوجه اليهم مائة رجل ، فيهم « لبيد » الشاعر ، وهو غلام » ، المعارف (٦٤٢) .
٣ الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) ، الاستيعاب (٣/٣٠٦ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الميداني ، مجمع الامثال (٢/٢٩٥ وما بعدها) .

(الربيع بن زياد) العبسي ينادم النعمان ويتقدم على من سواه ، وكان يدعى (الكامل) ، وكان يعادي (بني جعفر) ، فأوغر صدر (النعمان) عليهم ، حتى صد عنهم ونزع القبة عن (أبي براء). فلما وقف (لبيد) على خبرهم، قال لهم : هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غداً حين يقعد الملك فأرجز به رجزاً ممضاً مؤلماً ، لا يلتفت اليه النعمان بعده أبداً ؟ قالوا وهل عندك ذلك ؟ قال : نعم ، قالوا : فإنا نبلوك بشتم هذه البقلة ، فقال فيها قولاً أعجبهم . فلما أصبحوا قالوا : أنت والله صاحبه ، فحلقوا له رأسه ، وتركوا له ذؤابتين، وألبسوه حلة ، وغدوا به معهم،فدخلوا على النعمان فوجدوه يتغدّى ومعه (الربيع) ليس معه غيره،والدار والمجالس مملوءة بالوفد . فلما فرغ من الغداء أذن للجعفريين فدخلوا عليه ، والربيع الى جانبه ، فذكروا للنعمان حاجتهم ، فاعترض الربيع في كلامهم ، فقام لبيد : وقد دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى ازاره ، وانتعل نعلاً واحدة ، على عادة الشعراء في الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم قال رجزه حتى إذا بلغ قوله :

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه   إن استه من برص ملمعه
وإنه يدخل فيها اصبعه   يدخلها حتى يواري أشجعه
كأنه يطلب شيئاً ضيّعه

نفر (النعمان) من (الربيع) ورمقه شزراً ، وكره مجالسته لتأثير هذه الأبيات فيه ، وأعاد القبة على (أبي براء)[1] .

وقد أيد (ابن رشيق) رواية من ذكر ان (لبيداً) كان غلاماً يوم قال قصيدته المذكورة بقوله : « والربيع بن زياد ، كان من ندماء النعمان بن المنذر ، وكان فحاشاً عياباً بذياً سبّاباً لا يسلم منه أحد ممن يفد على النعمان ، فرمي بلبيد وهو غلام مراهق فنافسه »[2] . فجعل (لبيداً) غلاماً مراهقاً .

ويروي أهل الأخبار خبراً يؤيد الخبر المتقدم . يقول خبرهم : « نظر النابغة

١ الفاخر (ص ١٤١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٢/١٦) ، نزهة الجليس (٥٠٧/٢ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١٨٩/١ وما بعدها) ، العمدة (٢٧/١) ، الخزانة (١١٧/٤) ، مجالس ثعلب (٤٤٩ وما بعدها) .
٢ العمدة (٥١/١) .

الى لبيد بن ربيعة وهو صبي مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر ، فسأل عنه فنُسب له . فقال له : يا غلام ، إن عينيك لعينا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عم ، قال : فأنشدني شيئاً مما قلته ، فأنشده قوله : « ألم تربع على الدمن الحوالي » فقال له : يا غلام أنت أشعر بني عامر. زدني يا بنيّ ، فأنشده : طلل لخولة بالرسيس قديم . فضرب بيديه الى جبينه وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها : أو قال : هوازن كلها » . ويقال : انه أنشده : عفت الديار محلها فمقامها ، فقال له : اذهب فأنت أشعر العرب[1] .

واذا أخذنا بالروايتين المذكورتين القائلتين ان (لبيداً) كان صبياً أو غلاماً في أيام حكم الملك النعمان ، وجب علينا افتراض ان ميلاده لم يكن بعيداً عن سنة (٥٨٠) أو (٥٨١) أو (٥٨٢ م) ، السنة التي تولى فيها (النعمان) الملك ؛ ومعنى هذا انه لم يعمر طويلاً ، وهو خلاف ما يذكره أهل الأخبار ، وان كل ما يمكن أن نتصوره عن عمره ، انه كان في حوالى الثمانين حين داهمته منيته . وقد جعل (بروكلمن) مولده حوالى السنة (٥٦٠ م) ، وجعل وفاته سنة (٤٠هـ) أي حوالى السنة (٦٦٠م) ، ومعنى هذا انه كان من أبناء المائة حين جاء أجله[2] .

وللبيد شعر في (النعمان بن المنذر) ، وصف فيه مجلسه . فذكر انه كان قاعداً كعتيق الطير يُغضي ويُجل ، والهبانيق قيام ، بأيديهم الأباريق ، تحسر الديباج عن أذرعهم ، ينتظرون أمراً يصدره اليهم . وهو شعر مدون في ديوانه يعدّ من جيد شعره[3] .

وله قصيدة في رثاء (النعمان) ، تعرض فيها للموت ولزوال النعيم ، ولعدم دوام الدنيا لأحد ، ثم تحدث عن النعمان وعن أعماله وتجارته ختمها بقوله :

وأمسى كأحلام النيام نعيمهم وأي نعيم خلته لا يزايل
ترد عليهم ليلة أهلكتهم وعام وعام يتبع العام قابل[4]

---

١ الاغاني (١٤/٩٧) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٥) .
٣ ديوان لبيد (١٩٥) ، الشعر والشعراء (١/٢٠٣) ، (الثقافة) .
٤ القصيدة رقم (٣٦) من الديوان ، شرح ديوان لبيد (ص ٢٦٦) ، الخزانة (١/٣٣٩ وما بعدها) ، (بولاق) .

وقد ذكر فيها (الله) بقوله :

أرى الناس لا يدرون ما قدْرُ أمرهم بلى : كل ذي لب الى الله واسلُ
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكلّ أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفرّ منها الأنامل
وكلّ امرىء يوماً سيعلم سعيه إذا كُشّفت عند الإله المحاصل[1]

وهي قصيدة أزيد من خمسين بيتاً . وأولها :

ألا تسألان المرءَ ماذا يحاول أنحبٌ فيقضى أم ضلال وباطل[2]

وروي أن لبيدا أنشد النبي قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال له صدقت ؛ فقال : وكل نعيم لا محالة زائل

فقال له: كذبتَ ،نعيم الآخرة لا يزول . وروي أن ذلك كان مع (أبي بكر)، وروي في خبر آخر أنه كان مع (عثمان بن مظعون)[3] .

وللبيد شعر يرثي به أخاه لأمه (أربد) ، وكان قد أصابته صاعقة فقتل . وكان (أربد) أكبر منه سناً . وأبوه (قيس بن جزء بن خالد بن جعفر) (أربد بن قيس بن مالك بن جعفر)[4] ، وكان يعطف على (لبيد) كثيراً وعلى ذوي رحمه ، فارساً كريماً ، فلما أصابته الصاعقة تألم (لبيد) مما ألم بأخيه كثيراً ، فرثاه برجز وبقصيد.وقد وجدت في النسخة العربية لتأريخ الأدب العربي لبروكلمن هذا النص : « ولما استقام السلطان للنبي بالمدينة ، سار لبيد يحمل رسالة اليه من عمه : أربد ، فأعجبه دينه »[5] . وهو وهم ، فأربد هو أخوه لا عمه . قال

---

١ القصيدة رقم (٣٦) ، البيت (٨) وما بعده .
٢ الخزانة (٢/٢٥٢) ، (هارون) .
٣ الخزانة (٢/٢٥٥ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١٤٤) ، (وفد بني عامر بن صعصعة) ، الخزانة (٢/٢٥٠ وما بعدها) .
٥ بروكلمن (١/١٤٥) .

الطبري : « وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه »[1] . وكان من خبره انه قدم مع وفد (بني عامر بن صعصعة) على الرسول ، وفيه (عامر بن الطفيل) وثلاثون من رؤوس القوم وشياطينهم ، وفي رأس (عامر) الغدر بالرسول ، بأن يشاغله في الحديث ، فيعلو (أربد) النبي بالسيف ، فلم يتجاسر (أربد) على ضربه ، ورجع الوفد الى بلاده . فلما كان (عامر) ببعض الطريق أصيب بالطاعون فمات ، ومات (أربد) بعد ذلك بقليل بالصاعقة[2] .

وذكر أن (عامر) لما مات نصبت (بنو عامر) نصاباً ميلاً في ميل حِمىً على قبره ، لا تنشر فيه راعية ولا يُرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش ، وكان (جبار بن سلمى بن عامر بن مالك) غائباً ، فلما قدم قال : ما هذه الأنصاب؟ قالوا نصبناها حمى على قبر (عامر) ، فقال ضيقتم على أبي عليّ . إن أبا علي بان من الناس بثلاث . كـان لا يعطش حتى يعطش الجمل ، وكان لا يضل حتى يضل النجم ، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل[3] .

وفي اصابة (اربد) بالصاعقة يقول (لبيد) يبكيه :

ما ان تعرى المنون من أحد   لا والد مشفق ولا ولـد
أخشى على أربدَ الحتوف ولا   ارهبُ نوء السِّماك والأسد
فجّعني الرعـد والصواعق بالفارس يـوم الكريهة النجد[4]

وهي قصيدة دوّن أبياتها (ابن هشام)[5] .

وله قصيدة أخرى في رثاء (اربد) مطلعها :

ألا ذهب المحافظ والمحامي   ومانع ضيمها يـوم الخصام

---

١ الطبري (٣/١٤٥) ، ابن هشام ، سيرة (٢/٣٧٢) .
٢ الطبري (٣/١٤٤ وما بعدها) ، وروى « ابن سعد » خبر وفد « عامر بن صعصعة » بشكل اخر ، ذكر أنه طلب من الرسول أن يجعل له ميزة على غيره ان أسلم ، أو ان يجعل الامر اليه من بعده ، فلما رفض الرسول ذلك ، قال : لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، ابن سعد ، الطبقات (١/٣١٠) ، (وفد عامر بن صعصعة) ، سيرة ابن هشام (٢/٣٣٧) ، (حاشية على الروض الانف) ، (الروض الانف (٢/٣٣٧) .
٣ الخزانة (١/٤٧٤) ، (بولاق) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٨) ، ابن هشام (٢/٣٣٨) ، (حاشية على الروض الانف)، تفسير الطبري (١٣/٨٤ وما بعدها) .
٥ سيرة (٢/٣٣٨) .

وقد رواها (ابن هشام)[1] . وقصائد أخرى عديدة[2] ، تدل على شدة تأثره بوفاة (اربد) .

وقد اختلفت الروايات في زمن إسلام (لبيد) . قيل إنه أسلم سنة وفد قومه (بنو جعفر بن كلاب بن ربيعـة بن عامر بن صعصعة) فأسلم[3] . وقيل إن (لبيد بن ربيعة) و (علقمة بن علاثة) كانا من المؤلفة قلوبهم[4] . وقيل إنه وفد على الرسول بعد وفاة أخيه (أربد) فأسلم[5] .

وتجمع روايات أهل الأخبار وعلماء الشعر على إقبال (لبيد) على الاسلام من كل قلبه ، وعلى تمسكه بدينه تمسكاً شديداً ، ولا سيما حينما بدأ يشعر بتأثير وطأة الشيخوخة عليه وبقرب دنو أجله ، ويظهر ان شيخوخته قد أبعدتـه عن المساهمة في الأحداث السياسية التي وقعت في أيامه ، فابتعد عن السياسة وانزوى في بيته ، وابتعد عن الخوض في الأحداث ، ولهذا لا نجد في شعره شيئاً ، ولا فيما روي عنه من أخبار ، انه تحزب لأحد أو خاصم أحداً .

وروي ان (لبيداً) ترك الشعر في الاسلام وانصرف عنه . فلما كتب (عمر) الى عامله (المغيرة بن شعبة) على الكوفة يقول له : « استنشدْ من قِبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الاسلام » ، أرسل الى (الأغلب) الراجز العجلي ، فقال له : انشدني ؟ فقال :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هيناً موجودا

ثم أرسل الى لبيد ، فقال : « انشدني ما قلته في الاسلام » ، فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها وقال : « أبدلني الله هذا في الاسلام مكان الشعر» فكتب المغيرة بذلك الى عمر ، فنقص من عطـاء (الأغلب) خمسمائة وجعلها في عطاء لبيد[6] . وروي ان (عمر) كتب الى عامله بالكوفة : سل لبيداً والأغلب

---

١ سيرة (٢/٣٣٨) .
٢ ابن هشام ، سيرة (٢/٣٣٨ وما بعدها) .
٣ الاستيعاب (٣/٣٠٦) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاستيعاب (٣/٣٠٨) ، الخزانة (٢/٢٤٦) ، (هارون) .
٥ الاغاني (١٤/٩٠) .
٦ الاغاني (١٤/٩٧) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٠ وما بعدها) .

العجلي ما أحدثنا من الشعر في الاسلام ؟ فقال لبيد : أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائه[1] :

وروي الخبر المتقدم بشكل آخر . روي أن (عمر بن الخطاب) قال للبيد : أنشدني ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد اذ علمني الله سورتي البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائه خمس مائة ، وكان ألفين . فلما كان في زمن (معاوية) قال له (معاوية) : هذان الفودان فما بال العلاوة ؟ وأراد أن يحطه إياها ، فقال أموت الآن وتبقى لك العلاوة والفودان ! فرق له، وترك عطاءه على حاله ، ومات بعد يسير[2] . وورد في رواية أخرى أن (معاوية) كتب الى (زياد) أن اجعل أعطيات الناس في ألفين ، وكان عطاء (لبيد) ألفين وخمسمائة . فقال له (زياد) : « أبا عقيل هذان الخراجان ، فما بال هذه العلاوة ؟ قال : ألحق الخراجين بالعلاوة ، فإنك لا تلبث إلا قليلاً حتى يصير لك الخراجان والعلاوة ! فأكملها (زياد) » ولم يكملها لغيره . فما أخذ لبيد عطاء آخر حتى مات[3] .

وقيل إن لبيداً لم يقل في الاسلام إلا بيتاً واحداً ، هو :

ما عاتب الحرّ الكريم كنفسه　　والمرءُ ينفعه القرين الصالح[4]

في رواية . وورد على هذه الصورة :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه　　والمرءُ يصلحه الجليس الصالح[5]

في رواية أخرى .

وقيل هو هذا البيت :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي　　حتّى كساني من الاسلام سربالا[6]

---

١ الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٩٥ وما بعدها) ، الاستيعاب (٣/٣٠٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الاصابة (٣/٣٠٨) ، (رقم ٧٥٤٣) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٥٥) ، الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) .
٥ الشعر والشعراء (١/١٩٥) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١/١٩٥) ، (الثقافة) .

وذكر بعض العلماء أن البيت :

الحمد لله إذْ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ليس للبيد ، بل هو لـ (قردة بن نفاثة)[1] .

ومن الشعر المستجاد المنسوب الى لبيد ، قصيدته :

إن تقوى ربّنا خير نفل وبإذن الله ريثي وعجل
أحمد الله فلا ندّ له بيديه الخير من شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البالِ ومن شاء أضل

وقد زعم بعض العلماء أنها قيلت في الجاهلية ، ولكنها لا يمكن أن تكون من شعر الجاهلية ، لما فيها من آراء اسلامية ، ثم انها قيلت بعد موت (اربد) ، وكان لبيد مسلماً آنذاك على ما جاء في بعض الأخبار[2] .

ومما جاء فيها :

اعقلي إن كنتِ لمّا تعقلي ولقد أفلح من كان عقل
إن ترى رأسي أمسى واضحاً سُلّط الشيب عليه فاشتعل

وقوله :

غير أن لا تكذبنها في التقى واخزُها بالبر لله الأجل

وهي قصيدة تبلغ عدتها (٨٥) بيتاً[3] ، بعض أبياتها لشعراء آخرين، وقد نسبها بعض العلماء اليه ، فأدخلت في القصيدة[4] .

---

١ الاصابة (٣٠٧/٣) ، (رقم ٧٥٤٣) ، الاستيعاب (٣٠٧/٣) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ ديوان لبيد (١٧٤ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (٢١/١) .

٣ الخزانة (٢٨/٢) ، (بولاق) .

٤ ديوان لبيد (١٩٩ وما بعدها) .

ومما جاء فيها في حق (أربد) قوله :

من حياة قد مللنا طولها وجديرٌ طول عيش أن يمل
وأرى اربد قد فارقني ومن الأرزاء رزءٌ ذو جلل[1]

وقد عاب بعض العلماء عليه قوله :

ومقامٍ ضيق فرجته بمقامي ولساني وجدل
لو يقوم الفيل أو فيّاله زال عن مثل مقامي وزحل

« وقالوا : ليس للفيال من الخطابة والبيان ، ولا من القوة ، ما يجعله مثلاً لنفسه ، وانما ذهب الى ان الفيل أقوى البهائم ، فظن ان فيّاله أقوى الناس ! قال أبو محمد ، وأنا أراه أراد بقوله : لو يقوم الفيل أو فيّاله مع فيّاله ، فأقام (أو) مقام الواو »[2] .

وفي هذه القصيدة إشارة الى صلاة اليهود ، حيث يقول :

يلمس الأحلاس في منزله بيديه كاليهودي المُصل[3]

« قال أبو الحسن الطوسي : كأنه يهودي يصلي في جانب يسجد على جبينه . قال البغدادي : واليهودي يسجد على شق وجهه »[4] .

وقد تعرض (كارلو نالينو) لهذه القصيدة ، فقال : « ومن المشهور ما في ديوانه من العبارات الدينية ، بل الشبيهة بالعقائد الاسلامية » ، ثم ذكر أبياتاً منها ، ثم قال : « ولكن ليس كل ما ينسب اليه في ديوانه من هذا الباب صحيحاً ، بل لا اختلاف في بعض الأشعار انها مصنوعة »[5] .

---

١ البيتان (٧٩ — ٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٠٠ وما بعدها) .
٣ البيت رقم (٣٢) من القصيدة (٢٦) في ديوانه (ص ١٨٣) .
٤ ديوان لبيد (١٨٣) .
٥ كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٨) .

ونسب له قوله :

من يبسط الله عليه اصبعا بالخير والشر بأيّ أولعا
يملأ له منه ذنوباً مُترعا[1]

وقوله :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلّوها ، وغدواً بلاقع

وقوله :

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر[3]

وفي هذه الأبيات إشارات الى رأي لبيد في الدنيا وفي الموت،وهي آراء يقولها في العادة المعمرون ، فإذا صح انها له ، فلا بد وأن تكون من شعره الذي قاله بعد تقدمه في السن .

ويظهر أن الكبر هـو الذي حمل (لبيداً) على ترك الشعر أو الاقلال منه ، فالتقدم في السن يوقف القريحة ويجمد الذهن . فلما أرسل (الوليد بن عقبة) اليه شعراً ، ومعه مائة بكرة ، قال لبيد لابنته : اجيبيه فقد رأيتني وما أعيا بجواب شاعر[4] . وفي هذا الجواب دلالة على توقف قريحته عن قول الشعر ، وأنه لم يعد باستطاعته نظمه ، وليس السبب هو الإسلام .

وكانت مناسبة إرسال (الوليد بن عقبة) الشعر والهدية اليه ، أنه (لبيد) كان آلى في الجاهلية ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتّى تسكن ، وألزمه نفسه في إسلامه . فهبت الصبا ، ولم يكن عند (لبيد) ما يعينه على الإطعام ، فخطب (الوليد) الناس بالكوفة ، وقال : إنّ أخاكم لبيداً آلى ألا تهب له الصبا إلا أطعم الناس حتّى تسكن ، وهذا اليوم من أيامه ، فأعينوه ، وأنا أول من أعانه.

---

١ أمالي المرتضي (٣١٩/١) .
٢ أمالي المرتضي (٤٥٣/١) .
٣ أمالي المرتضي (٥٥/٢) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٦/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

ونزل فبعث اليه بمائة بكرة وكتب اليه شعراً يمدحه فيه ويذكر له كرمه ونذره[1]

ويشك (بروكلمن) في صحة ما ورد من ترك (لبيد) الشعر بعد دخو في الإسلام . ويرى أن كثيراً من شعره مطبوع بطابع إسلامي ، ويبعد أن يكو مما صنع عليه ، وإن زيد عليه بعض الزيادات[2] .

ونجد في قصيدة (لبيد) الكبرى التي مطلعها :

عفت الديار محلّها فمقامها ... بمنى تأبدَ غولها فرجامها[3]

أسماء مواضع كثيرة من نجد والحجاز[4] .

ولعلماء الشعر آراء في شعر لبيد ، من ذلك ما قالوه في قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه ... والمرءُ يصلحه الجليسُ الصالح

فقالوا : إنه شعر جيد المعنى والسبك ، لكن ألفاظه قصرت عن معناه . فإ قليلُ الماء والرونق[5] .

وقد ذكروا له أشعاراً سبق بها غيره من الشعراء ، أخذها غيره عنه، فأعاده علماء الشعر الى أصلها . كما عابوا عليه بعض الأمور الصغيرة التي لا يمكن أ يفلت منها شاعر[6] .

و (عنترة بن شداد العبسي) ، هو (عنترة بن عمرو بن شداد بن قراد العبسي . وشداد جدّه أبو أبيه في رواية لابن الكلبي ، غلب على اسم أبيه فنسب اليه . وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنترة نشأ في حجره فنسب اليه دون أبيه وكان يلقب بـ (عنترة الفلحاء) لتشقق شفتيه .

وانما ادعاه أبوه بعدَ الكبر ، وذلك انه كان لأمة سوداء يقال لها (زبيبة) .

---

١ الشعر والشعراء (١٩٦/١ وما بعدها (، (الثقافة) ، الاغاني (٢٩٨/١٥) السيوطي ، شرح شواهد (١٥٥/١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٥/١) .
٣ القصيدة رقم (٤٨) في الديوان ، شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٧) .
٤ الاكليل (٢٢٣) .
٥ الشعر والشعراء (١٤/١) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١٩٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وكانت العرب في الجاهلية اذا كان للرجـــل منهم ولد من أمة استعبده ، وكان لعنترة اخوة من أمه عبيد . وكان سبب ادعاء أبي عنترة إياه ان بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من (بني عبس) ، فأصابوا منهـم ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عمّا معهم ، وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : أو عمه في رواية أخرى : كرّ يا عنترة ! فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلابَ والصرّ . فقال : كر وأنت حر ، فكرّ وقاتـل يومئذ حتى استنقـــذ ما بأيدي عدوّهم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق به نسبه[1] .

وورد في رواية أن اخوته قالوا له : اذهب فارعَ الإبل والغنم واحلب وصر : فانطلق يرعى وباع منها ذوداً ، واشترى بثمنه سيفاً ورمحاً وترساً ودرعاً ومغفراً، ودفنها في الرمل . وكان له مهر يسقيه ألبان الإبل . وان في الجاهلية من غلب سبا . وأنه جاء ذات يوم الى الماء فلم يجد أحداً من الحي ، فبهت وتحـــير حتى هتف به هاتف : أدرك الحي في موضع كذا ، فعمد الى سلاحه فأخرجه والى مهره فأسرجه واتبع القوم اللذين سبوا أهله فكرّ عليهم ففرق جمعهم وقتل منهم ثمانية نفر ، فقالوا : ما تريد ؟ فقال : أريد العجوز السوداء والشيخ الذي معها، يعني أمه وأباه ، فردّوهما عليه . فقال له عمه : يا بنيّ كرّ ، فقال : العبـد لا يكر ، ولكن يحلب ويصر . فأعاد عليه القول ثلاثاً وهو يجيبه كذلك . قـال له : إنك ابن أخي وقد زوّجتك ابنتي عبلة . فكرّ عليهم فأنقذه وابنته منهم . ثم قال : إنه لقبيح أن أرجع عنكم وجيراني في أيديكم : فأبوا،فكرّ عليهم حتى صرع منهم أربعين رجلاً قتلى وجرحى فردّوا عليه جيرانه . فأنشد :

هل غادر الشعراء من مـــتردم أم هل عرفتَ الدار بعد توهم[2]

وروي انه كان من معاصري (امرىء القيس) ، وانه اجتمع به[3] ، وان امـرأة (شداد) أبـي (عنترة) ذكرت لشداد ان عنترة أرادها عن نفسها ، فأخذه أبوه فضربه ضرب التلف ، فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما رأت ما به

---

١ الشعر والشعراء (١٧١/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، السيوطي ، شرح شواهد (٤٨١/١ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤٧٩/١ وما بعدها) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٤٨٢/١) .

من الجراحات ، وبكته . وكان اسمها : (سمية) ، فقال عنترة :

أمن سمية دمع العين مذروف   لو كان منك قبلَ اليوم معروف[1]

وذكر انه كان من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابّه رجل من عبس ، فذكر سواد أمه واخوته ، وعيّره بذلك ، وبأنه لا يقول الشعر ، فاغتاظ منه وردّ عليه ، وهاجت قريحته فنظمت له قصيدة :

هل غادر الشعراء من متردم

وهي أجود شعره ، وكانوا يسمونها (المذهبة)[2] .

وله كأكثر الشعراء أبيات شعر ، استحسنها علماء الشعر ، وقالوا انه أجاد فيها وأحسن ، وما سبق اليه ولم ينازع فيه في بعض ذلك الشعر[3] .

وهو أحد أغربة العرب ، وهم ثلاثة : عنترة ، وأمه زبيبة ، سوداء ، وخفاف بن عمير الشريديّ ، من بني سُليم ، وأمه نَدْبة ، واليها ينسب ، وكانت سوداء ، والسليك بن عمير السعدي ، (السليك بن سلكة) ، وأمه سلكة ، واليها ينسب ، وكانت سوداء[4] . وذكر أنه كان يفخر بأخواله السود ، رهط أمه ، فدعاهم بـ (حام) حيث يقول :

إنّي لتعرف في الحروب مواطني   في آل عبس مشهدي وفعالي
منهم أبي حقاً فهم لي والـدٌ   والأم من حامٍ ، فهم أخوالي[5]

وإذا صح ان هذا الشعر هو لعنترة ، دلّ على وقوف الجاهليين على اسم (حام) ، الوارد في التوراة ، على أنه جدّ السودان . ولا بد أن تكون التسمية قد وردت الى الجاهليين عن طريق أهل الكتاب .

---

1 المحاسن والاضداد (١٤٣) .
2 الشعر والشعراء (١٧٢/١ وما بعدها) ، الزوزني (١٣٦) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/أ/٤٨١) .
3 الشعر والشعراء (١٧٤/١) ، (الثقافة) .
4 الشعر والشعراء (١٧٢/١) ، (الثقافة) .
5 الشعر والشعراء (١٧٥/١) .

وذكر أنه كان قد أغار على (بني نبهان) فرماه (وزر بن جابر بن سدوس ابن أصمع) النبهاني ، فقطع مطاه ، فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فمات[1] .

ويعد (عمرو بن كلثوم) التغلبي من كبار شعراء الجاهلية ، وكان معاصراً للملك (عمرو بن هند) (٥٥٤ — ٥٦٨ م) ، وهو قاتله في خبر سبق أن تحدثت عنه . وهو من الشعراء الذين مالوا الى الحِكَم في نظم الشعر[2] . وقد عرف بـ (أبي الأسود)[3] . ويقال إن أخاه (مرة بن كلثوم) التغلبي ، هو قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر . وكان (عمرو بن كلثوم) سيد قومه، سادهم وهو ابن خمس عشرة ، ومات وله مائة وخمسون سنة[4] . وكان خطيباً حكيماً وشاعراً ، أوصى بنيه عند موته بوصية بليغة حسنة[5] ، ضبط نصها الرواة فيما بعد، وكأنهم كتبوها بخط يدهم .

وقصيدته الشهيرة التي هي إحدى السبع ، هي من جيد شعر العرب القديم ، ولشغف تغلب بها وكثرة روايتهم لها قال بعض الشعراء :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم   يا للرجال لفخرٍ غير مسؤوم[6]

وفي قتل (عمرو بن كلثوم) (عمرو بن هند) يقول أحد شعراء تغلب ، وهو (افنون بن صريم) التغلبي :

لعمرك ! ما عمرو بن هند وقد دعا   لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتاً   وأمسك من ندمانه بالمخنّق[7]

ويذكر في سبب نظم (عمرو بن كلثوم) قصيدته الشهيرة ، أن قبيلة (تغلب)

---

١ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) ، (ص ٢١٠ وما بعدها).
٢ بروكلمن (١٠٣/١) ، الاغاني (١٧٥/٩) ، الخزانة (٥٢/١) ، الشعر والشعراء (١٥٧/١ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٦ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١٢١/١) ، الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) .
٤ الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٧) .
٥ الاغاني (٥٩/١١) ، (بولاق) ، المرزباني ، معجم (٧) .
٦ الشعر والشعراء (١٥٩/١ وما بعدها) ، (لشعر غير مسؤوم) ، الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) ، الاغاني (٥٤/١١) ، (دار الكتب) ، الخزانة (٥١٩/١) ، (بولاق).
٧ المحبر (٢٠٤) ، الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، (٥٤/١١) ، (دار الكتب) .

كانت من أشد الناس في الجاهلية ، وكانت بينهم وبين (بكر) حزازات وعداوة، ويقال : جـاء ناس من بني تغلب الى بكر بن وائـل يستسقونهم فطردتهم بكر للحقد الذي كان بينهم فرجعوا ، فمات سبعون رجلاً عطشاً . فاجتمعت (تغلب) لحرب (بكر) ، واستعدت لهم (بكر) حتى إذا التقوا ، خافوا أن تعود الحرب بينهم كما كانت ، فدعا بعضهم بعضاً الى الصلح ، فتحاكموا في ذلك الى (عمرو ابن هند) . فجاءت تغلب يقودها (عمرو بن كلثوم) وجاءت بكر ، ومعها (الحارث بن حلزة اليشكري)، فألقى قصيدته :

آذنتنـــا ببينهـــا أسمـاء رُبَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثواء

وتأثر (عمرو بن هند) بها ، فحكم لبكر ، وأنشد (عمرو) قصيدته :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينـــا[1]

وفي جملة أبياتها :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[2]

ويذكر بعض الرواة أن (عمرو بن كلثوم) ارتجل قصيدته الشهيرة ارتجالاً، وأنها كانت تبلغ ألف بيت أو تزيد[3] . وان مـا وصل الينا منها هو بعضها . وتبلغ (٩٦) بيتاً في كتاب (شرح القصائد العشر) للتبريزي[4] . يظهر من دراستها وامعان النظر فيها أنها لم تنظم دفعة واحدة ، وإنها لم تكن بهذا الطول يوم ألقاها الشاعر ، بل زيدت فيما بعد حسب المناسبات ، لأن فيها أبياتاً تمس أموراً وقعت فيما بعد ، في ظروف متأخرة ..

ويروى ان (عمرو بن كلثوم) ، جاء سوق عكاظ ، فألقى معلقته هناك . وروي ان (معاوية بن أبـي سفيان) قال « ان قصيدة عمـرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، وكانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[5] .

---

١ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٧٩ وما بعدها) .
٢ أمالي المرتضى (٥٧/١ ، ٣٢٧) ، (١٤٧/٢) .
٣ شعراء النصرانية (١٩٧ وما بعدها) .
٤ (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ح ، (ص ٣٨٠ ــ ٣٨٢) .
٥ الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

ويلاحظ ان في معلقة (عمرو بن كلثوم) أبياتاً خرجت على رويّ القافية ، مثل قوله :

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا [1]

وقوله :

ندافع عنهم الأعداء قدماً ونحمل عنهم ما حمّلونا [2]

وقوله :

نحُزُّ رؤوسهم في غير برٍّ فما يدرون ماذا يتقونا [3]

وقوله :

إذا ما عيّ بالإسناف حيٌّ من الهولِ المشبه أن يكونا [4]

وقوله :

برأسٍ من بني جشم بن بكر ندق به السهولة والحزونا [5]

وقوله :

إذا عضّ الثقاف بها اشمأزت وولتهم عَشَوزنةٌ زبونا [6]

وقوله :

علينـــا كلّ سابغـــة دلاص تَرى فوق النجـــادِ لها غضونا
إذا وضعت عن الأبطال يومـــاً رأيتَ لها جلود القومِ جُونا [7]

---

١ البيت رقم (٢٤) من المعلقة ٠
٢ البيت رقم (٣١) ٠
٣ البيت رقم (٣٦) ٠
٤ البيت رقم (٣٩) ٠
٥ البيت رقم (٤٥) ٠
٦ البيت رقم (٥٠) ٠
٧ البيتان رقم (٧٠ وما بعده) ٠

وقوله :

وأنـــا المانعون لما يلينـــا إذا ما البيض زايلت الجفونا [1]

ومواضع أخرى من هذا القبيل [2] . وكان من اللازم مسايرة القافيـــة التي هي (الأندرينا) .

ولعمرو أشعار ، فيها هجاء للنعمان بن المنذر . فقد ذكر أن النعمان توعـــد (عمرو بن كلثوم) ، فبلغه ذلك ، فدعا كاتباً من العرب ، فكتب اليه :

ألا أبلغ النعمان عـَنـي رِسالـــةً فمدحُكَ حولِيٌّ وذَمُّك قارح
متى تلقني في تَغْلِبَ ابنة وائل وأشياعهـــا تَرْقى اليك المسالحُ

وهجاه في شعر آخر ، ذكر فيه أمه ، وعيّره بهـــا ، وعيّره في شعر آخر بأن خاله صائغ يصوغ القروط والشنوف بيثرب ، ورماه فيه باللؤم [3] .

وتنسب لعمرو أبيات نظمها في البذل والسخاء وفي اعطاء المال ، أولها :

لا تلومـــنّي فإني متلـــف كلّ ما تحوي يميني وشمالي
لست إن أطرفت مالاً فرحاً وإذا أتلفتـــه لست أبالي [4]

ولعمرو بن كلثوم ديوان صغير ، نشر في مجلة المشرق . وقد ترجمت معلقته الى الألمانية [5] . وفي معلقة (عمرو) أشعار مضطربة وتكرار ، وعدم تجانس في وحدة الموضوع . وقد يكون ذلك بسبب تلاعب الأيدي في القصيدة . واذا عثر على نصها القديم ، الذي زعم انه كان ألف بيت أو يزيد ، فإنها ستكون أطول قصيدة في تأريخ الشعر العربي نسبها علماء الشعر الى أحد من الجاهليين .

وذكر ان (عمرو بن كلثوم) ، أغار على (بني حنيفة) باليمامة ، فأسره

---

١ البيت رقم (٧٧) .
٢ الابيات (٨٠ ـ ٨٣) ، (٨٨) .
٣ الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، (٥٨/١١) ، (دار الكتب) .
٤ المرزباني ، معجم (٧) .
٥ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٥٧/١ ، ٦٧ وما بعدها ، ١٠٣) ، المشـــرق (١٩٢٢ م) ، (ص ٥٩١ وما بعدها) .

(يزيد بن عمرو الحنفي) ، ثم سقاه الخمر في قصر بـ (حجر) اليمامة ، حتى مات . وذكر ان (يزيد) أراد المثلة به ، بربطه بجمل ، ثم ضرب الجمل ، ليركض به ، فصاح : « يا لَ ربيعة ! أمثلة »[1] .

وتذكر رواية ان نهاية (عمرو بن كلثوم) كانت انتحاراً بشرب الخمر ؛ وذلك ان الملوك كانت تبعث اليه بحبائه وهو في منزله من غير أن يفد اليها . فلما ساد ابنه (الأسود بن عمرو) بعث اليه بعض الملوك بحبائه كما بعث الى أبيه . فغضب (عمرو بن كلثوم) وقال : « ساواني بولي » ، فحلف لا يذوق دسماً حتى يموت . وجعل يشرب الخمر صرفاً على غير طعام . فلم يزل يشرب حتى مات[2] .

و (الحارث بن حلزة) اليشكري ، هو من (بني يشكر) ، من بكر بن وائل . وكان أبرص . وقد اشتهر بقصيدته التي هي احدى المعلقات ، كما اشتهر بمثلها (عمرو بن كلثوم) و (طرفة بن العبد) . يذكر أنه ارتجلها بين يدي (عمرو بن هند) ارتجالاً ، في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء السجف ، للبرص الذي كان به . وكان من عادة الملك أن يسمع الأبرص من وراء سبعة ستور ، وينضح أثره بالماء إذا انصرف عنه . فلما سمعت أم (عمرو بن هند) قصيدته ، قالت : « تالله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول يكلَّم من وراء سبعة ستور » ، فقال الملك : « ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث » ، وكان كلما استحسن شيئاً منها أمر برفع ستر ، حتى رفعت الستور السبعة . واقعده الملك قريباً منه استحساناً لها وتقديراً له . وكان الحارث متوكئاً على عنزة فارتزت – كما يقول أهل الأخبار – في جسده وهو لا يشعر[3] . وقد زعم أنه قال قصيدته المشهورة وهو ابن مائة وخمس وثلاثين[4] .

والقصيدة من قصائد الفخر والتبجح بالمفاخر والمآثر ، وقد عرض فيها بقبيلة (تغلب) ، وعرض بـ (عمرو بن هند) كذلك . وقد ضرب به المثل بالفخر

---

١ الشعر والشعراء (٢٢٤ وما بعدها) .
٢ المحبر (٤٧٠ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١٢٧/١) ، الخزانة (١٥٨/١) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (١٥٨/١) ، (بولاق) ، (٥١٩/١) ، (بولاق) .

فقيل : « أفخر من الحارث بن حلزة »[1] . ويرى (تولدكه) ان سبب اختيار (حماد) الراوية لهذه القصيدة وضمها الى القصائد الأخرى المختارة ، هو ان حماداً كان مولى لقبيلة (بكر بن وائل) ، وكانت هذه القبيلة في عداء مع قبيلة (تغلب) ، ولما كان (حماد) قد اختار قصيدة (عمرو بن كلثوم) التغلبي لشهرتها ، لم يسع حماداً أن يعدل عن اختيارها ، ولكنه اضطر على اختيار قصيدة أخرى الى جانبها تشيد بمدح (بكر بن وائل) سادته ، فاختار قصيدة (الحارث ابن حلزة) الذي لم يبلغ في الشهرة شهرة الشعراء الآخرين[2] .

ويزعم أهل الأخبار انه ارتجلها ارتجالاً أمام الملك ، بينما يذكرون انه كان قد قال لقومه قبل ارتجاله لها أمام الملك : « اني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه فروّاها ناساً منهم . فلما قاموا بين يديه لم يرضهم فحين علم انه لا يقوم بها أحد مقامه » ، احتملها وأنشدها أمام الملك[3] . وقد قالها لتكون حجة لقومه في نزاعهم السياسي مع قبيلة تغلب ، ودفاعاً عنهم أمام الملك[4] .

ويرى (بروكلمن) أن شعر (الحارث) أقل إصالة من شعر (عمرو بن كلثوم) . وهو قريب من شعر (زهير) في ميله الى مذهب التعلم والتهذيب[5] . وقد قدم (أبو عبيدة) شعره وجعله أحد ثلاثة نفر اشتهروا بجودة قصائدهم ، إذ قال : « أجود الشعراء قصيدةً واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم ، والحارث ابن حلزة ، وطرفة بن العبد »[6] .

وللحارث بن حلزة شعر يذكر فيه (ابن مارية) ، وهو (أبو حسان) (قيس بن شراحيل بن مرة بن همام) ، وكان ممن سعى في الصلح بين بكر وتغلب . وفي جملة ما قاله فيه :

والى ابن مارية الجواد وهل   شروى أبي حسان في الأنس[7]

---

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٥) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٦٧ وما بعدها) .
٣ الخزانة (١/٥١٩) .
٤ كارلو نالينو (٧٥) .
٥ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٣) .
٦ الخزانة (١/١٥٨) ، (بولاق) .
٧ المفضليات (٥٤) .

وفي قصيدة (الحارث بن حلزة) أسماء مواضع من محالهم ومحال حـلالهم . وهي قصيدته التي تبدأ بـ :

آذنتنـا ببينها أسمـاء رب ثاوٍ يمل منه الثواء[1]

وللحارث بن حلزة ديوان صغير[2] وأشعار منثورة في كتب الأدب والأخبار[3].

و (الأعشى) (ميمون بن قيس بن جندل) من (سعد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة) ، ويكنى أبا بصير . وهو ممن عاش في الجاهليـة وأدرك الاسلام . ذكر (ابن قتيبة) انه (كان أعمى)[4] . وهو وهم ، وانما عمـي في أواخر أيامه ، كما يفهم ذلك من شعره ، بعد أن لعب به الكبر،وتحكمت به الشيخوخة ، وصار عاجزاً ، يقوده قائد ، يوجهـه أنى يشاء ، تسيره عصاه ، وهو يخاف العثار[5] . وقد وصف شيخوخته هذه وصفاً مؤلماً ، صادراً من قلب متفطر حزين يبكي أيامه الأولى ، أيام اللذة والمتعة ، أيام اللهو والخمرة والنساء ، أيام مضت، حلت محلها أيام سود ، لا يفرق فيها الأبيض من الأسود ولا الليل والنهار ، ثم هو وحده ، لا خمر ولا امرأة ولا لحم دسم ، عافته المرأة ، لذهاب ماله وشبابه ، وتركه الزنا على رغم منه ، ولم يعد يرى في هذه الأيام إلا الهم والحزن والألم .

وأم الأعشى بنت (علس) أخت المسيب بن علس من بني (جُماعة) ، ثم من بني (ضبيعة بن ربيعة بن نزار) ، ولد بقرية باليمامة يقال لها (منفوحة)، وفيها داره وبها قبره . ويقال إنه كان نصرانياً ، وهو أول من سأل بشعره[6] . ويسمى (صناجة العرب) . لأنه أول من ذكر الصنج في شعره فقال :

---

١ الصفة (٢٢٠) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٣/١) ، مجلة المشرق (١٩٢٢ م) (ص ٥٩١ وما بعدها) .

٣ الاغاني (١٧١/٩ وما بعدها) ، المفضليات رقم (٢٥) ، (٦٢) ، (١٢٧) .

٤ الشعر والشعراء (١٧٨/١) ، (الثقافـة) ، الخزانة (٨٤/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٠٨/٩) ، رسالة الغفران (١٥٩) .

٥ القصيدة رقم (١٢) و (٢٨) من ديوانه ، المرزباني ، معجم (٤٠١) ، طبقات ابن سلام (١٥) ، الاغاني (١٠٨/٩) ، المؤتلف (١٢) ، رسالة الغفران ١٥٩ .

٦ المرزباني ، معجم (٣٢٥) ، (فراج) .

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه   إذا ترجّع فيـــه القينة الفضُل[1]

وذكر أنه إنما عرف بصناجة العرب لكثرة ما تغنت العرب بشعره ، أو لجودة شعره ، أو لأن العرب كانت تتغنى بشعره على صوت الصنج ، الى غــير ذلك من شروح وتفاسير[2] .

وقد نشأ (الأعشى) راوية لشعر خاله (المسيب بن علس) ، وهـــو من شعراء الجاهلية المقلين . ثم نبغ هو في الشعر ، فعلا اسمه على اسم خاله ، حتى حلق في سماء الشعر ، ولا سيما في وصف الخمر ، حيث حظي الخمر عنده بموقع ممتاز في شعره ، فأجاد في وصفه وفي أثره في النفس. وتفنن في وصف الخمر،حتى سبق بوصفه هذا سائر شعراء الجاهلية ، ولم يلحق به في هــذه الناحية من الشعر أحد . وقد عدّه بعض علماء الشعر رابع الشعراء الأربعة ، فهو يأتي بعد امرىء القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني[3] . وقد أجاد أيضاً في وصف القيان .

قيل : كان الأعشى يفد على ملوك فارس ، ولذلك كثرت الفارسية في شعره[4] ، وزُعم ان (كسرى) سمعه يوماً يُنشِدُ ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : آمْرُوذ كويذ تازى ، أي مغني العرب ، فأنشد :

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرقُ   وما بيَ من سقمٍ وما بيَ معشق

فقال كسرى : فسروا لنا ما قال ! فقالوا : ذكر انه سهر من غـير سقم ولا عشق !

فقال كسرى : إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص !![5] الى غير ذلك من قصص مصنوع .

---

١ المرزباني ، معجم (٣٢٥) ، (فراج) ، الشعر والشعراء (١/١٧٩) ، (الثقافة) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٤٠) .
٢ المزهر (٢/٤٣١) ، الخزانة (١/٨٥) ، (بولاق) .
٣ رسالة الغفران (٢٢٩) ، (بنت الشاطىء) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٧٩) ، (الثقافة) ، الخزانة (١/٨٥) .
٥ الشعر والشعراء (١/١٨٠) ، (الثقافة) .

وكان يفد أيضاً على ملوك الحيرة ، ويمدح الأسود بن المنذر ، أخا النعمان[1]: وقال له (النعمان بن المنذر) : لعلك تستعين على شعرك هذا؟ فقال له الأعشى: احبسني في بيت حتى أقول ، فحبسه في بيت ، فقال قصيدته التي أولها :

أأزمعتَ من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذي هوى أن تزارا

وفيها يقول :

وقيدني الشعر في بيته كما قيد الآسرات الحمارا[2]

وورد في شعر الأعشى قوله :

وكنت امرأً زمنـاً بالعراق عفيف المُناخ طويل التغن[3]

وإذا كان ما نسب الى الأعشى من قوله :

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارها تكريت تنظر حبّها أن يحصدا
جعل الإله طعامنا في مالنـا رزقاً تضمنه لنـا لن ينفدا
مثل الهضاب جزارة لسيوفنا فإذا تُراع فإنها لن تطردا
ضمنت لنا أعجازهن قُدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجردا[4]

صحيحاً ، فـإنه يشير الى أرض يقال لها (تكريت) . وقد ذكر بعض علماء اللغة أن (تكريت) بنواحي الموصل ، سميت بتكريت بنت وائل ، أخت (قاسط)[5]. ويظهر أن الساسانيين قد أبعدوا بعض بطون (إياد) الى هذه الديار ، فأجبروهم على الإقامة بها ، وأما النسب المذكور ، فقد وضع فيما بعد . ويظهر من هـذا الشعر ان تلك البطون قد تعلمت الزراعة ، فزرعت الحب ، والزراعة مزدراة في نظر العرب ، ولهـذا تبجّح الشاعر عليها وافتخر ، بكون قومه أصحاب إبل

---

١ الشعر والشعراء (١/١٨٠) ، (الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ أمالي المرتضي (١/٣١ ، ٣٥) ، ديوانه (٢٢) .
٤ ديوان الاعشى رقم ٣٤ ، تاج العروس (١/٥٧٦) ، (كريت) .
٥ تاج العروس (١/٥٧٦) ، (كريت) .

ضخمة ، يعقرونها لمن يتزل بساحتهم من ضيوف ، أما إياد فهم أصحاب زراعة وحصاد .

وكان الأعشى يتادم (هوذة بن علي) الحنفي ، صاحب اليمامة ، وكان نصرانياً على ما يقال . وذكر ان (الأعشى) كان نصرانياً كذلك ، وكان يزور (الحيرة) كما كان يزور أسقف (نجران) . وله راوية يروي شعره اسمه (يحيي ابن متّى) من عبّاد الحيرة. وقد أشار في شعره الى أمور توراتية مثل حمامة نوح وأخبار سليمان . لا ندري اذا كان قد أخذها من التوراة ، أو انه سمعها من رجال الدين أو من قصص نصارى الحيرة[1] .

وله أشعار كثيرة في مدح (هوذة) (هوذة بن علي بن ثمامة) الحنفي ، منها قصيدته التي مطلعها :

أحيتك تيّا أم تركت بدائكا   وكانت قتولاً للرجال كذلكا
وأقصرت عن ذكرى البطالة والصبا   وكان سفيهاً ضلة من ضلالكا

الى أن قال :

الى هودة الوهاب أهديت مدحتي   أرجّي نوالاً فاضلاً من عطائكا
تجانف عن جوّ اليمامة ناقتي   وما عمدت من أهلها لسوائكا

وهذه القصيدة تشبه أشعار المحدثين والمولدين في الرقة والانسجام[2] .

ومن شعره في مدح (هوذة) قوله :

له أكاليل بالياقوت زيّنهـــا   صواغها لا ترى عيباً ولا طبعا

وقوله :

وكلُّ زوجٍ من الديباج يلبسها   أبو قدامة مجبوراً بذاك معا[3]

---

١ راجع قصائده ١٣ ، و ٣٤ ، و ٧٩ من ديوانه ، وبروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٤٧/١) ، الاغاني (٧٦/١٦) ، رسالة الغفران (١٧٤) .
٢ الخزانة (٦١/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ أمالي المرتضى (١٧٢/٢) .

وكان يزور اليمن ، ويقف بأبواب أقيالها ، لينال منهم هداياهم . وفي خبر يرجع سنده الى (الأعشى) ، أنه قال : « أتيت سلامة ذا فايش (فائش) فأطلت المقامَ ببابه حتّى وصلت اليه ، فأنشدته :

إن محلاً وإن مرتحلا وإن في شعر من مضى مثلا
استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا
الشعر قلدته سلامة ذا فائش والشيء حيث ما جُعلا

قال : صدقت ، الشيء حيث ما جعل ، وأمر لي بمائة من الإبل وكساني حللاً وأعطاني كرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً،فبعتها في الحيرة بثلاثمائة ناقة حمراء»[1]. والشعر المذكور هو من قصيدة رقمت برقم (٣٥) في ديوانه وتقع في (٢٤) بيتاً ، وفي ترتيب بعض أبياتها اختلاف . وقد شكك (ابن قتيبة) في صحة نسبتها الى الأعشى ، كما شك غيره في صحة نسبتها اليه ، لأسباب ذكروها[2] . وقد نسبها (الهمداني) الى الأعشى[3] .

ونسب (الهمداني) الى الأعشى قصيدة أخرى في مدح (سلامة) أولها :

رأيت سلامة ذا فائش إذا زاره الضيف حيّا وبش[4]
وقال لهم مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بهم وابتهش

وتنسب الى الأعشى قصيدة أخرى في مدح (سلامة ذا فائش) ، وهو : (سلامة ذو فائش) ابن يزيد بن مرة بن عريب بن مرثد بن حُريم الحميري[5]، وقد ذكر (الهمداني) أن (ذا فائش) هذا ، هو (ذو فائش الأصغر) ، واسمه (سلامة بن يهبر) القيل . وأورد أبياتاً في مدحه أولها :

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٣٩) ، الاغاني (٩/١٢٤) ، ديوان الاعشى الكبير (ص ٦٨ ، رقم القصيدة ٨) ، (شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين) ، رسالة الغفران (١٧٥) .
٢ ديوان الاعشى الكبير (٢٣٢) ، الاغاني (٨/٨٥) ، الامالي (٢/٩٩) .
٣ الاكليل (٢/١٩٨) .
٤ الاكليل (٢/١٩٥) .
٥ هي القصيدة التي رقمت برقم (٨) في ديوانه ، (ص ٦٨ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (١٩) ، (أوربا) ، رسالة الغفران (٢١٨) .

تـؤم سلامـة ذا فائش هو اليوم حم[*] لميعادهـا
وكم دون بيتك من صفصف ودكداك رمل وأعقادهـا

وهي أبيات من القصيدة المرقة برقم (٨) في ديوان الأعشى ، وتقع في (٥٦) بيتاً .

ودوّن (الهمداني) أبيات شعر زعم أنها في مدح (ذي فائش) ، الـذي هو (سلامة بن يهبر) القيـل ، ذكر أن (ابراهيم بن المحابـي) ، أنشدها إياه ، أولها :

وذو فائش قد زرته في ممنع من النيق فيه للوعول موارد[١]

وذكر (الهمداني) أبياتاً من الشعر في مدح (زرعة بن عمرو) (زرع بن عمرو) . وكان (زرعة بن عمرو) يتولى وآباؤه للتبابع أعمال (المعافر) و (مأرب) وحضرموت ، وكان قد حارب (مذحجاً) ، وفيه يقول (الأعشى) وقد وفد على بعض أولاده ومدحهم ، قصيدة أولها :

تسنّم في العلا زرع بن عمرو وشيّد ما بنى عمرو وزادا[٢]

ودوّن (الهمداني) أبيـات شعر في مدح (حجر بن زرعة) ذكر أنهـا للأعشى ، وقال إنه كثيراً ما يفد الى المعافر ، ثم قال : وقيل إنها للمسيب بن علس . وأولها :

حللتُ على حجر بن زرعـة بعدما برى الجسم مني مشفقات العواذل[٣]

ونسب (الهمداني) أبيات شعر في مدح (فهد بن النعـمـان) ، وكان قيلاً بالمعافر . وقد وفد عليه . وأول هذه الأبيات :

ونادمت فهداً بالمعافر حقبة وفهد سماح لم تشبه المواعد[٤]

---

١ الاكليل (١٩٥/٢) .
٢ الاكليل (١١٥/٢) .
٣ الاكليل (١١٧/٥) .
٤ الاكليل (٣٦٣/٢) .

ونسب الرواة الى (الأعشى) قصيدة في مدح (مسروق بن وائل) الحضرمي. وهو ممن وفد الى (النبي) في وفد حضرموت فأكرمه[1] . وهي قصيدة رقمت برقم (٧٠) في ديوانه[2] .

وفي (يزيد بن صهر بن أبي ثابت) الشيباني ، من سادة بني شيبان وذوي الرأي فيهم ، يقول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟

وهي لاميته الشهيرة التي تعدّ من المعلقات[3] . ومما جاء فيها في وصف مجلس الشرب والخمر :

نازَعْتُهُمْ قضب الريحان مرتفقا وقهوة مزة راووقها خضل
لا يستفيقون منها إلا وهي راهنة إلا بهاتِ ، وإن علّوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات لها نطف مقلص أسفل السربال ، مُعْتمل
ومستجيب لصوت الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة القُضُل[4]

وكان يبغي من أسفاره هذه جمع المال للاستمتاع بلذة الحياة ، ولذة الحياة عنده : الخمر والطعام والنساء ، وقد جمعها بقوله :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت ما لي وكنتُ بهن قدماً مُولعا
الخمر واللحم السمين مع الطلى بالزعفران ولا أزال مُردّعا[5]

وهو من الشعراء الذين تعهروا في شعرهم ، على شاكلة (امرىء القيس) . وقد أبدع في وصف صاحبته (قُتيلة) . وهو لا يخشى من التصريح بأنه انما يحب النساء ، لأجل الاستمتاع بهن . فليست المرأة إلا أداة اللذة في هذه الحياة. فهو يبحث عنها ، ولا يبالي من أي نوع كانت ، جارية أم حرة ، عاهرة أم

---

١ الاصابة (٣/٣٨٨) ، (رقم ٧٩٣٥) .
٢ شرح ديوان الاعشى (٣٢٨ وما بعدها) ، الاكليل (٢/٣٧٦) .
٣ طبقات ابن سلام (٢٣) ، الاغاني (٨/١٠٠) ، رسالة الغفران (١٧٤) ، (حاشية) .
٤ رسالة الغفران (١٧١ وما بعدها) ، تهذيب الالفاظ ، لابن السكيت (٢٢٧) .
٥ ديوان الاعشى (ص) ، (دكتور م. محمد حسين) .

متزوجة،وهو على شاكلة (امرىء القيس) يطيب له أن يصور صاحبته متزوجة، تخون زوجها ، وتقدم له الحب واللذة ، لأن في الاتصال بالمتزوجة مجازفة من الرجل ومن المرأة ، والمجازفة من سيماء العشاق الفرسان الشجعان .

وقد تمكن الأعشى باتصاله بملوك الحيرة والغساسنة ، وبقيس بن معديكرب ، وسلامة ذي فائش ، وبسادة نجران ، وبهوذة ، وبأمثالهم من حكام وسادة — من الحصول على مال طيب،ومن التمتع بمشاهدة مجالس أولئك السادة ، ومن الشرب بصحاف الذهب والفضة ، ومن أكل أكلات الحضر ، التي لا يعرفها إلا أصحاب المال والترف ، ومن الاستمتاع بسماع الغناء العربي والأعجمي ، ومن التأثر بالحياة الرفيعة التي يحياها أهل الحضر . فأثرت تلك الحياة فيه ، وصار يقبل عليها ويبحث عنها في كل مكان . وما الحياة تلك إلا اللهو بالخمر والنساء والطعام الطيب ، حتى كان يتلف ماله في سبيلها ، إن عسر الحصول عليها بغير ثمن .

وهو في شعره صريح يعلن فيه حبّه لجمع المال ، لا يخشى من التصريح به أحداً ، ولعلّه كان يريد الإعلان عن ذلك ، ليرزقه الناس مما عندهم ، ويزيدوا في ماله . نراه يقول :

وطوّفت للمال آفاقها　　عمان وحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره　　وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير　　فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك الى حضرموت　　فأوفيت همّي وحيناً أهم[1]

ثم هو يعدد المواضع التي زارها فيقول :

ألم ترني جولتُ ما بين مأربٍ　　الى عدن فالشأم والشأم عاند
وذا فائش قد زرت في متمنّع　　من النيق فيه للوعول موارد
ببعدان أو ريمان أو رأس سلّيةٍ　　شفاء لمن يشكو السمائم بارد
وبالقصر من أرياب لوْ بتّ ليلة　　لجاءك مثلوج من الماء جامد
ونادمتُ فهداً بالمعافر حقبة　　وفهد سماحٌ لم تشبه المواعد

---

1 الصفة (٢٢٤) ، ديوان الاعشى القصيدة رقم (٤) ، والقصيدة رقم ٦٣ .

وقيساً بأعلى حضرموت انتجعتـــه فنعم أبو الأضياف والليل راكد[1]

ويظهر من الشعر المتقدم انه طاف بلاداً كثيرة ، فيها أرض العجم ، وأرض النبط ، وبلغ حمص و (أورشليم) ، أي القدس ، وعمان ، وزار جزيرة العرب حتى وصل حضرموت واليمن ، وعبر الى (النجاشي) في داره . وهي أسفار بعيدة متعبة بالنسبة لذلك الوقت ، وربما كان هذا الشعر مما أقحم عليه .

وله أشعار كثيرة في مدح (قيس بن معديكرب)[2] ، الذي كان يرزقه ويغدق عليه المال ، وهو لا يجد غضاضة من التصريح في مدحه له أن لا يحرمه من نداه الجزيل . ولهذا عدّه علماء الشعر أول من سأل بشعره ، وابتذل نفسه في السؤال ، وأسرف في الترحال من أجل جمع المال . ومن شعره في (قيس) وفي الاستجداء منه ، قوله :

ونبئت قيساً ولم أبله كما زعموا خير أهل اليمن

فجئتك مرتادَ ما خبّروا ولولا الذي خبروا لم ترَن

فلا تحرمنّي نداك الجزيل فإني امرؤ قبلكم لم أهن

وهي قصيدة نونية ، موجودة في ديوانه[3] .

وللأعشى قصيدة في مدح (أبي الأشعث بن قيس) الكنـــدي . والأشعث اسمه (معديكرب) كان أبداً أشعث الرأس فسمي الأشعث ، وهو من الصحابة ، وفد على النبي سنة عشر وأسلم ، وكان شريفاً مطاعاً جواداً شجاعاً ، وهو أول من مشت الرجال في خدمته وهو راكب ، وكان من أصحاب (علي) في وقعة صفين . ومن شعر الأعشى في مدح (أبي الأشعث) ، وهو (قيس بن معديكرب) قوله :

---

١ الصفة (١٠٠ ، ٢٢٥) ، الاكليل (١٠٢/٢) .

٢ تاريخ ملوك العرب الاولية (١٢٤) .

٣ ديوان الاعشى (١٥) ، (أوربا) ، شرح ديوان الاعشى (ش) ، رسالة الغفـــران (٢١٨) ، وله قصيدة مطلعها :

أأزمعت من آل ليـــلى ابتـــكارا وشطت على ذي هـــوى أن يزارا

في مدحه أيضا ، راجع ديوانه (ص ٣٥) ، (أوربا) ، رسالة الغفران (٢٢٧) .

من ديار هضْب كهضب القليب فاض ماء الشؤون فيض الغروب
أخلفتني بهـــا قتيلة ميعــا دي وكان للوعد غير كذوب[1]

وكان الأعشى ، إذا زار اليمن تخرف بـ (أثافت) ، وكان له بها معصر للخمر يعصر فيه ما أجزل له أهل (أثافت) من أعنابهم . وقد ذكرها (الأعشى) في شعره ، إذ قال :

أحبُّ أثافيتَ وقت القطاف ووقت عُصـــارة أعنابهـــا

وكانت تسمى (درني) في الجاهلية . وإياها التي ذكرها الأعشى بقوله :

أقول للشرب في درني وقد ثملوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل[2]

وذكر غير (الهمداني) أن (درني) المذكورة في شعر الأعشى ، هي ناحية من شق اليمامة . قال الأعشى :

حلّ أهلي ما بين درني فبادو لي وحلّت علويــة بالسخال

فهي ليست بـ (أثافت) ، كما ذكر ذلك (الهمداني)[3] . ونجـد الهمداني يذكر (درنا) في مواضع اليمامة . ولمـــا كان (الهمداني) من العلماء بمواضع جزيرة العرب ، فلا أعتقد أنه وهم حين ذكر قول (الرئيس الكبـاري) ، أن (درني) هي (أثافت) ، فلعل (درني) غير (درنا) اليمامة[4] .

وقـــد هجـــا (الأعشى) (علقمة بن علاثة) من سادات (بني عامر) وأشرافهم . وكان سبب ذلك ، انه مدح (الأسود) العنسي ، فأعطاه خمسمائة

---

١ الخزانة (٤٦٣/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ ديوان الاعشى (ف) ، (دكتور م. محمد حسين) ، (وأثافت وتسمى أثافه بالهـاء وبالتاء أكثر ، وخبرني الرئيس الكباري من أهل أثافت قـــال : كانـت تسمى في الجاهلية درني وإياها التي ذكرها الاعشى بقوله :
أقول للشـرب في درني وقد ثمـــلوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل) ، الصفة ، للهمداني (٦٦) .
٣ تاج العروس (١٩٨/٩) ، (درن) .
٤ الصفة (١٣٧) .

مثقال ذهباً وخمسمائة حللاً وعنبراً ، فخرج ، فلما مر ببلاد (بني عامر) ، وهم قوم (علقمة) و (عامر بن الطفيل) ، خافهم على ما معه ، فأتى (علقمة ابن علاثة) ، فقال له : أجرني ! قال قد أجرتك من الجن والأنس . قال الأعشى ومن الموت . قال : لا . فأتى (عامر بن الطفيل) ، فقال له : أجرني ! قال : قد أجرتك من الجن والأنس . قال الأعشى : ومن الموت ! قال عامر : ومن الموت أيضاً . قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت في جواري بعثت الى أهلك الدية . قال : الآن علمت انك قد أجرتني . فحرضه عامر على تنفيره على علقمة ، فغلّبه عليه بقصائد . فلما سمع علقمة نذر ليقتلنه إن ظفر به . فقال الأعشى قصيدة مطلعها :

شاقك من قيلة أطلالها   بالشط فالجزع الى حاجر

ولما نذر (علقمة) دم الأعشى جعل له على كل طريق رصداً . فاتفق ان الأعشى خرج يريد وجهاً ومعه دليل فأخطأ به الطريق ، فألقاه على ديار بني عامر ابن صعصعة ، فأخذه رهط (علقمة) فأتوه به . فقال له علقمة : الحمدلله الذي مكنني منك ، فقال الأعشى :

أعلقم قد صيرتني الأمورُ   اليكَ ، وما أنت لي مُنقصُ
فهبلي ذنوبي فدتك النفوس   ولا زلت تنمي ولا تنقصُ

في أبيات ، فعفا عنه ، فقال الأعشى ينقض ما قال أولاً :

علقم يا خير بني عامر   للضيف والصاحب والزائـر
والضاحك السن على همه   والغافـر العثرة للعاثـر [1]

وكان (عامر بن الطفيل) لما نافر (علقمة) خرج مع لبيد الشاعر والأعشى ، فحكّما (أبا سفيان) ، فأبى أن يحكم بينهما ، فأتيا (عيينة بن حصن) فأبى ، فأتيا (غيلان بن سلمة) الثقفي ، فردّهما الى (حرملة بن الأشعر) المرّي ، فردهما الى (هرم بن قطبة) الفزاري ، فحكم بتساويهما في الشرف والمنزلـة ،

---

١ الشعر والشعراء (١٨٢/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (٤٣/٢ وما بعدها) .

ولم يفضل فانصرفا على ذلك[1] .

ويقال إن النبي قال لحسّان : يا حسان أنشدنا من شعر الجاهلية مـا عفا الله لنا فيه ؟ فأنشده حسان قصيدة الأعشى في علقمة بن علاثة :

علقم ما أنت الى عامر الناقض الأوتار والـواتر

فنهى النبي حسان من تلاوتها . وذكر أن النبي رخص في الأشعار كلهـا إلا هاتين الكلمتين : كلمة أمية بن أبي الصلت في أهل بدر ، وكلمة الأعشى في علقمة بن علاثة[2] .

وقد اختلفت الروايات في (علقمة) ، فرواية تذكر أنه أسلم وصحب الرسول، ورواية تذكر أنه لم يسلم،وأنه كان عند (قيصر) ، وأنه أثنى أمامه على الرسول حين كان عنده ، بينما تناول أبو سفيان منه ، ورواية تذكر أنه أسلم ثم ارتـد ولحق بالشام ، ثم عـاد الى الإسلام ، ورواية تذكر أن (عمر) استعمله على (حوران) ، فمات بها . وقد رثاه (الحطيئة) بقصيدة ، وكان قد ذهب اليـه لنيل نواه ، فوجده قد مات ، وقـد أوصى له بجائزة في حياته ، فأعطاه ابنه مائة ناقة يتبعها أولادها[3] .

ولما كان الأعشى تاجراً من تجار الشعر ، اتخذ الشعر متجراً يتاجر به، فيمدح من يعطيه ، ويهجو من لا يحسن اليه ويصله ، لذلك صار شعره في الرجال الذين اتصل بهم ، بين مدح وبين هجاء .

وقـد أفادنا (الأعشى) فائدة كبيرة في ذكره أسماء المواضع التي مر بها في شعره . وقد اقتبس (الهمداني) بعض شعـره المتعلق بهذا الموضوع . كما أورد شعراً لغيره يتعلق بالمواضع ، انفرد به في بعض الأحيان . ومما ذكـره من شعر الأعشى في بعض مواضع اليمامة ، قوله :

قالوا : نمار فبطن الخال جادهما فالعسجديـة فالأبلاء فالرجل

---

١ الاصابة (٢/٤٩٦ وما بعدها) ، (٥٦٧٦) .

٢ الخزانة (٢/٤٣) ، (بولاق) ، الاصابة (٢/٤٩٦) ، (رقم ٥٦٧٧) .

٣ الاصابة (٢/٤٩٧ وما بعدها) ، (رقم ٥٦٧٧) .

فالسّفح يجري فخنزير فبُرْقته حتّى تتابع فيه الوتر والحُبل[1]

ونجد في شعر الأعشى قصصاً من قصص أهل الجاهلية ، من ذلك ما رواه عن سد (مأرب) في قصيدته التي يقول فيها :

ففي ذلك للمؤتسي أسوة ومأرب قفّى عليها العرِمْ
رخام بنته لهم حمير إذا جاءه ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها على سعة ماؤُهم لم يرم[2]

وهي أبيات نظمت على طريقة ذلك الوقت في ذكر نكبات الماضي ، وما حل بالقبائل والمدن والقرى من مصير سيء ، لاتخاذها درساً وعبرة للأحياء . وهي لذلك تكون ذات صبغة أدبية أخلاقية ، لا يهمّ فيها للتأريخ ولواقع الأحداث ، وانما للقص وللتأثير في العواطف والقلوب .

ومنها قصيدته التي ذكر فيها من أهلكه الدهر من الجبابرة ومطلعها :

ألم تروا إرماً وعادا أفناهم الليل والنهار
وقبلهم غالت المنايا طسماً فلم يُنجها الحذار
وحلّ بالحيّ من جديس يوم من الشرّ مستطار
وأهل جوّ أتت عليهم فأفسدت عيشهم فباروا
فصبّحتهم من الدواهي نائحة عقبها الدمار

وقد روى أهل الأخبار قصص هؤلاء الأقوام الذين ذكرهم الأعشى في شعره ، وقد رصعوها على عادتهم بالشعر ، نسبوه الى أبطال ذلك القصص[3] .

وأشار (أبو العلاء) المعري الى شعر نسب للأعشى أوله :

أمِن قَتْلَةَ بالأنقاء دار غير محلوله
كأن لم تصحب الحيّ بها بيضاء عطبوله

١ الصفة (١٣٧) .
٢ ديوان الاعشى البيت (٦٧) وما بعده من القصيدة رقم ٤ .
٣ الخزانة (٣٤٧/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

أنـــاةٌ ينزل القوسي منها منظر هولـــهْ
وما صهبـــاء من عانةَ في الدارع محمولـــه
تولى كرمهـــا اصهـــب يسقيه ويغدو له
ثوت في الخرس أعواماً وجاءت وهي مقتولـه
عمـــاء المزنة الغرّا ء راحت وهي مشموله
بأشهى منك للظمـــآ ن لو أنك مبـــذوله

فنفى على لسان الأعشى أن يكون من شعره ، أو أن يكون قد صدر عنه[1] .

وقد ورد في بعض الأخبار أن الأعشى كان نصرانيـــاً . ويرى (بروكلمن) أن من الجائز أن يكون نصرانياً ، غير أن نصرانيته لم تكن مؤثرة عليـه ، وهو إذا كان قد تحدث عن الله وعن البعث ، وعن الحساب ويوم الدين ، فقد تحدث غيره عن هذه الأمور أيضاً ، ولم يكن من النصارى[2] . ونحن لا نكـــاد نجد في شعره ما يؤيد كونه نصرانياً صحيحاً قويم الدين ، له علم بأحكام شريعته ونواهيها ، ولعلّ نصرانيته الوحيدة البادية عليه ، هي في حلفه برهان دير هند ، وإشارتـــه الى عيد الفصح والى طوفـــان نوح ، وزيارته (بني الحارث بن كعب) سادة نجران ، وهم نصارى ، وتشبيهه (قيس بن معديكرب) بالرهبـــان في عدله وتقواه[3] . وقوله :

وإني ورب الساجـــدين عشية وما صك ناقوسَ النصارى أبيلها[4]

وقوله :

ربّي كريم لا يكـــدر نعمة وإذا يناشَد بالمهـــارق أنشدا[5]

---

١ رسالة الغفران (٢١١ وما بعدها) .

٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٤٧/١ وما بعدها) ، القصيدة رقـم ١٥ حيث يحلف بثوب راهب اللج .

٣ ديوان الاعشى (دكتور م. محمد حسين) ، راجع القصيدة رقم ٥ من مدح قيس بن معديكرب الكندي ، والقصيدة رقم ١٥ .

٤ القصيدة رقم ٢٣ .

٥ القصيدة رقم ٣٤ .

ولكننا نجده يقسم بالكعبة إذ يقول :

إني لعمر الذي خطت مناسمها تخدى وسيق اليه الباقر الغيل[1]

ويقول :

وإني وثوبي راهب اللج والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم

ويقول :

وما جعل الرحمن بيتك في العلا بأجياد غربي الفناء المحرم[2]

وورد ان الأعشى كان يقول بالقدر . ورد في كتاب (الأغاني) : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى ، وكان نصرانياً عبادياً ، وكان معمراً ، قال : كان الأعشى قدرياً ، وكان لبيد مثبتاً ، قال لبيد :

من هداه سبلُ الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعـــدل وولّى الملامة الرجلا

قلت : فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العباديين نصاروى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك »[3] . وقد جعله (المرتضى) في عداد من كان على مذهب أهل العدل من شعراء الطبقة الأولى لقوله البيت المذكور[4] .

وقد نسب الأعشى هلاك الإنسان وموته الى فعل الدهر ، إذ يقول :

فاستأثر الـــدهرُ الغداة بهم والـــدهر يرميني ولا أرمي
يا دهر قد اكثرت فجعتنا بسراتنا ووقرت في العظم[5]

---

١ القصيدة رقم (٦) .
٢ القصيدة رقم ١٥ .
٣ الاغاني (٧٩/٨) .
٤ أمالي المرتضى (٢١/١) ، ديوانه (١٥٥) .
٥ أمالي المرتضى (٤٦/١) .

ومن شعره قوله :

وأرى الغواني لا يواصلن امرأً فقد الشباب وقد يصلن الأمردا[1]

وهو شعر يظهر أنه قاله بعد أن عبث به الكبر ، وفقد الشباب ، فقاله على عادة الشعراء في ذمهم المرأة حين بلوغهم هذه المرحلة من العمر .

وروي أنه مرّ بأبي سفيان بن حرب فسأله عن وجهه الذي قدم منه فعرّفه، ثم سأله : أين يقصد ؟ فقال : أريد محمداً . فقال : إنّه يحرم عليك الزنا والخمر والقمار . فقال له : أما الزنا فقد تركني ولم أتركه ، وأما الخمر فقد قضيت منه وطراً ، وأما القمار فلعلّي أن أصيب منه خلفاً . قال : فهل لك الى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : بيننا وبينه هدنة فترجع عامك هذا وتأخذ مائة ناقة حمراء ، فإن ظهر أتيته ، وإن ظهرنا كنت قد أصبت عوضاً من رحلتك : قال : لا أبالي . فانطلق به أبو سفيان الى منزله وجمع له أصحابه وقال: يا معشر قريش ، هذا أعشى بني قيس بن ثعلبة ، وقد عرفتم شعره ، ولئن وصل الى محمد ليضربن عليكم العرب بشعره ، فجمعوا له مائة ناقة وانصرف ، فلما كان بناحية اليمامة ألقاه بعيره فوقصه فمات[2] .

ويذكر علماء الشعر ، ان الأعشى كان قد هيأ قصيدة لينشدها أمام النبي ، في صلح الحديبية ، فلما صرفه (أبو سفيان) عن الذهاب الى يثرب لم يقرأها . ومطلع القصيدة :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبتّ كما بات السليم مسهدا[3]

وهي قصيدة نحلت عليه ، ولا يمكن أن تكون من شعر هذا الشاعر الذي لم يتعود على التعمق في جزئيات أمور الدين . ثم ان القسم الخاص بمدح النبي من

---

١ أمالي المرتضى (٦١٢/١) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٤٠/١) ، الخزانة (٨٥/١) ، رسالة الغفران (١٧٢ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٥٧٦/٢) ، القطعة رقم ١٧ من ديوان الاعشى ، الاكليل (٢٥٩/٢) ، الخزانة (٨٥/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٧٨/١ وما بعدها) .

هذه القصيدة وبأحكام الاسلام ضعيف الحبك ، لا يتناسب مع المطلع ولا مع شعر الأعشى الآخر ، ولهذا ذهب أكثر المعاصرين الى انها من الشعر المصنوع[1]. وفيها أمور من المجرمات لا يمكن أن يكون الأعشى قد وقف عليها.

ومما جاء في هذه القصيدة :

ألا أيهذا السائلي أين يممت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى ، حتى تلاقي محمدا
متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي ، وتلقي من فواضله يدا
أجدَّكَ لم تسمع وَصاةَ محمد ... نبي الإلـه حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وأبصرت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخذن سهماً حديدا لتفصدا
ولا تقربنّ جارة إن سرّها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا
نبي يرى ما لا يرون، وذكرُهُ ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا[2]

وأنت اذا قرأت هذه الأبيات والأبيات الأخرى التي لم أذكرها ، فستخرج جازماً انها من الشعر المصنوع المتحول على الأعشى . ففيها نهي عن أكل الميتة، وعن عبادة الأوثان ، والحث على الصلاة ، وعلى ايصال السائل المحروم ، وغير ذلك من آراء اسلامية ، تجد جذورها في القرآن .

وذكر أن الأعشى سمّى قصيدته المحكمة حكيمة ، أي ذات حكمة . فقال :

وغريبة تأتي الملوك حكيمـــة ... قد قلتها ليقال من ذا قالها[3]

وقال بعض علماء الشعر : الأعشى أغزل الناس في بيت ، وأخنث النـاس في

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٤٨/١) ، طه حسين ، في الادب الجـــاهلي (٢٥٨) ، فؤاد أفرام البستاني ، مجلة المشرق (المجلد ٣٠) ، (ص ٧٦٣ ومـــا بعدها) ، ديوان الاعشى (١٣٤) ، (الدكتور م. محمد حسين) .
٢ وفي رسالة الغفران بعض الاختلاف عما جاءت في ديوانه وفي كتب الادب ، رسالـة الغفران (١٧٨ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢٥٥/٨) ، (حكم) .

بيت ، وأشجع الناس في بيت ، فأغزل بيت قوله :

غرّاء فرعــاء مصقول عوارضها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

وأخنث بيت قوله :

قالت هريرة لما جئتُ زائرهــا ويــلي عليك وويلي منك يا رجل

وأشجع بيت قوله :

قالوا الطرادَ فقلنا تلك عادتنا أو يتزلون فــإنا معشر نزل[1]

ومن جيد شعره قوله :

عهدي بها في الحيّ قد دُرّعت صفراء مثــل المُهرة الضامـرِ
لو أسندت ميتاً الى نحرهــا عــاش ولم يُنقل الى قابر
حتّى يقول النــاس مما رأوا يا عجباً للميت النــاشر[2]

وكان الأعشى سليط اللسان ، اذا هجا أقذع ، شديداً في هجائه، للملك كان الناس يخشون جانبــه ، ويرهبون لسانه ، وكان مدّاحاً ، يمدح فينال عطــاء الممدوحين . وله أسلوب خاص في نظم الشعر ، وفي العرض والسبك ، وموسيقى النظم ، وفي شعره طلاوة ، وفي أبياته حلاوة . وقد أبدع في أمور، منها وصف الخمر ، ووصف الحمر الوحشية ، ولا نجد في شعره مكانــة للأطلال والديار ، وهو يطيل في النسيب[3] .

ومن أمثلة ما يروونه عن أثر شعره في الناس ، ان رجلاً بائساً مسكيناً اسمه (المحلّق) ، كان والد ثمان بنات ، ولا يملك شيئاً سوى ناقــة ، سمعت زوجته بذكر الأعشى وبمروره منهم في طريقه الى سوق (عكاظ) ، فأشارت على زوجها أن يركض الى الأعشى ليستضيفه ، لعله يمدحه ، فيزوج بناته وينال شرف مديحه

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٧ وما بعدهــا) ، الخزانــة (٣/٥١٨) ، (بولاق) .
٢ أمالي المرتضى (١/٤٥١) .
٣ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٤٨ وما بعدها) .

بين الناس . ففعل ، وذبح ناقته الوحيدة وأكرمه مع بناته غاية الإكرام ، فلما علم الأعشى بسوء حاله ، أعدّ له قصيدة ، ألقاها في عكاظ ، مطلعها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   الى ضوء نار في يفاع تحرق

فلما رأى الناس (المحلق) ، وقد حيّاه الأعشى ، أقبل الناس يخطبون منه بناته ، فما قام من مقعده حتّى خطبت بناته جميعاً[1] .

ولعلّ خفة عروض شعر الأعشى ومرونته ، وما في شعره من ترنيم ورنين، وما فيه من سهولة ، تدل على براعة في الشعر ، هي التي حملت بعض علماء الشعر على تقديمه على غيره ، أو على رفع مكانته بوضعه في طبقة الشعراء الفحول من الطبقة الأولى ، غير أن من العلماء من انتقد شعره ، وانتقد اكثاره من ادخال الألفاظ الأعجمية في نظمه[2] .

وكان للأعشى راوية اسمه (عبيد) ، كان يصحبه ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل . ومنه أخذ الرواة أخبار الأعشى وشعره . وكان (سماك) أحد الرواة المتصلين به ، وعنه أخذ (حماد) الراوية أخباره عن الأعشى . وعنه أيضاً أخذ (شعبة بن الحجاج) أخباره عن (الأعشى) . وعن (شعبة) روى (مؤرج بن عمرو السدوسي) (أبو فيد) أحد علماء البصرة المتوفى سنة (١٩٥ هـ). وعنه أخذ (الرياشي) أخباره عن (الأعشى) . و (الرياشي) هو (أبو الفضل) العباس بن الفرج مولى سليمان بن عليّ الهاشمي . وكان عالماً باللغة والشعر كثير الرواية عن (الأصمعي) . وقد توفي الرياشي سنة (٢٥٧ هـ)[3] .

وقد شك علماء الشعر في صحة نسبة بعض الشعر الى (الأعشى) . فقد روى (أبو عبيدة) ان (أبا عمرو بن العلاء) زاد بيتاً على قصيدة :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا   واحتلت الغمر فالجدين فالفرعا

وهو البيت الثاني من هذه القصيدة . وروى غيره ان (حماد) الراوية ، هو

---

١ الخزانة (٢١١/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ الموشح (٤٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٤٩/١) .
٣ الشعر والشعراء (١٨١/١) ، الفهرست (٩٢) .

الذي دس ذلك البيت ، ولم يطمئن (المرزباني) من هذه القصيدة ، ثم هي « من الأشعار الغثة الألفاظ ، الباردة المعاني ، المتكلفة النسج ، القلقة القوافي ، المضادة للأشعار المختارة » ، ما خلا ستة أبيات[1] .

ولم يرض (المرزباني) عن قصيدة الأعشى الثانية المدونة في ديوانه ، ومطلعها:

لعمرك ما طولُ هذا الزمن على المرء إلا عناءٌ معنّ[2]

وفي شعره قصائد تعد من المصنوعات[3] .

ويذكر أن الأعشى كان يهاجي شاعراً عرف بـ (جُهُنّام) ، وهو لقب (عمرو بن قطن) من بني سعد بن قيس بن ثعلبة[4] ، وذكر أنه هو القائل :

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندلٍ وخالك عبدٌ من خماعة راضع

قاله يهجو به الأعشى . إذ زعم أن والده دخل غاراً ، فوقعت عليه صخرة ، سدت فم الغار ، فمات فيه من الجوع[5] .

وفي حقه قال الأعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جُهُنّام جدعاً للهجين المذمم

وذكر ان (جهنام) تابعة للأعشى ، أي شيطانه ، كما يقال لكل شاعر شيطان[6] :

والنابغة ، هو (زياد بن معاوية بن ضباب) الذبياني ، أبو أمامة وقيل (أبو ثمامة) و (أبو عقرب) ، أحد شعراء الجاهلية المشهورين ، ومن أعيان فحولهم المذكورين . عدّه بعض العلماء من الطبقة الأولى بعد (امرىء القيس) .

---

١ الموشح (٤٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٩/١) ، ديوان الاعشى (١٠٠) ، (القصيدة ١٣) ، (دكتور م. محمد حسين) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٩/١) .

٣ العصر الجاهلي (٣٤٠ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٢٣٥/٨) ، (جهنام) .

٥ الاغاني (١٠٨/٩) .

٦ تاج العروس (٢٣٥/٨) .

وذكر أن الخليفة (عمر) قال : أشعر العرب النابغة . وأنه قال : « النابغة أشعر شعرائكم ، وأعلم الناس بالشعر » أو أنه قال : « هذا أشعر شعرائكم »، وذلك لوفد كان قد قدم عليه ، كان في جملة ما تحدث عنه موضوع الشعر، وموضوع أفضل شاعر جاهلي[1] . وقد فضله (ابن عباس) على غيره أيضاً في رواية تنسب اليه[2] . وذكر أن الشاعر (حسان بن ثابت) سئل من أشعر الناس ؟ فقال : أبو أمامة ، يعني النابغة الذبياني . وأن (أبا عمرو بن العلاء) ، قال : « كان أوس بن حجر فحل العرب ، فلما أنشأ النابغة طأطأ منه . وأنه قال أيضاً، وكان بعضهم قد ذكر النابغة وزهير : ما كان زهير يصلح أن يكون أخيذاً للنابغة » يعني راوياً عنه[3] . وقال بعضهم : « كان النابغة أحسنهم ديباجةَ شعر وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتــاً ، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف ، ونبغ في الشعر بعدما احتنك ، وهلك قبل أن يُهتر »[4] . « وقال أبو عبيدة : يقول من فضل النابغة على جميع الشعراء : هو أوضحهم كلاماً ، وأقلهم سقطاً وحشواً ، وأجودهم مقاطعَ ، وأحسنهم مطالعَ ، ولشعره ديباجة ، ان شئت قلت : ليس بشعر مؤلف ، من تأنثه ولينه ، وان شئت قلت : صخرة لو رديت بها الجبال لأزالتها »[5] .

وذكر ان (النعمان) غني بشيء من دالية النابغة ، فقال : هذا شعر علوي ، أي عالي الطبقة أو من عليا نجد[6] . وقيل عن شعره : « ينسبُ اذا عشق ويثلب اذا حنق ويمدح اذا رغب ، ويعتذر اذا رهب »[7] . وقد قال الأصمعي فيه وفي

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٧٨ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (٢/١٧) ، الخزانة (٢/٦) ، طبقات الشعراء (٤٧ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٢٤) ، ديوان النابغة (٥٧) ، كنى الشعراء ، لمحمد بن حبيب (٢٨٨) ، (سلسلة نوادر المخطوطات) ، (عبد السلام هارون) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٨٠) ، الخزانة (٢/٧) ، الشعر والشعراء (١١٠ ، ١٢٣ ، ٣٠٣) ، الخزانة (٢/٤٤٨) ، (هارون) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٨٠) .

٤ الشعر والشعراء (١/٩٢) ، (الثقافة) .

٥ الشعر والشعراء (١/١٠١ وما بعدها) ، جمهرة اشعار العرب (٢٦) .

٦ تاج العروس (١٠/٢٥٣) ، (علو) .

٧ كارلو نالينو (٨٦) .

غيره من الشعراء المشاهير : « كفاك من الشعراء أربعة : زهير اذا طرب ، والنابغة اذا رهب ، والأعشى اذا غضب ، وعنترة اذا كلب »[1] .

قيل انما سمي النابغة بقوله : فقد نبغت لنا منهم شؤون ، وانه كان شريفاً فغض منه الشعر . وكان مع النعمان بن المنذر ومع أبيه وجدّه ، وكانوا له مكرمين.

وروي ان أول ما تكلم به النابغة من الشعر ، انه حضر مع عمه عند رجل ، وكان عمه يشاهد به الناس ويخاف أن يكون عييا ، فوضع الرجل كأساً في يده وقال :

تطيب كؤوسنا لولا قذاها ويحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة : وحمي للذلك :

قذاها أن صاحبها بخيل يحاسب نفسه بكم اشتراها[2]

وقد أخذ عليه علماء الشعر تكسبه بشعره، فقد ذكروا ان العرب كانت لا تتكسب بالشعر ، وانما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يدٍ لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها ، حتى نشأ النابغة ، فمدح الملوكَ وقبل الصلة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر،وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار اليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسّب مالاً جسيماً ، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك[3] . وفي هذا القول الذي لا يخلو من مبالغة ، دلالة على ان النابغة قد كان موسراً نوعاً ما حسن الحال ، وان قسماً من ثرائه قد جاء اليه من مدحه للملوك .

وقد رمي بالإقواء ، فقيل انه كان يقوي في شعره ، فعيب ذلك عليه ، وأسمعوه في غناء :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزوّد

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبّرنا الغداف الأسود

---

١ جمهرة أشعار العرب (٢٦) ، المزهر (٢٩٧/٢) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠/١) .
٣ العمدة (٤٩/١) .

ففطن فلم يعد[1] . وذكر ان ذلك كان بيثرب . فقد كان قد دخلها فغني بشعره ، ففطن فلم يعد للإقواء[2] .

وقد أخذ العلماء عليه بعض مآخذ ، ذكرها (ابن قتيبة) في كتابه : (الشعر والشعراء)[3] ، وأخذوا عليه (الاكفاء) في بعض أشعاره[4] .

ونفى (المعري) في رسالة الغفران أن تكون الكلمة التي أولها :

ألمّا على المعطورة المتأبده أقامت بها في المربع المتجرده
مضمخة بالمسكِ مخضوبة الشوى بدرٍّ وياقوت لها متقلده

من شعر النابغة ، إذ يقول على لسانه : « ما أذكر أني سلكت هذا القري قط » ، ثم ينسبها الى رجل من بني ثعلبة بن عكابة[5] .

والنابغة مثل غيره من أهل زمانه ، كان يعتقد بالجن ، فأشار في شعره الى (جنة البقار) . ونجد في شعر (زهير) إشارة الى (جنة عبقرية) ، و (جنة عبقر) مشهورة في أساطير الجاهليين . وذكر (لبيد) (جن البديّ)[6] . وهو ممن ذكر بعض القصص والأساطير في شعره ، فقد ذُكر (النعمان بن المنذر) ، بقصة زرقاء اليمامة ، وهي قصة يظهر أنها كانت شهيرة وشائعة بين الجاهليين ، ضربها مثلاً له ، وذكر قصة الحية ، وهي اسطورة في ذم الغدر والخيانة ، ضربت مثلاً ، لكل من يغدر ، ومثل هذه الأساطير معروفة عند الأمم الأخرى، ولا سيما قصص الإنسان مع الجن ، والحية من فصائل الجن في نظر أكثر الجاهليين. وكانت العرب تضرب أمثالاً على ألسنة الهوام[7] .

ويظهر من الشعر المنسوب الى النابغة انه كان لا يتبذل في مجون ، ولا يسرف في هجاء ، ولا يتدنى في سفاهة ، وقد نسب بعض المستشرقين هذا الخلق الرفيع

---

١ الشعر والشعراء (٩٣/١) ، (الثقافة) .
٢ المصدر نفسه (١٠٢/١) .
٣ (١٠٢/١ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (١٠٥/١) ، (الثقافة) .
٥ رسالة الغفران (٢٠٧ وما بعدها) .
٦ الصفة (١٢٨) .
٧ الشعر والشعراء (٩٦/١) .

الذي نراه فيه الى تنصره ، مستدلين على رأيهم هذا بما ورد في شعره من أمور نصرانية ، غير اننا لا نستطيع إثبات ذلك ، كما اني لا أستطيع نفيها عنه مستشهداً بالبيت :

فلا لعمر الذي قد زرته حججاً وما هريق على الأنصاب من جسد[1]

فالقسم عند الجاهليين لا يشير دائماً الى عقيدة صاحب القسم ، فقد نسب الى (عدي بن زيد) العبادي القسم بمكة ، ولم يكن من عبّاد الأصنام ، ثم إن من المحتمل أن يكون من الشعر المصنوع ، واني أرى ان ما نسب الى (عدي) من هذا القسم موضوع عليه . فهو رجل نصراني ، وكان الملك وثنيــاً ، ثم صار نصرانياً ، ولم يكن عبّاد الأصنام من عرب الحيرة يحجون الى مكــة حتى يقسم (عدي) بها مجاراة للوثنيين ، ولذلك أرى ان هذا الشعر مصنوع عليه ، صنع لإظهار ان الحج الى مكة كان عاماً عند جميع العرب ، حتى عرب العراق وبلاد الشأم، وقد رأينا ان أهل الأخبار صيروا ملوك اليمن من أشد الناس تعلقاً بالكعبة، جعلوهم يحجون اليها ، مع ان المسند يسخر من هذه الخزعبلات ، كما اننا لا نسمع بحج أحد من عرب العراق أو بلاد الشأم الى مكة ، ولو كانوا يحجون اليها لما سكت أهل الأخبار عن ذلك .

ونال النابغة الذبياني رزقاً كثيراً من النعمان بن المنذر . أعطاه مرة مئة ناقة من الإبل السود برعاتها ، لإنشاده قصيدته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكــب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[2]

والإبل السود ، هي أغلى وأثمن الإبل عند العرب . وكاد ملوك الحيرة يحتكرون هذه الجمال ، ولا يسمحون لافتحال أحد فحلاً أسودَ . ولهذا كان هذا الحباء الذي أغدقه النعمان على النابغة حباءً ثميناً وعطاءً كبيراً، وكان (النعمان) قد أعطى (النابغة) إبلاً وريشها ، أي بما يصلحها من الآلة والثياب[3] .

وروي عن الشاعر (حسان بن ثابت) ، أنه رحل الى (النعمان) ، فلقي

---

١ معلقته البيت رقم (٣٧) .
٢ العقد الفريد (٢/٢٢) « لجنة » .
٣ مجالس ثعلب (٣٥) .

رجلاً فقال : أين تريد ؟ فقلت : هذا الملك ، قال : فإنك إذا جئته متروك شهراً ، ثم يسأل عنك رأس الشهر ، ثم أنت متروك شهراً آخر ، ثم عسى أن يأذن لك ، فإن أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه ، وان رأيت (أبا أمامة) النابغة فاظعن ، فإنه لا شيء لك . قال : فقدمت عليه ، ففعل بي ما قال ، ثم خلوت به وأصبت منه مالاً كثيراً ونادمته ، فبينا أنا معه في قبة إذ جاء رجل يرجز حول القبة :

أنمت أم تسمع ربّ القبة يا أوهب الناس لعنس صُلْبة
ضرّابة بالمشفر الأذبّة ذات هباب في يدها جُلْبة

فقال النعمان : أبو أمامة ! فأذنوا له ، فدخل فحيّاه وشرب معه ، ووردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود يُعلَمْ مكانه ، ولا يفتحل أحدٌ فحلاً أسود ، فاستأذنه أن ينشده ، فأنشده كلمته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

فدفع اليه مائة ناقة من الإبل السود ، فيها رعاؤها ، فما حسدت أحداً حسدي النابغة ، لما رأيت من جزيل عطيته ، وسمعت من فضل شعره[1] .

وذكر انه نادم المنذر الثالث والمنذر الرابع من ملوك الحيرة ، وكان من المقربين جداً من النعمان بن المنذر ، المعروف بأبي قابوس . ثم وقعت نفرة بينهما ، أدت الى هروب (النابغة) من (النعمان) ، وذهابه الى (عمرو بن الحارث) ملك غسان والى ابنه (النعمان بن عمرو) . وسبب هروبه من ملك الحيرة على ما يزعمه أهل الأخبار ، ان (النابغة) تجاسر فوصف (المتجردة) امرأة النعمان بن المنذر ملك الحيرة[2] ، وتغزل بها ، مما أثار غضب النعمان عليه ، فخاف على نفسه ، وفر الى أعداء النعمان ملوك غسان . ويظهر ان النابغة ، كان يتصل بالغساسنة ويراجعهم ، وهم أعداء ملوك الحيرة ، أو ان جماعة من حساد النابغة وأعدائه دسوا ذلك الوصف عليه ، ونسبوه له ، ورووه وأوصلوه الى النعمان ،

---

١ الشعر والشعراء (١/٩٨ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٨١) .
٢ تاج العروس (٢/٣١٩) ، (جرد) ، المحاسن والاضداد (١٤٣) .

وهو رجل عصبي المزاج ، حاد الطبع ، سريع التأثر والأخذ بأقوال النـاس ، فأراد الفتك به ، فهرب النابغة الى مكان يكون بمأمن فيه ، وينال فيه التقدير ، فوقع اختياره على أرض الغساسنة . وعاش في كنف عمرو بن الحارث ، وفي ظل ابنه (النعمان) . فلما مات (النعمان بن عمرو بن الحارث) ، أخذ ينظم الشعر في مدح (النعمان بن المنذر) ، وفي الاعتذار منه ، وفي التنصل مما اتهمه بـه حساده ، حتى عفى الملك عنه ، فعاد الى الحيرة ، ولما مات (النعمان) في محبسه، رجع النابغة الى قبيلته ، وعاش بينها حتى مات هناك[1] .

ولأهل الأخبار قصص في سبب وقوع هذه النفرة ، فقال قوم : إنـه هجاه فقال :

ملك يلاعبُ أمـه وقطينـه رخو المفاصل أيره كالمرود

وهجاه أيضاً فقال قصيدة فيها :

قبـح الله ثم ثنى بلعـنٍ وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر الأقاصي ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدوّ فتيـلا

ويقال إن هذا الشعر والذي قبلـه لم يقله النابغة ، وإنما قاله على لسانه قوم حسدوه ، منهم (عبد قيس بن خفاف) التميمي ، ومنهم (مرة بن ربيعة بن قريع) السعدي[2] ، (مرة بن ربيعة بن قريع) وهو الذى سعى الى النعـمان بالوشاية بالنابغة[3] .

ويقال ان النعمان قال للنابغة وعنده المتجردة امرأته : صفهـا لي في شعرك يا أبا أمامة ! فقال قصيدة[4] ذكر فيها بطنها وعكنها ومتنها وروادفهـا وفرجها ،

---

١ الشعر والشعراء (٧٠ وما بعدها) ، الاغاني (١٦٢/٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٨٨/١ وما بعدها) ، تأريخ ملوك العرب الاولية (١٠٧ وما بعدها ، ١١١) .

٢ الشعر والشعراء (٩٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٣ « مرة بن ربيعة بن قريع » ، الخزانة (٣٢٢/٢) ، (هارون) .

٤ هي القصيدة التي أولها : « أمن آل مية رائح أو مغتد » ، الخزانة (٢٨٧/١ ومـا بعدها) ، (بولاق) ، (٤٢٧/١) ، (بولاق) .

وكان للنعمان نديم هو (المنخل) اليشكري ، يتهم بالمتجردة ويظن بولد النعمان منها أنهم منه ، وكان (المنخل) جميلاً ، وكان النعمان قصيراً دميماً أبرش ، فلما سمع المنخل هذا الشعر قال للنعمان : ما يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر إلا من قد جرب ! فوقر ذلك في نفسه ، وبلغ النابغة ذلك فخافه فهرب الى غسان، فصار فيهم ، وانقطع الى (عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني) ، والى أخيه النعمان بن الحارث ، فأقام النابغة فيهم فامتدحهم ، فغمّ ذلك النعمان ، وبلغه أن الذي قذف به عنده باطل، فبعث اليه : إنك صرت الى قوم قتلوا جدي فأقمت فيهم تمدحهم ، ولو كنت صرت الى قومك لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن ، إن كنا أردنا بك ما ظننت، وسأله أن يعود اليه ، فقال شعره الذي يعتذر فيه . وقدم عليه مع (زبّان بن سيّار) ، و (منظور بن سيار) الفزاريين ، وكان بينهما وبين النعمان دخلل ، فضرب لهما قبة ، ولا يشعر أن النابغة معهما . ودس النابغة أبياتاً من قصيدته :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند

فلما سمع النعمان الشعر ، أقسم بالله انه لشعر النابغة ، وسأل عنه فأخبر انه مع الفزاريين ، وكلّماه فيه فأمنه[1] . ويرى (بروكلمن) ان (النابغة) كان قد واصل بني غسان ، فظن (النعمان) به الغدر ، وعلم الوفاء له ، وهرب النابغة منه ، فوجد ملجأ في بلاط عمرو بن الحارث ، رجع النابغة الى الحيرة ، ونال عفو أبي قابوس وحظوته من جديد ، ولكنه لم يتمتع طويلاً بذلك ، لموت أبي قابوس في سجن كسرى ، فرجع الى قبيلته (بني ذبيان) ، حيث توفي بينها[2] .

وقد مدح (النابغة) (عمرو بن الحارث) الغساني ، والغساسنة بشعر حسن ، يعدّ من الشعر الحسن المتفوق في المديح ، من جملة ما ورد فيه :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[3]

---

١ الشعر والشعراء (٩٩ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٢ بروكلمن (٨٨/١ وما بعدها) .
٣ « محلتهم » ، كارلو نالينو (٨٥) .

رِقاق النعال طيب حجزاتهم	يحيّون بالريحان يوم السباسب
تحيّيهمُ بيض الولائد بينهم	واكسية الإضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها	بخالصة الأردان خضر المناكب
ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده	ولا يحسبون الشر ضربة لازب
حبوتُ بها غسان إذ كنت لاحقاً	بقومي وإذ أعيت عليّ المذاهب[1]

وهو مدح يختلف عن مدح شعراء البادية ، فيه رقة وجمال ، وفيه إبداع في وصف الغساسنة وعادتهم في الاحتفال بأعيادهم النصرانية[2] .

وتروى للنابغة خطبة ، ذكر انه خاطب بها (الحارث) الغساني ، ليفك له أسرى قبيلته[3] .

ويروى ان العرب سألت النابغة أن يضرب قبة بعكاظ فيقضي بين الناس في أشعارهم لبصره بمعاني الشعر ، فضرب قبة حمراء من أدم وأتته وفود الشعراء من كل أوب ، فكان يستجيد الجيد من أشعارهم ، ويرذل ، فيكون قوله مسموعاً فيهم جميعاً ومأخوذاً به . فكان فيمن دخل عليه (الأعشى) وحسان بن ثابت والخنساء ، فأنشده الأعشى ، ثم أنشده حسان ، ثم أنشدته الخنساء ، فقال النابغة مخاطباً (حسان) : « لولا ان أبا بصير ، يعني الأعشى ، أنشدني لقلت انك أشعر الجن والأنس ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومن أبيك ومنها ! » ؛ وهي قصة تروى بشرح أوفى ، قرن بالأسباب التي دعت بالنابغة الى تفضيل شعر الأعشى على شعر حسان . وهي قصة طعن في صحتها بعض علماء الشعر[4] .

وللنابغة شعر في هجاء (زرعة بن عمرو) الكلابي ، وكان لقي النابغة بعكاظ وأشار عليه أن يشير على قومه أن يغدروا بـ (بني أسد) ، وينقضوا حلفهم ، فأبى عليه النابغة ، فتوعده ، فقال النابغة :

---

١ ديوان النابغة عدد (١) .

٢ كارلو نالينو (٨٦) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٩/١ وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٧/١) .

نبتت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي إليّ غرائب الأشعار
فحلفت يا زرع بن عمرو انني مما يشق على العدو ضراري[1]

وله شعر يهجو به (عامر بن الطفيل) حيث يقول :

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مطيّة الجهل الشباب
فإنك سوف تحكم أو تناهى إذا ما شبتَ أو شاب الغراب

يقول : هو معذور فإنه شاب ، ثم قال : سوف تحكم إذا شخت ، أو لعلك لا تحكم أبداً ؛ حتى يشيب الغراب ، وذلك لا يكون أبداً ، وتحكم ، أي تصير حكيماً[2] . ويلاحظ أن هجاء النابغة هو هجاء مؤدب لا جهالة فيه ولا سفاهة ، عف يؤثر في المهجو أكثر من أثر الهجاء الفاحش المليء بالسفاهة والسباب .

وقد نُعت شعراء آخرون بلفظة (النابغة) ، غير النابغة الذبياني . منهم : النابغة الجعدي : قيس بن عبدالله الصابي ، والنابغة الحارثي زيد بن ابان ، والنابغة الشيباني : حمل بن سعدانة ، والنابغة الذهلي : المخارق بن عبدالله ، والنابغة ابن لؤي بن مطيع الغنوي ، والنابغة العدواني ، والنابغة ابن قتال بن يربوع الذبياني ، والنابغة التغلبي الحارث بن عدوان[3] .

وتبدأ معلقة (النابغة) بقوله :

يا دار ميّة بالعلياء فالسندِ أقوت ، وطال عليها سالفُ الأبد[4]

ولما تحدث (البغدادي) عن الشاهد التاسع والثمانين بعد المائة ، وهو :

كأنه خارجاً من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد

قال : « وهذا البيت من قصيدة للنابغة الذبياني ، يمدح بها النعمان بن المنذر ، ويعتذر اليه فيها مما بلغه عنه » . ثم قال : « وهذه القصيدة أضافها أبو جعفر

---

١ الخزانة (٣/٦٧ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ أمالي المرتضى (١/٥٥) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٨١) ، الخزانة (١/٢٨٩) ، (بولاق) .
٤ شرح القصائد العشر ، للزوزني (٥١٢ وما بعدها) .

أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوي الى المعلقات السبع لجودتها وقد أورد الشارح المحقق في شرحه عدة أبيات منها ، وقبل هذا البيت :

كان رحلي وقد زال النهار بنا بذي الجليل على مستأنس وحد
من وحش وجرة موشّي أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد[1]

وهي قصيدة نعتها (البغدادي) بأنها طويلة[2] ، ويبلغ عدد أبياتها في المعلقات (٥٠) بيتاً[3] . وقد ورد فيها اسم النبي (سليمان) ، ذكر انه انما ذكره فيها ، لأنه كان له الملك مع النبوة ، يريد انه لا يشبهه أحد ممن أوتي الملك إلا سليمان النبي[4] . وتعدّ من أحسن شعر النابغة ، « ولهذا ألحقوها بالقصائد المعلقات »[5] .

ومن شعر النابغة قوله :

فلا زال قبر بين تبنى وجاسم عليــه من الوسمي طل ووابل
فينبت حوذاناً وعوفاً منــوراً سأتبعه من خير ما قال قائل

وذلك على مذهب العرب المعروف في ذلك ، لأنهم كانوا يستسقون السحائب لقبور من فقدوه من أعزائهم ، ويستنبتون لمواقع حفرهم الزهر والرياض. ويجرونه مجرى الاسترحام ، ونسب (ابن الأعرابي) الى (علي) قوله : « إن العرب انما تستسقي القبور لأنها اذا سقيت وعمّ القطر أعشب المكــان ، فحضره القوم للرعي ، وترحموا على الموتى »[6] .

وكان النابغة صديقاً لزهير بن أبي سلمى ، « روى هشام بن المنذر قال : قال زهير بن أبي سُلمى المزني بيتاً ثم أكدى ، ومر به النابغة الذبياني فقال له: أجز ، قال : ماذا ؟ قال :

تزال الأرضُ إما متّ خفاً وتحيــا ما حييت بها ثقيلا
نزلت بمستقر العــز منهــا . . . .

---

١ الخزانة (٥٢١/١) ، (بولاق) .
٢ الخزانة (٤٥/٢) ، (بولاق) .
٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٥٣٣) .
٤ الخزانة (٤٥/٢) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (٣١٥/٢) ، (بولاق) .
٦ أمالي المرتضى (٥٤/١) .

فماذا قال ؟ فأكدى والله النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير وهو غلام ، فقال له أبوه : أجز يا بني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ، ومن الثاني قوله : بمستقر العز منها ؛ فقال كعب :

فتمنع جانبيها أن تزولا

فقال زهير : أنت والله ابني »[1] .

و(عَبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن زهير بن مالك بن الحارث) الأسدي ، شاعر مفلق من فحول شعراء الجاهلية . وكان معاصراً لامرىء القيس، إذ يروي أهل الأخبار له قصيدة يخاطب بها امرأ القيس بن حجر ، أولها :

ياذا المخوفنا بقتـ ـل أبيه إذلالاً وحينا
أزعمت أنك قد قتلـ ـت سراتنا كذباً ومينا[2]

أو أنه قال :

يا ذا المخوفنا بمقتل شيخه حُجرٍ تمنّي صاحب الأحلام

يخاطب به امرأ القيس الشاعر ، الذي هدد (بني أسد) قتلة أبيه ، فأجابه عنهم بأن جعل وعيده كاذباً وما تمناه من الإيقاع بهم ، كأضغاث أحلام[3] . فهو اذن من الرعيل القديم من الشعراء المعاصرين لامرىء القيس .

وذكر انه القائل :

سائل بنا حجر بن أم قطام إذ ظلت به السمرُ النوابل تلعب[4]

وقد قدّمه بعض علماء الشعر ، فجعله من طبقة (امرىء القيس) ، وجعله بعضهم من الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية، وقرن به طرفة،وعلقمة بن عبدة ،

---

١ أمالي المرتضى (١/٩٧ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٨) ، الخزانة (١/٣٢٤) ، (بولاق) ، (٢/٢١٢) ، (هارون) ، الاغاني (١٩/٨٧) ، البخلاء (١٩٠) .
٣ الخزانة (٢/٢١٢ وما بعدها) ، (١/٣٢٤) ، (بولاق) .
٤ أمالي المرتضى (١/٥٦) .

وعدي بن زيد[1] . وأجود شعره قصيدته التي يقول فيهـا : « أقفـر من أهله ملحوبُ » . وهي احدى السبع[2] . وجعلوه في عداد المعمرين ، فجعـل (ابن قتيبة) عمره يوم قتل أكثر من ثلاثمائة سنة [3] . وجعل (السجستاني) عمره مائتي سنة وعشرين ، ثم استدرك المقدار وقال : « ويقال بل ثلثمائة سنة »[4] . ولكي يثبتوا صحة دعواهم في انه عاش هذا العمر ، رووا له شعراً زعموا انه قاله،هو :

ولتأتين بعدي قرون جمـة	ترعى مخارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف	والنجم يجري أنحساً وسعودا
حتى يقال لمن تعرق دهره	يا ذا الزمانة هل رأيت عبيدا
مائتي زمان كامل وبضعـة	عشرين عشت معمراً محمودا

أدركت أول ملك نَصرٍ ناشئاً	وبنـاء شدّاد وكان أبيـدا
وطلبت ذا القرنين حتى فاتني	ركضاً وكدت بأن أرى داودا
ما تبتغي من بعـد هذا عيشة	إلا الخلـود ولن تنال خلودا
وليفنين هـذا وذاك كلاهمـا	إلا الإله ووجهـه المعبودا

وزعم أنه هو القائل :

فنيت وأفناني الزمان وأصبحت	لداتي بنو نعش وزهر الفراقد

وأنه القائل :

تذكرت أهل الخير والباع والندى	وأهل عتاق الخيل والخمر والطيب
فأصبح مني كل ذلك قد خلا	وأي فتى في الناس ليس بمكذوب
ترى المرء يصبو للحياة وطيبها	وفي طول عيش المرء برح بتعذيب[5]

وهو شعر لو أخذنا بحكم من ذكروا فيه ، إذن وجب أن يكون عمر (عبيد)

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٦٠) ، الخزانة (٢/٢١٥) ، ابن سلام ، طبقات (٣١) ، الاغاني (١٩/٨٤) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٨) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٨٧ وما بعدها) .
٤ الخزانة (١/٣٢٣) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (١/٣٢٣) .

قد جاوز الألف سنة بكثير ، ويكون أهل الأخبار قد ظلموه ، إذ جعلوا عمره أكثر من ثلثمائة سنة ، وهو دون هذا العمر بكثير .

وزعم أن (المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء اللخمي) المعروف بـ (ذي القرنين) ، لقي (عبيـــد بن الأبرص) في يوم بؤسه ، وكان يقتل أول من يرى في يوم بؤسه ، فلما رآه قال له : هلاّ كان المذبوح غيرك يا عبيد ! فقال: أتتك بحائن رجلاه ، وأرسله مثلاً ، فقال له : أنشدني يا عبيد ؛ فربما أعجبني شعرك ! فقال : حال الجريض دون القريض ، وبلغ الحزام الطبيين . وأرسلها مثلاً ، وبقي يسأله وهو يجيب ، فيصير جوابه مثلاً ، حتى أمر بقتله ، فقال :

وخيّرني ذو البؤس في يـوم بؤسه   خصالاً أرى في كلها الموت قد برق
كما خُيّرت عادٌ من الـدهر مرّة   سحائب ما فيهـا لذي خـيرة أنق
سحائبَ ريـح لم توكّل ببلدة   فتتركهـا إلاّ كما ليلـةِ الطلق

وزعم أنه سأله أي قتلة تختار ؟ قال عبيد : أسقني من الراح حتى أثمل ، ثم أفصدني الأكحل ، ففعل ذلك به ، ولطخ بدمه الغريين[1] .

وقد أخطأ (ابن قتيبة) ، إذ جعل قاتله (النعمان بن المنذر)[2] ، بينما هو (المنذر بن ماء السماء) ، في الموارد الأخرى .

ولعبيد بن الأبرص شعر يتباهى فيه ببني أسد قومه ، من ذلك قوله :

فاذهب اليك فإني من بني أسد   أهل القباب وأهل الجرد والنادي[3]

وبقباب الأدم تتفاخر العرب ، وللقباب الحمر قالوا : مضر الحمراء،والجرد : الخيل القصيرة الشعر ، وانما ذكـــر النادي لأن النادي من سماء السيادة والرئاسة وضخامة القبيلة ، حيث يجتمع ساداتها فيه .

---

١ الخزانة (٢/٢١٨ وما بعدها) ، (هارون) ، الخزانة (١/٣٢٤) ، (بـولاق) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٦٠) ، أسماء المغتالين (المجموعة السادسة مـــن نوادر المخطوطات) ، (ص ٢١١) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٨٨) ، (دار الثقافة) .

٣ الحيوان (٥/٤٨٦) .

وله قصيدة قالها متشكياً فيها من إعراض صاحبته عنه ، إذ رأته وقد كبر وصار شيخاً ، تغير لون شعره ، وعلا الشيب مفرقيه ، وقلّ ماله ، منها هذه الأبيات :

تلك عرسي غضبى تريد زيالي ... ألبين تريدُ أم لدلالِ
إن يكن طلبك الفراق فلا أحفلُ أن تعطفي صدور الجمالَ
أو يكن طبك الدلال فلو في ... سالف الدهر والليالي الخوالي
كنت بيضاء كالمهاة وإذ آ ... تيك نشوان مُرخياً أذيالي
فاتركي مطّ حاجبيك وعيشي ... معنا بالرجاء والتأمال
زعمت أنني كبرتُ وأني ... قل مالي وضن عني الموالي
وصحا باطلي وأصبحت شيخاً ... لا يُؤاتي أمثالها أمثالي
إن تريني تغيّر الرأس مني ... وعلا الشيب مفرقي وقذالي[1]

---

١ البيان والتبيين (١/٢٣٦) .

الفصل الستون بعد المئة

الشعراء الصعاليك

قال صاحب (اللسان) : « الصعلوك : الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري : ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك ، قال حاتم طيء :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... فكلاً سقاناه ، بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بغياً على ذي قرابة ... غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر »[1]

« والتصعلك : الفقر . وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى : عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه »[2]، وقيل : الصعلوك : الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات »[3] . والصعاليك ، قوم خرجوا على طاعة بيوتهم وعشائرهم وقبائلهم ، لأسباب عديدة ، منها عدم إدراك أهلهم أو قبيلتهم نفسياتهم ، مما سبب الى نفورهم منهم ، وخروجهم على طاعة مجتمعهم ، وهروبهم منه ، والعيش عيشة الذؤبان ، معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم ، وعلى قوتهم في تحصيل ما يعتاشون به ، بالإغارة على الطرق والمسالك ، وبمهاجمة أحياء العرب المبعثرة ، أفراداً أو طوائف . وهم أبداً في خوف من متعقب يتعقبهم ، لاسترداد ما أخذ أو سلب ، ومن متربص يتربص

---

١ اللسان (١٠/٤٥٥ وما بعدها) ، (صعلك) ، (صادر) .
٢ اللسان (١٠/٤٥٦) ، (صعلك) ، تاج العروس (٧/١٥٣) ، (صعلك) .
٣ جمهرة أشعار العرب (١١٥) .

بهم الدوائر ، ليأخذ منهم ما غنموه بالقوة من غيرهم أو ما قد يجده في أيديهم. ولهذا كانوا يتكتلون أحياناً ، بانضمام بعضهم الى بعض ، مكونـين جماعات ، جمعت بينها وحدة الهدف ، وغريزة حماية النفس ، والمصلحة المشتركة ، بعد أن حرمهم أهلهم ومجتمعهم من تقديم أية مساعدة أو حماية لهم ، وسحب منهم حق الأخذ بالثأر والانتقام ممن قد يعتدي عليهم ، بحق (العصبية) ، وبعد أن جعل دمهم هدراً ، وتبرأ منهم ومن كل جريرة يرتكبونها ، فلا يطالب أهلهم بدمهم، ولا يطالبونهم بأي دم قد يسفحه الصعلوك .

ولا استبعد أن تكون للمغامرة ولاثبات الشخصية ، دخـل أيضاً في حدوث الصعلكة وفي تمرد الشباب على مجتمعهم ، على غرار ما نجده اليوم من تمرد على مجتمعاتهم ، لإثبـات وجودهم وشخصيتهم في هذه المجتمعات ، بطريقة العبث بالعرف والعادات وبعدم المبـالاة لأوامر العائلة والمجتمع ، مما يجعلهم يسيرون سيرة الصعاليك في ذلك الوقت ، فلو نظرنا الى حالة الصعاليك نجد أن منهم من كان من أسرة متمكنة أو لا بأس بأحوالها المالية ، ومع ذلك عاش صعلوكاً ، لما وجد فيها من مغامرات ومجازفات ومطاردة وهجوم ودفاع . فحب المغامرة ، وإثبـات الشخصية ، من أسباب الصعلكة في الجاهلية كذلك .

والصعاليك بعد ، حاقدون على مجتمعهم، متمردون عليه ، للأسباب المذكورة، نبتت في أكثرهم عقد نفسية ، تكونت عندهم من سوء معاملة المجتمع لهم، ومن سوء فعلهم وتصرفهم الخاطىء تجاه مجتمعهم ، فهم حاقدون لا يبالون من شيء ولو كان ذلك سلباً ونهبـاً وقتل أبناء قبيلتهم وعشيرتهم ، لأنهم خلعوا منها ، وحرموا من حق الدم ، فكان خلعها لهم سبب شقائهم وبؤس حياتهم ، فأي حق بقي إذن يمنعهم من الحقـد على القبيلة ومن مهاجمة العشيرة ؟ ثم إنهم حاقدون على مجتمعهم ، لأن منهم فقراء معدمين ، لا شيء عندهم يعتاشون عليه ، ولا ملابس لديهم تقيهم من الحر أو البرد أو المطر ، وكل مـا تقع أعينهم عليه ، هو مفيد لهم نافع ، ومن حقهم بحكم فقرهم انتزاعه من مالكه ، وإن كان مالكه فقيراً معدماً مثلهم ، لأن النفس مقدمة على الغير ، وهم يعيبون الخامل منهم ، الذي يعيش صعلوكاً ذليلاً قانعاً بما كتب عليه من الذل والتشرد ، عائشاً عـلى صدقات الناس ،ويرون الخلاص من هذا الذل بالحصول على المال بالقنا وبالسيف، فمن استعمل سيفه نال ما يريد ، لا يبالي فيمن سيقع السيف عليه ، وإلا عـدّ

من (العيال) . قال (السليك) :

فـــلا تصلي بصعلوك نئوم إذا أمسى يُعد من العيالِ
ولكن كل صعلوك ضروبٍ بنصل السيفِ هامات الرجالِ[1]

« ولذلك كان صعاليك العرب ولصوصهم وأرباب الغارة منهم يرون أن مـــا يحوونه من النعم بالغـــارة ، وينالونه بالسرق والسلة ، إنما ذلك مال منعت منه الحقوق ، ودفع عنه بالبخل والعقوق ، فأرسلهم الله اليه وسببه لهم رزقهم إياه، كما قال عروة الصعاليك :

لعلّ انطلاقي في البلاد وعزمتي وشدّي حيازيم المطيّـة بالرحل
سيدفعني يوماً الى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل »[2]

« وكما ان فيهم من يتمـــدح ببذل القرى ومعاناة الطوى ، وتحمل الكلفـــة ومواساة ذوي الخلة ، فكذلك فيهم البخيل الجامع ، واللئيم الراضع ، ومن يؤثر التفرد بناره والاستئثار بزاده دون ضيفه وجاره . وينشد لبعضهم :

أعددت للأضياف كلباً ضارياً عندي وفضل هراوة من أرزن

وقال الآخر :

وإني لأجفو الضيف من غير بغضة مخافة أن يغري بنا فيعود

وقال الأصمعي : مرّ ابن حمامة بالحطيئة ، فقـــال : السلام عليك . قال : قلت ما لا ينكر . قال : إني أردت الظل . قال : دونك ، والجبل حتى يفيء عليك . قال : اني خرجت من عند أهلي بغير زادٍ . قال مـــا ضمنت لأهلك قراك . قال : اني ابن حمامة . قال : كن ابن نعامّة . فمضى عنه آيساً .

قال : وخرج الحطيئة يوماً من خبائه وبيده عصا ، فقال له رجل: ما هذه؟ قال : عجراء من سلم . قال : اني ضيف . قال : للضيف أعددتّها »[3] .

---

١ الشعراء الصعاليك (٢٣٥) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٢ وما بعدها) .
٣ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٠ وما بعدها) .

والحطيئة من الملحفين في السؤال المستجدين الذين لا يخجلون من الاستجداء . فكان يلح في شعره بالطلب ، ويحاول بكل الطرق جمع المال ، حتى أهان نفسه، ولم يترك رجلاً معروفاً إلا ذهب اليه يسأله أن يعطيه مما عنده . فلما عيّن (عمر) (علقمة بن علاثة) على حوران ، قصده (الحطيئة) ، فوجده قد مات ، فقال :

وما كان بيني لو لقيتك سالماً وبين الغنى إلا ليال قلائل[1]

فأعطاه ولده مائة ناقة مع أولادها .

وقد عاب (الأعشى) (علقمة بن علاثه) ، بقوله :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[2]

وقد وجد الصعاليك في الأغنياء البخلاء ، هدفاً صالحاً لهم . فهؤلاء أصحاب مال ، وهم أصحاب جوع ، ولا بد للجوعان من أن يعيش ، فلم يجدوا في مباغتة الأغنياء أي حرج يمنعهم من السطو على أموالهم ، لأنها زائدة عليهم ، وهم في حاجة إليها ، وبذلك يضمنون لأنفسهم ولاخوانهم الجياع الصعاليك أسباب الحياة ، فالحاجة عندهم تبرر الواسطة، وإذا امتنع إنسان على صعلوك وأبى تسليم ما عنده اليه ، فهو لا يبالي من قتله ، فالقتل ليس بشيء في نظره ، منظره مألوف ، والفقر ذاته قتل للإنسان ، بل أشد فتكاً به من القتل ، والصعلوك نفسه لا يدري متى يقتل ، فلا عجب إذا ما رأى القتل وكأنه شربة ماء .

وكان (أبو عبيدة) ، لا يستأنس بسماع شعر الصعاليك ، لأنهم فقراء ، قال (أبو حاتم) : « جئت أبا عبيدة يوماً ، ومعي شعر عروة بن الورد ، فقال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير »[3] ، فهو من المحبين للأغنياء ، وما الذي يجنيه من الفقراء ! وكان (أبو مالك عمرو بن كركرة) البصري ، مثل (أبي عبيدة) في الابتعاد عن الفقراء ، بل كان أشد منه تعصباً عليهم ،

---

١ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٨٨) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٥٩) .
٣ أمالي المرتضى (٦٣٨/١) .

« قال الجاحظ : كان أحد الطياب ، يزعم أن الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء. ويقول إن فرعون عند الله أكرم من موسى »[1] . و (ابن كركرة) أعرابي ، وكان مرجع الأعراب الوافدين الى البصرة ، وقد تحدث عنه (الجاحظ) في كتبه .

وقد عرف الصعاليك بـ (الذؤبان) وبـ (ذؤبان العرب) ، « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم وشطارهم الذين يتلصصون ويتصعلكون ، لأنهم كالذئاب»[2]. وعرفوا باللصوص لأنهم كانوا يتلصصون . واللص السارق ، في لغة طيء[3] ، وقيل لهم : (الشطّار) . « والشاطر من أعيى أهله ومؤدبه خبثاً ومكراً ، جمعه الشطار كرمّان . وهو مأخوذ من شطر عنهم ، اذا نزح مراغماً . وقد قيل انه مولد »[4] . وعرفوا بـ (الخلعاء) ، والخليع الشاطر ، « وهو مجاز سمي به ، لأنه خلعته عشيرته وتبرأوا منه ، أو لأنه خلع رسنه . ويقال : خلع من الدين والحياء»[5]. « وكان في الجاهلية اذا قال قائل منادياً في الموسم : يا أيها الناس ! هذا ابني قد خلعته ، وذلك اذا خاف منه خبثاً أو خيانة ، أو من هو بسبيل منه،فيقولون: إنا قد خلعنا فلاناً ، أي فإن جر لم أضمن ، وإن جر اليه لم أطلب. يريد تبرأت منه . وكان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خليع »[6] . و (الخلعـاء) جماعتهم « واختلعوه اذا ذهبوا بماله »[7] . ولعل لهذا التفسير صلة بالصعلكة التي تعني الفقر،فالفقر والإملاق والجوع من أهم الملازمات التي لازمت ورافقت الصعاليك، وفي هذا المعنى أيضاً ما جاء في كتب اللغة : «وشفر المال تشفيراً : قلّ وذهب »[8]، ولعل للفظة (الشنفرى) ، صلة بهذا المعنى ، وقد تكون للفظة (الرجل) التي تعني البؤس والفقر[9] ، صلة بهذا المعنى كذلك . فقد عرف الصعاليك بـ (الرجليين)

---

١ الفهرست (٧٢) .

٢ تاج العروس (٢٤٨/١) ، (ذأب) ، الخزانة (٥٣٢/٣) .

٣ تاج العروس (٤٣٢/٤) ، (لص) .

٤ تاج العروس (٢٩٩/٣) ، (شطر) .

٥ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٦ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٧ تاج العروس (٣٢٢/٥) ، (خلع) .

٨ تاج العروس (٣٠٨/٣) ، (شفر) .

٩ تاج العروس (٣٣٨/٧) ، (رجل) .

وبـ (الرجيلاء) ، وعرف الواحد منهم بـ (الرجليّ)[1] ، وقد تكون للفظة (الخلع) صلة بالفقر والإملاق كذلك ، بدليل ما ذكروه في تفسير (المعيل) من قولهم : « المعيل : الذي قصر ماله وعليه عيال »[2] . وقد عرف الصعاليك بـ (الرجليين) لاستعمالهم أرجلهم في الإقدام والهروب ، لأنهم فقراء لا يملكون غير أرجلهم تحملهم الى المواضع التي يريدون سرقتها ، إذ لا خيل لهم يركبونها لعجز أكثرهم عن شرائها ، فلا يكون أمامهم غير الاعتماد على الرجل .

والجوع حليف ملازم للصعاليك ، لم ينفر منهم ، ولم يبتعد عنهم لذلك كثر الحديث عنه في شعرهم وفي أخبارهم . وقد كانوا يهربون منه ، لكنهم لم يفلتوا منه . فقد كان ممسكاً بهم ، ملازماً لهم ، ما داموا صعالكة ، فالجوع نفسه جزء من أجزاء الصعلكة . وفي شعر (عروة بن الورد) أن الجوع كان ينزل به ، حتى يكاد يهلكه ، أنزل به الهزال ، وأراه الموت ، لولا أنه كان يتهرب منه بالغارة ، لينال منها البلغة ، فالمنايا خير من الهزال المقيت المميت[3] . وفي شعر للسليك بن السلكة ، أن الجوع كان يغشاه في الصيف ، حتى كان إذا قام تولاه اغماء شديد ، يريه الدنيا ظلاماً من أثر الجوع[4] .

وما دامت حياة الصعلكة جوع وفقر ، وإملاق وهروب من متعقب ، فالموت خير للصعلوك من حياة يعيشها فقيراً ، لا أقارب له تعطف عليه ، ولا أهل يشفقون عليه ، ولا قوم يراجعونه ويتعهدونه بالحماية[5] ، حياته موحشة قاسية ، تفور بالأخطار والتهلكة والمغامرات ، لا يدري متى يأتيه الموت ومن أين يأتيه ، إذا نام ، خاف من غادر قد يغدر به ، ومن متعقب يتعقب أثره ، ومن طالب ثأر يريد الأخذ بثأره منه ، ومن حيوان صعلوك مثله ، يريد أن يقضي على

---

١ تاج العروس (٣٣٩/٧) ، (رجل) ، (أجارت السليك بن السلكة السعدي ،وكان رجليا) ، المحبر (٤٣٣) .

٢ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٣ أقيموا بني لبنى صدور ركابكم فان منايا القوم خير من الهزل
ديوان عروة (١٠٦) .

٤ الاغاني (١٣٥/١٨) .

٥ اذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيرا ، ومن مولى تدب عقاربه
ديوان عروة (١٥٠) ، وينسبان لغيره ، حماسة أبي تمام (١٦٦/١ ، ١٦٧) .

جوعه بافتراسه ، وهو معذور في ذلك لأنه جائع لا طعام له ، ومن هنا هان الموت في نظر الصعلوك ، فهو معه يتبعه مثل ظله وملازم له ، وتولدت في نفسه فلسفة (الآجال) : فلسفة ان لكل نفس أجل ، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن الإنسان مهما عاش وعمر ، فلا بد من أن يلاقي الموت ويستجيب له، لن ينجيه منه قصر (ريمان) ، ولا حرس أبوابه المدججون بالسلاح ، يمنعون الناس من دخوله ، فالموت لا يعرف حرس القصور ولا يحول بينه وبين من يريد الوصول اليه حائل مهما كان . قال أبو الطمحان القيني :

لو كنتُ في ريمان تحرس بابه   أراجيل أحبوش وأغضف آلف
إذن لأتتني حيث كنت منيتي   يخبُّ بها هـاد بأمري قائف[1]

ولقرب الموت من الصعاليك ، ولتعقب أصحاب الثـأر دوماً لهم ، لازموا سلاحهم ، فكانوا لا ينامون إلا وسيفهم معهم . كما لازمهم الرقاد والسهر بالليل، خشية مباغتة غادر لهم ، والليل رفيق الغدر . لذلك كان ليلهم قصيراً ، ونومهم قليلاً ، من شدة قلقهم ومن تحسبهم لتعقب طلاب الثأر لهم ، ونجد في شعرهم اشارات الى مظاهر القلق الذي كان يستولي عليهم ، فيحول بينهم وبين النوم .

ونجد في شعر للشنفرى توجع وتألم ومرارة ، وإن صيغ بصورة الاستهتار بالموت وبالحياة ، فهو إن جاءه الموت ، فلن يبالي ، ولمَ يبالي ، وهو انسان خليـع بائس ، إن مات لا يجد من يبكي عليه أحد . فأي توجع أشد من هذا التوجع المصوغ في هذا البيت الساخر :

اذا ما أتتني ميتتي لم أبالها   ولم تذر خالاتي الدموع وعمّتي[2]

ولكن الحياة على ما فيها من مرارة وشقاء ، مطلوبة محبوبة ، فربَّ لحظـة فيها حبور تنسي كل ما كابده الانسان من تعاسة وشقاء ، والموت مكروه ممقوت، وإن تمنّاه المتمني ، وما تمنيه له إلا لثورة طارئة في النفس ولضيق في الصدر ، فإذا بان الموت لمتمنيه ضاق صدره ، وتمنى لو مد في عمره . يدفعه الأمـل الى

---

١ الاغاني (١٣٣/١١) .
٢ الاغاني (١٣٩/٢١) ، الشعراء الصعاليك (٣٣) .

التفكير في احتمال تغير الأوضاع ، وتحسن الحال ، والحصول على الغنى والمال ، بشرط أن يسعى ويضرب في الأرض وأن يكون صادق العزيمة ، لا يخور أمام المصائب مهما كانت شديدة عاتية ولا ينهار منها :

فسرْ في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا [1]

وقد كان عماد الصعلوك في حياته ، قوته الجسدية وسلاحه الذي يحارب به ، وجماعته الذين يأوي اليهم ، وكان يقاتل بضراوة ، قتال المستميت ، لأنه إن لم يدافع عن نفسه ، هلك ، إذ لا أمل له في وجود عصبية تدافع عنه ، أو أهل يقومون بافتدائه وتخليصه من أسر إن وقع فيه ، وسبيله الوحيد لخلاصه عند قيامه بغارة : المباغتة والهرب بما قد يحصل عليه بسرعة ، كي يأمن العاقبة ، وعمل الحيلة في التخلص من المآزق ، لكيلا يقع في ايدي متعقبه ، فيكون بذلك هلاكه ، وفي جملة ذلك الفرار ، للنجاة بالنفس من موت محتم . وهو فرار يؤدي به الى معاودة الغارة والتلصص ، إذ لا مورد له في هذه الحياة يتعيش منه غير هذين الموردين . فحاله في هذا القرار حال (أبي خراش) الهذلي حيث يقول:

فإن تزعمي أني جبنتُ فإنني أفر وأرمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك [2]

ونظراً لفقر الصعاليك ، وعدم وجود مال لديهم يكفل لهم شراء فرس يركبونها في غاراتهم ، اعتمد أكثرهم على أرجلهم في طلب رزقهم،وفي الحصول على معاشهم ، وعلى خفة حركاتهم ، وسرعتهم في الهروب من تعقب المتعقبين لهم في حالتي الفشل أو النجاح . وكان من بينهم من ضرب به المثل في زمانه في شدة العدو ، وفي سرعة الركض ، ورويت عنه الأقاصيص في ذلك . منهم (سليك بن المقانب بن السلكة) ، وهو عدّاء بالغ . يقال : أعدى من السليك[3]. وقد عرفوا لذلك بـ (العدائين) لشدة عدوهم[4] ، جمع (عداء) ، ومنهم أيضاً

---

١ ديوان عروة (١٩١) ٠
٢ ديوان الهذليين (٢/١٦٩) ، الدكتور يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك (٤٠) ٠
٣ تاج العروس (١/٤٠٩) ، (غرب) ٠
٤ الخزانة (٢/١٧) ٠

(الشنفرى) : « شاعر عداء . ومنه المثل : أعدى من الشنفرى »[1] ، « وكان من العدائين . وفي المثل : أعدى من الشنفرى »[2] . كما عرفوا بـ (الرجليين) وبـ (الرجيلاء) ، وهم « قوم كانوا يعدون . كذا في العباب . ونص الأزهري: يغزون على أرجلهم ، الواحد رجليّ محركة أيضاً ... وهم سليك المقانب ، وهو ابن سلكة ، والمنتشر بن وهب الباهلي ، وأوفى بن مطر المازني »[3] ، «والرجلة بالفتح وبالكسر : شدة المشي ، أو بالضم القوة على المشي ، وفي المحكم : الرجلة بالضم المشي راجلاً »[4] . وقد صار العدو من أهم صفاتهم ومميزاتهم التي امتازوا بها عن غيرهم ، حتى قيل إن الخيل لم تكن تلحق بهم . ونعتوا بأنهم كانوا أشد الناس عدواً ، وانهم « لا يجارون عدواً » ، و« لا يلحقون »[5] . ومن العدائين : (تأبط شراً) ، و (عمرو بن البراق) ، و (أسيد بن جابر)[6]. وورد ان العرب كانت تضرب بالسليك المثل في العدو ، وتزعم انه والشنفرى أعدى من رئي[7] .

وضرب المثل بسرعة عدوهم ، واتخذ القصاص من شدة علو الصعاليك مادة أدخلوها في قصصهم ، وبالغوا فيها لتناسب طابع القص واسلوبه ، وقد وجد بعضه سبيلاً الى كتب الأخبار والأدب والعجائب والنوادر . وتؤلف المبالغات في سرعتهم وعدوهم أهم عنصر في القصص الذي يتحدث عنهم ، نجد فيها أن الصعلوك يسابق الخيل ، فيسبقها ، هذا (أبو خراش) الهذلي ، يدخل مكة ، فوجد (الوليد بن المغيرة) المخزومي ، يهم بإرسال فرسين له الى (الحلبة) فيقول له : ما تجعل لي إن سبقتها ؟ قال : إن فعلت فهما لك ، فأرسلا وعدا بينهما فسبقها فأخذهما »[8] . وهذا (تأبط شراً) يوصف بأنه « كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر

---

١ تاج العروس (٣/٣١٨) ، (الشنفيرة) .
٢ تاج العروس (٣/٣٠٨) ، (شفر) .
٣ تاج العروس (٧/٣٣٩) ، (رجل) ، ثمار القلوب (١٣٥) .
٤ تاج العروس (٧/٣٣٦) ، (رجل) .
٥ الاغاني (١٢/٤٩) ، (١٨/١٣٣ وما بعدها) ، المرزباني ٤٦٨) ، الخزانة (٢/١٦) .
٦ تاج العروس (٣/٣٠٨ ، ٣١٨) ، (شفر) ، (شنفر) .
٧ ثمار القلوب (١٣٤) .
٨ الاغاني (٢١/٥٧) .

الى الظباء ، فينتقي على نظره أسمنها ، ثم يجري خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله »[1] . الى غير ذلك من قصص وحكايات .

وقد فخر العداؤون بشدة عدوهم ، وتباهوا بمقدرتهم على العدو السريع، حتى أنهم نسبوا سبب نجاتهم من الموت الى عدْوهم هذا ، لا الى قتالهم وشجاعتهم، وبالغوا في شعرهم به ، حتى ذكروا أنهم كانوا يسبقون الخيل والظباء بل الطير[2]. هو نوع من (البطولة) في مفهوم الصعاليك ، حتى أنهم – كما قلت – فضّلوه على الشجاعة، وإذا كانت الشجاعة ضرب من الإقدام وإظهار المقدرة والرجولية، فالركض فراراً ، نوع من البطولة أيضاً ، فيه مقدرة وشجاعة في ضبط الأعصاب وفي التصميم والإقدام على السلامة والنجاة بالنفس وبقاء الحياة وهكذا أوجدوا لفرارهم عذراً اعتذروا به ، فهم إن اختاروا الفرار وفضلوه على المعاركة والقتال فإنما اختاروه لأن فيه أمل المعاودة الى قتال جديد ، ثم إنهم لا يرون سبباً يدعو الإنسان الى أن يرمي نفسه في المهالك ، وأن يكون طعاماً للوحوش الكاسرة[3] . فليس في الهروب جبن ، وليس في الاقدام شجاعة ، والعاقل من اتعظ فنجى نفسه من الموت ، وفي النجاة شجاعة .

وقد كان لسرعة عدو الصعاليك العدائين فضل كبير عليهم في النجاة من المهالك المحتمة ، هذا (تأبط شراً) ، يذكر في شعر له انه وقع في فخ في موضع (العيكتين) ، وكاد يهلك ، لولا استعانته بالركض ، ولا أحد أسرع منه ، وبذلك نجا وخلص من الوقوع في داهية[4] . فلا عجب اذن ، اذا ما افتخروا بسرعة عدوهم ، وجاهروا بما لأرجلهم من فضل ومنة عليهم . فلولا العدو لما خرج (أبو خراش) سالماً من موت كان قد أحاق به ، ولكنه غلب الموت بشدة عدوه وهروبه منه ، فعاد سالماً معافى الى حليلته ، فاستقبلته ابنته بقولها : « سلمتَ وما إن كدت بالأمس تسلم » ، وأنقذ بذلك ابنه (خراش) من الوقوع في اليتم[5] .

---

١ الاغاني (١٨/٢١٠) .
٢ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .
٣ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .
٤ المفضليات (٧ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٤٢) .
٥ الاغاني (٢١/٥٦ وما بعدها) ، ديوان الهذليين (٢/١٤٨) .

فلا عجب اذن ، إن رأينا (الحاجز الأزدي) ، يفدي رجليه بأمه وخالته، وهو فداء في نظرنا غريب ، لكنه ليس بغريب ، بالنسبة الى انسان رجلاه رأسماله في هذه الحياة ، بفضلها سلم من المهالك ، وحصل على قوته ، ولولاهما لكان من الهالكين :

فدى لكما رجليّ أمي وخالتي بسعيكما بين الصفا والأثائب[1]

وكان الصعاليك يغيرون فرساناً كذلك ، كانوا يجيدون ركوب الخيل والإغارة عليها ، وعدّ بعضهم من خيرة فرسان الجاهلية . ولعروة بن الورد فرس يسمى (قرمل)[2] ، وللسليك فرس يسمى (النحام)[3] ، وللشنفرى فرس يسمى (اليحموم)[4]، وقد عرفت هذه الأفراس بشدة عدوها .

والسلاح للصعلوك ، هو الحماية الوحيدة التي يتقيْ بها أذى الناس ، ويستعين بها في القضاء على خصمه ، وهو السيف والقوس والرمح والدرع والمغفر ، وكان لا يفارق سلاحه ، لأنه لا يدري متى ينقض عليه عدوّ له فيقتله ، فكان لا بد له من حمل سيفه معه ، واعتناقه له حين نومه ، وقد عد (عروة بن الورد) ، و (عمرو بن براقة) السلاح رأسمالها الذي يتكلون عليه في هذه الحياة[5] .

ولصعوبة تصعلك الرجل بمفرده ، تكتل الصعاليك كتلاً ، وكوّنوا لهم فرقاً، تكوّنت من أشتات وأنماط من الرجال،فيهم الحرّ الثائر ، وفيهم الضال الغاوي، وفيهم الأسود العبد ، وفيهم القاتل الفاتك . وهم بالطبع من قبائل مختلفة ومن بطون متنافرة . فلا تجمعهم عصبية القبيلة ، ولا نخوة العشيرة ، ومع ذلك فبينهم رابطة قوية ، ووحـــدة جمعت بينهم ، هي وحدة الدفاع عن النفس ، والذب عنها ، والكفاح في سبيل المعيشة ، بأي سبيل ، وبأية طريقة وجدت ووقعت ، حتى بالقتل . فمن وجد شخصاً ومعه مال ، لا يجد الصعلوك والقاتل سبباً أخلاقياً

---

١ الاغاني (٥٢/١٢) .

٢ قال عروة :

كليلـــة شيبـاء التي لست ناسيـــا وليلتنـــا اذ مـــن مـا مـــن قرمـــل

تاج العروس (٧٩/٨) ، (القرمل) .

٣ ذيل الامالي ، للقالي (١٨٨) .

٤ ديوان الشنفرى ، تحقيق الميمني ، (لجنة) (ص ٤٠) .

٥ ديوان عروة (٢٠٧) ، الاغاني (١٧٥/٢١) .

يمنعه من قتله للحصول على ماله . فلما كان (عروة بن الورد) في أرض (بني القين) يتربص المارة ، فمرت به إبل ، فيها ظعينة ورجل يحرسها ، خرج اليه (عروة) فرمى الرجل بسهم في ظهره ، أرداه قتيلاً ، واستاق الإبل والظعينة[1].
ولما خرج (الأخينس) الجهني فلقي (الحُصين) العمري ، وكانا فاتكين ، وسارا حتى لقيا رجلاً من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك ، طمعا به ، فاغتره (الحصين) فضرب بطنه بالسيف فقتله ، واقتسما ماله ، ثم ركبا ، وطمع (الأخينس) في مال (الحصين) فتربص به الفرص حتى أخذه على غرة فقتله واستولى على ما كان عنده ، في حكاية تروى، وفيه يقول الأخينس على لسان (صخرة) أخت (الحصين) :

تساءل عن حصينٍ كل ركب   وعند جهينة الخبر اليقين[2]

فالفاتك لا يجد مانعاً أخلاقياً يمنعه من الفتك بأي شخص إن وجد عنده المال ووجد له فرصة مؤاتية ، ثم هو لا يمتنع من الفتك حتى بزميله وصاحبه وشريكه في الإغارة والفتك ، والتاجر لا يأمن من حراسه ومن مرافقيه حتى يصل مقرّه، لأن الفقر لا يعرف أخاً ولا صديقاً وشريكاً ، قاتل الله الفقر ووقانا شرّه !

ونجد (تأبط شراً) ، يتبجح في شعر ينسب له ، فيقول انه لا يبيت الدهر إلا على فتى أسلبه ، أو على سرب أذعره[3] . ونجد صاحب (لامية العرب) ، إن صح انها للشنفرى ، يصف غارة ملأت الرعب في قلب من وقعت عليهم ، قام بها في ليلة باردة ، عاد منها سالماً معافى بغنائم ، وهو فرح بما تركه من قتل وسلب وألم في نفوس النساء والأطفال ، إذ يقول :

فأيمتُ نسوانا ، وأيتمت إلدةً   وعدتُ كما أبدأتُ ، والليل أليلُ[4]

ونجد (السليك) يخرج مع صعلوكين يريدون الغارة ، فساروا حتى أتوا بيتاً متطرفاً ، ووجد شيخاً غطى وجهه من البرد ، وقد أخذته إغفاءة ، ومعه إبله

---

١ ديوان عروة (١١٣) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) .
٢ عيون الاخبار (١/١٨١ وما بعدها) ، (طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي) .
٣ الاغاني (١٨/٢١٧) .
٤ الشعراء الصعاليك (٤٩) .

ترعى ، فأسرع اليه وضربه بسيفـــه فقتله ، ونهبوا إبله ، وعادوا بها مسرعين فرحين ، خشية شعور الحي بأمرهم وتعقبهم لهم . قتله دون أن يشعر بوخـــزة ضمير ، لقتله انساناً نائمـاً طاعناً في السن يرعى إبله ، وإن وجدناه يبرر فعلته هذه ، بأنه لم ينل هذه الإبل إلا بعد أن صكه الجوع ، واستولى عليه الفقر ، فهو قد قام به مضطراً[1] ، والضرورات تبيح المحظورات .

ونرى (صخر الغيّ) المزني ، يقول في شعر له ، انه قتل رجـــلاً من (مزينة) وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل فقير ، لا يملك مالاً :

في المزني الذي حششت به مالَ ضريك تلاده النكد[2]

وعلى الرغم من هذا العنف،ومن هذه القساوة العنيفة ، التي تصل الى الوحشية، نرى عند بعضهم ، روحاً إنسانية ، فيها العطف على الضعيف ومساعدة المحتاج وبذل المال والنجدة ، والبر للأهل والأقارب بل وللغريب أيضاً . بل نجـد هذه الروح أحياناً حتّى عند القساة منهم ، وسبب ذلك أن الصعالكة في ثورات نفسية، يعيشون عيشة قلقة مضطربة ، فإذا كانوا في ثورة جامحة من جوع وحاجـة وتألم بما حلّ بهم وبما هم فيه من سوء حال ، هاجوا فكفروا بكـل شيء ، وثاروا على كل شيء وعلى كل أحد ، وصاروا لا يبالون بعرف ولا سنة ، يقتلون لأتفه الأسباب ، لأنهم معرضون أنفسهم في كل لحظة للقتـــل . ثم إن القتل لا شيء بالنسبة الى تلك الأيام ، وان تعاظم في نظرنا . فهم في ذلك مثل الأسود الجائعة، لا تعبأ بشيء ، وكل همّها الحصول على فريسة لتأكلها فتعيش عليها ، فاذا وجد الصعلوك غنيمة ، وعاد الى مقره سالماً ارتخت أعصابه ، وهدأت سورته ، وتذكر نفسه وما يقاسيه من ألم وجوع ، فيعود إنساناً آخر ، باراً بأصحابه حنوناً عليهم، نادماً على حياة يعيشها جعلته يعيش مثل الوحوش الكاسرة ، كريماً يعطي مما ناله بقوته وبسلاحه وبذكائه . هـــذا (عروة بن الورد) و (أبو خراش) الهذلي

---

١ ومـا نلتهـا حتى تصعلكـت حقبـة وكـدت لاسبـاب المنيـة أعـرف
وحتى رأيـت الجوع بالصيف ضرني اذا قمـت تغشاني ظـلال فاسـدف
الشعراء الصعاليك (١٨٢ وما بعدها) .

٢ الشعراء الصعاليك (٢٣٨) .

وغيرهما ، نجـد فيهم النقيضين ، نجد فيهم القسوة بل الوحشية ، ثم نجد فيهم العطف والشفقة والرحمة والاشفاق على الضعفاء ، وما الجمع بين النقيضين إلا من واقع هذه الظروف النفسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والاداريـة التي كانوا يعيشون فيها .

وفي شعر ينسب الى (أبي خراش) الهذلي ، امتداح للكرم ولكرامة الانسان في الحياة ، وترفع عن المذلة وتباهٍ بإيثار الغير على نفسه ، مع انه فقير صعلوك، فهو يقول :

وإني لأثوي الجوعَ حتى يملني ... فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق المـاء القراح فأنتهي ... اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيـا برغم وذلة ... وللموتُ خيرٌ من حياة على رغم[1]

وقد عاش هؤلاء على المباغتة والغارات ، فكانوا يتسترون في المواضع الوعرة، وفي مفارق الطرق وشعاب الجبال حتى اذا مر بهم مار ، ووجدوا أن في إمكانهم الحصول على غنيمة ، باغتوه ، وأخـذوا منه ما هو عنده . وقـد يغيرون على الأحياء ليلاً ، فيأخذون ما يجدونه أمامهم ، ثم يجرون بسرعة حتى لا يدركهم أحد ، ليصلوا الى مواضع آمنة بعيدة عن التعقيب ، مثل الكهوف والمغاور والآكام، يأوون اليها ويعيشون بها عيشة الخائف المتشرد الهارب من مجتمعه ، الحاقد عليه ، لأن في قلبه حقداً عليه ، لأنه لم يفهمه ولم يفهم سبب نقمته على مجتمعه. وأكثرهم من الشباب الذين خرجوا على طاعة أوليائهم أو على عُرف مجتمعهم ، أو عوملوا معاملة أشعرتهم انها اذلتهم وجرحت كرامتهم،فانفصلوا بذلك عن أهلهم وعشيرتهم أو فصلهم أهلهم عنهم ، فلم يبق أمامهم من سبيل سوى التصعلك والتشرد .

وكان من هؤلاء مثل (عروة بن الورد) من جمع حوله الصعاليك، ولفّهم حوله ، فكان يغزو بالقوي الجسر منهم،فإذا أصابوا مغنماً جاءوا به الى أصحابهم الضعفاء ممن لا يتمكن أو لا يتجاسر على الغارة ، فيصيبونهم مما أصابوا ويعينونهم مما غنموا ، وحياة على مثل هذا الطراز ، هي حياة شديدة قاسية ولا شك .

---

١ ديوان الهذليين (٢/١٢٧) ، (دار الكتب) ، الاغاني (٢١/٤٢) .

وقد كانت المرتفعات الصعبة المشرفة على المسالك والطرق الضيقة من أهم الأماكن المحببة الى نفوس الصعاليك وقطاع الطرق ، يحتمون بالمواضع المشرفة منها على الطرق لمراقبة المارة ، من (مرقبة) تخفي معالمها لئلا يراها أو يفطن لوجودها سلاك الطرق ، فاذا مروا بها انقضوا عليها منها ، وكأنهم هبطوا عليهم من السماء . ونجد لها ذكراً في شعر الصعاليك واللصوص وقطاع الطرق[1] . وقد اشتهر جبل هذيل بمرقباته ، ورد : « والمرقبة جبل كان فيه رقباء هذيل »[2] .

ونجد في شعر (تأبط شراً) أنه كان يغير على (أهل المواشي) و (أهل الركيب) والحبّ ، وعلى (أرباب المخاض) ، فعند هؤلاء ما يطمع فيه الفقير الصعلوك من مال وحب يعتاش عليه ، ومن نوق حوامل[3] . ونرى (الأعلم) الهذلي ، يذكر أنه يغزو المترف السمين ، الذي يعيش بين الستائر والكنيف ، بينما هو وأمثاله لا يملكون شيئاً ، فاذا هاجموه ، خاف وأنهدّ كيانه[4] . ولهذا صار الساكنون في الأرضين الخصبة والتجار والسابلة من خيرة الأهداف التي كان يترصدها الصعالكة ، لعلمهم بوجود شيء عند أصحابها ، أكثر مما يجدونه عند الأعراف الضاربين في البوادي النائية المكشوفة .

ويطمع الصعاليك أيضاً بعضهم في بعض ، فالحياة جوع وفقر ، والفقر كافر لا يعرف عرف (المهنة) ولا مجاملات الصنف ، ثم هم أبناء البادية ، ومن طبع البادية ، أن يغير أبناؤها بعضهم على بعض ، للحصول على لقمة العيش ، فكان الصعاليك تبعاً لهذه السنة يغير بعضهم على بعض، خاصة اذا كانوا صعاليك متعادية. فكان بين صعاليك هُذيل وصعاليك فَهم ، عداء شديد ، وحقد دفين ، بسبب العداوة بين الحيين[5] ، عداوة مرجعها تجاور الحيين ، واختلاف مصالحهما الحيوية، وطمع القبيلتين في (بجيلة) ، و (بجيلة) في جوار (الطائف) ، وهي غير

---

١ الشعراء الصعاليك (١٨٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢٧٦/١) ، (رقب) .

٣ فيوماً على أهل المواشي وتارة ... لاهل ركيب ذي ثميل وسنبل
ولكن أرباب المخاض يشفهم ... اذا اقتفروه واحداً أو مشيعا
الاغاني (٢١٧/١٨) ، حماسة أبي تمام (٢٨/٢) .

٤ الشعراء الصعاليك (٢٣٧) .

٥ شرح أشعار الهذليين (٢٣٣/١ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٤٨) .

بعيدة عن فهم ، ولا تبعد منازلها بعداً كبيراً أيضاً عن ديار هذيل[1] .

وكان بين (صخر الغي) الهذلي و (تأبط شراً) عداء شديد . وقد سمي (الهذلي) (تأبط شراً) بـ (ابن ترني) ازدراء به . ونجد في الشعر الوارد في هجاء الشاعرين بعضهما لبعض لوناً طريفاً من ألوان هذا الصراع الـذي كان يقع بين الصعاليك[2] ، وهو صراع أسبابه عديدة ، صراع متولد من عصبية قبلية ، أو من تنافس وتحاسد في الحرفة وعلى الرئاسة والزعامة والصيت والشهرة ، أو في طمع كل واحد منهم في الآخر للاستيلاء على ما حصل عليه من مال ليتعيش به.

وقد انتشر الصعاليك في كل موضع من جزيرة العرب ، ففي كل مكان منها جوع وفقر وصعلكة ، حتى صاروا قوة مرعبة مخوفة ، لشدة بأسهم في القتال ، ولمعرفتهم بالمسالك وبمنافذ الطرق وبمداخلها وبأسرار البوادي وخفايا النجاد والجبال، فكانوا أن اتخذوا من الكهوف والمنحدرات والمسترات المشرفة على الأودية والطرق، مواضع رصد واختفـاء ، يراقبون منها حركات المارة ، فإذا وجدوهم دخلوا موضعاً صعباً ، يمكـن حصرهم به ، انقضوا عليهم ، فأخذوا منهم ما يكون عندهم من متاع هذه الدنيا ، ثم هربوا بما غنموا الى مخابئهم حيث لا يصل اليهم أحد ، وإن وجدوا أن السابلة أقوى منهم وأشد بأساً ، اتخذوا من الفرار وسيلة للسلامة والنجاة ، فلا يلحقهم متعقب ، ولا يطمع أحـد في إصابتهم بمكروه ، وهم على علم واسع وخبرة عالية بمجاهل البوادي وبخبايا الأرض ، وهكذا يكونون في نأي عن التعقيب وفي منجاة من التعقب . ولما سدت السبـل في وجه (النعمان ابن المنذر) بعد أن غضب كسرى عليه ، وأخذ يتنقل من مكـان الى مكان ، لجأ الى (هانيء بن قبيصة) الشيباني ، فأجاره « وقال : لزمني ذمامك ، وإني مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وان ذلك مهلكي ومهلكك ، وعندي رأي لست أشير به لأدفعك عما تريده من مجاورتي ، ولكنه الصواب ، فقال هاتـه ، قال : إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه ، إلا أن يكون بعد الملك سوقة . والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقي سوقـة بعد الملك . امض الى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالاً والق نفسك بـين يديه ،

---

١ شرح أشعار الهذليين (١/٢٣٣ وما بعدها) .
٢ الشعراء الصعاليك (١٩٢) .

فإما أن يصفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، واما أن يصيبك ، فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها »[1] ، وفي نصيحة هانىء، للنعمان، واشارته فيها الى (صعاليك العرب) دلالة على انتشارهم في كل مكان . وأنهم صاروا خطراً على الأمن ، يحسب له كل حساب .

ولما خلع (امرؤ القيس) ، وصار ضلّيلاً خليعاً ، « جمع جموعاً من حمير غيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »[2] ، وأخذ يغير بهم على أحياء العرب ، ما كان (امرؤ القيس) ليجمع جمعهم ويحزبهم حزبه لو لم تكن في نفسه حاجة لهم ، فقد كانوا قوة ، وقد صاروا رعباً يخيف الناس ، كالذي كان في جبل (تهامة) من تكتل خليط من كنانة ومزينة والحكم والقارة والسودان ، من تكتلهم ولمهم وأخذهم من كان يمر بالغارة والنهب والسلب ، بقوا على ذلك أمداً ثائرين على مجتمعهم ، حتى ظهر الاسلام ، فكاتبهم الرسول ، وأمنهم انهم ان آمنوا وأقاموا الصلاة ، وصدقوا ، « فعبدهم حر ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان »[3] . فهم قوم متمردون ثائرون لا يعطون أحداً طاعة ، إلا طاعة أنفسهم والمترئس فيهم . ولعل هذا هو الذي حدا بأهل النسب والأخبار أن يقولوا : « والخلعاء: بطن من بني عامر بن صعصعة ... كانوا لا يعطون أحداً طاعة »[4] .

وهكذا وضع (الصعاليك) أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم لتحقيق أهدافه التي يريدها ، مقابل ترضيتهم وإعاشتهم ، كما يفعل الجنود المرتزقة هذا اليوم من خدمة الدول الأجنبية ، بانضمامهم الى الفرق الأجنبية ، كما هو الحال في (فرنسا) مثلاً لاستخدامهم في القتال .

وقد جعلت حياة التشرد والغارات والهروب والفرار الى مواضع بعيدة نائية وفي مجاهل البرادي ، الصعاليك من أعلم الناس بدروب جزيرة العرب ، وبالمواضع

---

١ الاغاني (٢/١٢٦) ، الخزانة (١/١٨٥ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٣/٥٣٢) ، (جمع جمعا من بني بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب) ، معاهد التنصيص (١/٥) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) ، (صادر) .
٤ تاج العروس (٥/٣٢١) .

الصعبة منها بصورة خاصة . وقد وصف (السليك) ، (البعيد الغارة) بأنه « أدل من قطاة » ، ونعت الصعاليك جميعاً بأنهم « أهدى من القطا »[1] ، وافتخر الصعالكة أنفسهم بأنهم كانوا يعرفون عن خفايا البوادي والجبال ما لا يعرفه أحد غيرهم ، وبذلك كانوا ينجون أنفسهم من تعقب المتعقبين لهم[2] .

ونجد لشذاذ العرب ، ذكراً في أخبار الغزو وفي أخبار الأخذ بالثأر ، وفي أخبار من كان يريد الانتقام من أعدائه ، فلما غزا (زيد الخيل) الطائي (بني عامر) ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس ، « جمع طيئاً وأخلاطاً لهم ، وجموعاً من شذاذ العرب »[3] ولما غزا (زهير بن جناب) الكلبي ، بكراً وتغلب أخذ « من تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » وغيرهم فغزا بهم[4] . وقد كان هؤلاء (الشذاذ) على إستعداد لوضع أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم في مقابل أجر ، أو يتكفل بإعاشتهم وإرزاقهم ، أو من يرزقهم غنيمة من غارة يساهمون فيها ، فلما أراد (أبو جندب) الهذلي ، الأخذ بثأر جارين له قتلهما (بنو لحيان) ، قدم مكة ، فأخذ جماعة من خلعاء بكر وخزاعة ، وخرج بهم على بني لحيان ، وكان قد « قدم مكة ، فواعد كل خليع وفاتك في الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا ، فيصيب بهم قومه » ، ليثأر لأخيه[5] .

وكانت مكة على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار ، مكاناً أوى اليه ذؤبان العرب وخلعاؤهم وصعاليكهم ، حتى كثر عددهم بها ، لما وجدوه فيها من حماية ومعونة ، وكان أحدهم اذا جاءها ، نادى قريشاً نداء النخوة لتؤويه وتجيره ، فيقوم أشرافها بحمايته وتقديم الجوار له . ومن هنا نجد الفتاك وأهل الغي والضلال يجوسون خلالها في أمن وسلام ، لحرمة المدينة ولحرمة حقوق الجوار ، ولعل المصالح الاقتصادية التي كانت تجنيها قريش من هذا الإيواء ، كانت السبب الأول في جعل سراتها يقدمون العون والجوار لأولئك الذؤبان الفتاك الذين كانوا لا يتورعون من الإقدام على أي عمل مهما كان شأنه خطيراً ، حتى إن كان فيه هلاكهم ،

١ الاغاني (١٣٤/١٨) ، المرزباني (٤٦٨) ، الشعراء الصعاليك (٥٤) .
٢ الاصمعيات (٣٥/١) .
٣ الاغاني (٥٢/١٦) .
٤ الاغاني (٩٦/٢١) .
٥ الاغاني (٦٢/٢١ وما بعدها) ، شرح أشعار الهذليين (٨٣/١ وما بعدها) .

أو جاء بالأذى على من أحسن اليهم وأجارهم ، فهم قوم أصابهم طيش وركبهم التمرد والحقد على المجتمع ، فهم لا يبالون بارتكاب أية موبقة ولو وقعت منهم في الحرم ، فقد كان في وسع تجار قريش تأمين تجارتهم بالإحسان الى هؤلاء الذين كان في استطاعتهم مهاجمة القوافل ونهب ما معها من أموال ، كما كان بامكانهم استخدامهم حراساً يخرجون مع قوافلهم لحراستها من بقية الصعاليك الى وصولها الى الأماكن التي تريدها ، كما كان في استطاعتهم الاستفادة من الفتاك في الفتك بمن يناصبهم العداء ، وفي القضاء على كل من يريد التحرش بقرشي أو بأموال قريش أو حلفائهم . وبذلك تمكنوا من حماية تجارتهم من الصعاليك ومن الأعراب الذين قد تمر تجارة قريش بهم ، وإن كانت قريش قد أمنت جانبهم أيضاً بعقد حبالها مع سادات القبائل بإيلاف عرف بـ (إيلاف قريش) في القرآن الكريم .

وكان (البراض) ، وهو (رافع بن قيس) وهو من الفتاك ، قد لجأ الى مكة ، فحالف (بني سهم) من قريش ، فعدا على رجل من هذيل فقتله ، فخلعه (العاص بن وائل) فأتى (حرب بن أمية) فحالفه ، فعدا على رجل من خزاعة فقتله وهرب الى اليمن ، فخلعه (حرب) ، فلما ضاقت به السبل ذهب الى الحيرة ، وطلب من النعمان أن يجير له (لطيمته) ، فقال له (الرحال ابن عروة) : « أنت تجيرها على أهل الشيح والقيصوم ؟ وإنما أنت كلب خليع ! » فأعطاها (النعمان) الى (عروة) ، فخرج (البراض) في أثره ، فلما انتهى الى (أوارة) قتله وانتهب اللطيمة ، فكان بسببه حرب الفجار بين كنانة وقيس[1].

وبين الصعاليك قوم من (الغربان) (غربان العرب) ، وأغربة العرب سودانهم . شبهوا بالأغربة في لونهم ، وكلهم سرى اليهم السواد من أمهاتهم[2] . تصعلكوا لازدراء قومهم لهم ، ولانتقاص أهلهم لشأنهم ، وعدم اعتراف آبائهم ببنوتهم لهم ، لأنهم أبناء إماء . أو لفقرهم ، وظلم المجتمع لهم ، وعدهم طبقة مملوكة ، هم والحيوان المملوك سواء بسواء . ليس لأحدهم جسمه ، ولا أهله ولا نسله ، وكل ما يملكه أو ما يحصل عليه يكون ملك سيده ، ومن خالف أمره منهم ، جاز لسيده قتله ، ولسيده حق الاستمتاع بمملوكته وبجواره من غير

---

١ المحبر (١٩٥ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٤٠٩/١) ، (غرب) .

قيد ولا شرط . وهذا ما جعل بعض الرقيق يهرب من سيّده ، فراراً من ظلمه، لينضم الى الصعاليك،أو ليكون عصابة تلجأ الى الجبال والكهوف ، تهاجم المارة ، والأحياء ، لتحصل علي ما تتعيش به . ولما ظهر أمر الرسول ، كتب لجماع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارة،وهم خليط من كنانة ومزينة والحكم والقارة، ومن فرّ من سادته من العبيد ، كتاباً ، فيه أنهم « إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حرّ ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها ، وما كان فيهم من دمٍ أصابوه أو مالٍ أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس ردّ اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان »[1] .

وأغربة العرب ، أو أغربة الصعاليك بتعبير أصدق ، كثيرون ، فقد كانت عادة اتصال العرب بالزنجيات منتشرة في الجاهلية ، وقد أولدت طبقة من الهجناء امتازت بسرعة العدو وبالشجاعة ، وبتحمل المشقات ، وكلها من مولدات الظروف. ولكن أشهر أغربة الصعاليك : السليك بن السلكة ، وتأبط شراً . وقد جعل (ابن قتيبة) أغربة العرب ثلاثة : عنترة ، وخفاف بن عمير الشريدي ، والسليك بن عمير السعدي[2] ، ولكن عددهم أكثر من ذلك بكثير ، يدخل فيهم الصعاليك وغيرهم .

أما الباقون ، فهم من شذاذ العرب ، ومن الخلعاء المطرودين المنبوذين، الذين طردوا من أهلهم أو من عشيرتهم وقبيلتهم ، وحرموا من (العصبية) ، فلا أحد يسأل عنهم ، ولا أحد يُسأل عن جرائرهم وأعمالهم ، فدمهم هدر ، ومسؤوليتهم على عاتقهم وحدهم . وهم من عشائر مختلفة ، فلا ينتسبون الى نسب واحد ، ونسبهم الوحيد الذي يربط بينهم ، هو الصعلكة ، والتمرد على المجتمع والتشرد في البوادي والهضاب والجبال ، ولهذا نجد الصعاليك من مختلف قبائل وعشائر جزيرة العرب ، قد يتكتلون في مجموعات تضم صعاليك قبيلة واحدة ، وقد يتكتلون في جماعات تتكون من صعاليك قبائل مختلفة . وتكون الألفة بين صعاليك القبيلة الواحدة أشد وأقوى من الألفة التي تكون بين صعاليك القبائل المختلفة ، لما يكون

---

1 ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) ، « ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام وما كتب به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لناس من العرب وغيرهم » .

2 الشعر والشعراء (١٧٢/١) ، (دار الثقافة) ، (عنترة) ، الاغاني (٢٤٠/٨) .

للنسب والدم من أثر في نفوسهم ، وإن كفروا بعرف القبيلة وخرجوا على طاعتها. ونجد في شعر شعرائهم إشادة بأخوة (الصنف) و (الحرفة) تحل محل اخوة العشيرة والقبيلة ، اذا مات أحدهم أو قتل ، حزنوا عليه ، وإن مرض عالجوه، وان جاع قدموا له ما عندهم من طعام[1] .

وقد يستجير الخليع بمجير ، فيقبل جواره ، الى حين أو بغير أجل محدد ، أو على شروط ، ففي حديث خروج (امرىء القيس) مطالباً بدم أبيه ، أنه لجأ الى (عامر بن جوين) أحد الخلعاء الفتاك ، وعامر يومئذ خليع ، تبرأ قومه من جرائره وتنصل أهله منه[2] ، وفي حديث (البراض بن قيس) الكناني وكان خليعاً فاتكاً سكيراً ، لا ينزل بقوم ، إلا عمل منكراً فيهم — ، أنه لجأ الى بني (الديل) ، فشرب وجرّ جريرة ، استوجبت خلعه فخلعوه ، فأتى مكة ، فنزل على حرب بن أمية ، فحالفه وأحسن جواره ، ثم شرب بمكة وأساء على عادته ، حتى همّ حرب أن يخلعه[3] ، وفي حديث (أبي الطمحان) القيني، وكان خليعاً فاسقاً ، متهتكاً ، لا يعرف خلقاً ولا أدباً ، أنه نزل بمكة في جوار (الزبير بن عبد المطلب) ، « وكان ينزل عليه الخلعاء »[4] ، ونزل (مطرود ابن كعب) الخزاعي ، في جوار (عبد المطلب) ، فحماه وأحسن اليه ، وكان قد لجأ اليه لجناية كانت منه[5] ، ووجد (قيس بن الحدادية) من يؤويه ، مع أنه كان صعلوكاً خليعاً ، عجز هو وأهله عن دفع دية قتيل قتلوه، فخلعته قبيلته خزاعة ، فنزل عند بطن من خزاعة ، يقال لهم : (عدي بن عمرو بن خالد)، فأحسنوا اليه ، كما نزل في بجيلة على (أسد بن كرز) فأحسن اليه والى قومه[6].

ولا ينسى بعض الصعاليك ذكر من أحسن اليهم فأكرمهم ورعاهم وحماهم . هذا (أبو الطمحان) القيني ، يثني على من آووه وساعدوه حتى صيروه واحداً

---

١ الشعراء الصعاليك (٢٠٣ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٩/٩٥) ، الخزانة (١/٢٤) .
٣ الاغاني (١٩/٧٥) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٠٤) ، الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغاني (١١/١٢٥) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٨٢) .
٦ الاغاني (١٣/٢ وما بعدها) .

منهم ، لا تتحرش به كلابهم ، لأنها عرفت ثيابه ، وتأكدت انه واحد منهم، فلا تهر عليه[1] . وهذا (حاجز) الأزدي ، يفخر بانتسابه الى (بني مخزوم) من قريش ، وهم قوم لا يخذلون أحداً اذا استنصر بهم ، وجعل حلفه فيهم ، اذا أصاب حليفهم مكروه ، هرعوا اليه لنجدته ، فهم أهل النجدة والكرم[2] . وهذا (قيس بن الحدادية) يثني على (آل عمرو بن خالد) أحسن ثناء ، ويدعو الله أن يجزيهم خيراً لما فعلوا من حميد الفعال لصعلوك خليع[3] .

والصعاليك كثيرون ، وقد خلدت أسماء جماعة منهم في كتب الأدب والأخبار ، أشهرهم وأبرزهم : (عروة بن الورد) ، و (الشنفرى) ، و (تأبط شراً) ، و (السليك بن السلكة) ، وآخرون .

وللصعاليك بعد قصص في الكتب ، وقد بولغ في قصصهم لتؤثر في المسامع ، ولتكون لذة للسامعين ومتعة يستمتعون بها أوائل الليل في أوقات سمرهم ، وقد رصعت بشعر ، على عادة العرب في رواية الأخبار . وفي بعض هذا القصص والشعر أثر الوضع المتعمد ، الذي صنع ليمثل الحالة الاجتماعية في ذلك الوقت ، حيث كان الأغنياء متخمين بالمال ، بينما جيرانهم يموتون جوعاً ، فكأن هذا القصص قد وضع ليتحدث عن ذلك الوضع . وقد عرف هذا القصص عند الغربيين كذلك ، حيث كان الغنى وكان الفقر ، فظهر الصعاليك ، وظهر قصصهم وبولغ فيه ، وما (روبن هود) الانكليزي الذي آثر التصعلك وغزو الأغنياء ، لإنفاق ما يحصل عليه على الفقراء لإعاشتهم ، إلا صورة من صور غارة (عروة بن الورد) وأمثاله من الصعاليك ، وقد دونت أخبارهم في قصص ، وصيغ بعض منها على صورة أشرطة (سينمائية) عرضت ولا تزال تعرض في دور (السينما) وفي (التلفزيون) ، لما فيها من بطولة ومروءة ومساعدة ضعفاء واستهتار في الحياة .

---

١ وقد عرفت كلابهم ثيابي كأني منهم ونسيت أهلي
الحيوان (١/٣٨٠) ، الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .

٢ قومي سلامان اذ ما كنت سائلة وفي قريش كريم الحلف والنسب
اني متى أدع مخزوما ترى عنقا لا يرعشون لضرب القوم من كثب
الاغاني (١٢/٤٩) .

٣ الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .

وأما (عروة بن الورد) ، فهو من (عبس) وكان شاعراً فارساً وصعلوكاً مقدمــاً ، عرف بـ (عروة الصعاليك) « لأنـه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه »[1] . وهو شاعر بدوي قح ، وكان أبوه ممن كان لــه ذكر في حرب داحس والغبراء ، وقد مدحه (عنترة) ، وكانت أمه من (نهد) ، ولم تكن من أهل البيوتات . وكان لشعره أثر في قومه : حتى كانوا يرون أنه أشعر الشعراء[2] .

وذكر أنه إنما لقب بعروة الصعاليك لقوله :

لحى اللهُ صعلوكاً إذا جن ليله مُصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعدُّ الغنى من دهره كل ليلــة أصاب قراهـا من صديق ميسر
ينــام عشاءً ثم يصبح قاعداً يحت الحصى عن جنبـه المتعفر
ولله صعلوك صفيحة وجهــه كضوء شهــاب القابس المتنور
مطلٌ عــلى أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر[3]

ويظهر من شعر لعروة ، انه كان نحيلاً ، شاحب الوجـه هزيلاً ، فكانوا يعيرونه بذلك ، وكان يجيبهم بقوله :

إني امرؤٌ عافى اناثي شركة وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني ان سمنتَ وان ترى بجسمي شحوبَ الحق،والحقجاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرةٍ وأحسوا قراحَ الماء ، والماء بارد[4]

فهو نحيف نحيل شاحب الوجه ، لأنه يشرك الآخرين معه في أكله وشربه ،

---

١ تابع العروس (٧/١٥٣) ، (صعلك) ٠

٢ الاغاني (٢/١٨٤ وما بعدها) « دار الكتب » ، الخزانة (٤/١٩٤) بروكلمن ، (١/١٠٩ وما بعدها) ٠

٣ الشعر والشعراء (٢/٥٦٦) ، (الثقافة) ، من قصيدة مطلعها :
اقل علي اللوم يا بنت منــــذر ونامي ، وان لم تشتهي النوم ، فاسهري
ديوان عروة بن الورد (٦٦ وما بعدها) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) ، (وزارة الثقافة والارشاد ٠ الجمهورية العربية السورية) ، الاغاني (١٦/٩٧ وما بعدها)٠

٤ ديوان عروة (٢) ، الاغاني (٣/٧٢ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القران (٢٥٧) ٠

أما المازىء به ، فهو أناني ، لا يشرك أحداً معه في أكله ، واناثه واحد ، لا يأكل به أحد غيره ، ولذلك سمن وثخن من التخمة ، أما هو ، وهو الوهاب فكان يقتر على نفسه ، ويجوع ، ليأكل غيره أكله ، فأصابه من ثم هذا الهزال. فهو انسان ، يقسم ما عنده وما يأتيه على نفسه وعلى غيره ، وقد يقدم غيره على نفسه . ومن هنا « كان يقال : من قال إن حاتماً أسمح العرب ، فقد ظلم عروة ابن الورد »[1] .

ويذكرون أنه أصاب في بعض غاراته امرأة من كنانة ، فاتخذها لنفسه، فأولدها، فلقيه قومها ، وقالوا : فادنا بصاحبتنا ، فإنا نكره أن تكون سبية عندك . قال: على شريطة ، قالوا : وما هي ؟ قال : على أن نخيرها بعد الفداء ، فإن اختارت أهلها أقامت فيهم ، وإن اختارتني خرجت بها . وكان يرى أنها لا تختار عليه، فأجابوه الى ذلك ، وفادوا بها ، فلما خيّروها اختارت قومها ، وتركته فنظم في ذلك شعراً[2] .

وذكر أن (معاوية) تذكر (عروة بن الورد) ، فقال : « لو كان لعروة ابن الورد ولدٌ لأحببت أن أتزوج منهم » . وان (عبد الملك بن مروان) تذكره يوماً ، فقال : « ما يسرّني أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الوردِ لقوله :

واني امرؤ ، عافى إنائي شركةٌ   وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحدُ[3]

وهو بيت يمثل خلق هذا الشاعر ومروؤته التي أبت عليه إلا أن يشرك غيره من الضعفاء والمحتاجين فيما يحصل عليه وينال من المتمكنين بالإكراه والقوة . إناؤه مليء لبناً ، حتى يفيض ويكثر ، فإن طرقه إنسان وجد اللبن أمامه ، يشرب منه وهو شريكه فيه ، شريكه في كل شيء عنده قلّ أو كثر ، وهو يفتخر بذلك ويتبجح بإشراكه غيره إنائه على من حرص على ماله ، وبخل بما عنده ، مثل (قيس بن زهير) ، الذي استأثر بما عنده ، فلم يعطِ لمحتاج شيئاً منه . فصار

---

١ الروض الانف (٢/١٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٦٧) .
٣ ديوان عروة (٢) ، الاغاني (٣/٧٢ وما بعدها) .

يسمن وغيره يجوع ، على حين كان (عروة) يختار الجوع ، ليأكل الجياع، لتعود اليهم القوة والحياة ، ولا يبالي هو بنفسه إن جاع ، وفي ذلك يقول :

إني امرؤ عافى إنائي شركةٌ   وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني إن سمنت وأن ترى   بوجهي شحوبَ الحق،والحقجاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرةٍ   وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

وكان قد قال هذه الأبيات رداً على أبيات (قيس بن زهير) التي خاطب بها (عروة) بقوله :

أذنب علينا شتم عروةَ خالهِ   بغـرة أحساء ويوماً بيدبـد
رأيتك ألافاً بيـوتَ معاشر   تزال يد في فضل قعب ومرفد[1]

وللأخفش حديث عن مروءة (عروة) وعن انسانيته فيقول : « عن ثعلب عن ابن الأعرابي ، قال : حدثني أبو فقعس ، قال : كان عروة اذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ؛ وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس ، من عشيرته في الشدة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قويَ منهم ، إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً ، حتى اذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، وربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمي : عروة الصعاليك »[2] .

ومن هنا عدَّ من أصحاب الكرم والسماحة والسخاء . حتى قيل إن عبد الملك قال : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس ، فقد ظلم عروة بن الورد »[3] . وقيل إنه بلغه عن رجل من بني (كنانة بن خزيمة) ، أنه من أبخل الناس وأكثرهم مالاً ، فبعث عليه عيوناً ، فأتوه بخبره فشدَّ على إبله فاستاقها ثم قسمها في

---

١ ديوان عروة (٥١ وما بعدها) .
٢ ديوانه (٨ وما بعدها) ، الاغاني (٧٨/٣ وما بعدها) ، التبريزي ، شرح حماسة أبي تمام (٩/٢) ، جمهرة أشعار العرب (١١٤ وما بعدها) .
٣ ديوان عروة (٣) ، الاغاني (٧٤/٣) .

قومه . فقال عند ذلك :

ما بالثراء يسود كل مسوّدٍ مثرٍ ، ولكن بالفعال يسودُ
بل لا أكاثر صاحبي في يُسره وأصد إذ في عيشه تصريد
فإذا غنيتُ ، فإن جاري نيله من نائلي ، وميسّري معهود
وإذا افتقرت ، فلن أرى متخشعاً لأخي غنى ، معروفه مكدود[1]

فالسيد بفعاله ، وأعماله لا بالمال . وهو يقول في شعر له ، ان فراشه فراش الضيف ، وأن بيته بيت للضيوف ، يجالس الضيف ويحادثه ، فالحديث جزء من القرى :

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه ، إن الحديثَ من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

وفي خبر آخر ، ان سنين شديدة أصابت الناس ، فأهلكتهم ، وترك الناس الغزو لجدوبة الأرض ، وكان عروة في تلك السنين غائباً ، فرجع مخفقاً ، قد ذهبت إبله وخيله ، وجاء (الكنيف) ، أي الحظيرة والمأوى ، فوجد أصحابه وقد سقطوا من الإعياء والشدة ، فندب منهم رهطاً ، فنحر لهم بعيراً ، وحملوا سلاحهم على بعير آخر ، وقدّد لهم بعيراً ، فوزعه بينهم . وخرج بهم غازياً يلتمس الرزق . وهو يقول لهم : ان أصبنا رغبة فذلك الذي نريد ، وإن رجعنا خائبين ، كنا معذورين . قد أدينا ما علينا ، ولن نقعد عن الطلب . فهو يحثهم على الرزق والطلب ، دون تفكير في نجاح أو فشل ، فالحياة : نجاح وفشل ، ومن فشل ، عليه المواظبة حتى ينجح ويستعيد قواه ، وذلك قوله :

قلت لقومٍ في الكنيف : تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح[2]

الى آخر الأبيات .

وهو يصف في أبيات حالة الفقير وما يلقى من ظلم ، وحالة الغني وما يلقاه

---

١ ديوان عروة (٤٨) ، شرح ديوان عروة (١٨١) .
٢ ديوانه (٢٠ ، ٣٩ وما بعدها) .

من إجلال . فيقول :

دعيني للغنى أسعى فإني   رأيت الناسَ شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم   وإن أمسى له حسبٌ وخير
ويقصيه النديُّ وتزدريه   حليلته وينهره الصغير
ويلفى ذو الغنى وله جلال   يكاد فؤاد صاحبه يطير[1]

وله شعر يحث فيه الناس على السير في البلاد ، التماساً للرزق ، لأن من لم يطلب معاشاً لنفسه ، وقعد في داره دون أن يعمل شكا الفقر ، وصار كلاًّ على غيره ، حتى على ذوي قرباه ، فيقول :

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه   شكا الفقر ، أو لام الصديق فأكثرا
وصار على الأدنين كلاًّ ، وأوشكت   صلات القربى له أن تنكّرا
وما طالب الحاجات ، من كل جهةٍ   من الناسِ إلا من أجدّ وشمّرا
فسر في بلاد الله ، والتمس الغنىٰ   تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا[2]

ومن شعره في المال والورثة قوله :

متى ما يجيء يوماً الى المال وارثي   يجدجمعَ كف غير ملأى ولا صفر
يجد فرساً مثل القناة وصارماً   حُساماً إذا ما هزّ لم يرض بالهبر[3]

ويقول في شعر آخر :

أليس ورائي ان أدبّ على العصا   فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قعر البيتِ كل عَشيّةٍ   يطيف بي الولدان أهوج كالرأل

يعني : أليس ورائي إن سالمت الناس ، وتركت مخاطر التصعلك ، أن يلحقني الكبر فأهون ويضجر مني أهلي[4] . فهو يعتذر بذلك عن التصعلك واتخاذه الصعلكة حرفة له .

---

١ ديوانه (٩١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٤/١) ، وقد روي برواية تختلف عن رواية الديوان .
٢ ديوانه (٨٩) .
٣ كتاب العصا (٢٠٦) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الثانية) .
٤ الحيوان (٣٥٦/٤) .

وقد زعم ان (عبدالله بن جعفر بن أبي طالب) ، « قال لمعلم ولده : لا ترُوّهم قصيدة عروة التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهمُ الفقير

ويقول : هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم »[1] .

وهو يرى ان الموت خير للفتى من حياته فقيراً . وان الأقارب اذا ضنوا عليه ولم يساعدوه ، فعليه بالرحيل عنهم ، والتماس الفجاج ، فإنها عريضة ، اذا ضاقت عليه السبل . وهو لا يترك اخوانه أبداً ما عاش ، كما ان الانسان لا يتمكن من ترك شرب الماء :

إذا المرء لم يبعث سَوَاماً ولم يرح عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ، ومن مولى تدب عقاربه
وسائلةٍ : أين الرحيل ؟ وسائلٍ ومن يسأل الصعلوك : أين مذاهبه
مذاهبه أن الفجـــاج عريضةٌ إذا ضنّ عنه ، بالفعالِ ، أقاربه
فلا أترك الإخوان ما عشتُ للردى كما أنه لا يترك الماءَ شاربه[2]

وهو يحث على المخاطرة بالنفس ، فإن القعود مع العيال قبيح ، حثّ عليها في أبيات نسبت اليه ، وقيل انها ليست له ، بل هي للنمر بن تولب ، هذا نصها :

قالت تماضر ، إذ رأت مـــالي خوى وجفا الأقارب ، فالفؤادُ قريح
مـــالي رأيتك في النديّ منكّساً وصبا ، كأنك في النديّ نطيح
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ان القعود مع العيال قبيح
المال فيـــه مهابةٌ وتجلـــةٌ والفقر فيـــه مذلة وفضوح[3]

والصعلوك الخامل ، القعود الذي يعين نساء الحي ، ولا يستعمل سيفه للحصول على رزقه ، هو خليق أن يكون ممن يهان ويزدرى ، والصعلوك العامل النشط ،

---

١ ديوانه (٣) .
٢ ديوانه (٢٩) .
٣ ديوانه (٤٣) .

هو الرجل الذي يستحق الحياة ، ويصلح أن يكون انموذجاً للرجال ، صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور ، مطلاً على أعدائه ، يهابونه ولا يستطيعون الاقتراب منه ، ان لقي منيته لقيها حميداً ، وان عاش واستغنى فنعمة كبرى ، ينفق منها على من يحتاج اليه من الناس[1] .

وتراه يقول في أبيات أخرى :

إذا آذاك مالك ، فامتهنه   لجاديه ، وإن قرع المراحُ
وإن أخنى عليك ، فلم تجده   فنبت الأرضِ والماء القراحُ
فرغم العيش إلفُ فناء قومٍ   وإن آسوك ، والموت الرواح[2]

ومعناها : لا تبخل بمالك ، ولا تحرص عليه ، أعطِ منه السائل والمحروم والمحتاج ، ولا تخش الفقر ، فإن أخنى عليك ، وقل مالك ، وتركك الأصحاب فلا تيأس ولا تخنع لأحد ، ولا تجزع ، ففي الأرض رزق لكل أحد ، ومتسع لكل نفس ، وإن كان ذلك نبات الأرض وماؤها ، ولا تهن نفسك ، وتذل كرامتك ، فتعيش على موائد غيرك ، من اللؤماء الحقراء ، فأكلك منهم ، هو الموت الرواح ، بل هو شر من الموت . فلا تقرب موائد أصحاب المنة ، وإن آسوك وساعدوك ، فمؤاساتهم كاذبة ، عن مظاهر ونفاق .

وفي أبيات شعر ، يذكر (عروة) (أصحاب الكنيف) والتواءهم عليه ، وكيف تمردوا عليه ، مع فضله عليهم ، وإشراكه لهم في كل ما كان يكسبه ويغنمه ، فيقول :

ألا إنّ أصحاب الكنيف وجدتهم   كما الناس لما أخصبوا وتموّلوا
وإني لمدفوعٌ إليّ ولاؤهم   بماوان إذ نمشي ، وإذ نتململ
وإذ ما يريح الحيّ هرماء جونةٌ   ينوس عليها رحلُها ما يحلل
موقعة الصفقين ، حدباء ، شارف   تقيد أحياناً ، لديهم وترحل
عليها من الولدانِ ما قد رأيتم   وتمشي بجنبيها أرامل عيل

---

١ ديوان عروة (٧٨ وما بعدها) .
٢ ديوانه (٤٢) .

وقلت لها يا أم بيضاء ، فتيةٌ طعامهمُ ، من القدور ، المعجل
مضيغ من النيب المسان ، ومُسخن من الماء نعلوه بآخر من عل
بديمومة ما إن تكاد ترى بها من الظمأ ، الكومَ الجلاد تنولُ
تنكر آياتُ البلاد لمالك وأيقنَ أن لا شيء فيها يقوّلُ [1]

وهي أبيات ، تعبر عن مرارة نفسه ، وعن ألمه مما لاقاه من أصحاب الكنيف ، مع افضاله عليهم ، وتقديمه لهم على نفسه ، وهو يواسي نفسه فيها ، فيقول انهم ناس ، ومن شأن الناس أنهم اذا اخصبوا وتموّلوا وتحسنت أحوالهم ، تنكروا لمن كان صاحب الفضل عليهم ، وتجاهلوا كل ما قام به من صنيع حسن نحوهم . أخرجتهم وأجسامهم هزال من شدة الجهد ، لا يقدرون على المشي من شدة الضعف والجوع ، وقمت بأمرهم ، حتى اذا قووا ، ودنوا من بلادهم وعشائرهم ، وأقبلت أقسم فيهم ما غنمته من إبل ، فأعطيتهم بالتساوي ، وأخذت لنفسي نصيب أحدهم ، تنكروا لي وصاروا كالأباعد ، ليس لهم شكر ، خاصموه وعارضوه. وكان من شأنهم : انه خرج مع صعاليكه يبحثون عن غنائم ، حتى نزل أرض (بني القين) ، فأقام مع أصحابه يوماً عند موضع ماء ، بانتظار مجيء الرعاة لاسقاء إبلهم ، ثم ورد عليهم فصيل ، فقالوا : دعنا فلنأخذه ، فلنأكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وان بعده إبلاً . فتركوه ثم ندموا على تركه ، وجعلوا يلومون عروة على الجوع الذي جهدهم . ثم وردت إبل بعده بخمس ، فيها ظعينة ورجل ، والإبل مائة ، فخرج (عروة) ورمى صاحبها في ظهره بسهم ، فخرّ ميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة [2] . وأتى بالإبل الكنيف فجعل يحلبها لهم ، ثم حملهم حتى اذا دنوا من بلادهم وعشائرهم ، أقبل يقسمها فيهم ، وأخذ مثل نصيب أحدهم ، واستخلص المرأة لنفسه ، فقالوا : لا والله لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً فمن شاء أخذها من سهمه ، فجعل عروة يهم أن يحمل عليهم فيقتلهم وينزع ما معهم ، ثم يتذكر صنيعه بهم ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان صنع ، ففكر طويلاً ثم أجابهم الى أن يردّ عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها امرأته ، فأبوا إلا أن يجعلوا الراحلة لهم ،

---

١ ديوانه (١١٩ وما بعدها) .
٢ ديوانه (١١٣ وما بعدها) .

فانتدب رجل منهم فجعل الراحلة من نصيبه وأفقرها عروة، أي منحها إياه منيحة اذا استغنى عنها ردّها ؛ فقال عروة يذكر أصحاب الكنيف والتواءهم عليه تلك الأبيات المتقدمة[1] .

فهو في الأبيات المتقدمة يذكر أن الإنسان ذليل كسير ما دام فقيراً ، يتقرب الى القوي ويتبصبص له ، ويتظاهر بحبه واخلاصه له ، فإذا نال حاجتـــه ، أو اغتنى تبطر على من كان محتاجاً اليه ، وتعاظم عليه ، ونال منه .

وقد عرف (عروة) بـ (أبي الصعاليك) ، قيل ان النـــاس كانوا اذا أصابتهم السنة أتوه ، فجلسوا أمام بيتـه حتى اذا بصروا بـــه صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، . فيخـــرج ليغزو بهم[2] . وقد كان يعـــدّ صعاليكه (عياله)[3] ، وكان يرعاهم ويحدب عليهم حدب الوالد على عياله ، ويخرج بالقوي منهم للغزو ، بحثاً عن غنيمة ينالها لإشباع أتباعه الجياع الصعاليك،بمال غني جمع غناه بالعقوق وبالبخل ، لأنه لا يرضى أن يرى اخواناً له يهلكون من الجوع ، ثم لا يجد ما يقدمه لهم لسد رمقهم[4] ، وهو يطوف لذلك في البلاد باحثـاً عن غني ينفق منه على المعوزين وذوي الحاجات . وشر الناس في هذه الدنيا الفقير ، يباعده القريب لفقره ، وتزدريه حليلته ، ولا يحترمه أحـــد ؛ بينا يعظم الغني ويحترم ، لا لسبب إلا لماله ولغناه ، ذنبه قليل في نظر الناس ، لأنه غني ، وللغني رب غفور :

ذريني للغنى أسعى ، فإني	رأيت الناس شرهم الفقيرُ
وأدناهم ، وأهونهم عليهم	وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب ، وتزدريه	حليلته ، ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى ، وله جلال	يكادُ فؤاد لاقيه يطـــير
قليل ذنبه ، والذنب جمٌ	ولكن للغني ربٌ غفورُ[5]

---

١ ديوانه (١١٨) ، الاغاني (٣/٧٩ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٣/٨١) .
٣ ديوان عروة (٩٩) ، حماسة أبي تمام (٢/٧) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٢) .
٤ أيهلك معتم وزيد ولم أقم ... على ندب يوما ولى نفس مخطر
ديوان عروة (٨٣) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٥) .
٥ العقد الفريد (٣/٢٩) ، عيون الاخبار (١/٢٤١ وما بعدها) ، البخلاء (١٨٣ ، ٣٩١) ، البيان والتبيين (١/٢٣٤) ، وتختلف نصوص هذه القصيدة باختلاف الموارد .

وفي قصيدته :

لحا الله صعلوكاً اذا جن ليله مصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعدّ الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاءً ثم يصبح طاوياً يحتّ الحصى عن جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه اذا هو أمسى كالعريش المجوّر
يُعين نساء الحيّ ما يستعِنّه فيمسي طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مُطِلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المُشهر
فإن بَعُدوا لا يأمنون اقترابه تشوّف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنيّة يلقها حميداً وان يستغن يوماً فأجدر[1]

«معان سامية ، تعبر عن نفسية انسانية ، وعن عطف على الفقير والمحتاج والنساء « وصف فيها فضيلة الفقير الحر الباسل وذم اللئي يستأجر شغله »[2] .

وفي شعر (عروة) اشارة الى الموت ، فهو يرى ان الحياة أجل ، وان الانسان غير خالد في هذه الدنيا ، حياته قصيرة ، ثم يكون أحاديث للناس . اذا جاء أجله خرجت منه هامة تعلو كل نشز :

أحاديث تبقى، والفتى غيرُ خالدِ اذا هو أمسى هامة فوق صيّرِ
تجاوب أحجار الكناسِ ، وتشتكيّ الى كل معروف رأته ، ومنكرِ

ثم تجاوب هذه الهامة أحجار الكناس،وتشتكي الى كل معروف تراه ومنكر . أي تصوت في كل حالٍ اذا رأت من تعرف ومن تنكر[3] .

والموت ملازم للانسان ، وهو ثغر كل ثنيّة ، ولا مفر منه :

وأن المنايا ثغر كل ثنيّة فهل ذاك، عما يبتغي القوم محصر
وغبراء يخشى رداها مخوفةٍ أخوها ، بأسباب المنايا مغرر[4]

---

١ الخزانة (٤/١٩٦) ، (بولاق) .
٢ كارلو نالينو (٧٩) .
٣ ديوانه (٦٦ وما بعدها) .
٤ ديوانه (٧٧) .

وقد نسبت له قصيدة مطلعها :

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه ... من الدهر أن يلقى لبوساً ومطعما
ينام الضحى حتى إذا الليل جنه ... تبيت مسلوب الفؤاد مورّما
ولكنّ صعلوكاً يساور همّه ... ويمضي على الهيجاء ليثاً مصمما
فذلك أن يلقى الكريهة يلقها ... حميداً وان يستغن يوماً فربما

وقد ذهب بعضهم الى أن هذه القصيدة لحاتم الطائي ، لأن قصيدة عروة رائية ، وليست هذه ، ولحاتم قصيدة على هذا الروي ، وليس فيها هذه الأبيات، وفيها ما يشبهها ، وهو :

وليل بهيم قد تسربلت هوله ... إذا الليل بالنكس الضعيف تجهما
ولن يكسب الصعلوك مالاً ولا غنى ... إذا هو لم يركب من الأمر معظما
يرى الخمص تعذيباً وان يلق شبعة ... يبت قلبه من قلة الهمّ مبهما
ولكن صعلوكاً يساور همه ... ويمضي على الأيام والدهر مقدما
يرى رمحه ونبله ومجنه ... وذا شطب بين المهذة مخذما
واحناء سرج قاتر ولجامه ... معداً لدى الهيجاء طرفاً مسوما
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه ... وان يحي لا يقعد ضعيفاً ملوّما[1]

وفي كتاب (ذيل الأمالي والنوادر) للقالي ، أبيات على هذا النمط غير معزوة لقائلها ، أوردها على أثر تحدثه عن (الشيظم بن الحارث الغساني) ، وكان قد قتل رجلاً من قومه ، فخافهم ، فلحق بالحيرة متنكراً ، وكان من أهل بيت الملك ، فكان يتكفف الناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة ، فبينا هو ذات يوم في تطوافه إذ سمع قائلاً يقول :

لحا الله صعلوكاً اذا نال مذْقة ... توسّد إحدى ساعديه فهوما
مقيماً بدار الهون غير مُناكرٍ ... اذا ضيم أغضى جفنه ثم برشما
يلوذ بأقراء المثاريب طامعاً ... يرى المنع والتعبيس من حيث يمما
يضن بنفسٍ كدر البؤس عيشها ... وجودٌ بها لو صانها كان أحزما

---

١ الخزانة (٤/١٩٤ وما بعدها) .

فذاك الذي إن عاش عاش بذلة وإن مات لم يشهد له الناس مأتما
بأرضك فاعرك جلد جنبك انني رأيت غريب القوم لحماً موضّما

فهي أبيات في المعاني المتقدمة ، لم يعرف اسم صاحبها[1] .

وهو يزجر امرأته سلمى لأنها تلومه على غاراته وغزواته ، لما تخشاه عليه من الوقوع في المهالك ، ومن ملاقاته حتفه . ويقول لها : إنه إنما يجازف ويخاطر في سبيلها ، حتى يغنيها فلا تذل بعده أو تستجدي أحداً ، ثم ان عليه حق الوفاء لأقاربه وللضعفاء ولإخوانه الصعاليك الذين يلوذون به ، فعليه مساعدتهم ، وهو لا يتمكن من تقديم المساعدات لهم ، إلا بهذه الغارات[2] .

وروي أن (عروة) كان يتردد على (بني النضير) فيستقرضهم إذا احتاج ويبيع منهم إذا غنم ، فرأوا عنده (سلمى) فأعجبتهم ، فسألوه أن يبيعها منهم فأبى ، فسقوه الخمر واحتالوا عليه حتى ابتاعوها منه وأشهدوا عليه ، وفي ذلك يقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

وروي أيضاً أن قومها افتدوها منه وكان يظن أنها لا تختار عليه أحداً ولا تفارقه ، فاختارت قومها فندم وكان له بنون منها ، ثم تزوجها بعده رجل من في النضير . وفيها يقول عروة :

أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق في تهامة مستطير

وهي قصيدة أشار فيها الى (سلمى) ، ومفارقتها له ، عند (بني النضير)، حيث يقول :

وآخر معهد من أم وهب معرسنا فويق بني النضير

وفي هذه القصيدة البيت المتقدم ، الذي يشير الى أنهم سقوه الخمر ، واحتالوا عليه ، حتى ابتاعوها منه[3] .

---

١ ذيل الامالي (١٧٩) ، الخزانة (٤/١٩٥) .
٢ الاصمعيات (٣٥) .
٣ الروض الانف (٢/١٨٠ وما بعدها) .

وقد أشار (عروة) في شعر ينسب اليه الى (التعشير) ، وهو أن ينهق الانسان عشر مرات اذا أراد دخول (خيبر) لكي لا تصيبه الحمى . فقال :

وقالوا: أحبُ وانهق، لا تضيرك خيبر   وذلك من دين اليهود وُلوع
لعمري، لئن عشرت، من خشية الردى   نهاقَ الحمير انني لجزوع[1]

وقد رفض عروة ذلك ، وسخر من هذه الخرافة .

قال (الجاحظ) : « وكانوا اذا دخل أحدهم قرية خاف من جنّ أهلها، ومن وباء الحاضرة ، أشد الخوف ، إلا أن يقف على باب القرية فيعشر كما يعشر الحمار في نهيقه ، ويعلق عليه كعب أرنب . ولذلك قال قائلهم :

ولا ينفع التعشير في جنب جرمة   ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب »

« وقد قال عروة بن الورد ، في التعشير ، حين دخل المدينة فقيل له : إن لم تعشر هلكت :

لعمري لئن عشرتُ من خيفة الردى   نهاقُ الحمير انني لجزوع »[2]

ولعروة شعر في يوم (ساحوق) ، وهو يوم لبني ذبيان على (بني عامر)، إذ يقول :

ونحن صبحنا عامراً في ديارها   عُلالة أرماح وعضباً مُذكَّرا
بكل رقيق الشفرتين مهنـد   ولَدْنٍ من الخَطي قد طُرَّ أسمرا
عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم   ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا
يشدّ الحليمُ منهم عَقْدَ حبله   ألا إنما يأتي الذي كان حُذّرا

أي انهم كانوا ذوي غدر بين ، لو أنهم جاهدوا في الحرب وقتلوا ، أما الآن فلا عذر لهم بين الرجال في خنقهم أنفسهم . وكان (الحكم بن الطفيل) وأصحابه قد خنقوا أنفسهم ، بشد الحبل حول العنق[3] ، وذلك تحت شجرة بالمروراة ،

---

١ ديوانه (٩٥) ، الحيوان (٦/٣٥٩) .
٢ الحيوان (٦/٣٥٩) .
٣ الحيوان (٢/٢٧٣) ، الخزانة (٤/٢١٨) ، العقد الفريد (٢/٣١٨) .

خشية الوقوع في الأسر . و (الحكم بن الطفيل) هو أخو (عامر بن الطفيل)، وقد عرف يوم (المروراة) بيوم (التخانق)[1] .

وقد عدّت قصيدته التي تبدأ بـ :

أقلي عليّ اللوم يا ابنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

من القصائد (المنتقيات)[2] .

وأما شعر (عروة) ، فقد عد أشعر شعر (بني عبس) في رأي أبناء قبيلته. روي ان (عمر بن الخطاب) « قال للحطيئة : كم كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألفَ حازمٍ . قال : وكيف ؟ قال : فينا قيس بن زهير ، وكان حازماً وكنا لا نعصيه ، وكنا نقدم باقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد ، وننقاد لأمر الربيع بن زياد »[3] .

ويرى (بروكلمن) ، انه كان بدوياً قحاً ، رويت له أشعار أكثر مما روي لتأبط شراً والشنفرى ، لكنه كان دونهما في تصوير حياة الجاهلية[4] .

ولعروة ديوان برواية (ابن السكيت) (٢٤٣ هـ) (٢٤٤ هـ) ، طبع جملة طبعات. وقد ترجم الى الألمانية والافرنسية[5] ، وقد جمع (الأصمعي) شعره في ديوان لم يصل الينا[6] .

وفي شعر عروة شعر مصنوع ، وضع عليه ، وفيه كما رأينا ما ليس له،وقد نسبه بعض العلماء الى غيره ، ونجد في شعره شعراً يمثل طبيعة مجتمع حضري غلبت عليه التفرقة الطبقية ، فيه غنى حضر ، وفقر أهل مدن ، يظهر أنه وضع على لسانه حكاية عن وضع الناس في ذلك الوقت ، خشيه ناظمه من تعرض الحكام

---

١ الخزانة (٤/٢١٦ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٢/١٩٠) ، الشعر والشعراء (٤٢٥) ، الجمهرة . (١١٤) ، زيدان ، تاريخ الادب العربي (١/١٦٤) .
٣ ديوان عروة (٣) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٩) .
٥ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٩) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٦٤) .
٦ الشعراء الصعاليك (١٥٨) .

أو الأغنياء له بسوء ، فيما لو نشره باسمه ، فآثر نظمه باسم (عروة) .

و (الشنفرى) ، وهو (ثابت بن أوس) الأزدي ، وقيل بل (الشنفرى) اسمه لا لقبه ، وقيل : بل هو : (عمرو بن مالك) الأزدي ، وقيل (عمرو ابن براق) ، وقيل غير ذلك ، من (بني الأواس بن الحجر بن الهنيء بن الأزد)[1] ، من اليمانية في عرف أهل النسب . وهو من الصعاليك ومن العدائين. وكان من المرافقين للشاعر (تأبط شراً) في كثير من غزواته . وكان أكبر منه سناً ، وتوفي قبله . وذكر أنه حلف يميناً أن يقتل من (بني سلامان) مائة رجل فقتل تسعة وتسعين ، فأمسك به رجل عدّاء ، هو (أسيد بن جابر) وهو عداء من العدائين وقتلـه . فمرّ به رجل من بني سلامان فركل جمجمته ، فدخلت شظية منها في رجله فمـات . فوفى الشنفرى بقسمه ، وأتم العدد وهو ميت[2] . ويلاحظ أن أهل الأخبار يزعمون أن (عمرو بن هند) كان قد حلف يميناً أن يقتل من (بني دارم) مائة رجل ، وأن يلقي بهم في النار ، فسار اليهم فقتل تسعة وتسعين وأحرقهم بالنار ، وبقي عليه أن يبر بقسمه بقتل واحد آخر منهم حتى يكمل العدد ، فمر رجل من البراجم شمّ رائحة حريق القتلى ، فحسبه قتار الشواء ، فمال اليه ، فلما رآه (عمرو) ، قال له : ممن أنت ؟ قال : رجل من البراجم ، فقال : ان الشقي وافد البراجم ، وأمر فقتل وألقي في النار . فبرت به يمينه[3] . وقد يكون للقصتين ولقصص آخر من هذا النوع علاقة بطقوس أو بأساطير جاهلية قديمة ، تجعل الأبطال ، ينذرون نذوراً تختلف عـن نذور سائر الناس ، هي قتـل مائة نفس قربى الى الآلهة ، بدلاً من تقديم الضحايا من الحيوانات .

وكان (الشنفرى) يحقد على (بني سلامان) حقداً شديداً ، وسبب حقده عليهم ، انه كان قد وقع أسيراً وهو صبي في (بني شبابة بن فهم) ، فانتمى

---

1 الخزانة (٢/١٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣/٢٢٤) ، المفضليات (١/١٠٦ وما بعدها) ، مجالس ثعلب (٤٢٦) ، الحيوان (٣/١٠٨) ، (٦/٢٤٤) ، أمالي القالي (١/١٥٧) ، رسالة الغفران (٣٥١ وما بعدها) .

2 الشعر والشعراء (١/٢٥ وما بعدها) ، تاج العـروس (٣/٣٠٨ ، ٣١٨) ، (شنفر) ، (الشنيفرة) ، الاغاني (٢١/٨٧) ، الخزانة (٢/١٤) « بولاق » ، ذيل الامالي (٢٠٨ وما بعدها) ، زيدان ، تاريخ آداب (١/١٦١) .

3 الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٥١) .

اليهم ، ثم وقع أحد (بني شبابــة) أسيراً في (بني سلامان بن مفرج) من الأزد ، ففدى (بنو شبابة) الأسير به . فصار (الشنفرى) فيهم ، وحسب منهم ، ثم انه أراد الزواج من ابنة رجل منهم ، فرده والدها رداً عنيفاً ، أثر فيه ، فعاد الى (بني فهم) ، وأخذ يغير على (بني سلامان) للإهانــة التي لحقته من الرجل ، والتي كانت سبب صعلكته[1] .

ويروى ان الشنفرى أغار مع (تأبط شراً) و (عمـرو بن براق) عـلى (بجيلة) ، فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم على الماء رصداً ، وقد علم (تأبط شراً) انهم يريدونه ، فتآمر مع الشنفرى وعمرو بن براق ، عـلى انقاذه إن وقــع في أيديهم ، فلما جاء الماء قبضوا عليه ، فعمد الشنفرى وابن براق الى حيلة كانوا قد اتفقوا عليها لغش بجيلة ، فأنقذوه ، وهربوا ساخرين من بجيلة التي خدعت بها[2] . وللعرب قصص ترويه عن بساطة (بجيلة) ، وسرعة انخداعها بالحيل .

وهو كما سبق أن ذكرت ، أحد أغربة العرب ، ويظهر ان الملامح الافريقية كانت بارزة عليه ، بدليـل تلقيبه بالشنفرى ، و (الشنفرى) الغليظ الشفاه ، ويظهر انه أخذ ملامحه من أمه السوداء . وأخباره متناقضة متضاربة ، يظهر منها ان أباه قد قتله قاتل من (الأزد) ، قتله (حرام بن جابر) ، وكان قـد قدم (منى) فقيل له : هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله[3] . فحقد على قتلة أبيه ، وقرر الانتقام منهم شر انتقام ، وأن لا يكف عنهم ما دام حياً ، فكان يكثر من الغارة عليهم ، يغير مع من معه من صعاليك ، وقد يغير عليهم وحده[4] .

ويروى في قتله ، انه قتل من (بني سلامان بن مفرج) تسعة وتسعين رجلاً ، فأقعدت له رجالاً يرصدونه ، فلما دنا من ماء ليشرب ، قبض عليه رجلان من (بني البقوم) من الأزد ، فقبضا عليه ، وأصبحا بــه في (بني سلامان) . فربطوه الى شجرة ، فقالوا : قف أنشدنا ، فقـال الإنشاد على حين المسرة ، ثم قال :

---

١ بروكلمن (١/١٠٥) ، الاغاني (٢١/١٣٤) .
٢ الخزانة (٢/١٧) .
٣ الاغاني (٢١/١٣٧) ، الخزانة (٢/١٦) .
٤ الاغاني (٢١/١٣٥) .

فـلا تدفنوني إن دفني محرمٌ عليكم ولكن خامري أم عـامر
إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني سمـير الليالي مُبسلاً بالجرائر[1]

وذكر (المرتضى) أن هناك من نسب هذا الشعر الى تأبط شراً[2] . وقد نسبه (الجاحظ) الى (تأبط شراً) ، إذ قال : « وقال تأبط شراً :

فلا تقبروني إن قبري محرمٌ عليكم ولكن خـامري أم عامر
إذا ضربوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عنـد الملتقى ثم سائري
هنالك لا أبغي حياةً تسرني سمير الليالي مبسلاً بالجرائر »[3]

ويختلف نص هذا الشعر بعض الاختلاف عن النصوص الأخرى[4] .

ويذكر أنه لمّا وقع بأيدي أعدائه ، تفننوا في قتله ، وأروه أصناف العذاب . قطعوا يده ، وصاروا يسخرون منه ، ويسألونه أين يدفنونه . فرد عليهم بمقطوعة رائعة ، كما رثا يده بأرجوزة لما قطعوها ، وقد ذكر أنه طلب منهم ألا يدفن، وإنما يلقى بجسده الى الضباع[5] . وروي أن رجلاً من (بني سلامان) رماه بسهم في عينه فقتله ، فقال (جزء بن الحارث) في قتله :

لعمرك للساعي أسيدُ بن جابر أحق بها منكم بني عقب الكلب[6]

---

١ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٢٥/١) ، (دار الثقافة) ،
ولا تقبروني ان قبري محرم عليكم ولكن ابشري أم عامر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرني سجيس الليالي مبسلا بالجرائر
حماسة أبي تمام (٢٤/٢ وما بعدها بولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، الخزانة (١٨/٢) ، امالي المرتضى (٧٢/٢ وما بعدها) ، (اذا احتملت رأسي) ، أسماء المغتالين (٢٣٢) ، (المجموعة السادسة) .
٢ امالي المرتضى (٧٢/٢ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٤٥٠/٦) .
٤ راجع العقد الفريد (٥٣/١) ، (٢١٩/٤) ، الحماسة (١٨٨/١) ، المخصص (٢٥٨/٣) .
٥ الشعراء الصعاليك (٣٣٥) .
٦ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢٣٢) .

وقد ضاع أكثر شعر (الشنفرى) . وقد طبعت لاميته ، وللعلماء شروح وبحوث عليها . وهي في الفخر والحماسة ، ولم يعرف كثير من قدماء علماء الشعر القديم هذه اللامية ، ومن بينهم مؤلف كتاب (الأغاني) . وقد تعرض (القالي) لموضوع (اللامية) ، فقال : « حدثني أبو بكر بن دريد : ان القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني الى قوم سواكم لأميل

لـه ، وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية »[1] . ويعود الضمير (له) الى خلف الأحمـر . أي ان القصيدة هي من صنعه وعمله . وعدة القصيدة ثمانية وستون بيتاً . وممن شرحها : الخطيب التبريزي، والزمخشري ، وابن الشجرى ، وابن اكرم وغيرهم[2] . وقـد ورد في (تأريـخ الآداب العربية) لكارلو تالينو : « أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه في البراري كأنـه لم يعاشر إلا السباع . وهي قصيدة غايـة في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ »[3] . وفي قوله: « وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراويـة » وهم لا أدري أوقع منه ، أم من الترجمة ، لأن غالبية العلماء تنسبها الى خلف الأحمر، لا الى حماد . كما ان وفاته كانت سنة (١٥٦ هـ)[4] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الذين بحثوا أمر هذه القصيـدة ، الى أن القصائد التي نحلها (خلف الأحمر) احتفظت دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما هذه القصيدة ، فلها طابع خاص يجعل من الصعب تصور صدورها من (خلف الأحمر)[5].

---

١ الامالي (١٥٦/١ وما بعدها) ، الاغاني (٨٧/٢١) ، الخزانة (١٦/٢) ، زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية (١٦١/١ وما بعدها) .

٢ الخزانة (١٥/٢) ، (بولاق) ، اللاميتان : لامية العرب ولاميـة العجم ، من شروح الزمخشري والصفدي ، علق عليهما وأعدهما : عبد المعين الملوحي ، دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي ، رقم ١٣ .

٣ (ص ٧٣) .

٤ الفهرست (١٤٠) .

٥ بروكلمن (١٠٦/١ وما بعدها) .

وذهب بعض آخر الى جواز كونها من نظم (الشنفرى)[1]،وذكر أنها من مصنوعات (جمّاد) الراوية[2] .

وفي (المفضليات) قصيدة طويلة له ، هي قصيدة تائية ، ومقطعات ، وفي قصيدته وصف لحياته ولبعض غاراته،وكيف كان يقود صعاليكه في طرق وعرة، وهم على أرجلهم ، ثم يصف حاله ، فهي قصيدة فيها بعض تأريخ هذا الشاعر وقصص غزوه وتعامله مع رفاقه[3] .

وقد طبع الأستاذ (عبد العزيز) الميمـني ، ديوان الشنفرى في (الطرائف الأدبية)[4] ، وتوجد أشعاره أيضاً في (ديوان الهذليين)[5] . وقد كان عند العيني ديوان للشنفرى في جملة دواوين عديدة كانت في حوزته[6] . وقد كتب عدد من المستشرقين عن الشنفرى وشعره بمختلف اللغات[7] .

وأما (تأبط شراً) ، وهو (ثابت بن جابر بن سفيان) ، وقيل (ثابت بن عمسل) فهو من فهم ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه أمة سوداء . وكان من العدائين المعروفين عند العرب . وله أخبـار كثيرة في ذلك ، وله مغامرات تحمل طابع القصص والأساطير . وله قصيدة في وصف (الغول) ذكر فيها كيف طير بسيفه قحف ابنة الجن[8] . وكان أحد رآبيل العرب . وذكر علماء اللغة ان الرئبال هو الذي ولدته أمه وحده[9] ، وبه سميت رآبيل العرب،ومن السباع الكثير اللحم الحديث السن ، والذئب الخبيث ، وترأبلوا : تلصصوا أو أغاروا على الناس

---

١ بروكلمن (١/١٠٧) .
٢ تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، الاغاني (١٣/٥) .
٣ العصر الجاهلي (٣٨٠ وما بعدها) .
٤ بروكلمن (١/١٠٥ ، ١٠٩) ، طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ م.
٥ الشعراء الصعاليك (١٥٩ وما بعدها) .
٦ العيني ، كتاب المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (٤/٥٩٦) .
٧ راجع بروكلمن (١/١٠٧) .
٨ الشعر والشعراء (١٧٤) ، الاغـاني (١٨/٢٠٩) « بولاق » ، خزانة الادب (١/٦٦) ، بروكلمن (١/١٠٤ وما بعدها) ، شرح شواهد المغنى ، للسيوطي (١٩) ، المفضليات (٢٧ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/٢٣٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٤) .
٩ تاج العروس (٥/١٠٠) ، (أبط) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (١/٥٠ وما بعدها) ، (أحمد ظافر كوجان) .

وفعلوا فعل الأسد ، أو غزوا على أرجلهم وحدهم بلا والٍ عليهم[1] . وهذا المعنى هو أقرب المعاني وأقرب الى الصحة في تفسير (رآبيل العربِ) . فهم الصعاليك الذين نبحث عنهم .

ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، وأن أمه التي كانت أمة سوداء على أغلب الروايات ، أو أمة حرة في رواية ، تزوجت الشاعر (أبا كبير) الهذلي ، وهو من الصعاليك ، من صعاليك هذيل ، وأن أبناء قبيلته كانوا يعيرونـه بسواده ، مما ترك أثراً في نفسه ، فتصعلك ، وأخذ يرافق الصعالكة ، ومنهم صعلوك شهير آخر ، هو (الشنفرى) الذي رافقه في كثير من غزواته . وقــد نعت (تأبط شراً) بأنه كان شاعراً بئيساً ، يغزو على رجليه[2] .

ومما يروى من قصصه أنه كــان يشتار عسلاً من جبل ليس له غير طريق واحد ، فأخذت لحيان عليه ذلك الموضع ، وخيّروه النزول على حكمهم أو إلقاء نفسه من الموضع الذي ظنوا أنه لا يسلم . فصب العسل الذي معه على الصفا وشدّ صدره على الزق ثم لصق على العسل ، فلم يبرح يتزلق عليـه حتى نزل سالماً ، فنظم في ذلك قصيدة مطلعها :

إذا المرءُ لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مُدبر[3]

ولعلماء الشعر قصص في تفسير تسمية هذا الشاعر بـ (تأبـط شراً) ، فزعم بعض منهم أنه « إنما سمّي تأبط شراً لأنه أخذ سيفاً وخرج ، فقيل لأمـه أين هو ؟ قالت : لا أدري ، تأبط شراً وخرج . وقيل أخذ سكيناً تحت أبطه وخرج الى نادي قومه فوجأ بعضهم ، فقيل تأبط شراً . وزعم بعض آخر أن أم تأبط شراً قالت له يوماً : إن الغلمان يجنون لأهلهم الكمأة فهلا فعلت كفعلهم ، فأخذ جرابه ومضى فملأه أفاعي وأتى متأبطاً به ، فألقاه بين يديها فخرجت الأفاعي منه

---

١ تاج العروس (٣٣٣/٧) ، (ربل) ، الاشتقاق (١٦٢ ومـــا بعدها) ، اللآلىء (١٥٨ وما بعدها) ، التيجان (٢٤٢ وما بعدها) ، أسماء المغتالين (٢١٥) ،

٢ الشعر والشعراء (٢٢٩/١) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (٢١٥/١٨ وما بعدها) ، Baur, in ZDMG, X, 7, 17, ff.

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٩٧٥/٢) ، الاغــــاني (٢١٥/١٨) ، شرح ديوان الحماسة (٣٨/١) ، المحبر (١٩٧ وما بعدها) ، الخزانة (٣٥٧/٣) .

تسعى فولت هاربة . فقال لها نساء الحيّ : ما الذي كان ابنك متأبطاً له ؟ فقالت: تأبط شراً ! وقيل : إنه رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه ، فجعل يبول عليه طول طريقه ، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش ، فرمى به ، فإذا هو الغول . فقال له قومه : ما كنت متأبطاً يا ثابت ؟ قال : الغول . قالوا : لقد تأبطت شراً ، فسمي بذلك . وانه قال في ذلك :

تأبط شراً ثم راح أو اغتدى   يوائم غنماً أو يشيف على ذحل

وقيل سمّي بهذا البيت . قال رجل لتأبط شراً : بِمَ تغلب الرجال وأنت دميم ضئيل ؟ قال : باسمي ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شراً، فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت »[1] . وقيل إنما سمي (تأبط شراً) ، لأن أمه رأته وقد تأبط جفير سهام وأخذ قوساً ، فقالت له : هذا تأبط شراً ، أو تأبط سكيناً فأتى ناديهم فوجأ بعضهم ، فسمي به لذلك ، وكان لا يفارقه سيفه . قتلته هذيل في رواية ، وقالت أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان   بثابت بن جابر بن سنان

وكانت تسمى (ريطة) . وذكر أن أمه هي التي رثته . وقد ذكر في أشعار هذيل[2] .

وكان سبب قتله ، انه خرج غازياً في نفر من قومه ، إذ عرض لهم بيت من هذيل ، بين صدى جبل ، فأراد مهاجمته ، فمنعه من كان معه من مباغتته، لخروج ضبع اعتافوا منه ، فلم يبال بتشاؤمهم ، فلما قارب البيت رآه غلام ، فهرب الى الجبل ، فهجم تأبط شراً مع جماعته على البيت ، فقتلوا شيخاً وعجوزاً،

---

١ الاغاني (١٤٦/٢١) ، شرح حماسة أبي تمام (٧٥/١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٥٢/١) .

٢ تاج العروس (١٠٠/٥) ، (أبط) قال مليح الهذلي :

ونحن قتلنا مقبلا غير مدبر   تابط ، ما ترهق بنا الحرب ترهق

اللسان (٢٥٤/٧) ، (أبط) .

ويل أم طرف قتلوا برخمان   بثامت بن جابر بن سنان

الشعر والشعراء (٢٢٩/١) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (٢٠٩/١٨) ، (بولاق) ، المغتالين (٢١٥) ، الخزانة (٦٦/١) .

وحازوا جاريتين وإبلاً ، ثم أبصر تأبط شراً بالغلام ، فاتبعه ، فرماه الغلام بسهم أصاب قلبه ، وحمل على الغلام فقتله ، ثم مات هو من السهم ، وترك جثة ، فاحتملته هذيل ، وطرحته في غار يقال له غار (رخمان) . فرثته أخته (ريطة) بقولها :

نعم الفتى غادرتم برخمان ثابت بن جابر بن سفيان
قد يقتل القِرن ويَروي الندمان[1]

وفي بيت شعر ينسب الى تأبط شراً ، هو :

ولست أبيت الدهرَ إلا على فتى أسلّبه أو أذعر السرب أجمعا[2]

معنى يفيد انه كان يغير على القادم والآيب ، يسلبه ويأخذ ما عنده ، لا يبالي بشيء إلا بحصوله على غنيمة السلب ، وهو ان قابل قافلة ، فلم يتمكن منها ، يكون قد رضي من فعله بما ألقاه من رعب وذعر في قلوب أصحابها ، ويكون قد اشتفى بذلك منها . فهو رجل منتقم ، يريد أن يفرج عما ولد في قلبه من غلّ ، بأية طريقة كانت ، غلّ ، ولد فيه ، من سواد لونه ، ومن ازدراء قومه له ، ومن فقره وسوء حاله في هذه الحياة ، وذلك فيما لو صح ان هذا الشعر هو من قوله .

ونسب قوم من الرواة الى (تأبط شراً) قصيدة مطلعها :

ولقد سريتُ على الظلام بمغشمٍ جلد من الفتيان غير مهبل

وهي قصيدة نسبها غيرهم الى (أبي كبير) الهذلي ، ووضعوا حولها قصة في شرح السبب الذي حمل (أبا كبير) أو (تأبط شراً) على نظمها[3] .

قال (الجاحظ) في كتابه (الحيوان) : « وقال تأبط شراً — إن كان قالها — :

---

١ اسماء المغتالين (٢١٥ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٢١٧/١٨) .
٣ الشعر والشعراء (٥٦٢/٢ وما بعدها) ، (الثقافة) .

شامس في القرّ حتى اذا ما ذكت الشعبرى فبرد وظل
وله طعمان أريٌ وشريٌ وكلا الطعمين قد ذاق كل[1]

مما يدل على انه في شك من أمر نسبة هذه القصيدة اليه .

وأشعار (تأبط شراً) متناثرة في كتب الأدب . ولم يطبع له ديوان بعد . ومن شعره أبيات ، يذكر فيها أن (عذّالة) لامته حتى أكثرت من لومه ، فكادت تخرق جلده أي تخراق ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

يا من لعذّالة خذّالة نشبٍ خرقت باللوم جلدي أي تخراق
تقول: أهلكتَ مالاً لو ضننتَ به من ثوب عزٍّ ومن بزٍّ وأعلاق
سدّد خلالك من مال تجمعه حتى تلاقي ما كلّ امرىء لاق
عاذلتا انّ بعضَ اللوم معنفة وهل متاع وإن بقيته باق[2]

وهذه هي مشكلة أولئك الصعاليك ، كانوا يخاطرون بحياتهم ، للحصول على مال ، فإذا حصلوا عليه ، ونجوا من تعقب الناس لهم ، أهلكوه . يتلفونه على ملذاتهم ، أو على أصدقائهم . وإذا بهم في حاجة الى مال ، وفي عسر وضيق .

ومن شعره قوله :

لتقرعنّ عليّ السنّ من ندمٍ إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي[3]

وله شعر يصف فيه حاله ، بقوله :

قليل التشكّي للمهم يُصيبه كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالكِ
يظلّ بموماة ويمسي بغيرها جحيشاً ويعروري ظهورَ المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي بمنخرق من شدة المتدارك
اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالىءٌ من قلب شيحان فاتك

---

١ الحيوان (٣/٦٨ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٣٠) ، (دار الثقافة) ، أبو تمام ديوان الحماسة (٣٨٢ وما بعدها) .
٣ الحيوان (١/٦٣) .

ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... الى سلة من حدّ أخلق صائك
اذا هزّه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك[1]

وهي قصيدة مدح بها عمه (شمس بن مالك)[2] .

وقد شك (الجاحظ) في نسبة هذه القصيدة الى (تأبط شراً) ، إذ قال : « ومن هذا الباب قول تأبط شراً ، أو قول قائل فيه في كلمة له »[3] . وتنسب أيضاً الى (السليك بن السلكة) أحد غرابيب العرب[4] .

وله قصيدة ذكر فيها أنه التقى بالغول ، وصار جاراً للغيلان ، وقد وصف حاله معها ، حيث قال :

وأدهم قد جبت جلبابَهُ ... كما اجتابت الكاعبُ الخيعلا
الى أن حدا الصبحُ أثناءهُ ... ومزق جلبابه الأليلا
على شيم نارٍ تنورتها ... فبت لها مدبراً مقبلا
فأصبحت والغول لي جارة ... فيا جارتا أنتِ ما أهولا
وطالبتُها بعضها فالتوت ... بوجه تهول فاستهولا

وهي قصيدة ذكرها (ابن قتيبة) ، وقد اكتفيت منها بالأبيات المتقدمة[5] .

وقد عمل (ابن جني) ديوان (تأبط شراً)[6] ، ونشرت بعض أشعاره وترجمت بلغات أعجمية[7] .

---

١ الحماسة ، لابي تمام (١/٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، (اذا خاص) ، (اذا خاط) ، الحيوان (٦/٤٦٧) .

٢ كارلو نالينو ، (٧٣) .

٣ الحيوان (٦/٢٥٥) ، وتجد اختلافا بين نص الجاحظ لها ، وبين نصها في الموارد الاخرى .

٤ الحماسة (١/٢٢) ، القالي ، أمالي (٢/١٣٨) ، التيجان (٢٤٢) ، زهر الاداب (٢/١٨) ، الصناعتين (٢٧٩ ، ٣١٠) ، ثمار القلوب (٢٠٤) ، الحيوان (٦/٢٥٦) .

٥ الشعر والشعراء (١/٢٣٠ وما بعدها) . اعجاز القرآن ، للباقلاني (٢٢) ، مروج الذهب (٢/١٣٤ وما بعدها) ، (ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول) .

٦ بروكلمن (١/١٠٤ وما بعدها) .

٧ Ch. Lyell, Four Poems by T. Sh. the Poet, brigand, JRAS, 1918, 211-227.

وأما (السليك بن السلكة) ، فهو من تميم . وأمه أمة سوداء ، وكان يغير على القبائل ، ولا سيما القبائل اليمانية وقبائل ربيعة . وكان من العارفين باقتفاء الأثر . ومن العالمين بالمسالك وبالطرق وبالأرض . يذكرون أنه كان اذا جاء الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء ثم دفنه ، فإذا كان الصيف ، وأغار واحتاج الى الماء ، جاء الى مواضع البيض ، فاستخرج البيض منها وشرب ما فيه من ماء[1] .

وقد نسب (سليك) على هذا النحو : « سليك بن يثربي بن سنان بن عمير ابن الحرث ، وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن سلكة ، وهي أمه . ولذا قيل : (ابن السلكه) وقيل اسم والده : (عمرو بن يثربي) ، ويقال (عمير) ، وهو شاعر لص فتاك عدّاء . يقال : «أعدى من سليك » ، ويقال له : (سليك المقانب) . قال قرّان الأسدي ، وقيل أنس ابن مدرك :

لَخُطابُ ليلى يالَ برثن منكم على الهول ، أمضى من سليك المقانب[2]

وقال أهل الأخبار عنه ، انه أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم ورجيلاتهم ، وكان له بأس ونجدة . وكان أدل الناس بالأرض وأجودهم عدواً على رجليه ، وكان لا تعلق به الخيل . وتذكر قصة انه خرج رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه ، فيذهب بإبله ، وبينا هو نائم ، واذا برجل يجثم عليه ، ويقول له : استأسر ، فتمكن منه السليك ، ووجده صعلوكاً فقيراً جاء مثله لعله يصيب شيئاً ، فاتفق معه على أن يغزوا معاً ، فلما سارا وجدا رجلاً صعلوكاً انضم اليهما ، واتفقوا على الغزو ، ولما كانوا في جوف (مراد) ، وجدوا نعماً ، فطلب (سليك) من رفيقيه الانتظار والتربص ريثما يذهب الى الرعاء فيلهيهما ، ثم يغيرا على النعم . فلما وصل الى الرعاء ، تودد اليهم ، ثم قال لهم : ألا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فأخذ يغني :

---

١ زيدان ، تاريخ آداب (١٦٣/١) ، الاغاني (١٣٣/١٨) ، الشعر والشعراء (٢١٣) .

٢ اللسان (٤٤٣/١٠) ، (سلك) ، تاج العروس (١٤٤/٧) ، (سلك) ، (السليك ابن سنان بن سلكة) ، تحفة الابيه فيمن نسب الى غير أبيه (١٠٥ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي إلا عبيد وآم بين أذواد
أتنظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعادي

فلما سمعا ذلك أطردا الإبل فذهبا بها [1] .

وذكر ان (بكر بن وائل) سارت للإغارة على (تميم) . ورأته طلائعها، فأرادت القبض عليه ، حتى لا يذهب اليهم فيخبرهم بزحفهم عليهم . ولكنه ركض مسرعاً ، فقلت منهم ، وأخبر قومه بغزوهم ، فكذبوه . فقال في ذلك شعراً ، وجاءت (بكر بن وائل) فأغارت عليهم [2] .

وقد وصفه (عمرو بن معدي كرب) في شعر منه :

وسيري حتى قال في القوم قائل: عليك أبا ثور سُلَيْكَ المقانب [3]

ومرّ (سليك) في بعض غزواته ببيت من (خثعم) ، أهله خلوف ، فرأى فيهم امرأة بضة شابة ، فتسنّمها ومضى ، فأخبرت القوم ، فركب (أنس بن مدرك الخثعمي) في أثره فقتله ، وطولب بديته ، فقال : والله لا أديه ابنَ إفال ، وقال :

إني وقتلي سليكا يوم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
غضبتُ للمرء إذ نيكت حليلته وإذ يشدُّ على وجعائها الثغر [4]

وقد ورد البيتان على هذه الصورة :

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقرُ
أنفت للمرءِ إذ نيكت حليلته وأن يشد على وجعائها الثغر [5]

ومن بقية الشعراء الصعاليك ، (حاجز) الأسدي ، و(قيس بن الحدادية)

---

1 الشعر والشعراء (١/٢٨٢ وما بعدها) ، (الثقافة) ، الاغاني (١٨/١٣٤) .
2 الشعر والشعراء (١/٢٨٤) ، (الثقافة) ، الخزانة (٢/١٧) ، (بولاق) .
3 الشعر والشعراء (١/٢٨٤) ، (الثقافة) .
4 الشعر والشعراء (١/٢٨٥) ، (الثقافة) أسماء المغتالين (٢٢٠ ، ٢٢٦ وما بعدها) ، الاغاني (١٨/١٣٣) ، المؤتلف (١٣٧) ، الخزانة (٢/١٧) .
5 الحيوان (١/١٨) .

الأزدي ، و(أبو الطمحان) القيني ، (وأبو[٣] خراش) الهذلي ، وصخر الغي الهذلي[1] ، وأخوه الأعلم الهذلي[2] ، وعمرو ذو الكلب [3] .

فأما (قيس بن الحدادية) ، فهو (قيس بن منقذ بن عبيد بن أصرم بن ضاطر بن حُبشية بن سلول) ، وله مع (عامر بن الظرب) حديث . وصفه (المرزباني) بـ « شاعر قديم كثير الشعر »[4] . وأمه من (بني حُداد) كنانة ، وقوم يجعلونها من حداد محارب . وكان صعلوكاً خليعاً[5] ، ساهم مع جماعة من أهله في قتل رجل من قبيلتهم ، وعجز قومه من دفع ديته،فولوا هاربين ، فنزلوا في (فراس بن غنم) ثم لم يلبثوا أن قتلوا منهم رجلاً ، فهربوا ، فنزلوا على (أسد بن كرز) من (بجيلة) ، فأحسن اليهم وتحمل عنهم ما أصابوا في خزاعة وفي فراس[6] . وقد نسب (قيس) الى أمه الحُدادية ، وهي حضرمية من محارب[7] . وورد ان أمه من (محارب بن خصفة) . و (حداد) من كنانة . ومن شعره :

أنا الذي أطرده مواليه ... وكلهم بعد الصفاء قاليه[8]

ولا نجد في بطون الكتب شعراً كثيراً لقيس بن الحدادية ، بحيث تنطبق عليه جملة (كثير الشعر) التي أطلقها (المرزباني) على شعر هذا الشاعر ، مما يبعث على الاحتمال بضياعه منذ عهد طويل .

وألف (قيس بن الحدادية) ، عصابة ضمت « شذاذاً من العرب وفتاكاً

---

١ شرح أشعار الهذليين (١/١٢) ، الاغاني (٢٠/١٩) ، الشعر والشعراء (٢/٥٥٩) ، ديوان الهذليين (٢/٥٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٥٩) .
٣ الاغاني (٢٠/١٩) .
٤ زيدان ، تاريخ آداب (١/١٦٤) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٠٢) ، الاغاني (١٣/٦) .
٦ الاغاني (١٣/٢ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٩٦ وما بعدها) .
٧ كتاب من نسب الى امه من الشعراء (٨٦ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .
٨ كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (٨٧) ، الاشتقاق (٢٧٧) ، القاب الشعراء ، لابن حبيب (١٣٩) .

من قومه ، وأخذ يغير على عشيرته بسبب خلعها له ، وبقي شريداً متمرداً يغزو بصعاليكه ، الى أن قتل صعلوكاً[1] .

وأما (أبو الطمحان) القيني ، فهو (حنظلة بن الشرقي) من بني كنانة بن القين ، وكان فاسقاً ، نازلاً بمكة على الزبير بن عبد المطلب ، وكان ينزل عليه الخلعاء ، وكان نديماً له في الجاهلية . اختلف فيه ، فنهم من قال إنه جاهلي ، ومنهم من قال إنه أدرك الإسلام . وقد زعم بعضهم أنه عاش مائتي سنة ، وأنه ندم على ما اقترفه من الذنوب كالزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والسرقة، ورووا له شعراً تبرأ فيه من الذنوب . ذكر أنه قيل له : ما أدنى ذنوبك؟قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلتُ بديرانية ، فأكلت عندها طفشيلاً بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيت بها ، وسرقت كساءها ، ومضيت !؟ وكانت له ناقة يقال لها (المرقال) ، وله إبل استقاها قوم نزلوا ضيوفاً عليه وشربوا من ألبانها ثم أخذوها معهم ، فقال في ذلك شعراً منه :

واني لأرجو ملحها في بطونكم وما بسطت من جلد أشعث أغبر[2]

وذلك أنه جاورهم ، فكان يسقيهم اللبن ؛ فقال أرجو أن تشكروا لي ردّ إبلي ، على ما شربتم من ألبانها ، وما بسطت من جلد أشعث أغبر ، كأنه يقول: كنتم مهازيل فبسط ذلك من جلودكم[3] .

وروي أنه كان من المعمرين ، عاش على حدّ قول بعضهم مائتي سنة . فقال في ذلك :

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني ولست مقيداً أني بقيد[4]

---

١ الشعراء الصعاليك (٩٧ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٣٠٤/١ وما بعدها) ، الاصابة (٣٨١/١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغاني (١٢٥/١١) ، الخزانة (٤٢٦/٣) ، المعمرون للسجستاني (٦٢) ، المؤتلف (١٤٩) ، أمالي المرتضى (٢٥٧/١ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٤٧٣/٤) .

٤ أمالي المرتضى (٢٥٧/١) .

ونسب (المرتضى) له قوله :

وإني من القوم الذين همُ همُ إذا مات منهم ميت قام صاحبه
نجوم سماء كلما غــاب كوكب بدا كوكبٌ تأوي اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نَظَّم الجزع ثاقبه
وما زال منهم حيث كان مسودٌ تسير المنايا حيث سارت كتائبه[1]

وقد لاقى (أبو الطمحان) مصاعب عديدة ، وكان لا يكاد يجد له مكاناً يستقر فيه ، حتى تقع له حادثة توقعه في مشكلات عويصة وفي شدة ومحنــة ، فكان يتنقل من جار الى جار ، ثم يهم بالعودة الى أهله لولا خوفــه من أداء الدية التي عليه أن يدفعها ، فيحجم عن الذهاب اليهم ، حتى استقر أخيراً في (بني فزارة) في جوار رجل يقال له (مالك بن سعد) أحد (بني شمخ) ، وكان كريماً ، فآواه ، وأعطاه إبلاً لتكون دية جنايته وزاد عليها ، وكان قد لمح له انه يريد العودة الى أهله لولا هذه الدية ، فلما وجد هذا السخاء من مالك، بقي عنده ، وصار أحد عشيرته حتى هلك فيها ، وهو طاعن في السن[2]. فذكره (السجستاني) لذلك في المعمرين ، وأعطاه مائتي سنة من عمر مديد[3] !

ونسب الى (أبـي الطمحان) قوله :

إن الزمان ولا تفنى عجائبه فيه تقطع ألافٍ وأقران
أمست بنو القين أفراقاً موزّعة كأنهم من بقايا حي لقمان[4]

وله شعر في مدح (مالك بن حمار) الشمخي ، وكان شريفــاً من أشراف العرب قتله (خفاف بن ندمة) السلمي[5] ، يقول فيه :

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٥٧) ·
٢ الاغاني (١١/١٣٢ وما بعدها) ·
٣ المعمرون (٦٢)·
٤ البيان والتبيين (١/١٨٧) ·
٥ الاشتقاق (٢/١٧٢) ، البيان والتبيين (٣/٢٣٥) ، وقد اخطأ السيــد عبــد السلام محمد هارون في الجزء الاول من كتاب الحيوان الــذي حققه ، اذ قال : « وهو يمدح مالك بن حماد الشمخي » ، ثم علق عليه برقم (٤) حاشية ، ثم قال في الحاشية : « هو قاتل خفاف بن ندبة » ، (ص ٣٨٠) ، الاغاني (١٣/١٣٤) ·

سأمدح مالكاً في كل ركبٍ لقيتهم وأترك كل رذل
فما أنا والبكارة من مخاضٍ عظامٍ جلة سدس وبزل
وقد عرفت كلابُكم ثيابي كأني منكم ونسيتُ أهلي
نمتكم من بني شمخٍ زناد لها ما شئت من فرعٍ وأصل[1]

وله أيضاً :

فكم فيهم من سيد وابن سيّد وفيٍّ بعقد الجار حين يفارقه
يكاد الغمامُ الغرّ يزعب إن رأى وجوه بني لأم وينهل بارقه[2]

وله في (بني نمير) قوله :

مهلاً نميرُ فإنكم أسيتم منّا بثغر ثنيّةٍ لم تُستَرِ
سُوداً كأنكم ذئاب خطيطةٍ مُطِرَ البلاد وحيرُها لم يُمطرِ
يحبُون ما بين أجا وبرقة عالجٍ حبو الضباب الى أصول السخبر
وتركتم قصب الشُريف طوامياً تهوى ثنيته كعين الأعور[3]

وله في الإتعاظ والاعتبار بدروس الغابرين ، قوله :

ألا ترى مأرباً ما كان أحصنه وما حواليه من سور وبنيان
ظلّ العبادي يسقي فوق قُلّته ولم يهب ريب دهرٍ حق خوّان
حتّى تناوله من بعد ما هجعوا يرقى إليه على أسبّاب كتّان[4]

ولما في حياة الصعالكة من غرابة وطرافة ومغامرات ، تستلذ لسماعها الآذان ، وضع الوضاعون عليهم أخباراً كثيرة وأشعاراً عديدة ، نجد بعضها تحكي الأيام

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٣٥) ·
٢ البيان والتبيين (٣/٢٣٧) ·
كم فيهم من سيد وابن سيد وفي بعقد الجار ، حين يفارقه
يكاد الغمام الغر يرعد ان رأى وجوه بني لام وينهل بارقه
الحيوان (٣/٩٣) ·
٣ الحيوان (٦/١١٣) ·
٤ الحيوان (٦/١٥٤) ·

التي وضع الوضاعون فيها تلك الأشعار ، من حيث الطعن في الأغنياء ، وتفضيل الفقراء عليهم ، وترجيح الفقير على الغني ، لشعوره بشعور انساني حرم منه الغني الذي لم يكن يفكر إلا بنفسه ، كما ان في كثير من الشعر المصنوع طابـع حياة المغامرات . وهو يختلف نصاً من مؤلف الى مؤلف،مما يدل على تعدد الروايات، وانه أخذ من ألسنة متعددة ، فتعدد بعددها .

الفصل الحادي والستون بعد المئة

شعراء القرى العربية

والقرى العربية في نظر (ابن سلام) خمس هن: مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين[1] . و (القرية) في تفسير علماء العربية المصر الجامع ، وقيل كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً وتقع على المدن وغيرها[2] . وقد جاءت اللفظة في مواضع عديدة من القرآن. كما وردت فيه : (القريتين) ، بمعنى مكة والطائف[3] ، و (أم القرى) ، بمعنى (مكة)[4] ، و (أهل القرى) ، و (القرى) . ومكة والمدينة والطائف قرى ، أما (اليمامة) ، فمصر جامع ، ضم قرى ، وكذلك البحرين . ولم تدخل (الحيرة) ، أو الأنبار ، في القرى العربية لكونهما خارج حدود جزيرة العرب في عرف العلماء .

وذكر (ابن سلام) ان أشعر أهل القرى الخمس ، أهل قرية (المدينة) ، أي (يثرب) . وقد أخرجت خمسة من الفحول : ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس . فمن الخزرج من (بني النجار) : حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة : (كعب بن مالك) ، ومن (بلحارث بن الخزرج) (عبدالله بن رواحة) .

---

١ طبقات (٥٢) .

٢ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .

٣ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣١ ، تفسير الطبري (٢٥/٣٩) .

٤ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٢ ، تفسير الطبري (٧/١٨٠) .

ومن (الأوس) : قيس بن الخطيم ، من (بني ظفر) ، (و (أبو قيس ابن الأسلت) من (بني عمرو بن عوف)[1] .

وروي عن (أبي عبيدة) قوله : « اجتمعت العرب على ان أشعر أهل المدر : يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف ، وعلى ان أشعر أهل المدر : حسان بن ثابت ، ثم قال : « حسان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر اليمن في الاسلام ، وهو شاعر أهل القرى » . وروي انه كان أشعر أهل الحضر[2] .

وقال (ابن سلام) في حديثه عن مكة : « وبمكة شعراء »[3] ووصف أشعار قريش بأنها أشعار فيها لين[4] ، وهي سهلة سلسة اذا قيست بأشعار أهل البادية ، يتغلب عليها طابع الحضارة ، وكذلك شعر باقي القرى . وقال عن (الطائف) ، وبها شعراء وليس بالكثير . وعلل ذلك بقوله : « وانما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم. والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا . وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف »[5] . وقال عن (البحرين) : « وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة »[6] . وقال عن (اليمامة) : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »[7] .

ولم تنفرد أشعار قريش وحدها باللين ، وإنما الليونة والسهولة في الشعر من طبائع الشعر الحضري أجمع . ففي طبيعة الحياة في الحاضرة سهولة غير موجودة في حياة البداوة ، وراحة ودعة واستقرار ، وهي أمور لا توجد في البادية ، ثم فيها اجتماع واحتكاك بعالم خارجي ، وميل الى جمع المال والاستمتاع به، والابتعاد عن الغزو والحرب ، وكراهة القتال وتعريض النفس للخطر ، والنفس عزيزة غالية عند الحضر ، وهي هينة رخيصة عند الأعراب ، وما الذي يجعل الأعرابي يحرص على حياته حرص أهل الحواضر ، وكل ما عنده جوع وفقر وطبيعة قاسية

---

١ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .
٢ الاستيعاب (٣٣٨/١) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ طبقات (٥٧) .
٤ طبقات (٦٠) .
٥ المصدر نفسه (٦٥ وما بعدها) .
٦ كذلك (٦٦) .
٧ كذلك (٧٠) .

تجعله لا يحصل على قوته إلاّ بالإغارة عـلى غيره لاستلاب ما عنده من رزق .
فلا غرابة إذا ما غلظ شعره وخشن شعوره المتمثل في نظمه ، ولأن شعر الحضري
في مقابله .

ولم يذكر (ابن سلام) السبب الذي جعل (اليمامة) فقيرة في الشعر ، حيث
يقول : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »[1] ، ولا الأسباب الـتي حملته على
القول بعدم وقوفه على شاعر شهير فيها ، مع أن (الأعشى) منها ، وهو شاعر
شهير ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وهما شاعران مشهوران من (قيس
ابن ثعلبة)، و (قيس بن ثعلبة) من القبائل النازلة باليمامة ، وقد ذكرها (ابن
سلام) في طبقاته ، كما ذكر (المتلمس) ، في طبقاته ، وهو شاعر معروف
من شعراء اليمامة كذلك . ويظهر أنه نسي أسماءهم ، لأنه كان يعلم أن الغلبـة
كانت لبني حنيفة عـلى اليمامة عند ظهور الإسلام ، ولم يحفظ الرواة ــ لسبب
لا نعرفه ــ شعراً لشعراء من بني (حنيفة) ، فعمم قوله على كل اليمامة،والحكم
بالتعميم شيء مألوف بين أهل الأخبار .

وقد ذهب (الجاحظ) الى ان (بني حنيفة) أهل اليمامة ، كانوا أقل الناس
شعراً ، إذ يقول : « وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهـم ، وكثرة
وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم
وحدهم يعدلون بكراً كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقلّ شعراً منهم . وفي
اخوتهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء ورجّازون » . وقد أنكر أن يكون ذلك
بسبب مكان الخصب وانهم أهل مدر ، أي حضر ، وانما رجع ذلك الى الطبع،
والى « قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها »[2].

ويلاحظ أن علماء اللغة ، جعلوا (اليمامة) في جملة الأرضين الـتي لم يرجعوا
الى لغاتها ، فذكروا أنهم لم يأخذوا اللغة « لا من بني حنيفة وسكـّان اليمامة ،
ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمجاورتهم تجار اليمن المقيمين عندهم »[3] ، وذلك
في الإسلام بالطبع ، لأن تدوين اللغة لم يبدأ به إلا في هذا الحين . وهـو رأي
صحيح ، لأن لغات أهل اليمامة متأثرة باللهجات العربية الجنوبية،كما كانت كتابتهم

---

١ طبقات (٧٠) .
٢ الحيوان (٤/٣٨٠ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢١٢/١) .

بالمسند ، بدليل عثور المستشرقين على كتابات عديدة في مواضع من اليمامة ، مدوّنة بهذا القلم ، وبلغة عربية جنوبية متأثرة بلهجات خاصة بعض التأثر ، ولهذا فنحن نستطيع أن نقول إن كتابات اليمامة التي عثر عليها الآن والتي سيعثر عليها في المستقبل ، تكون مجموعة فريدة مهمة من الكتابات الجاهلية وقد تكون جسراً بين العربيات الجنوبية القحة ، وبين اللغات العربية الشمالية ، وقد تكون هذه الخصائص اللغوية الفريدة هي التي جعلت (ابن سلام) يقول في طبقاته : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »[1] ، إذ سمع أن شعراء اليمامة كانوا يقولون الشعر بلهجاتهم التي تختلف عن اللهجة التي نظم بها شعراء مجموعة (ال) ، فأهمل لذلك شعرهم ، أو أن شعرهم لكونه شعراً محلياً خاصاً ، لم ينتشر خارج قبائل اليمامة ، فلم يصل الى علمه منه شيء ، فقال لذلك قوله المذكور ، ولم يعده من الشعر المألوف ، الذي تعورف عليه بين علماء الشعر ، ولما كان (الأعشى) و(المرقش) الأكبر ، والمرقش الأصغر ، والمتلمس ، قد نظموا الشعر باللهجة المألوفة ، ولكونهم من المتنقلة الذين تنقلوا بين العرب ، وقضوا أكثر أوقاتهم خارج اليمامة ، لم يدخلهم لذلك في شعراء اليمامة ، لا جهلاً منه بأصلهم ، وإنما لما بينته من أسباب.

ولعل لكثرة وجود العبيد والموالي بها دخل في هذا الباب ، فاليمامة أرض خصبة ذات مياه ، استقر أهلها وأقاموا في القرى وزرعوا واستعانوا بالموالي وبالعبيد وبأهل اليمن لاستغلال أرضهم ، فصاروا من أصحاب الزراعة في جزيرة العرب ، كما استغلوا معادنها ، واستعانوا في استغلالها بالأعاجم ، فذكر انه كان في معدن (شمام) ألف أو يزيد من المجوس ، لهم بيت نار[2] . ولعل (آل كرمان) ، و (الأحمر) في الحرملية ، هم من الأعاجم الذين كانوا قد ولجوا هذه المواضع للعمل بها قبل الاسلام[3] ، أضف الى ذلك وجود عدد كبير آخر من الموالي في أكثر قرى اليمامة ، شغلوا في الزراعة وفي استغلال المعادن وفي تصنيعها ، وهي أمور يأنف منها الأعرابي ويزدريها . ولهذا قيل لهم أهل (ريف) ، وقد وصفهم جرير بقوله :

---

١ طبقات (٧٠) .

٢ الصفة (١٤٢) .

٣ لغدة (٣٠٢ وما بعدها ، ٣٥٩) .

صارت حنيفة أثلاثاً فثلثهم من العبيد وثلث من مواليها[1]

وذلك تعبيراً عن كثرة من كان في اليمامة من العبيد والموالي الذين لعبوا دوراً كبيراً في اقتصاد اليمامة ، حيث شغلوا في الزراعة وفي الرعي وفي استغلال المعادن والصناعة ، وانشاء القرى ، حتى صارت أرضها بين قرى وأرض استغلت بزرعها سيحاً ، أي على مياه الأمطار . وأما القرى ، فقد أقيمت على الآبار والعيون والمياه الجارية وعلى حافات الأودية. وقد حفر الرقيق أكثر هذه الآبار، كما استغلت الآبار العادية ، أي الآبار القديمة التي تنسب الى ما قبل مجيء قبائل (ربيعة) الى اليمامة. ونجد في الكتب التي وصفت اليمامة ذكراً لمواضع كثيرة ، توفرت بها المياه ، فصارت أرضين خصبة ، موّنت اليمامة وغيرها بالحنطة والتمور والخضر .

وكان جلّ أهل (اليمامة) عند ظهور الإسلام من (بكر بن وائل) ، وبكر ابن وائل من (ربيعة) ، فهم ليسوا من (مضر) اذن ، الذين أخذ عنهم علماء العربية اللغة في الإسلام . فقوم الأعشى ، وهم (بنو قيس بن ثعلبة) من بكر بن وائل ، وبنو حنيفة ، وهم قوم (مسيلمة) من (بني لجيم بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل)[2] ، فإلى ربيعة كانت الغلبة في هذا العهد ، وأما بطون (تميم) التي كانت تقيم في مناطق من اليمامة ، فلم تكن تكوّن الكثرة الى جانب ربيعة ، وتميم من مضر في عرف أهل الأخبار .

واليمامة اقليم مشهور عرف بعذوبة مياهه ، وبخصبه وبكثرة قراه ، وباشتغال أهله بالزراعة ، زراعة النخيل والأشجار المثمرة والحنطة ، كما عرف بتربيته للإبل والبقر والغنم ، ولذلك وفرت اللحوم به ، وقد استقر أهله ، وصاروا حضراً وأشباه حضر ، ولعلّ لصلتهم باليمن ولنزوح أهلها القدامى من اليمن ، وهم أهل زرع وضرع ، ثم توفر الماء والتربة الخصبة في اليمامة ، جعلت كل هذه الأمور أهلها حضراً على مستوى عالٍ من الحياة بالنسبة الى من كان يقيم في البوادي من القبائل ، اعتمدوا في الدفاع عن أنفسهم على الحصون والبتل التي لا تزال آثار بعضها قائمة الى هذا اليوم ، فكانوا إذا بوغتوا بهجوم ، أسرعوا الى بتلهم وقصورهم ، فتحصنوا بها . وهي من أهم ما يميز أهل الحضر عن

---

١ الخزانة (٢/٣٠٠) ، (بولاق) .
٢ تاج العروس (٦/٧٨) ، (حنف) .

أهل الوبر . ولهذا نجد مستوطنات أهل المدر ، مكوّنــة من أطم كما تسمى في (يثرب) ، أو قصور كما تسمى في الحيرة وفي قرى عرب العراق ، وبتل كما عرفت في اليمامة ، وبفضل هذا النظام الدفاعي ، حموا أنفسهم من هجمات الأعراب عليهم .

ولطابع الاستقرار الغالب على أهل اليمامة أثر في شعر شعراء اليمامة . يظهر في أساليب شعرائها السهلة وفي البحور الّتي نظموا بها شعرهم ، وهم يقربون بذلك من شعراء عرب العراق أو الشعراء الذيـن تأثروا بالشعر العراقي ، كما يظهر هذا الطابع في المعاني الّتي تطرقوا اليها ، وسبب قربهم في المعاني وفي الصياغة من أهل العراق ، هو تشابه الحياة بين عرب الحيرة مثلاً وبين أهل اليمامة . فأهل الحيرة حضر أو أشباه حضر ، وأهل اليمامة حضر مثلهم أو أشباه حضر ، لهم زراعة ، ولهم حرف قد احترفوها منذ أمد طويل ، ثم ان النصرانية كانت قد انتشرت بين عرب العراق ، وقد انتشرت بـين أهــل اليمامة كذلك ، وجذورها وإن لم تكن عميقة راسخة في المحيطين ، لكنها كانت قد تأثرت بعقلية أهلها على كل حال .

ومن شعراء اليمامة (المرقش) الأكبر ، وهو (ربيعة بن سعد بن مالك) ، ويقال : بل هو عمرو بن سعد بن مالك ، وقيل (عوف بن سعد بن مالك) من (بني قيس بن ثعلبة) من قبائل اليمامة المعروفة ، وكان أبوه سيد قومه في حرب البسوس، وهو خال (عمرو بن قميئة) ، وله صهر مع طرفة والأعشى ميمون[1] . ذكر انه انما عرف بالمرقش بهذا البيت :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم[2]

ويعدّ (المرقش) الأكبر من الشعراء العشاق ، وله قصة عن حبه لابنة عمه ، وعن زواجها أثناء غيابه ، ثم بحثه عنها ، ونزوله كهفاً أسفل (نجران) ، ثم احتياله في الوصول اليها ، ووفاته بعد ذلك . وهي قصة نجد لها مثيلاً في قصص

---

١ بروكلمن (١٠٢/١) ، المزهر (٤٧٦/٢ وما بعدها ، ٤٨١) .
٢ الشعر والشعراء (١٣٨/١) ، (دار الثقافة) ، المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (١٩٩/٥)، السيوطي ،شرح شواهد (٨٨٩/٢) ، اللسان (١٩٥/٨) الاغاني (١٢٧/٦) ، المؤتلف (١٨٤) ، المفضليات (١١١) ، رسالة الغفران (٣٣٧ وما بعدها ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٥٦٠) ، البيان والتبيين (٣٧٤/١) .

وحكايات الأمم الأخرى[1] . وقيل ان صاحبته (أسماء بنت عوف بن مالك) ، كان أبوها زوّجها رجلاً من مراد ، والمرقش غائب ، فلما رجع أخبر بذلك ، فخرج يريدها ومعه عسيف له من (غفيلة) ، فلما صار في بعض الطريق مرض ، حتى ما يحمل إلا معروضاً ، فتركه الغفيلي هناك في غار ، وانصرف الى أهله ، فخبرهم انه مات ، فأخذوه وضربوه حتى أقر ، فقتلوه ، ويقال إن أسماء وقفت على أمره ، فبعثت اليه فحمل اليها ، وقد أكلت السباع أنفه . فقال :

يا راكباً أمـــا عرضتَ فبلغــن   أنس بن عمرو حيث كان وحرملا

وقد وصف في هذه الأبيات ما لاقاه في سفره،وهروب الغفيلي منه ، وذهاب السباع بأنفه . ويقال إنه كتبها على خشب الرحل بالحميرية ، وكان يكتب بها، فقرأها قومه ، فلذلك ضربوا الغفيلي حتى أقر[2] . وفي أكل السباع أنفه يقول :

من مبلغ الفتيـــان أن مرقشاً   أضحى على الأصحاب عبئاً مثقلا
ذهب السبـــاع بأنفه فتركنه   ينهشن منه في القفـــار مجدلا[3]

ونسب له قوله :

ومن يلقَ خيراً يحمد النـاسُ أمرهُ   ومَنْ يغوَ لا يعدم على الغيّ لائما
أخوك الــذي إن أحرجتك ملمةٌ   من الدهر لم يبرح لهـا الدهر واجما
وليس أخــوك بالذي إن تشعبت   عليك أمور ظــلّ يلحاك دائماً[4]

وقد تعرض (المعري) لكلمة (المرقش) :

هل بالديار أن تجيب صمم ؟   لو كان حيـاً ناطقاً كلّم

وقال بعد ذلك : « على أن مرقشاً خلط في كلمته فقال :

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٢) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٣٨ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ رسالة الغفران (٣٥٥) ، الاغاني (٦/١٢٧) .
٤ بلوغ الارب (٣/١٠٧ وما بعدها) .

ماذا علينـــا ان غزا ملك   من آل جفنة ظالم مُرغِـم

وهذا خروج عما ذهب اليه الخليل »[1]

وتعرض بعد ذلك له ، بأن تصور نفسه وهو يقول له وقد زاره في أطبـاق العذاب: « ان قوماً من أهل الإسلام كانوا يسترّون بقصيدتك الميمية التي أولها :

هل بالديار أن تجيب صمم   لو كان حياً ناطقاً كلّم

وإنها عندي لمن المفردات . وكان بعض الأدباء يرى أنها والميمية التي قالهـا المرقش الأصغر ناقصتان عن القصائد المفضليات ، ولقد وهم صاحب هذه المقالة. وبعض الناس يروي هذا الشعر لك :

تخيّرت من نعمان عود أراكة   لهند ، ولكن من يُبلغه هندا ؟
خليليّ جُورا بارك الله فيكما   وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قصدا
وقولا لها : ليس الضلال أجارنا   ولكننـــا جرنا لنلقاكُمُ عمدا

ولم أجدها في ديوانك فهل ما حُكي صحيحٌ عنك ؟

فيقول : لقد قلت أشياء كثيرة ، منها ما نُقل اليكم ، ومنها لم ينقل . وقد يجوز أن أكون قلتُ هذه الأبيات ولكني سَرِقتها لطول الأبد ولعلك تنكر انها في هند ، وان صاحبتي أسماء ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشبب من الاسم الى الاسم ، ويكون في بعض عمره مستهتراً بشخص من الناس ، ثم ينصرف الى شخص آخر ، ألا تسمع الى قولي :

سفه تذَكّرُهُ خويلة بعدما   حالت ذرا نجران دون لقائها »[2]

ومن القصيدة الميمية المنسوبة اليه قوله :

النشر مسك والوجوه دنـــا   نيرٌ ، وأطراف الأكف عنمْ[3]

---

١ رسالة الغفران (٣٣٧ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (٣٥٥ وما بعدها) .

٣ رسالة الغفران (٥٦٠) ، أمالي المرتضى (٢/٢٥٥ ، ٢٥٧) .

وقوله :

ليس على طول الحياة نَدَمْ   ومِن وراء المــرء ما يعلم[1]

ولم يبق من شعر المرقش الأكبر إلا (١٢) قطعة ، وفي بعض شعره اضطراب، والقطعة (٥٤) من الأصمعيات من بحر عروض لم يهتــد المتأخرون الى تحديده[2] . ونجد بحر الخفيف عنده[3] .

وأما المرقش الأصغر ، فهو (عمرو بن حرملــة) ، وقيل : (ربيعة بن سفيان) ، وقيل (عمرو بن سفيان) وهو من بني سعد بن مالك بن ضبيعة ، أحد عشاق العرب المشهورين . وورد في رواية أنه أخو المرقش الأكبر ، ويقال إنه ابن اخيه . وقد اشتهر بقصة غرامه بفاطمة بنت المنذر الثــالث ملك الحيرة[4] وكانت لها خادمة تجمع بينهما ، يقال لها (هند بنت عجلان) ، وكان للمرقش ابن عمّ يقال له (جناب بن عوف بن مالك) ، لا يؤثر عايه أحداً ، وكان لا يكتمه شيئاً من أمره ، فألح عليه أن يخلفه ليلة عند صاحبته ، فامتنع عليــه زماناً ، ثم انه أجابــه الى ذلك ، فعلمه كيف يصنع اذا دخل عليها ، فلما دنا منها أنكرت عليه مسّه ، فنحته عنها ، وقالت : لعن الله سراً عند المُعيدي ، وجاءت الوليدة فأخرجته ، فأتى المرقش فأخبره ، فعضّ على إبهامه فقطعها أسفاً وهام على وجهه حياءً . وخلد القصة في شعر[5] .

وكان هرب من المنذر وأتى الشام ، فقال :

أبلغ المنذر المنقبَ عني   غير مستعتب ولا مستعين
لاتَ هنّا وليتني طرفَ الز   ج وأهلي بالشأم ذاتِ القرون[6]

---

١ أمالي المرتضى (٧٨/٢) .
٢ بروكلمن (١٠٢/١) .
٣ غرونباوم (٢٧٩) .
٤ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (١٠٥ وما بعدها) ، الاغاني (١٩٣/٥ وما بعدها) ، للمرزباني (٢٠١) ، بروكلمن (١٠٣/١) ، (٤ وما بعدهــا) ، (فراج) ، المؤتلف (١٨٤) ، المفضليات (١١٤) ، الاغاني (١٣٦/٦ وما بعدها) ، رسالة الغفران (٣٥٧) .
٥ الشعر والشعراء (١٤٣/١) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١٤٤/١) ، (الثقافة) .

وصاحبته بنت عجلان ، أمة كانت لبنت (عمرو بن هند) ، وفيها يقول:

يا بنت عجلان ما أصبرني على خطوب كنحت بالقدوم

ومن شعره المشهور هذا البيت :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمرهُ ومن يغو لا يعدم على الغي لائما [1]

ويعد المرقش الأصغر أشعر من عمه ، ويغلب على شعره الغزل ، وهو أكثر صقلاً ، وأقرب مطابقة لأسلوب المتأخرين [2] .

ومن شعراء اليمامة : (المتلمس) ، وهو (جرير عبد المسيح) ، وقيل (جرير بن عبد العزى) ، وقيل غير ذلك ، وهو من بني ضبيعة ، وأخواله (بنو يشكر) . وهو خال (طرفة) ، لقّب بالمتلمس لبيت قاله ، هو :

فهذا أوان العرض حيّا ذبابه زنابيره والأزرقُ المتلمس

وقيل ان اسم أبيه (عبد العزى) ، وهو من أسماء الوثنيين،ويظهر انه تنصر فسمى نفسه عبد المسيح [3] .

وكان ينادم (عمرو بن هند) ملك الحيرة هو وطرفة بن العبد ، فبلغه انهما هجواه ، فكتب لهما الى عامله بالبحرين كتابين ، أوهمهما انه أمر لهما فيهما بجوائز، وكتب اليه يأمره بقتلهما ، فاستراب (المتلمس) من الكتابين وعرض كتابه على غلام من أهل الحيرة ، فقرأه فإذا فيه أمر بقطع يديه ورجليه ، ودفنه حياً ، فزقه ، ورماه في نهر الحيرة ، وقال لطرفة : ادفع اليه صحيفتك يقرأها ، فأبى وذهب الى البحرين فقتله عامل (عمرو بن هند) . وهرب المتلمس الى بصرى

---

١ الشعر والشعراء (١٤٣/١ وما بعدها) ، (فمن يلق خيرا) ، أمالي المرتضى (٢٤٦/٢) .

٢ بروكلمن (١٠٣/١) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الآداب العربية (٩٣/١) ، الشعر والشعراء (١١٢/١ وما بعدها) ، الخزانة (٧٣/٣) ، (بولاق) .
فهذا أوان العرض جن ذبابه زنابيره والازرق المتلمس
السيوطي ، شرح شواهد (٢٩٨/١) ، الاشتقاق (١٩٣/١) ، البيان (٣٧٥/١) .

واستقر هناك الى أن مات بها . وضرب المثل بصحيفة المتلمس[1] .

و (المتلمس) من (ضبيعة أضجم) ، وقد نسبت الى (الحارث الأضجم)، وكان قديم السؤدد فيهم ، كانت تجبى اليه أتاوتهم[2] .

وقد ذكر (العيني) أن البيت المنسوب الى (المتلمس) ، وهو البيت الذي ضرب به المثل ، فقيل صحيفة المتلمس ، ونصه :

ألقي الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعله ألقاها

ليس من نظم المتلمس ، ولم يقع في ديوان شعره ، وإنما هو لأبي مروان النحوي ، قاله في قصة المتلمس حين فرّ من عمرو بن هند . وكان قد هجا عمرو بن هند ، وهجاه أيضاً طرفة بن العبد ، فقتل طرفة وفرّ المتلمس . وبعد البيت المذكور :

ومضى يظن بريد عمرو خلفه خوفاً وفارق أرضه وقلاها[3]

ويحتمل على رأي (بروكلمن) أن تكون قصة الصحيفة مختلفة ، وكذلك القصيدة التي ورد فيها ذلك البيت[4] .

قال الشريف (المرتضى) : « ويقال ان صاحب المتلمس وطرفة في هذه القصة هو سعيان بن المنذر ، وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منذر أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وأبو منذر هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح

---

1 الشعر والشعراء (١/١١٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢١/١٢٠) ، الخزانة (١/٤٤٦) ، (بولاق) ، الميداني ، أمثال (١/٢٧٠) ، أمالي المرتضى (١/١٨٣ وما بعدها) .
2 الاشتقاق (١/١٩٢) .
3 العيني ، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (٤/١٣٤) ، (حاشية على خزانة الادب) .
4 بروكلمن (١/٩٤) .

طرفة النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان»[1].

وفي شعر المتلمس ما يتعلق بأخبار القبائل ، وفيه هجاء لعمرو بن هند . وهو من الشعراء المقلين . « قال أبو عبيدة : واتفقوا على ان أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس ، وحصين بن الحمام المري »[2] . وذكر انه أخذ يهجو (عمرو بن هند) من منفاه ، ويحرض قوم طرفة على الطلب بدمه. فمن جملة ما قاله قصيدته :

إن العراق وأهله كانوا الهوى فإذا نأى بي ودهم فليبعد

ولما تهدده (عمرو) ، وحلف ان وجده بالعراق ليقتلنه وان لا يطعمه حب العراق ، قال المتلمس :

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق اذا ديس الكراديس[3]

وبقي ببصرى حتى هلك بها ، وكان له ابن يقال له : عبد المدان ، أدرك الاسلام ، وكان شاعراً ، هلك ببصرى ولا عقب له[4] .

وكان طرفة بن العبد وخاله المتلمس وفدا على (عمرو بن هند) ، فنزلا منه خاصة ونادماه ، ثم انهما هجواه بعد ذلك ، فكتب لهما كتابين الى البحرين وقال لهما : إني قد كتبت لكما بصلة ، فاشخصا لتقبضاها . فخرجا من عنده، والكتابان في أيديهما ، فمرّا بشيخ جالس على ظهر الطريق منكشفاً يقضي حاجته ، وهو مع ذلك يأكل ويتفلى ، فقال أحدهما لصاحبه: هل رأيت أعجب من هذا الشيخ ؟ فسمع الشيخ مقالته فقال : ما ترى من عجبي ؟ أخرج خبيثاً ، وأدخل طيباً ، وأقتل عدواً ، وان أعجب مني لمن يحمل حتفه وهو لا يدري . فأوجس المتلمس في نفسه خيفة وارتاب بكتابه . ولقيه غلام من الحيرة فقال : أتقرأ يا غلام ؟

---

١ أمالي المرتضى (١/١٨٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/١١٥) .
٣ الخزانة (٣/٧٥) ، (بولاق) .
٤ الشعر والشعراء (١/١١٥) ، (دار الثقافة) .

قال : نعم . ففض خاتم كتابه ودفعه الى الغلام فقرأه عليــه ، فإذا فيه : إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه حياً . فأقبل على طرفة فقال : تعلم والله، لقد كتب فيك بمثل هذا . فلم يلتفت الى قول المتلمس ، وألقى المتلمس كتابه في نهر الحيرة وهرب الى الشام ، وأخذ يهجو عمرو بن هند[1] .

ورويت القصة بشكل آخر خال من التزويق والتنميق نوعاً ما . ذكرت ان « المتلمس وطرفة بن العبد هجوا عمرو بن هند ، فبلغه ذلك ، فلم يظهر لهما شيئاً ، ثم مدحاه فكتب لكل منهما كتاباً الى عامله بالحيرة (؟) ، وأوهم انه كتب لهما فيه بصلة . فلما وصلا الحيرة ، قال المتلمس لطرفة : إنا هجوناه ، ولعله اطلع على ذلك ، ولو أراد أن يصلنا لأعطانا ! فهلم ندفع الكتابين الى من يقرأهما ، فإن كان خيراً وإلا ندرنا . فامتنع طرفة ، ونظر المتلمس الى غلام قد خرج من المكتب فقال : أتحسن القراءة ؟ قال : نعم . فأعطاه الكتاب ففتحه، فإذا فيه قتله . ففر المتلمس الى الشام وهجا عمراً هجاءً قذعاً . وأتى طرفة الى عامل الحيرة بالكتاب فقتله »[2] . وقد حلت الحيرة في هذه القصة في محل البحرين، وصار العامل القاتل عامل الحيرة ، وخلت من ذكر الشيخ .

وطرفة هو القائل في قصيدة له :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وكان النبي إذا استراث الخبر يتمثل بعجز هذا البيت من هذه القصيدة[3] .

ومن الشعر المنسوب اليه ، قوله :

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير على الفساد
وحفظ المال خير من بغاه وجول في البلاد بغير زاد

وقوله :

ولا يقيم على ذل يراد به إلا الأذلان : غير الحي، والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له أحد

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٩٥ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٥) ، (فراج)٠
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٧١) ، الشعر والشعراء (١/١١٢) ٠
٣ المرزباني ، معجم (٦) ٠

وقوله :

ولو غيرُ أخوالي أرادوا نقيصتي   جعلت لهم فـوق العرانين ميسما
وما كنت إلاّ مثل قاطع كفّـه   بكفٍّ له أخرى فأصبح أجذما[1]

وذكر أن النبي كتب لعيينة بن حصن كتاباً ، فقال : يا محمد أتراني حاملاً الى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس . أي لا أحمل الى قومي كتاباً لا علم لي بما فيه . وقد أشير الى (صحيفة المتلمس) في شعر الفرزدق[2] ، وفي شعر شعراء آخرين[3] .

ونسب الى (المتلمس) قوله :

وأعلمُ علمَ حقٍ غيرِ ظنّ   وتقوى الله من خيرِ العتادِ
لحفظ المال أيسرُ من بُغاهُ   وضربٍ في البلاد بغير زادِ
وإصلاح القليل يزيد فيه   ولا يبقى الكثير مع الفسادِ[4]

وله شعر في الأقارب ذكره له الجاحظ في كتاب الحيوان[5] .

والمسيب بن علس ، واسمه (زهير بن علس) ، وانما لقب بالمسيب بقوله:

فإن سرّكم ألا تؤوب لقاحكم   غزاراً فقولوا للمسيب يلحق[6]

و (المسيب بن علس بن مالك بن عمرو بن قامة) ، هو من (جُماعة) ، وهم من (بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار) ، ويكنى (أبا الفضة) ، وهو خال الأعشى ، وكان الأعشى راويته . واسمه : (زهير بن علس) . وانما سمي (المسيب) لبيت قاله ، هو :

فإن سرّكم ألا تؤوب لقاحكم   غزاراً فقولوا للمسيب يلحق

---

١ بلوغ الارب (٣/١١٢ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٩٧) .
٣ الحيوان (٢/٨٥) .
٤ الحيوان (٣/٤٧) .
٥ (٣/١٣٦) .
٦ الشعر والشعراء (١/١٠٨) .

وهو جاهلي لم يدرك الاسلام ، من شعراء بكر بن وائل المعدودين . وكان امتدح بعض الأعاجم ، فأعطاه ، ثم أتى عدواً له من الأعاجم يسأله ، فسمّه فمات ، ولا عقب له[1] .

وقد ذكر (الهمداني) ان الأعشى يحتذي في شعره على مثال (المسيب) ، وكان الأعشى راويته[2] .

وله قصيدة قالها في (القعقاع بن معبد بن زرارة) ، فيها :

فلأهدين مع الرياح قصيدة   مني مغلغلة الى القعقاع
أنت الذي زعمت معد أنه   أهل التكرم والندى والباع[3]

وقد أورد (الهمداني) له قصيدة زعم أنه قالها في مدح (زيد بن مرب)، أو في مدح ابن ابنه (زيد بن قيس بن زيد) أولها :

كلفت بليلي خدين الشباب   وعالجت منها زماناً خبالا
لها العين والجيد من مغزل   تلاعب في القفرات الغزالا[4]

وقد ذكر (الجاحظ) شعراً قال انه لغيلان بن سلمة الثقفي ، هو :

في الآل يخفضها ويرفعها   ريعٌ كأن متونه السحلُ
عقلاً ورقماً ثم أردفه   كِلَلٌ على ألوانها الخملُ
كدم الرعاف على مآزرها   وكأنهن ضوامراً إجلُ

وعقب عليه بقوله : « وهذا الشعر عندنا للمسيب بن علس »[5] .

وقد نشر ديوان (المسيب بن علس) في سلسلة نشريات (كب) Gibb بلندن سنة (١٩٢٨م)[6] .

---

١ الاشتقاق (٣١٦) ، الخزانة (٥٤٥/١) ، الشعر والشعراء (١٠٧/١) ، ابن سلام ، طبقات (٣٦) ، القاب الشعراء (٣١٥) ، الخزانة (٩/٢) ، (بولاق) .
٢ الاكليل (٣٠٧/٢) ، الشعر والشعراء (١٠٨/١) ، أمالي المرتضى (٥٦٠/١) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .
٤ الاكليل (٣٠٤/٢ وما بعدها) .
٥ الحيوان (٣٣٥/٦) .
٦ بروكلمن (١٥١/١) . Gibb, Memorial, London 1928.

ومن شعراء اليمامة : (ذو الكف الأشل) ، واسمه (عمرو بن عبدالله بن حنيفة) من بني قيس بن ثعلبة ، يكنى أبا جلان ، فارس شاعر جاهلي، توعدته (بنو حنيفة) فقال فيها شعراً[1] .

و (الفند) ، هو (شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمّان بن مالك بن صعب) الزمّاني من شعراء الجاهلية. وله قصيدة في حرب البسوس[2] . وهو من (بني حنيفة): وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب، أي حرب البسوس، فكتب بنو بكر بن وائل الى بني حنيفة يستنصرونهم ، فأمدوهم بالفند الزماني في سبعين رجلاً ، وكتبوا اليهم إنا قد بعثنا اليكم ألف رجل[3] .

ومن الشعر المنسوب اليه ، قوله :

كففنا عن بني هند   وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيام ترجعهم   جميعاً كالذي كانوا
فلما صرح الشرّ   وأضحى وهو عريان
شددنا شدة الليث   عدا والليث غضبان
بضرب فيه تفجيع   وتوهينٌ وارنان
وطعن كفم الزق   وَهى والزق ملان[4]

وقد وردت هذه الأبيات في (الخزانة) بشيء من الاختلاف[5] .

و (عمرو بن عبد العُزى بن سحيم بن مرّ بن الدئل) الحنفي ، من بني حنيفة ، وهو شاعر جاهلي[6] ، وكذلك كان (عمرو بن الذارع) الحنفي من الشعراء الجاهليين[7] .

---

١ المرزباني ، معجم (١٤) .
٢ الحماسة (٢١/١) ، الخزانة (٥٧/٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (٩٤٤/٢) ، الاغاني (١٤٣/٢٠ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٠٧) ، الحماسة ، للبحتري (٧٤) الحماسة لابي تمام (٦/١) .
٣ الخزانة (٥٧/٢ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٤١٥/٦ وما بعدها) ، الامالي ، للقالي (٢٦٠/١) .
٥ الخزانة (٥٨/٢) .
٦ المعجم ، للمرزباني (٤٠) .
٧ المعجم ، للمرزباني (٤١) .

ومن شعراء اليمامة أيضاً (موسى بن جابر بن أرقم بن سلمة بن عُبيد) الحنفي اليمامي . وكان جاهلياً نصرانياً ، يلقب بـ (أزيرق) اليمامة . ويعرف بـ (ابن ليلى) ، وهي أمه . وهو شاعر كثير الشعر[1] ، وعرف أيضاً بـ (ابن الفريعة)[2] . وورد أنه كان من الشعراء الاسلاميين[3] .

ومن شعراء اليمامة : (مجاعه بن مرارة بن سلمى[4] بن زيد بن عبيد بن ثعلبة ابن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة) الحنفي اليمامي ، وكان من رؤساء حنيفة ، وأسلم ووفد ، وأعطاه الرسول أرضاً باليمامة يقال لها (العورة) ، وكتب له كتاباً بذلك ، وكان بليغاً حكيماً ، وكان ممن أسر يوم القيامة ، فأشير على (خالد) باستبقائه فأبقاه ؛ وكان قد انضم الى (مسيلمة)[5] .

ومن شعراء اليمامة (ثمامة بن اثال) ، وكان من سادتها ، ولما أسلم قطع الميرة عن أهل مكة ، وكانوا قد عتبوا عليه لدخوله في الاسلام ، حتى شق عليهم ذلك ، فكتبوا الى الرسول : انك تأمر بصلة الرحم ، وإنا قد هلكنا ، فكتب الى ثمامة ان خل اليهم الحمل ، فخلاه اليهم . وكان قد ثبت على الاسلام ، ولم يرتد مع مسيلمة . وتوفي سنة (١٢) للهجرة[6] . وذكر من شعره قوله :

دعانا الى ترك الديانة والهدى مسيلمة الكذاب اذا جاء يسجع
فيا عجباً من معشر قد تتابعوا له في سبيل الغي والغي أشنع[7]

وأشير الى شاعرة من شاعرات (بني عجل) اسمها (حسينة) ، وكان (عمرو بن الحارث بن أقيش) العكلي ، قد أسرها ، في يوم العذاب في الجاهلية ، وهو يوم أغارت فيه (بنو عبد مناة بن أد بن طابخة) على عجل وحنيفة بأرض

---

١ المرزباني (٢٨٥) ، شرح الحماسة ، للمرزوقي (٣٢٦) .
٢ الخزانة (١/١٤٦) ، (بولاق) ، المؤتلف (١٦٥) ، الاغاني (١٠/١٠٧) ، الحيوان (٤/٢٨٠) .
٣ الحيوان (٤/٢٨٠) ، (حاشية ٥) .
٤ وقيل سليم .
٥ الاصابة (٣/٢٤٢) ، (رقم ٧٧٢٤) ، المرزباني ، معجم (٤٤٢) ، خليفة بن خياط كتاب الطبقات (٦٦) .
٦ الاصابة (١/٢٠٤) ، (رقم ٩٦١) ، الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادي (٢٨٣) .
٧ الاستيعاب (١/٢٠٨) ، (حاشية على الاصابة) .

جو باليمامة ، فقاداها أخوها (أبجر بن جابر بن بجير بن شريط) العجلي بمائة من الإبل وخمسة أفراس[1] .

وإذا تجوزنا فأدخلنا (الحيرة) في جملة هذه القرى ، وجب اعتبار (عدي ابن زيد) العبادي ممثلها الأول ، إذ لم يبلغ أحد مبلغه في الشعر من بين رجال هذه المدينة . فهو المقدم على جميع شعراء الحيرة التي كان يفد اليها الشعراء ، ولأكثرهم ذكريات مع ملوكها ، الذين كانوا يجزلون العطاء لمن يمدحهم ويكيل لهم بالثناء ، لا لمجرد حب الاستماع الى المدح والثناء والإطراء ، بل لما لشعر المديح ولشعر الهجاء من أثر كبير في حياة ذلك اليوم ، فالشعر هو من أهم وسائل الإعلام في ذلك الوقت ، وللدعاية والإعلام وجلب الناس نحو الممدوح أهمية كبيرة بالنسبة الى رجال الحكم والسياسة في كل زمان ومكان ، إن كذباً وان صدقاً ، فالسياسي يريد تحقيق سياسته ، بأية وسيلة كانت ، حتى إن كانت بالكذب والغش والتزوير ، فالشعر من وسائل الخدمة السياسية التي استعان بها ملوك الحيرة في بسط نفوذهم في جزيرة العرب .

و (عدي بن زيد) العبادي هو ابن الحيرة ، فهو لسان هذه المدينة ، أما بقية الشعراء ، فقد كانوا يأتون هذه المدينة ، لنيل صلة أو لقضاء أمر ، ثم يعودون الى ديارهم ، ومنهم من كان يطيل المقام بها ، فيتأثر بثقافتها وبمحيطها حسب قابلياته وسرعة استجابته للمؤثرات الخارجية . ويظهر انه كان لأهل الحيرة ولعرب العراق عامة ذوق خاص في الشعر ، ولهم حب لتنويع البحور ، والتزام البحور السهلة المؤثرة ، وميل الى التنوع في الوزن ، والتعبير أحياناً عن بعض أفكار مستمدة من البداوة ، والظهور بلون محدد من التراث المحلي[2] .

يقول (غرونباوم) : « وليس من الغريب أن نجد التفنن في الأوزان الشعرية في العراق أغنى مما كان عليه في أي مكان آخر ، وذلك لأن أجيالاً كثيرة هي التي عاشت في المدينة وفي البلاط ، ونزعت بطبيعة وضعها الى التحسين في تلك الفنون ، ولكن الغريب المدهش حقاً ان نرى أبا دؤاد يعرض علينا أغنى تنوع عروضي في الشعر العربي القديم ، لأن شعره جاء على اثني عشر بحراً . واذا

---

١ المرزباني ، معجم (٣٧) .
٢ غرونباوم (٢٦٤) .

عدينا أمر التنويع في الأوزان ، وجدنا هذه المدرسة قد أكثرت من بحر الرمل ، ولا يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدي في سبع قصائد ، والمثقب في واحدة ، والأعشى في اثنتين. ولا يستثنى من هذا الحكم أيضاً إلا امرؤ القيس ، القصيدة ١٨ . وأقول ان هذه الحقيقة تقوي الرواية التي تقول انه كان راوية لأبي دؤاد »[1] .

وقد لفت نظره وجود هذا البحر : بحر الرمل في العراق ، ونموه بالحيرة بصورة خاصة ، وعلل ذلك بقوله : « ان الرمل استعير من الوزن البهلوي الثماني مقاطع كما صوّره (بنفينيسته) (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ ، ١٩٣٠) ، وانه عدل على نحو يلائم العروض العربي . والحق ان ليس من عقبة داخلية تقف دون القول بوجود أثر فارسي في النسق الشعري العربي ، في المناطق المجاورة للدولة الفارسية والتابعة لها ، ولأؤيد هذه النظرية أحيل القارىء على بحر المتقارب ، فقد أثبت (بنفينيسته) انه مشتق من البحر البهلوي Hendekasyllabic ذي الأحد عشر مقطعاً اثباتاً يكاد لا يقبل الشك »[2] .

ولاحظ (غرونباوم) أن الخاصية العروضية الثانية لمدرسة الحيرة هي نزوعها الى بحر الخفيف ، وعند أبي دؤاد منه خمس عشرة قصيدة ، وعند عدي سبع ، وعند الأعشى خمس ، ولم يستعمل هذا البحر عند الشعراء المعاصرين إلا على نحو عارض[3] . ولكننا نجد بحر الخفيف في شعر (عمرو بن قميئة)[4] ، وفي شعر للمرقش الأكبر[5] ، والمرقش الأصغر[6] ، وفي شعر لعبيد[7] ، وفي شعر ينسب لعامر ابن الطفيل[8] ، ومعلقة الحارث بن حلزة[9] .

ويعتبر (شوارتز) بحري الرمل والخفيف نوعاً من الإيقاع الفارسي ، انتقل الى العربية . أما تأثير الشعر الساساني في الأعشى فيشهد به قطعة (بهلفية) طبعها

---

١ غرونباوم (٢٦٥ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (٢٦٥ وما بعدها) .
٣ غرونباوم (٢٦٦) .
٤ القصيدة ٦ و ٩ (لايل) .
٥ المفضليات (٤٨) .
٦ المفضليات (٥٩) .
٧ عبيد (١١) و (٢٧) .
٨ القصيدة (٥) ، والقطعة (١٤) ، (لايل) .
٩ غرونباوم (٢٧٧) .

(بنفينيسته) وترجمها، وقطعة أبي دؤاد ١٤[١] ، و ١٨[٢]، وما فيها من إشارة الى البيزرة ، تدلان على أثر الحضارة الساسانية في العراق .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع تأثر الشعر الجاهلي بمؤثرات أجنبية ، فأنكر ذلك ، إذ قال : « وأما ما زعمه بعض العلماء من أن مؤثرات أجنبية أثرت في فن الشعر القديم ، فليس هناك ما يؤيده ، نعم يريد بورداخ أن يرجع النسيب العربي الى شعر القصور اليونانية بالاسكندرية ، لأن أكثر النسيب العربي يقال في عشق النساء المتزوجات ، كما هو الحال عند شعراء ملوك الإسكندرية،ويتصور انتقال هذه الصناعة الى العرب عن طريق شعراء الملوك في الشأم والعراق . ولكن مثل هذه الأبيات الغزلية ، التي تشبه النسيب في مطلع القصائد وإن لم تبلغ بعد نمواً كاملاً ، يعرفها أيضاً شعر التكرية في أوائل القصائد المطولة وفي أواخرها .

ولا شك أنه من قبيل المصادفة والاتفاق أن يبدو في قصيدة للمسيب بن علس، يتكرر فيها ست مرات هذا الخطاب : ولأنت ، صدى ورنين لأسلوب الأنشودة القديم الذي يتميز به أكتوستوس تيوس . كما وضح ذلك الأستاذ نوردن[٣] .

ونرى في الشعر العراقي وفي شعر سواحل الخليج ، أي العربية الشرقية ، ذكراً للبحر وللسفين . وفي شعر طرفة قوله :

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دَدِ
عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجورُ بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حَبابَ الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد[٤]

وصف للبحر ولسفن رجل يظهر انه كان يهودياً صاحب سفن ، ولا نجد هذا الوصف أو الالتفاتة الى البحر في شعر الشعراء القاطنين البوادي، أو الذين لم يروا النهرين الكبيرين في العراق أو ساحل الخليج . فهـذا الوصف هو من خصائص

---

١ فانتحى مثل ما انتحى باز دجن ... جوعته القناص للدراج
الاغاني (١٥/٩٥) ، من الخفيف .
٢ اذا شاء فارسه ضمه ... كما ضم باز اليه الجناح
غرونباوم (٣٠٢) .
٣ بروكلمن (١/٦٢) .
٤ البيت رقم (٣) وما بعده من معلقته .

البلاد التي تكون على سواحل البحار .

وليس وجود السهولة في الشعر العراقي مثل شعر (عدي بن زيد) ، أو في شعر أهل القرى ، بأمر غريب . وقد عبر عنها بالليونة كذلك . فالحضارة ، أي الحياة في القرية أو في المدينة ، أو حياة أهل المدر ، هي ليونة وسهولة في حد ذاتها بالنسبة الى حياة البوادي والبراري ، حيث الخشونة والغلظة في الحياة ، ومن ثم صار الأعرابي غليظاً فظاً خشناً،يتكلم بعنجهية لا يفهمها أهل المدر والاستقرار، فيتصورونها فظاظة منه وغلظة ، وانسان على هذا النحو من الطبع أو التطبع،لا بد وأن يكون شعره خشناً مثله ، فالشعر تعبير عن احساس نفسي ، وعن انعكاس لثقافة المرء ولتربيته الناتجة عن محيطه ، ولهذا نجد شعر شعراء القرى يختلف عن شعر أهل البوادي ، بألفاظه وبأسلوب نظمه وبمعانيه وبروحه الحضرية .

وقد وصف شعر (عدي) باللينونة ، ونسبوا ذلك الى سكنه الحضر . « وأما عدي بن زيد فلقربه من الريف وسكناه الحيرة في حيز النعمان بن المنذر لانت ألفاظه فحمل عليه كثير ، وإلا فهو مقل »[1] . وقالوا عنه « وعدي من الشعراء مثل سُهيل في النجوم : يعارضها ، ولا يجري معها . هؤلاء أشعارهم كثيرة في ذاتها ، قليلة في أيدي الناس ، ذهبت بذهاب الرواة الذين يحملونها »[2] . وقيل عن شعره : « والعرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية، وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب »[3] . وقد أرادوا بالكتب ، الكتب المقدسة التوراة والأناجيل والكتب النصرانية الأخرى . ولم يشيروا الى لغتها ، والأغلب أنها كانت بالإرمية التي كانت شائعة في العراق وبين نصارى المشرق ، ولكني لا استبعد احتمال وجود بعض منها باللغة العربية ، لأن غالبية أهل الحيرة كانت تتكلم بها ، ولا سيما الطبقة الحاكمة التي هي من صلب عربي . فلا يستبعد احتمال ترجمة بعض الكتب لهم بالعربية ، للوقوف عليها .

قال (أبو عبيدة) « إن العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ، فلا بد أن يكون أساس الشعر عندهم على صميم العربية

---

١ العمدة (١/١٠٤) .
٢ العمدة (١/١٠٤) ، الاغاني (٢/١٨) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٥٤) ، (الثقافة) .

من لسان مضر ، وما عدا ذلك فهو مما تبعث عليه فطرة صاحبه ، ولكن العرب لا يبالون به ولا يروونه ، وعلى هذا مشى المتأخرون في الاحتجاج بالشعر العربي، فالعلماء لا يرون شعر عدي بن زيد حجة ، لأنه كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ؛ وهذا الاعتبار يحدد لنا منشأ الشعر »[1] . ولكننا لو تصفحنا شعر الشواهد، نجد أن فيه شعراً من شعر عدي ، استشهد به في القواعد[2]، وقد ذكر (الجاحظ) أن (أبا إياس) النصري ، وكان أنسب الناس ، كان يقول : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دُواد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي »[3] .

والواقع ان شعر (عدي) أقرب الينا من شعر أهل البادية ، وأسهل فهماً ، وفيه معان حضرية لا نعثر عليها في شعر شعراء أهل الوبر ، ونجد في شعره ألفاظاً معربة ، استشهد بها (الجواليقي) في كتابه المعرب ، وذلك دليل على تأثره بمحيطه وببلدته التي كانت عربية نبطية فارسية ، تلعب بها تيارات ثقافية متباينة، وهو يخالف شعراء البوادي، في ابتعاده عن الأعاريض الطويلة، وميله الى الأعاريض القصيرة ، ثم في أسلوب خمرياته الشبيهة بخمريات الأعشى وحسان بن ثابت ، ثم يخالف شعراء نجد في أفكار الزهد والتصوف التي ترد في شعره ، والتي لا ترد ولا تخطر على بال الشاعر الأعرابي[4] .

وعدي بن زيد العبادي ، هو (عدي بن زيد بن حماد بن أيوب) ، وقيل: (عدي بن زيد بن حمار (حماز) بن زيد بن أيوب بن مجروف (محروف) ابن عامر بن عصبة (عصية) بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم) ، وقيل : عدي بن زيد بن أيوب بن حمار (حماد) (جمار) ، أحد بني (امرىء

---

١ الرافعي (٢/٨ وما بعدها) ، الاغاني (١٥/٩٧) ، الشعر والشعراء (١٥٠ وما بعدها ، ١٦٢) .

٢ شرح شواهد المغنى ، للسيوطي (٢/٦٥٨) .

٣ البيان والتبيين (١/٣٢٣) .

٤ كارلو نالينو (٩٠ وما بعدها) .

القيس بن زيد مناة بن تميم)[1] . وكان كاتباً لكسرى على ما يجتبي من الغور ، وكان سبب ملك النعمان بن المنذر . وكان كسرى مكرماً له محباً ، وكان عدي أنبل أهل الحيرة وأجودهم منزلة ولو أراد أن يملكه كسرى على الحيرة ملكه ، ولكن كان يحب الصيد واللهو ، ولم يكن راغباً في ملك العرب[2] . وعرف بـ (أبي سوادة)[3] .

وجدّ عدي أول من سمي من العرب بأيوب ، وجده (جمار) (حمار) (حماد) (حماز) أول من كتب من العرب ، لأنه نزل الحيرة فتعلم الكتابة منها . وذكره الجمحي في الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية ، وقال : هم أربعة رهط ، فحول شعراء ، موضعهم من الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة، طرفة وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدي بن زيد[4] . وذكر أن (حمازاً)، كان أول من تعلم الكتابة (من بني أيوب) وكتب للنعمان الأكبر[5] .

وكان لعدي بن زيد عدوّ من أهل الحيرة يقال له : (عدي بن أوس) من (بني مرينا) ، سبق أن تحدثت عنه ، أوغر صدر (النعمان) على عدي حتى حبسه بالصنّين ، سجن بظاهر الكوفة ، فقال عدي بن زيد شعره كله أو أكثره في الحبس حتى مات به[6] . وكان موته من جملة أسباب القضاء على حكم النعمان[7] .

---

١ وتجد اختلافا بين النسخ المطبوعة في ضبط الاعلام ، في مثل « حماد » و « مجروف » و « عصبة » ، وذلك بسبب ، اختلاف النسخ الخطية الاصلية في ضبط هذه الاسماء لتحريف وقع بها من النساخ ، فأخذ كل محقق ما وجده في نسخته ، أو في النسخ ، وبسبب الاخطاء المطبعية ، راجع الشعر والشعراء (١/١٥٠ ، ١٥٣) ، (الثقافة) ، (حماد) ، و « حمار » في معجم الشعراء ، للمرزباني (٨٠) ، (اخراج عبد الستار أحمد فراج) ، (حمار) ، (كذاني ا وهي احدى روايتين في اسمه، وجعلهاالشنقيطي « حماد » بالدال ، ويروى « حماز » و « خمار ») ، اسماء المغتالين (١٤٠) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، طبقات ابن سلام (١١٧) ، الاغاني (٢/١٧) ، الخزانة (١/١٨٤) ، الموشح (٧٢) .

٢ المرزباني ، معجم (٨٠ وما بعدها) ، (فراج) ، طبقات ابن سلام (٣١) ، رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .

٣ رسالة الغفران (١٨٦ ، ٢٠٣) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٧١ وما بعدها) .

٥ الشعر والشعراء (١/١٥٣) .

٦ كتاب أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام ، لمحمد بن حبيب (١٤٠ وما بعدها) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

٧ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٥٨ وما بعدها) .

وقد ذكر عنه علماء الشعر ، انه كان نصرانياً هو وأهله ، وليس معدوداً من الفحول ، وعيب عليه أشياء . « وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ، يعارضها ولا يجري معها. وكذلك عندهم أمية بن أبي الصلت . ومثلها عندهم من الاسلاميين الكميت والطرماح »[1] . وقيل عنه انه « كان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة ، وله أربع قصائد غرر احداهن :

أرواح مودع أم بُكـور لك ؟ فاعمد لأي حال تصير »

والثانية :

أتعرفُ رسم الدار من أم معبدِ نعم ، فرماك الشوق قبل التجلد

والثالثة :

لم أرَ مثلَ الفتيان في غبن الـ أيـام ينسون ما عواقبهـا

والرابعة :

طـال ليلي أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيرا[2]

ومن شعره :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فـإن القرين بالمقارن مقتـدي

يقال ان رسول الله قال : كلمـة نبي ألقيت على لسان شاعر : إن القرين بالمقارن مقتدي[3] .

ومن الأخباريين من نسب القصيدة التي مطلعها :

طال ليـلي أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيرا

---

١ السيوطي ،شرح شواهد (٤٧١/١) ، الخزانة (١٨٤/١) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١٥٠/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ المرزباني ، معجم (٨٢) ، (فراج) .

الى (سوادة بن عدي) ، غير أن معظمهم يرى أنها لعدي[1] .

وذكر (أبو العلاء) المعري ، أنه شاهد بعض الورّاقين ببغداد ، يسأل عن قافية (عدي بن زيد) العبادي ، التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصبـ ـح يعـــاتبنه أمـــا تستفيق

وأن (ابن حاجب النعمان) ، وهو أبو الحسين عبد العزيز بن ابراهيم ، سأل عن هذه القصيدة وطُلبت في نسخ من ديوان عدي ، فلم توجد ، ثم سمع بعد ذلك أن رجلاً من أهل (أستراباذ) ، يقرأ هذه القافية في ديوان (العبادي) ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم[2] . وقد أورد (المعري) قصائـــد من شعره في رسالة الغفران[3] ، وأشار الى بعض ما نحل عليه ، والى بعض ما نسب اليه ، ونسب الى غيره[4] .

« قال الأصمعي : كان عدي لا يحسن أن ينعت الخيل ، وأخذ عليه قوله في صفة الفرس : فارهاً متتابعاً . وقال : لا يقال للفرس (فاره) انمـــا يقال له جواد وعتيق،ويقال للكودن والبغل والحمار : فاره »[5] . ووصف الخمر بالخضرة، ولم يعلم أحد وصفها بذلك . وهو أول من شبه أباريق الخمـر بالظباء[6] . وقالوا عنه انه ممن أقر على نفسه بالزنا . وأوردوا له أبيات شعر في ذلك[7] .

وفي شعر (عدي بن زيد) ، زهد الرهبان وتصوف المتصوفين ، فيه تذكير بالآخرة وتزهيد في الدنيا ، ووعظ بمصير محزن يلحق المغرورين العتـاة المتجبرين كالمصير الذي لحق الملوك الطغـــاة والأقوام الخالية ، ولا سيما في القصيـــدة التي يقول فيها :

---

١ الخزانة (١/١٨٣ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (١٧٣ وما بعدها) .

٣ (ص ١٨٦ وما بعدها) .

٤ رسالة الغفران (٣٣٥) .

٥ الشعر والشعراء (١/١٥٤) ، (الثقافة) .

٦ الشعر والشعراء (١/١٥٥) ، (الثقافة) .

٧ الشعر والشعراء (١/١٥٦) ، (الثقافة) .

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان ؟ أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الر وم ؟ لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فبان الملك عنه فبابه مهجور
وتبين رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدي تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبطة حي الى الممات يصير ؟
ثم بعد الفلاح والملك والنعمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور[1]

وورد أن (هشام بن عبد الملك) ، كان في مجلس فخم ، فحدثه (خالد ابن صفوان) بحديث ملك الحيرة الذي اغتر بهذه الدنيا ، ثم أنشده قصيدة عدي ابن زيد) ، التي منها :

أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأ يام ، بل أنت جاهل مغرور

حتى أتم انشادها عليه ، فبكى وتأثر[2] . وورد في رواية أخرى أن قائل هذا الشعر هو : أحد بني تميم (عدي بن سالم) المري العدوي . وقد ذكر ذلك (السهيلي) ، لكنه عاد بعد ذكره الشعر ، فقال : « والذي ذكره عدي بن زيد في هذا الشعر هو النعمان بن امرىء القيس جد النعمان بن المنذر . وأول هذا الشعر :

أرواح مودع أم بكور فانظر لأي ذاك تصير

قاله عدي وهو في سجن النعمان بن المنذر وفيه قتل »[3] . وروي أن (يونس

---

١ العقد الفريد (٣/١٩١) ، ابن هشام ، سيرة (١/٥٦) ، (حاشية على الروض) ،
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٣٠٤ وما بعدها) .
٣ الروض الانف (١/٥٨) .

النحوي) ، كان يقول : « لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلا هذا »[1] ، أي القصيدة المذكورة .

وفي شعره الذي قيل انه قاله للنعمان بن المنذر ، وكان قد نزل معه في ظل شجرة مونقة ليلهو النعمان هناك ، مثال على الحث على الزهد والابتعاد عن الدنيا والاقناع بنبذها والترهب في هذه الحياة . تحدث فيه على لسان الشجرة ، مخاطباً الملك ، قائلاً له بعد أن أرى ما عليه من الأنس والحبور : أيها الملك ؟ أبيت اللعن ، أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : وما الذي تقول ؟ قال : تقول:

من رآنا فليحدث نفسه ... انه مُوفٍ على قرن زوالِ
وصروف الدهر لا يبقى لها ... ولِما تأتي به صُمُّ الجبال
ربَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا ... يمزجون الخمرَ بالماء الزلال

الى أن يقول :

ثم أضحوا عصَفَ الدهرُ بهم ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

قالوا : فتنغص النعمان ، ونزع ملكه ، وخلعه عنه ، وترهب. الى غير ذلك من أشعار له ، فيها هذا المعنى من الترغيب في الزهد والابعاد عن لذائذ الدنيا[2].

و « حكي عن النعمان بن المنذر،أنه خرج متصيداً ومعه عدي بن زيد العبادي فمر بآرام – وهي القبور ، فقال عدي : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام؟ قال : لا . قال : إنها تقول :

أيهـا الركب المخضو ... ن على الأرض تمرون
لكما كنتم فكنـا ... وكما كنـا تكونون[3]

والشعر المنسوب الى (عدي) الـذي أدى على حد قول علماء الأخبار الى

---

١ بلوغ الارب (٣/١١٩) .

٢ المبرد ، الكامل (١/٢٩٤) ، العمدة (١/٢٢٣) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٣٠٨) ، المحاسن والاضداد (٣٦) .

٣ المحاسن والاضداد (٣٥) .

أعراض (النعمان) الساثح عن ملكه، وهروبه الى البراري ليعيش فيها عيشة الرهبان، هو شعر لا يمكن أن يكون من شعر (عدي) ، لأن شاعرنا لم يكن كبير السن آنذاك حتى يصدر منه مثل هذا الشعر ، كما أنه لم يكن على اتصال وثيق بذلك الملك في ذلك العهد . ولعلّه من الشعر المصنوع ، الذي وضع عليه . وهو شيء كثير . ولو قالوا إنه نظمه،وهو في سجنه حكاية عن قصة قديمة ، لكان كلامهم هذا أقرب الى العقل وأسهل للتصديق ، لأنه كان قد كبر في العمر ، وفي موقف يمكن أن يصدر منه مثل هذا الشعر .

وهو شعر سلس سهل جميـــل ذو معان عميقة لطيفة ، تتحدث عن تجارب رجل خبر الأيام ، وعاش في نعيم ورفاه ، حتى وصل مركزاً عالياً في بلده ، وإذا به يجد طريقـــه الى المقابر ، فيقبر بها وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، فمن رأى الثاوين فيها ، ومن نظر الى القبور ، فليحدث نفسه ، أنه سيكون مثلهم، وانه موف على قرن زوال ، وصروف الدهر لا يبقى لها ، ولا تدوم حال على حال . وقد صار اسلوبه هذا نموذجاً لمن مال الى الزهد والتصوف في الإسلام ، وربما كان الشاعر (أبو العتاهية) ممن تأثر بهذا الشعر المنسوب الى (عدي) .

ولعلّ الأحداث التي وقعت له ، والأيام التي قضاها في سجنه ، حتى جاءته منيته ، وهو فيه ، قد أثرت في نفسيته فجعلته ، يكثر من الزهد في هذه الحياة، ومن وعظ الإنسان ، بأن يغتر ويتجبر ويتكبر ، فالسعادة لا تدوم لأحد، والملك لا يخلد لملك أو مالك ، والحياة مهما كانت سعيدة ناعمة ، فإنها قصيـرة تمر مرّ البرق خاطفة ، فعلى المتجبر أن يتعلم العبر من حياة الماضين ومن الأمم العظيمة ، ومن الجبابرة ، من أمثال : الأكاسرة وملوك الروم ، وصاحب الحضر ، ومن حياة من شـــاد القصور ، وإذا به يتركها لغيره ، ثم يدفن في حفرة ضيقة ، فيخاطب النعمان صاحبه والشامتين به ، الحساد الذين وشوا به حتى أصابه ما أصابه، ويقول لهم جميعاً ، وهو قابع في سجنه[1] :

أيها الشامت المعيرُ بالدهـ ـــر أأنت المبرأ الموفـــور
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ـــام بل أنت جاهل مغرور

---

١ الاغاني (٢/٣٦) ، العقد الفريد (٣/١٩١) .

من رأيت المنونَ خلدن أم من   ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى: كسرى الملوك أنو شر   وان أين قبله سابور ؟

الى أن ينتهي منها ، بقوله :

ثم صاروا كأنهم ورق جـ   ـف فألوت به الصبا والدبور

وهي قصيدة نظمت بالبحر الخفيف .

قال (الجاحظ) : « وقال عدي بن زيد العبادي ، وهو أحد من قد حُمِل على شعره الحَمْل الكثير ، ولأهل الحيرة بشعره عناية ، وقال أبو زيد النحوي : لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد :

كفى زاجراً للمرء أيام عمره   تروحُ له بالواعظات وتغتدي
فنفسك فاحفظها من الغي والردى   متى تغوها تغو الذي بك يقتدي
فإن كانت النعماء عندك لامرىء   فمثلاً بها فاجز المطالب أو زد
عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه   فإن القرين بالمقارن مقتـدي
ستدرك من ذي الجهل حقَّك كله   بحلمك في رفقٍ ولما تشدّد
وظلم ذوي القربـى أشدّ عداوة   على المرء من وقع الحسام المهنّد
وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجر   اذا خطرت أيدي الرجال بمشهدِ[1]

وورد ان (عمر بن الخطاب) تمثل بشعر عدي :

كدمى العاج في المحاريب أو كالـ   ـبيض في الروض زهره مستنير[2]

ومن شعراء الحيرة (ابن بقيلة) ، وله شعر ذكر فيه حال الحيرة بعد فتح المسلمين لها ، إذ يقول :

أبعد المُنذِرين أرى سَواماً   تـروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى   قلوصاً بين مرّة والحفير

---

١ الحيوان (٧/١٥٠) .
٢ البيان والتبيين (١/٤٥) .

فصرنا بعد هلك أبي قبيس كجرب المعز في اليوم المطير
تقسّمنا القبائل من معد علانيــةً كأيسار الجزور
وكنا لا يرامُ لنا حــريم فنحن كضرّة الضرع الفخور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجــال فيوم من مساءة أو سرور[1]

فهو يتأسف على ما وقع للحيرة ، من تسلط قبائــل (معد) عليها ، ومن دخولهم في حكمهم ، بعد أن كانوا يحكمون تلك القبائل ، ويجبون الجبايات ، ويظهر من ذكر (قريظة) والنضير في هذا الشعر ، ان حكم الحيرة قد بلغ أرض هاتين القبيلتين ، وذلك إن صح بالطبع ان هذا الشعر هو من شعره ، وانه أصيل غير مصنوع .

وهو (عبد المسيح بن بقيلة) الغساني ، أو (عبد المسيح بن عمرو بن قيس ابن حيان بن بقيلة) ، وبُقَيلة اسمه (ثعلبة) ، وقيل : (الحارث) . وقــد حشر في جملة المعمرين الذين عاشوا ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ، وأدرك الإسلام، فلم يسلم ، وكان نصرانياً . وله حديث مع خالد ، حين طلب من أهل الحــيرة إرسال رجل من عقــلائهم ليكلمه في أمر المدينة ، فلما جاء اليه قال له : أنعم صباحاً أيها الملك . فقال خالد : قد أغنانا الله عن تحيتك هذه ، ثم سأله أسئلة أخرى ، ثم قــال له . أعرب أنتم أم نبيط ؟ قال : عرب استنبطنا ، ونبيط استعربنا[2] ، في حديث منمق ، يرويه أهل الأخبار ، وكأنهم كانوا مع خــالد وابن بقيلة يسجلون حديثهما بالكلم والحروف .

وقد تطرق (الجاحظ) الى خبر التقاء (عبد المسيح) بخالد بن الوليــد ، وروى حديثه معه[3]. وذكر (المرتضى) أنه لما بنى قصره المعروف بقصر ابن بقيلة قال :

---

١ الطبري (٣/٣٦٢) ، وتجد هذه الأبيات في أمالي المرتضى مع بعض الاختلاف (٢٦٢/١) .
٢ الطبري (٣/٣٦٢) ، أمالي المرتضى (١/٢٦٠ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١٤٧/٢ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١٤٧/٢ وما بعدها) .

لقد بنيت للحدثان حصناً لو أن المرءَ تنفعه الحصون
طويل الرأس أقعس مشمخراً لأنواع الرياح بـه حنين[1]

وروى (المرتضى) « أن بعض مشايخ أهل الحيرة خرج الى ظهرها يختط ديراً ، فلما احتفر موضع الأساس ، وأمعن في الأحتفار أصاب كهيئة البيت ، فدخله فإذا رجلٌ على سرير من رخام ، وعند رأسه كتابة : أنا عبد المسيح ابن بقيلة :

حلبتُ الدهر أشطرهُ حياتي ونلت من المنى بلغ المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني فلم أحفل بمعضلة كئود
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل الى الخلود »[2]

ومن شعره في الناس وفي تهافتهم والتفافهم حول الغني قوله :

والناس أبناء علّاّت فمن علموا ان قد أقل فمجفوٌ ومهجور
وهم بنون لأم إن رأوا نشباً فذاك بالغيب محفوظ ومخفور

وهذا يشبه قول أوس بن حجر :

بني أم ذي المالِ الكثير يرونه وان كان عبداً سيد الأمر جحفلا
وهم لمقل المالِ أولاد علة وإن كان محضاً في العُمومة مخولا[3]

ومن شعراء (تنوخ) (عمرو بن عبد الجن بن عائذ الله بن أسعد بن سعد ابن كثير بن غالب) ، وكان فارساً في الجاهلية ، و (بنو عبد الجن) أسرة معروفة ، كان لها بقية في الكوفة . ومن شعره :

أما والدماء المائرات تخالها على قنة العزّى وبالنسر عندما

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٦٢) .
٢ أمالي (١/٢٦٣) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٦٢ وما بعدها) .

ثم :

وما سبح الرهبان في كل ليلة أبيل الأبيلين المسيح بن مريما [1]

وأدخلوا في هذه الطبقة (جذيمة) الأبرش، و (الجيم بن صعب بن على بن بكر ابن وائل)، وهو القائل :

من كل ما نال الفتى قد نلتــه إلا التحية [2]

وجذيمة الأبرش، هو (جذيمة بن مالك بن فهم بن عمرو) ملك الحيرة، والأبرش لقب له، ويقال له الوضاح [3]، وهو خال (عمرو بن عدي)، وكان ينادم عدياً، وكان له نديمان هما : مالك، وعقيل، بقيا معه أربعين سنة، ثم قتلهما وندم، ويضرب بهما المثل لطول ما نادماه. وقد قتلت الزباء جذيمة [4]. وقد شاء أهل الأخبار عدّه شاعراً من الشعراء وأوردوا له شعراً، كما سبق أن تحدثت عنه في أثناء حديثي عن مملكة الحيرة، وعن اسطورة صلته بالزباء. ولو جعلناه شاعراً : لوجب علينا تقديمه على كل الشعراء الجاهليين.

وقصة شعره اسطورة من أساطير أهل الأخبار، فلو كان له شعر، لوجب أن يكون بعربية أخرى، هي العربية التي دوّن بها شاهد قبر (امرىء القيس) ملك الحيرة، الذي توفي سنة (٣٢٨) للميلاد أي بعد (جذيمة) بأمد، وشعره هو من شعر تبابعة اليمن وآدم والجن من صنع الرواة وأهل الأخبار.

وترى في شعر الأعشى، وأمية بن أبي الصلت، و (عدي بن زيد)، وكلهم من شعراء القرى، قصصاً، لا تجده في الشعر المنسوب الى غيرهم من الشعراء. قصصاً نصرانياً وقصصاً يرد عند اليهود، وقصصاً من قصص الأساطير والخرافات، أو ممــا يتعلق بالأشخاص، كالذي ينسب الى الأعشى من سرده حكاية السموأل وقصره في قصيدته التي يقول فيها :

---

١ الخزانة (٣/٣٤٠ وما بعدها)، (بولاق).

٢ المزهر (٢/٤٧٦)، أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام، نوادر المخطوطات (المجموعة السادسة) (ص ١١٢ وما بعدها).

٣ البيان والتبيين (١/٣٦٢).

٤ رسالة الغفران (١٧٠، ٢٧٨).

كن كالسموأل اذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار[1]

وقد وصف فيها السموأل وحصنه ، وقصة وفائه ، وما كان قد جرى من حوار بينه وبين الملك الغساني المطالب بأدرع الكندي ، وترى من قراءتك لها ان النظم نمط غير مألوف في شعر غيره من الشعراء ، الأبيات فيها مكملة لما قبلها متصلة بعضها ببعض ، بحيث لا يمكن أن تفصل بينها ، وإلا اختل المعنى ،وظهر فراغ فيه . وهو شيء غير مألوف عند غيره . فالبيت على حد قول علماء الشعر شعر مستقل قائم بنفسه ، لا يؤثر حذفه أو تقديمه أو تأخيره على المعنى ولا على ارتباط الأبيات بعضها ببعض ، أما في هذه القصيدة،فكل بيت فيها تابع لسابقه ، متصل معناه بمعناه ، لأنه جزء منه ، فلا يمكن حذف شيء من القصيدة دون ان يؤثر في معناها .

ونجد في شعره قصصاً عن سد مأرب ، وعن تهدمه وإغراقه من كان يسكن عنده بالماء ، ذكر ذلك ليكون عبرة وأسوة للمؤتسي ، وهو قصص بني على حادث تهدم ذلك السد[2] .

وفي شعر الأعشى قصص إرم وعاد وطسم وجديس ، وأهل جوّ ، ووبار[3]. وهو قصص رصعه الأخباريون بشعر نسبوه الى (هُزيلة) امرأة من (جديس) ، والى (عميرة بنت غفار الجديسية) ، في قصص عن الملوك القدماء ، وكيف أنهم كانوا يدخلون على العذارى قبل ادخالهم على أزواجهم ، في قصص ينسب الى ملوك آخرين ، مثل ملوك اليمن[4] . وهو قصص نجد له مشابه عند الأمم الأخرى .

ومن شعراء (غسان) : (الشيظم بن الحارث) الغساني ، وهو من الأسرة الحاكمة ، كان قد قتل رجلاً من قومه ، وكان المقتول ذا أسرة ، فخافهم

---

١ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (١/٤٣٦) .
٢ راجع البيت (٦٧ فما بعده) من القصيدة رقم (٤) ، وديوانه (ص ٤٣) .
٣ الخزانة (٢/٢٧٠ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ الخزانة (٢/٢٧١ وما بعدها) ، (هارون) .

فلحق بالحيرة ، فكان يتكفف الناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة ، فبينا هو ذات يوم في تطوافه إذ سمع قائلاً يقول :

لحا الله صعلوكاً إذا نال مذقة توسد احدى ساعديه فهوّما

مقيماً بدار الهون غير مناكر إذا ضيمَ أغضى جفنه ثم برشما

يلوذ بأذراء المشاريب طامعاً يرى المنع والتعبيس من حيث يمما

يضنُّ بنفسٍ كدَّر البؤس عَيشها وجودٌ بها لو صانها كان أحزما

فذاك الذي إن عاش عاش بذلةٍ وإن مات لم يشهد له الناس مأتما

بأرضك فاعرك جلد جنبك إنني رأيت غريب القوم لحماً موضما

فكأنه نبهه من رقدة ، فتحايل الى صاحب خيل المنذر ، وتقرب اليه، وأظهر له أنه رجل من أهل (خيبر) ، أقبل الى هذه البلدة بتجارة فأصاب بها ، وله بصر بسياسة الخيل ، فضمه الى بعض أصحابه ، حتى إذا وافق غرة من القوم ، ركب فرساً جواداً من خيل المنذر وخرج من الحيرة يتعسف الأرض ، حتى نزل بحي من بهراء فأخبرهم بشأنه ، فأعطوه زاداً ورمحاً وسيفاً ، وخرج حتى أتى الشأم فصادف الملك متبدياً ، وكان إذا تبدى لا يُحجب أحد عنه ، فأتى قبة الملك فقام قريباً منه ، وأنشأ يقول :

يا صاحب الخيل الجياد المقربه وصاحب الكتيبة المكوكبه

والقبة المنيعة المحجبه وواهب المُضمرة المُربيه

والكاعب البهكنه المؤتبه والمائة المُدفأة المُنتخبه

والضارب الكبش فويق الرقبه تحت عجاج الكَبَّة المُكتّبه

هذا مقام من رأي مُطَّلَبه لديك إذ عَمّى الضلال مذهبه

وخال أنّ حتفه قد كربه

فأذن له الملك ، فدخل عليه ، وقص قصته ، ثم بعث الى أولياء المقتول فأرضاهم عن صاحبهم[1] .

---

١ ذيل الاماني (١٧٩ وما بعدها) .

وفي شعر شعراء القرى ، ميزة امتازوا بها عن شعر شعراء أهل البوادي، هي ان أبيات القصيدة عندهم ليست على نحو أبيات القصيدة عند بقيــة الشعراء من استقلال الأبيات بنفسها ، وقيامها بذاتها بحيث يمكن رفــع الأبيات من مواضعها وتقديمها أو تأخيرها ، أو حذفها ، دون أن يؤثر ذلك على وحــدة القصيدة أو المعنى . ففي شعر (الأعشى) مثلاً ، ترابط بين الأبيات واتصال بين البيت المتقدم والبيت الذي يليه ، بحيث لا يمكن حذف أحدهما ورفعه ، دون أن يؤثر حذفه على المعنى ، كذلك يتعذر علينا في بعض شعره نقل البيت عن موضعه ، وقد يأتي الأعشى بالفعل في بيت ثم يأتي بفاعله أو بمفعوله في البيت التالي ، أو يأتي بفعل الشرط في بيت ويأتي بخبره بعد بيت أو بيتين[1] . ويرد التضمــين في شعره ، كما نجد (الاستدارة) فيه كذلك ، والاستدارة توالي مجموعة متلاحمة من الأبيات تجري على نظام متسق ، يقوم فيه كل بيت بنفسه في معناه ، ولكن المعنى التام لا يتم إلا بالبيت الأخير منها . وهو أسلوب يثير السامع ويشوقه ، ويجعله يتتبع الكلام حتى يبلغ منتهاه[2] .

وأشعر شعراء (البحرين) الذين ذكرهم (ابن سلام) : المثقب العبدي ، والممزق العبدي ، والمفضل بن معشر[3] .

و (المثقب العبدي) واسمه (عائذ بن محصن بن ثعلبة) ، من (بني عبد القيس) ، من شعراء الجاهلية ، وإنما سمي مثقباً لقوله :

ظهرن بكلة وسدلن أخرى وثقــبن الوصاوص للعيون[4]

وذكر (ابن قتيبة) ان اسمه (محصن بن ثعلبة)[5] ، وقيل اسمه شأس بن عائذ

---

١ ديوان الاعشى ، المقدمة (ص ظ) .
٢ ديوان الاعشى ، (غ) .
٣ طبقات (٦٩) .
٤ رددن تحية وكنن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون
الشعر والشعراء (٣٥٦) ، طبقات الشعراء (٢٢٩) ، الخزانة (٤٣١/٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (١٩٠/١ وما بعدها) .
ظهرن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون
تابع العروس (١٦٦/١) ، (ثقب) ، القاب الشعراء (٣١٦) .
٥ الشعر والشعراء (٣١١/١) ، (طبعة دار الثقافة) .

ابن محصن ، وقيل اسمه نهار بن شأس ، وكان يكنى أبا واثلة . وهو من شعراء البحرين[1] .

« وكان أبو عمرو بن العلاء يستجيد هذه القصيدة له ، ويقول : لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه ، وفيها يقول :

أفاطم قبل بينكِ متعيني	ومنعكِ ما سألتكِ أن تبيني
ولا تَعِدِي مواعد كاذبات	تمرّ بها رياح الصيف دوني
فإني لو تعاند في شمالي	عنادك ما وصلت بها يميني
إذاً لقطعتها ولقلت بيني	كذلك اجتوى من يجتويني
فإما أن تكونَ أخي بحقٍ	فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطّرحني واتخذني	عدواً أتقيك وتتقيني
فما أدرى إذا يممت أرضاً	أريد الخيرَ أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه	أم الشرّ الذي هو يبتغيني[2] ؟

وتحدث عنه (ابن قتيبة) ، فقال : « وهو قديم جاهلي ، كان في زمن عمرو بن هند ، واياه عنى بقوله :

الى عمرو ومن عمروٍ أتتني	أخي الفعلات والحِلْمِ الرزين

وله يقول :

غلبتَ ملوكَ الناس بالحزم والنهى	وأنت الفتى في سورة المجد ترتقي
وأنجب به من آل نصرٍ سميدعٍ	أغرّ كلون الهندوانيّ رونق »[3]

ويرى (بروكلمن) ، ان (ابن قتيبة) انما أخذ رأيه المذكور من البيت المتقدم المذكور في المفضليات ، ولكن الأصمعي يعارض ذلك ، فقد مدح المثقب أبا قابوس النعمان بن المنذر[4] .

---

١ المرزباني ، معجم (١٦٧) ، الخزانة (٤/٤٢٩ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣١١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣١٢) ، المرزباني ، معجم (٣٠٣) .
٤ بروكلمن ، (١/١١٥) ، البيت ٤١ من القصيدة ٧٦ ، المفضليات .
فان أبا قابوس عندي بلاؤها جزاء بنعمي لا يحل كنودها
البيت ١٤ من القصيدة ٢٨ في المفضليات .

وللمثقب العبدي ديوان مطبوع ، كما يوجد له شرح[1] . ومن شعره :

لا تقولن إذا مـا لم ترد ... أن تتم الوعد في شيء نعم
حسن قول نعم من بعد لا ... وقبيح قول لا بعـد نعم
إن لا بعـد نعم فاحشة ... فبلا فـابدأ إذا خفت الندم
فإذا قلت نعم فاصبر لهـا ... بنجاح القول إن الخلف ذم[2]
واعلم بأن الذمّ نقص للفتى ... ومتى لا تتقي الـذمّ تلم
اكرم الجار وراعِ حقـه ... إنّ عرفان الفتى الحق كرم
لا تراني راتعـاً في مجلسٍ ... في لحوم الناس كالسبع الضرم
إنّ شرّ الناس من يكشر لي ... حينَ يلقاني وإن غبت شتم
وكـلام سيء قـد وقرت ... عنه أذناي وما بي من صمم
فتعـديتُ خشاة أن يرى ... جاهل أني كما كـان زعم
ولبعض الصفح والإعراض عن ... ذي الخنى أبقى وان كان ظلم[3]

وأما (الممزق) العبدي ، فاسمه (شأس بن نهار بن أسود) ، وانما سمي (الممزق) ببيت قاله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل ... وإلا فأدركني ولمـا أمزّق[4]

وهو ابن أخي المثقب العبدي ، وكان معاصراً لأبي قابوس النعمان بن المنذر[5] . قال عنه (ابن قتيبة) : « وهو جاهلي قديم ، قال البيت المذكور في قصيدة قالها لبعض ملوك الحيرة[6] . وذكر انه قالها للملك عمرو بن هند ، حين همّ بغزو عبد القيس ، فلما بلغته القصيدة انصرف عن عزمه[7] . وقيـل انه عرف بالممزق ببيته :

---

١ حققه الشيخ محمد حسن آل يسين ، (بغداد ١٩٥٦ م) ، بروكلمن (١/١١٥) .
٢ الخزانة (٤/٤٣١) ، (بولاق) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٢٤) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٧٠) ، الاشتقاق (٣٣٠) ، الامدي ، المؤتلف (١٨٥) ، القاب الشعراء (٣١٦) ، المفضليات (٢/٢٣٢) .
٥ بروكلمن (١/١١٩) ، القاب الشعراء (٣١٦) ، المرزباني (٤٩٥) ، المزهر (٢/٤٣٥ وما بعدها) ، الحيوان (٢/٢٩٨) ، (٥/٤٤١) .
٦ الشعر والشعراء (١/٣١٤) ، المرزباني ، معجم (٤٨١) ، الاصمعيات رقم (٥٠)
٧ البيان والتبيين (١/٣٧٥ وحاشية رقم ٤) ، جمهرة ابن حزم (٢٨٢) .

فمن مبلغ النعمان ان ابن أخته على العين يعتاد الصفا ويمزق[1]

وقد نسبه (السيوطي) على هذه الصورة : (شأس بن نهار بن الأسود بن جبريل بن عباس بن حي بن عوف بن سود بن عذرة بن منبه بن بكرة) العبدي ، ثم البكري[2] . ومن شعره :

أحقاً أبيت اللعن إن ابن فرتنا على غير إجرامٍ بريقي مُشرقي
فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق
فأنت عميد الناس مهما تقل نقل ومهما تضع من باطلٍ لا يحقق
أكلفتني أدواء قومٍ تركتهم فألا تداركني من البحر أغرق
فإن يعمنوا أشئم خلافاً عليهم وإن يتهموا مستحقبي الحرب أعقبي[3]

ومما ينسب اليه :

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ أم هل له من حمام الموت من واقِ

وقوله :

هون عليك ولا تولع باشفاقِ فإنما مالنا للوارث الباقي[4]

ونجده يذكر في شعره صراخ الديك ، ولا نجد للديك ذكراً عند الأعراب ، لأنهم لا يربون الدجاج ، وتربية الدجاج من خصائص الحضر . تراه يقول :

وقد تخلت رجلاي في جنب غرزها نسيفاً كأفحوص القطاة المطرّق
أنيخت بجوٍ يصرخ الديك عندها وباتت بقاعٍ كادىء النبت سملق[5]

وذكر (المرتضى) أن من شعره قوله :

ألا مَنْ لعينٍ قد نآها حميمها وأرّقني بعد المنام همومها

---

١ بلوغ الارب (٣/١٢٤) .
٢ شرح شواهد (٢/٦٨٠ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣١٤) .
٤ بلوغ الارب (٣/١٢٥) .
٥ الحيوان (٢/٢٩٨) .

فباتت لنا نفسان شتى همومها ... فنفسٌ تعزيها ونفس تلومها

وذكر أن من العلماء من ينسبه لمعقر بن حمار البارقي[1] .

ومن شعراء (عبد القيس) : (سويد) و (يزيد) ابنا (خذاق) . قال عنهما (ابن قتيبة): « وهما قديمان ، كانا في زمن عمرو بن هند . ويزيد القائل:

نعمانُ إنك غادرٌ خدعٌ ... يخفي ضميرك غير ما تُبدي
فإذا بدا لك نحتُ أثلتنا ... فعليكها إن كنتَ ذا جدّ
وهززتَ سيفك كي تحاربنا ... فانظر بسيفك من به تردي

وله شعر في الموت وفي ذم الدنيا ، قال عنه (أبو عمرو بن العلاء) إنه « أول شعرٍ قيل في ذم الدنيا »[2]

وكان يزيد قد هجا (النعمان بن المنذر) فبعث اليهم النعمان كتيبته (الدوسر) فاستباحتهم ، فقال أخوه سويد :

ضربت دوسرُ فينا ضربة ... أثبتت أوتاد مُلْك فاستقر
فجزاك الله من ذي نعمة ... وجزاه الله من عبد كفر[3]

ومن شعره قوله في (عمرو بن هند) :

أبى القلبُ أن يأتي السديرَ وأهلهُ ... وإن قيل عيشٌ بالسدير غزير
به البق والحُمّى وأسدُ خفيّة ... وعمرو بن هند يعتدي ويجورُ

وهو القائل أيضاً :

جزى الله قابوسَ بن هند بفعله ... بنا وأخاه غدرة وأثاما
بما فَجّرا يوم العُطيف وفرّقا ... قبائل أحلافاً وحيّاً حراما
لعلّ لَبُون الملك تمنع درها ... ويبعث صرف الدهر قوماً نياما
وإلا تغاديني المنيّة أغشكم ... على عُدَوَاء الدهر جيشاً لهاما[4]

---

١ امالي المرتضى (١/٣٢٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٠٢) .
٣ الاشتقاق (٢/٢٠٠) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٠٢ وما بعدها) .

وكانت عبد القيس وتميم على اتصال بملوك المناذرة الذين كان نفوذهم يمتد الى البحرين واليامة في بعض الأحايين ، فكانت جيوش الحيرة في نزاع مستمر مع هذه القبائل التي كانت تنفر من دفع الإتاوة ومن الخضوع لآل لخم . ونجد أخبار هذا النزاع في شعر شعرائها ، وهي أخبار لا نجدها في كتب التواريخ المألوفة ، التي لم تحفل بالشعر ، فضاع عليها قسط كبير من تأريخ الحيرة ، حصلنا عليه لحسن حظنا من كتب الشعر والأدب التي دونت أخبار الشعراء ودونت المناسبات التي قيل فيها ذلك الشعر .

الفصل الثاني والستون بعد المئة

شعراء قريش

ويزعم أهل الأخبار أن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها[1] . وذُكر أن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك الى أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الاسلام . ويؤيد هذا الرأي أننا نجد أكثر من ذكر الرواة أسماءهم وأشعارهم من الشعراء الجاهليين إنما هم من غير قريش[2] .

وذكر أهل الأخبار ان المنافسة التي كانت بين قريش والأوس والخزرج ، أهل يثرب ، دفعت أهل مكة على صنع الأشعار لتتغلب بها على الأنصار . « يروي الناس لأبي سفيان بن الحارث قولاً يقوله لحسان :

أبوك أبو سُوء وخالك مثله ... ولست بخير من أبيك وخالكا
وان أحق الناس ان لا تلومه ... على اللوم من ألفى أباه كذلكا

أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا محمد بن سلام ، قال : وأخبرني أهل العلم من

---

١ الاغاني (٢٥/١) ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (١٠) .
٢ مجلة المجمع العلمي العراقي ، جواد علي ، لهجة القرآن الكريم (المجلد الثالث) (الجزء الثاني ١٩٥٥ م) ، (ص ٢٧٨) .

أهل المدينة ان قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مطعون الجمحي قالها ونحلها أبا سفيان . وقريش تزيد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان »[1] . وهناك أخبار أخرى في هذا المعنى تفيد نحل الشعر وضمه الى شعراء مكة، لتتباهى به على يثرب .

ولا نجد بين الشعراء البارزين من أصحاب المعلقات شاعراً واحداً هو من قريش؛ كذلك لا نجد من بين شعراء الطبقات المتقدمة من فحول الشعراء الذين قدمهم علماء الشعر على غيرهم شاعراً هو من أهل مكة .. وهذا هو تفسير قول أهل الأخبار المتقدم ، الدال على تأخر قريش بالنسبة الى بقية العرب في قول الشعر ، أما لو أخذنا قولهم المذكور ، وصرفناه على أهل القرى ، فإننا نجد مكة متقدمة فيه ، لأنها انجبت عدداً لا بأس به من الشعراء بالقياس الى الطائف، التي اشتهرت بشعر شاعرها (أمية بن أبي الصلت) ، ولكنها لا تداني مكة في عدد من ظهر بها من الشعراء ، وبالقياس الى (نجران) والى قرى اليمامة . أما بالنسبة الى يثرب ، فقد برز بيثرب شعراء ، هم أكثر عدداً وشهرة من شعراء مكة .

وقد وصف (ابن سلام) شعر قريش بقوله : « وأشعار قريش أشعار فيها لين يشكل بعض الأشكال »[2] . وذلك حين تحدث عن شعر (أبي طالب) وعن شعر (الزبير بن عبد المطلب) ، وعما وضع الناس من شعر عليهما .

ويذكر أهل الأخبار ، ان قريشاً كانت في الجاهلية دون غيرها من العرب ، تعاقب شعراءها اذا هجا بعضهم بعضاً ، كما كانت ترمي من يروي المثالب ويقع في أعراض الناس بالحمق ، فتسقط منزلته بين الناس، ولهذا قل فيها شعر الهجاء[3]. ويذكرون ان أهل مكة لما أصبحوا يوماً وعلى باب الندوة مكتوب :

ألهى قُصياً عن المجد الأساطيرُ ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحمَ بحتاً لا خليط له وقولها رحلت عير أتت عير

أنكر الناس ذلك ، وقالوا ما قالها إلا (ابن الزبعرى) ، وأجمع على ذلك

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٢) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٦٠ وما بعدها) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/ ٤١٣) .

رأيهم ، فشوا الى (بني سهم) ، وكان مما تنكر قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضاً ، فقالوا لبني سهم : ادفعوه الينا نحكم فيه بحكمنا . قالوا : وما الحكم فيه ؟ قالوا قطع لسانه ، قالوا : فشأنكم . واعلموا والله انه لا يهجونا رجل منكم إلا فعلنا به مثل ذلك . وكان (الزبير بن عبد المطلب) يومئذ غائباً نحو اليمن ، فخاف بنو قصي أن يقول شيئاً من هجاء ، فيؤتى اليه مثل ما أتى الى ابن الزبعرى ، وكانوا أهل تناصف ، فأجمعوا على تخليته فخلوه[1] .

وقد أحصى (جرجي زيدان) عدد الشعراء الجاهليين بنحو من (١٢٠) شاعراً على اختلاف القبائل والبطون . وقد وجد أن عشرة شعراء منهم هم من قريش[2]. معظمهم ان لم نقل كلهم كان ممن عاش عند ظهور الإسلام ، وقد اشتهر بالشعر وعرف به لموقفه المعادي من الإسلام ، ولاضطراره على مهاجاة النبي والمسلمين دفاعاً عن عقيدته ، ولهذا كان معظم شعره في هجاء المسلمين ، وفي الردّ عليهم وفي الفخر بقومة وتعديد مآثرهم ومناقبهم والدفاع عنهم .

قال (ابن سلام) : « وبمكة شعراء ، فأبرعهم شعراً عبدالله بن الزبعرى ابن قيس بن علي بن ربيعة بن سعد بن سهم ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، شاعر ، وأبو سفيان بن الحارث ، شاعر ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية ، شاعر ، وضرار بن الخطّاب ، شاعر ، وأبو عزة الجمحي ، شاعر ، واسمه عمر بن عبدالله ، وعبدالله بن حذافة السهمي المزرق ، وهُبيرة بن أبي وهب ابن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم »[3] .

ونجد في كتب السيرة والأخبار شعراً لعبد المطلب ، من جملته قوله :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك[4]

---

١ ابن سلام ، طبقات (٥٧ وما بعدها) .

٢ تاريخ آداب اللغة العربية (٢٧٥/١) وما بعدها) ، (شعراء العصر الاموي) .

٣ طبقات (٥٧) .

٤ ابن هشام ، سيرة (٤٤/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الحيوان (١٩٨/٧ وما بعدها) ، ويختلف النص في الموارد .

ومن شعراء قريش (أبو لبيد بن عبدة بن جابر) ، وكان أحد فرسانها في الجاهلية [1]

و (أبو طالب) ، عم النبي . وقد أدخلناه في عداد الشعراء ، لوجود شعر ينسب اليه ، ورد أكثره في سيرة (ابن اسحاق) ، ولوجود ديوان مطبوع نسب اليه . واسمه (عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي) ، وقيل اسمه (عمران) ، وقيل اسمه كنيته[2] . قال عنه (ابن سلام) : « وكان أبو طالب شاعراً جيّد الكلام ، وأبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل »[3]

ولد قبل النبي بخمس وثلاثين سنة ، ولما مات (عبد المطلب) وصى بالنبي اليه ، فكفله ، وسافر به الى الشام ،وهو شاب ، ولما بُعث الرسول كان لا زال حياً ، وقد اختلف في اسلامه[4] ، وتوفى في السنة العاشرة من المبعث[5] .

وقد ذكر (ابن هشام) قصيدة لأبي طالب ، قال انه قالها في (المطعم بن عدي) يعرض به ، ويعم من خذله من بني عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش منها قوله :

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ألا ليت حظي من حياطتكم بكر
من الخور حبحاب كثير رغاؤه يرش على الساقين من بوله قطر[6]

وأورد (ابن هشام) له قصيدة أخرى ، ذكر انه قالها في مدح قريش ، لما رأى (أبو طالب) من قومه ما سره في جهدهم معه وحدبهم عليه . فقال :

---

١ الاشتقاق (٧١) .
٢ الاصابة (٤/١١٥ وما بعدها) ، (رقم ٦٨٥) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٦٠) .
٤ الخزانة (٢/٧٥) ، (عبد السلام محمد هارون) ، (١/٢٥١ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (١/٢٦١) ، (بولاق) .
٦ سيرة ابن هشام (١/١٧١) ، (حاشية على الروض الانف) .

اذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبـــد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها[1]

ونسبت له قصيدة ذُكر انه قالها لما خشي (أبو طالب) دهماء العرب أن يركبوه مع قومه ، تعوذ بها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره انه غير مسلم الرسول ولا تاركه أبداً حتى يهلك دونه . إذ يقول :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطّعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المُزايل[2]

وهي قصيدة طويلة ، قال (ابن هشام) في آخرها : « هذا ما صح لي من هذه القصيدة وبعض أهل العلم ينكر أكثرها »[3] . ويظهر انها وردت بصورة أطول في سيرة (ابن اسحاق) ، إلا ان (ابن هشام) طرح منها ما شك في أصله وما لم يثبت عنده انه من شعر (أبي طالب) ، واكتفى بهذا القدر الذي دوّنه في سيرته .

وفي جملة ما جاء في القصيدة المذكورة قوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتـامى عصمة للأرامل

وقد ذهب (ابن سلام) الى أن الرواة زادوا في قصيدة أبي طالب وطولوها فأبعدوا آخرها عن أولهــا . وتعرض لها (الرافعي) فقال : « وقد يزيدون في القصيدة ويبعدون بآخرها متى وجدوا لذلك باعثاً ، كقصيدة أبي طالب الــتي قالهـا في النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مشهورة أولها :

خليليّ مــا أذني لأول عاذل بصغواء في حق ولا عند باطل[4]

---

1 سيرة ابن هشام (١٧٢/١) ، (حاشية على الروض) .
2 سيرة ابن هشام (١٧٣/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الخزانة (٥٧/٢ وما بعدها) ، وقد دون القصيدة وشرح أبياتها (عبد السلام محمد هارون)
3 سيرة ابن هشام (١٧٨/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .
4 طبقات ، (٦٠) .

قال ابن سلام : زاد الناس في قصيدة أبي طالب وطولت بحيث لا يدرى أين منتهاها ، وقد سألني الأصمعي عنها فقلت صحيحة ، فقال: أتدري أين منتهاها قلت لا ، قلنا : وإنما طُوِّلت هذه القصيدة معارضة للطوال المعروفة بالمعلقات حتى لا يكون من شعر الجاهلية ما هو خير مما قاله عم النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن في أصلها أبياتاً هاشمية تفي بكثير من الطوال »[1] .

وقد تعرض (ابن سلام) – كما قلت – لهذه القصيدة فقال : « وقد زيد فيها وطولت . رأيت في كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة : وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، فلا أدري أين منتهاها . وسألني الأصمعي عنها ، فقلت صحيحة . قال : أتدري أين منتهاها ؟ قلت لا أدري »[2].

ونسب أهل الأخبار لأبي طالب شعراً زعموا أنه قاله لأبي لهب يحرضه فيه على نصرته ونصرة الرسول ، فيه :

ان امرءاً أبو عتيبة عمه لفي روضة ما ان يسام المظالما[3]

ونسبوا له قصيدة (دالية) ذكروا انه نظمها لما مزقت (الصحيفة) : صحيفة قريش ، التي كتبوها في مقاطعة (بني هاشم) ، أولها :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا على نايهم والله بالناس أرود
فيخبرهم ان الصحيفة مزقت وان كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها افك وسحر مجمع ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد[4]

وقد أورد (الزبيري) منها هذه الأبيات :

جزى الله رهطاً من لؤيٍ تتابعوا على ملأٍ يهدى لحزمٍ ويرشد
قعوداً لدى جنب الحطيم كأنهم مقاولةٌ ، بل هم أعز وأمجد
هُم رجَعوا سهل َبن بيضاء راضياً فسرّ أبو بكر بها ومحمد
ألم يأتكم ان الصحيفة مُزقت وإن كان ما لم يرضه الله يفسد

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٨٤ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٦٠ وما بعدها) .
٣ سيرة ابن هشام (١/٢٣٠) ، (حاشية على الروض) .
٤ سيرة ابن هشام (١/٢٣٣ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .

أعان عليها كل صقرٍ كأنه شهـاب بكفّي قابس يتوقد
جريٌّ على حل الأمور كأنه اذا ما مشى في رفرف الدرع أجود[1]

وهي من الشعر المصنوع .

ونسبوا له قوله :

ودعوتني وزعمتَ انك صادقٌ ولقد صدقت وكنتَ قبل أمينا[2]
ولقد علمتُ بأن دين محمد من خير أديان البريّة دينا

وقوله :

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤياً وخُصّاً من لؤي بني كعب
ألم تعلموا انا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطَّ في أول الكتب
وان عليه في العباد مودّةً وخيّر فيمن خصه الله بالحب[3]

ولأبي طالب شعر ، رثى به (أبا أميـة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) ، وكان قد خرج تاجراً الى الشأم ، فمات في موضع يقال له : «سرو سحيم» . وكان (أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله) مـن (أزواد الركب) في قريش ، وهم ثلاثة : هو و (مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس) ، و (زمعة بن الأسود بن عبـد المطلب) ، وكـانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد[4] . وله شعر في رثاء (مسافر)[5] .

وفي الديوان المطبوع شعر يمكن أن يكون صحيحاً ، ولكن أكثره شعر منحول ، ولا سيما القصيدة (اللامية) الطويلة . فإن القسم الأكبر منها ، لا يمكن أن يكون من الشعر الأصيل . ويرى (بروكلمن) أن سبب الوضع ، هو رغبة من وضعه على تزيين سيرة الرسول بمكة ، وفي أوائل عهد النبوة ، بكثير مـن الأشعار ،

١ نسب قريش (٤٣١) .
٢ الروض الانف (١/٢٢١) ، الخزانة (١/٥٧١ وما بعدها) ، (بولاق) ، (ودعوتني وزعمت أنك ناصح) .
٣ الروض الانف (١/٢٢١) ، الخزانة (٢/٧٦) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٤ الخزانة (٣/٤٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (٤/٣٨٦ وما بعدها) ، (بولاق) .

بعد أن كثرت الأشعار في سيرته بالمدينة . كما أن للشيعة يداً في وضع هذا الشعر على لسان (أبي طالب) لإظهاره بمظهر المعاون للنبي المؤيد له ، المؤمن بدعوته في قلبه ولسانه ، تأييداً للإمام (علي) ، الذي هو ابن (أبي طالب)[1] :

ونسب (الجاحظ) له قوله :

أمن أجل حبلٍ لا أباك علوته بمنسأة قــد جاء حبل وأحبل[2]

ويروى لعلي بن أبي طالب شعر كثير[3] . ولا يوجد شك في ان علياً كان مطبوعاً على قول الشعر ، وانه كان ذا شاعرية ، وله مواهب تؤهله لنظمه، كما كان من الحفّاظ للشعر ، وقد أورد له أهل الأخبار والأدب شعراً ذكروه في المواضع المناسبة ، كما جمع بعض الأدباء شعره في ديوان ، فهو صاحب شعر ، نظم في المناسبات ، غير انه لم يكن شاعراً بمعنى انه اتخذ الشعر صناعة له ، وانما كان يقوله في المناسبة ، ثم ان في المنسوب اليه ، شعراً كثيراً ، هو موضوع . صنع وحمل عليه . وأكثر ما جاء في الديوان الذي يحمل اسمه هو من هذا القبيل[4] .

ونظراً الى ما لعلي بن أبي طالب من المكانة في نفوس المسلمين ، ولوجود شيعة له ، فقد اهتم الناس بأمر ديوانه ، وشرحوه شروحاً عديدة ، وترجموه الى لغات مختلفة ، وطبع جملة طبعات ، بحيث نستطيع ان نقول دون مبالغة ، ان ديوان (علي) نال من المكانة والتقدير ما لم ينله أي ديوان آخر ، ليس لما فيه من شعر أو من بلاغة ، بل لحرمة ولمكانة صاحبه . ففي هذا الديوان غث كثير ، وفيه ما لا يمكن ارجاعه الى (علي) أبداً[5] . قال (أبو عثمان) المازني : « لم يصح عندنا ان علياً تكلم من الشعر إلا هذين البيتين » :

تلــكم قريش تمنّاني لتقتلني فلا وربّك ما برّوا وما ظفروا

فإن هلكتُ فرهنٌ ذمّتي لهم بذات رَوْقين لا يعفو لها أثر[6]

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٥) .
٢ البيان والتبيين (٣/٣٠) .
٣ المرزباني ، معجم (١٣٠) ، (عبد الستار أحمد فراج) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٥ وما بعدها) .
٥ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٥ وما بعدها) .
٦ الفائق (١/٥١٢) .

ونسبوا لعليّ قصيدة في الأيام السبعة منها :

أرى الأحد المبارك يوم سعد — لغرس العـود يصلح والبناء
وفي الإثنـين للتعليم أمن — وبالبركات يعرف والرخـاء
وإن رمت الحجامة في الثلاثا — فذاك اليوم إهراق الدمـاء
وإن أحببت أن تسقي دواء — فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس طلاب رزق — لإدراك الفوائد والغنـاء
ويوم الجمعة التزويج فيه — ولذات الرجال مع النساء
ويوم السبت إن سافرت فيه — وقيت من المكاره والعنـاء

وقد رويت القصيدة بروايات أخرى[1] .

ونسبوا (لورقة بن نوفل) شعراً ، زعموا أنه قاله حين رآهم يعذبون بلالاً على إسلامه . منه :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم — أنا النذير فـلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلاهاً غـير خالقكم — فإن دعيتم فقولوا دونه حـدد
سبحان ذي العرش لا شيء يعادله — رب البريّة فرد واحد صمـد[2]

وورقة ، هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى بن قصي ، يجتمع مع النبي في جدّ جدّه . ذكر أنه كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفـاق وقرأ الكتب ، وأنه كان حنيفاً عـلى ملة ابراهيم ، وذكر أنه كان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ، ومات في فترة الوحي قبل نزول الفرائض والأحكام، وروى بعضهم أنـه آمن بالرسول وجعله من الصحابة ، وشدد الإنكار على من أنكر صحبته ، وجمع الأخبار الشاهدة له بأنه في الجنة . وهكذا نجـد الروايات تجمع على نبذه عبادة الأوثان ، ثم تختلف في أنه كان حنيفاً على ملة الأحناف ، أو نصرانياً . أما زعم إيمانه بالرسول ، ومـا رووه من الشعر من ذكره اسم الرسول وإيمانه به ، ومن أخباره عنه ، فإنه من الشعر الموضوع المصنوع ، الذي وضع على لسان غيره أيضاً ، بزعم اثبات نبوة الرسول . وفي أكـثره ركة .

---

١ نزهة الجليس (١/٢٥١) .
٢ الخزانة (٢/٣٧) ، (بولاق) ، نسب قريش (٢٠٨) .

وقد نسب بعضه مثل قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم   أنا النذير فلا يغرركم أحد

الى غيره . فقيل إنه لأمية بن أبي الصلت ، وقيل انه لزيد بن عمرو بن نفيل . غير أن (السهيلي) ، و (أبا الربيع) الكلاعي ، والبغدادي يرون أنه له[1] .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بك ضعفه   يوماً فتدركه العواقب قد نمى
يجزيك أو يثني عليك وإن من   أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقد نسبا أيضاً لزهير بن جناب[2] .

ولزيد بن عمرو بن نفيل ، وهو أحد الأحناف شعر ، وهو من المتألهين الذين حاربوا عن مكة طلباً للعلم والمعرفة والدين ، ذهب الى بلاد الشأم . وهناك احتك بالنصارى ، فتعلم منهم أمور الدين . ولعله تعلم السريانية والرومية بها ونظر في كتب النصرانية ، لما يذكره أهل الأخبار من تعلمه للغتين . وفارق شأن بقية الأحناف قومه ، وعاب الأصنام والأوثان ، ونسب أهل الأخبار اليه انه كان يسند ظهره الى الكعبة ثم يقول : يا معشر قريش ، والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري . وكان مثل بقية الأحناف أمثال ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد بن جحش وغيرهم ، قد خالفوا قريشاً ، وقالوا : انكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام وعابوا عليهم ما هم عليه من التقرب الى الحجارة . وقد أورد من ترجم حياته شيئاً من شعره ، واستشهدوا ببعضه في الشواهد[3] .

ومن شعر (زيد بن عمرو بن نفيل) في الأصنام قوله :

تركتُ اللات والعزّى جميعاً   كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزّى أدين ولا ابنتيها   ولا صنمي بني غنم أزور

---

١ الخزانة (٣٨/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ نسب قريش (٢٠٧ وما بعدها) .
٣ الخزانة (٩٧/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

ولا هبلاً أزور وكان ربّاً لنا في الدهر إذ حلمي صغير[1]

و (سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل) ، المعروف بـ (أبي الأعور) ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الصحابة الذين أسلموا قديماً ، من الشعراء وهو ابن (زيد بن عمرو) المذكور . وكان اسلامه قديماً وقبل عمر ، وكان إسلام (عمر) عنده في بيته ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ، وقد توفي سنة خمسين ، أو إحدى وخمسين ، وقيل اثنتين وخمسين[2] . ومن شعره قوله :

تلك عرساي تنطقان على عمْد لي اليوم قول زور وهتر
سالتاني الطلاق ان رأتا ما لّي قليلاً قد جئتماني بنكر
فلعلّي أن يكثر المال عندي ويعرى من المغارم ظهري
وترى أعبدٌ لنا وأواقٍ ومناصيف من خوادم عشر
ونجر الأذيال في نعمة زو ل تقولان ضع عصاك لدهر
ويّ كأن من لم يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر
ويجنب سر النجي ولكن أخا المال محضر كل سر[3]

وكان (نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب) شاعراً ، وكان هو وأخوه (منبه) من وجوه قريش وذوي النباهة فيهم ، وقتلا ببدر كافرين ، وكانا من المطعمين يوم بدر . وقد رثاهما (الأعشى بن نباش بن زرارة) التميمي ، حليف بني عبد الدار . وكان مدّاحاً لنبيه بن الحجاج[4] .

وقد أورد (الزبيري) له شعراً منه قوله :

تلك عرساي تنطقان بهجر وتقولان قول زور وهتر
تسألان الطلاق إذ رأتاني قل مالي قد جئتماني بنكر

---

١ الخزانة (٣/٢٤٤) ، (بولاق) .
٢ الاصابة (٢/٤٤) ، (رقم ٣٢٦١) .
٣ البيان (١/٢٣٥) ، الخزانة (٣/٩٩) ، الشمنتري (٢/١٧٠) ، عيون الاخبار (١/٢٤٢) .
٤ الخزانة (٣/١٠١) ، (بولاق) .

فلعلي أن يكثر المال عندي وتخلى مــن المغانم ظهري
وترى أعبــد لنا وأواق ومناصيف من ولائد عشر[1]

وقال (الزبيري) إن له أشعاراً كثيرة[2] . وقد رأينا أن هذا الشعر الذي نسب لنبيه ، قد نسب أيضاً لزيد . وقد نسب صاحب (الخزانة) الشعر لزيد ، ثم عاد فنسبه لنبيه .

وكان (أبو العاصي) المعروف بـ (الأمين) من حكماء وشعراء قريش ، ومما نسب اليه من شعر قوله :

أبلغ لديك بني أمية آيــة نصحاً مبينا
انا خلقنا مصلحين وما خلقنا مفسدينا
إني أعادي معشراً كانوا لنا حصناً حصينا
خلقوا مع الجوزاء إذ خلقوا ووالدهم أبونا[3]

وهو العاصي بن وائل ، وكان من أشراف قريش ، وفيه يقول ابن الزبعرى:

أصاب ابن سلمى خُلّة من صديقه ولولا ابن سلمى لم يكن لك راتقُ
فآوى وحيّا إذ أتاه بخلة وأعرض عنه الأقربون الأصادق
فإما أصب يوماً من الدهر نُصرةً أتتك وإني بابن سلمى لصادق
وإلا تكن إلا لساني فإنــه بحسن الذي أسديت عني لناطق
ثمــال يعيشُ المقترون بفضله وسيب ربيع ليس فيه صواعق[4]

وعبدالله بن الزبعرى بن قيس بن عدي بن ربيعة بن سعيد بن سهم القرشي السهمي ، من « أشعر قريش »[5] ، وكان شديداً على المسلمين ، ثم أسلم في الفتح. وذكر أنه لما فتح رسول الله مكة ، هرب الى (نجران) ، ثم أسلم ومدح النبي،

---

١ الاغاني (٦٢/١٦) ، نسب قريش (٤٠٣ وما بعدها) .
٢ نسب قريش (٤٠٤) .
٣ نسب قريش (٩٩) .
٤ نسب قريش (٤٠٨ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٢٣٤/٣) ، (زبعر) ، العمدة (٢٣/١) .

فأمر له بحلة[1]. وكان يهاجي حسان بن ثابت وكعب بن مالك. وذكر أنه وكان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه بلسانه ونفسه. وكان من أشعر الناس وأبلغهم. يقولون إنه أشعر قريش قاطبة. قال محمد بن سلام: بمكه شعراء فأبرعهم شعراً عبدالله بن الزبعرى، قال الزبير: كذلك يقول رواة قريش انه كان أشعرهم في الجاهلية. وأما ما سقط الينا من شعره وشعر ضرار بن الخطاب، فضرار عندي أشعر منه، وأقل سقطاً»[2].

كان (ابن الزبعرى) من المؤذين للرسول، قام يوماً فأخذ فرثاً ودماً فلطخ به وجه النبي، فانفتل النبي من صلاتـه، ثم أتى (أبا طالب) عمه فقال: يا عم ألا ترى الى ما فعل بي؟ فأخذ (أبو طالب) فرثاً ودماً فلطخ به وجوه القوم الذين كان (ابن الزبعرى) بينهم. وبقي على عداوته هـذه للرسول وفي هجائه له وللمسلمين الى عام الفتح، فأسلم[3].

وقد أشرت الى ما ذكره (ابن سلام) من أمر البيتين اللذين وجدا مكتوبين على باب الندوة، وهما:

ألهى قصيّاً عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحمُ بحتاً لا خليط له وقولها رحلت عيرٌ أتت عير

وما كان من إجماع أهل مكة على انهما من قول (ابن الزبعرى) ليس غير. وذلك مما أهاج أولاد قصي خاصة، فمشوا الى (بني سهم) رهط (ابن الزبعرى) طالبين منهم تسليمه لهم ليحكموا فيه حكمهم[4].

وفي البيتين، هجاء مرّ لقصي ولآل قصي، الذين ألهتهم الأساطير عن المجد، وكانوا يرشون ويرتشون مثل ما ترشى السفاسير، وهم السماسرة، أولئك الذين يأكلون اللحم. ولا يعرفون إلا كلام: رحلت عيرٌ، أتت عيرٌ. كلام التجار. فلا يفهمون قولاً غير هذا القول.

---

١ الاصابة (٢/٣٠٠)، (رقم ٤٦٧٩).
٢ الاستيعاب (٢/٣٠٠ وما بعدها)، (حاشية على الاصابة)، كتاب نسب قريش (٢٥١، ٣٠٠، ٣٨٦، ٤٠٢، ٤٠٨ وما بعدها).
٣ تفسير القرطبي (٦/٤٠٦ وما بعدها).
٤ طبقات (٥٨).

ومن شعر (ابن الزبعرى) قصيدته وفي وقعة أُحد ، ومطلعها :

يا غراب البين أسمعت فقل　　إنما تنطق شيئاً قــد فُعل

قال وهو مشرك ، فلما أسلم قال :

يا رسول المليك إنّ لساني　　راتق ما فتقتُ إذ أنا بورُ [1]

وقد أشار في قصيدته في يوم أُحد، الى انتصاف أهل مكة من المسلمين بقوله :

ليت أشياخي ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل
حين ألقت بقُباء بركهــا　　وعدلنا ميل بدر فاعتدل [2]

وقصيدته في (أحد) من القصائد الجيدة ، وقد دوّنها (ابن هشام) في جملة ما دوّن من الشعر الذي قيل في هذه المعركة . وقد ردّ عليه (حسان بن ثابت) بقصيدة دوّنها (ابن هشام) بعدها [3] .

وله شعر في مدح النبي ، فيه :

منع الرقاد بلابلٌ وهموم　　والليل معتلجُ الرواق بهيم
مما أتاني ان أحمد لامني　　فيــه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها　　عيرانة سرح اليدين رسوم
إني لمعتذر اليك من الذي　　أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة　　سهمٌ وتأمرني بها مخزوم
فاغفر فدى لك والديّ كلاهما　　ذنبي فإنك راحم مرحوم
وعليك من أثر المليك علامةٌ　　نور أضاء وخاتم مختوم
مضت العداوة فانقضت أسبابها　　ودعت أواصر بيننا وحلوم [4]

وهي أبيات نظمها معتذراً فيها عما كان منه من هجاء الرسول والمسلمين ،

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٤٩ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٨) .
٣ سيرة (٢/١٥٧) ، (حاشية على الروض) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٥٩ وما بعدها) .

ومن وقوفه مع المشركين في مواقفهم المعروفة ، بعد أن سمع بما حل بغيره ممن هجا الرسول من قتل .

ويذكر أهل الأخبار أن (عبدالله بن الزبعرى) و (ضرار بن الخطاب) الفهري ، قدما المدينة أيام (عمر بن الخطاب) ، فأتيا (أبا أحمد بن جحش) الأسدي، وكان مكفوفاً ، وكان مألفاً يُجتمع اليه ويتحدث عنه ، ويقول الشعر، فقالا له : أتيناك لترسل الى حسان بن ثابت فنناشده ونذاكره ، فإنه كان يقول في الإسلام ويقول في الكفر ، فأرسل اليه ، فجاء فقال : يا أبا الوليد أخواك تطرّبا إليك : ابن الزبعرى وضرار يُذاكِرانك ويناشدانك . قال : نعم إن شئتما بدأت وان شئتما فابدآ . قال : نبدأ . فأنشداه حتى اذا صار كالمرجل يفور قعدا على رواحلهما . فخرج حسان حتى لقي عمر بن الخطاب ، وتمثل ببيت ذكره ابن جُعدبة لا أذكره . فقال عمر : وما ذاك ؟ فأخبره خبرهما . فقال: لا جرم والله لا يفوتانك . فأرسل في أثرهما فرُدّا . وقال لحسان أنشد . فأنشد حسان حاجته . قال له : اكتفيت ؟ قال : نعم . قال شأنكما الآن ، ان شئتما فارحلا وان شئتما فأقيما »[1] .

ومن شعره قوله :

ألا لله قوم و لدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبد مناف مدره الخصم
وذو الرمحين أشبالٌ على القوة والحزم
فإن أحلف وبيت الله لا أحلف على إثم
لما أن اخوةٌ بين قصور الروم والروم
بأزكى من بني ريطة أو أوزن في حلم[2]

وكان (الزبير بن عبد المطلب) من فرسان قريش ومن شعرائها[3] ، وقد روى (ابن كثير) له شعراً ، ذكر انه قاله فيما كان من أمر الحية التي كانت

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٠) .
٢ نسب قريش (٣٠٠) .
٣ الاشتقاق (٣٠) .

قريش تهاب بنيان الكعبة لها ، هو :

عجبت لما تصوبت العقاب الى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش وأحياناً يكون لها وثاب
اذا قمنا الى التأسيس شدت تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما ان خشينا الرجز جاءت عقاب تتلئب لها انصباب
فضمتها اليها ثم خلت لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين الى بناء لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه وليس على مساوينا ثياب
أعز به المليك بني لؤي فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزاً وعند الله يلتمس الثواب[1]

وقد وردت هذه الأبيات في سيرة (ابن هشام)[2] ، أخذت من سيرة (ابن اسحاق) . وهي ولا شك من ذلك الشعر المصنوع الذي انتحل على الشعراء ، وأعطى الى (ابن اسحاق) فأدخله في سيرته ، أسلوبها يتحدث عن نفسه ، ونظمها بعيد عن نظم شاعر عاش في ذلك الوقت .

وقد تعرض (ابن سلام) لشعر (الزبير) ، فقال عنه : « وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ، والحاصل من شعره قليل . فما صح عنه قوله :

ولولا الحَبْش لم يلبس رجالٌ ثيابَ أعزة حتى يموتوا »

ويقال ان :

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حليماً ولا توصه

للزبير[3] .

---

١ تفسير ابن كثير (١/١٨١) .
٢ سيرة ابن هشام (١/١٣٢) ، (حاشية على الروض الانف) .
٣ طبقات (٦١) .

وكان (الزبير) شاعراً مفلقاً شديد العارضة مقذع الهجاء ، ولما جاء (عبدالله ابن الزبعرى) السهمي (بني قصي) رفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) خوفاً من هجاء (الزبير) فلما وصل (عبدالله) اليهم أطلقه (حمزة بن عبد المطلب) وكساه ، فمدحه . وكان (الزبير) غائباً بالطائف أو باليمن ، فلما وصل الى مكة وبلغه الخبر قال :

فلولا نحن لم يلبس رجالٌ ثيـاب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم سمـالٌ أو طمارٌ بها ودكٌ كما دسم الحميت
ولكنّا خلقنا إذْ خلقنـا لنا الحبرات والمسك الفتيت[1]

وقد كان الخلعاء يتزلون على (الزبير بن عبد المطلب)،ومنهم (أبو الطمحان) القيني ، وكان فاسقاً ومن الشعراء[2] .

وكان (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي) الهاشمي ، ابن عم الرسول وأخيه من الرضاعة من شعراء قريش المطبوعين . وكان ممن يؤذي النبي والمسلمين ، ويهجو رسول الله ، وقد عارضه (حسان بن ثابت) ، ثم أسلم . وكان إسلامه يوم الفتح قبل دخول رسول الله مكة[3] . قال (ابن سلام): « ولأبي سفيان بن الحارث شعر ، كان يقوله في الجاهليـة فسقط ، ولم يصل الينا منه إلا القليل ، ولسنا نعدّ ما يروي ابن اسحاق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم . قال أبو سفيان :

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلبُ خيلُ اللاتِ خيل محمدِ
أنا المدلجُ الحيران أظلم ليلُهُ بعيد أرجى حين أهدى واهتدي
هداني هادٍ غيرُ نفسي وقادني الى الله من طردت كل مطّردِ »[4]

---

١ العمدة (١/٦٦) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٠٤) ، (دار الثقافة) .
٣ الاصابة (٤/٩٠) ، (رقم ٥٣٨) ، الاستيعاب (٤/٨٣) ، (حاشية على الاصابة) الاشتقاق (٢/٢٦٠) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٦١) ، المرزباني ، معجم (٢٧١) ، ابن سعد ، طبقات (٤/٥١) ، (صادر) ، وتجد فيه بعض الاختلاف في الشعر .

وروي له شعر قاله يوم تعرض المسلمون بقافلة (أبي سفيان) ، ويوم أُحد، وفي المناسبات الأخرى[1] . وله شعر في يوم أُحد ، وقد رد عليه حسان بن ثابت[2] وبقية شعراء المسلمين حيث كانت بينهم وبين شعراء مكة مساجلات .

وكان نديماً لعمرو بن العاص السهمي ، وكان الحارث بن حرب بن أمية ، نديماً للحارث بن عبد المطلب[3] ، وكان الحارث بن عبد المطلب من المؤلفة قلوبهم[4].

ولمّا توفى الرسول رثاه (أبو سفيان بن الحارث) بقصيدة مطلعها :

أرقت فبات ليلي لا يزول	وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما	أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت	عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها	تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا	يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه	نفوس الناس أو كربت تسيل
نبيٌ كان يجلو الشك عنّا	بما يوحى اليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً	علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك غدر	وان لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر	وفيه سيد الناس الرسول[5]

وقد وضعت أشعار على لسان (أبي سفيان) في هجاء (حسان بن ثابت) . فقد هجا (قتادة بن موسى) الجمحي حسان بن ثابت بأبيات ونحلها (أبا سفيان). وقتادة من الشعراء المخضرمين[6] .

وضرار بن الخطاب بن مرداس بن كثير بن عمرو بن سفيان بن محارب بن فهر القرشي الفهري من ظواهر قريش ، وكان لا يكون بالبطحاء إلا قليلاً .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦١ وما بعدها) .
٢ ابن سلام (٦٢) ، أمالي المرتضى (١/٦٣٢) .
٣ المحبر (١٧٧) .
٤ المحبر (٤٧٣) .
٥ الروض الانف (٢/٣٧٩ وما بعدها) .
٦ الاصابة (٣/٢١٧) ، (رقم ٧٠٧٧) .

وكان أبوه رئيس بني فهر في زمانه ، وكان يأخذ المرباع لقومـــه . وقد قدّمه بعض رواة الشعر من قريش على (عبدالله بن الزبعرى) ، وعدّوه من الشعراء المطبوعين المجودين . قاتل المسلمين في الوقائع أشد القتال ، ثم أسلم في الفتح[1] . وهو من الأشراف[2] . وذكر انـه « كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجودين ، حتى قالوا : ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم .. قال الزبير بن بكّار : لم يكن في قريش أشعـر منـــه ومن ابن الزبعرى . قال الزبير : ويقدمونه على ابن الزبعرى ، لأنه أقل منه سقطاً ، وأحسن صنعة »[3] . وكان من فرسان قريش يوم الخندق .

ولضرار شعر قاله في يوم (بـــدر)[4] ، وشعر في رثاء (أبي جهل)[5] . وأشعار أخرى في أحد وفي الوقائع الأخرى تجدها في سيرة (ابن هشام) .

وكان ضرار جمع من حلفاء قريش ومن مرّاق كنانة ناساً ، فكان يأكـل بهم ويغير ويسبي ، ويأخذ المال . وكان خرج في الجاهلية في ركب من قريش فرّوا ببلاد دوْس ، وهم يطالبون قريشاً بدم (أبي أزيهر) ، قتله (هشام ابن المغيرة) ، فثاروا بهم وقتلوا فيهم ، فقاتلهم ضرار ، ثم لجأ الى امرأة منهم ، يقال لها : (أم غيلان) مقينة تقين العرائس ، فساعدته وساعده بنوها وبناتها ، فسلم . ولقي ضرار يوم أحد (عمر بن الخطاب) ، فضربه بعارضة سيفـــه ، وقال : انج يا ابن الخطاب ، لأنه كان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً ، فلما ولي (عمر) الخلافة ، وسمعت (أم غيلان) بذكر (ابن الخطاب) ظنته ضراراً ، فقدمت المدينة ، فتوسط لها (ضرار) عند الخليفة فأثابها[6] .

---

١ الاصابة (٢٠١/٢) ، (رقم ٤١٧٣) ، الاستيعاب (٢٠١/٢) ، (حاشية عـلى الاصابة) ، تاج العروس (٢٣٤/٣) ، (زبعر) ، كتـــاب نسب قريش (١٢٦ ، ٢٦٤ ، ٤٣٣ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣٥٠/٣) ، (ضرر) .

٣ الاستيعاب (٢٠١/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ سيرة ابن هشام (١٠٩/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

٥ سيرة ابن هشام (١١٣/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

٦ ابن سلام ، طبقات (٦٣) .

وكان من مسلمة الفتح ، ومن شعره في يوم الفتح ، قوله :

يا نبيّ الهدى اليك لجا حي قريش وأنت خير لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعواء
وغر الصدر لا يهم بشيء غير سفك الدماء وسبي النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت عنه هند بالسوءة السواء
إذ تنادى بذلّ حيّ قريش وابن حرب بدا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت اليه من بُهم الخز رج والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطـاح قريش فقعة القاع في كف الإماء
فانهينه فإنـه أسد الأسـد لدى الغاب والغ في الدماء
انه مطرق يدير لنا الأمـ ـر سكوناً كالحيّة الصماء[1]

ومن الشعراء الذين هجوا الرسول والإسلام (هبيرة بن أبي وهب) المخزومي . من فرسان قريش وشعرائها ، وكان مثل (ابن الزبعرى) ممن يؤذون الإسلام، فهدر النبي دمه ، فهرب الى (نجران) حتى مـات بها كافراً . وكانت عنده (أم هانىء) ابنة (أبي طالب) فأسلمت عام الفتح، فقال حين بلغه اسلامها قصيدة من بينها هذه الأبيات :

أشاقتكَ هند أم نآكَ سؤالها كذاك النوى أسبابهـا وانفتالها
وقد أرقت في رأس حصن ممرد بنجران يسري بعد نوم خيالها
وإن كنتِ قد تابعت دين محمدٍ وعطفت الأرحام منك حبالها

وهي قصيدة رويت في موارد متعددة مع شيء من الاختلاف[2] .

---

١ الاستيعاب (٢٦/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ كتاب نسب قريش (٣٩ ، ٣٤٤) ، الشعر والشعـراء (٨٠) ، الاشتقاق (٩٥) ، البيان والتبيين (٢٠٣/٢) ، العمدة (٢٣/١) .

وأورد (ابن هشام) قصيدة لـ (هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ) المخزومي ، في معركة (أحد)[1] . وذكر (ابن سلام) أن (هبيرة) ، كان شاعراً من رجال قريش المعدودين ، وكان شديد العداوة لله ولرسوله ، فأخمله الله ودحقه ، وهو الذي يقول يوم أحد :

قدنا كنانة من أكناف ذي يمن عرض البلاد على ما كان يُزجيها
قالت كنانة أنى تذهبون بنا قُلنا النخيل فأموها وما فيها

وله شعر كثير وحديث »[2] .

و (الحارث بن هشام بن المغيرة) المخزومي ، أخو (أبي جهل) وابن عم (خالد بن الوليد) ، كان من أشراف قومه ، وقد مدحه (كعب بن الأشرف) اليهودي . وكان فيمن شهد بدراً مع المشركين ، وفرّ حينئذ وقتل أخوه أبو جهل ، فعير بفراره ، فما قيل فيه قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرّة ولجام

فأجابه الحارث :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتّى رموا فرسي بأشقر مزبد
فعلمت أني إن أقاتل واحداً أقتل ولا يبكي عدوي مشهدي
ففررت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يومٍ مرصد

ويرى علماء الشعر ان هذه الأبيات أحسن ما قيل في الاعتذار من الفرار[3] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (٢/١٥٥) ، (حاشية على الروض) .
٢ طبقات (٦٥) .
٣ الاصابة (١/٢٩٣) ، (رقم ١٥٠٤) ، « فاعتذر اليه الحارث بن هشام من فراره يومئذ ، بما زعم الاصمعي أنه لم يسمع بأحسن من اعتذاره ذلك من فراره » ، الاستيعاب (١/٣٠٨) ، (حاشية على الاصابة) ، نسب قريش (٣٠١ وما بعدها) ، وقد روى الشعر بصور مختلفة .

وكان الحارث يضرب به المثل في السؤدد حتى قال الشاعر

أظننت ان أباك حين تسبّني في المجد كان الحارث بن هشام
أولى قريش بالمكارم والندى في الجاهلية كان والاسلام[1]

وله أشعار في بدر وفي المناسبات الأخرى التي وقعت مع المسلمين ، وله شعر في رثاء أخيه (أبي جهل) . وذكر (ابن هشام) أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر بعض هذا الشعر[2] .

وقد شهد (أحد) مشركاً حتى أسلم يوم فتح مكة،وكان من المؤلفة قلوبهم، وشهد مع النبي حنيناً فأعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفة قلوبهم ، وكان من المطعمين بمكة . وخرج الى الشام في زمن (عمر) ، فتبعه أهل مكة يبكون فراقه. وتوفي هناك بطاعون عمواس سنة ثماني عشرة في رواية ، أو بيوم اليرموك رجب سنة خمس عشرة في رواية أخرى[3] .

ومن شعراء قريش : (مالك بن عُميلة بن السبّاق بن عبد الدار بن قصي) القرشي ، وهو جاهلي ، من معاصري (هشام بن المغيرة) المخزومي[4] .

ومن شعراء قريش الذين أدركوا الاسلام وصاروا عليه ، (ابن خطل) (عبدالله بن خطل) ، أو (آدم) القرشي الأدرمي . وهو من ولد (تيم بن غالب) . وكان ممن يهجو الرسول والاسلام ، ويأمر قينتين له بأن تغنيا بهجاء الرسول . فأهدر النبي دمه ولو وجد تحت أستار الكعبة . وانما أمر بقتله لأنه كان مسلماً ، ثم ارتد مشركاً ، وكانت له قينتان : فرتني وأخرى معها ، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ، فأمر بقتلها معه . فقتله (أبو برزة) الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة[5]

---

١ الاصابة (١/٢٩٣) ، (رقم ١٥٠٤) .

٢ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض) .

٣ الاصابة (١/٢٩٣) ، (رقم ١٥٠٤) ، الاستيعاب (١/٣٠٧) ، (حاشية على الاصابة) ، ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) .

٤ المرزباني ، معجم (٢٥٥) .

٥ الطبري (٣/٥٩) ، (فتح مكة) ، العمدة (١/٢٣) .

ومن شعراء قريش (أبو العاصي بن أمية الأكبر بن عبـد شمس) ، كان يقال له (الأمين) ، وكان من حكماء قريش . وينسب اليه قوله :

أبلغ لديك بني أميـة آية نصحاً مبينا
إنا خلقنا مصاحبين وما خلقنا مفسدينا
اني أعادي معشراً كانوا لنا حصناً حصينا
خلقوا مع الجوزاء إذ خلقوا ووالدهم أبونا[1]

وكان (أبو عزة) واسمه (عمرو بن عبدالله بن عمير) ، شاعراً ، وكان مملقاً ذا عيال، فأسر يوم بدر كافراً ، فمن عليه الرسول على أن لا يهجو المسلمين، فعاهده وأطلقه . فلما كان يوم أحد، أطمعه (صفوان بن أمية بن خلف الجمحي)، وكان محتاجاً ، والمحتاج يطمع ، فأخذ يحرض الناس عـلى الإسلام ، فقتل . وقيل إنه برص بعد ما أسن ، وكانت قريش تكره الأبرص ، وتخاف العدوى، فكانوا لا يؤاكلونه ولا يشاربونه ولا يجالسونه ، فكبر ذلك عليه ، فصعد جبل حراء ، يريد قتل نفسه ، فطعن بها في بطنه ، فسال ماء أصفر ، وذهب ما كان به ، فقال في ذلك شعراً[2] . وذكر (الزبيري) أنه أسر يوم (بدر) وكان ذا بنات ؟ فقال : « دعني لبناتي » فرحمه ، وأخذ عليه ألا يكثر عليه بعدها، فلما جمعت قريش لرسول الله لتسير اليه ، كلّمه (صفوان بن أميه) وسأله أن يخرج الى (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، وهم حلفاء قريش، فيسألهم النصر ، فأبى عليه ، وقال : « إن محمـداً قَدْ منّ عليّ وأعطيته ألاّ أكثر عليه » ، فلم يزل صفوان يكلمه حتى خرج الى بني الحارث ، يحرضهم عـلى الخروج مع قريش والنصر لهم ، فقال في ذلك :

أنتم بنو الحارث والناس إلهام أنتم بنو عبد منـاة الرّزام
أنتم حـاة وأبوكم حـام لا تعدوني نصركم بعد العام
لا تسلموني لا يحل إسلام

---

[1] كتاب نسب قريش (٩٨ وما بعدها) .
[2] ابن سلام ، طبقات (٦٣ وما بعدها) .

فلما انصرفت قريش من أحد ، تبعهم رسول الله حتى بلغ (حمراء الأسد)، فأصاب بها (عمراً) ؛ فقال له : « يا محمد ! عفوك ! » فقال له الرسول ، « لا تمسح سبلتيك بمكة ، تقول : خدعتُ محمداً مرتين ! » « لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين ، وقتله صبراً »[1].

ومن شعراء قريش (حرب بن أمية)[2] ، وهو من بني أميـة[3] ، وكان رئيساً بعد المطلب[4] ، وهو والد (أبي سفيان بن حرب) ، وقد زعم ان الجن قتلته ، وأنشدوا في ذلك شعراً ذكروا ان الجن قالته ، هو :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر[5]

وقد زعموا ان الجن خنقته[6] . وقد نسبوا له هذه الأبيات :

أبا مَطرٍ هلُمّ الى صلاحٍ فتكفيكَ الندامى من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هُديت لخير عيش
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمن أن يزورك رب جيش

قالوا انه قالها مخاطباً بها (أبا مطـر) الحضرمي ، يدعوه الى حلفه ونزول مكة[7] .

ومن شعراء قريش الذين أدركوا الاسلام : (أبو زمعة) ، واسمه (الأسود ابن المطلب) . له شعر رثا به من قُتل ببدر ، منه :

تُبَكّي أن يضل لها بعيرٌ ويمنعها من النوم السهود

---

١ نسب قريش (٣٩٧ وما بعدها) .
٢ نسب قريش (١٥٧) .
٣ المحبر (١٣٢) .
٤ المحبر (١٦٥) .
٥ الحيوان (٦/٢٠٧) ، معاهد التنصيص (١/١٢ وما بعدها) ، المعارف (٣٢) .
٦ الحيوان (١/٣٠٢) .
٧ الحيوان (٣/١٤١) .

فلا تبكي على بكرٍ ولكن على بدر تقاصرت الجدود
على بدرٍ سراة بني هُصَيْص ومخزومٍ ورهطِ أبي الوليد
وبكّي إن بكيتِ على عَقيلٍ وبكى حارثاً أسد الأسود
وبكّي إن بكيتهم جميعاً وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجالٌ ولولا يوم بدر لم يسودوا [1]

---

١ نسب قريش (٢١٨ وما بعدها) ٠

الفصل الثالث والستون بعد المئة

شعراء يثرب

قال (ابن سلام) : « شعراؤها الفحول خمسة : ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس . فمن الخزرج ، من بني النجار حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة، كعب بن مالك ، ومن بلحارث بن الخزرج : عبدالله بن رواحة ، ومن الأوس: قيس بن الخطيم من بني ظفر ، وأبو قيس بن الأسلت من بني عمرو بن عوف»[1]. وهناك شعراء آخرون لكنهم لم يبلغوا مبلغ هؤلاء في الشعر ، منهم : (أحيحة بن الجلاح) و (سويد بن الصامت) ، و (أبو قيس مالك بن الحارث)وآخرون .

ونسبوا لأبـي آمنة جدّ النبي قوله :

وإذا أتيت معاشراً في مجلسٍ فاختر مجالسهم ولمـا تقعدِ
ولكل أمر يستعـاد ضراوة فالصالحات من الأمور تعوّدِ[2]

ويعد (مالك بن العجلان) الخزرجي في جملة شعراء يثرب ، ذكر انه القائل للربيع بن أبـي الحقيق اليهودي من أبيات :

إني امرؤ من بني سالم كريم وأنت امرؤ من يهود

---

١ طبقات (٥٢) .
٢ المصون (١٨٩) .

فأجابه الربيع من أبيات أولها :

أتسفه قيلة أحلامهـــا وحان بقيلة عثر الجدود[1]

وفيه يقول الشاعر (عمرو بن امرىء القيس) من بني الحارث بن الخزرج، من شعراء الجاهلية :

يا مالِ والسيد المعمم قد يبطره بعد رأيه السرفُ
نحن بما عندنا وأنت بما عندكَ راضٍ والرأي مختلفُ[2]

وهو من مشاهير سادة (يثرب) ، وله ذكر في نزاع أهل يثرب مع اليهود ، وفي حرب (سمير) بين الأوس والخزرج . وهو قاتل (الفطيون)[3] .

وعمرو بن الإطنابة من شعراء (يثرب) ، وهو من الخزرج ، وهو شاعر فارسي قديم ، خرجت الخزرج معه وخرجت الأوس وأحلافها مع (مُعاذ بن النعمان) في حرب كانت بين الأوس والخزرج . وذكر ان حسان بن ثابت جعله أشعر الناس ، لقوله :

إني من القوم الذين اذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل
المانعين من الخنا جيرانهم والحاشدين على طعام النازل
والخالطين فقيرهم بغنيهـــم والباذلـــين عطاءهم للسائل
لا يطبعون وهم على أحسابهم يشفون بالأحلام داء الجاهل
القائلين ولا يعاب خطيبُهم يومَ المقامة بالكلام الفاصل

ومن شعره :

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإكراهي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح

---

1 المرزباني ، معجم (٢٥٦) .
2 والشعر يختلط أبياته بأبيات قصيدة أخرى لقيس بن الخطيم ، وأخرى لمالـــك بن العجلان ، البيان والتبيين (٣/١٠٠) ، جمهرة أشعار العرب (١٢٧ وما بعدها) ، الجمهرة (١٢٢) ، ديوان قيس بن الخطيم (١٦ وما بعدها) .
3 الاشتقاق (٢/٢٧٠) .

ويقال إن معاوية قال : « لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفين وهممت بالفرار ، فما منعني من ذلك إلا قول ابن الإطنابة » الشعر المذكور[1] .

ونسب (أبو الفرج) الاصبهاني الى (أحيحة بن الجلاح بن الحريش «الجريش؟» ابن جحجبي بن كلفة) الأوسي قوله :

لتبكيني قنيـــة ومزمرها ولتبكيني قهوة وشاربها
ولتبكيني ناقة إذا رحلت وغاب في سربخ مناكبها

وهي أبيات قبلها :

يشتاق قلبي الى مليكـــة لو أمست قريباً لمـــن يطالبها
ما أحسن الجيد من مليكة والـ ـلّبات إذ زانها ترائبهـــا

وقد نسبها بعض آخر لعدي بن زيد العبادي،ونسبها بعض آخر لبعض الأنصار[2].

و (أحيحة بن الجلاح) ، من سادات الأوس . وكان سيدهم في زمانه . وكان شاعراً . وكانت عنده (سلمى بنت عمرو) من بني النجـار ، وأولاده منهـــا اخوة (عبد المطلب)[3] وهو من أصحاب المذهبات[4] .

وقد ذكر (ابن الشجري) ، أنه وجد في كتاب لغوي أن الشعر المـذكور منسوب الى (عدي بن زيد) ، وقد تصفح نسختين من ديوان عدي فلم يجده فيها ، وإنما وجد له قصيدة على هذا الوزن وهذه القافية أولها :

لم أرَ مثل الأقوام في غبن الأيام ينسون ما عواقبها

وذكر (البغدادي) أن (الأصبهاني) اقتبسه في (الأغاني) لأحيحة[5] .

وقد ذكر أهل الأخبـــار أن (أحيحة) كان في أيام التبع (أبو كرب بن حسان بن تبع بن أسعد) الحميري ، وأن هـــذا التبع لما عاد من العراق يريد

---

١ المرزباني ، معجم (٨ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤١٧/١) .
٣ الاشتقاق (٢٦٢) .
٤ الاغاني (١١٩/١٣) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٤٩/١) .
٥ الخزانة (٢/٢٠ وما بعدها) .

(يثرب) لقتل أهلها ابناً له بها ، وهو مجمع على خرابها وقطع نخلها واستئصال أهلها وسبي الذرية ، نزل بسفح (أحد) فاحتفر بها بئراً ، عرفت به (بئر الملك) ، ثم أرسل الى أشرافها ليأتوه ، فكان ممن أتاه (زيد بن ضبيعة) وابن عمه (زيد بن أمية بن عبيد) ، وكانوا يسمون (الأزياد) ، و (أحيحة بن الجلاح) . فلما جاء رسول التبع ، ذهب الأزياد اليه ، وكان (أحيحة) له تابع من الجن ، أخبره أنه يريد قتلهم جميعاً ، وكان لا يقول إلا صواباً ، فلما قابل التبع تحدث معه عن أمواله وعن أموال المدينة ، ثم خرج من عنده ودخل خباءه ، وكان (تبع) قد أوكل حراساً به ، فشرب وقرض أبياتاً مطلعها :

يشتاق قلبي الى مليكة أمسى قريباً لمن يطالبها

وأمر قينته أن تغنيه حتى استغفل الحرس ، ففر منهم الى أطمه (الضحيان) ، وقيل (المستظل) ، فجرد الملك كتيبة عليه ، ثم حاصر المدينة ، فلم يتمكن منها ، إذ اعتصم أهلها من الأوس والخزرج واليهود بأطمهم ، ثم أقنعه (حبران) من أحبار يهود بكف الحصار عنها ، فرجع[1] .

وكان (أحيحة) سيد الأوس في الجاهلية ، وكان كثير المال شحيحاً عليه يبيع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهم ، وكان له تسع وتسعون بعيراً كلها ينطح عليها ، وكان له أطمان ، أطم في قومه يقال له (المستظل) ، وأطم يقال له (الضحيان) بالعصبة في أرضه التي يقال لها الغابة ، بناه بحجارة سود ، ويزعمون انه لما بناه هو وغلام له أشرف ، ثم قال : لقد بنيت حصناً حصيناً ما بنى مثله رجل من العرب أمنع منه ، ولقد عرفت موضع حجر منه لو نزع وقع جميعاً . فقال غلامه : أنا أعرفه . قال : فأرنيه يا بني ؟ قال : هو ذا ، وصرف اليه رأسه . فلما رأى أحيحة انه قد عرفه دفعه من رأس الأطم ، فوقع على رأسه فمات[2] . وهي قصة تشبه قصة (سنمار) ، ولها شبه عند اليونان . ويذكرون انه لما بناه قال :

بنيت بعد مستظل ضاحيا بنيته بعصبة من ماليا

---

١ الخزانة (٢/٢١ وما بعدها) ، (بولاق) ، الاغاني (١٣/١١٩) .
٢ الخزانة (٢/٢٣) ، (بولاق) .

للستر مما يتبع القواضيا أخشى ركيباً أو رجيلاً غاديا[1]

وينسب لأحيحة قوله :

استغن أو مت ولا يغررك ذو نشب من ابن عمّ ولا عمّ ولا خال
اني مقيم على الزوراء أعمرها إن الحبيب الى الإخوان ذو المال

وقوله :

ومـا يدري الفقير متى غناه ولا يدري الغني متى يعيل[2]

و (سويد بن صامت) أخو (عمرو بن عوف) من الأوس ومن (الكملة) ومن الأشراف أصحاب النسب ، ومن الشعراء . وكانت له أشعار كثيرة . وهو الذي ذهب اليه النبي يوم قدم مكة حاجاً أو معتمراً ليدعوه الى الإسلام ، فلما كلمه النبي قال له (سويد) فلعل الذي معك مثل الذي معي ! فقال له رسول الله وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله : اعرضها عليّ ! فعرضها عليه ، فقال : إن هذا لكلام حسن والذي معي أفضل من هذا : قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الإسلام ، فلم يبعد منه . وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه . فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج[3] . ويشك في إسلامه[4] .

و (أبو قيس بن الأسلت) (أبو قيس بن عامر بن جشم) و (عامر) هو الأسلت ، شاعر من الأوس . اختلف في اسمه ، فقيل (صيفي) وقيل (الحرث) (الحارث) ، وقيل (عبدالله) ، وقيل (صرمة) ، واختلف في اسلامه . ذكر انه كان يدعى (الحنيف) لتحنفه . ولم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفية ولا أكثر مساءلة عنها منه. وكان يسأل من اليهود عن دينهم،

---

١ الخزانة (٢/٢٣) ، (بولاق) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٢٧) .
٣ الروض الانف (١/٢٦٥ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيرة (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الاغاني (٢/١٦٩) .
٤ الاصابة (٢/١٣٢) ، (رقم ٣٨١٨) ، الاستيعاب (٢/٥٩٣) ، رسالة الغفران (١٣٧) .

فكان يقاربهم ، ثم خرج الى الشأم فنزل على (آل جفنة) فأكرموه ووصلوه، وسأل الرهبان والأحبار ، فدعوه الى دينهم فامتنع ، ثم خرج الى مكة معتمراً ، فبلغ (زيد بن عمرو بن نفيل) فكلمه ، فكان يقول ليس أحد على دين ابراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو بن نفيل . ولما قدم النبي الى المدينة جاء اليه فقال : إلام تدعو ؟ فذكر له شرائع الاسلام . فقال : ما أحسن هذا وأجمله ! فلقيه (عبدالله ابن أبيّ بن سلول) ، فقال : لقد لذت من حزبنا كل ملاذ ، تارة تحالف قريشاً ، وتارة تتبع محمداً . فقال : لا جرم لأتبعنه الى آخر الناس . وقد اختلف في اسلامه ، والأغلب انه لم يسلم[1] . وذكر انه كاد أن يسلم ، لما اجتمع برسول الله ، ولكن كلام (عبدالله بن أبي) أثر عليه ، فقال : والله لا أسلم سنة . ثم انصرف الى منزله ، حتى مات قبل الحول ، وذلك في ذي الحجة على رأس عشرة أشهر من الهجرة[2] .

وفي سيرة (ابن هشام) قصيدة نسبت الى (أبي قيس بن الأسلت) زعم أنه وجهها لقريش ينهى فيها عن الحرب ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل وكيده عنهم . وأول القصيدة :

يا راكباً امـــا عرضت فبلغن مغلغلة عنّي لـــؤي بن غالب
رسول امرىء قد راعه ذات بينكم على النائي محزون بذلك ناصب[3]

وهو من أصحاب المذهبات ، ومطلع مذهبته :

قالت ولم تقصد لقول الخنى مهـــلاً فقد أبلغت أسماعي[4]

ونسب له قوله :

ولو شا ربنـــا كنّا يهوداً وما دين اليهود بذي شكول

---

1 الاصابة (٤/١٦٠ وما بعدها) ، (رقم ٩٤٤) ، الاستيعاب (٤/١٥٩ وما بعدها)، (حاشية على الاصابة) ، ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
2 ابن سعد ، طبقات (٤/٣٨٥) .
3 سيرة ابن هشام (١/١٨٠) ، (حاشية على الروض) .
4 الاغاني (١٥/١٦٠) ، الجمهرة (١٢٦) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربيـــة (١/١٣٩) .

ولو شا ربنا كنّا نصارى   مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا   حنيفاً ديننا عن كل جيل
نسوق الهدى ترسفُ مذعنات   تكشف عن مناكبها الجُلول[1]

وكان (أبو قيس بن الأسلت) الأنصاري يهاجي حسان بن ثابت . وهو من الأوس ، وحسان من الخزرج ، فكانا يتهاجيان . وكان بين الحيين هجاء ، فكان شعراء كل حي ، يهاجون شعراء الحي الثاني ، عصبية ، لما كان بينهما من تحاسد وتنافر[2] .

والأسلت لقب (عامر بن جشم بن وائل بن يزيد) والد الشاعر المتقدم من الأوس ، وهو شاعر من شعراء الجاهلية ، وكانت الأوس قد أسندت أمرها في يوم (بعاث) الى (أبي قيس بن الأسلت) ، فقام في حربهم وآثرها على كل أمر آخر ، حتى أنهكته وشحب لونه . وقال (ابن حجر) ان اسم (أبي قيس ابن الأسلت) (صيفي) ، وقيل (الحارث) ، وقيل (عبدالله) ، وقيل (صرفة) ، وقيل غير ذلك . واختلف في اسلامه . فمنهم من صيره مسلماً ، وجعله في عداد الصحابة ، ومنهم من جعله متألهاً حنيفاً على دين ابراهيم ، وكان يقول : ليس أحد على دين ابراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو بن نفيل ، ومنهم من زعم انه قال : والله لا أسلم الى سنة ، فمات قبل الحول على رأس عشرة أشهر من الهجرة بشهرين ، وذكر انه هرب الى مكة فأقام بها مع قريش الى عام الفتح[3]. وللعصبية دور في هذه الروايات ، ترد في رجال آخرين من أهل يثرب ومن أهل مكة ، تقدم روايات منها رجالاً في الاسلام ، وتؤخرهم أخرى ، وتنفي عنهم بعضها الدخول في دين الله ، لما لهذا التأخير أو التقديم ، أو البقاء على الشرك من أهمية كبيرة بالنسبة لهم في ذلك الوقت .

وذكر أن (أبا قيس بن الأسلت) كان يعدل (بقيس بن الخطيم) في الشجاعة والشعر[4] . وقيس بن الخطيم ، شاعر فارس من الأوس . معدود من

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣٨٥/٤) .
٢ الخزانة (٦٨/٤) ، (بولاق) .
٣ الخزانة (٤٧/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ الاصابة (١٦١/٤) ، (رقم ٩٤٤) ، « واسم الاسلت عامر . فهو لقب له » ، تاج العروس (٥٥٤/١) ، (سلت) .

أصحاب (المذهّبات) . وتبدأ مذهبته بقوله :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راكبِ

وكان يلاحي الخزرج ، قتل أبوه وهو صغير . قتله رجل من الخزرج، وعلم أن جدّه قتله رجل من (عبد القيس) . فتعقب القاتلين ، حتى ظفر بقاتل والده بيثرب ، وظفر بقاتل جده بذي المجاز فقتله[1] . أدرك الإسلام ، ولكنه لم يسلم . ذكر أنه قدم على النبي بمكة قبل الهجرة ، فعرض النبي عليه الإسلام، فقال : إني لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي ، وفيها بقية من ذاك ، فاذهب فاستمتع من النساء والخمر وتقدم بلدنا فأتبعك . فقتل قبل أن يتبعه. أصابه سهم وهو راكب أمام أطم لرجل من الخزرج[2] .

وهو الذي يقول في حرب كانت بينهم وبين الخزرج :

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع
أسعى على جلّ بني مالكٍ كل امرءٍ في أمره ساعي[3]

وذكر (المرزباني) ان قيس بن الخطيم ، شاعر مجيد فحل ، من الناس من يفضله على حسان شعراً . وقال حسان : إنا اذا نافرتنا العربُ فأردنا أن نخرج الحبرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم[4] . وله ديوان مطبوع[5] . وهو الذي يقول في يوم بعاث :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب لعمرة قفر غير موقف راكبِ

وله أشعار جيدة أخرى[6] .

---

١ الاشتقاق (٢٦٤) ، الاغاني (٢/١٥٩ وما بعدها) ، الخزانة (٣/١٦٨) ، المرزباني ، معجم (١٩٦) .
٢ المرزباني ، معجم (١٩٦) ، ديوان الحماسة (٣/١٠٤) ، بروكلمن تاريخ الادب العربي (١/١١٤ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
٤ المرزباني ، معجم (١٩٦) ، ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
٥ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١١٥) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٥٦ وما بعدها) .

وذكر انه كان مقيماً على شركه ، وأسلمت امرأته ، وكان يقال لها (حواء) ، وكان يصدها عن الاسلام ، ويعبث بها . وكان رسول الله وهو بمكة قبل الهجرة يخبر عن أمور الأنصار ، وعن حالهم فأخبر باسلامها وبما تلقى من قيس ، فلما كان الموسم ، وحضر مكة ، أتاه النبي في مضربه ، فلما رأى النبي رحب بـه وأعظمه ، فأخبره النبي بما تلاقي امرأته منه بسبب اسلامها ، وقال له : أحب أن لا تعرض لها ، فكف عن أذاها [1] ، ويقال ان النبي دعاه الى الاسلام وتلا عليه القرآن ، فقال : اني لأسمع كلاماً عجباً فدعني أنظر في أمري هذه السنة ثم أعود اليك فمات قبل الحول [2] .

وذكر انه كان سيداً شاعراً ، فلما هدأت حرب الأنصار ، تذاكرت الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته ، فتذامروا وتواعدوا قتله ، فلما مر بأطم (بني حارثة) ، رمي بثلاثة أسهم ، فصاح صيحةً أسمعها رهطـه ، فجاءوه فحملوه الى منزله ، فلم يروا له كفواً إلا (أبا صعصعة بن زيد) النجاري ، فاندس اليه رجل حتى اغتاله في منزله فضرب عنقه ، وجاء برأسه ، ووضعه أمام (قيس) وكان به رمق ، فما لبث أن مات [3] .

وله قصيدة متينة ، قالها حين ظفر بقاتل أبيه وقاتل جده ، فقتلها ، من أبياتها :

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لها نفذٌ لولا الشعاع أضاءهـا

ملكت بها كفيّ فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءهـا

يهون عليّ أن ترد جراحهـا ... عيون الأواسي إذ حمدت بلاءها

وكنت امرءاً لا اسمع الدهر سبةً ... أسب بها إلا كشفت غطاءهـا

فاني في الحرب الضروس موكلٌ ... بإقدام نفسٍ ما أريد بقاءهـا

متى يأتِ هذا الموت لاتلف حاجةٌ ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءهـا

ثأرت عديـاً والخطيم فلم أضع ... ولاية أشياخ جعلت إزاءها [4]

---

١ ابن سلام ، طبقات (٥٧) .

٢ الاصابة (٣/٢٦٦) ، (رقم ٧٣٥٠) .

٣ أسماء المغتالين ، (المجموعة السابعة من نوادر المخطوطات) ، (٢٧٤) .

٤ حماسة أبي تمام (١/٩٤ وما بعدها) ، (بولاق) ، الاغاني (٢/٦٠) ، ديوانـه (٣ وما بعدها) ، (طبعة لايبزك ١٩١٤) .

وله غزل ، نابع من غزل أهل الحضر ، تغزل فيه بعمرة بنت رواحة[1] .

و (أبو قيس) (مالك بن الحارث) ، وقيل « صرمة بن أبي أنس بن مالك) من بني النجار، شاعر كذلك . كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه طامث ولا جنب . وقال : أعبد رب ابراهيم، فلما قدم الرسول يثرب أسلم فحسن إسلامه ، وهو شيخ كبير . وكان قوّالاً بالحق معظماً له . يقول في الجاهلية أشعاراً حساناً . وقد ذكر (ابن اسحاق) أشعاراً له ، في الوصايا ، وفيها حث على مكارم الأخلاق والأمر بالمعروف وفي انصاف اليتيم وغير ذلك من شعر المواعظ[2] .

ومن شعراء يثرب : (عمرو بن امرىء القيس) ، الذي سبق أن ذكرته ، وهو جدّ (عبدالله بن رواحة) وهو شاعر خزرجي جاهلي . وله شعر في القتال الذي وقع بين الأوس والخزرج بسبب (سمير) الذي عدا على (بجير) مولى (مالك بن العجلان) فقتله ، فوقعت الحرب من أجل ذلك بين الحيين، فحكموا (عمرو بن امرىء القيس) ، فحكم بدية المولى لمالك ، فلما رفض الحكم هاجت الحرب . فلما طالت حكموا فيها (ثابت بن المنذر) والد حسان وبذلك انتهى النزاع[3] .

وحسان بن ثابت من المخضرمين ، من شعراء الخزرج ، واسمه حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام . وهو شاعر رسول الله وشاعر الاسلام . وأمه (الفريعة) بنت (خالد بن حبيش بن لوذان) . وهي من الخزرج أيضاً . أدركت الاسلام أيضاً فأسلمت ، وقيل هي أخت (خالد) لا ابنته ، ويكنى (أبا الوليد) ، وأبا المضرب ، وأبا الحسام ، وأبا عبد الرحمن . « قال أبو عبيدة : فضل حسان ابن ثابت على الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في أيام النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام . وكان مع

---

١ كارلو نالينو (٩٣) .

٢ الاستيعاب (١٥٧/٤ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (١٧٩/٢)، (رقم ٤٠٦١) .

٣ الخزانة (١٨٨/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .

ذلك جباناً »[1] . ولم يشهد مع النبي مشهداً لأنه كان يجبن[2] . وذكر انه كان لسناً شجاعاً ، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن ، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر الى قتال ولا يشهده[3] . وروي عن (أبي عبيدة) قوله : « اجتمعت العرب على أن أشعر أهل المدر يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف . وعلى ان أشعر أهل المدر حسان بن ثابت » . « وقال الأصمعي : حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء . فقال له أبو حاتم : تأتي له أشعار لينة . فقال الأصمعي : تنسب له أشياء لا تصح عنه »[4] .

وورد ان رسول الله قال : « ليس شعر حسان بن ثابت ، ولا كعب بن مالك ، ولا عبدالله بن رواحة شعراً ، ولكنه حكمة »[5] . وذكر ان (الحارث المرّي) ، قال للنبي : « اني أعوذ بالله وبك من هذا ، إن شعر هذا لو مزج بماء البحر لمزجه » . وكان حسان قد رآه جالساً مع الرسول ، فقال فيه شعراً مطلعه :

يا حار من يغدر بذمة جاره منكم فإن محمداً لا يغدر[6]

ويروى أنه كان إذا عالج شعراً ، وعصي عليه ، ثم أحكمه وأعجبه ، طرب به وربما صاح من الطرب ومن فرحة الانتهاء من الشعر . قال أحدهم : «سمعت حسان بن ثابت في جوف الليل وهو ينوّه بأسمائه ويقول : أنا حسان بن ثابت ، أنا ابن الفريعة ، أنا الحسام . فلما أصبحت غدوت عليه فقلت له : سمعتك البارحة تنوّه بأسمائك ، فما الذي أعجبك ؟ قال : عالجت بيتاً من الشعر ، فلما أحكمته نوّهت بأسمائي ! فقلت وما البيت ؟ قال : قلت :

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) ، المحاسن والاضداد (٤٨) .
٢ الشعر والشعراء (٢٦٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٣) ، الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادي (١٩٢ ، ٣٤٣) ، (بغداد ١٩٦٨) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) .
٤ الاستيعاب (١/٣٣٨) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) ، الاغاني (٤/١٣٤) ، المؤتلف (٨٩) ، المرزباني ، معجم (٤٠١) .
٥ المصدر نفسه (١/٣٣٥) .
٦ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٥) .

وإنّ امرءاً يمسي ويصبح سالماً   من الناس إلا ما جنَى لسعيد»[1]

وروي أيضاً أنه قام من جوف الليل فصاح : يا آل الخزرج ، فجاءوه وقد فزعوا ، فقالوا : مالك ؟ قال : بيت قلته فخشيت أن أموت قبل أن أصبح فيذهب ضيعة خذوه عني ، قالوا : وما قلت ؟ قال : قلت :

ربّ حلم أضاعه عدم الما   لِ وجهلٍ غطّى عليه النعيم[2]

وقد حمل على (حسان) شعر كثير ، بسبب تحامله على قريش ، فأرادت قريش النكاية به ، فوضعت شعراً على لسانه ليحط من مكانته . قال (ابن سلام) : « وأشعرهم حسان بن ثابت ، هو كثير الشعر جيده . وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لمّا تعاضهت قريش واستبّت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به »[3].

وأكثر علماء الشعر ان شعر (حسان) في الجاهلية أقوى منه في الاسلام ، قال (الأصمعي) : « الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره. وقال مرة أخرى : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر . وقيل لحسان لان شعرك أو هرم في الاسلام يا أبا الحسام ! فقال للقائل : يا ابن أخي ان الاسلام يحجز عن الكذب ، أو يمنع من الكذب ، وان الشعر يزينه الكذب . يعني ان شأن التجويد في الشعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق وذلك كله كذب »[4] . وقال (الثعالبي) : « من عجائب أمر حسان انه كان رضي الله عنه يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ويغبر في نواصي الفحول ويدعي ان له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك ... فلما أدرك الاسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ، ليعلم ان الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك »[5] . وما قوة شعر (حسان) في الجاهلية ، إلا بسبب قوة شبابه

---

1 السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٥ وما بعدها) .
2 السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٦) .
3 طبقات (٥٢) .
4 الاستيعاب (١/٣٣٨ وما بعدها) ، أسد الغابة (٢/٥) ، الشعر والشعراء (١/٢٢٤) ، بروكلمن (١/١٥٣) .
5 خاص الخاص (٨٠) ، الموشح ، للمرزباني (٦٥) .

آنذاك ، واندفاعه على الشراب وسماع القيان ، فلما كبر وشاخ ، وذهبت قوة شبابه ، وامتنع من الشرب بسبب تحريم الاسلام له ، لم تبق له قريحة الشباب ، واندفاع ذلك الوقت ، فضعف شعره لذلك ، وللسن دخل في حيوية الانسان وفي نتاجه العقلي ، ومنه الشعر .

ونسب الى (الحطيئة) قوله : « أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال عبد الملك بن مروان : أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا »[1] .

وكان حسان قد أدرك النابغة وأنشده ، وأنشد الأعشى ، وكلاهما قال له إنك شاعر[2] . وله حديث مع النابغة .

وُصِفَ بأنه كان صاحب لسان طويل ، « وكان يضرب بلسانه روثة أنفه ، من طوله ، ويقول ، ما يسرني به مقول أحد من العرب ، والله لو وضعته على شعر لحلقه ، أو على صخر لفلقه »[3] . وكانت له ناصية يسدلها بين عينيه[4] .

وكان أبوه (ثابت بن المنذر) من سادة قومه وأشرافهم ، وكان (المنذر) الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم (سميحة) ، وكانوا حكّموا في دمائهم يومئذ (مالك بن العجلان بن سالم بن عوف) ، فتعدّى في مولى له قتل يومئذ ، وقال : لا آخذ إلا دية الصريح ، فأبوا أن يرضوا بحكمه ، فحكّموا (المنذر ابن حرام) . فحكم بأن أهدر دماء قومه الخزرج ، واحتمل دماء الأوس[5] .

وكان حسان في أول أيامه يتنقل في الأرض طلباً للمال والعطايا والهبات ، فكان يراجع ملوك الحيرة ، ويعاود آل غسان . وكان هواه مع الغساسنة أقوى منه مع آل لخم ، حتى أنه كان يذكرهم بخير ويمدحهم وهو في الإسلام . وقد أكرموه كثيراً ، وأنعموا عليه أكثر مما أنعم ملوك الحيرة عليه . والظاهر أن لبعد الشقة

---

١ الاستيعاب (١/٣٣٩) .
٢ الاستيعاب (١/٣٤٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٢٣) ، الفائق (١/٥١٢) .
٤ الشعر والشعراء (١/٢٢٣) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .

التي تفصل يثرب عن الحيرة ، ولكثرة ما كان يفد من الشعراء على آل لخم ، وفيهم من هو أشعر من حسان ، وأكثر منه مكانة في الشعر بين العرب ، دخل في انصرافه الى مدح آل غسان وذهابه في الأكثر اليهم طلباً للمال في مقابل مدحه لهم.

ويروى عن (حسان) ان السعالى نصحته بمدارسة الشعر ، فقد روي عنه انه قال : « خرجت أريد عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني ، فلما كنت في بعض الطريق وقفت على السعلاة صاحبة النابغة ، وأخت المعلاة صاحبة (علقمة ابن عبدة) ، فقالت واني مقترحة عليك بيتاً ، فإن أنت أجزته شفعت لك الى أختي ، وإن لم تجزه قتلتك . فقلت هات . فقالت :

اذا ما ترعرع فينا الغلام   فما أن يقال له من هوه

قال : فتبعتها من ساعتي ، فقلت :

فإن لم يسد قبل شد الإزار   فذلك فينـا الذي لا هـوه
ولي صاحب من بني الشيصبان   فحيناً أقول وحينـاً هوه

فقالت : أولى لك ، نجوت ، فاسمع مقالتي واحفظها عليك بمدارسة الشعر ، فإنه أشرف الآداب وأكرمها وأنورها ، به يسخو الرجل ، وبه يتظرف ، وبـه يجالس الملوك ، وبه يخدم ، وبتركه يتصنع . ثم قالت : إنك إذا وردت على الملك وجدت عنده النابغة ، وسأصرف عنك معرته ، وعلقمة بن عبدة ، وسأكلم المعلاة حتى تردّ عنك سورته . قال حسان فقدمت على عمرو بن الحارث فاعتاص عليّ الوصول إليه فقلت للحاجب ، بعد مدة : إن أذنت لي عليه ، وإلا هجوت اليمن كلها . ثم انتقلت عنها . فأذن لي عليه ، فلما وقفت بين يديه وجدت النابغة جالساً عن يمينه ، وعلقمة جالساً عن يساره ، فقال لي : يا ابن الفريعة ، قد عرفت عيصك ونسبك في غسان ، فارجع فإنـي باعث اليك بصلة سنيّة ، ولا أحتاج الى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحـاك ، وفضيحتك فضيحتي ، وأنت اليوم لا تحسن أن تقول :

رقاق النعال طيب حجزاتهم   يحيّون بالريحان يوم السباسب

فقلت : لا بد منه . فقال : ذاك الى عميك فقلت : أسألكما بحـق الملك ،

الجواب : الا ما قدمتماني عليكما ؟ فقالا : قد فعلنا ، هات ، فأنشأت أقـول والقلب وجل :

أسألتَ رسم الدار أم لم تسألِ   بين الجوابي فالبضيع فحوملِ

حتى أتيت على آخرها . فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل عن مجلسه سروراً حتى شاطر البيت ، وهو يقول : هذه واللهِ البتارة التي قد بترت المدائح ، هذا وأبيك الشعر ، لا مـا تعللاني به منذ اليوم . يا غلام ألف دينار مرجوحة ، فأعطيت ألف دينار ، في كل دينار عشرة دنانير . ثم قال : لكَ عليَّ مثلها في كل سنة، ثم أقبل على النابغة فقال : قم يا زياد بني ذبيان فهات الثناء المسجوع، فقام النابغة فقال :

ألا أنعم صباحاً أيها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، ووالداي فداؤك ، والعرب وقاؤك ، والعجم حماؤك ، والحكماء وزراؤك ، والعلماء جلساؤك، والمقاول سمّارك ، والعقل شعارك ، والحلم دثارك ، والصدق رداؤك ، واليُمْنُ حذاؤك ، والبرُّ فراشك ، وأشرف الآباء آباؤك ، وأطهـر الأمهات أمهاتك ، وأفخر الشبان أبناؤك ، وأعف النساء حلائلك ، وأعـلى البنيات بنياتك ، وأكرم الأجداد أجدادك ، وأفضل الأخوال أخوالك ، وأنزه الحدائق حدائقك ، وأعذب المياه مياهك ، وحالف الإضريج عاتقك ، ولاءَمَ المسك مسكك ، وجاوَرَ العنبر تراتبكَ ، العسجد قواريرك ، واللجين صحائفك ، والشهد إدامك ، والخرطوم شرابك ، والأبكار مُستراحك ، والعبير بنواسك ، والخـير بفنائك ، والشر في ساحة أعدائك ، والذهب عطاؤك ، وألف دينارٌ مرجوحة إعاؤك ، وألف دينار مرهوجة ايتاؤك ، والنصر منوط بلوائك ، زين قولك فعلك ، وطحطح عدوَّك غضبك ، وهزم مقانبهم مشهدك . وسار في الناس عدلك ، وسكَّن تباريح البلاد ظفرك . أيفاخرك ابن المنذر اللخمي ؟ فوالله لقفاك خير من وجهـه ، ولشمالك خير من يمينه ، ولصمتك خير من كلامه : ولأمك خير من أبيه، ولخدمك خير من علية قومه . فهب لي أسارى قومي ، واسترهن بذلك شكـري ، فإنك من أشراف قحطان وأنا من سروات عدنان .

فرفع عمرو بن الحارث رأسه الى جارية كانت على رأسه قائمـة ، فقال :

مثل ابن الفريعة فليمدح الملوك ، ومثل ابن زياد فليثن على الملوك »[1] . وهكذا دبج أهل الأخبار هذا الثناء في كتبهم ، وكان رواتهم قد سجلوه ساعة وقوعه على شريط مسجل .

وتعد قصيدة (حسان) :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل　　بين الجوابي فالبضيع فحومل

من جيد شعره ، وأشهر قصائده ، فهي لينة الألفاظ أسهل فهماً من قصائد شعراء الصنف الأول ، وفيها من المديح مـــا يليق بملوك أهل المدر ، المتمتعين بأنواع الترف والرفاهية ، ثم إن أطناب الشاعر في وصف الخمر يبعد عن أسلوب شعراء أهل البادية ، كما يبعد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصور في بلاغة خطابهم ووفدهم على أبواب الملوك . وقد أبدع فيها في وصف معيشة ملوك غسان ، وفي حياتهم الحضرية التي كانوا يحيونها ، كما افتخر فيها بعشيرته الخزرج[2] .

وخير شعر حسان هو مـــا قيل في مدح ملوك غسان .. وكان هواه فيهم ، وكانوا هم يغدقون عليه العطايا والأموال ، ولا يؤخرونه من الدخول الى مجالسهم ، ويؤثرونه بالمودة ، فخصص جيد شعره بهم . وقد مدح ملوك الحـــيرة أيضاً ، غير أن مدحه لهم ، هو دون مدحه لمنافسيهم الغساسنة ، الذين كان يكثر التردد عليهم ، على حين لم يكن يقصد المناذرة إلا لحاجة شديدة ولطلب . ولعل ذلك بسبب بعد الحيرة عن يثرب ، وكثرة ذهاب الشعراء الى ملوك الحيرة ، واستدراج هؤلاء الملوك للشعر واغداقهم عليهم ، للاستفادة منهم في نشر الدعاية لهم بـــين الأعراب .

ومن جيد شعره في ملوك الغساسنة قوله :

أولاد جفنة حـــول قبر أبيهم　　قبر ابن ماريـة الكريم المفضل
يَسقون مَنْ ورد البريص عليهم　　بَرَدَى يصفق بالرحيل السلسل
يغشون حتى مـــا تهر كلابهم　　لا يسألون عن السواد المقبـــل

---

١ الاغاني (١٢٣/١٥ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٧٩/١ وما بعدها) .
٢ كارلو نالينو (٨٧ وما بعدها) .

وابن مارية هو الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني ، وكان أثيراً عندهم، ولذلك يقول :

قد أراني هنـــاك حق مكـين عند ذي التاج مقعدي ومكاني[1]

وذكر أنه دخل يوماً على (جبلة بن الأيهم) الغساني ، فأذن لـه ، فجلس بين يديه وعن يمينه رجل له ضفيرتان ، وعن يساره رجل ، وكان الأول هـو النابغة ، وكان الثـــاني ، هو (علقمة بن عبدة) . فاستنشدهم جبلة ، فأنشد النابغة قوله :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

قال حسان فذهب نصفي . ثم قال لعلقمة أنشد ، فأنشد :

طحابك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

قال حسان ، فذهب نصفي الآخر . ثم قال (جبلة) لحسان ، أنت أعـلم الآن إن شئت سكت ، وإن شئت أنشدت ، فأنشد :

أبناء جفنة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الجواد المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم كأساً تصفق بالرحيل السلسل

فأدناه منه ، ثم أمر له بثلثمائة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد . وقال : هذا لك عندنا في كل عام . وذكر (أبو عمرو الشيباني) هذه القصة لحسان مع (عمرو بن الحارث) الأعرج[2] . ونجد الرواة يختلفون في مثل هـذه القصص ، بسبب ركونهم الى رواة مختلفين ، لم يدونوا الأخبار وانما سمعوها سماعاً، وأكثرها من المخترعات .

ويظهر انه قد تمكن من جمع ثروة مكنته من السكن في حصن حصين بيثرب

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٢٤) .

٢ الخزانة (٢/٢٤٠ وما بعدها) ، (بولاق) .

عرف بـ (فارع)[1] . وكان الرسول اذا خرج لغزوة أو معركة أودع أهله حصن حسان ، لأنه كان حصناً حصيناً . وتذكر (صفيــة بنت عبد المطلب) ، ان حسان كان في حصنه مع النساء والصبيان فمر يهودي به ، وجعل يطيف حوله ، فقالت (صفية) لحسان إن هذا اليهودي لا آمنه أن يدل على عوراتنا فانزل اليه فاقتله ! فقال : يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، فنزلت صفية وأخذت عموداً وقتلت اليهــودي . فقالت : يا حسان انزل فاسلبه ! فقال ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[2] . وقد دفع بعض العلماء الجبن عن حسان ، بحجة انه لو كان جباناً على نحو ما يقولون لمــا سكت عن تعييره به خصومه ممن كان يهاجيهم كضرار وابن الزبعرى ، وعللوا عـدم نزوله من حصنه لقتل اليهودي بحجة انه ربما كان معتــلاً في ذلك اليــوم . وأنكــر بعضهم أن يكون هذا الخبر صحيحاً[3] . على كلٍ ، صح هذا الخبر أم لم يصح فإنا لا نجد لحسان ذكراً في مغازي الرسول ولا في سراياه . بل نجد العلماء مجمعين على انه « لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً ، لأنه كان جباناً »[4] .

ولحسان شعر في رثاء (المطعم بن عدي) والد (جبير بن مطعم) ، مات ولم يسلم . وكان (مطعم) أجار النبي حين قدم الطائف لما دعا ثقيفاً الى الإسلام، وهو أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش عـلى بني هاشم وبني المطلب . وكان فيما قاله في رثاء (المطعم) :

فلو كان مجداً يُخلدُ الدهر واحداً   من الناسِ أبقى مجده الدهر مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا   عبيدك ما لبى مهلٌ وأحرمـــا[5]

ومن شعره :

أهوى حديث الندمان في فلق الصـ   ـبح وصــوت المغرّد الغرد

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، (فارع حصن بالمدينة ، يقال انه حصـــن حسان بن ثابت) ، تاج العروس (٥/٤٤٩) ، (فرع) .
٢ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، سيرة ابن هشام (٢/١٩٣) ، (حاشيـــة على الروض الانف) ، الروض الانف (٢/١٩٣) .
٣ الروض الانف (٢/١٩٤) .
٤ الشعر والشعراء .
٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٨٧٥) .

ذكر ان بعض أهل المدينة كان يقول : ما ذكرت بيت حسان هذا إلا عدت في الفتوة[1] .

وذكر أن الناس كانوا يتمثلون بـ « فشرّكما لخيركما الفـداء » ، وهو عجز بيت لحسان . هو :

أتهجوه ولست له بنـد   فشركما لخيركما الفداء[2]

وهو من قصيدة يقول بعض الرواة إن مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء   الى عذراء منزلها خلاء

هجا فيها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) . « قال مصعب الزبيري: هذه القصيدة ، قال حسان صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام »[3] .

وينسب الى (حسان) قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب   أبينا فصرتم معربين ذوي نفر

وهو بيت تليه أبيات أخرى في الفخر بيعرب ، وبفضله على العرب ، لأنه هو صاحب العربية ، ومنـه تعلم العرب عربيتهم . وقد دونت هذه الأبيات في كتاب : تأريخ ملوك العرب الأولية للأصمعي[4] . وقد دوّن هذا الكتاب أبياتاً من قصيدته الشهيرة في مدح الغساسنة[5] . وأبياتاً في مدح (جبلة بن الأيهم) الـذي فرّ الى بلاد الروم ، وواصل مع ذلك بره لحسان[6] . وهو شعر أراه مصنوعاً ، ولا يتفق مع مذهب (حسان) في النظم .

وقد ذكر (حسان) قصر دومة ، أي دومة الجندل في شعره ، إذ قال :

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٢٥) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢٢٦) ، « اتهجوه ولست له بكفء » الاستيعاب (١/٣٣٦) .

٣ الاستيعاب (١/٣٣٦) .

٤ (ص ٨) .

٥ (ص ١٠٢) .

٦ (ص ١١٣)

أما ترى رأسي تغـير لونه شمطاً فأصبح كالثغام المجول
فلقد يراني صاحباي كأنـني في قصر دومة أو سواء الهيكل[1]

وورد ان الرسول لما « قدم المدينة ، فهجته قريش ، وهجوا الأنصار معه ، فأتى المسلمون كعب بن مالك (؟) فقالوا : أجب عنا ، فقال : استأذنوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادعوه ، فأتى حسان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اني أخاف أن تصيبني معهم تهجو من بني عمي ، فقـال حسان : لأسلنّك منهم سل الشعرة من العجين ، ولي مقول ما أحب ان لي به مقول أحد من العرب ، وانه ليفري ما لا تفريه الحربة . ثم أخرج لسانه فضرب به أنفه كأنه لسان حية بطرفه شامة سوداء ، ثم ضرب به ذقنه ، فأذن له رسول الله »[2] . وورد « ان النبي صلى الله عليه وسلم لمّا قدم المدينـة ، تناولته قريش بالهجاء ، فقال لعبدالله بن رواحة : ردّ عني . فذهب في قديمهم وأولهم ، ولم يصنع في الهجاء شيئاً . فأمر كعب بن مالك » « ولم يصنع في الهجاء شيئاً، فدعا حسان بن ثابت فقال : اهجهم ، وائتِ أبا بكر يخبرك بمعايب القوم . فأخرج حسان لسانه حتى ضرب به على صدره ، وقال : والله يا رسول الله ، ما أحب ان لي به مقولاً في العرب ، فصبّ على قريش منـه شآبيب شر . فقال رسول الله : اهجهم ، كأنك تنضحهم بالنبل »[3] .

وروي أن الرسول لما هجاه (عبدالله بن الزبعرى) ، و (أبو سفيـان بن الحارث بن عبد المطلب) ، و (عمرو بن العاص) ، و (ضرار بن الخطاب) قال : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء . قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهـو ابن عمي ؟ فقال : والله لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين ، فقال له : ائت أبا بكر فإنـه أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي الى أبي بكر ليقفه عـلى أنسابهم . وكان

---

١ الاصابة (١/١٣٢) ، (رقم ٥٤٩) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) ، « كعب بن مالك » « هكذا » ، بينما الحـال يستدعي ذكر « حسان بن ثابت » .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٥٤ وما بعدها) .

يقول : كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة ، فجعل حسان يهجوهم . فلما سمعت قريش شعر حسان ، قالوا:إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة، أو متى شعر ابن أبي قحافة .

فمن شعر حسان في أبي سفيان بن الحرث :

وإن سنام المجد في آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن لئيم لا يقوم له زند
وان امرءاً كانت سمية أمه وسمراء مغمور اذا بلغ الجهد
وأنت هجين نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان ، قال : هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة[1] .

وذكر ان الرسول جعله شاعره الناطق باسمه اذا جاءته الوفود ، وتبارى الشعراء أمامه ، قام هو للرد عليهم . فحين قدم وفد (بني تميم) بخطيبهم وشاعرهم ، ونادوه من الحجرات ان اخرج الينا يا محمد ، وخطب خطيبهم مفتخراً ، ثم قام شاعرهم وهو (الزبرقان بن بدر) ، فقال :

نحن الملوك فلا حيٌّ يقاربنا فينا العلاء وفينا تنصب البيع

قال رسول الله لحسان : قم ، فقام وقال :

إن الذوائب من فهرٍ واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

الى آخر الأبيات . « فقال التميميون عند ذلكم : وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا ، وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا » ، ويعد شعره هذا من جيد شعره[2] .

وقد روي أن النبي كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو

---

١ الاستيعاب (٣٣٤/١ وما بعدها) .
٢ الاستيعاب (٣٤١/١) .

الذين كانوا يهجون النبي[1] . وقد شك (كيتاني) وكذلك (بروكلمن) في صحة هذا الخبر . ولكن الروايات تؤكد أن الرسول كان يستدعيه أحياناً للرد على شعراء الوفود ، وأنه كان يجلس في المسجد ينشد الشعر ، والرسول يسمعه . وأن (عمر) مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، ثم قال : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشدُ في هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير عليّ ذلك ، فقال عمر : صدقت[2] . أو أن (عمر) مرّ على (حسان) ، وهو ينشد الشعر في المسجد ، فقال أفي مسجد رسول الله تنشد الشعر ؟ فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك . أو ما أشبه ذلك[3] . وروي أن (عمر) ، نهى أن ينشد الناس شيئاً من مناقضة الانصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحي والميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام[4] .

وذكر أن أول شعر قاله (حسان بن ثابت) في الإسلام ، هو قوله :

فانا ومن يهدي القصائد نحونا   كمستبضع تمراً الى أهل خيبر[5]

ولما أسرت (هذيل) بعض المسلمين وباعتهم من قريش ، هجاهم (حسان) هجاءً مراً ، وصفهم فيه باللؤم ، واللؤم عند العرب من أقبح المعيبات ، إذ قال فيهم :

لو خُلق اللؤمُ انساناً يكلمهم   لكان خير هُذيل حين يأتيها
ترى من اللؤم رقماً بين أعينهم   كما لوى أذرع العانات كاويها
تبكي القبور اذا ما مات سيدهم   حتى يصيح بمن في الأرض داعيها
مثل القنافذ تخزي أن تفاجئها   شد النهار ويلقى الليل ساريها[6]

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (١١٤) .
٢ العمدة (١/٢٨) .
٣ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٤ الاستيعاب (١/٣٣٨) .
٥ تاج العروس (٥/٢٧٨) .
٦ ديوان حسان (٦٧) ، (لندن ١٩١٠) .

وهي أبيات شديدة الهجاء ، موجعة ، تفنن فيها الشاعر وأبدع في وصف من هجاهم باللؤم وبالأمور المخزية الأخرى .

ويشك بعض المستشرقين في صحة الشعر المنسوب الى (حسان) الوارد في التفجع على مقتل (عثمان) وفي الحث على الأخذ بثأره . وذلك لأن هذا الشعر شعر ملتهب فيه قوة وحيوية ونفس شباب ، فيبعد أن يكون من شعر شيخ قد تقدمت به السن[1] .

وروي « عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج وقد فرش حسان فناء أطمه ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سماطين وبينهم جارية لحسان يقال لها (شرين) ومعها مزهر تغنّيهم ، وهي تقول في غنائها :

هل علـيّ ويحكم   إن لهوت من حرج

فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا حرج »[2] .

و (شرين) لفظة فارسية بمعنى (حلو) و (جميل) ، فيكون اسم الجارية من الأسماء الفارسية ، معناه في العربية (حلوة) و (جميلة) . ولا يستبعد أن تكون من أصل فارسي ، وإن نص أهل الأخبار على أنها قبطية .

و (شرين) ، هي (سيرين) جارية أعطاها رسول الله لحسان لذبّه بلسانه عنه في هجاء المشركين ، وقيل لضربة (صفوان بن المعطل) له بالسيف . وهي أخت (مارية) القبطية . وذكر أن الرسول أعطى حسان الموضع الذي بالمدينة ، وهو قصر بني (جديلة)[3] .

وقد اختلف الناس في سنة وفاة (حسان) الذي كان قد عمي لما تقدمت به السن . فقيل : توفي قبل الأربعين ، وقيل سنة أربعين ، وقيل خمسين ، وقيل أربع وخمسين من سني الهجرة ، والجمهور على انه عاش مائة وعشرين سنة ، ولكن منهم من ذهب الى انه عاش دون المائة أو ما بين المائة والمائة والعشرين .

---

١ بروكلمن (١٥٣/١) ، Th. Nöldecke, Die Ghassan., S. 41.

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٤/١ وما بعدها) .

٣ الاستيعاب (٣٤٠/١) .

وقد قال (ابن سعد) انه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين ، ومات وهو ابن عشرين ومائة [1] . وذكر انه مات في أيام معاوية [2] .

وقد كان حسان ممن مشى بين الناس بحديث الإفك ، وهو ممن نزلت بحقه الآية : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم . والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » [3] ، لأنه مشى بالإفك مع من مشى به . وهم (عبدالله بن أبي) رأس المنافقين بالمدينة ، ومسطح ، وحمنة بنت جحش . وقال بعضهم إن الذي تولى كبره منهم (حسان بن ثابت) . قيل لعائشة ، وقد دخل عليها (حسان بن ثابت) : « أليس الله يقول : والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . قالت: أليس قد أصابه عذاب عظيم . أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف ! » [4] . وروي انه جلد مع (مسطح) بسبب الإفك [5] .

واعتذر (حسان) من قوله في الإفك بقوله :

فإن كنت قد قلتُ الذي قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

ثم يقول :

فإن الذي قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرىء بي ماحِل [6]

وقد أسرف (حسان) في افكه بحديث الفك ، حتى آلم النبي ، ويظهر أنه لم يكن من أولئك الأشخاص الذين كانوا يتحرجون من الهجوم على أقرب الناس اليهم ، في حالة تسرعه وتأثره ، فهو شاعر ، ومن عادة الشعراء عدم الاستقرار. وكان عليه أن يدافع عن (عائشة) ، باعتباره شاعر نبيّه ، لا أن يساهم مع

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (١٧٠٤) ، الاستيعاب (١/٣٤٢) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٢٣) ، (الثقافة) .
٣ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ١١ .
٤ تفسير الطبري (١٨/٦٨ وما بعدها) ، تفسير الالوسي (١٨/١٠٠) ، تفسير ابن كثير (٣/٢٧١) .
٥ رسالة الغفران (٢٣٥) .
٦ العمدة (١/٢٤ وما بعدها) .

من استغل الحادث لايلام الرسول من المنافقين والذين لم يكن الإيمـان قد دخل قلوبهم ، وان يمعن في الإفك وفي إيلام الرسول ، وقد اعتذر بعد ذلك كما رأينا بعذر بارد ، حاول أن يتنصل فيه عمّا قاله في الإفك ، مع أنه كان صنواً لعبدالله ابن أبي في ذلك الحديث .

ولما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، قال حسان قصيدته :

بطيبة رسم للرسول ومعهـد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد[1]

وقال قصيدة أخرى مطلعها :

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعت على المهدي أصبح ثاوياً يا خير من وطيء الحصى لا تبعد

وقال قصائد أخرى في رثائه[2] .

وكان حسان من المتعصبين ليثرب على مكة ، وتجد في شعره عصبية لليمن ، وتفاخراً شديداً بالأزد ، والأزد من اليمن ، وبنو غسان من الأزد . وهي عصبية قديمة ، تعود الى ما قبل الاسلام . يظهر ان سببها اختلاف ما بين المدينتين في الطباع وفي الطبيعة والأحوال الاقتصادية والزعامة ، وقد فرح ولا شك حين كلفه الرسول بالرد على شعراء قريش ، وهو حاقد عليهم منـذ أيام الجاهلية . وقد بقيت هذه العصبية كامنة في نفسه حتى في الاسلام ، وكاد أن يؤجج نارها مراراً بين الأنصار والمهاجرين ، وقد نهاه عمر من التعرض لأمور الجاهلية وأيامها ومن إنشاد ما كان قد قيل من شعر في الجاهلية بين أهل يثرب وقريش ، حذر الفتنة ، وعودة العصبية الجاهلية الأولى . وكان (عمر) قد نهى أن ينشد الناس شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحـي والميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الاسلام[3] . ويظهر انه لم يكن مثالياً بدليل هـذه النزوات التي صدرت منه وهو في الإسلام وكادت تثير فتن الجاهلية .

---

١ ابن هشام ، سيرة (٢/٣٧٨) ، (حاشية على الروض) .
٢ سيرة ابن هشام (٢/٣٧٩ وما بعدها) .
٣ الاستيعاب (١/٣٣٧ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

وكان حسان يهاجي (أميّة بن خلف) الخزاعي . وكان خلف قد هجا حسان بقوله :

أليسَ أبوكَ فينا كان قيناً لدى القينات، فسلا في الحفاظ؟
يمانياً يظل يشدّ كيراً وينفخ دائباً لهب الشواظ[1]

وكان قد قال :

ألا من مبلغ حسان عنّي مغلغلة تدب الى عكاظ ؟

فأجابه حسان :

أتاني عن أمية زور قول وما هو في المغيب بذي حفاظ
سأنشر إنْ بقيت لكم كلاماً ينشر في المجنة مع عكاظ
قوافي كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجرفة الغلاظ
تزورك إن شتوت بكل أرض وترضخ في محلك بالمقاظ
بنيت عليك أبياتاً صلاباً كأمر الوسق قعض بالشظاظ
مجللة تعممه شناراً مضرمة تأجج كالشواظ
كهمزة ضيغم يحمي عريناً شديد مغارز الأضلاع خاظي
تغض الطرف ان ألقاك دوني وترمي حين أدبر باللحاظ[2]

وقد هاجى (حسان بن ثابت) النجاشي ، واسمه (قيس بن عمرو) من رهط (الحارث بن كعب) ، وكان قد هجا الأنصار فردّ عليه (حسان بن ثابت) ، ثم أمر بأن يكتب رده غلمان الكتاب ، ليوزع على الناس . وقد كان النجاشي قد هاجى (عبد الرحمن بن حسان) ، واشتد هجاؤه عليه فأعانه والده عليه[3] . وكان مما قاله حسان في (الحارث بن كعب) رهط النجاشي قوله :

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عرضٍ جسم البغال وأحلام العصافير[4]

---

١ اللسان (٤٤٦/٧) ، (شوظ) ، تاج العروس (٢٥٣/٥) ، (تشاوظ) .
٢ تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) .
٣ الخزانة (١٠٥/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ ديوان حسان (٢١٤) ، رسائل الجاحظ (٣٤٣/٢) ، (كتاب البغال) .

ويلاحظ ان أهل الأخبار نسبوا الى ابنه (عبد الرحمن) ، والى حفيده (سعيد ابن عبد الرحمن) مثل هذا الذي نسبوه الى (حسان) . إذ ذكروا ان (عبد الرحمن) أوقد ناراً حتى اجتمع اليه الحي ، ثم قال : قد قلت بيتاً ، فخفت أن يسقط بحدث يحدث عليّ فجمعتكم لتسمعوه ، وان ابنه (سعيد) فعل فعله[1] . ويلاحظ ان الأبيات التي ذكروها هي على وزن واحد وعلى قافية واحدة . وقد تكون من وضع الرواة .

وأم (عبد الرحمن بن حسان) ، أخت مارية القبطية أم ابراهيم ابن الرسول. وكانت تسمى (سيرين) (شيرين) (شرين) . وكان عبد الرحمن شاعراً كذلك . ذكر ان والده أشار اليه بقوله :

فمن للقوافي بعد حسان وابنه   ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت[2]

ونسب الى حسان أو ابنه عبد الرحمن قوله : قلت شعراً لم أقل مثله ، وهو:

وان امرءاً أمسى وأصبح سالماً   من الناس ، إلا ما جنى ، لسعيد[3]

وكانت لحسان بنت شاعرة ، أرق حسان ذات ليلة فعنّ له الشعر فقال :

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت   أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً ، فقالت له بنته : كأنك قد أجبلت يا أبه ؟! قال : أجل ، قالت ، فهل لك أن أجيز عنك ؟ قال : وهل عندك ذلك ! قالت : نعم ، قال : فافعلي ، قالت :

مقاويل بالمعروف خُرسٌ عن الخنا   كرام يعاطون العشيرةَ سولها

فحمي حسان فقال :

وقافية مثل السنان رزئتها   تناولت من جوّ السماء نزولها

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٦/١) .
٢ الاصابة (٦٧/٣ وما بعدها) ، رقم ٦٢٠٥ .
٣ الشعر والشعراء (٢٢٦/١) .

فقالت :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال حسان : لا أقول بيت شعر وأنت حية ، قالت : أوَ أومنك ؟ قال: وتفعلين ؟ قالت نعم ، لا أقول بيت شعر ما دمتَ حياً [1] .

ولحسان ديوان شعر مطبوع . طبع جملة مرّات . وقد شرح أيضاً ، وطبعت الشروح كذلك [2] .

وكعب بن مالك من شعراء يثرب كذلك . ويكنى أبا عبدالله وقيل أبا عبد الرحمن ، وهو ممن شهد العقبة ، وكان أحد شعراء رسول الله الذين كانوا يردّون الأذى عنه ، وكان مجوداً مطبوعاً قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر . وذكر انه كان أحد الثلاثة الأنصار الذين قال الله فيهم : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتّى اذا ضاقت عليهم الأرض » [3] ، وهم كعب بن مالك الشاعر هذا ، وهلال ابن أمية ، ومرارة بن ربيعة تخلفوا عن غزوة (تبوك) فتاب الله عليهم وعذرهم ، وكانوا كلهم من الأنصار [4] .

وكعب بن مالك من أسرة أظهرت جملة شعراء ، فمالك والد كعب كان شاعراً ، وعمه قيس كان شاعراً كذلك . وكان أولاد كعب وأحفاده شعراء « مجيدون مقدمون في الشعر » [5] .

وقد ذكر (ابن سيرين) ان كعباً قال بيتين كانا سبب إسلام دوس وهما :

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوفا
تخبرنا ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفا

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٢٦) .
٢ للوقوف على مواضع طبع الديوان والشروح راجع بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٥٣ وما بعدها) .
٣ التوبة ، الاية ١١٨ .
٤ تفسير الطبري (١١/٤١) ، الاصابة (٣/٢٨٥ وما بعدها) ، (رقم ٧٤٣٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٧) ، الخزانة (١/٢٠٠) ، (بولاق) ، البيان والتبيين (٣/٢٦) .
٥ الاغاني (١٥/٣٧) .

فلما بلغ ذلك دوساً ، قالوا : خلوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف[1] .

وقال (ابن سيرين) أيضاً : « كان شعراء المسلمين : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك . فكان كعب يخوفهم الحرب ، وعبدالله يعيرهم بالكفر ، وكان حسان يقبل على الأنساب » ، وأما شعراء المشركين : فعمرو بن العاص ، وعبدالله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وضرار بن الخطاب[2] .

ولكعب شعر في يوم أحد ، فيه :

فَجِئنا الى موج من البحر وسطه	أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية	ثلاث مئين إن كثُرنا أو أربع
فراحوا سِراعاً مُرجعين كأنهم	جهامٌ هَرَاقت ماءه الريح مقلع
ورُحنا وأخرانا بطاء كأننا	أسود على لحمٍ ببيشة ظلع

وله شعر في أيام الخندق ، وفي يوم بدر وفي المعارك الأخرى[3] .

ومن شعر كعب بن مالك قوله :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها فليغلبن مغالب الغالب

وفي رواية :

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب[4]

وكانت العرب تعير قريشاً بها ، لأنهم كانوا يكثرون من أكلها ، ولذا كانت تعير به . والسخينة حساء يؤكل في الجدب . مازح (معاوية) الأحنف بن قيس فقال : ما الشيء الملفف في البجاد ؟ فقال : هو السخينة يا أمير المؤمنين . والملفف في البجاد وطب اللبن يلف به ليحمى ويدرك ، وكانت تميم تعير به .

---

١ الاصابة (٢٨٦/٣) ، (رقم ٧٤٣٤) .

٢ الاستيعاب (٢٧٢/٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٥٣ وما بعدها) ، الخزانة (٢٠٠/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

٤ الاستيعاب (٢٧٤/٣) .

فلما مازحه معاوية بما يعاب به قومه ، مازحه الأحنف بمثله[1] . وروي أن رسول الله قال لكعب : أترى الله نسي قولك :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها   وليغلبن مغالب الغلاب[2]

وجاء في رواية يضعفها العلماء ، ان (حسان بن ثابت) وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، دخلوا على (علي) فناظروه في شأن (عثمان) وأنشده كعب شعراً في رثاء عثمان ، ثم خرجوا من عنده ، فتوجهوا الى معاوية فأكرمهم . وروي أنه كان ممن رثى عثمان ، ولم يرد في الأخبار أنه ساهم في حرب علي ومعاوية[3] . وذكر أنه فقد بصره في آخر عمره ، وتوفي في زمن معاوية سنة خمسين ، وقيل ثلاث وخمسين[4] .

و (عبدالله بن رواحة) من الخزرج ، وهو أبو محمد ، ويقال أبو رواحة ، ويقال أبو عمرو ، وكان من شعراء يثرب المعروفين : وهو أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً ، وكان ممن يكتب للنبي ، وكان ممن يكتب في الجاهلية ، وهو الذي جاء ببشارة وقعة بدر الى المدينة ، وبعثه رسول الله في ثلاثين راكباً الى (أسير ابن رقرام) (يسير بن رزام) اليهودي بخيبر فقتله . وقد استشهد بمؤتة سنة سبع[5] . وليس له عقب . وهو خال (النعمان بن بشير) الأنصاري . وكان عظيم القدر في قومه ، سيداً في الجاهلية ، ليس في طبقته أسود منه . وكان في حروبهم في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم[6] .

وهو يختلف عن حسان في كونه محارباً ، اشترك مع الرسول في معاركه ، ومات قتيلاً محارباً[7] .

---

١ تاج العروس (٢٣٢/٩) ، (سخن) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٤) .
٣ الاصابة (٢٨٦/٣) ، (رقم ٧٤٣٤) ، الاغاني (٢٨/١٥ وما بعدها) .
٤ الاستيعاب (٢٧٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاصابة (٢٩٨/٢ وما بعدها) ، (رقم ٤٦٧٦) ، شرح شواهد ، للسيوطي (٢٨٨/١) ، اعلام النبلاء (١٦٦/١) ، ابن حبيب ، كنى الشعراء (٢٨٩) ، « أسير بن زارم » ، المحبر (١١٩) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٥٤) ، الخزانة (٣٠٤/٢ وما بعدها) ، (هارون) .
٧ المحبر (١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٤٢١) .

وأكثر ما روي من شعره ، هو من الشعر الـذي قاله في الإسلام . ولا سيما في معركة (مؤتة) . وروي أن الرسول قال له يوماً : قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر اليك . فانبعث مكانه يقول :

إني تفرست فيك الخير أعرفه   والله يعلم ان ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته   يوم الحساب لقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

وفي رواية ابن هشام :

إني تفرست فيك الخير قافلة   فراسة خالفت فيك الذي نظروا
أنت النبي ومن يحرم نوافله   والوجه منه ، فقد أزرى به القدر[1]

وروي ان الرسول دعاه ، فقال له : كيف تقول الشعر اذا قلت ؟ قال أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين . فأنشده :

فخبّروني أثمان العبـــاء متى   كنتم بطاريق أو دانت لـكم مضر

فظهرت الكراهة في وجه الرسول ، ان جعل قومه أثمان العباء ، فقال :

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم   فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنّا ليس يغلبنا   حي من الناس إن عزوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إنّ اللهَ فضلكم   على البريّة فضلاً ما له غير
إني تفرست فيك الخير أعرفه   فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم   في جل أمرك ما آووا ولا نصروا
فثبّت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فتبسم الرسول وسرّ به[2] .

وروى « هشام بن عروة عن أبيه . قال : ما سمعت بأحد أجرأ ولا أسرع شعراً من عبدالله بن رواحة ، يوم يقول له رسول الله صلى الله عليـــه وسلم :

---

١ الاستيعاب (٢/٢٨٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٥) .

قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر اليك ، ثم أبدّه بصره ، فانبعث عبدالله بن رواحة يقول :

إني تفرست فيك الخير أعرفه   والله يعلم ما إن خانني بصر»[1]

وروي أن الرسول قال « لعبدالله بن رواحة : ما الشعر ؟ قال : شيء يختلج في صدر الرجل ، فيخرجه على لسانه شعراً »[2] . وقد ذكر (ابن سلام) البيت المذكور وما بعده في قصيدة مطلعها :

فخبروني أثمان العباء متى   كنتم بطارق أو دانت لكم مضر

ذكره في ضمن القصيدة ، ولم يجعله مطلعها[3] .

ولما دخل رسول الله مكة في عمرة القضاء ، وابن رواحة بين يديه وهو يقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله   اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله

قال عمر : يا ابن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر ؟ فقال النبي : خل عنه يا عمر ، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشدّ عليهم من وقع النبل[4] . وقد كانت عمرة القضاء سنة ست من الهجرة[5] .

وقد روي هذا الرجز بزيادة واختلاف[6] . وقد ذكر (ابن هشام) ، بعد إيراده هذه الأبيات هذه الملاحظة : « نحن قتلناكم على تأويله الى آخر الأبيات : لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم ، والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين،والمشركون لم يقروا بالتنزيل،وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل »[7].

---

١ شرح شواهد ، للسيوطي (٢٩٣/١) .
٢ المصدر نفسه (٢٨٩/١) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٥٥) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٩٠/١) .
٥ ابن هشام ، سيرة (٢٥٤/٢) ، (حاشية على الروض) .
٦ ابن هشام ، سيرة (٢٥٥/٢) ، (حاشية على الروض) ، ابن سيد الناس (١٤٩/٢) ، اعلام النبلاء (١٦٩/١) ، ابن سعد ، طبقات (٣ القسم الثاني ٨٠)، الروض الانف (٢٥٥/٢) .
٧ ابن هشام ، سيرة (٢٥٥/٢) .

وكان (النعمان بن العجلان) الزرقي لسان الأنصار وشاعرهم ، وكان رجلا أحمر قصيراً تزدريه العين ، وكان سيداً ، وله شعر يفخر بقومه على قريش من جملته :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة ويوم حنين والفوارس في بدر

* * *

نصرنا وآوينا النبي ولم نخف صروف الليالي والعظيم من الأمر
وقلنا لقوم هاجروا مرحباً بكم وأهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقرِ
نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على الشطرِ

ثم تعرض لموضوع الخلافة ، وقصة انتخاب (سعد) لها ، وتعيين قريش أبا بكر خليفة ، ثم تعرض لحق علي فيها [1] .

وكان (علي بن أبي طالب) استعمل (النعمان) هذا على البحرين ، فجعل يعطي كل من جاء من (بني زريق) ، فقال فيه (أبو الأسود) الدؤلي :

أرى فتنة قد ألهت الناس عنكم فندلا زريق المال ندل الثعالب
فإن ابن عجلان الذي قد علمتم يبدد مال الله فعل المناهب [2]

---

١ الاستيعاب (٣/٥٢١) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاصابة (٣/٥٣٢) ، (رقم ٨٧٤٨) .

الفصل الرابع والستون بعد المئة

شعراء ثقيف

وثقيف من القبائل التي لم تنجب عدداً يذكر من الشعراء . وشاعرهم الوحيد الذي نال شهرة ، وظهر أمره هو (أمية بن أبي الصلت) الثقفي . وقد علل (ابن سلام) قلة الشعر بالطائف بقوله : « وبالطائف شعراء ، وليس بالكثير، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان وأهل الطائف »[1] .

وقد عرفت ثقيف بفصاحة لسانها ، وبمقدرتها في الكتابة ، ولهذا ورد ذكرها في حادث تدوين القرآن .

ومن شعراء ثقيف (أبو الصلت بن أبي ربيعة) ، وهو والد (أمية بن أبي الصلت) ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل[2] ، وأبو محجن الثقفي. وكانت زوجة (أبي الصلت) : (رُقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف)، فهي من قريش . وهي والدة (أمية)[3] .

ونسبت الى (أبي الصلت) قصيدة زعم أنه مدح فيها أهل فارس حين

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٥ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٦٦) .
٣ الشعر والشعراء (٣٦٩/١) .

قتلوا الحبشة ، ومدح (سيف بن ذي يزن) ، وهنأه فيها لتوليه الملك[1] ، وقد أشار فيها الى قصة (سيف) ، وكيف ذهب الى (هرقل) يستنجده على الحبشة، فلم يجد عنده ما طلب ، ثم كيف ذهب الى (كسرى) ، وبقي عند بابه تسع سنوات حتى أمده بالجنود وعلى رأسهم باذان ووهرز ، الى آخر القصة التي ترد في كتب الأخبار والتواريخ . وقد نسبها بعض الرواة الى ابنه (أمية) .

وأمية بن أبي الصلت من الشعراء الذين رغبوا عن عبادة الأوثان وآمنوا بالله وبالبعث ، ووقف على كتب أهل الكتاب فتأثر بها ، وكان يجالسهم ويختلط بهم. وكان أبوه شاعراً ، روى رواة الشعر شيئاً من شعره ، وكان ابنه (القاسم بن أمية بن أبي الصلت) شاعراً كذلك وله صحبة . وذكر ان العرب اتفقت على ان (أمية) كان أشعر ثقيف[2] .

ذكر انه كان في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح وتعبد أولاً يذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية وحرّم الخمر وتجنب الأوثان . ولما ظهر الاسلام حسد النبي ، فلم يسلم ، لأنه كان طمع في النبوة ، أو انه أراد أن يسلم ، فلما سمع بقتلى بدر ، توقف ورثى قتلى المشركين ، وذهب الى الطائف فمات بها . وقد اختلف في سنة وفاته ، فقيل انه توفي سنة تسع من الهجرة ، وقيل قبل ذلك وورد في رواية انه مات في الجاهلية ولم يدركه الاسلام . وقد صدقه النبي في بعض شعره ، وقال : قد كاد أمية أن يسلم[3] . وقد كان يكنى بـ (أبي عثمان) وبـ (أبي القاسم)[4] .

وورد في بعض الروايات ان في حقه نزلت الآية : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين »[5] . ويرجع سند القائلين بذلك الى (عبدالله بن عمرو) والى (ابن الكلبي)[6] .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٦) ، ابن قتيبة ، الشعر (١ / ٣٧١) .
٢ الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) ، الاغاني (٣/١٧٩ وما بعدها) ، (١٦/٦٩)، خزانة (١/١١٨) ، بروكلمن (١/١١٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) ، الخزانة (١/١١٩ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٨٤ ، ٣٨٤)
٤ كنى الشعراء ومن غلبت كنيته عليه (٢٨٩) ، (نوادر المخطوطات) .
٥ سورة الاعراف ، الآية ١٧٥ .
٦ تفسير الطبري (٩/٨٢) ، تفسير الالوسي (٩/ ٩٨)

وروي أن النبي سأل (الرشيد بن سويد) أن ينشده من شعر أمية ، فأنشده إياه ، فقال : كاد ليسلم . وأن النبي أنشد قول أميّة :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال : صدق ، وهذه صفة حملة العرش . وذكر أن معظم شعر أمية كان في الآخرة ، كما كان معظم شعر عنترة بذكر الحرب[1] .

وقد دوّن (ابن هشام) قصيدة (أمية) التي نظمهـا يرثي من أصيب من قريش يوم بدر ، ومطلعها :

ماذا ببـدر بالعقنـ قل من مرازبة جحاجح
ألا بكيت عـلى الكرا م بني الكرام أولى المدائح
كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح[2]

وذكر أن النبي نهى عن روايتها لما ورد فيها من رثاء قتلى بـدر[3] ، ولكني أشك في صحة صدور هذا النهي من الرسول ، إذ لو كان الرسول قد نهى عن إنشادها ، فكيف دونها (ابن هشام) وغيره ، ولا تزال مدوّنة ، وقد قال (ابن هشام) أنه دوّن القصيدة إلا بيتين نال فيها من أصحاب الرسول[4] .

ودوّن (ابن هشام) قصيدة أخرى لأمية قالها يرثي ويبكي (زمعة بن الأسود) وقتلى (بني أسد)[5] من أبياتها :

عينُ بكّي بالمُسبلات أبا العا صي ولا تذكري على زمعه
لبني مُسلمٍ لهم خرّت الجو زاء لا خانة ولا خدعه
وهم الهامة الوسيطة من كعـبٍ ومن هُمْ كذروة القمعه

---

١ الخزانة (١/١٢٠ وما بعدها) .
٢ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٤) ، (حاشية على الروض الانف) ، البيان والتبيين (١/٢٩١) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (١/٢٩١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١١٣) .
٤ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٤) .
٥ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٤) ، (حاشية على الروض الانف) .

أنبتوا من معاشر شعر الرأ س وقد بلّغوهم المنعه
وهم المطعمون إن قحط القط ـر وأصحت فلا ترى قزعه
أمسى بنو عمهم اذا جلس النا دي عليهم أكبادهم وجعه[1]

ومن شعره الذي قاله في التحريض على رسول الله قوله :

للهِ دَرُّ بني عليٍّ أيّمٌ منهم وناكح
إن لم يغيروا غارةً شعواء تحجر كلَّ نابح
بزهاء ألفٍ أو بألـ ـف بين ذي بدن ورامح[2]

وروي انه كان يحكي في شعره قصص الأنبياء ، ويأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب[3] .
وكان يسمي السماء في شعره : (صاقورة) و (حاقورة) ، و (بِرْقِع) .
ويقول في الله عز وجل :

هو السليط فوق الأرض مقتدر

ويقول : وأبدت الثغرورا ، يريد الثغر[4] .

وفي شعر (أميّة) إشارة الى قصة أصحاب الفيل ، إذ قال :

إن آيات ربّنا بيّنات لا يماري بهنّ إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يمشي كأنه معقور[5]
كل دين يومَ القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور[6]

ونسبت الى (أمية) قصيدة طويلة عدتها تسعة وسبعون بيتاً ، ذكر فيها شيئاً من قصص الأنبياء : داوود ، وسليمان ، ونوح ، وموسى ، وذكر قصة ابراهيم

---

١ نسب قريش (٢٠٦) .
٢ نسب قريش (١٠ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣٦٩) ، (دار الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٧١) .
٥ الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادي ، (٣٨٤) .
٦ رسالة الغفران (٥٤٢) .

واسحاق ، وزعم أنه هو الذبيح ، وقد وردت في ديوانه الذي جمعه (محمد بن حبيب) ، وفي أبياتها بيت هو :

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال[1]

وقد وجد هذا البيت في قصيدة رواها (الأصمعي) لأبي قيس اليهودي، وقيل هي لابن صرمة الأنصاري مطلعها :

سبحوا للمليك كل صباح طلعت شمسه وكل هلال

ووجد أيضاً في أبيات لحنيف بن عمير اليشكري ، قالها لما قتل محكم بن الطفيل يوم اليمامة في أبيات هي :

يا سعاد الفؤاد بنت أثال طال ليلي بفتنة الرحال
أنها يا سعاد من حدث الدهر عليكم كفتنة الدجال
إنّ دين الرسول ديني وفي القو م رجال على الهدى أمثالي
أهلك القوم محكم بن طفيل ورجال ليسوا لنا برجال
ربما يجزع النفوس من الأمـر له فرجة كحل العقال[2]

وقد تحدث (أمية) في قصيدته اللامية عن الخلق وعن كيفية تكوّن الأرض وظهور الأنهار والعيون ، ثم عن الموت والبعث والنشر ، وهي قصيدة أرى انها منحولة ، وهي لا يمكن أن تكون من شعر تلك الأيام ، وقد نحل على لسان (أمية) وأظن ان ذلك في أيام الحجاج ، الذي كان يتعصب له لكونه شاعر ثقيف ، وهو منها[3] .

ومما نسب الى أمية هذا الشعر :

والأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقامتنا وفيها نولد

---

١ ربما تكره النفوس من الشر له فرجة كحل العقال .
٢ الخزانة (٢/٥٤٣ وما بعدها) ، (بولاق) ،
ربما تكره النفوس من الامـ ـر له فرجة كحل العقال
أمالي المرتضى (١/٤٨٦) .
٣ راجع ديوان أمية طبعة « شولتس »« Shulthes » ، وطبعة بشير يموت .

وبها تلاميذ علـــى قذُفاتها حبسوا قياماً فالفرائص ترعد

وهذا الشعر :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم ينتقص علمه جهلٌ ولا هرم
لاكشّفت مرةٌ عنّا ولا بليت فيها تلاميذ في أقفائهم دغم

وهذا البيت ، الذي هو من الشعر الأول :

فمضى وأصعد واستبدّ إقامة بأولى قوى فبتـــل ومتلمد[1]

وروى أهل الأخبار قصصاً عنه ، هو من نوع القصص الذي يروى وقوعـه للأنبياء ، مثل تكليم الجن له ، ووقوع طير على صدره ، وشقـه له ، لتنظيف قلبه ، في قصة أخذت من خبر غسل قلب الرسول ولا شك . ثم حكاية شعوره بدنو أجله ، ووفاته[2] . وقد حاول وضاع هذا القصص تبجيل (أمية) واعطائـه قدسية خاصة وإظهاره بمظهر الصالحين حتى كاد الوحي ينزل عليـــه لولا ظهور الرسول . وقد حاول بعض أهل الأخبار تخفيف أثر ما روي عن معارضة (أمية) للإسلام ، ومنهم من أماته قبل الإسلام ، وبذلك خلصه من تهمـــة اشتراكه مع المشركين في محاربة الإسلام . وهي روايات يظهر أنها ظهرت في أيام الحجاج ، وبتأثير منه .

وأكثر ما نسب اليه من شعره محمول عليه ، ونجد في كتاب (البدء والتأريخ) لمطهر بن طاهر المقدسي شعراً فيه عبارات وألفاظ قرآنية،لا شك في أنها مصنوعة، وقد حملت عليه . وقد ذهب (كليمان هوار) أن شعره كان من مصادر القرآن، ومعنى هذا أنه شعر صحيح ، قاله (أميّة) قبل الإسلام ، فتعلمه الرسول منه، ونزل به الوحي . وقد عارضه (بروكلمن) وآخرون من طائفـة المستشرقين ، وهم يرون أن هذا الشعر قد صنع ونسب اليه في عهد مبكر ، ربما كان في القرن

---

١ رسالة التلميذ ، لعبد القادر بن عمر البغدادي (٢٣٢ وما بعدها) ، من « نوادر المخطوطات » ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، (المجموعة الثانية ، القاهرة ١٩٥١م)

٢ الاصابة (١/١٣٥) .

الأول للهجرة . وقد أدخل فيه قصص أخذ من القرآن[1] .

وتعدّ قصيدة (أمية) التي مطلعها :

عرفتُ الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحلّ بها قطينا

في المجمهرات .

ونسب لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، والد أمية قوله :

لن يطلب الوتر أمثالُ ابن ذي يزن لجج في البحرِ للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته فلم يجد عنده القول الذي قالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعة من السنين ، لقد أبعدتَ إيغالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم انك عمري لقد أسرعت قَلقالا
من مثل كسرى وباذان الجنود له ومثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
لله درهم من عصبةٍ خرجوا ما ان ترى لهم في الناس أمثالا
غُلبا جحاجحة بيضاً مراجحةً أسداً تربب في الغيضات أشبالا
يرمون عن عَتَلٍ كأنها غبط بزمخر يُعْجِل المرمى إعجالا
أرسلتَ أسداً على سود الكلاب فقد أضحى شريدهم في الأرض فلّالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في رأس غمدان داراً منك محلالا
ثم أطل المسكَ إذ شالت نعامتهم واسبل اليومَ من بُرديك إسبالا
تلك المكارم قعبان من لبنٍ شيبا بماءٍ فعادا بعد أبولا[2]

وهي قصيدة زعم انه قالها في (سيف بن ذي يزن) ، وزعم انها لابنه (أمية بن أبي الصلت) . وقد رواها (الطبري) في تأريخه ، على هذه الصورة:

---

[1] Cl Huart, in JA., Ser., X, I, IV, (1904), p. 125, Tor Andrae, Der ursprung d. Islam und d. Christentum, Stockholm, (1926), S. 48.

بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١١٣) .

[2] الشعر والشعراء (١/٣٧١ وما بعدها) ، التيجان (٣٠٥) ، الاغاني (١٦/٧٣)، الروض الانف (١/٥٢) ، ابن سلام ، طبقات (٢١٨) ، البحتري ، حماسة (١٦).

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن ... ريَّمَ في البحر للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامتهم ... فلم يجد عنده بعض الذي قالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد سابعة ... من السنين ، لقد أبعدت إيغالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم ... إنك لعمري لقد أطولت قلقالا
من مثل كسرى شهنشاه الملوك له ... أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
لله درهم من عصبةٍ خرجوا ... ما إن ترى لهمُ في الناس أمثالا
غُرٌ جحاجحةٌ ، بيضٌ مرازبة ... أسد تربب في الغيضات أشبالا
يرمون عن شدُفٍ كأنها غبط ... في زمخر يعجل المرمي إعجالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج متكئاً ... في رأس غمدان داراً منك محلالا
وأطّلِ بالمسك إذ شالت نعامتهم ... واسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا [1]

وقد نسبها لوالد أمية .

وقد ذكر (ابن هشام) ، ان (ابن اسحاق) نسب هذه القصيدة لأبي الصلت ابن أبي ربيعة ، ويروي انها لامية . وقد رواها على هذا النحو :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن ... ريَّمَ في البحر للأعداء أحوالا
يممَ قيصرَ لما حان رحلته ... فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم ... إنك عمري لقد أسرعت قلقالا
لله درهم من عصبة خرجوا ... ما ان أرى لهم في الناس أمثالا
بيضاً مرازبة غلباً أساورة ... أسداً تربب في الغيضات أشبالا
يرمون عن شدف كأنها غبط ... بزمجر يعجل المرمى إعجالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... في رأس غمدان داراً منك محلالا
وأشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم ... واسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

---

١ الطبري (١٤٧/٢ وما بعدها) .

وقد ذكر (ابن هشام) ان « هذا ما صح له مما روى ابن اسحاق منها ، إلا آخرها بيتاً : تلك المكارم لا قعبان من لبن . فإنه للنابغة الجعدي »[1] .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً ، ولا له إلمام بأمور التأريخ ، فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمنّ ربّ العبا د أنت المليك وأنت الحكم

هي قصيـــدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمداً أرسله بالهـدى فعاش غنياً ولم يهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطـــاء من الله أعطيته وخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنـــه خيرهم وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يعيبون ما قال لما دعـــا وقد فرج الله إحدى البُهَم
به وهو يدعو بصدق الحديـ ـث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عباد الإلـ ـه تنجـون من شرّ يوم ألم
تنجون من ظلمات العذاب ومن حرّ نار على من ظلم
دعاني النبي بـــه خاتم فمن لم يجبه أسرّ النـــدم
نبيّ هـدىً صادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم
به خـتم الله من قبلـه ومن بعـده من نبيّ ختم
يموت كما مات من قد مضى يردّ الى الله بـــاري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود هم أهلها غير حل القسم
وقدس فينا بحب الصلاة جميعاً وعلّم خط القلم
كتاباً من الله نقرأ به فمـــن يعتريه فقدماً أثم[2]

---

[1] ابن هشام (١/٥٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (١/٣٧١) ،

[2] ديوان أمية ، قصيدة رقم ٢٣ في طبعة « فردرش‌شولثيس » ، (ص ٢٣ وما بعدها) ، و (ص ٥٥ وما بعدها) من (طبعة بشير يموت) ، الخزانة (١/١٢٢) ، (بولاق) .

اقرأ هذه المنظومة ، ثم أحكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول انه كان شاعراً مغاضباً للرسول ، وانه مات كافراً ، وان صاحبها رثى كفّار قريش في معركة بدر ، وانه قال ما قال في الاسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً ، فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ ومبشر يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . انه مؤمن قلباً ولساناً ، مع انهم يذكرون ان الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، ولم يقصد الرسول ايمان أمية بالله وبرسوله ، وانما ايمان لسانه وشعره بالله ، وكفره برسوله ، إذ لم يؤمن به ، فمات على كفره وعناده وبغضه للرسول . ثم ان صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، ويريد تثبيت الناس على الايمان به بعد أن انتقل الى الرفيق الأعلى ، فظهر من تزلزل ايمانه بسبب وفاته ، مع ان أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، أي قبل وفاة الرسول ، فهل يعقل أن يكون اذن هو صاحبها وناظمها[1] ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها اذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتحيه في شعر أمية . نحمد الله على ان صنّاعها لم يتقنوا صنعتها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

وروي ان بعض الرواة نسبوا الى أمية بيتاً في قصيدة هو :

الحمد لله لا شريك لهُ   من لم يقلها فنفسه ظلما

وفي القصيدة ضروب من التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار غير أن العارفين بالشعر ينكرون أن تكون لأمية ، وإنما نسبوها الى النابغة الجعدي ، وذكروا أن هذا البيت هو من شعر النابغة الذي كان يتأله في الجاهلية وأنكر الخمر وهجر الأزلام واجتنب الأوثان ، وذكر دين ابراهيم[2] .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأميّة ، وهي في وصف الجنّة والنار استهلت بهذا البيت :

---

١ « وكانت وفاة أمية بن أبي الصلت قبل ذلك بيقين سنة تسع من الهجرة » ، الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .

٢ ابن سلام (١٠٦) ، الاصابة (٥٠٩/٣) ، (رقم ٨٦٤١) .

جهنم لا تبقي بغيّاً وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم أنعم النظر في عبارات هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ وقمح في منابته صريمُ
ونخل ساقط الأكتاف عد خلال اصولِهِ رطَب قميمُ
وتفاحٌ ورمّانٌ وموزٌ وماء بارد عذبٌ سليم
وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهُمُ مقيم
وحُورٌ لا يَرين َالشمس فيها على صُور الدُمى فيها سُهوم
نواعمُ في الأرائك قاصرات فهنّ عقائل وَهمُ قروم
على سرر تُرى متقابلاتٍ ألا ، ثم النضارةُ والنعيم
عليهم سندسٌ وجيادُ ريطٍ وديباج يرى فيها قتوم
وحُلّوا من أساور من لُجينٍ ومن ذهب ، وعسجد كريم
ولا لغوٌ ولا تأثيمَ فيها ولا غولٌ ولا فيها مُليم
وكأس لا تصدع شاربيها يلذّ بحسن رؤيتها النديم
تصفّق في صحاف من لجينٍ ومن ذهب مباركة رذوم[1]

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات . لقد حاول ناظمها إدخال بعض الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولإظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام. وما بي حاجة الى أن أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن .

ومن الغريب ان بعض الباحثين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وأن منهم

---

١ تجد اختلافا في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الاخرى ، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف، كتاب البدء والتأريخ (٢٠٢/١ وما بعدها) ، ثم ديوانه .

من نظر في الكتب وكان مُقراً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية ، مع انها من الشعر المزيف المصنوع !

ثم خذ قصيدته في (عيسى بن مريم) وحمل أمه به[1] ، وسائر قصائده الأخرى، تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ومن الممكن إدراك هذا المصنوع المزيف بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره ، وبهذه الطريقــة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من المجين .

ولأمية شعر في الموت ، حيث يقول :

من لم يمت عبطة يمت هرمـاً   وللموت كأسٌ، والمرء ذائقها[2]

ويروى له قوله في الله :

واشهد أن اللهَ لا شيء فوقه   علـيّـاً وأمسى ذكره متعــاليا[3]

وزعم أن أميّة ، قال عند موته :

إن تغفر اللهم تغفر جمّا   وأيّ عبد لك لا ألمّــا

وقد تمثل به النبي وصار من جملة الأحاديث . قالوا في ذلك : يجوز إنشاد الشعر للنبي ، وإنما المحرم انشاؤه . وقد زعم أن البيت لأبي خراش الهذلي ، وذكر أنه لا يعرف قائله ولا بقيتــه ، وقد أخذه أبو خراش وضمّه الى بيت آخر ، وكان يقولها ، وهو يسعى بين الصفا والمروة[4] .

ومن شعر أمية قوله :

زعم ابن جدعان بن عمرو أنني يوماً مُدابر
ومسافرٌ سفراً بعيداً ، لا يؤوب له مسافر[5]

---

١ ديوان أمية (٥٨) ، (بشير يموت) .
٢ امالي المرتضى (١/٥٣٣) .
٣ امالي المرتضى (٢/١٦٨) .
٤ الخزانة (٢/٢٩٥) ، (هارون) .
٥ اللسان (٤/٢٧٥) ، (دبر) .

ومن ولد (أمية بن أبي الصلت) : عمرو ، وربيعة ، ووهب ، والقاسم. وكان ربيعة والقاسم شاعرين[1] . وذكر انه نظم شعراً رد به على أبيه في انتسابه، منها :

وإنا معشر من جذم قيس فنسبتنا ونسبتهم سواء[2]

وهو القائل :

وإن يك حيًّا من إياد فإننا وقيساً سواء ما بقينا وما بقوا
ونحن خيار الناس طراً بطانة لقيس ، وهم خير لنا إن هم بقوا [3]

ولا نعرف من أمر (القاسم بن أمية بن أبي الصلت) شيئاً يذكر . وقد أورد له (المرزباني) شعراً في مدح (بني دهمان)[4] . وذكر انه رثى (عثمان ابن عفان) في قصيدة منها :

لعمري لبئس الذبح ضحيتم به خلاف رسول الله يوم الأضاحي
فطيبوا نفوساً بالقصاص فإنه سيسعى به الرحمن سعي نجاح[5]

وأورد له (ابن قتيبة) أربعة أبيات مطلعها :

قومٌ إذا نزل الغريب بدارهم تركوه ربَّ صواهل وقيان[6]

ورويت له مرثية في عثمان بن عفان منها :

لعمري لبئس الذبح ضحيتم به خلاف رسول الله يوم الأضاحي
فطيبوا نفوساً بالقصاص فإنه سيسعى به الرحمن سعي نجاح[7]

---

١ رسائل الجاحظ (٢٥٨/١) .
٢ الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .
٣ رسائل الجاحظ (٢٥٨/١) ، الاغاني (١٧٩/٣ وما بعدها) ، « ربيعة بن ابي الصلت ، صاحب ربيعتان نهر بقرب الابلة ، ومن ولده : كلدة بن ربيعة ، كان من رجال أهل البصرة » ، الاشتقاق (١٨٥/١) .
٤ الشعر والشعراء (٣٧٢/١) ، (دار الثقافة) ، المرزباني ، معجم (٢١٣) ، الاغاني (١٧٩/٣) ، الحيوان ، للجاحظ (٦٤/١) .
٥ الاصابة (٢١٣/٣) ، (رقم ٧٠٥٢) .
٦ الشعر والشعراء (٣٧٢/١) .
٧ الاصابة (٢١٣/٣) ، (٧٠٥٢) .

وله موعظة في أسلوب يشبه أسلوب أعشى بني ربيعة ، نشرها (كاير) في ديوان الأعشى[1] .

ومن شعراء ثقيف (عوف بن عامر بن حسان بن مالك بن حطائط بن جشم ابن ثقيف) الكاهن ، وكان جاهلياً كاهناً شاعراً[2] ، و (كنانة بن عبد ياليل ابن سالم بن مالك بن حطائط بن جشم بن ثقيف) ، وكان يمدح النعمان بن المنذر[3] ؛ و (كنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عُمير بن عوف بن عقدة بن غِيَرة بن عوف بن ثقيف) ، وهو شاعر ذكره (ابن سلام)[4] .

ومسعود بن معتب بن مالك الثقفي من شعراء ثقيف ، وهو جاهلي . وابنه عروة بن مسعود ، الذي دعا قومه الى الاسلام ، فقتلوه . وكان (مسعود) غنياً ، وكان يخشى عليها من أن تباع الى قريش بعد وفاته ، وكانت قريش تشتري الأرض والأموال بالطائف ، فخشي أن يبيع ورثته ملكه لقريش[5] .

و (أبو محجن الثقفي) واسمه مالك ، وقيل عبدالله بن حُبيب بن عمرو بن عمير بن عوف ، وقيل اسمه كنيته ، هو من الشعراء المطبوعين ، وكان كريماً منهمكاً في الشراب لا يكاد يقلع عنه ، أسلم مع ثقيف . جلده (عمر) مرّات ثم نفاه الى جزيرة،وبعث معه رجلاً فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص،يوم القادسية فكتب عمر الى (سعد) أن يحبسه فحبسه . فأرسل الى امرأة سعد من يقول لها : اطلقيني ولك عليّ ان سلمني الله أن أرجع حتى أضع رجليّ في القيد ، وان قتلت استرحتم مني . فأطلقته ، فوثب على فرس لسعد ، ثم أخذ رمحاً ثم خرج يهاجم الفرس ، فجعل لا يحمل على ناحية من العدوّ إلا هزمهم ، وجعل الناس يقولون هذا مَلَك ، لما يرونه يصنع ، فلما هزم الفرس ، رجع فوضع رجله في القيد، وترك الخمر قائلاً : قد كنت أشربها إذ يقام عليّ الحدّ وأطهر منها ، فأما الآن

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١١٤/١) .
٢ المرزباني ، معجم (١٢٥) .
٣ المرزباني ، معجم (٢٤٦) .
٤ المرزباني ، معجم (٢٤٦) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٨٣) .

فلا والله لا أشربها أبداً[1] .

ومن شعره :

إذا مت فادفني الى جنب كرمة	تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفـلاة فإنني	أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
أباكرها عنـد الشروق وتارة	يعاجلني عند المساء غبوقهـا
وللكأس والصهباء حـق معظم	فمن حقها أن لا تضاع حقوقهـا

وحدّث من رأى قبر (أبي محجن) أنه نبتت عليه ثلاثة أصول كرم وقد طالت وأثمرت وهي معرشة على قبره . ولكنهم عندما تحدثوا عن موضع قبره ، اختلفوا فيه ، فقال بعض منهم إنه في نواحي أذربيجان ، وقال قوم بجرجان[2] . ويظهر أنهم اختلقوا قصة ظهور الكرم على قبره من الشعر المتقدم .

وذكر بعض الرواة ان (أبا محجن) هوى امرأة من الأنصار ، يقال لهـا (شموس) فحاول النظر اليها ، فلم يقدر ، فآجر نفسه من بنّاء يبني بيتاً بجانب منزلها فأشرف عليها من كوّة فأنشد :

ولقد نظرت الى الشموس ودونها حرج من الرحمن غير قليل

فاستعدى زوجها عمر فنفاه ، وبعث معه رجلاً يقال له أبو جهراء ، فلما رأى (أبو جهراء) من أبي محجن سيفاً هرب منه الى عمر ، فكتب (عمر) الى (سعد) يأمره بسجنه فسجنه[3] .

وذكر (بروكلمن) ان (أبا محجن) لم يزل يشرب الخمر حتى نفاه (عمر) الى (باصع) ، وهي مدينة (مصوع) على ساحل الحبشة . وتوفي بها بعد مدة

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١٠١/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٣٧/٢١) ، الخزانة (٥٥٠/٣) ابن سلام ، طبقات (٢٢٥) ، المؤتلف (٩٥) ، الاصابة (١٧٣/٤) (رقم ١٠١٧) ، الشعر والشعراء (٣٣٦/١ وما بعدها) ، طبقات ابن سـلام (٦٨ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١٠٣/١) ، (الى أصل كرمة) ، ديوانه (ص ١٤) ، (ليدن ١٨٨٧ م) ، (تحقيق Abel) ، عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٣٨/١) ، (القاهرة ١٣٢٤) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٩) ، الاستيعاب (١٨١/٤ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ الاصابة (١٧٤/٤) ، (رقم ١٠١٧) .

وجيزة[1] . وهو خبر غريب ، يخالفه كل من تعرض لأمر هذا الشاعر . فقد ذكروا جميعاً انه ترك الخمر منذ يوم (القادسية) ولم يعد اليها ، ولم يذكر أحد انه عاد اليها ، حتى نفترض انه عاد بعد ذلك الى المدينة وعاد اليها فنفاه ، وقصة نفيه الى جزيرة في البحر ، ترد قبل ذهابه الى العراق ، بعد أن فرّ منه حارسه ، وكان قد أحس انه يريد قتله ، فأمر (عمر) سعداً عندئذ بحبسه فحبس ، ثم خرج فقاتل ، فلما انتصر المسلمون ، رجع الى محبسه، ففك (سعد) قيوده وأطلقه.

وقد جمع شعر (أبي محجن) في ديوان ، طبع ، كما نجد له قطعاً من أشعاره في مختلف كتب الأدب ومن تعرض لسيرته من رجال الأخبار[2] .

وكان (غيلان بن سلمة) من الأشراف ، ذكر (الجمحي) ، انه كان قسم ماله كله بين ولده وطلق نساءه ، فنهاه (عمر) عن ذلك ، ففعل بما أمر به[3].

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٧/١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٧/١ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٦٩) .

الفصل الخامس والستون بعد المئة

الشعراء اليهود

لا نعرف نصاً جاهلياً جاء فيه خبر عن شعر يهودي ، أو عن شاعر يهودي عاش في بلاد العرب . وكل ما ورد الينا عن شعر يهود ، مستقى من الموارد الإسلامية حسب . كذلك لا نعرف مصدراً عبرانياً أو غير عبراني ، تعرض لأمر شعر اليهود في جزيرة العرب . ولهذا فحديثي عن شعر يهود في أيام الجاهلية مستمد من الموارد الإسلامية وحدها .

ومن يلقِ نظرة على أشعار اليهود لا يجد فيها أي أثر لليهودية ، ولا أية مصطلحات تشعر أن صاحبها يهودي . فلا نجد فيها شيئاً من قصص التوراة أو التلمود أو المشنا أو (الكبارة) أو أي شيء له صلة بعقيدة يهودية . مع اننا قد وجدنا شيئاً من قصص العهد القديم في شعر (أمية بن أبي الصلت) ، وهو غير يهودي . فهل يعني هذا أن شعراء اليهود لم يكن لهم ميل الى التحدث في أمور الدين ، والنظر في أحكام الشريعة ، وفي التفكير في خلق السماوات والأرض والإنسان وفي الموت والفناء ، أو أنهم كانوا في جهل بها ، وكان أمرها عندهم الى رجال دينهم ، هم يبحثون فيها ، ولهذا لم يحملوا أنفسهم مشقة التعرض لها والبحث فيها ، أو أنهم كانوا قد تطرقوا فعلاً الى هذه الأمور ، وجاؤوا في شعرهم بأشياء مما يختص بدينهم ويميزهم عن غيرهم ، وتطرقوا الى عاداتهم وأشادوا بذكر أنبيائهم ، غير أن الرواة المسلمين لم يحفلوا بشعرهم لأنه شعر يهودي ،

فضاع ، كما ضاع شعر الوثنيين إذ لم يرو منه القليل[1] .

وقد ذهب (ولفنسون) الى ان السبب في قلة ما وصل الينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم ، انما يرجع الى ضعف إقبـال اليهود على اعتناق الاسلام . والـذي حافظ على القليل الـذي وصل الينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ، ومن تناسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أثيل وشرف عظيم. ولو لم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموأل ، لكان من الجائز عدم وصول أي شيء من شعره الينا[2] .

وذهب (الدكتور طه حسين) الى ان اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب ، وانهم انتحلوا وصنعوا شعراً لإثبات وجود لهم في الشعر ، فنسبوه الى شعراء يهود ، ولكن الرواة العرب لم يحفلوا به فضاع[3] .

وقد أدخل (كارلو نالينو) الشعراء اليهود مع الشعراء الوثنيين ، وجعلهم في الصنف الأول من أصناف طبقات الشعراء على حسب تصنيفه لهم الى أربع طبقات . وقال : « لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية ووجوده بين الوثنيين والنصارى من أهل الحضر ، لأنكم اذا اطلعتم على ما وصل الينا من أشعار اليهود قبل الاسلام ما ألفيتم فيها شيئاً أو عبارة يميزها من سائر أهل البادية. فمن طالع مثلاً أبيات السموأل بن عادياء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحـة التزوير منسوبة اليه لم تعرف ولم تطبع إلا حديثاً) لما توهم ان صاحبها تابع لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثـل شعبة بن غريض ، والربيع بن أبي الحقيق وغيرهما التي اعتنى بجمعها (نولدكه) و (فرانز دلتش) ليس من المستحيل ان ما فقد من أشعارهم (وهو كثـير بالإضافة الى ما حفظ) ، قد حوى أشياء مما يختص بدينهم وليس من المحال أيضاً ان الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين لا لغة ولا أسلوباً ولا مأخذاً ، كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة »[4] .

---

١ كارلو نالينو ، تأريخ الآداب العربية (٧١) .
٢ تأريخ اليهود في بلاد العرب (٢٤ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه .
٤ كارلو نالينو (ص ٧١) .

ولكنني أجد من مطالعتي لشعرهم نفساً يختلف عن النفس الذي نجده في شعر شعراء البادية، ذلك هو ميل هذا الشعر الى التحدث عن المثل الأخلاقية، كالإنصاف والحكم بالعدل ، والحلم ، والصداقة ، واحترام حق الصديق ، والاتعاظ بالموت وبحوادث الدهر ، وبوجوب الوفاء ، خذ الأبيات المنسوبة الى (الربيع بن أبي الحقيق) ، وهي :

سائل بنا خابِرَ أكمائنا　　والعلم قد يُلقى لدى السائل
لسنا إذا جارت دواعي الهوى　　واستمع المنصت للقائل
واعتلج القوم بألبابهم　　بقائل الجود ولا الفاعل
إنا إذا نحكم في ديننا　　نرضى بحكم العادل الفاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا　　نلط دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا　　فنخمل الدهر مع الخامل[1]

ففيها إشارة الى دين يأمر بالعدل والإنصاف ، وبعدم مزج الباطل بالحق ، ينهى عن الظلم ويأمر بالحق وفيها — ان صح بالطبع أنها من شعرهم — منطق واستماع الى صوت متظلم ، يعمد الى رفع شكواه الى المنصفين لإنصافه ، فينصف، فأخذ الحق هنا هو بحكم الدين وقواعد العدالة لا بالسيف وبحكم العصبية والأخذ بالثأر ، ونجد مثل ذلك في بقية شعرهم ، وتحمل هذه الظاهرة المرء على التفكير في سبب ظهور هذا النوع من الشعر ، وهل هو شعر جاهلي يهودي أصيل ، أم أنه شعر مصنوع ، وضع عليهم في الإسلام ، لمآرب مختلفة ، مثل المآرب الذي حمل الرواة على نسبة القصيدة المشهورة :

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤم عِرضُه　　فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

الى السموأل ، وكذلك بعض الأشعار الأخرى !

وقد ذكر (ابن سلام) أسماء فحول شعراء يهود ، فجعلهم : السموأل بن الغريض بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وشُرَيح ابن عمران ، وشُعية بن غريض ، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الذيّال، ودرهم

---

[1] ابن سلام ، طبقات (٧١) .

ابن زيد[1] . وأضاف غيره اليهم : أوس بن دنى،وسماك ، والغريض بن السموأل[2] و (سلام بن مشكم) و (كنانة بن أبـي الحقيق)[3] .

والسموأل ، هو أشهر شاعر يهودي . وهو على ما يقوله لنا الأخباريون يهودي ثري شاعر ، عرف بـ (السموأل بن عاديا) ، وبـ (السموأل بن عادياء) الأزدي ، وبـ (السموأل بن غريض بن عاديا « عادياء » اليهودي)[4] ، وبـ (السموأل بن حيان بن عادياء)[5] ، وبـ (السموأل بن عادياء بن حيا)[6] ، وبـ (السموأل بن حيا بن عادياء بن رفاعة بن الحارث بن ثعلبة بن كعب)[7]، وبـ (السموأل بن أوفى بن عادياء)[8] ، وبـ (السموأل بن أوفى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة) ، وبـ (السموأل بن غريض بن عاديا بن حبا) . واختلفوا في نسب (عادياء) (عاديا) ، فقالوا : (عادياء بن حباء) ، وقالوا : (عادياء بن رفاعة بن جفنة) ، وقالوا : انه من ولد (الكاهن ابن هارون بن عمران)[9] ، وقالوا انه من (بني غسان) ، ونسبه (دارم بن عقال) ، الى (رفاعة بن كعب بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء) . وهو نسب أنكره (أبو الفرج الأصبهاني) حيث قال : « وهذا عندي محال ، لأن الأعشى أدرك شريح بن السموأل ، وأدرك الاسلام ، وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة ولا أكثر ... وقد قيل ان أمه كانت من غسان »[10] . ونسب السموأل أيضاً الى الأزد[11] . وذكر (ابن دريد) ان السموأل

---

١ طبقات ، ابن سلام (٧٠) .
٢ الاغاني (١٩/٩٤ وما بعدها) .
٣ الاستيعاب (٤/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ « عادياء » الاغاني (١٩/٩٨) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣٥) ، « طبعة دار المعارف»، « تحقيق محمود محمد شاكر » ، تاج العروس (٧/٣٨٢) ، « سمل » ، شرح شواهد المغنى (٢/٥٣٥) ، Ency., IV, p. 133.
٥ الميداني ، الامثال (٢/٢٧٦) ، المشرق ، السنة الثانية عشرة ، ١٩٠٩ م ، العدد ٣ آذار (ص ١٦٢) .
٦ المعرب ، للجواليقي (١٨٨) .
٧ ابن دريد ، الاشتقاق (٢٥٩) .
٨ المشرق ، العدد المذكور (١٦٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) ، الاغاني (٣/١٢) .
٩ معاهد التنصيص (١/١٣١) ، المشرق ، العدد المذكور .
١٠ الاغاني (١٩/٩٨) ، المشرق ، العدد المذكور .
١١ المعرب (١٨٨) .

من (بني غسان) ، ولكنه ذكر أيضاً انه كان يهودياً[1] ، ونسبه (محمد بن حبيب) الى غسان كذلك ، ولم يشر الى تهوده[2] . وقد جعل (ابن قتيبة) السموأل ملكاً على تيماء[3] .

والسموأل جدّ (صفية بنت حيي بن أخطب) لأمها . وهي يهودية ، وقد تزوّجها الرسول[4] . وقد نسبها (ابن عبد البر) على هذه الصورة : صفية بنت حيي بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب ابن النضير بن النحام بن تخوم من بني اسرائيل من سبط هارون بن عمران . وأمها (برة بنت سموأل)[5] . وكانت عند (سلام بن مشكم) ، وكان شاعراً ، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق ، وهو شاعر ، فقتل يوم خيبر ، وتزوجها رسول الله ، في سنة سبع من الهجرة .

وقد اشتهر السموأل بالوفاء ، أكثر من اشتهاره بالشعر ، ولا زال العرب يتبجحون بوفائه ويضربون به المثل في الوفاء . واشتهر بقصره الذي ضرب به المثل بالضخامة والجسامة ، وهو (الأبلق) بـ (تيماء) ، أو على مقربة منها . حتى زعم أهل الأخبار أنه من أبنية (سليمان بن داوود) بناه بتيماء ، واستشهدوا على صحة دعواهم ببيت شعر زعموا أنه من شعر الأعشى ، هو :

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ... وورد بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داوود حقبة ... له أزج حم وطي موثق[6]

لكنهم يذكرون أيضاً انه من بناء (عاديا) والد السموأل ، ويستشهدون على صحة روايتهم بشعر ذكروا انه للسموأل نفسه ، يقول فيه :

---

١ الاشتقاق (٢٥٩) ٠
٢ المحبر (٣٤٩) ٠
٣ الشعر والشعراء (١/٦٠ ، ٦١) ٠
٤ الاصابة (٤/٣٣٧ وما بعدها) ، (رقم ٦٥٠)
٥ الاستيعاب (٤/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) ٠
٦ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) ، راجع قصيدة الاعشى رقم ٢٥ في ديوانه ، « له جندل صم وطى موثق » ، (له أزج عال وطى موثق) ، الحيوان (٦/١٨٨) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، المشرق ، الجزء المذكور (١٦٣) ٠

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استقيت
وأطماً تزلق العقبان عنـــه اذا ما ضامني أمر أبيت[1]

وقد زعموا انه عرف بـ (الأبلق الفرد) . أخذوا ذلك من شعر نسبوه الى السموأل ، هو :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على من رامه ويطول[2]

وذكروا انه انما عرف بالأبلق ، لأنه كان في بنائه بياض وحمرة ، وقيل لأنه بني من حجارة مختلفة الألوان[3] . وقد ذكر في شعر للأعشى :

وحصن بتيماء اليهودي أبلق[4]

وفي شعر آخر له أيضاً هو :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين ، وجار غير ختار[5]

وزعم أهل الأخبار ، أن الزباء (ملكة الجزيرة) قصدته فعجزت عنه وعن مارد ، فقالت : « تمرد مـــارد وعز الأبلق » ، فسيرته مثلاً[6] . ولا أستبعد كـــون حصن السموأل من الحصون أو القصور القديمة التي كانت بتيماء . ورثه (السموأل) من آبائه وأجداده ، فقد كان البابليون قد بنوا بها قصوراً وحصوناً ، لما اتخذت عاصمة لهم ، وسكنها ملكهم ، ثم انها كانت من المدن القديمة العامرة ، وقد كانت الأسر الكبيرة الغنية تبني القصور الفخمة في المدن للتحصن بهـــا من الغزو ومن غارات الأعداء عليها ، كما كانت الحكومات ، ولا سيما حكومـــات المدن تقيم الحصون القوية المنيعة في المدن ، للدفاع عنها ، ولتكون مقراً للحكام ، وتشاهد الى اليوم آثار القصور والأبنية الضخمة التي كانت في تيماء . ومما يؤيـــد

---

١ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .
٢ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .
٣ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .
٤ اللسان (١٠/٢٦) ، (بلق) .
٥ « غير غدار » ، اللسان (١٠/٢٦) ، (بلق) .
٦ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .

رأيي في أن قصر (السموأل) ، أي حصنه من الحصون القديمة هو ما ورد في شعر (الأعشى) من أنه من أبنية (سليمان) ومن ورود لفظة (عاديا) في شعر الأعشى كذلك ، وفي شعر السموأل :

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استقيت

ولفظة (عاديا) ، وإن صيرت اسم علم لرجل ، لكني أعتقد انها ليست علماً ، وانما تعني القدم ، فالعادي عند العرب القديم جداً ، ولو كان (عاديا) جدّ (السموأل) ، فكيف نوفق بين الشعر المذكور المنسوب الى الأعشى الذي يزعم انه من أبنية سليمان ، ثم قولهم ان (عاديا) من أجداد السموأل ، ثم قولهم انه من الحصون القديمة ، وانه تعزز على (الزباء) لما أرادت فتحه ، في الأسطورة التي يرويها أهل الأخبار ، والتي تدل على قدم الحصن . ولكن ليس من المستبعد أن يكون أحد أجداد السموأل ، قد جدد في بنائه ورممه لإصلاح ما أفسده الزمان منه ، وأما الحصن نفسه فربما كان من بقايا أبنية البابليين بتيماء ، فقد كانت (تيماء) معروفة في أيام (البابليين) ، وموجودة قبل أيامهم ، بدليل ان (نبونيد) ملك بابل جاء اليها فاتخذها أمداً عاصمة له .

وقصه وفاء السموأل قصة مشهورة ، وقد تحدثت عنها ، وذكر أن السموأل لما أبى دفع الدروع الى الملك ، وشاهد منظر ذبح ابنه ، قال في ذلك :

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوامٌ وفيت
وقالوا عنده كنز رغيب فلا وأبيك أغدر ما مشيت
بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئت استقيت[1]

وتعدّ قصيدة السموأل التي مطلعها :

إذا المرء لم يدْنَسْ من اللؤم عِرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

من أجمل القصائد السلسة المنظومة في الوفاء وفي الفخر . وقد سجلت ثمانية أبيات منها في الكتاب المسمى : « تأريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم »

---

١ المحاسن والاضداد (٣٦ وما بعدها) .

المنسوب (لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي) ، رواية (أبي يوسف يعقوب بن السكيت) . وقد تمّ استنساخاً في عاشر شوّال سنة ثلاث وأربعين ومائتين[1] . وهو كتاب لم يشر (ابن النديم) اليه ، لا في أثناء حديثه عن (الأصمعي) ولا في أثناء كلامه على (ابن السكيت) .

وأول هذه الأبيات المدوّنة فيه :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل[2]

وقد اختلف العلماء في قائل القصيدة ، فمنهم من نسبها الى السموأل ، ومنهم من نسبها لابنه (شريح)[3] ، ومنهم من جعلها لدكين[4] ، ومنهم من نسبها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي[5] ، ومنهم من جعلها للجلاح الحارثي[6] . ورجح (بروكلمن) نسبتها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، وهو شاعر اسلامي[7] . ويقول (التبريزي) في شرحه البيت :

فإن بني الديّان قطبٌ لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

وهو من أبيات هذه القصيدة ، يذكر انه لعبدالله الحارثي لا للسموأل[8] .

ويلاحظ ان (أبا الفرج الاصبهاني) ، قد نسب القصيدة المذكورة للسموأل ثم نسبها الى (شريح) ، الذي هو ابن السموأل في موضع آخر ، ثم نسبها الى

---

١ نشرة الشيخ محمد حسن ال ياسين ، بعنوان : تأريخ العرب قبل الاسلام (بغداد ١٩٥٩ م) ، وتجد القصيدة في ديوان الحماسة (ص ٣٩) ، (طبعة أوربة) ، وفي نزهة الجليس (٢/١٤٩ وما بعدها) .

٢ طبع ديوانه مرارا ، وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥ م ، راجع عن شعره ، شرح شواهد المغنى (٢/٥٣١ وما بعدها) ، الحماسة (١/١٠٨) ، الامالي (١/٢٦٩) ، البيان والتبيين (٣/١٨٥) ، ديوان الحماسة (١/٢٧) ، أمالي القالي (١/٢٦٩ وما بعدها) ، الاغاني (٦/٧٦ وما بعدها) ، عيون الاخبار (٣/١٧٣) .

٣ ديوان الحماسة (٣٩) ، (طبعة أوربة) ، الحماسة (١/١٠٨) ، الامالي (١/٢٦٩) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) ، الاغاني (٩/٢٥٣) .

٥ شرح شواهد (٢/٥٣١) .

٦ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) .

٧ بروكلمن (١/١٢١) .

٨ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٢٧) .

(دكين العذري) في موضع ثالث[1] ، مما يدل على انه أخذ من مصادر مختلفة، اختلفت فيما بينها في نسبة القصيدة الى صاحبها[2]. كما نجد الرواة يختلفون فيما بينهم في ترتيب أبيات القصيدة ، فنهم من يقدم فيها ، ومنهم من يؤخر ، ويبعث هذا الاختلاف الريبة في صحة نسبة القصيدة الى السموأل[3] .

ولما تحدث (ابن قتيبة) عن الشاعر (دكين بن رجاء) من بني فُقَيم الراجز، وهو من شعراء العصر الأموي ، ومن المتصلين بـ (عمر بن عبد العزيز) ، قال عنه : إنه هو القائل :

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤم عِرضه   فكلّ رداءٍ يرتديه جميل
وإن هو لم يُضرع عن اللؤم نفسه   فليس الى حسن الثناء سبيل[4]

ويرى (ونكلر) أن قصة الوفاء هذه هي أسطورة استمدت مادتها من أسفار (صموئيل الأول) في التوراة، ومن الأساطير العربية القديمة نظمت على هذه الصورة فجعل بطلها شخصان هما : (السموأل) ، و (امرؤ القيس)[5] .

وإذا تتبعنا الروايات الواردة في قصة وفاء السموأل ، وذبح ابنه ، وامتناعه عن تأدية الأمانة المودعة لديه ، إلا لأصحابها الشرعيين ، نجد أنها ترجع الى موردين رئيسين : قصة (دارم بن عقال) وشعر الأعشى .

وذكر (ابن سلام) ، ان للسموأل (كلمة له طويلة) ، يقول فيها :

إن حلمي اذا تغيب عني   فاعلمي انني عظيماً رزيت[6]

وقد وردت في الأصمعيات[7] ، وهي تتحدث عن نشأة الانسان وحياته وبعثه بعد

---

١ الاغاني (٦/٦٧) ، (٨/١٥٥) .
٢ ولفنسون ، تأريخ اليهود في بلاد العرب (٣١) .
٣ المصدر نفسه .
٤ الشعر والشعراء (٢/٥٠٨ وما بعدها) .
٥ H. Winckler, Araabisch-Orientalisch., In Mittei. Vorder. Asai. Gesellschaft, (1901) 6 Jahrgang, S., 112.
٦ طبقات (٧١) .
٧ الاصمعيات (٨٤) ، (دار المعارف) .

موته ، ويظن انها مصنوعة[1] . وفي جملة ما قاله :

ميتاً خلقت ولم أكن من قبلها شيئاً يموت فمت حين حييت[2]

وقد طبع الأب (لويس شيخو) ديوان السموأل برواية (نفطويه) (٣٢٣ هـ)، وقد ترجم (ابن النديم) نفطويه ،وذكر أسماء كتبه ، ولكنه لم يذكر من بينها اسم هذا الديوان[3] ، وترجمه غيره ، ولم ينسب له هذا الديوان[4] . ويرى (بروكلمن) احتمال كون الشعر المرقم (١ — ٦) من الديوان من الشعر الأصيل ، أي من شعر السموأل ، أما الشعر الباقي المنشور في الديوان ، فهو لشعراء يهود متأخرين[5] . ويرى غيره أصالة قصيدتين فقط من شعر هذا الديوان. وذكر بعضهم ان القصيدة رقم (٧) ليست للسموأل ، وانما لأحد يهود المدينة[6] .

وقد تحدث المستشرقون عن شعر (السموأل) ولهم فيه كلام ، فنهم من يؤيد أصالة أكثره ، ومنهم من لا يعترف إلا بأصالة القليل[7] منه . والواقع أن موضوع وجود (السموأل) نفسه قضية فيها نظر ، ولا استبعد أن تكون هذه القصة من وضع (دارم بن عقال) ، وهو من ولد (السموأل) ، أو من وضع أنـــاس آخرين رووا عنه . و (دارم) هو راوي خبر قصة الوفاء ، والأشعار المنسوبة الى(امرىء القيس) المتعلقة بهذا الموضوع.وقد أشار الى ذلك مؤلف كتاب (الأغاني) في أثناء كلامه على قصيدة نسبت الى (امرىء القيس) ، ابتداؤها :

طرقتك هند بعد طول تجنب وهناً ولم تك قبل ذلك تطرق

---

١ العصر الجاهلي (٣٨٩) .
٢ البيان والتبيين (٣/١٢٧) .
٣ الفهرست (١٢٧) ، شيخو ، ديوان السموأل ، بيروت ١٩٠٩ م ، المشرق ، السنــة الثانية عشرة ، العدد ٣ اذار ١٩٠٩ م (ص ١٦١ وما بعدها) .
٤ نزهة الالباء في طبقات الادباء ، لابن الانباري (١٧٨ وما بعدهـا) ، (تحقيـــق : ابراهيم السامرائي) ، ابن القفطي ، الانباه (١/١٨٠) .
٥ بروكلمن (١/١٢٢) .
٦ بروكلمن (١/١٢٢ وما بعدها) .
٧ Margoliouth, The Relations., p. 71, Ency., IV., p. 133, Fr. Delitzch, Jüdisch-Arabische Poesien aus vor Muhammedanischer Zeit, Leipzing, 1874, Nöldeke, Beiträge, zur Kenntnis der Poesies der alten Araber, Hanover, 1864, M. Steinschneider, Die Arabische Literatur der Juden, Frankfurt am Main, 1900, Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur, I, S. 28, Suppl., I, S. 60.

فقال : « وهي قصيدة طويلة ، وأظنها منحولة ، لأنها لا تشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دونها في ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه دارم ، لأنه من ولد السموأل ، ومما صنعه من روي عنه من ذلك فلم تكتب هنا »[1] .

ويلاحظ أن في شعر الأعشى كثيراً من أخبار السموأل ، ومن شعره أخذ الأخباريون (تيماء اليهودي)[2] و (الأبلق الفرد) ، حيث يقول :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به	في جحفل كقريع الليل جرّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله	حصن حصين وجار غير غدّار
خيّره خطتي خسف فقال له	مهما تقولنّ فإني سامعٌ حار
فقال ثكل وغدرٌ أنت بينهما	فاختر فما فيهما حظ لمختار
فشكّ غير طويل ثم قال له	اقتل أسيرك إني مانع جاري[3]

ومن ولد السموأل (شريح) و (الغريض بن السموأل) ، وكانا شاعرين كذلك[4] . و (برة) في رواية من جعلها ابنة للسموأل ، ووالدة (صفية) زوج الرسول[5] .

وللأعشى الشاعر الشهير شعر يرويه الرواة في مدح (الشريح بن السموأل) (شريح بن السموأل) . وقد ورد في قصيدته الرائية اسم ولدين للسموأل ، هما: (حوط) و (منذر)[6] . ولم يذكر الأخباريون اسم الولد الذي زعم ان (الحارث بن أبي شمر) ، أو (الحارث بن ظالم) قتله لرفض السموأل دفع أدرع الكندي اليه ، على نحو ما يذكره الرواة في قصة الوفاء . ونجد مضمون هذه القصة في هذه القصيدة المذكورة للأعشى ، الموجودة في ديوانه . وهي قصيدة تتألف من واحد وعشرين بيتاً ، يروي الرواة انه قالها مستجيراً بـ (شريح بن

---

١ الاغاني (٨/٧٠) .
٢ البلدان (٣/٤٤٢) ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٧٢) .
٣ نزهة الجليس (٢/١٥١) ، المحاسن والاضداد (٣٧) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٢٢) .
٥ الاستيعاب (٤/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ المشرق ، العدد المذكور (١٦٣) .

السموأل) ليفكه من الأسر . وكان الأعشى على ما يقوله الرواة قد هجا رجلاً من (كلب) ، فظفر به الكلبي وأسره ، وهو لا يعرفه ، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته ، ومرّ بالأسرى ، فناداه الأعشى بهذه القصيدة ، فجاء شريح الى الكلبي ، وتوسل اليه بأن يهبه ، فوهبه اياه ، فأطلقه . وقال له : أقم عندي حتى أكرمك وأحبوك ، فقال له الأعشى : « ان تمام احسانك إليّ ان تعطيني ناقة ناجية ، وتخلّيني الساعة ، فأعطاه ناقة ناجية ، فركبها ومضى من ساعته . وبلغ الكلبي ان الذي وهبه لشريح هو الأعشى ، فأرسل الى شريح ابعث إليّ الأسير الذي وهبت لك حتى أحبوه ، فقال : قد مضى ، فأرسل الكلبي في أثره ، فلم يلحقه»[1] .

وقد اختلف في اسم (شريح) الذي خلّص (الأعشى) من الأسر ، فقد ذكر انه (شريح بن حصن بن عمران بن السموأل) ، وذكر انه (شريح بن عمرو الكلبي) لا كما دعاه بذلك (ابن قتيبة)[2] .

وذكر (بروكلمن) اسم شاعر آخر من شعراء (آل عاديا) ، هو الشاعر (سعيد بن الغريض) (سعيد بن غريض) ، أخي السموأل . كما ذكر اسم (شعبة) حفيد السموأل[3] . وقد ذهب (نولدكه) الى أن (الغريض) لم يكن أخاً للسموأل ، بل ابناً له ، وأن ما ذهب اليه (أبو الفرج الاصبهاني) ، من أن (غريضاً) كان أخاً له ، خطأ ، لأن (شعبة) ، كان قد اعتنق الإسلام وعاش الى زمن الخليفة (معاوية) ، أي الى زمن بعيد عن (السموأل) ، وهذا يجعل من الصعب تصور أن (شعبة) كان ابن أخي (السموأل) ، بل لا بد من أن يكون حفيداً له . أي ان الغريض كان ابناً للسموأل ، وقد جعله يعيش في حوالى السنة (٦٠٠) للميلاد ، وجعل أيام (السموأل) في حوالى السنة (٥٥٠) للميلاد[4] .

---

١ الاغاني (٩٩/١٩ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (١٢٦ وما بعدها) ، (تحقيق رودلف كاير) ، (Rudolf Geyer) ، (لندن ١٩٢٨ م) ، ديوان الاعشى الكبير (١٧٩) ، (تحقيق الدكتور م. محمد حسين) .

٢ الشعر والشعراء (١٨٢/١ وما بعدها) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٢٢/١) ، تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١٥٧/٤) .

٤ Th. Nöldeke, Beiträge Zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber, S. 64, Hannouver, 1864.

ونسبت لشعبة بن غريض بن السموأل قصيدة هي :

لبـــاب يا أختَ بني مالكٍ لا تشتري العاجلَ بالآجل
لبـــاب داويني ولا تقتلي قد فضل الشافي على القاتـــل
لبـــاب هل عندك من نائلٍ لعاشق ذي حاجة سائل
عللته منك بمـــا لم ينل يا ربمـا عللت بالباطل
إن تسألي بـي فأسألي خـابراً فالعلم قد يكفي لدى السائل
ينبيك من كان بنا عالمــاً عنّا وما العـــالم كالجاهل
انا إذا جارت دواعي الهوى وأنصت السامـــعُ للقائل
واعتلـــج القوم بألبابهم في المنطق الفاصل والقـــائل
لا نجعل الباطل حقـاً ولا نَلِطّ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامُنا فنخمل الـدهر مع الخامل[1]

كما نسبت له أبيات أولها:

يا دار سعدى بمفضى تلعة النعم حُييت داراً على الاقواء والقدم[2]

ونسبوا له أبياتاً في الخلان هي :

أرى الخلان لمّا قلّ مالي وأجحفت النوائب ودعوني
فلما ان غنيت وعاد مالي أراهم لا أبالك راجعوني
وكان القوم خلاناً لمـــالي وإخواناً لما خولت دوني
فلما مـــرّ مالي باعدوني ولمّا عاد مالي عاودوني[3]

وروى أهل الأخبار ان (شعبة بن غريض) ، عاش فأدرك أيام معاويـة ، وان معاوية لما حج رأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام عليه ثوبان أبيضان، فقال: من هذا ؟ فقالوا : شعبة بن غريض ، فأرسل اليه يدعوه ، فأتاه رسوله،فقال: أجب أمير المؤمنين ! قال : أو ليس قد مات ! قيل فأجب معاوية . فأتاه فـلم يسلم عليه بالخلافة . فقال له معاوية : مـا فعلت أرضك التي تكسي منها العاري

---

١ Nöldeke, Beiträge, S. 65. f.

٢ المصدر نفسه (ص ٦٦) .

٣ المصدر نفسه (ص ٦٧) .

ويرد فضلها على الجار ؟ قال : باقية . قال : أتبيعها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال بستين ألف دينار ولولا خلة أصابت الحي لم أبعها . قال: لقد أغليت! قال : أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف ، ثم لم تبالِ . قال : أجل . قال : فإذا بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك الذي يرثي به نفسه . قال : قال أبي :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً	ماذا تؤبنني بـه أنواحي
أيقلن لا تبعد فرب كريهة	فرجتهـا بشجاعة وسمـاح
ولقد ضربتُ بفضل مالي حقه	عنـد الشتاء وهبة الأرواح
ولقد أخذت الحق غير مخاصمٍ	ولقد رددت الحق غير مُلاحي
وإذا دعيت لصعبة سهلتها	ادعـي بأفلح مرة ونجاح[1]

فقال : أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك ! قال : كذبت ولولا مت . قال : أما كذبت فنعم . وأما لولا مت فكيف ولمَ ؟ قال : لأنك أنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام . أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليـه وسلم ، وكذبت الوحي حتى جعل الله تعالى كيدك المردود . وأما في الاسلام ، فمنعت ولد النبي صلى الله عليه وسلم الخلافة وما أنت وهي ! وأنت طليق . فقال معاوية : قد خرف الشيخ فأقيموه . فأخذ بيده فأقيم[2] .

وقد ذكر (ابن حجر) موجز هذه القصة ، أخذه من (ابن أبي طيء) ، وقد رواها (عمر بن شبة) بسنده الى (الهيثم بن عدي) ، وذكر ان اسمـه (سعنة بن عريض بن عاديا) التيماوي ، نسبة لتيماء ، وهو ابن أخي السموأل ، ثم قال : « وحكى الخلاف في سعنة هل هو بالنون أو الياء ؟ ووردت له أشعار في مجالس ثعلب ، وروي ان من شعره قوله :

معتقة كانت قريش تعافها   فلما استحلوا قتل عثمان حلت[3]

وقد نسب (ابن نباته) في شرحه لرسالة (ابن زيدون) القصيدة المذكورة

---

١ تجد هذه الابيات بشكل اخر في طبقات ابن سلام (٧٢) .
٢ Th. Noldeke, Beiträge.
٣ الاصابة (٢/٤١) ، (رقم ٣٢٤٥) ، (٢/١١٣) ، (٣٦٨٦) .

للسموأل[1] . وأثبت (ابن سلام) الأبيات المذكورة في طبقاته ، على أنها من شعر (شُعبة بن غريض)[2] .

و (شعبة) تصحيف (سيعة) ، و (سيعة) من أسماء يهود[3] .

وأشير في حماسة (البحتري) الى رجل من هـــذه الأسرة دعي (عُريض بن شعبة) ، وذكرت له هذه الأبيات :

ليس يعطى القوي فضلاً من الرز ق ولا يحرم الضعيف الخبيث
بل لكلٍ من رزقه ما قضى اللـــه ولو كـــد نفسه المستميت[4]

ومن شعراء يهود (الربيع بن أبي الحقيق) ، وهو من (بني قريظة) على ما جاء في كتاب الأغاني ، غير أننا نجد (ابن هشام) صاحب السيرة، يذكر: (سلام بن أبي الحقيق) ، وهو شقيق (الربيع) ، و (كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق) ، وهو أحد أبناء (الربيع) في جملة سادات (بني النضير)[5] . مما يدل على أن (الربيع بن أبي الحقيق) هو من (بني النضير) . وقد قتل ابن أبي الحقيق بعد (الخندق) ، وذلك أن (الأوس) لما أصابت (كعب بن الأشرف) ، قالت الخزرج ، والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، فاستأذنوا النبي في قتل (ابن أبي الحقيق) ، وهو بخيبر ، فأذن لهم فقتلوه[6] . وقد جعله (ابن سلام) من بني النضير ، ونسب له أبياتاً دونتها في أول هذا الفصل[7] .

وذكر أن (الربيع بن أبي الحقيق) كان على رأس قومه يوم (بعاث) . وذكر أنه كان قد التقى مع (النابغة) ، وقد تسابقا في نظم أنصاف الأبيات[8] .

---

١ شرح رسالة ابن زيدون (٥٤) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣١) .
٢ طبقات (٧٢) .
٣ Levi Della Vida, in Rivista degli Orientali, VIII Roma, 1919-1921, and Levi Della Vida, A Proposito di AS-Samaw'al, In Rivista degli Orientali, XIII, 1931-1932, p. 52.
٤ الحماسة (٢٣٢) . Th. Nöldeke Beiträge, S. 71.
٥ ابن هشام ، سيرة (١٧٨/٢) ، (حاشية على الروض الانف) ، الاغاني (٦١/٢١)، البيان (٢١٣/١) ، (هارون) .
٦ ابن هشام ، سيرة (٢٠٩/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٢٠٩/٢ وما بعدها) .
٧ طبقات (٧١) ، (ليدن) .
٨ الاغاني (٦١/٢١) .

ونسب الى (الربيع بن أبي الحقيق) شعر ، هو :

سئمت وأمسيت رهن الفرا ش من جُرم قومي ومن مغرم
ومن سفه الرأي بعد النهى وعيب الرشاد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحليـ ـم لم يتعدّوا ولم يظلم
ولكنّ قومي أطاعوا الغُواة حتّى تعكس أهل الدم
فأوى السفيه برأي الحليـ ـم وانتشر الأمر لم يبرم[1]

وقد نسب (المرزباني) هذا الشعر الى (كنانة بن أبي الحقيق)[2] ، من بني النضير ، وهو أخ الربيع .

ومن شعر الربيع قوله :

فلا تكثر النجوى وأنت محاربٌ تؤامر فيها كل نكسٍ مُقصّر

قاله يخاطب (أبا ياسر) النضيري ، وهو أخو حيي بن أخطب ، وكان من العلماء بالتوراة . وفيه وفي عبدالله بن صوريا ، ووهب بن يهودا ، نزل قوله: « ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب »[3] .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

إذا مات منّا سيد قام بعده له خلف يكفي السيادة بارع
من أبنائنا والعرق ينصر فرعه على أصله والعرق للفرع فارع

وقوله :

يرمي إليّ بأطراف الهوان وما كانت ركابي له مرحولة ذللا
أنا ابن عمك إن نابتك نائبة ولست منك اذا ما لعبك اعتدلا

---

١ الاغاني (٢١/٩٢) ، وهناك بعض الاختلاف في الروايات .
٢ المرزباني ، معجم (٢٤٦) ، (فراج) .
٣ البيان والتبيين (٢/١٤) .

وقوله :

ترجو الغلامَ وقد أعياك والده   وفي أرومته ما ينبت العود

وله أشعار أخرى في بني النجار[1] .

ولكعب بن الأشرف،وهو من سادة يهود الذين كانوا يحرضون قريشاً وغيرهم على الرسول ، أشعار في الحث على الانتقام من المسلمين لما أوقعوه بأهل مكة من قتل يوم بدر . ذكرت في سيرة (ابن هشام)[2] . وله أشعار أخرى افتخر بها بأهله وبماله وبنخيله التي تخرج التمر كأمثال الأكف ، جاء فيها :

رُبَّ خالٍ لي لو أبصرته   سبط المشية اباء أنف
لين الجانب في أقربـه   وعلى الأعداء كالسم الزعف
وكرام لم يشنهم حسب   أهل عزّ وحفاظ وشرف
يبذلون المال فيما نابهم   لحقوق تعتريهم وعرف
وليوث حين يشتد الوغى   غير أنكاس ولا ميل كسف[3]

ومن شعره في رثاء قتلى بدر قوله :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله   ولمثل بـدرٍ تستهل الأدمـع
قتلت سراة الناس حول حياضهم   لا تبعدوا إنَّ الملوك تصرع[4]

ويشك (ولفنسون) في صحة نسبة هذه الأبيات الى (كعب) ويرى احتمال كونها من الشعر المحمول عليه[5] .

---

١ Beiträge, S. 75. ff.

٢ ابن هشام ، سيرة (١٢٣/٢ وما بعدها) ، الاغاني (١٠٦/١٩) ، الجمـان في تشبيهات القرآن (١٣١ ، ٣٣٣) ، ديـوان المعـاني (٣٩/٢) ، نهايـة الارب (١٢٥/١١) ، ابن هشام (١٢٥/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

٣ الروض الانف (١٢٥/٢) ، (الزعف) ، ابن سلام ، طبقات (٧١) ، (وعلى الاعداء سم كالزعف) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٢) ، المرزباني ، معجم (٢٣١) ، ابن الاثير (٥٣/٢) .

٤ ابن هشام (٣٣٨/٢) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٣) ، ابن هشام (١٢٣/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

٥ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٣) .

وقد ردّ على شعر (كعب) هذا حسان بن ثابت ، وامرأة من المسلمين ، قالت :

نحن هذا العبد كل تحنن يبكي على قتلي وليس بناصب
بكت عين من بكى لبدر وأهله وعلت بمثليها لؤي بن غالب

إلى آخر الأبيات .

فأجابها كعب بن الأشرف بقوله :

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا عن القول يأتي منه غير مقارب
أتشتمني إن كنت أبكي بعبرة لقوم أتاني ودهم غير كاذب
فإني لباكٍ ما بقيت وذاكر مآثر قوم مجدهم بالجباجب[1]

ويقال إن والده من (طيء) . أما أمه ، فمن بني النضير ، وانه شبب بنساء النبي ونساء المسلمين ، فأمر الرسول بقتله ، فقتله محمد بن مسلمة ورهط معه من الأنصار[2] . وله مناقضات وهجاء مع (حسان بن ثابت) وغيره في الأيام التي وقعت بين الأوس والخزرج[3] .

ومن شعره الذي شبب فيه بأم الفضل بنت الحارث قوله :

أراحلٌ أنتَ لم تحلل بمنقبة وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت من ذي القوارير والحنّاء والكتم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها إذا تأتت قياماً ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا والحبل منها متين غير منجذم
احدى بني عامل جنّ الفؤاد بها ولو تشاء شفَتْ كعباً من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدها أهل التحلة والإيفاء بالذمم
لم أرَ شمساً بليل قبلها طلعت حتى تجلت لنا في ليلة الظلم[4]

---

١ ابن هشام (١٢٣/٢) ، (حاشية على الروض) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٧١) ، المرزباني ، معجم (٢٣١) ، المقريزي ، امتاع الاسماع (١٠٧/١ وما بعدها) .
٣ الاغاني (١٠٦/١٩) .
٤ الطبري (٤٨٨/٢) .

ونسب له شعر في مدح (الحارث بن هشام) ، هو :

نبئت أن الحــارث بـن هشام في الناس يبني المكرمات ويجمع
ليزور أثربَ بالجموع وإنمـا يبنى على الحسب القديم الأرفع[1]

ومن شعراء يهود (أوس بن دنى) القرظي . ذكر أن زوجته اعتنقت الإسلام في حياة الرسول ، وطلبت منه اعتناقه كذلك ، فقال :

دعتني إلى الإسلام يومَ لقيتها فقلت لها لا بل تعالي تَهودي
فنحن على توراة موسى ودينه ونعم لعمر الدين دين محمـد
كــلانا يرى أن الرشادة دينه ومن يهد أبواب المراشد يرشد[2]

وله أبيات أخرى ذكرها (نولدكه) في أثناء حديثه عن الشعراء اليهود[3] .

ولا نعرف من أمر (شريح بن عمران) شيئاً يذكر ، وقد روى له (ابن سلام) أربعة أبيات في المؤاخاة والصداقة ، والبخل والمال[4] . وروى (نولدكه) له بيتين من قافية أخرى في الصداقة والصديق وحفظ العهد ، هما :

آخ الكرام اذا وجدت الى اخائهم سبيلا
واشرب بكأسهم وان تشرب به السم الثميلا[5]

وروى له قوله :

يجلي منك اذا ما خنتني ليس لي في وصل خوان ارب
لا أحب المرء إلا حافظاً ربقة العهد على كل سبب[6]

---

١ نسب قريش (٣٠١) .
٢ الاغاني (١٩/٩٤) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٦٥) ،
Nöldeke, & Beiträge, S. 76.
٣ Nöldeke, Beiträge, S. 77.
٤ ابن سلام ، طبقات (٧٢) .
٥ Nöldeke, Beiträge, S. 79. f.
٦ Nöldeke, Beiträge, S. 80.

وروى (ابن سلام) أبياتاً من قصيدة تنسب الى (أبي قيس بن رفاعة)[1] ، قال (البكرى) : اسمه دينار ، وقيل انه : (أبا قيس بن رفاعة) الأنصاري ، فهو ليس من يهود . ومن شعره :

منّا الذي هو ما إن طرّ شاربه والعانسون ومنّا المرد والمشيب

ونسب لأبي قيس بن الأسلت الأوسي[2] .

وروى (ابن سلام) قصيدة على قافية الدال مطلعها :

هل تعرف الدار خفّ ساكنها بالحجر فالمستوى الى الثمد
دارٌ لبهنانةٍ خدلجةٍ تبسم عن مثل بارد البردِ

ذكر أنها لأبي الذيّال[3] . وأورد (البكري) له هذه الأبيات :

لم ترَ مثل يوم رأيته برعبل ما احمر الأراك واثمرا
وأيامنا بالكبس قد كان طولها قصيراً وأيام برعبل أقصرا
فلم أرَ من آل السموأل عصبة حسان الوجوه يخلقون المعذرا[4]

ودرهم بن زيد الذي يقول :

هجرت الرباب وجاراتها وهمك بالشوق قد يطرح
يمانية نازح دارها تقيم بغمدان لا تبرح[5]

وأورد (ابن هشام) قصيدة لرجل من يهود سمّاه (سمال) اليهودي ، يذكر فيها (بني النضير) مطلعها :

غداة غدوتم على حتفه ولم يأت غدراً ولم يخلف
بقتل النضير وأحلافها وعقر النخيل ولم تقطف

---

١ طبقات (٧٢) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧١٦) ، الامالي (٢/٦٧) .
٣ طبقات (٧٣) ، Nöldeke, Beiträge, S. 77. f
٤ Nöldeke, Beiträge, S. 79.
٥ ابن سلام ، طبقات (٧٤) .

وقد ردّ بها على قصيدة نسبت لعليّ بن أبي طالب على رأي ابن اسحاق ، أو لغيره من المسلمين على رأي (ابن هشام) مطلعها :

عرفت ومن يعتدل يعرف وأيقنت حقاً ولم أصدف[1]

ولما قال (كعب بن مالك) شعراً في اجلاء (بني النضير) وقتل (كعب ابن الأشرف) مطلعه :

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور

أجابه (سمال) اليهودي ، بقوله :

أرقت وضافني همّ كبير بليـل غيره ليل قصير
أرى الأحبار تنكره جميعاً وكلهـم له علـم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم بـه التوراة تنطق والزبور
قتلتم سيد الأحبار كعباً وقدماً كان يأمن من يجير
تدلى نحو محمود أخيـه ومحمـود سريرته الفجور[2]

وكان (مرحب) اليهودي من الشعراء ، ولما حاصر المسلمون (خيبر) خرج من حصنهم قد جمع سلاحه ، وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر اني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحينـاً أضرب إذا الليـوث أقبلت تحزب
إن حماي للحمى لا يقرب[3]

ونسب الى أحد اليهود بيت شعر ، خاطب فيه (مالك بن العجلان) بقوله:

تسقيت قبلـه أخلافهـا ففيمن بقيت وفيمن تسود

فأجابه (مالك) بقوله :

إني امرؤ من بني سالم بن عوف وأنت امرؤ من يهود

---

١ ابن هشام (١٧٩/٢) ، (حاشية على الروض) .
٢ ابن هشام (١٨٠/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .
٣ ابن هشام (٢٣٨/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

ولما هرب اليهود الى بيعهم وكنائسهم ، قال مالك :

تحاني اليهود بتلعانها تحاني الحمير بأبوالها
فماذا عليّ بأن يلعنوا وتأتي المنايا بأذلالها[1]

وفي المفضليات قصيدة لرجل يهودي لم يذكر اسمه مطلعها :

سلا ربة الخدر ما شأنها ومن أي ما فاتنا تعجب
فلسنا بأول من فاته على رفقة بعض ما يطلب[2]

ومن شعراء يهود (أبو أثاية) القرظي[3] ، و (أبو ياسر) النضيري[4] ، وأبو القرثع اليهودي[5] . و (عمرو بن أبي صخر بن أبي جُرثوم) اليهودي ، (أبو حمضة) . وله شعر في الجيران[6] ، و (كعب بن أسد بن سعيد) القرظي اليهودي ، من بني قريظة ، جاهلي ، له مع قيس بن الخطيم في يوم (بُعاث) مناقضات[7] ، و (مالك بن عمر النضيري) ، وهو جاهلي[8] .

وذكر (المعري) اسم شاعر يهودي ، ذكر ان اسمه (يُسمير بن أدكن) (سمير بن أدكن) ، من أهل خيبر ، قال شعراً لما أمر (عمر) باجلاء أهل الكتاب من جزيرة العرب ، هو :

يصول أبو حفص علينا بدرّة رويدك ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة ما قط لتشبع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم علينا ، ولكن دولة ثم تذهب

---

١ Th. Nöldeke, Beiträge, S. 83. ff.
٢ Th. Nöldeke, Beiträge, S. 84. f.
٣ المرزباني ، معجم (٥٠٧) .
٤ المرزباني ، معجم (٥١٥) .
٥ المرزباني ، معجم (٥١٣) .
٦ المرزباني (٥٩) .
٧ المرزباني ، معجم (٢٣٢) .
٨ المرزباني ، معجم (٢٦١) .

ونحن سبقناكم الى اليمن فاعرفوا لنا رتبة البادي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا[1]

وذكر ان (جبل بن جوال بن صفوان بن بلال بن أصرم بن إياس بن عبد غنم بن جحاش بن مجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان) الشاعر الذبياني ثم الثعلبي ، كان يهودياً مع (بني قريظة) وكان قد رثى (حيي بن أخطب) بأبيات منها :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

وقال بعض الناس انها لحيي بن أخطب نفسه . وذكر انه من ذرية (العطيون ابن عامر بن ثعلبة) (القطيون ؟) ، وكان يهودياً فأسلم ، وهو القائل لما فتح النبي خيبر :

رميت نطاة من النبي بفيلق شهباء ذات مناقب وفقار

وذكر انه هو القائل :

ألا يا سعد سعد بني معاذ لما فعلت قريظة والنضير
تركتم قدركم لا شيء فيها وقدر القوم حامية تفور

وزاد المرزباني فيها :

ولكن لا خلود مع المنايا تخطف ثم تضمنها القبور
كأنهم غنائم يوم عيد تذبح وهي ليس لها نكير

فأجابه حسان :

تعاهد معشراً نصروا علينا فليس لهم ببلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه فهم عمي عن التوراة بور
كذبتم بالقرآن وقد أبيتم بتصديق الذي قال النذير
وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير[2]

---

١ رسالة الغفران (٤٤١ وما بعدها) ، (بنت الشاطىء) .
٢ الاصابة (١/٢٢٣ وما بعدها) ، (رقم ١٠٧١) .

وأورد (أبو الفرج الاصبهاني) أبيات شعر، نسبها الى شاعرة يهودية سمّاها (سارة) القريظية ، ذكر أنها قالتها في رثاء قومها بعد أن قتل (أبو جبيلة) أشراف اليهود :

بنفسي أمة لم تغن شيئاً بذي حُرُض تعفيها الرياح
كهول من قريظة أتلفتهـا سيوف الخزرجيـة والرماح
رزئنا والرزيـة ذات ثقل يمر لأهلهـا الماء القراح
ولو أربُوا بأمرهم لجالت هنالك دونهم جأوى رداح[1]

وذكر (الجاحظ) بيتين نسبهما لشاعرة يهودية ، قالتها في نفث الرقيةوالعثار،هما:

وليس لوالدة نفثها ولا قولها لابنها دعدع
تداري غراء أحواله وربك أعلم بالمصرع[2]

وقد جمع (ديلتج) أشعار يهود وتحدث عن أصحابها[3] .

١ الاغاني (١٩/٩٦) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٤) ، Nöldeke, Beiträge, S. 52. ff.

٢ الحيوان (٦/٣٥٩) .

٣ Delitzsch, Jüdisch — Arabische Poesien aus Vormuhammedanischer Zeit, Lepzig, 1874.

الفصل السادس والستون بعد المئة

الشعراء النصارى

وحديثنا عن الشعر النصراني ، مستمد من الموارد الإسلامية . أما النصوص الجاهلية ، فليس فيها أي شيء عن هذا الموضوع . وأما النصوص الأعجمية ، فلم تحفل به أيضاً ، ولم تتطرق الموارد الإسلامية الى الشعر النصراني نفسه ، من حيث طبيعته ومادته ، وما امتاز به عن الشعر الوثني ، أو شعر الشعراء اليهود ، وما سنذكره عن الشعراء النصارى ، مستمد من أسماء آبائهم ومن أسمائهم التي تدل على كونهم من النصارى ومن الشعر المنسوب اليهم .

والشعراء النصارى الذين نص على نصرانيتهم أهل الأخبار ، مثل (عدي بن زيد) العبادي ، أو لم ينص على نصرانيتهم ، وانما يفهم من شعرهم ومن مواطنهم انهم كانوا نصارى ، هم من الحضر ، من سكان القرى ومن قبائل اشتهرت بتنصرها ، وقد وجدت النصرانية سبيلها الى مواطن الحضر والأعراب فأقامت (بيعاً) وكنائس للتبشير بالنصرانية ، ولتعليم أتباعها أمور الديانة،وللإشراف على ادارة شؤونهم الدينية ، وقد كان أكثر من قام بالتبشير من غير العرب في بادىء الأمر ، من روم ومن (بني إرم) ، ثم انضم اليهم رجال دين عرب ، كانوا قد تعلموا النصرانية في المدارس ، وأظهروا فهماً ونباهة فيها،فعينوا مبشرين ومعلمين لتعليم العرب والأعراب أصول النصرانية ، ولنشرها في جزيرة العرب ، وكان من المبشرين من يتنقل مع الأعراب ، لهم خيامهم ، يرتحلون بها من مكان الى مكان ، فعرفوا لذلك برهبان الخيام .

« وكانت تنوخ في المرتبة الأولى بين عرب البادية الذين عرفوا النصرانية قبل الإسلام بزمن طويل . وقامت جماعة تنوخ على أساس حلف عقده بنو فهم وبنو تيم اللات مع قبـائل من التزاريين وغيرهم . ومن شعراء تنوخ أسد بن ناعصة التنوخي ، الذي كان معاصراً لعنترة ، وكان مولعاً بالاكثار من الألفـاظ الغريبة في قصائده ، حتى كان الخليل نفسه يتشكك في تفسيرها في كتاب العين »[1] .

وقد كانت النصرانية واسعة الانتشار على عهد الرسول ، في قضاعة ، وربيعة وتميم ، وطيء ، وكان لها أتباع في القرى العربية ، وبين الأعراب، وبواسطتهم عرف العرب شيئاً عن النصرانية وعن رجالها الذين كانوا يقيمون في البيع ، أو يسيحون في البلاد ، ويرتحلون مع الأعراب طمعاً في تنصيرهم،وفي تعليم المتنصرين منهم أمور الدين . فقد كان بمكة نفر من التجار النصارى ، وجماعة من الرقيق الأسود والأبيض ، كانوا على النصرانية[2] ، وكان بيثرب بعض النصارى كذلك، وكذلك بالطائف . أما نجران ، فكانت من مراكز النصرانية المهمة في ذلك العهد. وقد ورد ان (طلق بن علي بن طلق بن عمرو) السحيمي الحنفي ، وهـو من سادة بني حنيفة باليمامة ، كان نصرانياً ، فلما ذهب الى المدينـة وشاهد الرسول أسلم أمامه ، فلما أراد العودة أخبر رسول الله ان بأرضهم بيعة ، فقال له الرسول ولمن معه : « اذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتـكم وابنوها مسجداً » ، فكسروا بيعتهم واتخذوها مسجداً ، ونضحوها بماء فضل طهور رسول الله ، وكانوا قـد جاءوا به في اداوة ، وكان يدير البيعة راهب من طيء ، فارتحل عنهم .

واذا صح هذا البيت المنسوب الى حسان :

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لما توارى في الضريح الملحد[3]

فإن فيه دلالة على وجود نصارى ويهود بالمدينة عند وفاة الرسول .

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر التحدث عن مدى تغلغل النصرانية في قلوب

---

١ بروكلمن (١/١٢٤) .

٢ الاستيعاب (٢/٢٣١) ، (حاشية على الاصابة) ، (طلق بن علي بن المنذر بـن قيس ...) ، خليفة بن خياط ، كتـاب الطبقات (٦٥) ، ابـن سعد ، طبقـات (٥/٤٠٢) ، أسد الغابة (٣/٦٣) .

٣ ديوان حسان (٥٩) ، (هرشفلد) .

النصارى في العرب . ولكننا نستطيع أن نقول قياساً على ما نعرفه من أحوال الأعراب وأحوال أهل القرى ، أي الحضر ، أن النصرانية كانت أوضح وأعمق جذوراً في نفوس أهل المدر ، منها في نفوس أهل الوبر . أما الأعراب فكانت نصرانيتهم اسمية في الغالب شأنهم شأن أعراب هذا اليوم ، وأعراب كل زمان ، متدينون بدين ، ولكنهم لا يعرفون من دينهم إلا الاسم ، دينهم الصحيح ، الذي يغلب على نفوسهم هو دين الفطرة ، أعني العرف الذي ولدوا ونشأوا عليه . ولكن الرهبان ورجال الدين كانوا يتنقلون بين القبائل لتنصيرهم، حاولوا جهدهم تعليمهم قواعد النصرانية وأصولها ، ومنها : عدم اغارة بعضهم على بعض ، والعيش بعضهم مع بعض بسلام ، حتى أنهم أثروا على بعض ساداتهم فحملوهم على الزهد والدخول في الرهبنة وكره الدماء ، فذكر مثلاً أنهم أثروا على (داوود ابن هبالة) سيد (بني سليح) ، من قضاعة ، فأدخلوه في النصرانية ، «وكره الدماء وبنى ديراً ، فكان ينقل الطين على ظهره والماء ، فسمي اللثق ، فنسب الدير اليه ، وأنزله الرهبان » ، واعتزل الغزو الى أن أمره ملك الروم به ، فلم يجد بداً من أن يفعل[1] . وقد كانت العرب تتهم القبائل العربية المتنصرة بعدم قدرتها على القتال ، وتستهين بها إذا ما التحمت بها في قتال .

والشعر النصراني ، شعر سهل لين بالنسبة الى شعر الشعراء الأعراب ، وقد علل علماء الشعر ذلك بكون هؤلاء الشعراء من سكنة القرى والأرياف ، ومن سكن القرية أو الريف لان لسانه ورق كلامه ، ولهذا قالوا إن في شعر شعراء القرى لا مثل أهل مكة ويثرب ليونة ، لأنهم لم ينبتوا في البوادي ، ولم يقاسوا ما يقاسيه الأعراب من خشونة وشدة وضنك في الحياة ، بل عاشوا في استقرار وأمان في حياة ناعمة بالقياس الى حياة الأعراب ، ولهذا لان لسانهم ، وسهل شعرهم ، وصار من السهل على صناع الشعر ومزوّريه صنع الشعر على ألسنتهم ، كالذي فعلوه من وضع شعر كثير على لسان (عدي بن زيد) العبادي النصراني، وعلى شعر أمية بن أبي الصلت ، وهو من شعراء ثقيف ، وعلى شعر (حسان ابن ثابت) ، وهو من شعراء يثرب .

ولا يختلف الشعر النصراني عن شعر الشعراء الوثنيين بشيء ، اللهم في تطرق

---

١ اسماء المغتالين (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) (ص ١٢٧) .

شعر (عدي بن زيد) وأضرابه الى معان دينية ، والى إشارات الى بعض معالم نصرانية . اما فلسفة نصرانية ، أو حديث عن التثليث أو عن العقائد النصرانية الأساسية التي تميز النصراني المتدين عن غيره ، فلا نجد لها ولا لأمثالها موضعاً في هذا الشعر . نعم لقد تطرق (عدي بن زيد) ، وكذلك الأعشى الى قصص مستمد من أصول نصرانية ، كما تطرق الى أعياد نصرانية ، ولكننا نجد في شعر غيرهم إشارات الى الأديرة والكنائس والرهبان والرهبنة ومصطلحات نصرانية وأشياء أخرى عرفوها من احتكاكهم بالنصارى ، ومن سماعهم شيئاً عن النصرانية من النصارى العرب ، تجعل من الصعب على الباحث أن يجد فرقاً كبيراً بين شعر الشعراء النصارى وشعر الشعراء الوثنيين . ولهذا ذهب بعض المستشرقين الى ان من الصعب التحدث عن وجود شعر نصراني عربي له ميزات امتاز بها عن الشعر الوثني قبل الاسلام[1] .

ومن النصارى (العباد) ، وهم عرب تنصروا ، ولم يكونوا من قبيلة واحدة، وانما كانوا من مختلف العرب . ولفظة (العباد) لفظة خصصت بنصارى الحيرة خاصة . ويذكر في « الحديث المسند : أبعد الناس عن الاسلام : الروم والعباد »[2]. ويظهر ان مرد ذلك ، هو ان الروم والعباد ، كانوا أصحاب ديانة ورجال دين ومؤسسات دينية منظمة ، ومدارس ، وثقافة ، فكان من الصعب عليهم وكلهم نصارى ، نبذ دينهم والدخول في الاسلام ، لا على نحو العرب الوثنيين ، الذين لم تكن لهم كتب دينية ، ولا منظمات دينية، وكل ما كان عندهم عرف وعادات وتمسك بأصنام جبلوا على عبادتها ، ولهذا كان تحولهم عنها أسهل من تحول العباد عن دينهم . وفي جملة (العباد) (بنو امرىء القيس بن زيد مناة) واليهم ينسب (عدي بن زيد)[3] .

وقد أدخل (كارلو نالينو) (أبا دؤاد) الإيادي في عداد الشعراء النصارى[4]،

---

١ George Graf, Geschichte der christlichen Arabischen Literatur, I, S. 32, Siegmund Fränkel, Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leiden, 1886, S. 267, Tor Andrae, Der Ursprung der Islams, S. 32. ff.

٢ الروض الانف (٥٣/١) .

٣ سيرة ابن هشام (٥٣/١) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٥٣/١) .

٤ كارلو نالينو (٨٩) .

ولكني لم أجد في شعره الى ما يشير الى تنصره ، فلعلّه أدخله في النصرانية ، لما عرف عن انتشارها بين إياد ، وهو (أبو دؤاد جارية بن الحجاج) ، ويقال: (جويرية بن الحجّاج بن يحمر بن عصام بن منبّه بن حذافة بن زهر بن إياد بن نزار بن معد) ، وقيل : (حنظلة بن الشرقي) شاعر قديم من شعراء الجاهلية، ركان وصّافاً للخيل ، وأكثر أشعاره في وصفها . ذكر أهل الأخبار أن « ثلاثة كانوا يصفون الخيل لا يقاربهم أحد : طفيل،وأبو دؤاد ، والنابغة الجعدي . فأما أبو دؤاد ، فإنه كان على خيل المنذر بن النعمان بن المنذر ، وأما طفيل فإنه كان يركبها ، وأما الجعدي فإنه سمع من الشعراء فأخذ عنهم » . وقال (أبو عبيدة) : « أبو دؤاد أوصف الناس للفرس في الجاهلية والإسلام ، وبعده طفيل الغنوي والنابغة الجعدي »[1] . وله شعر في المدح والفخر ، لكن شعره في الخيل أكثر[2] . ومما يلفت النظر ، أن يكون أكثر شعر أبي دؤاد في وصف الخيل ، ثم يكون مدحه لقومه بأنهم (أهل البغال) . حيث ورد في شعر هو :

نشدتكم بالله يا أهل البلد   هل سابق فيكم لمجد من أحد

إلا إياد بن نزار بن معدّ   أهل البغال والقباب والعدد

ما سامهم في الدهر ملك بعقد[3]

وإني أشك في هذا الشعر،فأسلوبه لا يدل على أنه من أساليب شعراء الجاهلية، ولا سيما الشطر الأول من البيت الأول ، ثم إن هذا النسب المسطور في الشطر لأول من البيت الثاني ، هو نسب ظهر في الإسلام ، وعرف في أيام الأمويين .

وذكر ان (الحجاج) كان معروفاً بـ (حمران) . ولذلك قيل لأبي دؤاد : (جارية بن حمران) . وقيل له : (حارثة بن الحجاج) ، كما قيل له : (جريرة) ، و (حوثرة) ، ويظهر ان مصدر هذا الاختلاف هو وقوع النساخ في أخطاء في أثناء تدوين الاسم ، فاختلط الأمر عليهم بين (جارية) و (حارثة) ،

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٥٩) ، تاج العروس (٢/٣٤٧) ، (داد) ، الاغاني (١٥/٩١) ، الخزانة (٤/١٩٠) ، المؤتلف والمختلف (١١٥) ، الموشح (٧٣) ، الاغاني (١٦/٩١ وما بعدها) ، (ساسي) ، الشعر والشعراء (١/١٦١ وما بعدها) ، العيني (٢/٣٩١) .

٢ الاغاني (١٥/٩٥) ، غرونباوم (٢٦٢) .

٣ غرونباوم (٣٠٢) ، وهو من الرجز ، منقول من جمهرة ابن الكلبي ، الورقة ٣١ أ .

وبين (جويرة) ، و (جريرة) ، و (حوثرة)[1] ، وهو اختلاف طالما نجده في أسماء وفي ألقاب الأشخاص الجاهليين ، يقع بسبب التصحيف .

وهو من (بني حذاقة) ، كما يظهر من شعر ينسب لطرفة ، وقد أشار (أبو دؤاد) في القصيدة الميمية التي تنسب اليه الى (حذاق) بقوله :

من رجال من الأقارب فادوا من حُذاق، هم الرؤوس الكرام[2]

وحذاق قبيلة من إياد .

وكان شاعرنا من إياد ، وقد تزوج امرأة من قبيلته ، ماتت بعد أن تركت له صبياً اسمه (دؤاد) ، فتزوج امرأة أخرى ، طلقها لأنها كانت تمقت ابنه ، وكان ابنه شاعراً ، رثى والده يوم وفاته . وقد تزوج (أبو دؤاد) امرأة أخرى هي (أم حبتّر) لكنها طلقته لتبذيره وإسرافه ، وللخصومات التي كانت تقع بينهما[3] . ويظهر انه ترك ابنة اسمها (دؤادة)[4] .

وقد ذهب (بروكلمن) الى انه كان من المعاصرين للمنذر بن ماء السماء، الذي قدر وقته فيما بين حوالى (٥٠٦) و (٥٥٤) للميلاد[5] . وذهب (فون غرونباوم) الى انه كان حياً من سنة ٤٨٠ الى حوالى (٥٤٠ — ٥٥٠) للميلاد[6] .

وقد ورد اسم (أبو دؤاد) في شعر (طرفة) ، كما ذكره (الأسود بن يعفر) ، الشاعر نديم (النعمان بن المنذر) ، حيث يقول :

ماذا أؤمل بعد آلِ محرق تركوا منازلهم ، وبعد إياد

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

---

١ « وابو دؤاد الايادي ، وهو حوثرة بن الحارث بن الحجاج » ، اليعقوبي (٢٣٣/١) ، (طبعة النجف) ، العيني (٤٤٥/٣) ، غوستاف فون غرونباوم ، دراسات في الادب العربي (ص ٢٥٥) .

٢ الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، الخزانة (١٩١/٤) ، (بولاق) .

٣ الاغاني (٩٥/١٥ وما بعدها) ، غرونباوم ، دراسات (٢٥٨) ، الامدي ، المؤتلف (١١٦) .

٤ الاغاني (٩٨/١٥ وما بعدها) ، غرونباوم ، دراسات (٢٥٨ وما بعدها) .

٥ بروكلمن (١١٨/١) .

٦ دراسات في الادب العربي (٢٥٦ وما بعدها) .

نزلوا بأنقرةٍ يسيـلُ عليهمُ   ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض تخيرهـا لطيب مقيلها   كعب بن مامة وابن أم دؤاد[1]

وكعب بن مامة من إياد،وابن أم دواد ، هو الشاعر أبو دؤاد (أبو دواد) الإيادي . و (انقرة) موضع بالعراق على مقربة من الحيرة[2] . ويظهر من هذا الشعر ، أن (إياداً) ، أو فرعاً منها ، نزلوا بأنقرة ، بزعامة كعب بن مامة والشاعر أبو دؤاد .

وكان في عصر (كعب بن مامة) الإيادي ، الذي آثر بنصيبه من الماء رفيقه (النمري) فمات عطشاً ، فضرب به المثل في الجود ، وبلغه عنه شيء فقال :

وأتاني تقحيم كعبٍ الى المنطقِ إن النكيثة الأقحام
في نظام ما كنت فيه فلا يحزنك قولٌ ، لكل حسناء ذام
ولقد رابني ابن عمي كعبٌ إنه قد يروم ما لا يرام
غير ذنب بني كنانة مني ان أفـارق فإنني مجذام

وكان بعض الملوك أخافه ، فصار الى بعض ملوك اليمن فأجاره فأحسن اليه، فضرب المثل بجار أبي دؤاد ، قال طرفة :

إني كفاني من همٍ هممت به   جار كجارِ الحذاقي الذي انتصفا

والحذاقي هو (أبو دؤاد) ، والحذاق قبيلة من إياد .

ويقال : انما أجاره الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وذلك ان قباذ سرّح جيشاً الى إياد ، فيهم الحارث بن همام ، فاستجار بـه قوم من إياد فيهم أبو دؤاد ، فأجارهم .

وذكر ان جار (أبي دؤاد) هو كعب بن مامة[3] ، وكان (أبو عبيدة)

---

١ الشعر والشعراء (١٧٦/١) ، (الاسود بن يعفر) .
٢ تاج العروس (٥٨٢/٢) ، (نقر) .
٣ الشعر والشعراء (١٦١/١ وما بعدها) ، الخزانـة (٤٠٨/١ وما بعدهـا) ، (بولاق) .

يذكر ان جار (أبي دؤاد) ، هو (كعب بن مامة) ، وأنشد لقيس بن زهير ابن جذيمة في ربيعة بن قُرط :

أحاول ما أحاول ثم آوي الى جارٍ كجارِ أبي دؤاد[1]

ويظهر أن (قباذ) لما أرسل جيشاً على (إياد) هربت من مواطنها فأجارها (الحارث بن همام) . وورد في رواية أن جَدْباً حل بإياد ، فاضطرت بطونها على الارتحـــال الى مواضع أخرى ، وكانت لهم ناقة اسمها (الزباء) ، كانوا يتبركون بها ، فخرجت تلتمس لهم الخصب والمرعى ، حتى بركت بالحارث بن همام ، فنزلت إياد عنده ، وأجارهم[2] .

وتذكر رواية أن (الحارث بن همام) ودى ابناً لأبي دؤاد : غرق حين كان أبو دؤاد في جواره ، فدحـــه . فحلف الحارث أنه لا يموت لأبي دؤاد ولد ، إلا وداه ، ولا يذهب له مال إلا أخلفه عليه[3] .

ويرى (غرونباوم) أن (أبا عبيدة) ، هو الذي صيّر (كعب بن مامة) الإيادي جار (أبي دؤاد) ، وقد تابعه من جاء بعده على ذلك ، فصار (كعب) بذلك مجير شاعرنا ، بينما هو (الحارث بن همام)[4] . وسبب ذلك أن (كعباً) كان قد اشتهر بالكرم والإيثار وتقديم الغريب على نفسه ، حتى أنه ضحى بنفسه في سبيل صاحبه (النميري) حتى فضله بعض أهل الأخبار على (حاتم) الطائي في الجود[5] . ثم إن كعباً من إياد ، فربما فضل بنو إياد أن يكون منهم أسخى وأكرم رجل في العرب ، عـــلى أن يكون من غيرهم ، ولذلك افتخروا به ، فنسبوا الجوار له ، وحذفوه من (الحارث بن همام) ، وهو من (بني شيبان).

وهناك رواية تجعل (المنذر) جاراً لأبي دؤاد ، لأنه ودى أبناء (أبي دؤاد)، ودى كل ابن بمائتي بعير ، حينما قتلهم (رقبة بن عامر) البهراني ، وكان رقبة

---

١ الشعر والشعراء (١٦٢/١) .
٢ غرونباوم ، دراسات (٢٥٩) .
٣ المصدر نفسه (٢٥٩) .
٤ غرونباوم ، دراسات (٢٥٩ وما بعدها) .
٥ البخلاء ، للجاحظ (١٥٨ ، ٢١٨ ، ٣٨٢) ، ثمـــار القلوب (٩٨ ومـــا بعدها) ، المحاسن والاضداد (٥٤) ، الحيوان (٣٧/٢) ، البيان والتبيين (١١٢/١) .

في جوار المنذر[1] . وذكر (البغدادي) ، ان أحد الملوك أحسن الى (أبي دؤاد) وأجاره ، فضرب المثل بجار (أبي دؤاد) ، ولم يذكر اسم الملك . قال طرفة:

إني كفاني من أمر هممت به جار كجار الحذاقي الذي انتصفا[2]

وقد ذكر (البغدادي) في الجزء الأول من الخزانة في تفسير بيت قيس بن زهير بن جذيمة :

أطوّف ما أطوّف ثم آوي الى جار كجار أبي دواد

« وأبو دواد ، هو أبو دواد الإيادي الشاعر المشهور ، وجاره كعب بن مامة الإيادي ، الجواد المشهور ، وقيل : بل هو الحارث بن همام بن مرة ، وكان أسر أبا دواد ناساً من قومه ، فأطلقهم وأكرم أبا دواد وأجاره فمدحه أبو دواد وأعطاه ، وحلف أن لا يذهب له شيء إلا أخلفه له . ويقال ان ولد أبي دواد لعب مع صبيان في غدير فغمسوه فمات ، فقال الحارث : لا يبقى صبي في الحي إلا غرق . فودى ابنه بديات كثيرة »[3] .

ونسب بعض رواة الشعر اليه القصيدة التي أولها :

أعنّي على برقٍ أراه وميض يضيء حبياً في شماريخ بيض

وهي قصيدة تنسب أيضاً الى (امرىء القيس)[4] .

ونسب (الأصمعي) له قوله :

ويصيخ أحياناً كما استمع المضل دعــاء ناشد[5]

وقد تمثل بشعره ، ومما تمثل به قوله :

أكل امرىء تحسبيــن امرءاً ونارٍ تحرق بالليــل نارا

---

١ الاغاني (١٥/٩٩) ، غرونباوم (٢٦٠) .
٢ الخزانة (٤/١٩١) .
٣ الخزانة (١/٤٠٨) ، (بولاق) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٠٣) .
٥ رسالة الغفران (٤٠٩) .

وقوله :

الماء يجري ولا نظام له   لو وجدَ الماء مخرقاً خرقه[1]

ومن شعره :

ترى جارنا آمنـاً وسطنا   يروح بعقدٍ وثيق السبب
إذا ما عقدنا له ذمـة   شددنا العناجَ وعقد الكرب

أخذه الحطيئة ، فقال :

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم   شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكربا

وكان الحطيئة من المقدرين لشعره . قيل له من أشعر الناس ؟ فقال : الذي يقول :

لا أعد الإقتارَ عَدماً ولكن   فقدُ من قد رزئتـه الأعدام

من قصيدة تعدّ من أجود شعره[2] .

ومن شعره قطعة هجا فيها رجـلاً اسمه (امرؤ القيس بن أروى) ، إذ يقول فيه :

امرأ القيس بن أروى مُولياً   ان رآني لأبوأنْ بسبـد
قلت بجلاً ،قلت قولاً كاذباً   إنما يمنعني سيفي ويد[3]

وقد وضع (غرونباوم) قبل هذين البيتين : بيتاً هو :

وفتو حسن أوجههـم   من إياد بن نزار بن معد[4]

---

١ الشعر والشعراء (١٦٣/١) ، (الثقافة) ·
٢ الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، (الثقافة) ·
٣ اللسان (٢٠٢/٣) ، (بحرا) ، (سبد) ، (بجرا) ، تاج العروس (٣٧٠/٢) ، (سبد) · وقد ورد البيتان على هذه الصورة : « قال أبو دؤاد الايادي :
امرؤ القيس بن أروى مقسم   ان رآنـي لأبـوأن بفنـد
قلت بجلا قلت قـولا كاذبا   انما يمنعني سيـف ويـد »
تاج العروس (٢٣١/٧) ، (بجل) ·
٤ غرونباوم ، دراسات (٣٠٥) ·

وقد ورد في (اللسان) وفي (التاج) على هذه الصورة :

في فتو حسن أوجههم من إياد بن نزار بن مضر[1]

وعندي ان هذا البيت من الشعر المصنوع ، لأن هذا النسب ، لم يعرف إلا في الاسلام ، ولا يوجد دليل يثبت وقوف الجاهليين عليه . وهو على الصورة التي ورد عليها في لسان العرب وفي تاج العروس خطأ ، لأن نزاراً ليس ابن مضر في عرف أهل الأنساب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك في باب العرب المتعربة .

وقد نسب هذا البيت الى (الحارث بن دوس الإيادي)[2] .

ونجد الشاعر يرثي رجلاً اسمه (أبو بجاد) ، نعته بـ (أبي الأضياف في السنة الجماد) ، وهذا الوصف هو من الأوصاف الدالة على غاية الكرم ، إذ يلجأ الناس اليه في أيام الجوع وانحباس المطر وحصول القحط ، حيث يجب أن يبخل الانسان بماله من الإسراف في انفاقه ، أما هو فلكرمه لا يحفل بسنة المحل سنة الجماد ، بل يعطي وينفق على كل من يلجأ اليه مستجيراً . ولا نعلم من خبر (أبي بجاد) هذا شيئاً يذكر[3] . وقد ورد في (تاج العروس) : « وأبو البجاد شاعر سمي ببيت قاله :

فويل الركب إذ آبوا جياعاً ولا يدرون ما تحت البجاد »[4]

ولكن هل توجد صلة بين (أبي بجاد) الممدوح ، وبين (أبي البجاد) الشاعر ؟ وجوابي : لا .

وقد أشار (أبو دؤاد) الى قتال وقع بين (بني شهران) وبين قوم آخرين لم يشر الى اسمهم ، وذلك في هذا البيت :

وكّت رجال بني شهران تتبعها خضراء يرمونها بالليل من شمم[5]

١ اللسان (٣/٧٧) ، (أيد) ، تاج العروس (٢/٢٩٣) ، (آد) .
٢ العمدة (٢/٧٩) .
٣ تاج العروس (٥/٩٩) ، (حض) ، اللسان (٩/١١٦) ، (حض) .
٤ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .
٥ غرونباوم ، دراسات (٥٦) .

وينسب رواة الشعر له شعراً زعم أنه قال فيه :

ضربنا عـلى تُبع جزية جياد البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هـارباً وكان جباناً كثير الكذب
واتبعتـه فهوى للجبين وكان العزيزُ لها من غلب[1]

وتبع ، لقب يطلقه العرب على ملك حمير ، فيقولون تبابعة اليمن ، يريدون ملوك اليمن . والتبع (أبو كرب) هو الملك : (أبو كرب أسعد) وهو ابن الملك (ملك كرب يهأمن) ، الـذي حكم من سنة (٣٨٥) حتّى السنة (٤٢٠) للميلاد[2] . ولكـن كيف ضربت (إياد) الجزية على (تبع) ، وكيف وصل الشاعر الى اليمن البعيدة عن إياد ؟ قد يقال إنه أشار الى غزو قام به أحد ملوك الحيرة على (أبي كرب أسعد) ، تبع اليمن ، انتصر فيه ملك الحيرة عـلى التبع ، وكان هو وقومه قد ساهموا فيه ، ولكننا لا نستطيع التأكـد من ذلك ، إذ من يثبت لنا أن هذا الشعر هو شعر صحيح ، لم تصنعه العدنانية عـلى لسانه في الإسلام حتّى نصدق بصحة الخبر !

ونجد في شعره إشارة الى (قباذ) ، والى (الحضر) ، إذ يقول :

أين ذو التاج والسرير قبـاذ خبنته الأيام فبادَ احدى الحُبُون
ولقد عاش آمنـاً للدواهي ذا عتاد وجـوهر مخزون
وأرى الموت قد تدلى من الحضر على ربّ أهلـه الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملكٍ ونعيمٍ وجـوهر مكنـون
ملك الحضر والفرات فما دجلةً شرقـاً فالطور من عابديـن
ولقـد كان في كتائب خُضر وبـلاطٍ يشاد بالآجـرون[3]

و (قباذ) ملك من الساسانيين حكم من سنة (٤٨٣ – ٥٣١) بعد الميلاد ، وأما (الساطرون) فقد تحدثت عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب[4] .

---

١ غرونباوم ، دراسات (٢٩١) .
٢ راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب (ص ٥٧٤) .
٣ حماسة البحتري (٨٧) ، تـاج العروس (٢/٢٦١) ، (٩/٢١٤) ، الامـالي ، للشجري (١/١٠٠ ، ٣٦١) ، غرونباوم ، دراسات (٣٤٥) .
٤ (٦١٥ وما بعدها) .

ولدينا قطعة من الشعر نسبت اليه ، وردت فيها أسماء مواضع مثل : (هضب ذي الأسناد) ، و (السيلحين) ، و (برقة الأثماد) ، ثم أشار الى معركة وقعت بين (إياد) قومه وبين (تنوخ) انتصفت فيها (إياد) من تنوخ ، إذ يقول :

ولقد صبّبن على تنوخٍ صبّة فجزينهم يوماً بيوم قحاد[1]

وكان علماء العربية لا يستشهدون بشعر (أبي دؤاد) ولا بشعر (عدي بن زيد العبادي) ، لأن ألفاظها ليست بنجدية[2] .

ذكر (الجاحظ) ان (أبا إياس) النصري ، وكان أنسب الناس ، كان يقول : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دواد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي »[3] . ويروي (الأصمعي) ان الرواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ، ولمخالفتهما مذاهب الشعراء[4] ، ولم يكن (الأصمعي) ممن يهوى اليه كثيراً ، بدليل انه جعل شعره صالحاً غير انه لم يجعله في عداد فحول الشعراء[5] .

وورد في الأخبار ان (الحطيئة) ، كان يرى انه أشعر الناس . فقد ورد ان (سعيد بن العاص) سأل (الحطيئة) : أي الناس أشعر ؟ قال : الذي يقول:

لا أعد الإقتار عُدماً ولكن فقد من قد رزئته الأيام

وقائل هذا البيت ، هو أبو دواد الإيادي[6] .

وكان (أبو الأسود) الدؤلي ، وهو من الحذّاق العالمين بالشعر ، يتعصب له[7].

---

١ غرونباوم (٣١٠ وما بعدها) ، وقد أشار الى الموارد التي أخذ منها تلك الابيات .
٢ الشعر والشعراء (١٢٠) ، الاغاني (٩١/١٦ وما بعدها) ، الموشح ، للمرزباني (٧٣) ، الجرجاني ، الوساطة (٤٧) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٩/١ ، ١٢٦) ، الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، (دار الثقافة) .
٣ البيان والتبيين (٣٢٣/١) .
٤ الاغاني (٩٧/١٥) ، الخزانة (١٩١/٤) ، الموشح (٧٣) .
٥ غرونباوم (٢٦١) .
٦ رسالة الغفران (٥٧٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٦٠/١) .
٧ غرونباوم (٢٦١) .

وكانت (إياد) تفخر بشاعرها (أبي دؤاد) ، وتقول : منّـــا أجود العرب : كعب بن مامة ، ومنّا أشعر الناس : أبو دؤاد ، ومنّا أنكح الناس: ابن الغز[1] . وقد ادعت إياد أن الشعر بدأ بها ، لأنه بدأ بأبي دؤاد[2] .

وقد استشهد علماء شواهد النحو ببيت له ، هو :

ربما الجامل المؤبل فيهم   وعناجيج بينهن المهار

وقد ذكر السيوطي أنه من قصيدة طويلة عدتها ثمانية وسبعون بيتاً[3] .

وقد عدّه بعض أهل الأخبار في الشعراء المقلين[4] . ونجد له شواهد في الاتعاظ والأمثال وفي الشعر الجيد وفي أمور النحو ، وفي البديع[5] . « ولدينا أحد عشر مطلعاً لإحدى عشرة قصيدة من قصائد أبي دؤاد وكلهـــا مصرّعة »[6] . ويرى (غرونباوم) قلة ما في شعر (أبي دؤاد) من الإقواء ، فلم يقف في شعره إلا على اقواءين ، ووجد بيتين ، أحدهما من الرجز والآخر من الوافر ، يبدو فيهما شيء من عدم الاستواء . وله مزايا خاصة استعملها في تفعيلات الخفيف . وأرى أن التشعيث الذي لاحظه (العيني) في الأصمعية (٧٢) ، « لا يعد خطأ ، بل هو مظهر من مظاهر التطور الفني في هذا الوزن ، مظهر استنكر أو نسي مع الزمن حين ظهر علم العروض ، بعد حوالى قرنين من وفاة أبي دؤاد »[7] .

وقد شرح ديوان (أبي دؤاد) العالم (ابن السكيت) ، وقد نقل منـــه (البغدادي) في الخزانة[8] . وقد ذكر (البغدادي) ان (لأبي دؤاد) ديواناً وقف عليه وأخذ منه ، غير انه لم يذكر اسم جامعه[9] . وفي الشعر المنسوب اليه

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٥٩/١) ، الاغاني (٩٧/١٥ وما بعدها) .
٢ المزهر (٤٧٧/٢) ، (تنقل الشعر في القبائل) .
٣ الخزانة (١٨٩/٤ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ المزهر (٤٨٦/٢) ، (المقلون من الشعراء) .
٥ راجع البيت الخامس عشر من الاصمعية ٢٩ ، والبيت الثالث من القطعـــة (٤٨) ، غرونباوم (٢٦٢) ، الباقلاني ، اعجاز (٧٩) ، النويري (١١٢/٧) .
٦ غرونباوم (٢٦٦) .
٧ غرونباوم (٢٦٧ وما بعدها) .
٨ الخزانة (١٩٠/٤) .
٩ الخزانة (٩٠/١) .

شعر مصنوع ، وقد ذُكر ان (خلف الأحمر) صنع على أبي دؤاد أربعين قصيدة[1] . ونجد في الشعر الذي جمعه (غرونباوم) لأبي دؤاد شعراً لا يصح انه من شعره ، كما ان في شعره ما نسب لغيره ، ومنهم شعراء من إياد ، مثل (أبي المنذر) الإيادي[2] .

ومن شعراء (إياد) : (لقيط بن يعمر) ، وقيل (معمر) الإيادي . وإياد من قبائل (نزار) ، ومن أكثر قبائل هذا الحلف عدداً ، قيل انهم كانوا لقاحاً لا يؤدون خرجاً ، وهم أول معدي خرج من تهامة ، فنزلوا السواد ، وغلبوا على ما بين البحرين الى (سنداد) و (الخورنق) . وكانوا أغاروا على أموال لأنوشروان فأخذوها ، فجهز اليهم الجيوش ، فهزموهم مرة بعد مرة ، ثم ان إياداً ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة ، فوجه اليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً في السلاح ، وكان (لقيط) متخلفاً عنهم بالحيرة ، فكتب اليهم :

سلام في الصحيفة من لقيط ... الى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد
أتاكم منهمُ ستون ألفاً ... يُزجون الكتائب كالجراد

فاستعدت إياد لمحاربة جنود كسرى ، ثم التقوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، أصيب فيه من الفريقين ، ورجعت عنهم الخيل ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فلحقت فرقة بالشام ، وفرقة رجعت الى السواد ، وأقامت فرقة بالجزيرة . ونسبوا له قصيدة أخرى ، ذكروا انه نظمها في هذه القصيدة[3] . من جملة ما ورد فيها :

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا قد ينال الأمرَ من فزعا
هيهات ما زالت الأموال من أبد ... لأهلها إن اصيبوا مرة تبعا

ومنها قوله في اختيار الرئيس وتدبير الحرب والانصياع للقائد :

وقلدوا أمركم لله دركمُ ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

---

١ غرونباوم (٢٦٠) ، الموشح (٢٥٢) .
٢ غرونباوم (٢٨١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١٢٩/١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٣/٢٠) ، بروكلمن (١١٢/١) .

لا مترفاً إنْ رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به جزعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون مُتبعاً طوراً ومُتّبعا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم السنّ لا قحماً ولا ضرعا[1]

وأنا إذ أذكر (لقيط بن يعمر) في هذا الفصل ، فلا أريد بذلك اثبات انه كان من الشعراء النصارى ، لأني لا أملك نصاً بذلك ، إنما أدخلته هنا لمجرد أنه شاعر من شعراء إياد ، كما أدخلت (أبا دؤاد) الإيادي فيه لما ذهب (نالينو) الى أنه من النصارى ، وقد كانت النصرانية متفشية في إياد وتغلب ، وقبائل أخرى من قبائل العراق وبلاد الشأم ، والبادية التي بينها .

أما (عدي بن زيد) العبادي ، فهو نصراني من غير شك ، فالعباديون ، نصارى ، وقد أطلقت اللفظة عند العرب على النصارى ، نصارى الحيرة ، كما نص أهل الأخبار على تنصره . وقد كان شعره سهلاً ليناً ، بعيداً عن شعر شعراء نجد ، قال (الأصمعي) : « كانت الرواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتها مذاهب الشعراء »[2] أو « لأن ألفاظها ليست بنجدية »[3] . وقد روى (الجواليقي) له شعراً في كتابه (المعرب)،وهو كتاب ألفه في المعربات، وفي استشهاده بشعره دلالة على تأثره بالآرامية وبالفارسية التي درسها في (الكتاب)[4].

واذا أخذنا بمذهب (الأصمعي) من ان الرواة كانت لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد ، لمخالفتها مذاهب الشعراء ، وما ذكره غيره لأن ألفاظها ليست نجدية ، ولأن عدياً سكن الريف ، فلان شعره وبان ذلك على لسانه ، ولأنه تأثر بلغة أهل الحيرة ، واستعمل ألفاظهم ، وما شاكل ذلك من حجج ، وجب علينا رفض الاستشهاد بشعر (أمية بن أبي الصلت) كذلك ، فقد كان من أهل قرية ، وقد استعمل في شعره ألفاظاً لم تعرفها العرب ، وقرأ الكتب ، كما يجب إدخال (الأعشى) معها أيضاً ، لأنه خالط أهل الريف ، واتصل بالحضر وبالأعاجم ، واستعمل في شعره ألفاظاً معربة ، كما اختلف مذهبه في الشعر عن

---

١ بلوغ الارب (٣/١١٤ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/١٣٠) .
٢ الاغاني (٢/١٨) ، (١٥/٩١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٦٢) .
٤ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (٩٠) .

مذهب شعراء البادية الأعراب ، فضلاً عن كونه من أهل اليمامة ، وأهل اليمامة ممن اختلط لسانهم بلسان أهل اليمن ، وتأثر بهم .

ويخالف شعر (عدي) شعر شعراء نجد في ابتعاده عن الأعاريض الطويلة وميله الى الأعاريض القصيرة ، كما يخالفهم في أسلوب خمرياته ، فهو في وصفه الخمر قريب من أسلوب (الأعشى) في الخمريات . وله أوصاف بديعة للخمر ، تعبر عن معان حضرية ، نابعة من طبيعة القرى والريف ، وبهذا الوصف اختلف عن وصف امرىء القيس أو غيره من الشعراء للخمر . كما امتاز بوصفه القيان ومجالس الشرب ، وما كانت تولده له من نشوة وطرب ، واتخذ (عدي) من الخمر ، فلسفة دفعته الى الزهد ونبذ الغرور ، لأن الدنيا زائلة ، وكل شيء فيها لا بد وأن ينتهي الى زوال . وهو شعر انبثق من طبيعة (عدي بن زيد) ثم من الأحوال التي مرت عليه ، والتي انتهت به الى السجن ، بعد أن وصل أعلى ما يصل اليه إنسان في زمانه وفي مكانه .

واتخذ (عدي) من القصص القديم عبراً وجهها من سجنه الى (النعمان) والى الشامتين به ، الحاسدين له ، الذين كانوا سبب نكبته ، بأن قال :

أيها الشامت المعير بالدهـ   ـر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ   ـام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من   ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر   وان أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوك الـ   ـروم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ   ـلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ   ـساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ   ـملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ شـ   ـرّف يوماً وللهدى تفكير
سرّه ماله وكثرة ما يمـ   ـلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال : وما غبـ   ـطة حي الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأ   مة وارتهم هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جـ   ـف فألوت به الصبا والدبور[1]

١ الشعر والشعراء (١/١٥٠ وما بعدها) .

وله شعر آخر أوله :

أتعرف رسم الدار من أم معبد نعم ، فرماك الشوق قبل التجلد

قال فيه :

أعاذل ما يــدريك أن منيّتي الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
ذريني فإني انمــا ليّ ما مضى أماميّ من مالي إذا خف عودي
وحمّت لميقــات إليّ منيــتي وغودرت قد وسدت أو لم أوسّد[1]

وهو شعر نبع من واقع حاله الذي صار اليه ، فهو لا يدري متى وفي أيــة ساعة ستأتيه منيته . ومن زج في سجن مثل سجنه ، وصار في حال مثل حاله ، يكون قلقاً لا يدري ما الذي سيكون مصيره ، فهو شعر يعبر عن شعور انساني ينتاب الانسان في مثل هذه المواقف ، ليس له علاقة بنصرانية أو بدين .

والشعر المذكور إن صح انه من شعر (عدي) ، وانه غير مصنوع ولا معمول عليه ، يكون قد قدم لنا قصصاً قديماً من قصص أهل الجاهلية، وحكايات كانوا يروونها من حكايات التأريخ ، ويكون بذلك شاهداً على ان أهل الحيرة، والمثقفين منهم بصورة خاصة كانوا يعرفون تأريخ الماضين ، وقد وقفوا على تأريخ الفرس وتأريخ الروم ، والحضر ، وتأريخ غيرهم من شعوب معاصرة لهم، ومن شعوب غابرة ، وردت أخبارها في الكتب القديمة ، ولا سيا في الكتب المقدسة وفي كتب التواريخ . فنحن نجد له قصيدة أشار فيها الى خطيئة آدم ، وهذه الخطيئة تلعب دوراً خطيراً في كل الأديان السماوية المعروفة التي أقرت بالكتب المقدسة ، وقد صاغ قصتها على هذا النحو :

قضى لستة أيّام خليقتــه وكان آخرها أن صوّر الرجلا
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
ثُمتَ أورثهُ الفردوسَ يعمرها وزوجه صنعة من ضلعه جعلا
لم ينههُ ربّهُ عن غير واحدة من شجرٍ طيّب: أن شمّ أو أكلا
فكانت الحيّة الرقشاء إذْ خلقت كما ترى ناقة في الخلق أو جملا
فعمدا للتي عن أكلها نُهيــا بأمر حواءَ لم تأخذ له الدّغلا
كلاهما خــاط إذْ بزّا لبوسهما مِنْ ورق التين ثوباً لم يكن غزلا

فلاطَها الله إذ أغوت خليفتهُ — طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشي على بطنها في الدهر ما عَمِرت — والترب تأكله حزناً وإن سهُلا
فأتعبا أبوانا في حياتهما — وأوجدا الجوع والأوصاب والعِللا
وأوتيا الملكَ والانجيل نقرأه — نشفي بحكمته أحلامنا عللا
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا — فوق البرية أرباباً كما فعلا[1]

والشعر هذا مذكور في كتاب (الحيوان) للجاحظ ، وفي ذكره له ، دلالة على أنه قد كان معروفاً في أيامه ، وهو يستند على ما ورد في (سفر التكوين) السفر الأول من أسفار التوراة ، وفيه قصة الخليقة ، ونجد قصة (الحية) في في شعر (أمية بن أبي الصلت) ، حيث يقول :

كذي الأفعى تَربَّبَها لديه — وذي الجنى أرسلها تساب
فلا ربّ البريّة يأمننها — ولا الجني أصبح يستتاب

وقد دوّن هذين البيتين (الجاحظ) كذلك في كتابه : (الحيوان) ، مما يدل على أنهما كانا معروفين ، وهما من قصيدة ذكرها الجاحظ قبلها في رطوبة الحجارة ، وأن كل شيء قد كان ينطق ، ثم عن منادمة الديك الغراب، واشتراط الحمامة على نوح[2] .

وقصة (عدي) قصة أوضح وأقرب الى الأصل المذكور في الاصحاحات الثلاثة الأولى من سفر التكوين ، من القصة المذكورة في الشعر المنسوب الى (أمية) . يظهر أن ناظمها قد صاغها عن مطالعة وعن إلمام عام بها . فهي في الواقع قصيدة شملت قصة دينية ، ضمت اسطورة الخلق كما جاءت في الاصحاحات المذكورة ، مع بعض (الرتوش) والإصلاحات التي اقتضتها طبيعة نظم الشعر ، وقد لخصها تلخيصاً حسناً قريباً من الأصل ، يدل على إحاطة به . ولعلّه من وضع شاعر أحب صوغ هذه القصة في شعر ، فنظمها ونسبها الى (عدي بن زيد) .

وقد ظل العباد يتغنون بخمريات وبشعر (عدي) أمداً طويلاً بعد وفاته . وقد كان (القاسم بن الطويل) العبادي ، أحد ندماء (الوليد) الثاني ممن يروون

---

١ الحيوان (١٩٧/٤ وما بعدها) .
٢ الحيوان (١٩٧/٤) .

شعره ، وحبذه الى الخليفة ، الذي كان شاعراً يحب الخمر ، وينظم الشعر فيها، مما صار باب من أبواب الخمريات في الشعر الإسلامي[1] . ومن شعره قوله :

أيها القلب تعلل بددن   إنّ همي في سماع واذن[2]

ومن الشعراء النصارى الذين نص أهل الأخبار على تنصرهم : (موسى بن جابر بن أرقم بن سلمة بن عبيد) الحنفي اليامي ، المعروف بـ (أزيرق اليمامة) ، وبابن ليلى ، وهي أمه ، وكان نصرانياً . قال عنه (المرزباني) انه شاعر كثير الشعر ، وقد أورد له نتفاً من شعره[3] ، ويمتاز ما ذكره بالبساطة والسهولة والليونة وهو يختلف بأسلوبه عن شعر الأعراب .

أما (الأعشى) ، وقد تحدثت عنه ، فهو من اليمامة ، وقد كان معظم أهل اليمامة على النصرانية عند ظهور الاسلام ، ولذلك فقد يكون على النصرانية ، غير اننا لا نستطيع أن نأتي بدليل مقبول يثبت تنصره ، وقد رأينا ان أهل الأخبار كانوا قد جعلوه في عداد (القدرية) و (أهل العدل) ، زعموا انه أخذها من (الحيرة) ، وكانوا عبّاداً ، وكان يزورهم يشرب الخمر عندهم ، كما كان راويته (يحي بن متّى) نصرانياً ، ولكن النصرانية لا تعني القدريـة ، وكون راويته نصرانياً ، لا يعني انه كان نفسه نصرانياً ، وأما ما جـاء في شعره من قصص وأمور معروفة عند النصارى ، فلا يكون دليلاً على تنصره ، فقد وردت مثل هذه الأمور في شعر غيره ، ولم ينص أحـد على تنصرهم ، ثم ان شعره لا ينم على تعمق في نصرانية[4] ، لكني لا أريد أن أثبت انه كان وثنياً ، فوثنية الأعشى أو نصرانيته تخصه وحده ، وأنا لا أريد أن أنقص عدد النصارى ، وأن أزيد في عدد الوثنيين ، وانما هو رأي واستنتاج ليس غير .

ومن شعره الذي تطرق فيه الى أمور نصرانية قوله :

فما أيبلى على هيكـل   بناه وصلّبَ فيه وصارا

---

١ بروكلمن (١٢٥/١) .
٢ أمالي المرتضى (٣٣/١) .
٣ المعجم (٢٨٥) ، (فراج) ، شرح الحماسة ، للمرزوقي (٣٢٦) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الاغاني (١١٣/١٠) ، الخزانة (١٢٦/١) .
٤ G. Graf, Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, I, S. 33.

يراوح من صلوات المليك طوراً سُجوداً وطوراً جُؤّارا
بأعظم منك تقي في الحساب اذا النسمات نفضن الغبـــارا

وهي من قصيدة مدح فيها (قيس بن معد يكرب) الكندي . وقد اتخذ (المعري) هذا الشعر دليلاً على ايمان الأعشى بالله وبالحساب وبالبعث ، مما استوجب إدخاله في الجنة[1] .

وهناك أفكار نصرانية نجدها في شعر (النابغة) وفي شعر (زهير)،و (لبيد)، غير أننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا نصارى ، لوجود هذه الأفكار في شعرهم، فمن الجائز أن يكون ورودها في شعرهم نتيجة لاختلاطهم بالنصارى ، وقد كانوا يكثرون من الذهاب الى الحيرة ، لمدح ملوكها طمعاً في نيل عطاياهم ، فاحتكوا بذلك بنصاراها ، وورد قصص نصراني في شعر أو نثر لا يدل حتماً على تنصر الناثر أو الشاعر ، كما أن وقوف شخص على دين من الأديان ، لا يـــدل حتماً على اعتناقه لذلك الدين . ومن هنا أخطأ الأب (لويس شيخو) في دعواه بتنصر أكثر الشعراء الجاهليين[2] .

ونجد في شعر امرىء القيس إشارات الى معالم نصرانية،مثل الرهبان وصلواتهم وسهرهم ، والى مصابيحهم ، مثل قوله :

نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال[3]

ولكننا لا نستطيع إثبات أنه كان من النصارى .

و (حاتم الطائي) من شعراء طـــيء ، وقد مات قبـــل الاسلام ، وقبر بـ (عُوارض) جبل فيه قبره ببلاد طيء[4] . وهو (حاتم بن عبدالله بن سعد ابن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي) ، ويكنى (أبا سفانة) بابنته، وابنه (عدي بن حاتم) من الصحابة . واليه ينسب المثل « لو غير ذات سوار لطمتني». وسبب قوله اياه – كما يقول ذلك الرواة – ان حاتم الطائي كان أسيراً في (عنزة) ،

---

١ رسالة الغفران (١٨١) .
٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٢٧/١) ، (الطبعة الثانية) .
٣ الخزانة (٣٣/١) ، (بولاق) .
٤ تاج العروس (٤٨/٥) ، (عرض) ، الحيوان (٢٢٩/١) .

فقالت له امرأة يوماً : قم فافصد لنا هذه الناقة ! وكان الفصد عندهم ان يقطع عرقاً من عروق الناقة ، ثم يجمع الدم فيشوى . فقام حاتم الى الناقة فنحرها ، فلطمته المرأة . فقال حاتم : « لو غير ذات سوار لطمتني » فذهب قوله مثلاً[1]. وروي أيضاً انه قال : « هذا فصدي » ، يريد انه لا يصنع إلا ما تصنع الكرام. وقد نسب هذا المثل لكعب بن مامة ، وذلك انه كان أسيراً في عنزة فأمرته أم منزله أن يفصد لها ناقة ، فنحرها ، فلامته على نحره اياها ، فقال : هكذا فصدي[2].

ويلاحظ ان (الجاحظ) وغيره يقدمون (كعب بن مامه) على حاتم الطائي في الجود ، « لأن كعباً بذل نفسه في أعطية الكرم وبذل المجهود فساوى حاتماً من هذا الوجه ، وباينه ببذل المهجة »[3] . كما نلاحظ ان بعض أخبار الجود المنسوبة الى (حاتم) تنسب الى (كعب بن مامة) كالذي رأيته في تفسير المثل : « هكذا فصدي » .

ولما بلغ حاتم قول المتلمس :

قليل المال يصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفسادِ
وحفظ المالِ خير من فناء وعسف في البلاد بغير زاد

قال قطع الله لسانه ، حمل الناس على البخل فهلا قال :

فلا الجود يفني المال قبل ذهابه ولا البخل في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس مالاً بعيش مُقتّر لكل غدٍ رزق يعود جديد
ألم ترَ أن الرزق غادٍ ورائح وأن الذي أعطاك سوف يعيد[4]

وذكر أن (زيد الخيل) عير حاتماً الطائي في خروجه من طيء ومن حرب

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٠٩) ، الخزانة (١/٤٩٤) ،الاغاني (١٦/٩٦) ، الشعر والشعراء (١/١٦٤ وما بعدها) ، الامالي ، للقالي (٣/١٥٤ وما بعدها) ، بروكلمن (١/١١١ وما بعدها) .
٢ الميداني ، أمثال (٢/٣١٧) ، الحيوان (٤/٢٧٤) ، الاغاني (١٦/١٠٢) ، الحيوان (٥/٣٣) ، البخلاء (١٥٨ ، ٣٨٢ وما بعدها) ، ثمار القلوب (٩٨وما بعدها) .
٣ الحيوان (٢/١٠٧ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٠٩) ، وتجد بعض الاختلاف في الروايات الاخرى ، المحاسن والاضداد (٤١) .

الفساد التي وقعت بين جديلة والغوث الى (بني بدر) حيث يقول :

وفرّ من الحرب العوان ولم يكن   بهـا حاتم طبّاً ولا متطبيـا
وريب حصناً بعد أن كان آبياً   أبوة حصنٍ فاستقال واعتبـا
أقم في بني بدر ولا ما يهمنا   إذا ما تقضت حربنا أن تطربا[1]

وقد أسره (ثوب بن شحمة) العنبري ، وكان شريفاً في قومه ، وكان يقال له (مجير الطير) ، لأنه أجار الطير في أرضه ، فكان لا يثار ولا يصاد بأرضه[2]. فقال حاتم :

إذا ما بخيل الناس هرّت كلابه   وشقّ على الضيف الغريب عقورها
فإني جبـان الكلب بيتي موطأٌ   جواد إذا ما النفس شحّ ضميرها
ولكن كلابي قد أقرت وعوّدت   قليل على من يعترّيها هريرهـا[3]

وظل (حاتم) أسيراً عنده زماناً ، وقـد عيّر (ثوب بن شحمة) بأنه وقومه أكلوا لحم المرأة ، فقال شاعر :

عجلتم ما صادكم علاج   من العنوق ومن الدجاج
حتى أكلتم طفلة كالعاج[4]

وقد وصفت ابنته أباها للرسول ، وكان قد سألها عن أبيها على هذه الصفة : « كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ،ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط » . ووصفه (ابن الأعرابي) بقوله : « كان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ... إذا غنم أنهب وإذا سئل وهب ... وإذا أسر أطلق »[5] . ويجب أن تكون وفاة (حاتم) غير بعيدة عن ظهور الإسلام .

---

١ الحيوان (٣٢٩/١) .
٢ الحيوان (٢٦٩/١) .
٣ الحيوان (٣٨٣/١) .
٤ البخلاء (٢٣٥ ، ٣٧٤) .
٥ الاغاني (٩٧/١٦ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريـخ الاداب العربيـة (٧٩) ، الخزانة (٤٩٤/١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٨/٢) .

ولأهل الأخبار قصص عن جود حاتم وكرمه ، ويبدأون به غلاماً ، يرعى إبل والده ، فمرّ به (عبيد الأبرص) ، و (بشر بن أبي خازم)،و (النابغة الذبياني) ، وهم يريدون (النعمان) فنحر لهم ثلاثة من الإبل ، وهو لا يعرفهم، ثم سألهم عن أسمائهم ، فتسمّوا له ، ففرق فيهم الإبل كلها، وبلغ أباه ما فعل، فاعتزله . ثم يروون انه ذبح فرسه،لما جاءته جارة له ، فشوى لحمها لها ولأولادها الجياع ، ثم استدعى بقية جيرانه فأطعمهم ، وبقي هو وأهله جياعاً ، ولم يكن لديه آنذاك غير فرسه هذه . ثم يروون قصصاً آخـر مشابهاً ، يمتد الى ما بعد وفاته ، حيث يذكرون قصة رجل اسمه (أبو خيبرى) ، ذكروا انه مرّ بقبر (حاتم) ، وأخذ يناديه : « يا أبا عدي أقرِ أضيافك ! فلما كان في السحر وثب أبو خيبرى يصيح : وارحلتاه ! فقال له أصحابه : ما شأنك ؟ فقال : خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر اليه ، فنظروا الى راحلته فإذا هي لا تنبعث ، فقالوا : قد والله قراك ، فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها ، ثم أردفوه وانطلقوا ، فبيناهم كذلك في مسيرهم ، طلع عليهم (عدي بن حاتم) ومعه جمل أسود قد قرنه يبعيره ، فقال : ان حاتماً جاءني في المنام فذكر لي شتمك اياه ، وانه قراك وأصحابك راحلتك ، وقد قال في ذلك أبياتاً ، وردها عليّ حتى حفظتها :

أبا خيبريّ وأنت امرؤٌ   حسود العشيرة لوّامها
فماذا أردت الى رمّة   بداويّة صخِب هامها
تُبَغّي أذاها وإعسارها   وحولك عوفٌ وأنعامها

وأمرني بدفع جمل مكانها اليك ، فخذه ، فأخذه[1] .

ولأهل الأخبار قصة في كيفية تزوج (حاتم) (ماويـة بنت عفزر) ، وكيف وجد عندها (النابغة) ، ورجلاً من النبيت ، يريدان الزواج منها ، لما وصل اليها ، وكيف امتحنتهم بقولها لهم : انقلبوا الى رحالكم، وليقل كل رجل منكم شعراً يذكر فيه فعاله ومنصبه فإني متزوجة أكرمكم وأشعركم، ثم تذكر القصة تفصيل ما وقـع بأسلوب منمق مقروناً بشعر وقرار (ماويـة) بتفضيل حاتم

---

1 الشعر والشعراء (١/ ١٧٠) ، الخزانـة (١/ ٤٩٤ وما بعدهـا) ، (بولاق) ، المحاسن والاضداد (٤١ وما بعدها) .

عليها[1] . وتذكر قصة أخرى ان (ماوية) كانت ابنة من بنات ملوك اليمن ، وكانت ذات جمال وكمال ومال ، فآلت ألا تزوج نفسها إلا من كرام الناس ، فقدم عليها حاتم ، وزيد الخيل،وأوس بن حارثة لأم ، فتقدم كل واحد يخطبها، فقالت ليصف كل واحد منكم نفسه في شعره ، فلما أنشدوا فضلت (حاتم) الطائي عليها ، فزوجت نفسها منه . وذكر ان (معاوية) كان يهوى حديث (ماوية)[2] .

وهم يذكرون أن جود (حاتم) جـاء اليه من أمه (عنبة) ، التي كانت سخية الى حدّ الإسراف ، حتى حبسها اخوتها سنة في بيت لعلّها تكف عما كانت عليه ، إذا ذاقت طعم البؤس وعرفت فضل الغنى ، ثم أخرجوها ودفعوا اليها صرمة من مالها ، فأتتها امرأة فسألتها ، فقالت لها : دونك الصرمة ، فقد والله مسني الجوع ما آليت معه ألا أمنعَ الدهرَ سائلاً شيئاً ! ثم أنشأت تقول:

لعمري لقدماً عضني الجوعُ عضة ... فآليت ألاّ أمنع الدهر جـائعا
فقولا لهذا اللائمي الآنَ أعفني ... وإن أنتَ لم تفعل فعض الأصابعا
ولا مـا ترون اليوم إلاّ طبيعة ... فكيف بتركي، يا ابنَ أم ،الطبائعا[3]

ونسب لحاتم قوله :

واني لاستحي حياءً يسرني ... إذا اللؤمُ من بعض الرجال تطلعا
إذا كان أصحاب الإناء ثلاثة ... حيياً ومستحيا وكلبـاً مُجَشَّعا
فإني لأستحي أكيـلي أن يرى ... مكانَ يدي من جانب الزاد أقرعا
أكفُّ يدي من أن تمس أكفهم ... إذا نحن أهوينا وحاجتنا معـا
وإنك مها تعط بطنك سؤله ... وفرجك نالا منتهى اللم أجمعا[4]

وتنسب له قصيدة طويلة هي :

وعاذلتين هبتا بعـد هجعة ... تلومان متلافاً مفيداً ملوما
تلومان لمّا غوّر النجم ضلة ... فتى لايرى الانفاق في الحمد مغرما

---

1 الشعر والشعراء (١٦٧/١ وما بعدها) ، الخزانـة (١٦٤/٢ ومـا بعدها) ، (بـولاق) .
٢ الخزانة (١٦٤/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ الشعر والشعراء (١٦٥/١ وما بعدها) .
٤ البيان (٣٠٧/٣ وما بعدها) .

الى أن يقول :

ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى إذا هو لم يركب من الأمر معظما
لحا الله صعلوكاً مناه وهمّه من العيش أن يلقي لبوسا ومغنما
ينام الضحى حتى إذا نومه استوى تنبه مثلوج الفؤاد مورما
مقيماً مع المثرين ليس يبارح إذا نال جدوى من طعام ومجثما
ولله صعلوك يساور همه ويمضي على الأحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ولا شبعة إن نالها عدّ مغنما
يرى الخمص تعذيباً ولم يلق شبعة يبيت قلبه من قلة الهم مبهما[1]

وهي أبيات أرى أنها من هذا الشعر الذي يشك في أكثره ، مثل الشعر المقال على لسان عروة والصعاليك ، يظهر أن الظروف الاجتماعية جعلت الأدباء ينظمون على لسانهم ، يتشكون فيها من ظلم الأغنياء ، لما كانوا يرونه من قسوة أصحاب المال على المعدمين والبائسين .

ويشك في كثير من شعر حاتم . وقد صار حاتم بالقصص الوارد عنه من الأبطال المعروفين عند غير العرب أيضاً ، فنجد له ذكراً في الفارسية وفي التركية ، وألف فيه في اللغات الأوروبية ، وطبع ديوانه جملة طبعات[2] . وكان يشبه شعر النمر بن تولب بشعر حاتم الطائي ، وكانا يشتركان في الجود وإتلاف الأموال وأريحية الطبع والتغني بذلك في الشعر[3] .

وكان (حاتم) على النصرانية على ما يظن ، وقد كان ابنه (عدي) عليها[4] .

و (جابر بن حُنَيّ بن حارثة بن عمرو بن بكر) من شعراء تغلب . وله قصيدة مطلعها :

ألا يا لقومي للجديد المصرم وللحلم بعد الزلة ، المتوهم
وللمرء يعتاد الصبابة بعدما أتى دونها ما فرطُ حول مجرّم

---

١ الخزانة (١/٤٩٢) .
٢ بروكلمن (١/١١١ وما بعدها) .
٣ البخلاء (٣٨٤) .
٤ الاصابة (٢/٤٦٠) ، (رقم ٥٤٧٧) .

ذكر ان سبب قوله لها ، ان (المنذر بن ماء السماء) كان يبعث (عمرو بن مرثد بن سعيد بن مالك) ، و (قيس بن زهير) الجشمي ، على إتاوة ربيعة، وكانت ربيعة تحسدهما ، فجاء (عمرو) يوماً ، فقال جلساء الملك حسداً له : انه عشي كأنه لا يرى أحداً أفضل منه ! فجاء فحيّا الملك بتحية ، فقال جابر هذه القصيدة[1] . وقد أدخله (بروكلمن) في عداد الشعراء النصارى[2] .

ويذكر انه هو (جابر) المذكور في البيت المنسوب لامرىء القيس ، وهو:

فإما تريني في رحالة جابر   على حرج كالقر تخفق أكفاني[3]

وكان امرؤ القيس آنذاك مريضاً ، فكان (جابر) و (عمرو بن قميئة) ،يحملانه على الرحالة ، وهي خشبات ، وهي الحرج .

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٥٦٢/٢ وما بعدها) ، اللآلي (٨٤٢) ، المفضليات (٢٠٨) .

٢ بروكلمن (٧٣/١) .

٣ من قصيدة :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان   ورسم عفت آياته منذ أزمان

ديوان امرىء القيس (٨٩ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٧٤/١) ، الشعر والشعراء (٥٣/١) .

الفصل السابع والستون بعد المئة

آراء الشعراء الجاهليين

والشعر الجاهلي مادة مهمة تعيننا في الوقوف على آراء الجاهليين ، على الرغم من كون أكثره قد ورد في أمور لا صلة مباشرة لها بالرأي ، أعني بالتفكير في خلق الكون وفي الانسان نفسه ، لِمَ جاء ولِمَ يموت ، وما هي الغاية من ظهوره على هذه الأرض ، وعن الخلق والخالق ، من إثبات أو عدم ، وعن النظم وأصول الحكم والمجتمع والمعرفة والثقافة وما شاكل ذلك من أمور لها صلة بالتأمل والتفلسف . ومع ذلك فإن في هذا الشعر المذكور ، ما يكفي لاستنباط شيء منه عن الرأي عند الجاهليين .

لقد حمل خلو الشعر الجاهلي من العاطفة الدينية ، بعض المستشرقين على الحكم بأن الجاهليين لم يكونوا يملكون حساً دينياً ، وان دينهم سنتهم ، وسنتهم ما ألفوه عن آبائهم وأجدادهم وأعراف قبيلتهم ، وهي أعراف ورثوها وحافظوا عليها ، محافظتهم على حياتهم ، وقاوموا كل من كان يخرج عليها أو يتطاول عليها. ونجد الشعراء يمجدونها ويذكرونها على حين لا نشعر بوجود حس ديني في شعرهم ، اللهم إلا في شعر عدد قليل من الشعراء[1] .

والشعر الجاهلي خلو من الشعر الديني الذي يجب أن ينظم في المناسبات الدينية، مثل الحج . ولما كان الحج من المناسبات المؤثرة المثيرة ، التي تجمع الناس ،

---

١ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 25.

فتثير في الشاعر شعوراً بروعة المناسبة وبروعة الاجتماع ، فلا بد وأن ينظم الشعراء شعراً فيه ، لإنشاده على المتجمعين حول الصنم ، غير أننا لا نملك أي شعر قيل فيه ولا في المناسبات الدينية المماثلة التي تدفع الإنسان إلى إظهار شعوره فيها ! . وهو أمر يلفت اليه النظر حقاً ، ويجعلنا نفكر في الأسباب التي أدت الى عدم ظهور الروح الدينية في هذا الشعر ، هل هي طبيعة العربي في عدم اهتمامه بأمور الدين أم هي بسبب كره الإسلام رواية وحفظ ذلك الشعر الوثني !

لقد نسب بعض المستشرقين خلو الشعر الجاهلي من الوثنية ، الى ترك المسلمين تعمداً رواية ذلك الشعر ، بسبب دخولهم في الإسلام واجتثاث دين الله لمعالم الشرك فلم يجد المسلم أن من الهيّن عليه ، حفظ شعر فيه تنويه بما أبطله وحرمه كتاب الله ، فرموا منه ما كان ثقيل الوثنية ، وهذبوا منه ما كان خفيف الوزن ، بأن رفعوا أسماء الأصنام ، وأحلوا محلها اسم الله إن ناسب الإسم المعنى ، أو شذبوا فيه وأضافوا شيئاً عليه لإزالة معالم الوثنيـة منه . لأن من الصعب تصور إعراض الشاعر الجاهلي عن ذكر أصنامه في شعره ، بينما هو يتوسل ويتقرب اليها، وينذر لها. فالوثني مهما كان رقيق الدين ، بعيداً عن التفكير فيه ، فإنه لا بد وأن يلجأ اليه ساعـة الشدة وأيام المحن ، حيث يبحث عمن يساعده للخروج من محنته ، شأنـه في ذلك شأن أي إنسان آخر ، حين تنزل به النوازل ، فيلجأ حينئذ الى إلهه أو آلهته وأصنامه والى القوى الطبيعية يستمد منها المساعدة والعون[1] .

وأنا لا أستبعد احتمال موت هذا النوع من الشعر الوثني بسبب الاسلام ، فليس من المعقول إبقاء الاسلام له ، وفيه ما فيه من أمر الأصنام والوثنية المناهضة لدين الله . وعندي ان الجاهلي ، مهما قيل عنه من إعراضه عن الدين ومن عدم احتفاله به ، ومن بعده عنه ، إلا انه كان مع ذلك شديد التمسك به في الأمور التي تمس حياته ، مثل التوسل الى الآلهة بأن تبارك في إبله ، وأن تمنحه الغيث ، وأن تشفيه من مرضه ، الى غير ذلك من أمور ، ذات صلة بالمصالح الشخصية للانسان . ودليل ذلك ، هو ان معظم ما نجده في نصوص المسند من كتابات ، خلدت أسماء الأصنام ، انما دونت فيها الأسماء لمثل هذه الأمور . فإذا كان الأمر كذلك فنحن لا نستطيع استثناء الشعر الجاهلي من ذكر الأصنام في أمثال هذه المناسبات

---

[1] Goldziher, History of Classical Arabic Poetry, p. 25.

على الأقل ، فالشاعر مثل أي انسان آخر ، لا بد وأن يشعر في يوم ما بعجزه وبحاجته الى مخاطبة أربابه وأن يتوسل اليها لتنفعه أو لتمنّ عليه بالصحة والعافية وبالمال ، يتوسل اليها شعراً ، فيمدحها ويشيد بذكرها ، ويسترضيها ، اقتداء بفعله مع الملوك وسادات القبائل ، حيث يكيل المدح لهم شعراً لأنهم أحسنوا اليه .

وقد ورد اسم (الله) في الشعر وفي النثر الجاهليين ، على نحو ما ذكرت في الجزء السادس من هذا الكتاب . لقد ذكرتُ هناك أن غالبية المستشرقين شكت في صحة ورود اسم الله في هذا الشعر ، ورأت أن رواة الشعر وحملته في الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك أنهم حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلّوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم الله وهكذا[1] . وذلك لاعتقادهم أن الوثنيين لم يكونوا يؤمنون بالله ، فلا يعقل ورود اسمه في شعرهم . وهو رأي لا أقرهم عليه ، لأن الجاهليين كانوا يؤمنون بالله ، ولم يكونوا ينكرون وجوده أبداً ، بدليل ما نجده في القرآن من تأكيد بأنهم كانوا يؤمنون به ، وانهم كانوا إذا سألهم سائل من خلق الكون ليقولون الله . وقد ذكرت في حينه كل الآيات الواردة في القرآن الكريم عن هذا الموضوع[2] . وبينت أن أهل مكة وغيرهم من العرب الشماليين ، كانوا يؤمنون بإله واحد هو الله ، ولم يكن بينهم وبين الإسلام خلاف فيه ، وخلافهم معه هو في تقربهم الى الأصنام والأوثان ، لتشفع لهم ، بزعمهم ، الى الله زلفى . مع أنها أجسام جامدة وأحجار لا حياة فيها ، فمن هنا حمل الإسلام عليها ، واعتبرها شركاً بالله ، لأنهم بتقربهم اليها يكونون قد أشركوها مع الله في ألوهيته ، وهذا هو الكفر والضلال في نظر الإسلام . ولذلك أمر بالابتعاد عنها وبنبذها وبنبذ كل ما يتصل بها من عبادة ، كما أمر بطمس الصور ، ومحوها لأنها من دلائل هذه الوثنية ومن معالمها .

وقريش نفسها لم تنكر على الرسول تعبده لله ، ولم تمنعه من الصلاة في بيت الله ، ومن ذكره وحمده له ، لأنها لم تختلف معه في عبادته ، وإنما اختلفت معه ، فيما هو دون الله من أصنام وأوثان ، وذلك حين عابها وسفه أحلامهم بتقربهم اليها وهي جامدة مخلوقة مصنوعة ، عندئذ هاجت وماجت واشتكت الى أعمام رسول

---

١ (ص ١٠٢ وما بعدها) .

٢ (ص ١٠٣ وما بعدها) .

الله والى ذوي رحمه ، ومن هنــا كان عناد قريش وكفرها وعداوتها للرسول . كما نص على ذلك صراحة في القرآن وفي كتب السير[1] . وأخذت تؤذيه وتؤذي المسلمين كلما ازداد هجوم الإسلام على الأصنام والأوثان .

ويشبه هذا النزاع ما وقع في النصرانية من هجوم على تقديس التماثيل والصور التي تمثل (الثالوث) ، و (المسيح) ، حيث اعتبرها البعض شركاً ، مما سبب وقوع شقاق في الكنيسة . فقد اعتبر بعض رجال الدين الـ (ايقونات) شركاً ، ولذلك حاربوا التماثيل والتصاوير . وقد كانت هذه المشكلة قد بدأت في الكنيسة نتيجة الصراع الذي وقع بين رجال الدين حول طبيعة المسيح .

ولو أخذنا بصدق ما نسب الى الجاهليين من شعر ورد فيه اسم الله ، وجب إدخال عدد من شعراء الجاهلية في المتألهين ، القائلين بوجود إلـه ، هو (الله) . ففي شعر ينسب الى (عروة بن الورد) ، نجد اسم الله مذكوراً فيه ، إذ يقول:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى　　تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا[2]

ويجب عدّ (امرىء القيس) من المتألهين أيضاً ، فقد زعموا ان العرب كانت لا تعدّ الشاعر فحلاً ، حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره ، فلما قال :

والله أنجح ما طلبت به　　والبر خير حقيبة الرجل

عدّوه فحلاً[3] . وهكذا أدخلوه بهذه الحكمة في جملة الفحول .

وقد ورد اسم الله في معلقته ، في البيت :

فقالت يمين اللهِ ما لك حيلة　　وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[4]

ونجده يحلف بالله ، فيقول : « يمين الله » ، و « حلفت لها بالله » ، وتقول

---

١ ابن هشام ، سيرة (١٧٠/١) ، (حاشية على الروض)

٢ ديوان عروة (١٩١)

٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦١)

٤ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٨٢)

له صاحبته : « سباك الله »[1] ، مما يدل على انه كان مؤمناً معتقداً به . ونجده يذكر الله في أشعاره الأخرى[2] .

وزعم أهل الأخبار ان (الأفوه بن مالك) الأودي ، كان من المتألهين كذلك، وانه لما شعر بدنو أجله ، أوصى قومه : مذحج ، بتقوى الله ، وصلة الأرحام ، وحسن التعزي عن الدنيا بالصبر[3] .

وورد في معلقة (عبيد بن الأبرص) قوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب[4]

ويجب إدخال زهير في جملة المتألهين أيضاً ، فقد ذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره ويؤمن بالبعث ، ونسبوا له قوله :

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم[5]

وهو يقسم في معلقته بالبيت ، فيقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم[6]

فهو مؤمن بالله العلاّم بما في نفوس الناس ، فلا تخفى عليه خافية ، ومهما حاول الانسان كتمان سره في قرارة نفسه ، فإن الله لا يخفى عليه سره ، ولا يفوته أبداً[7] .

وتنسب لزهير قصيدة مطلعها :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي ان الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٤١/١)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣٧٥/١)
٣ المزهر (١٦٤/١)
٤ رسالة الغفران (١٨٦)
٥ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٨ وما بعدها ، ١١٦)
٦ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١١٤)
٧ الخزانة (٤٣٦/١ وما بعدها)

وهي قصيدة ذكر فيها آنه عاش آكثر من مائة سنة ، ثم ذكر الله ، وانه حق ، وأنه كان مؤمناً به ، وأن أيامنا معدودات ، ولا يدوم ويبقى إلا الله الذي أهلك تبعاً ولقمان بن عاد وعاديا ، وأهلك ذا القرنين ، وفرعون ؛ ثم ذكر النعمان، وكيف حكم،ثم جاء يوم غير كل شيء. وقد قال الأصمعي ، أنها ليست لزهير، ويقال هي لصرمة الأنصاري، ولا تشبه كلام زهير[1]. وربما كانت من المصنوعات، صنعها من صنع من أمثالها من شعر الوعظ والإرشاد ، فنسبه الى الجاهليين .

ونجد (أبا طالب) يقسم بالله في شعره ، فيقول في قصيدة له ، يخاطب بها الرسول ، انك جئت بدين سمح،هو من خير أديان البرية ديناً ، ولولا الملامة ، أو حذار سبّة ، لوجدتني سمحاً بذاك مبينا[2] :

وروي ان (لبيد بن ربيعة) الشاعر المخضرم ، كان من المتألهين في الجاهلية وانه نظم قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكــل نعيم لا محالة زائل

قبل الاسلام ، أو عند ظهوره . وان الرسول قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل[3] .

وروي ان له أبياتاً تشير الى التوحيد والصلاح ، والخير ، هي :

إن تقوى ربنا خيرُ نَفَل   وبــإذن الله ريثي وعجل

وقوله :

أحمد الله فلا ندّ له   بيديه الخير ، ما شاء فعل

وقوله :

من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ، ومن شاء أضل[4]

---

١ الخزانة (٥٨٨/٣ وما بعدها) ، (بولاق)

٢ لن يصلوا اليك بجمعهم   حتى أوسد في التراب دفينا
السيوطي ، شرح شواهد (٦٨٦/٢ وما بعدها)

٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٣٥ ، ٣٨)

٤ رسالة الغفران (٢٦٧)

و (النابغة) الذبياني من المتألهين كذلك ، فقد نسبوا له شعراً ، ذكر أنه اعترف فيه بوجود الله ، إذ قال :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب[1]

ونجده في معلقته يقول :

إلا سليمان إذ قال الإله له   قم في البرية فاحددها عن الفند[2]

ونراه يذكر مكة في شعره :

والمؤمن العائذات الطير تمسحها   ركبان مكة بين الغيل والسعد[3]

وورد اسم الله في قوله :

أبى اللهُ : إلا عدله ووفاءه   فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

أي ما يريد الله إلاّ عدل النعمان بن المنذر ، وإلا وفاءه ، فلا يدعه أن يجور ولا أن يغدر ، فلا النكر يعرفه النعمان ، ولا الجميل يضيع عنده[4] . ومعنى هذا أن النابغة كان يرى أن الله هو الذي يقدر الأمور للناس ، وأن الإنسان مسير بأمر الله .

و (الحارث بن حلزة) اليشكري من هذا الفريق كذلك ، لقوله :

فهداهم بالأسودين وأمر اللهِ   بلغٌ تشقى به الأشقياء[5]

ولقوله :

وفعلنا بهم كما علم الله   وما إن للحائنين دماء[6]

---

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦٤)
٢ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٠٨)
٣ كذلك (ص ٢١٣)
٤ الخزانة (٤٦٨/٢) ، (هارون)
٥ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٧)
٦ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٩)

واذا صدقنا بمعلقة (عبيد بن الأبرص) ، وأخذنا بصدق الأبيات :

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير ... والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك ... علام ما أخفت القلوب[1]

بل يجب عدّه من الأحناف الموحدين ، الذين آمنوا بإله واحد لا شريك له. وهو في نظري شعر اسلامي ، ويبعد أن يكون من نظم ومن نفس شاعر جاهلي. وقد ذهب (ابن الأعرابي) ، الى ان البيت الأول هو لشاعر آخر ، هو : يزيد بن ضبّة الثقفي[2] .

و (عمرو بن الإطنابة) سيد الخزرج في أيامه من هذا الرعيل الذي ذكر اسم الله في شعره ، إذ ذكره بقوله :

إني من القوم الذين اذا انتدوا ... بدأوا بحق الله ثم النائل

وانتدوا : جلسوا في النادي . فهو يبدأ بذكر الله ، وبحقه ، اذا ما جلس في النادي[3] .

وورد اسم (الله) في شعر لخداش بن زهير :

تقوه أيهـا الفتيان إنـي ... رأيتُ اللهَ قد غلب الجدودا[4]

ونجد ذكر الله في شعر (صريم بن معشر بن ذهل) التغلبي ، وكان قد لقي كاهناً ، فسأله عن موته ، فقال له : انك تموت في موضع يقال له (إلاهة) ، فمكث زماناً ثم سار الى الشام في تجارة ثم رجع في ركب من (بني تغلب) ، فضلّوا الطريق ، ثم أتوا موضعاً اسمه (إلاهة) قارة بالسماوة ، فلدغته حية ، ثم تذكر قول الكاهن ، فقال :

---

١ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٥٤١ وما بعدها) ، البيت (١٨ وما بعده) من المعلقة ، الحيوان (٣/٨٩)
الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٢١) ، السيوطي ، شرح الشواهد (١/٢٦٦)
٢ الشنقيطي (٢٢١) ، الخطيب التبريزي ، شرح القصائد العشر (٥٤١) .
٣ المرزباني ، معجم (٨) ، (فراج)
٤ العمدة (٢/٢٧١)

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي   اذا هو لم يجعل له الله واقيا
كفى حزناً أن يرحل الحي غدوة   وأصبح في أعلى الإلاهة ثاويا [1]

وهو شعر إن صح انه له ، دل على ان صاحبه كان يؤمن بأن لكل انسان أجل ، وانه اذا جاء الأجل ، فلا مردّ له ، وانه لا مرد لقضاء الله وقدره .

وفي شعر (قيس بن الحدادية) ، إيمان بالله ، وأن الله هو الذي يقدر الأمور ، إذ يقول :

فقلت لها والله يدري مسافرٌ   اذا أضمرته الأرض ما الله صانع

ويروى :

فقلت لها والله ما من مسافر   يحيط بعلم الله ما الله صانع [2]

وفي شعر (النمر بن تولب) ، وهو من المخضرمين قوله :

سلام الإلَه وريحانه   ورحمته وسماءٌ درر

و (العرب تقول : « سبحان الله وريحانه ، أي : واسترزاقه » [3] .

ونجد في شعر للأعشى أنه كان يؤمن بالرحمن ، اذ يقول :

وما جعل الرحمن بيتك في العُلى   بأجياد غَربي الصفا والمحرم [4]

ويقول :

وإن تقى الرحمن لا شيء مثله   فصبراً إذا تلقى السحاق الغراثيا

ثم يبين بعده إيمانه بإلَه واحد لا شريك له ، اذ يقول :

وربك لا تشرك به ان شركه   يحط من الخيرات تلك البواقيا

---

١ الخزانة (٤/٤٦٠) ، (بولاق)
٢ المرزباني ، معجم (٢٠٢)
٣ انجمان في تشبيهات القران (٣٨٣)
٤ القصيدة رقم ١٥ ، البيت ٣٦ ، ديوانه (١٢٣)

بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكن لك فيا تكدح اليوم راعيا
وإياك والميتات لا تقربنهـا كفى بكلام الله عن ذاك ناهيا[1]

ونجده في القصيدة رقم (١٥) التي فيها البيت الأول ، يحلف ، برب الراقصات الى منى ، ثم يذكر (ماء زمزم) ، أي مكة ، بينما نجده في القصيدة الثانيـة مؤمن بالرحمن ، مؤله له ، موحد ، لا يشرك بربه أحداً . وهو شعر روي عن (أبـي عمرو الشيباني) ، ركيك ضعيف ، موضوع عليه[2] .

وروي ان (الشنفرى) كان ممن آمن بالرحمن ، وذكره في شعره ، إذ قال:

لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتّر الرحمن ربـي يمينها

ولكنه بيت يشك في صحته ، ولم ينقله الثقات[3] .

وقد سبق لي أن تحدثت في الجزء السادس من هذا الكتاب عن عبادة الرحمن، وقلت ان قريشاً قالت للرسول لما نزل الوحي بـ « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» : « أتدرون ما الرحمن الذي يذكره محمد ، هو كاهن باليامة »[4] ، وانها قالت : « دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمن اليامة » ، وكان قد تسمى بالرحمن قبل مولد عبدالله والد الرسول[5] .

وقد زعم أهل الأخبار ان الأعشى كان قدرياً ، وانه أخذ رأيه هذا من أهل الحيرة . واستشهدوا على رأيه بالقدر بقوله :

استأثر اللهُ بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا[6]

---

١ القصيدة رقم ٦٦ ، البيت رقم ٨ وما بعده ، ديوانه (ص ٣٢٩)
٢ ديوانه (٣٢٨)
٣ الاشتقاق (٣٧)
٤ الاشتقاق (٣٧)
٥ الحيوان (٨٩/٤) ، تفسير الطبري (٥٧/١) ، مغازي ، الواقدي (٨٢/١) ، ابن كثير ، البداية (٣٢٦/٦) ، تابع العروس (٣٠٧/٨) ، (رحم) ، الروض الانف (٣٤٠/٢) ، ابن سعد ، طبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٩)
٦ راجع ديوان الاعشى (١٥٥)، امالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي) ، شرح ديوان الاعشى (٢٣٣) ، (القصيدة رقم ٣٥) ، وورد (وبالحمد) بدلا من « وبالعدل » ، الاغاني (٧٦/٨)

وأبي الشريف (المرتضى) إلا أن يحمله على مذاهب أهل العدل[1] ، أي على مثل ما ذهب اليه (المعتزلة) والشيعة الإمامية الاثني عشرية في الاسلام . وعلل بعض أهل الأخبار سبب تحول الأعشى الى القدرية ، انه كان يأتي أهل الحيرة في الجاهلية ، وكانوا نصارى ، يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك[2] . ورد في كتاب (الأغاني) : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانياً عبادياً ، وكان معمراً ، قال : كان الأعشى قدرياً ، وكان لبيد مثبتاً . قال لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى   ناعمَ البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالـ   ـعدل وولى الملامة الرجلا

قلت : فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العباديين نصارى الحيرة، وكان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك »[3].

والبيت المذكور هو من قصيدة مدح فيها (سلامة ذا فائش) مطلعها :

إن محلاً وإن مرتحلا   وان في السفر ما مضى مهلا
استأثر اللهُ بالوفاء وبالـ   ـعدل وولى الملامة الرجلا[4]

شك في صحتها (ابن قتيبة) ، فقال : « وهذا الشعر منحول »[5]، والصنعة في الواقع بينة على القصيدة ، واذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يكون القدرى صاحبها ، ذلك الرجل الذي نحلها الأعشى ، لا الشاعر الأعشى .

ويذكر أهل الأخبار أن الأعشى كان ممن أقر بالملكين الكاتبين في شعره ، إذ يقول :

---

١ أمالي المرتضى (١/٢١) ، (دار الكتاب العربي)
٢ الاغاني (٨/٧٦)
٣ الاغاني (٨/٧٩)
٤ « وبالحمد » ، ديوان الاعشى ، القصيدة رقم (٣٥) ، (ص ٢٣٣) ، ابن قتيبة ، الشعر (١/١٥)
٥ ابن قتيبة ، الشعر (١/١٥)

فـلا تحسبني كافراً لك نعمة   على شاهدي يا شاهد الله ، فاشهد

وشاهدي ، يعني لساني ، ويا شاهد الله ، يريد الملك الموكل بـه . وكان هذا من ايمان العرب بالملكين. وقد نسبوا هذه العقيدة الى بقية من دين اسماعيل[1]، وزعموا أن العرب ممن أقام على دين اسماعيل ، إذا حلفت تقول : وحق الملكين، فكان الأعشى ممن أقام على دين اسماعيل والقول بالأنبياء . « والأعشى ممن اعتزل وقال بالعدل في الجاهلية »[2] .

ونسب الى (لبيد) العكس ، أي القول بالجبر ، واستدل من نسبه الى الجبر ، بقوله :

إنّ تقوى ربنا خير نفل   وباذن الله رَيْثي والعجل
أحمد اللهَ فلا نـد له   بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومن شاء أضل[3]

وقد قال بعض العلماء : ان هذه الأبيات لا تشير حتمـاً الى مذهب لبيد في الجبر ، وانها لا تكون سبباً في نسبة الجبر اليه ، وقد تأولها ، وأوجد لها مخارج في ابعاد القول بالجبر عنـه . ثم قال : « اللهـم إلا أن يكون مذهب لبيد في الاجبار معروفاً بغير هذه الأبيات ، فلا يتأول له هذا التأويل ، بل يحمل عـلى مراده على موافقة المعروف من مذهبه »[4] .

وينسب الى (زهير بن أبي سلمى) قوله :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم[5]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٨٦) ، الشنقيطي ،شرح المعلقات (٦١)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٤١)
٣ أمالي المرتضى (١/٢١) ، (دار الكتاب العربي) ، ديوان لبيـد (١٧٤) ، (رقم ٢٦) ، وورد :
من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومـن شاء أضل
الاغاني (٨/٧٦) ، ديوان لبيد (١٣) ، (رقم ٣٩) ، رسالة الغفران (٢٦٧)
٤ الخزانة (٢/٣٠) ، (بولاق) ، الامالي للمرتضى (١/٢١)
٥ ديوان زهير (١٨)

وذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره، ويدل شعره المذكور على ايمانه بالبعث وبالحساب وبالثواب وبالعقاب[1] .

ومن رأي الجاهليين ان الموت مكتوب على جبين الانسان ، ولا بد له من أن يواجهه في يوم محتوم مكتوب عليه . ومن لم يمت عبطة ، مات هرماً. وفي ذلك يقول أمية :

من لم يمت عبطة يمت هرماً   والموت كأس ، والمرء ذائقها[2]

ويقول الأعشى :

ولو كنتَ في جب ثمانين قامةً   ورُقيتَ أسباب السماء بسلم[3]

ونجد رأي الجاهليين في الروح واضحاً في أشعارهم وفي أقوالهم عن الموت ، فالموت — كما سبق أن تحدثت عنه — في نظرهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا فارقته صارت (هامة) ترفرف فوق قبر صاحبها . هذا (عروة بن الورد) ، يذكر الموت ، ثم يذكر ما سيقوله الناس عنه ، بقوله :

أحاديث تبقى ، والفتى غيرُ خالد   اذا هو أمسى هامة فوق صيّر[4]

وقد أشير الى (العتائر) التي تقدم في (رجب) ، في شعر (طرفة) :

عنتاً باطلاً وظلماً كما تعـ   ـتر عن حجرة الرّبيض الظباء[5]

وكان الرجل من العرب ينذر نذراً على شائه اذا بلغت مائة أن يذبح عن كل عشرة منها شاة في رجب،وكانت تسمى تلك الذبائح الرجبية ، وهي العتائر .

---

١ الشعر والشعراء (٧٨/١) ، الخزانة (٣٧٦/١) ، (بولاق)

٢ أمالي المرتضى (٥٣٣/١)

٣ رسالة الغفران (٥٧١)

٤ ديوانه (٦٤) ، « قال أبو عمرو : بالهزر الف صير ، يعني قبورا من قبور أهل الجاهلية » ، اللسان (٤٧٧/٤) ، (صير) ، تاج العروس (٣٤٦/٣) ، (صير)

٥ مجالس العلماء (١٨ وما بعدها) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٤٦٣ وما بعدها)

وكان الرجل منهم ربما بخل بشائه فيصيد ظباء فيذبحها عن غنمه في رجب ليوفي نذره[1] .

ومن الشعراء من غلبت عليهم نزعة التبرم من هذه الدنيا ، وذكر الموت ، والاتعاظ به ، وعلى رأس هؤلاء (عدي بن زيد) العبادي ، النصراني ، وهو خير من يمثل هذه النزعة التصوفية ، التي ترى أن اللذة لا تدوم ، وأن السعادة موقتة زائلة ، وان على الانسان أن يتعظ بمن عاش قبله من الملوك العظام، والأمم القوية ، وممن نزع هذا المنزع وان كان دون (عدي) بكثير (الأسود بن يعفر)، في قوله :

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم ، وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

الى أن قال :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم ... وتمتعوا بالأهل والأولاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوماً يصير الى بلى ونفاد

وآخرها :

فإذا وذلك لا نفاد لذكره ... والدهر يعقب صالحاً بفساد[2]

غير ان هذه النزعة ، لم تكن ناتجة عن رأي وعن فلسفة ودراسة تأمل لهذه الحياة ، وانما هي نزعة نجدها عند من أصيب بنكبة وعند من حلت به مصيبة ، وعند المسنين الذين غلب العمر عليهم ، فجعلهم حطاماً وكومة عظام، لا يستطيعون الوقوف على أرجلهم ، فهم متعبون لا يجدون من يصغي اليهم أو من يعطف عليهم ، أو من يساعدهم في الخروج من المآزق التي وقعوا فيها ، فتبرموا لذلك من الحياة ، وأخذوا يلمونها ، وانما هم يلمونها لأنهم صاروا في حال لا يتمكنون

---

١ مجالس العلماء (٢٠)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٣٨) ، (٢/٥٥٢ وما بعدها) ، المفضليات (٢١٦) الاغاني (١١/١٢٩) ، ابن سلام (١١٩) ، الشعر والشعراء (١/١٧٦ وما بعدها) الجمان في تشبيهات القران (٣٠٨)

فيها من التلذذ بها ومن التمتع بنعم الحياة التي هي هي لا تتغير وانما الذي يتغير هو الشخص ، الذي كبر وعجز فصار يذم الدنيا ، لأنه لم يعد قادراً على فعل ما كان يفعله أيام كان شاباً قوياً يحب الدنيا ، فتقبل الدنيا عليه .

ونجد في شعر ينسب للأعشى إشارة الى التطير ، إذ يقول :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب البين أو تيس برح[1]

وكان (النابغة) الذبياني من المتطيرين . خرج مرة مع (زبان بن منظور) الفزاري غازياً ، فسقطت عليه جرادة ، فتطير منها ، فرجع من الغزو ، ومضى زبان فظفر وغنم ، فقال :

تعلم أنه لا طيرَ إلا على متطير ، وهي الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا ، وباطله كثير

وقال خرز بن لوذان ، ويقال مرقش السدوسي :

لا يمنعنك من بغـا ء الخير تعقاد التمائم
لا ، والتشاؤمُ بالعطا س ، ولا التيامن بالمقاسم
ولقد غدوت وكنتُ لا أغدو على واق وحاتم
واذا الأشائم كالأيـا من ، والأيامن كالأشائم
قد خط ذلك في الزبو ر الأوليـات القدائم[2]

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) القائل :

نبئت أن بني جديلة أوعبوا نفراء من سلمى لنا وتكتّبوا
ولقد جرى لهم فلم يتعيفوا تيسٌ قعيد كالهراوة أعضب
وأبو الفراخ على خشاش هشيمة متنكب إبط الشمائل ينعب
طُعِنوا بُمرّان الوشيجِ فما ترى خلف الأسنة غير عرق يشجب
وتبدلوا اليعبوب بعد إلههم صنماً فقرّوا يا جديل وأعذبوا[3]

---

١ العمدة (٢/٢٦٠)
٢ العمدة (٢/٢٦١ وما بعدها)
٣ الحيوان (٣/١٠٠) ، العمدة (٢/٢٠٢) ، الخزانة (٣/٢٥٦)

كـلام عن العيافة ، فأشار الى تيس قعيد من الظباء ، والقعيد الذي يأتي من الخلف ، والأعضب المكسور القرن ، وهو مما يتشاءم بـه العرب . وأبو الفراخ عني به الغراب ، واليعبوب صنم لجديلة ، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد، رهط (عبيد بن الأبرص) ، فتبدلوا اليعبوب بدله .

وقد أشير الى التشاؤم بالغراب في شعر ينسب لعلقمة الفحل :

ومن تعرض للغربان يزجرها   على سلامته لا بد مشؤوم[1]

ونجد في شعر (أبي ذؤيب) الهذلي ، وهو من الشعراء المخضرمين ، اشارة الى تشاؤم العرب بطير الشمال ، إذ يقول :

زجرتُ لها طيرَ الشمال فإن تكن   هواك الذي تهوى يُصبك اجتنابها[2]

والعرب تتشام من (طير الشمال) ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب .

وكان (خزز بن لوذان) السدوسي على مذهب من ينكر الطيرة ولا يعتقد بها ، وينسب اليه قوله :

لا يمنعنك من بُغـا   ء الخير تعقاد التمائم
ولقد غدوت وكنتُ لا   أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا   من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خـير ولا   شرّ على أحد بدائم
قد خطّ ذلك في الزبو   ر الأوليات القدائم[3]

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) إشارة الى رأي العرب في الحمامة ، فالعرب تقول : « أخرق من حمامة » ، وعبيد يقول في ذلك :

عيُّوا بأمرهُمُ كـما   عيت ببيضتها الحمامة
جعلت لها عودين من   نشمٍ وآخر من ثمامة

---

١ رسالة الغفران (٤٧٨)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٧/١)
٣ المؤتلف والمختلف (١٠٢) ، تاج العروس (٣٤/٤) ، (خزز) ، الخزانة (١١/٣)

قال ذلك تعبيراً عن حمقها . فالنشم شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسيّ ، والثمامة نبت قصير يضرب به المثل في الضعف ، وذلك حمقها : أن تجمع بين ضعيف وقوي ، فينكسر عشها ويقع البيض فينكسر[1] .

وقد تطرق (العبّاس بن مرداس) الى ذكر (الغول) ، فقال :

أصابت العامَ رِعلاً غول قومهم وسط البيوت ولون الغول ألوان

وهو يشير بذلك الى تلون الغول[2] .

وفي شعر (زيد الخيل) اشارات الى عادة تعليق الحليّ ، وخشخشة الخلاخيل على السليم ، ليبرأ ويشفى ، اذ يقول :

أيم يكون النعل منه ضجيعه كما عُلّقت فوق السليم الخلاخل

ونجد مثل ذلك في أشعار شعراء آخرين[3] .

ومن مذاهب أهل الجاهلية المذكورة في الشعر ، أنهم كانوا يستسقون السحائب لقبور من فقدوه من أعزائهم ، ويستنبتون لمواقع حُفرهم الزهر والرياض ، قال النابغة :

فلا زال قبر بينَ تبنى وجاسمٍ عليه من الوسمي طلّ ووابلُ
فينبت حَوْذاناً وعوفاً منوراً سأتبعه من خير ما قال قائل

وكانوا يجرون هذا الدعاء مجرى الاسترحام[4] .

وفي شعر بعض الشعراء أن الحياة لا تدوم ، وان المال وان كان أساس هذه الحياة ، لكنه متاع أيام وكل ذاهب . فبينما هو يجمعه ويحرص عليه ، إذا به يعيث همج هامج ، وما المال إلا عارة فاخلف وأتلف ، فكله مع الدهر ذاهب، هذا (الحارث بن حلزة) اليشكري ، يقول :

---

١ الحيوان (١٨٩/٣) ، (حاشية رقم ٤) ، أدب الكاتب (٥٥) ، ثمار القلوب (٣٦٩) الميداني ، امثال (٢٣٤/١) ، عيون الاخبار (٧٢/١)
٢ الحيوان (١٦١/٦) ، المعارف (٣٦)
٣ الحيوان (٢٤٧/٤ وما بعدها)
٤ أمالي المرتضى (٥٤/١)

بينا الفتى يَسعى ويُسعى له   تاح له من أمره خالج
يترك ما رقّح من عيشه   يعيث فيه همج هامج
لا تكسَع الشول بأغبارها   إنك لا تدري من الناتج

وهذا تميم بن مقبل يقول :

فاخلف واتلف انما المالُ عارة   وكله مع الدهر الذي هو آكله[1]

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين ، ذم للأغنياء الذين يملكون ولا يعطون شيئاً منه للفقير والبائس والمحتاج ، وللذين يكبرون من شأن الكبير لماله ، ويبتعدون عن الفقير لفقره ، ويعظمون الغني على كثرة عيوبه ونواقصه ، لا لشيء إلا لماله وغناه ، فنرى (عروة بن الورد) ، يقول :

ذريني للغنى أسعى فإني   رأيتُ الناس شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم   وان أمسى له حسب وخير
يباعده الندي وتزدريه   حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال   يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل عيبه والعيب جمّ   ولكنَّ الغني ربٌّ غفور[2]

وللشعراء الجاهليين رأي في النساء . رأى أغلبهم ان المرأة متعة للرجل ، يلهو بها ، ويقضي حاجته منها ، خلقت للبيت وللولادة ، وهي دون الرجل . وهي تحب الشاب القوي ، والغني الكثير المال . ونجد هذا الرأي عند أكثر الشعراء اتصالاً بالمرأة ، وعند أكثرهم لهواً بها مثل (امرىء القيس) حيث يقول :

فيا ربّ يوم قد أروح مرجّلاً   حبيباً الى البيض الأوانس أملسا
أراهن لا يحببن من قلّ ماله   ولا من رأين الشيب فيه وقوسا[3]

---

١ البخلاء (١٦٤ وما بعدها)
٢ أمالي المرتضى (١/٥٠) ، ديوان عروة (١٩٨) ، العقد (١/٢١٢) ، (ولكن للغنى) ، وتجد اختلافا في الالفاظ وفي ترتيب الابيات حسب المراجع ، البيان (١/٢٣٤) ، (عبد السلام محمد هارون)
٣ ديوانه (١٠٦ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (١/٩٨ ، ١١٤) (مفاخرة الجواري والغلمان)

ونجد الأعشى يقول :

وأرى الغواني لا يواصلن أمرءاً فقد الشباب وقد يصلن الأمردا[1]

وفي شعر علقمة بن عبدة ترديد لرأي امرىء القيس وزيادة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب[2]

---

١ ديوانه (١٥١) ، رسائل الجاحظ (٩٨/١) ، (مفاخرة الجواري والغلمان) .
٢ ديوانه (١٣١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٩/٣) ، المفضليات (١٣١ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (٩٩/١ ، ١١٤) ، (مفاخرة الجواري والغلمان)

الفصل الثامن والستون بعد المئة

شعر المخضرمين

المخضرم هو الذي أدرك الجاهلية والإسلام[1] . والشعراء المخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام ونظموا الشعر في العهدين : الجاهليـة والإسلام . والمخضرم من يدرك عهدين متناقضين .

والشائع بين الناس أن الإسلام قد سبب في انصراف النـاس عن الشعر وعن روايته « بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملّة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره. وسمعه النبي، صلى الله عليه وسلم ، وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه »[2] . وقـد نسب الى (عمر) قوله : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عـن الشعر وروايته »[3]، « فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم

---

١ تاج العروس (٢٨١/٨) ، (المخضرم) ، الخزانة (١٢٩/١) ، (بولاق)

٢ مقدمة ابن خلدون (٥٨١) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٣)

٣ ابن سلام ، طبقات (١٠) ، المزهر (٤٧٣/٢) ،

كثير »[1] . والشائع بينهم أيضاً أن الشعر قد أصيب بسبب ما تقدم بنكسة ، فذبل وضعف وذهبت عنه قوة وسورة وجزالة وشدة الشعر الجاهلي ، وأعرض بعض الشعراء مثل (لبيد) عن الشعر ، اذ رأوا أن في كلام الله ما يغنيهم عنه، وقلّ بذلك عدد الشعراء ولا سيما الشعراء الفحول بالنسبة الى أيام الجاهلية ، وغلبت الليونة على الشعر الجديد ، فصار شعر (حسان) الذي قاله في الإسلام ضعيفاً ليناً بالنسبة الى شعره الجزل المتين الذي قاله في جاهليته .

وجوابي على هذه الدعاوى : صحيح ان الشعر الجاهلي قد نقص حجمه وضاع قسم كبير منه ، ولكن ضياعه ذلك لم يكن بسبب الاسلام ، وانما بسبب الأحداث والتطورات التي طرأت على جزيرة العرب ، بسبب دخولها في الاسلام ، كحروب الردة مثلاً والفتوح ، وانفتاح أرض الله الواسعة أمام المسلمين ، وفرار الكثير من أهل جزيرة العرب نحو الخارج بحثاً عن أرض أخصب وماء أوفر ، وجوّ أطيب وثراء وعيشة راضية . أما حروب الردة ، فقد أكلت من المسلمين ومن المرتدين جماعة عرفت برواية الشعر وبحفظها له ، وبنظم الشعر أيضاً ، فقلّ بهلاكهم عدد حفّاظ الشعر ، كما قلّ في الوقت نفسه عدد حفّاظ القرآن . وأما الفتوح، فقد قتل فيها قوم من الشعراء ومن حفّاظ الشعر ، فهلك بموتهم شطر من الشعر الجاهلي ، وتقلص عدد العلماء به . كما ألهت الناس عن الشعر ، بما فتحت لهم من آفاق الأرض وبما درّت عليهم من أموال وأشغال ، قلصت من فراغهم الذي كان يكوّن معظم حياتهم في البوادي ، فجعلتهم في الأرضين الجديدة يصرفون معظم وقتهم في استغلال الأرضين التي صارت من نصيبهم ، وفي إحياء الموات ، وفي تربية المواشي ، والاشتغال بالزراعة ، وهي أشغال تستبد بوقت الانسان ، وتصرف ذهنه اليها لمعالجتها ، فلا يشعر في مثل هذه الحالة بما كان يشعر به يوم كان في بواديه فارغ البال ، يقضي وقته بالتعبير عن نفسه بشعر يقتل به فراغه، ويسلي به نفسه بالتغني به لأصدقائه ، ثم هو قد يتعيش منه ، بما يناله من قبيلته من مال واحترام ، وبما قد يحصل عليه من مدحه للملوك والسادات من عطايا وهبات ثمناً للمدح . ومحيط فيه شغل وعمل ، وفيه تعب جسماني وعقلي لا يساعد على نمو الشعر فيه ، ومن هنا كان إقبال أهل الحضر مثل أهل مكة وأهل يثرب

---

١ المزهر (٢/٤٧٤)

وأهل الطائف وأهل اليمامة على الشعر ، ونبوغهم فيه أقل من إقبال أهل البوادي عليه ، بسبب انشغال أهل القرى والحضر عامة بتدبير أمور الحيـاة ، وبالحرف وباستغلال الأرض والمال والاتجار ، وبسبب تكتلهم وتجمعهم وتلاصق بيوتهم بعضها ببعض ، مما يجعلهم يطلعون على أحوال جيرانهم وعلى عوراتهـم ، ويقفون على أسرار حياتهم في الشعب وفي القرية ، فلا يكون للهجاء عندهم لهذا الأثر الـذي يكون له عند الأعراب ، ولا يكون للمدح عندهم ما يكون له من أثر عند أهل البادية . ومن هنا نجد دولة الشعر وقد قلّ نفوذها في العالم العربي في هذا اليوم عما كان عليه نفوذها قبل ثلاثين سنة أو أكثر ، بسبب التطور الحضاري الـذي أخذ يغزو العالم العربي ، وهو تطور يقلص من فراغ الانسان ، ويستبد بـه ، جاء له بهموم وبمشاكل نفسية وبأمراض الحضارة التي تريد المزيد من التمتع بمتع الحياة من جنسية ومادية ، ليتمتع بها الانسان في هذه الحياة التي لن يعود اليهـا مرة ثانية ، فصار يفكر في الحصول على المادة جهد طاقته ، ولو عن طريق إماتة أعصابه ، ليستمتع بأقصى حد ممكن باللذة الحسية ، التي صار يراها انها سبب هذا الوجود ، وذلك قبل فواتها منه ، بموت يخترمه منها ، فزاد الإقبال على المتعة ، وعلى رأسها الاستمتاع باللذة الجنسية ، وبلذة الشرب والتدخين ، وقلّ الإقبال على الاستمتاع باللذات النفسية ، وفي جملتها الشعـر ، فلا تجد اليوم له في أوروبة ما كان له من مكانة قبل عشرات السنين ، وغلب النثر عليه ، وقلّ عدد من كان يحفظ شعر الشعراء الماضين والمعاصرين ، وعلى هذا النحو صار حالنا اليوم ، فتناقص عدد حفّاظ الشعر في النجف مثلاً تناقصاً كبيراً من حيث العدد والكم ، والنجف في الشعر والأدب كوفة العراق بالأمس أيام الأمويين والعباسيين. فالإعراض الذي لاقاه الشعر في صدر الاسلام ، لم يكن بسبب كره الاسلام له ، وانما بسبب التطور الذي طرأ على حياتهم ، فغيرها من جميع الوجوه ، نتيجة لخروجهم من جزيرتهم ، ولاختلاطهم بأمم أعجمية ذات نظم أخـرى ، ونظرات متباينة مـع نظرات العرب الى مفهوم الحياة .

أما إعراض (لبيد) عن قول الشعر بعد اعتناقه الإسلام ، فليس مرده اعتقاده بكره الإسلام للشعر ، وانما هو في رأيي بسبب تقدمه في السن ، والانسان متى تقدم في العمر خفتت مواهبه وبرد احساسه ، ووهنت عواطفه التي تكون متقدمة في أيام المراهقة والشباب ، أو قد يكون هذا العامل وعامل آخر ، هـو سلطان

الدين الذي استولى عليه وهو في سن الشيخوخة ، بحيث صيره يشعر بوجوب الإنصراف نحو العبادة وحفظ ودراسة كتاب الله ، ومع ذلك فهناك روايات روت أن معظم شعره الذي فيه تدين وزهد وحث على العمل الصالح ، هو شعر قاله في الإسلام ، وان ما زعم من أنه ترك الشعر ، وانكب كلية على قراءة القرآن زعم غير صحيح .

وأما اعراض (بشار بن عدي بن عمرو بن سويد) الطائي عن الشعر ، فيظهر أنه عن وازع نفسي ديني ، حمله على التفرغ لدراسة كتاب الله ، وعلى الزهد ، وقد يكون ذلك بسبب تقدمه في السن . وفي تركه الشعر يقول :

تركت الشعر واستبدلت منه   كتاب الله ليس له شريك
وودعت المدامة والندامى   اذا داعى منادي الصبح ديك[1]

وأما إعراض (مالك بن عمير) السلمي عن الشعر[2] ، فهو حادث فردي كذلك ، لا يعلم مبلغ درجته من الصحة ، ومع ذلك ، فإن كل من ترك الشعر من الشعراء لا يصل عددهم الى عشرة ، وهم قلة بالنسبة الى عدد الشعراء المخضرمين الذين استمروا في نظمه في الإسلام .

وأما ما قالوه عن الضعف الذي ألمّ بشعر (حسان) الذي قاله في الإسلام ، وعن متانة شعره وجزالته في الجاهلية ، فلا يعقل إرجاع سببه إلى الإسلام ، فقد اتخذ الرسول (حساناً) شاعراً له ، يجبُ عنه وعن الإسلام المشركين ، كما شجع غيره في الردّ على شعراء الشرك ، وكان الرسول يستصوب الشعر الصلد الجزل المتين ذا المعاني الجيدة العميقة ، ومصدر ضعف (حسان) في شعره في الاسلام ، هو بسبب تقدمه في السن ، والتقدم في السن - كما سبق أن قلت - يضعف المواهب ، ومنها الشاعرية ، ويخمل العواطف ، فقد كان حسان في جاهليته شاباً ورجلاً ، قوي الجسم ككل رجل ، متقيد الحس ، متألق الحس ، متألق العاطفة ، ذا شاعرية حساسة ثائرة ، يشرب ويلهو ويسمع الغناء ويحضر مجالس الطرب ، فلما جاء الاسلام ، ودخل فيه مع من دخل ، كان قد تقدم في السن ،

---

١ الاصابة (١/١٧٤) ، (رقم ٧٦٧)
٢ الاصابة (٣/٣٣١) ، (رقم ٧٦٧٢)

فبرد حسه ، وضعف شعره في المعاني التي قالها في الجاهليـة ، وفي الدروب التي سلكها من دروب الشعر الجاهلي ، ولكنه تألق في معان أخرى تنسجم مع عمره ومع المثل التي اعتنقها ، فمن ثم صار شعره يختلف عن شعره في الجاهلية . ولم يقع ذلك لحسان وحده ، وإنما وقع هذا الحادث لكل شاعر هجم عليه العمر ، واستبدت به الأعوام .

ومما وقع للشعر في الاسلام ، ان الزعامة انتقلت فيه من البوادي الى الحواضر ، فبعد أن كان شعر الأعراب ، بجزالته وبخشونته وبصلادته ، هو المقدم عند علماء الشعر والمحبين له ، وبعد أن كانت القبائل هي التي تنجب الفحـول ، صارت الحواضر هي التي تنبت الفحول ، لتبدل الزمن ، ووقوع تغير في الذوق ، ولتغلب الحضارة على البداوة ، ولاهتمام الناس بالمعاني ، أكثر من اهتمامهم بالشكل وبمظهر القوالب فقل شعر الشعراء الأعراب الفصحاء ، ثم انحسر الشعر من موطنه ، كما انحسر أكـثر سكان البوادي عن بواديهم ، ليلحقوا بخير الحضر ، وصار الشعر العربي الفصيح من حصة الحضر في هذه الأيام . كما حلت الكوفة ثم (دمشق) ثم بغداد فبقية الحواضر محل (الحيرة) وقصور الغساسنة ومضارب سادات القبائل في استقبال الشعراء وفي الانعام عليهم بالهدايا والألطاف . ولتغير الذوق بتغـير المجتمع ، تغير الشعر كذلك ، ولا سيما في أيام بني العباس .

وفي شعر المخضرمين شعر قيل في الرسول وفي حوادث الاسلام ، وفي الرد على المشركين وتسفيه مقالتهم في دينهم ونيلهم من دين الله . قاله الشعراء بعد دخولهم في الاسلام . وعلى رأس هؤلاء من ذكرت من شعراء يثرب ، يتقدمهم (حسان ابن ثابت) شاعر الرسول ، الذي كان يستدعيه الرسول في المناسبات ليجيب على شعر الشعراء الوافدين عليه ، كالذي كان من أمره مع شاعر وفد (تميم) الزبرقان ابن بدر .

وكان لرد شعراء يثرب على شعراء قريش ومن لف لفهـم ، أثر كبير في نفوس المشركين . يروى ان النبي قال لحسان بن ثابت : اهجهم ، يعني قريشاً ، فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام ، في غلس الظـلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس[1] . وقد كان هجاؤه شديداً عليهم ، له وقع في نفوسهم أشد

---

[1] العمدة (١٢/١) ، الاغاني (٧/٤) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٧)

من وقع شعر بقية الشعراء عليهم . فقد كان لسانه حاداً قاطعاً ، لا سيما اذا ما تناول ناحية الهجاء وما يتعلق منه بالوقائع والأيام والنزاع القديم الذي كان بين أهل مكة ويثرب . فيجيد في ذلك كل الإجادة ، ويتفوق بهذه الناحية على شعراء قريش .

وكان حسان وكعب يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبدالله بن رواحة يعيّرهم بالكفر وينسبهم الى الكفر، ويعلم انه ليس فيهم شر من الكفر ، فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب ، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة [1] .

وأما شعر شعراء مكة الى عام الفتح ، فكان في إيذاء الرسول والإسلام، وفي هجاء المسلمين ، وتمجيد قريش ورثاء من قتل من المشركين وتعظيم أمر الجاهلية وسنة الآباء وما ألفوه عن آبائهم من أمور . وقد حفظت كتب السير والمغازي والتواريخ شيئاً من شعرهم ، من النوع الذي لم يتضمن قذعاً شديداً بالاسلام ، ولا شتماً عنيفاً وهجاءً غليظاً بالرسول وبالمسلمين . أما النوع الثاني الذي أفحش فيه أولئك الشعراء،وجاءوا فيه بشتائم وسباب ، فقد أنف أصحاب السير والمغازي والتأريخ من روايته ، فتركوه ، ولو جمع الباقي من شعرهم مع ما ردّ عليه ، لكوّن منه ديواناً ثميناً في المعارضة التي كانت بين المشركين والمسلمين في مبدأ ظهور الاسلام ، ولكان سجلاً قيماً لتأريخ ذلك الصراع ، ولكيفية تغلب الاسلام على الشرك . فهو وثائق تأريخية من الدرجة الأولى ، على أن يغربل ويفحص فحصاً علمياً للتيقن من درجة صفائه ونقائه بالطبع .

ونوع آخر من أنواع الشعر كان عند المخضرمين ، هو شعر القتال . القتال الذي وقع بين المسلمين والمشركين واليهود ، الى أن انتصر الإسلام . فاختفى صوت الشرك وصوت يهود ، وبقي صوت الإسلام وحده ، لا يعارضه أحد ، ولا يجابهه صوت . فقد كان من عادة العرب ، أنهم اذا تقاتلوا أنشدوا شعراً يفتخرون فيه بأنفسهم وبقبيلتهم وبشجاعتهم ، ولا سيما حين يخرج فارس لمبارزة فارس آخر ،وقد يقف الشعراء في صفوف المحاربين يحرضونهم على القتال والاستبسال .

---

[1] الاغاني (١٥/٢٩)

ونجد في بطون كتب السير والمغازي والتواريخ ، نماذج طيبة من هـذا الشعر : شعر القتال. قال المحاربون عند خروجهم من صفوف المقاتلين لمقابلهم من سيخرج لمبارزتهم من الجانب الثاني .

وتولد من هذا النوع من الشعر شعر آخر قيل في معارك الفتوح . في المعارك التي وقعت مع عرب الحيرة ، ثم مع الفرس ، وفي المعارك التي حدثت بين المسلمين وبين الغساسنة ، وبين المسلمين والروم ، ثم في الفتوحات الأخرى. فقد ساهم في هذا القتال شعراء مخضرمون ، حاربوا في الجاهلية ، وحاربوا في الاسلام. وحافظوا على تقاليدهم وأعرافهم القديمة التي كانت لهم في الجاهلية عند القتال ، من التحمس في القتال والاندفاع من الصفوف الى الأمام لمبارزة من قد يبرز لهم لمقاتلتهم ، ومن التغني بالقتال ومبارزة العدو . ونجد في كتب الفتوح والتأريخ والأخبار ، نماذج من هذا الشعر . ونجد في شعر (قيس بن مكشوح) المرادي وصفاً ليوم القادسية ، وفخراً بسيره مع جمع من قومه من (صنعاء) الى وادي القرى فديار كلب ، الى اليرموك ، فالشأم ، ثم القادسية بعد شهر ، ثم مقابلته جمع كسرى وأبناء المرازبة ، وهجومه على رأس الفرس[1] . ولو جمعنا هذا الشعر الذي قيل في هذا القتال لكوّنا منه ديواناً[2] ، يصور هجرة القبائل العربية من مواطنها الى البلاد المفتوحة ، ويتحدث عن الأبطال الذين ساهموا في جمع هذا الديوان،والملحمة الشعرية التي تروي قصص الفتوح ، وما قام به المحاربون الشجعان في حروب الفتح[3] .

وهناك شعراء أسلموا ، لكن قلوبهم بقيت على ما كانت عليه قبل الاسلام ، من عدم الاهتمام بأمور الدين ، فلم يحفلوا بالاسلام ، ولم يذكروا الرسول ، وهم شعراء أهل البادية الأعراب.

وطالما كان يأتي الشعراء الى (يثرب) على طريقتهم في الجاهلية في إنشاد شعرهم أمام رجل منهم عظيم ، مثل ملوك الحيرة أو الغساسنة ، أو سادات القبائل. فيقف الشاعر أمام الرسول لينشده شعره الذي أعده لهذه المناسبة ، أو ليقول شعراً

---

١ الاصابة (٣/٢٦١) ، (رقم ٧٣١٥) ، الاستيعاب (٣/٢٣٥)
٢ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١٦)
٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٣)

بالمناسبة . ولما قدم وفد (تميم) ، المدينة ، ودخلوا المسجد ، وقالوا : « يا محمد ، جئناك لنفاخرك ، فائذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : نعم ، أذنت لخطيبكم فليقل، فخطب : (عطارد بن حاجب) ، فلما انتهى قال الرسول لثابت بن قيس بن شماس ، أجبه ، فأجابه . ثم قالوا : يا محمد ، ائذن لشاعرنا ، فقال : نعم ، فقام الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا   منّا الملوك وفينا تنصب البيعُ

فلما انتهى منها ، أجابه حسان ، فحكموا ان خطيب المسلمين أخطب من خطيب تميم ، وان شاعر الرسول أشعر من شاعرهم[1] .

وعادة التفاخر في مجالس الملوك وسادات القبائل ، وإنشاد الشعر في ذلك ، وردّ الشعراء بعضهم على بعض ، دفاعاً عن قومهم ، من العادات الجاهلية القديمة ، التي بقيت في الاسلام كذلك ، ولما أخذت الوفود تفد على الرسول بعد فتح مكة ، كان في أعضائها من يخطب على طريقتهم في الخطابة ، ومنهم من ينشد الشعر ، ثم يعلنون إسلامهم ، ومنهم من يشترط شروطاً ، وكان من بين المسلمين من يتولى الردّ عليهم ، وقد يجيبهم الرسول بنفسه .

وقد كره الاسلام من الشعر الجاهلي الشعر الذي يتعرض بالأعراض ويتحرش بعورات الناس ، والشعر الذي يهيج الفتن ، ويلقي البغضاء بين الاخوة ، فيعيدها فتنة جاهلية ، ومن هنا جاء النهي عنه في قوله : « لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً يَرِيه خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً »[2] ، ولم يأت في عامة الشعر . وآخذ الخلفاء الشعراء الهجائين متى اقذعوا في شعرهم ، وتحاملوا فيه على الناس ، تحاملاً يغض منهم . وهنا حبس (عمر) الحطيئة ، وكان يقف بالمرصاد لمن يفعل فعله في نهش أعراض الناس. ولذلك تخوف المخضرمون في شعرهم من شعر الهجاء واحترسوا فيه امتثالاً للمثل الإسلامية التي تأمر بالابتعاد عن ذكر المثالب والامتناع عن إيذاء الناس ، وخوفاً من تأديب الخلفاء لهم إن نهشوا أعراض المسلمين .

---

١ الطبري (٣/١١٥) ، (قدوم وفد تميم ونزول سورة الحجرات)

٢ البخاري ، (كتاب الزكاة ، باب قوله تعالى : لا يسألون الناس الحافا) ، وفي أبواب أخرى ، شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، زاد المسلم (١/٣٥٠ وما بعدها) .

والقديم من شعر المخضرمين ، ولا سيا شعر المتقدمين منهم في السن ، هو استمرار في الواقع للشعر الجاهلي ، نظم على طريقة أهل الجاهلية وأساليبهم في نظم الشعر وعلى معانيهم التي كانوا يتطرقون اليها في شعرهم في الغالب ، فقد ولدوا في الجاهلية وقضى بعض منهم أكثر سني حياته فيها، ونظموا أكثر شعرهم في تلك الأيام وفي الأحداث التي وقعت فيها . ولذلك صار شعرهم يختلف عن شعر الشعراء الاسلاميين ، لأنهم لم يشهدوا الجاهلية ولم يدركوها ، وهم من ثم لم يتأثروا بعقليتها كثيراً ، ومن هنا يجب علينا أن نوجه لشعر الشعراء المخضرمين المسنين الذين قضوا أكثر أيام حياتهم في الجاهلية عناية خاصة ، وأن نقوم بدراسته دراسة نقد دقيقة ، إذ نتمكن بها من الوقوف على تطور الشعر الجاهلي ومكانته عند ظهور الاسلام .

ومن الشعراء المخضرمين من لقي الرسول وصحبه ومدحه وروى عنه ، ومنهم من صحبه ، لكنه لم يرو عنه ، ومنهم من لم يره لكنه دخل في الإسلام . وقد ذكر بعض العلماء أسماء الشعراء الذين صحبوا الرسول ورووا عنه ، منهم (حسان ابن ثابت) ، و (كعب بن مالك) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (عدي ابن حاتم) الطائي ، و (عباس بن مرداس) السلمي ، و (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) ، و (حميد بن ثور) الهلالي ، و (أبو الطفيل عامر ابن واثلة) ، و (أيمن بن خريم) الأسدي ، و (أعشى) بني مازن ، و (الأسود بن سريع) ، و (الحارث بن هشام) ، و (عمرو بن شاس)، و (ضرار بن الأزور) ، و (خفاف بن ندبة) ، و (لبيد بن ربيعة) ، و (ضرار بن الخطاب) ، و (عبدالله بن الزبعرى) ، ولم تكن للبيد ، ولا لضرار ولا لابن الزبعرى رواية عنه . وكذلك (أبو ذؤيب) الهذلي ، و (الشماخ ابن ضرار) ، وأخوه (مزرد بن ضرار)[1] .

وقد عدّ (ابن سلام) (النابغة) الجعدي ، والشماخ بن ضرار ، ولبيد ، وأبو ذؤيب الهذلي طبقة ، وقال : وكان الشماخ أشد متوناً من لبيد ، ولبيد أحسن منه منطقاً[2] .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٦١) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاستيعاب (٣/٥٦١) ، (حاشية على الاصابة) .

و (النابغة) الجعدي ، هو : (أبو ليلى عبدالله بن قيس) ، أو (قيس بن عبدالله بن عدس) ، وقيل : (حبّان بن قيس) ، (حيـان بن قيس) ، وغير ذلك . قيل له (النابغة) ، لأنه كان يقول الشعر ثم تركه في الجاهلية ، ثم عاد اليه بعد أن أسلم ، فقيل : نبـغ . قيل انه كان قديماً شاعراً مفلقاً طويل العمر في الجاهلية وفي الاسلام ، ، حتى زعم انه كان أسنّ من النابغة الذبياني ، واستدلوا على طول عمره بأبيات زعموا انه قالها هي :

ألا زعمت بنو أسد بأني ... أبو ولد كبير السن فاني
فمن يك سائلاً عني فإني ... من الفتيان أيام الختان
أتت مائة لعام ولدت فيه ... وعشر بعد ذاك وحجتان
وقد أبقت صروف الدهر مني ... كما أبقت من السيف اليماني[1]

وذكر (السجستاني) في كتاب المعمرين ، انه عاش مائتي سنة . وهو القائل:

قال (؟) أمامة كم عمرت زمانه ... وذبحت من عتر على الأوثان
ولقد شهدت عكاظ قبل محلّها ... فيها وكنت أعد من الفتيان
والمنذر بن محرّق في ملكـه ... وشهدت يوم هجـائن النعمان
وعمرت حتى جاء أحمد بالهدى ... وقوارع تتـلى من القـرآن
ولبست في الإسلام ثوباً واسعـاً ... من سيب لا حرم ولا منـان[2]

وهو عند الأخباريين أسن من النابغة الذبياني وأكبر ، واستدلوا على أنه أكبر من النابغة الذبياني ، بأن النابغة الذبياني كان مع النعمان بن المنذر ، وكان النعمان ابن المنذر بن محرق . وقد أدرك النابغة الجعدي المنذرَ بن محرق ونادمه ، ولكن النابغة الذبياني مات قبله ، وعمّر بعده عمراً طويلاً . ذكر بعضهم أنه عمّر مائـة وثمانين وذكر بعضهم أنه عمر أكثر من ذلك حتى ذكر بعض منهم انه عمّر مائتين

---

١ تختلف هذه الابيات في النظم وفي الترتيب في كتاب الاصابة عنها في الاستيعاب وفي الكتب الاخرى ، الاصابة (٥٠٨/٣ وما بعدها) ، (رقم ٨٦٤١) ، الاستيعـاب (٥٥٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) ، ابن هشـام (٥٣/١) ، (حاشية عـلى الروض) ، الروض الانف (٥٣/١) .

٢ الاصابة (٥٠٨/٣) ، (رقم ٨٦٤١) ، البخلاء (٢٠٢ وما بعدها ، ٢٠٨ ومـا بعدها ، ومواضع أخرى راجع ص ٦١٢) .

وعشرين سنة . وذكروا أن (عمر) قال له : كم لبثت مع كل أهل ؟ قال ستين سنة . وأنشده قوله :

لقيت أناساً فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا
ثلاثة أهلين أفنيتهم وكان الإله هو المستآسا[1]

وجعل بعضهم عمره (٢٤٠) سنة ، وكان أكثرها في الجاهلية[2] .

وهو من (الفلج) جنوب نجد ، وكان يزور بني لخم في الحيرة . وكان شاعراً مغلّباً ، ما هاجى قط إلا غلب ، هاجى أوس بن مغراء ، وليلى الأخيلية، وكعب بن جميل فغلبوه جميعاً . وذكر انه مكث الى أيام (عبدالله بن الزبير)[3].

وذكروا انه كان يذكر في الجاهلية دين ابراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر . وقال في الجاهلية كلمته التي أولها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

وفيها ضروب من دلائل التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار وصفة بعض ذلك على نحو شعر أمية بن أبي الصلت ، وقد قيل ان هذا الشعر له ، ولكنه قد صححه علماء الشعر مثل : يونس بن حبيب ، وحماد الراوية ، ومحمد ابن سلام ، وعلي بن سليمان الأخفش للنابغة الجعدي[4] .

وروي انه كان ممن فكر في الجاهلية وأنكر الخمر والسكر وهجر الأزلام واجتنب الأوثان وذكر دين ابراهيم[5] .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٥٢) ، (حاشية على الاصابة) ، الاغاني (٤/١٢٨) ، الخزانة (١/٥١٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٠٨) ، الموشح (٦٤) ، ابن سلام ، طبقات (٢٦) ، مجالس ثعلب (٦٦٣) ، الاشتقاق (٣٣٨) .
٢ الروض الانف (١/٥٣) ، (لبست أناسا) ، أمالي المرتضى (١/٢٦٤) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦١٤ وما بعدها) ، الاغاني (٥/١ وما بعدها) ، (دار الكتب) ، الجمحي ، طبقات (٢٦ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٥٨ وما بعدها) ، المعجم ، للمرزباني (٣٢١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦١٤) ، المعمرون ، للسجستاني (٦٦) ، الخزانة (١/٥١٢) ، أسد الغابة (٥/٢ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٢٣٢) ، البخلاء (٢٤٣) .
٤ الاستيعاب (٣/٥٥٢) ، (حاشية على الاصابة) ، الخزانة (١/٥١٤ وما بعدها)، رسالة الغفران (٢٠٢) .
٥ الاصابة (٣/٥٠٩) ، (رقم ٨٦٤١) .

وذكر ان (النابغة) قدم على (عثمان) يستأذنه في السفر الى البادية ، لأن نفسه اشتاقت اليها ، ليشرب من ألبانها ، وليشرب من شيح البادية ، فقال له عثمان : « أما علمت ان التعرب بعد الهجرة لا يصلح ؟ قال : لا والله ما علمت وما كنت لأخرج حتى استأذنك ، فأذن له ، وضرب له أجلاً » . ثم دخل على (الحسن بن علي) فودعه ، فقال له : أنشدنا من بعض شعرك ، فأنشده :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال : يا أبا ليلى ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ؟ قال : يا ابن بنت رسول الله ، والله اني لأول الناس قالها وان السروق من سرق أمية شعره »[1] .

وذكر أنه كان من أصحاب (علي) وحارب معه يوم صفين ، وله مع (معاوية) أخبار . ومات معمراً بأصبهان سنة (٦٥ هـ) (٦٨٤ م) . وكان معاوية سيره اليها مع (الحرث بن عبدالله بن عوف بن أصرم) . وكان ولي اصبهان من قبل علي[2] .

وقد وفد النابغة على النبي وأنشده قصيدته الرائية التي فيها :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى   ويتلو كتاباً بالمجرة نيرا

الى أن بلغ قوله :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[3]

فقال رسول الله : إلى أين أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله : نعم إن شاء الله[4] .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

٢ الاصابة (٣/٥٠٩) ، (رقم ٨٦٤١) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٢٣٢) ، الاصابة (٣/٥١٠) .

٣ تختلف الروايات في ضبط هذه الابيات ، ولعلماء الشعر روايات مختلفة عنها ، رسالة الغفران (٢٢٨) ، أمالي المرتضى (١/٢٦٦) ، الاغاني (٤/٥٣٩) .

٤ الاصابة (٣/٥٠٩) ، (رقم ٨٦٤١) ، الاستيعاب (٣/٥٥٢ وما بعدها) .

ولما أنشده :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكـدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فاستحسنه الرسول وقال : لا يفضض الله فاك . وذكر أن كلمة النابغة هذه قصيد مطوّل نحو مائتي بيت أوله :

خليـلي غضا ساعـة وتهجرا ولو ما على ما أحدث الدهر أو ذرا

وهو من أحسن ما قيل من الشعر في الفخر بالشجاعة سباطة ونقاوة وجزالـة وحلاوة[1] . وقد تعرض فيها بأمور الجاهلية والاسلام .

وأسلم وحسن إسلامه وكان يرد على الخلفاء ورد على عمر ثم على (عثمان) .

ويظهر ان القصيدة قد طوّلت على (النابغة) فيما بعد ، وانها لم تكن على هذا النحو من الطول لمـا أنشدها عـلى الرسول . وقد روى بعض العلماء منها أربعة وعشرين بيتاً[2] ، لعلها هي الأبيات التي أنشدها أمام النبي .

وذكر انه كان بالبصرة ، فرعت (بنو عامر) في الزرع ، فبعث (أبو موسى) الأشعري في طلبهم ، فتصارخوا يا آل عامر ! فخرج النابغة الجعدي ومعه عصبة له . فضربه أسواطاً . فقال النابغة في ذلك :

رأيت البكر بكر بني ثمود وأنت أراك بكر الأشعرينا
فإن تك لابن عفّان أميناً فلم يبعث بك البر الأمينا
فيا قبر النبي وصاحبيـه ألا ياغوثنـا لو تسمعونا
ألا صلى الإلـه عليـكم ولا صلى على الأمراء فينا[3]

وقد مدح (النابغـة) الجعدي عبدالله بن الزبير ، ويظهر انه كان في ضيق وعسر ، إذ يقول فيها :

---

١ الاستيعاب (٣/٥٥٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، وتجد ابياتا منها في الاستيعاب ، الاغاني (٥/٨) .
٢ الاصابة (٣/٥١٠) ، (رقم ٨٦٤١) .
٣ الاستيعاب (٣/٥٥٦ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

أتاك أبو ليلى تجوب به الدجى دجى الليل جوّاب الفلاة عرمرم
لتجبر منه جانباً دعدعت به صروف الليالي والزمان المصمم

فأعطاه قلائص سبعاً وفرساً وخيلاً ، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثياباً[1] .

ومن جيد شعره قوله :

فتى كملت خيراته غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا
فتى تمّ فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا[2]

قال العلماء في شعر (النابغة) : « خمارٌ بوافٍ ، ومطرف بآلاف . يريدون أن في شعره تفاوتاً ، فبعضه جدّ مبرّز وبعضه رديء ساقط »[3] . ونسب الى (الفرزدق) قوله في النابغة الجعدي : « صاحب خُلقان ، يكون عنده مطرف بألف دينار ، وخمار بواف»[4] .

وقد ذكر (أبو العلاء) المعري قصيدة النابغة التي يقول فيها :

ولقد أغدو بشرب أنف قبل أن يظهر في الأرض ربش

فقال على لسان (النابغة) الجعدي : « ما جعلت الشين قط روياً ، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط »[5] .

وروى (المعري) له قصيدة ، استحسن منها قوله :

طيبة النشر ، والبداهة ، والـ ـعِلاّت ، عند الرُقاد والنسم[6]

ومن شعره قوله في (زياد بن الأشهب بن أدد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة) العامري الجعدي :

مقام زياد عند باب ابن هاشم يريد صلاحاً بينكم ويقرب

---

١ الاستيعاب (٣/٥٥٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاستيعاب (٣/٥٥٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢١٠) ، (دار الثقافة) ، البيان والتبيين (١/٢٠٦) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٦٩) .
٥ رسالة الغفران (٢٠٩) .
٦ رسالة الغفران (٢١٩ وما بعدها) ، تهذيب الالفاظ (٦٣١) ، السمط (٤٣١) .

وكان قد مشى في الصلح بين علي ومعاوية . وكان من أشراف أهل الشأم ومن المقربين الى معاوية [1] .

و (الطفيل بن عمرو بن طريف) الدوسي ، من الشعراء الأشراف . كان شاعراً لبيباً . تذكر رواية انه أسلم حين كان الرسول بمكة ، وانه لما أتى مكة ذكر ناس من قريش أمر النبي ، وسألوه أن يختبر حاله ، فأتاه فأنشده من شعره ، فتلا النبي الاخلاص والمعوذتين فأسلم في الحال وعاد الى قومه . وتذكر رواية انه عاد مرة أخرى الى مكة ، ثم عاد الى قومه حتى هاجر الرسول الى المدينة ، فجاء على رأس وفد من دوس ممن أسلم ، فوصل والرسول محاصر (خيبر) ، فمكث بالمدينة حتى اذا فتحت مكة ، بعثه الرسول الى (ذي الكفين) صنم (عمرو بن حممة) حتى أحرقه . وقد أورد (المرزباني) شيئاً من شعره [2] .

وأعشى بن مازن ، أو الأعشى المازني ، هو (عبدالله بن الأعور) ، وقيل ان اسم (الأعور) (رؤبة بن فزارة بن غضبان بن حبيب بن سفيان بن مكرز ابن الحرماز بن مالك بن عمرو بن تميم) . يكنى (أبا شعيثة) . « وقال أهل الحديث : يقولون المازني وانما هو الحرمازي ، وليس في بني مازن أعشى » . وذكر انه أتى النبي فأنشده :

يا مالك الناس وديّان العرب   اني لقيت ذربة من الذرب

وفيه قصة امرأته وهربها [3] .

فكتب النبي الى (مطرف بن نهصل) ، وكانت امرأته عنده ، ان يعيدها اليه ، فأعادها ، فقال :

---

١ الاصابة (١/٥٦٢) ، (رقم ٢٩٨٥) .

٢ الاصابة (٢/٢١٦ وما بعدها) ، (رقم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢/٢٢١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، سيرة ابن هشام (١/٢٣٤ وما بعدها) .

٣ الاصابة (٢/٢٦٧ وما بعدها) ، (رقم ٤٥٣٥) . ورويت الابيات على هذا النحو :

يا سيد الناس وديان العرب   أشكو اليك ذربة من الذرب
كالذئبة العسلاء في ظل السرب   خرجت أبغيها الطعام في رجب
فخالفتني بنزاع وهرب   أخلفت العهد ولطت بالذنب
وهن شر غالب لمن غلب .

الاستيعاب (٢/٢٥٧) ، (حاشية على الاصابة) ، (١/١٢٢) .

لعمرك ما حبي معاذة بالذي يغيره الواشي ولا قدم العهد
ولا سوء ما جاءت به إذ أزلها غواة رجال إذ ينادونها بعدي[1]

وذكر صاحب (الاستيعاب) ، ان اسم والد (أعشى) مازن ، هو (الأطول). وقيل اسم الأطول أو الأعور : (عبدالله)[2] .

وروى ان اسمه (عبد بن لبيد) الأعور . وقيل : (الأعـور بن قراد بن سفيان) . وكان قد خرج في (رجب) يمير أهله من هجر ، فهربت امرأته بعده ناشزاً عليه ، فعاذت برجل منهم . فجاء (الأعشى) الى الرسول وعاذ به . وأنشأ يقول قصيدته[3] .

ومن شعره :

يا حكم بن المنذر بن الجارود سرادق المجـد عليك ممدود
أنت الجواد ابن الجواد المحمود نبتّ في الجود وفي بيت الجود
والعود قد ينبت في أصل العود[4]

و (الحطيئة) ، وهو (جرول بن أوس بن مالك بن « حيوة » جؤيـة بن مخزوم بن مالك) العبسي ، ويكنى (أبا مليكة) « من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم ، وكان يتصرف في جميع فنون الشعر من مدح وهجاء وفخر ونسب ويجيد في جميع ذلك . وكان ذا شر وسفه ، وكان اذا غضب على قبيلة انتمى الى أخرى ، زعم مرة انه ابن عمرو بن علقمة من بني الحارث بن سدوس . وانتمى مرة الى ذهل بن ثعلبة ، وأخرى الى بني عمرو بن عوف . وله في ذلك أخبار مع كل قبيلة وأشعار مذكورة في ديوانه . وكان كثير الهجـاء حتى هجا أباه وأمه وأخاه وزوجته ونفسه ، وهو مخضرم أدرك الجاهليـة والاسلام . وكان أسلم في عهـد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتـد ثم أسر وعاد الى

---

١ الاستيعاب (٢/٢٥٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاستيعاب (٢/٢٥٦) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الفائق (١/٤٢٢ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٢/٢٦٨) ، (رقم ٤٥٣٥) .

الاسلام[1] . وكان ملحفاً شديد البخل ، لا يقف إلحافه في السؤال عند حد ، ولا يخجل من التصريح في الاستكداء وفي إذلال نفسه في الحصول على مال . طاف في الآفاق يمتدح الأماثل ويستجديهم . وقد عدّ في البخلاء . « قيل بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلي ، وخالد بن صفوان »[2]. وقيل عنه انه كان « دنيء الطبع ، لئيم النفس ، كثير الطمع ، جعل الشعر متجراً ، فكان له من الهجاء معاش ومكسبٌ لأن الناس كانوا يهدون له الهدايا خوفاً من شره . فقال الأصمعي : كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ملحفاً دنيء النفس، كثير الشر قليل الخير ، بخيلاً قبيح المنظر ، رث الهيئة مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شعر شاعر ما من عيب إلا وجدته فيه ، وقلما تجد ذلك في شعره »[3] ، كان لا يبالي من هجو من سبق أن مدحه وأثنى عليه ، لاغداقه المال عليه ، بل يظهر انه كان من ذلك الفريق من الناس المرضى النفوس الذين كانوا يسيئون الى من أحسن اليهم ، بل كانوا أول من يسيء الى من أحسن اليه ، لعقدة مستعصية في النفس .

وكان قصير القامة، ولقصره هذا لقب بالحطيئة . وكان ذمياً ، قبيح الوجه، سيء الهيئة ، ولعل هذه الأمور هي التي صيرته سيء الطبع ، هجاءً لكل أحد، فلا يسلم من لسانه أحد . فلما هجا أباه ، بأبيات قاسية شديدة منها :

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم، لاحيّاك ربي ، ... وأبواب السفاهة والضلال

قيل : « كان الحطيئة يرعى غنماً له ، وفي يده عصا . فمرّ به رجلٌ فقال: يا راعي الغنم ما عندك ؟ قال : عجراء من سلمٍ . يعني عصاه . قال : إني ضيف . فقال الحطيئة للضيفان أعددتها »[4] .

---

١ الاصابة (١/٣٧٧ وما بعدها) ، (رقم ١٩٩١) ، العمدة (١/٨١ وما بعدها) ، البيان (٢/١٣ وما بعدها) ، الخزانة (١/٤٠٨) ، الاغاني (٢/٤١ وما بعدها) ، (١٦/٣٨) ، الطبقات ، لابن سلام (٩٢ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (.نعمان أمين طه) ، الخزانة (٢/٤٠٦) ، (هارون) ، (١/٤٠٩) ، (بولاق) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٧٧ وما بعدها) .

٣ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٩ وما بعدها) .

٤ البيان والتبيين (٢/١٤٧) ، (٣/٨٠) .

وهجا أمه بشعر موجع منه قوله :

تنحي فاقعدي مني بعيداً أراح الله منك العالمينا
ألم أوضح لك البغضاء مني ولكن لا أخالك تعقلينا
أغربالاً إذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثينا
جزاك الله شراً من عجوز ولقّاك العُقوق من البنينا
حياتك ما علمت حياةُ سوء وموتك قد يسر الصالحينا

ثم هجا أخاه وزوجته ، فلما لم يبق أمامه أحد سلم من هجائه إلا نفسه ، اذ اطلع في حوض فرأى وجهه فقال :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما بسوء فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله[1]

وقد جعل (المعري) هذا الشعر ، سبباً دخل به الجنة ، لقوله بالصدق[2] .

وله قصيدة (سينية) مشهورة ، هجا فيها (الزبرقان بن بدر) ، فسجنه (عمر) عليها ، منها قوله :

ملوا قراه ، وهرته كلابهم وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد، فإنك أنت الطاعم الكاسي

وفيها :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس[3]

وقد قال (أبو عمرو بن العلاء) عن هذا البيت : « لم تقـل العرب قط بيتاً ، أصدق » منه[4] »

---

١ الشعر والشعراء (٢٤٠/١) ، (والحطيئة الرجل الدميم أو القصير ، ومنه لقب جرول الشاعر العبسي لدمامته • قاله الجوهري • وقيل : كان يلعب مع الصبيان فسمع منه صوت ، فضحكوا • فقال : ما لكم ! انما كانت حطيئة ، فلزمته نبزا ، وقيل غير ذلك) ، تاج العروس (٥٧/١) ، (حطأ) ، الخزانـة (٤٠٩/٢) ، (هارون) •
٢ رسالة الغفران (٣٠٧) •
٣ رسالة الغفران (٣٠٧) •
٤ الاغاني (١٨٤/٢ وما بعدها) ، السيوطي شرح شواهد (٩١٦/٢ وما بعدها) •

وقد حملت دمامة خلقة الحطيئة ورثة هيئته وسوء ملبسه الناس على ازدراء شأنه وعدم الاهتمام به عند حضوره مجلساً لا يعرفه فيه أحد ، والى وقوعه في مشاكل معهم . وقد يكون من الصعب عليهم رتق الخرق بعد وقوعه وإصلاح حاله . غير أن منهم من كان يجد سبيلاً الى ذلك ، باسترضائه بتقديم المال له ، وهو مـا يطلبه ، فينسيه ما أصابه من ازدراء وإهمـال[1] . وزعم أنه كا مغمور النسب ، وأنه كان من أولاد الزنا الذين شرفوا[2] .

وقد غلب الهجاء على طبعه ، حتى عدّ من أنبغ الشعراء المتقدمين فيه . وقد ذهب (بروكلمن) الى أن للهجاء الفضل في بقاء شعر الحطيئة[3] . فالهجـاء باب له متفذ واسع الى العواطف حفظه الأعداء والحساد للنيل ممن قيل بحقهم من أعدائهم وحسادهم ، فحفظه الناس جيلاً عن جيل .

ويقال ان (عمر) لما لقي الحطيئة قال له : « كأني بك عند بعض الملوك تغنّيه بأعراض الناس . أي تغني بلمهم وذم أسلافهم في شعرك وثلبهم »[4] . ولما هجا (الحطيئة) (الزبرقان بن بدر) استعدى عليه (عمر) ، فدعا (حسان بن ثابت) فقال : أتراه هجاه ؟ قال : نعم وسلح عليه فحبسه ، فقال وهو في حبسه شعراً يستعطف به (عمر) حتى رق عليه ، وشفع له (عمرو بن العاص) ، فأطلقه على ألا يهجو أحداً[5] . ويقال انه كتب الى عمر شعراً يتوسل فيـه العفو عنه ، وأن يرحم حال أولاده الصغار بذي مرخ ، فيه :

ماذا تقول لأفراخ بـذي مرخٍ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمـةٍ ... فاغفر عليك سلامُ الله يا عمـر

---

١ راجع قصته مع « عتيبة بن النهاس العجلي » ، ثم قصة حضوره مجلس « سعيد بن العاص » « سعيد بن العاصي » ، وقصصاً أخرى ، وهي تتحدث عـن ازدراء شأن الحطيئة لهيئته ولجهلهم به ، ثم عن استرضائهم له بعد وقوفهم على أمره ، الشعر والشعراء (٢٤٠/١ وما بعدها) .

٢ الخزانة (٤٠٧/٢) ، (هارون) ، (٤٠٩/١) ، (بولاق) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٨/١) .

٤ اللسان (١٧١/٧) ، (عرض) .

٥ الاصابة (٣٧٨/١) ، (رقم ١٩٩١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٩١٦/٢ ومـا بعدها) ، الشعر والشعراء (٢٤٤/١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٤٠/١) .

أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ألقى اليك مقاليدَ النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لهـا لكن لأنفسهم كانت بها الخير[1]

واذا صح ما روي من أن الحطيئة لما قدم المدينة ، يريد الرسول ، أرصدت له قريش العطاء ، خوفاً من شره[2] ، فيجب أن يكون قدومه قبل عـام الفتح ، وغلبة المسلمين عـلى المشركين . ولكننا نجد بعض الرواة يشكون في دخوله في الإسلام حياة الرسول . يقـول (ابن قتيبة) : « ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأني لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب ، إلا اني وجدته يقول في أول خلافة أبي بكر رضي الله عنه حـين ارتدت العرب :

أطعنا رسولَ اللهِ إذ كان حاضراً فيا لهفتي مـا بال دين أبي بكر
أيورثها بكراً إذا مـات بعـده فتلك ، وبيت الله ، قاصمة الظهرِ

وقد يجوز أن يكون أراد بقوله : أطعنا رسول الله ، قومه أو العرب. وكيف ما كان فإنه كان رقيقَ الإسلام ، لئيم الطعم »[3] .

وقد مدح شعر الحطيئة ، فذكر عنه (أبو الفرج الأصبهاني) انه « كان من فحول الشعراء ومقدميهم وفصائحهم . وكان يتصرف في جميـع فنون الشعر من مدح وهجاء وفخر ونسيب ، ويجيد في جميـع ذلك » . وقال (الأصمعي) : « وما تشاء أن تقول في شعر شاعر مـا من عيب إلا وجدته فيه ، إلا الحطيئة، فقلما تجد ذلك في شعره » . وروي عن (اسحاق الموصلي) قوله : « ما أزعم ان أحداً من الشعراء بعد زهير أشعر من الحطيئة »[4] . قال (الجاحظ) : وكان الأصمعي يقول : « الحطيئة عبدٌ لشعره . عاب شعره حين وجـده كله متخيَّراً منتخباً مستوياً ، لمكان الصنعة والتكلف ، والقيام عليه »[5] ، ونسب للأصمعي قوله:

---

١ ديوانه (رقم ٣٤) ، الشعر والشعراء (٢٤٥/١) ، البيان والتبيين (٣١٨/٢) .
٢ الاصابة (٣٧٨/١) ، (رقم ١٩٩١) .
٣ الشعر والشعراء (٢٣٨/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، الخزانة (٤٠٨/٢) .
٤ الاصابة (٣٧٧/١ وما بعدها) ، (رقم ١٩٩١) ، الاغاني (٤٣/٢) .
٥ البيان والتبيين (٢٠٦/١) .

« زهير بن أبي سلمى ، والحطيئة وأشباهها عبيد الشعر »[1] .

وكان (الحطيئة) راوية كعب بن زهير ، بل يقال انه كان راوية زهير ابن أبي سلمى[2] . وله ديوان برواية (السكري) عن (محمد بن حبيب) ، طبع مراراً[3] . وذكر انه « قال لكعب بن زهير : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً ، فإن الناس لأشعاركم أروى . فقال كعب :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها   اذا ما ثوى كعب وفوز جرول »[4]

وروي « أن أعرابياً وقف على حسان وهو ينشد ، فقال له كيف تسمع ؟ قال ما أسمع بأساً ، فغضب حسان . فقال له : من أنت ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنتَ قط أهون عليّ منك حتى اكتنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الحطيئة ، فأطرق حسان ، ثم قال : إمض بسلام »[5] .

وذكر بعض الرواة أن (الحطيئة) لما حضرته الوفاة اجتمع اليه قومه فقالوا : يا أبا مليكة ، أوصِ . فقال : ويل الشعر من راوية السوء . قالوا أوصِ ، يرحمك الله . قال : من الذي يقول :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت   ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

قالوا : الشماخ . قال أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب . وتستمر الرواية على هذا النوع من طلب قومه منه أن يوصي ، ومن إجابته أجوبة لا صلة لها بالوصية. حتى انتهت بأنهم حملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون وهو عليها حتى مات ، وهو يقول :

---

١ البيان والتبيين (١٣/٢) .

٢ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١٠) .

٣ طبع سنة (١٨٩٣ م) بمدينة (لايبزك) ، وطبع ببيروت ، والقاهرة مع شروح ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٨/١) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٧٠/١) .

٤ ابن سلام ، طبقات (٢١) .

٥ الاصابة (٣٧٨/١) .

لا أحد ألأم من حطيئة هجا بنيه وهجا المُريئة
من لؤمه مات على القريئة[1]

وروى (ابن قتيبة) القصة على هذا النحو : « قيل له حين حضرته الوفاة : أوصِ يا أبا مليكة . فقال : مالي للذكور دون الأناث ، فقالوا : ان الله لم يأمر بهذا ، فقال : لكني آمر به ! ثم قال : ويل للشعر من الرواة السوء ، وقيل له : أوصِ للمساكين بشيء ، فقال : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا ، فإنها تجارة لن تبور ! وقيل له : اعتق عبدك يساراً ، فقال : اشهدوا انه عبد ما بقي عبسيٌّ ! وقيل له : فلان اليتيم ما توصي له ؟ فقال : أوصي بأن تأكلوا ماله وتنيكوا أمه ! قالوا : فليس إلا هذا ؟! قال : احملوني على حمار فإنه لم يمت عليه كريمٌ ، لعلي أنجو ! ثم تمثل :

لكل جديد لذة غير أنني رأيت جديدَ الموت غير لذيذ
له خبطة في الخلق ليست بسُكَّر ولا طعمَ راح يُشتهى ونبيذ

ومات مكانه »[2] .

وهي قصة لا تخلو من أثر الوضع والصنعة ، قيلت على لسانه ، لما عرف عنه من اللؤم والبخل والتعرض بالناس . وقد رويت بصور مختلفة[3] .

وقد ذكر (الحطيئة) (سعيدَ بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية) ، القرشي الأموي في شعره ، وكان سعيد ممن ندبه عثمان لكتابة القرآن . وكان جواداً ، ولم ينزع قميصه قط ، وكان أسود نحيفاً ، وكان يقال له : (عكة العسل) ، قال الحطيئة فيه :

سعيدٌ فلا يغررك قلة لحمه تخدد عنه اللحم فهو صليبُ[4]

---

١ الاغاني (٢/١٩٥ وما بعدها) ، (الدار) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٧٥ وما بعدها) ، الخزانة (١/١٤١) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٣٩) .
٣ الخزانة (٢/٤١٢ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ البيان والتبيين (١/٣١٤ وما بعدها) ، (٣/١١٦) .

ومن شعر (الحطيئة) المشهور قوله :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يُساوي بأنف الناقة الذنبا

وكان الرجل من (بني أنف الناقة) اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني قريع ، فلما مدحهم (الحطيئة) بهذا الشعر صار الرجل منهم اذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من بني أنف الناقة افتخاراً ، في قصة سبق أن تحدثت عنها[1].

ومن جيد شعره قوله :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره ... تجد خيرَ نارٍ عندها خير موقد[2]

والشاعر (كعب بن زهير) هو ابن الشاعر الجاهلي (زهير بن أبي سلمى) . فهو شاعر ابن شاعر ، وأبو شعراء : فقد كان ولدا (كعب) وهما: (عقبة) ، و (العوام) شاعرين . وقد ذكر أن (بجيراً) أخو (كعب) ، فارق أخاه عندما بلغا (أبرق) العراق ، وذهب الى الرسول لما سمع من خبره ، فأسلم . فلما بلغ (كعباً) خبر إسلامه ، ذمّ أخاه لمفارقته سنة آبائه وأجداده ، وخروجه على ما ألف عليه أباه وأمه . بشعر قال فيه :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة ... على أي شيء أنت متزل ذلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا[3]

أو :

ألا ابلغا عني بجيراً رسالة ... على أي شيء ريب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا
سقاك أبو بكر بكأس روية ... فأنهلك المأمور منها وعلكا[4]

---

1 البيان والتبيين (٣٨/٤) .
2 ديوان الخطيئة (٢٥) ، الاغاني (٥٩/٢) ، البيان والتبيين (٢٩/٢) .
3 الاستيعاب (٢٨١/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
4 الاصابة (٢٧٩/٣) ، (رقم ٧٤١٣) . وجاءت الابيات على هذا النحو :
ففارقت أسباب الهدى واتبعته ... على أي شيء ويب غيرك دلكا
على مذهب لم تلف أماً ولا أباً ... عليه ولم تعرف عليه أخاً لكا
كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (١١٤) . (الطبعة الثانية ١٩٧٠ م) .

ورويت الأبيات على هذه الصورة أيضاً :

ألا ابلغا عـني بجيراً رسالةً فهل لك فيا قلت بالخيف هل لكا
سُقيت بكأس عند آل محمـد فأنهلك المأمون منهـا وعلكا
فخالفت أسباب الهدى وتبعتـه على أي شيء وَيْبَ غيرك دلكا[1]

ووردت بصورة أخرى[2] ، مما يدل على اختلاف الرواية ، ووقوع خطأ في الاستنساخ . وقد لام فيها قومه لدخول أكثرهم في الإسلام، وهجاهم هجاء مراً[3] .

فبلغت أبياته رسول الله فأهدر دمه . وكتب بجـير بذلك اليه ، ويقول له النجاء ، ثم كتب اليه انه لا يأتيه أحد مسلماً إلا قبل منه وأسقط ما كان قبل ذلك ، ولما انتهى الى (كعب) قتل (ابن خطل) ، قدم المدينة فسأل عن أرق أصحاب النبي ، فدل على (أبي بكر) ، فأخبره خبره ، فمشى (أبو بكر) وكعب على أثره وقد التثم حتى صار بين يدي النبي فقال : رجل يبايعك . فمدّ النبي يده ، فمد كعب يده فبايعه وأسفر عن وجهه فأنشده قصيدته التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيمٌ إثرها لم يجزَ مكبول

وهي قصيدته الشهيرة التي طبعت مراراً وشرحت شروحاً كثيرة ، وتعدّ من (المشوبات) . فكساه النبي بردة له ، فاشتراها (معاوية) من ولده بعشرين ألف درهم ، وهي التي يلبسها الخلفاء في الأعياد[4] .

وهي قصيدة نظمها على نفس شعراء البادية وطريقتهم في مدح الملوك وسادات القبائل ، ولولا الأبيات :

---

١ الشعر والشعراء (١/٨٠) ، ابن هشام (٨٨٩) ، (طبعة أوروبة) ، الاغـاني (١٥/١٤٧ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٣٤٣) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٥٦) ، الخزانة (٤/٨) .
٢ المصون (٢٠٠ وما بعدها) ، كارلو نالينو (١١٤) .
٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٥٦) .
٤ الشعر والشعراء (١/٨٩ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، طبقات ابن سلام (٨٣) ، المرزباني ، معجم (٣٤٣) ، الاغاني (١٥/١٤٧) ، الاصابة (٣/٢٧٩) ، (رقم ٧٤١٣) .

نبئت ان رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيه مواعيظ وتفصيل

والبيت :

إن الرسول لنورٌ يستضاء به مهندٌ من سيوف الله مسلول

لقلنا : انه انما أراد ملكاً أو سيد قبيلة لا نبياً ، جاء يعلن دخوله في دينه ، واقتناعه بنبوته[1] .

ويذكر علماء الشعر أن (الحطيئة) قال لكعب : قد علمتم روايتي لكم أهلَ البيت وانقطاعي اليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك ، فإن الناس أروى لأشعاركم ، فقال :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما مضى كعب وفوّز جرول
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً تنخّل منهـا كل ما يتنخّل
يثقفها حتى تلين كعوبها فيقصر عنها من يسيء ويعمل[2]

وقد ذكر (ابن قتيبة) هذه الأبيات في أثناء ترجمته (زهيراً) على هذه الصورة :

ومن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما توى كعب وفوّز جرول
يقولُ فلا يعيا بشيء يقولـه ومن قائليها من يُسيء ويعمل
يقومها حتى تلين متونها فيقصر عنها كـل ما يتمثل
كفيتك لا تلقى من الناس شاعراً تنخّل منها مثل ما أتنخل[3]

« قيل لخلف الأحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب ، قال : لولا أبيات لزهير أكبرها الناسُ لقلت ان كعباً أشعر منه »[4] .

---

١ كارلو نالينو (١٠٤ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (٩١/١) ، الاصابة (٢٨٠/٣) ، (رقم ٧٤١٣) .
٣ الشعر والشعراء (٨٨/١) .
٤ الشعر والشعراء (٧٧/١ وما بعدها) ، الاصابة (٢٨٠/٣) .

وكان لكعب ابن يقال له : (عقبة بن كعب) ، شاعر ، وولد لعقبة العوّام ، وهو شاعر كذلك[1] . فنحن اذن أمام بيت توارث نظم الشعر .

وقد جمع علماء الشعر شعر (كعب) في ديوان ، كما شرحوا وفسروا قصيدة (بانت سعاد) التي نالت عندهم مكانة كبيرة ، لأنها قيلت في مدح الرسول ، ولتقدير الرسول لها واعطائه البردة ، تقديراً لقيمتها ، حتى عرفت بقصيدة البردة ، فصارت من أشهر أشعار العرب ، التي يتغنى بها في المناسبات ، حتى تفنن المغنون في غنائها ، وخلدت اسم الشاعر حتى اليوم. وقد ترجمت الى عدة لغات أعجمية ، وشطرت وخمست ، لما صار لها من مكانة في أعين الشعراء[2] .

ومن الشعراء المخضرمين : (العبّاس بن مرداس) من (بني سليم) ، وأمه (الخنساء) . أسلم قبل فتح مكة بيسير . ولما فرغ الرسول من ردّ سبايا (حنين) الى أهلها ، أعطى المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى أبا سفيان وابنه معاوية ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن كلدة، والحارث ابن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، وصفوان بن أمية ، وكل هؤلاء من أشراف قريش ، والأقرع بن حابس بن عثان بن محمد بن سفيان المجاشعي التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، ومالك بن عوف النصري، أعطى كل واحد من هؤلاء مائة بعير ، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش ، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة ، أو أباعر ، فسخطها ، وقام بين يدي الرسول يعاتبه ، فقال :

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

وأبياتاً أخرى . فلما أنشد هذه الأبيات بين يديه ، قال : اقطعوا عني لسانه ، فأعطي حتى رضي . وقيل أعطي مائة[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/٨٠ وما بعدها) .

٢ للوقوف على التفاصيل المتعلقة بقصيدة البردة خاصة ، وبشعر كعب ، راجع بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٥٦ وما بعدها) ، وزيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٨٣ وما بعدها) ، ودائرة المعارف الاسلامية .

٣ الخزانة (١/٧٣ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٢٦٢) ، الشعر والشعراء (١/٢١٨) ، (٢/٦٣٢ وما بعدها) ، الطبري (٣/١٣٧) ، اللآلي (٣٢) .

ورويت الأبيات على هذه الصورة :

كانت نهاباً تلافيتُها ... وكرّي على القوم بالأجرع
وحثي الجنود لكي يدلجوا ... اذا هجع القومُ لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العُبَيْدِ ... بين عيينه والأقرع
إلا أفائل أعطيتها ... عديد قوائمه الأربع
وما كان بدر ولا حابسٌ ... يفوقان مرداسَ في المجمع
وقد كنت في الحرب ذا تُدْرأ ... فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وما كنت دون امرىءٍ منهماً ... ومن تضع اليومَ لا ترفع[1]

ولما بلغ زوجة العباس بن مرداس نبأ إسلامه ، قالت :

لعمري لئن تابعتَ دين محمد ... وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لبدلْتَ تلك النفس ذلاً بعزة ... غداة اختلاف المُرهفات القواطع[2]

ومن شعره قصيدته :

لأسماء رسم أصبح اليوم دارساً ... وأقفر إلا رحرحان وراكسا

وتعدّ من (المنصفات)[3] .

وروي أن (حرب بن أمية) جدّ معاوية لما انصرف من حرب عكاظ هو وإخوته مر بالقرية ، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام،فقال له (مرداس) والد العبّاس : أما ترى هذا الموضع ! قال : بلى فما له ؟ قال : نعم المزدرع هو ، فهل لك أن تكون شريكي فيه ، ونحرق هذه الغيضة ثم نزرعه بعد ذلك ؟ قال : نعم . فأضرما النار في الغيضة ، فلما استطارت وعلا لهبها سمع من الغيضة أنيناً وضجيجاً ، ثم ظهرت منها حيّات بيض تطير وخرجت منها . ولم يلبث حرب ومرداس أن ماتا : فأما مرداس فدفن بالقرية ، ثم ادعاها بعد ذلك

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/٤) ، (صادر) ، وقد رويت بشيء من التغيير في كتاب الشعر والشعراء (٦٣٤/٢) .

٢ الاغاني (٦٦/١٣) .

٣ الخزانة (٥١٨/٣) ، الحماسة (١٦٨/١) ، البيان والتبيين (٦١/٣) .

(كليب بن أبي عهمة) الظفري ، فقال في ذلك عباس بن مرداس :

أكليب مالك كل يوم ظالما والظلم أنكد وجهه ملعون
عجباً لقومك يحسبونك سيداً وإخال إنك سيد معيون
فإذا رجعت الى نسائك فادّهن إن المسالم رأسه مدهون
وافعل بقومك ما أراد بوائل يوم الغدير سميّك المطعون[1]

وكان للعباس ولد اسمه (جاهمة) أسلم وصحب النبي[2] .

وكان زيد الخيل بن مهلهل بن زيد) الطائي ممن وفد على رسول الله سنة تسع ، فسماه النبي : (زيد الخير) . وكان شاعراً خطيباً شجاعاً يكنى (أبا مكنف). وأمه من (كلب) . وكان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم المعدودين ، وكان جسيماً طويلاً . مات (زيد الخيل) منصرفه من عند النبي ، وقيل في خلافة عمر[3] .

ذكر انه مر بغلام ، فسأله من أنت ؟ قال : أنا بجير بن زهير ، فحمله على ناقة ، ثم أرسل به الى أبيه . فأراد (زهير بن أبى سلمى) والد الغلام إثابته ، فأرسل اليه فرس ابنه (كعب) وكانت من جياد خيل العرب ، فاستاء (كعب) من ذلك ، وقال شعراً ليوقع بين قوم (زهير) وبين قوم (زيد الخيل) ، وهجا زيداً[4] .

وكان لزيد الخيل ابنان ، يقال لهما مكنف وحريث ، أسلما وصحبا النبي وشهدا قتال (الردة) مع (خالد بن الوليد) . وحماد الراوية مولى (مكنف) . ولحريث شعر في رثاء (أوس بن خالد) ، وكان قد قتل في حرب[5] .

وكان (مكنف) أكبر ولد أبيه ، وبه كان يكنى . وأسلم وحسن إسلامه ، وشهد قتال أهل الردّة مع (خالد بن الوليد) . وكان أسلم هو وأخوه (حريث

---

١ الحيوان (١٤٣/٢) ، الاغاني (٨٩/٤) ، معاهد التنصيص (١٣/١) ، الحيوان (٢٠٨/٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٤/٤) ، الاصابة (٢٢٠/١ وما بعدها) ، (رقم ١٠٥٢) .
٣ الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) ، الاغاني (٦/١٦) ، الخزانة (٤٤٦/٢) ، عيون الاثر (٢٣٦/٢) ، الشعر والشعراء (٢٠٥/١) ، (الثقافة) ، الحيوان (٢٠٤/٢ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٤٨٤/١ وما بعدها) .
٥ الشعر والشعراء (٢٠٥/١ وما بعدها) .

ابن زيد الخيل) ويقال له أيضاً (الحارث) ، وصحبا النبي . وشهدا قتال أهل الردة مع (خالد) واشترك (مكنف) في قتال (بني أسد) لما ارتدوا مع (طليحة) الأسدي . ونسبت له هذه الأبيات في قتال طليحة :

ضلوا وغرهم طليحة بالمنى   كذباً وداعي ربنا لا يكذب
لما رأونا بالفضاء كتائباً   يدعو إلى رب الرسول ويرغب
ولّوا فراراً والرماح تؤزهم   وبكل وجه وجهوا نترقب[1]

و (حميد بن ثور بن حزن) الهلالي ، من الشعراء المخضرمين الفصحاء ، وكان كل من هاجاه غلبه . وقد وفد على النبي ، فأنشده شعراً فيه :

أصبح قلبي من سليمى مقصداً   إن خطأ منها وإن تعمدا
حتى أتيت المصطفى محمداً   يتلو من الله كتاباً مرشدا

وذكر أنه كان في عداد الصحابة الذين رووا عن الرسول ، وضعفه بعضهم. قيل إنه عاش الى خلافة عثمان . وذكر بعض العلماء أنه عاش الى ما بعد ذلك ، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية ، فقال له : ما جاء بك ؟ فقال :

أتاك بي الله الذي فوق من ترى   وبرّك معروف عليك دليل[2]

وقد عدّه (ابن قتيبة) في الإسلاميين[3] .

و (الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة) التميمي السعدي ، ممن رأى الرسول وغزا معه وروى عنه . وكان شاعراً توفي في أيام (معاوية) ، وذكر أنه توفي سنة (٤٢ هـ) . وقيل فقد يوم الجمل ، وقيل ركب سفينة وحمل معه أهله وعياله، لما قتل (عثمان) ، فما رؤي بعد . وكان قاصاً ، قيل إنه كان أول من قص في مسجد البصرة[4] .

---

١ الاصابة (٣/٤٣٦) ، (رقم ٨١٩٩) .
٢ الاصابة (١/٣٥٥) ، (١٨٣٤) ، تهذيب ابن عساكر (٤/٤٦٠) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٥٣) ، العيني (١/١٧٧) ، الاغاني (٤/٩٧) ، السيوطي ، شرح شواهد (٧٣) ، ديوانه ، (دار الكتب المصرية ١٩٥١ م) الفائق (٢/٣٥٤) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣٠٦ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/٥٩ وما بعدها) ، (رقم ١٦١) ، الاستيعاب (٢/٧٢) ، (حاشية على الاصابة) .

وكان (ضرار بن الأزور بن مرداس) الأسدي ، فارساً شجاعاً وشاعـراً مطبوعاً ، استشهد يوم اليمامة ، وقيل بعد ذلك . وقد أتى النبي فأنشده :

خلعت القداح وعزف القيا ... ن والخمر أشربها والثمالا
وكرى المجبر في غمـرة ... وجهدي على المشركين القتالا
وقالت جميلـة بددتنـا ... وطرحت أهلك شتى شمالا
فيا رب لا أغبنن صفقة ... فقد بعت أهلي ومالي بدالا [1]

ولضرار قصيدة قالها في يوم الردة ، لما بلغه ارتداد قومه من (بني أسد) ، منها :

بني أسد قد ساءني ما صنعتم ... وليس لقوم حاربوا الله محرم
وأعلم حقاً انـكم قد غويتم ... بني أسد فاستأخروا أو تقدموا
نهيتكم أن تنهبوا صدقاتـكم ... وقلتُ لكم : يا آل ثعلبة اعلموا
عصيتم ذوي أحلامكم وأطعتم ... ضجيماً وأمر ابن اللقيطة أشأم
وقد بعثوا وفداً الى أهل دومة ... فقبح من وفد ومن يتيمم
ولو سئلت عنا جنوب لخبرت ... عشية سالت عقرباء بها الدم

وضجيم هو (طلحة بن خويلد) ، وكانت أمه حميرية أخيذة ، وابن اللقيطة : (عيينة بن حصن) ، وقوله : يا آل ثعلبة ، أراد ثعلبة الحلاف بن دودان بن أسد . وعقرباء بأرض اليمامة [2] . وكان (عيينة) قد انضم الى (طلحة) الذي تسميه الموارد (طليحة) استصغاراً لشأنه ، كما دعت (مسلمة) (مسيلمة) ، وقال : « والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب الينا من أن نتبع نبياً من قريش ؛ وقد مات محمد ، وبقي (طليحة) ، وقاتل معه حتى هرب . وكان يدير المعركة وهو متلفف في كساء له بفناء بيت له من شعر ، يتنبأ لهم ، والناس يقتتلون ، حتى جاءه الوحي بقوله : « ان لك رحا كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » ، ثم لم يصمد ، فهرب [3] .

وضرار هو الذي قتل (مالك بن نويرة) بأمر (خالد بن الوليد) [4] .

---

١ الاصابة (٢/٢٠٠) ، (رقم ٤١٧٢) ، الاستيعاب (٢/٢٠٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الخزانة (٢/٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ الطبري (٣/٢٥٦) .
٤ الخزانة (٢/٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

وكان (هوذة بن علي) الحنفي شاعراً وخطيباً ، ذكر أنه كتب الى الرسول كتاباً يقول فيه : « ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك » . وقد مات عام الفتح[1]. وهو شاعر يجب إدخاله في الجاهليين ، لأنه لم يعتنق الإسلام ، وقد تحدثت عنه هنا ، لأنه من المتأخرين ، وله خبر مع الرسول .

و (فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة) المرادي ، شاعر ، وهو صحابي مخضرم . وكان من أشراف قومه ، قدم على رسول الله ، مفارقاً لملوك كندة ، فبايعه ، ونزل على (سعد بن عبادة) ، فكان يحضر مجلس رسول الله ، ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام . ثم استعمله الرسول على مراد وزبيد ومذحج كلها ، وكتب معه كتاباً الى الأبناء باليمن يدعوهم الى الإسلام ، فأقام فيهم حتى توفي رسول الله . وذكر أن النبي ، أجاز (فروة) باثني عشر أوقية ، وحمله على بعير نجيب وأعطاه حلة من نسج عمان . واستعمله (عمر) — كما جاء في رواية — على صدقات مذحج[2] .

وقد جمع شعر (فروة) في ديوان ، رجع (السيوطي) اليه ، ونقل منه[3] .

و (عمرو بن معديكرب) الزبيدي من أشراف اليمن وساداتهم ، وقد اشتهر وعرف بالشجاعة ، قال عنه « أبو عمرو بن العلاء : لا يفضل عليه فارس في العرب » . وكان فحلاً في الشجاعة والشعر . وأكثر شعره في الحماسة . وقد اشتهر بسيفه (الصمصامة) ، والأرجح انه شهد (القادسية) ، وكان له أثر فيها . واختلف في صحبته للنبي ، فمن العلماء من ذكر انه لم يلق الرسول ، وانما قدم المدينة بعد وفاته ، ومنهم من ذكر انه قدم المدينة في وفد (زبيد) ، فأسلم سنة تسع أو عشر ، وصحب الرسول . ولا تخلو أقوال الرواة فيه من أثر العصبية لليمن أو عليها ، وقد اختلف في عمره ، وأكثرهم انه مات بعد أن تجاوز المائة: ومنهم من جعل عمره فوق المائة والخمسين[4] . وهو ابن خالة (الزبرقان بن بدر)

---

١ ابن سعد ، الطبقات (٢٦٢/١) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٢/١ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٨٢/١) .
٤ الاصابة (١٨/٣ وما بعدها) ، (رقم ٥٩٧٢) ، الاغاني (٢٤/١٤) ، المؤتلف (١٥٦) ، المرزباني ، معجم (٢٠٨) ، الخزانة (٤٢٢/١) ، (٤٦٠/٣) ، الشعر والشعراء (٢٨٦/١ وما بعدها) .

التميمي ، وأخته (ريحانة بنت معدي كرب) والدة (دريد بن الصمة) ، و (عبدالله ابن الصمة) . وكانت تحت (الصمة بن الحارث)[1] .

وورد في بعض الروايات ، أنه قدم على رسول الله المدينة فأسلم ، ثم ارتد بعد وفاته فيمن ارتد باليمن ، ثم عاد الى المدينة فشهد اليرموك ثم هاجر الى العراق فأسلم ، وشهد القادسية ، وله بها أثره وبلاؤه ، وشهد مع النعمان بن مقرّن المزني فتح نهاوند ، فقتل هنالك ، مع النعمان وطليحة بن خويلد ، فقبورهم بموضع يقال له : (الاسفيذهان)[2] .

ومن شعره الذي يتمثل به ، قوله :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه الى ما تستطيع

وقوله :

أريد حباءه ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

وتمثل به علي بن أبي طالب ، لما رأى عبد الرحمان بن ملجم المرادي[3] .

ولعمرو بن معديكرب ، ديوان برواية (أبي عمرو الشيباني) رآه (ابن حجر) وقال عنه « ورأيت في ديوانه رواية أبي عمرو الشيباني من نسخة فيها خط أبي الفتح بن جني قصيدة يقول فيها :

والقادسية حين زاحم رستم   كنّا الكماة نهز كالاسطان
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً   ينوي الجهاد وطاعة الرحمن[4]

وأورد (ابن حجر) له أشعاراً أخرى .

ونجد لعمرو بن معدي كرب شعراً في وصف الحرب ، ذكر أن (عمر) سأله:

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٨٩) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٨٩ وما بعدها) ، الخزانة (١/٤٢٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ المرزباني ، معجم (١٦) ، (مراج) .
٤ الاصابة (٣/٢٠) ، (رقم ٥٩٧٢) ، الاغاني (١٤/٢٤) ، الخزانة (١/٤٢٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤١٩) .

« أخبرني عن الحرب » ، فقال : هي كما قال الشاعر :

الحرب أول ما تكون فتيةً تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهة للضم والتقبيل

وهي في بعض الروايات من شعره [1] .

ومن شعر (عمرو بن معدي‌كرب) قوله :

سوى أنّ أصواباً باعقق لم يزل بها آنسٌ من أهلها غير بارح
وجدنا به العَمْرين عمرُ بن عُدية وعمرو بن عمرو في حلال سُلاطح
وجدنا بني عمرو ثمانين فارساً لكل صباحٍ كاشر الناب كالح
وكان الغدانيون تحت رماحهم رماح بني عمرو غداة المصابح
مصافين أصهاراً ورحماً وجيرة وما كان فيهم فارس غير جامح [2]

وقوله :

وجدّك مخصيٌ على الوجه ناعسٌ تشير به الركبان ما قام أفرع [3]

وله أشعار قالها في حروبه في العراق مع جيش الفتح .

و (ساعدة بن جؤية) (ساعدة بن جؤين) (جؤية) ، هو من الشعراء المخضرمين . أدرك الجاهلية والاسلام ، وأسلم . وليست له صحبة . قيل عن شعره انه محشو بالغريب والمعاني الغامضة [4] . وهو شاعر من شعراء مضر، محسن ، قيل عن شعره انه ليس فيه من الملح ما يصلح للمذاكرة [5] .

---

١ شرح ديوان الحماسة (٢٥٢/١ ، ٣٦٨ ، ٤٠٨) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٣٣٩) .
٢ الصفة (١١٥) .
٣ الصفة (١٢٦) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٩/١ ، ١٥٦) ، ديوان الهذليين (١٦٧/١) ، الخزانة (٢٦٧/١ وما بعدها) ، (ساعدة بن جوين ويقال ابن حرية ... قال أبو القاسم الحسن بن بشر الامدي : ساعدة بن حوية) ، الاصابة (١٠٦/٢) ، (رقم ٣٦٥٠) .
٥ الخزانة (٤٧٦/١) ، (بولاق) .

و (أبو ذؤيب) (خويلد بن خالد بن محرّث) ، شاعر مخضرم ، مجيد . وهو من (هذيل) . ورحل الى المدينة ، فوصلها والرسول مسجى ، فكان ممن صلى عليه وشهد دفنه . « سئل حسان من أشعر الناس ؟ فقال حياً أم رجلاً ؟ قالوا حياً ، قال : هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب . وتقدم أبو ذؤيب على جميع شعراء هذيل بقصيدته العينية التي أولها :

أمن المنون وريبها تتوجع »[1] ، التي يرثي بها بنيه .

وقد قال عنه بعض المؤرخين انه شاعر مجيد مخضرم كان أشعر هذيل، وهذيل أشعر أحياء العرب[2] . وقال المرزباني عنه : كان فصيحاً كثير الغريب متمكناً في الشعر ، وعاش في الجاهلية دهراً وأدرك الاسلام ، وأسلم . وعامة ما قال من الشعر في إسلامه[3] . هلك في زمان عثمان وقيل في زمن (عمر)[4] .

وكان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي[5] .

وتعدّ قصيدته المذكورة التي قالها في رثاء بنيه الخمسة أو الثمانية الذين قتلوا أو هلكوا بالطاعون في عام واحد ، من أجود شعره . وهي قصيدة تفيض بالأسى والحنان على بنيه الذين ترك فراقهم أسى وحسرة في قلبه . وأولها :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومن أبياتها الجيدة :

واذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيتَ كل تميمة لا تنفع[6]

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٩) ، الشعر والشعراء (٢/٥٤٧ وما بعدها) ، الاغاني (٦/٥٦ وما بعدها) ، الخزانة (١/٢٠١) ، المؤتلف (١١٩) ، ابن سلام ، طبقات (١١٠) ، معاهد التنصيص (٢/١٦٥) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٠) ، ديوان الهذليين (١/١٥٨) ، (دار الكتب المصرية) .

٣ الاصابة (٤/٦٦) ، (رقم ٢٨٨) ، حسن المحاضرة (١/١١٣) ، أسد الغابة (٥/١٨٨) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٨٥ وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح (١/٣٠ وما بعدها) ، الاصابة (٤/٦٦) ، (رقم ٢٨٨) ، رسالة الغفران (١٥١ ، ١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠) .

٥ الشعر والشعراء (٢/٥٤٧ وما بعدها) .

٦ جمهرة أشعار العرب (١٢٨ وما بعدها) ، (بولاق) ، السيوطي ، شرح شواهد (٩٢ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تأريخ الاداب العربية (١١١ وما بعدها) .

وقد وصف فيها حاله ، وكيف أن جسمه صار شاحباً من الوجد على ما حل ببنيه ، وكيف أنه صار لا يعرف طعم الراحة ولا النوم ، حتى صار بعيش ناصب ، يخال نفسه إنه لاحق بهم مستتبع ، ولقد حرص بأن يدافع عنهم ، ولكن المنيّة متى أقبلت فلا دافع لها :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنيّة أقبلت لا تدفع
وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولأبي ذؤيب شعر في رثاء الرسول وردت أبيات منها في (الاستيعاب) . وقد اختلف في المكان الذي توفي به هذا الشاعر ، كما اختلف في سنة وفاته[1] . وقد طبع ديوانه[2] . وكان أبو ذؤيب ، شاعراً فحلاً ، لا غميزة فيه ولا وهن[3] . ومن شعره في رثاء الرسول قوله :

لما رأيت الناس في عسلانهم من بين ملحود له ومضرح
متبادرين لشرجع بأكفهم نص الرقاب لفقد أبيض أروح
فهناك صرت إلى الهموم ومن يبت جار الهموم يبيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها وتزعزعت آطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجبال يثرب كلها ونخيلها لحلول خطب مفدح
ولقد زجرت الطير قبل وفاته بمصابه وزجرت سعد الأذبح[4]

وكان لأبي ذؤيب ابن يقال له (مازن بن خويلد) ، ويكنى أبا شهاب ، وهو أحد شعراء هذيل[5] .

و (أبو خِراش) ، (خويلد بن مرة الهذلي) من شعراء هذيل ، وهو شاعر مشهور ، أدرك الإسلام شيخاً كبيراً ووفد على (عمر) وفي أيامه كانت وفاته . وكان أحد الفصحاء . يقال إنه كان سريع الجري . دخل مكة

---

١ الاستيعاب (٤/٦٧) ، (حاشية على الاصابة) ، الخزانة (١/٢٠٣) ، (بولاق) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٦٩ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٩) ، (ليدن) ، أمالي المرتضى (١/٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٩٣ ، ٤٩٢ ، ٦١٦) .
٤ الروض الانف (٢/٣٧٩) .
٥ الشعر والشعراء (٢/٥٥٠) .

في الجاهلية ، وللوليد بن المغيرة فرسان ، فقال : ما تجعل لي إن سبقتها عدواً؟ قال : إن فعلت فهما لك ، فسبقها . يقال إن ضيوفاً من اليمن نزلوا عليه، فذهب يستقي لهما الماء فنهشته حية ، فأقبل مسرعاً حتى أعطاهم الماء ، ولم يعلمهم ما أصابه . فباتوا يأكلون ، فلما أصبحوا وجدوه في الموت ، فأقاموا حتى دفنوه . فبلغ عمر خبره ، فكتب الى عامله أن يأخذ النفر الذين نزلوا بأبي خراش فيغرمهم ديته[1] .

ومن شعره :

لا هم هذا رابع إن تمّا   أتمه الله وقد أتما
إن تغفر اللهم تغفر جمّا   وأي عبد لك لا ألمّا

قاله وهو يسعى بين الصفا والمروة ، وثم شجر يومئذ[2] .

ولأبي خراش أخ يقال له : (عروة بن مرة) ، من شعراء هذيل المعدودين، وأخ آخر اسمه (أبو جندب بن مرة) ، أحد شعراء هذيل المعدودين أيضاً[3] .

و (صخر) الغي ، هو (صخر بن عبدالله) الخيثمي الهذلي ، من شعراء الخلاعة ، وقد عرف بشدة بأسه وكثرة شره ، وله صاحبة اسمها (دهماء) . وقد ذكرها في قصيدته :

إني بدهماء عزّ ما أجدُ   يعتادني من حبابها زؤد
عاودني حبها وقد شحطت   صرف نواياها فانني كمد[4]

---

١ الاصابة (٤٥٧/١) ، (رقم ٢٣٤٥) ، الخزانة (٢٣٣/٣) ، السيوطي ، شرح شواهد (٤٢٣/١) ، الاغاني (٥٤/٢١) ، طبع ديوانه في مجموعة الشعراء الهذليين ، الخزانة (٢١٢/١ وما بعدها) ، (بولاق) ،
J. Hell, Neue Hudhailiten Diwane, 2 Leipzig, 1933.
كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١١) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٦٢٥/٢) ، الخزانة (٢١١/١) .
٣ الشعر والشعراء (٥٥٤/٢ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٣٤٥) ، الشعر والشعراء (٥٥٩/٢) ، الاغاني (١٩/٢٠) ، ديوان الهذليين (٥٧/٢) ، الاصابة (١٩٢/٢) ، (رقم ٤١٢٧) .

وهو على رأي (المرزباني) من المخضرمين[1] .

و (النمر بن تولب بن زهير بن أقيش) ، شاعر مخضرم ، يكنى (أبا ربيعة) ويسمى (الكيّس) ، أدرك الاسلام وهو كبير ، وهو من (الصحابة) . وهو من (بني عكل) . وصف بأنه كان جواداً واسع القرى ، كثير الأضياف ، وهّاباً لماله . وانه كان أفتى الشعراء ، شاعراً فصيحاً جريئاً على المنطق[1] . قال عنه (المرزباني) : « كان شاعراً فصيحاً ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً ، ونزل البصرة بعد ذلك . وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيّس لجودة شعره وكثرة أمثاله . وكان جواداً وعمر طويلاً حتى أنكر عقله ، فيقال انه عمر مائتي سنة . وهو القائل :

يحبّ الفتى طول السلامة جاهداً فكيف يرى طول السلامة يفعل

وله شعر يخاطب به النبي منه :

إنّا أتيناك وقد طال السفر أقود خيلاً وجعا فيها ضرر[3]

وفرق (ابن حزم) بين (النمر بن تولب بن أقيش) العكلي ، وبين (النمر بن تولب) وبين (النمر بن قاسط) . وقال إنه الذي عاش حتى خرف. ويقال إن للنمر بن تولب العكلي ابناً يقال له (ربيعة) هاجر الى الكوفة[4] .

وكان (النمر) شاعر الرباب في الجاهلية، ولم يمدح أحداً ولا هجا، واستحسن من شعره قوله :

---

١ الاصابة (١٩٢/٢) ، (رقم ٤١٢٧) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١٨١/١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٨٧/٢٢) ، طبقات الشعراء (١٣٤) ، الشعر والشعراء (٢٦٨) ، العمدة (١١٨/٢) ، الشعر والشعراء (٢٢٧/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (١٥٧/١٩) ، (ساسي) ، المعمرون (٧٠ ، ٨٧) ، الخزانة (١٥٢/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٣٣) ، (٣٧) ، (ليدن) ، البيان والتبيين (٣/١ ، ١٢ ، ٥٥ ، ١٥٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٨٤ ، ٤٠٨)، (١٣٤/٢) ، (٤٤/٣) ، البخلاء (١٦٣ ، ٢٢٩ ، ٣٨٤) ، رسالة الغفران (١٥٣).
٣ تختلف روايات هذا الشعر ، الاصابة (٥٤٢/٣) ، (رقم ٨٨٠٤) ، الاستيعاب (٥٤٩/٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاصابة (٥٤٣/٣) ، (رقم ٨٨٠٤) .

تدارك ما قبل الشباب وبعده حوادث أيام تمر وأغفل
يود الفتى طول السلامة والغنى فكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويحمل[1]

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

خاطر بنفسك كي تنالَ رغيبةً إنّ القعود مع العيال قبيح
إن المخاطر مالكٌ أو هالك والجدّ يجدي مرة فيربح

وقوله :

ومتى تصبك خصاصةٌ فارجُ الغنى وإلى الذي يهب الرغائب فارغب
لا تغضبن على امرىء في ماله وعلى كرائم أصل مالك فاغضبِ[2]

وقد تعرض (النمر بن تولب) في شعره الى قصة (زرقاء) اليمامة وجديس، والى قصة غزو (تبع) لجديس واستباحته اليمامة[3] . وقد ورد ذكر (عادياء) في شعره بقوله :

هلا سألتِ بعادياء وبيته والخيل والخمر التي لم تمنع[4]

وفي شعره قصص عن (لقمان) وعن (لقيم بن لقمان) من أخته[5] ، ويظهر أنه كان من الأشخاص الذين كانوا يهتمون بالقصص والحكايات المروية عن الجاهليين ، فأدمج شيئاً منه في شعره .

و (الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عُصيّة بن خفاف ابن امرىء القيس بن بهثة بن سليم) السلمية ، واسمها (تماضر) ، ممن أدركن الاسلام . وقد أسلمت فعدّت صحابية . و (الخنساء) لقبها ، قدمت على رسول الله مع قومها فأسلمت . وذكر ان الرسول كان يستنشدها ويعجبه شعرها .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٥١) ، الخزانة (١/١٥٦) ، (بولاق) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٣٤ وما بعدها) .
٣ الخزانة (١/١٥٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ البخلاء (١٦٤) .
٥ البيان والتبيين (١/١٨٤) .

« وأجمع أهل العلم بالشعر على انه لم يكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها . وكانت أول أمرها تقول البيتين والثلاثة حتّى قتل أخوها معاوية ثم أخوها صخر، فأكثرت من الشعر وأجادت »[1] . وهي أم الشاعر (العباس بن مرداس) ، وأم اخوته الثلاثة وكلهم شاعر . ولم تلد إلا شاعراً ، وذكر (الكلبي) ان أم ولد (مرداس) جميعاً الخنساء ، إلا العباس ، فإنها ليست أمه ، ولم يذكر من أمه . غير ان (أبا فرج الأصبهاني) ذكر انها أمه . وكان النبي يعجبه شعرها ويستنشدها ويقول هيه يا خناس ويومىء بيده[2] .

روي انها كانت تقول الشعر في زمن النابغة الذبياني ، وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكانت (الخنساء) ممن أنشدته شعرها ، ويقال انه لما سمع شعرها ، قال : « والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك،فقالت له الخنساء: والله ولا ذا خصيين»[3]. ومن جيد شعرها ، قولها في (صخر) أخيها :

لا بد من ميتة في صرفها غِير ... والدهر من شأنه حول واضرار
وان صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار[4]

وذكر أنها كانت سوّمت هودجها براية في الموسم ، وعاظمت العرب بمصيبتها بابنها (عمرو) وبأخويها صخر ومعاوية ، وجعلت تشهد الموسم وتبكيهم ، وأن هنداً ابنة عتبة لما قتل ببدر أبوها وعمّها شيبة وأخوها الوليد فعلت كذلك وقالت: اقرنوا جملي بجمل الخنساء ، فصارتا تبكيان وتتناشدان[5] .

وروي أن رسول الله كان يستحسن قول الخنساء في صخر أخيها :

لا بد من ميتة في صرفها غِير ... والدهر من شأنه حولٌ وإضرارُ

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٣ وما بعدها) ، الخزانة (١/٢٠٩) ، (بولاق) ، الاغاني (١٣/١٩) ، الخزانة (٣/٤٠٣) ، بروكلمن (١/١٦٤ وما بعدها) .

٢ الخزانة (١/٢٠٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

٣ الشعر والشعراء (١/٢٦٠ وما بعدها) .

٤ المحاسن والاضداد (٩٣) ، (أشم أبلج تأتم الهداة به) ، الشعر والشعراء (١/٢٦٣) .

٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٥) .

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وذكر أنها زارت (عائشة) وتحدثت معها[1] :

وروي أنها حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فحثتهم على القتال والاستماتة فقتلوا جميعاً ، فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . وكان (عمر) أمر أن تعطى الخنساء أرزاق أولادها الأربعة حتى توفي[2] ، وله قصة معها ، وذكر أنه لما طلب منها أن تكف عن البكاء ، قال لها : « ما الذي أقرح ما في عينيك ؟ قالت : البكاء على سادات مضر ، قال : إنهم هلكوا في الجاهلية ، وهم أعضاد اللهب وحشو جهنم . قالت: فداك أبي وأمي فذلك الذي زادني وجعاً » . ثم طلب منها أن تنشده من شعرها ، فأنشدته :

سقى جدثاً أعراق غمرة دونه ... وبيشة ديمات الربيع ووابله[3]

و (خفاف بن ندبة) ، هو (خفاف بن عُمير بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية) ويكنى أبا خراشة ، وهو ابن عم الخنساء و (ندبة) أمه . وهو شاعر مشهور من المخضرمين ، وله شعر يمدح به (أبا بكر) ، وبقي الى زمن (عمر) ، وكان أسود حالكاً[4] . شهد الفتح وكان معه لواء (بني سليم) ، وذكر (الأصمعي) ، انه ودريد أشعر الفرسان . وله يقول : العباس بن مرداس :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر ... فإن قومي لم تأكلهم الضبع[5]

ويعدّ من فرسان قيس وشعرائها المذكورين .

وضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي ، وسويد بن كراع العكلي،والحويدرة الذبياني ، واسمه قطبة بن أوس بن محصن بن جرول ، وسُحيم عبد بني الحسحاس الأسديين ، من طبقة واحدة ، تكون الطبقة التاسعة في (طبقات الشعراء) ،

---

١ المحاسن والاضداد (٩٣) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٤/١) .
٣ المحاسن والاضداد (٩٤) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٣٢٥/١) .
٥ الاصابة (٤٤٨/١) ، (رقم ٢٢٧٣) .

لابن سلام[1] . وكان (ضابىء) ، رجلاً بذياً كثير الشر ، وكان بالمدينة ، صاحب صيد وصاحب خيل ، وقد حبسه عثمان ، وبقي في سجنه حتى مات[2] .

و (سحيم) عبد بني الحسحاس ، شاعر مشهور مخضرم ، أدرك النبي ، وتمثل النبي بشيء من شعره . وكان عبداً أسود شديد السواد أعجمياً . وذكر ان اسم (عبد بني الحسحاس) (حيمة) ، وقيل (سُحيم) ، وانه شبب بنساء قومه ، ثم بينت سيده فقتله سيده . وقيل ان قتله كان في خلافة عثمان[3] . وله ديوان مطبوع[4] . وورد ان (عمر) أمر بقتله لأبيات فاحشة . وذكر انه حُفر له أخدود وضع فيه وألقى عليه الحطب ثم أحرق[5] . وورد ان (عمر) استنشده شعره ، وانه أنشده قصيدته :

ودع سليمى إن تجهزت غاديا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا[6]

وكان سحيم حبشياً معلّطاً قبيحاً ، وهو القائل في نفسه :

أتيت نساء الحارثين غدوةً بوجه براه الله غير جميل
فشبهني كلباً ولستُ بفوقه ولا دونه إن كان غير قليل

اشتراه (عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي) ، وكتب الى (عثمان) : « إني قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً ، فكتب اليه عثمان : لا حاجة بنا اليه ، فاردده ، فإنما حظ أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم ، وإذا جاع أن يهجوهم » . « ويقال سمعه عمر بن الخطّاب ينشد :

ولقد تحدر من كريمة بعضهم عرقٌ على جنب الفراشِ وطيب

---

1 (ص ٣٩ وما بعدها) .
2 ابن سلام ، طبقات (٤٠) .
3 السيوطي ، شرح شواهد (٣٢٧/١) ، الخزانة (٢٧٣/١) ، الاغاني (٩/٢٠) ، الخزانة (٢٧١/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٥٦) ، أسماء المغتالين (٢٧٢) ، ديوان المعاني ، للعسكري (١٦٦/٢) ، الخزانة (١٢٨/١ وما بعدها) ، (بولاق) .
4 ديوان سحيم عبد بني الحسحاس (تحقيق عبد العزيز الميمني) ، (دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) .
5 بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧١/١) .
6 الاصابة (١٠٨/٢) ، (رقم ٣٦٦٤) .

فقال له : إنك مقتول ، فسقوه الخمر ثم عرضوا عليه نسوة ، فلما مرّت به التي كان يتهم بها أهوى اليها ، فقتلوه » ، الى غير ذلك من قصص[1] .

و (سحيم بن وثيل بن أعيقر بن أبي عمرو بن إهاب بن حميري) الرياحي ، شاعر مخضرم ، تفاخر هو وغالب بن صعصعة والد الفرزدق ، فتناحرا الإبل . وقد وصف بأنه شاعر خنذيذ شريف مشهور الذكر في الجاهلية والإسلام . وله قصيدة مطلعها :

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني
ومـاذا يدرك الشعراء مني   وقد جاوزت حدّ الأربعين[2]

و (ربيعة بن مقروم بن قيس بن جابر بن خالد) الضبي ، أحد الشعراء المخضرمين . وكان أحد شعراء مضر . ذكر أنه وفد على كسرى في الجاهلية ، ثم عاش الى أن أسلم[3] . «وذكره دعبل في طبقات الشعراء ، وقال مخضرم حبسه كسرى بالمشقر ثم أدرك القادسية »[4] . وكانت عبد القيس أسرته ، ثم منت عليه بعد دهر[5] .

والشاعر (أبو زيد ، حرملة بن المنذر بن معديكرب بن حنظلة) الطائي من شعراء طيء ، وكان نصرانياً ومات على دينه بعد خلافة عثمان[6] . وكان نديم

---

١ الشعر والشعراء (١/٣٢٠ وما بعدها) ، الخزانة (٢/١٠٢ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (١٤٣ وما بعدها) .

٢ الخزانة (١/١٢٣) ، البيـان والتبيين (٢/٢٤٦) ، الامـالي (١/٢٤٦) ، الاشتقاق (٢٢٤) ، الشعر والشعراء (٦٢٦) ، الاصمعيات (رقم ١) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٥٩ وما بعدهـا) ، الشعـر والشعراء (٢/٥٣٨) ، (دار الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات (٤٨٩) ، ذيل الامالي (٣/٥٢) ، الاغاني (١٩/٥) ، الاصابة (٢/١٠٩) ، (رقم ٣٦٦٥) .

٣ السيوطي ، شرح شواهـد (١/٤٦٧) ، (٢/٨٦٠) ، شرح المفضليات (٣٥٥) ، الخزانة (٣/٥٦٩) ، الاغاني (١٩/٩٠) ، السمط (٣٧) .

٤ الاصابة (١/٥١١) ، (رقم ٢٧٣٦) .

٥ الشعر والشعراء (١/٢٣٦ وما بعدها) .

٦ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٤٠ وما بعدها) ، الاغاني (١١/٢٣) ، ابـن سلام ، طبقات (١٣٢ وما بعدها) ، الخزانـة (٢/١٥٥) ، الامـالي ، للقالي (٣/١٨٣) ، جمهرة اشعار العرب (١٣٨) .

(الوليد بن عقبة) ، يشرب الخمر معه ، ولما صار (الوليد بن عقبة) الى (الرقة) ، سار (أبو زيد) اليه ، فكان ينادمه ، وكان يحمل في كل يوم أحد الى البيعة ، فيحضر مع النصارى ، ويشرب ، ولما مات دفن على (البليخ)، وهناك أيضاً قبر (الوليد بن عقبة)[1] . وقد اشتهر بوصف الأسد ، وكان مغرى بوصفه في شعره[2] . وورد في رواية انه أسلم بتأثير (الوليد بن عقبة) عليه . لكن الأغلب انه بقي على نصرانيته ، وقد استعمله (عمر) على صدقات قومه ، ولم يستعمل نصرانياً غيره . قيل انه رثى (علي بن أبي طالب). وكان له أخ (من خلصة ملوك العجم) . وذكر انه بقي الى أيام معاوية[3] .

و (الشماخ بن ضرار) الذبياني من الشعراء كذلك ، أدرك الجاهلية والإسلام. و (الشماخ) لقب ، واسمه (معقل)، وقيل (الهيثم) . « قال ابن الكلبي: كان الشماخ أوصف الناس للخمر وللقوس » ، وأرجز الناس على بديهة ، وهو كثير الهجاء ، له مهاجاة مع (الخليج بن سعد) التغلبي . وله شعر في مدح (عرابة) الأوسي ، وكان قدم المدينة ، فأوقر له عرابة راحلته تمراً وبراً وكساه وأكرمه[4] . وكان له أخوان : مزرداً وجزءاً ، رويت مقطعات صغيرة من شعرهما . وللشماخ ديوان شعر مطبوع[5] . قال عنه (ابن سلام): « فأما الشماخ: فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر الكلام من لبيد ، وفيه كزازة . ولبيد أسهل منه منطقاً ، وكان للشماخ اخوة ، وهو أفحلهم ، ومزرد هو أشبههم به[6]. ذكر ان (الوليد بن عبد الملك) أنشد شيئاً من شعره في وصف الحمير ، فقال : ما أوصفه لها ، اني لأحسب ان أحد أبويه كان حماراً . قيل : كان يهجو قومه

---

١ الشعر والشعراء (٢٢١/١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٣/١) .
٣ الاصابة (٨٠/٤) .
٤ الاصابة (١٥١/٢ وما بعدها) ، (رقم ٣٩١٨) ، الشعر والشعراء (٢٣٤/١ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٨٩٦/٢) .
٥ الشعر والشعراء (٢٣٢/١ وما بعدها) ، الاغاني (٩٧/٨) ، الخزانة (٥٢٦/١) ، الموشح (٦٧) ، ابن سلام ، طبقات (١١٠) ، المؤتلف (١٣٨) ، ديوانه ، (طبعة أحمد بن الامين الشنقيطي) ، (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ، بروكلمن (١٧٠/١) ، كارلو نالينو ، تاريخ آداب العرب (١١٠ وما بعدها) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٢٩) .

وضيفه ويمنّ عليهم بقراه ، وهو أرجز الناس على البديهة . وجعله (الجمحي) في الطبقة الثانية من شعراء الاسلام ، وقرنه بالنابغة الجعدي ، ولبيد ، وأبي ذؤيب الهذلي . وقال : انه كان شديد متون الشعر ، أشد كلاماً من لبيد[1] . وكان معاصراً للحطيئة . ويروى ان (الحطيئة) كان يعدّه أشعر بني غطفان[2] .

وأخوه (مزرد) ، واسمه (جزء بن ضرار) . وقيل يزيد وجزء أخوهما . وهو (مزرد بن ضرار بن سنان بن عمر بن جحاش بن بجالة الغطفاني) الثعلبي. يقال مزرد لقب له ، لقب به لقوله :

فقلت تزردها عبيد فإنني لزرد الشيوخ في الشباب مزرد

وكان يكنى (أبا ضرار) ، وقيل : (أبا الحسن) ، وهو أسن من الشماخ ، وكان هجاء حلف أن لا ينزل به ضيف إلا هجاه ، ولا سكب سنه ولا بيت بيته إلا هجاء ، ثم أدرك الاسلام فأسلم . قدم على رسول الله فأنشد له أبياتاً منها :

تعلم رسول الله لم أر مثلهم أحسن على الأدنى وأقرب للفضل
تعلم رسول الله أنا كأننــا أفأنا بأنمار ثعالب ذي غسل

وأنمار رهطه ، وكان يهجوهم .

وورد عن (عائشة) انها قالت : من صاحب هذه الأبيات : تعني التي في عمر لما مات :

جزى الله خيراً من أمير وباركت
يـد الله في ذاك الأديم الممـزق

قالوا : مزرد ، فسألت من مزرد ؟ فحلف بالله انـه لم يشهد الموسم تلك السنة ، ومنهم من نسب هذه الأبيات التي قبلها للشماخ[3] .

---

١ الخزانة (١/٥٢٦) ، (بولاق) .
٢ بروكلمن ، (١/١٧٠) .
٣ الاصابة (٣/٣٨٥) ، (٧٩٢١) .

ومعن بن أوس بن نصر بن زياد المزني ، شاعر مجيد فحل من المخضرمين . عمّر الى أيام ابن الزبير[1] ، وهو من شعراء مضر . ذكر (المرزباني) ، أنه كان رضيع (عبدالله بن الزبير) ، وكان مصاحباً له ، وكفّ في آخر عمره[2] .

و (سويد بن أبي كاهل) أو (سويد بن غطيف) وقيل اسمه : (غطيف ابن حارثة) اليشكري ، ويقال (الوائلي) ، ويقال (الغطفاني) ، ويكنى (أبا سعيد) ، هو شاعر مخضرم . وهو صاحب قصيدة مطلعها :

بسطت رابعة الحَبْلَ لنا فوصلنا الحَبْل منها ما اتسع

وهي قصيدة من أغلى الشعر وأنفسه في نظر علماء الشعر ، ذكر أن العرب كانت تفضلها وتقدّمها ، وتعدّها من حكمها،وكانت في الجاهلية تسميها (اليتيمة) لما اشتملت عليه من الأمثال . وللشاعر شعر كثير ، ولكن برزت هذه على شعره[3] .

ذكر أنه كان إذا غضب على قومه ، ادعى الى غطفان ، فقال رجل من (بني شيبان) :

من يشتّري مسجدي ذبيان إذا ظعنوا
الى فزارة أو من يشتّري الدارا

فأجابه سويد :

إن المساجد لا تباع وإنما باعت كحيلة بظرها البيطارا[4]

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٨٠٨) ، جعل « زيدان » وفاته سنة « ٢٩ هـ » ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٨٤) .

٢ الاغاني (١٠/١٦٤) ، الخزانة (٢/٢٥٨) ، المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٢٢) ، راجع معاهد التنصيص (٦٩٤) ، عيون الاخبار (٣/١٨) ، شرح الحماسة ، للمرزوقي (١١٢٦) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٢ وما بعدها) ، معن ابن أوس ، لمصطفى كمال ، القاهرة (١٩٢٧ م) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٤٠ ، حاشية ٢) ، الشعر والشعراء (١٢١٨ ، ١٨٤) ، (١/٣٣٤) « دار الثقافة » ، الخزانة (٢/٥٤٦) ، الاغاني (١١/١٧١) ، شعراء النصرانية (٤٢٥) ، طبقات ابن سلام (٣٥ ، ١٢٨) ، المزهر (٢/٤٨٧) ، الاصابة (٢/١١٧) ، (رقم ٣٧٢٠) .

٤ الاشتقاق (٢٠٥) .

وعدّ من المعمرين ، ذكر أنه عمّر في الإسلام ستين سنة بعد الهجرة[1] .

وقد وضعه (ابن سلام) مع الحارث بن حلزة ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم في الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية[2] .

و (الزبرقان بن بدر) شاعـــر تميم من الشعراء المخضرمين . وكان اسمه (الحصين) . ولما قدم وفـــد (تميم) الى المدينة في أشرافهم ، كان الزبرقان أحدهم ، ولما تفاخروا بأنفسهم وتباهوا بفعالهم ، قالوا للرسول : يا محمد ائذن لشاعرنا ، فقال : نعم ، فقام الزبرقان بن بدر ، فقال قصيدته التي مطلعها :

نحن الكرام فــلا حيٌّ يعادلنا   منّا الملوك وفينا تنصب البيع[3]

وذكر أن الرسول ولاّه صدقات قومه فأداهـــا في الردّة الى أبي بكر فأقره ، ثم الى عمر[4] .

وقد هجا (الحطيئةُ) الزبرقان بن بدر ، وكان سبب ذلك أن الحطيئة لقي الزبرقان بـ (قرقرى) ومعه ابناه أوس وسوادة وبناته وامرأته فعرفه الزبرقـــان وسأله أين تريد ؟ قال : العراق لأصادف من يكفيني عيـــالي وأصفيه مدحي ، فقال له : لقيته ، قال : من ؟ قال : أنا ، قال : من أنت ؟ قال الزبرقان ابن بدر . وكتب له كتاباً الى امرأته ، لتعطيه وتنفق عليه ، فبلغ ذلك : (بغيض ابن عامر) واخوته وبني عمه ، وكانوا يتازعون (الزبرقان) الرياسة ، فدسو الى (أم بدرة) امرأة الزبرقان أن الزبرقان يريد أن يتزوج بنت الحطيئة، ولذلك أمرك ان تكرميه ، فجفته أم بدرة ، فأرسل بغيض وأهله الى (الحطيئة) ان ائتنا فنحن أحسن لك جواراً من الزبرقان ، وأطمعوه ووعدوه ، فتحول اليهـــم ، فلما جاء (الزبرقان) بلغه الخبر فركب اليهم ، فقال لهم : ردوا علـيّ جاري ، فأبوا حتى كاد أن يكون بينهم حرب ، فحضرهم أهل الحي فاصطلحوا على أن يخيروه

---

١ الخزانة (٢/٥٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) .

٢ الطبقات (٣٥) ، رسالة الغفران (١٣٧) .

٣ الطبري (٣/١١٦) ، (دار المعارف) ، (قدوم وفـــد بني تميـــم ونزول سورة الحجرات) .

٤ الاصابة (١/٥٢٤ وما بعدها) ، (رقم ٢٧٨٢) .

فاختار بغيضاً ورهطه ، فجعل الحطيئة يمدحهم من غير أن يتعرض بالزبرقان ، فلم يزل كذلك حتى أرسل الزبرقان الى شاعر من (النمر بن قاسط) يقال له : (دثار بن شيبان) فهجا بغيضاً وآل بيته ، فلما سمع الحطيئة شعر دثار ، حمى لجيرانه ، فقال شعره في الزبرقان معرضاً به ، فاستعدى الزبرقان (عمر) عليه ، فحبس الحطيئة أياماً ، فقال وهو محبوس :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

وشفع له (عمرو بن العاص) فأطلقه[1] .

وقيس بن عاصم بن سنان المنقري ، من الصحابة ومن الشعراء الفرسان الشجعان . ومن الحلماء . قدم في وفد تميم على النبي ، فقال رسول الله : « هذا سيد أهل الوبر »[2] . وقد عاش بعد الرسول[3] .

و (عمرو بن سنان بن سُمي بن سنان بن خالد بن منقر) المنقري ، من (بني منقر) ، فهو من شعراء تميم . ويعرف بـ (عمرو بن الأهتم) ، سمي أبوه سنـان الأهتمَ ، لأن (قيس بن عاصم) المنقري ضربه بقوس فهتم فه . وكانت أم سنان سبيّـة من الحيرة ، يقال إنها سُبيت وهي حامل . قال قيس ابن عاصم :

نحن سبينا أمكم مُقربـاً يوم صبحنا الحيرَتين المنون
جاءت بكم غفرة من أرضها حيريـةٌ ليست كما تزعمون
لولا دفاعي كنتم أعبـدا منزلها الحـيرة والسيلحون

و (غفرة) هي أم سنان .

---

١ الاصابة (١/١٧٧) ، (رقم ٧٨١ في ترجمة بغيض بن عامر بن شماس) ، (رقم ١٩٩١) ، (في ترجمة الحطيئة) .
٢ الاصابة (٣/٢٤٢ وما بعدها) ، (رقم ٧١٩٦) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٨٧) .

وأخو (عمرو بن الأهتم) ، عبدالله بن الأهتم ، جدُّ خالد بن صفوان بن عبدالله بن الأهتم الخطيب . وآل الأهتم خطباء[1] ، وكلهم من البلغاء المشهورين[2].

وعمرو بن الأهتم ، ممن وفد على رسول الله ، وكان في الجاهلية يدعى (المُكَحَّل) لجماله ، وكان له ابن يقال له (نعيم بن عمرو) من أجمل الناس ، وفيه تأنيث ، وله يقول عبد الرحمن بن حسان :

قل للذي كادَ لولا خط لحيته
يكون أنثى عليها الدرّ والمسك
هل أنتَ إلا فتاة الحي إن أمِنُوا
يوماً ، وأنت اذا ما حاربوا دُعك[3]

ومن شعره قوله في حق الزبرقان بن بدر ، وكان يناقسه :

ظللت مفترشَ العلياء تشتمني
عند النبي فلم تصدق ولم تصب
إن تبغضونا فإن الروم أصلكم
والروم لا تملك البغضاء العرب
فإن سوددنا عود وسوددكم
مؤخر عند أصل العجب والذنب[4]

و (نافع بن الأسود بن قطبة بن مالك) التميمي ثم الأسيدي ، شاعر مخضرم يكنى (أبا نجيد) . وقد شهد فتوح العراق ، وأنشد له (سيف) في الفتوح

---

١ الشعر والشعراء (٥٢٨/٢) ، المرزباني ، معجم (٢١) .
٢ الاصابة (٥١٧/٢) ، (رقم ٥٧٧٢) .
٣ الاغاني (١٥٥/٤) ، (٨٣/١٤) ، المفضليات (رقم ٢٣) ، الميداني (٥/١) ، الامثال ، للعسكري (٥/١) .
٤ الاصابة (مفترش الهلباء) ، (٥١٨/٢) ، الاستيعاب (٥٣٠/٢) ، (حاشية على الاصابة) .

أشعاراً كثيرة ، يفتخـر فيها بقومه ، ويذكر فيها مشاهده في فتوح الشأم والعراق[1] .

ومن شعراء تميم المخضرمين : (متمم بن نويرة) اليربوعي ، صاحب المراثي المشهورة في أخيه (مالك بن نويرة) الذي قتله (خالد بن الوليد) لما سار لقتال أهل الردة ، وتزوج امرأته ، مما أدى الى غضب بعض الصحابة ومنهم (عمر) على (خالد) ، لأمور أخذوها في قتله عليه . ومن شعره المشهور في رثاء (مالك) قوله :

أبى الصبر آياتٌ أراهــا وانني	أرى كل حبل بعد حبلك أقطعا
واني متى ما ادعُ باسمك لا تجب	وكنتَ جديراً أن تجيب وتسمعا
وكنّا كندماني جذيمة حقبــة	من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلمّا تفرّقنا كأني ومالكــاً	لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معا
فإن تكـن الأيامُ فرقن بيننـا	فقد بان محموداً أخي يوم ودعا
أقول وقد طـار السنا في ربابه	وغيث يُسحّ الماءَ حتى تريعـا
سقى الله أرضاً حلّها قبر مالك	ذِهاب الغوادي المدجنات فأمرعا
وآثرَ سيلَ الواديـين بديمة	ترشح وسمياً من النبت خروعا[2]

وهي قصيدة مؤثرة تعد من المراثي الجيدة القوية ، تعبر عن قلب منفطر من شدة ما حلّ به من ألم . قيل ان (عمر) قال لمتمم لما دخل عليه أنشدني بعض ما قلتَ في أخيك فأنشده شعره المتقدم ، قال له (عمـر) : « يا متمم ، لو كنت أقول الشعر لسرّني أن أقول في زيد بن الخطّاب مثل ما قلت في أخيك، قال متمم : يا أمير المؤمنين ، لو قتل أخي قتلة أخيك ما قلتُ فيه شعراً أبداً، فقال عمر : يا متمم ما عزّاني أحدٌ في أخي بأحسن مما عزيتني به »[3] . وقـد ضربت الشعراء الأمثال به وبأخيه مالك في أشعارهم .

---

١ الاصابة (٣/٥٥٠) ، (٨٨٥٠) .

٢ المفضليات (٢/٣٢) .

٣ الشعر والشعراء (١/٢٥٥) ، ابن سلام ، طبقات (١٦٩ وما بعدها) ، الخزانة (١/٢٣٤) ، المرزباني ، معجم (٤٦١) .

ومما سبق اليه مالك ، وأخذه الناس منه قوله :

جزينـــا بني شيبان أمس بقرضهم
وعُدنا بمثل البدء ، والعود أحمـــد

فقال الناس : العود أحمد[1] .

« يروى ان عمر قال للحطيئة : هل رأيت أو سمعت بأبكى من هذا ؟ قال : لا والله ما بكى بكاء عربي قط ولا يبكيه »[2] . وكان عمر يستمع الى قوله في رثاء أخيه .

ومن شعره المشهور قوله :

وكل فتى في الناس بعد ابن أمه كساقطة احدى يديه من الخبل[3]

وكان (مالك بن نويرة) من الشعراء كذلك . وقد عرف بـ (فارس ذي الخمار) . وذو الخمار فرسه[4] . ولقب بـ (الجفول) . وهو من شعراء وفرسان (بني يربوع) المعدودين . وكان من أشرافهم ومن أرداف الملوك . استعمله النبي على صدقات قومه ، وبقي عليها الى وفاة الرسول ، فيقال انه لمّا بلغه خبر وفاته أمسك الصدقة وفرقها في قومه وقال في ذلك :

فقلت : خذوا أموالـكم غير خائف
ولا ناظر فـيما يجيء من الغد
فإن قام بالدين المحوق قائـم
أطعنـا وقلنا الدين دين محمـد

وقد قتل خالد بن الوليد ، مالكاً ، في قصة ترد في كتب الـردة والفتوح

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٥٦) .
٢ الاصابة (٣/٣٤٠) ، (رقم ٧٧١٩) .
٣ الاصابة (٣/٣٤٠) ، (رقم ٧٧١٩) .
٤ الشعر والشعراء (١/٢٥٤ وما بعدها) ، ابن حزم ، جمهرة (٢٢٤) ، ابن سلام ، طبقات (٤٨) ، الاغاني (١٥/٢٣٩) ، فوات الوفيات (٢/٢٩٥) .

والتأريخ ، وتزوج امرأته ، وكانت فائقة في الجمال ، مما حمل بعض الصحابة على مؤاخذته على هذا العمل ، ومنهم (عمر)[1] .

ومن المخضرمين (النجاشي) (قيس بن عمرو) الحارثي[2] ، وكان ممن لازم علياً وشهد معه (صفين) ، ومدحه . وقد بلغ (علياً) وهو بالكوفة انه كان سكران في شهر (رمضان) مع (أبي سماك) الأسدي ، فهرب (أبو سماك) ، وقبض على (النجاشي) فحدّه (علي) ثمانين سوطاً ، ثم زاده عشرين ، فقال له : ما هذه العلاوة ؟ فقال : لجرأتك على الله في شهر رمضان ، ثم وقفه للناس ليروه ، فهرب الى (معاوية) وهجا (علياً) على ما يقال ، وهجا أهل الكوفة . وكان هجّاء ، هجا (بني العجلان) ، فاستعدوا عليه (عمر) . فهدّد (عمر) النجاشي ، وقال له : إن عدت قطعت لسانك . وهجا قريشاً هجاء مراً . وهجا (عبد الرحمن بن حسان بن ثابت) ، ولما مات (الحسن بن علي) رثاه النجاشي ، وتوفي بعد ذلك بقليل .

وروي أنه هاجى (تميم بن مقبل) من (بني العجلان) ، وهو من شعراء الجاهلية ، الذين أدركوا الاسلام ، وعمر طويلاً . وكان يتهاجى مع (النجاشي) ، فاستعدى (تميم) (عمر) على النجاشي ، فسمع (عمر) ما قال فيه وفي بني قومه ، فلما وصل الى بيته :

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلل
وما سمي العجلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

قال عمر : أما هذا فلا أعذرك عليه فحبسه وضربه[3] . وكان (عمر) قد

---

١ الاصابة (٣/٣٣٦) ، (رقم ٧٦٩٧) ، ابن الاثير ، الكامل (٢/٢٣٧ وما بعدها) ، المحبر (١٢٦) ، المرزباني ، معجم (٢٦٠) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢٤٦ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٥١ وما بعدها) ، (رقم ٨٨٥٥) ، الخزانة (٤/٣٦٨) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٣ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٢٣٩) .

٣ الاصابة (١/١٨٩ وما بعدها) ، (رقم ٨٦٢) ، ابن سلام ، طبقات (٣٤) ، ديوان تميم بن مقبل (١١ مقدمة) .

حكم (حساناً) في هجاء (النجاشي) لتميم ، فلما حكم (حسان) بإقذاعه في هجائه له حبس (النجاشي) عليه . وقد جمع (أبو سعيد) السكري شعر (تميم بن مقبل)[1] ، وجمعه غيره من العلماء . وهو (تميم بن أبي بن مقبل) . وقد اشتهر بوصف القداح ، حتى جعل من أوصف العرب القدح ، ولذلك يقال: (قدح ابن مقبل)[2] .

ويعدّ (تميم بن مقبل) من عوران قيس ، وعددهم خمسة شعراء ، وهم : تميم بن مقبل ، وعمرو بن أحمر الباهلي ، والشماخ معقل بن ضرار ، وراعي الإبل عُبيد بن حصين النميري ، وحميد بن ثور الهلالي[3] . وهو من الجاهليين الذين أدركوا الاسلام ، فأسلم ، فهو من المخضرمين . وقد أدرك زمن معاوية ، وكان هواه مثل هوى قبيلته مع (معاوية) على (علي) . وكان عثمانياً له قصيدة في رثاء أهل الجاهلية ، وكان يتذكر الجاهلية ويترحم على أيامها ، ويحن اليها ، ويرى ان الزمان قد تغير ، وان الأرض قد تغيرت ، وتبدلت أخلاق الناس ، فصار يرى نفسه غريباً في مجتمع غريب عنه ، له مُثل تختلف عن مثل أهل الجاهلية ، فصار يحن الى أيام ما قبل الاسلام .

قيل لتميم بن مقبل : تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم : فقال :

وماليَ لا أبكي الديار وأهلها
وقد زارها زوّار عكٍّ وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب
فوقّع في أعطافنا ثم طيّرا

وفي هذه القصيدة المؤلفة من خمسين بيتاً ، والمنشورة في ديوانه ، والتي وردت بروايات مختلفة، حنين ظاهر إلى أيام الجاهلية ، وتوجع بيّن للتغير الذي حدث فاجتث ذكريات الأيام القديمة ، إذ باد أهلها ، وتنكر الناس لها ، وبرز من

---

١ ابن النديم ، الفهرست (١٢٣) .

٢ الشعر والشعراء (١/٣٦٦ وما بعدها) ، الاصابة (١/١٩٥) ، الخزانة (١/١١٣) طبقات ابن سلام (١٢٥) .

٣ رسالة الغفران (٢٣٧) ، الجمهرة (٢/٣٩٠) ، المعارف (٢٥٣) .

لم يكن معروفاً إذ ذاك من الناس . فهو يرى أن الجاهلية بأيامها وبمثلها وبرجالها وبقبائلها ، وبمروءتها ، أحسن حالاً من الأيام الجديدة التي أخذت مكانها، والتي أحلت الموالي ونكرات الناس محل السادة الأشراف[1] .

وكان قد تزوج (الدهماء) زوجة أبيه في الجاهلية ، على عادتهم في تزوج نساء الآباء ، وأحبها حباً شديداً ، فلما جاء الاسلام وحرم هذا الزواج ، اضطر إلى تطليقها ، وهو مكره ، فكان يقول :

هل عاشق نال من دهماء حاجته
في الجاهلية قبل الدين مرحوم[2]

ولعل هذا الطلاق ، كان في جملة العوامل التي جعلته يحن الى الجاهلية ويذكرها بخير .

ومما ينسب اليه قوله :

فاخلف وأتلف انما المال عارة
وكله مع الدهر الذي هو آكله
وأيسر مفقودٍ وأهون هالكٍ
على الحيّ من لا يبلغ الحي نائله

وقوله :

خليليّ لا تستعجلا وانظرا غداً
عسى أن يكون الرفق في الأمر أرشدا[3]

---

1 أولهـا :
تأمل خليلي هل ترى ضوء بارق — يمان ، مرته ريح نجد ففترا
وفيها يقول :
أجدى أرى هذا الزمان تغيرا — وبطن الركاء من موالى اقفرا
وكائن ترى من منهل باد أهله — وعيد على معروفه ، فتنكرا
ديوان تميم بن مقبل (ص ١٢٩ وما بعدها) ، (تحقيق الدكتور عزة حسن) .

2 ديوان ابن مقبل (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور عزة حسن) ، (دمشق ١٩٦٢) .

3 بلوغ الارب (١٤٣/٣) .

وكان (عبد الرحمن بن حسل) الجمحي من الشعراء المجائين . كان أبوه من أهل اليمن ، فسقط الى مكة ، فولد له بها : (كلدة) و (عبد الرحمن)، وكانا ملازمين لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، فنسبا الى (بني جمح) . وذكر أنهما كانا أخوي (صفوان) لأمه . وذكر أنه كان بعسكر (يزيد بن أبي سفيان)،وأنه كان من مسلمة الفتح . وقد هجا (عثمان) لما أعطى مروان خمسمائة ألف من خمس (إفريقية) فقال :

وأحلف بالله جهد اليمين ما ترك الله أمراً سدى
ولكن جعلت لنا فتنة لكي نبتلي بك أو تبتلى
دعوت الطريد فأدنيته خلافاً لما سنّه المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد خلافاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيمة آثرته وحميت الحمى
ومالاً أتاك به الأشعري من الفيء أعطيته من دنا
فإن الأمينين قد بيّنا منار الطريق عليه الهدى
فما أخذا درهماً غيلة ولا قسما درهماً في هوى[1]

فأمر (عثمان) به فحبس بخيبر . وقيل ان (علياً) كلم (عثمان) فيه فأطلقه وشهد الجمل مع علي ، ثم صفين فقتل بها . وذكر انه قال وهو في السجن :

الى الله أشكو لا الى الناس ما عدا
أبا حسن غلا شديداً أكابده
بخيبر في قعر الغموص كأنها
جوانب قبر أعمق اللحد لاحده
أإن قلت حقاً أو نشدت أمانة
قتلت فمن للحق إن مات ناشده[2]

---

١ تختلف هذه الابيات بعض الاختلاف عنها في كتاب الاصابة ، الاصابة (٣٨٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٥١٠٨) ، الاستيعاب (٤٠٦/٢ وما بعدها) ، وقد دعاه صاحب الاستيعاب « عبد الرحمن بن حنبل » .
٢ الاصابة (٣٨٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٥١٠٨) .

و (أنس بن أبي أناس بن زنيم) الكناني ، هو من الشعراء الذين كانوا قد هجوا الرسول فأهدر النبي دمه ، فبلغه ذلك ، فقدم عليه معتذراً ، وأنشده شعراً مدحه به . وكلمه فيه (نوفل بن معاوية) الديلي ، فعفا عنه ، قائلاً للرسول : « أنت أولى بالعفو ، ومن منا لم يؤذك ولم يعادك ، وكنا في الجاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع حتى هدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ؟ فقال : قد عفوت عنه . فقال : فداك أبي وأمي . وأول القصيدة يقول فيها :

فما حملت من ناقة فوق رحلها
أبـرّ وأوفى ذمة من محمـد

ويقول فيها :

ونبي رسول الله اني هجوتـه
فلا رفعت سوطي إليّ اذاً يدي
فإني لا عرضاً خرقت ولا دماً
هرقت فذكر عالم الحق واقصد »[1]

وقد ذكر (ابن قتيبة) ، ان (أبا أناس) ، والد (أنس) ، هو القائل في رسول الله :

فما حَمَلَت من ناقة فوق رحلها
أعف وأوفى ذمة من محمـد[2]

وقد قال (دعبل بن علي) في طبقـات الشعراء ، هذا أصدق بيت قالته العرب . وفي جملة ما جاء في هذه القصيدة التي تنسب الى أنس بن زنيم قوله:

ونبي رسول الله أني هجوتـه
فلا رفعت سوطي إليّ إذاً يدي
فإني لا عرضـاً خرقت ولا دماً
هرقت فذكر عالم الحق واقصد[3]

---

١ الاصابة (١/٨١ وما بعدها) ، (رقم ٢٦٧) .
٢ الشعر والشعراء (٦٢٣/٢) .
٣ الاصابة (١/٨٢) ، (٢٦٧) .

وذكر أن (عبيدالله بن زياد) كان يحرش بين الشعراء ، فأمر (حارثة) أن يهجو (أنس بن زنيم) ، فقال فيه أبياتاً ، منها قوله :

وخبرت عن أنس أنه   قليل الأمانة خوّانها

فأجابه أنس بأبيات أولها :

أتتني رسالة مستنكر   فكان جوابي غفرانها[1]

وأنس هو القائل لعبدالله بن الزبير ، حين تزوج مصعبُ عائشةَ بنت طلحة على ألف ألف درهم :

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالةً   من ناصحٍ لكَ لا يُريدُ خِداعا
بضع الفتاةِ بألفِ ألفِ كاملٍ   وتبيتُ سادات الجنود جياعـا
لَوْ لأبي حفص أقول مقالتي   وأقص شأن حديثـكم لارتاعا[2]

وكان (أسيد بن أبي اياس بن زنيم) الكناني ابن اخي (سارية) الكناني ، ممن هجوا الرسول أيضاً ، فأهدر النبي دمه ، فخرج الى (الطائف) وأقام بها ، مثل غيره ممن هجوا الرسول فخافوا على أنفسهم ، فلجأوا الى ثقيف . فلما كان عام الفتح ، خرج مع (سارية بن زنيم) ، وقدم على الرسول فأسلم . ومدحه بشعر . وذكر انه كان قد رثى قتلى بدر ، فأهدر النبي دمـه . وروي انه قال في علي بن أبي طالب وفي مخاطبة قريش :

في كل مجمع غاية أخزاكم   صدع يفوق على المذاكي القرح
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم   ذبحاً وقتلاً بعضه لم يرتح
لله دركم ألمـا تذكروا   قد يذكر الحر الكريم ويستحي[3]

وورد في رواية انه كان قد أسلم وأدرك (أحـداً) . وتشابه قصته في هدر

---

١ الاصابة (١/٨٢) ، (رقم ٢٦٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٢٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/٦٢) ، (رقم ١٧٥) .

النبي دمه وفي هجائه للرسول قصة (أنس بن زنيم) الكناني ، المتقدم ، وهو ابن أخي (أسيد) على رواية (الإصابة)[1] .

وروي أن (سارية بن زنيم) الكناني ، كان ممن هجا الرسول كذلك ، فبلغ ذلك الرسول ، فتوعده . فجاء اليه معتذراً فأنشد :

تعلم رسول الله أنك قادر على كل حي من تهام ومنجد
تعلم رسول الله انك مدركي وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعلم بأن الركب إلا عويمراً هم الكاذبون المخلفو كل موعد
ونبي رسول الله أني هجوته فلا رفعت سوطي إلي اذاً يدي[2]

وتليها أبيات أخرى ، نسبت كلها الى (انس بن زنيم) . ويظهر أن التباساً قد وقع عند الرواة ، فخلطوا بين الثلاثة من (آل زنيم) .

وقد ذكر أن (سارية) هذا كان خليعاً في الجاهلية ، لصاً كثير الغارة ، وأنه كان يسبق الفرس عدواً على رجليه ، ثم أسلم . وأرسله (عمر) فيمن أرسله من المسلمين لفتح فارس[3] .

وكان (بشير بن أبيرق) (بشر بن أبيرق) الشاعر يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي ، وينحله بعض العرب[4] .

وجعل (ابن سلام) : (أمية بن حرثان بن الأشكر) (أمية بن الأسكر) و (حريث بن محفض) ، و (الكميت بن معرور بن الكميت) الأسدي ، و (عمرو بن شأس) الأسدي ، طبقة واحدة ، هي الطبقة العاشرة من طبقاته. وكلهم ممن عاش في الجاهلية والإسلام[5] ، وكان (أمية بن الأسكر) الكناني من سادات قومه وفرسانهم ، وله أيام ، وابنه (كلاب بن أمية) ، أدرك النبي

---

١ الاصابة (٦٢/١ ، ٨١) .
٢ الاصابة (٨١/١) ، (٢/٢) ، (رقم ٣٠٣٤) .
٣ الاصابة (٣/٢) .
٤ الاشتقاق (٢٦٤) ، تاج العروس (١٢٩/٨) ، (نحل) .
٥ (ص ٤٤ وما بعدها) .

فأسلم مع أبيه . وقد سكن (كلاب) البصرة[1] . وروى لأمية شعراً في حروب الفجار[2] .

و (حريث بن محفض) (حريث بن محفص) ، المازني من بني تميم ، من (خزاعي بن مازن) . وهو مخضرم له في الجاهلية أشعار ، وتمثل الحجاجُ بأبيات من شعره ، مثلاً لأهل الشأم في طاعتهم وبأسهم ، وهي قوله :

ألم ترَ قومي إن دعوا لِمُلمّةٍ
أجابوا وإنْ أغضب على القومِ يغضبوا
بني الحربِ لم تقعد بهم أمهاتهم
وآباؤهم آبـاء صِدقٍ فأنجبـوا
فإن يك طعن بالرُّدينيِ يطعنوا
وإن يك ضرب بالمناصل يضربوا[3]

و (عمرو بن شأس) الأسدي ، المكنى بـ (أبي عرار) ، شاعر كثير الشعر مقدم ، شهد القادسية[4] ، ومنهم المستوغر ، واسمه (عمرو بن ربيعة) ، ويكنى (أبا بهنس) ، وهو من تميم ، زعم انه عاش ثلاثين وثلاثمائة سنة ، وأدرك أيام معاوية[5] . وذكر ان (عمرو بن شاس) عاش حتى أدرك أيام عبد الملك بن مروان[6] .

ومن الشعراء المخضرمين (المنذر بن رومانس) الكلبي ، وهو أخو النعمان بن المنذر لأمه ، وأمها (رومانس) . وله شعر قاله بعد فتح الحيرة ، يتذكر فيه أيام الحيرة الأولى ، وكيف كانوا يحكمون العراق ونجداً[7] :

---

١ الخزانة (٢/٥٠٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ الاصابة (١/٧٨) ، (رقم ٢٥٣) .
٣ الشعر والشعراء (٢/٥٦١) ، الاصابة (١/٣٧٥) ، (رقم ١٩٧٢) .
٤ المرزباني ، معجم (٢٢ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (١٦٤) ، الاغاني (١٠/٦٠) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٣) .
٦ الشعر والشعراء (١/٣٣٨ وما بعدها) .
٧ المرزباني ، معجم (٢٦٩) .

ومن المخضرمين (أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيـــل) ، وهو أحد الصحابة الذين أسلموا قديماً ، وفي بيته أسلم (عمر) ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ، توفي سنة (٥٠) ، وقد أورد الجاحظ له شعراً ، وهو شعر نسب أيضاً لوالده ، وتروى كذلك لنبيه بن الحجاج[١] .

و (سالم بن دارة من الشعراء المخضرمين) وهو (سالم بن مسافع «مسافح» ابن عقبة بن يربوع بن كعب بن عدي) من (غطفان) . وكان رجلاً هجاء وبسببه قتل . قتله (زميل بن أبير) (زميل بن عبد مناف) ، (زميل بن أبرد) ، (زميـــل بن وبير) من بني فزارة وكان (سالم) قد أمعن في هجاء فزارة ، وألح عليها في الهجاء ، فقال في جملة ما قاله :

حَدَبْدَبا بَدَبْدَبا منك الآن استمعوا أنشدكم يا ولـــدان
إنّ بني فزارة بن ذبيـــان قـــد طرّقت ناقتهم بإنسان
مُشَيّإٍ أعجب بخلق الرحمن غلبتم الناس بأكل الجُرذان
كلّ متـلّ كالعمود جوْفان وسرق الجار ونيك البعران

الى غير ذلك من شعر مقذع ، فلما أمعن في الهجاء ، تعقبه (زميل بن أبير) (زميل بن أم دينـــار) الفزاري ، فلحق به وضربه بالسيف ضربة جرحته ، وكان قد خرج من المدينة ، فعاد اليها ، يتداوى ، فدفعه (عثمان) الى طبيب نصراني ، ويقـــال إن (أم البنين) (بسرة بنت عيينة بن حصن) الفزاري ، وكانت عند (عثمان) ، جعلت للطبيب جعلاً حتى سمّه فمات[٢] .

ومن شعره في هجاء فزارة قوله :

لا تأمنن فزاريـّاً خلوت بـــه
عـــلى قلوصك واكتبهـــا بأسيار

وله شعر يخاطب به (عيينة بن حصن) الفزاري ، وكان قد ارتد في خلافة

---

١ البيان والتبيين (١/٢٣٥) ، الخزانة (٣/٩٩) ، عيون الاخبار (١/٢٤٢) .
٢ الخزانة (٢/١٤٤ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، نوادر المخطوطات (٢/١٠١ ، ١٥٦ وما بعدها) ، الحيوان (١/٢٦٧) .

(أبي بكر) ثم عاد الى الاسلام ، وقال لأبي بكر : قصتي وقصة الأشعث ابن قيس الكندي واحدة ، فما بالكم أكرمتموه وزوجتموه ، ولم تفعلوا ذلك بي، فأجاب سالم عن ذلك بقوله :

يا عيينة بن حصن آل عدي أنت من قومك الصميم صميم
لست كالأشعث المعصب بالتا ج غلاماً قد ساد وهو فطيم
جدّه آكل المرار وقيس خطبه في الملوك خطب عظيم
إن تكونا أتيتما خطب العذ ر سواكما تقـد الأديم
فله هيبـة الملوك وللأشعث إن حان حادث قديم
إن للأشعث بن قيس بن معدي كرب عـزة وأنت بهيم[1]

وأتى (سالم بن دارة) عدي بن حاتم ، فمدحه ، فشاطره (عدي) ماله[2] .

والأغلب بن عمرو بن عبيدة بن حارثة بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد ابن عجل بن لجيم بن الصعب بن علي بن بكر بن وائل ، من الشعراء المخضرمين، ويعد من أرجـز الرُجّاز ، وأرصنهم كلاماً وأصحهم معاني . وهو أول من أطال الرجز ، وكان الرجل قبله يقول البيت والبيتين إذا فاخر أو شاتم . وذكر أنه استشهد بنهاوند[3] . وله ديوان[4] . وقيل ان الخليفة (عمر) كتب الى (المغيرة ابن شعبة) وهو على الكوفة ، أن استنشد من قبلك من الشعراء عمـا قالوه في الاسلام ، فكتب الى لبيد ، فكتب لبيد اليه سورة البقرة في صحيفة ، وقال : قد أبدلني الله بهذه في الاسلام مكان الشعر ، وجاء (الأغلب) الى المغـيرة ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هيناً موجودا

فكتب بذلك الى (عمر) ، فكتب اليه أن انقص من عطـاء الأغلب خمسمائة

---

١ الاصابة (٢/١٠٧) ، (٢٦٥٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٣١٥ وما بعدها) .
٣ « الاغلب بن جشم بن عمرو بن عبيدة » ، الاصابـة (١/٧١) ، (رقم ٢٢٥) ، الخزانة (٢/٢٣٩) ، المؤتلف (٢٢) ، الاغاني (١٨/١٦٤) .
٤ الخزانة (٢/٢٥٨) ، (بولاق) .

فزدها في عطاء لبيد ، وله قوله :

المرء توّاق الى ما لم ينل   والموت يتلوه ويلهيه الأمل

وأنشد له (أبو الفرج) أرجوزة يهجو فيها سجاح التي ادعت النبوة وتزوجت بمسيلمة الكذّاب[1] .

وكان (هريم بن جواس) التميمي، يهاجي (الأغلب) ، وهو من المخضرمين، وافقه بسوق عكاظ ، فقال له :

قبحت من سالفة ومن قفا   عبد إذا ما رسب القوم طفا
فما صفا عدوّكم ولا صفا   كما شرار البقل أطراف السفا

فقال له : من أنت ويلك ؟ قال :

أنا غلام من بني مقاعس   الضاربين فلك الفوارس[2]

ومن الشعراء المخضرمين : (عقيبة بن هُبيرة) الأسدي . وكان جريئاً ، وفد على معاوية بن أبي سفيان ، فدفع اليه رقعة فيها :

فهبنا أمة ذهبت ضياعاً   يزيد أميرها وأبو يزيد
أكلتم أرضنا فجردتموها   فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع في الخلود اذا هلكنا   وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا خون الخلافة، واستقيموا   وتأمير الأراذل والعبيد
وأعطونا السويّة لا تزركم   جنود مردفات بالجنود

فقال له معاوية : ما جرّأك عليّ ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك ! فقال : ما أظنك إلا صادقاً ! فقضى حوائجه[3] .

ومنهم (حضرمي بن عامر بن مجمع بن موألة «مَوَلَة») من بني أسد ،

---

١ الاصابة (١/٧١) ، (رقم ٢٢٥) .
٢ الاصابة (٣/٥٨٤) ، رقم (٩٠٤٩) .
٣ الخزانة (٢/٢٦٠ وما بعدها) ، (هارون) ، (١/٣٤٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

وهو شاعر فارس سيد ، له في كتاب (بني أسد) أشعار وأخبار . وقدم مع وفد (بني أسد) ، وفيهم ضرار بن الأزور ، وسلمة بن حبيش ، وقتادة بن القائف ، وأبو مكعب ، وكتب لهم الرسول كتاباً . فتعلم (حضرمي) سورة (عبس وتولى) ، فزاد فيها : « وهو الذي أنعم على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى » ، فقال له النبي : « لا تـزد فيهـا » . وورد ان السورة هي سورة : سبح اسم ربك الأعلى . وكان يكنى : (أبا كدام) ، وله شعر في حرب الأعاجم ، أنشد بعضه (عمر بن الخطاب) ، وقد نقل عنه (سيف بن عمر) في الفتوح بعض أخبار مسيلمة والردة[1] .

ومن المخضرمين (حنيف بن عمير) اليشكري ، قاتل (محكم بن الطفيل) يوم اليمامة . وله شعر في قتله[2] .

ومن المخضرمين : (ربيعة بن مقروم بن قيس) ، وكان ممن أصفق عليه (كسرى) ، ثم عاش في الإسلام زماناً . شهد القادسية وجلولاء ، وهـو من شعراء (مضر) المعدودين[3] .

ومن الشعراء المخضرمين : (أبو بكر بن الأسود بن شعوب) الليثي ، وهو (شداد بن الأسود)[4] . وقيل اسمه : (عمرو بن سُمي بن كعب بن عبد شمس) الكناني ، وأمه (شعوب) من بني خزاعة ، وله شعر كثير قاله وهو كافر ، ثم أسلم بعد . ومن شعره ، قصيدة في رثاء قتلى المشركين ببدر ، يقول فيها :

فماذا بالقليب قليب بـدر ... من القينات والشرب الكرام

الى أن يقول :

يخبرنا الرسول لسوف نحيـا ... وكيف حياة أصداء وهام[5]

---

١ الاصابة (١/٣٤٠) ، (رقم ١٧٥٩) ، الخزانة (٢/٥٦) ، (بولاق) .
٢ الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١٦) ، الخزانة (٢/٥٤٤ وما بعدها) .
٣ الخزانة (٣/٥٦٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ ابن هشام (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض الانف) .
٥ هناك اختلاف في رواية أبيات هذه القصيدة وفي الفاظهـا ، ابـن هشام ، سيرة (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض الانف) ، نوادر المخطوطات ، كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (المجموعة الاولى) (ص ٨٣ وما بعدها) .

ومن المخضرمين : (قطبة بن الزبعرى) ، وهي أمه . وهو (قطبة بن زيد ابن سعد بن امرىء القيس بن ثعلبة) من بني القين بن جسر . وكان سيد قضاعة في الجاهلية وأول الاسلام . وله مفتخراً :

حميتُ القوم قد علمت معدٌ ومن للقوم من مولى وجار
حبوت بها قضاعة إن مثلي حقيق أن يذب عن الذمار
ولست كمن يُغمز جانباه كغمز التين تجنيه الجواري[1]

ومن المخضرمين (عبدة بن الطبيب)[2] ، (عبدة بن الطيب)[3] ، وهو من (بني عبشمس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) . ومن جيد شعره في رثاء قيس بن عاصم ، قوله :

عليك سلام الله قيسَ بن عاصمٍ
ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من ألبسته منك نعمة
اذا زار عن شحط بلادك سلما
فلم يك قيس هلكه هلك واحدٍ
ولكنه بنيان قوم تهدما[4]

وقوله :

والمرءُ ساع لأمر ليس يدركه
والعيش شح واشفاق وتأميل[5]

وقد أعجب (عمر) بهذه القصيدة الطويلة التي على اللام[6] .

---

١ من نسب الى أمه (٨٦) ، نوادر المخطوطات ، (المجموعة الاولى) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦١٣) ، البيان والتبيين (١/١٢٢) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٤٣) .
٤ الشعر والشعراء (٢/٦١٤) ، وتختلف هذه الابيات عما ورد في الاصابة (٣/١٠٠) ، (رقم ٦٣٩٢) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٤٣) .
٦ البيان والتبيين (١/٢٤٠) .

« واسم الطيب : يزيد بن عمرو بن علي بن أنس بن عبدالله بن عبد تميم بن جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم) . وهو من مشاهير الشعراء، وقد ساهم في فتوح العراق ، وهو القائل في قتال الفرس :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنتَ عنها بعيد الدار مشغول

ثم يقول :

يقارعون رؤوس الفرس ضاحية   منهم فوارس لا عزل ولا ميل

وكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : قول عبدة :

وما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قـوم تهدمـا

أرثى بيت قيل :

ومن شعره قوله :

ولقد علمت بأن قصري حفرة   غبراء يحملن اليهـا شرجع
فبكت بناتي شجوهن وزوجتي   والأقربون إليّ ثم تصـدعوا
وتركت في غبراء يكره وردها   تسفى عليّ الريح حين أودع[1]

وقوله :

لمّا نزلنا نصبنا ظـلّ أخبية   وفار للقوم باللّحم المراجيلُ
ورْداً وأشقر لم ينهئه طـابخهُ   ما غيّر الغلي منه فهو مأكول
ثمّتَ قمنا الى جُرْدٍ مسومـة   أعرافهن لأيدينا متـاديل[2]

ومن المخضرمين (عدي بن عمرو بن سويد بن زبان) الطـائي ، المعروف بالأعرج . وهو القائل :

---

١ الاصابة (٣/١٠٠ وما بعدها) ، (رقم ٦٣٩٢) .

٢ ثمار القلوب (٢١٩) .

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى[1]

ومن الشعراء المعمرين : (أبو الطمحان) القيني ، واسمه حنظلة بن الشرقي من بني كنانة بن القين . زعم أنه عاش مائتي سنة ، فقال في ذلك :

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني — ولست مقيداً — أني بقيد
تقارب خطو رجلك يا سويد وقيدك الزمان بشر قيد[2]

ونسب اليه قوله :

إن الزمان ولا تفنى عجائبه فيه تقطع ألاّف وأقران
أمست بنو القين أفراقاً موزعة كأنهم من بقايا حي لقمان[3]

وقد اختلف فيه ، فزعم بعض أنه جاهلي لم يدرك الإسلام ، وزعم بعض آخر أنه أدركه . وانه قال شعراً يتبرأ فيه من الذنوب كالزنا وشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، والسرقة ، وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ، ونسب له قوله :

واني من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم ميت قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوي اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه[4]

---

١ الاصابة (٣/١٠٤ وما بعدها) ، (رقم ٦٤١٧) ، المرزباني ، معجم (٢٥١) ، البيان والتبيين (١/٢٤٦) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٥٧) .
٣ البيان والتبيين (١/١٨٧) ، (٣/٢٣٥) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٥٧) ، الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١١) ، الخزانة (٣/٤٢٦) ، المعمرون (٥٧) ، المؤتلف (١٤٩) .

ومن المعمرين الشعراء : (الربيع بن ضبع) الفزاري ، زعم انه أدرك أيام (عبد الملك بن مروان) وانه دخل عليه فقال له : « يا ربيع ، أخبرني عما أدركت من العمر والمدى ورأيت من الخطوب الماضية ، قال : أنا الذي أقول :

هأنذا آمل الخلود وقد أدرك عقلي ومولدي حجرا

فقال عبد الملك : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبي ، قال : وأنا القائل :

اذا عاش الفتى مائتين عاماً فقد ذهبَ اللذاذةُ والفتاء

قال : قد رويت هذا من شعرك ، وأنا غلام ، وأبيك يا ربيع ، لقد طلبك جد غير عاثر ، ففصل لي عمرك ، قال : عشتُ مائتي سنة في فترة عيسى عليه السلام ، وعشرين ومائة في الجاهلية وستين سنة في الاسلام » . وأخذ عبد الملك يسأله ، وهو يجيب . وقد علّق (المرتضى) على هذا الخبر بقوله : « ان كان هذا الخبر صحيحاً فيشبه أن يكون سؤال عبد الملك له انما كان في أيام معاوية ، لا في أيام ولايته ، لأن الربيع يقول في الخبر : عشت في الاسلام ستين سنة . وعبد الملك ولي في سنة خمس وستين من الهجرة ، فإن كان صحيحاً فلا بد مما ذكرنا ، فقد روي ان الربيع أدرك أيام معاوية »[1] .

وزعم انه قال شعراً لما بلغ مائتي سنة ، وشعراً آخر لما بلغ مائتين وأربعين[2] . وهو مثل شعر المعمرين في العمر وفي ذهاب الشباب ، وتقدم السن ، وفي عدم تحمّل السنين والشيخوخة ، وغير ذلك من الأعراض التي تلازم الشيوخ .

ومن شعراء بني تميم : (حارثة بن بدر بن حصين بن قطن بن غدانة) الغداني من (بني يربوع) ، كان من فرسان (بني تميم) ووجوهها وسادتها ، وكان يعارض الشعراء نظراءه في الشعر ، ولم يكن معدوداً في فحول الشعراء[3] .

---

١ أمالي المرتضى (٢٥٣/١ وما بعدها) ، الخزانة (٣٠٦/٣) .

٢ أمالي المرتضى (٢٥٤/١ وما بعدها) ، المعمرون (٦ وما بعدها) ، ذيل الامالي (٢١٤) ، الخزانة (٣٠٦/٣) ، شرح أدب الكاتب ، للجواليقي (٢٦٦) .

٣ أمالي المرتضى (٣٨٠/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٣/٢١ وما بعدها) ، الاصابة (٣٧٠/١) ، (رقم ١٩٣٧) .

وقد نسبوا له قوله :

لعمرك ما أبقى لي الدهر من أخٍ حفيٍّ ولا ذي خُلّة لي أواصله
ولا من خليل ليس فيه غوائل فشرّ الأخلاء الكثير غوائله
وقل لفؤادٍ إنّ نزا بك نزوة من الروع أفرخ،أكثر الروع باطله

وروى الشريف (المرتضى) أشعاراً أخرى ، أكثرها في المنايا ، وفي الصدق والاخلاص ، والنصح ، وتجنب أمكنة السوء ، وفي تجاوز الأقرباء على حقوق القريب وفي الوقوع في الفقر حيث يقول :

وإذا افتقرتَ فلا تكن متخشعاً ترجو الفواضلَ عند غير المفضل
واستغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تكون خصاصة فتجمل[1]

وقد كان في أيام (زياد بن أبيه) ، وكان مستهتراً بالشراب[2] . وله شعر عاتب به (عبيدالله بن زياد) لما تغير عليه بعد اختصاصه بأبيه[3] .

ومما استحسن من شعره قوله :

يا كعبُ ما راح من قوم ولا ابتكروا إلا وللموت في آثارهم حادي
يا كعبُ ما طلعت شمس ولا غربت إلا تقربُ آجالاً لميعاد[4]

وكانت لخفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفي ، وفادة على النبي ، وفد عليه فقال :

إني أتاني في المنام مخبر من جنّ وجرة في الأمور موات
يدعو اليك لياليا وليااليا ثم احزأل وقال لست بآت
فركبت ناجية أضر بمتنها جمر تحت به على الأكمات
حتى وردت الى المدينة جاهداً كيما أراك فتفرج الكربات

---

١ أمالي المرتضى (١/٣٨٣) .
٢ أمالي المرتضى (١/٣٨٤) .
٣ أمالي المرتضى (١/٣٨٦) .
٤ أمالي المرتضى (٢/٢٢٨) .

ويروى ان النبي استحسنها ، وقال : ان من البيان لسحراً وان من الشعــر كالحكم[1] .

و (بشر بن قطبة بن سنان) الفقعسي ، من الشعراء الفرسان ، شهد اليمامة مع (خالد بن الوليد) ، وقال في ذلك :

أروح وأغدو في كتيبة خالد ... على شطبة قد ضمها الغزو خيفق

ومنها :

اذا قال سيف الله كرّوا عليهم ... كررنا ولم نجعل وصاة المعوق

أقول لنفسي بعدما رقّ بالها ... رويدك لما تشفقي حين تشفقي

وكوني مع الراعي وصاة محمد ... وإن كذبت نفس المنافق فاصدق[2]

ومن شعراء (بني أشجع) : (بقيلة) الأشجعي ، وكان سيداً كبيراً شاعراً. ومن شعره :

إلبس قريبك إن أطماره خلقت ... ولا جديد لمن لا يلبس الخلقا

فإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال اذا أنشدته صدقا

وانما الشعر لبّ المرء يعرضه ... على المجالس إن كيساً وان حمقا[3]

وكان (امرؤ القيس بن عـــابس بن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن معاوية الأكرمين) الكندي،من الشعراء ، وكان ممن حضر حصار حصن (النجير) ، فلما أخرج المرتدون ليقتلوا ، وثب على عمه ليقتله ، فقال له عمه : ويحك أتقتلني وأنا عمك ؟ قال : أنت عمّي والله ربي ، فقتله . وكان ممن ثبت على الاسلام ، وأنكر على الأشعث ارتداده . وقد كتب الى (أبي بكر) في الردة :

ألا ابلغ أبا بكر رسولاً ... وبلغهـــا جميع المسلمينـا

فليس مجاوراً بيتي بيوتاً ... بما قال النبي مكذبينـــا[4]

---

١ الاصابة (٤٤٨/١) ، (رقم ٢٢٧٤) .
٢ الاصابة (١٧٦/١) ، (رقم ٧٧٥) .
٣ الاصابة (١٦٦/١) ، (رقم ٧٢١) .
٤ الاصابة (٧٧/١ وما بعدها) ، (رقم ٢٥٠) ، أسد الغابة (١١٥/١) ، الاستيعاب (٩٤/١ وما بعدها) . (حاشية على الاصابة) .

ومن شعره :

قف بالديار وقوف حابس ... وتأنَّ إنك غيرُ آيس
ماذا عليك من الوقو ... ف بهامد الطَّللين دارس
لعبت بهن العاصفا ... ت الرائحات من الروامس

وقد أخذه الكميت كله غير القافية فقال :

قف بالديار وقوف زائر ... وتأيَّ إنك غير صاغر [1]

ومن الشعر المنسوب اليه ، المعروف بخفة رويه ، قوله :

يا تَمْلِكُ يا تملي ... صليني وذري عذلي
ذريني وسلاحي ثم ... شدي الكف بالغزل
ونبلي وفقاها ... كعراقيب قطا طُحل
ومني نظرةٌ بعدي ... ومني نظرةٌ قبلي
وثوباي جديدان ... وأرخي شرك النعلِ
وإما متُّ يا تملي ... فكوني حرة مثلي

وتروى هذه الأبيات للفند الزماني [2] .

وشداد بن عارض الجشمي من الشعراء المشهورين ، ذكره (ابن اسحاق) في المغازي ، ولما سار رسول الله الى الطائف ، قال في ذلك :

لا تنصروا اللاتَ إن اللهَ مهلكها ... وكيف ينصر من هو ليس ينتصر
إن الرسول متى ينزل بلادكم ... يظعن وليس بها من أهلها بشر [3]

و (هوذة بن الحرث بن عجرة بن عبدالله بن يقظة) السلمي المعروف بـ (ابن الحمامة) ، وهي أمه ، من الشعراء المخضرمين ، قال لعمر بن الخطاب لما قدم أناساً عليه في العطاء :

---

1 الشعر والشعراء (٢/٤٨٦) ، تهذيب ابن عساكر (٣/١١٣) .
2 الشعر والشعراء (١/٢٩) ، السمط (٥٠٤) .
3 الاصابة (٢/١٣٩) ، (رقم ٣٨٥٢) .

لقد دار هذا الأمر في غير أهله   فأبصر أمين الله كيف تريد
أيدعى خثيم والشريد أمامنـــا   ويدعى ربـــاح قبلنا وطرود
فإن كان هذا في الكتاب فهم اذاً   ملوك بني حرّ ونحن عبيد[1]

ولمالك بن عامر بن هانيء بن خفافٌ الأشعري ، قصيدة طويلة يشرح فيها أحواله ، مذ كان في الجاهلية الى دخوله في الاسلام ، ومجيئه النبي ، ثم اشتراكه في الفتوح كالقادسية ، ثم مساهمته في حرب صفين مع (علي) . وقد ختمها بقوله :

كأن الفتى لم يعش ليلة   اذا صار رمساً على صور
وطول بقاء الفتى فتنة   فأطول لعمرك أو أقصر

وقيل انه أول من عبر دجلة يوم المدائن ، وله في ذلك قصيدة رجز[2] .

ولقصيدة (مالك) الطويلة أهمية خاصة بالنسبة لدارسي الأدب العربي ، لأنها تتناول ترجمة حياة الشاعر ، وتسجل سيرته بشعر ، وهو نموذج لم يتطرق اليه شعراء العربية بكثرة .

و (مالك بن عمير) السلمي من الشعراء المعروفين ، ذكر انه جاء الى النبي فقال : « يا رسول الله إني امرؤ شاعر ، فافتني في الشعر ؟ فقال : لأن يمتلىء ما بين لبتك الى عاقتك قيحـــاً خير لك من أن تمتلىء شعراً » ويذكر الخبر أنه قال للرسول : « فامسح عني الخطيئة » ، فمسح الرسول يده على رأسه ثم أمرها على كبده ثم على بطنه ، وترك بعد ذلك الشعر[3] .

ومن المخضرمين (شبيل بن ورقاء) (شبيل بن وفاء) من زيد بن كليب ابن يربوع ، وكان شاعراً مذكوراً جاهلياً ، فأدرك الإسلام وأسلم إسلام سوء . وكان لا يصوم رمضان ، فقالت له بنته : ألا تصوم ؟ فقال :

تأمرني بالصوم لا درّ درها   وفي القبر صومٌ يا نبال طويل[4]

---

١ الاصابة (٣/٥٨٥) ، (رقم ٩٠٥٩) .
٢ الاصابة (٣/٣٢٦) ، (رقم ٧٦٤٢) .
٣ الاصابة (٣/٣٣١) ، (رقم ٧٦٧٢) .
٤ « لا أباك » ، الشعر والشعراء (١/٦٣٣) ، الاشتقاق (١٤٢) .

و (أنس بن مدرك بن كعب بن عمرو بن سعـد بن عوف) الخثعمي ثم الأكلبي ، والمعروف بـ (أبي سفيان) هو من الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الاسلام . وكان شاعراً وقد رأس ؛ إذ كان سيد خثعم في الجاهليـة ، كما كان فارسها . وذكر أنه قتل (السليك بن سلكة) الشاعر المعروف، وكان قد اعتدى على امرأة من خثعم ، فلحقه وقتله ، فطالب (عبد ملك بن مويلك) الخثعمي بدية (السليك) ، وكان (السليك) يعطيه إتاوة من غنيمته عـلى الحيرة ، فأبى (أنس) أن يديه لفجوره ، كما كانت له أخبار مع (دريد بن الصمة) في الجاهلية . وقد عاش طويلاً فزعموا أنه عاش مائة وأربعاً وخمسين سنة[1] .

وكان (سواد بن قارب) الدوسي من الشعراء ، وكان يتكهن في الجاهلية ثم أسلم . ورووا له أبياتاً فيها إشارة الى (الرئي) والجن[2] .

---

١ الاصابة (١/٨٥) ، (رقم ٢٨٠) .
٢ الاستيعاب (٢/١٢٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

الفهرست